

مجموع كلام الإمام الحداد

الذي جمعه تلميذه ومريده

الشيخ العلامة أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي

مع تعليقاته عليه، وسماه

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

رحمه الله تعالى

المجلد الأول

تنبيهٌ

هُناكَ أربعُ مجموعاتٍ استُخلِصَت مِن هَذا المَجمُوعِ وَطُبِعَت مُستَقِلَّة لِتعميمِ الفائِدةِ ، وهيَ :

أولاً : كِتابُ تثبيتِ الفُؤاد الذي استَخلَصَهُ الإمامُ العلَّامةُ الحبيبُ أحمد بن حَسَن الحدَّاد مِن هَـٰذَا المجموعِ وَسمَّاهُ بهـٰذا الاسم

ثانياً : كِتابُ مَجالِسِ الإمام الحدَّادِ الذِي لَخَّصَهُ الشَّيخُ العلَّامةُ أبُو بكر بن محمَّد بن عُمر المُلَّا الأحسائي

ثالثاً : كِتابُ تَعليقَات الإمام الحدَّادِ علىٰ رَسائِلِهِ الثَّلاث المُرِيد والمُذاكَرة والمُعاونَة

رابعاً : كِتابُ تَوضِحَات الإمام الحدَّاد لِبعضِ مَعَاني أحادِيثِ خَيرِ العِبَاد

وَسَوفَ يَجِدُها القَارِئ ضمنَ هَـٰذَا المجمُوعِ في أماكِنَ مُتفَرِّقَة مِنهُ

واللهُ مِن وراءِ القَصد

يُطبع لأوّل مرّة

دار الحاوي

مَجْمُوعُ كَلَامِ الإِمَامِ الحَدَّادِ

الَّذِي جَمَعَهُ تِلْمِيذُهُ وَمُرِيدُهُ

الشَّيْخُ العَلَّامَةُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الكَرِيمِ الشَّجَّارُ الأَحْسَائِي

مَعَ تَعْلِيقَاتِهِ عَلَيْهِ، وَسَمَّاهُ

تَثْبِيتُ الفُؤَادِ

بِذِكْرِ كَلَامِ مَجَالِسِ سَيِّدِي شَيْخِ الإِسْلَامِ قُطْبِ الدَّعْوَةِ وَالإِرْشَادِ

الحَبِيبِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلَوِي بْنِ مُحَمَّدٍ الحَدَّادِ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

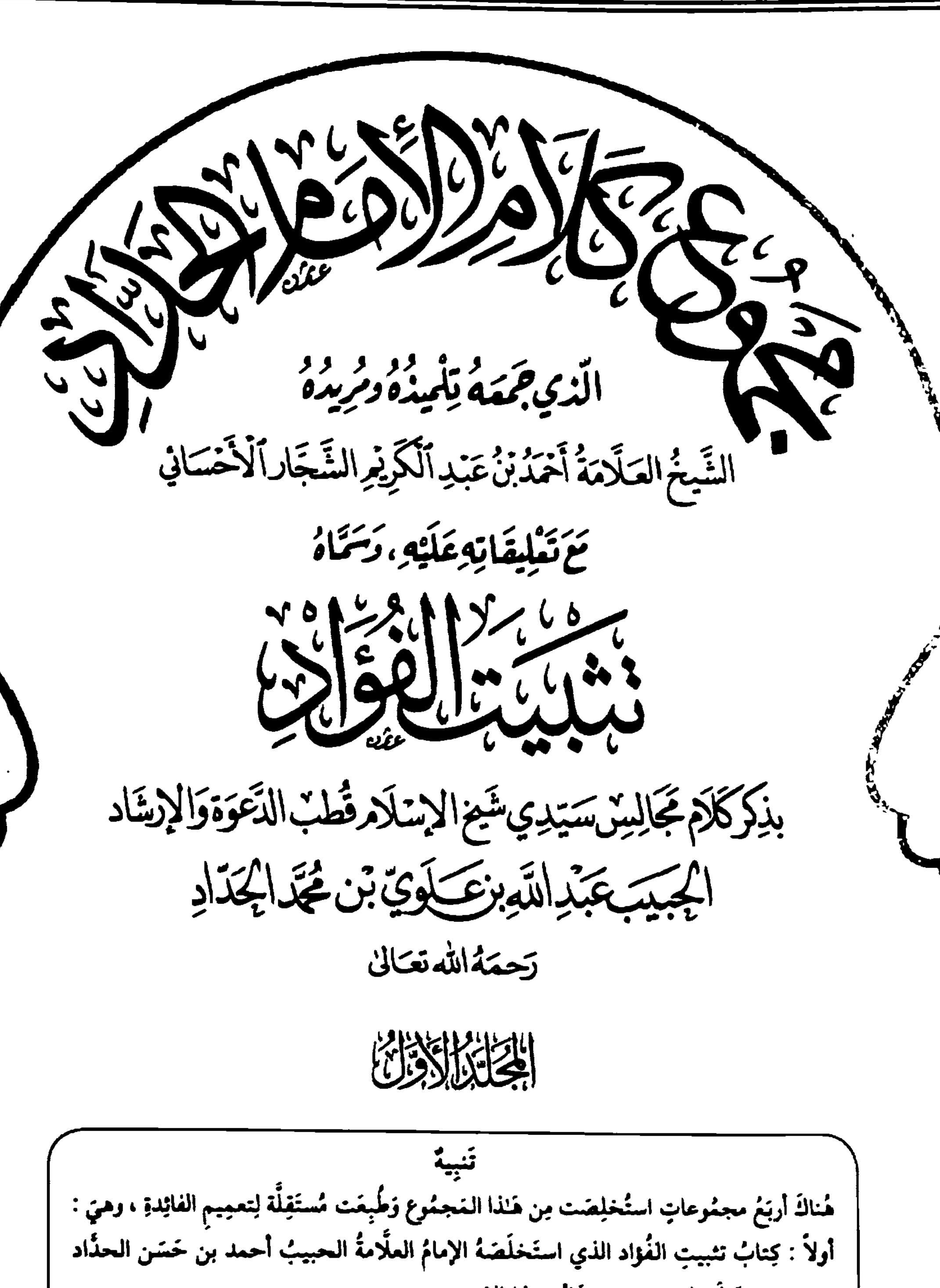




إله الورى سهِّل على كل من قرا تصانيف حداد العُلا ما تعسَّرا
وأصلح له كلَّ الشؤون وجُدْ له بعافيةٍ كبرى وأحسِنْ له القِرى
وجدِّد له في كلِّ حين كرامةً وفضلاً وأنعشْهُ إذا ما تعثَّرا
وهب يا وليَّ الخير أنساً وراحةً ورزقاً حلالاً واسعاً ومُيَسَّرا

الأبيات الثلاثة الأولى
في ديوان الحبيب أحمد بن عمر بن سميط
والبيت الرابع
منسوب للحبيب طاهر بن عمر الحداد

الطبعة الأولى
١٤٤٢



مَجْمُوعُ كَلَامِ الإِمَامِ الحَدَّادِ

الَّذِي جَمَعَهُ تِلْمِيذُهُ وَمُرِيدُهُ

الشَّيْخُ العَلَّامَةُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْكَرِيمِ الشَّجَّار ٱلْأَحْسَائِي

مَعَ تَعْلِيقَاتِهِ عَلَيْهِ، وَسَمَّاهُ

تَثْبِيتُ الفُؤَادِ

بِذِكْرِ كَلَامِ مَجَالِسِ سَيِّدِي شَيْخِ الإِسْلَامِ قُطْبِ الدَّعْوَةِ وَالإِرْشَادِ

الحَبِيبِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلَوِيّ بْنِ مُحَمَّدٍ الحَدَّادِ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

المُجَلَّدُ الأَوَّلُ

تنبيهٌ

هُناكَ أربعُ مجمُوعاتٍ استُخلِصَت مِن هَـٰذا المَجمُوعِ وَطُبِعَت مُستقِلَّةً لِتعمِيمِ الفائِدةِ ، وهيَ :

أولاً : كِتابُ تثبيتِ الفُؤاد الذي استخلَصَهُ الإمامُ العلَّامةُ الحبيبُ أحمد بن حَسَن الحدَّاد مِن هَـٰذا المجموع وَسمَّاهُ بهذا الاسم

ثانياً : كِتابُ مَجالِس الإمام الحدَّادِ الذي لَخَّصَهُ الشَّيخُ العلَّامةُ أبو بكر بن محمَّد بن عُمر المُلَّا الأحسائي

ثالثاً : كِتابُ تَعليقَاتِ الإمام الحدَّادِ على رَسائِلِهِ الثَّلاث المُريد والمُذاكَرة والمُعاونَة

رابعاً : كِتابُ تَوضِيحَاتِ الإمام الحدَّاد لِبعضِ مَعَاني أحاديثِ خَيرِ العِبَادِ

وَسَوفَ يَجِدُها القَارئ ضِمنَ هَـٰذا المَجمُوعِ في أماكِنَ مُتفرِّقَةٍ مِنهُ

واللهُ مِن وراءِ القَصدِ

يُطْبَعُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ

دَارُ الحَاوِي

هذا الكتاب

من كان يظن أنه إذا قرأ كتاباً من كُتب الإمام الحداد - أو حتى كُتبه كلها - فقد عرفه على حقيقته فهو واهم! ومن كان يظن أنه إذا واظب على قراءة أوراد الإمام الحداد وراتبه وأذكاره فقد عرفه على حقيقته ، فهو واهم ! ومن كان يظن أنه إذا رأى الإمام الحداد في منامه مرائي مُبشِّره فقد عرفه على حقيقته .. فهو واهم !

إن معرفة الإمام الحداد لا تتحقق إلا بالغوص والتعمق في خلال شخصيته .. وسيرته الذاتية من حين وجوده وبروزه في هذا العالم .. كيف تحقق له الجلاء البصري من ليلة ميلاده .. كيف كان يتقلب تحت ميزاب العناية الإلهية التي صاحبته منذ الصغر ، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ، كيف استطاع أن يمحو الكثافات البشرية والعلائق النفسية التي تلازم الإنسان وتلصق به ، ولا تزول إلا بمجاهدات شاقة إذا صاحبه التوفيق. . قصة العقرب التي ساقها الله إليه لتلتفَّ بين ثوبه وجسده ليلة وجوده.. وتلدغ هذا الجسم الغض الطري أكثر من ١٧ لدغة .. حتى امتلأت عروقه وأعصابه بشحنات كاملة من الصبر والتحمل استقبل بها الحياه بكل طمأنينة واستسلام .. فكل ما استقبله بعد ذلك في حياته المديدة « ٨٨ سنة » من امتحانات وابتلاءات تتحطم وتذوب بمجرد ملامستها لهذه الصخرة الجامدة.. من الصبر والتحمل من لدغة العقرب :

- ذهب بصره فلم تنهار أعصابه.. ولا ظَهر عليه في طفولته شيء من الضيق والتبرم .. فلم تعد لديه أعصاب تتقبَّل التبرم والشكوى مناعة ذاتية .. عوَّضه الله عن ذلك بالجلاء السمعي والروحي ، والجلاء السمعي هو وصوله إلى مرتبة « فبي يسمع وبي يبصر » ، سماعات ونظارات يخترق بها الحجب ويتم بها التخاطب عن بُعد ، وتوارد الخواطر كما حدث مع سيدنا عمر في قصة « يا سارية الجبل » ..

- مات أبوه وأمه في شهر واحد ..

- مكثت فيه الحمى تُنهِكُ جسدَه سنوات طويلة لم يطَّلع عليها أحد غير الله .. حتى زوجته أم أولاده لم تعرف عنها شيئاً .. أين صفات البشرية في هذا الجسد ؟ .. وهل الخصوصيات النبوية تُورث؟.. هل ورث الإمام الحداد عن جده مرتبة « إني لست كهيئتكم »؟ .. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.. هذا باختصار شديد فيما يتعلق بذاته الشريفة وأحاسيسه ومشاعره، أما ما يتعلق بمعاملاته مع الناس : إذا استفزه أحدٌ منهم ، أو سأله سؤالاً غير لائق ، أو سؤالاً عن شيء يكرهه ولا يحب أن يُسأل عنه ، كيف يظهر عليه أثر ذلك؟ .. كيف كان يوجِّه أولاده ومريديه

من غير عنف ولا شدة .. وقد يغضب أشد الغضب إذا بدت علامات إنحراف من أحدهم ؟ كيف كان صبره ومجاملاته لبعض خدامه أو محبيه ؟ وكيف يقابل تصرفاتهم الغريبة والحمقاء ؟ .. كل هذا وغيره ستجده مفصلاً في هذا الكتاب الأُعجوبة ، الذي جمعه الإمام العلامة الشيخ أحمد بن عبدالكريم الشجار الأحسائي .. وهو عبارة عن خلاصة حياة الإمام الحداد خلال السنوات الـ١٧ الأخيرة في حياته .. أقواله وأفعاله وتحركاته وسكناته وعباداته وعاداته ومباسطاته وأدبياته إلى مرضه ووفاته..

هذا الكتاب القيِّم .. بما فيه من كنوز عظيمة .. الذي أبدع الإمام الحساوي في جمعه وبذل فيه عصارة جهده.. لم يكتفِ فيه بمجرد التقييد والكتابة لما يسمعه ويراه من الإمام الحداد فقط .. بل كان يستخرج من الإمام علوماً كثيرة بسؤاله له .. لو لم يسألهُ عنها لما برزت لنا .. حتى في مجالسه الخاصة وانفراده به يسأله ويلح عليه في الجواب .. ولم يكتفِ بذلك بل كان يسأل بعض أصحاب الإمام الحداد عما جرى في الزمن السابق لمجيئه لحضرموت ، وينقل لنا في هذا كثيراً مما جرى قبل مجيئه ولم يقيدها أحدٌ غيره .. فمن أراد أن يعرف شيئاً عن حقيقة الإمام الحداد ويغوص في شخصيته ، فعليه أن يلازمه في هذه المراحل ، ويحاول الإقتداء به ، وأن يتبعه فيها مرحلة مرحلة ومرتبة مرتبة .. يتوقف في كل مرحلة لا يتجاوزها حتى يأخذ نصيبه كاملاً منها .. كما قال :

فَاقطَعِ الحُجْبَ الكَثِيفَةَ بِالـ ـسَّـيرِ عَنهَـا غَـيرَ مُقتَـصِرِ
واقطَعِ الحُجْبَ اللَّطِيفَةَ بِالـ ـسَّـيرِ فِيهَـا غَـيرَ مُغـتَرِرِ
فَـإذا جـاوَزْتَ مُرْتَقِيـاً سِـدرَةَ الأسرارِ والقَـدَرِ

فَتَوَقَّف .....

فإذا ما تيقن أنه قد تزوَّد من هذه المرحلة بنصيب وافر .. وأنه يستطيع الصبر على لدغة العقرب ويتحمل الجفاء والأذى من الأبعد والأقرب .. فلينتقل إلى المرحلة التي بعدها ، حتى يأتي عليها خطوة خطوة ومرحلة مرحلة ، فعسى أن يصل إلى مفاتيح هذه الشخصية العظيمة .

هذا الكتاب الأعجوبة ، أليس من العار علينا أن يبقى مدفوناً تحت تراب الغفلة والإهمال تأكل أوراقه الأرضة ، ويكاد حبره يَبْيَضُّ من طول الزمن .. أكثر من ٣٠٠ سنة وهو يصيح ويستنجد : أنقذوا كنزكم .. ابحثوا عنه تحت جدار التاريخ .. ولولا أن الحبيب أحمد بن حسن الحداد حفيد الإمام استخرج من هذا المجموع جزءاً كبيراً من هذه الجواهر ، وأشار فيها إلى أن هذه الجواهر من هذا الكنز، حيث قال : « فهذا أنموذج يسير مغتَرَف من بحر تيارٍ كبير ، مما جمعه ودوَّنه فقيره وتلميذه الشيخ أحمد بن عبدالكريم الحساوي » ، وسماه باسم هذا المجموع « تثبيت الفؤاد » .

وهذه إشارة واضحة من الحبيب أحمد لمن يأتي بعده ، بأن يكملوا المشوار ، ويستخرجوا هذا الكنز، ولا يكتفوا بما أستخرجه هو ، ويغفلوا عن الأصل « ٣٠٠ سنة » وهي عدد سنين نومة أهل الكهف، « وازدادوا تسعا » وهي سنوات التحقيق والمراجعة ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ ..

فنسأل الله أن يوقظنا من غفلاتنا ، ويبارك لنا في حركاتنا وسكناتنا ، ويلطف بنا في حياتنا وبعد مماتنا ، ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، إنه على ما يشاء قدير ..

(تنويه) عملنا في هذا الكتاب : لقد قمنا بحمد الله وتوفيقه بترتيب صفحات هذا الكتاب وتوضيح كلماته ، حيث كانت النسخة الأولى المصورة التي وقعت بين أيدينا غير واضحة الكلمات ، وبعض حروفها مطموسة من آثار الحبر ، وبذلنا كل مجهودنا في توضيحها ، وعانينا بسبب ذلك كثيراً من الجهد والوقت لمدة خمس سنوات ، ثم تحصَّلنا على نسخة رقمية ملونة واضحة من المخطوط وهي التي اعتمدنا عليها ، فأعدنا المراجعة من جديد ، وتم التأكد من صحة المنقول ، واستغرق ذلك أربع سنوات أخرى . وقد التزمنا خلال عملنا هذا بأمانة النقل ، حيث نقلناه كما هو ، دون زيادة أو نقص أو تعليق أو حذف ، كذلك لم نقم بتخريج الآيات والأحاديث وغيرها . وقد وضعنا جميع كلمات الإمام الحداد بالخط العريض ، ومبدؤه بقوله : (قال رضي الله عنه) باللون الأحمر كما هي في الأصل ، وكلام الشيخ الأحسائي وتعليقاته بالخط العادي ، ما عدا بعض تعليقات للحبيب أحمد بن حسن الحداد وجدناها في كتابه الذي استخرجها من هذا المجموع ، وأشرنا إليها بحرف (م) ، فلهذا لزم التنويه .

وله الحمد والفضل أولاً وأخيراً ..

أعضاء لجنة التحقيق والمراجعة

عبدالقادر الجيلاني بن سالم بن علوي الخرد ، محمد بن شيخ بن عيدروس الحداد ، عدنان بن يحيى العيدروس

بالتعاون مع الإخوة : عبدالله بن عبدالقادر بن سالم الخرد ، عبدالله بن محمد بن شيخ الحبشي ، حسن بن زين بن أحمد الحبشي ، عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد بلفقيه

نادرة الدهر ، وعلاَّمة العصر ، من أجرى الله على لسانه ينابيع الحكمة ، ترتوي منه الأمة في كل زمان ، الداعي إلى رب العباد ، الحبيب عبدالله بن علوي الحداد . ولد بالسُّبَيْر - من ضواحي مدينة تريم - ليلة الإثنين ، لخمس خلت من صفر الخير ، سنة ١٠٤٤ .

نشأ بمدينة تريم ، وحفظ بها القرآن العظيم ، والإرشاد وغيره من المتون . وكُفَّ بصره وهو في الرابعة من عمره . عني والداه بتربيته وتهذيبه . وتوفيا كلاهما في شهر رجب ، سنة ١٠٧٢ ، ودفنا بمقبرة زنبل بتريم .

خرج الإمام الحداد من مدينة تريم للحج في سنة ١٠٧٩ هـ ، وقصد أولاً بندر الشحر ، وأقام به نحو نصف شهر ، وزار من به من أهل الصلاح والفلاح . ثم سافر إلى بندر عدن . وكان دخوله مكة المشرفة أول يوم في شهر ذي الحجة ، واتفق تلك السنة الوقوف يوم الجمعة ، وبعد انقضاء الحج وأداء المناسك بأجمعها ، سافر لزيارة جده المصطفى ﷺ .

ثم لما كان سنة ١٠٨٣ بنى بيته الذي بالحاوي شرقي مدينة تريم ، واستوطنه سنة ١٠٩٩ وهي ذات السنة التي وُجد فيها ابنه الحبيب حسن ، وعندما بُشِّر به قال : « وُجِد صاحب الحاوي » . وابتنى مسجده الذي بجانب بيته المذكور ، ويعقد درساً بالمسجد بعد صلاة العصر كل ليلة ، وبكرة يوم الخميس والإثنين ، ويعقد حضرة بعد صلاة العشاء ليلة الجمعة . وكان الحاوي مقصداً للأولياء والصالحين ، وملجأً للفقراء والمساكين ، حوطة أمان ومقر اطمئنان .

انتشر راتبه الشهير ، وورده اللطيف والكبير في جميع أرجاء العالم ، كما انتشرت مؤلفاته في الآفاق انتشاراً له بالغ التأثير والفائدة ، معتنياً بتهذيب النفوس وترويضها ، وهي كالتالي :

(١) رسالة المذاكرة « مطبوع »

(٢) آداب سلوك المريد « مطبوع »

(٣) إتحاف السائل بجواب المسائل « مطبوع »

(٤) النصائح الدينية والوصايا الإيمانية « مطبوع »

(٥) رسالة المعاونة والمظاهرة والمؤازرة « مطبوع »

(٦) سبيل الإدكار والإعتبار بما يمر بالإنسان من الأعمار « مطبوع »

(٧) الدعوة التامة والتذكرة العامة « مطبوع »

(٨) الفصول العلمية والأصول الحكمية « مطبوع »

(٩) النفائس العلوية في المسائل الصوفية « مطبوع »

(١٠) الحِكَم : مجموعة من حِكَمه العجيبة ، وقد شرحها العلامة المحدث محمد حياة السندي المدني « مطبوع »

(١١) المكاتبات : وهي تحتوي على رسائله لإخوانه ومريديه والمتعلقين به وتلامذته كما خاطب فيها السلاطين والحكام فنصحهم ووجههم وأرشدهم وأنذرهم « مطبوع »

(١٢) ديوانه المسمى : الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم « مطبوع »

(١٣) الوصايا « مطبوع »

(١٤) **تثبيت الفؤاد بذكر مجالس القطب عبدالله الحداد** : جمعه ودوّنه مع تعليقٍ وزيادة توضيح تلميذه الأجل الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبدالكريم الشجَّار الإحسائي « **وهو هذا الذي بين يدي القارئ** » ، وقد استخرج من هذا المجموع عدة تصانيف منها :

١- تثبيت الفؤاد : وقد استخلص منه معظم كلام الإمام الحداد حفيدُه الحبيب العلامة أحمد بن حسن بن عبدالله الحداد ، وسماه باسم الأصل ، وهو المطبوع المتداول بين الناس ، حققه السيد العلامة يحيى بن أحمد العيدروس .

٢- مجالس الإمام الحداد : الذي لخصه الشيخ العلامة أبوبكر بن محمد بن عمر الملا الأحسائي .

٣- كتاب التعليقات : وهي تعليقات الإمام على رسائله الثلاث « المريد ، المذاكرة ، المعاونة » حينما كانت تقرأ عليه في مجلسه .

٤- كتاب التوضيحات : وهي الأحاديث النبوية التي مرت عليه في مجالسه رضي الله عنه وتكلم عليها وأوضح بعض معانيها .

توفي الإمام عبدالله بن علوي الحداد يوم الثلاثاء ٧ القعدة سنة ١١٣٢ ، بحاوي الخيرات بمدينة تريم ، عن عمر يناهز ٨٩ سنة إلا ثلاثة أشهر .

ترجمة الشيخ أحمد بن عبدالكريم الأحسائي

قال الحبيب محمد بن زين بن سميط في ترجمته للشيخ أحمد : « هو الشيخ المنور ، العابد الناسك ، العالم المتبتل ، شهاب الدين أحمد بن عبدالكريم الشجار الأحسائي ، جاور عند سيدنا الشيخ عبدالله الحداد ١٧ سنة وهو في ملازمته دواماً لا يكاد يفارقه في مجلسٍ من مجالسه العامة والخاصة مدة إقامته عنده ، ويسير معه حيث سار . كان مقبلاً عليه مشيراً إليه ، وكان واقفاً عند إشارته وملتزماً لخدمته ، ويكتب كل ما يتكلم به في حضوره ، وكان ذا حفظٍ للعلم وطلبٍ وإتقان ، حصَّل جميع مؤلفات سيدي بقلمه وغيرها من الكتب ، وكان كثير النقل متبعاً للفوائد ، وكان يحفظ من كلام سيدي وكراماته شيئاً لا يكاد يحصى لكثرة ملازمته وانقطاعه إليه ، وكان عليه في مدة إقامته عنده وظيفة الأذان وحمل السجادة لسيدي والحبوة ، ولبس منه الخرقة ما لا يكاد يحصى وتلقن الذِّكر ، وكان ممتلىء القلب بتعظيمه واحترامه لا يرى في الوجود سواه من مشايخ الطريق ممن سبق ولحق .

وبقي على هذا الحال حتى توفي سيدي عبدالله ، ثم سافر بُعيد وفاته بقليل ، وجاء إلى سيدي أحمد بن زين الحبشي وجلس عنده ١٧ يوماً قال : أقمت عند سيدي أحمد كل يوم طباق سنة عند سيدي عبدالله نفع الله بهما . وآنسه سيدنا أحمد وفرح به جداً وأظنه لبس منه الخرقة وتلقن الذِّكر .

وكان بينه وبين السيد الجليل عمر بن عبدالرحمن البار صحبة وأخوة ، ومرَّ عليه إلى دوعن وأخذ عنده مدة وسافر إلى الحرمين ورجع وأقام ببلده الأحساء على سيرةٍ حميدة مع انقباض عن الناس كما هو المحمود في هذا الزمان المنقوص » ا.هـ . بهجة الزمان .

ميلاده : ولد حوالي عام ١٠٩٣ ، ببلاد الأحساء .

انتقاله إلى البصرة : في عام ١١٠٢ انتقل الشيخ أحمد الشجار من الأحساء إلى العراق مع عائلته وهو في التاسعة والنصف من عمره ، ونزلوا ببلدة نهر خوز إحدى قرى البصرة ، مجاوراً شيخه السيد محمد بن عبد الخضر الرفاعي ، وأدخله طريقته وأمر شيخه بأن يحلق جزءاً من شعره ويبقي الأكثر . وفي آخر شهر جمادى الأول من سنة ١١٠٢ وقع الطاعون بالبصرة ، وتوفي فيه خلق كثير ، منهم والده الشيخ عبدالكريم الشجار رحمه الله ، وقد تأثر المترجم بالطاعون وعانى منه ، كما حكى ذلك عن نفسه .

عودته إلى الأحساء : ثم عاد إلى الأحساء في ٢٠ من شهر رمضان سنة ١١٠٢ مع عمه سليمان ، وظل هناك تحت رعاية عمه وكنفه . ثم رأى عمه أن يحلق شعر ابن أخيه أحمد ، ولا يبقيه هكذا كما هي طريقة الرفاعية ، فاستدعى الحلاق وأمره بحلق الوفرة من شعر رأسه ، خلافاً لأمر شيخه السيد محمد بن عبدالخضر ، وكان ذلك في صفر سنة ١١٠٣ ، ونتيجة لذلك امتلأ رأسه دمامل كثيرة مؤلمة عانى منها معاناة شديدة ، وظل يعاني مما تبقى في رأسه من الدمامل سنوات طويلة ، واجتهد في علاجها ، حيث سافر سنة ١١٠٨ مع صهر له إلى « مسكت » بأرض عمان، ثم اليمن ثم بلاد العجم ، ووصل إلى المخا ، وذهب إلى شيراز عند حكماء وأطباء ولم يجد شيئاً .

وظل هكذا حتى وصل إلى الإمام الحداد فبعد ثلاثة أيام بعد وصوله إلى حضرته برئت وصحَّت من نفسها .

وفي الأحساء : تتلمذ على الشيخ محمد بن صالح الدوغان ، كان زاهداً ورعاً ، حتى أنه بلغ من ورعه إذا شرى من السوق تمراً لبيته يخرج زكاته .

تعلقه بالإمام الحداد : منذ كان في الأحساء ، كان الشيخ الحساوي متلهفاً للوصول إلى الإمام الحداد والاغتراف من بحره الفياض ، حتى تحركت الهمة أولاً للحج ثم الذهاب إليه سنة ١١١٣، ولكن لم يتيسر له ذلك ورجع إلى الأحساء ، وظل لمدة سنتين يتلهف على الوصول لحضرته ويفكر كيف يكون ذلك ، حتى يسَّر الله ذلك بِمَنِّه وفضله .

رحلته إلى تريم ووصوله إلى حاوي الخيرات : خرج الشيخ الحساوي من بلاده متوجهاً إلى حضرموت لزيارة الإمام الحداد في شهر ربيع الأول سنة ١١١٥. فلما وصل إلى مسقط أخذ يبحث ويسأل عن المراكب التي تسافر لليمن ليغادر من مسقط إلى حضرموت ، فوجد مركباً قد حجزه ناس حضارمة متوجهين إلى الشحر ، ففرح كثيراً ، واتفق مع مسئول المركب وهو رجل يدعى بـ « بابخيتار» من أهل سيحوت ، فاطمأن الشيخ الحساوي بذلك . وظل في مسقط مترقباً تحرك المركب شهرين كاملين ، ثم تفاجأ بأن « بابخيتار» يقول له : « لم يبق لك موضع في المركب » ، فلامه الشيخ أحمد كثيراً، وتحسف على طول الانتظار بغير فائدة ، وحاول معه عدة محاولات ولكنه رفض، فشكى ذلك إلى السيد علي باعبود ، فقال له : « اتركه لا بركة فيه ولا في مركبه » . فبحث له السيد علي عن مركب آخر ، قال الشيخ الأحسائي : « فإذا به صغير جداً ما فيه إلا صاحبه ومعلمه واثنان من العبرية واثنان ركاب ، وأنا ثالثهم ، فتعجبت كيف سيقطع هذا القارب الصغير غبب البحر ، فتحركنا على بركة الله في شعبان سنة ١١١٥ » .

وتوجه المركب إلى بلدة مرباط ، وفي أثناء توسطهم في البحر هاج البحر من كل ناحية ، وصار الماء يدخل عليهم من جوانب المركب ، وصاروا في حالة عظيمة من الخوف والهلع ، وجعلوا يأخذون الماء الذي دخل إلى المركب خوفاً من الغرق ، وهم في صياح واستغاثة ، يقول الشيخ أحمد : « فألهمني الله أن أقرأ أبياتاً لسيدنا فيها استغاثة وتوسل بالسادة أهل بيته ساداتنا بني علوي - وهي : يا سيد الرسل هادينا ، هيا بغارة إلينا الآن - فقرأتها طلباً للفرج من فضل الله ببركتهم ، وعند تمام الأبيات أخذني النوم فرأيت سيدي عبدالله في المنام ، وسلمت عليه وقبّلت يده ، وتحدثت معه ساعة طويلة ، وحصل معي برؤيته سرور عظيم ، وهي أول رؤيا ورؤية رأيته وأول مجلس جلسته معه ، ثم انتبهت من الرؤيا فرأيت أهل السفينة حينئذ في فرح وضحك وسرور وتبدل الحال إلى حال آخر » .

ثم وصلوا مرباط ، ونزل لزيارة الشيخ محمد بن علي صاحب مرباط ، ومنها إلى سيحوت على أيام في البحر ، وفي سيحوت التقى بالحبيب سالم بن الإمام عبدالله الحداد حيث كان نازلاً بها ، وبقي في سيحوت ١٧ يوماً وكان ذلك في شهر رمضان . ثم تحرك من سيحوت براً مع قافلة من أهل تميم قاصدين نبي الله هود ، فسار معهم وزار نبي الله هود .

وصوله إلى تريم : وصل الشيخ الحساوي إلى تريم بعد معاناة وأهوال شديدة ، وكان وصوله إلى حاوي الخيرات في عصر الثلاثاء ١٩/ ٩/ ١١١٥هـ ، وحضر مجلس الإمام الحداد عصر كل ليلة في رمضان . وفي صبيحة اليوم الثاني من وصوله استدعاه الإمام في الغيلة ، وسأله عن الحال وقصده في المجيء، فأخبره بحقيقة حاله وأمره ، وأخبره بما حصل له في البحر من شدائد وأهوال ، فتعجب الإمام وقال له : « سبحان الله ، كان الشيخ عمر المحضار يقول : نرد موسومتنا ولو بالصين » .

قراءته على الإمام الحداد : ابتدأ في القراءة في كتاب « الإرشاد والتطريز » للشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي ، قال : « ثم أمرني من رمضان الآتي - أي عام ١١١٦ - في القراءة في كتاب الإرشاد والتطريز، وبعد تمامه في كتاب : روض الرياحين ، مهما تَمَّ أحدهما أمرني بالقراءة في الآخر ، وفي غير رمضان في كتبه حتى أتممتها ، ثمَّ في غيرها » .

الوظائف التي أقامه فيها الإمام الحداد : حين وصل إلى حضرته أمره أن يتعرض له بعد صلاة الظهر كل يوم إذا خرج من المصلى داخلاً إلى البيت في موضع عَيَّنَه ، فكان يقف له فيمد الإمام له يده ، وهو يمد له بذراعه ليقبضها فيدخله الضيقة ، وعلى هذا إلى أن توفى إلى رحمة الله مدة ١٧ سنة .

وبعد نحو أربع سنين ونصف من وصوله أقامه في وظيفة الأذان وقراءة سورة « يس » مع دعاها له بعد كل صلاة مكتوبة ، وبقي فيها إلى أن توفي الإمام إلى رحمة الله . وقد كان في العادة أن المؤذن هو

الذي يبتديء القراءة وقت العصر ، قبل سائر القرّاء ، وهي عادة مستمرة منذ زمان طويل ، فلما كان عصر يوم الأربعاء ١٨ ربيع الثاني سنة ١١٢٩ ، قال له الإمام : « لا تعد تبتديء أنت كل يوم ، إلا مرة ومرة ، لأن هذا يحرك منك داعية الرياء ومن غيرك الحسد . وأنتم ما تعرفون هذا الأمر ، ولا رضتوا نفوسكم ، ونحن أعرف به منكم » .

كتابه « تثبيت الفؤاد » ، ومنهجه في جمعه وكتابته :

كان رحمه الله حريصاً كل الحرص على نقل وجمع كلام الإمام الحداد ، ملتزماً كل الإلتزام لشروط النقل ودرجاته وقيوده ، كما قد نبَّه عليها الإمام في قوله رضي الله عنه : « ينبغي أن يعرف الناقل الكلام ودرجاته وقيوده وخصوصه وعمومه وكونه فيه استثناء ، ويبقى يستمعه من أوله إلى تمامه ، فرب قائلٍ تسمعه يذم العلماء إلا أهل الخشية والورع والتقوى ، فتستعجل وتقول فلانٌ يذم العلماء » ، وهذه الشروط التي شرطها الإمام هي التي أخرت الشيخ الأحسائي عن إبراز هذا الكتاب فترة من الزمن بعد عودته إلى موطنه الأحساء ، خوفاً من زيادةٍ في اللفظ أو خلل في المعنى ، أو ذِكْرِ ما هو خلاف المقصود ، كحال كثير ممن أخطأوا في نقل كلام الإمام ممن سبقه ، هذا بالإضافة إلى تحذير الشيخ الزين بن الصديق المزجاجي له من كتابة كلام الأكابر .

قال الأحسائي : « فكان ذلك مما ثبَّطني وفتَّر عزمي عن نَقْلِ كلام مجالس سيدنا في هذه المدة ، وإلا فساداتنا قد كانوا أكَّدوا عليَّ ، وأوصوني بنقله ، ولزَّموا عليَّ ولا بد ، حين خرجت من حضرموت أن أبعث به إليهم . وكثيرٌ ممن له مشمَّة وعظيم شوقٍ إلى أنفاس سيدنا وكلامه ، كالسيد الجليل الحبيب أحمد بن زين الحبشي ، والسيد الحبيب علوي بن سيدي الحبيب عبدالله ، والسيد الحبيب عمر البار وغيرهم يحثوني على ذلك ، وأتتني أوراقهم مراراً يحضوني على ذلك ، حتى إن السيد علوي بن سيدنا عبدالله أغلظ عليَّ القول في التأكيد عليَّ في ذلك ، وأنا أتوقف خوفاً من الخطأ والزيادة والنقص ، وأن أخالف شروطه التي اشترطها في النقل على ما قدمنا ذِكْرَه ، ولأنه كلامٌ وسيعٌ جداً لا أقدر على استيعابه كله . وإنما حركنا إلى العزم واستنهاض الهمة بعد فتورها إلى نَقْلِ هذه النقطة من ذلك البحر الوسيع المتلاطمة أمواجه ، همة سيدنا العارف الكامل السيد الحبيب محمد بن السيد زين بن سميط علوي متع الله بطول حياته ، لما جاءني كتابه إلى الحساء يحثُّني ويحضُّني على نَقْلِهِ وإرساله له ، لما علمت من شدة رغبته في ذلك ليستمد منه في كتابه الذي ألفه في مناقب سيدنا عبدالله نفع الله به ، فرغبت أن أساعده وأساهمه في أجْرِهِ بمعاونته وإسعافه بما رغب فيه من ذلك » .

وعن قصده من هذا المجموع قال : « وإلا فما مقصودنا إلا نقل كلامه الذي تكلم به في مجالسه مما حفظناه ونقلناه وأثبتناه ، ولو قد انجرَّ بنا الكلام إلى غير ذلك ، فكل ذلك صوابٌ ونافع إن شاء

الله تعالى ، ونرجو فيه السلامة من الزيادة والنقص الضارَّين المخِلَّين بالمعنى ، والكلام يجرُّ بعضه إلى بعض» ، وسماه ووصفه فقال : « وسميت هذا النقل : تثبيت الفؤاد بذكر كلام مجالس سيدي القطب السيد عبدالله الحداد نفع الله به في ذكر شيء مما تكلم به الأكابر في شأنه ومما نوَّهوا به من وصفه ومما رغبوا فيه من مجالسته ومما حضوا عليه من الاقتداء به وما رغبوا فيه من استماع كلامه والانتفاع به وبأقواله وأفعاله وأحواله رضي الله عنه » .

وممن انتفع بهم وقرأ عليهم بإشارة من الإمام الحداد رضي الله عنه :

١ . السيد أحمد بن عمر الهندوان : كان الشيخ الأحسائي كثير التردد عليه ويحضر مجالسه .

٢ . الحبيب أحمد بن زين الحبشي : أخذ عنه وقرأ عليه ، وله معه مكاتبات ومجالس عديدة ، وأقام عنده بالحوطة بعد وفاة الإمام الحداد ١٧ يوماً .

٣ . الحبيب زين العابدين العيدروس : قال : « إن سيدنا كان أمرني أن أطالع مع السيد زين العابدين المذكور في البخاري والإحياء ضحى يوم السبت وضحى يوم الأربعاء في بيته » .

وذكر ما قال له السيد زين العابدين يواسيه عند وفاة الإمام الحداد : « قال لي السيد زين العابدين: أنا أعتقد أن ما أحد أصيب بالسيد عبدالله مثل مصابك - أي لما مات - لأنهم في وطنهم وبين أهاليهم وأنت غريب ، ما مقصودك هنا إلا حبيبك » .

٤ . الحبيب عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه : قرأ عليه في الفقه بأمر الإمام الحداد .

وممن اتصل بهم من السادة : الحبيب عمر بن عبدالرحمن البار ، وقد أهداه دواة حمراء كتب بها موضع من هذا الكتاب ، قال: « وهذه الدواة الحمراء - أي التي كان يكتب بها بعض مواضع من تثبيت الفؤاد - كان فعلها لي الحبيب السيد عمر البار نفع الله به ، وأرسلها لي من بلده دوعن إلى تريم في رمضان سنة ١١٢٤ ، وإلى الآن أنا أكتب منها وما زدت فيها شيئا ، والآن سنة ١١٧٠ لها مدة ٤٦ سنة»، وممن اتصل بهم أيضاً الحبيب محمد بن زين بن سميط والحبيب عمر بن حامد باعلوي ، وغيرهم .

إلباس الإمام الحداد له :

قال : « لما ألبسني آخر إلباس تتمة لستة عشر إلباساً ، وذلك في مرض وفاته قال لي حينئذ : ألبسناك الآن ، وقد ألبسناك مراراً ، وعادنا نلبسك » .

وأجازه الإمام بقراءة أوراده ، قال : « أمرني بقراءة أوراده عليه ، فلما قرأتها عليه قال : أجزناك في

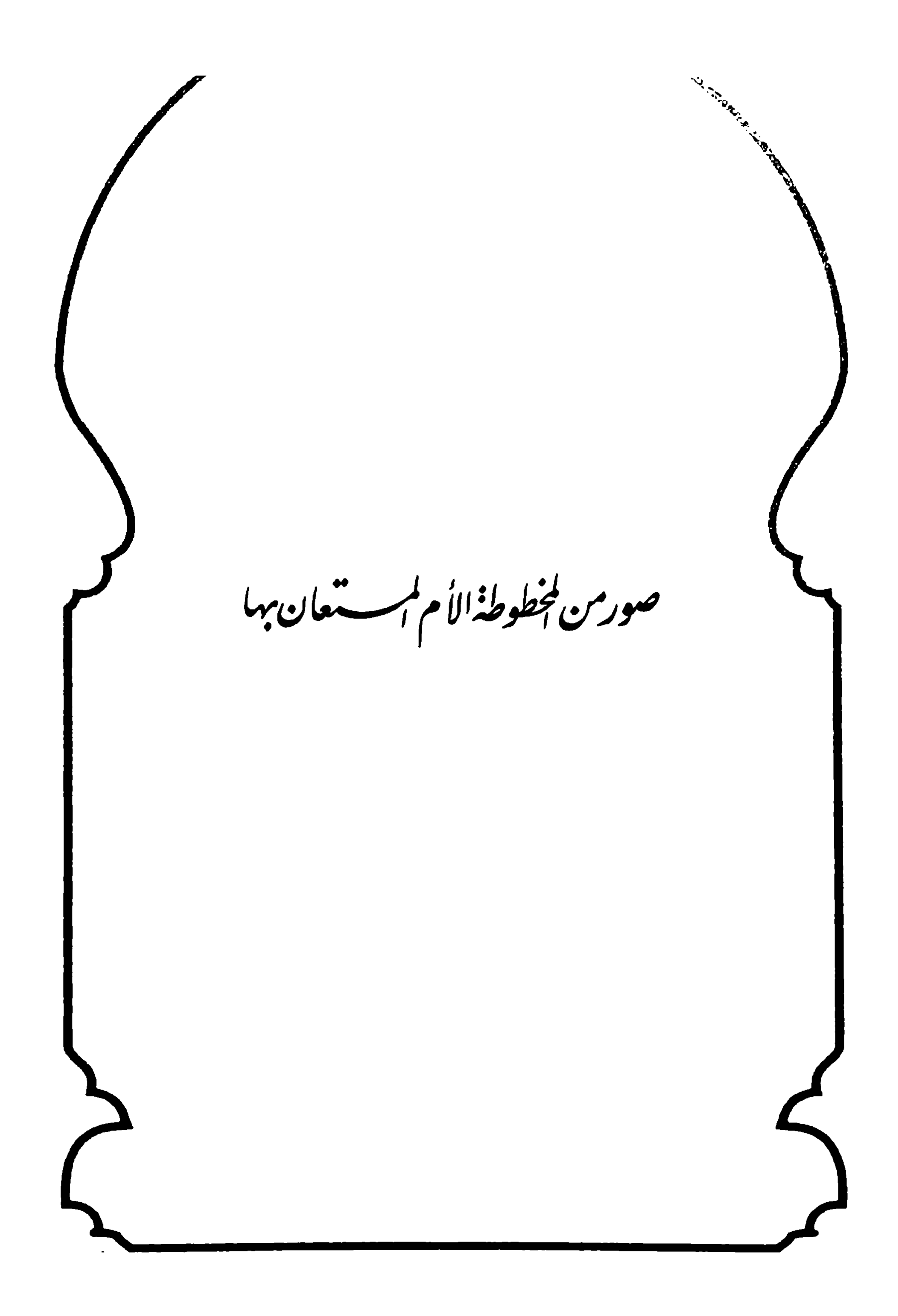
ترتيب أورادنا هذه . وقال تلك الكلمة وذلك في مجلسه في السبير وسمعها الحاضرون كلهم ، أولاده وفقراؤه وغيرهم » .

سفره من حاوي تريم والعود إلى بلده :

قال : « وأرادني العيال في الإقامة فيها بعده ، وأن أقيم في البلد ، فما قدرت على الإقامة بعده ، وجزعت جداً من الجلوس فيها ، حتى ظن العيال أنه أمرني بالإقامة بعده ، ودعوني إلى الزواج فما أجبت » . وعزم رحمه الله على السفر من تريم ليلة الخميس ١٤ محرم سنة ١١٣٣ ، وتوجه من تريم إلى حوطة الحبيب أحمد بن زين الحبشي ، ومنها إلى اليمن زائراً بعض بلدانها ومشايخها ، ووصل إلى حضرة الشيخ الزين بن صديق المزجاجي - صاحب التحيتا - يوم الثلاثاء ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١١٣٣، ثم توجه إلى الحديدة ومنها إلى جدة ، ووصلها في رجب ، ثم توجَّه إلى المدينة ، فوصلها يوم ٢٥ شهر رجب ، وحضر الزيارة الرجبية يوم ٢٧ ، وأقام بها إلى ١٨ شعبان وسار إلى مكة ، ومنها إلى الأحساء .

أولاده : تزوج وأنجب بالأحساء بعد عودته من تريم ، وذكر من جملة أبنائه : محمد صالح ، ومحمد سالم .

وفاته : لم نعثر على تاريخ وفاته بالضبط ، ولكن آخر تاريخ ذكره في كتابه « التثبيت » هو منتصف عام ١١٧٣ ، وحيث أن ولادته كانت مبدأ عام ١٠٩٣ هجرية كما تقدم ، فيكون وقت هذا التاريخ كتابته لهذا الكتاب وعمره ٨٠ سنة ، رحمه الله وأعلى له الدرجات وجزاه خير الجزاء .



صور من المخطوطة الأم المستعان بها

صورة ضوئية من النسخة الأم

الصفحة الأولى

هذا ديوان الاسرار بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد قال العبد الفقير إلى كرم الله الغني الكبير
كاتب هذه الأحرف وراقمها أحمد بن عبد الكريم الحساوي الشجاري سامحه الله
وعفى عنه هذه كلمات كلية نافعة وحكم جملية جامعة وجواهر نفيسة
غالية ولآل أنفسه عالية وهي قريبة العهد من موطنها الحرية غضة من
معدنها أخرجتها من بحر الحكمة الزخار أمواجه المتلاطمة آناء الليل والنهار
حتى ألقتها بأمر الله على ساحله فالتقطها من ظفر بها ونقلها وكتبها من جاء بها
بأنامله وهي لعزتها قليلة الورود عزيزة الوجود سريعة الشرود وكل كلمة منها
تعادل الدر عند الأحرار وإن لم يكن لها قيمة عند الجهال الأغمار إذ ما كل أحد
يعرف قدر اللؤلؤ لكن أهله ومن عرف عزيز قيمته غاص لأجله في البحار حتى
يستخرجه من تلك القعار ولكن هذه للآدمي قدرة على التوصل إليها حتى يبلغها
ويشرف على حافظ ما هذه الجواهر النفيسة العزيزة فلا وصول إليها إلا إذا
هبت رياح الأقدار فحركت قلوب أكابر الأولياء الأحرار أخرجتها منها فألقتها
على ساحل ألسنتهم فاختطفها من وجدها وظن عليها من ظفر بها وحفظها
وعرف قدرها وقيمتها من عرفها وقد جاء في الخبر عن عبد الله بن عمرو بن العاص
رضي الله عنهما أنه قال استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقيد ما سمعته
منه فأذن لي وجاء عنه أنه قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل
هذا من الأمثال خاصة غير الأحاديث وأما أحاديثه التي رواها فأربعة آلاف حديث
وقال أبو هريرة رضي الله عنه كان عبد الله بن عمرو يكتب ولا أكتب لكنه قال شكوت
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النسيان فقال لي ابسط رداءك فبسطته ثم تكلم
في مجلسه ذلك بكلام كثير ثم قال اقبض رداءك فقبضته فما نسيت مما تكلم به شيئا ثم بعدها
ما نسيت شيئا من كلامه وكان ورد عنه فيما روت أحاديث أبي هريرة خمسة آلاف حديث
وعائشة رضي الله عنها أربعة آلاف حديث وإذا فكرت في كلمات سيدنا عبد الله
نفع الله به وأثبتها مستمدة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظا ومعنى كما سيأتي
وكذلك قيد أصحاب المشايخ المتقدمين ما سمعوا من مشايخهم كأصحاب الشيخ
عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه قيد وأما سمعوا منه مما تكلم به على الكرسي وغيره
فقيد وجمع في كتاب سمي جلاء الخاطر في كلام الشيخ محي الدين عبد القادر وكذلك
قيد عبد الله بدر الحبشي ما قيد من كلام الشيخ محي الدين ابن عربي مما تكلم به

صورة ضوئية من النسخة الأم

الصفحة الأخيرة

[illegible]

والثالث هو علم دينه [illegible]

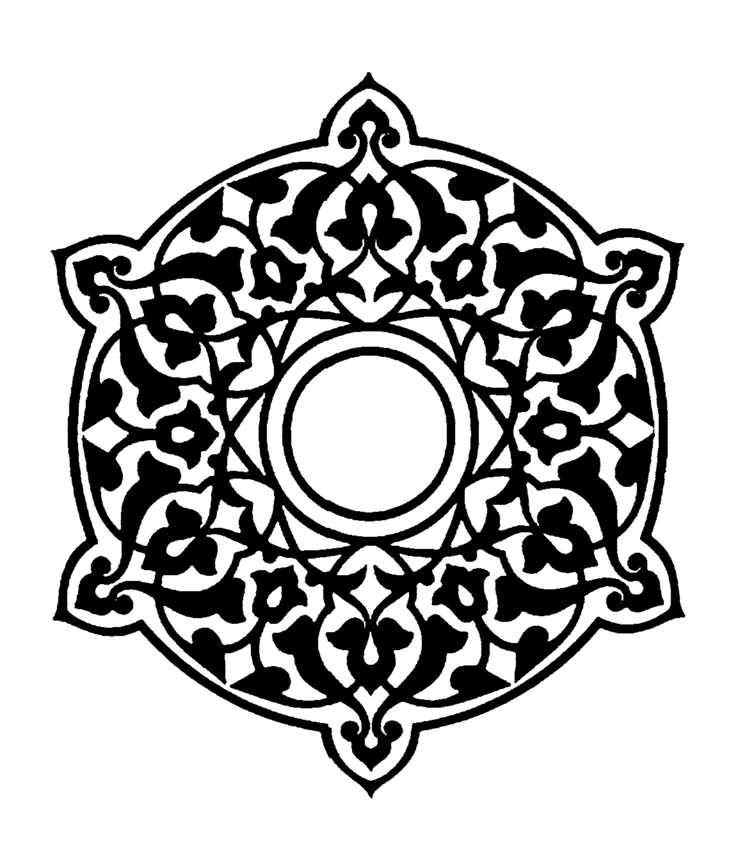
[illegible]

ثم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين [illegible]

مواضيع المجلد الأول (١)

بوادي ابن راشد؟ • ستر الولاية يكون على حالَين • ماذا قال عن الجوهر الشفاف؟ ومعنى : مولى الدويلة ؟ • لماذا يخمل الصالحون في تريم ويظهرون في غيرها؟ • ظهور المكاشفات لا تصلح في هذا الوقت • كراهة ساداتنا آل أبي علوي للشهرة • قصة باغريب وبنائه للمسجد • قوله : عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي • قوله : الإلباس لا يراد لصورته • قوله : المريد ينتفع بشيخه وإن لم يره ولا عرفه ولا سمع به • قصة الشيخ الذي أجاب على سؤال من قبره • قصة المرأة التي عالجها الإمام الحداد بعد وفاته • علاقة الأرزاق بالذنوب • قصة الإمام أحمد بن عمر الهندوان والحالة التي اعترته عند الصلاة • من فوائد لا إله إلا الله • الإلباس والتلقين لا يتكرر • الحقائق المجردة عن الطرائق أخت الزندقة • فوائد بعض الأعشاب والنباتات وأنواع الطِّيب والعلاج بالعنبر • متى ظهر التنباك ؟ • موقف الشيخ علي بن أبي بكر من القهوة • لماذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقترض من اليهود ولا يقترض من الصحابة • ما حكم من يصلي الضحى لأجل الرزق ؟ • ما حكم من حج حجة الإسلام ليتمكن فيها بعد من الحج عن غيره ؟ • قصة الأحسائي مع عوض بن صباح • ما الحكمة من شروع النوافل القبلية ؟ • موقف الإمام الحداد من بيع العهدة • فوائد طبية مهمة • اختيارات الإمام الحداد في زيادة العمر ونقصه • قوله رضي الله عنه : اسمعوا هذه الكلمة واحفظوها وانقلوها عنا • ماذا قال في معاليق البطن ؟ • قصة الرجل الذي جاء إلى حضرموت يدَّعي أنه من كبار الأولياء • المدَّعي المتكلم والمدَّعي الساكت • قصة النبي سليمان لما طلب من الله أن يجعل أرزاق الخلق على يده • قصة ابن عربي مع دابة البحر • متى حصل الفتح للإمام الحداد ؟ • كيف نسي الإمام القرآن ثم ذكره ؟ • ما قيل عن السمع والبصر وعن حروف القرآن • اقرأ عن الأفلاك السبعة في جسم الإنسان ، والكواكب السبعة السيارة نظيرها في الإنسان القوى السبعة السيارة في البدن • طباع الحيوانات وأخلاقها توجد في الإنسان • قصة الرجل الذي جاء إلى تريم من سمرقند وهو يزحف لزيارة الشيخ علي بن أبي بكر • قصة الرجل الذي كان يأكل كثيراً فيشكى ذلك إلى سيدنا عمر المحضار • كيف كان الإمام الحداد إذا سئل عن ما لا يود السؤال عنه ؟ • قصة الشيخ محمد بن أبي الباطل لما مرَّ على القصب • الأبيات التي سمعت في سيدنا عمر بن الخطاب في منى • ما هي عادة الإمام الحداد إذا نزل لصلاة الفجر والظهر والعصر ؟ • كيف كانت عقيدة الإمام في كتاب الموطأ ؟ • قصة الناس الذين خرجوا من مجلس الإمام مالك ليشاهدوا الفيل • قصة الشيخ قطب الدين الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء • ماذا قال لرجل به مرض في رِجْله ؟ • عادة الإمام الحداد وجلوسه في الضيقة • ما معنى قوله : (إن طريقة الإمامة مظلمة لا يهتدى فيها) ؟ • مجالسة الأكابر كثيراً منهي عنها • مجلس السماع الذي لم يحضر معه غير أولاده والمسمِّع • عادة الرعاع إذا حضروا مجالس الأشراف • إظهار الكرامات يكون حسب الحاجة كما في قصة الحنفي مع تلميذه • آخر مجلس سماع في حياته • ماذا قال لرجل انقطع

عن مجالسه ؟ • لماذا ينهى الإمام الحداد أتباعه عن قراءة كتاب فتوحات ابن عربي ؟ • وظيفة عبدون بن قطنة • كيف كان الإمام يحذر أتباعه من كل ما يسبب لهم الرياء ولغيرهم الحسد • ماذا قال عن الإشارات والبشارات التي تحصل للمريد في كتاب عجائب الملكوت ؟ • للسلف طريقان في التسليم والتأويل مع التنزيه • كلام الفقيه العلامة أبي الطيب المغربي في الإمام • قصة الشيخ فقيه بن الشيخ عبدالرحمن بن علي مع البدوي وبعيره • هل تلبس المرأة القبع على رأسها مثل الرجل ؟ • قصة المعلم باجابر من عندل مع باجحدب • قصة المتجرد الذي احتاج فجاءه رجل بحاجته • قصة الغريب الذي لم يخبر أحداً باسمه • ماذا قال الإمام في مجلس فراغ وهو جالس على دكة الجرب في الجاوي ؟ • الكلام على السُّبات والرؤيا والكشف • رؤيا عوض بامختار مع السيد أحمد بن حسين العيدروس • قصة العبد صاحب الطبل • قصة الذي عزم أن لا يأكل أربعين يوماً • من هو الغريب الذي سأل عنه الإمام عند طلوعه من الصالح إلى الحاوي ؟ • كلامه عن الأربعينية وهل تقام في تريم ؟ • ماذا قال الإمام عند خروجه من دار آل فقيه إلى دار آل عمر الحداد لزيارة مريض لديهم ؟ • الأبيات التي ذكرها الإمام الشعراني في كتاب اليواقيت والجواهر كتبها يهودي إلى الإمام القونوي في الرضا بالقضاء والقدر • التحذير من كتاب اليواقيت • علم الفقه وعلم الحديث في كل منهما فضول لا حاجة إليه • قوله : (كم من عطية بلية ، وكم من بلية عطية) • كلامه للوفائي المصري • قوله : (فقهاء الزمان ما عاد فيهم خير) • وغير ذلك كثير .



هـذا أوان الابتدا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أما بعـد :

قال العبدُ الفقيرُ إلى كرم الله الغني الكبير ، كاتبُ هذه الأحرفِ وراقمُها :

أحمدُ بنُ عبدالكريم الحساوي الشجّار ، سامحه اللهُ وعفا عنهُ[1] :

هذه كلماتٌ كُلِّيَّةٌ نافعة ، وحِكَمٌ جُمَلِيَّةٌ جامعة ، وجواهر نفيسةٌ غالية ، ولآلٍ أنيسةٌ عالية ، وهي قريبة العهد من موطنها ، طريَّةٌ غضَّةٌ من معدنها ، أَخرَجَتْهَا من بحر الحكمة الزخَّار أمواجُهُ المتلاطمة آناء الليل والنهار ، حتى ألقتها بأمر الله على ساحله ، فالتقطها من ظَفِرَ بها ونقلها وكتبها من فاز بها بأنامله ، وهي لِعِزَّتِها قليلة الورود ، عزيزة الوجود ، سريعة الشرود ، وكل كلمةٍ منها تعادل الدر عند الأحرار ، وإن لم يكن لها قيمة عند الجهال الأغمار ، إذ ما كل أحدٍ يعرف قدر اللؤلؤ ، لكن أهله ومن عرف عزيز قيمته غاصوا له في البحار ، حتى استخرجوه من تلك القعار ، ولكن هذه للآدمي قدرةٌ على التوصل إليها ، حتى يبلغها ويشرف عليها ، وأما هذه الجوهرة النفيسة العزيزة ؛ فلا وصول إليها إلا إذا هبَّت رياح الأقدار ، فحركت قلوب أكابر الأولياء الأحرار ، أخرجتها منها فألقتها على ساحل ألسنتهم فاختطفها من وجدها ، وضنَّ عليها من ظفر بها ، وذاقها وعرف قدرها وقيمتها من عرفها .

وقد جاء في الخبر : عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال : « استأذنتُ رسول الله ﷺ أن أقيِّد ما سمعته منه ، فأذن لي » ، فجاء عنه أنه قال : « حفظتُ من رسول الله ﷺ ألف مثل » ،

---

(١) إنما ذَكَرَ اسمه لما سيأتي من قول سيدنا له : « إذا أحد حصَّل شيئاً من الرسائل أو القصائد ، لا تدعه يسافر به حتى تقابله بيدك ، واكتب عليه بَلَغَ مقابلة على يد فلان ، واذكر اسمك واسم المصنف أو الناظم ، وأن هذا من تصنيف فلان ونظمه ، فالحذر تتركه حتى تقابله وتكتب عليه اسمك واسم المصنف أو الناظم » ، ومرةً قال : « اكتبه ، لأنك معروفٌ بتحصيل الكتب » ، يعني كتبه . فإذا كان هذا الحث الأكيد والتأكيد الشديد في تأليفه ونظمه مع شهرتهما ، فكيف في هذا النقل ، فلو قال : قال سيدنا كذا ، أو لم يذكر اسم ناقله عنه ، لتَشَوَّفَتْ خواطر سامعيه إلى معرفة من نقله عنه ، فإن في قاعدة نقل الحديث : « إن من نقل حديثاً عن من اشتهرت صحبته له صححوه ، أو لم تشهر صحبته له ضَعَّفُوه أو لم يَذْكُر الراوي عمن روى عنه زيَّفُوه وأدرجوه في حَيِّز الكذب » ، فافهم ذلك . اهـ حاشية المخطوط بقلم المؤلف .

هذا من الأمثال خاصة غير الأحاديث ، وأما أحاديثه التي رواها أربعة آلاف حديث .

وفي هذه المجالس من الأمثلة - كما ستراه - أمثلة مضروبة للمعاني المذكورة ومن الحكايات والقصص المستشهد لها بها ، ما إذا رآها من له ذوقٌ في العلوم يتحقق بذلك غزير علمه وغوصه في العلوم اللدنية ، وأن علومه مستمدة من العلوم النبوية ، وكذلك ما ترى من الاستعارات العجيبة للمعاني الغريبة ما يبهر العقول كقوله : « **الطُّعم تحت العَقْبة** » ، وقوله : « **لو كل من جاء نَجَر ، ما كان في الوادي شَجَر** » ، وقوله : « **فيما قيل له : ما حرفة أبيك ؟ قال : مفلِّح ، قيل : خَرَج رمضان** » ، وقوله: « **إن الله لم يضع مَدْرَة على بَعْرَة** » ، وقصة سارق آل باكثير ، وغير ذلك كثيرٌ كما ستراها موضحة في أماكنها .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « كان عبدالله بن عمرو يكتب ولا أكتب » ، لكنه قال : « شكوت إلى رسول الله ﷺ يوماً من النسيان ، فقال لي : ابسط رداءك فبسطته ، ثم تكلم في مجلسه ذلك بكلام كثير ، ثم قال : الفف رداءك . فلففته فما نسيت مما تكلم به شيئاً . ثم بعدها ما نسيت شيئاً من كلامه» ، أو كما ورد عنه ، فحزرت أحاديث أبي هريرة خمسة آلاف حديث ، وعائشة رضي الله عنها أربعة آلاف حديث . وإذا فكرت في كلمات سيدنا - نفع الله به - رأيتها مستمدةً من كلام رسول الله ﷺ لفظاً ومعنىً كما ستراه .

وكذلك قَيَّدَ أصحاب المشايخ المتقدمين ما سمعوا من مشائخهم ، كأصحاب الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه ، قيَّدوا ما سمعوا منه مما تكلم به على الكرسي وغير ذلك ، فَقُيِّدَ وَجُمِعَ في كتابٍ سمي : « جلاء الخاطر في كلام الشيخ محيي الدين عبدالقادر » ، وكذلك قيَّد عبدالله بن بدر الحبشي ما قَيَّد من كلام الشيخ محيي الدين ابن عربي مما تكلم به في مجالسه وأوقاته وما خاطب به غيره ، وما فصله من علمٍ أو شرحٍ لكلام من تقدمه ، أو تحدث به مع أصحابه ، أو شيءٍ مما فيه فائدة ، قال سيدنا: « **وقد كانوا مستعدين للنقل بآلته** » ، يعني أصحاب المشايخ المتقدمين كهؤلاء وغيرهم ، فإذا كان الأمر كذلك ففي أولئك قدوةٌ وأسوةٌ حسنة ، لمن حذا حذوهم وعمل مثل عملهم ، واقتدى بهم في ذلك فكانوا له حجة ، ولو قصر في النية عن شأوهم ، ولم يتخيل الناظر من طَرْفِهِ مثالهم، وإنما غاية مبلغه التشبه بهم ، وأن يحكي حكاية منصبهم ، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم .

ثم إني اقتديت بهؤلاء الأخيار ، فإنهم للدين منار ، وجمعت أيضاً نبذاً مما قَيَّدْتُهُ وكنت كتبته ونقلته من كلام سيدنا وقدوتنا ، ومن عليه بعد الله ورسوله عمدتنا السيد الشيخ الإمام ، القدوة للخاص والعام قطب الأقطاب ، ونخبة الأولياء الأحباب ، سيدي الحبيب عبدالله بن علوي الحداد علوي رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة ، مما تكلم به في مجالسه أو شرحه وفصله في

بيان مسألةٍ ، أو على حديثٍ ، أو على كلام أحدٍ ممن تقدمه ، أو على أي معنىً كان مما سمعناه منه ، فإنه لسان حال الوقت ، وقطب العصر وإمام الدهر ، وقدوة هذا الآن ، ومقدم هذا الأوان ، كما قد أجمع على ذلك أهل الظاهر وأهل الباطن ، وأهل الشريعة وأهل الحقيقة ، وأنه المجدد للدين في وقتنا ، وأنه الحامل للواء الحق فيه ، ومظهر أسرار الحق صُوَرِهِ ومعانيه ، نيابةً عن جده ﷺ ، وحامل اللواءين، لواء الشريعة ولواء الحقيقة ، المشتمل عليهما مقام القطبية ، وأنه لا يحمله عنه بعده من كل الوجوه إلا المهدي ، كما قال غير مرةٍ : « **عندنا أمانةٌ لا يحملها إلا المهدي** » ، وستقف على تحقيق ذلك في هذا النقل عن كبار العارفين المحقِّقِين ، من أهل الحق واليقين ، من أهل الظاهر وأهل الباطن ، وأهل النقل وأهل العقل ، ومن المكاشفات المحقِّقة لذلك ، والمرائي الصادقة والوقائع الشاهدة ، والعلامات الدالة القاطعة بذلك ، مما لا يمتري فيه من سمعها أو رآها ولو كثر تكررها ، فإن الأمر إذا تكرر تقرر .

وسمَّيتُ هذا النَّقل :

تَثبِيت الفُؤادِ

بذِكرِ كَلَام مَجَالِسِ سَيِّدِي القُطب السَّيد عبد الله الحَدَّاد نَفعَ اللهُ بِهِ

في ذِكرِ شيءٍ مِمَا تَكَلَّمَ بِهِ الأَكابِرُ في شأنِهِ ومما نَوَّهُوا بِهِ مِن وَصفِهِ

وَمِمَّا رَغَبُوا فِيهِ مِن مُجالَستِهِ وَمِمَّا حَضُّوا عَلَيهِ مِن الإقتِداءِ بِهِ

وَمَا رَغَبُوا فِيهِ مِن استِمَاعِ كَلَامِهِ

وَالانتِفَاعِ بِهِ وَبِأقوَالِهِ وَأفعَالِهِ وَأحوَالِهِ

رَضِيَ اللهُ عَنهُ

وقد قال السيد الكامل العارف بالله السيد محمد بن عبدالرحمن مديحج باعلوي رضي الله عنه - وكان من كبار العارفين أهل الحقيقة واليقين - قال : « كلام السيد عبدالله الحداد دواءٌ لأهل القلوب المنوَّرة، لأنه طريٌّ من عند ربه » .

فافهم كلام هذا العارف الولي المحقق ، فإنه ما يعرف أهل الحق على الوجه الأكمل إلا أهل الحق كما قيل : « لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل » فمن عرف الفضل لأهله فهو من أهل الفضل ، ومن لا يعرفه لهم فليس من أهل الفضل ، وأنشدوا في ذلك من جملة أبياتٍ منها : « لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه » .

قال عبدالعظيم[1] : سمعت شيخه الشيخ أحمد بن ناصر بن الشيخ أبي بكر بن سالم - صاحب الشحر - يقول : « السيد عبدالله بن علوي الحداد عطيةٌ من الله في هذا الزمان الذي خفي فيه الخير»، قال : وسمعته يقول : « السيد عبدالله له همةٌ علوية ، وحالٌ فائقٌ كأبي يزيد البسطامي فاغتنموه » ، وقال : « أود أن أرسل إلى أهل الجبال التى حول الشحر ينظرون إلى السيد عبدالله ، فإن النظر إليه مغنم » .

- وذلك لمَّا مَرَّ على الشحر سائراً إلى الحج سنة ١٠٧٩ - وهي سنة شلهام[2] - التي فيها القحط الشديد الذي عم كل الجهات ، كذا سمعت سيدنا يقول : « **كان حجنا سنة شلهام التي وقع فيها القحط الشديد الذي عم الجهات كلها ومكث نحو ثلاث سنين ، فقلنا : إن صار الزمان إلى أحسن من الوقت الحاضر فهو المراد ، وإن بقي على ما هو عليه فأولى ما يعانى أمر الله في وقت الشدة** » أو كما قال - .

وقال أيضاً : « السيد عبدالله ما جاءنا إلى الشحر إلا هديةً من الله تزورة » ، وقال أيضاً : « هنيئاً لكم بمجالسة السيد عبدالله وظهوره عندكم يا أهل حضرموت ، فإنه خليفة الله في أرضه » .

وسيأتي كلام الشيخ عمر العطاس ، وغير هذا من مشائخه أيضاً كذلك مدحوه وعظموا شأنه - وما أرويه مما وصفوه إنما ذكروا فيه من جلالة القدر - وسيأتي ذكره للسيد أحمد بن ناصر فيما ذكره هو - أعني السيد أحمد في سيدنا - .

---

(١) أي باشراحيل .

(٢) سُمِّيَت بهذا الإسم كغيرها من سنوات القحط التي أطلقت عليها أسماء مختلفة ، مثل : صلهام ، بلادان ، هبران وغيرها .

وقال السيد محمد مديحج أيضاً : « نحن ما أُذِن لنا في هذا الزمان ، والسيد عبدالله أُذِن - أي أُذِنَ له في الظهور والكرامات وخوارق العادات مع شدة كراهته لذلك ، وأذن له في الكلام في المقامات والأحوال - ولم يؤذن لنا في ذلك » .

ولهذا غطي عليه بالستر - أي السيد مديحج - وعلى أمثاله بالخمول والستر وظهرت لسيدنا ، وإنما صار السيد المذكور وأمثاله يرشدون الناس إليه ويرغِّبونهم في الإتصال به والإنتساب إليه - كما ترى هنا مما ذكرنا من أقوالهم وإشاراتهم - فهو المأذون له اليوم في التكلم في المقامات والأحوال ، وعلى أحوال الزمان وأهله ، إذ هو لسانه المعبِّر عنه .

وقال السيد محمد مديحج أيضاً : « لا تغتر في هذا الزمان بأحد ، ولو رأيته يفعل ما يفعل ، فإن أهل الزمان إن لم ينتموا إلى السيد عبدالله الحداد بالقلب ، وإلا ما جابوا شيئاً ، لأن الله وهبه أموراً لا تُكَيَّف ، لا تجلس إلا عنده فإن الفائدة في مجالسته » .

فافهم كلام هذا العارف الناصح ، واعمل على ما نصحك به ، فإنه لا يخبرك إلا بما رآه ، فلا ينبئك مثل خبير ، والعارفون يعرف بعضهم بعضاً ، ولكن لا بد أن يجعل الله منهم في كل وقتٍ للناس إماماً معيناً يقتدون به ومقدَّماً بينهم يتبعون أثره ، فإذا قدَّمه وجعله لهم قدوة فلا يقبل تعالى إلا عمل من اقتدى به ، فإنه على الحق الذي يقبله الله ، ويقبل من اقتدى به فيه ، ومن خالفه صار إلى الباطل الذي لا يحبه الله ، ولا يحب مَنْ عَمِله ، والصالحون الصادقون يحثون الناس ويسوقونهم إلى ذلك المقدَّم ، نصيحةً منهم لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم كما يذكر .

وسمعت ذلك من سيدنا غير مرة قال : « **إن رجلاً جاء إلى السيد عبدالله بن شيخ العيدروس - صاحب الرملة - يطلب الطريقة ، وجلس في مجلسه إلى أن تفرق الناس ، فلما خلا به قال له السيد عبدالله بن شيخ : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أريد صابوناً . فأمر له بصابون . فقال الرجل : أما ترى ثيابي خلقاناً فما أريد بالصابون ؟ إنما أريد صابون القلوب . قال السيد : أظنك تريد الطريقة ، فسر إلى الشيخ أبي بكر بن سالم بعيناتٍ يعطك الطريق فإنه المقدم في ذلك** » .

يعني إنه هو الذي قدمه الله في وقته لإعطاء الطريق وإرشاد الخلق إلى الله ، فنصحه السيد عبدالله وأرشده إلى الحق من طريقه ، ولو شاء لأعطاه ذلك ولكن علم أن ذلك الشأن ليس إليه ، إنما هو إلى الشيخ أبي بكر بن سالم في وقته فدله عليه ، وهكذا شأن العارفين الناصحين لله الداعين لدين الله ، فكذلك سيدنا عبدالله في وقته مُقامٌ فيما أقيم فيه الشيخ أبوبكر المذكور ، والشيخ السيد مديحج ومن ذكر معه هنا يرشدون الخلق إليه كإرشاد السيد عبدالله بن شيخ إلى الشيخ أبي بكر ونصيحته . وقد

سمعت سيدنا ذكر قصة هذا الرجل الذي قال : « أريد صابون القلوب » مراراً كثيرة – الحكاية بمعناها – .

وقال السيد محمد أيضاً : « إن أهل الزمان لا يتأسفون على السيد عبدالله إلا بعد موته ، خصوصاً العلماء فإنه حجة عليهم » .

فافهم من هذه الكلمات أنه القدوة لأهل هذا الزمان ، وكذا قوله : « إن لم يتتموا .. إلخ » ، وقوله : « لا يتأسفون.. إلخ » ، كما أشرنا إلى هذا المعنى -كما سيأتي في هذا النقل من قول سيدنا – في المعنى لما ذُكِرَ له أن فلاناً قال : ما في تريم إلا الفقيه المقدم في التربة ، وفلانٌ في الأحياء – أي السيد عبدالله الحداد يعني – نقل لسيدنا هذا القول عن الرجل القائل له ، ثم قال سيدنا لما سمعه : « **نعم ، ذاك قبرٌ** – أي الفقيه المقدم – ، **وهذا بابٌ ، ولكن ما يعرفون الباب حتى يصير قبراً ، فيعرفون أنه ذلك الباب الذي كانت تنفتح عليهم منه الأمور** » ، وسيأتي هذا الكلام مستوفى مشروحاً مُبَيَّناً إن شاء الله .

وقال السيد العارف بالله أحمد بن عمر الهندوان نفع الله به : « ما بقي اليوم شيخٌ مرشدٌ إلا السيد عبدالله الحداد » ، قال : « وظهر لي أنه مملي الكون » .

وقول السيد أحمد : « ما بقي اليوم شيخٌ مرشدٌ إلا السيد عبدالله الحداد » يحقِّق ما قلنا أن المقدَّم للإرشاد واحدٌ يجعله الله قدوة ، وكل صالحي وقته منطوون فيه يرشدون الخلق إليه ، وهو يرشد الخلق إلى الله ، وإلا فإن السيد أحمد شيخٌ مرشدٌ ، وإلا فما معنى قوله ذلك إلا أنه يريد أن الشيخ المرشد الذي أقامه الله اليوم لإرشاد الخلق بأمر الله هو السيد عبدالله ، كما سيأتي من قول سيدنا في الشيخ عمر المحضار : « **إن خلفه عشرين وأمامه عشرين كلهم في مقامه ، لكنه أقامه الله للإرشاد دونهم ، فظهر وخملوا وهم يرشدون الخلق إليه** » .

وقال السيد العارف أبوبكر بن سعيد الجفري باعلوي نفع الله به : « ما رأيت للسيد عبدالله مثيلٌ ، لأنه نَفَسٌ رحماني ، وقد اجتمعتُ بأزيد من أربعين وليًّا ما رأيت أحداً يساميه » ، وقال : « مجالسة السيد عبدالله علمٌ من غير تعَلُّم ، وفي مجالسته إكتساب الخير كله » .

وقال السيد العارف علي بن عمر بن حسين بن الشيخ علي بن أبي بكر نفع الله به : « السيد عبدالله الحداد ظهر في الكمال ، لأن أمر التصوف قد خفي ، ما ظهر اليوم إلا ببركته » .

وقال السيد العارف بالله علي بن عبدالله العيدروس نفع الله به : « السيد عبدالله الحداد سلطان آل باعلوي » .

قال عبدالعظيم : وممن أثنى على سيدنا الحبيب عبدالله الحداد نفع الله به ، شيخه السيد العارف بالله عمر بن عبدالرحمن العطاس باعلوي ، فإنه قال لجماعةٍ ذكروه له : « السيد عبدالله ثوبٌ طُوِيَ ، نُشِرَ في هذا الزمان ، لأنه من أهل القرن السابع ، إنما أخره الله سعادةً لأهل وقته » .

قال : فلما سمعت ذلك أخبرت به سيدي عبدالله ، فقال لي : « **يا عبدالعظيم ، أنا بحمد الله ما أنا من أهل هذا الزمان ، قد جعلني الله بينهم وأنا وحدي منفردٌ عنهم بقلبي** » ، كما قال في بعض قصائده :

وَأَنِّي مُقِيـمٌ فِي مَوَاطِـنِ غُرْبَـةٍ ... عَلَى كَثْرَةِ الأُلَّافِ فِي جَانِبٍ وَحْدِي

قَرِيـبٌ بَعِيـدٌ كَائِـنٌ غَـيْرُ كَائِـنٍ ... وَحِيدٌ فَرِيدٌ فِي طَرِيقِي وَفِي قَصْدِي

أقول : وقد رأيتُ بخط خادمه المحب المبارك عمر باحميد يقول : سمعت سيدي عبدالله مرةً - أو قال غير مرة - يقول : « **ما أنا من أهل هذا الزمان ، بل أنا من أهل القرن الثاني ، ولولا الأدب مع أهل القرن الأول لقلت أنا منهم ، لأن ما فيهم إلا الصحابة رضي الله عنهم ، فانظروا في حالي وحال أهل الزمان إن كنت أشبههم أو يشبهوني** » .

وتذاكرت في بلد زبيد مع السيد الكامل الفاضل العلامة يحيى بن عمر الأهدل نفع الله به في أحوال سيدنا عبدالله ، فقلت : إن شيخه السيد عمر العطاس قال : « هو من أهل القرن الرابع ، طوي وأخرج لأهل هذا الزمان » ، فقال : « من السادس وهو الواقع » ، وكأن عنده علماً من ذلك ، وقال: « إن السيد عبدالله علومه هو العلم الذي قال النبي ﷺ : اطلبوا العلم ولو بالصين ، وهو العلم الواجب » .

ومن مثله ؟ ومن يلحقه في الفضل ؟ فنرجو أن ينفعنا الله وأهل زماننا هذا ببركاته حيث كان فيه، وجمع الكلَّ وقتٌ واحد ، فإن أهل هذا الزمان كلهم مجمعون عليه في كل مكانٍ وكل طبقةٍ ، والناس اليوم ما بقي لهم فِعْل فضيلةٍ ولكن صحبة لأهل الفضل .

وكذلك جرت معي ومع ابن اخته السيد الفاضل أحمد شريف الأهدل مذاكرةٌ في سيدنا فقال : « سمعنا ذلك الكلام - يعني كلام السيد عمر العطاس - ولكن لم نتحقق وقوعه ، والآن تحققناه » ، وَذَكَرَ الإجماع على تفضيل سيدنا على من سواه .

وكذلك مذاكراتٌ في سيدنا مع الشيخ الكامل النقشبندي الزين المزجاجي ، وسأل عن مرض سيدنا ، فذكرت له بعض ذلك ، فقال : « أهل الطب يذكرون أن الروح باردةٌ لمخالطتها التراب ، وأهل الله يقولون حارةٌ ، لأن الروح إذا غلبت التراب أحرقته ، فلم يبق له معها سلطان » ، ومراده بالتراب: الجسم إذا غلبته الروح ضعف ، كما هو حال سيدنا عبدالله نفع الله به .

وقرأتُ عليه التائية من الديوان ، ثم تناول مني الديوان وأخرج العينية وقال : « اقرأها علي »، فقرأتها عليه ، فطلب أن أكتبها له مع سلسلة سند سيدنا في لبس الخرقة . فكتبتها له من الحديدة وأرسلتها له ، وقرأتُ عليه شيئاً من كلام الحبيب مما نكتبه مما يتكلم به في المجالس - وهو مذكورٌ هنا فيها - فقال : « هذا كلامُ مُحَقِّق » .

وسيأتي قول شيخه السيد أحمد بن ناصر - صاحب الشحر - عن نقل عبدالعظيم قال : « السيد عبدالله الحداد عطيةٌ من الله في هذا الزمان » .

قالَ عبدُالعظيم : وقد أثنى عليه خلقٌ كثيرٌ لا يحصون ، من الأولياء العارفين ، والعلماء المحققين ، بأنه قطب الزمان وكنزه ، وأنه إمامٌ عارفٌ ، وأنه بحر العلوم والمعارف ، وأن علومه لدنية ، ومباحثه غزالية ، وتصرفاته جيلانية ، وهِمَمُهُ جنيدية ومقاماته تسترية ، وأحواله بسطامية ، ونِسْبَتُهُ عُلويةٌ عَلويةٌ حسينيةٌ ، رحمةٌ وهدايةٌ ومعرفةٌ وولايةٌ ، وأنه قطبٌ على التحقيق ، وأنه أبٌ للصغير والكبير ، يرحم الأطفال والمساكين والحريم ، يتحَنَّن على كل ضعيف ، ويَلِين للفقراء والمساكين ويعظِّم العلماء والصوفية ، ويبذل النصيحة لكل أحد ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، تهابه الجبابرة والملوك ، ويعتز ويغتني بخدمته الذليل والصعلوك ، ويذل بين يديه أبناء الدنيا ، لين الجناب للسائل والمريد ، ويتلطف للدرسة ، ويملي العلوم من ظهر الغيب ، لأن علومه موهبةٌ من غير اكتسابٍ ، كثير العبادة ، متحققٌ في الزهد ، سمح النفس ، فصيح المنطق ، بسامًا شفيقًا متواضعًا ، من رآه أحبه ، له هيبةٌ ربانية وكشوفاتٌ غيبية ، وفتوحاتٌ لَدُنِّيَّة ، كثير الأحزان من خوف مولاه ، ينتفع به كل طالب ، مواهبه لا تُكَيَّف ، صاحب أسرارٍ ، أُذِنَ له في الإلباس وغيره ، متصلاً في جميع طرق التصوف .

أقولُ : قد جَرَّبتُ وجَرَّبَ غيري ، أن سيدنا إذا كَلَّمَ المحزون الذي أتعبه الحزن والهم ينجلي عنه في الحال ، ويتبدل بالفرح والسرور ، ويرى من يخاطبه أن له عنده منزلةً عاليةً كما ذكر ذلك من شمائل رسول الله ﷺ أن جليسه الذي يخاطبه يرى أن لا أحداً أعلى منزلةً له عنده منه .

قالَ عبدُالعظيم : قد قال لي يوماً : « **أُسِّسَ أمري وَبُنِيَ على الأكابر ، منهم : الشيخ عبدالقادر ، والفقيه المقدم محمد بن علي علوي ، وعبدالرحمن بن محمد السقاف ، وعبدالله بن أبي بكر العيدروس رضي الله عنهم . فهؤلاء الأربعة هم قوام أمري ، وهؤلاء هم سادة أهل التصوف وأئمتهم** » .

وقد انطوى فيه خلقٌ كثير ، وانتفع به جَمٌّ غفير ، وله مصنفاتٌ كثيرةٌ في علم التصوف ، وله ديوانٌ واسعٌ يسحر الألباب ، فيه علومٌ جمة ، ومعارفُ مفيدةٌ جدًا .

- أقول : قال : « قد أَوْدَعْنَا في الديوان من العلوم والأسرار ، ما لم نودِعْهُ في غيره من المؤلفات » ، وقال لمن يقرأ عليه فيه : « من عنده الديوان لا يحتاج إلى غيره » - .

يواصل أوقاته في الخير ليله ونهاره في قراءة القرآن والذكر وقراءة العلم النافع والصلاة ، لا يبات على معلوم ، يواصل جميع الإخوان ، له صدقاتٌ خفيةٌ وتصرُّفاتٌ غيبيَّة ، لا يطَّلع على أمره أحد .

ودخلتُ عليه يوماً ، وجلست معه فتحدث في الفضل ، ثم قال : « **أما أنا بحمد الله ، قد خرجتُ من نفسي والتجأت إلى ربي ، ولا يطرقني خاطرٌ في الرزق ، ولولا خوف الشهرة لشلت من تحت هذه القطيفة ما يكفي أهل تريم** » .

انتهى ما أردتُ نقله من كلام عبدالعظيم ، مع زيادة بعض الكلمات ، وهو من مؤلَّفٍ له في مناقب سيدنا وكراماته ، رأيته بمكة المشرفة فنقلته ، وهو نحو ثلاثة كراريس وليس هو في حضرموت .

ورأيتُ بخط سيدي السيد الشريف الجليل ، الحبيب أحمد بن زين الحبشي نفع الله به ، وعرضتُهُ عليه وأقرَّه ، قال : قال الفقيه باجبير : كنتُ خارجاً مع سيدنا السيد عبدالله الحداد ليلةً بعد المغرب من التربة ، فقال لي : « **يا فقيه ، إن حبيبك - يعني نفسه - قد له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية** » ، انتهى .

وبين قول سيدنا هذا لباجبير وبين وفاته مدةٌ طويلة ، أظن تبلغ نحو أربع وستين سنة أو قريباً من ذلك ، وقلَّ أن يبقى في هذا المقام من بلغه إلى وفاته إلا القليل من الزمان ، فإن أكثرهم بقاءً فيه من يبقى فيه نحو خمس سنين كالشيخ عبدالقادر ، وإنما الأكثر منهم من يبقى فيه إلا أياماً قليلة .

قال في المشرع الروي : « قال الشيخ عبدالرحمن السقاف : مكث الفقيه المقدم في القطبية مائة وعشرين ليلة » ، وقال فيه : « لا شك هو خاتم الأولياء » ، وخاتم الأولياء في اصطلاحهم : من بَلَغَ الوراثة المحمدية ، وهو مقام القطبية الكبرى ، كما يقال لمن ملك الروم قيصر ، والفُرْس كسرى ، وهذه مزِيَّةٌ عظيمةٌ خُصَّ بها سيدنا نفعنا الله به .

وكذلك سياق القول يدل أنه بلغه وسنه صغير ، وقلَّ أن يبلغه من بلغه إلا بعد تمام الأربعين ، الذي هو سن غالب الأنبياء الذي تأتيهم النبوة فيه ، وهو بعد بلوغ الأشد والاستواء ، كما قال تعالى في حق موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ، يعني النبوة .

وسيأتي من كلام سيدنا أن بلوغ الأَشُد العشرون والإستواء الأربعون ، وهكذا في جميع الأنبياء إلا اثنين : يوسف ويحيى . فيوسف بعد بلوغ الأشد وقبل الإستواء ، ولذلك قال تعالى في حقه : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ ، أي العشرين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ، ولم يذكر بلوغ الإستواء ، وقال تعالى في حق يحيى :

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قبل بلوغ الأشد ، في تفسير الجلالين : وهو ابن ثلاث سنين ، وأن بلوغ الأشد من الثلاثين أو الثلاث إلى الأربعين وهو الإستواء ، وكذلك عيسى نُبِّئ في بلوغ الأشد قبل الإستواء، قال في « المصباح المضيء » : « ذكر القضاعي أن عيسى عليه السلام وُلِدَ يوم الأربعاء ٢٥ من كانون الأول - وذلك سادس رشا للشبامي - وحملت به مريم ولها ١٣ سنة . قال الحسن : حملت به ست ساعات ، ووضعته من يومها ، وولدته في بيت لحم بالمهملة ، وتكلم في المهد ثلاث مراتٍ ، ثم لم يتكلم حتى بلغ حد الكلام، ولما تمت له ثمانية أيام ختن على مِلّة موسى ، وسمُّوه اليشوع وهربت به أمه إلى مصر ، وأقام بها ١٣ سنة ، ثم رجعت به إلى ناصرة من جبل الخليل عليه السلام ، فلما بلغ ٣٠ سنة جاءه الوحي ، وكانت نبوته ثلاث سنين ، وبَشَّرَ بنبينا ﷺ . فقال في إنجيل يوحنا - هو بعض تلامذة عيسى وإنجيله نسخة من الإنجيل - : احفظوا وصيتي ، فسيأتيكم الفارقليط وهو محمد ﷺ . قال وهب : توفى الله عيسى ثلاث ساعاتٍ من النهار ثم رفعه ، وعاشت مريم بعده ٦ سنين ، قال ابن قتيبة : بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ٦٢٠ عاماً » .

وسيأتي قوله : « **كل رتبةٍ من رُتَبِ النبوة تحتها رتبةٌ من رُتَبِ الولاية ، وهذه الأمور بحسب الإرادة الإلهية** - في الأمرين : النبوة والولاية - **وهي لا تتقيد بسببٍ ولا عادةٍ ، بل بما اقتضته كما اقتضته ، لا تدركها العقول ، ولا يتأتى دونها المحصول** » .

واعلم أن بلوغ سيدنا ذلك المقام الجليل قبل بلوغ الأربعين من المزايا العظيمة التي خصه الله تعالى بها في هذا الزمان ، لأن الفقيه باجبير كما سمعت سيدنا يقول : « **إنه كان من أهل دوعن ، فانتقل منها لما أخْرَبَها سيل الإكليل الأول ، وجاء إلى تريم ومكث فيها مدة طويلة في طرف النويدرة يقرِّي في الفقه**»، قال : « **فقرأت عليه في الفقه ، وحفظت عليه ربع العبادات من الإرشاد ، ثم سافر إلى الهند وبقي مدة ، ثم رجع وقرأ علينا في الإحياء ، ومن العجيب أنا كنا نقرأ عليه ثم رجع يقرأ علينا** » هـ .

أقول : رأيت بخطي نقلاً عن سيدنا ، أن سيل الإكليل المذكور كان سنة ١٠٤٩ فيكون سيدنا إذ ذاك ابن نحو خمس سنين ، وذكر أنه ابتدأ يقرأ على باجبير وسنه إذ ذاك أربع عشرة سنة ، فيكون نحو سنة ١٠٥٨ . ثم إن الفقيه سافر إلى الهند بعد ذلك بنحو سنةٍ أو أكثر ، وذكر أن دخوله الخلوة في الهجيرة سنة ١٠٦١ - وذلك في غيبة الفقير - وأنه بقي في الخلوة ١١ سنةٍ إلى سنة ١٠٧١ ، وفيها تزوج أول زواجٍ له بعربيةٍ من حافة مسجد الهجيرة في حياة أبويه .

وكان مرابطاً في خلوة ذلك المسجد ، وله متفطِّرين في شهر رمضان في خلوة ذلك المسجد على يد

خادم له وهو أحمد بن دامس ، وكل ذلك في حياتها ، ثم ظهر وجعل يقرِّي - أي هو يقريء الناس - في ذلك المسجد ، ثم جاء الفقيه وجعل يقرأ عليه في الإحياء ، وسِنُّ سيدنا إذ ذاك نحو ثمانٍ وعشرين سنة ، وفيها خرج من الخلوة - أي بعد زواجه - ولكن بقي يتردد إليها ، قال : « **نبقى فيها بالنهار وبالليل عند الأهل** » ، وفي نحو هذا السن - الثمان والعشرين - قال لباجبير تلك الكلمة .

وهذا يفهم أنه بقي فيه إلى وفاته أكثر من الستين ، ولو أرَّخ تلك الليلة حين قالها لما احتيج إلى كل هذا التخمين ، ولو عَلِمتُ بالحاجة إلى ذلك لقطعت الشك باليقين ، إما عن الحبيب نفسه بأن أسأله عن السَّنَة التي كان قرأ عليه فيها باجبير ، أو عن السيد أحمد متى حين قال الكلمة لباجبير .

فإنه لما كان سيدنا يقرأ عليه ثم جعل هو يقرأ عليه فصار من وجوهِ تلامذته ، فكان له لذلك زيادة خصوصية لما سبق لسيدنا عليه من القراءة ، ثم ما لحق له هو من القراءة ، فصار له حقان : حق المشيخة وحق التلمذة . وقلَّ أن يجتمعا ، فلذلك خصه بذكرها لأمرٍ رآه ولم يُطلِعْ عليها أحداً غيره ولم يذكرها إلا له ، حيث رأى في ذِكْرِها له خاصة مصلحةً تزيد على مصلحة الستر ، إذ مبنى سيرته أنه لا يستفزه غرضٌ ولا هوىً في ذِكْرِ شيءٍ من مناقبه قط .

وحاصل ما تقرر وضابطه : أنه دخل مقام القطبية سنة ١٠٦٩ وسنُّهُ ٢٥ قبل قوله لباجبير بثلاثة أيام . فعلى هذا إنها سنة ١٠٧٢ ، ووفاته ٨ القعدة سنة ١١٣٢ فعاش في مقام القطبية ٦٤ سنة .

والعجب أني كنت يوماً جالساً في بيت بعض الأخيار مع جملةٍ من الأخيار فسألني واحدٌ منهم والكل يسمع : « كم عاش السيد عبدالله من سنة ؟ » ، فقلت : ٨٩ ينقص ٣ أشهر إلا ٣ أيام ، فلما خرجت من المجلس لحقني منهم رجلٌ تَوَهَّمَ أني قلت : عمره ٨٠ . فقال : « نحن نسمع أنه مكث في القطبية ٦٤ ، وقولك ٨٠ إنما يكون دخله وهو ابن ١٦ » ، فقلت : عمره ٨٩ ، فدخله وهو ابن ٢٥ ومكث فيه ٦٤ ، فتبين له وزال عنه الإشكال ، وكان ذلك بعد عصر الإثنين ١٣ شوال سنة ١١٦٩ .

وأيُّ منقبةٍ أعظم من هذه ، وقد صَرَّحَ بِذِكْرِها له أهل الكشف أيضاً تصديقاً لقوله ، وَوَصَفَهُ بها كُمَّل الرجال من أهل الباطن وأهل الظاهر . انظر كيف لم تسمح نفسه أن يذكر تعبير رؤيا رأيتها وطلبتُ منه تأويلها ، فسألني عن شَرْطَيْن منها ، فلما أخبرته بهما وتحقَّقَ معناها وأن فيها إشارة إليه امتنع من تعبيرها ، وهو يَوَدُّ أن أطَّلِعَ عليه من غيره ، فمن قوة تصرفه ساقني القضاء والقدر أن فتحت كتاب « حياة الحيوان » ، فرأيت تعبير الرؤيا فيه بالشرطين اللَّذَيْن سألني عنهما ،

وسيأتي ذكر الرؤيا وبيان تعبيرها وبيان المعنى الذي منعه من تعبيرها .

وما ذَكَرَ تلك الكلمة إلا للفقيه باجبير لذلك وفي وقت خلوة ، والفقيه إنما خص بذِكْرِها السيد أحمد لأنه من كبار تلامذة سيدنا ، وعلم من سيدنا الإذن له في ذلك خصوصاً ، والسيد أحمد كتمها وكتبها خوف النسيان ، ولم يذكرها لأحدٍ لما علم من كراهة سيدنا لذلك ، وإنما وقفتُ عليها بخطه بعد وفاة سيدنا ، فنقلتها وقرأتها عليه في مسجده في خلع راشد ، لما مررتُ عليه مسافراً بعد وفاة سيدنا، فأقرَّ بأنه سمعها من باجبير عنه وأنه كتبها ، وأن هذا المكتوب الذي نقلت منه خطه كتبها خوف النسيان ، ولم يذكرها لأحدٍ وإنما وقفتُ عليها من خطِّه .

وأما نحن فلسنا في كتم السر مثلهم ، بل نَفُوهُ بها وننشرها وننادي عليها من كل سامعٍ ومجيبٍ ومذعنٍ بدلائلها القطعية عليها ، ممن أطلعه الله عليها من أهل الكشوفات من أهل مقامات الولاية ، لما أخبروا عنها له بعدما عاينوها ورأوها عياناً .

فيلزم تصديقهم فيما أخبروا به ، فمن لم يُصَدِّق فقد أنكر كرامات الأولياء ومن أنكرها أنكر أيضاً معجزات الأنبياء ، وإنكار ذلك إنكارٌ للقدرة الإلهية وإنكارها كفر ، لأن الله سبحانه وصف نفسه بأنه على كل شيءٍ قدير ، فكيف ينكر المؤمن العاقل القدرة التي أخرجته من العدم إلى الوجود ، والكلُّ من كُلِّ ممكنٍ أثرٌ منها والكُلُّ صادرٌ عنها ، فلا يصدر الإنكار إلا عن مجنونٍ أو عن جاهلٍ أحمقٍ ممهون .

فنذكر تلك الكلمة المسرورة للخاص والعام - سيما بعد وفاته - وإن كان عنوان حاله ينادي عليها ويصوِّت بها ويدل عليها ، حتى إني لا أذكرها لأحدٍ إلا وهو قبل ذلك معتقدها وقلبه منطوٍ عليها فيه بحمد الله ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ، وفي حياته كوشف له بها أهل الكشف وذكروها ونوهوا بها عليه كما ستسمع مما نقصه عليك .

وقد اشتهر رضي الله عنه عند أهل الظاهر وعند أهل الباطن ، وعند أهل الخصوص وعند أهل العموم ، كشفاً وإسناداً من أهل الكشف بها وأهل العلم ، وقد طار نسبتها إليه في الجهات والأمصار ، وانتشر صيتها له في الآفاق والأقطار ، وبلغ خبرها المشارق والمغارب وعند الإنس والجن وفي الملأ الأعلى ، كما ورد : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً أحبه أهل السماوات والأرض » .

وقد قال لي السيد الفاضل المتبحر في العلوم ، محمد بن أبي القاسم المعروف بأبي الطيب المغربي - بمدينة الأحساء - قال : « أنا من مولَّدي المدينة المنورة وأبواي من أهل المغرب ، فلما كبرت وبلغت الحُلُم سِرْتُ إلى المغرب لزيارة أخوالٍ لي - أو قال أعمامٍ لي - هناك ، فرأيت في المغرب رجلاً مشهوراً

بالولاية شهرةً عظيمةً ، وتأتي إليه القوافل للزيارة من أماكن متعددةٍ وجهاتٍ بعيدة ، ويفد الناس إليه بالهدايا ، وله سمتٌ عظيمٌ وصيتٌ شهيرٌ » ، قال : « فمضيت لزيارته ، فحين وقع بصري عليه ورأيت حاله اعتقدته كثيراً وخطر بقلبي أن هذا الرجل هو القطب اليوم - أي في هذا الوقت - فبمجرد خطور ذلك في خاطري التفت إلي وقال : يا ولدي ، ما أنا بالقطب اليوم ، إنما القطب اليوم السيد عبدالله الحداد باليمن » ، قال : « فمن حين ما قال لي ذلك وسمعته منه ، تعلق قلبي بالسيد عبدالله واعتقدته كثيراً » .

فانظر هذه المكاشفة العظيمة من هذا الولي الكامل الراسخة قدمه في مقام المكاشفة ، كيف كشف الله له عن حال سيدنا ومقامه في جهة المغرب في أقصى الأرض حيث تغرب الشمس وكذلك حيث تطلع عند مكاشفي أهلها ، وذلك أدل دليلٍ على تمكن هذا الولي في مقام الولاية والمكاشفة ، وعلى مقام سيدنا وشأنه عند الله ، حيث أشهره الله عند أهل الكشف من أهل الباطن قبل اشتهاره عند أهل الظاهر ، ثم صار مشهوراً عند الفريقين جميعاً . فدل ذلك على شهرته بذلك أيضاً في الملأ الأعلى ، وراثةً له من جده ﷺ ، حيث وَفَّقَهُ الله لكمال الإقتداء به ، وَمَنَّ عليه بحُسْنِ متابعته له ، فَمَنَّ الله عليه بشيءٍ من وَصْفِهِ ، فإن مِن وَصْفِ النبي ﷺ أنه قد أشهره الله في الملأ الأعلى عند الملائكة والنبيين ، حتى عرفوه وعرفوا فضله قبل أن يعرفوا آدم ونسله .

ومما يدل على كمال اقتدائه وحسن متابعته ووفور اطلاعه على غوامض أفعال النبي ﷺ وسَيْرِهِ على أثره : أني مراراً كثيرةً أسمعه إذا سلَّم من الركعتين الأولتين من الأربع التي قبل صلاة العصر يقول : « **السلام على ملائكة الله المقربين ، وعلى أنبياء الله المرسلين ، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين** » ، وأردت أن أسأله عن أصْلِ ذلك فما جسرت ، فمرَّ علينا في الدرس وقت العصر في قراءة من يقرأ في سنن أبي داود بإسناده إلى علي بن أبي طالبٍ كرم الله وجهه أن النبي ﷺ كان يصلي قبل صلاة العصر أربع ركعاتٍ يفصل بينهن بالسلام على الملائكة المقربين وعلى الأنبياء والمرسلين وعلى عباد الله الصالحين .

وقد أنشدت بين يدي سيدنا يوماً بقصيدةٍ مدح بها أنشئت فيه ، فلما سمعها قال : « **كل ما قيل فينا من المدائح فما وقع لنا منها طرحناه في بحر النبي ﷺ ، فإنه منبع الفضائل كلها ، وهو الممدوح بها كلها، فكل من مُدِحَ بفضيلةٍ فإن مدحه يعود إليه ﷺ** » .

إِذَا حَلُّـوا بِـأَرضٍ عَطَّرُوهَـا ... وَفَـاحَ بِهَـا الـمُعَنْبَرُ وَالعَبِـيرُ
وَيُـشرِقُ سُـوحُهَا بالنُّـورِ طُـرًّا ... وَيُصبِـحُ كُلُّ مُغـبَرٍّ خَضِـيرُ

يعني : كل مَدْحٍ في سيدنا أو غيره فهو في الحقيقة مدحٌ للنبي ﷺ ، لأن فضائلهم التي مُدِحُوا بها ما جاءتهم إلا من عنده ، وسيأتي هذا الكلام مفصلاً .

قال السيد أبو الطيب : « فمن حينئذٍ - يعني بعد مكاشفة ذلك الولي له بذلك - اعتقدت في السيد عبدالله بكونه هو القطب » .

الشاهدة بصدق كلمته التي قالها لباجبير ، لِعِظَمِ هذه المكاشفة الجليلة من هذا الولي المكين الدالة على رسوخ قدمه في مقام الولاية ، وتشهد لعلو منزلة سيدنا وعظيم شأنه ، ويؤيده ما تقدم وما يأتي من كلام أهل الكمال من السادة وغيرهم في عظيم شأنه ورفعة مكانه .

ومن العجب أن هذا الولي في الحال أخبر أبا الطيب بذلك وَعَيَّنَهُ وَعَيَّنَ بلده ، وأولئك الأولياء الكثير الذين كاشفوا السيد يوسف الفاسي بشيخه الشيخ أبي بكر بن سالم ، لم يعينوه له بل أشاروا له إليه ، منهم من قال له : « لك شيخٌ لم نعرفه » ، ومنهم من قال : « إن شيخك هذا لم يكن في غربنا » ، وغير ذلك من إشاراتهم على ما سيأتي من قوله في رحلته .

والفرق بين ذلك أن السيد يوسف في مقام الطلب ، فأشاروا له إليه ليحثوه على بذل جهده في طلبه ويدأب في ذلك ، وعرفوا من طريق كشفهم أنه سيعلم به من حيث الظاهر ، ومقصود ذلك المكاشف إزالة وهم أبي الطيب عن غير محله إلى محله الذي جعله الله فيه .

وقد جالست هذا السيد أبا الطيب مراراً كثيرة ، فلا يكلمني إلا بما يتعلق بسيدنا رضي الله عنه من السؤال عن حاله وسيرته وجميل أوصافه ، ويسألني كثيراً عنه ويطنب في وصفه . وقد رأيت منه ما يدل على قوة الإعتقاد والتعلق بذلك الجناب ، وكان يبلغني عنه السلام كثير مراتٍ في أوراق عمي إلي، ويطلب أن أبلغ حضرة سيدنا منه السلام ، وكنت أتعجب من كثرة سلامه بلا معرفةٍ منه لي ولا مني له ، ولا رأيته ولا رآني وإنما ذلك تحاببٌ منه في الله لذلك السبب لما سمع من خدمتي لسيدنا ، وإلا فما عرفني ولا عرفته وإنما ذلك لما ذُكِر .

وقد سمع هذه القصة منه مني خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ ، حتى إني كنت يوماً في بعض المحافل أقرأ عليهم في مجموعٍ عندي فيما يتعلق بسيدنا في هذه المادة - أي مادة كونه هو اليوم صاحب مقام القطبية- فابتدأ بعض طلبة العلم من الحاضرين ممن سمعها من السيد المذكور يريد أن يذكرها راوياً لها عنه، وهو القاضي المتوسع في العلم الشيخ عبدالله بن محمد بن عبداللطيف وفقه الله لما وفق له عباده الصالحين ،

فقلت له : ها هي مذكورة فاستمع لها .

وقال السيد الفقيه بركات بن السيد أبي الطيب المذكور : « أشهد لله لقد سمعت هذه القصة من الوالد بهذا المعنى وعلى هذا الوجه » ، وقال : أعمامٌ له - أي بدل قولي أخوالٌ له والمعنى واحد - قال : « وقال الوالد : إن العلماء يقولون : إذا جالست الحكام فاحفظ لسانك ، وإذا جالست الأولياء فاحفظ قلبك . فجلست بين يدي ذلك الولي متأدباً ، فخطر بقلبي أن هذا الولي اليوم هو صاحب الوقت وأنه هو القطب اليوم ، فعند ذلك في الحالين التفت إلي وقال : يا ولدي ما أنا القطب اليوم ، إنما القطب اليوم السيد عبدالله الحداد » ، فهذه روايته هو عن أبيه ، والأولى كما سمعته أنا عن أبيه .

وقد وقفت لسيدنا على رؤيا رآها هو - بخط من ذَكَرَ له تلك الرؤيا من خواص أصحابه - دالة على تحقيق مكاشفة ذلك الولي ، كما هما دالتان على تحقيق وصدق كلمته لباجبير ، رآها فيما سبق من الزمان ، وأخبر بها بعض خواصه الذين قد يُطلِعهم على بعض أموره ، فكتبها استذكاراً لها لئلا ينساها ، ووقفت عليها بخطه ونقلتها من خطه حرفاً بحرفٍ ، وما أدركته وإلا لكنت عرضتها عليه ، وصورة الرؤيا قال: قال سيدي القطب الرباني ، السيد الأكبر والغوث الأشهر ، عبدالله بن علوي الحداد علوي الحسيني نفع الله به ، قال : « **رأيت كأني في مسجدٍ يشبه مسجد قيدون في رواقه النجدي ، وكأن فيهم خلقاً كثيراً** » ، قال : وفيهم من أصحابه جماعةٌ من جملتهم السيد حسن بن علوي الجفري ، قال: وكأن واحداً أتى إليه ، وقال له : أنت صاحب الوقت ؟ ، أنت الغوث ؟ قال : « **قلت : لا ، ما هو أنا** » ، قال : أنت ، حتى أكثر عليه ، وهو يقول له : « **لا ، ما هو أنا** » ، ثم بعد خرج هذا الشخص إلى حوش المسجد ، وقال بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن عبدالله بن علوي الحداد القطب .

قال : « **ثم بعد أتى إليَّ وشقَّ على صدري ، ولم أحس لذلك ألماً وأخرج قلبي وجعل يغسله ، ويخرج منه أشياءَ لم أرها ، وكأنه يريد أن يجعل فيه شيئاً بعد أن يفرغه** » ، قال : « **فذكرت عند ذلك قصة شق قلب المصطفى ﷺ ، وإيداع العلم والحكمة فيه** » ، قال : « **والرؤيا جزءٌ من النبوة ، وهي تسر ولا تغر، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه** » هـ ، قال الراوي : انتهى من لفظه .

أقول : وقد قرأت أنا هذه الرؤيا هكذا بهذا اللفظ وهذه العبارة على سيدنا نفع الله به ، تحقيقاً لصحتها عنه ، فسمعها وتأملها وهو ساكتٌ ولم يتكلم بحرفٍ ، والسكوت إقرارٌ وتقريرٌ ، ولا يحتاج إلى اللفظ والتعبير .

والعجب أنه تلفظ بها بهذه العبارة في ذلك الزمان الصالح على من يستحق مشافهته بها ، واليوم ما سمح لي بتلفظ تعبير تأويل رؤيا لي في زمننا هذا ، لنقصنا ونقص زمانٍ نحن فيه ، وليس في الزمان بالنسبة إلى القدرة نقصٌ ، وإنما نقصه عبارة عن نقص أهله .

وكذلك من العجب أن ذلك المكاشف صَرَّح بِذِكْرِ سيدنا لأبي الطيب ، وأنه صاحب ذلك المنصب الجليل في هذا اليوم ، وما قاله إلا عن إذنٍ في ذِكْرِهِ وذِكْرِ بلده ، وما أذن للذين كاشفوا السيد يوسف الفاسي حيث أشاروا له إلى شيخه ولم يذكروا له اسمه واسم بلده ، وإنما هذه خصوصية أخرى لسيدنا فافهم .

وقال عبدالعظيم باشراحيل - أقول : ولعله هو الناقل لها عنه - : سمعت سيدنا عبدالله يقول لبعض السادة العارفين : « **رأيت البارحة كأني جالسٌ بين الشيخ عبدالرحمن السقاف وولده عمر - يعني المحضار - فتذاكرنا في شأن الولاية ، فخطر لي حال الشيخ عمر . فقال الشيخ عبدالرحمن : يا سيد عبدالله حال عمر لا يحتمله الزمان ، وقد وهبك الله من العلوم والرحمة ما هو خيرٌ لك . فأَذِنَ لي أن أتكلم ، فتكلَّمتُ بالعلوم اللدنية ، فبكى رجلٌ كان حاضراً من جماعتي ، فقلت له : يا هذا ، إني لم أتكلم لأجلك ولا لأجل هذا الناس ، إنما أنا مأمورٌ به ليبلغ ناساً بالمشرق وناساً بالمغرب ، ويسمعه روحانيون ومؤمنوا الجن** » ، ثم قال : « **الأمر هكذا فتحققوا ما قلت** » .

وسيأتي ذِكْرُ هذه الرؤيا قريباً ، وهي التي رأيت أني أسبح في ماءٍ ، وأظن أن هذه الرؤيا كانت في وقتٍ قريبٍ من وقت ذِكْرِهِ لباجبير ما تقدم ذِكْرُهُ ، فإنه قال حينئذٍ : « **منذ ثلاثة أيام** » ، ولعلها في الأيام الثلاثة أو قريباً منها ، ويدل على ذلك تقدمتها - أي الرؤيا - لذلك المقام العظيم ، كما تقدم عواين النبوة للنبي ﷺ بالوحي بالرؤيا الصادقة - قبل الوحي - بإرسال المَلَك إليه ، حتى كانت رؤياه كفلق الصبح ، بكون كل ما له يزيد . فتقدمت هذه الرؤيا لسيدنا مُقَدِّمةً لذلك المنصب الجليل والمقام الحفيل، الذي شهد به له أهل الكشف والعرفان من معاشر الإنس والجان ، وأجمعوا عليه حتى لا يمتري فيه ملكٌ ولا إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا شيطان ، وفي الحديث كما أشار إليه : « الرؤيا الصالحة - أي الصادقة - جزءٌ من النبوة » ، وقال الله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وقيل البشرى : الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له ، وفي الحديث : « ما بقي اليوم من أمارات النبوة إلا المبشِّرات، الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له » .

وقد زار سيدنا يوماً مسجد الهجيرة ، وهو مسجده الذي كان مرابطاً فيه وزاويته - أي خلوته - التي كان اختلى فيها أيام بدايته الأحد عشرة السنة كما تقدم ، فدخله وصلى فيه الضحى ونحن معه ثلاثةٌ معنا قائد الفرس ، فلما خرجنا منه قال لي : « **قد لي ليالي وأنا أرى كل ليلةٍ كأني في مسجد الهجيرة ، فلما كان البارحة رأيت كأني فيه أنا وإياك ، وكأنك حالاً في الزاوية الهابطية ، وكنا حللناها زماناً طويلاً ، وكأن عندك طبقاً فيه رُطَبٌ زين جم عشدلي ، وكأنه من خريف جرب المسجد** - أي ثمر بستانه - **وكأن الولد حسين عندك** ، أظنه قال : **يناولك** ، أو قال : **تناوله** » .

فهذه وأمثالها إن شاء الله من المبشِّرات وغير ذلك كثيرٌ لا يحصى من المبشِّرات وفيها رؤياه المتقدمة إشارة إلى قوة متابعته للنبي ﷺ ، حتى رأى في نفسه شبهاً مما اختُصَّ به النبي ﷺ كما ذَكَرْنَا آنفاً ، وذلك ما ذكر فيها من شق صدره وإيداع العلم والحكمة فيه . وليست هذه رؤيا منام ولا أضغاث أحلام ، وإنما هي رؤيا كشف مما اختُصَّ به الأولياء الأعلام خيرة الأصفياء الكرام .

وقد رأيتُ بخط السيد الفاضل عبدالرحمن بن محمد بن عقيل بن زين باعلوي قال : أخبرني السيد الشريف الفاضل أحمد بن عقيل بن يحيى باعلوي ، قال : أخبرني رجلٌ ثقةٌ من أهل مكة المشرفة ، قال: إنه تخلف عن زيارة النبي ﷺ مدة عشر سنين قال : فرأيت النبي ﷺ في منامي ، فقال لي : يا عبدالله لِمَ لَمْ تزرنا ؟ أما علمتَ أن من زار السيد عبدالله بن علوي الحداد قُضِيت له سبعون حاجة ، فكيف من زارنا ؟ . تمت الرؤيا المباركة ، وهي أيضاً من المبشِّرات .

وقد رأيتُ رؤيا أوائل ما وصلت إلى حضرة سيدنا نفع الله به ، تشهد لمكاشفة ذلك الولي الذي في بلاد المغرب للسيد أبي الطيب ، وهي أني رأيت كأني وسيدي القطب الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن نفع الله به في جمعٍ ، وأراه متقشِّفاً جداً ، وثيابه التي عليه خلقانٌ بالية ، إنما عليه ملحفة خَلِقَة متمزعة من كل جانب ، وكأنه في شبه السيد شيخ بن إبراهيم من آل السقاف - من أهل قَسَم - فتعجبت من أمره واستنكرت من حالته هذه ، حيث هذا خلاف ما بلغنا عنه ، ووددْتُ لو تفرغت معه لأسأله عن ذلك ، وقلت في نفسي : لو خلوت به لفاتشته في ذلك ، حيث إنا نسمع عنه خلاف هذا .

فما لبثت وأنا أشتهي الخلوة به أن جاء داعٍ دعا أولئك الجماعة ، وقال : فلان يدعوكم . فأجابوا داعيه ومضوا إليه ، فخلوت بالشيخ فأقبلت عليه ، فقلت له : يا شيخ أبابكر ، ما هكذا ما كنا نسمع عنك ، أين صولتك ؟ أين كراماتك التي كنا نسمع عنك ؟ وأنك كنت تلبس غلمانك وخدامك الثياب

الفاخرة النفيسة الغالية القيمة أغلى من ثياب الملوك ، فما بالك هكذا متقشِّفاً ؟ فقال : اليوم الناس غير الناس ، والزمان غير الزمان ، كان ذلك في وقتنا والوقت لنا ، واليوم الوقت لغيرنا ، فقلت له : ومن هو الذي الوقت له اليوم ؟ فقال : الآن أريك إياه .

فإذا بالداعي الذي دعا أولئك الجماعة قد جاء يدعونا وقال : فلان يريدكم ، وسمى الذي سماه لأولئك الذين دعوا قبلنا ، وما أتقنت اسم الذي سماه ، فقام الشيخ في الحال مسرعاً وقمت معه مجيبين لداعيه . فمضى بنا الداعي إلى باب بيتٍ يشرف على حوشٍ كبيرٍ واسعٍ جداً ، وفيه خلقٌ كثيرٌ وهو ملآن منهم ، وقد ضاق بهم المحل على وُسْعِهِ من كثرتهم ، وفيهم الذين كانوا معنا ونُودُوا قبلنا ، وهم مستندون على الجدار وحافون به دائرين عليه كالحلقة وفي صدر المجلس رجلٌ هو الذي دعاهم، والناس عن يمينه صافون إلى شماله ، وهم متأدبون معه غاية الأدب ، مُطرِقين رؤوسهم في حضرته، لا يتكلمون ولا يلتفتون مُغضين أبصارهم حياءً منه ، وهو يبدأ بالمصافحة وبالقهوة ولا يصافَح في مجلسه أحدٌ غيره ، وكل من صافحه قابله بوجهه ومشى القهقرى إلى قفاه حتى يجلس ، ثم يبقى مطرقاً برأسه .

فلما وقف الشيخ على باب الحوش ونظر إلى الرجل أطرق برأسه وأغضى بأجفانه حياءً منه ، ووقفت معه ، فقال لي : هذا هو صاحب الوقت اليوم ، والوقت اليوم له هو صاحبه ، ثم ولج من الباب مُطرِقاً مُغضياً وَوَلَجْتُ معه داخلين جميعاً ، ثم سرنا معاً وما زال مطرقاً ينظر موضع قدميه حتى وقفنا عليه ، وصافحه الشيخ وقبَّل يده ثم مشى القهقرى كغيره ، ومضى حتى جاء إلى صف النعال فجلس هناك عند النعال .

فهكذا شأن من عَظُمَ قدره وعلا مكانه حاله التواضع ، فلما كَمُلَ حاله وشَرُفَ قدره زاده ذلك تواضعاً ، فهم يعرفون لذي المنزلة الرفيعة منزلته ، ويتواضعون له ويتأدبون معه على حسب حاله .

ثم إني أقبلت على الرجل بعده ، وقبضت يده فصافحته وقبَّلتُ يده ، ثم رفعت رأسي إليه ونظرت إلى وجهه فإذا هو سيدي الحبيب عبدالله الحداد نفعني الله به ، فلما عرفت أنه هو برد خاطري وكنت منه في خفرٍ عظيم ، وعلمت أني آهلي - من أهل المكان - فأردت الجلوس بالقرب منه لكنني استحييت من الشيخ أبي بكر ، حيث إني جئت معه وجلس هو في صف النعال وأجلس أنا عند صدر المجلس ، فجئت إلى جنب الشيخ وجلست بينه وبين النعال .

إلى هنا انتهت هذه الرؤيا المباركة وهكذا صورة ما وقع في الرؤيا ، وأستغفر الله إن زاد في قصها شيءٌ ، وهي شاهدٌ بَيِّنٌ ودليلٌ واضحٌ وصريحةٌ في المعنى - أعني اختصاصه بمقام القطبية - كما أَسَرَّه لباجبير ، وكما كاشف به ذلك الولي الذي بالمغرب للسيد أبي الطيب ، وكل ذلك محقِّقٌ لذلك ، مع ما

انضم إليه أيضاً من مكاشفات الصالحين ، وأقوال أهل الحق والحقيقة واليقين ، مما يحقِّق ما ذَكَرَهُ للفقيه باجبير .

وأول ما قصصت هذه الرؤيا على سيدي حسن بن سيدي الحبيب عبدالله ، فقال : « **قصها على حبيبك** » ، يعني والده ، فقلت : لا أجسر أن أقصها عليه . فكأنه ذكرها لأبيه ، فدعاني سيدي عشية ذلك اليوم بعد درس العصر إلى موضعه الذي كان يجلس فيه أيام الصيف بعد فراغه من الدرس إلى الإصفرار ، وهو شرقي داره بالحاوي مقابلة النخل ، فقال : « **كيف رؤياك التي رأيت ؟** » ، فقَصَصْتُها عليه بهذه العبارة ، فلما سمعها تكلم في نفسه بكلامٍ سِرًّا ما فهمته ، وسألته : ما سبب مشابهة الشيخ لذلك الرجل ؟ فقال : « **لعله حصل له منه حالٌ أو مَدد** » . وكأن الرجل قد حصل عليه جذبٌ وعليه سيما الصالحين .

وَمِن العَجِيبِ مما يدل على عظيم تصرُّفه ، وشدة كراهته للشهرة والإطراء وقوة محبته للخمول ، كما سمعته يقول : « **لا أحب الشهرة لي ، ولا لمن أحب** » ، وذلك أني رأيت أيضاً أوان وصولي إلى حضرته رؤيا وَبَقِيَتْ تَتَكَرَّر لي مراراً إما في كل ليلةٍ أياماً ، أو في ليلةٍ من وراء ليلةٍ حتى تكررت مراراً كثيرة ، فاستنكرت من كثرة تكررها ، فلو كانت مرةً أو مرتين أو ثلاثاً لما استنكرت من ذلك كبقية الأحلام ولا سألت عنها ، فرأيتها على عادتها ليلة الأحد ، وأصبح سيدنا الحبيب خارجاً إلى السبير على عادته، فأخبرته في الطريق بها وطلبت منه تأويلها ، فقلت : رأيت البارحة كأني وقفت على حافة نهرٍ ودخلته وسبحت فيه ، فقال : « **أتحسن السباحة ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **والماء عذب ؟** » ، قلت : نعم ، ثم سكت ولم يؤوِّلها ، فقلت : أوِّلوها لي ، فلم يرد لي جواباً ، فقلت : فما تأوِّلونها لي لأعرف تأويلها ، فما تكلم بحرفٍ ، وسكت فسكت .

فلما رجعنا من السبير فتحت الخزانة وقد بدا لي مراجعة كلمةٍ في كتاب « حياة الحيوان » فأخذته- وليست رؤياي تلك الساعة لي على بال - ففتحت الكتاب ، فأول ما قابلني في أول مرةٍ قوله التعبير مكتوباً بخط أحمر - كما هي عادته - فتأملت في عبارته في ذلك الموضع وإذا هو يقول : « من رأى أنه دخل نهراً عَذْباً وهو يُحسِن السباحة ، فإنه يخالط رجلاً من الأكابر » ، فعند ذلك ذكرت رؤياي تلك وعرفت تأويلها الذي أبى أن يذكره لي وفهمته من الكتاب ، وعجبت من ذلك الإتفاق ، ولو قصدت طلبه من ذلك الكتاب عالماً به ما اتفق لي من أول مرة .

فالعجب أن سألني عن هذين الأمرين اللَّذَيْنِ هما شرطٌ لهذا التأويل بهذا المعنى كون الماء عذباً وكوني أحسن السباحة . ثم سكوته عن التأويل لمعنىً في نفسه - حيث في تأويلها إشارةٌ إليه - ثم تيسير

الهمة مني أن فتحت الكتاب لغرضٍ آخر فوافق حصول المقصود ، ثم إنه في أول مرةٍ حين فتحته قابلني ذلك التعبير والتأويل المطلوب المعبر عنه بتلك العبارة ، وذِكْرُهُ هذين الأمرين المشروطين اللَّذَيْنِ سألني عنهما ، ثم ذِكْرُه التأويل الذي هو المراد ، وقد سكت عنه سيدنا غير مستحسنٍ لذِكْرِهِ حينئذٍ من نفسه ، لما يعلم له فيه من الإطراء المشار إليه به وهو قوله : « يخالط رجلاً من الأكابر » ، وما هناك أحدٌ من الأكابر يخالطه أكبر شأناً منه ، وكان راغباً في وقوفي على تأويلها من غيره ، ومترجحاً في خاطره أني سأقف عليه فاختار ذلك من غيره لا منه .

وتوقفه عن التأويل كتوقف الذين كاشفوا السيد يوسف الفاسي لشيخه الشيخ أبي بكر بن سالم ولم يبيِّنوه له ، حتى إن واحداً منهم لما ذَكَرَه له ، قال له : « أنتم تذكرون لي شيخاً ولم تعلموني به ، أخبروني به حتى أقصده » ، فقال له : « هل أخبرك به أحدٌ غيري ؟ » ، قال : « نعم فلان » ، وكان رجلاً مجذوباً يتكلم على الخواطر ، فقال له ذلك الذي أخبره : « إن كان أحدٌ مخبرك به فما يخبرك إلا هو ، فلازِمْه على أن يخبرك » ، يعني إنه لما كان رجلاً مجذوباً - والمجذوب معذور فيما يخبر من المغيبات ليس كمثلنا - فلازَمَه في ذلك وعالَجَه ، فما زاده على أن قال له : « إنك ستعرفه ، اصبر إلى أن يجيء وقتك » .

فأعيته فيه الحيلة ، ثم قصد آخر في طرفٍ بعيدٍ منه ، فقال له قبل أن يكلمه : « كأنك تطلب شيخاً لك لم تعرفه » ، قال : « نعم » ، قال : « إن أردتَ حلفتُ لك يميناً مغلَّظة في مسجد القرويين بين المنارة والمحراب ، إن شيخك هذا ليس في غربنا » ، فأيَّسه من المغرب فقصد إلى مصر ، فبَيَّنَهُ الله له على يد الرجل الذي من المحلة كما سيأتي كل ذلك في نقلنا له من قوله في رحلته .

فسكوت كل هؤلاء الذين كاشفوه به ، اعتماداً على أن الله سيُبَيِّنه له في عالم الحس ، فاكتفوا به عن ذكره له من باب الكشف ، كما اعتمد سيدنا عن التأويل الذي فيه الإطراء على بيانه من الكتاب .

وَمَا يَدُلُّ على عظيم تَصَرُّفِهِ وشدة كراهته للشهرة إذ لا يحبها لنفسه ولا لمن أحب - حتى أنه مرةً قال : « **لا أحبها ولا أحب من يحبها** » - : أن الأكرم الأخ الشيخ عبدالرحمن بن أحمد باكثير الشحري ، علمني للحمى عزيمةً مجرَّبةً فاستعملتها للمسلمين وجربتها لأناسٍ كثيرين ، واشتهر أمرها بحضرموت ودوعن ، حتى أن أناساً من دوعن يرسلون يطلبونها ، فسمع سيدنا بذلك فقال لي : « **كيف العزيمة التي تفعلها للحمى؟** » ، فأخبرته بها وقلت : علمنيها فلان ، فلما سمعها سكت ولم يتكلم لي من جانبها لا بأمرٍ ولا نهي ، لكنه سَلَبَ نَفْعَها فما بَقِيَتْ بعد ذلك تنفع بشيء ، فتركتها مدة حياته مع كثرة طلب الناس لها . ثم بعد وفاته جعلت أستعملها في بعض الأوقات لبعض الناس رجاء أن يرد الله خاصيتها لنفع المسلمين ، فمرةً تفيد لا كالأول ومرةً لا تفيد ، وإنما فَعَلَ سيدنا ما فَعَلَ

بتصريف الله له في ذلك وفي غيره ، خوفاً على محبيه وخدامه من ضرر الشهرة .

وفي ذلك وفي أمر الرؤيا المذكورة غاية العجب ، فاعجب لهذا التصرف العظيم الغريب ، والشأن الشريف العجيب ، الذي خصه الله به في هذا الزمان ، كخصوصياته المتقدم ذكرها وغيرها مما لا يحصى، وذلك عكس ما عليه المدعون المفتنون في هذا الوقت من مدحهم أنفسهم ، ورفعهم صيتهم وذِكْرِهم كراماتهم وتصرفاتهم ، وقولهم نحن نفعل ونترك ونضر وننفع ، ويزعمون أنهم متصرفون في الكون ، وأنهم يفعلون بالناس ما أرادوا ، دعاوى كاذبة وأماني باطلة ، ما لهم بذلك من سلطان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾. أي يكذبون ، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾أي الكذابون ، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وأدَّب بذلك خلقه ، وعتب على من قال : أفعلُ كذا ، ولم يقل إن شاء الله .

ثم إن هؤلاء يزعمون ويدَّعون هذه الدعاوي كذباً وزوراً ، فلو كانوا من أهل الصدق لسكتوا عن كل ما لهم فيه إطراء وإن كان صدقاً – كما فعل سيدنا – ولم يدَّعوا شيئاً في مملكة الله ، فإن من ادَّعى قيَّض الله له من يبيِّن كذبه ، كما سيأتي من قوله : « **كل مُدَّعٍ مخذول ، ولا بد أن يقيِّض الله من يعجزه ، فينخذل ولو كان كثير العلم** » .

فاعرف بذلك – أي بالدعوى وعدمها – أهل الحق من أهل الباطل ، ففي ذلك علامةٌ قاطعة تبين لك الفرق ما بين الفريقين ، أهل الحق المتحقِّقين بالحق والحقيقة من المحقِّقين ، وبين الكذبة المرائين الملبِّسين ، الذين ما لهم مقصدٌ إلا محبة الجاه والمال ورفع النفس ، من الجهلة المدَّعين المروِّجين على الناس الباطل في معرض الحق ، وقد اغتر بهم كثيرٌ من الناس فاتبعوهم وصدَّقوهم فيما ادعوا ، وادعوا لهم ما ادعوا لأنفسهم ، وحققوا لهم دعاويهم الكاذبة ، ودعوا الناس إلى أمانيهم الباطلة .

وَقد سمعتُ سيدنا يقول : « إن رجلاً قال لرجلٍ آخر ، لا نعدُّه من أهل الإيمان الكامل : إني أعتقد فيك أنك في مقام الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، وهو لا يجيء شعرة من جسد الشيخ عبدالقادر ، ولكن لهم حظوظٌ وأهوية ، تدعوهم إلى الدعوى لأهل الدعوى ، ونحن لا عاد نصدق من ادعى ولا من ادُّعِيَ له» ، أي فصار كلٌّ من المدعي ومن ادعى له تابِعَيْنِ للحظ ، وهم يحسبون أنهم تابعون للحق وشتان ما بينهما ، فإن الحظ داعية النفس إلى الباطل ، والحق داعية الحق إلى الحق ، وداعية النفس هو الهوى الذي قال الله فيه : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ ، ونهيها عنه هو داعية الحق ، وإجابتها إلى ما تدعو هو الحظ والباطل .

وقد يشتبه الحق بالباطل والمحمود بالمذموم ، حتى قد يُسمَّى باسمه لمشابهته له ، كما اشتبهت الغبطة المحمودة بالحسد المذموم ، حتى سُمِّيَت باسمه في حديث : « لا حسد إلا في اثنتين » أي لا

غبطة، وهي أن تشتهي الخير وترْغَب فيه كصاحبه وتود أن لك منه مثل ما له ، من غير أن تتمنى زواله عنه ، فلعل ذلك يجرُّك إلى فعله ، وهو مباحٌ في المباح ، ومكروهٌ في المكروه ، وحرامٌ في الحرام ، ومطلوبٌ في المطلوب وجوبًا أو ندبًا ، فإن تمنَّى زواله ممن أوتيه فهو الحسد .

والحسد مذمومٌ بكل وجوهه ، وهو أن تريد خلاف ما أراد ربك ، بأن تتمنى زوال نعمة من أراد الله له ذلك وأعطاه إياه ، وأي حمقٍ وجهلٍ يزيد على حمق وجهل من يريد الأشياء تكون على مراده لا على مراد الله ، ففي الشرع أمورٌ مطلوبةٌ وأمورٌ مذمومة ، ويشتبهان كالغبطة المحمودة والحسد المذموم، والكبر المذموم بالعزة المحمودة ، وهي تجنب ما يُذَم شرعاً ومروءة ، قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والترجي المحمود وهو أن يرجو بعد استيفاء الأسباب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، فما سماهم راجين إلا بعد أن فعلوا هذه الأفعال الجميلة ، ويشبه بالتمني المذموم وهو الرجاء بدونها وذلك هو الإغترار القبيح، فالمدَّعون يروجون الحق في معرض الباطل ليرفعوا أنفسهم عند الناس ولكن فيه وضعهم عند الله ، ثم بعد ذلك يظهر وضعهم عند الخلق كما قد شوهد ذلك غير مرة .

وكيفية ترويجهم أن يذكروا شيئاً من الحق لمن يعرف ذلك ويقبله ، ثم يُدخِلون معه أشياء من الباطل لا يعرفها فيقبلها منهم مع قبول ذلك الحق بلا شعورٍ منه لذلك الباطل ، حيث إنه لم يعرفه ويحسب أن الكل حقٌّ ، ولهذا طُلِبَ أن يدعو المؤمن بهذا الدعاء : « اللهم أرني الحق حقًّا وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه » ، وقد قال سيدنا : « **اشتبهت اليوم الأمور على الناس ، واختلط عملهم الحق بعملهم الباطل** » ، ولكن الله تعالى يُظْهِر الحَقَّ لأهل الحق ، ويُظْهِر الباطل لأهل الباطل ، وقَلَّ أن يدَّعي مُبطلٌ إلا ويلقى له آذاناً سامعة وقلوباً مفتوحةً تسمع له وتذعن له من أخيارٍ ومن أشرار ، فتقبل باطله وتعيه وتشربه كما ترى بعينك وتسمع بأذنك .

حتى إنه جاء هنا رجلٌ غريبٌ - ولا ترى الباطل والدعاوي الكاذبة تظهر غالباً إلا من الغرباء، كما قيل : « افعل المنكر حتى تُذْكَر » يعني افعل ما يُسْتَنْكَر طبعاً ، فإذا لم يعلم حاله صدق مقاله - وادَّعى ذلك الرجل الغريب أنه المهدي المنتظر ، وشهد له على دعواه أناسٌ كثيرٌ من طلبة العلم ، ومنهم من مدحه بقصائد طنانة تصديقاً له فيما ادعى ، وكتب لسيدنا أوراقاً ووصلت أوراقه وأوراق من شهد له وصَدَّقَهُ وقصائدهم إلى حضرة سيدنا عبدالله وأرانيهم ، وإذا به يقول : « أمرني النبي ﷺ بالخروج هذا العام ، وأنا محمد بن عبدالله المهدي ، وكذلك أمرني الشيخ عبدالقادر بالخروج أيضاً هذا العام - وهو عام ١١٢٤ - فاخرج أنت إلى مكة والوعد بيننا وبينك إلى هناك لنلتقي بمكة » .

فقال لي سيدنا تعجباً معي : « **ماذا تقول ؟ هذا يقول إنه المهدي ظهر في بلادكم** » ، فقلت : ماذا تقولون أنتم ؟ هل في العلم أنه يظهر في غير مكة ؟ فقال : « **لا ، بل المعروف أنه إنما يظهر بمكة المشرفة، يبايعونه بين الركن والمقام** » ، قلت : فكيف يزعم هذا الكذاب أنه المهدي ومع ذلك يَمْدَح ويُعَظِّم شأنَ مَن هو قائمٌ به في بلاد الأحساء ؟ وهذا أيضاً يكذب دعواه ، وهل المهدي يتعلَّق بأحدٍ أو يَمْدَح أحد ؟ وما ظهر هذا إلا في الحساء سنة ١١٢٤ ، ثم مضى إلى الحرمين فما سمع له هناك من مجيب ، ثم سار إلى مصر - وكان هو من المغاربة - فتكلم هناك بدعواه وسمعه بعض الناس من المغاربة ، فقالوا له : إن عُدتَ تكلَّمْتَ بهذا قتلناك فسمعوه بعد ذلك تكلم به ، فسروا عليه بليلٍ إلى موضعه الذي هو فيه فقتلوه .

وهنا في هذه الجهة من يتكلم بأفظع وأبشع وأشنع من كلامه ، ولا هنا من له شيمةٌ وديانة وغارية على الحق فيفعلوا به كفِعْل أولئك بذلك ، بل يسيرٌ من الناس صدَّقوه واتَّبعوه ، والأكثر من الناس مجانبه ومدابره ولا يلتفت لقوله ولا لما ادعى .

ولما وَصَلَتْ أوراق ذاك الذي يدعي أنه المهدي إلى حضرموت وتسامع به الناس اختلط الحقمى ودخل في عقولهم صدق دعواه ، فادَّعى ذلك أناسٌ استعظموا أنفسهم ، وكل منهم قال : أنا أحق بهذا الأمر من غيري . فخرج في الشحر رجلٌ أحمقٌ زعم ذلك ، وكتب لسيدنا يذكر دعواه يقول : « إن كان الخضر عندكم أرسلوه إلي لأبقى أشاوره في أموري - فانظر إلى سخافة عقله - وإني سأغنيكم بالمال »، فكتب له جواباً على حسب حاله يسكته عن دعواه .

وظهر أيضاً في صنعاء مُدعي ، وكذلك في نواحيها - وفي جهاتٍ كثيرةٍ كُلٌّ ادَّعى أنه المهدي المنتظر - ثم إن ذلك المدعي قُتِلَ بسبب دعواه وافتضح ، وآخر أمر كل مدَّعٍ مبطل يؤول إلى الفضيحة ويضمحل كما سيأتي من قول سيدنا : « **كل مدَّعٍ مخذول ، ولا بد أن يقيِّض الله له من يعجزه فينخذل، ولو كان كثير العلم** » ، وكان من عادة سيدنا أن لا يدع جواب كتابٍ يأتيه من عند أحد -كائناً من كان - إلا ذلك المدَّعي فما كتب له جواباً ، وجعل ترك الجواب له جواباً .

وكثيراً ما يغر الناس هؤلاء الجهلة المدعون ، فإن الباطل له دولة والحق له صولة - كما قيل ذلك في المثل - ويقال كذلك أيضاً : « السارق له غفلة والداخل له دهشة » ، وقد كثر في هذا الزمان المدَّعون المُمَوِّهون بأقوالهم وأفعالهم ، طمعاً في الدنيا وفي الجاه والمال ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

فكان سكوت سيدنا عن تعبير الرؤيا ، كأنه قد اطَّلع قطعاً على التأويل المذكور في ذلك الكتاب المتقدم ذِكْره ، وكشف له أن القدرة ستسوقني إلى الوقوف عليه منه حيث لم يستحسن هو أن يذكره لي ، مع رغبته في وقوفي عليه للحاجة الداعية إليه ، وكونه أراد أن أقف عليه من غير أن يذكره هو لي، فاكتفى بوقوفي عليه من الكتاب من غير أن يذكره لي بدليل سؤاله لي عن الأمرين المشروطَيْن لهذا المعنى من التعبير ، كون الماء عذباً وكوني أحسن السباحة فافهم ذلك .

وكل هذه والله عجائب آيات ، وكراماتٌ باهرات ، ومناقبُ عاليات ، تدل على أنه ليس من أهل زمانه الذي كان ظهر فيه ، ولا من أهل القرون التي تليه ، إذ ليس منهم من فعل ذلك ولا من اشتهر عنه مثل ذلك ، وإنما هو من أهل القرن الثاني - كما تقرر أولاً - ويصحح قوله الذي قدمناه على ما نقلناه من نقل باحميد من قوله : « **أنا من أهل القرن الثاني ، فانظروا حالي وحال أهل الزمان إن كنت أشبههم أو يشبهوني** » ، فانظر التفاوت بينه وبينهم ، والفرق بين حاله وحال المدَّعين ، فبينه وبينهم كما بين الحق والباطل، فقد خاب وخسر المبطِلون المنكِرون ، وفاز وظفر المعتقِدون المسلِّمون .

فوالله إن الرؤيا لكذلك كما وصفتُ ، وإن الواقع لَحَقٌّ كما ذَكَرْتُ ، فإذا صدَّقتَ بذلك وتحقَّقتَ وأنصَفْتَ : هل رأت عيناك في زمانك أو سَمِعَتْ أذناك ممن لم ترى أحداً على هذا الوصف إلا عن كبار الأكابر الماضين كالشيخ عبدالقادر ؟ فاعرف الحقَّ وأهلَه واتبعهم عليه ، ودع المبهرجين وما دعوا إليه.

والمعنى إنهم لا يشبهونه في سيرته الظاهرة ، ولا في حقيقته الباطنة على القانون الحق المعتدل المؤسس على الكتاب والسنة ، فأما أحواله الباطنة فلا خوض فيها ، وأما سيرته الظاهرة فأقواله على مقتضى أحواله ، وأحواله وأفعاله مُستَمَدَّةٌ من أحوال وأقوال النبي ﷺ ، وهو يمد الخلقَ بمدَدِهِ منه .

يشهد لذلك ما ذكرناه في رؤياه من أمر ذلك الرجل الذي جاءه ، وقال له : « **أنت القطب ؟** »، فقال له : « **لا ما هو أنا** » ، وردَّدَ ذلك عليه مراراً ، ثم خرج الرجل إلى حوش المسجد وهو غاصٌّ بالناس فصاح بأعلى صوته وقال : « **أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وأن عبدالله الحداد القطب** » ، ثم جاء إليه وشَقَّ صدره وأخرج ما فيه ، وأراد أن يضع فيه شيئاً بعدما يفرغه ، قال : « **فَذَكَرْتُ عند ذلك شرح صدر المصطفى ﷺ وإيداع العلم والحكمة فيه** » .

وذلك شاهدٌ له بمقام القطبية كما صرح ذلك الرجل بذلك .

وكذلك ما ذَكَرَ مِن وَصْفِ القطب في القصيدة واستمداده من النبي ﷺ فتَبَيَّنَ العارفون تلك الأوصاف كلها فيه ، وذلك قوله في القصيدة المذكورة :

فَـاشْرَبْ شَرَابَ الْعَارِفِـينَ الأوْلِيَـا		الجَامِعِـينَ لِـكُلِّ وَصْـفٍ فَاضِـلِ
وَاخْضَعْ لِسَاقِيهِمْ وَقُطْبِ مَدَارِهِمْ		وَإِمَـامِ سَـالِكِ سُـبْلِهِمْ وَالوَاصِـلِ
غَـوْثِ البَرِيَّـةِ كُلِّهَـا وَمُغِيثِهَـا		عَـنْ إِذْنِ سَـيِّدِهِ المَلِيـكِ الْعَـادِلِ
إِنْ شِئْتَ تَعْرِفُهُ وَتَعْلَمُ وَصْفَهُ		بَطَرِيقَـةِ الإِجْمَـالِ فَاسْـمَعْ سَـائِلي
هُـوَ سَـيِّدٌ مُتَوَاضِـعٌ مُتَخَشِّـعٌ		وَرِعٌ تَقِـيٌّ زَاهِـدٌ فِي الْعَاجِـلِ
الـشَّرْعُ سِـيرَتُهُ الحَقِيقَـةُ حَالُـهُ		وَمِـنَ الْعبُـودَةِ بِالمَقَـامِ الحافِـلِ
بَـرٌّ رَحِيـمٌ بِالخَلاَئِـقِ كُلِّهِـمْ		يَرْعَى الْوُجُودَ بِعَيْنِ لُطْفٍ شَامِلِ
يَمْتَـدُّ مِـنْ بَحْـرِ البُحُـورِ مُحِيطِهَـا		خَـيْرِ الأَنَـامِ بِعَاجِـلٍ وَبآجِـلِ
صَـلَّى عَلَيْـهِ اللهُ مَاهَـبَّ الصَّبَـا		أَوْ سَـارَ حَـادٍ قَصْـدَهُ بِرَوَاحِـلِ

تم ما أردت نقله من القصيدة .

فاعجب لهذه الأوصاف العظيمة من أوصاف القطب بهذه العبارة البليغة ، ففي الحقيقة ما ذَكَرَ إلا وَصْفَهُ ، فهو القطب وهذا وَصْفُهُ ، كما قال الشيخ أحمد بلحداد رحمه الله – من أهل مكة وأصله من آل باوزير من حورة من جهة الكسر من حضرموت – لما سمع هذا الوصف من قول سيدنا ، أنشأ هذين البيتين فقال :

هُـوَ عَابِـدٌ لله وابْـنُ وَلِيِّـه		العَلَـوي الحَـدَّادِ فَاقبَـلْ نَاقِلِ
الوَصْـفُ فِيـهِ وحَائـزٌ بِفِنَائـهِ		حَقًّـا وَدَعْ قَـولَ الجَهُـولِ الغَافِـلِ

وقوله : « **الشرع سيرته** » ، يعني عمله الظاهر كله فيما يتعلق بالعبادات والعادات ، دائباً في ذلك كله على قانون الشرع ، ومجاري أحكام الإسلام .

وقوله : « **الحقيقة حاله** » ، يعني كل أموره الباطنة في موارده ومصادره الإيمانية ومعارفه الإلهية كلها بالله وفي الله وعلى الله .

وقوله : « **من العبودة** » . قالوا : هنا ثلاث عباداتٍ :

العبادة : وهي إمتثال الأمور الشرعية الظاهرة وهو السيرة المتقدمة ، والعبودية : هي مجاري القلب من الخضوع والإنقياد وبالإمتثال للأوامر والخشوع والإعتماد على الله ، والعبودة : وهي العمل بكمال

الأمرين المذكورين الظاهر والباطن .

وهذان الوصفان من أعلى وأشرف صفات القطب ، ولهذا اكتفى بهذه عن الثنتين ، لاشتمالها على ما اشتملتا عليه ، يعني اشتملت العبادة على جميع الشريعة ، إذ هي معنى التي قال الله تعالى فيها : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، فالعبادة فِعْل العبد ما يرضي المعبود من امتثال أوامره واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً ، وفِعْل ما يرضي المعبود ظاهراً وباطناً ، فما ترك معناها المذكور من معاني الدين شيئاً ، وقد تقدم تقريره من أكثر من هذا ، فاشتملت العبادة على ما اشتملت عليه العبودية .

قال في كتاب « جلاء الصدى في سيرة إمام الهدى » - يعني الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه - للشيخ تقي الدين الواسطي رحمه الله ، في ذِكْرِ وَصْفِ شأن صاحب ذلك المقام الشريف مقام القطبية ووصف حاله وعلو أمره ، قال : « ذَكَرَ السيد إبراهيم الأعزب - وهو ابن أخت السيد أحمد الرفاعي نفع الله به ، وكان قطب رحى دائرة الطريقة الرفاعية في وقته ، وسنذكر له من كلام سيدنا عنه بعض الكلام - قال : سألني بعض الفقراء عن أحوال القطبية ، فسألت خالي السيد أحمد عن ذلك فقال : إذا أراد الله تعالى لعبدٍ أن يؤهِّله لهذه المنزلة وهذه الأحوال ؛ أول ما يكلِّفه نفسه ، فإذا داراها وأدبها وساسها واستقامت معه كلَّفه أهله ، فإذا هو داراهم وأحسن عشرتهم كلفه جيرانه في محلَّته ، فإذا هو داراهم وأحسن إليهم وأقام حقوقهم كلَّفه أمر بلده ، فإذا أحسن إليهم وداراهم كلَّفه جهةً من الأرض ، فإذا قام بحقوقهم وأحسن إليهم كلَّفه جميع الأرض ، فإن سبقت له العناية الأزلية وأحسن إليهم وداراهم وأحسن سيرته مع الله تعالى كلَّفه أمور الدنيا كلها ، فإذا قام بها كلَّفه الله تعالى كل ما بين السماء والأرض ، فإن بينهما خلقاً كثيراً لا يعلمهم إلا الله تعالى ، فإن هو داراهم وأحسن إليهم كلَّفه الله تعالى ما عدا بني آدم من المخلوقات ، فإن هو داراهم وأحسن إليهم كلَّفه سماءً بعد سماء إلى جميع السماوات حتى يأتي إلى مقام الغوثية ، ثم تُرفع منزلته حتى تصير صفاته من الحق سبحانه .

مَا زَالَ مِنْ وَطَنٍ يَهدِي إلى وَطنٍ   حتَّى استَقَرَّ لَهُ في الصِّدقِ أوطَانُ

فإذا صلح لهذه الأمور صار عيناً لله في أرضه ، فبه ينزل الغيث وبه يرفع البلاء وبه تنزل البركات، حتى لا تنبت شجرة ولا تخضر ورقة ولا يطلع الله تعالى إلى خلقه إلا بنظره ، ولا تقطر قطرة إلا بإذنه » ، انتهى .

فاعرف من هذا جلالة هذا المقام ، وعظيم شأن من أُقِيمَ فيه ، وأنَّ سيدنا عبدالله نفع الله به كان هذا

مقامه وهذا شأنه ، كما قد تبيَّن ذلك بالدلائل القطعية التي قدَّمناها من مكاشفات أهل المكاشفات ، من الأولياء وأكابر الأصفياء ، فلو أخبر طفلٌ عن عمل نفسه ثَبَتَ حكمُه وحُكِمَ به شرعاً ، فكيف إذا أخبر هؤلاء الأكابر عما شاهدوا ورأوا معاينةً وذوقاً فكوشفوا به ورأوه عياناً وبرهاناً .

فأنَّى لأحدٍ اليوم أن يشبهه أو يماثله ، إلا من أُقِيمَ في مقامه ، ويحقِّق ذلك قوله الآتي : « **مَثَلُنَا ومَثَلُ أهل الزمان ، كَمَثَلِ رجلٍ جاء من بلدٍ غريبةٍ ومعه من النفائس التي عجز أهل الزمان عن شراء أدنى شيءٍ منها ، ثم ما أعطوا فيه قيمة ، فلما رأى أنه ما أعطوا في أدونه قيمة وعجزوا ، ضَمَّ كُلَّ ما عنده من الغالي النفيس والدنيء ولم يظهره لأحد** » أو كما قال .

وَذَكَرَ عبدالعظيم باشراحيل ، وكذلك عبدالله باشراحيل فيما ذَكَرَ كُلٌّ منهما في مؤلَّفه الذي ألَّفه في مناقب سيدنا وكراماته ، ذِكْراً عن الفقير الصادق عمر باسالم ، قال :

« لما كان في الحج عام حج سيدنا عبدالله – أقول : وذلك سنة ١٠٧٩ كما سمعته منه مراراً – قال: فرشت سجادة سيدي عبدالله له بمسجد نَمِرة يوم الحج ، فجاء رجلٌ مهابٌ في صورة تركي فجلس عليها ، وازدحمت الخلائق وبقيت متحيِّراً في أمر الرجل ولم أجسر عليه بشيء ، فإذا سيدي عبدالله قد أقبل ، فالتفتُّ فلم أرى الرجل مكانه ، فجاء سيدي عبدالله وجلس في مكانه – يعني فوق سجادته المفروشة له – وقد أقام الله عنه ذلك التركي » ، قال : « فهكذا الأولياء ، يحفظهم الله ويحفظ بهم ويحفظ لهم » .

أقولُ : والغالب على الظن أن ذلك الرجل ليس بتركي كما تَصَوَّرَ له ، فربما أنه الخضر أو أحدٌ من رجال الغيب جاء ليتبرك بالجلوس في مجلس سيدنا قَدْرَ لحظة ثم يقوم وهكذا فعل ، وإنما تَصَوَّرَ بصورة تركي للتستر . فقد يتصورون على ما يتصور في خاطر الرائي ولا يستنكره ، كما ذُكِرَ أن تلميذاً للشيخ أحمد بن علوي باجحدب علوي نفع الله به ، وكان من أهل بور، فطلب من الشيخ أحمد شيخه أن يجمعه على الخضر ، فاعتذر ؛ فلازمه في ذلك وحَلَفَ عليه أن يجمعه به ، فقال له : « إذاً ستراه ولا تقدر عليه ، فَسِرْ إلى بلادك على طريق المعجاز طريق الجبل » ، فسار كما أمره ، فلما كان فوق المعجاز في الجبل رأى عبداً أسوداً يرعى غنماً ، فمَرَّ عليه ولا سَلَّمَ عليه ولا كلَّمَه ولا اكترث به ، وهو في طريقه يتوقع أن يرى الخضر ، فلما تعدى وبعد عنه قال ذلك العبد له : « السلام عليك يا شيخ فلان – وسماه بإسمه – سَلِّم لنا على الشيخ أحمد بن علوي ، وقد قال لك إنك لا تقدر عليه » ، فالتفت إليه وسار نحوه يطلبه فما وجد شيئاً ، فلما اجتمع بالشيخ أحمد لامه على إعراضه عنه وعدم سلامه عليه ، وقال له : « يا محروم تريد الإجتماع بالخضر ونفسك شامخة » ، أو كما قال له .

فهكذا يتراؤون على صُوَرٍ لا تُسْتَنْكَر عادةً للرائي ، فما يمنع أن يكون ذلك التركي كذلك .

وكذلك لمّا حججتُ سنة ١١١٣ ، وزرنا النبي ﷺ ، وسافرنا من المدينة المنورة نريد بلادنا الأحساء مع الحاج العقيلي ، ومررنا على مَوْضِعِ ماءٍ من المطر يسمى العاقولي ، فارتوى الحاج منه وملأت لنفسي وحدي قربتين كبيرتين تكفياني أياماً كثيرة ، وكنت مصطحباً مع رفقةٍ مشتركاً معهم في المنزل فقط ، وكلٌّ منا معه ماؤه وزواده ، فأشار بعضهم عليهم بالإشتراك في الماء ، فيبدأون يشربون كلهم من ماء واحد حتى يفرغ ثم ماء الآخر وهكذا إلى أن يصلوا الماء ، ففرحتُ بذلك وطلبتُ أن يبدأوا بمائي ليخفَّ ثقل الحِمل على راحلتي ، فشربوا مائي أول يومٍ وثاني يوم وما وصلنا إلى الماء إلا بعد خمسة أيام لما وصلنا إلى بلد عنيزة من نجد ثم شَحُّوا بمائهم ، وكلٌّ قبض ماءه عن رفيقه ، فقلت للذي أشار ولهم : كيف لمَّا شربتم ماء رفيقكم نقضتم عهدكم ؟ قالوا : « هذا طريق الحجاز ، من أمرك تسيب ماءك ؟ » ، فبقيت نحو ثلاثة أيام في شدة القيظ ما ذُقْتُ ماءً ، ولا وقع في قلوبهم لي رحمة . فقلت للذي أشار : اتركني أشرب من مائك حتى أروى وأعطيك عبَّاسِيَّة ، قال : « لو بذلت أحمر ما مكَّنتك تشرب من مائي » .

وسار الحاج ، فانفردت عن صحبتهم ، وعجزت عن سَوْقِ الراحلة من شدة الضمأ ، فاتفق أنَّا كنا سائرين عشية يومٍ والشمس قد اصفرت ودنت للغروب ؛ وتخلَّفتُ عن الحاج كثيراً أكثر من مد البصر ، وإذا وفي وسط الطريق بيني وبين الحاج مَشْهَدِيٌّ على راحلةٍ تَخَلَّفَ عن الحاج ، وهو يسوقها بجهده يريد يلحق الحاج وخلفه مطَّارة برغال لها رائحةٌ طيبةٌ ملآنةٌ من ذلك الماء من المطر ، فلما نظرتُها خلْفَهُ وهو على بُعدٍ مني قدامي ، فخطر في بالي الشرب منها ، وبقيت أتمنى أن أشرب منها وأتشهى ، فما أحس به إلا وَرَدَّ خطام راحلته إلى نحوي وكَرَّ راجعاً إلى قفاه قاصداً إلي ، فلما صافني جعل يماشيني ثم سلَّم عليَّ وحيَّاني ، وبقي يسير معي ساعة ، وإذا به يقول : « أنت من أهل هذا الحاج ؟ » ، قلت : نعم ، قال: « أنت من أهل الحساء ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « أنت سني أم شيعي ؟ » ، قلت : بل سني، وأنت ما تكون ؟ قال هو : « شيعي » ، ثم قال : « أنتم يا أهل السنة تحبون أبابكر ونحن يا الشيعة نحب علياً، ومحبتنا لعلي أقوى من محبتكم لأبي بكر ، بدليل أنك لو سألتني في محبة علي شيئاً أعطيتك ، وأنت لو سألتك في محبة أبي بكر شيئاً ما أعطيتني » .

قلت : بلى نحن نحب أبابكرٍ ونحب عليًّا محبة أقوى من محبتكم وخيراً منها ، لأن من أحبَّ منهم أحداً وأبغض منهم أحداً بغضوه كلهم ولم تنفعه محبتهم ، ومن أحبَّ الكُلَّ أحبَّهُ الكُلُّ ، فاسأل أنت إن أردت في محبة أبي بكر وإن أردتَ في محبة علي ، قال : « لا ، إلا أنت اسأل ما أردتَ في محبة علي » ،

قلت: ما أريد منك إلا هذه المطَّارة ، فَفَكَّهَا من رَبْطِها وناولنيها فانْتَفَتُّهَا من يده ظانًّا أنه يريد يهزأ بي، فقال : « أنا معطيك إياها فلم تنتفها من يدي ؟ » ، فإذا فيها ماء أرواني من ذلك الماء الطيب المبارك ، وإذا هي كما ظننت من الطيب وحسن الماء ، ولو أحس بها من ليس بعطشانٍ اشتهى ماءها ، ثم ناولته المطارة ، وأنا متوقع أن يسأل في محبة سيدنا أبي بكر ، ولو فعل لأعطيته من زوادي ما أراد ، ثم أخذها وساق راحلته بجد ، وكَرَّ راجعاً يطلب لحوق الحاج ، وإنما ساقه الله لذلك إنقاذاً لي في صورة مَشْهَدِيٍّ لا أنكره . فكان هذا كذلك العبد ، ولو كان مَشْهَدِيًّا رافضِيًّا ويرى شيباً في سياق الموت من العطش ، ما رَقَّ عليه ولا التفت إليه ، فافهم ذلك ، فكُلُّ من حكيت له بهذه القصة قال : « ما هذا مَشْهَدِيٌّ قط، إنما هو الخضر في صورة مَشْهَدِي » .

فَقِصَّتُهُ شبيهةٌ بقصة العبد الذي فوق المعجاز ، فلما أراد الله إغاثة عبدٍ مضطرٍّ في بريةٍ ما فيها له راحمٌ مع عدد أصحابه ، وليس هو من رجال من يرى الخضر بصورته وعلى وجهه ، فجعله الله سبحانه إغاثته على وجهٍ لا يستنكره طبعه ولا يتوهم فيه شيئاً ، فافهم هذه القواعد .

وإنما أعد هذه وأمثالها كرامات لسيدنا عبدالله نفعنا الله به ، وإن كنت إذ ذاك ما اجتمعت به ولا بَعْدُ سَمِعتُ به ، لما سيأتي من قول الشيخ علي وغيره : « إن الإنسان قد ينتفع بشيخه وإن لم يره ولا سمع به » ، وقول الشيخ أبي بكر بن سالم للسيد يوسف الفاسي : « ولقد رأيتك وأنت في ظهر أبيك ، ولقد حضرت ولادتك وما زلت أربيك وأراعيك بحسن نظري » .

وذكرت عن قول بعضهم : « إذا كان مكتوبٌ لإنسانٍ أن يحل عليه نظر أحدٍ من الصالحين ، فهو مَرْعِيٌّ بِحُسْنِ نظره وإن لم يره ولا سمع به ، وقد يقع له شيءٌ من الخوارق والكرامات وليست هي كراماتٌ له ، إنما هي كراماتٌ لمن له النظر لا لمن عليه النظر » .

ولما قال عبدالله باشراحيل : « وهكذا الأولياء يحفظ الله بهم » ؛ أذكر قصةً وقعت لنا ، وهي من كرامات سيدنا وقعت لنا ، فَحَفِظَنَا الله ببركته تصديقاً لما قال : وهي أني خرجت من المدينة المنورة ثامن عشر من شعبان ١١٣٣ ، في قافلةٍ تبلغ نحو ثلاثمائة راحلة تريد مكة المشرفة ، وكانوا تجاراً قاصدين إليها للتجارة وكنت مع رفقةٍ – من حلال أرض عمان من بلد دهان – من أصحاب مطر من الهولة ، وجَمَّالنا معه أربع ركائب ، وكنا مُحْرِمين بعمرةٍ وباقي القافلة غير مُحْرِمين ، فلما بلغنا قرب مَفْرَقِ الطريقين طريق مكة وطريق جدة ، جاء القافلة من ينذرها ويخبرهم أن بين أشراف مكة خلفاً، وأن على طريق مكة منهم قوماً قاعدين هناك يقطعون الطريق ، فكل من مَرَّ فيه أخذوه ، فكل تلك القافلة انجفلوا عن طريق مكة وسلكوا طريق جدة وساروا إليها، لأنهم لا يهمهم نسكٌ وإنما همهم

بيعهم وشراهم ، وتركوا طريق مكة خوفاً من الأشراف ، وأراد جَمَّالنا يمضي مع أصحابه من جمالتهم ، فأبى أصحابي عليه وقالوا : « نحن جئنا مُحرِمين نريد مكة فما لنا غرضٌ بجدة » . فأبى إلا المسير معهم وعالجوه وأضعفوا له الكراء مرتين فلم يجب ، آخر الأمر قال : « لا أسلك طريق مكة إلا إن ضمنتوا لي قيمة ركابي إن أُخِذَت أن تدفعوها لي » ، فشاورني أصحابي في ذلك وقالوا : « لا علاج فيه إلا بذلك ، فما تقول وما رأيك في هذا الأمر ؟ ونحن خاطرنا بأنفسنا وأهلينا وأموالنا فأبى أن يساعدنا » ، وكان معهم ستٌّ من الحريم ، منهن زوجة رحمة بن مطر وبنتٌ له ، وولدٌ له صغير اسمه مطر ، والمذكورة أمه والأخرى أخته ، ومقدَّم الجماعة زوج بنته اسمه غيث بن خلفان وكان رجلاً خيراً ذا دينٍ وتقوى وسخاء نفس ، وأصحابه نحو ستة عشر رجلاً منهم إخوان له وغيرهم وخدام من عبيدٍ وصبيان ، فلما استشاروني في هذا وأن لا علاج إلا بأن يلتزموا له بقيمة رِكَابِه ، فقلت لهم : اضمنوا له والتزموا بقيمة ركابه ونضرب طريق مكة على بركة الله ، ولكن احرصوا بنا أن لا نَمُرّ عليهم إلا ونحن نقرأ راتب سيدنا الحبيب عبدالله .

فنزلنا وقت العصر في موضعٍ في البُعْدِ منهم إلى أن دخل وقت المغرب فصلينا المغرب والعشاء معها جمع تقديم ثم ركبنا ، فلما قربنا من المرور عليهم شرعنا في الراتب برفع الصوت على العادة ، ورواحلنا مصطفةٌ وصوتنا مُتَّحِدٌ بضجةٍ تُسْمَع من بعيدٍ وصوت الليل عالٍ ، ومررنا عليهم ونحن على ذلك ، وإنا لنسمع كلامهم وصوت النارجيلة عند شربهم التنباك ، وما بيننا وبينهم إلا قدر نحو سبعة عشر ذراعاً أو أقل - لأن الطريق بين الجبال ضيق لا اتساع فيه وراء ذلك - ولا رأونا ولا حسوا بنا ولا سمعوا أصواتنا ، وإنا لنسمع مناداتهم بعضهم لبعضٍ ، وحديثهم إذ يتحدثون ، وما فرغنا من الراتب إلا وبيننا وبينهم مسافةٌ بعيدة . ثم عن قريبٍ وصلنا مُرَّ الظهران - وهو وادي فاطمة - وقت العشاء ، فالتقانا خادمٌ لهم جاء من مكة معه بعيرٌ محملٌ لهم بعشاء أتى به لهم من مكة ، فلما رآنا قال: « من أين جئتم ؟ » ، قلنا : من المدينة، قال : « ما شافوكم الأشراف ؟ » ، قلنا : ما ندري ، قال : « سلامتكم منهم من العجب » ، فقد حفظنا الله منهم ببركته ، وقد رأينا من بركات راتب سيدنا وكرامته من جَلْبِ الخير ودَفْعِ الشر أشياء كثيرة ليس هذا موضع شرحها .

وكَرَامات سيدنا رضيَ الله عنهُ لا تُحصى ولا تُحصر في حياته وبعد مماته ، مع كراهته لظهورها وذِكْرِها، ولو عددنا ما رأينا من كراماته فضلاً عما لم نره ، لاحتمل كتاباً مجلداً . انظر كيف أَلَّفَ عبدالعظيم باشراحيل وكذا عبدالله باشراحيل كُلٌّ منهما أَلَّفَ كتاباً في كراماته ، وكلٌّ من المؤلَّفَيْن ليس فيه شيءٌ مما في الآخر سوى ما ذكرنا عن باسالم . ونحن نحفظ أشياء كثيرةً منها ليست في المؤلَّفَيْن ذَكَرْنَا بعضاً منها

في هذا النقل ، وغيرنا أيضاً يحفظ أشياء غير ما نحفظ .

فاعرف بذلك أن كراماته ومناقبه وأحواله ومزاياه إنها كثيرةٌ لا تُعَدُّ وبحرٌ لا يُحَد ، وكل ذلك من أموره الظاهرة مما اطلع عليه الخلق نقطةٌ من بحرٍ مما لم يطلعوا عليه . وأما أموره وأحواله الباطنة فلا يطلع عليها إلا من وهبه إياها وما يعلم قدرها إلا الله ، بل له مزايا وأسرار بينه وبين الله لم يطلع هو عليها غير ما اطلع عليه مما لم يطلعوا عليه ، كما سيأتي مما ذكر هو في بعض المكاتبات قال : « **إنه قد يكون للولي أسرارٌ بينه وبين الله لم يطلّع الولي نفسه عليها ، وذلك كما ذكروا إن الولي قد يكون له عند الله منزلة ومزية لم يعلم بها هو** » .

وقد ذكر الشيخ أبو بكر بن سالم في مؤلَّفِهِ « معراج الأرواح » : « إن الأولياء على قسمين : ولي يعلم أنه ولي، وولي لا يعلم أنه ولي ، فهذا الذي لا يعلم بولايته له أسرارٌ من أسرار الولاية بينه وبين الله لا يعلم بها » ، فتَبَيَّنَ لك بذلك ما قال سيدنا في المكاتبة فلا يعد في ذلك ، إذ قد مَرَّ علينا في الدرس في حضرته في قراءة من كان يقرأ في رسالة القشيري ، قول أبي يزيد في الرسالة قال : « أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائس إلا المتقون ، وهم مُخَدَّرُون عنده في حجال القدس ، لا يراهم أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرة » ، فقال سيدنا : « **يعني أسرارهم التي بينهم وبين الله ، التي يعرفون بها بأنهم أولياء** » ، انتهى .

وكان أصحابي المذكورين لما وصلوا الحديدة قبل أن أصلها سألوا عني ، وأخبرت عنهم بذلك - أعني بسؤالهم عني - فتعجبت حيث لم أعرفهم ولم يعرفوني ، ولا قط رأيتهم ولا رأوني ، فسافروا من الحديدة قبل وصولي إليها بعشرة أيام - كذا قيل لي - فأخذت نحو عشرة أيام .

وَزُرتُ فيها بيت الفقيه الشيخ أحمد بن عجيل ، وزبيد ، وزرت الأحياء فيها كالسيد يحيى بن عمر الأهدل - وكان يدرِّس بعد العصر - وابن أخته السيد أحمد شريف ، وكان يدرِّس وقت الإشراق إلى قرب الظهر ، وكانا من فحول العلماء وكبار الفقهاء ، وللسيد يحيى مؤلَّفٌ في فضائل أهل البيت نقلته عنه ، وكذلك زرت فيها الشيخ محمد بن زياد الوضاحي شارح الزبد ، وقد وصل شرحه إلى تريم ورأيته وطالعت فيه ، وسألته عن نسخةٍ منه فأمر بعض أصحابه وعنده منه نسختان أن يدفع لي أحديهما فأعطانيها ودفعت له قيمتها .

وَزُرتُ مشائخ زبيد الأموات كالشيخ أحمد الصياد ، والشيخ أحمد الرداد ، والشيخ إسماعيل الجبرتي ، والشيخ علي بن أفلح ، والشيخ طلحة الهتار وغيرهم وكل السبعة الذين قال النبي ﷺ في رؤيا لبعض الصالحين : أن من زارهم بنية قضاء حاجة قضيت حاجته وهؤلاء منهم .

وكذلك مقبرتين فيها متقابلتين قيل إحداهما كلها رجالٌ من الصالحين ، والأخرى كلها نساءٌ من الصالحات ، وكل واحدٍ من الرجال زوج واحدةٍ من تلك النساء ، وكل واحدةٍ منهن زوجة لواحدٍ منهم - كذا سمعت يقال - وهما غير المقبرة الكبيرة الشاملة للكل وغيرهم .

ثم زرتُ الشيخ الزين بن صديق المزجاجي بالتُّحَيتا ، على ما سيأتي من خبره ، ثم رجعت إلى الحديدة ، وركبت منها إلى جدة ، ووصلتها قبل الأصحاب المذكورين بعشرة أيام ، وكنا نقيم الراتب كل ليلةٍ بمسجدٍ جامعٍ يقال له « مسجد الشافعية » ، وإمامه وجماعته كلهم شافعية ، وبقية مساجدها وأئمتها والمصلون فيها كلهم حنفية . ففي بعض الليالي لما ابتدأنا في الراتب وإذا معنا جماعةٌ كثيرةٌ على غير العادة فلما فرغنا قاموا يحيُّون ويسلِّمون وسألتهم : من أنتم ؟ وإذا هم أولئك المذكورون ، وَصَلُوا عشية ذلك اليوم وصَلُّوا في هذا المسجد وحضروا الراتب وكانوا شافعية ، وكل شافعي يرغب في الصلاة في ذلك المسجد ، وطلبوا مني أن أصير معهم فاعتذرت ، ثم بعد ذلك بنحو يومين سافرت في قطارٍ[1] إلى المدينة المنورة وإذا بهم سائرين في القطار ، فاصطحبنا إلى المدينة فنزلوا لهم في بيتٍ وطلبوا مني أن أنزل معهم فاعتذرت وقصدت إلى بيت ابن عمي .

وَوَصَلنا المدينة عشية يوم ٢٥ شهر رجب ، وحضرنا الزيارة الرجبية يوم ٢٧ ، وبقينا في المدينة المنورة نتملى بمشاهدة زيارة سيدنا رسول الله ﷺ بعد كل صلاة من الخمس ، ونصليها في الروضة الشريفة إلى ١٨ شعبان ، فأرادوا المسير إلى مكة قصدوا أن يصوموا شهر رمضان فيها ، وقصدت أن أصومه في المدينة ، وعالجوني على المضي معهم فأبيت ، فمشوا عليَّ بالسيد عقيل بن أحمد السقاف وطلبوا منه أن يلزِّم علي في المسير معهم ، فجلس بعد الإشراق في موضعٍ يُقام فيه راتب سيدنا عند باب الرحمة ، فناداني بالإشارة وأومأ إليَّ بيده وأنا في المواجهة في الزيارة تلقاء وجهه الشريف ، فجئته فلما جئت إلى عنده عالجني في المسير معهم ، وقال : « إن هؤلاء مساكين ، جاؤوا متعنين بأنفسهم وحريمهم إلى حج بيت الله ، وربما يغلطون في شيءٍ من المناسك ، فيلزمك أن تسير معهم تعلِّمهم مناسكهم لئلا يغلطوا في شيءٍ منها » .

فما أجبته لذلك واعتذرت وقلت ما معناه : كلٌّ مشغولٌ بما يهمه ، ومجتهدٌ لنفسه بما يرى فيه مصلحته ، وأنا راغبٌ في صيام رمضان عند رسول الله ﷺ . فمَدَّ يده رافعاً سبابته إلى جهة النبي ﷺ وقال : « بَجَدِّي هذا عليك - أو بحق جدِّي هذا عليك - أن تسير معهم » ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، والله لو أمرتني بذلك وأشرت عليَّ به لما أجبتك إلى ذلك ، لما أنا راغبٌ فيه من الجلوس في الحضرة الشريفة إلى وقت الحج ، ولكن لما أشرت إلى جدِّك وأقسمتَ بحقِّهِ عليَّ في المسير

---

(١) أي قافلة .

معهم لأفعلن ولو فيه تلف روحي ، فما أمكني المخالفة بعد ذلك ووجب علي الإمتثال ولو في ذلك تلف نفسي .

فبتنا تلك الليلة ، ومن غدها جئنا كلنا نستودع من النبي ﷺ ، وإذا بالسيد عقيل في مكانه بالأمس جالس يبكي ومتبلعم عن الكلام ، وأشار إلي بيده بالمجيء إلى عنده ، وهو ينتشق بالبكاء وحاول الكلام فلم يقدر إلا بعد ساعة تكلم بالتكلف وقال : « إني رأيت البارحة أخي أحمد - لأخٍ له توفي قبل ذلك في المدينة - يقول لي : يا أخي استعد فإنك بعد أيامٍ عندنا ، وما أراني إلا سأتوفى عن قريب ، فبروح حبيبك عبدالله عليك إذا بلغك بمكة خبر وفاتي ؛ اجمع معك جماعةً وصلِّ معهم عليَّ في الحِجر صلاة الغائب » ، وهو لا يشك في الموت ، فقلت له : ولو قد رأيت هذه الرؤيا فلا يلزم منها شيء ، إنما هذا الشيطان مراده يشوش عليك ، فاترك عنك هذا الوسواس ، قال : « لا هذا أمرٌ لا بد منه » ، قلت: من أين لك أنه لا بد منه ؟ لا هو وحيٌ عن نبي ، ولا أمرٌ مُحَقَّق . وبقيت أسَلِّيه وأبعِّد له ذلك وهو لا يتسلى ، وقلت : لا يلزم مما رأيت أن يكون كذلك . فبقي على ما هو عليه ولا أثر عنده كلامي ، وجعل يبكي وينتشق فتركته وقمت بعدما استودعت منه ، فلما ألزمني بالمسير معهم سرنا وأحرمنا من ذي الحليفة بعمرة ، وسافرنا مع تلك القافلة ووقعت تلك القصة .

فلما فَرَقوا عنا ووقع الإختلاف بيننا وبين الجمّال ثم سار بنا على ذلك الشرط ، ووصلنا مكة ليلة آخر يومٍ من شعبان تلك السنة ، ودخل علينا رمضان وفي أثناه بلغنا خبر وفاة السيد عقيل ، توفي أظن نحو ثاني منه ، فَصَدَقَتْ رؤياه وأخطأ ما به سلَّيناه ، وإن لم أكترث بما حكاه ففعلت ما أوصى به ، فجمعت جماعةً وصلينا عليه في الحِجر صلاة الغائب رحمة الله عليه .

قال عمر بإسالم : وحال خروج سيدنا عبدالله من مسجد نَمِرة ، دخل الخيمة - أي في محل الوقوف بعرفة - وقد نُصِبَت له ، وكنت حاضراً فدخل عليه درويشٌ من أهل السياحة يسمى عبدالخالق ، فسَلَّم عليه ثم جلس متأدباً ، فأقبل السيد عليه بالكلام - يعني الحبيب عبدالله - ثم قال له : « **أنت من رجال السِّرِّ الذين سألتُ اللهَ أن يرينيهم ، فأراني ثلاثةً أنت منهم** » ، فقال عبدالخالق : « أجل » - أي نعم - . فتواعدا أن يجتمعا بمكة ، فبينما نحن كذلك في الجبل ندعو الله ونبتهل إذ دخل وقت المغرب ، فقام رجلٌ على رأس السيد لم أعرفه ، فأذَّن لنا المغرب وأقام الصلاة وحمل السيد وَقَدَّمَهُ يصلي بالناس، فلما انقضت الصلاة تقدم رجلٌ ثانٍ ورفع صوته يقول : « يا أهل الموقف ، هذا القطب قد حَجَّ فيكم فاشكروا الله » ، والسيد يتبسم منه فحمدنا الله على ذلك .

أقول : وإشارة هذا الرجل أيضاً إليه بذلك المقام شاهِدٌ لما قرَّرنا أولاً مما يحقِّق كلمته لباجبير ،

ولعل هذا الرجل من أهل السر المكاشفين بالغيب ، ويؤيد مكاشفة ذلك الولي الذي بالمغرب للسيد أبي الطيب ، ومشيرٌ لما أشار به الرجل الذي قال له في رؤياه : « أنت القطب » ، إذ هذا رجلٌ لا يُعرف في هذا الموقف العظيم ، الذي اجتمع فيه الناس من كل فجٍّ عميق ، وليس في الدنيا من اجتماعات الخير أعظم ولا أشرف منه ، صاح فيه بينهم بأعلى صوته : « هذا هو القطب قد حَجَّ فيكم فاشكروا الله » ، أي على أنْ جمعكم الله معه في الحج ، فأبشروا بقبول حجكم ولا تشكوا في ذلك .

كما ذُكِرَ أن في حجة الجمعة يغفر لكل إنسانٍ بذاته ، وفي غير حجة الجمعة يقبل الله منهم بعضاً ويغفر للباقين بواسطتهم ، وأولئك المقبولون غير معينين ، وأما أنتم يا حضار هذا الموقف فقد تَعَيَّنَ لكم أن القطب قد حَجَّ فيكم، فأنتم على يقينٍ من القبول .

وكذلك ذاك الذي أذَّن وقدَّمه على غير معرفةٍ حِسِّيَّةٍ ظاهرة ، وإنما كل ذلك تعارفٌ باطنيٌّ بتعارف الأرواح ، يشهد كل ذلك أن كلًّا منهم كان من رجال السر الذين يعرفون بعضهم بعضاً ، فعرفوه به لذلك وقدَّموه وقالوا فيه ما قالوا ، كما قال هو في القصيدة الرائية :

وَفِي عَرَفَاتٍ كُلُّ ذَنْبٍ مُكَفَّرٌ ... وَمُغْتَفَرٌ مِنَّا بِرَحْمَةِ غَافِرِ
وَقَفْنَا بِهَا وَالْحَمْدُ لله وَالثَّنَا ... وَشُكْراً لَهُ إِنَّ المَزِيدَ لِشَاكِرِ
عَشِيَّةَ وَافَى الوَفْدُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَفَجٍّ وَهُمْ مَا بَيْنَ دَاعٍ وَذَاكِرِ
وَرَاجٍ وَبَاكٍ مِنْ مَخَافَةِ رَبِّهِ ... بِفَائِضِ دَمْعٍ كَالسَّحَابِ المَوَاطِرِ
وَفِي الوَفْدِ كَمْ عَبْدٍ مُنِيبٍ لِرَبِّهِ ... وَكَمْ مُخْبِتٍ كَمْ خَاشِعٍ مُتَصَاغِرِ
وَذِي دَعْوَةٍ مَسْمُوعَةٍ مُسْتَجَابَةٍ ... مِنَ الأَوْلِيَا أَهْلِ الصَّفَا وَالبَصَائِرِ
وَلله كَمْ مِنْ نَظْرَةٍ كَمْ عَوَاطِفٍ ... وَكَمْ نَفَحَاتٍ لِلإِلَهِ غَوَامِرِ

وسيأتي ذكر اجتماعه في المدينة بهذا الرجل عبدالخالق ، الذي اجتمع به بعرفة من قوله بلفظه، حيث قال : « **طَلَبْنا منه الإجتماع بمكة في وقت فراغ ، فقال : إن وصلت إلى مكة هذه الليلة ليلة العيد حصل الإجتماع بمكة ، وإلا فالوعد المدينة** » ، قال : « **فلم يتفق لنا الوصول إلى مكة ليلة العيد لإشتغالنا بالمناسك ، وقد حج هو بالخطوة فقضى حجَّه من ليلته وسار من صبحه ، ولم يتفق لنا به إجتماع إلا بالمدينة ، فلما دخلنا بيته رأينا له حاشيةً وبيتاً ، وكنا ظنناه متجرِّداً** » .

وسيأتي ذِكْرُ إجتماعه به في المدينة ومكاشفته له ، وذِكْرُ الإثنين الذين كاشفوه وهذا ثالثهم ، وإنهم كاشفوه وما كاشفوه به ، وقوله : « **ما كاشفني أحدٌ إلا هؤلاء الثلاثة** » .

وإلى هنا انتهى ما أردنا نقله مما يحقِّق كلمته للفقيه باجبير التي أسرها له ، مما يثبتها ويحقِّقها ويدل عليها ، من كلام العارفين الظاهرين والخاملين الذين أَطْلَعَهُم الله عليها ، ومكاشفات أهل الحق واليقين المتمكنين بها ، والمرائي الدالة عليها والمصرِّحة بها تحقيقاً بلا شك ولا تخمين . وذِكْرِ أوصافه التي تحقِّق وقوعها له ووصفوه بها ، ووَصْفِ ذلك المقام ، ووَصْفِ من اتُّصِفَ به ، كما ذَكَرَ الشيخ إبراهيم الأعزب عن قول خاله الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه .

وقد طال بنا الكلام في ذلك رغبةً مِنَّا في تحقيقها ، وإن كانت محققة بحمد الله في قلوب الخلق جميعاً إلا من خذله الله ، كما تسمع من أقوالهم الدالة على ما في قلوبهم ، وهذا يدل على أنه كذلك أيضاً في الملأ الأعلى وعند الله وعند الملائكة والنبيين ، وكذلك عند جميع طوائف الخلق .

وإلا فما مقصودنا إلا نقل كلامه الذي تكلم به في مجالسه مما حفظناه ونقلناه وأثبتناه ، ولو قد انجَرَّ بنا الكلام إلى غير ذلك ، فكل ذلك صوابٌ ونافعٌ إن شاء الله تعالى ، ونرجو فيه السلامة من الزيادة والنقص الضارَّين المخلَّين بالمعنى ، والكلام يَجُرُّ بعضه إلى بعض .

والآن إن شاء الله بعون الله نبتدئ في المقصود

وقد أردتُ أن أصدِّر هذا النقل بخطبةٍ لسيدنا ، ليكون كله مُقتَبسٌ منه ومأخوذٌ عنه ، لأن الأحسن أن يكون كلامه هو المشتمل على كلامه . وكان وَضَعَ هذه الخطبة وأراد أن يجعلها مبدأ حِكَمِهِ ومفتتحاً لها بها ، ويجعل الحِكَم كتاباً مفرداً مستقلاً ، ثم عنَّ له أن يجعل الحِكَم مع مجموع المكاتبات والوصايا والديوان ، وأن تكون رابعة الأربعة، فكان الأربعة مجموعاً مستقلا وسماه : « **مجموع المكاتبات والوصايا والحِكَم والديوان** » ، وجعل له خطبة تشتمل على الجميع ، فكان لذلك أربعة أقسام .

وبَقِيَتْ هذه الخطبة مفردة ليست على كتابٍ ، فاستحسنتُ أن أصدِّر بها هذا النقل المنقول عنه المأخوذ منه ، لتكون فاتحته ويكون خاتمتها كما هي عادة الكتب المؤلَّفة ، وهي هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد للهِ الحنان المنان ، دائم الإحسان والامتنان ، الذي تقدَّست مواهبه عن التخصيص بمكانٍ أو زمان ، وعن الحصر في فلان دون فلان ، جَلَّ عن التقييد ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً فسبحانه كُلَّ يومٍ هو في شأن . أحمده حمد من غَرِقَ في بِرِّه ، فاعترف بالعجز عن القيام بشكره ، وعن أن يُقْدِرَهُ حَقَّ قَدره بعد الإتيان بحسب الطاقة والإمكان ، وصلاتُه وسلامه على خيرته من خَلْقِهِ والمبعوث بخير الأديان ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه في كل حين وأوان .

أما بعد **: فإني بعون الله قد عزمتُ بعد أن استخرتُ ربي على تقييد كلماتٍ وأمثالٍ وأبياتٍ ، تَرِدُ عليَّ عند التذكُّر والمذاكَرة ، أرجو الانتفاع بها في الدنيا والآخرة وقد جرَّدتُ العزم على هذا الأمر مراراً ، فلم تتم العَزَمة ، ولم تنفذ الهمة ، والسبب في ذلك بعد سابق القدر احتقار النفس ، والاتكال على الحفظ والدرس .**

ثم إني لما رأيت أني نسيت من ذلك الشيء الكثير ، ولم يبق منه إلا القليل اليسير ورأيت الحاجة في بعض الأحيان تدعوني إلى ما دخل تحت دائرة النسيان ، ووقفت على كلام للشيخ ابن عربي حاصله : أن الإنسان ترد عليه الأشياء في نهاية الطلب ، ينبغي له أن يعتني بحفظها ، لأنه سوف يحتاج إليها فيما بعدُ ، وما وَرَدت إلا لذلك . فعند ذلك صَمَّمْتُ على تقييد ما يخطر في البال ، وإليه أضيف إن شاء الله تعالى ما يكون في الاستقبال ، مستثنياً بمشيئة الله تعالى النافذة ، ومفوِّضاً إليه ، ومتوكِّلاً عليه ، وراغِباً فيما لديه ، ومعتصماً به ، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثم إني أعلم أخاً وَقَفَ على ما هنا، فرأى فيه مقاربة لكلام أحدٍ لفظاً أو معنى ، أن ذلك وقع بطريق الموافقة ، إذ ليس بخافٍ أن من أثبت

كلام أحدٍ ولم يُعْزِهِ إليه ، أنه سارقٌ أو غاصبٌ ، وكلاهما قبيح . وهذا أوان الابتداء ، أصلح الله النية ، وصَفَّى الطَّوِيَّة » .

أقول : انتهت الخطبة المباركة الميمونة . وما رأيتها في حضرموت قط في كتابٍ ، ولا عند أحدٍ ولا عُرِفَت هناك ، ولا أحد يحفظها ولا سمع بها ، ولكن يَسَّر الله لي الوقوف عليها في كتابٍ عند رجلٍ من السادة جاء بها من الهند مجرَّدة ، ومذكورٌ معها أنه كان أراد أن يجعلها على الحِكَم ، ثم جعل الحِكَم في المجموع المذكور ، فنقلتها من ذلك الكتاب وقرأتها على سيدي الحبيب نفع الله به ، تصحيحاً لِنِسْبَتِها إليه فأقَرَّها أنها له ، وقال : « **كُنَّا أردناها للحِكَم ثم جعلنا الحِكَم في المجموع** » .

وقوله : « **سوف يُحتاج إليها** » ، « **وما وَرَدَت إلا لذلك** » ، وكل كلامه رضي الله عنه وارداتٌ ترد لحوائج إما بدت قريباً في وقته أو بعد زمانٍ بعيدٍ بعد وفاته ، كما سنذكر من إشاراته هنا ما تبين منها وما احتيج ضرورةً إليه ، وما عُلم بذلك إلا من إشارته ، وما بقي من إشاراته مخزوناً مضموماً حتى بدت الحاجة الضرورية إليه بعد زمانٍ طويل ، كقصة العنبر وغيره مما ستقف عليه في هذا النقل إن شاء الله ، مما يقضي منه العجب ممن وقف عليه ولما ذكر من كلام ابن عربي .

وقوله : « **وَقَفَ على ما هنا** » أي على ما في حِكَمِهِ ، وكذلك يكون ما في هذا النقل المجعولة أوله، فإن ذلك عند العلماء عيبٌ كبيرٌ وفاعله عندهم قد وقع في خلافٍ كثير ، حيث ينقل عبارة غيره ويدَّعيها لنفسه وذلك لا يجوز ، فإنه إذا نَقَلَ عبارةً لأحدٍ ولم يعزها إليه فتصير بإدراجها مع عبارته نسقاً واحداً ، كأن الجميع لقائلٍ واحد فيوهم أن الكلَّ كلامه ، وهذا لا ينبغي بل لا بد عندهم من عَزْو القول لقائله ونسبة العبارة لمعبِّرها .

وقد نقل الشيخ القسطلاني - صاحب المواهب اللدنية - من مؤلفات الإمام السيوطي بعض العبارات ولم يعزها إليه - ولعله نسياناً - فغضب جلال الدين السيوطي عليه غضباً شديداً ، وبلغه ذلك فأتى إليه إلى بيته معتذراً حافياً حاسراً ، فضرب عليه بابه ، فقال : « من بالباب ؟ » ، قال : « أنا فلان أتيتك حافياً حاسراً معتذراً لترضى عني » ، قال : « قد رضيت عنك ، فارجِع » ، فرجع ولم يفتح له الباب . ثم بعد ذلك أَلَّف الإمام السيوطي كتاب : « الفارِق بين المصنف والسارق » ، قال فيه : « ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾، هل أتاك حديث الطارق ، وما أدراك ما الطارق ، الخائن السارق والمائن المارق .. إلى آخر ما قال » .

ثم إني أقول أيضاً - أيها الناظر في هذا النقل ، سيما من كان كثير المواظبة على حضور مجالس سيدنا من

الأولاد وبقية السادة والمحبين الملازمين - : إن رأيتَ هنا كلاماً وأنت تحفظه ومتقنه بأصح وأصوب مما هنا ، سيما إن ساعدك على ما تحفظ أحدٌ يحفظه على ما حفظت ، فاكتب الصواب واترك الغلط فما مراد سيدنا نفع الله به ومرادنا إلا نقل كلامه على وجهه من لفظه ومعناه ، كما سترى هذا مقرَّراً من قوله .

حتى إنه لما أثبت وِرده الكبير في أذكار المساء والصباح ، وختمه في آخره بدعاء سيدي أحمد الرفاعي نفع الله به ، الذي أوله : «اللهم أطلق ألسنتنا بذِكْرِك» ، وكنتُ أحفظه ، وإذا سمعته يقرأه أراه مخالفاً حفظي في بعض الكلمات بزيادةٍ ونقص ، فقال لي يوماً : « **أتحفظ دعاء الشيخ أحمد الرفاعي؟**»، قلت: نعم ، قال : « **اقرأه أسمعه** » ، فقرأته عليه وسمعه على ما فيه من مخالفة حفظه له ، فقال: « **اكتبه في الورد على ما تحفظه أنت** » ، فكتبته فيه على ذلك واستمر ذلك في كل نسخة . وكذلك أثبت فيه هذا الدعاء من الحديث : « اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، رب كل شيءٍ ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي .. إلخ » فرأيت في رياض الصالحين للإمام النووي في نقله هذا الحديث زيادةً بعد : « رب كل شيءٍ ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي .. إلخ » ، فأخبرته بذلك بأني رأيته فيه بزيادة تلك اللفظة ، قال : « **رأيته فيه ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **أَثْبِتْهُ على هذا كما رأيتَه فيه** » ، فأثبته فيه على ذلك ، فما مراده إلا إثبات الشيء على ما هو عليه بلا مجاكرة .

وكذلك إني في بعض المواضع - لا كلها - إذا كتبتها ظهر لي في معنى كلامه بعض الكلام ، فأكتبه بعده وأميزه عنه . فلا يشتبه عليك اللب بالقشر ، ولا اللؤلؤ بالمحار ولا يختلط عليك ذلك ، فإن كلًّا منهما متميزٌ عن الآخر باللون والذوق المعنوي ، وكذلك بالفرق الحسي كما سأذكره .

فكلام سيدنا واضح البيان لا اشتباه فيه ، وأما الآخر فلو اشتبه به لفظاً أو معنى فلِقُرْبِهِ منه اكتسب منه حسناً وجمالاً وملاحة ، كما يكتسب باطن المحار المجاور للدُّرِّ واللؤلؤ لوناً منه وشبهاً به ، وظاهره المجاور للحصى والتراب الملامس له شبهاً به ولوناً منه ، فإن اشتبه لفظاً أو معنىً بسبب ضعف الخط أو غيره ، فلا يغير عليك ولا عليك منه إذا تبين لك كلام سيدنا .

ولكني أميِّزه عنه فأكتب في أول كلام سيدنا « *قال* » أو « *قال رضيَ الله عنهُ* » إلى تمامه طال أو قصر ، فإذا تَمَّ فإن لم يبدُ لي كلام أتبعته بقول : « *قال* » أو « *قال رضيَ الله عنهُ* » إلى أن يبدو لي كلامٌ فأختم كلامه بالهاء هكذا « ه » بالأحمر أعني بها انتهى ثم أكتب « *أقول* » وآتي بما أردتُ إلى تمامه طال أو قصر ، ثم أختمه أيضاً بالهاء هكذا « ه » كالأول أعني انتهى .

ثم أقول عند ابتداء كلامه : « *قال* » أو « *قال رضي الله عنه* » وما بين ذلك والهاء هو كلامه طال أو قصر ، وما بين « *أقول* » و « هـ » هو ما أنقله طال أو قصر . فافهم القاعدة ، فإذا تَمَّ كلامه ولم يبد لي كلام جعلتُ كلامه متصلاً نسقًا ولم أكتب الهاء .

وهذه الدواة الحمراء ، كان فعلها لي الحبيب السيد عمر البار نفع الله به ، وأرسلها لي من بلده دوعن إلى تريم في رمضان سنة ١١٢٤ ، وإلى الآن أنا أكتب منها وما زدت فيها شيئاً ، والآن سنة ١١٧٠ لها مدة ٤٦ سنة ، وذلك من كراماته رحمه الله .

والذي أنقله على كلام سيدنا هو ما أفهمه من كلامه الذي أنقله عنه ، فكله لفظه ومعناه مأخوذٌ عنه ومستفادٌ منه ، وإن نقلت عليه شيئاً من كلام غيره فهو مما أراه مناسباً له وشاهداً في معناه ومؤيداً له ، وذلك في بعض المواضع لا كلها ، ومن أراد حذف ذلك مجرَّداً لكلامه فلا حرج عليه . وإنما فعلت ذلك مرادي به كالشرح لكلامه ومقوِّياً له لمن لم يسمع منه الكلام ومن ظهر له معنىً غير ما ذكرت ووافقه عليه من هو من أهل الفهم فلا حرج ، وإنما ذلك خوف اشتباهه على من لم يسمع فحوى الكلام . وفي أماكن أذكر شواهد ودلائل لقوله تحقِّقه وتصحِّحه وتبيِّنه وتوضِّحه ، ليتأكد بذلك المعنى الذي قصده ، وأستدل له إما بايةٍ أو آياتٍ من كتاب الله تعالى أو بحديثٍ أو أحاديث من كلام رسول الله ﷺ ، أو من كلام أحدٍ من العلماء والصالحين ، أو قصةٍ أو نظمٍ أو رؤيا لي أو لغيري .

وقد ظهر لي بعدما كتبت كلامه وما نقلت عليه معنىً آخر ، مقصود إظهار ما رأيته عياناً ، وهو أن ترى لكلامه بإضافة ذلك إليه زيادة رونقٍ وحُسْنٍ وبهاء ، ويظهر للآخر بإضافته إليه ضد ذلك . كما إذا أضفت المحار إلى اللؤلؤ ، والصنجة إلى الذهب مثلاً ، فانظر يظهر بعد فرق ما بينهما ، وإن ظهر للمحار من الجانب المجاوِر شبه لونه فيظهر للؤلؤ والذهب زيادةً في حسنه وجماله وبهائه وللآخر كثافة وسماجة بنسبته وإضافته إليه الدر أكثر من وجه المحار المجاور للؤلؤ لإكتسابه من لونه لمجاورته له وقُرْبِهِ منه ، فإن المجاوَرَة والمقارَبَة تُكْسِبه وصفًا من مجاوره ومقاربه فإن الشيء يُعرف من الشيء ، كما قيل : « إن القرين إلى المقارن ينسب » ، يعني إن المقارن لقرين خيرٍ يُعرَف به ويُعرَف بذلك أنه ذو خير ، وكذلك بضد ذلك إذا قارن قرين شر عُرِفَ به ونُسِبَ إلى الشر ، والشيء يُعرف أيضاً من ضده ، رأيته وظهر لي وهو كذلك لمن تأمله ، فإن حَسُنَ من وجهٍ فلقربه من حسن .

فافهم وجه التمثيل بهذه الأمثلة والموازنة ، لتعرف بذلك أثر المخالطة والمجالسة واستراق الطبع - أي طبع الجليس من جليسه - فإن كان ناقصاً استمد من جليسه الكامل كمالاً وبالعكس ، فمجالسة الحريص تزيد في حِرْصِك ، ومجالسة الزاهد تزيد في زُهْدِك ، كذا ذَكَرَهُ الإمام الغزالي في البداية ، وفي

هذا المعنى فائدةٌ عظيمةٌ مقصودة .

وَرُبَّما تَرى كَلاماً قد تكرر مرتين أو أكثر ، وذلك لتكرره في المجالس فيتكرر نقلنا له بحسب تكرره، فإذا ذكر كلاماً في مجلسٍ مرةً أو في مجالس مراراً تكرر نقلنا له مراراً أو مرةً بحسب تكرره وعدمه ، وإذا تكرر إما بلفظٍ واحدٍ في الكل أو في البعض أو بزيادةٍ فيه أو نقصٍ أو مرةً بتفصيلٍ ومرةً بإختصار، نقلناه على ما قال من زيادة لفظٍ يزيد به المعنى أو دون ما ذكر أولاً ، فإذا نُقِلَ كلام مجلس على ما هو فربما جاء أيضاً في مجلس آخر قبله أو بعده ، ونُقِلَ كَلامُ كُلٍّ من ذلك ، ثم مَرَّ أيضاً ونُقِلَ على ما صدر منه ، فلا تستنكِرْهُ وتكرهه بطبعك ، كما قيل : « جُبِلَت القلوب على معاداة المعادات » .

فإن من يرغب في سماع كلامه رضي الله عنه يجب أن يسمع كلَّ ما تكلم به ولو تكرر مراراً ، ولكن مع تكرره لا بد من فائدة ، فربما ذَكَرَهُ مرةً في مادةٍ وذَكَرَهُ مرةً أخرى في مادةٍ أخرى ، فيستدل به على المادتين جميعاً شبيهاً بالأحاديث التي استدل بها الشيخان ، كما سيأتي من إستدلال البخاري بحديثٍ واحد في أبوابٍ متعددةٍ فيه شاهد في كل باب منها ، واستدلال مسلمٍ بأحاديث كثيرةٍ في بابٍ واحد ، في كل حديثٍ منها شاهِدٌ لذلك الباب .

وحديث سيدنا سائرٌ على قدم النبي ﷺ ، جاء في كلامه مشابهةً ومقاربةً لكلامه عليه الصلاة والسلام ، فتبين بتكرر كلامه فائدةً كزيادة معنىً في بعضها ، أو لفظٍ غير لفظ ، أو معنىً اختصر لفظه ومعناه حاصلٌ مما ذَكَر ، أو أبدل لفظاً أوضح في المعنى من الأول وغير ذلك . مثال ذلك كقصة ذاك المتحفظ على ثيابه لا تقع في الماء والطين ، ثم زلق فسيب ثيابه تسحب في الطين والماء ، فأتى به في مادة المتورع عن الحرام ، فأكله يوماً غلطاً ثم ترك التورع وأتى به في مادة ، وكذلك قوله : « **الأمور في هذا الزمان انقلبت عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها .. إلخ** » ، فقل ما تمر مادة كلام إلا وترى هذا شاهداً فيه ، وذلك شاهد لاتساع علمه وقوة معرفته بأحوال الناس واختلاف أمورهم .

فإن رأيتَ كلاماً مكرراً حرفاً بحرفٍ من غير زيادة لفظ أو معنى فذلك سهوٌ وغلطٌ مني ، فاترك أحدهما أو اضرب عليه ، فإني قد أنقل من ورقةٍ ثم بعد مدةٍ أنقلها ناسياً لكتابتها الأولى . وفي التكرير أيضاً فائدةٌ عظيمةٌ وهي تأكيد المعنى المقصود ، فإنك لو لم تسمعه إلا مرةً واحدةً ربما داخلك الشك في صحته ، فإذا سمعته مرةً أخرى تَأَكَّدَتْ صحته عندك ، فإذا سمعته أيضاً زاد تأكده وهكذا . ويكفيك في هذا شاهداً ودليلاً ما ذَكَرَ الله تعالى في كتابه العزيز من قصص الأنبياء حتى تذكر القصة مراراً متعددة ، ثم قال تعالى في سورة هود : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، يعني إنما كرَّرْنَا لك ذِكْرَ القصة مراراً لنثبت به فؤادك – أي لنؤكِّد اعتبارك بها – وأفئدة أمتك كذلك تأكيداً لإعتبارهم ، ففي التعداد تثبيتٌ للفؤاد ، ولهذا سمينا هذا النقل :

قال الإمام السيوطي رحمه الله : « التكرير أبلغ من التوكيد ، وهو من محاسن الفصاحة ، وله فوائد منها التقرير وقد قيل : إن الكلام إذا تكَرَّرَ تقَرَّر . وقد نبَّهَ تعالى على السبب الذي لأجله كَرَّرَ الأقاصيص والأنذار بقوله تعالى : ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، ومنها التأكيد ، ومنها زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تَلَقِّي الكلام بالقبول ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾، ومنه إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانياً ، توطئةً له وتجديداً لعهده ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، ومنها التعظيم والتهويل ، ومنه : ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكررت نيفاً وثلاثين مرة ، وكل واحدةٍ تتعلق بما قبلها ، وكذلك : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ومن ذلك تكرير القصص » ، انتهى كلام السيوطي . فللتكرير فوائدٌ كهذه وغيرها ، ولكن لذلك في كل مرةٍ في كتاب الله معنىً متجددٌ ولا يخلو في كل مرةٍ من فائدةٍ ومعنى .

وكذلك ما ترى في متون الأحاديث في كتب الحديث من تكررها كثيراً سيما في الصحيحين - وهما العمدة في أحكام الشريعة - حتى ذكر أن في كل واحدٍ منها سبعة آلاف حديث ، منها ثلاثة آلافٍ مكررة ، وأربعة آلافٍ غير مكررة ، منتخبة من ألوفٍ كثيرة .

وعادة البخاري : تكرير الحديث الواحد في أبوابٍ كثيرةٍ لكون فيه شاهدٌ في كل بابٍ يستدل به في كل بابٍ بما فيه من شاهِدِ ذلك الباب ، كل بابٍ معقودٌ له مسألة وفي ذلك الحديث شاهِدٌ لها ، فيأتي بالحديث كله في كل بابٍ ومقصوده منه ما فيه من شاهِد ذلك الباب .

وعادة مسلم : تكرير الأحاديث الكثيرة في بابٍ واحدٍ معقودٌ لمسألةٍ واحدة وفي كل حديثٍ من تلك الأحاديث شاهدٌ لتلك المسألة ودليلٌ لها يستدل بتلك الأحاديث كلها على تلك المسالة .

وَرُبَّما ترى ننقل عن سيدنا في هذا النقل كلامٍ مزحٍ وتحته معانٍ عجيبة ، أو ينجَرُّ الكلام بعده إلى معانٍ عزيزةٍ وعلومٍ غزيرة ، أو يمتد إلى كلام جِدٍّ حتى لا يخفاك - كما سترى فيما سيأتي من مزاحه مع خادمه أحمد باعكيم في سؤاله له عن شأن الحمار الذي كان راكبه - كيف انجَرَّ ذلك الكلام إلى تلك المادة العجيبة ، وكذلك مزاحه مع نبيهان لما سمعه يسعل كيف انجَرَّ الكلام المزح إلى ذلك الكلام الجِد ، وغير ذلك مما سيأتي .

وربما أكتب لفظة « يعني » أو لفظة « أي » أريد بهما شرح ما بعدهما ، ولكن قد يكونان من قول سيدنا في نفس كلامه شارحاً ما دخلا فيه من شرح حديثٍ أو غيره ، فإن كان من كلامه أكتبهما بالأحمر ، أو من غير كلامه أكتبهما بالأسود ، لبيان كلامه من غيره .

ومرادي بذلك توضيح كلامه بالبيان فلا يشتبه على الناظر ، وإن أتى بهما هو في سياق كلامه وشأنهما متبين ، لكن إذا كتبتهما في سياق كلامه بالأحمر ، وقد نبهت الناظر على ذلك هنا ففي ذلك زيادة بيان ، ومقصود الكلام المذكور مع كلامه لتبيين لفظه ومعناه بالدلائل والشواهد وتحقيق ذلك .

والآن أشرعُ في المقصودِ إن شاء الله تعالى

مُستعيناً بالله سُبحانه وتعالى ومُفوِّضاً أموري كلها إليه سُبحانه

وأرجو أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعينني على ذلكَ ويوفقني للصَّواب

ويجعله خالصاً لوجهِهِ الكريم

لا رياء فيه ولا سُمعة ولا تصنُّع ولا دعوى ولا مُماراة ولا اتِّباع هوى

وأقولُ مُقدِّمة في نقل الكلام :

اعلم أن كلام سيدنا عبدالله نفع الله به مستمَدٌّ من عِلْمِهِ وحالِهِ ، وعِلْمُهُ وحالُهُ مستمَدٌّ من النبي ﷺ كما قدَّمنا من وَصْفِ القطب من قوله في القصيدة :

يَمْتَـدُّ مِـنْ بَحْـرِ البُحُـورِ مُحِيطِهَـا خَـيْرِ الأَنَـامِ بِعَاجِـلٍ وَبآجِـلِ

ثم قال هو في معنى ذلك يعني : « **إن مدد القطب من النبي ﷺ** » ، يعني هو يمد الخلق من مدده، ويشهد لذلك ما ذَكَر في رؤياه التي قدمنا ذِكْرِها من شأن الرجل الذي رآه يقول له : « أنت القطب » . وأنكر قوله فقال : « **لا ما أنا به** » ، فخالفه وخرج إلى حوش المسجد الذي رأى كأنه فيه ، وكأن ذلك الحوش واسعاً جداً يأخذ ألوفاً من الخلق ، فرأى كأنه غاصٌّ من الخلق وأن ذلك الرجل صاح بين أولئك الناس بالنطق بالشهادتين ، ثم قال : « وأشهد أن عبدالله الحداد القطب » ، ثم أتى إليه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله ، وأراد أن يجعل فيه من العلم والحكمة شبيهاً بشرح صدر المصطفى عليه الصلاة والسلام .

فتبين بهذا وبما تقدم أن ذلك المقام مقامه ، وسيأتي أنه رأى من شرح صدره ما يشبه شرح صدر المصطفى عليه السلام ، وسيأتي قولي له : إنما مددنا منكم ، فقال : « **إنما المدد من النبي ﷺ ، ونحن ما مددنا إلا منه** » أي منه . فكان النبي ﷺ إذا تكلم معبِّراً بلسانه عما حواه من العلم في جنانه يأتي في لفظه من البلاغة والفصاحة وإيجاز الكلام من جمع المعاني الكثيرة في القول الوجيز ، ولذلك قال : « أوتيت جوامع الكلم » ، أي الكلمات البليغة الوجيزة الجامعة لمعانٍ كثيرةٍ غزيرةٍ عزيزة ، ولِوَرَثَتِهِ من ذلك أيضاً حظٌ ونصيبٌ كما سيأتي بيانه . ويأتي ﷺ في كلامه ما يعذب سمعه ويطرب معناه من ضَرْبِ الأمثلة والإستعارات الحسنة والمجازات اللغوية ونحو ذلك من الأمثلة المضروبة للمعاني المذكورة ، وبالإستعارات المليحة المستحلاة في اللفظ والمعنى .

وقد قال سيدنا عبدالله : « **إنما الأمثلة لإيصال المعاني إلى قلوب العامة ، إذ لولاها لما عرفوا تلك المعاني ، وبِضَرْبِ الأمثلة يحلو الكلام ويزين نثراً كان أو نظماً** » ، كما قيل :

يُـزانُ نادِيكُـمُ يـومَ الحَصـادِ بِـهِ كَـما تُـزانُ بُيُـوتُ الشِّـعرِ بالمَثَـلِ
شَرُّ الأخـلَّاءِ مَـن تَـسري عَقَارِبُـهُ لا خَـيرَ في أدِمٍ يُطـوى عـلى نَغَـلِ

يعني إن « شر الأخلاء » ، من يطوي لك قلبه على خبثٍ من نحو غلٍّ وحسد ، ثم ما زال لديك يصل إليك مضاره ومحنه خفية مع إظهاره لك الصداقة ، وهو معنى قوله : « تسري » ، شَبَّهَ ضرره حال

الخفاء بالساري بالليل مختفياً ، فانظر ما في هذا النظم من الأمثلة والإستعارات الحسنة التي حَسُنَ بها هذا النظم وزان ، فلا بأس بضرب الأمثلة فقد ضرب الله ورسوله للناس الأمثال ، ولكن قال تعالى : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾.

وإن اعترض على ذلك معترِضٌ فإنه منافقٌ فاسق ، فإن المنافقين واليهود قد اعترضوا في تمثيل الله بالذباب والبعوض والعنكبوت وأمثالها ، فرد الله عليهم بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

وفي هذا عجبٌ غاية العجب من أمر الله سبحانه ، كيف يقول واحدٌ أَضَلَّ به كثيراً من الناس وهدى به كثيراً ، كما إذا بَلَّغَ النبي ﷺ أمر الله تعالى في ملأٍ من الناس هدى به أناساً فاتبعوه وأضلَّ به آخرين فاجتنبوه ، والأمر هنا من جانب الحق مجرد قدرةٍ وإرادة ، لا مدخل للأسباب فيها لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾، فهدى وأضل وأسعد وأشقى بمحض إرادةٍ منه، من غير تقدم جريمةٍ من العبد شَقِيَ بسببها ، ولا سبق وسيلةٍ منه سَعِدَ بها ، إنما هو بمحض اختيارٍ من الله تعالى للفريقين ، خَصَّ كلًّا منهما بما خصَّه به .

فإذا دخل في دائرة طلب العبودية لحق الربوبية فحينئذٍ تعلقت به الأسباب وطُولِبَ بها ، فكل من اعترض في شيءٍ من ذلك إلى ما ذكرنا من ضرب الأمثلة – وهذا المعنى المذكور – فذلك مبلغهم من العلم ، ولو بلغ المعترض أكثر من ذلك لاعترض عليه ، وسيأتي هذا أكثر مما هنا ، فكل قولٍ فصيح البلاغة بليغ الفصاحة لا يخلو من ضرب الأمثلة ولا بد له منه .

قالوا : والمثل مأخوذٌ من المثال ، وهو قولٌ سائرٌ يُشَبَّهُ به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه كقولهم : « مَثَلَ بين يديه إذا انتصب » ، معناه أشبه الصورة المنتصبة ، « وفلان أمثل من فلان » أشبه بما له من الفضل . قالوا : ويجتمع في المثل أربعٌ لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، ورصانة المعنى، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة .

فهذا كله جارٍ كثيراً في كلام الله ، وفي كلام رسول الله ﷺ ، وفي كلام الأولياء والصالحين ، وفي كلام سيدنا أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وغير ذلك ، ففي كلام الله تعالى

من ضَرَبِ الأمثلة شيءٌ كثير .

وفي كلام رسول الله ﷺ من ضَرَبِ الأمثال أيضاً ما لا يأتي عليه الحصر ، قال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : « حفظت من رسول الله ﷺ ألف مثل » ، فهذا ما يخصه وحده مما حفظ من الأمثال ، فكيف بالكثير ممن سواه من باقي الصحابة رضي الله عنهم ، وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « مثل البخيل والمتصدِّق ، مثل رجلين عليهما جبتان - أو جنتان - من حديد » الحديث ، ولمسلم من رواية أبي موسى : « مثل البيت الذي يذكر الله تعالى فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه ، مثل الحي والميت » ، وله من رواية جابر : « مثل الصلوات الخمس، كمثل نهرٍ غمر على باب أحدكم » الحديث ، وللبخاري من رواية النعمان بن بشير : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا في سفينة » الحديث ، ولهما من رواية ابن عمر : « مثل القرآن مثل الإبل المعقلة » الحديث ، ولهما من رواية أبي موسى : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة»، ولمسلمٍ من رواية جابر : « مَثَلِي ومَثَل الأنبياء كرجلٍ بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنة ، فأنا موضع اللبنة حيث ختمت الأنبياء » ، وهكذا إلى ما لا يحصى مِن ضَرْبِ الأمثلة في كلام الله وكلام رسوله .

فكذلك ومِثْل ذلك ونحو ذلك يكون من ضَرْبِ الأمثلة في كلام سيدنا ، كما ستراه في هذا النقل من هذه المجالس المنوَّرة من الأمثلة المضروبة للمعاني والعلوم والقصص والحكايات المستشهَد بها لتلك المعاني ، مما إذا رآها من له معرفةٌ بالعلوم وذوقٌ فيها ، تحقَّقَ بذلك غزير عِلْمِهِ وبديع إدراكه وقوة غوصه وتمكّنه في العلوم اللدنية المستفاضة من الحضرة الإلهية ، وأن علومه كلها مستَمَدَّةٌ من العلوم النبوية كما سترى من ضَرْبِ الأمثال ومن الإستعارات العجيبة للمعاني الغريبة مما يبهر العقول ، وما ترى من الألفاظ اليسيرة المشتملة على المعاني الكثيرة وراثةً له من جَدِّه ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم .

ومن أمثلته تلك كقوله : « **الناس اليوم في العمل كالطُّعم تحت العَقْبة** » ، وقوله : « **لو كل من جاء نجر ، ما كان في الوادي شجر** » ، وقوله : « **ما حرفة أبيك ؟ قال : مفلِّح ، فقيل له : خَرَج رمضان** » ، وقصة سارق آل باكثير ، وقوله : « **فإن الله سبحانه لم يَطْرَح حجرة على بَعْرَة** » ، وغير ذلك مما يتعذر حصره ولم يدرك كُنْهُهُ ، وسيأتي كل ذلك مع شرحه إن شاء الله .

وقد قال سيدنا : « إن النبي ﷺ ما ورَّث إلا العلم ، وما كان له من ذلك مطلقاً كان لورثته مقيَّداً ، وإذا أخذ الناس من ذلك بسهمٍ أخذنا منه بسهمين : سهمٌ من جهة العلم ، وسهمٌ من جهة النسب » .

وسيأتي كل من ذلك مُبَيَّناً في محله ، واسْتَشْهَدْنا هناك على هذا الأخير بقول الأبوصيري لما مَدَحَ شيخَهُ أبا العباس مع شيخه أبي الحسن في القصيدة الدالية ، حيث قال :

يَـا وَارِثـاً بالفَـرْضِ عِلْـمَ نَبِيِّـهِ ... شَرَفـاً وبالتَّعْصيـبِ غَـيرَ مُفنَّـدِ

اليَـومَ أَحمَـدُ مِـنْ عَـلِيٍّ وارِثٌ ... حَظِّـيْ عَـلِيٍّ مِـنْ وِراثَـةِ أحمَـدِ

وبينّا ذلك ، فإذا وقفتَ عليه عرفتَه .

ثم اعلم أيضاً أن كلام مجالس سيدنا عبدالله نفع الله به على حسب ما يجريه الله تعالى على قلبه وينطق به لسانه ، لا على حسب مادةٍ ينسهب فيها الكلام ويطول ويرتبط بعضه ببعضٍ ، كما هو في أبواب العلوم المعروفة كالفقه وغيره ، ولهذا يكون كل كلامٍ منه على حدة ، لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده غالباً ، كما ذَكَرَ ذلك في مصنَّف « الفصول العلمية » حيث قال : « **إنما هو وارداتٌ ترد ، لكن تَوَقَّفَتْ في هذا الوقت ، حيث أهله ليسوا من أهل الواردات ، ولهذا تعوَّق إتمامه** » ، أي فكذلك هذا المنقول هنا من قوله : « **إنما هو وارداتٌ ترد** » ، فقد ترد في وقتٍ كثيراً فيكثر النقل لها ، وقد تقل فيقل ، وقد تتوقف فيقف .

ورأيت فيه من الخاصية أنه لا يمل قاريه ولا سامعه ولو تكرر عليه مراراً كثيرة وذلك من سِرِّ نَفَسِهِ الشريف ، وهذه الخاصية عند من رآه وسمع منه كلامه ، وعند من لم يره ولم يسمع كلامه منه ، حتى إن أناساً من العوام والبدو والفلاحين وأهل الدنيا ومن لا مدخل له في العلم إذا سمعوه انجذبت إليه قلوبهم واستكانت له نفوسهم ، وذاقوا بسماعه وأعجبوا به ورَغِبُوا في استماعه واعتَقَدُوه ، وزادوا محبةً وعقيدةً في قائله ، وتحقَّقَ لهم أنه الكلام الحق ، فلذلك حسن منا أن نسميه كتاب :

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي القطب السيد عبدالله الحداد نفع الله به

وقد استأذنته في نقل كلامه مراراً وفي كل مرةٍ يأذن لي ، ومرةً قلت له : إنا نسمع كلامكم ونحرص عليه ونكتبه ، ولا ندري هل فهمناه على ما أردتم وقصدتم أم لا ؟ ولكنا نتحرى لفظكم إن أمكن وإلا كتبناه بالمعنى على ما فهمناه ، وربما حصل زيادة أو نقص ، فقال : « **اكتبه وعادك تعرفه** » . أي ستعرفه فيما بعد ، ومرةً ذَكَرْتُ له مثل ذلك ، فقال : « **اكتبه وعادنا نبيِّنه لك** » ، فكان لذلك كلما ظهر لنا من

معاني كلامه ما لم يظهر لنا قبل ذلك فهو من تبيينه ، يعني أن الله سبحانه ألهم معرفة معانيه ببركته كرامةً له وإتماماً لوعده .

حتى إني رأيته ليلةً في المنام ، وهي ليلة الجمعة ١٤ ربيع أول سنة ١١٢٦ ، وهو في جَمْعٍ يتكلم عليهم - وذلك بمسجده بالسبير وكان ذلك أيام المحلة - فبينما هو يتكلم عليهم إذ التفت إلي - يعني إلى الرائي - ثم قال : « **فلان** - أي الرائي - **مُهَيَّم القلب ، والقلب المهَيَّم لا يتأهل للواردات الإلهية ، ولا يحصل الهيام إلا لقلبٍ فارغ** » ، إلى هنا تمت الرؤيا .

فأخبرته بذلك يقظةً ، وقلت : أأكتبه في جملة ما أكتب مما أسمعه وأحفظه من كلامكم ؟ فقال : « **اكتبه** » ، فكتبته ، أعني فإذا كان ذلك الكلام رؤيا منام أَذِنَ لي في كتابته وأمرني به ، فكيف بكلام يقظةٍ مُحقَّق محكوم به شرعاً وعادة .

ثم إنه رضي الله عنه شرحه فقال : « **الهيام والغرام من أسماء المحبة ، والهيام هو الواردات الإلهية نفسها . فلا يتأهل : أي لا يحتمل القلب المهَيَّم من الواردات الإلهية أكثر مما هو فيه ، ولا تَرِد إلا على القلب الفارغ الخلي** » ، انتهى ما شرحه به .

أقول : وقوله « **الفارغ والخلي** » في اليقظة والمنام ، يعني خلي من الأخلاق المذمومة والأفعال المنكرة لأنها والواردات متضادان .

وكذلك رأيتُ أيضاً كأني في حلقةٍ فيها خلقٌ كثير وسيدنا في وسطهم يتكلم عليهم ، وذلك في مسجد السبير المتقدم ذِكْره أيضاً وفي الوقت المذكور ، إذ التفت إليَّ وجعل يُمْلِي عليَّ كلاماً كثيراً ، وقال : « **احفظ كلامنا هذا** » ، فقلت : يا سيدي ما يمكنني حفظه لكثرته ، فقال : « **هات دواةً مع قلمٍ وقرطاس** » ، فأتيته بذلك ، فقال : « **اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي جعل القلوبَ محل أسرار الغيوب** » . فانتبهت بعدما كتبت هذا ، فأخبرته بهذه الرؤيا بعد ستة أشهرٍ في طريق السبير فقال : « **اكتبها** » ، فكتبتها امتثالاً لأمره .

ورأيتُ سيدنا ليلة ١٩ من جماد أول سنة ١١٦٩ وفي يده كتاب المجالس هذه التي نقلتها من كلامه، وهو في نقش[1] يرفعها بيده يروزها فقال : « **هذه كراسين أو ثلاثة** » ، فقلت : هذا كتاب المجالس ، وقد كتبت منه نسخة وأرسلتها لبعض السادة بحضرموت . ولم أعينه له إذ ذاك ، وهو السيد محمد بن زين بن سميط ، ومرادي أرسل للعيال منه نسخة ، ونسخة أكتبها وأبقيها عندي نسخة لي ، قال : « **إيه ، لو أحسنتَ ما نفعك الناس ، ولو استقمتَ ما استقاموا معك ، ولو أقاموا ما أقمت معهم،**

(١) هكذا في الأصل .

ولو استقمتَ واستقاموا لكانوا مرة ومرة » ، أو كما هو الواقع من أمر الرؤيا .

وقلت له يوماً : إن الكلام الذي ننقله عنكم بلفظه نحس له أثراً ونرى له رونقاً أكثر مما ننقله بالمعنى ، فقال رضي الله عنه : « **ولو قد غبت ظهر له حالٌ غير الحال الأول ، لأن المخالطة والإجتماع مانعٌ وحجابٌ عظيم** » .

- أي عن كمال الإعتقاد ، كما قال : « **في الإجتماع يغلب شهود البشرية ، وفي الغيبة يغلب شهود الخصوصية** » ، ومرةً قال : « **إذا رأيته كل حينٍ يقول لك : هات كذا وافعل كذا سقطت حرمته من قلبك ، وإذا تراه في عوايده من أكلٍ ونومٍ وغير ذلك فتضعف العقيدة برؤية المماثلة ، وفي بُعدِك عنه يغلب الشوق إليه فيغلب شهود الخصوصية** » - .

فقلت : أنا داري بهذا ، وهو الذي حملني على كتابة ذلك ، فقال رضي الله عنه مُنكِراً عليَّ هذا القول: « **أثرك مطول كثيراً في الأمل وتظن الحياة** » أو كما قال .

أقول : قوله « **ولو قد غبت** » إلى قوله : « **مانعٌ وحجابٌ عظيم** » ، في ذلك حكمة بالغة وسياسة عظيمة . وسيأتي قوله : « **كانوا لا يخلّون المريد يجالس الشيخ خوفاً عليه من تَغَيُّر العقيدة بسبب المخالطة**» ، ويأتي أيضاً قوله : « **إنه لا ينتفع بالشيخ إلا من يعتقد فيه أنه أفضل أهل زمانه فإذا خالطه ورآه في عوايده يتعاطى مثل ما يتعاطاه ، من أكلٍ ونومٍ وأنه يشبهه في ذلك ، ضَعُفَت عقيدته وضَعُفَ منه باطناً رؤية الخصوصية بما يرى من ظاهر البشرية ، وانتفى من قلبه تعظيمه واحترامه من أجل ذلك فحُرِمَ الإنتفاع به ، وهذا طبع الآدمي الغالب عليه إلا من أخذ الله بمجامع قلبه إلى الخير** » .

ولذلك لما غلب هذا الطبع على الكفار ، قالوا : ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، فأنكروا من النبي ﷺ طبع البشرية لكفرهم ، حيث لم يطّلعوا منه على وصف الخصوصية لعدم إيمانهم . والتلميذ والمريد إذا لم يشهدا من شيخهم خصوصيته ، وإنما غلب عليهما شهود بشريته لم ينتفعا به ، ولذلك لا يَدَعون المريد يجالس شيخه كثيراً خوفاً من ذلك ، ولهذا قال سيدنا : « **إن المخالطة مانعٌ وحجابٌ عظيم** » .

وسيأتي قوله : « **إن السيد يوسف الفاسي لما جاء إلى الشيخ أبي بكر بن سالم ، ما خلاه يجلس معه إلا نحو مجلسين أو ثلاثة ، وإلا فيأمره أن يبعد عنه** » ، كما يأتي بيانه نقلاً عنه قوله ذلك كما ذَكَرَ هو في رحلته ، لما سافر إليه وما علم به ، ولا من أي الناس هو ولا بأي أرض إلا عن أقوال أهل الكشف له: « **إن لك شيخاً لم تعرفه** » ، وكاشفه بهذا القول منهم جماعةٌ كثيرون ، وبقي كلما سمع بشيخٍ قصده وما

عَلِمَ به على رجاء أنه هو ، ولم يبيِّنوه له لعدم الإذن لهم في ذلك ، إلا لما وصل مصر ذكر له بعض الناس إنه اجتمع به وإنه كثيراً ما يذكره وأشار عليه بالوصول إليه ، فعند ذلك قصده إلى بلده وبين كل ذلك في رحلته ، وسنأتي منها ما يشرح هذا بهذا اللفظ من قوله فكأن لسان حاله يقول : « ما صدَّقت على الله أني أراك فلا أفارقك طرفة عين » ، لكن طريق القوم ليست على قياس العقول ، وما تركه وطبعه حتى غيبه عنه ، وما تركه بكثير مخالطته وما اجتمع معه إلا نحو ثلاث مرات ، وهذا معنى قول سيدنا: « **طريقتنا طريقة مظلمة** » ، يعني طريقة الخصوص ، ومعنى مظلمة : أنها ليست على قياس العقول ، فما لم يهتد العقل إليه كالذي لم يهتد البصر إليه بأن كان في ظلمة .

وقد رأيتُ بتريمٍ رجلاً من أهل دمشق الشام - يقول إنه شريفٌ واسمه زين العابدين - فأقمت سبع سنين ما رأيته جاء يوماً قط إلى الحاوي لزيارة الحبيب عبدالله ، وإنما أراه في الجامع يوم الجمعة ، فإذا رآني من بعيدٍ أومأ إليَّ بالتحية بِوَضْعِ يده على صدره ، فتعجَّبْتُ من إقامته هنا ومقاساته الحال في تريم مع عدم تردده للزيارة ، وسألت عن أمره فما أحدٌ علم عنه بخبر .

فبعد سبع سنين مضيت إليه يوماً قاصداً لومه ومعاتبته على ذلك ونصحه لوجه الله وشفقةً عليه لغربته ، وقلت له : أنت رجلٌ من أهل بلد رفاهيةٍ وسعة معاش ، والغريب لا يتكلف المقام هنا إلا لأجل الإجتماع بسيدنا الحبيب ، والناس يأتون إليه من كل فجٍّ عميق متكلفين المشاق والمتاعب وضيق المعاش لأجل رؤيته والصلاة معه وحضور مجالسه واستماع كلامه وحصول فوائده ، وأنت أراك متكلِّفاً للمقام هنا ولا أراك تتردد إليه ، ولي منذ سبع سنين ما رأيتك يوماً جئته زائراً ، فما معنى مقامك هنا ؟ فقال : « ما جئت هنا إلا لأجله ولا قصدت إلا عنده ، ولكنني بعد ذلك خفت من ضعف العقيدة بسبب المخالطة ، فرأيت أن البُعد مع العقيدة ولا القُرب مع ضعفها أو عدمها » ، ونحو هذا الكلام مني له ومنه لي ، فما صدقته في ما قال ، ولا جرى لي قوله على بال .

فقلت له : إن قولك هذا وكلامك حكمة وصواب لو كان على وجهه ، ولكن ليس هو على وجهه بل عملك يكذِّب قولك ، فلو كان قولك صِدْقاً وعلى وجهه على ما قلتَ لكنتَ تتردد للزيارة إن لم يكن كل يومٍ ففي الأسبوع أو الشهر أو السنة أو من العيد إلى العيد ، فلما لم يكن منك ذلك فلا أرى قولك هذا صدقاً كما قلت ، فأخبِرني بحقيقة أمرِك إلا إن عزمت بعد اليوم على الزيارة والملازمة لها فلعل الله يمحو ما سلف ، وأكَّدتُ عليه في ذلك شفقةً عليه فما أجاب ولا فعل .

ثم بعد سنةٍ أتيته ولمته وأكدت عليه ، فلم يُجْدِ فيه شيئاً وقال كقوله أولاً وادَّعى كدعواه الأولى ، ثم بقيت سبع سنينٍ أخرى أتردد عليه في كل سنةٍ مرة ، وأقول له في ذلك ويقول لي كذلك ، ولم يدخل

في خاطري ما قال ولا صدقته ، بل بقي معي له تهمة عظيمة لم تزل بقوله لعدم تصديقي له لعدم تردده، ولو كان يتردد للزيارة لما توقفت في تصديقه ، وما أحد أعطاني عنه خبراً ولا عَلِمَ بقصته أحد ، واعتقدتُ أن الأمر بخلاف ما قال .

وسألت عنه الأولاد والجماعة الملازمين والمجاورين ، كالسيد محمد بن شيخ الجفري والسيد زين الحبشي وغيرهما ، فلم يعلموا عنه خبراً ، حتى يوماً كَثُرَ عليَّ الوسواس من جانبه - وهكذا عادتي إذا رابني أمرٌ لم يستقر خاطري حتى أطَّلع على حقيقته ، كما سيأتي بعض الوقائع في هذا المعنى ، كقصة بعض أهل الحساء أنه أرسل لسيدنا بقوصرة تمرٍ من تمر البصرة وغير ذلك - وبقي معي الوسواس ذلك اليوم إلى الليل ، فلما كنا في الراتب وسيدي الحبيب جالس والوسواس من جانبه يعمل معي في تلك الحضرة الشريفة ، وكانت ليلة الثلاثاء وعادة سيدنا يطلع البلاد تلك الليلة يبات عند أهلٍ له فيها وما معه إلا الفقير وقائد الفرس ، فلما فرغ من الراتب ركب إلى البلاد وأنا أسايره من الجانب الأيمن مع الخادم قائد الفرس عكيمان فقط ، وبقي يقرأ وِرْدَهُ مشتغلاً به وأنا مشغولٌ بتلك الخواطر من جانب الرجل ، وهامني شأنه منذ أربعة عشر سنة .

فلما قرب من البيت ووصلنا إلى سقاية السيد عمر بن أحمد ، التفت إلي وقال لي مكاشفةً منه : « يا حاج » ، قلت : لبيك ، قال : « إن هذا الرجل الدمشقي ما جاء إلى هنا إلا لأجلنا ولا قصد إلا عندنا ، ولكنه مَرَّ في مجيئه من بلده إلى عمان ، وجاء إلى قريةٍ من عمان على ساحل البحر تسمى : الرمس . وفيها أناسٌ يقال لهم آل ثالث ، وكانوا محبين لنا ويكاتبونا ، فسمع عنهم كونهم محبين لنا ومنسوبين إلينا فقصد عندهم لما علم أن لهم بنا صلة . فلما علموا أنه قاصدٌ إلى عندنا قاموا به وأكرموه وكسوه وزوَّدوه وأعطوه خرجيةً وأركبوه في مركبٍ لهم إلى الشحر بلا نول ، وكتبوا لنا معه كتاباً يوصونا به . فبعدما وصل إلينا بأيام كتب لهم كتاب ، وذكر فيه كليمةً من جانبنا أزعلتهم ، فكتبوا لنا كتاباً وجعلوا كتابه ذلك في طيِّ كتابهم إلينا ، يريدونا نقف على كلمته ، فقرئ علينا كتابهم وكتابه وسمعنا تلك الكلمة، وإذا فيه يقول : إنا قد زرنا السيد فلان واجتمعنا به ، ولكن ما رأيناه على ما نسمع عنه ، فأخذت الكتابين من يد القاريء ، وأخذت عليه أن لا يتلفظ بتلك الكلمة لا له ولا لغيره . ثم إنا ما حسّينا به إلا شال حوايجه وما معه وانتقل من نفسه إلى البلاد وهو آخر العهد به . ونحن من عادتنا أنا إذا أردنا أحداً جذبناه إلينا ولو كان بأقصى الأرض ، ومن لم نرده نفيناه عنا ولو كان حاضراً بين أيدينا»، أو كما قال رضي الله عنه .

والله لا سألته ولا ذَكَرته له ، لا تصريحاً ولا تلويحاً ولا عرَّضتُ به ، وأنا حريصٌ على أن أطَّلِع على أمره وأتفحص عنه منذ أربعة عشر سنة ، وما عرفت حقيقة ذلك إلا من مكاشفة سيدنا هذه رضي الله

عنه ، فَذَكَرَ حقيقة شأنه بهذا التفصيل العجيب الذي لم يعلم هو به من نفسه ولا أحد من أبناء جنسه ، فأين حقيقة هذا الكلام ومعناه من قوله ؟

ولما قال سيدنا : « **أخذت عليه أن لا يتلفظ بها** » ، يعني إنه ما أراد أن يعلم الرجل أن سيدنا اطلع عليها ، لئلا يخجل ويحقد على أولئك الجماعة لما أعلموه بها .

وأنا أستغفر الله وأعتذر إلى سيدنا من ذِكْرِها ، وإنما جَرَّنا إلى ذِكْرِها الحاجة الداعية ، والضرورات تبيح المحظورات ، والضرورة هنا التحذير من التعرض للأكابر بما يغضبهم كقول الرجل هذه الكلمة ونحوها ، فإن فيه الهلاك في الدنيا والآخرة ، كما سنذكر عاقبة هذا الرجل وما آل أمره إليه ، وكذلك من العذر المبيح لِذِكْرِها عبرةً وبياناً لهذه المكاشفة العجيبة الجليلة من سيدنا .

وقد ذَكَرَ الله في كتابه العزيز عن قول الأعداء في حقه سبحانه وفي حق رسوله وفي حق كتابه أموراً هائلة ، تحذيراً عن ذلك وعن مشابهتهم في كل ما ينقص الإحترام فلا حرج في ذكر ذلك لذلك .

وكذلك ما جَرَّ إلى هذه القصة من تأديب المشايخ لمريديهم وتلامذتهم وإرشادهم إلى غاية الإحترام والتعظيم وتجنب ما يخل بذلك ، حتى من كثرة المجالسة والمخالطة المطلوبة كما ذكر سيدنا من ذلك الأدب الشريف من عدم كثرة المخالطة ، وإن ذلك مانعٌ وحجابٌ عظيم . واحتج له بأن السيد يوسف لم يدعه الشيخ أبوبكر بن سالم يجتمع به إلا مرتين أو ثلاث ، مع شدة تعطشه إلى لقائه وألا يغيبه عنه كما سيأتي نقلنا لذلك من قول السيد يوسف بنفسه ، كما ذكره في كتاب رحلته من المغرب إلى الشيخ أبي بكر بن سالم ، ولبيان أن الإكسير الأعظم هو قوة الإعتقاد ، وأن الهلاك الأكبر هو ضعف الإعتقاد إذا صحبه إنتقاد ، ودون الإنتقاد عدم الإنتفاع ، وأن دعاوى اللسان والتظاهر بها بلا حقيقة لا فائدة فيها ولا طائل تحتها ، كما ادعى ذلك الرجل أن معه اعتقاداً خاف عليه من القُرْبِ خوفاً أوجب له الإنتزاح ، وكلمته التي أَسَرَّها لأولئك القوم شاهدةٌ ببطلان دعواه الإعتقاد ، بل تدل على ما في قلبه من الإنتقاد ، ولذلك حصل عليه ما حصل .

ووالله إن سيدنا في جذب من أحب ونفي من أبغض لكما قال ، وإنه لكذلك في جميع الأقوال والأفعال والأحوال .

ولقد رأيتُ من قوله في الأمرين الجذب والنفي ، ورأى غيري أيضاً من ذلك عجباً مراراً كثيراً غير مرةٍ من النفي والجذب : فمن النفي : قصة هذا الرجل ، انظر كيف لما جاء عانياً من بلادٍ بعيدةٍ من دمشق الشام إلى حضرموت ، من الذي أخرجه من كنفه وحوزه إلى مقاساة الشدة والبلاء بلا فائدة دينية ولا دنيوية ، هل ذلك إلا للنفي المذكور ، ولولا ما تكفل الله به وضمنه من الرزق العام للبَرِّ

والفاجر لما أهم أولئك السادة أن يقوموا به .

وأما الجذب : فما تراه من كثرة الواردين إليه من الأماكن البعيدة ، والجهات المنتزحة من المغرب والمشرق ومصر والشام ومما قَرُبَ وبَعُد .

وقد ذكَّرته يوماً جواب كتابٍ كتبه إليه ابن عمٍّ لي مجاورٌ في المدينة المنورة ، وقال لي : « إن أبطأ بالجواب فذكِّره » ، فذكَّرته بذلك ، فقال : « **أَبْشِر أَبْشِر – مرتين – أما علمتَ أن آخر أسماء الله الحسنى الصبور ، وإن أردت وضعنا عليه مغناطيس الطلب ، فما تحس به إلا وهو عندك** » ، وهذا منه رضي الله عنه والله قولٌ وفعل ، لا قولٌ بلا فعلٍ كما يقوله المدَّعون كذباً ، وهذه الكلمة منه من المزاح الذي يَجُرُّ إلى معانٍ عجيبةٍ كما قدمناه أولاً .

فكان كلام سيدنا من جانب الرجل الدمشقي هو الصدق الذي دخل في الخاطر واطمأن به العقل دون كلامه هو ، وما أحد أعطاني عنه جواباً كهذا الجواب لا الرجل بنفسه ولا غيره . فيا للعجب من أحوال الأكابر كيف يزنون ويميزون الإنسان وهو لا يشعر . فالحذر الحذر أيها المسترشد الطالب للخير أن تُضْمِر في جانبهم ما يكرهون ، سواء كنت في حضرتهم وهو أشد أو منتزحاً عنهم ، وانظر كلمة هذا الرجل كيف سقطته من عين الله ومن أعينهم ، وأوجبت له شَرَّ شَرٍّ الدنيا والآخرة وحرمان الخير في الدارين ، وإن كان عاقبه الله عليها بسوء الخاتمة فهو الخسران المبين ، نعوذ بالله من حرمان الخير ونعوذ بالله ثم نعوذ بالله من الوقوع في الشر .

وإنما بقي سيدنا مُشْتَحِناً عليه لما أعلمه الله أنه ما زال منطوياً على معنى كلمته ، وإلا لو كان قلبه قد ارعوى عنها وطاب من جانبه كما ينبغي لما تركه سيدنا على هذا الجفاء طول هذه المدة كلها ، فإن من طبعه العفو والمسامحة ، وقد قال في من طرح نظره عليه : « **إنا لا نترك ولا نَدَع المتصل بنا وإن بَعُدَ عنَّا وجفانا** » ، وهذا مع وجود المحبة والإعتقاد وحسن الظن ، وأما مع عدم ذلك فلا يستحق ما ذُكِر .

ثم إن السادة الذين كانوا قائمين بذلك الرجل من آل بن يحيى انتقلوا من تريم وسكنوا عينات، وتركوه في تريم فضاق عليه الحال وأمر المعاش ، فرأى جماعةً من أهل تريم سائرين إلى الهند فسار معهم ، فجاء عند سفره إلى سيدنا يستودع – وكان ذلك اليوم هو في البلاد – فأوصاه بتقوى الله وملازمة الطاعة ونحو ذلك ، كما هي عادته الإيصاء بذلك لكل من استودع منه مسافر ، وبشَّ به بشاشةً تؤنسه ، وما رأيت منه له تلك البشاشة المعتادة لمن استودع منه ، فإن من عادته إذا جاءه مسافرٌ

مستودعاً إما أن يلبسه أو يعلِّمه شيئاً وربما لَقَّنَ أحداً الذِّكْر ، وما فعل مع ذلك الرجل شيئاً من ذلك .

فلما كان بعد مدةٍ من سفره نحو سنة أو دونها جاء أولئك الرهط الذين سار معهم ، فلقيت منهم رجلاً فسألته عنه ، فقال : « كنا ليلةً سائرين في البحر متوسطين الغبة - يعني غبة الهند - فقام من آخر الليل - أو قال وسط الليل - يتوضأ ، فزَلَّت رِجلُهُ فسقط في البحر ، فصاح وفطن به أهل المركب فأرْخَوا له الشراع وما زال يصيح ، وجعلوا يُدْنُون المركب إلى نحو الصوت فعجزوا عن القرب منه ، ولم يمكنه القرب منهم وبقوا في علاج تقريب المركب إليه وهو يعالج القرب فلم يقدر ولم يقدروا ، إلى قرب استواء الشمس فوق الرأس فانقطع صوته فساروا عنه وتركوه » ، ثم بعد ذلك بأيام لقيت منهم رجلاً آخر فسألته عنه فأخبرني كخبر الأول بلفظه ومعناه ، فكان هذا آخر أمره .

فنعوذ بالله من سوء الظن بالصالحين فما أسرع عقوبته في الدنيا والآخرة ، كما أن حسن الظن فيهم والمحبة لهم والإعتقاد فيهم ما أسرع نفعه ومثوبته في الدارين ، كما قال الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنهما في « الحدائق » شعر :

وَاحْذَرْ مِنَ الطَّعنِ في السَّاداتِ إنَّ بِهِ ... يُعَـذِّبُ اللهُ أَهْـلَ النُّكْـرِ في سَـقَرِ
ولا تُعَـادِي وَلِيـاً قَـطّ إنَّ بِهـا ... يُحَـارِبُ اللهُ في الدُّنيـا وَفِي الأُخَـرِ
فَحَقِّقِ الظَّـنَّ واعْقِـدْ يَـا أُخَيَّ بِهِـم ... كَـيْ في مَعَـادِ تَفُـزْ بالأمْـنِ وَالوَطَـرِ
واقْصُدْ رِضَـا اللهَ في الدُّنيا بِخِدْمَتِهِمْ ... لَعَـلَّ تَحْظَـى بِحُـورِ الخُلْـدِ وَالسُّرُر

انتهى . ويكفيك ما جاء في الحديث القدسي من قول رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى ، أنه سبحانه قال : « من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب » ، أي أعلمته أني محاربٌ له ، ومن حَرْبِ الله له ما يسلط الله عليه في الدنيا من أسباب الهلاك والعذاب ، ومن كل ما يضره من فوات خيرٍ أو حصول شر ، وأشدها ما يخشى عليه والعياذ بالله من سوء الخاتمة ، وفي الآخرة ما يحصل عليه من العذاب وفوات الثواب .

ولا أحد من أهل حضرموت علم بقصة هذا الرجل على هذا الوجه ، مع معرفتهم له واختلاطهم معه ، وإنما ذكرتها لما تعلق بها من الفوائد الراجحة على فائدة الستر .

رُبَّـمَا رُبَّـمَا بِهَـا قَـامَ عُـذْرٌ ... وَمِـنَ الْعُـذْرِ مُسْـقِطٌ لِلْمَـلَامِ

وفي ذلك غاية العبر ، ونهاية التحذير من إساءة الظن بأولياء الله وخاصته .

فاعجب لهذه المكاشفة العجيبة الجليلة من سيدنا رضي الله عنه ، حيث بَقِيتُ هذه المدة المذكورة أكشف عن خَبَرِه ومتعجِّبٌ من أمْرِه على حالته هذه ، ولا وقفتُ له على خبرٍ محقَّق إلا ما أخبرني به سيدي رضي الله عنه من باب الكشف بلا سؤالٍ بالمقال ، وإن كان الحال يقتضي السؤال . ولسان الحال عندهم أبلغ من لسان المقال ، وكذلك هو منهم أبلغ وأبلغ ، بمعنى إذا أمروك بلسان الحال قهروك على العمل به ، فلو أمرك بالخروج من مَالِك الذي هو أعز الأشياء عندك خرجتَ منه طوعاً ، بباعثٍ سَهَّل ذلك عليك بلا تكلفٍ ولا مشقة .

وسيأتي تفصيل وبيان لسان الحال ، والفرق بينه وبين لسان المقال ، فإنه لا جدوى له بدون الآخر ، ولسان الوقت ، فهم ثلاثة ، وأن لسان الحال : هو كلام من هو على السيرة السوية ، ومع ذلك حصل له نصيب من السِّرِّ الذي يقوى به الإيمان الذي أوتيه سيدنا أبوبكر حتى رجح إيمانه بسببه على إيمان الأمة . ولسان المقال : كلام من ليس كذلك ، أعني ليس هو على السيرة السوية ، ولم يُؤتَ من ذلك السر نصيب ، فبالضرورة لو أوتيه لكان عليها وهو كلام غالب وعاظ الزمان ، كلام وعظٍ باللسان من غير اتعاظٍ بالجنان . ولسان الوقت : هو الذي يُنْطِق الله به أهل الأحوال في كل وقت ، حتى إنك لو سألتَ أحداً منهم سؤالاً واحداً في أوقات متعددة أجابك في كل وقت بجواب غير الجواب الأول، كما ذكرت أني سألت سيدنا سؤالاً في وقتين ، فأجابني عنه بجوابين كل واحد منهما بخلاف الآخر .

والعجب كل العجب من وقوع هذا التفصيل كله منه في شأنه فما يكون ذلك إلا عن أمر ، وأي عجبٍ أعجب من هذا ، فالسعيد الموفق إذا سمع بهذه القصة وأمثالها ازداد يقيناً ومحبةً واعتقاداً ، وأما من خذله الله وأعمى قلبه فلا يزداد بالآيات والعِبَر إلا طغياناً ونفوراً ، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾أي حَكَمَ سبحانه وقضى بعدم إيمانهم ، فلا تفيدهم عِبْرَة ولا تنفعهم فِكْرَة ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وَرَأيتُ في نَقْلِ مَن نَقَلَ عن سيدنا أنه قال : « **لو عُرِضَ علينا الكشف الصوري وقيل لنا : إنه لا ينقصكم ذلك عند الله ولا في الدار الآخرة . لما اخترناه** » ، أي لا نرغب فيه ولا نريده قط .

وتكلم سيدنا يوماً على الناس في المجلس كثيراً ، ثم قال في آخر ذلك : « **إنا إذا تكلمنا في مجلسٍ ، فلا يظن أحدٌ أنا قصدناه بالكلام خصوصاً ، بل هو عام لكل من سمعه** » هـ .

أقولُ : يعني وإن كان هو المخاطَب به فلا يظنه خاصًا به ، فقد يتكلم لرجلٍ ويريد به غيره ، وقد يريد بالكلام هو وغيره ، أو قد يكون سبب الكلام أمرٌ خاصٌّ بأحدٍ من السامعين ، فيتكلم فيه مع

غيره ويريد به ذلك المتعلِّق به الكلام يريده يفهم أمره من غير مشافهةٍ له به ستراً للحال ، وهو معنى ما سيأتي من قوله : « **ونحن لا نتكلم إلا لأمرين : إما لأحدٍ حاضرٍ غير مرئي ، أو لأجل رجلٍ في نفسه كلام لا يمكنه يتكلم به** » ، أو لينهى بعض الحاضرين السامعين كلامه عن أمرٍ وكَرِهَ أن يخاطبه به لئلا يخجل أو ينكسر خاطره ، فيفهم المنهي ذلك من نفسه من غير أن يشعر به أحد ، ومنه في الحديث : « **ما بال أقوامٍ يفعلون كذا** » فينزجر الفاعل عن فعله من غير أن يعلم به أحد . ومنه الأمر بالوضوء لمن أكل لحم الجزور - أمر به عموماً وأراد به رجلاً مخصوصاً سمعه أحْدَثَ فأراده يتوضأ في جملتهم من غير أن يخصه بالأمر فيخجل ، وهذا من لطافته وسياسته ﷺ - أي جزورٌ اجتمع ﷺ وأصحابه على أكل شيءٍ من لحمها ، فسمع واحداً منهم أحْدَثَ وأراد القيام للصلاة ، فلم يرى أن يقول له إنك أحْدَثْتَ فتوضأ ، فأمر كذلك لأجله فيكون من جملتهم ستراً عليه ونحو ذلك من المقاصد الحسنة .

وتبين لك بذلك أن أفعال سيدنا وأقواله وأحواله كلها مؤسَّسَةٌ على قوة الإقتداء ، ثم بعد قوله : « **بل هو عام لكل من سمعه** » ، تمثل بهذا البيت :

وإذا فَتـىً طَـرَحَ الـكَلامَ بِمَجْلِسٍ ... في مَجْلسٍ أَخَـذَ الـكَلامَ اللَّذْعَنَـا

أي الذي عناه به سواء كان هو المخاطَب به أو غيره ممن اقتضاه حاله ، وإن كان الخطاب مع غيره .

ثم قال : « **وإذا تكلمنا في مجلسٍ ، فإن عرفه الحاضرون وأخذوا به كان حُجَّة لهم وإلا فله من يسمعه غيرهم لا يرونهم ، وكلامنا بأمرٍ إلهي** » ، *ومرة قال* : « **إذا تكلمنا بكلام فإن عمل به الحاضرون، وإلا فيتلقاه منا من حضر من آدميين أو ملائكة أو أولياء ، لأنا إنما نحن مستنطَقِين لا متكلِّمين من ذات أنفسنا** » هـ .

أقولُ : قوله : « **لا يرونهم** » يعني من ملائكةٍ أو جنٍّ أو أحدٍ من رجال الغيب ، ومن لا يرونهم أو لا ، يعرفونهم فبينهم بذلك أنهم المذكورين .

وأخبرني بعض الجماعة وهو السيد محمد بن شيخ الجفري : أنه رأى يوماً حيةً جاءت حتى صارت بجنب سيدنا في الدرس بعد العصر ، وهو يتكلم عليهم فقام بعض الحاضرين ليأتي بعصاً ليقتلها ، فصاح سيدنا بالرجل وقال له : « **لا تقتل الحية واتركها** » ، فَبَقِيَتْ إلى أن فرغوا من الدرس ، ثم قرأ سيدنا الفاتحة ودعا فلما ختم الدعاء تَسَبْسَبَتْ وَذَهَبَتْ ، وقصة الحية هذه تشهد لما قال من كونها من الجن تسمع قوله .

وتكلم يوماً رجلٌ وهو يسمع ، *ثم قال* له : « **إنما هذا تأديبٌ لك من الله سبحانه أجراه على لساننا**»، *وقال رضي الله عنه* : « **إن كل كلامنا الذي نتكلم به معكم إنما نحثكم به على الوسط لا غير** » هـ .

أقول : لأن الوسط هو دين الله الحق ، الذي لا غلو فيه ولا تقصير ، ولا إفراط ولا تفريط ، وهو الذي ورد به الشرع ، كما قال تعالى في مدح من هو على هذا الوصف : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ ، وقال ﷺ : « أوغِلوا في هذا الدين بِرِفْق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، وقال أيضاً : « دين الله الوسط، بين الغلو والتفريط » .

وقلت له رضي الله عنه يوماً : هل تأذنون لي أن أتسمَّع كلامكم إذا سمعتكم تتكلمون من بُعْد ؟ إذ كل ما نسمعه منكم يحصل لنا منه فوائد ، *فقال رضي الله عنه* : « **أذِنَّا لك تسمع كلامنا ولا نأذن لك تتكلم ، فتسمع كلام عظةٍ أو فائدةٍ أو علم ، ونحن لا نتكلم إلا لأمرين : إما لأحدٍ حاضرٍ غير مرئي ، أو لأجل رجلٍ في نفسه كلام لا يمكنه يتكلم به** » .

أقول : حصر مواد كلامه كله في هذه الثلاثة الأمور : العظة والفائدة والعلم وهي مقاصد الشرع كلها من الوعظ والتخويف وحث الخلق على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، وَذِكْرِ الفوائد الحاصلة لهم بسبب اتباعهم لذلك في الدنيا والآخرة ، ومعرفة العلم وهو القانون الذي يعملون عليه في امتثالهم لأوامر الله ، فإن عملوا على غير القانون لم ينفعهم عملهم ، وإذا عملوا عليه انتفعوا وقاموا بالعبادة التي خلقهم الله لأجلها ، حيث قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، أي يفعلون له العبادة على قانونها ، ومعنى العبادة : فِعْل العبد ما يرضي المعبود من الإيمان والطاعة ، ورضا العبد بكل ما يفعل به المعبود وإن كرهته النفس بطبعها . فهذه هي العبادة المرضية لله سبحانه ، وهي إذاً حق الربوبية الواجب على العبودية .

فمواد كلامه على هذا الوجه ، ما ترك شيئاً من الحق إلا بيَّنه ودعا إليه ، ولا شيئاً من الباطل إلا بيَّنه وزجر عنه ، فكان المتصف بذلك هو العبد الخاص المخصوص المؤمن حقاً ، ثم إنه حصر أسباب كلامه الذي يتكلم لأجله في أمرين ، حيث قال : « ونحن لا نتكلم إلا لأمرين » وذكرهما ، فدَلَّ بِذِكْرِ هذين أن كلامه كله مكاشفاتٌ وإشاراتٌ غيبيات ، إذ هو إما كلامٌ لأقوامٍ لا يرون ولا يعلمون من أي الطوائف غير الحاضرين يتلقونه منه ويأخذونه عنه ، فإن شاركهم الحاضرون في التلقي والأخذ وإلا اكتفى عنهم بأولئك الذين هم من أهل الغيب ، سواءً كانوا ملائكة أو غيرهم ، كما قدمنا من قوله :

« فإن عرفه الحاضرون وأخذوا به كان حُجَّة لهم ، وإلا فله من يسمعه غيرهم » ، وقال : « **قَلَّ الآخذون به اليوم والمتلقين له عنه** » ، ولذلك تَنَفَّسَ الصعداء في تلك القصة ، وسَنَذْكُرها ثم قال : « **بطنت علومنا الظاهرة لعدم المتلقي لها ، ما هو أن علومنا الباطنة ظهرت** » .

والسبب الثاني ما يكون الكلام لأجله : رجلٌ في نفسه كلامٌ يريد أن يسأل عنه ، أو أمرٌ أراد أن يستشير فيه ، فيتكلم له بالجواب مكاشفةً أو بما يشير به على المستشير فيفهم كلٌّ مقصوده بها يسمعه منه من غير أن يصرح بسؤالٍ أو إستشارة ، ويبقى كُلٌّ من هذين مستوراً لا يطلع أحدٌ على سره ، وهذا غاية العجب ولا يعرف ذلك في العادة .

فَقُل لي من ترى في زمانك غيره هكذا يخاطب الناس ويعرِّفهم بأمورهم بكلامٍ مشتهر يسمعه كل من حضر ، ولا أحد يطلع من أمره على شيء ، فهكذا شأنه . فافهم ما بيَّنَّا لك من حاله عن تبيينه بمقاله، لتعرف منه معنى قوله المتقدم لما بلغه عن شيخه الشيخ عمر العطاس قوله في حقه : « إنه ثوبٌ طُوِيَ نُشِرَ لأهل هذا الزمان ، وإلا فإنما هو من أهل القرن السابع ، إنما أَخَّرَه الله سعادةً لأهل وقته»، فقال : « **أنا بحمد الله ما أنا من أهل هذا الزمان ، قد جعلني الله بينهم ، وأنا وحدي منفردٌ عنهم بقلبي**»، وقوله على ما نقل عنه باحميد : « **ما أنا من أهل هذا الزمان بل أنا من أهل القرن الثاني ، ولولا الأدب مع أهل القرن الأول لقلت أنا منهم ، فانظروا في حالي وحال أهل الزمان ، إن كنت أشبههم أو يشبهوني** »، فخذ مصداق هذا الكلام مما ذكرناه ، لتتحقق حقيقة قوله هذا أنه ليس من أهل هذا الزمان .

ومن تبيينه لمن في نفسه كلامٌ أو أمرٌ أراد أن يسأل عنه ، فبينه له مشافهةً مكاشفةً ، ما أبان لي وأخبرني به من شأن ذلك الرجل الدمشقي ، وأَمْرُهُ يحوك في قلبي من قبل تبيينه بأربعة عشر سنة ، فبيَّنه وفصَّله بلا سؤالٍ مني ولا مقال ، وهذه القصة مصداق لقوله ، وتكون شاهدة لمعانٍ جمة في مواضع كثيرةٍ سنشير إليها هـ .

قال : « وكانوا مستعدين للنقل بآلته » .

أقول : يعني أصحاب المشايخ المتقدمين كأصحاب الشيخ عبدالقادر وغيره هـ .

قال : « وقد نَقَلَ كلامنا أناسٌ كثير ، نقلوه بالمعنى فأخطأوا في نقله ، فإذا سمعناه منهم رأيناهم مخطئين » هـ .

أقول : وذلك كما مَثَّل به في شأن التوبة كما سيأتي قريباً فافهمه ، وكما رأيت بخط مَنْ نَقَلَ عنه أنه

قال : « إن الجوابي في الأصل لم تُبْنَ للقذر ، فلما حصل فيها القذر عارضاً فلا يكره ذِكْر الله فيها » ، فهذا ذَكَرَهُ الناقل على مقتضى فهمه ، حيث نقله بالمعنى ولا فهم معناه الذي أراد ، فمثل هذا نقل عنه خطأ ، فلما سمعه أنكَرَهُ وَرَدَّهُ وقال بخلافه ، وهو الذي أشار إليه بقوله : « **فإذا سمعناه منهم رأيناهم مخطئين**»، والذي نقلناه عنه خلاف هذا ، كما سيأتي من قوله : « **الذي نقول به ونختاره أنه لا ينبغي ذِكْر الله في الجوابي ولا جواب المؤذن لما فيها من القذر ونكره ذلك فيها ، ولكن إذا خرج منها ينبغي أن يأتي بأذكار الوضوء وجواب المؤذن على وجهه يقضيه بعدما يخرج من الجابية ، فانقلوا هذا عنا وقولوا هذا اختيار فلان وهو الذي يقول به ويختاره** » ، وهذا خلاف ما ذكر عنه صاحب ذلك النقل .

وكذلك ذَكَرَ ذلك الناقل أن سيدنا قال : « إذا عوقب أحدٌ من أصحابنا بعقوبةٍ في الدنيا أو في الآخرة فهو بسببٍ من جهتنا ، لأنا وإن سامحناهم في التقصير الواقع منهم في حق الله وحقنا فللطريق غيرةٌ لأهلها » ، وقال : « من لم تَصْفُ له الطاعات لم تصح له نية في المباحات » . انتهى . وجدته بخط عبدون بن قطنة من نقله عنه .

وقوله في ما نقل : « وإن سامحناهم في التقصير منهم في حق الله » ، فهو من الخطأ الذي أنكره، وهو من عبدون زلة قلمٍ أو وَهْمٍ أو غلط . فإن سيدنا نفع الله به من عادته أنه لا يسامح أحداً في التقصير في حق الله قط ، بل في المسامحة منه في حق نفسه - هو سيرته وعادته وشيمته - لا في حقوق الله . وقد سمعت منه معنى ذلك مراراً ، من كونه يسامح في حق نفسه ولا يسامح في حق الله كقوله : « **من مسكناه لا نفلته ، وإن جفانا وبَعُدَ عنا** » ، فهل هذا إلا بمعنى أنه يراعيه ويذب عنه ما يكره ، ويجلب له ما يحب مع جفاه وبعده عنه ، فقد سمح لهذا ما لزمه من حقه ، ومع ذلك ما زال يراه بعين الرضا والمراعاة .

وسمعتهُ غير مرةٍ يقول ما معناه : « **من تهاون بحقنا لابد أن يعاقَب وإن سامحناه وعفونا عنه ، وإن الله ليغار لعباده الصالحين ويعاقِب من آذاهم وإن سمحوا له وعفوا عنه ، وإذا غضبنا على أحدٍ ونحن نحبه لابد أن نتكلم عليه ولو كليمة واحدة لئلا يعاقبه الله ، لأنا جرَّبنا أن من قصَّر في حقنا أو أغضبنا عوقب إلا أن نتكلم عليه فتتعداه العقوبة** » هـ .

أقولُ : وذلك كذلك كما رأيناه مراراً ، كما ذكَرْنا من شأن ذلك الرجل المتقدم ذكره وغيره ، فإنا ما ذَكَرْنَاه إلا لهذا الإعتبار ، ولتصديق هذا القول وشبهه وللتحذير من كفعله ، وتمثيلاً لأمورٍ كثيرةٍ سنشير إلى التمثيل لها بقصته إذا عرض لنا ذِكْر تلك الأمور في مواضعها ، ونشير بالإستشهاد لها بقصته وقصص تشبهها كما في هذا الموضع ، وتحذيراً أيضاً من كدعواه كذباً ، وسوء اعتقاده الذي ظهر من

قلبه إلى فلتات لسانه وأجراه في قلمه لأولئك الناس ببنانه ، فالحذر كل الحذر من ذلك .

وانظروا آخر ما كان من عاقبة أمره ، أن أغرقه الله مع ما كان عليه من العبادة والتجرد لها ، والتخلي عن الناس لأجلها ، وسيأتي من قول سيدنا : « **وإنما يمهل الله كثيراً لكثير الجراءة** » ، أي الذي يأتي من الأمور عظائمها ، ومثَّلنا لذلك هناك بقصة فرعون حيث ادعى الربوبية ، ولا جريمة وجراءة أعظم من هذه ، وقد دعا عليه سيدنا موسى وأخبره الله أنه استجاب دعوته بقوله : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾، لكن قال تعالى : ﴿فَٱسْتَقِيمَا ﴾أي لا تعجلا ، وما أنزل به العقوبة بإغراقه إلا بعد أربعين سنة .

فدَلَّ بأن جراءة الرجل بسوء ظنه بسيدنا أنها جراءةٌ عظيمةٌ ما فوقها إلا الأولى ، ثم أمهل هذه المدة كلها إلى أن جاء وقته المؤقت الذي وقته الله ، حيث قال : ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾، ثم أجرى عليه ما أجرى على فرعون من الغرق . فيؤخذ من هذا أن الغرق أعظم عقوبات الدنيا ، حيث عاقب الله به من ارتكب أعظم الذنوب ، ولهذا أسماه الله الكرب العظيم ، كما ذكره في قصة نوح لما أغرق الله قومه قال: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، ففي إغراق فرعون وقومه ونجاة بني اسرائيل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

قال رضيَ الله عنهُ : « **وينبغي أن يعرف الناقل الكلام ودرجاته وقيوده وخصوصه وعمومه وكونه فيه استثناء ، ويبقى يستمعه من أوله إلى تمامه ، فرب قائلٍ تسمعه يذم العلماء إلا أهل الخشية والورع والتقوى ، فتستعجل وتقول فلانٌ يذم العلماء . والقيود كمن يسمعنا نقول في التوبة ، مثلاً بعد ذكر شروطها ولزومها ، أنها تَعسُر في هذا الزمان ، فتقول : قال فلان : التوبة عسرة ، فلا تمكن – وقد وقع الأمران في نَقْلِ مَن نَقَلَ كما ذَكَرْنَاه – ولا تنقل الكلام من أوله ، فلما علمنا بذلك من أهل الزمان تركنا الخوض معهم والكلام ، إلا في المجالس العامة فيما يتعلق بعبارات الكتب ، فإن فهموه وإلا فعهدته على أهلها . وقد أقل الله من ضعفاء الفهم ، وكذا من أهل النفاق وإن كانوا أقل منهم** » .

وقرأ في « رسالة المذاكرة » بعض القراء حتى انتهى إلى قوله : « **إنه يحصل من ضعف الإيمان أخلاق مشؤومة** » ، فغلط القاريء وقال : « مسمومة » ، فرد سيدنا عليه ثم *قال* : « **أكثر ما أنا خائف من أحد، ينقل هذه الرسائل وفيها الغلط والتحريف من الناقل ، فينقله عنا ويقول : قرأته على المصنف. فاشهدوا على ذلك ، وإنما نحن خدام الشريعة ، فمن أتانا فنفعه الله بنا وبكلامنا فلا نكْرَه ، وإلا فلا حاجة لنا بأحد ، فمن سمع عنا بكلام غير مستقيم ، ومخالفاً للكتاب والسنة ، إما لغلطه ، أو اعوجاج لسانه فلا يُصَدَّق ، والغَيَار كله من قلة الفهم أو العجلة ، حيث يسمع بعض الكلام ويفوته البعض وينقله ،**

فينبغي أن يسمعه كله فيفهمه » د . قاله عشية السبت سلخ ربيع الأول سنة ١١٢٩ .

قال رضي الله عنه : « إذا نَقَلَ أحدٌ كلامَ أحدٍ فَلْيَذْكُر الكلام كله من أوله إلى آخره ، فإن الكلام يذكر بالكلام ، ويعرف معنى بعضه من بعض ، ولا يذكر بعضه ويترك البعض . فلو سمع رجلاً يقول : إنْ فَعَلَ فلان كذا فلا خير فيه ، فيقول : سمعته يقول : ما في فلان خير . فليس الكلام على هذا الوجه ، وأحسن التكلم نقل الكلام على وجهه ليعتبر بها أعتبر به . وقد تكلمنا أيام كنا بالهجيرة يوماً في التوبة، فقلنا : التائب المصر على الذنب بأن يقول : أستغفر الله بلسانه ، وفي قلبه أنه متى تمكن منه فعله ، إن هذا لا توبة له ، ولكن الإستغفار باللسان لا يخلو من خير . فَنَقَلَ عنَّا رجلٌ كان حاضراً إنا نقول : أن ما للتوبة معنى أصلاً ، وإن ما لأحدٍ توبة . فسمعه علي بن عمر بن حسين فقال له : تخزى ، ما قال هكذا » .

ثم قال سيدنا : « وأشياء من الخواطر ما تدخل تحت الإختيار يُعفى عنها ، كمن ترك ذنباً وإنما تركه لله لا لشيءٍ آخر ، ولكن بقيت له في قلبه لذة فَيُعذر في مثل هذا ولا يؤاخذ به » ، ثم قال : « وأصول الأحكام وأصول العلوم وأصول الدين كلها في القرآن ، ولكن لمن يعرف . وهذه الأشياء تُنقَل وتُعْرَف وبعض منها ما يحسن ينقل » .

ثم ذَكَرَ الكبر والتواضع ، ثم قال : « الأخلاق الشريفة من لا يعلمها يتعلَّمها ، فإذا لم يتعلَّمها وأراد يعملها لا يعرف كيف العمل بها . وقد جمعها الإمام الغزالي ، وذكر أن من تواضع لكنَّاسٍ أو دبَّاغٍ مثلاً غير محمود ، وإنما يحمد التواضع للأكابر وأهل العلم » .

أقول : انتهى ما اتفق لنا نقله على مقتضى الفهم من هذا المجلس ، ولكنه نقل بلفظه ومعناه كما فهمنا ، فإن أخطأنا في الفهم فليفهمه الفهيم من اللفظ ، وإنما حرصنا كثيراً على نقل اللفظ حتى إن غلطنا في المعنى أخذ من لفظه ، وذلك مجلس عصر يوم الأربعاء غرة المحرم فاتحة سنة ١١٣١ .

وشاهِدنا من قوله : « إذا نَقَلَ أحدٌ كلام أحدٍ » ، إلى قول السيد علي لذلك الناقل الغالط في النقل: « تخزى ، ما قال هكذا » ، ولكن لما كان الكلام كله في مجلسٍ واحدٍ مُتَّصلٍ بعضه ببعض أحببنا أن نصله به .

وكذلك ما نذكره من كلام مجالسه مع ذِكْرِ ما فيها من الكلام الغير المقصود بالنقل هنا وقد نقل في محل آخر ، فكل ذلك مقدمة وتوطئة للكلام الذي نقصد نقله ، فليفهم ذلك من يقول أن ذلك لا ينبغي ، وأن ذِكْر كل كلام المجلس غير ما فيه الإستشهاد لا فائدة فيه ، فإنا نرى أن في كل ما ينطق به فوائد ولو ذَكَرَ إلا ما يقع بين الرجل وأهله ، وقد ذَكَرَ قبل هذا الكلام في هذا المجلس كلاماً كثيراً غير ما ذَكَرْنَا ، أخَّرْنَا نَقْلَهُ إلى محله اللائق به .

وما ذَكَرَ هنا من كلام الإمام الغزالي شاهِدٌ لقوله : « **الأخلاق الشريفة من لا يعلمها يتعلَّمها** » ، وإلا لا يعرف كيف العمل به ، كمن يسمع أن التواضع محمودٌ فيظنه إذا لم يكن له به علمٌ أنه محمودٌ مطلقاً ، فسعى أن يعرف قانونه وعلمه ويعمل عليه ، وهو ربما يعلم إنما هو محمودٌ لأكابر الرجال لا للأنذال ، فهذا قانونه وعلمه كما ذكره الإمام الغزالي فافهم .

وقوله : « **فلان يذم العلماء** » يعني ينقل عنه أنه يقول ذلك مطلقاً ، وذلك خطأ فقد أخطأ في نقله على نفسه وعلى المنقول عنه ، حيث ترك القيد فإنه قَيَّدَ ذمهم بما إذا خلوا عن الخشية والورع والتقوى، وأما مع هذه الأوصاف الشريفة فهم المؤمنون حقًّا فكيف يذمهم ، فقد قَيَّدَ الذم بالخصوص بما عَدَّ المذكورين الموصوفين بهذه الأوصاف الجليلة . ومثله ما قال : « **والقيود كمن يسمعنا نقول في التوبة .. إلخ** » .

وهذه الشروط التي شَرَطَها في النقل هي التي ثبطتني عن نقل كلامه وإظهاره في هذه المدة كلها ، خوفاً من زيادةٍ في اللفظ أو خللٍ في المعنى أو ذِكْرِ ما هو بخلاف المقصود إذا كتبته بحسب فهمي دون لفظه ، فربما يحصل غلط يخل بالمعنى ، كحال الذين أخطأوا في نقله ، كما تقدم عن من ذِكْرِنا من خلل معنى من أخطأ في نقله عنه حتى أنكره وقرر خلافه ، والإنسان محل الخطأ والنسيان .

مع ما انضم إلى ذلك مما يثبط من قول الشيخ الفاضل الصوفي النقشبندي الزين بن الشيخ صديق المزجاجي - صاحب التُّحَيتا من أعمال زبيد - وكان على قدمٍ عظيمٍ من الولاية والصلاح ، وله كثير مكاشفاتٍ وكراماتٍ وخوارق عاداتٍ ، أخذ طريقة النقشبندية عن والده ، ووالده عن الشيخ الولي السياح تاج الدين الهندي القرشي الأموي العثماني من ذرية سيدنا عثمان رضي الله عنه ، تربى الشيخ صديق هو والشيخ أحمد بن علان البكري المكي ، والشيخ حسين بن زيد العقيلي تحت نظره ، وفتح الله عليهم ببركته وأمدهم بمدده .

ولما وصلتُ إلى حضرته لزيارته - بعد وفاة سيدنا عبدالله مارًّا عليه في طريقي قاصداً إلى حج بيت الله على طريق اليمن إلى جدة - فعندما اجتمعت به وسلَّمت عليه قال : « جاءني منذ أيام كتابٌ من السيد عبدالله ، ولم أدر ما سببه ، فلما بلغنا خبر وفاته علمت أن ذلك استيداعٌ منه » .

فاعرف من هذا عظيم منزلته فإن من شأن سيدنا أنه لا يبتديء أحداً بالكتاب ، ولا يترك جواب كتابٍ إلا لموجب ، كما ترك جواب أوراق المدَّعي أنه المهدي ، وما هنا موجبٌ للكتاب إلا محلة هذا

الإنسان في مقام الولاية ، فيعرف بعضهم شأن بعض .

فطلبت منه ذلك الكتاب لأنقله وأرجعه - وكذلك كنت كل ما جئت إلى بلدٍ كل من علمت فيها أنه وصله من سيدنا كتاب أو كتب أطلبها منه وأنقلها ، حتى اجتمع لنا من ذلك جملة كراريس من بلدان حضرموت ودوعن واليمن وجدة والحرمين - فأمر ابنه الشيخ المنور الفقيه عبدالخالق أن يدفعه لي أنقله وأرجعه - وكان ابنه من الصالحين - ولازمته في ذلك الكتاب ، فذَكَرَ أنه التمسه ودَوَّره حتى تعب في تدويره فما وجده .

وقرأت يوماً على الشيخ الزين شيئاً من كلام سيدنا في المجالس مما نقلته عنه ، فرأيت وجهه تلون وتغير وظهر عليه أثر الغضب جداً ، وحنق حنقاً شديداً ، ثم قال لي : « يا ولدي ، أنصحك لوجه الله لا تنقل كلام الصالحين ، فربما تكلم ساعةً للتنفس أو لأمر آخر ، ولم يرد أن كلامه ذلك يشتهر . وإن بعض الصالحين جاء بكتابٍ إلى عند شيخه وقال : أريد أن أقرأ عليك في هذا الكتاب . فقال له : اترك الكتاب واقرأني أنا » - وسيأتي من كلام سيدنا ما يشبه هذه القصة إما هي أو شبهها - ، فقلت له : إن الصالحين قد مضوا لسبيلهم ، وما بقي اليوم مع الناس منهم إلا كلامهم فينظرونه ، فينتفعون به وبهم بواسطته وبسببه ، قال : « ولو ، فاترك كلامه ولا تنقله » .

فكان ذلك مما ثبَّطني وفتر عزمي عن نَقْلِ كلام مجالس سيدنا في هذه المدة ، وإلا فساداتنا قد كانوا أكدوا عليَّ ، وأوصوني بنقله ولزَّموا عليَّ ، ولا بد حين خرجت من حضرموت وأن أبعث به إليهم. وكثيرٌ ممن له مشمَّة وعظيم شوقٍ إلى أنفاس سيدنا وكلامه ، كالسيد الجليل الحبيب أحمد بن زين الحبشي ، والسيد الحبيب علوي بن سيدي الحبيب عبدالله ، والسيد الحبيب عمر البار وغيرهم يحثوني على ذلك ، وأتتني أوراقهم مراراً يحضوني على ذلك ، حتى إن السيد علوي بن سيدنا عبدالله أغلظ عليَّ القول في التأكيد عليَّ في ذلك ، وأنا أتوقف خوفاً من الخطأ والزيادة والنقص ، وأن أخالف شروطه التي اشترطها في النقل على ما قدمنا ذِكْرَه ، ولأنه كلامٌ وسيعٌ جداً لا أقدر على استيعابه كله .

وإنما حركنا إلى العزم واستنهاض الهمة بعد فتورها إلى نَقْلِ هذه النقطة من ذلك البحر الوسيع المتلاطمة أمواجه ، همة سيدنا العارف الكامل السيد الحبيب محمد بن السيد زين بن سميط علوي متع الله بطول حياته ، لما جاءني كتابه إلى الحساء يحثُّني ويحضُّني على نَقْلِهِ وإرساله له ، لما علمت من شدة رغبته في ذلك ليستمد منه في كتابه الذي ألفه في مناقب سيدنا عبدالله نفع الله به .

فرغبت أن أساعده وأساهمه في أجْرِهِ بمعاونته وإسعافه بما رغب فيه من ذلك كما ترى في مكاتبته

وقد أثبتها في أول هذا النقل[1] ليقف عليها من أراد يعرف السبب الذي حرك الهمة ، وأرجو من فضل الله سبحانه أن يرزقني فيه حسن النية والمعونة وأن يعفو عما زدت فيه أو نقصت منه ، والمرجو من إحسان سيدي الحبيب محمد أن يوقِفني على كتابه المذكور ، كما وعدني به أنه إذا وصل إليه مني هذا النقل أن يرسل إليَّ ذلك المؤلف المبارك .

وكذلك أشار إليه حبيبنا علوي رحمه الله ، وذَكَرَ أنه أرسل منه عشرة كراريس إلى صنوه الحبيب زين العابدين رحمه الله إلى عمان ، وأنه أمره إذا قضى أربه أن يرسله إليَّ ، وقال لي : « إن أبطأ به عليك فذاكِره في إرساله » ، فذاكرته فوعدني بأن يرسله ، وتوفي ولم يرسله .

وذكر لي الحبيب علوي أنه اختلف مع السيد محمد المذكور في بعض الكلام المنقول عن سيدنا الحبيب رضي الله عنه ، وأنهم يحفظونه على خلاف ما نقله حتى حصل بسبب ذلك وقفة ، فكان من الأغراض الداعية لنا بهذا النقل رجاء أن يروه فيه ، فيتبين لهم أمره على أي وجهٍ يكون يوافق أحد النقلين .

والمرجو ممن وقف على هذا النقل المذكور ، سيما من أولاد سيدنا ومن كان من الملازمين لحضور مجالسه ، والحريص على ضبط كلامه ، إن رأى فيه شيء منه خطأً أو غلطاً وهو يحفظه عن سيدنا بأصح من ذلك وأصوب - سيما إن ساعده أحدٌ يحفظه عنه كما حفظ - أن يصلحه من الخطأ إلى الصواب .

مع إني ما قيدت هنا كل ما قيدته ونقلته وكتبته عن سيدي نفع الله به ، بل هذه نقطة من بحرٍ وذرة من رمل ، ومن يقدر الآن يقيد وينقل كل ما قد نقلته عنه سابقاً في أوراق ومساطر وأقفية أوراق وفي جلود الكتب وغير ذلك ، حتى إن قوله : « **الناس مكلوفين على ما خلقوا له .. إلخ** » ، من غرر كلامه كما سيأتي ، إنما كتبته إذ ذاك في قفا وريقةٍ صغيرة ، وما شعرت بها إلا إني رأيتها ساقطة مني في الأرض، وهي من بديع كلامه وجوامعه - كما ستقف عليه - .

ولكن هذا قليلٌ يكفي عن كثير ، وقطرٌ يكفي عن بحر ، ولو أن المنهوم في الشيء لا يكفيه منه كثيره فكيف قليله ، وإقدامنا على ذلك مخالفٌ لما أشار به الشيخ الزين المزجاجي على ما تقدم من قوله، والصالحون لا يشيرون إلا بالصواب وما فيه الصلاح ، ولكنهم لمن خالفهم أهلٌ للعفو والسماح .

وقد ظهرت المصلحة فيه ، وألجأت الحاجة الضرورية إلى ذلك ، والضرورات تبيح المحظورات ، مع ما حصل من سيدنا من الإذن في ذلك الإذن الصريح الصحيح ، والأمر الأكيد علينا في النقل لحفظ

---

(١) لم توجد في أول هذا النقل ، لعلها فصلت في مؤلف مستقل .

كلامه والشح بأنفاسه، حتى لما أخبرته بتلك الرؤيا وبذلك الكلام منه الذي رأيته تكلم به في المنام، قال: « **اكتبه** »، وما في الرؤيا الأخرى لما استأذنته في كتابة كلامه فيها قال: « **اكتبه** ».

فإذا كان هذا الأمر منه في كلام رؤيا المنام، فما بالك في كلامه في اليقظة بين الأنام، مما فيه بيانٌ للأحكام، والأمر المطلوب للخصوص والعوام، المحكوم به من الله للخاص والعام، كما تراه كثيراً من تفصيله للمقامين والطريقين: مقام وطريق السابقين، ومقام وطريق أصحاب اليمين، كما بيَّنهما النبي ﷺ في الحديث كما سيأتي من قوله عليه السلام: « اعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير »، فالأول: هو مقام الخواص، والثاني: هو مقام العامة - كما سيأتي مشروحاً في غير موضع - .

وموافقة المقامين من كلام الشيخ الزين حيث كتب لي في الورقة قوله: « السعيد من اشتغل بعبادة الله، وأسعد السعداء من اشتغل بالله جل شأنه »، فالأولى من كلمتيه هي الثانية في الحديث، والثانية من كلمتيه هي الأولى في الحديث. وأما سيدنا فَفَصَّلَ المقامين في أماكن كثيرة ستأتي في هذا النقل، أولها قوله: « **يجب على كل من أراد الدخول في الطريق الخاصة ..** » إلى آخر المقالة، فتأمَّلْها ترى العجب من تفصيل معنى الطريقين، وتعجب أيضاً من بلاغة كلامه وفصاحته في تفصيل ذلك. وسيأتي الكلام الذي قرأته من كلامه على الشيخ الزين لما تمعر وجهه وتغير في موضعه والإشارة إليه.

وَمِنَ العَجِيبِ من شأن هذا الشيخ ومكاشفاته وكراماته، ما صدر منه ويصدر من أمورٍ تدل على عظيم شأنه وغرائب أحواله، وأنه من كبار الأولياء العارفين المتمكنين في مقام الولاية واليقين، من ذلك أنه بنى مسجداً فأحكم بناه وتأنق فيه وأسسه على التقوى، وأخذ في بناه مدةً طويلة، فلما أتمه وفرغ من بنائه توقف عن الصلاة فيه أياماً.

فلما وصلت إلى حضرته عشية يوم الثلاثاء ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١١٣٣ فقصدت إلى المسجد وجلست فيه، ففي الحال جاء إليَّ ابنه المنور عبدالخالق المذكور إلى المسجد وجلست معه فيه وأخبرني بذلك وبأمورٍ سيأتي ذكرها. وبقيت معه كذلك إلى أن حَضَرَتْ صلاة المغرب، فقال لي: « يقول لك الوالد صلِّ بنا، وأن للمسجد أياماً منذ قد تم بناه وقال الوالد: لا بعد تصلوا فيه حتى يأتينا رجلٌ غريبٌ نجعله أول من يصلي فيه، ويبقى يصلي بكم مدة إقامته هنا، ثم بعد سفره استمروا في الصلاة في المسجد »، قال: « ولنا نحو أربعين أو خمسين يوماً متوقفين عن الصلاة فيه - وهذه من عظيم مكاشفته - فلما جئتَ قال الوالد: هذا هو الذي أردناه أول من يصلي فيه، فقل له يصلي بكم المغرب ».

فقلت : أنتم حنفية ، تقولون العبرة بعقيدة المأموم لو فعل الإمام على مقتضى مذهبه ما لا يجوز في مذهب المأموم لا تصح صلاته ، وكذلك الشافعي ؛ ولا بد من البسملة عند الشافعي ، وأنتم في مذهبكم لا تجب ، فقال : « عندنا قولٌ بوجوب البسملة ولا في الصلاة بيننا وبينكم اختلاف » .

وبقيتُ عندهم ثلاثة أيام أصلي بهم ، وفي القنوت في الصبح يقفون مساعدةً للإمام ، وبعد طلوع الشمس كل يوم يجيء والده إلى عندنا في المسجد ، ونجلس معه مجلساً فسيحاً أنيساً مليحاً ، وهكذا كل يومٍ في الثلاثة الأيام ، فإذا قام ماشَيْتُهُ مع ابنه إلى أن يصل البيت ، وكانت بيوتهم من الجريد .

وتأنَّسْتُ عندهم فيها أنساً كاملاً ، وزادهم زاد الأغنياء ، وفي بعض الأيام قرأت عليه ما أشرت إليه ، وحصل منه من التشويش ما ذكرت ، فلما قام وسِرْتُ معه أماشيه قال لي ما ذكر من النصيحة .

ورأيت عندهم رجلاً كان خادماً في الحاوي في بيت سيدنا عبدالله في حياته وهو عمر بن صديق من أهل بلد الغريب ، وكان خدمته يفعل السلاق - وهي الحصر من الخوص ، وتسمى في لغة العرب البواري - وبعد انتقاله بيومٍ سافر هذا الرجل ولا علمنا عنه خبراً ، فلما رأيته وتحاييت معه قال : « إن لي هنا مدة ، مررتُ هنا لزيارة الشيخ وأنا أريد الحج ، فلما زرته وأردت السفر استاذنته في السفر ، فقال لي : إن رجلاً سيأتينا نريدك تسافر معه ، فإذا جاء نخليك تسير وإياه ، فكلما طلبت منه الإذن في السفر قال : الذي نريدك تسافر معه بعد ما جاء . ثم جاء إليه جماعةٌ فلما سافروا أردت السفر معهم فقال : اصبر حتى يجيء الذي نريدك تسافر معه . ثم كل ما جاء أحدٌ وأردت السفر معه قال : ليس هو هذا . فلما جئت أنت قال لي الشيخ : هذا هو الذي نريدك تسافر معه » .

فسافَرَ معي إلى جدة ووصلناها في رجب ، ثم توجَّهتُ إلى المدينة ، وتوَجَّهَ هو إلى مكة ، وهو آخر عهدي به ، حتى أيام الحج ما رأيته ولا علمت عنه بخبرٍ قط .

وقلت للشيخ الزين : أريد منكم نسبةً إلى طريقتكم وتبرُّكاً بها ، فقال : « إنك قد انتسبت إلى السادة » ، قلت : ولو ، وذلك زيادة خير - وسيأتي من قول سيدنا ما معناه : « **لا بأس أن يتخذ الإنسان مشايخ متعددة للتبرك بهم ، ويأخذ فائدته من كل واحدٍ منهم ، وعمدته على واحد** » ، أو كما قال على ما سنذكره - ، فأمر ابنه الشيخ الفاضل عبدالخالق بإحضار دواةٍ وقرطاس ففعل ، ثم قال له وأنا أسمع : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، السعيد من اشتغل بعبادة الله تعالى وأسعد السعداء من اشتغل به جل شأنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » ، ثم قال لي : « خذها واقرأها » ، فقرأتها

عليه في الورقة ، ثم قال : « هذه نسبةٌ فاحفظها واحتفظ بها » .

فانظر كيف وافق كلمتاه كلمتا النبي ﷺ لما بَيَّن لأمته أن العبادة التي خلقوا لأجلها على مقامين: مقام الخواص ومقام العامة ، حيث قال ﷺ : « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » ، فالعبادة على الرضا هو مقام الخواص ، وهو قول الشيخ : « وأسعد السعداء من اشتغل بالله جل شأنه » ، والعبادة على الصبر إذا عجز عن الأول هو مقام العامة وهو قول الشيخ : « السعيد من اشتغل بذكر الله » ، فإن كل كلامهم يدور على كلام الله ورسوله ، وما خرج عن المقامين هو المقام الثالث ، مقام أصحاب الشمال من العصاة والكفار على ما فصله قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾الآيات ، قال سيدنا : « **لو كان الحال من المقامين سواء ما فاوت بينهما في الجزاء في سورة الواقعة** » .

وسألته فقلت : هل يكتفي الشيخ من الطالب بالسؤال بلسان الحال بلا مقال أو لا بد من التلفظ بالسؤال بلسان المقال ؟ فقال : « لا ، بل لا بد عندهم من تلفظه بالطلب » .

وسيأتي مثل هذا المقال بهذا المعنى من قول سيدنا عبدالله ومن مذاكرته معي ، قال : « **جميع الأوراد والأذكار والأدعية الغير واردة عن النبي ﷺ كحزب البحر وغيره ما خاصيتها ونفعها إلا في الدنيا فقط ، وأما في الآخرة فلا خاصية فيها ولا ثواب عليها ، وأما الأذكار والأوراد والأدعية الواردة عن النبي ﷺ فخاصيتها وثوابها في الدنيا والآخرة ، فهذا هو الفرق بينهما** » ، أي الوارد وغير الوارد .

ومن مذاكرته قال لي في بعض تلك الأيام : « زيارة الحي للميت يستفيد منه إذا كانت روحه حية، فتكلم روحه روح الميت فينتفع بها - أي بالزيارة - ويسمع كلام الروح كل شيء إلا الثقلين ، ولا تكلم روح الحي روح الميت حتى تموت نفسه فترجع إلى حال الروح الذي خُلِقت منه ، فإن النفس خُلِقت من الروح ، كما أن حواء خُلِقت من آدم ، وحواء سبب دخول إبليس إلى الجنة ، ووقوع آدم في المعصية ووقوعه فيها - أي المعصية - بسببها - أي حواء - من غير اختيارٍ منه ، ولا تَحْيَا الروح حتى ترجع إلى محتدها - أي أصلها الأول - وهو قوله ﷺ : أنا من الله ، والمؤمنون مني » أو كما قال. وسيأتي من كلام سيدنا عبدالله ما هو بمعنى هذا الكلام أو يشبهه ، يكون كل منهما شاهداً للآخر ، وكلامه هذا وغيره في مجلسٍ جلسه معنا في مسجده المذكور ، وذلك ضحى يوم الجمعة ٢٩ أو سلخ جمادى الأولى سنة ١١٣٣ .

ثم ختم مجلسه ، ثم قام سائراً إلى بيته فقمنا معه نسايره ، فقال لي وأنا أسير معه في جماعة : « ما كان

طريقة السيد عبدالله الحداد في الذِّكْر ؟ » ، قلت : ذِكْر الكلمة باللسان والقلب جميعاً ، قال : « وكيف هو في النفي والإثبات ؟ ما المنفي والمثبت ؟ » ، قلت : ينفي ما سوى المذكور ، ويثبت المذكور في قلبه ماداً ذلك من جانب اليسار إلى اليمين في النفي ، ثم يرجع إلى اليسار في الإثبات ، فقال : « ما سوى الله لم يزل منفياً ، فماذا ينفي ؟ » ، قلت : ينفي توهم وجود شيءٍ ما من الخلق من جلب نفعٍ أو دفع ضر ، قال : « إنما المنفي خواطر النفس فقط ، فكل ما خطر في النفس فهو الذي ينفى » .

ورأيت عنده رجلاً من الروم أتاه طالباً للطريقة النقشبندية ، فأقامه في وظيفة الأذان في مسجده ، ووعده بها بعد تمام سنة وأن لا يعطيه إياها إلا بعد تمام السنة .

وقال لي ابنه الشيخ عبدالخالق : « سأل الوالدَ رجلٌ في بعض مجالسه وهو ملآنٌ من الخلق عن قوله ﷺ في حديث المعراج ، حيث قيل له بعد أن رقى إلى السماء السابعة : قف إن ربك يصلي » - قال له جبريل عليه السلام - ، فقال الشيخ - يعني والده - : « الصلاة معناها الرحمة » .

ثم توقف عن الجواب ، فورد عليه في المجلس رجلٌ من السادة المهادلة ولم يسمع السؤال وما عَلِمَ به ، وكان مُنشِداً - وعادة أهل جهتهم أن من دخل مجلسَ أحدٍ من الأعيان وفيه أناسٌ وهو يحسن ينشد ، أنشد من نفسه من غير أن يؤمَر بذلك ، كما هو عادة أهل حضرموت أن لا ينشد المنشد حتى يؤمر - فأنشد ذلك الرجل بأبياتٍ للسيد الكامل حاتم بن أحمد الأهدل نفع الله به ، وهي هذه :

زُجَّ فِي النُّورِ بِالرَّسُولِ فَوَافَى	قَابَ قَوسَينِ فِي أَتَمِّ لَبُوسِ
ثُمَّ أدناهُ مِنهُ حَتَّى رَأَى الحَقَّ	بِعَينٍ مَا شَانَهَا مِن بُؤسِ
عَمَّ بالنُّورِ جِسْمَهُ مُذْ حَلاهُ	وَجَلاهُ فِي زِينَةِ التَّلبِيسِ
قِيلَ : قِفْ إِنَّهُ عَلَيكَ يُصَلِّي	أي بِفَيضِ الكَمَالِ لِلتَّأْنِيسِ
فَاسْتَوَى عِندَمَا تَدَلَّى إِلَيهِ	ثُمَّ أَوحَى إِلَيهِ لِلتَّنفِيسِ
وَانثَنَى فِي أَقَلِّ جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ	إِلى المَسْجِدِ الحَرَامِ النَّفِيسِ
أَظْهَرَ الحَقَّ وَالحَقَائِقَ حَتَّى	أَدْرَجَ الكُفْرَ بَاطِنَ النَّاوُوسِ
صَلَوَاتُ السَّلامِ تُتْلى عَلَيهِ	وَعَلى آلِهِ أُولِي التَّقْدِيسِ

وكان السائل حاضر الإنشاد فسمعه ، فقال له الشيخ : « هذا جواب سؤالك » .

أقولُ : ذكر في المعراج أنه عليه الصلاة والسلام لما تأخر عنه جبريل عليه السلام بعد ما زَجَّ به في النور ، قال عليه الصلاة والسلام : « فرماني على رفرفٍ أخضر ، وانقطع عني حس كل مَلَكٍ وإنسي، ولحقني عند ذلك استيحاشٌ ، فعند ذلك ناداني منادٍ بلغة أبي بكر : قف فإن ربك يصلي » ، ثم بعد قطع الحجب ، ناداه ربه : « يا أحمد ادن » ، قال : « ثم ناداني : يا أحمد ، لا خوفٌ عليك ، فقلت : اللهم إنه لحقني استيحاشٌ قبل قدومي عليك ، فسمعت منادياً بلغةٍ تشبه لغة أبي بكرٍ قال لي : قف فإن ربك يصلي . فعجبت من هاتين ، هل سبقني أبوبكر إلى هذا المقام وإن ربي لَغَنِيٌّ عن أن يصلي ، فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلي لأحدٍ ، وإنما أقول سبحاني سبقت رحمتي غضبي ، اقرأ يا محمد : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾، فصلاتي رحمةٌ لك ولأمتك ، وأما أمر صاحبك لما كان الشك به وأنك خُلِقْتَ وهو من طينةٍ واحدة ، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خَلَقْنَا مَلَكاً على صورته يناديك بلغته ليزول عنك الإستيحاش ، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك » ، انتهى ما أردنا نقله من المعراج لتمام بيان المعنى لما كان هذا السؤال والجواب مُبَيَّنَيْنِ فيه .

وقلت لشيخنا الزين المذكور : أريد أن أقرأ عليكم قصيدةً مرثيةً في سيدنا الحبيب ، وأردت قراءة مرثية السيد عمر البار التي أولها :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ مَا هَـذَا الـذِي نَـزَلَ عَلَى العِبَادِ وَعَمَّ السَّهلَ وَالجَبَلَ

فقال – أعني الشيخ الزين – : « لا لا ، إن المراثي ذَكَرُوا أنها تجلب المصائب ، فيأثم متعاطيها ، وإنها نوعٌ من النعي المنهي عنه ، وإنما يتسلى بها المصاب إذا ضاق عما حلَّ به فيُعذر لذلك ، وإنما عمرك لحظةٌ فاشغلها بذكر الله » ، وسنه حينئذٍ نحو ٨٠ سنة ، ولد سنة ١٠٥١ وذلك في التاريخ المذكور آنفاً .

وقد جُرِّبَ قول الشيخ بأنه قد مات ولدٌ لبعض طلبة العلم ، وفعلوا له درساً في مسجدٍ لبعض الأعيان ، ويوم ختمه أمروا منشداً أنشد بمرثيةٍ رثى بها الناظم ولَدَهُ أولها : « حُكمُ المنيَّةِ في البَرِيَّةِ جَارِي » ، وبعد نحو ثلاثة أيامٍ مرض صاحب المسجد ، ثم لم يمكث إلا أياماً يسيرةً وتوفي ، فكان ذلك مُصَدِّقاً لقول الشيخ .

ومَدَحَ الشيخ الزين المحب الصادق محمد بن سالم بن وصال الحساوي ، وأشركه مع سيدنا عبدالله نفع الله به بقصيدةٍ بليغةٍ جمعهما في المدح بها ، خَصَّ الشيخ زين ببيتٍ منها ، وكان شيخه قد أخذ عنه، ورأيت عند عبدالخالق له كتباً يقابلها له وقابلتُ معه فيها ، من أَجَلِّها : « الدر المنثور في التفسير

بالمأثور»، وكذلك الجامع الكبير في الحديث المسمى «جمع الجوامع» كلاهما للإمام السيوطي، والجامع الصغير احترازاً عن هذا الكبير، وهي هذه القصيدة وكلها في سيدنا سوى ذلك البيت، وقرئت على سيدنا وسمعها، أولها :

زَفَفتُ لَكُمْ عَرُوساً بِالكَمَالِ ... مُبَجَّلَةً بِأَجْمَالِ الجمَالِ
مُعَطَّرَةً بِطِيبٍ مِن طَبِيبٍ ... مُكَلَّلَةً بِإكلِيلِ الدَّلالِ
مُبَخَّرَةً بِنارٍ ثُمَّ نُورٍ ... مُبَخْتَرَةً بِذَا السِّحرِ الحَلالِ
مُبَرقَعَةً بِبَرْقٍ عَن ظَلامٍ ... مُفَرْقَعَةً مِن اطْوَادِ الجِبالِ
مُهَفْهَفَةً مُلَعَّسَةً بِحُسنٍ ... مُغَسَّلَةً معَسَّلة الزُّلالِ
مُحَفَّفَةً مُحَفَّفَةَ السَّجَايَا ... مُخَوَّفَةَ الأُسُودِ بِكُلِّ حَالِ
مُؤَنِّسَةً بِهَذَا الخَوفِ قَوماً ... لَهُمْ أُسْدُ الشَّرَى خَيلُ المجالِ
تُنَادِي في مَيَادِينِ التَّصَابِي ... أنا الحَسْناْ وَلِي فَحْلُ الرِّجَالِ
هَلُمُّوا مَعْشَرَ العُشَّاقِ نَحوِي ... وَهيمُوا في مِثَالي بالمِثَالِ
وَغِيبُوا فِيَّ عَنْ عِشْقِي بِحُبِّي ... فَإنَّ العِشْقَ عِندِي كالخَيَالِ
فَشَرطُ الحُبِّ حُبُّ الحُبِّ قَبْلاً ... وُحُبُّ الحُبِّ هُو مَهرُ الغَوَالِي
فَأَدِّ المهرَ يا مَن رَامَ عِرسِي ... وَجُلْ تِيهاً بِعَرشِي بالوِصالِ
وَخُذْ مَا شِئتَ مِن عِلمٍ وَحِلمٍ ... وَحُكمٍ وَاحْتِكامٍ في الخِصالِ
فَحِينئذٍ فَشُربُ الكَأسِ عِندي ... حَلالٌ مِنْ حَلالٍ قَدْ حَلا لِي
فحل تيهاً عَلَى الأكْوَانِ شَطْحاً ... بِخَمْرِي إنَّ خَمْرِيَ قَدْ أَضَا لِي
فَأَعْشَى الشَّمْسَ لَمْع النَّارِ ... عِندِي كَظُلْمٍ نُورٍ كَالهِلالِ
فَحَيَّ عَلَى فَلَاحِي عِندَ رَاحِي ... وَحَيَّ بِالفِعَالِ وَبِالمقَالِ
تَحِيَّتُنَا بِهَا تَحْيَا قلوبٌ ... فنُوا مِنْ قَبلِ هَذَا بِالهَبَالِ
سَلامٌ مِن سَلامٍ في سَلامٍ ... عَلَى أَهْلِ العُهُودِ مِنَ الرِّجَالِ
تُخَصِّصُ سَادَتِي في الحُبِّ مِنهُم ... لَنَا نُوراً إذا جَنَّ الليَالي

فَزَيْنُ الكَونِ نُورٌ مِن زُجاجٍ　　بِمِشْكَاةٍ بِهَا حَرقُ الضَّلَالِ

هذا البيت هو المختص بالإشارة إلى الشيخ المذكور ، وما بعده إلى آخرها هو المختص بسيدنا وهو أنه قال بعده :

وَسُلطَانُ الوُجُودِ لِكُلِّ عِلمٍ　　وَإحْسَانُ الشُّهُودِ لمنْ يُغَالي
وَبَحرُ نَفائسِ المرجَانِ حَقًّا　　وَأَصلُ الدُّرِّ فِيهِ كالـلآلي
بَدِيعُ بَيَانِهِ سِحرٌ حَلالٌ　　هُوَ الإكسِيرُ عَنْ غِشِّ الزُّغَالِ
إمَامُ هُدىً وَشَمْسٌ لا كُسُوفٌ　　هُوَ البَدْرُ المصانُ عَنِ الزَّوالِ
فَحَدَّادُ القُلُوبِ حَبِيبُ قَلبِي　　وَشَيخِي بِالجَلالِ وَبِالجَمَالِ
إمَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرِيحِيٌّ　　وَبَحْرُ العِلْمِ سُلطَانُ الرِّجَالِ
إمامُ هُدىً وَشَمْسُ ضُحىً تَعَالت　　وَحَاشَى ذَاتهُ عَنْ ذَا المِثالِ
أَيَا غَوثَ الوُجُودِ أَجِدْ بِغَوثٍ　　وَإِمْدَادٍ وَصِلْ ابْنَ الوِصَالِ
فَكَمْ لِلْعَهدِ مِنْ وَقتِ انتِظَارٍ　　وَكَم لِلوَعدِ مِنْ صِدْقٍ بَدَا لي
إلى كَمْ ذَا التَّذَلُّلُ وَالتَّعَلُّلْ　　إلى كَمْ ذا التَّطَفُّلُ وَالسُّؤَالِ
بَلي جِسْمِي وَوُدِّي لَيسَ يَبْلى　　وَغَيرِيَ وُدُّهُ في الحُبِّ بَالي
وَحُبِّي صَادِقٌ بِالله حَقاً　　وَحَسبِيَ ذَا افْتِخارٌ عِندَ آلي
وَأَنتُمْ يَا أُهَيلَ الحُبِّ جَمْعاً　　أَغِيثُوا عَبْدَكُم في كُلِّ حَالِ
فَإنَّ ذُنُوبَهُ قَدْ قَيَّدَتهُ　　بِأغلالٍ عَلَيهِ كَالجِبالِ
وَلَيسَ لَهُ مُعِيناً غَيرَ حُبٍّ　　هَمَا وَطَمَى لَكُم والحُبُّ حَالي
فَأَنتُمْ سَادَتِي وَسَوَادُ عَينِي　　وَذُخرِي ثُمَّ نَصرِي ثُمَّ مالي
إذا كُنتُم عَلِمتُمْ حَالَتِي يَا　　سُوَيْدَ الرُّوحِ لا شَيئاً أُبَالي
عَسَى وَلَعَلَّنِي أفدِيكُمُ يَا　　كِراماً وَدُعُونَا بالنَّوَالِ
وَمُنُّوا باسْتِماعِ تَحِيَّتِي مَع　　سَلامي كُلَّ حِينٍ مَع مَقَالي

عَلَيكُم ألف ألف سَلام رَبِّي وَرِضوانٌ يَدُومُ بِكُلِّ حَالِ
يَهُبُّ نَسِيمُهُ مِنْ طِيبِ طَهَ حَبِيب القَلْبِ هُو قُطب الكَمَالِ
يُعَطِّرُ عَرْفُهُ أَهْلَ التَّصَابِي وَيَنْشَقُ طِيبَهُ أَهْلُ المجَالِ
وَيُثْنِي بالثَّنَا قَدًّا وَغُصْناً وَزَهْراً فَاحَ عَرْفاً كالـلآلي
بِوَصْلِ صَلَاتِهِ في كُلِّ حِينٍ وَوَصلِ صَلاة رَبِّي يَا موالي
عَلَى سِرِّ الوُجُودِ حَبيبِ رَبِّي وَكَعْبَةِ حُسْنِهِ يالْلرجَالِ
تُسَلِّمُ بالسَّلامِ أُهَيلَ عِشْقٍ مِنَ الأغْيَارِ مِنْ أهلِ الضَّلالِ
وَيُنعِشُ رُوحَ مُرتَاحٍ بِرَوحٍ وَرَاحٍ مَا لَهُ فِي الكَونِ سَالي
وَتَجْمَعُ جُمْلَةَ الأضْدَادِ حَتَّى يَكُونَ الكُلُّ في عَينٍ بِبالي
تَعُمُّ الآلَ والأصْحَابَ جَمْعاً وَكُلَّ التَّابِعينَ وَكُلَّ وَالي
وَكُلَّ أَخٍ مِنَ الإسْلامِ جَمْعاً بِرِضْوَانٍ وَحُبٍّ وَانْتِسَالِ
بِحَمْدِ الله نَحْمَدُهُ دَوَاماً بِشُكرٍ سَابِقٍ قَبْلاً وَتَالي

تمت القصيدة المنورة ، أحببت الإتيان بها بتمامها لفصاحتها وبلاغتها ولتمام الفائدة ، والإستشهاد حاصلٌ بالبعض منها .

ولما أردت السفر من بلاد الشيخ الزين ، وطلبت منه الإذن في السفر فأَذِنَ في ذلك ، ثم خرج لوداعنا ومشى معنا مشيِّعاً - وذلك ضحى يوم السبت وقت الإشراق غرة جماد الآخر من سنة ١١٣٣ - فقال لي حينئذٍ : « لا تقرأ عبارات المشائخ فكلُّ ما ذكروا من باب التوكل والصبر وغير ذلك ، إنما هي أنفاسٌ يتنفَّسُون بها ، فإذا أردت قراءتها فقابل كتاباً منها على كتابٍ فقط ، ولا تتعلق إلا بما هم متعلِّقين به ، وقد جاء بعضهم إلى شيخه بكتابٍ وأراد أن يقرأ عليه فيه فقال له : ارْمِ كتابك واقرأني أنا أولاً » .

وقد ذَكَر لي هذه القصة في بعض مجالسه - كما قدَّمناها - يحثُّني بذلك وبكل كلامه أن لا أنقل كلام سيدنا ومجالسه ، وأن أتركها نسياً مَنْسِيًّا ، وأن لا أفيد بها أحداً ، وكلها محشية بالعلوم والفوائد والحث على التقوى وعلى العمل الصالح ، وبيان الطريقين - طريق المقربين الخواص السابقين ، وطريق

العامة أصحاب اليمين - والعمل بالعلوم النافعة ابتغاء وجه الله ، وكل هذه الأمور يلزم تبليغها عن قوله ، ونسبة القول فيها إليه وعنه ، لعل بِسِرِّ نَفَسِهِ وبركة ذِكْرِهِ أن تنبعث داعيته في قلب السامع إلى العمل بها ، فإن ذِكْرَ سيدنا وصِيتَهُ قد ملأ الله به المسامع والقلوب والمجامع والدروب حتى صاروا كلهم متعلقين به ، وبكل ما نُسِبَ إليه من القول والعمل ، كما ترى بعينك وتشاهد وتسمع فلا تحتاج الشمس إلى دليل .

وكلام الشيخ الزين هذا عجبٌ ، وهو كلام حالٍ لا يُحكَم به وعليه لكل أحد ، بل هو خاصٌّ بحال وشأن قائله ، كما يقال في وقائع الأحوال لا يحتج بها ، وتمر ولا يُستَدل بها على حُكْم ، فيكون حاله هو يقتضي ذلك ، فعبَّر بمقاله عن ما هو مقتضى حاله . وهكذا عادة أهل الأحوال أن يعبِّر جماعة في مسألةٍ واحدةٍ بعباراتٍ مختلفة ، كلٌّ منهم يعبِّر عنها بعبارةٍ بمقتضى حاله ، فيكون فيها عباراتٌ كثيرةٌ بمعانٍ مختلفة كلٌّ منهم يعبر عنها بمقتضى حالِه ، وكلها صحيحةٌ بالنسبة إلى كل قولٍ منها لصاحبه ، ولا يحكم به على غيره ، فقول صاحب الحال وفعله لا يقتدى به فيه ، بل هو خاصٌّ بصاحبه ويُسَلِّم له فيه ، وإنما يحكم بعموم القول والفعل على وجهه على وجهٍ يجمعها كلها ، وهو قول أهل الكمال الذين جعلهم الله قدوةً للناس من أهل مقام البقاء المقامين في مقام الدعوة كسيدنا عبدالله نفع الله به .

واختلاف أقوال أهل الأحوال بما اختلفت فيه عباراتهم ، مثل اختلافهم في معنى الفقر ، فقال بعضهم : « هو أن لا يملك شيئاً ولا يملكه شيءٌ » ، يعني هو خلو يده وقلبه من الدنيا ، وقال بعضهم: « هو - أي الفقر - انخلاع القلب عن الكونين » ، أي لا تعلق له إلا بالله ، لا يلتفت إلى نَفْع عاجلٍ ولا إلى جزاءٍ آجل ، كما قال الشيخ الزين : « لا تتعلق إلا بما هم متعلقين به » ، وذكروا في المعنى أشياء كثيرة غير ما ذَكَرْنَا ، وكلها صحيحة على مقتضى كل قولٍ لكل قائلٍ بمقتضى حالِهِ هو دون غيره ، فَيُسَلَّم له ولا يُقْتَدَى به فيه .

ومثَّل له الإمام الغزالي في الإحياء بعد ذكر معناه المذكور بظل الزوال واختلافه في الجهات ، وكلٌّ صحيحٌ في جهته دون غيرها ، فلا يحكم بظل جهةٍ على كل الجهات بل هو خاصٌّ بها دون جهةٍ غيرها ، وإنما يحكم بوجود الظل في كل الجهات مطلقاً ولكن لكل جهةٍ ظل يخصها ، فبعضها عشرون ، وخمسة عشر ، وأربعة عشر ، وعشرة ، وسبعة وثلث كجهتنا ، وخمسة إلا سدس كجهة حضرموت وذلك في غاية زيادته فافهم .

ثم استودعنا من الشيخ فكان آخر العهد به ، وسافرنا إلى الحديدة . وهذا جملة ما جرى بيني وبينه من المذاكرة ، إلا إن كنت نسيت من ذلك شيئاً .

ومدينته مجلَّلةٌ عند الحكام ، لا أحد منهم يتعرض لأهلها بسوء ، مع شدة ظلمهم وعدم احترامهم

لأحد ، ولا أحد من أعوانهم وحواشيهم ينالهم بمكروه ولا يسكنها أحدٌ من الزيدية لما يعلمون من كراهته لذلك ، مع أن حاكم اليمن وعساكره وحواشيه كلهم زيدية ولا يحتفلون بأحد ، وقد جعل الله له في قلوبهم الهيبة والإحترام ، وهي هيبة الولاية التي يحترمهم بها الأُسُود والحيوانات الضارية المضرة.

والعجب أن جهات اليمن كلها إلا القليل منها صارت اليوم زيدية وقد مدحها النبي ﷺ بقوله: « الإيمان يمان والحكمة يمانية » ، « وإني لأجد نَفَس الرحمن من قِبَل اليمن » ، وأن « أهل اليمن أهش قلوباً وأرق أفئدة » وغير ذلك ، وهذا يصدق قول سيدنا : « **الأمور في هذا الزمان انعكست عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها فينبغي أن يُسَمَّى الزمان مخيب الظنون** » ، يعني لا ترى الظن الحسن في هذا الزمان يَصْدُق في شيءٍ غالباً ، فإذا ظننتَ حُسْناً تبين ضده فخاب الظن ، فينبغي أن يُسَمَّى بما ذكر لذلك . وأما الظن السوء فهو الذي يَصْدُق في هذا الزمان ، وذلك لسوء حال غالب أهله ، وهذا المعنى من صدق سوء الظن وكذب حسن الظن يجري في أمورٍ كثيرةٍ ، فتصدُق عليه كلمته فإنها شاملة لمعانٍ كثيرةٍ في جهاتٍ شتى كما سيأتي تفصيله .

حتى إنك ترى لو أحسنت ظنًّا بأحدٍ ثم تَبَخَّنْتَ[1] باطنه أو جربته في أمرٍ تظنه به ، رأيته بخلاف ذلك ورأيت منه خلاف ظنك ، ولو ظننت سوءاً ثم تَبَخَّنْتَهُ رأيته كما ظننتَ وربما زاد على ما ظننتَ من السوء ، هذا في الغالب وهو حكم طبع الزمان غالباً ، لأن مظاهر الزمان من الأسواء ظهرت فيه على الأخيار فأشبهوا زمانهم ، كما قال سيدنا علي : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » ، سيما الشُّح الشديد الذي ذَكَرَهُ النبي ﷺ من علامات الساعة ، فترى أخيار هذا الزمان من سادةٍ وعلماء سيما من كان إمام مسجد يصلي الناس خلفه تراه من شُحِّ النفس والهلع على الدنيا والتهالك عليها بأشد ما يكون ، وجَرِّب تَرَ .

والمدح الوارد في الحديث في أهل اليمن مما ذَكَرْنَا ومما لم نَذْكُرْهُ كله المراد به الأنصار رضي الله عنهم، لأن أصلهم من أهل اليمن ، فهم الممدوحون بتلك المدائح كلها ، ولا يخفى ما مدحهم الله به ورسوله بالخصوص وما عمَّهم هم وغيرهم من الصحابة به من المدائح ، وفي الحقيقة كل المدائح تعود إلى النبي ﷺ كما قال سيدنا فالأنصار سبقوا إلى الإسلام ونصروه وقاموا به وجاهدوا عليه وبلَّغوه وسبقوا الأقارب إلى تلك المكارم ، كما قال صاحب الهمزية :

وَيْـحَ قَـومٍ جَفَـوا نَبِيـاً بِـأَرْضٍ ... أَلِفَتْـهُ ضِبَابُهَـا وَالظِّبَـاءُ

---

(١) أي اختبرت.

وَسَـلَوْهُ وَحَـنَّ جِـذْعٌ إِلَيـهِ ... وَقَلَـوْهُ وَوَدَّهُ الغُرَبَـاءُ

أَخْرَجُـوهُ مِنهـا وَآوَاهُ غَـارٌ ... وَحَمَتْـهُ حَمَامَـةٌ وَرْقَـاءُ

وَكَفَتْـهُ بِنَسْـجِهَا عَنْكَبُـوتٌ ... مَـا كَفَتْـهُ الحَمَامَـةُ الحَصْـدَاءُ

وَاخْتَفَى مِنْهُـمْ عَلَى قُرْبِ مَرْآ ... هُ وَمِـنْ شِـدَّةِ الظُّهُـورِ الخَفَـاءُ

لهذه المكارم والفضائل صاروا هم المقصودين بالمدح من الله ورسوله ، وهم المشار به إليهم ، وصارت جهتهم وقبائلهم ممدوحة بهم ، ولا يصرفهم عما مدحوا به عوارض الأزمان إلى يوم القيامة، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ومع ما عَمَّ جهة اليمن في هذه الأزمان من البدع والظلم لا تخلو من الأخيار كهذا الشيخ وأمثاله قديماً وحديثاً ، فيشملهم مدح الله ورسوله فإن المدح إنما يُطلَق على الممدوح ويُختَصُّ به دون المذموم ، فإن المدح لا ينقلب ذمًّا ولا الذم ينقلب مدحاً ، فيشمل المدح الأخيار في كل زمانٍ قلوا أو كثروا ما دون الأشرار .

وبيوت مدينة الشيخ هذه كلها من جريد النخل ، لا بناء فيها إلا المساجد ، ولا مسجد فيها غير جامعها ومسجد الشيخ المذكور ، وتسمى التُّحَيتا وهي من أعمال زبيد ، وسُمِّيت بذلك لأنها تحتها مما يلي البحر منخفضة عنها وزبيد مترفعة عليها . وقد اجتمعنا في بلاد زبيد بمشايخ أجلاء وساداتٍ فضلاء ، ولا زالت بهم معمورة سابقاً ولاحقاً، كالسيد يحيى بن عمر المقبول الأهدل ، وكان على قَدَمٍ عظيمٍ من العلم والعمل والصلاح ، وله مؤلفاتٌ في علومٍ شتى ، حضرنا مجالسه ودروسه في مدة ثلاثة أيام ، ومن مؤلفاته رسالة : « نَشْر محاسن العترة للمسترشدين ، وقرة أعين الأصفياء المستمسكين بمودة سيد المرسلين ، وأهل بيته الطيبين الطاهرين » ، نَقَلْتُها من عنده وأخذتُها عنه وأجازني فيها. وابن أخته السيد الفاضل أحمد بن محمد شريف المقبول الأهدل ، وكان يدرِّس في العلم والفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكان تدريسه وقت الإشراق إلى الضحى العالي ، وخاله المذكور بعد العصر .

واجتمعنا فيها بالشيخ الفاضل الفقيه محمد بن زياد الوضاحي شارح الزبد ، وقد وصل شرحه عليه إلى حضرموت ، ورأيته وطالعت فيه واستحسنته - وهو شرحٌ حسنٌ - فطلبت منه نسخةً من شرحه فقال : « عند فلان من أصحابه نسختان نخلِّيه يعطيك إحداهما » ، فأمره فأعطاني إحدى النسختين ، ودفعت لصاحبها قيمتها ، وجدُّه الشيخ محمد بن زياد صاحب الفتاوى المشهورة من أقران ابن حجر ونظرائه في الفقه والعلم ، وغير هؤلاء من أهل العلم والفضل من الأحياء .

وزرتُ تربتها ، وفيها أكابر كبارٍ من الأولياء ، كالشيخ علي بن أفلح ، والشيخ أحمد الرداد ، والشيخ طلحة الهتار ، والشيخ أحمد الصياد ، والشيخ إسماعيل الجبرتي ، وسبعة من زارهم بنية قضاء حاجة قضيت ، هؤلاء المذكورون منهم ، وفي التربة الكبيرة تربتان متقابلتان - كزنبل والفريط - شمالية وجنوبية ، قيل لي أن إحداهما كلها نساء من الصالحات - أظنها الجنوبية - والأخرى كلها رجال من الصالحين - أظنها الشمالية أو العكس - وكل رجلٍ من هؤلاء زوجٌ لامرأةٍ من أولئك .

حتى ختمت بزيارة الشيخ الزين بالتُّحَيتا ، قصدته إلى مدينته على ما قدمنا ، وصليت تلك الجمعة معه في جامعهم ، ثم لما استودعت منه مسافراً وَجَّهَ معي رجلاً من جماعته - وهو من السادة المهادلة- يوصلني إلى الحديدة مسيرة يومين ، وأمره أن يَمُرَّ بي في البلدان التي في طريقنا على أناسٍ صالحين عيَّنهم له من السادة المهادلة ، وكلهم بنوا عمه وأقرباه يعرفهم ويعرفونه - وهذا من الشيخ شبيهٌ بتوجيه سيدي عبدالله نفع الله به ، أول ما وصلت إلى حضرته ذلك الشريف ، وهو السيد محمد بن شيخ الجفري رحمه الله ، أن يزور بي مشايخ السادة من الأحياء والأموات ، ومساجدهم ومآثرهم ويوريني قبورهم - فَدَلَّ ذلك منهم على أن أول اعتناء الصالحين لمن اعتنوا به أن يزوِّرهم الصالحين أحياءً وأمواتاً ، استدراراً لرحمة الله وفضله وكرمه بزيارة من لهم عنده المنزلة العالية ، فإن للزائر حقّاً على المزور يؤديه له عنهم ربهم سبحانه إذا علم من الزائر صدق النية ، فربما نيته قاصرة فيكفيه نية من أمر بتزويره ، جزاهم الله عنا خيراً .

فهكذا فعلوا به كما هو شأنهم في ابتداء أمرهم من زيارة الصالحين ، كما سمعنا عن سيدنا عبدالله من كثرة زيارته للتربة لقبور الأكابر من السادة ، حتى وقع له ما وقع من تلك الواقعة العظيمة ، لما رآه مَدَّ كفَّه من قبره فصافحه وقَبَّل يده وأعطاه الطريق وأعطاه أمانة ، وكان كثيراً ما يشير إلى تلك الأمانة فيقول : « **عندنا أمانة من عند الشيخ عبدالله بن أبي بكر ما يحملها إلا المهدي** » ، وعدَّه أكبر مشائخه من أهل البرزخ .

فمَرَّ بي هذا السيد في بلد القرشية على السيد الفاضل علي المهدلي ، فلما وقفنا تلقاه سلَّمنا عليه وهو قاعدٌ على قعادته ، فرد علينا السلام ، فقال لابن عمه الذي معي : « من هذا ؟ » ، قال : « هذا رجلٌ من جماعة السيد عبدالله الحداد » ، فلما سمع بذكر الحداد قام قائماً فصافحته وأردت الجلوس على الأرض فأبى عليَّ حتى أقعدني معه على القعادة ، وكان هذا السيد من البهاليل ، وقد أشهر الله اسم سيدنا عندهم كما أشهره أيضاً عند غيرهم من كل طوائف الخلق .

ثم قال لابن عمه : « أين بلاد السيد عبدالله الحداد ؟ هي بلاد شيخ الأولياء ؟ » يعني بغداد بلاد

الشيخ عبدالقادر » ، قال ابن عمه : « لا ، إنما بلاده حضرموت » ، قال : « وأين حضرموت ؟ » ، قال: « هنا في طرف اليمن » ، ثم قال لي : « أنت شريف ؟ » ، قلت : لا ، ولكني مِحِبٌّ للأشراف ، ومُحِبُّ القوم منهم ، قال : « تحفظ القرآن ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « القرآن في الشريف كالمسك في وعاه - يعني ماعونه - والقرآن في غير الشريف كالمسك في غير وعاه » ، ثم أمر بالقهوة ، ثم بعدها أمر بطعامٍ فأكلنا، ثم طلبنا منه الفاتحة ، فقرأها لنا ثم استودعنا منه وخرجنا .

وَذَكَر لي ابن عمه - الرجل الذي معي - أن حاكم بيت الفقيه استأذنه يوماً في الزيارة فأذن له ، فأتاه زائراً وأتبعه من أهل بلده نحو سبعين رجلاً ، وجاء معه بِقِدْرٍ فيه قهوة تكفيهم . فلما جاء عند السيد ، جاء من بلد السيد أيضاً نحو سبعين رجلاً فأمر السيد بكُعدة قهوة - وهي دلةٌ من خزفٍ يقَدِّر الناظر أنها ما تكفي عشرين - فقال له السيد : « أتيت معك بقهوة ! خفت أنا ما نسقيك قهوة ؟ » ، فأمر السيد بقهوته أن تدار أولاً ، فكفت الجميع مائة وأربعين على فنجالين ، ثم أديرت الأخرى فما كفتهم على فنجالٍ واحد ، وهذه كرامةٌ عظيمة .

وكان من شأنه أنه لا يمر عليه أحدٌ في أي وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ ولو وسط الليل أو النهار إلا ويقدِّم له زاداً ، وكان منزله بين أربعة طرق ، وكل من مَرَّ فيها مَرَّ عليه ، لا ينقطع المار عنه ساعةً واحدةً ليلاً ونهاراً إلا نادراً وهو على هذا .

وسألت الذي يسايرني عنه : هل معه كثرة مال ؟ قال : « لا يملك إلا هذه الأرض التي بيته فيها، إن جاءها المطر حُرِثَت وجاءه منها شيءٌ قليلٌ من الذرة ، وإلا فهي يابسة كما ترى لا خضرة فيها ولا ندى » ، وهي أرضٌ يابسة وكل هذه الطرق تمر من وسطها ، فهي لذلك معبدة من كثرة الدَّوس لها ، وأموره على عادته هذه كما هي لا تختلف ، وله كثير كراماتٍ وخوارق عادات ، والكلام فيه يطول .

ثم خرجنا من عنده وقت العصر ، ووصلنا بلد الدريهمي وقت المغرب ، وَبِتْنَا في مسجدها وهو من الجريد ، وجاء لنا السيد الذي معي بعشاءٍ وكانت هذه بلده ، فلما كان وقت صلاة الصبح قال ذلك السيد : « امض بنا إلى السيد فلان - سماه لي ونسيته - نصلي صلاة الصبح عنده في مسجده » ، وهو من السادة بني الأهدل ذا فضلٍ وعِلْم وحال ، قال : « عنده كوفية يرثها عن أبيه عن جدِّه ذَكَرَ أنها سقطت على رأس جَدِّه وهو قائمٌ يصلي ، ويقال نزلت عليه من السماء » .

فَسِرْنَا ومضيت معي بكوفية سيدي الحبيب ، كنت أردْتُ أن أضعها على رأسه ويضع كوفيته على رأسي بلا مبادلة ، ولو أراد يبادلني ما بادلته ، لكنه خرج إلينا وصلى بنا الصبح ولم يتكلم لنا بكلمةٍ

واحدةٍ إلا بالسلام فما كلمناه ، وطلبنا منه الفاتحة فقرأها ، ثم استودعنا منه .

وَسِرْنَا من حيتنا[1] إلى الحديدة فوصلناها قرب الظهر ، ونحن في طريقنا نساير البحر ، وعلى جوانبه حُفَرٌ محفورة في طين البحر ، بعدما سفح ماؤه عنها لما جزر البحر تسلسل بماءٍ عذبٍ عجيب الحلاوة يجتمع في الحُفَر ، يَرِدُهُ الناس والبقر في سرحها إذ هي مسرحة في تلك الأرض من بلدان متعددة ، تأوي إلى بيوت أهلها في الليل فإذا عطشن وَرَدْنَ . فحصل معي عطشٌ شديدٌ وما أخبرت رفيقي بذلك ، لعلمي أن ليس في الموضع آبارٌ ولا مياهٌ تُعرَف هناك إنما نحن على ساحل البحر ، ثم قلت له : ما يمكنك تحصل لنا ماءً ؟ قال : « اشرب من هذه الحفاير » ، فظننته يمزح ، فرددت عليه الكلام ، فردد عليَّ الجواب ، فقلت : أنت تمزح ، قال : « لا والله » ، ثم جاء إلى حفرةٍ فشرب وأنا أنظره ، فشربتُ كما شَرِبَ ، فرأيته ماءً عذباً عجيباً فعجبت من ذلك .

وذكر الإمام الشرجي في « طبقات الخواص » أن هذه الناحية من أكثر أرض الله مأوىً للصالحين، وذلك من مسجد الفازة إلى مسجد معاذ بن جبل الصحابي رضي الله عنه ، لأنه مذكورٌ في السِّيَر أنه وصل إليها وبنى فيها مسجداً ، ويقال إن مثل ذلك يخرج ماءً عذباً من طين البحر في ملتقى البحرين حيث التقى موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام ، المسمى الآن بفيلكا ، وكذلك سمعت بمثل ذلك يكون في ساحة الإسكندرية بموضعٍ يؤثَر عن بعض الصالحين . ولعل ذلك بسبب بركة من مشى فيها وسلكها منهم .

وما مَرَّ بي ذلك الرجل على أولئك المذكورين إلا بأمرٍ من الشيخ الزين جزاه الله عني خيراً ، وتخصيصهم وتعيينهم له بالمرور بي عليهم ، نصيحةً منه وتربيةً ورغبةً منه لي في الإلتماس بالصالحين، كما فعل بي مثل ذلك سيدنا عبدالله نفعني الله به كما قدَّمْتُ ذكره فكلهم على طريقةٍ واحدةٍ موصلة إلى الله ، ولو قيل : « إن الطرق بعدد أنفاس الخلائق » ، فإن هذه أجزاؤها وفروعها وهي واحدة ما دعا إليه الكتاب والسنة . وإنما دَعَوَا إلى شيءٍ واحدٍ وهو الذي خَلَقَ الخَلْقَ لأجله كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، أي لِيَعْرِفُون ويؤدون لي الطاعة بامتثال ما أَمَرْتُ به والإنتهاء عما نهيتُ عنه ، والرضا بما فَعَلْتُ به مما تكره النفس ، فإن معنى العبادة فِعل ما يرضي المعبود مما ذُكِر ، والرضا بما يفعل المعبود ، فهذه الطريقة الحق ولا غيرها طريقة تسلك إلى الله .

---

(١) أي مكاننا.

وهذا الكلام كله تداعى بنا الكلام إليه والكلام يَجُرُّ بعضه بعضاً ، كما سيأتي من قول سيدنا : « **الكلام شجون يَجُرُّ بعضه بعضاً** » .

قال سيدنا عبدالله رضي الله عنه : « **نحن إذا أمرنا بشيءٍ أو تكلمنا بكلام قَيَّدْناه فكل كلامنا مُقَيَّد ، فافهم القيود ولا عليك ، لأنَّا عارفين بأحوال أهل الزمان ، وقد عثر عندنا ناسٌ كثيرٌ بترك القيود ، وأخذوا الكلام غير مقيَّدٍ كالإناء بلا غطاء والغطاء بلا إناء ، بعضهم تعسُّفاً وبعضهم تعنُّتاً ، وبعضهم ضعف فهم ، حتى لما علم بأمرنا بأخذ القيود بعض الناس ، قال : لا ينبغي لنا أن نحضر مجالسكم ، فقلنا : لا يتعطل المجلس بغيبتك . ثم إنه رجع وحضر** » .

وتكلم في إيداع السلام وتبليغه ، *ثم قال رضي الله عنه* : « **من بلغ إلينا السلام ولم يجتمع بنا فما فاته منا أكثر مما حصله ، كما قال الشيخ أبوبكر بن سالم : من فاتنا يكفيه أنا نفوته** » هـ .

أقول : سمعت أن رجلاً كان ملازماً مجلس الشيخ أبي بكر بن سالم نفع الله به ، ثم ترك ذلك واختلى في بيته ، فسأل الشيخ عنه فقيل اختلى في بيته عن الناس ، فقال الشيخ : « من صَدَّ عنا .. إلخ » ، ومعنى ذلك أي لا يظن أن اختلاه وانفراده عن حضور مجلسنا وعدم مجالستنا يحصل له خيراً منها ، بل يحصل له من مجالستنا من خير الدنيا والآخرة ما لا يخطر بباله ولا يجري في مآله ، كما قال النبي ﷺ في رؤيا لبعض الصالحين لما رآه وسأله : ما أفضل الأعمال يا رسول الله ؟ قال : « جلوسك لحظةً بين يدي وليٍّ من أولياء الله حيًّا أو ميتاً ، خيرٌ لك من عبادة سنة » ، أو كما قال .

فأين يحصل له اختلاء ، وذلك مع ما يحصل له من مجالستهم من المدد والنظر والفائدة وما تمده المجالسة من استراق الطبع ، كما قال الإمام الغزالي : « فمجالسة الزاهد تزيد في زهدك ، ومجالسة الحريص تزيد في حرصك » ، وعلى هذا فيقول سيدنا : إذا كان يمكنه الإجتماع فاكتفى برد السلام فما فاته من هذه الفوائد لا يحصل له بغير ذلك .

والمتبادر إلى الذهن أن الإنتفاع الحاصل بالحضور عند الولي الحي برؤيته ودعائه واستمداد الطبع من مجالسته ، وربما نفحة من الله تحصل عند الحضور ومقابلته ، فالرضا يختص من حضر ، أو إذا لم يمكنه الحضور فيكفي بقوة المحبة والعقيدة ، وإذا قدر على ذلك وقصر فيه دل على ضعف العقيدة والرغبة ، كما قال الشيخ سعد تاج العارفين لسيدنا الفقيه المقدم يحضه على الإجتماع به لأنه شيخه وأخذ عنه بلا اجتماعٍ له به بل بالمكاتبة ، فقال :

إِذَا مَـا اكْتَفَيْنَـا بِالرَّسَـائِلِ بَيْنَنَـا فَمَا أَنَا مَعْشُوقٌ وَلا أَنتَ عَاشِقُ

وأما الميت فعلى ما تقدم من قول الشيخ الزين : « إذا كانت روح الحي حيةً تناغي روح الميت فيستمد منه ويستفيد » ، كما يأتي من كثرة تردُّد سيدنا في بدايته على زيارات الصالحين أحياءً وأمواتاً ، وطلب حصول المدد من كلهم ، ومن وراء ذلك كله مواهب الله وفضائله التي يختص بها من يشاء في الحالتين معاً إذا أراد سبحانه - أعني الإجتماع وعدمه - .

وَرَأيتُ بخط الحبيب علوي بن سيدنا عبدالله مما نَقَلَهُ عن والده أنه *قال* : « **إذا تكلمنا لأحدٍ منكم بكلام فلْيَعِهِ ولْيَقْبَلْهُ بِكُلِّيَّتِهِ ، فإن ما ظهر له معناه اليوم ، عاده يظهر له ، ولا يعرف قدره إلا عند فَقْدِ متكلِّمه ، فيطلب من يقول مثله فلا يجده وذلك من تمام الكلام ، لأنا مارسنا الأمور وجرَّبناها . ولنا نحو من ستين سنة ونحن في مطالعة الكتب إلى الآن** » هـ .

أقول : انتهى ما نقلته مما نقل عن قول والده .

وقوله : « **فإن ما ظهر له معناه اليوم ، عاده يظهر له** » ، هذا يؤيد ما قال لي لما قلت له : إني أكتب ما سمعت من كلامكم ولوما عرفته ، فقال : « **اكتبه ، وعادك تعرفه** » ، ومرةً قال : « **عادنا نبيِّنه لك** » ، فتبيَّنَ لي الآن بحمد الله على مقتضى الحال تصديقاً لقوله .

وقوله : « **ولنا نحو من ستين سنة** » ، والذي سمعته أنا من سيدنا يقول لي : « **من حين سننا أربعة عشر سنة ، وإلى الآن ونحن في مطالعة الكتب** » ، وسيأتي قوله أنه في سنِّه المذكور ابتدأ يقرأ في الفقه على الفقيه باجبير ، وحفظ فيه عليه ربع العبادات من الإرشاد ، وذلك من نحو سنة ١٠٥٨ إلى نحو سنة ١١١٤ ، وهو حين سمع السيد علوي كلامه ذلك ، وسماعي لذلك نحو سنة ١١٢٤ ، بعده بنحو ١٠ سنين .

وكان قال لي ذلك معاتباً لي ولائماً أن نقلت كتاب « عمدة الأحكام » في الحديث الصحيح مما اتفق على تخريجه الشيخان البخاري ومسلم ، من غير أن أشاوره في نَقْلِهِ ، وإنما لم استأذنه في ذلك لعلمي أن هذا من أصح كتب الحديث ، وأتحقق أنه يفرح بذلك ويرضى به فلا يحتاج إلى شور[1] ، وإنما مرادي أخبره به إذا أتممته ، ثم لما تم وضعته في يديه وأريته إياه مغتبطاً بذلك ، وطامعاً أن يدعو لي ويستر[2]

---

(١) أي مشورة .

(٢) أي يفرح .

به ، ولكن لشموخ النفس أظهر الله له خلاف ذلك في تلك الساعة ، وأجرى لي ذلك الملام على لسانه للتأديب في غيره ، فحين أريته إياه وقلت : كتبت هذا الكتاب وحصلته من أصح الحديث ، **فقال** : « **كيف كتبته بلا شور ؟ ومن الذي أمرك بكتابته ؟ فإن كان مرادك إلا أن تَسْتَبِدَّ برأيك ولا تشاورنا في أمورك ، فاجلس في خلوةٍ وحدك ، أو ارجع إلى بلدك بارك الله فيك ، وإلا فما هذا حال المتعلق . أفتريدون أن تعلمونا بالكتب ونحن من حين سننا أربعة عشر سنة وإلى الآن ونحن في مطالعة الكتب؟ وما مَرَّ عليكم مرةً مر علينا مراراً ، أفتعلمونا أنتم بالكتب ونحن أعلم بها منكم ؟** » .

ثم تمثل بهذا البيت :

وَمِنْ عَجَبٍ إهْدَاءُ تَمْرٍ لخيبرٍ وَتَعْلِيمُ زَيدٍ بَعض عِلمِ الفَرَائِضِ

أقول : كان هذا الكلام منه في خلوةٍ وليس هناك أحدٌ غيري وغيره ، وذلك أنه كان ذلك اليوم خارجاً من البلاد إلى الحاوي وأنا خارجٌ معه كما هي العادة ، فأخبرته بالكتاب في الطريق فلما نزل من الفرس ودخل إلى داخل البيت وصعد إلى الغيلة(1) ، فلما كان عند باب الغيلة مقابل الدرجة التي تنزل إلى الضيقة فجلس هناك وناداني ، فصعدتُ إليه من الضيقة وصافحته وإذا معه تشويشٌ وضيق صدرٍ ، لا أدري من تعب الطريق أو من تشويشه من جانب الكتاب ، فتكلم عليَّ بكل ذلك الكلام في هذا الموضع حتى إذا انقضى صافحته ونزلت ، وانقضى هذا المجلس المبارك المنور ، وإنما لام حينئذٍ على ذلك تأديباً من الله وخوفاً أن أنقل ما لا يستحسن لي نقله ، وذلك من كمال شفقته وعنايته نفعني الله به. ثم بعد ساعة من قوله ذلك المتقدم ذِكْره طلبني إلى عنده في الغيلة ، فناداني من الغيلة وسمعت نداه من مكاني الذي أنا فيه وهو مقابل مكانه فَلَبَّيْتُ نداه ، وعَرَفَ أنه شَقَّ عليَّ كلامه وأتعبني - وهكذا عادته إذا أجرى الله على لسانه تأديباً لأحدٍ اعتذر إليه وطيَّب خاطره بما أمكنه من كلامٍ أو عطاءٍ كما سيأتي قوله : « **كان لنا خادمٌ وكثيراً ما يغضبنا ، فإذا حصل في النفس عليه شيءٌ أعطيناه شيئاً فيزول ما في الخاطر عليه ، فيقول - أي ذلك الخادم - ليته كل يوم يزعل علي ويعطيني شيئاً** » - .

فلما جئت إلى عنده وسلَّمت عليه وصافحته ، **قال لي** : « **مرادنا أنا نعلمك ، وأنك لا تفعل شيئاً حتى تشاورنا فيه ، وهذا من حُسن الأدب ، ونحن يلزمنا لكم التعليم ، فلو قيل من كان هذا في تربيته؟ قيل : كان في تربية فلان . وش لو أعطاك أحدٌ كتاباً فيه ذمنا أو ذم السادة آل باعلوي ولم تعرف أنت ذلك أو كان جامعه مبتدعاً وأدرج فيه أحاديث باطلة ، أو كان ذلك في عقيدةٍ ودَسَّ فيها شيئاً من عقائد المبتدعة .**

---

(1) أي الغرفة .

فالزم الأدب بارك الله فيك ، وأحسن الإنسان أن يلزم الأدب ، فلو وقع مع ناسٍ آخرين قالوا : قد كان هذا عند من ؟ ومن هو الذي كان في تربيته ؟ وقد كان أحد جماعة - أو قال : أحد تلامذة - الإمام مالك أخذ عنده مدة نحو عشرين سنة ، قال : جعلت منها سبعة عشر سنة في الأدب وثلاث سنين في العلم فياليتني جعلتها كلها في الأدب . والشور فيه بركة ، فكيف لو طالعتَ شيئاً من كتب ابن عربي فرأيتَ فيه ما لا ينبغي فانطوى عليه باطنك ، وكتابٌ واحدٌ من كتب الإحياء يكفي من جميع الكتب . والعلم المطلوب منه العمل ، وإلا فما تنفع لفلفة الكتب ، كم ناسٍ جمعوا كتباً ولفلفوها فما نفعهم ذلك ، فلا عاد أحد يخبرنا بالكتب ، فما مر عليك بعضه قد مر علينا كله مرتين أو أكثر ، لأنا من سن خمسة عشر سنة إلى الآن ونحن في الكتب » ، ثم أنشد البيت المذكور أيضاً : « ومن عجبٍ إهداء تمرٍ لخيبرٍ .. البيت » .

وهذا كلامه بعدما ناداني في هذا المجلس الذي في داخل الغيلة ، والأول من خارجها ، وآخر كلامه في مجلسه هذا إنشاده البيت ، وقد أنشده في الأول أيضاً . وفي هذا أيضاً شيءٌ من كلامه في الأول إلا أن الكلام في الأول خرج منه بشحنةٍ وهذا بلينٍ ولطف ، فظهر في الأول ما تجلى عليه من مظهر الجلال فتبين أثره في نفسي ، والكلام تبين في الثاني ما تجلى فيه من حالة الجمال ، وكل ذلك له تحريكٌ له من الحق تعالى . فلما سكت من كلامه هذا قلت : يا سيدي قد أخطأت في هذه فاعذروني ، فقال : « أستغفر الله ، نحن نخطيء أكثر منك . وقد كان عندنا رجلٌ لعلك لا تبلغه في النسك والعبادة قال لنا يوماً : فلان أعطاني كتاباً وأعجبني فحصلته - أي كتبته - وكان ذلك الرجل يتردد إلينا أيام كنا في الهجيرة ، وبعد ما نزلنا الحاوي وقام مدةً فقال : اسمعوا . وقرأ علينا في ذلك الكتاب ، فإذا فيه أن الأجلح صفته كذا وكذا ، ومن أراد أن يتجلَّح ومن أراد أن يفرِّق بين امرأةٍ وزوجها فليفعل كذا وكذا، فقلنا له : وما قصرت تكتب هذا الكتاب ؟ فقال : كيه جعلت - أي ظننت - أنه كتابٌ مليحٌ وتعبت في تحصيله . فأخذه بعد وقطَّعه ، وأمثال هذه الأشياء قد تخفى » هـ .

أقول : صاحب الإمام مالك الذي ذَكَرَهُ هو يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، جاء إليه من بلاده الأندلس ، ورَابَطَ عنده المدة المذكورة عشرين سنةً وقال ما ذكر عنه ، وأخذ عن الإمام مالك وروى عنه الموطأ ، ورواية الموطأ عنه أشهر روايات الموطأ عن الإمام مالك . وأُتِيَ في وقته إلى المدينة بفيلٍ فخرج الناس لرؤيته تعجباً ، وخرج لذلك كل أهل مجلس مالك ، ولم يَبْقَ منهم إلا يحيى بن يحيى ، فقال له الإمام مالك : « لِمَ لَمْ تخرج مع أصحابك لرؤية الفيل ؟ » ، فقال : « ما جئت إلى هنا إلا لرؤية وجهك لا لرؤية الفيل » ، فأُعجِبَ به مالك واستحسن حاله ، وصار له عنده منزلةً فوق أصحابه .

« وأيام كان في الهجيرة » ، وذلك من سنة ١٠٦١ إلى سنة ١٠٧١ ، مدة أحد عشر سنة ، وهو أيام خلوته كما سيأتي ذكر ذلك من قوله .

ثم إني أريته الكتاب الذي لامني فيه « عمدة الأحكام » ، وقرأت عليه منه شيئاً فاستحسنه وطاب خاطره ورضي وقال : « **ما ظننته هذا** » ، وعلمت أن ذلك تأديبٌ من الله أجراه على لسانه لغير ذلك .

ثم إن ابنه الحبيب علوي كان هو مرتِّباً عليه قراءةً في كتابٍ بعد صلاة عصر يوم الجمعة في المجلس في داره في البلاد ، وكلما فرغ من كتابٍ فتح الخزانة وأخذ كتاباً آخر وابتدأه إلى أن يُتِمَّهُ وهكذا ، فلما كان يوم الجمعة التي بعد هذا الكلام ، وإذا هو قد ختم في التي قبلها كتابه فقال لوالده : « قد تم كتاب القراءة » ، قال : « **افتح الخزانة ، وخذ كتاباً آخر** » ، ففتحها وأخذ كتاباً وإذا هو ذلك الكتاب ، والعجب أنه ما وقع إلا عليه وابتدأ يقرأ فيه . فلما تم الدرس وانقضى ذلك المجلس قال له : « **ما هذا الكتاب ؟** » ، قال : « مسمى كتاب عمدة الأحكام » .

فلما سمع عبارات أحاديثه ورآها كما هو لفظ الصحيحين بلا اختلافٍ فيها ، سأل عن اسمه واستحسنه وأعجبه جداً وقال : « **سنحصِّله إن شاء الله** » . أي نفعل منه نسخةً أخرى ، فإن من عادته إذا استحسن كتاباً اتخذ منه نسختين أو أكثر ، كما ترى في خزانته كثيراً من الكتب المتكررة كالإحياء والبخاري وغيرهما ، هذا إن أمكن واتفق وإلا اكتفى بواحدةٍ .

فلما رأيته استحسنه وأعجبه ورغب فيه استغنمت الكلام من جانبه فقلت له : هذا هو الكتاب الذي لمتوني على تحصيله ، قال : « **لا ، هذا كتابٌ مليح** » ، ولكن قد يجري الله على لسانه التأديب في بعض الأوقات لبعض الناس .

وقلت له في بعض الأيام : يا سيدنا ، لا تروا[1] علينا ، فإنا ما نخاف إلا من مخالفة أمركم ، ***فقال*** : « **لا ، ما نحن بصدد ذلك ، وإنما نطلب الجزاء من الله سبحانه وما خلق الإنسان إلى جهة السماء وجعل رأسه أعلاه إلا ليطلب حوائجه من السماء لا من الأرض ، ولا عليك إلا ما يرضي ربك فذلك هو الذي نرضى به** » هـ .

أقول : قوله : « **لا ، ما نحن بصدد ذلك** » ، أي ما نحن ممن يزعل من مجرد مخالفة أمره لأجل الهوى والرئاسة ، وإنما يزعلنا مجرد مخالفة أمر الله ، كائناً ذلك ما كان ، فافعل ما يرضيه ولا تلاحظ في ذلك أحداً ، فإن ذلك هو الذي يرضينا ونرضى به من كل أحد ، كما سيأتي قوله : « **اجعل معاملتك وعملك لله ، ولا تلتفت إلى الخلق فتكون إنما أنت معاملٌ لهم** » .

وقوله : « **إنما نطلب الجزاء من الله ،** » أي بفعل ما أمرنا به ، وترك ما نهانا عنه لا نطلب بذلك

(١) أي لا تؤاخذنا .

رئاسةً وترفُعاً ، ولكنك اطلب أنت ونطلب نحن من الله سبحانه أن يوفقنا لما يرضيه ، فإنما ذلك بإعانته وتوفيقه ، لا بعمل العبد ومراده .

ويريد بالطلب « من السماء » يعني الطلب من الله ، « لا من الأرض » أي لا من الخلق ، والسماء ما ارتفع ، ويشير به إلى رفع الهمة ؛ بأن يتعلق في جميع مطالبِهِ بالله ، والأرض ما انخفض ، ويريد به الهمة الدنية النازِلَة التي حَد مبلغها الطلب من الخلق ، وإلى الهمة العالية ؛ الإشارة بطول الإنسان وعلوِّ رأسه في أعلاه ، إشارة إلى رفع همته ورغبته إلى الله لا إلى أحدٍ سواه ، فما ينفعه سوى مولاه ، فكما في وَضعِ جبهته في الأرض في الصلاة تواضعاً لله القرب من الله ، كذلك في رَفْعِ همته إليه عما سواه قربه وتقواه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فيعتقد إنما نفعه كله وحصوله من الله ، ويرجوه منه ويَدْعُوه به ، وإن تَسَبَّبَ في حصول ما ينفعه وسعى في طلبه فهو منه سبحانه لا من السبب ، لكن ربما وقف حصوله على السبب ، فإنه إن تَسَبَّبَ في أمرٍ مكتوبٍ له حصل ، وإن لم يكتب لم يحصل بالسبب كما قال تعالى : ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فالإبتغاء هو السبب ، ومفهومه أنه حيث أمر بالإبتغاء فيما كتب أن ذلك يحصل به وما لم يكتب لم يحصل به .

وقد استأذنت سيدي في كتابة « البرقة » للشيخ علي بن أبي بكر نفع الله به ، *فقال* : « **إن شاء الله اكتبه وتوكل ولا تتأكل** » ، *ثم قال* : « **التأكل طلب أمور الدنيا بأمور الدين** » ، فأتممته وأرسلته يُجلَّد بصنعاء اليمن ، ثم وضعته في يده مجلداً ، *فقال* : « **استعملك الله به ، وبارك لك فيما أعطاك** » ، قلتُ : وأعطاني ما لم يكن موجوداً ، *قال* : « **مما قُدِّر ، أو ما لم يُقَدَّر ؟** » ، قلتُ : مما قُدِّر ، *قال* : « **نعم ، إن شاء الله من الخير** » ، فاعلم فإذا فهم هذا المعنى فلا يلتفت بقلبه إلى الخلق في شيءٍ ، لا بسببٍ ولا بغيره ، بل يعتمد بقلبه عليه ، ويفوِّض أموره كلها إليه ، وإذا أراد يُيَسِّر له أموره كيف شاء بأسبابٍ أو أبواب .

قال رضي الله عنه : « **من أتانا قاصداً الإنتفاع ، فليسمع ما نقول ، ويفهمه ويصَدِّق به ، ويَصدُق فيه إذا نقله إلى أحد ، لكن مع فهم القيد لقوله ﷺ : رحم الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، الحديث . وللوارث حكم الموروث ، والنبي ﷺ ما ورَّث إلا العلم ، وما كان له من ذلك مطلقاً كان لورثته مُقَيَّداً ، وإذا أخذ الناس من ذلك بِسَهْمٍ أخذنا - أي ورثته - منه بسهمين : سهمٌ من جهة العلم ، وسهمٌ من جهة النسب . وإذا سمعتَ شيئاً فانقله بحروفه على أصله ، خصوصاً ما كان عن أهل الدين لأنهم طرائق إلى رسول الله ﷺ** » هـ .

أقول : قوله « فليسمع » ، أي يُلقِي باله لسماعه بتمامه على وجهه بلفظه ، كما قال : « **بحروفه** » ، ويفقهه ويصدِّق به بلا شكٍّ فيه ، ويصدق بنَقْلِ لفظه المؤدي لمعناه الذي أراده بلا زيادةٍ فيه ولا نقصٍ

منه ، وهو معنى قوله : « **على وَجْهِه** » ، ولا يكون ذلك إلا بفهم قيوده ، وفحوى ما جَرَّ الكلام لأجله، وقد بَيَّنَ معنى القيود بما تقدم ، سيما قوله في التوبة ، وبقوله : « **فلو قلنا : إن فعل فلان كذا فما فيه خير، فيقول : قال : ما في فلان خير** » ، فإنه قَيَّدَ ذمَّه بِفِعل المذموم ، وأنت ذكرته عنه مطلقاً بلا تقييده بذلك، فلا بد في النقل من بيان القيد .

وقوله في الحديث : « **فوعاها** » ، أي حفظها - يعني المقالة - بقيودها ، فإذا « **أداها** » ، أي بلَّغها لمن سمعها منه « **كما سمعها** » ، أي بقيودها .

وقول سيدنا : « **وللوارث حكم الموروث** » ، يعني كما شرط النبي ﷺ في نقل كلامه أن يفقهه على وجهه وبقيوده ، وأن يؤديه كما سمعه أيضاً بتمامه وعلى وجهه وبقيوده ، فكذلك أيضاً اشتَرَطَ في نَقْلِ كلامه لأنه وارثٌ للعلم عن النبي ﷺ، فلكلامه حُكْمُ كلامه في تلك الشروط ، فللوارث حُكْمُ مورِّثه فيما يتعلق بأوامره ومناهيه وأحكامه ، لأنها كلها أحكامٌ شرعيةٌ لا اختلاف فيها ، والمتأخر مجدِّدٌ ومقرِّرٌ للمتقدم ، ولذلك قال : « **خصوصاً ما كان عن أهل الدين ، لأنهم طرائق إلى رسول الله ﷺ** » .

وقوله : « **والنبي ما ورث إلا العلم** » ، لقوله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » ، وفي رواية: « لا نورث ديناراً ولا درهماً ، ما تركناه صدقة » ، يعني فما ميراثهم إلا العلم ، كما قال أبوهريرة لما حدَّث في مسجد رسول الله ﷺ - وكذلك حدَّث فيه غيره - وفَقَدَ وقتَ التحديث أناساً ما حضروا سماعه فراح إليهم إلى السوق ، فقال لهم : « هناك ميراث رسول الله ﷺ يقتسم وأنتم قاعدون هنا » ، فراحوا يتراكضون يحسبون أن هناك مالاً ، وما مراده لهم إلا سماع الحديث والعلم .

وما ذكر من الإرث في العلم والأسهم منه ، فالإرث هنا بالقسمة الإلهية إذا خصت أحداً منه بشيء من ذلك قَلَّ أو كثر حصل لا بالنسب والسبب كالمال ، وقد يقسم بها من الجهتين - أي جهة العلم والنسب- بقدر ما قسم منهما لمن قسم له ، كما قال : « **وإذا أخذ الناس** » ، أي مَنْ قُسِمَ له من ذلك - أي من العلم - بالقسمة المذكورة بسهمٍ واحدٍ ، « **أخذنا** » نحن يا ورثته بتلك القسمة « **بسهمين** » من الجهتين ، وهذا له خصوص .

ونسبة النسب الشرعية : هي تخصيص الورثة حكم الشرع ، كل طبقةٍ بسهمٍ معلومٍ من الإرث من الربع والثلث ، وضعف كل ونصفه . والجهة الأخرى : حقيقيةٌ وهبية . ولسيدنا وأمثاله من أهل البيت النبوي أكبر الأسهم وأوفرها وأكثرها من الجهتين ، وما أحسن قول الأبوصيري - صاحب البردة والهمزية - شاهداً في ذلك في قصيدته الدالية التي مدح بها الشيخ أبا الحسن الشاذلي وتلميذه أبا العباس المرسي ، حيث يقول فيها :

يَـا وَارِثـاً بالفَـرْضِ عِلْـمَ نَبِيِّـهِ   شَرَفاً وبالتَّعْصيبِ غَيرَ مُفنَّدِ

أشـار بهذا البيت إلى أبي الحسن أنه لأجل نسبه ورث من جهة النسب سهمين : فرضاً وتعصيباً، وذَكَرَهُما استعارةً لهما ، حيث إن الإرث بالنسب الحسي بهما خاصة ، لا يكون منه إرثٌ إلا بهما ، فذكرهما استعارةً للإرث المعنوي الذي هو إرث العلم والفضل الحاصل بالقسمة الإلهية التي قد تُخَصِّص من لا نسب له ، وتُحرِم ذا النسب ، وقد تُخَصِّص ذا النسب بالإرث من الجهتين ، « وغير مفند » ، أي غير مسفهٍ في دعوى ذلك حسًّا ، فكذلك في الكمال معنى ، ثم قال :

اليَـومَ أَحمَـدُ مِـنْ عَـلِيٍّ وارِثٌ   حَظَّـيْ عَـليٍّ مِـنْ وِراثَـةِ أَحمَـدِ

أشار بهذا البيت إلى أحمد أبي العباس المرسي ، أنه ورث من جهة العلم بتلك القسمة الإلهية من علي - وهو أبو الحسن - سهمَيْه المذكورَيْن : الفرض والتعصيب الحاصلَيْن له ظاهراً بالنسب ، وإنما ذلك باطناً بتلك القسمة من وراثة أحمد النبي ﷺ ، فكذلك سيدنا أخذ بتلك القسمة الإلهية من جهة النسب التي ورث منها أبو الحسن ما ورَّثه أبو الحسن ، وهما السهمان المذكوران : سهما الفرض والتعصيب . الفرض مع غيره من أهل الفروض ، والتعصيب ما اختص به العاصب بعد أَخْذِ كُلٍّ من أهل الفروض فرضه ، وهما من حيث أنهما من جهةٍ واحدةٍ وهي النسب سهمٌ واحدٌ ، وسهمٌ آخر من جهة العلم ، كما يحصل بتلك القسمة الإلهية لغير ذي نسبٍ وهما السهمان اللذان أشار إليهما من جهة النسب ومن جهة العلم . فهي ثلاثة أسهم حصلت لسيدنا بتلك القسمة ، وقَلَّ من يحصل له ذلك من الجهتين ، بل ذلك من خصوصيات سيدنا نفع الله به كما ذَكَرْنَا من خصوصياته فيما تَقَدَّمَ من بلوغه مقام القطبية قبل الأربعين وهو ابن نحو ٢٧ ، وقَلَّ من يبلغه إلا بعد الأربعين ، ومُكْثِهِ فيه إلى أن توفي نحو الستين ، وقَلَّ من يبقى فيه إلا أياماً ، وأكمل العارفين من يبقى فيه نحو الخمس السنين ، وغير ذلك من خصوصياته .

وقد قال : « **إن الله لا يعطي بالإستحقاق ، وإنما يعطي بالمشيئة ، فإن وافق الإستحقاق المشيئة أكمل له العطاء - أو قال : أجزل له العطاء -** » ، والإستحقاق أن يُعطى الإنسان شيئاً يستحقه ، كما يستحق الولد مال أبيه ، وليس عطاء الله لعبده استحقاقاً له مثل ذلك وإنما ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾، فلا يلزم أن لو كان للأب من ذلك شيءٌ أن يكون الولد مستحقه كالمال ، بل ذلك إنما هو بالمشيئة ، فقد يخص بفضيلة الأب غير ولده وتحرم منه الولد ، فإن وافق الإستحقاق المشيئة بأن شاء الله أن يخصَّ الولد مما اختص به أبوه ، أجزل له من ذلك لتوافق الأمرين : المشيئة والإستحقاق معاً .

فإذا وافق المشيئة النسب كان حظه من ذلك جزلاً وافراً ، كما إذا وافق النسب النبوي المشيئة كحال

سيدنا نفع الله به ، فلا جرم أن حصل له من ميراث النبي ﷺ ثلاثة أسهمٍ : الإثنان اللذان استعار لهما أسماء الفرض والتعصيب من جهة النسب ، والآخر الذي من جهة العلم ، وهذا له هو في هذا الزمان خاصة دون غيره فافهم .

وقوله : « **ما كان له مطلقاً** » ، أي علماً واسعاً في كل شيءٍ لا حَدَّ له في شيءٍ ، « **كان لورثته مقيداً** »، أي خصوصاً لخصوصٍ في حَدٍّ مخصوصٍ بحسب الخصوص من موسعٍ ودونه هـ .

قال : « **والفهم من جانبين : فهمٌ يحصل من العلم ، وفهمٌ يحصل من العمل ، والعلوم كثيرةٌ لا يحتاج الإنسان إلى العمل بجميعها ، بل ببعضها كالعبادات وأيضاً لا يحتاج إلى العمل بكل العبادات، والذي يخصه العمل به منها قليلٌ جداً ، وما لا يحتاج أن يعمل به كالعادات فينوي أنه إن عمله أن يُحسِن فيه ، ليحصل له ثواب النية** » .

أقول : قوله : « **فهمٌ يحصل من العلم** » ، كما يفهم معنى العبارة منها .

قوله : « **وفهمٌ يحصل من العمل** » يعني كما ورد : « من عمل بما يعلم - أي من العلم الشرعي - أورثه الله علم مالم يعلم » ، أي من العلم اللدني ، وهو الفهم الذي يحصل من العمل ، لقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، والتقوى هو العمل الشرعي ، فإذا أحكمه وكمل في العمل به، حصل له التعليم اللدني الذي أوتيه الخضر ، لقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وسيأتي نقلنا عن الشعراوي : « إن من آداب العلم أن ينظر في أحوال العلماء ، ويأخذ العلم عن أقلِّهم رغبةً في الدنيا ، فإنه أنور قلباً وأقل إشكالاتٍ في الدين ، وقد قال النبي ﷺ : حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة . فكيف يؤخَذ العلم عن من جمع قلبه رأس كل خطيئات الوجود كلها ، ومُنِعَ من دخول حضرة الله تعالى ، وحضرة رسوله ﷺ ، فإن حضرة الله كلامه ، وحضرة رسوله كلامه - أي وكذلك حضرة كل ولي من أولياء الله كلامه - قال : ومن لم يتخلَّق بأخلاق صاحب الكلام لا يصح له دخول حضرته ولو في صلاته ، لأنه لا يفهم أحد عن أعلى منه إلا إن قدس وصلح لمجالسته ، فمن زهد في الدنيا كما زهد فيها رسول الله ﷺ وامتثل مأموراته فقد أُهِّلَ لفهم كلامه ، ولم يحتج فيه إلى تأويلٍ ولا تفسير ، ومن رغب في الدنيا كغالب الفقهاء لا يؤهل لذلك ولا يفهم كلام الشارع إلا إن فسر له بالكلام المغلق الضيق .. » ، إلى آخر ما سيأتي من كلام النصراني مع الفقيه ، كما ذكره الشعراوي هـ .

قال رضي الله عنه : « **كلامك ثمرتك ، فانظر هل هو خبيثٌ أم طيب ، فأنت كذلك وهو جزءٌ**

منك، فالوعاء الطيب ينضح طيباً وضده بضده ، وكذلك النخلة والشجرة الطيبة تثمر طيباً ، والخبيثة تثمر خبيثاً ، كل إناءٍ ينضح بما فيه ، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ » .

وصافحه رجلٌ أعمى بعنفٍ - وهو نبيهان الآتي ذِكْرُه لمَّا لامَهُ على عدم حضور وليمة رمضان - وكان أَمَرَهُ بالرِّفق عند المصافحة فقال له : « أنت ما تفهم الإشارة وكل حينٍ يكون الكلام ؟ ونحن حتى عيالنا مربينهم على فهم الإشارة وحفظ الكلام وستر المعنى المطلوب منه ، وقد كانوا إذا تكلم المتقدم بالكلمة أخذها الطالب بالقبول وفهم الإشارة ، فيحصل له مقصوده ، واليوم يسمعون منا الكلام ولا يفهمونه ، وكلام الإشارة لا نسمح به كل حين . وكان الشيخ عبدالله العيدروس يقول : كان في تريم أسودٌ تنهم فذهبوا وما بقي اليوم إلا هذا الأسد النهَّام - يعني نفسه - وقد كان في القرن التاسع فما بالك اليوم في القرن الثاني عشر . وإذا حضر مجالسنا العامة والصغار لا نرغب في الكلام خوفاً من أن يستمعوا منا كلاماً لم يفهموه، فينقلونه على غير المعنى الذي أردناه ، ومن كان ولا بد ناقلاً شيئاً فلينقل أيضاً سببه الذي حصل من أجله الكلام . وقد قال لنا بعض أصحابنا : إذا تكلمتم في المجلس فذاك أحب إلينا من قراءة الكتب . فقلنا له : نحن أحب إلينا قراءة الكتب من الكلام ، لأن في الكلام زيادةً ونقصاً ولا نَسْلَم فيه من الخطأ غالباً والكتب أصدق ، وإن كان فيها شيءٌ فهو على المصنِّف وهو المسؤول عنه ، وأما كلامنا فنحن المسؤولون عنه ، فالقراءة في الكتب أسلم لنا من الكلام » هـ .

أقول : هذا آخر كلامه في هذا المجلس المنور الذي حفظناه منه ، وكان في مسجد إبراهيم بن السقاف ، الذي بقرب مسيلة عدم ، وذلك يوم الثلاثاء ثاني ربيع الثاني من سنة ١١٢٦ ، مع كلام كثيرٍ سيأتي في محله مع ما يناسبه من الكلام فاعرفه بالتاريخ ، لأنه مكث في هذا المسجد من ضحوة النهار إلى أن صلى المغرب .

فتكلم في يومه ذلك بكلام كثيرٍ في وجوهٍ شتى ، حتى ما تكلم به في شأن عيسى بن بدر لما ذُكِرَ له شدة ظلمه وقال : « ما له إلا الكُثيب الأحمر » ، هذا قوله يوم الإثنين . ثم غبش[1] عيسى من شبام إلى عينات يوم هذا الثلاثاء ، ولما صلينا مع سيدنا المغرب ، وركب وسار إلى الحاوي وسرنا معه ، فالتقانا محيود بِلْفَقْيَه ، فشكا إليه ما لقوا من سلطانهم عيسى المذكور هو وأهل بلده من الظلم ، فقال سيدنا له: « إذا ظلمكم حاكمكم ، فماذا تريد أن أفعل به ؟ » ، قال : « أريد أن تقبضوا بحلقه فتخنقوه فتقتلوه ، فتريحوا المسلمين من شره » ، فتبسم لما سمع قوله وسكت وما تكلم بعدها ، واتفق أنه تلك الساعة بعيناتٍ يتعشى معشينه السادة آل الشيخ أبي بكر ، فغصَّ بلحمةٍ نَشَبَت في حَلْقِهِ ، لا دخلت جوفه ولا

---

(١) أي ذهب في الصباح الباكر .

خرجت من حَلْقِه ، وخرجت روحُهُ في الحال ، فما وصلنا الحاوي إلا قد سبقنا خبر موته ، وقبر في الكثيب الأحمر كما ذكره بالأمس .

قوله : « **فلينقل سببه** » ، أي السبب الذي حصل من أجله الكلام ، لأنه يفهم به المعنى ، لأنه الذي جَرَّ إلى التكلم بالكلام ، فمنه يعرف معناه ، كما في حديث : « إنما الأعمال بالنيات » ، سببه أنهم هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم عن المشركين لا يفتنونهم عنه ، فتبعهم رجلٌ بنية زواج امرأةٍ ، فأَبَوا أن يسايرهم وهو مخالفهم في النية ، فقال النبي ﷺ ما قال ، ففهمنا من السبب أنه إذا صلحت نيته وعمله - لأنه تابعٌ للنية - لا يضره مخالطة من فسدت نيته وعمله .

وكذلك كما ذكروا من أسباب نزول القرآن ، والوقائع التي أنزلت الآيات بسببها ، فيعرف معنى الآيات من معرفة سبب نزولها ، كآية المجادلة وغيرها . ومعرفة أسباب النزول علمٌ مستقلٌّ من علوم التفسير يعرف منه هذا لقائله : « **إذا تكلمتم في المجلس أحب إلينا من قراءة الكتب** » هو الفقير ناقل كلامه هذا ، لما شغفه من محبة كلامه ، وكان ذلك القول منه له أول نهار هذا اليوم ، وإخبار سيدنا عن قوله ذلك آخر نهار ذلك اليوم .

وقوله : « **كان الشيخ عبدالله العيدروس يقول .. إلخ** » ، فافهم أنت يا من يفهم الإشارة ، أن سيدنا عنى بذلك نفسه أيضاً في وقته ، كما قال ذلك الشيخ عبدالله في وقته وعنى به نفسه ، فورَّى سيدنا بإسناد القول لقائله الشيخ عبدالله تَسَتُّراً وستراً للحال ، وتمويهاً على البليد الذي لا يفهم الإشارة ، وهو غالب الناس والأكثر منهم وإلا فما حمله على ذِكْرِ هذا القول لولا المعنى الذي ذَكَرْنَا ، وإذا فهم المعنى القليل من الناس ممن قويت عقيدته وبَهَسَت معرفته فلا حرج في ذلك .

وكان هذه عادة سيدنا كما ستراه في أماكن متعددةٍ في هذا النقل من إسناد القول في الوقائع لقائلها للستر ، ولكراهته للتبجح بنسبتها إلى نفسه ، فيدعوه لسان الحال لِذِكْرِهَا في وقته ، كما دعا أولئك المتقدمين لِذِكْرِهَا في أوقاتهم ، فَيَذْكُر القول منسوباً إليهم ، واللبيب الحاذق يفهم بالإشارة أن معنى ذلك لما قاله أنه إخبارٌ عن نفسه .

فالمحب المعتقد يفهم ذلك ، ويزداد بذلك حباً وعقيدةً ، ويستره الله عن الضعيف العقيدة ، لا يفهمه ولا يمر بباله ، ولسان الحال يبينه ويخصصه به ، ولو نسب القال لمن قال ، فإن قول الشيخ عبدالله في وقته : « **فذهبوا .. إلخ** » ، فإن عدمهم في وقت سيدنا أقْمَن منه في وقت الشيخ عبدالله وأجْدَر بذلك ، وشأن سيدنا في الصِّفَة الأسدية في وقته أظْهَر لكثرة المفسدين المجترين ، كما سمعتَ وتسمع من أخبار من أخْلاهُم الله بإساءة أدبهم معه له في التورية بكلام من تقدَّمه في وقائع كثيرةً أخبارٌ كثيرةٌ .

كما قال لما أخبرته بقصتنا في البحر لما أصابنا الطوفان في غبة قمر أو غبة الحشيش وكاد البحر أن يبتلعنا بمركبنا ، فرأيته تلك الليلة - ونحن في حالة الشدة - في النوم ، ثم انتبهت وقد زالت الشدة والطوفان ، فكانت رؤيته مبشرة بالفرج ، ثم حصول تلك الضيافة العظيمة بعد ذهاب الشدة وهي تلك السمكة العظيمة كأنها بقرة طفرت لنا من البحر إلى المركب ، حيث شكا أصحابنا أهل المركب لقلة ذلك عندهم - كما سيأتي تفصيل ذلك - فَنَجَّانا الله ببركته وحصلت لنا تلك الضيافة من فضل الله وكرمه ، كل ذلك كرامةً له - وذلك في مسيري إلى حضرته قبل الإجتماع به - وفي ذلك مصداقٌ لقول الشيخ علي وغيره : « إن الإنسان ينتفع بشيخه وإن لم يره ولم يعرفه ولم يجتمع به ، ينفعه الله ببركته في الغيب بِفِعْلِ ما ينفعه ودَفْعِ ما يضره من غير شعورٍ للمنتفع بذلك » .

فلما حكيت لسيدنا بالقصة قال : « **قال الشيخ عمر المحضار : نَرُدُّ موسومتنا ولو تكون بالصين** »، والموسومة من عليه له الوسم ، وهو المحبة الصادقة ، رآه أو لم يره ، فسيدنا هو القائل ذلك لمحبيه في وقته كما قاله الشيخ عمر لمحبيه في وقته ، فحكى القول عنه تَسَتُّراً ، ومراده أن يحكيه عن نفسه .

وكذلك دفع إليه بعض المحبين حاجةً مرسلةً معه من بعض المحبين وهي خفيفة ، فقبضها سيدنا بيده ودخل بها إلى داخل البيت . فقلت له : خلُّوها هنا ، وارسِلوا من داخل من يقبضها ، فقال : « **قد قال سيدنا علي :**

لا يُنْقِـصُ الكَامِـلَ مِـنْ كَمَالِـهْ ... مَـا جَـرَّ مِـنْ نَفْـعٍ إلى عِيَالِـهْ

يعني فهو يفعل ذلك أيضاً إقتداءً به ، ويقول هذا القول كما قاله حالاً ومقالاً .

ولـمَّا قال : « **حتى عيالنا مُرَبِّينهم على فهم الإشارة** » إلى آخر ما قال ، فأقول : إن لهم بأمر الله منه تربِيَتَيْن : تربية بالظاهر ، بالتعليم والتأديب ، وتربية بالباطن بالإعتناء بالسر ، والهداية والصلاح والتسديد ، عناية من الله بهم .

فوالله لو لم يخالطوا أهل فضلٍ وصلاحٍ مثلاً ، بل لو لم يخالطوا إلا أراذل الناس لما ظهروا إلا على أكمل أوصاف أهل الكمال ، من سِرِّ نَظَرِهِ وتربيته وعنايته بهم ، فقد كان ذلك منه في غيرهم ممن خالطه وجالسه ولو مرةً في الدهر ، فكيف بأولاده وفروعه ، وهم مخالطوه ومجالسوه ومواكلوه دائماً ، ولِمَا لهم مع ذلك من مزية أهل البيت النبوي ، كما قال الإمام الغزالي : « **فمجالسة الزاهد تزيد في زهدك ، ومجالسة الحريص تزيد في حرصك** » ، لأن المخالطة والمجالسة تؤثر في الجليس .

وقد سمعته مرةً قال : « **من ربيناه يفوق غيره ، لأنا نربيه تربيةً لا يشعر بها** » ، وهذا في غير أولاده فكيف بهم ، وقد سمعته يوماً - وكنا في بستان الليمونة بالسبير في حال فسحةٍ - يذكر أولاده بشريف

الخلال ، وجميل الخصال ، ومحمود الفعال ، ثم قال : « **حسين أمير وعلوي صالح ، وحسن حكيم ، وزين شيخ** » ، فكيف لا وهم فروعه وجلساؤه ليلهم ونهارهم ، فقد هدى الله ببركته كثيراً من الناس ممن خالطه وجالسه لحظةً من الدهر ، فكيف بهم رضي الله عنه وعنهم .

وهذه التربية التي ذكرها على هذا الوجه لا تكون إلا منه فقط وعنده خاصة ، في هذا الزمان ، وبعده لا توجد عند أحدٍ غيره قط ، وقد قال الأخ الصالح المنور عبدالله بن فلاح الخولاني : أتيت من بلدي وادي عمد ، قاصداً إلى الدولة بعينات - وكان الدولة[1] بها ذلك اليوم عند السادة - ومرادي منه أن يكتب لي عنده علوفة[2] لأصير عسكريًّا عنده ، فَمَرَرْتُ على الحاوي ، فرأيت الحبيب جالساً وقت الدرس يوم اثنينِ - أو قال : يوم خميسٍ - فقلت أسلِّم عليه ، وأطلب منه أن يأمر لي بغداءٍ ، فحين صافحته قال : « **من هذا ؟** » ، فقلت : أنا عبدالله بن فلاح ، فقال : « **ازمِ السلاح** » ، فقلت : مرحبا . فرميت السلاح وتفَقَّرتُ على يده ، وبقيت فقيراً في الحاوي إلى الآن ، وكان ذلك قبل مجيئي إلى حضرته بنحو خمس سنين ، وكان مجيئي يوم ٢١ من رمضان سنة ١١١٥ .

ولما شرح السيد الحبيب الجليل أحمد بن زين الحبشي القصيدة العينية وتأخر إتمامه ، *فقال سيدنا* : « **لو لم يظهره قبل تمامه لتيَسَّر عليه وأتمَّه سريعاً ، وفي الحديث : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان** » .

ثم إني ذكرت قوله ذلك للسيد أحمد في بعض مكاتباتي له ، فقال لي في جوابه : « وما أشرتم إليه عنه من سبب تَخَلُّف شرح العينية ، فقوله صدقٌ وكلامه حقٌّ ، والخِفَّة فينا موجودة ، والمراعاة منه حفظه الله إلى الغاية والنهاية بالرفق واللطف في الهداية إلى الصواب بالتعريض والتلويح ، لما يعلم مننا من ثقل التصريح وهو كذلك كما نشهده نحن من أنفسنا ، والله يتولانا بما تولى به السالكين صراطه المستقيم بنعمته آمين » .

أقول : ولما عرض هذا الكلام ، أحببتُ أن أذكُر هنا بعض مكاتباته نفعنا الله بهما والتي فيها هذا الكلام وهي هذه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم . من أحمد بن زين الحبشي ، إلى الشيخ المحب المحبوب : أحمد بن عبدالكريم الأحسائي سلَّمه الله، وجعله وإيانا نسخة لوح قلم العصر ، ونفس ومرآة عقل الوقت ، الإنسان الكامل عبدالله بن علوي الحداد ، وأمدنا جميعاً بإمداداته ، وحقَّقنا بحقائق علومه ، وجعلنا من نجومه ، وأفاض علينا

---

(١) أي سلطان البلد .

(٢) الراتب الفصلي الذي كان يمنح كل ٣ أشهر قمرية ، للجنود الخاصين بالسلطان .

من علومه ، وتحت نقاب العصر والوقت المضاف إليهما القلم والعقل أوجهاً ، كما أن معتبر باطن الإنسان كنزٌ معقولٌ مرئيٌ بحقائق النقول ليس يحوم حوله أفول ، لا تدركه الأبصار ، ولا تنتجه حوادث الأفكار ، جعلنا الله وإياكم بفضله من أهل حرم توفيق التحقيق ، وحفظنا من خطفات غلطات التزليق .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وعلى مولانا الحبيب عبدالله وأولاده وأهل المكان الجميع ، واسألوه الدعاء والإعتناء بنا ولنا ، ونشكره إلى الله وإلى كل من رأينا وذَكَرنا لعظيم رفقه وقوة صبره علي تعجرفنا وقلة أدبنا ، ولكن الحمد لله حيث دلنا على هذا السيد الوارث لجده ونبيه عليه السلام في تَخَلُّقِهِ بالقرآن في الدعوة إلى طريق الملك المنان ، وغير ذلك من الأخلاق الحسان من فيض الرحمن ، رحمةً بالإنسان الواسع بالإيمان والقبول للكتاب والقرآن والهدى الذي لا ريب فيه .

ووصل كتابكم وحصل به غاية الأنس والسرور ، وتذكَّرنا به الكتاب الأول الصادر منكم ، ووصل صحبته كتاب الحبيب والكراس من الفصول العلمية ، وما ذكرتم من إرسال التراجم فتراها تصدر إذا نقلناها - يعني كتاب شرح تراجم البخاري لبافضل - وما أشرتم إليه عنه من سبب تخلف شرح العينية .. » ، إلى آخر ما تقدم ، إلى قوله : « آمين » .

ومن آخر المقالة : « الحمد لله ، من أحمد بن زين الحبشي إلى محبه وأخيه في الله الشيخ أحمد بن عبدالكريم الأحسائي سلمه الله . السلام عليكم ورحمة الله وعلى الحبيب عبدالله واسألوه لنا الدعاء ، الله الله واذكرونا بحضرته عسى نظرة منه صالحة ودعوة كذلك ، وعلى أولاده وأهل المكان سيما السيد محمد وفقيه .

وصدر إليكم كراريس انظروها وأطلعوا عليها الحبيب في حال الفسحة والبسط إن تيسر ذلك وإلا فلا ، وصدِّروها إذا نظرتها ، وهذا شيءٌ قد له مدة ، وشيءٌ لاحق وهو الذي [1] كتبته لأجل التذكُّر والتذكار ، ولا أسمح بإطلاع أحدٍ عليه إلا أنتم ، حيث نظر الحبيب يحفظنا ويحفظكم [2] المتعدين أطوارنا ، والطاغين عن أقدارنا ، ببركة أهله وأوليائه ، وحسن ظننا فيهم ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، ويرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه ، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، ويسلم عليكم الصنو وأولادنا وأولاده » .

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل .

(٢) كلمة غير واضحة في الأصل .

وبعد ذلك قال : « وصَدَرَ إليكم كلامٌ مكتوبٌ على لسان سادتنا الصوفية قِفُوا عليه ، وإن رأيتم محلاً قرأتموه على الحبيب ، حيث هو من بركات تربيته ورعايته لنا ولك ، ذلك من فضل الله علينا والشكر له ولوالدينا إليه المصير ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾» ، تمت المكاتبة .

وكلامه المذكور في وَصْفِ طريقة السادة آل باعلوي ، فقرأته عليه واستحسنه وقرَّظ عليه ، ولنذكر ذلك الكلام والتقريظ تتمةً للفائدة ، وهو : قال السيد أحمد نفع الله به : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾، فهو ﷺ الهادي بنور الله تعالى من يشاء من عباده ممن سبقت له من الله العناية إلى الصراط المستقيم ، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾، وهو الصراط المشار إليه باسم الإشارة ، هذا للقريب المشاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهو المشروح في الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، المبيَّن بقول النبي ﷺ وفعله وتقريره المشاهد من أحواله في سيرته وأخلاقه ، كما عليه أكابر أصحابه وأهل بيته ثم صالحوا السلف التابعون لهم بإحسانٍ فتابعوهم كذلك ، وقد أوضح ذلك وحققه الإمامان : أبو طالب المكيِّ في « قوته » ، وأبو القاسم القشيري في « رسالته » ومن نحا نحوهم، ثم فَصَّل ذلك وهذَّبه وحرَّره ونقَّحه الإمام حجة الإسلام الغزالي ، وهو طريقة السادة بني علوي الحضرميين الحسينيين تلقوه هكذا، طبقةً عن طبقة ، وأباً عن أب ، وتوارثوه من لدن الحسين وزين العابدين والباقر والصادق وغيرهم من أكابر السلف ، هكذا وإلى الآن .

وبهذا يُعلَم أن طريقة السادة بني علوي ليس إلا الكتاب والسنة ، ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾، فمن متوسِّطٍ في ذلك وكامِلٍ وأكمل ، فهم على المهيع الواسع الموصِل إلى الله تعالى من سار عليه ، إلا أن سلوكه متفاوت ، فمن سالكٍ في مسلكه الأوسط وهو عزيزٌ جداً ، ومِن مُنْتَهِجٍ جانباً منه ، ومن سائرٍ على طرفٍ سوي ، ومِن سائرٍ بسير السائرين عليه .

فعلم أن طريقة السادة آل باعلوي هي صراط الله المستقيم ، وهم من الذين أنعم الله عليهم بطاعته وطاعة رسوله ، ومعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾، وما خالف طريقة آل باعلوي بحيث يضادها ، فهو من السبل المتفرقة عن سبيل الله ، لأن مدار طريقتهم على عقيدة السلف الصالح ، وتصحيح التقوى والزهد في الدنيا ولزوم التواضع ومعانقة العبادة ، ومواصلة الأوراد واستشعار الخوف ، وكمال اليقين وحسن الأخلاق ،

وإصلاح النيات وتطهير القلوب والطَّويّات ، ومجانَبة العيوب الخفيَّات والجليَّات . وحقيقة الفاضل والأفضل ما هو كذلك عند الله تعالى ، وعندية الله تعالى هنا من عِلْمِهِ في خَلْقه ، ولا يحيط أحدٌ بشيءٍ من علمه ، ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وأعلى الناس وأعظمهم أقربهم إلى العلي العظيم ، والقُرب منه سبحانه يكون بحسب قوة الإيمان به واليقين والإحسان ، وإقامة الفرائض والإكثار من النوافل ، والتخلق بأخلاق نبيه ﷺ ، المتخلِّق بأخلاق الله تعالى من الرحمة والرأفة ، وملك الأشياء والتقدس عن الأوصاف الغير الكاملة والسلامة منها ، وإعطاء الأمان ، والإطلاع على حقائق الأمور وعلُوِّ الرتبة ، إلى آخر الأوصاف الحسنى .

فكُلُّ هذا من الحَقِّ الواضح ، والكلام عليه تبيينٌ للحق إن شاء الله تعالى ، وتحدث به ، لأن الفخر في الدين منفيٌّ بِنَفْيِ الشارع الأمين النبي ﷺ ، وإن قَصَدَهُ قاصدٌ فهو مخطيء ، حيث أَثْبَتَ منفيًّا ، إذ قال ﷺ : أنا سيد ولد آدم ولا فخر . نفى الفخر وبيَّن الحق ، وأظهر نعمة الله عليه وتحَدَّث بها .

فهذا شيءٌ مما سمعته من سيدنا وشيخنا الشيخ السيد عبدالله بن علوي الحداد باعلوي الحسيني نفع الله به ، أو ما يقاربه لفظاً ويشبهه معنى ، بمسجده مسجد الأوابين عشية الثلاثاء العاشر من شهر ذي القعدة الحرام من سنة تسعٍ ومائةٍ وألف ١١٠٩ .

وليعذر الناظر ويسامح فيما يجده من الغلط والسقم ، لضعف نظري وركاكة عبارتي ، مع كوني كتبت ذلك في مجلسٍ واحدٍ بإذن الواحد لا إله إلا هو إليه المصير . وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير والسراج المنير ، وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أبدا » ، تم كلام السيد أحمد المذكور .

فقرأته على سيدنا عبدالله الحداد ، وقد قريء عليه أولاً فأعجبه ، فكتب عليه كالتقريظ ومقرِّراً له ما هذا لفظه ومعناه : « **الحمد لله وحده . الذي فهمه السيد الشريف الفاضل المنيف أحمد بن السيد الأكرم زين العابدين الحبشي علوي من شأن المذاكرة ، ثم بَيَّنَهُ وأوضحه هو كما شرحه وأبان عنه ، وهو محل ذلك وأهله ، جعله الله شهاباً ثاقباً في سماء الدعوة إليه ، والهداية إلى سبيله ، يستضيء به السائرون ، ويبصر ويهتدي به الحائرون ، ولا زال في رُقِيٍّ ومزيدٍ حتى يبلغ الغاية القصوى والرتبة العليا ، مصحوباً بلطف الله وعافيته ، وكمال تأييده وتسديده ، وإلى الله سبحانه المصير والمنتهى ، وله الأمر والحمد والحكم في الآخرة والأولى . وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد الذي به الله هدانا ، وبِيُمْنِهِ وبركته أولانا ما أولانا ربنا وسيدنا ومولانا ، ونرجو من فضله المزيد بفضله من فضله ، فإن الفضل له وبيده ، وهو ذو الفضل العظيم . أملاه العبد الفقير عبدالله بن علوي الحداد علوي ، عشية الخميس**

الثاني عشر من الشهر المذكور بتاريخ السيد المتقدم ذِكْره » ، وما ذَكَرَهُ وَكَتَبْتُهُ أولاً يوم الأربعاء ٥ ذي القعدة الحرام سنة ١١٢٠ ، وكتبتُه هنا يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ١١٦٦ .

أقول : ولما سمعت أنا منه في هذا المعنى من وَصْفِ طريقة آل باعلوي أنه قال : « **طريقة السادة آل باعلوي : العقيدة التامة ، والتعلق بالشيخ ، والإعتناء من الشيخ والتربية بالسر . وهي طريقة السلف كالحسن البصري وغيره ، وليس من شرطها الأربعينية ولا بأس بذلك ، وقد فعله كثيرٌ منهم . ومن لم يجتمع قلبه بَعْدُ على شيخٍ معينٍ فلا يختص بأحدٍ منهم ولا ينتسب إليه ، بل يكثر من لقاء المشايخ ويتبرك بهم ما دام كذلك ، حتى يجتمع قلبه على واحدٍ ، فحينئذٍ يلزمه ويختص به ، وينطرح تحت نظره**»، وسيأتي هذا الكلام وما في معناه في أماكن متعددةٍ من هذا النقل .

ولما وَقَفَ على شرح السيد أحمد لقصيدته :

إِلَى مَتَى لَا تَجِفُّ عَيْنِي مِنْ دَمْعِ شَوقٍ وَدَمْعِ بَيْنِ

قال : « **لو تكلمنا على معنى هذه القصيدة ، ما زدنا على هذا** » ، يعني أن معناها الظاهر : هذا هو حد ما سعى أن يذكر ، ولو شرحناها ما زدنا عليه . وأما معناها الباطن فلا يطَّلع على حقيقته إلا هو ، ولو شرحها ما ذَكَرَ منه شيئاً واكتفى منه بالمعنى الظاهر ، لأن عادته أنه لا يتكلم اليوم في العلوم الباطنة من علوم الحقائق ، لعدم أهلية السامعين لها ، كما قال : « **أهل الزمان ليسوا أهلاً للواردات** » .

وكان من عادة السيد أحمد أن يدعو بعد الصلوات بدعاء حَمَلَة العرش المذكور في القرآن ، سمعته عند ذلك يدعو به غير مرة وهو : ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ ، وهذا يدل على كماله وعظمة شأنه نفع الله به .

ولما ذَكَرَ سيدنا تخلف إتمام شرح العينية - وهو الذي جَرَّ إلى كل هذا الكلام ، كما قال : « **الكلام يَجُرُّ بعضه إلى بعض** » - قلت له : هل تَخَلُّف إتمام الفصول العلمية لهذا السبب ، حيث نويتم أن لا تُظهِروها حتى تتم أربعين فصلاً ، فأظهرتوها قبل ذلك فلم تتم ؟ *فقال* : « **ليس تأخر إتمامها من هذا السبب ، لأنَّا وإن نوينا أن لا نظهرها إلا بعد تمام الأربعين ، فإنَّا إنما أظهرناها بنية ، وأيضاً كل فصلٍ بمنزلة كتاب ، لأنه معنىً مستقل غير معنى الفصل الآخر . وأيضاً إنما هي وارداتٌ ترد ، فمتى وَرَدَ**

شيءٌ أثبتناه ، إلا إن هذا الزمان ليس أهله أهلاً للواردات ، فبهذا السبب توقَّفَتْ فيه ، فلم يرد منها شيء. ونحن أعلم بأهل جهتنا منك ، فإنهم غافلون عن كلامنا ، وليس نرى عند أحدٍ منه شيئاً ، ومن كان معه منه شيء فربما أخذه ولم يفهمه ، وسكت ولم يسأل عنه » .

وقلت له يوماً : يا سيدي إن كلامكم عندما تتكلمون به في مجالسكم ، فإنه يطير من القلوب ، فكأن أحداً يَسُلُّهُ من صدور الرجال سَلًّا ، حتى إنه لو أشكلت كلمةٌ فسأل عنها أحدٌ ممن سمعها لا يكاد يحفظها ، وإن حُفِظَت فعلى غير وجهها وبغير لفظها ، **فقال** : « **ألم نَقُلْ لك أنَّا أعلم بهم منك** » ، فقلت: خاطركم عسى أنا نحفظ ما تقولون .

وشكيت له من النسيان ، **فقال** : « **لك نصيبٌ ، ولكنك اترك العجلة** » ، فقلت : خاطركم بترك العجلة والغضب ، **فقال** : « **كيف صفة الغضب الذي يحصل معك ؟** » ، قلت : إذا حصل لا أفرِّق بين شريفٍ ووضيع ، ويكون الناس عندي بمثابةٍ واحدةٍ ، فربما أتكلم على الشريف بكلام كما أتكلمه على الوضيع ، لا أميِّز بينهما ، **فقال** : « **ليس هذا بالغضب المعروف ، إنما هذا ضيق حوصلةٍ ، وإنما الغضب ما كان عن سببٍ يُوجِب الغضب** » ، أو كما قال أو كما وقع من صورة ذلك .

وسيأتي في موضعٍ في هذا النقل بأثبت من هذا .

ولما عَزَمَ على إتمام الفصول العلمية - وذلك من فصل الإستقامة - وتمامه يوم ثامن عشر من صفر سنة ثلاثين بعد المائة والألف ١١٣٠ ، **قال لي** : « **أين نسختك من كتاب الفصول العلمية نشوفها ؟** » .

قلت : البارحة استعاره السيد محمد بن زين بن سميط ، **فقال** : « **ما يعرفه ، خذه منه بلا جفاء ، ولا تخبره أنا نريد نتمه ، وقل له : لا تطالع فيه ، واجعل مطالعتك في الديوان ، فإنهم أودعوا فيه أسراراً وفوائد لا تكون في غيره . ونحن هذه الأشياء قامت علينا بتعبٍ واجتهادٍ كثير ، وهؤلاء بغوها ألا بلاش من غير اجتهادٍ ولا تعب ، ما يريدونها حتى بطريق العدل والإنصاف ، ولو طالعوا كتاباً واحداً من كتبنا وأمعِنُوا فيه النظر لكفاهم** » .

وكان سيدنا قد قال لي قبل ذلك : « **اعط نسختك من الديوان لمحمد بن سميط وقل له يقرأ فيه** »، فابتدأ يقرأ فيه كما أمر ، وبعد ذلك بمدةٍ قال لي أن أقول للسيد محمد المذكور ذلك الكلام المتقدم ، وهو إذ ذاك كان يقرأ عليه في ديوانه بإشارته له في القراءة فيه ، واختياره له ذلك ، ونظره له بالمصلحة في قراءته فيه خصوصاً كما وصَّاني له بذلك . كما ذَكَرَ ذلك لي السيد محمد في مكاتبته لي إلى الحساء ، في طَلَبِهِ مني أن أنقل له كلام مجالس سيدنا ، وبقوله له : « **اجعل مطالعتك في الديوان ، فإنهم أودعوا فيه**

أسراراً وفوائد لا تكون في غيره » ، فظهرت له معاني تلك الأسرار وتلك الفوائد ، وتبيَّن له مصالح إشاراته وفوائد عباراته ، وسر تخصيصه له القراءة في الديوان دون غيره ، فكل أقواله وأفعاله وإشاراته رضي الله عنه تحتها فوائد ونكتٌ تفيد وترشد ظاهراً وخافياً ، عاجلاً وآجلاً ، نفعنا الله به في الدارين .

فانظر في مكاتبة السيد محمد المذكورة أول هذه المجالس[1] ، وذِكْرُهُ فيها لذلك الكلام المتقدم ، وهو قوله فيها حيث قال : « ولا بقي للفقير اليوم سلوةٌ وراحةٌ إلا تَذَكُّر كلامه سيما المنظوم وإشاراته العالية ، وقد سَبَقَتْ به الإشارة منه على لسانكم إن كنتَ لذلك ذاكِراً ، وإلا فاذْكُر الآن أوان قراءتي عليه في ديوانه الشريف ، وكنت حينئذٍ مستعيراً منك كتاب الفصول العلمية أطالعه ، فطلبه سيدي ليكمل تأليفه ، فقلت له أنت : إنه مستعارٌ عند فلان - تعنيني - فقال لك : « قل له : من عنده الديوان - أو قال : معه الديوان - لا يحتاج معه إلى غيره ، ألم يعلم أَنَّا أَوْدَعْنَا فيه من العلوم والأسرار ما لم نُودِعْهُ في غيره من المؤلفات » ، فكانت تلك الإشارات . فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وما بقي اليوم من أصحاب مولانا الخاصة أحد ، تفانوا جميعاً » ، انتهى ما أردت نقله هنا من مكاتبته .

فحمد ربه شكراً له على ما أنعم به عليه من ظهور تلك الأسرار ، وحصول تلك الإشارات ، فيهنيه حصول ما أوتيه . وقد كان حين قراءته في الديوان ، ما يعبر لفظ القصيدة حتى استمعها له وأقصَّها عليه مراراً ، فلما ظهرت له تلك المعاني من تلك الإشارات وفتح الله عليه ، ألَّف في مناقب سيدنا عبدالله كتاباً حافلاً ، يبلغ نحو الخمسين الكراس ، سماه كتاب : « غاية القصد والمراد ، في مناقب سيدي القطب السيد عبدالله الحداد نفع الله به » .

فانظر الفرق البعيد بين حالتي الإنسان : حالة النقص وحالة الكمال ، فإذا كمل الله عبداً أراد له الكمال على يد أحدٍ من الرجال ، وإنما يظهر عليه بعد خروجهم من الدنيا ، كما أفهم ذلك كلام سيدنا مراراً ، وسيمر عليك هنا .

وقوله : « ما يعرفه » ، يعني بالنسبة إلى حالته الأولى تلك قبل حالة الكمال الثانية ، ولكن هذه المعاني خاصة بالسادة أهل البيت النبوي لا مزاحمة لأحدٍ معهم فيها .

وتكلم سيدنا يوماً بكلامٍ كثير ، قال : « أمسِكُوا الحبل بطرفيه ، ليمتسك لكم الأمر ، وإن أخذتوه بطرفٍ واحدٍ انتثر عليكم » ، فعند ذلك قلت - كما تقدم - : يا سيدي ، إنا نسمع كلامكم هذا وأمثاله ، فنحرص على حفظه ، ونكتبه على ما فهمنا ، فلا ندري هل فهمناه على ما وافق مرادكم أم لا ؟ ولكنا

---

(١) لعل هذه المكاتبات فُصِّلت في مؤلَّف مستقل .

نتحرى لفظكم إن أمكن ، وإلا كتبناه على ما ظهر لنا ، وربما حصل زيادةً أو نقصاناً . فقال : « اكتبه ، وعادك تعرفه » ، قال : « والكلام فصولٌ يَجُرُّ بعضه بعضاً ، فبينما أنت تتكلم بكذا ، انجَرَّ الكلام إلى كذا ، كالخواطر التي تتردد في الصدر إلى غير حد » .

وتقدم قوله : « وأشياء من الخواطر ما تدخل تحت الإختيار يعفى عنها » ، ومَثَّل لها بمن تاب من ذنبٍ توبةً صادقة ، ولكن بقي في نفسه له لذة ، فذلك معفو عنه .

وقال : « كلام الصالحين إما وارد ، وإما قد أداره المتكلم على قلبه ، فكل ذلك صوابٌ ولا سبيل إلى مخالفته » هـ .

أقول : قوله : « أمْسِكُوا الحبل بطرفيه » ، هي القيود التي ذَكَرَها وبيَّنها وأَمَرَ بالأخذ بها ، واشترط ذلك على الناقل . وهو إشارةٌ إلى ضبط الكلام لفظه ومعناه ، حتى لا يفوت منه شيءٌ ولا يختلف ، فيحفظ الكلام كما هو حتى تصح نسبته لقائله وهو معنى التشبيه في قوله : « بطرفيه » بأن يصححه أولاً لتصح نسبته إليه ، وضرب لذلك مثلاً بالحبل يشد بطرفيه على ما شد به عليه ، فيحتفظ حتى لا يتفاخت منه شيءٌ قط .

وقوله : « فصولٌ » أي أنواعٌ متشابهة ، يَنْجَرُّ الكلام بسبب تشابهها من شيءٍ إلى شيء ، ويتداعى لأجلها من كلامٍ إلى كلامٍ آخر . كما تداعى بنا الكلام وانجَرَّ لمَّا أردنا ذِكْر ما ثبَّطنا عن نَقْلِ كلام حبيبنا عبدالله نفع الله به في مجالسه ، حتى انجَرَّ وتداعى بنا إلى ذِكْرِ الشيخ الزين وما قال ، وما وقع لنا معه كما قدمناه ، ثم انجَرَّ إلى ذِكْرِ بلده وَوَصْفِها ، وزبيد ومن رأينا بها من الأعيان ومن زرنا فيها من المشايخ الأجلاء من الأحياء والأموات وغير ذلك .

وإلى هنا انتهى ما أردنا ذِكْره ، مما يتعلق بالكلام ونقله وما جَرَّ إليه ، وشروطه من نَقْلِهِ بقيوده وعلى وجهه .

والآن مرادنا نبتدئ بنقل كلامه على ما سنح ، وأول ذلك ما يتعلق بالنية لأنها أساس الأعمال التي تنبني عليها القواعد الشرعية والأحكام العملية ، وكل عملٍ يَتْبَعُها وهو بحسبها ، وعلى قدرها وعليها يجزى ، ولذلك قال النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئٍ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، رواه البخاري ومسلم .

قال سيدنا : « والكلام وقع في ذِكْرِ سبب الهجرة » .

أقول : أي فجرى التخصيص بالهجرة بعد عموم الأعمال لذلك السبب ، فعلم أن ذلك نوعٌ من جملة عموم الأعمال المتوقفة صحتها على النية ، بمعنى أن الأعمال محصورةٌ فيها ، لا تكون إلا على مقتضاها وبحسبها ، ولفظة « إنما » حاصرة ما ذكر بعدها في المذكور بعده ، أي ما يكون ذلك إلا بذلك، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ، أي ما يكون ما ذكر من الصدقات إلا لمن ذكر من الأصناف وقد استحبَّ العلماء من أهل الحديث أن يصدروا كتبهم بهذا الحديث الشريف ويبدأونها به هـ .

قال *رضي الله عنه* : « اعمل لله على قدر همتك ونيتك ، فإن الأجر على قدر الهمة والنية لا على قدر العمل ، فإن خزائنه تعالى مملوءة عبادة ، فإذا كان المَلَك الواحد من الملائكة من قبل خلق الدنيا إلى يوم القيامة في سجدةٍ ، وآخر في ركعةٍ ، وَنَعَّمَهُم بِذِكْرِه ، كما هو معلومٌ من أحوالهم ، فما قدر عملك أنت؟ فإنما هو بالنية . فإن الله تعالى شكر للضفدع حيث حملت في فِيْها ماءً لتطفيء نار النمرود عن إبراهيم عليه السلام ، فقيل لها : أتقدرين على طفئها ؟ فقالت : هذا حَدُّ قدرتي . فنهى الشرع عن قتلها ، والوزغ حيث جعل ينفخ فيها وقال : أريد أن أظهر له الشماتة . ذمَّهُ الله جدًّا حتى رغَّبَ الشرع في قتله » هـ .

أقول : قوله : « رَغَّبَ الشرع في قتله » ، أي وعد على ذلك من الحسنات ، مع أن كلًّا منهما عمله قليلٌ لا يُذكَر ولا يؤثِّر فيما أراد ، فلا ماء الضفدع مؤثِّرٌ في طفي النار ، ولا نفخ الوزغ مؤثِّرٌ في شَبِّها، ولكن ذلك بحسب نية كل منهما ، وبسببه ورد النهي عن قتلها ، والترغيب في قتله بحسب النية لا بحسب العمل ، وقد ورد أن من قتل الوزغ في الضربة الأولى فله مائة حسنة ، وفي الثانية خمسون وهكذا - أي خمسٌ وعشرون ، وعشرٌ ، وخمسٌ ، وواحدةٌ ، كذا يتنزل بعدد الضربات - فعلم بذلك أنما الجزاء بحسب النية لا بحسب العمل ، ولذا ورد : « سبق درهمٌ مائة ألف درهم » ، فتضاعفت نية صاحب الدرهم الواحد على نية صاحب الألوف في الصلاح والحُسْنِ والكمال بمائة ألف جزءٍ حتى سبقتها بذلك القدر ، ونقصت عنها نية صاحب المائة ألفٍ بهذه الأجزاء كلها ، فقصرت عنها بقدرها .

والسبق والتقدم في الأعمال على وجهين : أحدهما : منسوبٌ إلى العبد شرعاً - بحسب حُسْنِ نيته وقَصْدِهِ وكمال معرفته - وإلى الله سبحانه حقيقةً ، حيث وَفَّقَه ويَسَّرَهُ لحسن النية وكمالها وغاية صلاحها وقوة رغبته في الخير وفي رضا الله ، حتى كَمُلَت بسبب ذلك .

فربما أن صاحب الدرهم الواحد لا يملك غيره فأخرجه لله وآثر رضا الله ، فصار بذلك مؤثراً

على نفسه ، وخرج عن كل ماله لله لقوة رغبته فيها لديه ، ودخل في مدح الله لقوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ، وربما وافق أيضاً محتاجاً ذا فاقةٍ مضطراً ، وفي الحديث : « إذا أراد الله قبول صدقة متصدِّقٍ هيأ لها فاقة محتاج » ، وربما أخرجها أيضاً سرًّا ، لخبر : « سئل النبي ﷺ : ما أفضل الصدقة؟ » ، قال : « صدقة مُقِلٍّ مشى بها إلى فقيرٍ سرًّا » .

فاجتمعت كل هذه الخصال الشريفة في صدقة صاحب الدرهم الواحد فسبقت بها صدقة صاحب الألوف لخلوِّها منها ، فَبِالْوَاحِدَة من هذه الخصال تزكو بها الصدقة وتسبق وتنمو ، فكيف إذا اجتمعت كلها ؟ وغير هذه أيضاً مما تنمو به الصدقة وتسبق كثير ، فصاحب الواحد أخرج ما يملك من يده ومن قلبه فبقي غير ملتفتٍ بقلبه إلى شيء .

وهذه مرتبةٌ عظيمةٌ يتفاوت فيها الفرق بين الصدقتين في الكامِلين والقاصِرين فتختلف درجات الكُمَّل فيها فضلاً عن أهل القصور ، وأما صاحب الألوف فأخرج المائة الألف وأبقى أضعافها ملتفتاً إليها بقلبه ، فلذلك سبقها الدرهم الواحد وقصرت عنه ، واختلافهما بحسب النية لا غير ، فلا شك أن ما اجتمعت فيه تلك المعاني وإن قلَّ ، يفوق ما خَلِيَ عنها وإن كَثُر ، وإلا فأين ذلك الواحد إلى تلك الألوف ؟ فيتفاوت الكاملون والقاصرون في النية ، ويتفاوت لهم الأجر بقدرها .

فانظر كيف لما ندب النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم إلى الصدقة ، فأتى أبوبكرٍ رضي الله عنه بماله كلِّه إلى رسول الله ﷺ فقال له : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » ، قال : « أبقيتُ لهم الله ورسوله » ، ثم أتى عمر رضي الله عنه بنصف ماله ، فقال له : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » ، قال : « نصفه » ، فقال لهما : « بينكما كما بين كَلِمَتَيْكُمَا » ، أي بينكما في الحال واليقين والعمل والمنزلة والأجر والمزية كما بين كَلِمَتَيْكُمَا، كما دَلَّت كل واحدةٍ من قائلها على ما هو عليه من المذكورات من الحال الباعث على التجرد عن المال كله في اليد والقلب لله ، فأين هو من الباعث على النصف فقط وربما أن النصف لا يبلغ الربع في القدر .

بلى ، قد جاء أن مال سيدنا أبي بكرٍ الذي جاء به ستون ألف درهمٍ ومال عمر أربعون – أي بنصفه عشرين ألف درهم – واليقين الذي غلب بسببه طلب محبة الله على كل ما يلتفت إليه القلب من الإعتناء بالأهل وضرورات معاشهم ، والعمل المخالف بسببه ما يعتاد إخراجه لله من بعض المال قَلَّ أو كَثُر ، حتى أخرجه كلَّه لله ونال من المنزلة عند الله ما لم يَنَل غيره .

فظاهر الحال أن بين الصدقتين كما بين الدرهم الواحد والألوف بالنسبة إلى درجتيهما ولو كان أجرهما لا يحصيه إلا الله ، ودرجتاهما أعلى الدَّرَج عند الله ، فإنما التفاوت بين النيَّتَيْن ، حيث أن أحدهما أزعجه داعي الله إلى إخراج جميع ما في يده فما التفتت إلى ضرورات الأهل ولا أبقى ما يلتفت إليه قلبه

من جانبهما ، أي فرق بينهما .

الوجه الثاني : السبق والتقدم في الأعمال ، وهو منسوبٌ إلى الله سبحانه حقيقةً بكل وجوهه لا مدخل فيه لغيره . وهو أنه تعالى سبقت محبته وعنايته لأقوامٍ اختصهم بذلك دون غيرهم ، فصار بسبب ذلك حسناتهم مقبولة وتقصيرهم مغفور ، وذلك دون سابقةٍ منهم ولا وسيلةٍ ولا سببٍ منهم يقتضي ذلك ، بل بمحض اختيارٍ منه سبحانه ، فصار لذلك مثاقيل الذَّرِّ من أعمالهم أفضل من أوزان الجبال من أعمال غيرهم ، كما ورد في وصف الصحابة رضي الله عنهم ، لمَّا سبقت لهم من الله تلك المزية، فكانوا قوماً يحبهم الله ويحبونه ، فلهذه المزية والخصوصية لو أنفق أحدٌ من غيرهم مِثْل جبل أحدٍ ذَهَباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه . فانظر كيف بسبب سبق محبته تعالى لهم أن مُدَّ طعامٍ يتصدق به أحدهم يأكله إنسانٌ في وقعةٍ واحدةٍ أو نصف مد ، لا يبلغه عمل من تصدق من غيرهم بجبل ذهبٍ يكفي خلقاً كثيراً في سنين كثيرة ، فأي تفاوتٍ عظيمٍ بين العملين .

فعلم أنه إذا تحقق أن هذه مزية وخصوصية اختيارية من الرب سبحانه إذا حَصَلَت لأحدٍ لا يعادلها شيء ، وأنه إذا ثبتت الأفضلية بهذه القضية فيلزم الإجتهاد في العمل مع شدة الوجل ، لأن من كان في حَيِّز القُرب وكان عمله القليل يفوق عمل غيره الكثير فينبغي أن لا يفتر عن ذلك قط ساعةً من ليلٍ أو نهارٍ ، وإذا علم أن سبب ذلك محض اختيارٍ إلهي لا بسبب سابقة عملٍ أو جميلةٍ منه اقتضى ذلك .

وقد رأى بعينه أن كثيراً ممن عمل الأعمال الكثيرة ما قدَّمَتْهُ ، وربما انْجَرَّ إلى الشقاوة بعدها بمحض ذلك الإختيار فيستريح في باطنه ولا يعتمد بقلبه على عملٍ باجتهاده كما قال الأبوصيري :

وَإِذَا تَحَقَّقَتِ العِنَايَةُ فَاسْتَرِحْ   وَإِذَا تَخَلَّفَتِ العِنَايَةُ فَاجْهَدِ

أي اجهد في العمل بظاهرك واسترح من ملاحظته والإعتماد عليه بقلبك لما رأيت من عواقب ناسٍ كثير بعد العمل الكثير شقوا كإبليس وغيره ، فلهذا ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء معتدلاً في الغالب إلا عند الموت ينبغي يكون الرجاء أرجح ، ولذلك إذا ثبت أن ليس العمدة إلا على الإرادة الأزلية فلا يختص بالمزية ذو الأفضلية فقد تخصص المفضول مزايا دون الفاضل .

فلا تتقيد الإرادة الإلهية الأزلية بالتخصيص بالأفضل دون غيره ، بل تلك الإرادة تعمل عملها على حسبها ، فقد ثبت عنها تخصص المفضول بمزيةٍ دون الأفضل ، ليدل بذلك أن إرادته تعالى لا تتقيد ، فقد تكون في المفضول خصائص يخصه الله بها ، فيختص من يشاء ممن أراد تخصيصه ، يختص من يشاء بما يشاء ، يتصرف بمراده على مراده لا على مراد أحد ، ولا يجري مراده على مقتضى العقول ، بل تقصر العقول عنه ، وإنما أفعاله بالمشيئة كيف شاء ، لا يسأل عما يفعل .

كما خَصَّ الخضر لما قال الله سبحانه لموسى عليه السلام : « بلى ، عبدنا خضر أعلم منك » ، يعني بتلك الوقائع خاصة ، من خَرْقِ السفينة وقتل الغلام وإباحة الله له ذلك في تلك الواقعة خاصة ، ولم يعلم بذلك - أي إباحتها - سيدنا موسى حتى أنكرها ، وذلك من التأديب الذي يؤدب الله به أنبياءه، حتى صاروا أكمل الخلق وأفضلهم عند الله ، وسبب ذلك أنه خطب في بني إسرائيل خطبةً بليغة ، فقال له رجلٌ لما أعجبه بلاغتها : « هل على وجه الأرض أحدٌ أعْلَم منك ؟ » ، فأجابه على مقتضى ظاهر الحال أنه رسول الوقت المرسل لهم من الله ، فالظاهر أن لا أحد غير الرسول أعلم من الرسول، فقال : « لا » ، وكان الأولى أن يقول : « الله أعلم » ، لكن لما أجاب بهذا ، قال الله له ذلك القول من قوله تعالى : « بلى ، عبدنا خضر هو أعلم منك » ، وبَيَّنَ له بالواقعة أن هناك من عنده عِلْمٌ ليس عنده، فطلب قصده أن يتعلم منه . وكذلك خَصَّ أويس القرني على من هو أفضل منه ، إذ قال النبي ﷺ : « يا عمر ، ويا علي ، إذا رأيتما أويساً القرني فاسألاه أن يستغفر لكما ، يغفر الله لكما » ، فحصل له ذلك خصوصية من الله تعالى .

وربما يتشبث العقل بالسبب ، إذ أكثر عقول الخلق تتعلق به ولا تتعداه ، فيقول هذا بسبب الصحبة، وهذا بسبب بِرِّه بأمه ، ويغفل العقل أو يقصر عن معرفة ما بلَّغهم إلى ما بلغوا ، أو الأمر الذي ساقهم إليه وهو سبق ذلك المعنى ، الذي هو المحبة والخصوصية التي قصرت عنها العقول . وقد بَيَّن ذلك المعنى قول سيدي أبي الحسن الشاذلي نفع الله به في حزبه الكبير ، حيث قال : « واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والإساءة لا تضر مع الحب منك ، وقد أَبْهَمْتَ الأمر علينا لنرجو ونخاف ، فأَمِّن خوفنا ولا تخيِّب رجانا » .

وقوله فيه أيضاً : « فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك وأَقْبَلَ عليك ، بل هو مبذولٌ بالسبق لمن شئت وإن عصاك وأعرض عنك » ، وهذا في إرادته سبحانه الفضل والسعادة لأهل الفضل والسعادة، فلو كان الواحد منهم طول عمره أو أكثره على عمل الأشقياء ، لا بد ما يهديه الله لخصلةٍ من خصال الخير فيغفر له بسببها ، ويبقيه على عمل الخير حتى يموت عليه ، لحديث : « إذا أحب الله عبداً عَسَّلَه أو غَسَّله » بالمهملة والمعجمة ، قالوا : ما معنى ذلك ؟ قال : معناه أن يوفقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت ويموت عليه .

وأما الذين أراد بهم العدل فهم قومٌ آخرون ، فلو كان أحدهم طول عمره أو أكثره على عمل أهل الخير فلا بد أن يسلط عليه كلاليب القدر فتجرُّه إلى خصلةٍ من خصال الشر فيبطل عمله بسببها ، ويُطْرَد ويُخْتَم له بالشر . كما فعل بإبليس طول عمره في عبادة ، ثم لما جاء وقت ظهور رَقْم شقاوته جرَّأ عليه المعصية - وهي إباؤه عن السجود - فأبطل عمله وختم له بالشقاوة ، وكذلك فعل بغيره كالذي

أذن محتسباً أربعين سنةٍ ثم لما قَرُبَ موته دعا بالمصحف ووضع يده عليه ثم تبرأ منه ومما فيه ، نعوذ بالله من الشقاوة وأسبابها ، ومن الحَور بعد الكَور .

فعرف من هذا أن جميع الأشياء إنما هي بالإرادة خيراً وشراً ، والكتبة على ما أريد ، ولكن جعل لذلك أسباباً تدل عليها في الظاهر ، ويجري الجزاء بمقتضاها يجعلها الله سبحانه حجةً لأهل الفضل وحجةً على أهل العدل ، كما قال سيدنا : « **إن الله لا يأخذ إلا بحجةٍ** » .

وربما أنه سببٌ ضعيفٌ لا يدخل في العقل أنه يوصل إلى مقصودٍ ، وإنما هو لهم عذرٌ لما أراد الله حصوله ، كهَزِّ النخلة الميتة في الشتاء لتساقط الرطب ، وفَرَص النَّغَف ، وهو دودة كالتي تكون في التمرة للواحد من يأجوج ومأجوج على عظم خلقته فيكون بذلك هلاكه ، حيث جعله الله سبباً له، وربما لو ضرب بالسيوف والرماح ما أثرت فيه ، وغير ذلك من أسبابٍ ضعيفةٍ جعلها الله أسباباً .

والراسخون في العلم يتعلقون بما تجري به الإرادة ويراعون الأسباب حقها ، وإن عليها عملاً كثيراً لدلالتها على الإرادة ، والغافلون يتعلقون بالأسباب الظاهرة ويغفلون عن مجاري الإرادة . ومجاريها هي الحقيقة ، والأسباب الناشئة عنها هي الشريعة ، وكلٌّ منهما عليه مدارٌ كبيرٌ في محله ، وعلى وجهه وعليه عمدة العبودة .

ويشمل النوعين جميعاً قول سيدنا : « **الخلق مكلوفون لما خُلِقوا له ، لأن الحقَّ أراد بهم وأراد منهم، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، ثم لما قال ذلك ، قال: « **احفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً** » ، لشدة اعتنائه بمعرفة هذا المعنى العظيم ، الذي احتوى على جميع معاني الحقيقة ، وجميع معاني الشريعة ، وهي من بدائع كلماته الجامعة وجوامع كَلِمِهِ التي حَصَلَت له وراثةً من جدِّه النبي ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم ، فلنشرحها بِذِكْرِ قليلٍ مما اشتملت عليه على مقتضى فهمي ، وإلا لو شَرَحَها من كَمُلَت معرفته لبلغت مجلداً :

قوله : « **مكلوفين** » ، أي مقهورين على ما خُلِقوا له من أحد النوعين من السعادة والشقاوة ، ولو عملوا بخلاف ذلك فلا يموتون إلا على ما أريد بهم ولهم منهما حتماً .

قوله: « **لأن الحق أراد بهم** » ، أي من النوعين المذكورين ، فلا محيص لعبدٍ عما أراد له منهما وهو الحقيقة ، « **وأراد منهم** » ، أي طلب من الجميع الحق اللازم للربوبية على العبودية ، وهو الإيمان والطاعة المشتمل عليهما لفظ العبادة ، ومعناه في قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ليعرفوني بحقيقة الإيمان ، ويؤدون لي الطاعة بحقيقة العبادة ، بجميع ما اشتملا عليه من دقائقهما

ورقائقهما وجَلِيِّهما وخَفِيِّهما ، امتثالاً وانقياداً بكمال الإخلاص وهو الشريعة .

« **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه** » ، أي وافق ما أراد به من السعادة ووافق ما أراد منه من العبادة ، فاجتمع فيه الإرادتان ، الإرادة الأزلية بما أريد به ، والإرادة الشرعية بما أريد منه ، فهذا هو السعيد حقًّا الكامل صِدْقاً لتكامل الإرادتين فيه : الأزلية والشرعية ، « **والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي اختلف فيه الحال ، فوافق ما أراد به من الشقاوة ، فعمل عمل أهل الشقاء ثم مات عليه، ولم يوافق ما أريد منه من الحق اللازم للرب على العبد .

وقد أسمع داعي الله لِكِلا الفريقَيْن وبلَّغهم ما طلب منهم ، فأبت الإرادة الأزلية على هؤلاء - أهل العدل - الإمتثال لذلك ، وخصَّصَت به أولئك المتقدم ذِكْرهم - أهل الفضل - فكلاهما أراد بهم، أحداً سعادةً وأحداً شقاوةً ، وأراد منهم الكل عبادةً ، وخصص بها السعداء دون هؤلاء الأشقياء، فأراد بأهل الفضل سعادةً وبأهل العدل شقاوةً ، ولا يفيد في ذلك قُرب نَسَب ولا يمنعه بُعد نَسَب، فقد سعد به البُعداء وفازوا به ، وشقي به القُرباء وحُرموه ، وحَكَم الله سبحانه أن يدخل الجنة عبدٌ حبشي ، ويدخل النار شيخٌ قرشي ، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾، فما ضَرَّ هذه مجاورة عدو الله ، وما نفع أولئك قرابة أنبياء الله ، لاقتضاء الإرادة الإلهية ما اقتضته ، وفي الهمزية في المعنى :

وَسَلَوْهُ وَحَنَّ جِذعٌ إلَيهِ   وَقَلَوْهُ وَودَّهُ الغُرَبَاءُ

فأقاربه أعدى الأعداء إليه ، والأجانب أحنى الأصدقاء عليه ، أتوه من بلادهم البعيدة ، فأسلموا على يديه وبايعوه وواعدوه إن جاءهم ليمنَعُنَّه مما يمنعون منه أنفسهم . وأقرب الناس إليه أخرجوه من وطنه ومسقط رأسه ، وألَّبوا عليه وحاربوه ، وأولئك حاربوا معه وصاروا حماته وكُماته . فافهم بعين عقلك كيف خصت الإرادة الأزلية والمشيئة الإلهية بالفضل والخير من أراده الله بهم ، وخصت بالكفر والشر من أراده بهم ، وهو معنى قوله : « **لأن الحق أراد بهم** » ، وقوله : « **إن الله لا يعطي بالإستحقاق، إنما يعطي بالمشيئة** » .

وقوله : « **لأن الحق أراد بهم وأراد منهم** » ، أي أراد بأهل الفضل سعادةً وهم أهل اليمين ، وبأهل العدل شقاوةً وهم أهل الشمال ، الذين قال فيهم كما سيأتي : « **إن للشيطان في أهل الشمال تسليطاً إلهياً، وتمكيناً قوياً ، وقد طلَبَ أن يُمَكَّن من أهل اليمين أيضاً ، فمنعه الله من ذلك كما قال تعالى : ﴿إِنَّ**

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، ثم قال تعالى : عنه أنه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝﴾» .

قوله : « وأراد منهم » ، أي أراد من كِلَا الفريقين بالإرادة الشرعية الإيمان والطاعة ، ولكن خص بذلك بالإرادة الأزلية أهل الفضل أصحاب اليمين دون الآخرين ، وجعل أهل الفضل على نوعين : الخواص : الذين سبقت لهم منه تلك الخصوصية الكاملة المتقدم ذِكْرها ، وهي المحبة وهم الخواص أهل مقام الرضا السابقون .

والعوام : المذكورين القاصرين عنهم ، وهم العامة أهل مقام الصبر الذين بَيَّن النبي ﷺ أن الناس في اتباع دين الله على مقَامَيْن ، حيث قال : « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » .

وكذلك أراد من الفريقين - أهل الفضل وأهل العدل - بالإرادة الأزلية ، الأعمال الناشئة عن إرادته ذلك لهم ، حيث قال : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، المبلِّغة لهم إلى ما أراد لهم وبهم، القائدة لهم إليها ، فإن كانت صالحةً فهي حقيقةً وشريعةً وسعادةً مبلِّغة لهم إلى ما أراد لهم وبهم من درجات السعداء ، وإن كانت طالحةً فهي حقيقة وشقاوة مبلِّغة لهم إلى ما أراد لهم وبهم من دركات الأشقياء . فإرادته سبحانه هي الأصل في كل الأشياء ، والأعمال كلها ناشئة عنها بحسبها فأراد بقومٍ السعادة وأعمالها وما تؤدي إليه عند ختمها وإن خالفت قبل ذلك ، وأراد بقومٍ الشقاوة وأعمالها وما تؤدي إليه عند ختمها وإن خالفت قبل ذلك ، وإرادته سبحانه الأمرين للفريقين هي الحقيقة ، وهو معنى : « أراد بهم ولهم » ، وتلك الأسباب الناشئة عنها المبلِّغة لهم إلى المراد ، فإن كانت صالحة فهي شريعة موافِقة للحقيقة تم بها قوله : « أراد بهم وأراد منهم » ، وهو السعيد الذي وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والقائدة لفاعلها إلى خير الدارين . والمخالِفة مجرَّد حقيقة قائدة لما أراد الله له وبه من شر الدارين .

ويصدق المعنيان على قوله : « أراد بهم ومنهم » ، أي من سعادةٍ وشقاوةٍ وأعمالهما المبلِّغة لكلِّ ما أريد به وله من خيرٍ وشر . ولكن سيدنا حيث أنه مُقامٌ في مَقَام الدعوة إلى الخير وتجنب الشر ، ما قصد بقوله : « ما أراد منه » ، إلا عمل الخير الموافِق للشريعة فقط ، فهو المراد بالسعيد في قوله ، وأما الآخر وإن وافق ما أراد به وله من الشقاوة وعملها ، فليس مراده ، وإن شمله معنى قوله : « أراد بهم وأراد منهم » ، بأن أراد من كل من الأعمال ما يبلِّغه ما أراد له من الأحوال شقاوةً وسعادةً . فافهم هذا المعنى الدقيق ، فقد اشتبه على ناسٍ من الأنبياء ، وسألوا الله عنه فأجابهم بقوله : « لا أسأل عما أفعل » ، كما سيأتي ذِكْره ، وهو من بحر القضاء والقدر العميق الذي من دخله غرق فيه إلا إن نجاه الله .

وقال سيدنا : « **مسألة القضاء والقدر لا تتضح إلا في الآخرة** » ، وقد أوَّل العلماء قوله تعالى : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ ، أي عباده المضافين إليه ، الذين قال فيهم : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ .

وكلام سيدنا كله من أوله إلى آخره يدور على هذين المعنيين الأصل وفرعه ، كما قال في وصف العارف في القصيدة :

ذِى شَرِيعَـةٍ وَحَقِيقَـةٍ جَمَـعَ الْفَـرْعَ وَأَصْلَـهُ

وقوله : « **ذي** » ، أي صاحب شريعة وحقيقة ، كما قال في وصف القطب :

الشَّرْعُ سِيرَتُهُ الحقِيقَةُ حَالُهُ وَمِـنَ الْعبُـودَةِ بِالمقَـامِ الحافِـلِ

ويعني « **بسيرته** » ، يعني عمله الظاهر على جسده على القانون الشرعي ، « **وحاله** » ، أي الباطن وهو الحقيقة .

فالشريعة الجريان على ما أَمَرَ الله فيما بَيْنَهُ وبين ربه وبَيْن الخلق ظاهراً ، والحقيقة اعتماده بقلبه على ربه ينتظر مواقع القضاء ، وشأنه الرضا والتسليم فيما يكره طبعاً ، والشكر والحمد في محبوب الطبع مع القيام بما يلزم لله ظاهراً وباطناً ، والشريعة جسدٌ لأنها أعمال الجسد ، والحقيقة روحها ، إذ لا ينفك الجسد عن الروح ولا الروح عن الجسد .

وجميع كلامه إشارةٌ إليهما ، وتبيينٌ لهما ودعوةٌ إليهما ، فقوله : « **أراد بهم** » ، هو الأصل والحقيقة ، وقوله : « **أراد منهم** » ، هو الفرع والشريعة .

وإذا كان الحقيقة – وهو المنسوب إلى الله – هو الأصل كالإيمان بالله ، والشريعة وهي الأعمال كالفرع ، فانظر هل تصح الأعمال دون الإيمان ؟ لا تصح حتى يتقدمها فتصح بعده ، كذلك لا يصح جسد الشريعة إلا مع روح الحقيقة وبهذه المعاني السابقة .

قال رضي الله عنه : « **رُبَّ قليلٍ كثَّرته النية ، ورُبَّ كثيرٍ قلَّلته النية** » .

أقول : أي إذا صلحت النية وكَمُلَت تلك الأسباب المتقدم ذِكْرها كلها سبقت الأعمال كما سبق الدرهم الواحد مائة ألف ، أو ببعضها سبقت بقدره ، فإذا صلحت النية نَما العمل وكفى اليسير منه ، وإذا ضعفت هفا ولم يكف الكثير منه ، كما جاء عن الله سبحانه في وصف هذه الأمة الكريمة لبعض الأنبياء - أظنه سيدنا موسى عليه السلام - قال تعالى : « يرضون مني بالقليل من الرزق ، فأرضى منهم بالقليل من العمل » ، وإنما يرضى بقليل الرزق خواصها ممن سبق لهم من الله تعالى ذلك المعنى من المحبة ، دون عوامها فإن نياتهم قَلَّلت أعمالهم ، إذ ليس يقنعون بقليل الرزق ، حيث لم يكن لهم ذلك المعنى كالآخرين فافهم .

فإذا ثبت أن الإرادة الأزلية هي التي قدمت وأخرت ، وبها السبق والتأخر في الأعمال ، وأن عليها مدار كل شيء ، وهو على حُكْمِ ما جرت به وحَكَمَتْ به على كل واحدٍ من خيرٍ أو شرٍّ ، وذلك هو القضاء وهو حكم الله بوجود الأشياء خيراً وشرًا ، ثم جعل لكل شيءٍ صفةً ووقتاً ، ليجري الأشياء دائماً في ممر الأوقات والآناء صفةً ووقتاً ، لا تتأخر لحظة عن وقتها ، ولا تتقدم ولا تختلف عن وصفها، وهذا هو القدر .

والقضاء على نوعين : محتوماً ومعلقاً . والمحتوم سببه أيضاً محتوم ، ويكون سببه سواء كان معتاداً: كخلق الولد من بين الأبوين ، أو غير معتادٍ : كإيجاد موجودٍ دون أبوين كآدم ، أو دون أبٍ كعيسى وفِعل ذلك في كل أمرٍ خارق للعادة من معجزة لنبيٍّ أو كرامة لولي . وسبب المحتوم محتوم مثله ليتحقق به وقوعه ، وسبب دفع المعلق أيضاً محتوم لا بد منه ليتحقق دفعه به .

قال سيدنا : « **من العجائب أن الإنسان قد يصيبه الداعي إلى الهلاك ، ولكن حيث لم يقدر ذلك عليه لا يضره وإن عَظُمَ السبب ، وقد يصيبه السبب الضعيف جدًا فيضره ، لأنه مقدَّر عليه** » ، ومرة قال : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها ، فترى أن الأسباب تقع كثيراً فلا يكون الشيء بعدم حضور وقته ، وقد يكون أدنى سبب فيكون الشيء** » ، يعني فلا يكون الشيء إلا بحضور سببه مع حضور وقته وهو القدرة ولو هو يحصل في حكم القضاء فافهم .

ولا بد في المحتوم من سببه ووقوعه به كائناً ما كان ، والمعلَّق لا بد من سببٍ يمنعه ويرده ، كالصلاة الخمس محتومةٌ لا علاج في ردِّها وسببها افتراضها ، والخمسون قضاؤها معلَّقٌ فإجراء طَلَبِ التخفيف سبباً لردِّها .

ووقوع النبي يونس في بطن الحوت قضاءٌ محتومٌ ، وإجراء سببه وهو الإستفهام حتى وقع ، وإبقاؤه

في بطنه إلى يوم البعث قضاءً معلقاً ، جعل التسبيح سبب رَدِّ ذلك القضاء المعلق ، قال تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وقس على ذلك جميع الأشياء ، فهذا مثالٌ يبين المعنى في هذه المادة في كل أمر ھ .

قال : « إن الله لا ينظر إلا إلى هَمِّ الإنسان ونيته ، فمن كان هَمُّه لله ، وإن كانت أفعاله على خلاف ذلك ، فيوشك أن تتبع الهم ، ومن كان يظلم ويعصي وهَمُّه المعاصي ويتلفظ بالذِّكر ، فلسانه حجة عليه ، فانظر إلى الرجل من الصالحين كأن قائلاً يقول له من قِبَل الله : اعطني قلبك وهمك ، واترك جوارحك وظاهر عملك فلا يمكث أن تتبعه جملته . فمن تعلقت همته بالله وإن كان غير مرضي العمل في جوارحه ، فإنها تصلح ولا بد ، ومن كان عمله في الظاهر طاعة ، وهَمُّه خلاف ذلك تبعته الجوارح لا محالة ، ولهذا قال النبي ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم » ، قال : « لأن النية قلبية لا يتطرق إليها الرياء ونحوه ، بخلاف أعمال الجوارح » ھ .

أقول : يعني موضع نظر الله تعالى قلبه ، الذي هو محل النية والإخلاص ، وأما الجوارح الظاهرة فلا حُكْمَ لها إلا بما اقتضته النية طابت أو خَبُثَتْ ، لأنها تابعة لها وثوابها وجزاها أعظم من جزاء الأعمال ، وخبثها أبلغ من خبثها ، والقلب بيت الرب الذي قال سبحانه : « ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن » ، قال سيدنا : « **وُسع معرفته ، وحمل الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض** » ، ولهذا صار عمله أبلغ من أعمال الجوارح بأضعافٍ ، وقد ذكر الإمام الغزالي في حديث : « يموت الإنسان على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه » ، أن معناه أن المراد بقوله: « ما عاش عليه » ، أي ما كان الغالب على قلبه في حياته ، وما هو أكبر همه في مدة عمره ، لا ما كان أكثر عمله ، ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه ، فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ، ولا ينجو ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ھ .

قال سيدنا : « لأن أعمال القلوب أبلغ من أعمال الجوارح ، لأنه قد يحصل الثواب على مجرَّد النية ، وإن لم يقترن بها عملٌ ولا عكس ، وكذلك القول في ضده كما فصَّله الحديث : نية المؤمن خيرٌ من عمله . وحديث : من هَمَّ بحسنةٍ فعملها ، كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإن هَمَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملة » ھ .

قال : « أي منعه الخوف من الله مع القدرة عليها ، فإن منعه العجز فعلى حسب نيته ، فإن كان

عاجزاً عن ذلك ولم يتمكن منه وقد علم الله صِدقه ، كتبت كما ذكرت » .

قال - بعدما خرج إلى الضيقة لصلاة العصر يوم الإثنين تاسع عشر جماد أول سنة ١١٢٨ - لرجلٍ مسافرٍ : « **الله الله في الطاعة ، الله الله في الطاعة - هكذا مرتين - الله الله في العمل الصالح والنية الصالحة، فإذا لم تقدر على العمل أو لم يتيسَّر لك فلا تترك النية ، فإنها أسهل من العمل لمن وفقه الله ، ويحصل بها ما لا يحصل بالعمل ، لأن العمل فيه شروط ، ويحتاج إلى الإخلاص ، وله عوارضُ تبطله ، والنية سالمة من جميع ذلك** » ، فقال الرجل : « النية أشد من العمل ، فقد يقدر عليه دونها » ، **فقال سيدنا** : « **إذا وفَّقَ اللهُ سَهُلت ، حتى يكون في عملٍ واحدٍ نيات كثيرة** . وقال بعضهم : نحن مغبونون في النية » هـ .

قال : « **المخطيء في الطاعة لا يؤاخَذ ، لأن الله رفع عنه الخطأ ، وهو كفاعلها على وجهها ، بل يثاب على قصده . والمخطيء في المعصية كالعاصي ويأثم على قصده ، لأن المدار على القصد لا على نفس العمل** » هـ .

أقول : يعني أنه إذا فعل طاعة يظنها معصيةً صار مأثوماً بنيته وإن كانت طاعة بخلاف ما ظن ونوى فِعْله ، وإن فَعَلَ معصيةً يظنها طاعةً فيثاب على نيته وإن خالفها العمل . فتجري عليه الأحكام على ما نوى لا على ما عمل ، ويُجزَى على حسب ظنه وقَصْدِهِ لا بها في حقيقة الأمر ، لكن إن علم ببطلان عبادةٍ لازمةٍ فيجب عليه قضاؤها ولا إثم عليه ، ويثاب على حسب ظنه وقصده - وافهم ذلك مما نذكره عن قول الامام الغزالي الآتي - وكذلك إذا فعل ما يظنه صواباً فبان خلافه فلا يأثم بذلك ، كمن صلى يظن أنه على وضوءٍ فبان حَدَثُه أثيب على نيته وعلى قراءته ، وإن كانت صلاته باطلةً ويجب عليه قضاؤها . وقد ذكر هذا المعنى الإمام الغزالي في « الأربعين الأصل » حيث قال : « من جامَعَ امرأةً أجنبيةً يظنها زوجته فلا يأثم ، ومن واقع زوجته يظنها أجنبية أَثِم ، فالإثم وعدمه متعلقٌ بالإعتقاد والنية فحسب ذلك يجزى ، وما أُمِرتَ بأن تصلي وثوبك طاهر ، بل أن تصلي وتعتقد أنه طاهر ، وإنك غير متعبدٍ بما هو في نفسه حلال ، بل بما هو في اعتقادك حلال » انتهى .

وسيأتي قول سيدنا : « **نحن ما نعطي الناس إلا على قدر نياتهم ولا يخيبهم الله إما أن يعطيهم على قدر نيتهم أو فوقها أو دونها ، وأما نحن فلا نرى أنفسنا أهلاً لشيءٍ وفي عدم رؤيتنا لشيء قطع التبركات** » ، وقوله : « دونها » ، يعني دونها إن ضعفت نيته بشيءٍ من الموانع المقللة ، كما قال : « **رُبَّ كثير قلَّلته النية ، ورُبَّ قليل كثَّرته النية** » هـ .

قال : « **كل عملٍ يعمله الإنسان لله ، يعلم من نفسه أنه لم يعمله إلا لله ، فلا عليه بأسٌ من خواطر**

السوء » ، ومرةً قال ما معناه : « إن الخواطر السوء لا نعدها شيئاً ، ولا يؤاخذ الله العبد بها لأنها ليست كلاماً له ، إنما هي كلامٌ للشيطان » .

قال : « من ادعى أن له نيةٌ صالحة ، فانظر إلى عمله ، فكل عملٍ يدل على النية ، فإن صلح عمله دَلَّ على صلاح نيته ، وإن كان فاسداً دَلَّ على فساد نيته » هـ .

أقول : يعني إن ادعى صلاحها مطلقاً فَعَمَلُهُ يَدُلُّ عليه كما ذَكَر ، لأن الأعمال الصالحة تدل على صلاح الإنسان ، لأن الظاهر عنوان الباطن ، فإذا صلح ظاهره بالأعمال الصالحة دلَّ على صلاح باطنه بالنيات الصالحة ، وهذا مع الدوام على العمل والإستقامة دون التطور مرةً ومرة ، فإن ذلك لا يدل على شيء . وإن ادَّعاها في عملٍ مخصوصٍ نظر إلى صلاحه وفساده ، فكلٌّ من الحالين يدل على مثله . وصلاح العمل أن يكون موافقاً للشرع ظاهراً ، وفساده أن يكون مخالفاً لظاهر الشرع ، هذا في الظاهر . وأما في الباطن فإن دلَّت القرائن على أحد الأمرين ، أو أقرَّ هو بأحدهما حَكَمْنَا به ، وإن لم يتبين ما يدل عليها وجب حُسْن الظن موافقةً للظاهر ، وفَوَّضنا أمر باطنه إلى الله ، هكذا سمعته بمعناه من سيدنا .

فما دليلٌ أدل في ذلك من أمر المنافقين ، وقد أخبر الله نبيه عنهم وعرَّفه بهم واحداً واحداً ، وخَصَّ ﷺ بسِرِّ ذلك حذيفة وأطلَعَهُ عليهم ، فكَتَمَهُ ولم يُخبِر به أحداً ، حتى إن سيدنا عمر سأله : « هل أنا منهم ؟ » فعمَّى عليه ، وسأله عن ذلك مراراً ولم يُخبِره ، حتى قال له مرةً : « سألتك بالله ، هل أنا منهم ؟ » ، فقال له : « لستَ منهم ، ولا أزكِّي بعدك أحداً أبداً » ، ومع ذلك أجراهم رسول الله ﷺ في الظاهر في الدنيا على حُكْمِ المسلمين ، حتى إن عبدالله بن أُبَي بن سلول وهو أكبرهم ورئيسهم وأشدهم نفاقاً ، حتى إنه كان سبب الوقوع في الإفك ، وهو أول من تكلم به ، فتبعه من تبعه من الناس في الكلام فيه ، وقال الله تعالى فيه : ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، يعني بالذي تولى كِبْره : ابن أُبَي ، أي الذي أول من خاض فيه وأشاعه . وكان ابنه عبدالله بن عبدالله من كبار الصادقين وفضلاء الصحابة رضي الله عنهم ومن أهل بدر، لما سمع منه كلاماً أغضب به النبي ﷺ قال : « يا رسول الله ائذن لي في قَتْل أبي، إن كُنتَ آمِراً أحداً بِقَتْلِهِ فأنا أولى بذلك ، ولا آمن نفسي إذا رأيتُ قاتِلَ أبي » ، فقال النبي ﷺ : « لا، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ، فإذا كانوا مع شدة نفاقهم وكفر قلوبهم وبواطنهم حُكْمُهُم في الدنيا حُكْم المسلمين ، ولا أحد يتعرض لهم بسوءٍ من قولٍ أو فعلٍ ، فكذلك كل من ظاهِره الإسلام والطاعة لا يلحقه بشيءٍ من ذلك في الدنيا ، فإذا وقف بين يدي ربه في الآخرة فهو أعلم به ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾.

وقد بيَّن الله تعالى جزاء المنافقين بأنهم في الدرك الأسفل من النار ، فكذلك من أجري في الدنيا على حُكْمِهِم ، حتى إن بعض الأحكام تجرى في الظاهر في الدنيا - على قول بعض العلماء - لا على

حُكمِهم ، وإن خالف في ذلك من اتبع الهوى وتجنَّب الهدى ، كبيع العُهدة المسمى بالتطوع وبيع الناس ، فيجري حُكْمُهُ في الدنيا حُكْم البيع ، وإن خالف أمره في الآخرة بأن جوزي مجازاة آكل الربا الصريح الذي لا خفاء فيه ، كما حَكَمَ الله على المنافقين في الآخرة بأنهم في الدرك الأسفل من النار مع ما ثَبَتَ لهم من حُكْم الإسلام في الدنيا ، فإن أحكام الدنيا منوطةٌ بالظاهر ، وأحكام الآخرة منوطةٌ بالباطن .

ولا يسلم من شر الدارين ويفوز بخيرهما إلا من أصلح الحالَيْن ، وتبع الحق في الحُكْمَيْن ، فإن الدنيا محل التلبيس والإشتباه والآخرة محل الحقائق ، وحصول الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر حقيقةً ، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، فلو لبس على الخلق في الدنيا بحل الأسباب والإستبباب فلا يمكن ذلك بين يدي رب الأرباب ، فإن أحدٌ عمل ما يخالف الشرع وادعى صلاح نيته فهو كاذبٌ وعمله يكذب دعواه ، ويشهد عليه بخلاف ما ادعاه هـ .

قال رضي الله عنه : « **إذا عملتَ خيراً فانْوِ العَوْدَ إليه ، فإن لم يتفق لك العَوْد فتُثَاب على نيتك ، وكذلك إن لم تكن قد عملته فانْوِه** » هـ .

أقول : وهذا كما كان هو رضي الله عنه يترجَّى العَود إلى مكة وحج بيت الله ويتمناه ويتشهَّاه ، كما يأتي ذِكْره لذلك في مجالس متعددة ، ثم قال بعد ذلك : « **كنا راجين العَود إلى الحرمين إلى أن ضعفت منا القوى ، ثم بعد ذلك لا** » ، ففي تلك الأعوام كلها قبل ضعف قواه هو إن شاء الله بنيته معدودٌ من جملة الواقفين ، وهذا تمثيلٌ لما قال يُفهِمك معنى ما قال .

ويشهد لهذا المعنى أن جماعةً من الصحابة لم يشهدوا وقعة بدرٍ حَبَسَهُم العُذر، كما قال النبي ﷺ: « إن أقواماً ما سلكنا فجّا ولا قطعنا وادياً إلا كانوا معنا ، حَبَسَهُم العذر » ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، وهم معدودون من أهلها، وضرب لهم رسول الله ﷺ معهم بأجرهم وسهامهم كمن شهدها ، حتى لو حلف حالفٌ بالطلاق أنهم من أهل بدرٍ لم يحنث ولم يقع عليه طلاقٌ . منهم سيدنا عثمان وسعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله فضرب لهم معهم بسهم ، وأشركهم معهم في الأجر وجعلهم منهم . فأما سيدنا عثمان : فكانت زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ في شدة مرض موتها فأمره بالجلوس عندها ، وتوفيت في غيبة أبيها . وأما سعيد وطلحة وأصحابهما : فقدموا المدينة راجعين من الشام مع قدومهم من بدرٍ ، فتأسفوا على فوتها أسفاً شديداً .

فضرب لهم معهم وحصل لهم بنياتهم الأجر والغنيمة وعُدُّوا من جملتهم ، فما اختصوا دونهم بفضيلةٍ حتى قول الله سبحانه لهم : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فاختص هولاء الذين غابوا

عنها تقديراً لِحُسْنِ نيتهم ، كما اختص من حضر تقديراً وتصويراً . كل ذلك بحسب ما أراد تعالى لمن أراد ، حتى اختص بهذه الخصوصية الأولاد وحَرَمَ منها الآباء والأجداد بل خَصَّهُم بضدِّها ، كل ذلك بمحض اختيارٍ منه سبحانه ، كما اختص بها عبدالله بن عبدالله بن أُبَي وحَرَم منها أباه ، وجعله في جريدة أهل الدرك الأسفل من النار ، فانظر ما أبرك النية الصالحة وأعظم نفعها ، فإنها من مواهب الله المختصة لمن اختصه بها ﻫ .

قال رضي الله عنه : « **قوِّ همتك وارفعها واجعلها لله تعالى ، واخلص نيتك واصلح عملك ، واقصر نيتك على أمرين لا تتعداهما : أن يكون جميع أفعالك وحركاتك وسكناتك وأحوالك ظاهراً وباطناً لله تعالى أو ما هو وسيلةٌ إلى ذلك ، واجعل ميزانك في الآخرة يرجح بما هو لله تعالى على ما هو لنفسك، لتكون ممن** ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾**، ومن ثقلت أمور نفسه على ما هو لله** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾**. والنفس طبعها طبع الماء ، إذا سيَّبتَه إنما يسير إلى أسفل لا إلى أعلى ، ولكن يمضي عُمر الواحد ما قهر نفسه لله ، ولا قام بحقه كما ينبغي منهم ، بل تركوا حقه وراحوا لأمورٍ لا فائدة فيها ، لأن الشيطان قعد لهم على الصراط المستقيم ، فلا يَصِلون إلى الله إلا منه ، فمنعهم منه الشيطان فإذا كان لا يدخل الجنة داخلها ولا يدخل النار داخلها إلا بالصِّكاك لهم في ذلك ، أفيحسبون الأمور سائبة** » ، *ثم قال* : « **معرفة الله خصوصٌ لخصوصٍ . والشيطان لما لعب بنفسه وعلم أنه ليس له توبة ، رجع يلعب ببني آدم ، حتى إنه لم يسأل الله إلا أن ينظره لذلك** » .

ومرة قال : « **قعد الشيطان لكل أحدٍ على طريقه التي يصل بها إلى الله تعالى ، لأنه عدوٌّ ممارسٌ عارفٌ بالطرق ، فجاء لبعضهم في البخل ومحبة الدنيا ، ولآخرٍ في الرياء والكبر وغير ذلك . وكلٌّ من أهل أخلاق السوء هو مُتَّصفٌ بها ويعمل بمقتضاها وإن لم يعرف تفصيلها ويعبر عنها كالضعيف** - أي الفلاح - **الذي يحب أن يكون أحسن من غيره ، وإذا فعل أمراً** - أي من العبادة - **أحب أن يرى ، فهذه الأشياء ونحوها هو الرياء والكبر المجبول عليها . وأما أضدادها كالإخلاص فإنها من ثمرات التوحيد، لا تهتدي العقول إليها حتى جاءت الأنبياء ، وعرفوا الناس التوحيد وثمراتها** - أي ثمرات الثمرات وفوائدها ومنافعها - **وقد يدرك بالعقل الخالق للأكوان ، ولكن لم يهتدوا إليه إلا بتعريف الأنبياء** » .

وتكلم يوماً في أهل الزمان وأكثر ، *ثم قال* : « **إن شهود الزمان فسقةٌ وكذا قضاته وعدوله ، وإنما تُقْبَل فتاويهم وشهاداتهم للضرورة ، وإذا تأملتَ حال العباد فيه ، فضلاً عن غيرهم ، تراهم في كل مباحٍ**

من أكلٍ ونومٍ ونحو ذلك في غفلةٍ ، أين الآداب ؟ أين الأذكار الواردة في هذه الأشياء ؟ هيهات ! ذهب الدين ولم يبقَ منه إلا الرسوم » .

وهذا شاهدٌ لما قدمنا من وصف القضاة والمفتين ، وكون الناس تبعاً لهم في الباطل ، يعني إذا رأوهم مائلين إليه مالوا معهم إليه ، وهذا وصفهم في جهتنا - كما رأينا ذلك منهم في وقائع كثيرة - أن الحكام والوزراء والقضاة والناس معهم يميلون مع المبطل ، والمحِق لا ناصر له منهم .

وكلام سيدنا في أهل جهته ، فصار الناس اليوم في كل الجهات متشابهين في الفساد وقلة الإنصاف، كما أنهم كانوا في الأزمنة الصالحة في كل الجهات متشابهين في الصلاح ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾، فهذا هو الذي جرَّ كل طبقات الناس في كل أرضٍ إلى هذا الفساد ، وإلى ما وصفهم الله به ورسوله من بيع أحدهم دينه بعرضٍ يسيرٍ من الدنيا .

وإنما سماه بائعاً لدينه لكونه أخذه على غير قانون الدين كرباً ونحوه ، وإنما وصفه بالكفر لكونه مع ذلك يعتقد حِلَّه ، كما ترى من اعتقادهم حِل معاملاتٍ باطلةٍ فمتى طرأ عليه أَخَذَه ، كذلك مع اعتقاد ذلك يصبح مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً في صباح يوم أو مساه طرأ عليه الكفر ، كما ذكر ، فإن من اعتقد الحرام المُجْمَع عليه حلالاً صار كافراً لمخالفته إجماعَ أهل الدين الذين أجمعوا عليه على قانون الدين ، لقوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، ولا يكون هذا إلا في حق الكافر .

ولو أجمعوا مثلاً تقديراً - وهو فرضٌ محالٌ - على أمرٍ مخالفٍ للدين وليس هذا بواقعٍ قط ، فيجب على من اتبع الحق أن يخالفهم ولا يعتد بالإجماع فيه ، ولكن لا يمكن هذا من كل الوجوه ، ولو أمكن في وقتٍ ما مثلاً ووقع فيه ، فلا بد في بسيط الأرض من هذه الأمة من مخالفٍ لهم ولو واحداً ، تصديقاً لخبر : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ، ولإخبار الأنبياء والملائكة للنبي ﷺ وتبشيرهم له حيث قالوا: « أبشر يا محمد فإنا نرى الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة » ، أي دائماً ذلك فيهم لا ينقطع عنهم أبداً إلى يوم القيامة ، ويصدِّق ذلك : ولو لم يَبْقَ منهم في كل زمانٍ ومكانٍ إلا واحد . كيف وقد ثبت في الحديث الصحيح قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قائمةً على الحق لا يضرهم من ناوأهم ، حتى يأتي أمر الله » ، وفي روايةٍ : « ليجدنَّ ابن مريم طائفةً من أمتي هم مثل حوارييه ، قائمين على الحق لا يضرهم من خذلهم » ، ومن كلام سيدنا علي : « اللهم لا تُخلِ الأرض من قائمٍ لله بحجةٍ ، إما ظاهرٌ مشهورٌ أو خاملٌ مستورٌ » .

فهذه العصابة لم يزالوا متمسكين بالحق والدين وقائمين عليه مع فساد الناس وضعف الدين ، وإنما

انجَرَّ إلى استحلال الربا والحرام من انجَرَّ إليه بسبب شدة محبة الدنيا المفرطة مع رغبتهم في حصولهم ، والمشتهر في ذلك لا يبالي بعذرٍ يتستر به من حيلةٍ في جوازٍ وحياءٍ من الناس كالظلمة ونحوهم ، حتى أناس من هذا القبيل ينتسبون إلى العلم والدين ممن يزعم العلم والتصوف لا يبالون بالحرام ، وما الحرام عندهم إلا ما حُرِمُوه والحلال ما حَلَّ بأيديهم ، وقد كان المنتسبون إلى ذلك زاهدين بقلوبهم في الحلال وتاركيه من أيديهم ، فانظر الفرق بين أهل الزمان الأول وبين أهل زمانك لتعلم صدق كلمة سيدنا : « **انقلبت الأشياء اليوم عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها** » .

وآخرين من الناس في محبة الدنيا والتَّهافت عليها كالأولين ، إلا إنهم يرون أنفسهم منسوبين إلى علمٍ وصلاحٍ فيستحون أن يُعرفوا بذلك ، ويودون ما يسترهم عن التظاهر بأخذ الحرام ، فطلبوا عذراً يسترهم عن الناس وما راعوا جانب الله يستحون من الناس ولا يستحون من الله وهو معهم ، وحجةً يحتجون بها بأنهم إنما أخذوا حلالاً ، فالتجأوا إلى التَّحَيُّل لاستحلال الربا والحرام بما سمعوا عمن هو مثلهم وتحيَّل لهم وأفتى لهم بأن الحيلة في الربا جائزة ، وخالف بقوله هذا قول أهل الحق أن الحيلة في الربا من الربا . ولا حجة لهم إلا لما رأى النبي ﷺ الناس يبيعون الصاعين من التمر الرديء بصاعٍ من التمر الطيب ، فنهاهم عنه وقال لهم : « هو الربا بعينه ، ولكن بيعوا الصاعين بدرهمين ، واشتروا بهما الصاع من الجيد » ، فامتثلوا وعملوا وزعموا هؤلاء أن هذه حيلة واغتروا بها في حِيَلٍ كثيرةٍ في وجوهٍ شتى من الحرام ، ويغطون عليه بتراب حِيَلٍ باطلة اضطرتهم إلى اعتقاد حِله ، فكفروا بسبب ذلك كما وُصِفوا .

فانظر الآن ضرر قول من قال بجواز الحيلة ، ما أشد ضرره على المسلمين ، ولو رأى قائلُ ذلك حِيَلَهُم التي يتعاطونها بسبب قوله وضلالهم عن الحق به ووقوعهم في الباطل لأنكرها وأفتى ببطلانها، فما ينفعه وقد مهَّد له في قبره مهاداً يضره في معاده لا حيلة له في رده ، وكل ذلك نصيبٌ مكتوبٌ لمن كتب له لا محيص له عنه ، وهو شاهدٌ لقوله : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » ، فإذا كان الزمان اليوم مجرداً لهذين الصنفين من الناس ، فمن يتظاهر بأكل الحرام ولا يبالي، ومن يتحيَّل على تحليل الحرام بالحِيَل الباطلة الفاسدة التي لا تفيده إلا زيادة غضبٍ من الله وشدة سخطٍ ومَقْتٍ ، فما ظنك بفساده وقلة الخير فيه وقلة الحق أو عدمه وعدم اتباعه ، لأنهم الأكثر من عمّاره ، ومن تترتب عليهم الأحكام بين الناس ، وإن كان أولئك موجودين في خاصتهم لا تتعلق بهم أحكامٌ ظاهرةٌ من شعار جمعةٍ وجماعةٍ وأحكام معاملةٍ فإنهم غرباء ، والغريب لا يتعلق به وجوب جمعةٍ ولا جماعةٍ ، وإنما هم إشارة إلى أن هذه الآية لا تخلو من خيرٍ فلو ملأوا الأرض كأولئك ، واشتهروا كشهرتهم لتعلق بهم شعار الدين وأحكامه .

وقد سمعت سيدنا نفع الله به في خبر التمر المذكور قال : « **إن ذلك منه ﷺ إرشادٌ لهم وتبيينٌ للحق لا تعليماً لهم للحيل** » ، نعوذ بالله من نِسْبة الحيلة إليه ﷺ ، فإن الحِيَل جَرْيٌ مع الباطل ، وإنما هو ﷺ مرشدٌ للحق ومُبَيِّنٌ له .

وقد مَرَّ هذا الحديث على سيدنا في الدرس ، في قراءة من كان يقرأ في كتاب « النصائح الدينية » - من مؤلفاته - فلما ذَكَرَ بيع الصاعين بالدرهمين قال : « **لكنه يقبضهما ويشتري بهما الصاع من الجيد، وإلا صار مثل هؤلاء الفسقة** » ، يعني إذا باعهما بالدرهمين ثم شرى بالدرهمين وهما عند صاحبهما وما قبضهما من عنده صاعاً من الجيد ، فهذه حيلةٌ فكأنه إنما أعطاه الصاعين بالصاع ، فانظر إلى عمق اطلاعه في معرفة العلم وكُنْه الورع والإحتياط هـ .

وفي العلم ومعرفة حقيقة الدين ، *قال رضي الله عنه* : « **أمور الدين كالبيوت ، لا يتم بناء القصر إلا بعد إحكام الأساس ، كذلك الدين أساسه كلمة التوحيد والتصديق بها ، ثم الأحكام الواجبة ثم قراءة القرآن ، ثم ما يُندَب بعد ذلك ، قال تعالى** : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ، **فالتأسيس بإثبات العقائد والنيات والصدق ، ثم البناء يتم لك بعد ذلك** » ، *ثم قال* : « **وخذ أصل العلم الذي لا بد لك منه في نفسك ، ولا تفتن الناس بطلب العمل بلا علم** » هـ .

أقول : قوله : « **ثم قراءة القرآن** » ، يطلق هذا اللفظ على العمل بالقرآن لا بقراءته بلا عمل به ، كما قال سيدنا عمر لما أقام الحدَّ على ابنه الملقب أبو شحمة فمات في الحد - أي وهو يضربه الحد - قال له أبوه : « يا بني إذا لقيت محمداً ﷺ أقرئه مني السلام ، وقل له : هكذا تركت عمر يقرأ القرآن » ، يعني يعمل به ويقيم حدوده .

وحَضَّ سيدنا يوماً على طلب العلم ورغَّب في تعلُّم العلم وتعليمه ، *ثم قال* : « **كنَّا سابقاً نسأل عن العالم العامل بعلمه ، فإن لم يكن به عاملاً لم نعبأ به ، وأما الآن فنحن نسأل عن العالم وإن لم يعمل به ، لما رأينا من غلبة الجهل والغفلة عن التعليم ، وعدم الهمة في طلب العلم ، والرضا بالجهل والعمل على مقتضاه ، فإن عمل به فهو الغاية ، وإن لم يعمل فيعلِّم الناس ويهديهم إلى الصواب ، فينتفع به - أي العلم - غيره ، وإن لم ينتفع هو في نفسه** » .

وقال عشية الخميس ١٦ محرم سنة ١١٢٣ : « **ينبغي أن يعرف الإنسان العلم وقواعده ، وبعد ذلك**

إن أراد الله له توفيقاً عمل بذلك وعَلَّم ، وإن لم يرد له ذلك وأراد له الخذلان والعياذ بالله كان على الضد فلا يعمل ولا يعلِّم ، بل ولا يتحقق في معرفة العلم ، وربما اجتنب بعض الجهال أهل العلم ومجالس العلماء ، خوفاً من أن يعرف ما يلزمه العمل به ، يظن أن في ذلك عذراً له ، وهيهات إنما ذلك يزيده تشديداً ومطالبة لأنه أعرض عن أحكام الله علماً وعملاً فهو أشد . وغاية العذر في أشياءٍ تكون لمن رُبِّي في البادية ، وفي بُعدٍ عن أهل الإسلام ، ومن هو مسلمٌ وآباؤه مسلمون ونشأ بين المسلمين أنى له العذر » .

قال رضي الله عنه : « خذ من الطاعة قدراً لا تمل وتضجر منه بعد ذلك ، فإن القلب ما دام وسخاً لا يستلذ الطاعة ، فإياك أن تكثر منها أولاً ما دام كذلك ، فإذا تنور واستلذ بها ، فخذ منها على قدره » هـ .

أقول : وهذا موافقٌ لما في الحديث : « إن الله لا يمل حتى تملوا » ، فخذ من العبادة قدراً تدوم عليه، « فقليلٌ دائم خيرٌ من كثيرٍ منقطع » ، وذكر الشيخ علي بن أبي بكر علوي نفع الله به في شأن صاحب الخلوة قال : « ولا يزال في خلوته مستقبل القبلة ، وأول ما يفعل أن يقتصر على الفرائض في جماعةٍ، ولا يخرج إلا للجمعة والجماعة والسنن الرواتب ، ولا يشتغل بنافلةٍ أياماً قلائل ويلزم نفسه ذِكْراً واحداً، وأولى الأذكار له كلمة لا إله إلا الله ، فإذا سمعها من الشيخ في أول الأمر كان أولى ، فلا يزال - أي مديماً -متمسكاً بهذه الكلمة ، وكلما جاءه وسوسةٌ يفر إلى الله ، فإذا نام وانتبه يجدد الوضوء ويصلي ركعتين ويقعد يذكر ، يكون هذا دأبه ليله ونهاره إلى أن يجد قلبه وتطمئن نفسه ، فعند ذلك ينتقل إلى الإكثار من النوافل ، فإنه ما أمر بلزوم الذِّكر إلا أنه لا يحسن الصلاة ، فإذا أحسنها فنوافله تكون أفضل من الذِّكر » ، انتهى .

قال سيدنا : « الخلوة خلوتان : خاصةٌ وعامةٌ ، فالعامة : هي العزلة عن الناس. والخاصة : هي ما تكون بأمر شيخ مربي أو بنفسه إن كان نجيباً ، ومن شرائطها الإغتسال عند دخولها والصيام ، وأن لا يُدخِل عنده إلا من يحتاج إليه ولا يُكثر الكلام ، والمداومة على الذِّكر . وللذِّكر نتائج يجدها من واظب عليه بوصف الأدب والحضور ، أقلها أن يجد فيه من اللذة والحلاوة ما يستحقر في جنبه كل ما يعرفه من اللذات الدنيوية ، وأعلاها أن يفنى بالمذكور عن الذِّكر ، ويكون ذلك بعد المجاهدة وتصفية القلب ، وفي هذه الحالة قد يتصور له ما يفزعه إن كان ضعيفاً ، ولهذا ما يُدخِلون الخلوة إلا من كان له قوة قلبٍ وثبات جأش ، بحيث لو وَرَدَ عليه من يقاتله لم يَهَبْ منه ، وهذا قد ظهر لبعض أهل الخصوص ، ولكن اليوم لا عاد يساعد الإنسان حتى أعضاءه ، فلو ظهر له مثل ذلك ربما تغير عقله ، فليأخذ على الذِّكر على هذا فهو الأصل والذي درج عليه الصحابة وغيرهم » هـ .

أقول : يعني يذكر على هذه الآداب والأوصاف المذكورة ، وإن لم يظهر عليه شيءٌ مما ذَكَرَ من ذلك الذوق المؤدي إلى الفناء وظهور ما يفزعه ، فإن ذلك هو الذي درج عليه السلف حتى ذموا حال من يقوم حالة الذِّكر ينقز على رجليه ويتبختر . انظر ما ذكره البغوي في تفسير : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ ، وكذلك ذَكَرَ ابن عربي في « رسالة القدس في مناصحة النفس » : « إنه جلس مع جماعةٍ في مجلس ذِكرٍ وكان حاضرهم رجلٌ من أهل الكشف ، وإذا هو يقول: أرى الشيطان الآن دخل في جوف ذلك الرجل .

وأشار إلى رجلٍ حاضرٍ معهم ، وإذا به في الحال قد صرخ وصاح وقام ، وجعل ينقز ويتبختر»، وغير ذلك مما أنكره السلف على من يفعله مع الإختيار وعدم الذوق ، كما ذُكِر عن ذي النون أنه في حالة ذِكرٍ قام وجعل يتحرك ، فقام آخرٌ وجعل يفعل مثله ، فقال له : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾، فجلس وترك ما أراد يفعل .

فلهذا إن سيدنا رضي الله عنه لمَّا عَلِمَ بالأحوال في هذا الزمان ما أَدْخَلَ أحداً الخلوة بل بعَّد ذلك عليهم وقال : « **لا تصلح الخلوة في هذا الزمان لعدم شروطها كأكل الحلال** » إلى آخر ما سيأتي ، ولا دعا أحداً ولا خاطبه إلا بالطريق العامة ، كما سيأتي قوله : « **يحسب الناس أنَّا على الطريق الخاصة وليس كذلك ، وإنما نحن على الطريق العامة** » ، ومرة قال : « **ما سلكنا أحداً على الطريق الخاصة ، ولا سلكناها بين الناس** » ، يعني ما عملنا بعملها بينهم بل ذلك إنما هو بينه وبين الله ، لأنه ما كُلِّفَ أن يدعوهم إليها كما يأتي ذلك من قوله .

وَذَكَرَ في « رسالة المعاونة » أن معنى الحضور في الذِّكر : « **أن يكون القلب حاضراً فيه معنى الذِّكر الذي يجري على اللسان كالتقديس والتوحيد عند التسبيح والتهليل ، وأفضل الذِّكر ما كان بالقلب واللسان** » .

وقال في « النصائح » : « **وإنما تصير العبادة حقيقةً بالإعتياد والمداومة والصبر على المجاهدة والمشقة في أول الأمر ، ثم بعد ذلك ينفتح له باب الأنس بالله ، وحلاوة المناجاة له ، ولذة الخلوة به عز وجل ، وعند ذلك لا يشبع من العبادة والقيام فضلاً عن أن يستثقله أو يكسل عنه ، كما وقع ذلك للصالحين من عباد الله حتى قال قائلهم : إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه بالليل ، إنهم لفي عيشٍ طيب . وقال آخر : منذ أربعين سنة ما غمني إلا طلوع الفجر . وقال آخر : إن أهل الليل في**

ليلهم ، مثل أهل اللهو في لهوهم » .

ثم مَرَّ على سيدنا هذا الكلام من « النصائح » في الدرس في قراءة بعض القراء في « النصائح » ، فقال : « فإذا لم تقدر أن تكون مثلهم فتشبه بهم لعلك أن تُحشَر معهم ، ومن تشبه بقومٍ حُشِرَ معهم ، ومن أحب قوماً كان معهم ، ومن أحب قوماً لا بد له أن يتشبه بهم ، فإذا أحببت قوماً ممَّن كان أحدهم يصلي الصبح بوضوء العشاء ، أو يقرأ القرآن كله في ركعةٍ ، فتشبه بهم بأن تقوم من الليل ما تيسَّر لك ، ولو أن تصلي ركعتين فقد تشبَّهْتَ بهم . ومن أحبَّ قوماً ولم يتشبه بهم فقد أجاب عنه بعض الصالحين فقال : إن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وهم مخلَّدون في جهنم وبئس المصير . وإنما وصلوا إلى التلذذ بالعبادة عندما وصلوا إلى هذه المنزلة ، وكثيرٌ من الناس أكثروا من الصلاة وقيام الليل مدةً ولا بلغوا هذه المنزلة ، لأنه بقيت عليهم شروطٌ ولكن خَفَّ ذلك عليهم ، فإذا بلغها كان شحيحاً بأنفاسه بخيلاً بأوقاته لا يصرف منها قليلاً ولا كثيراً إلا فيما يقربه من ربه » ﻫ .

أقولُ : قوله : « أجاب عنه بعض الصالحين ، أن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وهم مخلدون في جهنم وبئس المصير » ، يعني لعدم تشبههم بهم باتِّباعهم على الإيمان والعبادة وإن قَلَّت ممن خالفهم، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وأما من اتبعهم في وقتهم كالحواريين والأمة التي قال الله فيهم : ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، فهم على حقٍّ وصوابٍ إلا من أدرك محمداً ﷺ ولم يتبعه .

وقوله : « وإنما وصلوا إلى التلذذ بالعبادة عندما وصلوا إلى هذه المنزلة » ، أي لمَّا وصلوا إلى منزلة التلذذ بها تَفَضُّلاً من الله على عبده لا بسعيٍ منه ، ولا أن بمجرد العمل يصل إليها ، كما سيأتي معنى ذلك في قوله لما قال : « ويكفيك ما ضرب الله مثلاً لليهود والنصارى مع المسلمين » .

وقوله : « وكثيرٌ من الناس أكثروا من الصلاة وقيام الليل مدةً ولا بَلَغُوا هذه المنزلة ، لأنه بَقِيَت عليهم شروطٌ ولكن خَفَّ ذلك عليهم ، فإذا بلغها كان شحيحاً بأنفاسه بخيلاً بأوقاته لا يصرف منها قليلاً ولا كثيراً إلا فيما يقربه من ربه » ، أي ما بلغوا منزلة التلذذ بالعبادة ، بمعنى أن الله ما بلَّغهم إياها، وليس بلوغها بسبب كثرةٍ أو عدمه لقِلَّة .

وقوله : « شحيحاً بخيلاً » ، هذان اللفظان لو كانا في أمور الدنيا لكانا مذمومَيْن ومن اتصف بهما إلى الغاية والنهاية ، فلما كانا في أمور الدين كانا من أكبر الفضائل ومن اتصف بهما في غاية الفضل ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾، لا بثمرة سعيٍ واجتهادٍ إلا بمحض الفضل والمِنَّة مِنْهُ سبحانه على عبده فقط ، هذا حقيقته والطلب والإجتهاد والتعرض للنفحات مطلوب .

وهذا هو الفرق بين القلب الصالح والقلب الفاسد ، وانقلابه من الحالة المذمومة إلى الحالة المحمودة كانقلاب النحاس ذهباً إبريزاً خالصاً ، وإنما يكون ذلك بنفحةٍ إلهيةٍ ، وعنايةٍ ربانيةٍ لمن سبقت له من الله العناية ، وجرى له القلم بالسعادة ، لا يحصل بالأماني ولا يُدْرَك بالهوينا ، ولا بنسبٍ وحسبٍ .

تكرم الله علينا من فضله وكرمه ، ورزقنا ما رزقه أحباءه وأولياءه هـ .

ثم ذَكَرَ أحوال أهل الزمان ، *فقال رضي الله عنه* : « **أهل الزمان لا يصلحون للإستعانة على فعل خيرٍ، ولا على ترك شر ، هذا إجمال الأمور ، وتفصيلها يعرفها الإنسان من نفسه بالتجربة** » .

أقولُ : يعني لقلة رغبتهم فيما عند الله مع شدة ما غلب على نفوسهم من شدة الشح والبخل ، لا يسعفونك بأمرٍ تضطر إليه من الإستعانة على القيام بأمر الله من فِعْلِ مأمورٍ أو ترك منهي ، هذا غالباً والحكم على الغالب ، وإلا فالمسلمون لا يخلون من الخير ، لأنه شيءٌ يجريه الله على يد من يشاء ، والغالب على يد من أحب ، فإذا أجراه فلا يمكن الإمتناع منه ، إذ لا مانع لما أعطى ولا مُعطِيَ لما مَنَع، لكن يكثر الخير بكثرة أهله الذين جعلهم الله أهله ، وبإرادته يجريه على أيديهم ويَقِل بِقِلَّتِهِم ، وهذا بالنسبة إلى الزمان والمكان .

وقوله : « **يعرفها من نفسه بالتجربة** » ، يعني بمثالٍ يعرِّفه ذلك ويبيِّنه له ، وذلك بأنك إذا جرَّبتَ أصدق صديقٍ وأقرب قريبٍ قصدتَهُ في حاجةٍ ضروريةٍ ، فانظر كيف يعتذر لك بالكذب وهو يقدر ، فهذه تجربةٌ تعرِّفك بتفصيلها وَعَرَفْتَهَا من نفسك فلا تحتاج بعد ذلك إلى تخصيص فلاناً بالذِّكْر خوفاً من الغيبة ، فاتركهم واستغن عنهم ، فتركهم بقلبك والإستعانة بالله هو العون لك من الله ، فعليك به إن وفقك الله لذلك هـ .

قال رضي الله عنه : « **راحت أعمار الناس بلا شيء ، وسيبوا كُلَّ شيء ، وادَّعوا كُلَّ شيء ، وفاتهم كُلُّ شيء** » هـ .

أقولُ : مراده بكل شيءٍ من الأربعة المذكورة يعني : النفيس من كل شيء هـ .

قال : « **هذا الزمان أهلُهُ كثيري العجائب قليلي الغرائب ، كثيري المثالب قليلي المناقب** » هـ .

أقولُ : قوله : « **العجائب** » : النوادر من الشر التي يتعجب منها لندورها ، و« **الغرائب** » : ما يستغرب من أمور الخير ويستبعد وقوعه في الزمان .

و« **المثالب** » : الخصال المذمومة لكثرتها فيه ، حتى في الأخيار من أهله ، و« **المناقب** » : الخصال المحمودة شرعاً ومروءةً قلَّت جدًّا كالعدم .

وَذَكَرَ بعض الفقراء المتعلقين بأحدٍ من السادة ، فقال بعض الحاضرين من السادة : « ما عاد هم من الفقراء إلا كذا » - كلمة تشعر بنقصهم - ، *فقال سيدنا* : « **كلهم على هذا في صُوَر فقراء وهِمَمُهُم هِمَم الرِّعاع ، وكان الناس بالعكس صورهم صُوَر رعاع وَهِمَمُهُم هِمَم فقراء ، فانظر كيف انعكس الأمر لكن عسى اللطف عسى اللطف ، هذا بسبب النزول فإن الزمان ينزل إلى أسفل ، وما زال الناس في نزولٍ من أعلى إلى أسفل وما بينهما ، فالعلو لأهل العلو ، والسفل لأهل السفل ، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ، كل هذا ليعمر الله بهم الدنيا فكما عمر بهم الدنيا كذلك يعمر الله لهم الآخرة** » .

أقولُ : قوله : « **قال بعضهم** » ، يوضحه قوله الآتي قريباً : « **بنينا أمرنا على ثلاثة أشياءٍ ، الأول .. إلخ** » ، الأول من الثلاثة فتأمله هـ .

قال رضي الله عنه : « **إنَّا لمَّا رأينا حال الزمان وتغيره ، عَقَدْنَا عَقْداً أن لا نكون تحت أحدٍ ولا يكون أحدٌ تحتنا ، إلا أن نأخذه بسياسة العلم والطريقة ، لأن ذلك يسعه ، أو يخرج المهدي فيكتفوا به منا إن أدركنا . وقد قال بعضهم لرجلٍ جاءه يطلب منه الطريق : لا ، بعد ، فإني لم أر قلبي مجتمعاً عليك** » هـ .

أقولُ : قوله : « **عَقَدْنَا عَقْداً** » ، أي عزمنا عزماً .

و « **سياسة العلم** » ، أي يمشه[1] على قانونه ، وزيادةً في ذلك على حُكْمِ ما تقتضيه الطريقة الصوفية من التجرد لله برفض ما سواه ، وإن لم يمكن منهم الإمعان في ذلك وبلوغ الغاية منه ، لكن على حسب الحال والممكن اليوم .

وقوله : « **لا ، بعد** » ، يعني أنه امتنع الطالب أن يأخذ عن ذلك الشيخ ، حيث لم يجتمع عليه قلبه ، وقد شرطوا على الطالب أنه لا ينتفع إلا ممن اعتقد فيه أنه أفضل أهل زمانه ، بالنسبة إلى اعتقاده وإن لم يكن كذلك ، فكيف من لا يجتمع قلبه عليه من اعتقاد أفضليته على كثيرٍ من أهل زمانه هـ .

---

(١) أي يسيِّره .

قال رضي الله عنه : « الناس يحسبون أنَّا ندعو إلى الطريق الخاصة وليس كذلك لأن من كان عند الضيقة لا نطرب عليه : اطلع الغيلة . بل ننزل نفتح له الضيقة ثم نطلعه ، وذلك لأنَّا لم نَرَ من يقوم بالدعوة العامة ، ولو رأينا ذلك وعَلِمْنَا أن فيه كفايةً لكان . إن كان عندنا شيءٌ من الطريق الخاصة فهي مطويةٌ - أي مخفية - ، وإن دعونا أحداً مخصوصاً إلى طريق مخصوصٍ ، ونرى بعض الناس يدعون إلى الطريق العامة ونحن وإياهم عليها ، ولكن دعوتهم إلى مجرد العلم ، ونحن ندعو إلى الخوف من الله والخشية والعمل الخالص ، ونحن مع أهل الزمان كصاحب الحمار الشيبة ، ينخسه كل ساعةٍ إلى أن يقطِّع ظهره من الحكِّ ولا يسير » .

وفي مجلسٍ آخر قال : « لا تظنوا أنَّا على الطريق الخاصة أبداً ، لقلة أو عدم من يطلبها بصدقٍ ، وإنما نحن على الطريق العامة ، طريقة أصحاب اليمين ، وما يدريك لأن هذه طريقٌ إليها ، لأن الطريق الخاصة قيل أنها رُفِعَت ، فإن كان قد رُفِعَت فذاك وإلا فهي مطوية - أي مخفية مستورة - وإن وُجِدَت، لكنا لو رأينا فقيهين وَرِعَيْنِ تَقِيَّيْنِ ، لهما ديانة وأمانة ، وقاما بإرشاد الناس ويأمران بالمعروف وينهيان عن المنكر ، ربما تكلمنا بشيءٍ من الطريق الخاصة مع من هو أهلٌ لذلك للتَّنَفُّس والتَّرَوُّح » .

قال رضي الله عنه - وذلك يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان سنة ١١٢٨ - : « اعمل في هذا الزمان من الخير ما لا يشق عليك ويمكنك المداومة عليه ، فقليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطعٍ ، كما في الحديث : واشكر على القليل يعطك الله الكثير . ولا تنظر إلى مثل أحوال بِشْرٍ والفُضيل وأمثالهما فإن هؤلاء حتى الصحابة رضي الله عنهم لم يعملوا بمثل عملهم ، لكن معهم نور النبوة ، وقد سئل بعضهم عن ذلك فقال : كان الصحابة أكثر إيماناً ، وكان التابعون أكثر أعمالاً .

وأين زمانك اليوم من زمانهم ؟ فإنك في القرن الثاني عشر . ولو بعث اليوم من هؤلاء - أي الصحابة والتابعين - واحدٌ لتعجَّب وقال : ما ظننا أن الوقت يمتد قبل قيام الساعة إلى الآن . والزمان يتناقص من ذلك الوقت إلى الآن ، ولمَّا رأينا الزمان يتناقص وأثر النقصان ظاهراً على أهله ، بنينا أمرنا في الإبتداء على ثلاثة أشياء : الأول : أن لا نَتَحَكَّم لأحدٍ حتى نرى فيه أهلية التحكيم . فلهذا صَحِبْنا كثيراً من مشايخنا من غير أن نَتَحَكَّم لأحد ، بل صُحْبَة مُجَرَّدة كما هي عادة السلف ، صُحْبَة بلا تحكيم، كعادة الحسن البصري وغيره ، كما يقال : لَقِيَ فلاناً وصَحِبَ فلاناً . والثاني : أن لا نُحَكِّم إلا من نراه أهلاً ، فإذا رأيناه متأهِّلاً لذلك وألقى إلينا نفسه منطرحاً حكمناه على مقتضى حاله . والثالثة : أن لا نفيد ولا نستفيد إلا من متأهِّلٍ للإفادة والإستفادة . والناس إذا سمعوا بأحوال الصالحين يظنون أنهم مطَّلِعون على الغيب ، فمتى أرادوا كاشفوا الناس بخواطرهم » .

قال رضي الله عنه : « يقال : الأنبياء يعلمون الغيب من أكثر الوجوه ، والأولياء يعلمونه من بعض

الوجوه . ولا يعلم الغيب كله إلا الله ، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ » .

قال *رضي الله عنه* : « **علوم الغيب تتفرع إلى أمورٍ كثيرةٍ ، وعلم الغيب المطلق هو لله خاصة** » .

قال : « **يقال أن الأنبياء مطَّلعون على الكثير من الغيب ، والأولياء مطلعون على القليل منه ، وأما كل الغيب فَعِلْمُهُ خاصٌّ بالله تعالى** ، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ » هـ .

أقول : ولفظ « ال » آلة التعريف في الغيب للإستغراق الذي المراد به الكل ، أي كل الغيب . ليستثني منه الأكثر الذي هو للأنبياء ، والبعض الأقل الذي هو للأولياء ، والدليل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ، فاستثنى من ارتضى بعدما عَمَّ بالنفي كل أحد .

والرضا يشمل مع الرسول الذي خصه بالإرتضاء من أحسن متابعته من الأولياء ، فاكتفى بِذِكْرِ الرسول المتبوع عن ذِكْرِ الولي التابع ، لدخوله في ضِمْنِهِ بسبب الإرتضاء ، لأن العمل المطلوب لله من العبد حصل من كُلٍّ منهما - أي الرسول والولي - وهو مرضي عند الله فرضيه منهما ورضي به عنهما ، وإن تفاوتت رتبة العمَلَيْن فيشمل الرضا المنصوص إثباته بالإستثناء بعد عموم النفي ، الرسول ومن تبعه بإحسانٍ .

فما حصل للمتبوع بسبب الرضا يحصل لمن أحسن متابعته منه لحصول الرضا لكلٍّ منهما لحسن العمل المرضي الحاصل منهما بتوفيق الله لكل منهما ، فالفضل في الكل منه سبحانه وإليه ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ، فالأصل في كل شيءٍ مشيئته سبحانه .

فإذا كانت الأمور كلها متعلقةً بها فلا يستبعد أمرٌ ما قط ، كما قدَّمنا من أن الخصوصيات من الله سبحانه لا تختص بالأفضل دون المفضول ، فكما اختص الأفضل بالأفضلية بمحض الإختيار والمشيئة، كذلك قد يختص بسبب ذلك من شاء من الأفضل والمفضول بالمزية ، فإذا شاء وقع ما شاء بقدر ما شاء لمن شاء من رسولٍ أو ولي ، ويشهد لذلك قصة سيدنا موسى مع الخضر ، وقول الخضر له : « إنك على عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ الله لم أَعْلَمْه ، وأنا على عِلْمٍ عَلَّمَنِيه الله لم تَعْلَمْه » .

ولما رأى العصفور مَدَّ منقاره إلى الشَّطِّ ليشرب قال له : « يا موسى ، اعلم ما علمي وعلمك وعلم جميع الأنبياء وعلوم الملائكة وعلوم الخلق أجمعين إلى علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من البحر » .
وسيدنا موسى من كبار أولي العزم من الرسل ، والخضر على الأصح إنما هو ولي .

فافهم هذه المعاني ولا تنكِرها ولا تستنكِرها وصدِّق بها لمن مَنَّ الله عليه بها ، فإن التصديق بها لأهلها ولايةٌ صغرى ، فإذا مَنَّ الله بها وحصلت لإنسانٍ فضلاً من الله كانت ولايةً كبرى .

فكلما رأينا وسمعنا من معجزات الأنبياء ، كذلك رأينا وسمعنا من كرامات الأولياء ، فيكفيك العيان عن الخبر ، وللنبي المتبوع الأكثر وللولي التابع الأقل ، ولذلك حصل للولي من الكرامة من جنس ما للنبي من المعجزة ، وقالوا : « كل معجزةٍ لنبيٍّ يكون مثلها كرامةً لولي » ، والمعجزة شاهدة للنبي بصدق دعواه النبوة، والكرامة شاهدة للولي بحسن متابعته لنبيه ، وشاهدة أيضاً بصدق متبوعه وأنه على حق ، ويفهم كل ذلك مما سيأتي من قوله : « **درجة الولاية تحت درجة النبوة** » ، وقوله : « **كل رتبةٍ مِن رُتَبِ النبوة تحتها رتبةٌ مِن رُتَبِ الولاية** » .

وذَكَرَ سيدنا في بعض مكاتباته أنه قد يحصل للمفضول ما لا يكون عند الأفضل واستدل بقصة الخضر ، قال : « **وذلك لِسِرٍّ أراده الله ، وقد يُطْلِع الإنسان عبده وخادمه على ما لم يطلع عليه ولده** » ، وهذا مَثَلٌ شاهِدٌ في الحس ومعتادٌ بين الناس .

والعجب أن أناساً في هذا الزمان لهم ملحظٌ مع من يدعي كمال نفسه ، ويرى في نفسه أنه من أهل التصريف إذا سمعوا هذه المعاني من أن الأشياء بمقتضى الإرادة منه سبحانه في كل أمرٍ ينسبون هذا المدعي إلى أقوامٍ من الأكابر وأن حاله كحالهم ويقولون أن الذي أعطى أولئك أيضاً يعطي هذا .

والمشيئة نافذةٌ في كل شيءٍ ، وما تفطنوا أن من جملة ما أعطى الأكابر دونه إنهم لا يرون أنفسهم شيئاً صدقاً من قلوبهم واعتقاداً في أنفسهم ، وهؤلاء المدعون يقولون ذلك بأقوالهم كذباً على أحوالهم، فيرونهم مثلهم من كل وجهٍ لا يرون في الأكابر زيادةً عليهم ، وهذا من تلبيس الهوى ، « وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة » ولو أزعلوهم بأمرٍ من الأمور يظهر لهم منهم خلاف ذلك ورجعوا عما يزعمون، « ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا » .

ومِثلهم ما سمعت سيدنا يقول : « **إن بعض الناس قال لرجلٍ لا نعده من أهل الإيمان الكامل : إني أعتقد فيك أنك مثل الشيخ عبدالقادر . وهو لا يجيء شعرة في جسده ، ولكن لهؤلاء أغراضٌ تَحمِلهم على الدعوى لهم ، ونحن لا عاد نصدق من يدعي ولا من يُدَّعى له** » هـ .

قال *رضي الله عنه* : « **الأمور الغيبية ما هي إلا إلهامٌ أو أوهامٌ ، ولا يكون فيها قطعٌ ولا يمكن أحد أن يقطع بها ، حتى إن الأولياء إنما يخبرون عنها بالوَهْم ، حتى ربما يخطيء في ذلك ، ولا يمكن القطع المتيقن إلا في اللوح المحفوظ** » .

قال *رضي الله عنه* : « **كلما بَعُدَ ما أخبر به الأولياء من المغيبات ، كان ذلك أعظم للكشف** » هـ .

أقول : أي لأن وقوعه بَعْدَ البُعْدِ كان كَمَن رآه على بُعدٍ ، وإن وقع على القُرْبِ كان كَمَن رآه على

قُربٍ ، فكلما بَعُدَ كان الكشف منه أعظم ، وكلما قَرُبَ كان الكشف دون ذلك .

وقد رأينا مما أخبر هو به أشياء منها ما لا يتبين إلا بعد أربع سنين ، كما ذَكَر مما سنذكره من إشاراتٍ أشار بها إلى موته سنة ١١٢٨ قبل ذلك بأربع سنين ، وأشياء بعد تسع سنين ، وأشياء بعد أربعين سنة، وأشياء ذَكَرَها ونسيناها فوقعت لها وقائع ذكَّرتناها ثم وقعت ، فعلمنا أنها من عجيب إشاراته وبديع كراماته ، وغريب مكاشفاته ومرامي عباراته ، وأشياء وقع فيها أمورٌ خارقةٌ للعادة ، فتبين بذلك أنها من باهر كراماته ، وربما منها أشياء تتوقف على أسبابٍ يَعسُر حصولها جداً ويشق ، بل يكون كالمحال، فتيسرت أسبابها وحصلت تلك الخوارق ، فَعَلِمْنَا أن جميع ذلك من بركاته ، ولا يحتاج في ذلك إلى التمثيل ، فالإشارة تكفي عن العبارة .

حتى إنَّا في هذه الأوقات البعيدة من وقته ، وذلك عام ١١٦٦ ونحوه ، نرى أشياء قد ذَكَرَها وأشار إليها ، كما تَكَرَّرَ منه كثيراً مما يتعلق بالأولاد ، فَذَكَرَ ذلك يوماً في خلوةٍ وحدي ووحده ، ولا تبين لي ذلك إلا بعدما وقع لي ، عرفتُ أن ذلك منه تسليةً لي ، وهو أنه قال : « **الأولاد في هذا الزمان يريدون منك صبراً ، وإلا حرمتهم وأشغلتهم** » ، وقال : « **قيل لفلانٍ - أو قال : لبعض الناس - إن أولادك ما يخافون منك ، فقال : وأنا ما أخاف منهم** » ، وقال : « **إن رجلاً وصى ابناً له في حاجةٍ - أو قال: في أمرٍ يهمه - وحثَّه فيه وأكْثَرَ عليه فيه الكلام ، وظنَّ أنه اعتنى بوصيته ، فقال له الولد : إن كلامك هذا دخل من أذنٍ وخرج من الأخرى ، فقال الأب : أشكل لما إنه دخل ، جعلت أنه ألا ما دخل** » .

وفيما يتعلق بالأولاد له كلامٌ كثيرٌ ، تكلم به في مجالس متعددة ، وسيأتي متفرقاً كل في مجلسه . وكلها ظَهَرَتْ لنا من إشاراته ، وما كنا عرفناها حتى رأيناها على ما وَصَفَ من أحوالهم ، وتحقَّقْنَا أنَّ ذلك منه تعزيةً لنا وتسليةً في ما نرى من أحوالهم ونرجو من الله بَرْدَ الرضا والتسليم . وقد كنتُ عزمت أن لا أعود إلى الحساء ، وأخبرته فقال : « **لا بد لك من الرجوع إلى بلادك ، لا تخلي** » ، ولزَّم عليَّ في ذلك لما كشف الله له أن تكون لي فيها ذرية ، وأنها على ما وصف .

ومن إشاراته أشياء تتعلق بأمور المعاش ، وذَكَر عند ذلك قول الشيخ حسين بافضل له : « **إن بدت** لكم حاجة ، الحذر ما تحكون لي بها » ، فقال : « **قلنا له : إن بدت حاجةٌ تُطلَب من الخلق فأنت أحق بها، وإن قضى الله الحوائج فما بقي كلام** » ، ثم قال لي : « **اعلم هذا ، واعمل عليه** » ، ولقد رأيت ذلك عياناً وما فهمته من إشاراته إلا بعد وفاته بنحو أربعين سنة ، وسيأتي ذلك مفصلاً وممثلاً وغير ذلك كثير .

وعَمَّال[1] تظهر لنا من إشاراته أمورٌ وأشياءٌ ذَكَرَها وحفظناها ، وذَكَرَ منافعها وما بدت لنا إليها

---

(١) أي لا زالت .

الحاجة إلا بعد زمانٍ طويلٍ ودهرٍ بعيدٍ ، كقصة العنبر على ما يأتي في قصة بعض الإخوان .

وأشياء إذا بدت إليها الحاجة وإذا معنا فيها منه كلامٌ ووصفٌ فيما يتعلق بها فتقع بحمد الله على أصوب الوجوه وأحسنها ، وتوافق فيها حصول الغرض المقصود كما ترى في هذا النقل كثيراً منها ، فافهمها أنت بما عندك من الذهن والقريحة فكل هذه محقَّقَة لقوله : « **كلما بَعُدَ ما أخبر به الأولياء من المغيبات ، كان ذلك أعظم للكشف** » ، وإن مكاشفاته من أعظم الكشف .

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي يقول في هذا المعنى : « ما سمعتوه مني فافهموه ، ومالم تفهموه فدعوه واستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة » ، قال ابن عطاء الله في « لطائف المنن » : « وكلام الأكابر مردودٌ على المريدين وقت حاجتهم إليه ، فيظن المريد أنه ما أخذ ولقد أخذ ، ولكن الحكمة بذرٌ ونباتٌ، ووقت النبات غير وقت البذر ، قد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موقوفاً على مجيء سحابةٍ ماطرةٍ ، فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامناً ، فتبقى الودائع مطويةً في العباد حتى تجيء أوقاتها . وبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول : لا حجاب إلا الوقت . وقال داوود بن ماخلا : لسان العارف قلمٌ يكتب في ألواح قلوب المريدين ، فربما كتب في لوح قلبك ما لم تعلم معناه وبيانه عند ظهور إبانه » ، انتهى .

وهو معنى قول سيدنا لما قلت له : « إنا قد نسمع كلامكم ولا نفهم معناه ، فربما نفهمه على غير ما تريدون به » ، فقال : « **اكتبه ، وعادك تعرفه** » ، أي ستعرفه فيما بعد ، ومرةً قال : « **سنبيِّنه لك** » ، أي سيظهر لك معناه على وجهه تسديداً من الله وإلهاماً ، وذلك ببركته وهو معنى نسبته حيث قال : « **نسبته نسبة الكرامة للولي ، حيث إنها مجرد فعل الله ، ربما لا يعلم بها الولي ، ولكن لها نسبةٌ ما إليه ، بمعنى أن الله فعلها إكراماً له** » ، كما سيأتي بيان ذلك في مادة قوله : « **من طرحنا نظرنا عليه لم نفلته** » ، وقال سيدنا : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » هـ .

قال : « **وأخبرنا رجلٌ عن أبيه أنه قال : إذا مات فلان - السيد عبدالله - بقي الناس يضرب جباههم بعضها بعضاً . فقلنا : لا إن شاء الله ، وليس هذا الظن بالله ، بل الظن به سبحانه أنه إذا راح واحدٌ خلفه بدل منه ، قدمٌ على قدمٍ إلى خروج المهدي ونزول عيسى عليه السلام** » هـ .

أقول : وفي هذا رائحةٌ - بل تحقيقٌ - من معنى الأمانة المتقدم ذِكرها ، ويأتي أيضاً حيث قال : « **عندنا أمانةٌ لا يحملها إلا المهدي** » ، ومرةً قال : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، ومرةً قال : « **أو ستون** » ، ومرةً قال : « **أخذنا من الكتاب والسنة ما لا يحمله إلا المهدي** » ، ومرةً قال : « **جمعنا من الكتاب والسنة**

ما لا يحمله إلا المهدي » ، ومرةً قال : « **عندنا من الشيخ عبدالله بن أبي بكر - يعني العيدروس - أمانةٌ لا يحملها إلا المهدي »** .

وصدرت منه هذه الكلمات متفرقةً في أوقاتٍ في مجالس متعددات ، وأَفْهَمَتْ كلها أن هذه الأمانة محمولة عنه لا عن غيره للمهدي ، تتفرق عنه في المذكورين حتى تجتمع كلها للمهدي إن أدركوه ، فإن لم يدركوه تفرقت عنهم عنه في غيرهم وهكذا ، وفي فهمي أنها - أي الأمانة - : مقام القطبية والدعوة إلى الله في مقامي الشريعة والحقيقة وتجديد الدين والله أعلم .

وقد ثبت له مقام القطبية بالدلائل المروية عن المكاشفين بها له ، وبالمرائي الصادقة المحكية ، ومن أقوال العارفين له ذلك كما قدمنا هـ .

قال رضي الله عنه : « **لا تصلح الخلوة والرياضة في هذا الزمان ، لعدم شروطهما فيه ، كأكل الحلال وغير ذلك . ولكن من بنى أمره فيه على ملازمة الفرائض وترك المحرمات ، وما استطاع من نوافل وأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكرٍ ، وإعانة ضعيفٍ ، وإحسانٍ إلى محتاجٍ أو إقامةٍ بمؤنته وما شاكل ذلك ، وثبت عليه حصل له ما حصل لأولئك برياضاتهم وخلواتهم ، وأدرك ما فاته منها »** هـ .

أقولُ : انظر إلى هذا الكلام البديع الذي لا يمكن أن يتصرف فيه إلا من ثبت له ذلك المقام الرفيع، وهو شبيهٌ بما يقال في بعض الأحاديث المروية الثابتة ، أن مثل هذا لا يقال من قبل الراوي .

وسألته : ما السبب في استقواء الشهوات في هذا الزمان أكثر من الزمن السابق ؟ *فقال* : « **لأن أهل الزمن السابق كانوا أقوى يقيناً ، وأكثر حلالاً ، وأقرب عهداً بالنبوة »** .

وقلت له : أي عملٍ يعمل في تقوية القلب ، كعمل الشهوات في تقوية النفس ؟ *فقال* : « **اليقين الكامل ، فإن النفس لا تترك الشهوات إلا لخوفٍ مُزعِج ، أو شوقٍ مُقلِق »** .

فقلت : ما أعز اليقين الكامل ، وأقل وجوده في هذا الزمان ، حتى يكاد يُقَال بِفَقْدِهِ ، وإني مستبعده على مثلي ، *فقال* : « **كم معك أشياء لا تدري بها وأنت تطلبها كما أن الإنسان قد يدوّر إقليده وهو معه »** هـ .

أقولُ : قوله : « **فإن النفس لا تترك .. إلخ »** ، يدل على أن هذين الأمرين : الخوف المزعج والشوق المقلِق ، لا يكونان إلا عن اليقين الكامل .

ومَرَّ في الدرس بحضرته في قراءة من يقرأ في الديوان ، فلما قرأ هذا البيت :

رَاحُ اليَقِــينِ أَعَــزُّ مَــشْرُوبٍ لنــا فَاشْرب وَطِبْ وَاسْكَرْ بِخَيرِ سُلافِ

فقال : « الراح والكأس ونحو ذلك مما يذكر في كلامهم المراد به اليقين » .

قال الإمام الغزالي : « اليقين هو رأس مال الدين ، قال النبي ﷺ : اليقين الإيمان كله . ولا بد من تعلُّم عِلم اليقين ، أعني أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه ، ولذلك قال ﷺ : تعلَّموا اليقين . ومعناه جالسوا الموقنين ، واسمعوا عنهم علم اليقين ، وواظبوا على الإقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قَوِيَ يقينهم ، وقليلٌ من اليقين خيرٌ من الكثير من العمل . وقال ﷺ لما قيل له : رجلٌ حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل ٌمجتهدٌ في العبادة قليل اليقين ، فقال : ما من آدمي إلا وله ذنوبٌ .

ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم ، فتكفَّر ذنوبه ويبقى له فضلٌ يدخل به الجنة ، ولذلك قال ﷺ : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار . وفي وصية لقمان لإبنه قال : يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عاملٌ حتى يقصر يقينه . وقال يحيى بن معاذ : إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً ، فإن نور التوحيد أَحْرَقُ لسيئات الموحدين من نار الشك لحسنات المشركين . وأراد به اليقين .

وقد أشار القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دَلَّ به على أن اليقين هو الرابط للخيرات والسعادات، فإن قلتَ : فما معنى اليقين ومعنى قوته وضعفه ؟ فلا بد من فهمه أولاً ثم الإشتغال بطلبه وتعلُّمه ، فإن ما لا تفهم صورته لا يمكن طلبه . فاعلم أن اليقين لفظٌ مشتركٌ يطلقه فريقان لمعنَيَيْنِ مختلِفَيْن ، أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن الشك ، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقاماتٍ :

الأولى : أن يعتدل التصديق والتكذيب ، ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سُئلتَ عن شخصٍ معينٍ أن الله يعاقبه أم لا ، وهو مجهول الحال عندك ، فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثباتٍ ولا نفي ، بل يستوي عندك إمكان الأمرين ، فيسمى هذا شكًّا .

الثانية : أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ، ولكنه إمكانٌ لا يمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلتَ عن رجلٍ تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقَب أكثر من ميلها إلى العقاب ، وذلك لظهور علامات الصلاح ، ومع هذا فأنت تجوِّز اختفاء أمرٍ موجبٍ للعقاب في باطنه وسريرته ، فهذا التجويز مساوقٌ لذلك الميل ، ولكنه غير دافع رجحانه ، فهذه الحالة تسمى ظنًّا .

الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشيءٍ بحيث يغلب عليها ، ولا يخطر في البال نقيضه ، ولو خطر بالبال لَنَبَتِ النفس عن قبوله ، ولكن ليس ذلك عن معرفةٍ محققةٍ ، إذ لو أحسن صاحب هذا الحال التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز ، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين ، وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها ، إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع ، حتى إنَّ كل فِرْقةٍ تثق بصحة مذهبها ، وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذُكِرَ لأحدهم إمكان خطأ إمامه نَفَرَ عن قبوله .

الرابعة : المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ، ولا يتصور التشكك فيه ، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء ، ومثاله أنه إذا قيل للعاقل : هل في الوجود شيءٌ هو قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة ، لأن القديم غير محسوس ، لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس ، وليس العلم بوجود شيءٍ قديمٍ أزليٍّ ضروريًا ، مثل العلم بأن الإثنين أكثر من الواحد ، بل مثل العلم بأن حدوث حادثٍ بلا سببٍ محال ، فإن هذا أيضاً ضروري ، فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الإرتجال والبديهة .

ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزماً ويستمر عليه وذلك هو الإعتقاد وهو حال جميع العوام ، ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له : إن لم يكن في الوجود قديمٌ فالموجودات كلها حادثة ، وإذا كانت كلها حادثة فهي حادثةٌ بلا سببٍ ، أو فيها حادثٌ بلا سببٍ وذلك محالٌ ، فالمؤدي إلى المحال محالٌ .

فيلزم في العقل التصديق بوجود شيءٍ قديمٍ بالضرورة ، لأن الأقسام ثلاثةٌ : وهي أن تكون الموجودات كلها قديمةٌ ، أو كلها حادثة ، أو بعضها قديمةٌ وبعضها حادثةٌ ، فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب ، إذ ثبت على الجملة قديم . وإن كان الكل حادثاً فهو محال ، إذ يؤدي إلى حدوثٍ بغير سببٍ ، فثبت الثالث - وهو إن كان موجودٌ منه قديمٌ ، وهو ذات الله وصفاته ، ومنه حادثٌ وهو ما سوى الله من أفعال الله التي فيها إيجاد الموجودات - أو الأول .

وكل علمٍ حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء ، سواء حصل بنظرٍ مثل ما ذكرناه أو حصل بحسٍّ ، أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادثٍ بلا سببٍ ، أو بتواترٍ كالعلم بوجود مكة ، أو بتجربةٍ كالعلم بأن المطبوخ مسهِّلٌ ، أو بدليلٍ كما ذكرناه .

فشرط إطلاق هذا الإسم - أي اسم اليقين - عندهم عدم الشك ، فكل علمٍ لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء ، وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف ، إذ لا تفاوت في نفي الشك .

الإصطلاح الثاني للفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء : وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز

والشك ، بل إلى استيلائه وغلبته على القلب حتى يقال : فلانٌ ضعيف اليقين بالموت ، مع أنه لا يشك فيه ، ويقال : فلانٌ قوي اليقين في إتيان الرزق ، مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه .

فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيءٍ وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع ، سُمِّيَ ذلك يقيناً . ولا شك في أن الناس مشتركون في القطع بالموت والإنفكاك عن الشك فيه ، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الإستعداد له ، وكأنه غير موقنٍ به ، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق همه بالإستعداد له ، ولم يغادر فيه متسعاً لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين . ولذلك قال بعضهم : ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت . وعلى هذا الإصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ، ونحن إنما أردنا بقولنا أن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين المعنيين جميعاً ، وهو نفي الشك ثم تسليطه على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم وهو المتصرف » .

- أقول : وهو مراد سيدنا باليقين الكامل المذكور - .

قال الإمام : « وإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا إذا قلنا : أن اليقين ينقسم ثلاث انقساماتٍ: بالقوة والضعف ، والقلة والكثرة ، والخفاء والجلاء . فأما بالقوة والضعف فعلى الإصطلاح الثاني ، وذلك في الغلبة والإستيلاء على القلب . ودرجات اليقين في القوة والضعف لا تتناهى ، وتفاوت الخلق في استعدادهم للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني ، وأما التفاوت بالخفاء والجلاء فلا ينكر أيضاً أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر - أعني الإصطلاح الثاني - وفي ما انتفى الشك عنه أيضاً لا سبيل إلى إنكاره ، فإنك تدرك تفرقةً بين تصديقك بوجود مكة ووجود فَدَك مثلاً ، وبين تصديقك بوجود موسى عليه الصلاة والسلام ووجود يوشع ، مع أنك لا تشك في الأمرين جميعاً إذ مستندهما التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح من الآخر ، لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبِرِين .

وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعلومة بالأدلة فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليلٍ واحدٍ كوضوح ما لاح له بأدلةٍ كثيرةٍ مع تساويهما في نفي الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلانٌ أكثر علماً . أي معلوماته أكثر ، فلذلك قد يكون العالم قوي اليقين في جميع ما ورد به الشرع ، وقد يكون قوي اليقين في بعضه .

فإن قلت : فقد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وخفاه وجلاه بمعنى نفي الشك ، وبمعنى الإستيلاء على القلب . فما متعلقات اليقين ومجاريه ؟ وفي ماذا يطلب اليقين ؟ فإني ما لم أعرف

ما يُطلب فيه اليقين ، لم أقدر على طلبه .

فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين ، فإن اليقين عبارةٌ عن معرفة مخصوصة ، ومتعلقه المعلومات التي وردت بها الشرائع ، فلا مطمع في إحصائها .

ولكني أشير إلى بعضها وهي أمهاتها : فمن ذلك التوحيد ، وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبِّب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط ، بل يرى الواسطة مسخّرةً لا حكم لها ، فالمصدِّق بهذا مؤمنٌ فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقنٌ بأحد المعنيين ، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبةٌ أزال عنه الغضب على الوسائط ، والرضا عنهم والشكر لهم ، ونَزَّل الوسائط في قلبه بمنزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع ، فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخَّرتَيْن وواسطتين ، فقد صار موقناً بالمعنى الثاني وهو الأشرف وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته ، ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوقٍ ، فهي مسخَّراتٌ بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب ، وإن القدرة الأزلية هي المصدر للكل ، استولى عليه التوكل والرضا والتسليم ، وصار موقناً بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق ، فهذا أحد أبواب اليقين ، ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق في قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما قدر له سينساق إليه ، ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملاً في الطلب ، ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما يفوته .

وأثمر هذا اليقين أيضاً جملةً من الطاعات والأخلاق الحميدة ، ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرًّا يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب ، حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع ، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك ، فكما يحرص على تحصيل الخبز طالِب الشبع فيحفظ قليله وكثيره ، فكذلك يحرص على الطاعة قليلها وكثيرها ، وكما يتجنب قليل السم وكثيره ، فيتجنب قليل المعاصي وكثيرها وصغيرها وكبيرها .

واليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين ، أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون . وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات، والمبالغة في التقوى والإحتراز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الإحتراز أشد والتشمير أبلغ ، ومن ذلك اليقين بأن الله مطلعٌ عليك في كل حال ، ومشاهدٌ لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك ، وهذا متيقنٌ عندك وعند كل مؤمنٍ بالمعنى الأول وهو عدم الشك .

وأما بالمعنى الثاني - أي الغالب على القلب - وهو المقصود فهو عزيزٌ يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله وأعماله كالجالس بمشهد ملكٍ عظيم معظم ينظر إليه ، فإنه لا يزال مطرقاً متأدباً في جميع أعماله متماسكاً محترزاً عن كل حركةٍ تخالف هيئة الأدب، ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة ، إذ يتحقق أن الله مطلعٌ على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره . فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه لعين الله الكالئة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء الخوف ، والإنكسار والذل ، والإستكانة والخضوع ، وجملةً من الأخلاق الزكية المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة .

فاليقين في كل بابٍ من هذه الأبواب مثل الشجرة ، وهذه الأخلاق في القلب كالأغصان المتفرعة منها ، وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار والأنوار المتفرعة من الأغصان . فاليقين هو الأساس والأصل وله مجارٍ وأبوابٍ أكثر مما عددناه ، وسيأتي ذلك في ربع المنجيات ، وهذا القدر كافٍ في تفهيم معنى اللفظ الآن » . انتهى ، ذَكَرَهُ في كتاب العلم من الإحياء ، وقوبل هذا عليه هـ .

وما ذَكَرَ سيدنا من الإزعاج والقلق في مراضي الله إمتثالاً لأمر الله وطلب مرضاته هو الطريق الخاصة التي يشير إليها كثيراً في مجالسه كما ترى ، لأنه في بعض المكاتبات فَسَّرَ المريد المبتديء في الطريق الخاصة بأنه كما قال : « **هو من تمخَّضَت فيه إرادة وجه الله والدار الآخرة بجميع حركات سرائره وظواهره لمعاده ومعاشه** » ، ثم قال : « **وهذا أمرٌ عظيمٌ إذا صَحَّ واستقام فتأمله** » .

وذَكَرَ في بعض مكاتباته ، *قال* : « **ثم إنَّا قد نسمح عند المذاكرة والمشافهة بالشيء من هذا العلم وإن كان دقيقاً ، ويحتاج إلى طول كلامٍ ، ولا نسمح بمثله في الكتب والمكاتبات لأن المذاكرة إنما يعقلها ويعيها من هو من أهلها ، ومن ليس منهم فعارضٌ يعرض له وشيءٌ يمر به لا يبقى في يده منه شيءٌ وهذا من بعض التأييد الذي أيد الله به هذه الطائفة ولا هكذا ما يرسم في الدفاتر ، فإنه عرضةٌ للبَرِّ والفاجر فافقه** » هـ .

أقولُ : تبين لي الآن أن مراده « **بمن هو من أهله** » ، من يعتني بحفظه ويهمه ضبطه وحفظه ، وإن لم يكن من أهلِهِ الذين يَرِد عليهم وأُهِّلوا له ، لقوله : « **لم يَبْقَ في يده منه شيءٌ** » ، وهذا بقي كله في يده، وهذا أقل التأهل لذلك ، لأن الأهلية تختلف معانيها .

وقوله : « **بالشيء من هذا العلم** » ، أي العلم اللدني الذي قال تعالى فيه :﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، وهو علم الأولياء والصديقين وأهل الكشف، وفي قوله هذا دليلٌ على أن في كلامه في المجالس

والمذاكرات من العلوم اللدنية والفيوضات الإلهية أكثر من غيرها وأبلغ فافهم .

وقد أخبرني الأخ الأكرم عوض بن صباح ، وكان له في خدمة سيدنا فيما سمعت نحو سبعين سنة ، قال : زرنا في قديم الزمن مع الحبيب عبدالله التربة ، فلما فرغنا من الزيارة ، وبعد زيارة أهله ، جلس على الدكة التي تحت قبة الشيخ عبدالله العيدروس رضي الله عنه التي عند بابها النجدي - أي الشمالي - فتكلم علينا بكلام جزلٍ جم - أي من ذلك العلم المتقدم ذِكْره - *ثم قال* : « **أتظنون أنَّا مع أهل الزمان في مكانٍ واحدٍ يسمعون كلامنا ؟ هيهات** - أي بعيد - **بل بيننا وبينهم بحرٌ عميقٌ واسع الطرفين ، نحن في طرفه هذا ، وهم في الطرف الآخر . وَمَثَلنا معهم كَمَثَل رجلٍ جاء من بلدٍ بعيدةٍ لا تُعرف ، وفيها من كل شيءٍ من الأشياء النفيسة الغالية القيمة ، وجاء معه منها بشيءٍ كثيرٍ ، وأراد أهل الزمان أن يشتروا منه من تلك النفائس شيئاً يسيراً جدًّا ، من أدونه ، فلم يقدروا على شيءٍ منه أبداً ، فأمسك على ما معه وضمه عنهم** » ، هذا لفظه والله المستعان .

وقد حضر هذا المجلس المنور معه جماعةٌ كثيرون وغالبهم من أهل شبام ، وكل منهم عَبَّر عما سمع بعبارةٍ غير عبارة الآخر ، وكل عبارةٍ منها تؤدي معنىً .

فمنهم عبدالله باشراحيل فقال : قال سيدنا عبدالله - يعني في ذلك المجلس - : « **عندنا علومٌ جمةٌ ما لقينا لها متلقياً ، وإنما مَثَلنا كَمَثَل تاجرٍ وسيع التجارة ، معه من كل شيءٍ نفيسٍ ، فنزل على بعض البنادر** - أو قال : **بعض البلدان** - **فجاءه المشترون ليشتروا منه ، فأخرج لهم من دَنِيِّ القماش فلم يوصلوا فيه قيمة ، فأمسك على بقية ما معه من القماش المليح وسائر البضاعة ، حيث لم يعطوا في الدَّنِيِّ قيمةً** » ، ومنهم - أي من حضر ذلك المجلس المذكور - عبدالعظيم باشراحيل فَذَكَرَ نحو ما ذَكَرُوا .

قال عبدالعظيم : وسمعته رضي الله عنه يقول لبعض السادة العارفين : « **رأيت البارحة كأني جالسٌ بين الشيخ عبدالرحمن السقاف وولده الشيخ عمر** - يعني المحضار - **فتذاكرنا في شأن الولاية ، فخطر لي حال الشيخ عمر ، فقال الشيخ عبدالرحمن : يا سيد عبدالله ، حال عمر لا يحتمله الزمان ، وقد وهبك الله من العلوم والرحمة ما هو خيرٌ لك . وأذن لي أن أتكلم ، فتكلمت بالعلوم اللدنية ، فبكى رجلٌ كان حاضراً من جماعتي ، فقلت له : يا هذا ، إني لم أتكلم لأجلك ولا لأجل هذا الناس ، إنما أنا مأمورٌ به ليبلغ ناساً بالمشرق وناساً بالمغرب ، ويسمعه روحانيون ومؤمنوا الجن** » ، ثم قال : « **الأمر هكذا فتحققُوا ما قلت** » .

أقول : وهذا يحقق ما تقدَّم من نَقْلِي من قوله : « **إذا تكلَّمنا بكلامٍ فإن أخذ به السامعون وعملوا**

به كان حجةً لهم ، وإلا فله من يسمعه غيرهم » ، ومرةً قال :« يسمعه أقوامٌ غير مرئيين » .

قال : وقد سمعته ليلة الحج ونحن خارجين معه لزيارة آل باعلوي في تريم - أقول : ولعلها التي حكى فيها ذلك المجلس المذكور - فقال لبعض العلماء كان معه : « يا فقيه ، أتحكم بالحج لرجلٍ حاضراً مع أصحابه وهو واقفٌ في الجبل ؟ » ، فاحترنا من كلامه فجوب على نفسه بأن قال : « يُكتَب له ثواب الحج عند الله ولا يسقط عنه من جهة الشريعة » ، ففهمنا معناه أنه يشير إلى نفسه ، لأنه من أهل الفناء في المحبة مع كمال العلم والمعرفة .

وقد جلس معه بعض الفقهاء المترسمة ، فالتفت إليه وقال : « يا هذا ، العلم إذا لم تصحبه تقوى وخشية من الله والعمل بما تضمنه العلم ، وإلا فهو هلاكٌ على صاحبه . إنما العلم علم العارفين ، حيث لا يدعون علماً في قلوبهم ، إنما علمهم في خزائن الرحمن ، وحيث شاء الله أجراها على قلوبهم ، تسأل العارف عن مسألةٍ فما يدرك لك فيها جواباً ، وترد على قلبه من العلوم ما لا يجد من يوعيها » .

وضَرَبَ له مَثَلاً فقال : « مثل علم العارفين كمثل من جاء من مكة وقد طاف بالبيت ، أو مثل من جاء من السوق وسأل : أيش في السوق ؟ فأخبر بما فيه ، وقال : أتريد من عندي أو من السوق فهو شيءٌ كثير . ومثل علم بلا عملٍ كمثل ورقةٍ أتت من مكة فيها صورة البيت ، أو مثل من جاء من السوق فسأل : أيش في السوق ؟ فقال : قد كان فيه كذا وكذا ، ولا عاد فيه شيء ، ولا عندي منه شيء » .

ثم قال له : « يا هذا ، هل يغني ذلك صورة البيت بلا طواف ؟ أو الإخبار بما في السوق بلا حاصلٍ؟ لا ، والله إن الشيطان ضحك عليكم ومنَّاكم حتى تركتم العمل وعلوم القوم فحجبتم . اجتهد يا هذا، لأن العلم النافع الذي يخوف من الله ويرغب فيما عنده ويورث الحياء والهيبة ، لأن العارف إذا تحقق بالعلم وكمل في المحبة فنى في المولى » .

وقال عبدالعظيم : قال رضي الله عنه : « لو قَبِلوا مني العلم أهل الزمان وأنصفوا ، لصنَّفتُ كتباً كثيرةً على معنى آيةٍ من كتاب الله تعالى ، إنها ترد على قلبي علومٌ ما أجد من يوعيها » .

قال : وسمعته يقول : « العارف تنطق جميع أعضاه بالجلالة وينظر كذلك ، لكن حجاب الشريعة منعه عن الكلام » .

وقال : قال رضي الله عنه : « الولي آيةٌ من آيات الله » ، وأشهدني على ذلك وهو أنه قال لي : « يا عبدالعظيم ، هذه شهادةٌ تلقى بها ربك يوم القيامة ، هو أنَا آيةٌ من آيات الله ، ونفسي من جملة الخلق إن صدقت فهي من الصديقين ، وإن أبت فهي من العاصين » .

وقال : *قال لي يوماً* : « **اتَّقِ مَن يغضب الله لغضبه ، ويرضى لرضاه ، فإنه عبدٌ يدعو إلى الله بالصدق، فاقبل منه النصيحة** » .

وقال : *قال رضي الله عنه* : « **اظفر بمجالسة الملوك ، فإن لم تستطع فجالس جلساء الملوك ، فإن لم تستطع أيضاً فجالس جلساء جلساء الملوك ، لئلا يفوتك شيءٌ من بركاتهم** » ، والملوك هم أهل الله الذين غلب عليهم تعظيمه ومحبته .

ولذلك *قال رضي الله عنه* : « **يحصل للعبد عند مجالسة أهل الله لكن بالأدب والتعظيم ما لا يحصل له في غيرها من القرب ، لأنه يعطى من الهمم العلوية والنفحات الربانية والرحمة الواسعة ما لا يخطر له على بال** » .

أقول : وقد جربت أن حال الجلوس في مجلس سيدنا تلقاءه وأنت تنظر إلى وجهه الشريف ، أنه لا تخطر لك الدنيا على بال ، ولو بُشِّرتَ بحضور كثيرٍ من المال بل لو دُعِيتَ إلى مُلْكِ جهةٍ لتكون مَلِكاً فيها لا يميل الخاطر إليها مع ترك رؤيته .

انتهى ما سنح لنا نقله من نَقْلِ عبدالعظيم عن سيدنا ، فإنه كان من أول الناقِلِين من كلامه ، ونَقَلْنا مِن آخر النَّقل عنه ، فانظر تفاوت ما بين كلامه قديماً وأخيراً .

وانتهى أيضاً ما ذكروه عن ذلك المجلس المبارك . وقد أدركنا بحمد الله من مجالسه مثله وأشرح منه ، فتأمل فيما سيتلى عليك من هذه المجالس المباركة المنورة تَعْرِف ذلك ، وتَعْلَم أن فيها من العلوم اللدنية ما لم يسطر في كتابٍ ولم يُذْكَر في خطاب ، كما أشار إليه في المكاتبة المذكورة ، ومما يشبه كلام ذلك المجلس ما نقلناه عنه في بعض مجالسه أنه قال : « **نحن مع أهل الزمان في العبادات والعادات كالغريب الذي جاء إلى بلدٍ لا يعرفها ، فرأى أمراً لا يعرفه ، فسأل عنه فأخبر به** » ، إلى آخر ما سيأتي ذِكْره .

قال رضي الله عنه : « **علم الشريعة إذا عمل به يكون للعلم اللدني كالوعاء ، فإن من هو من أهله يعمل به على مقتضى الشرع ، وإن اطلع به على أمورٍ لم يطالب بها شرعاً ، كمن يُدْعى إلى طعامٍ وكُشِفَ له أنه حرامٌ فيجيب تبعاً لأمر الشرع ولا يأكل فيجمع بين ذلك وبين جبر خاطره** » هـ .

أقول : يعني يتبع أمر الشرع ، حيث أَكَّدَ وحَثَّ على إجابة الدعوة ، حتى ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من لم يجب الدعوة ، فقد عصى أبا القاسم» ، فيجبر خاطره ، فربما ما أَكَّد الشارع في ذلك إلا لجبر الخاطر ، وفي حديث : « ما عُبِدَ اللهُ بأفضل من جبر الخواطر » فيجيب لذلك، وإذا أطلعه الله على الحرمة لا يأكل ويعتذر له بعذرٍ يرضاه ، أو يمكنه أن لا يراه ولا يعلم بعدم أكله ،

فيكون عاملاً بالعلمين : الشرعي بالإجابة ، واللدني بترك الأكل بلا كسر خاطر ، فإن لم يمكنه تركه إلا بكسر الخاطر ومع ذلك لم يطلع على الحرمة من وجهٍ شرعي كأن أقرَّ أو شهد عدلان أنه سرقة ، أو أنه مأخوذٌ غصباً ونحو ذلك ، بل بمجرد الكشف بلا دليلٍ شرعي ، لم يلزمه ترك الأكل لأن الله تعالى لم يكلف بالأمور الكشفية ، لكن أهلها يحتاطون ويجمعون بينها وبين الأحكام الشرعية كهذه الصورة على شرطها المذكور ونحوه ، وإنما كلف سبحانه بالأمور الحسية وهو قوله : « **وإن اطلع به على أمورٍ لم يطالب بها شرعاً** » .

وقد قلت مرةً لسيدنا : إن في الكشف عن الزاد الحرام فائدة ، ليسلم من أكله فقال : « **فإذا كُشِفَ له ، أيجلس بلا أكل طعام ؟** » ، أي لا يمكنه ، فيباح له على مقتضى حاله حالة الخصوص ، وأما حال العموم فعند الضرورة ، ولو ثبتت الحرمة بدليلٍ شرعي فيباح للضرورة كما تباح الميتة هـ .

قال : « **وإذا أحسَّ العبد في قلبه بداعيةٍ للطاعة وبغضٍ للمعاصي ، فلا يخلو قلبه من نورٍ وبه اهتدى إلى ذلك . كالسراج في البيت المظلم ، إذ لولاه لم يهتد إلى رؤية أدنى شيءٍ عنده ، ثم إنه يظهر بعد تمكنه في الباطن على الظاهر ، كما حُكِيَ أن حجَّاماً دعا جماعةً من الصالحين على طعام حرامٍ ، فلم تمتد إليه أيديهم ، فعالجوا أن يأكلوا منه فلم يستطيعوا فخرجوا ، فقال بعضهم لبعضٍ : رأيته دماً عبيطاً ، وقال آخر منهم : رأيته ناراً ، وهذا أكمل من الأول إذ رآه على حقيقته وهي النار** » .

قال رضي الله عنه : « **إذا سمعتَ من بعض الأولياء شيئاً من الخوارق ، فإذا عجز عنها العقل يسعها الإيمان ، وابْقَ على تنزيهك لربك ، وانسب ذلك إلى القدرة . ودعوى الولاية يقابل بالإنكار ، فيتعَيَّن على الولي السكوت عن دعوى الولاية وإنما الذي يتعيَّن أن يُدَّعَى النبوة لأنه مطالبٌ بالتبليغ لها ، ولا كذلك الولاية فلا يدعيها أحدٌ منهم إلا في حال غلبة** » هـ .

أقول : يعني إذا رأيت من وليٍّ كرامةً ، وهي أمرٌ خارقٌ للعادة لأنها مجرد فعل الله فربما تعجز عن إدراكها - أو شيئاً منها - العقول القاصرة مع وجود الإيمان منهم بتصرف القدرة الإلهية ونفوذها في كل شيءٍ أراده سبحانه ، فابق على إيمانك بالنسبة فيما بينك وبين ربك ، واترك تعقلك لذلك ، فربما حيث عجز عقلك عن معرفة حقيقته يعترض لك في ذهنك بسببه ظنٌّ لا يجوز لك من جانب الله . فابْقَ على إيمانك وحسن ظنك بربك واعتقادك أنه سبحانه على كل شيءٍ قديرٍ كما إذا سمعت بأن وليًّا يكلم ميتاً ويخاطبه ، فاعتقد أن الله قادرٌ على كل ما يريد ، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، فقف على ذلك ولا تتعداه .

قوله : « **ودعوى الولاية يقابل بالإنكار .. إلخ** » ، أي لأنه من باب إلهام العلوم اللدنية لمن مَنَّ الله عليه بها ، لا تدركها العقول ولا تكليف عليهم من الله من قبلها فلا يجوز ادِّعاؤها لأنه عُرْضَة للإنكار لقصور العقول عنه ، وإنما كَلَّف الله الخلق بما يعلمون ، وما خوطبوا بالتكليف إلا بما يعتادون ويدركون ، وجعل الواسطة في ذلك الرسل والأنبياء ، وهم المطالبون بالتبليغ وادعاء النبوة لِيَقْبَل الخلق ذلك منهم على قصد ونية الإمتثال .

وغاية الولي إذا ادعى الولاية عن غلبةٍ أنه معذورٌ عند الله في دعواه ، سواء صُدِّق أو كُذِّب ، ومن صَدَّق أو كَذَّب فهو على حسب ظنه عند الله . وأما المكذب بالنبوة فهو كافرٌ ، وإن ادعى الولاية بلا غلبةٍ فهو مدَّعٍ كذاب ، إلا شيخ كامل خَصَّ بِذِكْرِ ذلك حينئذٍ لمريدٍ صادقٍ لأمرٍ اقتضاه نظره في ترقِّيه وتكميله ، كما خَصَّ سيدُنا الفقيهَ باجبير بِذِكْرِ تلك الكلمة سرًّا بخلوة هـ .

قال رضي الله عنه : « **الولاية من سر النبوة ، إلا أن الولاية لا تبقى مع النبوة ، فينطوي سر الولاية في سر النبوة ، حتى لا يبقى له ظهورٌ إلا في عالم الظهور** » .

وقال رضي الله عنه : « **درجة الولاية تحت درجة النبوة ، وقد يُعطى الإنسان من هذا المقام ما يعينه على الإنابة إلى الله والزهد في الدنيا ، وقد يعُطى منه ما يرى بسببه الطريق إلى الله وإن لم يرى السالكين عليها ، وأحدٌ يُعطى ما يرى به أقدام السائرين فيسير على آثارهم ، ومنهم من يُعطى ما يرى به أقدامهم في الطريق . وكل مرتبةٍ أعلى من مرتبة ، فينبغي أن يكون الإنسان على شيءٍ من هذه المراتب وإن قدر أن يكون على الأعلى فالأعلى ، ولا يمكث أعمى لا يدري ذهابه إلى أين ، وكلما قرب من التشبه بهم وَتَسَيَّرَ بسيرتهم فحسن ، ويرجى أن يلحق بهم** » أو كما قال هـ .

أقول : معنى هذا لا يعرفه إلا من بلغه .

وقوله في كل مرتبةٍ من المذكورات : « **يُعطى** » ، يدل أنه لا يبلغه بإرادته واختياره ، وإنما يبلغه بفضل الله إذا بلَّغه الله إياه وأراده له ناله ، أي بلَّغه إليه وحصل له ما لديه .

وقوله : « **ينبغي أن يكون الإنسان على شيءٍ من هذه** » ، إخباراً بما فيه الإختيار عما ليس فيه اختيارٌ، مجازاً وتوسعاً لغوياً ، وحثًا بليغاً على أن يبذل الإنسان وسعه وطاقته وإجتهاده الإختياري الكسبي ، لعل أن يتفضل الله عليه بما وراء ذلك من الأمر الوهبي ، فيبلغ أحد هذه المراتب ، وربما تَفَضَّل الله عليه سبحانه بأعلاها ، وهذا معنى ما أشار إليه اختياراً مجازاً يريد به بلوغ هذا المعنى من الوهب إن تفضل الله به . كما أشار إليه في جواب من سأله : كم أجزاء الولاية ؟ فقال : « **أربعون** » ،

قال السائل : « هي كسبية أو وهبية ؟ » ، قال : « **كلها كسبيةٌ إلا واحداً ، فإذا وصله اندمجت فيه كلها فيه ، وصارت كلها فيه كأنها حلقةٌ ملقاةٌ في فلاةٍ** » .

فكأن سيدنا أراد هنا بكلامه هذا أنه ينبغي أن يجتهد باختياره وغاية مجهوده وطَوْعِ مقدوره في تحصيل التسعة والثلاثين الجزء من أجزاء الولاية الكسبية ، لينال بعد ذلك من فضل الله حصول ذلك الجزء الشريف الوهبي منها ، الذي هو تمام الأربعين ، الذي تصير فيه كلها كقطرةٍ من بحرٍ أو حبةٍ من رملٍ ، لأن الأمور الحسية البدنية الكسبية بالنسبة إلى الأمور القلبية المعنوية الوهبية ، كنسبة القطر إلى البحر ، وكنسبة الحلقة الملقاة في الفلاة إليها ، ومَثَّل لها الإمام الغزالي : كنسبة الظلال إلى الشاخص .

ولذلك قال السيد أحمد بن زين لما قرأت عليه صورة السؤال المذكور ، وجواب سيدنا له ، وذكرت له أني نقلته من خطه فقال عند ذلك : « ما دام العبد في البعد يجتهد يظن أن محصوله بإجتهاده ، فإذا وصل إليه تبين له وتحقق إنما هو من فضل الله عليه ، وأنه هو الذي أوصله إليه » .

وهذا هو معنى ما نحن فيه هـ .

قال رضي الله عنه : « **كل رتبةٍ من رُتَب النبوة ، تحتها رتبةٌ من رُتَب الولاية ، وقد يكون ما مع الإنسان إلا خمس رتبٍ ، فيحكمها ويدعو إليها في الظاهر ، وقد يتحقق بها في الباطن . فإذا أحكم الرتب كلها وتحقق بها صار هو القطب ، وقد قال بعضهم: أعطيت مقام القطبية ، ولكنني اسْتَنَبْتُ فيها غيري** » هـ .

أقول : لعله يشير بالرُّتَب هنا ما ذَكَرَهُ في المقالة قبلها من قوله : « **وقد يُعطى الإنسان** » ، إلى آخر ما ذَكَرَ من المراتب في قوله : « **كل مرتبةٍ أعلى من مرتبةٍ** » ، إلى أن قال : « **ينبغي أن يكون الإنسان على شيءٍ منها ، وإن قدر أن يكون على الأعلى فالأعلى ، ولا يمكث أعمى لا يدري أين ذهابه** » .

فيفهم أن هذه هي مراتب الولاية ، وأنه إن لم يكن على شيءٍ منها فليس هو في طريق الولاية ، بل هو عاميٌّ جاهلٌ لا سير له إلى الله ، وأنه إن بلغ – أي واحدةً منها – فيلزمه يدعو فيها من هو من أهلها دعاءً يفهمه هو ومن يدعوه دعاءً إلى الله ، كما أشار إليه في مذاكرته مع عبدالله باسعيد في الخمس الصور المذكورة ، حيث قال لباسعيد : « **كم ألسن الدعوة ؟** » ، فقال : « **الله أعلم** » ، فقال له : « **هي خمسٌ : أن تدعو أهل الشريعة إلى الشريعة بلسان الشريعة ، وأن تدعو أهل الحقيقة إلى الحقيقة بلسان الحقيقة ..** » ، إلى آخر ما تقدم . وكذلك ما يأتي من قوله : « **لا يعرف منازع العلوم ويعمل بها علم إلا ولي ، أو من هو سائرٌ على سير الأولياء** » . وهذه الأقوال في هذه المقالات وشبهها إنما مادتها من العلم اللدني لا يطلع عليها إلا بواسطته ، كما أشار إليه في المكاتبة المشار إليها التي قال فيها : « **وقد نسمح**

بشيءٍ من هذا العلم في المجالس والمذاكرات مما لم نسمح به في الدفاتر والمؤلفات والمكاتبات » .

ولعمري إن هذا لمثل ذلك المجلس الذي نُقِلَ إلينا مِنْهُ كما ذَكَرْنَا وأن هذا أبلغ وأعمق من ذلك بكثير ، لأن هذا نَقْلُ كلامه بعينه لفظه وحروفه ، والذي نقلوا إنما هو إلا إشارة إلى كلامه لا هو بنفسه ، ولم يذكروا منه ما يتعلق بشأن الولاية والطريقة والحقيقة ، وفي هذا إشارةٌ إلى كل ذلك ، وأظنهم نسوه كما أشار إلى ذلك في تلك المكاتبة : « **إنه لا يعيه إلا من هو من أهله ، ومن ليس من أهله فشيءٌ يمر به لا يبقى في يده منه شيءٌ** » ، انتهى ما ذَكَر . والمشهور عن تلك البلد أن أهلها أكثرهم أهل شغلٍ بالدنيا، ليسوا من أهله سيما في هذا الوقت ، فربما جاؤوا زواراً فحضروا زيارته تلك .

وَرَأيتُ بخط العارف السيد أحمد بن زين الحبشي رحمه الله وقرأته عليه فأقره ، قال : حضرت عند سيدنا الحبيب عبدالله الحداد نفع الله به ، فسأله رجلٌ : كم أجزاء الولاية ؟ فقال له في الحال - أي بديهةً من غير تفكرٍ وتأملٍ - : « **أربعون جزءاً** » ، فقال : مكتسبة أو موهوبة ؟ *فقال* : « **كلها مكتسبةٌ إلا جزءاً واحداً ، فإذا وصل إليه اندمجت كلها فيه ، وصارت كأنها حلقة ملقاة في فلاة** » هـ .

وقرأته عليه في مسجده في خلع راشد ، وهو قاعدٌ ينتظر صلاة الظهر يوم واحد وعشرين من المحرم عاشور سنة ١١٣٣ ، لما مررت عليه مسافراً بعد وفاة سيدنا عبدالله نفع الله به ، ثم قال السيد أحمد حينئذٍ : « ما دام العبد في البعد يجتهد ، يظن أن محصوله بإجتهاده ، وإذا وصل تبين له وتحقق إنما هو من فضل الله عليه ، وأنه هو الذي أوصله إليه » ، ثم قال - أي السيد أحمد - : « القلب بيتٌ خلقه الله يصلح للطهارة والنجاسة ووكل به عبدين : أحدهما صالحٌ للطهارة يطهره يسمى مَلَك ، وأيّده بمَلَكٍ آخر يسمى صاحب اليمين . والعبد الآخر صالحٌ للشر والنجاسة ينجسه يسمى إبليس » ، ثم أقيمت الصلاة فقام إليها ، ولما قرأته عليه وأخبرته أني نقلته من خطه فأقرَّه ، كما أقرَّ ما نقلته من خطه أيضاً عن قول الفقيه باجبير عن قول سيدنا له من ذِكْرِ مقام القطبية . ولا يسأل هذا السؤال إلا من له حظٌّ وافرٌ من العلوم اللدنية ومقام الولاية ولم أسأل عنه السيد أحمد من هو ، وأوَدُّ لو سألته عنه .

وكنت يوماً مع سيدنا عبدالله في الخلاء بالسبير في جمعٍ من الناس ، فأمرني بالإنشاد ، فأنشدت حينئذٍ بين يديه بقصيدته التي مطلعها :

سَقَى اللهُ رَبْعاً حَلَّ فِيهِ الذِى أَهْوَى ... وَمَنْ حُبُّهُ وَالْقُرْبُ كَالمنِّ وَالسَّلْوى

ثم بعدما فرغت قُدِّمَ طعامٌ للحاضرين ، فقال سيدنا حينئذٍ : « **ما يكون الرجل عندهم رجلاً حتى**

يكون فيه من كل جزءٍ من أجزاء الإنسانية نصيبٌ ، وينقص منه جزءٌ من كل جزءٍ من أجزاء النفس ، ويختلف الناس في ذلك كل على حسب مرتبته ومنزلته عند الله تعالى ، فالأولياء في ذلك مختلفون ، حتى ينتهي إلى مرتبة القطب ، فهو أكمل في ذلك من غيره ، ولا أحد استوفى من ذلك أكثر من النبي ﷺ . وكلما كَمُل العبد صارت الغلبة للأعمال الروحانية ، وانغمرت فيها أمور النفس ، حتى يتوهم فقدها» أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : « على قدر خصوصية الإنسان تلطف كثافات نفسه ، والإنتفاع الأعظم في قوة الإعتقاد » .

وقال رضي الله عنه : « لا يعرف منازع العلوم ويعمل بما علم إلا ولي ، أو من هو سائرٌ على سير الأولياء » .

قال : « والعامل بالفقه إذ ذاك على الورع والإحتياط والإخلاص فهو قريبٌ من شيخ الطريق ، وإن كان يعلِّم الحِيَل والمجادلات ونحو ذلك فما هو عندنا من العلماء إنما هو من الدجاج - أو قال : الدجاجلة - » .

قال رضي الله عنه : « إن الإنسان إذا نزل من درجة الإنسانية إلى درجة الحيوانات بأن غلب عليه الهوى والشهوة جدًّا بحيث تذهب منه المروءة ، فيصير حيواناً بحسب ما غلب عليه ، لأن كل حيوانٍ تغلب عليه صفةٌ من هذه الصفات يعرف بها . ومن غلبت عليه واحدةٌ منها من بني آدم نُسِبَ بسببها إلى ذلك الحيوان الموصوف بها ، فإذا أراد الوصول إلى الله يحتاج إلى مجاهدةٍ حتى يصل إلى درجة الإنسانية أولاً ، وهي ما يختص بها الإنسان دون بقية الحيوانات ، ثم يجاهد أيضاً حتى يصل إليه » هـ .

أقول : بحسب ما غلب عليه ، أي من الصفات المذمومة التي سنذكر : صفات الهوى والشر قوة المنسوبات إلى الحيوانات ، أي تشبه كل حيوان تغلب عليه صفة يُعرَف بها ، ومن اتصف بها من الآدميين نُسِبَت إليه بسببها وسُمِّي بنسبته لأجلها نسبة وتسميةً مجازيةً ، أي جائزٌ ذلك في توسعة اللغة العربية .

وبعضها محمودٌ كالشجاعة من صفات الأسد ، فإن غلبه الغضب فهو في حالة الغضب كالأسد لأنها تغلب عليه ، وكذا الشجاعة فيسمى الشجاع أيضاً أسداً ، وهذه التسمية جاريةٌ سائغة عند العرب وعند أهل الظاهر من تسمية الشجاع به في أخذه في الظاهر بقوةٍ ، وعند أهل الباطن في أخذ أحدهم بقوة الحال في الباطن ، كما يأخذ الأسد في الظاهر ، وإذا أخذوا في الباطن ظهر على الظاهر والباطن .

كما قال العيدروس نفع الله به : « كانت في تريمٍ أسودٌ تنهم فذهبوا ، وما بقي اليوم إلا هذا الأسد

النَّهام » ، يعني بذلك نفسه ، ويعني أنه كان بها أهل أحوالٍ قويةٍ يأخذون بها المخالفين والمجترين كما يأخذ الأسد ، وما بقي اليوم منهم فيها من هو أقوى فيه حالاً وإلا فهم فيها إذ ذاك كثير . ويريد بالأسود أهل قوة الأحوال الماضيين أجداده الأكابر من السادة آل باعلوي كسيدنا الفقيه المقدم محمد بن علي ، وابنه سيدنا علوي بن محمد الذي كان يعرف السعيد من الشقي ، وابنه الشيخ علي بن علوي، وابنه مولى الدويلة محمد بن علي ، وابنه الشيخ عبدالرحمن السقاف ، وأولاده منهم الشيخ عمر المحضار والشيخ أبي بكر السكران ، وإخوانه وابنه الشيخ عبدالله بن أبي بكر المذكور ، وأمثالهم نفع الله بهم .

ومن غلب عليه شهوة الأكل فكدابَّةٍ من بقرٍ أو حمير ، لأن شهوة الأكل هي الغالبة عليها ، ومن غلبت عليه من الآدميين فهو مثلها ومنسوبٌ إليها ، ويُسَمَّى لذلك بإسمها ، أو غلب عليه الشَّبق فكخنزيرٍ لأن ذلك يغلب عليه .

وعلى هذا فيحتاج في حالته هذه إلى مجاهدةٍ حتى يصل أولاً إلى درجة الإنسانية وهي ما يختص بها الإنسان دون غيره من بقية الحيوانات من العقل ، فيعلم به العلوم النظرية وعواقب الأمور ، ومحاسن الأخلاق وجميل الصفات ، كالمروءة وهي السماحة وعدم المشاحة ، ولهذا كان العقل مناط التكليف لأنه يَعْرِف به الأمور وما حَسُنَ منها وما قَبُح ، ويطَّلع به على معرفة أشياء تنفع في الدنيا ، وفي وقتٍ دون وقتٍ ، وفي معرفة أشياء والعمل بأشياءٍ تنفع في الدنيا والآخرة .

وهذه هي درجة الإنسانية التي اختُصَّ بها الإنسان عن غيره ، إذا ثبت عقله وتَمَّ ، ثم بعدما يصل إلى هذه الدرجة مرتقياً عن درجة الحيوانات - أي متجرِّداً ومتخلِّياً عن تلك الطبيعة ، ومتنزِّهاً عن تلك الصفات الغالبة عليها - يجاهد فيها أيضاً - أي في درجات الإنسانية - بما طُلِب منه شرعاً ومروءةً فعلاً وتركاً ووجوباً وندباً ، وهو معنى قوله تعالى في الحديث القدسي : « ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل » ، حتى يصل إلى الله ، وهو معنى قوله في الحديث : « حتى أحبه » ، وهذه هي مرتبة الولاية ، وهي درجاتٌ كثيرةٌ من عَلِيٍّ وأعلى، وهي مرتبة الوصول إلى الله .

أعني إلى معرفته الخاصة التي عليها الخصوص من الأولياء بعد المعرفة العامة لعموم المؤمنين ، التي أشار إليها بقوله فيما تقدم من قوله : « **وقد يُعطى من هذا المقام ما يُعِينه على الإنابة إلى الله تعالى..** »، إلى آخر المراتب التي ذكرها ، والخمس المراتب التي أشار إليها في المقالة التي بعدها .

ولا يصل إلى هذه المعرفة معرفة الله الخاصة المخصوص بها الخصوص من الأولياء إلا بعد الإرتقاء من المعرفة العامة لعموم المؤمنين ، فهي مرتبةٌ أخرى وراء هذه الرُّتب كلها ، وهي في نفسها مراتب كثيرةٌ ودرجاتٌ متعددة كما أشار إلى ذلك ، وأجزاؤها أيضاً كثيرةٌ كما أشار إليها جوابه لذلك السائل،

ولا يصل إليها إلا بعد أن يتعدى تلك المراتب السافلة كلها ، التي هي درجات الحيوانات الدرجة التي فوقها درجة الإنسانية ، حتى يبلغ غايتها من حيث الديانة ومن حيث المروءة وحسن الأدب مع الله ، بأن يُحكِم مقام الإسلام ومقام الإيمان ، وهي درجة أصحاب اليمين على ما أشار إليه ، ثم يبلغ بعد ذلك درجة الولاية ومقام الإحسان . وسيأتي قوله : « **إنه لا يصل إلى هذه حتى يُحكِم ما قبلها ، ولو عاش عمر نوح** » ، ودرجة الولاية هي التي يشير إليها كثيراً في كلامه أنها الطريقة الخاصة التي للخصوص ، وإذا كَمُلَ في التي قبلها من مقامَيْ الإسلام والإيمان فهي الطريقة العامة ، طريقة أصحاب اليمين المشار إليها في كلامه أيضاً .

ودرجات الموجودات أربعٌ : مرتبة الجمادات : لا حس ولا نمو ولا عقلٌ كالحجارة ، ومرتبة النبات والأشجار : نمو بلا حس ولا عقلٍ كالنخيل والزروع ومرتبة البهايم والحيوانات : نمو وحسٌّ بلا عقلٍ ، ومرتبة الإنسانية : نمو وحسٌّ وعقلٌ .

والإنسان ذاته والإنسانية صفاته ، مشتق له اسم الصفات من اسم الذات ، يقال : فلانٌ له ذاتية. أي صفات ذاتٍ حسنة مِن فِعْل أمورٍ مستَحْسَنةٍ وتَرْك أمورٍ مُستَقْبَحةٍ شرعاً ومروءةً ، ويقال : ما له ذاتية . أي ليس هو مثل الأول ، فيفعل أموراً مُسْتَقْبَحَةً ويترك أموراً مُستَحْسَنةً شرعاً ومروءةً هـ .

وقال : « **طرق التصوف وإن تعددت فهي طريقةٌ واحدةٌ ، وهي مجاهدة النفس والخروج من كل ما تدعو إليه ، وهذا أمرٌ عَسِير** » هـ .

أقولُ : وإنما كان ملاك الطريق والذي عليه العمدة في الوصول إلى الله : مجاهدة النفس ومخالفة كل ما تهواه . لأن لها ثلاث حالاتٍ : حالة خبيثة إلى الغاية وهي النفس الأمارة ، وهي نفوس العوام والجهال وصغار السن وضعفاء العقل ، وهذه مجبولةٌ على حب كل ما يكره الله ، فلا وصول إليه إلا بمعاداتها ومخالفتها في كل مطالبها حتى تستقيم وتعتدل ، فحينئذٍ تصير لوامةً لها وجهان : وجهٌ تميل به إلى الخير فتدعوه إليه ، ووجهٌ تميل به إلى الشر وتدعوه إليه ، فإذا فعله لامَتْهُ على فعله فلذلك سُمِّيت لوامة ، ثم يلزمه مجاهدتها أيضاً إلى أن تصير مطمئنة ، كل ميلها إلى الخير ، وكل دعائها إليه ، وهي نفوس الأنبياء ويليها نفوس الأولياء ، وكل نفوسهم مطمئنة ، ونفوس الأنبياء أكمل في الإطمئنان ، ولا تميل هذه النفس إلى غير الحق ، ولا تدعو إلا إليه ، ولا يصل إلى الله إلا إذا صارت نفسه مطمئنةً، ولا تصير كذلك إلا بعد الجهاد الطويل ، وحمل العبء الثقيل في مخالفتها ومجاهدتها ، كما تسمعه من شأن الصوفية والمُقْبِلين على الله .

فلها ثلاثة أسماءٍ بالنسبة إلى حالاتها وهي ثلاثٌ : أمَّارةٌ ولوَّامةٌ ومطمئنة .

واللوَّامة هي نفس العقلاء وأهل المروءة التي تدعوهم إلى الخير والمروءة ، فإذا خالفوه لامَتْهُم . وأما الأمارة فلا تدعو إلا إلى الشر ولا تلوم عليه بل تحث عليه . وأما المطمئنة فهي الكاملة التي تأمر بالخير وتدعو إليه ، وتنهى عن الشر وتذم عليه . وما يَكْمُل العبد ويتطهر عن رذائلها إلا بفضلٍ من ربه ومِن مَنِّهِ عليه ، ولا يكمل تزكيتها إلا بجذبةٍ إلهيةٍ لا تدع فيه لغيره بقية فحينئذٍ تكمُل ، ويأتيها من الله الإمدادات والفتوح الربانية هـ .

وقال : « **من اشتغل بهوى نفسه لا يفلح ، وكل ما خرج منه بعد ذلك من دواعي الدين فهو من دواعي النفس من شهوةٍ أو غضبٍ ، فينبغي للعاقل تركه** » ، قلت : فإن لم تتخلص له دواعي الدين من دواعي النفس والهوى ؟ *قال* : « **هذا موضع الغلط** » هـ .

أقول : قوله : « **من شهوةٍ أو غضبٍ** » ، يعني إن دواعي النفس كلها وأهويتها ترجع إلى هذين : الشهوة والغضب ، لأن النفس في عبارات الصوفية كلها عبارة عنهما ، وكِلَا الأمرين خادمٌ للجسم الفاني في طلبه لمنافعه الفانية في الدنيا فقط ، ولا نظر لهما في ما ينفع في الآخرة ، ولهذا اشتد ذِكْر ذمهما والمبالغة في تركهما عند طلاب الآخرة وعَظُمَت معاداتهم لهما .

فالشهوة داعية لما ينفعه من أغذيته وشهواته ، والغضب داعية لدفع ما يضره مما يحول بينه وبين أهويته أو يضره في ذاته ، فلهذا كانت النفس الذي يبالغ الصوفية في ذمها عبارة عنهما .

وسيأتي قوله : « **ما أنزل الله الروح إلى الجسم مدة الحياة لإقامة أحكام الله حتى أخذ عليه العهد**»، يعني أخذ عليه العهد والميثاق الأكيد أن لا يتبع النفس في مطالبها إذا اجتمع معها في الجسم ، لأن مطالبه إلهية دينية وأخروية ، ومطالبها دنيوية هوائية شهوانية شيطانية فشتان ما بينهما ، فلو وافقها لخالف الحكمة التي أراد الله من إقامة الأحكام ، لأن أحوالها مخالفٌ لذلك .

وإنما جُمِعَا في الجسم مدة الحياة لتنفيذ تلك الأحكام لإقامة الحقوق الربانية على العبيد المربوبين من إقامة الأحكام الشرعية ، وتنفيذاً للمشيئة الإلهية من إجراء أمور السعادة لأهلها ، وإجراء أمور الشقاوة لأهلها ، ومن أراد سبحانه له ذلك في الدنيا والمتوقف على ذلك مما تفوت به المجازاة بالخير والشر في العقبى ، وتعجيل طرفٍ من ذلك في الدنيا حسب ما جرت به لهما ، والله سبحانه الفاعل لذلك المتصرف به حسب ما قدَّره وأراده .

ثم إن القدر قائدٌ قهري لهما إلى ما أريد بهما لهما ، وهو قوله فيما سبق وفيما يأتي : « **لأن الحق أراد بهم**

وأراد منهم » ، أي أراد بهم بالإرادة الأزلية أحداً سعادةً وأحداً شقاوة ، وأراد منهم الجميع بالإرادة الشرعية إيماناً وطاعةً ، وإنما ساعدتها الإرادة الأزلية على ذلك إلى الخاتمة في أهل السعادة فقط ، وما أرادت من أهل الشقاوة إلى الخاتمة إلا الكفر والمعصية ، فإن الإرادة الأزلية هي الأصل في كل ما كان ويكون لا غير ، لا يخالفها كائنٌ ولا يشذ عنها مقدورٌ ولا يعزب عنها قصار الأمور .

قال رضي الله عنه : « **من ازداد في دينه بكثرة الطاعات وقلة المباحات ، وربما كان المباح بفعلهم طاعة، وزهدوا في الدنيا ، فمن كان كذلك فقد ارتقى من درجة الإيمان العامة إلى الخاصة ، وَمَثَله كَمَثَل طيرٍ مُعلَّقٍ في قفصٍ ، وقد خرج منه ولم يَبْقَ إلا رجلاه ، أو على الدرجة العامة إذا لم يترك لازماً ولم يفعل محظوراً ولكن لم يمعن فيما يحمده الشرع كالأول ، ولا فعل محرماً أصالةً فهو متوسط ، وهو الغالب من الناس ، وإن نزل عن هذه المرتبة بأن جعل المباح حراماً وإن لم يقصر في الواجب ، كمن ينظر إلى محرمٍ بشهوةٍ ونحو ذلك ، فهذا طبعه فاسدٌ انحطَّ عن الطبيعة العامة إذ لم يقيد الله ورسوله إباحة ذلك على عدمها ، حيث لا يقتضيه الطبع . فمثال هذا يجب عليه أن يرقِّي نفسه ، إما برياضةٍ أو عزلةٍ أو ارتقابٍ أو نحو ذلك ، حتى يرجع إلى الوسط ، وإن قدر بعد ذلك على الترقي فلا يترك** » . أو كما قال هـ .

أقول : قوله : « **جعل المباح حراماً** » ، فالمباح هو النظر إلى المحارم بلا شهوةٍ ، وهو الطبع العام في الخلق فَصَيَّرَهُ حراماً لفساد طبعه بحصولها مع النظر ، فجعل طبيعة هذا فاسدةً لنقصانها عن الطبيعة العادية . وما جاءهم من الله تعالى التكليف الشرعي إلا على مقتضى الحال الطبعي ، ولهذا لم يقيِّد حرمة هذا المباح بعدمها ، بل خاطبهم على مقتضى عرفهم المتعارف بينهم وطبعهم المعتاد ، فلما أن نزل هذا عن الطبع العادي فغلبت عليه الشهوة في غير محلها المعتاد فصَيَّر بذلك المباح حراماً بحصولها معه في ذلك، فكانت طبيعة هذا فاسدةً بنقصانها ونزولها عن المعتاد ، وهذا نظير من غلبت عليه صفات الحيوانات المتقدم ذِكْرها ، فكما نقصت طبيعة من غلب عليه طبع البهائم عن الطبيعة الإنسانية فكذلك طبيعة هذا فاسدةٌ بنقصانها عن الطبيعة العادية ، فاشتركا في اختلال الديانة وعدم المروءة وفساد الطبيعة ، فإذا أراد هذا الترقي إلى مقام الخصوص فَذَكَرَ في شأنه أنه يلزمه أن يرقِّي نفسه عن حالته هذه « **برياضةٍ** »: أي مجاهدة ، بأن لا ينظر إلى محرمٍ وهو يجد لذلك شهوة ، إلى أن يَمُنَّ الله عليه بإذهابها عنه إذا علم صدق نيته، « **أو عزلةٍ** » : عن النظر يستعين بها على ذلك إلى أن ينتفي عنه ، « **أو ارتقابٍ** » أي مراقبة، فيراقب نفسه عن نظر المحارم بالشهوة ، كما يراقبها عن نظر غيرهم بلا شهوةٍ ، إذ كلاهما محظورٌ .

فَذَكَرَ له هذا ثم بعده يترقَّى بالمجاهدة إلى حال الخصوص ، كما ذَكَرَ في شأن الأول من الترقي

من حالته إلى مقام الإنسانية ثم منها إلى مقام العامة ، ثم منها إلى مقام الخاصة ، وإنما لم يقيد الشرع إباحة نظر المحارم بعدم الشهوة ، مع أنه لا بد في إباحة نظرهن من عدمها جرياً على الطبع الغالب من الناس، فإن الشرع إنما ورد بخطابه للناس بحسب طبعهم الغالب عليهم لا يخاطبهم بما عداه ، حتى كان العُرْف المألوف حُكْم شرعٍ معروفٍ ، كما ذُكِرَ في لحم صيد البحر ، مع تسميته في القرآن لحماً طرياً، وفي العُرْف لا يُسَمَّى لحماً ، فلو أكله وحلف أنه ما أكل لحماً لا يحنث ، وغير ذلك من أحكام العُرْف، فلما أن كان العُرْف والطبع الغالب في الناس أن لا ينظر أحدٌ إلى محرَّمٍ بشهوةٍ ، فأطلق الشرع إباحة النظر إلى المحرَّم بلا تقييده بعدم الشهوة إكتفاءً بالعُرْف المعتاد ، لأن الشرع إنما ورد على الأغلب المعتاد من الأحوال ، كما ذكر في الأصول : « أنه يكتفى بالوازع الطبعي عن الوازع الشرعي » والوازع : هو الداعي إلى الفعل ، ويسمى البلبل كما قال السودي :

بُلْبُـل الجحـفِ اليَـمَانِي لم أَزَلْ مِنـهُ مُبَلْبَـلْ

فَسَّرَهُ السيد حاتم بن أحمد الأهـدل : « إن البلبل داعي الحق في قلوب العارفين» ، وسُمِّيَ بذلك لأنه يبلبل قلب من أرسل إليه ويزعجه ويقلقه .

وذكر ذلك المعنى من الإكتفاء بالوازع الطبعي عن الوازع الشرعي الإمام السيوطي ، ومَثَّل لذلك بأن الوالد أيضاً مأمورٌ بِبِرِّ الولد ، كما أن الولد مأمورٌ بِبِرِّ الوالد ، لكن ورد الحث الأكيد من الشرع على الولد بِبِرِّ الوالد ، ولم يؤكد ويحث في ذلك على الوالد بِبِرِّ الولد اكتفاءً بطبعه الغالب عليه ، حيث أن محبته لولده تحثه على بِرِّهِ بولده ، وليس مع الولد من المحبة ما يحثه على بِرِّهِ بوالده ، فاكتفى بباعث الطبع في الوالد عن حث باعث الشرع في الولد .

وبَيَّن سيدنا بهذين الرجلين الناقصين ما يلزمهما في طريق الله ، إذا انتهضا للوصول إلى الله : النازل عن الطبيعة الإنسانية إلى طبيعة البهائم والحيوانات ، وفاسد الطبيعة النازل عن الطبيعة العادية إلى الطبيعة الشيطانية ينظر إلى المحارم بشهوةٍ ، وذَكَرَ لهما ما يلزمهما مما لا بد لهما منه ، كما هو شأن مقامه من الدعوة إلى الله وبيان الطريق إليه ، ثم إنه قَسَّمَ الناس في هذه المقالة بأنهم عند الله على ثلاث درجاتٍ :

درجة الخواص : وهم من زهد في الدنيا وكثرت طاعاته وقلَّت مباحاته ، وربما كان مباحه مع ذلك طاعةً يثاب عليها ، حيث ينوي بها التقَوِّي على الطاعة والإستعانة بها على العبادة ، فهذا حاله وشأنه وقلبه وكل أموره وسعيه فيما يرضي الله وينفع عند الله وفي الآخرة ، فهذا كله في الآخرة وما في الدنيا منه إلا جسمه ، فهو كالطير الذي فَرَّ من القفص ، والطير الروح وهو من الآخرة ، والقفص الجسم وهو من الدنيا ، فالجسم مقَيِّدٌ للروح أن لا يطير من الدنيا إلى الآخرة يريد تعلقه بالجسم مدة حياته ،

كما تقيد الطير المربوط برجليه في القفص عن الطيران وقد خرج كله منه .

ودرجة العوام المتوسطين : الذين لم يتركوا واجباً ولم يرتكبوا محظوراً ، ولم يُمعِنوا في الديانة كالأولين .

ودرجة الناقصين : فاسدي الطبيعة ، وإن لم يقصِّروا في واجبٍ ولم يرتكبوا محرَّماً ، ولكن طبيعتهم نزلت عن طبيعة العموم المعتادة بين الخلق ، كما نزلت درجة من غلب عليه طبع الحيوانات ، فهما سواء في النزول والدرجة .

ودعا هؤلاء كما دعا أولئك إلى النهوض للإلتحاق بمن قبلهم ، وأن لا يبقوا مطروحين في مَهَامِهِ الجهل ومفاوز الغواية وقفار الخذلان ، بل يجدُّون ويلتحقون بالكاملين الخواص المقرَّبين ، وبيَّن لهم السبيل الموصِلة لهم إلى ذلك ، وطريق الإقتفاء لمن فوقهم .

وأكَّد ولزَّم على هذا الناقص إلى هذا الحد أن يرقِّي نفسه عن هذه الحالة إلى الدرجة الوسطى التي فوقها ، التي عليها الكافة حتى يكون على الطبع العادي ، كما رُقِّي من غلب عليه الطباع الحيوانية حتى وصل إلى الطباع الإنسانية ، وبعد ذلك إذا قدر هؤلاء على التَّرقِّي من الحالة العادية ، وقدر أولئك على التَّرقِّي من الطبيعة الإنسانية وساعدهم القدر والإمكان إلى الرُّقِيِّ إلى درجة الخواص الأولى المذكورة فلا يقصروا عن ذلك وهم يقدرون فلا يقنع بالأسفل وهو يمكنه الأعلى .

وقد قال لي يوماً السيد الفاضل أحمد بن عمر الهندوان رحمه الله ونفع به : « إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر لو تَفَلَ عليك أحدٌ تَفْلَةً : فإن فَرِحتَ بها ولم تجازِ بمثلها فأنت في مقام الإحسان ، وإن كَرِهْتَ وتَحَمَّلْتَ احتمالها ولم تجازِ فأنت في مقام الإيمان ، وإن كَرِهْتَ وَجَازَيْتَ بقدر ولم تزد شيئاً فأنت في مقام الإسلام ، وإن زِدْتَ وتعدَّيتَ فأنت في مقام الفاسقين » ، ومرةً أعاد وكرَّرَ عليَّ هذا الكلام فقال : « لو ضربك واحدٌ لطمةً .. إلى آخره » هـ .

قال رضي الله عنه : « إنا لم نَحْمِل الناس على طريقة المقربين ، ولم نكلف أن نحملهم عليها كثيراً ، إن حملناهم على طريقة أصحاب اليمين ، لأن الناس كل ما لهم ينكصون قليلاً قليلاً ، ينكصون أولاً عن مقام الإحسان ، ثم عن مقام الإيمان ، ثم هم في هذا الزمان أكثرهم يكاد يخرج عن دائرة الإسلام والعياذ بالله . حتى قال بعض الشاطحين لما قيل له : ادع للمسلمين . قال : أخاف ما عاد أحد من المسلمين . وهذا كلامٌ في غاية الخطر ، لأن أثر ظاهر الإسلام ظاهرٌ عليهم » هـ .

أقول : يعني إن مآثر ظواهر الإسلام التي بها التكليف ظاهرٌ على أهل الزمان ، وإن بَعُدوا عن كمال

الإستقامة من إقرارهم بالشهادتين ، ومن إقامتهم الصلوات وإيتاء الزكاة والصوم والحج ، فهذه مباني الإسلام ، وكذلك تَرْك المحرمات ظاهراً وفِعْل الواجبات فهذه ظواهر الإسلام وشعائر الدين التي فيها التآمر والتناهي بين الناس ظاهرة عليهم .

وأما حقائقه الباطنة من كمال الإخلاص وقصد الإمتثال وصدق العبودية وأداء حق الربوبية ، فهم مخاطبون بها بينهم وبين الله لا يطالب به أحدٌ عن أحد إنما هو خاصٌ بكل أحدٍ بذاته بينه وبين ربه ، وأما المطالبة بين الناس أمراً أو نهياً ، فإنما هي في الظواهر التي هي ظاهرة عليهم فإذا ظهر شعار ظاهر الدين بينهم جرت عليهم أحكامها ، وهو قوله : « **أثر ظاهر الإسلام ظاهرٌ عليهم** » ، فلا يجوز نفيه عنهم وتبرئتهم منه بوجهٍ .

فظواهر الإسلام مُسَلَّمٌ لمن اتصف بها في الدنيا دون الحقائق من حدود الشرع ، كما سَلِمَ المنافق بها في الدنيا من القتل وأخذ ماله وسبي عياله ، فإن صحب الظواهر في الدنيا حقائق من وجود صدق الإيمان والإخلاص فهو مُسَلَّمٌ له في الآخرة أيضاً . ولذلك لما خلي المنافق من حقائق الدين في الدنيا لم يسلم في الآخرة ، بل صار في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ، إذ نفع تلك الأحكام الظاهرة مجرداً من الحقائق في الدنيا فقط ، لمشابهتهم بها لأهل الحقائق ، لأن من شابه قوماً فهو منهم ، ولهذا نفع من تشبه بالصالحين في الدنيا تشبههم بهم ، لأن الدنيا محل التلبيس والإغترار ، وأما نفع تلك الظواهر في الآخرة فمتوقفٌ على وجود الحقائق في الدنيا حتى يموت عليها ، كما تتوقف عليها صحة الأعمال الظاهرة والإعتداد بها في الدنيا ، كالإخلاص إذ لا يصح عملٌ إلا به ، ولا يصح العمل والإخلاص إلا مع الإيمان ، فَحَدُّ نفع الظواهر بلا حقائق في الدنيا فقط ، وأما في الآخرة فلا تنفع إلا مع الحقائق، ولا ينفع هناك أحدهما دون الآخر حتى يجتمعا جميعاً ، فإن الدنيا دار تلبيسٍ لشمول معاملة الخلق وتعاطي الأسباب فيها ، وأما الآخرة فدار حقائقٍ لا يدخلها تلبيس ، لكون أمورها خاصةٌ بالخالق سبحانه لا مدخل فيها لسواه ، ولذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ ، ثم عَظَّم شأن ذلك اليوم فقال سبحانه : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ ، أي خاصٌّ به سبحانه لا مدخل فيه لمن سواه .

وسمعت سيدنا يقول : « **الأسباب تظهر في الدنيا والمقادير خافية فيها ، وفي الآخرة تظهر المقادير والأسباب خافية فيها** » ، يعني أن المقادير في الدنيا كامنةٌ في الأسباب كمون الأرواح في الأشباح ، وفي الآخرة تظهر المقادير كظهور الأسباب والعقل يشهد بظهور الأسباب وكمون المقادير فيها ، فيقطع بأن هَز نخلةٍ ميتةٍ في وقت الشتاء لا يفيد حصول رطبٍ ، وإنما ذاك مجرد قدرةٍ لا غير ، فالقدرة قدرته والأسباب حكمته .

وقوله : « في غاية الخطر » ، يعني من حَكَمَ بكفر مسلم يقول : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، لأنه قد ورد في الخبر : « إن من كَفَّر مسلماً فهو الكافر » ، فأيُّ خطرٍ أشد من هذا ؟ وقد سمعت سيدنا غير مرةٍ يذكر عن بعض المحقِّقين وهو الإمام أبوبكر الباقلاني قال : « لئن تُدخِل أَلْفَ كافرٍ في الإسلام بشبهة إسلامٍ واحدةٍ أهون من أن تُخرِجَ مسلماً واحداً من الإسلام بأَلْفِ شبهة كفرٍ » .

وفي هذا رَدٌّ على الخبيث ابن عبدالوهاب ومن تبعه ، حيث كَفَّرَ جميع هذه الأمة فلم يحكم بالإسلام لأحدٍ إلا لنفسه ولمن تبعه ، وهذا يدل على كفره هو وكفر من تبعه على ذلك ، نعوذ بالله منه ومنهم ومن الشيطان الرجيم . فإنما أُخرِج في هذا الوقت فتنةً متقدِّمةً لفتنة المسيح الدجال ، فإن مذهبه مبنيٌّ ومؤسَّسٌ على سوء الظن بالصالحين ، حتى أن من أراد أن يتبعه على مذهبه يشرط عليه أن يلعن السيد فلان والشيخ فلان - أناساً من صالحي الوقت - وذلك أنه قد يسمع ناساً يذكرون عن الصالحين كراماتٍ وخوارق ، فيقول لمن يذكر ذلك : « أنتم مشركون بالله ، أشركتموهم مع الله في فِعل ذلك » .

وسَمَّى من يذكر ذلك عنهم ومن ينتسب إليهم في هذا الوقت طواغيت ، وسمى من يعتقد في الصالحين مشركين ، يظن أنهم يعتقدون أن الصالحين هم الفاعلون لتلك الخوارق جهلاً منه وقلة معرفة ، ويرى أن عقود الأنكحة الموجودة باطلة ، وأن أولادهم منها أولاد زنا ، حتى أقر على نفسه أنه كذلك . وسمعنا عنه أنه عَقَدَ بإمرأةٍ تحت زوجٍ على رجلٍ من أصحابه ، ويرى أن نكاحها الأول كالعَدَم ، وما صدَّقنا بذلك عنه أن مسلماً يدين بدينَ الله يفعل ذلك حتى جاءنا زوجها الأول هارباً من بلده منكِراً عليه ، وذَكَرَ أن زوجته هي التي كان عقد عليها بزوجٍ آخر هـ .

قال رضي الله عنه : **« إذا حصلت العناية الإلهية حصل السلوك كسقي السيل ، ودون ذلك كسقي الآبار ، وفي الحقيقة كل عملٍ إنما يحصل بالعناية الإلهية ، قال بعضهم : لا بد في كل عملٍ من الجذب ، ولولاه ما أمكن ذلك »** .

وذكر الأعمال واحتياج الإنسان إلى فعل الخير ، وذلك يوم السبت ١٥ شهر رمضان سنة ١١٢٤ ، *فقال رضي الله عنه* : **« الجَدُّ في الجِدِّ ، والحرمان في الكَسَلِ ، وإن الله تعالى لا يترك عبده المؤمن في الخير من إحدى همَّتين : إما هِمَّة العادة أو هِمَّة الفتوح . فهِمَّة العادة أن يكون يعتاد شيئاً من الخير فهو يفعله ويهتم به لاعتياده له . والثانية يعرفها من حصلت له وذاقها . وقد جاء في الحديث : إن الخير عادة »** .

فقلت : إن همة العادة ناقصةٌ بالنسبة إلى الأخرى ؟ ، *فقال* : **« لا ، إذا لم تحصل لك تلك فلا تترك نفسك ، بل كلِّفها واحمِلْها على فعل الخير بالتكلف لتعتاده ، وقد يحصل للإنسان شيءٌ من همة الفتوح،**

فإذا باشر مفسداتها فسدت » .

فقلت : وما مفسداتها ؟ ، فقال : « مجالسة الغافلين ، وترك الذِّكْر ، وفضول الكلام ، وأكل الحرام والكذب وأمثال هذه . ولها أركانٌ إن حصلت استقامت وثبتت ، وإلا ذهبت وانمحقت » .

فقلت : وما ذاك ؟ ، فقال : « أكل الحلال ، ومجالسة الصالحين ، والذِّكر ، وترك الخوض فيما لا يعني»، أو قال : « فيما لا ينبغي » ، أو كما قال هـ .

أقول : والأركان المذكورة آخراً ضد المفسدات المذكورة أولاً ، ولم يبين همة الفتوح لأنها من العلوم الذوقية اللدنية التي لا يعرفها إلا من ذاقها ، ولا يجوز ذِكْرها لمن لا يعرفها ، وكل تلك العلوم الذوقية لا يجوز ذِكْرها لغير أهلها كما أشار إلى ذلك في تلك المكاتبة ، وأهلها من يعرفها ويعيها ، وغير أهلها من لا يعرفها ولا يعيها ، كما قال : « إنما يعرفها ويعيها من هو من أهلها ، ومن ليس من أهلها لا يبقى في يده منها شيءٌ » .

فلهذا يعزُّونها ويصونونها عن من ليس من أهلها ، وأيضاً لو ذُكِرَت وفُصِّلت لا يعرفها إلا من حصلت له ، فَذِكْرُها لمن لم يعرفها تعبٌ مجرَّدٌ ، ولو بُيِّنَتْ غاية التبيين والتوضيح ما ازدادت إلا غموضاً، ومثَّلوا لها كشهوة الوقاع لو ذُكِرَت للصغير وفُصِّلَت لا يفهمها ، فإذا بلغ عرفها من غير تعليم . فكذلك تلك العلوم المذكورة لمن لا يعرفها ، فإذا فتح الله على عبدٍ بمعرفتها عرفها من غير تعليمٍ ، كالطفل الذي لم يدرك مقادير الأعداد ، فإذا كبر عرفها من نفسه من غير أن يعلمه أحدٌ .

وسميت العلوم الذوقية لدنية ، وهي من علوم الخضر ، وهي وهبية لأنها من عند الله وهبها له، كما قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، أي من عندنا ، فلذلك سُمِّيَت لدنِّيَّة لا كسبية ، فلا مدخل للعبد في تحصيلها .

ويبين هذا المعنى جوابه للذي سأله عن أجزاء الولاية كم هي ؟ فقال : « أربعون وإنها كلها كسبية إلا جزءاً واحداً وهبي ، وما حصلت تلك الأجزاء الكسبية إلا من ذلك الجزء الواحد الوهبي ، حتى إنه إذا وصل إليه اندمجت كلها فيه ، وصارت فيه كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ » ، ويدل عليه أيضاً قوله فيما نقلناه : « الولاية من سِرِّ النبوة .. إلخ » ، وقوله : « درجة الولاية تحت درجة النبوة .. إلخ » . وقوله : « كل رتبةٍ من رُتَب النبوة تحتها رتبةٌ من رُتَب الولاية .. إلخ » فافهم .

ويحقق هذا المعنى قوله الآتي هنا ، لما قرأت عليه يوماً قصيدته التي أولها :

إِنْ كَانَ هَـذَا الـذِي أُكَابِـدُهُ يَبقَـى عَـلَيَّ فَلَسْـتُ أَصْطَـبِرُ

فلما وصل قوله :

مَـاكَادَتِ الفَانِيَـاتُ تُوقِفُنِـي إِلاَّ زَوَتْهَـا العُلُـومُ وَالفِكَـرُ

فقال رضي الله عنه : « **العلوم الحقيقية لا تُفْهَم وتُعْرَف بالشرح ، بل من وصلها عرفها ، كتعليم الصغير الوقاع ، فإنه لا يعرفه حتى يكبر ، وأصل وضعها مع ذلك خواطر تخطر لهم** » هـ .

أقول : أي يوقعها الله في خواطرهم من غير سببٍ ، ومن غير ما يعلمون ، وتكون حقًّا وصدقاً ، كما يكاشفون الإنسان بما يخطر له في خاطره .

وقوله : « **بل من وصلها عرفها** » ، يعني من أوصله الله إليها ، لا أنه يصلها باختياره ، كما يصل الماشي مقصده باختياره ، ويُفهم ذلك من تمثيله بالصغير حتى يكبر ، فمعلومٌ أن ليس تقدُّمه من الصغر إلى الكبر باختياره ، بل يوصله الله إليه وينشئه الله فيه ، ووصوله طوراً آخر، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله : « **فضول الكلام** » يعني ولو مباحاً .

وذَكَرَ المجالسة ، لأن المجالسة تؤثر في الجليس ، فالإنسان من جليسه ، والطبع يستمد ويسترق من الطبع من حيث لا يشعر ، فمجالسة الغافلين تزيد في غفلتك كما قال الإمام الغزالي : « فمجالسة الحريص تزيد في حرصك ، ومجالسة الزاهد تزيد في زهدك » ، وهذا هو الذي حمل المتجردين على الإنقطاع عن الخلق والإنفراد عنهم خوفاً من أن يسترق طبعهم من طباعهم ، حتى ذكر الإمام الغزالي: « أن رجلاً من أهل الإنقطاع عن الخلق كان يصلي في جبل أبي قبيسٍ بصلاة الإمام في المسجد الحرام خوفاً من مخالطتهم في صلاة الجماعة من استراق الطبع ونحوه » .

ورأيت في كلامٍ للشيخ عبدالله العيدروس نفع الله به أنه قال لرجلٍ من بعض المريدين في وصيته له: « واتركوا الجمعة إن تضررتم بالحضور بسبب الإجتماع على نية سلامة المسلمين من شركم » ، يعني اعتقد ذلك في قلبك وانوه ، إنما الخوف مما ذُكر ، وقال له : « وإن أكل شيئاً من ذوات الريح الكريهة كالثوم والبصل فهو عذرٌ ، ولكن يكون ذلك قبل الفجر للخروج من الخلاف » ، كل ذلك إشارة إلى الخوف مما ذُكر ، وللحزم والتحفظ على فوات ما حصل له من ذلك الباعث الإلهي والهمة التي فتح الله عليه بها ، وهي الخوف المزعج ، والشوق المقلِق والوازع والبلبل المتقدمات هـ .

قال : « وفي الغالب أن الله سبحانه إذا أجرى عبداً على عادةٍ ، أنه يمشيه عليها لأن عادة الله جارية » هـ .

أقول : يعني « جارية » مستمرة لا يغيرها حتى يتغيروا ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

ورأيت بخط الشيخ عبدالله بن سعيد العمودي رحمه الله ما لفظه ، قال : كنت ذات يومٍ بمسجد الهجيرة عند سيدي عبدالله الحداد ، وذلك في صفر من سنة ١٠٩٥ عشية ذلك اليوم بعد الدرس ، وهو جالسٌ على العادة في ممشى البركة إلى المسجد ، وأنا في الضاحي - يعني الحوش - وفي نفسي يحوك أن يدعوني ، إذ نادى علي وعنده رجلان ، شريفٌ وخادمٌ ، إذ فرَّقهما كلًّا في حاجةٍ ، ثم أقبَلَ عليَّ بالكلام وقال : « كم ألسن الدعوة ؟ » ، فقلت : الله ورسوله وأنتم أعلم ، فقال ابتداءً - أي من غير تفكر - : « خمسٌ ، وهي : أن تدعو العامة بلسان الشريعة إلى الشريعة ، وأن تدعو أهل الشريعة بلسان الطريقة إلى الطريقة ، وأن تدعو أهل الطريقة بلسان الحقيقة إلى الحقيقة ، وأن تدعو أهل الحقيقة بلسان الحق إلى الحق ، وأن تدعو أهل الحق بلسان الحق إلى الحق » ، قال : « وهذه الأخيرة فُتِحَ علينا بها الآن » هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا دعوت لأحدٍ فادْعُ له بالبركة والصلاح والهداية ، فإذا وُجِد الدين فلا معوَّل على الدنيا ، ولن تعدم من الله الكفاية ، وإن وجدت معه فالحال تمام ، ولا تنفع الدنيا إذا عدم الدين » .

قال رضي الله عنه عشية يوم الإثنين عشرين من المحرم سنة ١١٢٣ : « يجب على من أراد الدخول في الطريق الخاصة أن يتفرغ عن الدنيا بقلبه وقالبه أولاً ، وإنما يدخر قدر الحاجة بأمرٍ آخر في النهاية آخراً ، وإشغال الأوقات كلها بالذِّكر والطاعة وحفظها كلها والإقبال على أمور الآخرة بالكلية ، كل هذا من الطريق العامة ، وهي المهيع الواسع الذي عليه السلف ، وهو الذي يسع عامة المسلمين ، وأما الخاصة فهي الفراغ عما سوى الله في الظاهر والباطن ، والتخلي عن الصفات المذمومة بتفصيلها ، والتحلي بالمحمودة بتفصيلها . والعامة هي طريق أصحاب اليمين ، والخاصة للمقربين ، ولا ينالها قبل إحكام الأولى ولو عاش عمر نوحٍ ، ومن لا يُحكِم صلاته أو زكاته أو غير ذلك كما ينبغي كيف يصل إلى الخاصة ؟ بل هذا عاده خلفَ الباب لم يصل إلى قرب الدخول ، ولكن من أحكم العامة في هذا الزمان بلغ ما بلغه الخاصة المقربون ، لانقطاعها فيه وعدم سالكيها ، ومن يرجو المخلوقين ويتعلق بهم أو يرجو نفعاً منهم كيف يحصل له الترقي في مقامات اليقين ؟ ومن تعلَّق بهم فقد ترك اليقين وتعلَّق بالوهم ، وفِعْل الله هو اليقين والحقيقة وأفعالهم هو الوهم . ولا هكذا ينبغي بل ينبغي كما هو في قاعدة

الفقه ، أن يستصحب اليقين ولو طرأ الوهم والشك ، لا يترك اليقين لأجله ولهذا يكون المتعلق بهم خائباً في الغالب مع الذلة وشغل القلب » ، أو كما قال هـ .

أقول : قوله : « من أراد الدخول .. إلخ » ، هذا منه ترغيباً وحثًّا منه على دخول تلك الطريقة ، حيث دعا إلى ذلك بصورة من له اختيارٌ ، لعل بسماع ذلك يمنّ الله على السامع بما يحثه على دخولها، وإلا فليس ذلك من الأمور الإختيارية التي يفعلها الإنسان متى أراد . ولكن إذا أراد الله تعالى أن يسوق عبداً إلى جنابه ، ويوقفه على بابه ، بعد ما سبق له عنده من سابق السعادة ، أرسل على قلبه باعثاً يستحثُّه على ذلك ويستجِرُّه إلى ما هنالك ، يسوقه إليه ويُقبِل به عليه ، فيفرغ قلبه وقالبه مما سواه ، حتى لا يكون له همٌّ ولا مطلوبٌ إلا إياه ، وهو الباعث الذي ذَكَرَهُ في أول رسالة المريد إذ قال : « **أول الطريق باعثٌ قوي يقذف في قلب العبد فَيُقْلِقه ويزعجه ويحثه على الإقبال على الله وعلى الدار الآخرة، ويترك الدنيا وما الناس مشغولون به من عمارتها وجمع حطامها ، وهذا الباعث من جنود الله الباطنة ، ومن نفحات الهداية ..** » إلى آخر ما ذَكَرَ من شأنه وتفخيم أمره .

فهو إنما خاطب بقوله : « **من أراد** » ، يعني من حصل له ذلك الباعث الشريف فأزعجه إلى دخولها، فأراد دخولها بإزعاج هذا الباعث وإرهاقه له إلى الدخول في تلك الطريقة ، لا أنه أراد ذلك لكل أحدٍ وخاطب به عموم الناس من أراد ذلك منهم فليفعله فافهم هذا .

وقوله : « **ولا يجب على من أراد .. إلخ** » ، يعني إذا أزعجه إلى دخولها ، فأراد أن يدخلها ، فليفعل ما أوضحه وذكره له ، وهذا خطابٌ لمن هو على الطريقة الخاصة وذكر وصفها ووصف أهلها لا لمن هم على الطريق العامة ، ويدل عليه قوله : « **الناس يحسبون أنا ندعو إلى الطريق الخاصة وليس كذلك**»، وقوله : « **لا تظنوا أنا على الطريق الخاصة أبداً ، وإنما نحن على الطريق العامة** » ، وقوله هذا دَفْعٌ لِتَوَهُّم ذلك ، أعني : لما سمعتوا أنا نقول : « **من أراد الدخول في الطريق الخاصة** » ، إلى آخر المقالة .

« **فلا تتوهموا أنا عليها وندعو الناس إليها** » ، أي لا نعمل عليها بين الناس ، ولا ندعو الناس إليها، لأن عمله بينهم دعاء لهم إليه ، وليسوا أهلاً للدعاء إلى تلك الطريقة ، ولكن هو عليها بينه وبين الله .

وقد قلت يوماً لسيدنا في مجلس بسطٍ وانشراح خاطرٍ ، في خلوةٍ - وذلك في الخلاء ، فإن أكثر ما يكون انشراحه في الخلاء ، ولذلك يرغب فيه - : عسى ببركاتكم يحصل باعثٌ على طلب الأمور المحمودة ، وتجنب الأمور المذمومة على ما هو مذكورٌ في أول رسالة المريد ، فسكت قليلاً وأثر الغضب ظاهرٌ عليه ، كأنه ما استحسن أن أقول له ذلك - وكان هذه عادته إذا سئل عن ما لا يريد أن يُسأل عنه ، أو قيل له كلامٌ لا يَوَدُّ أن قيل له ، يسكت قليلاً ، ثم يتكلم للسائل والقائل بجوابٍ على مقتضى

سؤاله أو كلامٍ لائقٍ بحاله - ثم قال بعد سكوته ذلك : « **اعملوا ولا تستعجلوا ، وجزاء العمل إنما يكون في آخر العمل** » ، انتهى ما قاله حينئذٍ ، فدَلَّ ذلك على أن ثمرة العمل تكون بعده ، فيعمل على القانون الشرعي على حسب حاله ، ثم بعد ذلك يمن الله به على من يشاء .

وقوله « **بتفصيلها** » ، أي على ما فَصَّلَه الإمام الغزالي في الإحياء من تفصيله الصفات المذمومة في ربع المهلكات ، ومن تفصيله الصفات المحمودة في ربع المنجيات .

وقوله : « **ولكن من أحكم العامة في هذا الزمان بلغ ما بلغه الخاصة .. إلخ** » ، لحديث : « إنكم في زمانٍ من ترك فيه العمل بِعُشْرِ ما يعلم هَلَك ، وسيأتي زمانٌ من عمل فيه بِعُشْرِ ما يعلم نجا » أو كما ورد ، وقال بعضهم : « يكفي من الطاعة في هذا الزمان للصالحين ما كان يوجد من العصاة في غير هذا الزمان » ، وفي الحديث : « إنكم في زمانٍ من ترك فيه عُشر ما أُمِرَ به هَلَك ، وسيأتي على أمتي زمانٌ من عمل فيه بِعُشْرِ ما أُمِرَ به نجا » ، قال : « يعني يعمل بالعُشْرِ فقط ،ويترك ما سواه كما يتبادر إلى الأفهام » .

يعني أن العلم واسعٌ جداً ، وكل ما وجب فعله أو تركه يبلغ منه العُشْر ، وإن تاركه في أي زمانٍ كان فهو هالكٌ ، لكن في زمن الصحابة لِعُلُوِّ منصبهم في الدين وقوة إيمانهم برؤية النبي ﷺ ومباشرة الوحي ، أكَّد الشرع وحَثَّ عليهم وبالَغَ في اتباعهم وعملهم بكل ما ورد به الشرع وجوباً وندباً ، ولم يقنع منهم بالواجب فقط لأنهم في حيِّز القرب ، ومن هو كذلك لا يقنع منه بما يقنع به من البعيد ، ولذلك كان الخطاب بالكاف الذي هو للحاضر ، وما الحاضر إذ ذاك إلا الصحابة وكمل الأمة ، وأما الذين أشار إليهم بقوله : « وسيأتي زمانٌ » فليس الحال كالحال ، ولا الشأن كالشأن ، فيكتفي منهم بالعُشْرِ الواجب دون ما عداه ، فمن فعله فقد أحسن ومن تركه فلا عتب عليه ، وليس الخطاب لهم كالخطاب للأولين ، بدليل الحديث المذكور .

قوله : « **ولهذا يكون المتعلق بهم خائباً** » ، يعني لما تعَلَّقَ قلبه بهم ، وهو التعلق بالوهم الذي أشار إليه ، وتَرَكَ التعلق بالله وهو ترك اليقين الذي أشار إليه عاقبه الله بالحرمان مع عذاب قلبه وشغله ، فيخيب مما رجا منهم فلا يحصل له ، سيما في وقتنا هذا .

قوله : « **مع الذلة** » ، أي يذل لهم طمعاً فيما يرجوه منهم ، ويشتغل قلبه بالتوقع له ، فهذا التعب الناجز قد حصل ، والنفع المتوقع لم يحصل ، فخاب رجاه في الدنيا كما خاب رجاء المرائي في الآخرة ، حيث لم يحصل له من قيامه إلا السهر ، ولا من صيامه إلا الجوع والعطش .

فهكذا حال من لاحَظَ المخلوقين وغفل عن التعلُّق بِرَبِّ العالمين ، فَكِلا الحالين ملاحظةٌ للخلق من رجاهم ومن راآهم ، ولكن من طلب حاجته من أحدٍ على وجهٍ شرعي لا يخل بالديانة والمروءة ، وتسبَّبَ فيما يحتاج إليه مع تعلق قلبه بالله واعتقاد أن النفع بيده ، إن أراد أجراه على يد من أراد ، وإن لم يُجْرِهِ ما ينفعه أحدٌ من العباد فلا حرج عليه ، وهي الأسباب التي شرعها الله سبحانه لعباده .

وهكذا عادة النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالحين ، فمن اقتدى بهم وفعل كما فعلوا التحق بهم وصار منهم ، وإنما المذموم تعلُّق القلب بالخَلْق رجاءً وخوفاً نفعاً ودفعاً .

وإلى الإشارة إلى التعلُّق بالخلق على ما ذَكَرْنا ، *قال رضي الله عنه* : « **الإنسان ضعيفٌ ولأجل ضعفه يتعلق بالتوهمات أكثر من تعلقه باليقينيات** » هـ .

أقول : وقد بَيَّنَ ذلك في المقالة المتقدمة بقوله : « **وفِعْل الله هو اليقين والحقيقة ، وأفعالهم هو الوهم .. إلخ** » ، فَسَاق هذا الكلام في سياق الكلام الذي قبله ، يعني لضعفه تعلق بالوهم من توقُّع نَفْعٍ من جانبهم في جَلْبِ مرجُوٍّ أو دفع مخوفٍ ، وغفل عن الأمر اليقيني المحقَّق من تعلق القلب بالله فيما يرجو أو يخاف .

ومثله من نفسك في جانب الله مما وعدك به وتكفُّله من ضمان الرزق لكل مرزوقٍ وأخبر به بقوله سبحانه : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ، وما في حديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » ، أي تخرج أول النهار جياعاً وترجع آخره شباعاً، وقال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ثم مع ذلك يقع في القلوب الضعيفة من الوهم والتقلقل والإضطراب ما يقع . ولذلك شرع التسبب في المعاش لتقلقل القلوب فيها إلا النادر القليل من الكُمَّل الخصوص الذين قال سيدنا فيهم : « **ما كلفنا أن نخاطب الخلق بطريق الخصوص بل بطريق العموم ، وعليها وردت أحكام الشرع كلها** » ومنها التسبب لما ذُكَرَ من تمكن قلوبهم ، فلو كانت كل القلوب على مثل قلوب الخواص لما احتاجوا إليه .

كما ذُكِرَ أن أبا موسى الأشعري مع جماعةٍ من الأشعريين أقبلوا من اليمن للجهاد لمَّا ندب النبي ﷺ للجهاد في سبيل الله ، فآووا إلى مسجده ليلاً بعدما صلى العشاء ودخل البيت ، فأرسلوا رسولهم إليه بأن جماعةً من الأشعريين قَدِموا ليلاً جياعاً يسألونك العشاء ، فسمع رسولهم قارئاً يقرأ في بعض البيوت هذه الآية : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، فرجع من الطريق ولم يصل إلى البيت فقال له أصحابه : ما وراك ؟ قال : الساعة يأتيكم العشاء .

فما لبثوا إلا قليلاً حتى جاءهم رجلٌ بقصعة ثريدٍ يسيرة ولحمٍ كثيرٍ له رائحةٌ طيبةٌ ، فأكلوا حتى شبعوا ، ورفع الماعون وما بقي فيه . فلما جاء النبي ﷺ لصلاة الصبح سلَّموا عليه ، ثم قالوا : « ما أحسن طعامٍ بعثته إلينا يا رسول الله » ، فقال : « ما أنا بعثت إليكم طعاماً ، وإنما الله بعثه إليكم » .

وكان مجيهم أيام ندب النبي ﷺ الناس إلى الجهاد والمسير إلى غزوة تبوك ، فسألوا النبي ﷺ أن يحملهم ، فقال : والله لا أحملكم ، وما أجد ما أحملكم عليه فَتَصَبَّروا من يمينه ، حيث حلف أن لا يفعل، وبكوا لذلك لِعِلْمِهِم أن ما عندهم ما يقومهم على الجهاد . فنزل في المعذورين عن الجهاد قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذا العذر كان يشمل أولئك الوفد أبا موسى وأصحابه ، ولكن نزلت فيهم خاصة بعذرهم الآية التي بعدها قوله تعالى : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾، ثم إن النبي ﷺ أتي بكسبٍ ونهبٍ وإبلٍ من بعض سراياه فحملهم وزوَّدهم، فقالوا لبعضهم البعض : إنه حلف أن لا يحملنا وقد حملنا ، لعله نسي يمينه ، ولئن استنسيناه يمينه لا نفلح أبدا . فقالوا : « يا رسول الله ، حلفت أن لا تحملنا وقد حملتنا » ، فقال : « ما أنا حملتكم ، وإنما الله حملكم » ، فاعجب لحال رسول الله ﷺ في هذه القصة وقصة العَشَاء ، كيف شأنه وتفويضه الأمور كلها إلى الله ، ولا يَرى له معه فعلاً ما قط ، مع ما علمت من حنقه من بقية ما بقي بعد وفاء الدَّين ، ومبيته عن أهله من أجله في المسجد ، ومكثه لذلك ليلةً ويوماً ، وسجوده للشكر لما خرج ذلك عن حَوزِهِ ، وهكذا هو في سائر شؤونه وأحواله ، أنه بما في يد الله أوثق منه في يديه ، فكل من قرب إلى حاله وشأنه هذا من أمته بل من جميع الخلق من قبل مبعثه ، فهو الأقرب إلى الله والأحب عند الله لقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ثم ذكر حاله في هذه المقالة ، *فقال رضي الله عنه* : « **لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا إلا مع الحاجة الظاهرة إليه ، فإن الإستكثار من أمور الدنيا ما هو شيءٌ أصلاً ، فلا تجعل لنفسك منها شيئاً ، ولا تقل : ربما تدعو إليه حاجة . فحاجة الآخرة والدِّين أهم إليك من هذا ، غير أنَّا ما نحب أن نكثر على الناس فيما هُم فيه ، وكلما قدر الإنسان يضيِّق على نفسه في هذا الزمان لوجه الله لا لشيءٍ آخر ، فإن ما عند الله خيرٌ وأبقى** » ، *قال* : « **وهذا عزيزٌ ونادرٌ جداً** » ، وقال في معنى ذلك : « **ومعناه طمأنينةٌ تحصل في قلبه لا يضطرب ، ولو ما عنده شيءٌ ، ورزقه في خزائن الله ، لكن أين من يطمئن بذلك قلبه ؟** » هـ .

أقول : وما أرى سيدنا أراد بهذه المقالة إلا وَصْفَهُ وَوَصْفِ حالِ مَن هو مثله على المقام المحمدي

ممن لا يبات على معلومٍ قط ، فما ذَكَرَ إلا مقامه ، ومراده بذِكْرِه حث الكُمَّل ممن سمع قوله هذا أن يجتهد ويجاهد نفسه على الترقّي إلى هذا المقام ، فإنه الغاية والنهاية في الترقي ، فما وراء هذا المقام مقام ، فأين الناس اليوم من هذا المقام ؟ فهو في وادٍ وهم في وادٍ .

فكأنه إنما أراد بهذا القول في مقام العامة أن يقابل الشيء بضده ، لعل أن يحصل الإعتدال الذي هو الوسط ، كما يجعل على الماء الشديد الحرارة ماء بارد ، أو على الشديد البرودة ماء حار ، ليعتدل ويكون وسطاً . وهكذا الدين والحكم المشروع الذي بعث الله به نبيه ﷺ ، كما قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝﴾، وقال ﷺ : « أوغِلوا في هذا الدين برفقٍ ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، وما أحدٌ غالب الدين إلا غلبه » ، وقال سيدنا : « **كل ما نأمركم به ونحثكم عليه إنما نريد به الوسط وفي الحديث : دين الله الوسط ، لا غلو ولا تقصير** » .

فأراد سيدنا بقوله هذا أن يقابل الشيء بضده ، فإن كل ما أفرط الطبع وما تهواه النفس في طلب شيءٍ بالَغَ الشرع في طلب ضده جداً ، لعل أن يحصل الوسط المعتدل الذي هو المقصود ، فإن النفس كل مطالبها حظوظٌ دنيويةٌ لا حق لله فيها ، والشرع أراد من كل الخلق تجريد القصد في الأفعال كلها لله ، لا يلاحظ فيها هوى النفس في أقل قليلٍ كمل لهم القيام بحقوق الله ، فإن كل ما للنفس فيه حظ وجرد القصد له لا حق لله فيه وإن قصده أيضاً ، فاختلفوا فيه فمن قائلٍ له بقدر قصده ، ومن قائلٍ لا شيء له .

فإن الله سبحانه جَبَلَ كل الخلق على الميل لما تهواه نفوسهم ، ثم أرسل إليهم شرعه على يد رسوله يدعوهم من الميل إلى أهوية النفوس بالكلية ، إلى تجريد القصد كله لله سبحانه ، ليتحقق منهم كمال تحقيق العبودية للربوبية ، كما قال سيدنا : « **ما بعث الله الرسل إلى الخلق إلا ليدعوهم من الدنيا إلى الآخرة** » ، فوفق الله لكمال ذلك - أعني ما دعت إليه الرسل - من أراد من الخلق ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم أيضاً دون ذلك ، ولهذا اختلفت درجاتهم عند الله وعند خلقه ، وفي الدنيا وفي الآخرة بحسب اختلافهم في درجات التقوى التي هي مخالفة أهوية النفس الذي دعتهم إليه المرسلون .

ومثال ذلك لما أن أفرط الطبع العامي في طلب الأكل بالغ الشرع في خلافه ، وحث الطبع الخاصي على موافقة الشرع في مجاهدة نفسه في تركه إلى الغاية حتى ربما اكتفى بلقمتين أو ثلاث ، وربما عند ذلك فتح الله عليه بما يسلّيه ويُغْنِيه عن الأكل ، وجعل لذته عن ذلك في العبادة دونه كالملائكة إذ غذاهم الذِّكْر ، ويكون ذلك إن كان عند الله من الخواص ، كما ذكر أن الشيخ أبا بكر بن عبدالله العيدروس نفعنا الله بهما، لما دخل شهر رمضان أعطاه أبوه ثلاثين تمرةٍ ، وقال له : « سر إلى قبر النبي هود عليه السلام ، وصم رمضان هناك ، وافطر كل ليلةٍ بتمرةٍ في كل الشهر » ، فسار ، فلما صام منه ثلاثة أيامٍ أفطر فيها بثلاث

تمراتٍ ، ثم حصل له من فتوح الله ما أغناه في بقية الشهر عن باقي التمر ، فجاء إلى أبيه بسبعٍ وعشرين تمرةٍ وقال : « ما احتجت لها » ، فقال : « يا ولدي ، إني علمت أنك لم تحتج لها ، ولكن اتباعاً لطريقة السلف » ، وذَكَرَ الشعراوي في حديث : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه ، وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنَفَسِه » ، قال : « إن قوله لقيماتٍ: أي نحو تسعٍ » .

قوله : « **لكن أين من يطمئن بذلك قلبه ؟** » ، أي يسكن ، فلا يضطرب في تلك الحالة حالة الفقد وذاك لقوة اليقين واضطرابه وتقلقله من ضعف اليقين .

كيف وكثيرٌ من الناس في هذا الوقت خصوصاً في هذه الجهة ، إذا رأى أحدهم يده خاليةً من المال جزع لذلك وتبرم وذهب عقله وجنَّ واختلَّ حاله ، كما ترى كثيراً كان في أيديهم شيءٌ من الدنيا وعقولهم ثابتة ، ثم ذهب من أيديهم فجنُّوا وداروا في السكك مخاليع ، فأين هؤلاء وأمثالهم من قوة اليقين وعدم اضطراب العقل عند الفقد ؟ وذلك لعدم طمأنينة القلب الناشئة عن كمال الإيمان الموجب لقوة اليقين .

فخطاب سيدنا هذا إنما هو لفحول الرجال الأبطال أهل الكمال في الإيمان والعقل والحال ، لا لأهل عقول النساء ضعفاء الإيمان الأرذال ، الذين يرون الإحسان والمعروف جالباً للفقر ومُذهِباً للمال ، فلا يكادون يُخرِجون الزكاة الواجبة التي هي أحد أركان مباني الإسلام فضلاً عن المسنون المستحب ، فليس في أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم ، ولا حقٌّ معلوم للسائل و المحروم كما في الآيتين أي لا واجب ولا مندوب ، فلا تعدهم شيئاً ، إنما هم أصحاب الدجال ، كما قد سمعت سيدنا غير مرةٍ يقول : « **رأينا فيما رأينا أن من لو حضر الدجال لأجابه ، إنهم يجيبونه من قبورهم** » .

فأين هؤلاء من الذين مدحهم الله بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ ، ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾، ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾.

فأين أهل زمانك من هؤلاء المذكورين ؟ بل أهل الزمان إذا رأى أحدهم الفقير في المسجد أو في المجلس أو التقى معه في طريقٍ ولو رآه على بُعدٍ ضاقت عينه منه ، ويود أنه لم يره خوفاً من أن يسأله حاجةً أو يستشرف له ، وربما أن الفقير أغنى منه قلباً وأسمح منه نفساً ، وإن كان هو أغنى منه يداً ، إذ لا عبرة بغنى اليد مع زطاطة النفس وشحها ، وإنما الغنى ما قاله سيدنا علي كرم الله وجهه :

وَلَيْسَ الغِنَى إلا غِنىً زَيَّنَ الفَتَى عَشِـيَّةَ يُقْـرِيْ أَوْ غَـدَاةَ يُنِيـلُ

فالزطاطة وقبح شح النفس هو وَصْف أهل زمانك إلا من شاء الله ، فأين هم من ذلك الخطاب ؟ وأين هم من دخول ذلك الباب ؟ فلا تعدهم شيئاً .

فما أرى سيدنا على التحقيق واليقين أراد بهذه المقالة إلا إخباراً عن وَصْف حالِهِ هو ومقامه ، وإلا فقطعاً ويقيناً أن لا أحداً غيره من رجال تسبيح هذه البيوت المرفوعة المذكور فيها الإسم الجامع بالغدو والآصال ، ولا سواه من فرسان رهان هذا الميدان ، المبتدئ من فضل الرحمن ، وإلا فإنما هذا حال النبي ﷺ وسيرته وأحوال أقطاب أمته وسيرهم .

فأما حال النبي ﷺ فكما أخبر عن ذلك بلالٌ رضي الله عنه – وسيأتي أيضاً – قال : « كنت أنا أَلِيَ معاش بيت رسول الله ﷺ منذ بعثه الله إلى أن توفاه الله ، فكان إذا جاء الرجل أو الرجلان أو أكثر مسلمين عارين جائعين ، قال رسول الله ﷺ : اقْتَرِضْ وَأَطْعِمْهُم واكْسُهُم .

فكنت أفعل ذلك إلى أن كثرت علي الديون ، وألَحَّ عليَّ أهلها في طلبها ، فاستأذنت رسول الله ﷺ أن أخرج إلى بعض الأحياء التي خارج المدينة إلى أن ييسِّر الله لهم وفاءً . فقال ﷺ : لا تعجل . فبِتُّ تلك الليلة ، ثم حصل للنبي ﷺ ما أوفى جميع الديون ، ثم بقيت بقيةٌ فأخبرته بالوفاء وبتلك البقية بعد صلاة العشاء . فقال : أرحني من هذه البقية ، فما أنا بداخلٍ على أهلي حتى تريحني منها . فبات تلك الليلة في المسجد ، وظل فيه إلى الليلة الأخرى إلى بعد العشاء ، فتيسر لي محتاجٌ فدفعتها إليه . وأخبرت النبي ﷺ بذلك ، وقلت : يا رسول الله ، قد أراحك الله من ذلك . ففرح وكبَّر وسجد شكراً لله على سلامته منها . كل ذلك خوفاً أن يدركه الموت وعنده شيءٌ من الدنيا ، ثم دخل على أهاليه، فسلَّم عليهن واحدةً واحدة لغيبته عنهن تلك الليلة ، ثم بات عند التي عندها مبيته » .

فهكذا شأن رسول الله ﷺ فعليه تصدق مقالة سيدنا هذه ، والقصة مذكورةٌ في البخاري ، وفيه قال بلال : « فلما رآني بعض المشركين أتديَّن – أي أقترض – من عند الناس ، قال : تديَّن من عندي ، فأنا ذو مالٍ فلا تَعُد تتدين إلا من عندي . فكنت أتدين منه إلى رأس الشهر – أو قال: إلى أجلٍ – فلما كان قبله بثلاث أيامٍ ، وقد كثر له عليَّ الدَّين ، فالتقاني في طريقٍ فقال لي : يا حبشي ، ما بقي دون الأجل إلا ثلاث ، فإن حضر الأجل ولا أوفيتني ، أخذتك ترعى الغنم .

فقلت : يا رسول الله ، إن ذلك الذي أتدين منه قد تَجَهَّمَنِي بالكلام ، فأذن لي أن أبق إلى بعض هذه الأحياء التي حول المدينة ، إلى أن ييسِّر الله لرسوله ما يوفي عني ، فقال ﷺ : لا تعجل . فنمت تلك الليلة وسيفي وترسي عند رأسي ، ناوياً أني حين أصلي الصبح مع رسول الله ﷺ أن أبق إلى

بعض تلك الأحياء ، فحين أخذني النوم وإذا داعي رسول الله ﷺ يدعوني يقول : يا بلال ، أجب رسول الله ﷺ ، فمضيت إليه ، فرأيت عند بابه راحلة بحملها مناخةً ، فدخلت على رسول الله ﷺ وسلمت عليه فقال: رأيت الراحلة المناخة ؟ قلت : نعم ، قال : فإنها أهداها لنا عظيم فَدَك بما عليها، فَبع الجميع وأوفِ ديونك ، وإن بقي شيءٌ لا تدخل به عليَّ حتى تخرج الجميع » ، فبقي بلالٌ يومه في بيع ذلك ووفاء ديونه إلى الليل ، وقد بَقِيَت تلك البقية وأخبر بها رسول الله ﷺ فما دخل على أهله حتى أخرجها ، فهكذا شأن رسول الله ﷺ ، وأما ما كان من شأن أقطاب الأمة فما بلغنا ذلك عنهم إلا بالسماع .

وما شاهَدنا منها إلا حال سيدنا عبدالله الحداد نفعنا الله به : فإنه كان يأكل في بيته ومن بنيه نحو أربعين نفساً ، وربما غابت الشمس وليس في البيت لهم عشاء ، فما نصلي المغرب ونافلته إلا والعشاء زاهِبٌ ينتظر به حضور الآكلين ، فمثله الدنيا مسخَّرَة لهم وفي خدمتهم ، كما ورد : « إن الله تعالى أوحى إلى الدنيا : يا دنيا من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه » .

ولأكل طعامهم خواصٌ عظيمةٌ ومعانٍ عجيبةٌ سنشير إليها فيما يأتي عند قوله : « **لو يعلم الناس ما طعامنا ، لسارعوا إليه ولازدحموا عليه** » ، فحاله يصدق عليه مقاله . فمن ثم قال ما قال تذكيراً بهذا الحال ، وأنه كان شأن الأكابر من الرجال إقتداءً بنبيهم وتأسِّياً به ﷺ كما هو شأن الخواص من الأنبياء والأولياء والصالحين من أخيار الخلق المحبوبين عند الله .

ولهؤلاء الأكابر في شدائد الدنيا ومحنها ومكارهها ولأوائها مقصودٌ وافي ومرادٌ شافي ، من تجنب رفاهياتها والإنزواء عنها بالكلية طوعاً ، وإن فاجأهم من ذلك شيءٌ ما كرهوه بل فرحوا به ، كما ذَكَرْنَا من تلذُّذهم بالبلاء لما يعلمون أن وقوع ذلك بهم محبوبٌ عند الله ، ولذلك أوقعه بهم فنالوا درجة عبادة الله على الرضا ، كما قال النبي ﷺ : « اعبُد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » ، وهذان مقاما العبادة : مقام الخواص السابقين ، ومقام العامة أصحاب الميمنة وما خرج عنهما فمقام أصحاب الشمال كما في آية الواقعة : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴾، إلى آخر ما ذكر من أوصافهم. فأحَبَّ الخواصُ جميعَ ما أحب الله ، وإن كرهه الطبع العامي كما هو مشاهدٌ من سِيَرهم وأعمالهم وأحوالهم .

ويكفيك ما سمعت من حال رسول الله ﷺ وشأنه ، كيف راودَتْهُ الجبال أن تنقلب له ذهباً بأمر الله فأبى ذلك ، ثم جعل يمكث ثلاثة أهِلَّة في ثلاثة أشهرٍ ما يوقَد في بيته نارٌ لطعامٍ ، ويقاسي مشاقًّا من مطالبة اليهود له في استيفاء ديونهم التي عليه لهم ، ولا عنده لهم وفاء ، فإنه كانَ من عادته أنه لا يقترض إلا من اليهود ، لأنهم لا مِنَّة لهم ولا جميلة ، ولا يقترض من الصحابة قط ، لأنهم يرون أنه أحق بأموالهم منهم ، ويسوءهم أنه يأتيهم في صورة محتاجٍ يطلب منهم سَلَفاً ، ولو جاءهم كذلك

خرجوا له من أموالهم ، ولا يرضون أن ذمته تبقى مرهونةً لهم ، ويبرونه في الحال ولا يطلبونه ، وهو لا يرضى بذلك ولا يحب أن يطلب منهم نفعاً معاشيًّا دنيويًّا خوفاً أن يكون ذلك في مقابلة ما سبق منه لهم من نفع الدين ، وقد نهاه الله عنه بقوله تعالى : ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾وغير ذلك ، وهذا إذا كان باستدعاءٍ منه كطلب قرضٍ ، وأما ما كان منهم ابتداءً من غير استدعاءٍ منه فلا يدخل في هذا .

فقد أنفق سيدنا أبوبكر رضي الله عنه جميع ماله على رسول الله ﷺ من غير استدعاءٍ حتى تخلل بالعباء ، ويودون لو قال لهم بصورة آمرٍ متصرِّفٍ بِعِزٍّ ، ولا يأتيهم بصورة محتاجٍ طالبٍ منهم قرضاً .

وقد قال العلماء في قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، أي النية الصادقة الخالصة ، فإذا قرأ كتاب الله طول السنة بمَنٍّ تمرٍ أو بموسمية أرز ، أو صلى الصلاة المفروضة بأجرةٍ دنيويةٍ من مخلوقٍ ، فماذا يناله منه ؟ فما يناله منه إلا ما يسود وجهه ويقبح حاله عند ربه ، نعوذ بالله منه ، ثم إن الطبع المذموم الذي هو من شأن جبلة الآدمي من الشح والبخل المانع من اتِّباع محاب الله من التصدق والمعروف مخالفٌ للشرع في كل مطالبه إلا النادر ، وقد كان الناس في الأزمنة الماضية والأوقات السابقة يخالفونه ، لما يعرفون أنه مخالفٌ لمحاب الله . أحدٌ منهم مع المشقة مجاهدةً للنفس في اتباع الشرع وما يرضي الله ، وأحدٌ طوعاً من نفسه لما مَرَّنَهَا عليه من ذلك ، حتى تَمَرَّنَت عليه فخالفت عوائدهم تلك الطبيعة الجبلية الخسيسة وأخذت على ذلك .

ولما اليوم في هذه الأزمنة ، فقد غلبت تلك الطبيعة الجبلية ولا عولجت على مخالفتها بل اتُّبِعَت ، وصارت المجاهدة والمعالجة إلا فيما تدعو إليه ويعين عليها حتى صارت الأمور المطلوبة في الشرع في طريق الخواص مبغوضةٌ جدًّا ، وفاقاً للطبع وإعراضاً عن الشرع ، انظر قول النبي ﷺ : « هدية الله على باب أحدكم السائل على بابه » ، كيف ما أبغضهم لهدية الله هذا ! ويود أحدهم أنه ما رآها ، وَقِس على ذلك أموراً كثيرةً يطلبها الشرع ويبغضها الطبع .

وإن مطالب الشرع في الزمن الأول هي المتَّبعة خلافاً للطبع ووِفاقاً للشرع ، وإن مطالب الطبع اليوم هي المتَّبعة وِفاقاً للطبع وخلافاً للشرع ، ولذلك قال سيدنا رضي الله عنه : « **اليوم انقلبت الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها** » ، وهي من غرر كلامه وجوامعه ، ولهذا تراها صَدَقَت في أمورٍ شتى وأحوالٍ لا تحصى ، كما ترى من مواضع تُذْكَر فيها دالة على معانيها .

وتكلم ليلة الجمعة ١٢ ربيع الآخر سنة ١١٢٣ في أحوال الأولياء وغاراتهم ، وأكثر الكلام في

ذلك ، *ثم قال رضي الله عنه* : « **درك الأولياء أهل الإدراك صحيحٌ من توجههم إلى الله في تحصيل ما ينفع ودفع ما يضر ، وهم العمدة في تحصيل ذلك لكن يكون هذا إذا كان المطلوب لهم - أو قال : الرعية - مستقيمين فاعلين لما طلب منهم ، مجتنبين لما نهوا عنه ، وأما إذا خالفوا فلا يُحَصِّل الأولياء لهم ذلك ، كمن يطلب لبناً من ثورٍ ، فلا تكون الكرامة إلا مع الإستقامة . كيف يطلبون حقًّا لأنفسهم ، ويضيعون حق ربهم ؟ وقد ذُكِرَ أن بعض الدول[1] أراد دخول البلد تريم في وقت الشيخ عمر المحضار فلم يقدر، إذ كانوا مستقيمين ، وآخر في وقت الشيخ عبدالله العيدروس ثلاث مراتٍ يطلب الدخول فلم يمكن، ثم في الثالثة تلقَّاه الشيخ وقال له : إنك لا تدخلها الآن ، وعادك تدخلها . فلما تغيروا بعد ذلك دخل عليهم فأشغلهم** » هـ .

أقول : سمعت أن بعض قرى حضرموت وهم بنو نَهْدٍ ، كانوا لا يورِّثون البنت فرأى بعض المكاشفين أن سلطاناً ظالماً دخل عليهم ، والخضر قابضٌ بلجام فرسه يقوده إليهم لتبطيلهم ذلك الحكم الشرعي ، فدخل عليهم وأخرب بلادهم ، ثم بعد ذلك ارتدعوا عن ما كانوا عليه ، ورجعوا يورِّثون البنت .

ولما إن الله سبحانه مَنَّ على الأولياء وجعل فيهم شبهاً من الملائكة من استغراقهم بالله وتلذذهم بِذِكْرِ الله ، وجعله لهم غذاءً يكفيهم عن الطعام والشراب ، كما ذَكَرْنَا عن الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس لما أمره أبوه بصيام رمضان عند النبي هود وأعطاه ثلاثين تمرةً ليفطر كل ليلةٍ على تمرةٍ ، فأفطر ثلاث ليالٍ على ثلاث تمراتٍ ثم لم يحتج لباقي التمر في باقي رمضان ، وأتى به لأبيه .

فهكذا إلتَذُّوا بِذِكْرِ الله عن الأكل والشرب ، وتجردت أرواحهم عن أشباحهم ، أعني غلب فيهم مطالب الأرواح لمطالب الأشباح ، مع أن الروح من عالم الملائكة لكنه في العوام استولت عليه مطالب الأجسام فاستغرقته ولذلك قال سيدنا : « **ما أنزل الله الروح إلى الجسم حتى أخذ عليه العهد والميثاق**»، أي بأن يبقى على مطالبه في وصف الملائكة ، ولا يتابع النفس في مطالبها ، فلما كانوا كذلك جعلهم الله أسباباً لنفع العالم من جلب الخير ودفع الشر ، كما جعل الملائكة كذلك من جلب المنافع ودفع المضار على أيديهم ، كما قال الله تعالى : ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « **يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار** » .

والآدميون بأنفسهم مدبَّرون بالملائكة ، فمنهم من يجذب الغذاء ، ومنهم من يدفع الفضلات، وجعلهم الله سبباً في جلب المنافع والخيرات ، ودفع المضار وجلب المسار ، وجعل الأولياء من الآدميين

---

(١) أي السلاطين .

مثلهم في دفع المضار وجلب المسار والمنافع والخيرات على الشرط الذي ذَكَرَ سيدنا ، ليظهر سِرَّ قوله تعالى للملائكة : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وذلك أن الأرض كانت معمورة بالجن على ظهرها ظاهرين عليها ، تأتيهم الأنباء عن الله تعالى بالأمر والنهي ، ومكثوا على ذلك مدةً طويلةً ، ثم بعد ذلك أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء ، فأرسل الله عليهم طائفةً من الملائكة فقتلوهم وهزموهم وأزاحوهم عن ظاهر الأرض، وبقيت الأرض خاليةً لا عامر فيها ، فخلق الله آدم وأراده وذريته يسكنوا الأرض ويعمروها بدلهم، فقال تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فرأوه محتاجاً للأكل والشرب وضرورات المعاش ، فقالوا : إنه لا يحصل له ذلك ويتأتى له إلا بظلمٍ وفسادٍ ، ورأوا أنفسهم غير محتاجين لذلك في أصل جبلة خلقتهم ، وأن العبادة لذلك تتأتى لهم من غير موانع عنها ومعاناةٍ لها ، وأن آدم وذريته من أجل ضرورات المعاش لا تتأتى لهم العبادة من كل الوجوه مثلهم ، فقالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ، فلـمّا ذموهم وازدروهم ورأوا نقصهم من ذلك السبب المانع لهم من العبادة وفضّلوا أنفسهم عليهم فقال الله تعالى لهم رداً عليهم : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي ما تعلمون حكمتي في إيجادهم .

فبيَّن عجزهم عنهم وأظهر فَضْلَ آدم عليهم بأن علَّمه أسماء كل شيء ، ثم قال لهم : ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾، فعجزوا عن ذلك : ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾، تبين لهم فضله عليهم ، فلما أظهر فضله عليهم قال سبحانه لهم رداً عليهم أيضاً : ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾، فعرفوا أنهم أجرموا جريمةً عظيمةً بهذا الإعتراض .

والعجب كيف وقعت هذه من خواص عباد الله المكرمين من الملائكة المكرمين عليهم السلام ، فلما تبين لهم ذلك إلتَجأوا إلى البيت المعمور ، فطافوا به يسترضون ربهم فرضي عنهم ، ثم قال الله تعالى للملائكة : « ابنوا لي بإزائه بيتاً في الأرض ، فيطوف به من غَضِبْتُ عليه من بني آدم فأرضى عليهم كما رضيت عليكم » ، فبنوا بيت الله الكعبة لذلك كذلك .

كما ذُكِرَ في الأثر أن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه لقي الخضر في الحجر تحت الميزاب ، فسأل الخضر : « ما أصل هذا البيت ؟ » ، قال : « لما خلق الله آدم ، قال للملائكة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فغضب عليهم ، فطافوا بالبيت المعمور يسترضون ربهم فرضي عليهم ، فقال: ابنوا لي بيتاً في الأرض فيطوف به من غَضِبْتُ عليه من بني آدم فأرضى عليهم كما رضيت عليكم ، فبنوا هذا

البيت » ، فشَبَّهَ سبحانه بني آدم بالملائكة من وجوهٍ متعددةٍ ، لما فضلوا أنفسهم عليهم ثم لما نقل نور نبينا ﷺ إلى وجه آدم أمر الملائكة له بالسجود زيادةً في التنويه بِقَدْرِهِ عندهم ، لأن الله سبحانه خلق ذلك النور من نوره ، فابتدروا الأمر مسرعين مذعنين غير مُتَلَكِّئِين ولا محابين ، وما توقَّفَ منهم عنه أحدٌ خوفاً من طُرُوِّ ملامٍ بعد الرضا ، وامتثالاً للأمر كما هي سجيتهم .

وقد جرت عادة الله سبحانه أنه ما اعترض أحدٌ من الخلق على أمرٍ إلهي ، أو تعدى أحدٌ منهم قَدْرَهُ فوق ما جعل عليه ربه ، أو ظن في نفسه أمراً اعتلاءً به فوق حدِّه ، أو دَبَّر أمراً في نفسه مع ربه ، أو أنكر خِلْقَةَ الله في شيءٍ ، إلا أظهر الله سبحانه ذُلَّه وعَجْزَهُ وأحْوَجَهُ إلى ما أنكر ، وبيَّن له عَجْزَهُ وقصوره عن كل ما ادعى ليقف عند حده ولا يتعدى طوره . كذلك الذي أنكر خلقة الخنفساء وقال : « لأي شيءٍ خلق الله هذه ؟ » ، فابتلاه الله بقرحةٍ عجزت عن مداواتها الأطباء ، وتضرر بها جدًّا وآلمته ، وإذا برجلٍ يدور بأدويةٍ في الطرق وينادي ويقول : من به قرحةٌ عاصيةٌ فدواها حاضرٌ ، فشكى إليه من قرحته فقال : آتني بخنفساء . فأتاه بها فشدخها ووضعها على القرحة وشدها عليها ، فما لبث أن برئت بإذن الله ، فأحوجه الله إليها وبَيَّن له خطأه في اعتراضه فأعجزه وانخذل ، وعلى هذا جرت العادة الإلهية .

وما يرضي الله سبحانه من عبيده إلا الإنقياد الكلي ، والتسليم لأمره ظاهراً وباطناً ، والإنطراح البالغ تحت حُكْمِهِ ومشيئته ، فلا يدبر معه ولا يختار غير ما يريده ، ولا يستنكر شيئاً من فعله مما به أو بغيره عامًّا أو خاصًّا ، بل يخضع وينطرح تحت قضائه وحكمه ، ولا يقل : لم هذا ؟ وكيف هذا ؟ حتى في مشيئته واختياراته فلا يختار غير ما يختاره الله ، هذا من حيث اختياره ، وأما في الحقيقة فما يختار العبد غير ما اختاره الله له ، كما قال تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وقد قال الله لنبيه : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فهذا شأن الكامل العارف بكل من تحقق بهذا أكثر من غيره ، فهو أفضل منه .

وفي هذا المعنى - من غاية التسليم وعدم إظهار أقل قليلٍ من الدعوى ولو صدقاً - وقائع كثيرة للملائكة والمقربين ، وللأنبياء والمرسلين ، وللأولياء والصالحين ، وهذه من وقائع الملائكة من دعواهم أنهم أفضل من آدم وذريته ، وأنهم أمكن في العبادة منهم ، فبَيَّن الله بطلان ما ادعوا ، وسنُبيِّن ونشير إلى ما وقع من ذلك لمن ذَكَرَ عند قوله : « **كل مُدَّعٍ مخذولٌ ، ولا بد أن يقيِّض الله له من يعجزه فينخذل عند ذلك ، ولو كان كثير العلم** » .

فلما أن وقع منهم ذلك جعل الله سبحانه كل فضيلةٍ خَصَّ بها الملائكة - وظنوا أن لا يشركهم فيها أحدٌ - أشرك فيها أحداً من بني آدم ، ويجمع جملتها جلب المنافع ودفع المضار ، كما قال سيدنا: « **درك الأولياء أهل الإدراك صحيح** .. » إلى آخر المقالة على ما شَرَطَ فتأملها .

وذلك ليظهر تعالى سِرَّ قوله للملائكة : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، إذ ما كانوا يعلمون ما أراد آدم وذريته به من هذه الأمور وما أراده منهم من تلك الأحوال ، حتى رأوها عياناً ولم تكن لهم على بال، ولا خطرت لهم في حسبان وما اطَّلعوا إلا على ما ظهر لهم من ظاهر البشرية المستدعية للمفاسد، ولهذا ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾، وذلك لما رأوا احتياجهم للطعام والشراب وعدم احتياجهم هم إلى ذلك ، وما اطَّلعوا على خصوصياتهم المستدعية لجلب المنافع ودفع المضار ، فلذلك قالوا ما قالوا .

فلما جعل تدبير عالم الغيب والشهادة ظاهراً وباطناً على أيدي الملائكة ، فكذلك أشرك معهم بني آدم ، إذ جعل تدبير ظاهر عالم الشهادة على أيدي بني آدم من أسباب الدنيا وأحكام الشرائع وهو تدبيرٌ آخر غير تدبيرهم في هذا العالم ، وجعل تدبير باطنه على أيدي خواصِّ منهم ، حتى كان القطب كما ذَكَرَ الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه في وَصْفِهِ كما قدَّمنا ذِكْره عنه حيث قال : « ما نزلت من السماء قطرة ماءٍ ، ولا نبتت في الأرض شجرةٌ ، ولا اخضرت ورقةٌ إلا بإذنه ، ولا يطلع الله تعالى إلى خلقه إلا بنظره ، وبه ينزل الغيث وبه يرفع البلاء » انتهى ، فسبحان الله الذي اختصه بهذا الحال ، وأراده به وله .

فانظر هذا الأمر العظيم الذي أراده الله سبحانه لهذا الإنسان من جملة بني آدم وأَهَّلَهُ له وخَصَّه به ولم يعلموا بذلك ، فأشركهم في هذه الأمور مع الملائكة ، وباهاهم بهم في اجتماعاتهم ، في عباداته من جُمَعِهم وجماعاتهم ، واجتماعهم في ذِكْرِ الله ، وفي وقوفهم بعرفة ، وصفوفهم في الجهاد في سبيل الله وغير ذلك ، إذ كلهم خلقه وعبيده في أمره وقبضته ، فيتفضل على من شاء من خلقه بما شاء من فضله، الكامل في كماله والناقص في نقصانه ، كما قال سيدنا : « **لا تظن أن أحداً من الخلق له كلامٌ مع الحق ، بل هم خلقه يعطيهم حقه ويثني عليهم** » ، يعني لا يكمل أحدٌ إلا بتكميله ، ولا ينقص أحدٌ إلا بقدر حظه الذي أراد له ، وبقدر ما قَسَمَ لكل أحدٍ من الحظ والنصيب ، فلا لأحدٍ وإن سعى واجتهد إلا ما أراد له وكتب له ربه سبحانه .

ومعنى المباهاة : أن يقول لهم في كل أمرٍ يباهيهم بهم فيه : انظروا يا من يقول : ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾، ماذا حصل منهم من عبادتي التي تفوق عباداتكم، مع ما معهم من الصوارف عن العبادة التي أنتم سالمين منها ؟ فقالوا : « لو معنا من الصوارف ما معهم عبدناك مثل عبادتهم » ، قال الله سبحانه : « إنكم لا تقدرون على ذلك » ، قالوا: « بلى » ، قال تعالى: « فاختاروا من أكملكم من أردتم » ، فاختاروا هاروت وماروت ، فركَّب الله فيهما الشهوة ، فلما لبثا أن زَنَيَا بالزهرة فمسخها نجماً ، وخيَّر الملكين بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا، لأنه منقضٍ وإن طال ، وعذاب الآخرة لا ينقضي ، فعلَّقهما في بئرٍ ببابل منكسة رؤوسهما إلى يوم القيامة، فتبين بذلك عند اعتراضهم عجزهم .

وجرت عادة الله أن كل من اعترض على الأمور الإلهية أن يبين عجزهم ويفضحهم ، وهذه من الوقائع التي ذَكَرْنَا من تبيين العجز عند الدعاوي .

وقد ذكر العلماء في شرح حديث حفوف الملائكة لأهل مجالس الذِّكْر ، فيسألهم سبحانه وهو أعلم: ماذا يقول عبادي ؟ قالوا : « يسبِّحونك ويمجِّدونك .. » إلى آخر السؤالات ، أنه تذكيراً لهم وتَبْكِيتاً على قولهم المتقدم . وكذلك الذين يتعاقبون فينا ليلاً ونهاراً فينزلون ويصعدون في صلاة العصر وصلاة الصبح ، فيسألهم سبحانه : « ماذا تركتم عبادي ؟ » ، فيقولون : « جئناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » ، كل ذلك ليظهر سِرَّ قوله تعالى : ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

فافهم إنما أنطقهم الله بوصفنا بالفساد ليتحقق لنا أن تلك الصفات الذميمة في طينتنا وأصل خِلقتنا مركَّبة فينا ، ولنعلم أن ما عملنا من أعمالٍ صالحةٍ مخالفةً لطبيعتنا إنما ذلك بتوفيق الله وفضله ورحمته ، فانقسمنا في ذلك فريقين :﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، وما اطلعوا منا إلا على فريق الأشرار الذين خُلِقوا للنار وخُلِقَت لهم ، وأما الأخيار الذين خُلِقوا للجنة وخُلِقَت لهم فما اطلعوا عليهم وما خطروا لهم على بالٍ ، لأنهم أهل الله وخاصته من خلقه ، وهم الذين باهاهم بهم حيث لم يعلموا ما خصهم به من مزايا فضله ، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

فلما كان كلام الملائكة واعتقادهم بالذم قبل علمهم بهم شاملاً للفريقين ، عاتبهم الله على ذلك وباهاهم بالأخيار بسبب هذا الإعتراض ، ولو سكتوا ولم يظهر منهم ذمٌّ ولا مدحٌ لما عوتبوا ، لأن الإعتراض من أحد الأمرين يلزم منه الإعتراض من جانب الآخر ، وفي السكوت سلامة .

وقد جعل الله تعالى في الملائكة خواصاً وعواماً ، وكذلك جعل في بني آدم خواصٌ وعوامٌ ، وفضل خواص بني آدم على خواص الملائكة ، وفضل عوام بني آدم على عوام الملائكة ، قال الشيخ علي بن أبي بكر علوي رضي الله عنه في كتابه معارج الهداية : « اعلم أن الله تعالى قد جعل الصورة الإنسانية والخِلقة الآدمية ، وقفص هيكل البشرية ، مع الصفة الروحانية ، نسخةً مختصرةً جامِعة لمجامِع جميع أنواع بدائع صنائع عجائب عقد درر نظام المصنوعات ، وأنموذجاً جامعاً وافياً لجميع غرائب دقائق جوامع كليات الكون وجزئيات المخلوقات ، وما خلق الله في العالَم الكبير من عجيبةٍ إلا وَنَقَشَها فيه ، ولا أوجد أمراً غريباً إلا وشَكَّلَه فيه ، ولا أبرز سِرًّا إلا وجعل فيه مفتاح علمه ، ولقد أحسن من قال :

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرمٌ صَغِيرٌ ... وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ

وعلى الجملة فما في العالَم الكبير شيءٌ إلا وفي العالَم الإنساني له نظيرٌ تدل دلالته مع ما انفرد به من أسرارٍ لطيفاتٍ وهيئاتٍ نافعاتٍ ، ومناظر بهياتٍ وتركيباتٍ عجيباتٍ ، وتمكن من الأفعال الغريبات،

واستنباط صنائع مختلفاتٍ ، واستجماع كمالاتٍ متنوعاتٍ ، وقد جعله الله ذريعةً إلى استيفاء ما قدَّر للملائكة من الكمالات ووصلةً إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات ، وعلى التحقيق فقد جعله الله نسخةً كاملةً في العوالم الروحانيات والجسمانيات ، مع زيادة أنوارٍ وأسرارٍ إلهياتٍ ، ودقائق وحقائق جليلاتٍ .

« فصلٌ » العلم نورٌ في القلوب مُقتَبَسٌ من مشكاة الكمالات المحمدية ، ومصابيح الأعمال والأخلاق والأحوال الأحمدية ، به يَهْتَدِي إلى الله في أفعاله وأحكامه ، وعلم اليقين : ما كان من طريق النظر والإستدلال ، وعين اليقين : ما كان بطريق الكشوف والنوال ، وحق اليقين : ما كان بتحقيق الإنفصال عن كون الصلصال ، لورود رائد الوصال » ، انتهى كلام الشيخ علي .

وقد تَبَيَّنَ بما ذُكِر فضيلة الإنسان على سائر الأكوان ، ولا سيما بنسبة سيِّد ولد عدنان ، بأن جعل منهم أفضل من خلق الله ، من جميع ما خلق الله ، ومن أول ما خلق الله نوره ، ثم خلق الله من نوره جميع مخلوقاته ، فلنأتِ هنا بحديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما : عن جابرٍ قال : « سألت رسول الله ﷺ عن أول شيءٍ خلقه الله فقال : هو نور نبيك يا جابر . إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، ثم جعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ، ولم يكن ذلك الوقت شيءٌ من المخلوقات ، لا لوحٌ ولا قلمٌ ولا جنةٌ ولا نارٌ ، ولا مَلَكٌ ولا سماءٌ ولا أرضٌ ، ولا شمسٌ ولا قمرٌ ، ولا جِنٌّ ولا إنسٌ، ولا عرشٌ ولا كرسي ، فلما أراد الله أن يخلق الخلق ، قَسَّم ذلك النور أربعة أجزاءٍ : فخلق من الجزء الأول : القلم ، ومن الثاني : اللوح المحفوظ ، ومن الثالث : العرش . ثم قَسَّم الجزء الرابع أربعة أجزاءٍ : فخلق من الأول : حملة العرش ، ومن الثاني : الكرسي ، ومن الثالث : باقي الملائكة . ثم قَسَّم الجزء الرابع أربعة أجزاءٍ: فخلق من الأول: السماوات ، ومن الثاني : الأرضين ، ومن الثالث : الجنة والنار . ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاءٍ : فخلق من الأول : نور أبصار المؤمنين ، ومن الثاني: نور قلوبهم وهو المعرفة بالله ، ومن الثالث : نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله » .

وفي روايةٍ قال ﷺ : « خلق الله نوري أولاً وخلق بعده منه كل شيءٍ ، فالعرش والكرسي من نوري ، والعلم والتوفيق من نوري ، والجنة وما فيها من النعيم من نوري ، وملائكة السماوات السبع من نوري ، والروحانيون من الملائكة من نوري والشمس والقمر والكواكب من نوري ، وأرواح الأنبياء والرسل والشهداء والصالحين من نتائج نوري ، ثم خلق الله اثني عشر حجاباً ، فأقام الجزء الرابع من نوري ، في كل حجابٍ ألف سنةٍ يعبد الله ، فلما خرج من الحجب - أي بعد اثني عشر ألف سنة - ركزه الله في الأرض فكان يضيء فيها بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم ، وخلق الله آدم من طين الأرض ، فركَّب فيه من النور في جبينه ، ثم انتقل منه إلى شيث . وكان ينتقل من طيِّبٍ إلى

طاهرٍ ، ومن طاهرٍ إلى طيِّبٍ ، حتى أوصلني الله إلى صلب عبدالله بن عبدالمطلب ، ومنه إلى رَحِم أمي آمنة ، حتى أخرجني إلى الدنيا ، فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمةً للعالمين ، هكذا كان بدأ خلق نبيك يا جابر » . انتهى حديث جابر بتلخيصٍ من رواياته ، أعني حذفت أسانيده ونقلت متنه .

وذكره بمولد « الحريفيش » ، قال : وروي عن كعب الأحبار أنه قال : « لما أراد الله خلق المخلوقات، قبض قبضةً من نوره وقال : كوني محمداً ، فصارت عموداً من نورٍ حتى انتهى إلى حجاب العظمة ، فسجد وقال : الحمد لله ، قال الله تعالى : لذلك خلقتك وسميتك محمداً ، منك أبدأ الخلق وبك أختم الرسل ، ثم إن الله عز وجَلَّ قَسَّمَ نوره أربعة أقسامٍ : فخلق من القسم الأول : القلم ، ومن القسم الثاني: الكرسي ، ومن القسم الثالث : العرش ، ثم قال للقلم : اكتب ، فارتعد من الهيبة ألف سنة ، فقال : يا ربِّ ، وما أكتب ؟ فقال : اكتب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فكتب القلم ذلك ، فاهتدى إلى علم الله ذلك في خلقه ، فكتب : أولاد آدم من أطاع الله أدخله الجنة ، ومن عصى الله أدخله النار، أمة نوحٍ كذلك ، أمة إبراهيم كذلك ، أمة موسى كذلك ، أمة عيسى كذلك . حتى انتهى القلم إلى أمة محمد ﷺ فكتب : أمة محمدٍ من أطاع الله أدخله الجنة ، ومن عصى الله .. ، أراد القلم أن يكتب : أدخله النار ، فإذا بالنداء من قِبَلِ العليِّ الأعلى : يا قلم تأدَّب ، فانشَقَّ القلم من الهيبة وانقطَّ بيد القدرة، وصار ذلك عادةً في القلم ، لا يكتب إلا أن يكون مشقوقاً مقطوطاً ، فقال القلم : يا ربِّ ما أكتب ؟ فقال : اكتب ، أمةٌ مذنبةٌ ورب غفور .

وخلق الله من القسم الثالث : العرش ، ثم قَسَّمَ الرابع على أربعة أقسامٍ : فخلق من الأول : العقل، ومن الثاني : المعرفة ومن الثالث : نور الشمس والقمر ، ونور الأبصار والنهار . وكل هذه الأنوار من نور محمدٍ المختار ﷺ . فكان هو أصل المخلوقات كلها ، ثم بقي القسم الرابع من النور مستودَعاً تحت العرش ، حتى خلق الله تعالى آدم فأودع ذلك النور في ظهره وأسجد له ملائكته ، وأدخله الجنة، وكانت الملائكة تقف خلف آدم صفوفاً ينظرون إلى نور محمدٍ ﷺ » ، إلى آخر ما ذكر في المولد من تَنَقُّل النور في آبائه وأمهاته ، إلى عبدالله ، ثم إلى محمد ﷺ - وليس آزر أبٌ لإبراهيم إنما هو عمه ، كذا اختاره الإمام السيوطي -

مَـا زَالَ نُـورُ مُحَمَّـدٍ مُتَنَقِّـلا ... في الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ذَوِي العُلا
حَتَّـى بِعَبْدِاللـهِ جَـاءَ مُطَهَّـرا ... وَمُكَرَّمـاً وَمُعَظَّـماً وَمُبَجَّـلا

انتهى .

ولما أرسل الله الملائكة على الجن الذين كانوا على ظهر الأرض فأفسدوا فيها فقتلوهم وأزاحوهم عن وجه الأرض ، وبَقِيَت خاليةً منهم ، وما على ظهرها ظاهرٌ منهم أحدٌ ، ولكنهم صاروا مُجْتَنِين - أي مستترين - ولهذا سموا جِنًّا لاجتِنَانِهِم - أي لسترهم - فلا يظهرون بعد ما عمرت ببني آدم ، لأن خلقتهم لا تقبل مقابلتهم وذلك من لطف الله بنا .

ولهم على وجه الأرض مدنٌ وبلدانٌ يسكنونها ويعمرونها ، ولا يطَّلع الإنس عليهم وهم يطَّلعون على الإنس ، وإن ظهروا فعلى صُوَرِ حيواناتٍ مختلفةٍ من حيَّاتٍ وعقارب وغيرهم ، فأعطاهم الله قوة التصور كما أرادوا ، لا يُعرفون أنهم جن ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ ، وقبيله : أي إبليس وأصحابه وأعوانه من الجن .

وبلدانهم مختفيةٌ عن الإنس على وجه الأرض ، كما اختفت إرم ذات العماد من وقت عادٍ ، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ بنحو أربعة آلاف سنة ، وما ظهرت لأحدٍ ولا اطلع عليها أحدٌ ، إلا رجلٌ في وقت معاوية أضَلَّ بعيراً له بناحيتها ، فجعل يدوره فرأى جدول ماءٍ يجري ، ويدخل من ثقب حائطٍ فدخل مع الماء من الثقب إلى داخل الحائط لينظر إلى أين يذهب الماء . فرأى داخل الحائط مدينةً مبنيةً ، لبنة من ذهبٍ ولبنة من فضة ، وإذا بثلاث لبناتٍ ساقطاتٍ منها ، فتعجب وأخذ اللبنات ، وخرج من حيث دخل وإذا ببعيره واقفٌ ، فكأن الله سبحانه إنما ساق الرجل وأجرى له هذا السبب ليراها ويُخبِر بها ، فركب بعيره وقصد إلى معاوية ، حتى دخل عليه في مجلسه ، فألقى اللبنات في المجلس ، وقال : رأيت مدينةً هكذا مبنيةً ، لبنة من ذهبٍ ولبنة من فضة ، فتعجب هو وحاضروا مجلسه ، وقال : هل سمعتم بمدينةٍ هكذا ؟ قالوا : ما سمعنا .

فأرسل إلى كعب الأحبار فأتاه ، فسأله : هل بلغ في علمك أن على وجه الأرض مدينةً مبنيةً هكذا ، لبنة من ذهبٍ ولبنة من فضة ؟ قال : نعم وهي هذه مذكورةٌ في القرآن ، في قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝﴾ ، وذَكَر في قصتها أن بانيها شداد بن عاد ، أحد جبابرة عاد ، وكان من الملوك الذين ملكوا الدنيا كلها ، ومن الجبابرة العتاة ، ومن التبابعة المتمردين ، ومن ملك الأقاليم السبعة من بني قحطان سمي تبعاً ، وهم سبعون تبعاً غير الملوك ممن سواهم ، ممن ملك ولم يملك الأقاليم السبعة .

فسمع شدادٌ عن الأنبياء أن لله داراً تسمى الجنة ، مبنية لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، ومكَّنه الله من معادن الذهب والفضة ، وذلك لإهانته لا لكرامته ، فقال : أنا أفعل لي جنةً مثلها . فجمع ما أمكنه من النقدين وبناها ، ومكث في بناها ثلاثمائة عام ، فلما تَمَّ بناها أتاها بأهله وحاشيته طمعاً في سكونها ، فلما قَرُبَ منها وقابلها وأشفى على دخولها وسكونها ، خُسِفَ بها - أي غُيِّبَت عنه - وحِيْلَ بينه وبينها ،

فلم يرها ولم يعلم هو ولا غيره أين هي ، ولا أين محلها ، فتقطعت كبده وكبود أتباعه حسرةً وأي حسرةٍ . وهكذا يفعل الله بكل عاتٍ متجبرٍ معاندٍ ويهينه ويعجزه ولم يطلع عليها أحدٌ إلى يوم القيامة سوى ذلك الرجل .

وقيل إن شداداً عاش ألف سنةٍ ، وتزوج ألف امرأةٍ ، وجاءه ألف ولدٍ ، وهزم ألف جيشٍ ، ثم مات بالروباذ كافراً ، والروباذ موضعٌ وراء البحر بين العابرين إلى اليمن إذا وصلوا قرب عدنٍ قبالة جبلٍ يسمونه الفضلي ، يقولون أنه يلوح لهم هناك كلمع البرق في الليل ، ويزعمون أن هذا لمع إرم ذات العماد .

وهناك أيضاً على الساحل - ويسميه أهل اليمن ساحل الذيبيي - يلوث العنبر ويلقون منه كثيراً، وعليه خَرَاجٌ للإمام اليوم ومن وقت الجاهلية ، كما ذُكِرَ أن عبدالمطلب في جماعةٍ من قريشٍ جاؤوا لسيف بن ذي يزن يهنُّونه برجوع الملك ، وهنأه بالنبي ﷺ وكان إذ ذاك له سنتان ، وأنه أعطى كلًّا منهم مِلءَ رقبة بعيرٍ عنبراً وأعطى عبدالمطلب مثل ما أعطى الكل من العنبر .

والذيبيي اليوم بلدٌ تسمى بذلك يلوث على ساحلها العنبر ، وكان جماعةٌ منها يصلون إلى زيارة سيدنا عبدالله وما هديتهم له ولفقرائه إلا العنبر .

وقال في التذكرة : « قد اختلف العلماء في أصل العنبر على ثلاثين قولاً أصحها أنه ينابيع تنبع في البحر بدهنٍ ، فإذا خرج من الأرض وخالط ماء البحر تجمد وصار أنقاصاً ، فإن كان فوحة الدهن كثيرة كانت أنقاصه كباراً ، وإن كانت قليلةٌ كانت صغاراً » .

وله هناك دابةٌ متولعةٌ به فمرةً تقبضه بفمها وتمضغه وتلفظه ، ومرةً تبتلعه وتلقيه من دبرها ، ومرةً تغفل عنه فلا تمسه وهو الذي فيه الخاصية أقوى ، ثم الذي تلقيه من فمها ، ثم الذي يخرج من دبرها .

ولسيدنا في وَصْفِ منافعه كلامٌ كثيرٌ ، ووقعت تلك الواقعة المتقدِّمة فيه من جملة كراماته .

ومثل إرم ذات العماد في إخفائها ، بلدان الجن ومدنهم ، الله مخفيهم عنا كإخفائها ، ولبعض الإنس مع بعضهم في ظهور مدنهم وبلدانهم وقائع وأسباب يريد الله بها إظهارها ، مثل قصة ذلك الرجل في ظهور إرم ذات العماد له ، ولكن ما يتبينون للإنس إلا على صور الإنس لا على صورهم التي يتصورون بها ، هذا إذا أرادوا مخاطباتهم وحوائج بينهم ، وإلا فما يظهرون لهم إلا على صور حياتٍ وسنانير وكلابٍ وغيرهم ، فإذا رأوهم لم يعرفوهم ولم ينكروهم ولا يرونهم إلا على صور الحيوان الذي رأوهم عليها ، فإذا أمرٌ أراده الله رأوهم بصورة الآدميين .

وذلك كقصة الهدهاد بن شرحبيل أبو بلقيس ، أنه خرج إلى خارج بلده مأرب مدينة سبأ التي أَخْرَبَها سيل العرم بعد ذلك ، وكان بها السد فأَخْرَبَها وأَخْرَبَ السد ذلك السيل ، فخرج بالقرب منها يتفرج ويتصيد في جماعةٍ من خَدَمِهِ وخاصَّتِهِ ، وكان كما تَقَدَّمَ من ملوك اليمن التبابعة - وكان عمه شداد بن عادٍ باني إرم ذات العماد - فرأى في البرية في مُتَصَيَّدِهِ حول بلده مأرب ذئباً يطرد غزالةً ، وقد ألجأها إلى مضيقٍ ليس لها منه محيصٌ ولا منفلتٌ .

فأطلق الهدهاد عنان جواده وحمل على الذئب فطرده عن الغزالة ، وجعل يتبعها نظره وسار في إثرها وانقطع عن أصحابه - يعني أنهم استتروا عنه تلك الساعة كما استترت إرم - فلا يراهم ولا يرونه ، فبينما هو كذلك إذ كُشِفَ له عن مدينةٍ عظيمةٍ - أي ظهرت له بعد استتارها ، كما استترت إرم- وإذا فيها من كل ما دعي باسمه من النعيم والنعم والخيل والإبل والبقر والغنم والزروع والفواكه ، فوقف عندها متعجباً مما نظر وظهر له من أمر هذه المدينة ، وهي في موضع نشوه وفي بلده ولم يرها إلا حينئذٍ ، وكانت مخفيةً بأمر الله كغيرها من مدن الجن - كما خفيت إرم - .

فبينما هو كذلك إذ أقبل عليه رجلٌ مسنٌ من أهل تلك المدينة ، فسلَّم عليه ورحَّب به وحيَّاه ، ثم قال له : إني أراك متعجباً مما ظهر لك في يومك هذا ، فقال له الهدهاد : نعم ، فما هذه المدينة ؟ ومن يسكنها ؟ قال : هذه مأرب ، سُمِّيت باسم بلد قومك ، وهي مدينة عدمٍ - حي من الجن - هم سكانها، وأنا اللبيب بن صعبٍ ملكهم وصاحب أمرهم .

فهم في الحديث إذ عبرت عليهم امرأةٌ لم يرى الراؤون أحسن منها خلقاً ولا أظهر منها صباحةً ولا أطيب رائحة ، فافتتن بها الملك الهدهاد ، وعلم ملك الجن أنه قد هويها وشغف بها ، فقال للهدهاد: أيها الملك ، إن كنت قد هويت هذه المرأة فإنها ابنتي وأنا أزوجكها . فجزاه خيراً وقال له : وكيف لي بذلك؟ فقال له الجني : إنما عرضت عليك من تزويجي لك إياها وأجمع بينكما على أَسَرِّ حالٍ ، فهل عرفتها ؟

قال : ما رأيتها قبل يومي هذا . فقال الجني : أيها الملك فإنها الغزالة التي منعتها من الذئب ، ولا نكافئك على فعلك الجميل أبداً بأحسن من حبائك إياها بشهادة الله تعالى وشهادة ملائكته ، فإذا أردتَ ذلك فاقدم إلينا بخاصَّةِ أهلِك وقومك ليشهدوا إملاكها ويحضروا وليمتها وميعاد ذلك الشهر الآتي .

قال : فانصرف الهدهاد على الميعاد ، وغابت المدينة عن بصره ، وإذا أصحابه حوله يدورون له، فقالوا : أين كنت ؟ فنحن في طلبك منذ فارقتنا ، فلم نترك شيئاً من هذه الفلوات إلا قلبناه لك وطلبناك فيه ، فقال لهم : لم أبعد ولم أخب ، وأقبل يسير وهو يقول هذه الأبيات :

عَجَائِبُ الدَّهرِ لا تَفْنَى أَوَابِدُهَا وَالمرءُ مَا عَاشَ لا يخلُو مِنَ العَجَبِ

مَا كُنتُ أَحسَبُ أنَّ الأرضَ يَعْمُرُهَا   غَير الأعَاجِمِ في الآفَاقِ وَالعَرَبِ
مَـا كُنـتُ أخْـبرُ بِالجِـنِّ الخُفَـاةِ وَلا   أرَى أنَّ أخبَارَهُم إلا مِنَ الكَذِبِ
حَتَّـى رَأيْـتُ مَقَاصِـيراً مُشَـيَّدَةً   لِلحَـيِّ مَحفُوفَـةَ الأبـوَابِ وَالحُجُـبِ
يَحُفُّهَـا الـزَّرعُ وَالمَـاءُ المحِيـطُ بِهَـا   مَـعَ المـوَافِيَ مِـن نَخـلٍ وَمِـن عِنَـبِ
مَا بَيْنَهَا الخَيـلُ مِن طَرفٍ وَمِن بَلَدٍ   وَالحُورُ فِيهـا مِنَ الأنعَـامِ وَالكسَـبِ
وَكُلُّ بَيضَـاءَ تَحْكِي الشَّمس ضَاحِيَةً   هَيفَـاء لَفَّـاء مِـن موصُوفَـةِ العَـرَبِ
يَمْـضِي جُمَـادٌ وَيَـأتِي بَعـدهُ رَجَـبٌ   وَسَوفَ أسرِي عَلَى الميعَادِ مِنْ رَجَبِ
حَتَّـى أُوَافِي دِيَـارَ الحَـيِّ مِـن عَـدمٍ   إلى ابن صَعْبٍ هُوَ المعرُوفُ بالثلبِ
نَبغِـي إلَيـهِ الـذِي بَـادَ وَمَـنَّ بِـهِ   مِنَ التَّوَاصُلِ وَالإصْهَارِ وَالنَّسَبِ

قال : فذكروا أن الهدهاد خرج إلى ميعاد أصهاره من الجن في خاصته من قومه وخدمه حتى وافاهم، فوجد قصراً قد بناه الجن في فلاةٍ من الأرض تحت موفور النخيل والأعناب وفنون الفاكهة تخترق فيه المياه الجارية ، فعجب القوم عجباً شديداً ، ورأوا ملكاً عظيماً . فنزلوا في القصر معه على فرشٍ فاخرةٍ لم يروا مثلها قط ولا أطيب منها رائحةً ولا أذكى منها شماً ، وسقوا من الشراب ما لم يشربوا قط مثله ولا ألذ ، ومكثوا ثلاثة أيام بلياليها معه في ذلك القصر . وزُفَّت إلى الهدهاد زوجته الحروراء بنت اللبيب بن الصعب العدمي ملك الجن ثم أَذِنَ الهدهاد لبني عمه وخاصته وعشيرته بالإنصراف إلى مواضعهم ، وصار ذلك القصر دار مملكته ، قال الراوي : فذكروا أنه أقام زماناً مع الحروراء بنت اللبيب ، فولدت له بلقيس ، وفي الحديث : « إن أحد أبوي بلقيس كان جِنيًّا » .

وذكرنا هذه القصة لما فيها من العِبَر وخوارق العادات الموجبة لقوة التفكر في عجائب تدبير الله وصنعه في مخلوقاته ، أن بلداناً معمورةً على وجه الأرض ونخيلاً وبساتين وخلقاً من رجالٍ ونساءٍ مثلنا ، لا نراهم وربما خالطونا ، وربما ظهروا لنا على صورٍ يتصورون بها مختلفة ، وكل ذلك من عجائب صنع الله ، واحتجابهم عنا من خفي غامض لطف الله بنا .

واعْتَبِرْ بالملائكة وهم أرواحٌ نوريةٌ كيف هم معك يدبِّرونك على ما أمر الله ولا يرون ، فكذلك الجن وهم أرواحٌ ناريةٌ لقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾، و﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾، ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾، وإن في تبليغ الله خواص بني آدم إلى تلك المراتب

العالية، وما شابهوا به الملائكة من آيات الله الباهرة على ما تقدم وصفه .

ومأرب : هي مدينة سبأ التي فيها السد بقرب صنعاء اليمن ، بينهما نحو ثلاثة أيامٍ ، وعصوا فأرسل الله عليهم سيل العرم فأخربها . والعرم : اسمٌ لبركةٍ كبيرةٍ كانوا إذا جاءهم السيل وجهوه إليها ، حتى تمتلىء فيبقى لهم فيها ما يكفيهم ودوابهم سنتهم ، فلما أراد الله عذابهم ، أرسل عليهم جرذٌ فخرقه فتهدَّم كله ولم يبقى فيه شيءٌ ، ثم أهلكوا على ما ذكر الله تعالى في سورة سبأ .

ورأيت في « تاريخ الخميس » في قصة تزويج أبي بلقيس بأمها : أنه خرج للصيد خارج البلد - لعله نحو الموضع الذي رأى فيه الغزالة - فرأى حيَّتين تقتتلان إحداهما سوداء والأخرى بيضاء ، وإذا السوداء قد غلبت البيضاء وكادت تقتلها ، وأرادت قتلها فقتل السوداء ، وإذا البيضاء قد غشي عليها، فَرَشَّ عليها ماءً فأفاقت وذهبت . فما درى يوماً وهو في موضعٍ خالياً وحده في بيته مغلِقاً على نفسه الباب ، فإذا في جنبه شابٌ جميلٌ له صورةٌ حسنةٌ ورائحةٌ طيبةٌ ، فارتاع منه فقال : لا تخف ، أنا الحية التي أحييتني وفكيتني من الحية السوداء ، وأنا ملك الجن وتلك الحية السوداء عبدٌ من عبيدنا تمرَّد علينا ، وقَتَلَ منا عدةً وأراد أن يقتلني ، فأَطْلَقْتَنِي منه جزاك الله خيراً، وجئتك لأ كافيك على فِعلك الجميل ، فإن أردتَ المال أعطيتك ، وإن أردت أن أخبرك بكنوز الأرض أخبرتك ، وإن أردت أن أعلمك الكيمياء علمتك .

فقال : كل ذلك لا حاجة لي به . فقال : إذاً عندي بنتٌ جميلةٌ ما في بني آدم أجمل منها ، فإن أردت زوجتكها . فقال : أما هذه فنعم . قال : فزوجه إياها ، وشَرَطَ عليه أنه لا يسألها عن أمرٍ يستنكره منها قط . وقال : إن سألتَها ثلاث مراتٍ غابت عنك فلم ترها ، فجاءت منه بولدٍ فرأت كلباً مَرَّ مُدْلِعاً لسانه يلهث فاتحاً فمه ، فأخذت الولد فحذفت به عليه فالتقمه وهرب به . فقال لها : لِمَ فعلتِ ذلك؟ قالت : ألم يشترط عليك أن لا تسألني ؟ فهذه واحدةٌ من ثلاثٍ . ثم جاءت منه ببنتٍ فرأت حريقة نارٍ موقدةٍ فأتت بالبنت إليها فألقتها فيها ، فغضب وسألها : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : ألم يشترط عليك أن لا تسألني ؟ فهذه الثانية . ثم إن ابن عمٍّ له أراده يأخذ أختاً له أو بنتاً فأبى وعالجه فامتنع ، فأتى إليه بعسكره محارباً يريد قتله فعجز عنه ، فأظهر له الصلح والمحبة ، ثم فعل عزيمةً ودعاه ، فراحت معه وجلست بجنبه عند الماعون الذي قدامه ، ومعدَّةً معها بروثٍ قد دقته ناعماً ، فلما مَدَّ يده للأكل ألقت من ذلك الروث في جنبه حيث يمد يده فيه فرفع يده وقال : لِمَ فعلتِ ؟ فقالت : هذه الثالثة ، وسأنبئك بخبر ذلك : أما الكلب والنار فضئران يرضعان ولديك ويربيانهما ، لئلا أتعب في تربيتهما فإذا كبرا ردَّاهما إليك ، وأما وضعي الروث في الزاد فإن في جنبك موضوعاً لك فيه سم ساعةٍ ، فإن شئت فناول هرًّا منه لقمةً وانظر ، فناول منه هرًّا لقمةً فمات في ساعته ، ثم غابت عنه بعد ذلك فلم

يرها . فأما الولدان البنت والولد ، فالولد مات عند مرضعته ، وأما البنت فلما كبرت وترعرعت رُدَّت إلى أبيها ، وهي بلقيس .

أقولُ : والجمع بين القصتين ممكنٌ ، وهو أنه في قصة الحية لما جاءه إلى بيته وطلب زواجها وَعَدَه بذلك وما زوجه حينئذٍ ، وقوله : « فزوجه إياها » ، أي بعد مدةٍ من هذا المجلس ، ثم وَقَعَت قصة الغزالة في مدة الوعد ، فوَعَدَه في هذه القصة إلى رجبٍ ، ثم عند العقد شرط عليه الشروط المذكورة . فكان للهدهاد عليه جميلتان: نجاته هو من الحية السوداء الذي هو عبدهم ، ونجاة البنت من الذئب، وأراد مكافأته بزواجه بها على الجميلتين ، بعدما أبى ما عرض عليه من المال والكنوز في الأولى كما ذَكَرَ هو - أي الجني في القصتين - أنه أراد مكافأته على ذلك ، ويؤيِّد هذا المعنى ما ذَكَرَ في القصتين أنه مَلِكُ الجن .

ويشهد لما ذَكَرْنا من كَوْنِ الجن نازلين ببقاع الأرض ولكنهم مخفيين عنا ، ما ذَكَرَ الإمام اليافعي في كتاب « المائتين من كرامات سيدي محي الدين الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه » : « أن رجلاً من أهل بغداد شكا إلى سيدي عبدالقادر أنه فقد بنتاً له ، فقال له : امض إلى الكرخ - موضع من بغداد - فخط على نفسك دائرةً في الأرض وقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، بنية عبدالقادر . واجلس في الدائرة ، فترى الجن يمرون عليك أفواجاً أفواجاً ، ويحاولون أن يدخلوا عليك الدائرة فلم يقدروا، حتى إذا كان في آخرهم يمر عليك ملكهم فيقف عند الدائرة ويقول لك: يا هذا ، ما جلوسك هنا ؟ فاذْكُر له شأن بنتك .

قال : فسرتُ إلى الكرخ ، وفعلتُ على نفسي دائرةً ، وقلتُ عند خَطِّها : بسم الله الرحمن الرحيم، بنية عبدالقادر . وجلست فيها ، فجعلوا يمرون عليَّ إلى قرب الصبح أفواجاً أفواجاً ، وكلما حاول أحدٌ منهم الدخول عليَّ الدائرة لم يقدر على ذلك ، حتى مَرَّ ملكهم في آخرهم على فَرَسٍ ، فوقف عند الدائرة وقال : يا هذا ما جلوسك هنا ؟ فقلت : فقدتُ بنتاً لي ، وشكوت ذلك إلى الشيخ عبدالقادر ، فأمرني بالجلوس هنا ، وأن أخبرك أن بنتاً لي فقدتها .

فالتفت إلى أصحابه وقال لهم : من بنت هذا الرجل عنده منكم ؟ فقالوا : عند عفريتٍ خبيثٍ من وراء بلد الصين ، فقال : عليَّ به الساعة مع البنت ، فما كان بأسرع مما أتوا به وبنتي معه . فقال له : لِمَ أَخَذْتَ بنت هذا الرجل ؟ ثم قال لي : انظر هذي بنتك فاقبضها ، فنظرتها فإذا هي فقبضتها . ثم أمر بالعفريت فَضُرِبَت عنقه ومضى ، فقلت له : والله ما رأيت شيئاً كطاعتكم للشيخ عبدالقادر ، قال : يا هذا إن هذا الذي رأيت من الجن سكان كل بقاع الأرض ، فما من بقعةٍ من الأرض إلا وفي هؤلاء

ساكن فيها ، وإن الشيخ عبدالقادر في منزله يرى كل واحدٍ من هؤلاء في أي بقعةٍ هو فيها » ، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ قال : « ستر عورة أحدكم من الجن أن يقول: بسم الله الذي لا إله إلا هو » ، فدَلَّ ذلك على أنهم مخالِطون لنا ومستترون عنا .

ومن الجامع الكبير للإمام السيوطي ، عن إبراهيم النخعي قال : خرج من الشام نفرٌ من أصحاب عبدالله بن مسعودٍ يريدون الحج ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق إذا هم بحيةٍ تتثنى على الطريق بيضاء ينفح منها رائحة المسك ، فقلت لأصحابي : امضُوا فلست ببارحٍ حتى أنظر إلى ما يصير أمر هذه الحية، فما لَبِثَت أن ماتت ، فَعَمَدْتُ إلى خرقةٍ بيضاء فَلَفَفْتُها فيها ، ثم نَحَّيتُها عن الطريق فدفنتها وأدركتُ أصحابي ، فوالله إنا لقعودٌ إذ أقبل أربع نسوة من قِبَل المغرب ، فقالت واحدةٌ منهن : أيكم دفن عَمْراً؟ قلنا : ومن عمرو ؟ قالت : أيكم دفن الحية ؟ قلت : أنا ، قالت : أما والله لقد دفنت صواماً قواماً ، يأمر بما أنزل الله ، ولقد آمن بنبيكم ، وسمع صفته في السماء قبل أن يُبعث بأربعمائة سنةٍ .

فحمدنا الله ثم قضينا حجنا ، ثم مررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة فأنبأته بأمر الحية ، فقال : صدقت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمائة سنة » .

وذكر الشيخ شيخ بن عبدالله بن الشيخ عبدالله العيدروس في « سلسلة لبس الخرقة » قال : « لما صفا الوحي لرسول الله ﷺ استجابت له العرب ، واستجاب له الإنس والجن ، وأنزلت عليه سورة الجن ، وكان عمرو الجني - هذا الذي هو تلك الحية المتقدم ذِكْرها - وهو شيخ الجن ، وممن حضر ليلة الجن عند رسول الله ﷺ ، وأنزل في محضرهم ذلك عنده : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾الآيات » .

فكان عمروٌ ممن استجاب له ، فامتدحه بهذه القصيدة وهي أربعون بيتاً ، منها اثنان وعشرون في التشبيب والنسيب ، وثمانية عشر في مديح رسول الله ﷺ ، وهي خارجةٌ عن العروض على ثمان آخر الكلمة « فعلن فعلن فعلن » ، والقصيدة هذه :

أَشْـجَاكَ تَشَـتُّتُ شِـعب الحَـيِّ ... فَأَنْـتَ بِهِـمْ أَرِقٌ وَصِـبُ
أَوْ هُـمْ سَـخطُوا وَتَلـوا فَهُـمُ ... كُمُـشٌ لِحَرائِقِهِـم لُجُـبُ
فَظَلَلْـتُ لِبَينِهِـمُ أَلِمـاً ... تَنْهَـلُّ دُمُوعُـكَ تَنْتَحِـبُ
تَهْـوِي بِعُرُوشِـهِمُ أُفُـضٌ ... رُفُـضٌ مُخُـضٌ نُهُـضٌ غُلُـبُ
خُـرُقٌ شُرُقٌ طُـرُقٌ عُتُـقٌ ... تُمُـكٌ تُنُـكٌ نُـوُكٌ سُـلُبُ

هُفُفٌ زُفُفٌ سُقُفٌ قُصُفٌ نُجُفٌ عُجُفٌ صُدُفٌ كُرَبُ
نُوَبٌ دُبَبٌ شُجُبٌ عُيُبٌ شُطُبٌ قُطُبٌ نُعَبٌ نُقَبُ
فَكَأَنَّ رِحَالَهُمُ طُلَعٌ في الطِّمِّ مُلَجَّجَةٌ قُشُبُ
أو نخل خَلِيجٍ هَاجَ نَسِيمٌ مِنهُ مُعَصَّفَةٌ نُكَبُ
يَهوِينَ بِهِمْ مِن آلٍ مَعَاً وَالرِّيحُ مُعَصَّفَةٌ حُوَبُ
سُهُمٌ وُسُمٌ حُسُمٌ رُسُمٌ سُلُسٌ هُمُسٌ شُمُسٌ أُدُبُ
صُمُتٌ هُفُتٌ خُفُتٌ هُرَتٌ بُتَتٌ شُتَتٌ عُنُتٌ سُكَبُ
حُثُثٌ بُثُثٌ غُرَثٌ غُثَثٌ وُعَثٌ دُمَثٌ رُمَثٌ وُثَبُ
فَتَعَدَّ وَدَعْ ذِكْرَاتِهِمُ بَلْ كَيفَ وَأَنْتَ بِهِم وَصِبُ
وَارحِل قُلصاً يَقْدُمنَ عَلى رَاحٍ فَتُزَاحَ بِهِ الكُرَبُ
فَالخَلْقُ إِلَيهِ جَمَاعَتهُم تخدي بهم فُسُحٌ نُجُبُ
لُزَزٌ لُعَزٌ نُشَزٌ نُهَزٌ جُمَزٌ خُنَزٌ ضُمَزٌ شُرَبُ
شُجَجٌ مُجَجٌ زُجَجٌ دُجَجٌ فُنَجٌ سُمَجٌ خُرَجٌ هُلَبُ
هُشَشٌ خُشَشٌ غُشَشٌ خُدَشٌ فُشَشٌ وُرَشٌ عيَبُ
أُصُدٌ قُوَدٌ أُقُدٌ شُدَدٌ رُشَدٌ سُجَدٌ حُشَدٌ شُحَبُ
عُجَجٌ شُجَجٌ لُجُجٌ مُعَجٌ مُزَجٌ دُعَجٌ نُعَجٌ ذُهَبُ
قُضَضٌ غُلَظٌ نُكَضٌ كُضَضٌ نُدَدٌ جُدَدٌ طُلَبُ
عُجَلٌ وُجَلٌ مُلَلٌ فُلَلٌ عُلَلٌ خُلَلٌ بُخَلٌ نُعَبُ
شُطَطٌ غُطَطٌ خُطَطٌ هُيَطٌ فُرَطٌ نُخَطٌ قُنَطٌ هُرَبُ
قُصَصٌ حُصَصٌ عُصَصٌ بُصَصٌ كُصَصٌ دُلَصٌ نُكَصٌ قُطَبُ
فُلَصٌ جُدَدٌ حُثُثٌ لِتَرَحُّلِهِم بِمَقِيلٍ تَراحلها جُلَبُ
بُعَعٌ كُعَعٌ وُعَعٌ صُمَعٌ قُطَعٌ مُلَعٌ طُمَعٌ أُلَبُ

فَأَنِخ بِنَبِـيٍّ إِلَـهِ الخَلْـقِ أَتَـتْ بِفَضَائِلِـهِ الكُتُـبُ
بِنَبِـيٍّ هُـدىً وَبِشَـيخِ تُقَـىً فَبِـذَاكَ تَدِيـنُ لَـهُ العَـرَبُ
وَبِالفَـارُوقِ إِمَـامُ الحَـقِّ وَذِي النُّورَيـنِ حَـوَى الكُتُـبُ
وَبِحَيدَرَةَ الكَرَّارِ أَبُو السِّبْطَينِ مُفِلُّ الجَيشِ بِمَاضِيَةِ القضبُ
بِمُحَمَّـدٍ المبعُـوثِ ذَوِي الخَـيرَاتِ مَنَازِلُـهُ الرُّحُـبُ
فَالحَـوضُ لَـهُ وَالرُّكـنُ مَعـاً وَالبَيـتُ وَمَكَّـةُ وَالحُجُـبُ
ظَفَـراً هَـزَمَ الأحـزَابَ لَـهُ فَتَـمَامُ صَنَائِعِـهِ الرُّعُـبُ
فَهَدَيـتَ لَنَـا فَلأَنْـتَ جَلَـوتَ أَضَـاءَ بِـذَاكَ لَنَـا سَـبَبُ
وَإِلَيـكَ مُحَمَّـدٌ انبَعَثَـتْ جَـوَنٌ بِأَخِشَّـتِهَا تُثِـبُ
وَإِلَيـكَ رَحَلْـتُ وَلِي كُتُـبٌ وَمَعَـاشِرُ خَلـقٍ قَـد ذَهَبُـوا
لِتَجُـودَ عَـلَيَّ وَتُنْعِشُـنِي بِشَرَائِعِ حَقٍّ لَهَا قَلَبُ
فَـاللهُ هَـدَاكَ وَأَنْـتَ هَدَيـتَ فَـذَلَّ لِمِلَّتِـكَ النُّصُـبُ
وَصَـلاةُ إِلَـهِ الخَلْـقِ عَلَيـكَ وَجَـادَ مَحِلَّتَـكَ السُّـحُبُ
وَعَـلَى الصِّدِّيـقِ إِمَـامِ الحَـقِّ أَنِيـسِ الغَـارِ بِـلا كَـذِبُ
وَعَـلَى الفَـارُوقِ وَذِي النُّورَيـنِ وَأَبِي السِّبطَينِ زَكِي النَّسَبُ
وَعَلى آلِكَ وَالأولادِ وَأَزْوَاجِكَ وَالأَصْحَابِ وأهلِ الفَخْرِ بِلاعَيَبُ

« هُلَبُ » : أي رافعة رأسها ، « شُحَبُ » : أي متغيرة اللون ، « طُلَبُ » : أي سريعة الطلب ، « بُعَعُ » : أي تتفزع من صوت الراكب .

تمت قصيدة عمروٍ الجني شيخ الجن ، وهو وجماعةٌ من الجن حضروا ليلة الجن الصلاة مع رسول الله ﷺ ، ونزل في حضورهم ذلك : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ، وفي موضع صلاتهم بُنِيَ مسجدٌ ويسمى مسجد الجن في آخر مكة إلى طرف المعابدة ، ويقصده الناس بالصلاة فيه للتبرك والتأثر بموضع صلاة رسول الله ﷺ ونزول الآيات المشار إليها ، وفي القصيدة شيءٌ من اللحن لعدم تكلف الإعراب .

ولما حضرت الهدهاد المنية جمع قومه وقال : من أقدِّم عليكم ؟ فَذَكَروا رجلاً فَذَكَر موانع فيه عن التقديم ، فقَدَّم بلقيس وكانت قد جمعت بين حذاقة الإنس ومعرفة الجن ، وكان في ذلك القصر الذي بناه الجن ، ونفى دار مملكته ، فساسَتْ قومَها سياسةً كاملةً حتى بعث إليها النبي سليمان ، وجاءت إليه فتزوجها ، فرَدَّها إلى دار ملكها ، وكان يصل إليها من الشام إلى مأرب في كل شهرٍ مرةً ، ويمكث عندها في كل مرةٍ ثلاثة أيامٍ ، وجاءه منها ولدٌ سماه داود ومات صغيراً ، وبقيت .

قال وهب : « أقامت عنده سبع سنين وسبعة أشهرٍ ، ثم توفيت فدفنت تحت حائطٍ بمدينة تدمر من أرض الشام ، ولم يعلم أحدٌ بموضع قبرها إلى أيام الوليد بن عبدالملك ، ولم يعلم بها إنسٌ ولا جانٌ إلا من دفنها » ، قال : « فجاء سيلٌ عظيمٌ فانهار بعض مدينة تدمر ، فانكشفت عن تابوتٍ طوله سبعون ذراعاً من حجرٍ أصفرٍ كأنه الزعفران ، مكتوبٌ عليه هذا مدفن بلقيس الصالحة زوجة سليمان بن داود، أسلمت سنة سبعٍ وعشرين خلت من ملكه » ، قال : « فرفعنا التابوت فإذا هي غَضَّة كأنها دُفِنَت من ليلتها ، فكتبنا بذلك إلى الوليد ، فأمر بتركه في مكانه وأن يبنى عليه الصخر والمرمر » ، كذا في قصص الأنبياء للإمام محمد بن عبدالله الكسائي هـ .

قال رضي الله عنه : « **أحياء الأجسام ما عاد ينفعون ، بل أحياء الأرواح لكونهم قريبين من الحضرة الإلهية** » هـ .

أقول : مراده بـ « **أحياء الأجسام** » ، من غلب عليه دواعي الجسم ، بأن غلبت عليه واستولت داعية الجسم التي هي النفس الخادمة للجسم بقوة الشهوة والغضب، والنفس عبارةٌ عن هذين ، فإن الشهوة : جذب منافع الجسم إليه ، والغضب : دفع مضاره عنه ، وكلاهما خصوص منافع دنيوية تنتهي بانتهاء حياة الجسم ثم لا فائدة فيهما بعد ذلك ، فصارت مطالبه كلها دنيوية وبواعثه كلها هوائية .

وأَفْهَمَ قوله : « **ما عاد** » ، أن من كان بهذا الوصف من غلبة دواعي الجسم في الزمن السابق قد يكون فيه مروءة تامة ، وميلٌ ما إلى الديانة يحصل منه بسبب ذلك منافع معاشية للمحتاجين . وأما اليوم فقد ذهب ذلك أو ضعف جدًّا واختل ، ولذلك كانوا يتقصون عن أحوال الفقراء ، فإن وجدوا بهم حاجةً واسوهم ، واليوم ينقصون فإن وجدوا بهم حاجةً شمتوا بهم ، فانظر الفرق الشديد والتفاوت البعيد بين أهل الزمن السابق وبين أهل زمانك هذا ، وفي ذلك يصدق قوله : « **اليوم انعكست الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها** » .

ومراده بـ « **أحياء الأرواح** » ، من غلبت فيهم دواعي الروح من التلذذ بالعبادة والطاعة والإقبال على الله بالقلب والقالب ، فصار همهم وشغلهم ظاهراً وباطناً همًّا واحداً كله بالله ولله .

فلإختلاف الداعيين : دواعي الجسم التي هي النفس ، ودواعي الروح ، قال سيدنا : « **ما أنزل الله الروح إلى الجسم حتى أخذ عليه العهد والميثاق** » ، يعني بأن يبقى على دواعيه ، ولا يتبع النفس التي هي داعية الجسم في دواعيها ثم يستجرها إلى دواعيه شيئاً فشيئاً ، فإنها جاءت في القرآن على ثلاثة أحوالٍ ، ولها بحسبها ثلاثة أسماء :

أولها : النفس الأمارة التي تأمر بالشر ، أعني تأمر الروح مع الجسم بفعل الشر وتنهى عن فعل الخير ، مصمِّمةً على ذلك وهي النفس العامية الغافلة عن الله ، فإن دعاها الروح إلى مطالبه وأجابته بعض إجابةٍ وما كملت في الإجابة صارت لوامةً تأمره بالشر ، فإذا فعله لامته وحسَّفته على فعله ، وربما صار ذلك منه توبةً ماحيةً للذنوب إن صدق وأتى بشروط التوبة ، فإن كَمُلَت في إجابة الروح صارت نفساً مطمئنة وهي أرواح الأنبياء والصديقين وكانت على دواعي الروح الإلهية ، وصارت دواعيها هي دواعيه لا تختلف معه قط وهي التي يقال فيها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾، وإنما خَصَّ النفع بـ « **أحياء الأرواح** » ، وكان خاصًّا بهم لأنهم أحب الخلق

إلى الله ، وهم أحب إليه ممن غلبت عليه دواعي الجسم ، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعباد الله، فإنما يجري سبحانه النفع لعباده على يد من يحب ، وإنما يجري الضر على العباد والأذى على يد من يبغض . والحب والبغض منه تعالى قد سبق به قضاؤه وقدره لمن أراد بلا وسيلةٍ سبقت ممن أحب ولا جريمةٍ سبقت ، فمن أبغض فلا علاج في تبديل أحدهما بالآخر ، حتى يكون المحبوب مبغوضاً والمبغوض محبوباً هذا محال هـ .

قال رضي الله عنه : « **أهل البرزخ من الأولياء في حضرة الله ، فمن توجَّه إليهم توجَّهوا إليه** » هـ .

أقول : تقدَّم قوله : « **الولي من الأموات فيه خصوصية مجردة ، فينتفع بزيارته من الأحياء من فيه خصوصية فيستمد من خصوصيته زيادةً في خصوصيته ، وأما الولي من الأحياء فينتفع به ذو الخصوصية زيادةً في خصوصيته ، وينتفع به ذو البشرية بواسطة بشريته ، فينال بواسطة بشريته خصوصيةً من خصوصيته ، لأن فيه خصوصيةً وبشرية** » أو معنى ما قال .

وقوله : « **توجَّه** » ، يعني بالمحبة والعقيدة ، و « **توجَّهوا إليه** » ، أي بحصول مطلوبه وقضاء حاجته من الله تعالى ، فضلاً منه سبحانه وتكرماً ببركتهم وجاههم عنده وكرامتهم عليه لعلوِّ منزلتهم لديه ، كما ذَكَرَ في الحديث القدسي عن الله سبحانه وتعالى أنه قال : « ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » ، رواه البخاري .

وقوله : « مما افترضت عليه » ، يعني بالذي افترض : مباني الإسلام التي بينها رسول الله ﷺ بقوله : « بني الإسلام على خمسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » ، وهي التي أمر رسول الله ﷺ بقتال الناس عليها ، حيث قال : « أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله تعالى » ، رواه الشيخان .

فهذه هي الفرائض التي قال الله تعالى : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضت عليه »، وقوله : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل » ، يعني بعد إحكام تلك الفرائض بشروطها على ما بيَّنَتْها الشريعة ، وإلا بأن أخلَّ بشيءٍ من الفرائض لم تنفعه النوافل مع خلله بالفروض بأن تركها أو

أخلَّ بشروطها ، فهذه الفرائض التي ما تقرب العبد إلى ربه بشيءٍ أحب إلى ربه منها .

وأما النوافل : التي ما يزال العبد بعد إحكام الفرائض يتقرب إلى ربه بها .

وقوله : « ما يزال » ، يعني مديماً عليها ، وقوله : « يتقرب إليَّ » ، يعني ناوياً بِفعلها التقرب بها إلى ربه امتثالاً لأمره ورغبةً في طلب مرضاته وثوابه ، وبهذا الشرط بطل فِعل فاعلها لطمع الدنيا ، وإنما لا يصح العمل لها إلا لطلب رضاه والتقرب بها إليه .

والنوافل المذكورة هي أن الله تعالى جعل من كل واحدٍ من الخمس المذكورة نفلاً من جنسها ، فالواجب من الذِّكْر أن يقول مرةً في العمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، ناوياً بها الدخول في الإسلام ، ثم بعدها يكثر منها جهده وهي النافلة من الذِّكْر التي يتقرب بها إلى ربه بعد إحكام الأولى الواجبة .

والفرض من الصلاة الصلوات الخمس : إذا أحكمها بشروطها ، وما زاد عليها من النوافل نفلٌ من جنس الصلاة ، كالنوافل التابعة للفرائض وصلاة الضحى وصلاة الشفع والوتر والتراويح ، فهذه نوافل معيَّنةٌ بأوقاتها ، ومثلها سنة الوضوء وتحية المسجد ، ومنها النفل المطلق الذي لا يُقَيَّد بوقتٍ بل متى نوى وصلى فهذا نفل الصلاة . والفرض من الزكاة ما وجب ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾، يعني قَدْر ما وَجَبَت فيه الزكاة من النصاب وواجبها الذي يجب إخراجه ، وما زاد على ذلك ما أشار إليه قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩﴾، يعني ما زاد على الواجب أو مما لم تجب فيه زكاةٌ ، فهذا نفل الصدقة الذي يتقرب به إلى ربه بعد إحكام ذلك الواجب بشروطه من كل ما ينفقه لوجه الله . وواجب الصوم شهر رمضان ، وما عداه نفله ، وواجب الحج مرةً في العمر مع العمرة عند الثلاثة ، وعند الإمام مالك هي من النوافل .

فهذه الواجبات والنوافل جميعاً كل واحدٍ منها نافلته من جنسه ، فإذا نقص فرضٌ منها عندما يحاسب عنه تَمَّمَ له من النافلة من جنسه ، ولا يتمّم للفريضة من نَفْلِ غيرها ، فإذا أحكم العبد هذه الفرائض ثم أتى بنوافلها المذكورة على وجهها بنية التقرب فقد تَقَرَّبَ إلى ربه وأتى بالذي عليه ، والتقريب والمحبة منه سبحانه خاصٌّ بمن سبقت له منه المحبة والقرب .

قوله : « فإذا أحببته كنت سمعه .. » إلى آخر الأعضاء المذكورة ، يعني إذا أحبه ربه صار لا يفعل بهذه الأعضاء إلا ما يرضي الله ويرضى به حيث أنها منها ، وبها الأعمال الكائنة من العبد طاعةً ومعصيةً .

فالعبد الطالب للتقرُّب إلى ربه يجاهدها تكلُّفاً أن يحصل منها الطاعة ويجنِّبها المعصية إلى أن يحبه

ربه ، فإذا أحبه صار يعمل بها الطاعة ويجنّبها المعصية بتلذذٍ وسهولةٍ بلا تكلُّفٍ فيتبدَّل تَعَبُهُ وتكلُّفه حلاوةً ولذةً ، فلا يفعل بها قط إلا ما يرضي ربه . ولصدور المعاصي من هذه الجوارح سميت اجتراح .

وقوله : « ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه » يعني سأل واستعاذ لنفسه أو لغيره ، فما صاروا أولياء إلا بعد ما أحبهم ، وما أحبهم إلا بعد ما أحكموا فرائضه ونوافله وتقرَّبوا إليه بذلك، أي فعلوا الكُلَّ من الفرائض والنوافل بشروطها وعلى وجهها امتثالاً لأمره وطلباً لمرضاته ، وأما تقريبه ومحبته فأمرهما إليه وقد حصلا منه لهم ، فصارت لهم عنده هذه المنزلة العالية ، فإذا كان الأمر كذلك لهم عند ربهم هذه المنزلة ، كيف لا تُستَقْضَى بهم وتُقْضَى ببركتهم الحوائج ؟ وكيف لا تستدفع بجاههم البليات والكربات ؟ فوالله لقد رأينا من ذلك عجائب كثيرة ، وليس الخبر كالمعاينة .

فنحكي من ذلك مما رأينا عياناً قصةً واحدةً ليزداد المعتقد اعتقاداً ومحبةً ، ومن ينكِر كرامات الأولياء فلعله يرجع عن إنكاره ويعتقد إن أراد الله به وله خيراً ، وإن صمَّمَ على الإنكار فيزداد به إثماً وعقوبةً ، لأن إنكار قدرة القادر على كل شيءٍ كفرٌ فإن ذلك مجرد فِعْل الله ومن جنس معجزات الأنبياء، فما من معجزةٍ لنبيٍّ إلا ومثلها كرامةٌ لولي ، فالمعجزة خلقٌ من الله للنبي شاهِدَة له بالصدق في دعواه النبوة، والكرامة فِعلٌ من الله للولي شاهِدَة له بصدق المتابعة لنبيه ، وشاهِدَة أيضاً بصِدْق نبيِّه ، ولا فرق بينهما إلا بالتحدي : وهو وجوب إظهار النبي معجزته للخلق ليصدِّقوه ويتَّبعوه في الإيمان بالله وطاعته ، ولا يلزم الولي إظهار الكرامة ، ومن هو من أهل الكرامات يجريها الله له حيًّا وميتاً ، كما قال : « **أهل البرزخ من الأولياء في حضرة الله** » إلى آخر المقالة .

والحكاية هذه شاهِدةٌ لقول سيدنا : « **فمن توجَّه إليهم** » ، أي بالمحبة والعقيدة « **توجَّهوا إليه** »، أي بحصول مطلوبه وقضاء حاجته : وذلك أني سافرت إلى اليمن سنة ١١٠٨ فألفينا بندر ضراس بعدن ، وصحبتنا سبعة عشر مركباً طراريد ، وهذا البندر ما ينزل فيه إلا من أراد حاجةً من البلد وإلا فبندرها غير هذا ، وما مررناها إلا لطلب ماءٍ وإلا فمرادهم المخاء ، وكل المركب مشحونةٌ بتمرٍ يريدون به المخاء ، لأن فيها التمر مفقودٌ وفي عدن كاسدٌ ، فاستأذنوا ولي عدنٍ في شراء ماءٍ ، فأبى عليهم إلا أن ينزلوا تمراً فأبَوا لكساده، وعالجوه أن يأذن لهم ولو بأغلى ثمن فلم يأذن .

فدخلوا على الشيخ أبي بكرٍ بعدما صلوا عنده صلاة العشاء ، وجلسوا عند ضريح الشيخ أبي بكرٍ نفع الله به ، وقرأوا عنده ما تيسَّر من القرآن ودعوا عند قبره الشريف أن يسخِّر لهم الوالي ويلين قلبه ليأذن لهم في شراء الماء ، ثم إنهم تحصلوا في مراكبهم وبات كل أهل مركبٍ في مركبهم تلك الليلة ، رجاء أن يسمع بهم كذلك فيرحمهم فيأذن لهم ، وهذا حد معقولهم وتدبير عقولهم ، وما علموا ما في علم الله وتدبيره ومن وراء تدبيرهم لله تدبير .

فباتوا ساهرين وما اكتحلت عيونهم بلذيذ المنام لشدة العطش بهم ، فلما كان نصف الليل والسماء مصحيةٌ ، فما درينا وإذا بسحابةٍ قد انتشرت وصارت وطفاً ، فأمطرت في ساعتها فوق الجبل مطراً عظيماً غزيراً ، فجعل الماء يصب من جوانب الجبل ، فأحاط به أهل السبعة عشر مركباً من كل جانبٍ ، وجعلوا يتلقونه بأفواه القِرَب فتمتليء القِرْبة في لحظةٍ ، والهور تختلف بحمل القِرَب إلى المراكب، فملأ فناطيسهم سبعة عشر فنطاساً كل واحدٍ منها يأخذ نحو ألف قِربةٍ لأنها كبار فملأوها كلها ، ثم ملأوا الحجال ثم القرب والقدور وكل ماعونٍ يحمل ماءً حتى دلال القهوة ، ماءً مباركاً طيباً بلا ثمنٍ فضلاً من الله ورحمةً بلا مِنَّةٍ ولا تبعة ، وكرامةً لسيدي الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس نفع الله بهم .

وقد حَضَرتُ أنا هذه الواقعة ورأيتها بعيني لا بخَبَر مُخبِرٍ ، وشَرِبْتُ من ذلك الماء المبارك مدة أيام ، ووقوعها ليلة أول شعبان من السنة المذكورة سنة ١١٠٨ ثمان بعد المائة وألف من الهجرة ، لمَّا توجَّهوا إليه بالمحبة والعقيدة سيما في حالة الضرورة المذكورة والشدة ، توجَّه إليهم بقضاء حاجتهم من عند الله سبحانه ، تصديقاً لقول سيدنا : « **من توجَّه إليهم توجَّهوا إليه** » ، ومعنى ذلك لما زاروه منكسرةً خواطرهم من شدة حاجتهم من أمرٍ لا يغيث منه إلا الله ولا رحمهم مخلوق ، وزاروه بمحبةٍ واعتقاد أن له عند الله منزلةً ، راجين من الله الفرج لهم ببركة زيارتهم له ، فأجابهم من يجيب المضطر إذا دعاه ، وقد قال الله سبحانه : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي » ، أي معتقدين أن لا يزيل كربهم إلا ربهم، وخائفين بسبب ذنوبهم أن لا يستجيب لهم ، وطمعوا أن تحصل لهم الإجابة عند قبره ، فوقع لهم طمعهم على وجهٍ لا يخطر ببالهم ، وأحل الحلال ما لم يخطر في البال ، وتم بذلك ، وصدق قول سيدنا: « **من توجَّه إليهم توجَّهوا إليه** » ، فهكذا الأمر كما سمعت ورآه من رآه .

فهذه واقعةٌ واحدةٌ تدل على الكثير ، ويكفي ذِكْرها عن ذِكْر غيرها ، فاعتقد ذلك من كرامات الأولياء وافهَمْهُ على وجْهِهِ ، ولا تفهمه كما يفهمه الجاهلون الذين قَصُر علمهم عن فهم معنى حقائق الأشياء على وجهها ، فيرون أن لغير الله مدخلاً في هذه الأمور ، وتصرفاً معه في ملكه فذلك خطأ ، إذ نسبة أفعال الله لغير الله كفرٌ ، وليس الأمر كما يفهمون .

وإنما المعنى الصواب أن ذلك مجرَّد فِعْل الله لا مدخل فيه لأحدٍ سواه ، ولكن لمَّا كان للنبي أو الولي تلك المنزلة الجليلة عند الله ، فالله سبحانه يفعل تلك المعجزات للأنبياء وتلك الكرامات للأولياء ، وليس الأولياء كالأنبياء ، بل الأولياء قاصرون عن الأنبياء ، وإنما حصل لهم ذلك بحسن متابعتهم للأنبياء .

ويفعل الله سبحانه ذلك لمن التجأ إليهم لكرامتهم عليه ، أي يحصل للملتجيء إليهم تفريج كُرَبِهِ ودفع نَكْبَتِهِ أو جَرُّ مصلحةٍ أو دَفْعُ مضرةٍ ونحو ذلك ، وذلك من الله سبحانه لمن التجأ إليهم بالعقيدة

والمحبة ، ووضعوا عليه نظرهم ، نفعٌ في الدنيا وَلَنَفْعُ الآخرة أكبر .

كما سمعتَ من شأن هذه الواقعة الدالة على غيرها ، فإن الشيخ أبابكرٍ راقدٌ في قبره في البرزخ لا يعلم بما يجري في الدنيا من الأمور ، فلما توجَّهوا إليه بعقيدةٍ ومحبةٍ وراجين حصول غرضهم من الله لما للشيخ عند الله من المنزلة ، قضى الله حاجتهم من وجهٍ لا يعلمونه ولا خطر ببالهم ولا يعلمه الشيخ ، فإن المراد حصول الغرض على أي وجهٍ كان .

ومن العجيب ما أخبرني السيد محمد بن أحمد العيدروس قال : « أصابتني بتريم فاقة شديدة ، فمضيت إلى بني عمنا أهل عدن المتولين منصب الشيخ أبي بكر، طامعاً أن يواسوني بشيءٍ وما حصل منهم ، فصليت ليلة جمعةٍ ما تَيَسَّر ، ثم وقفت عند قبر الشيخ أبي بكر ، وجعلت أقول : يا شيخ أبابكر، هؤلاء أولادك ونحن أولادك ، وهؤلاء في غنىً ببركتك ونحن في فقرٍ ، فالأولى أن نكون سواء ، إما كلنا أغنياء أو كلنا فقراء ، أو مثل هذا الكلام . فرأيتُ رجلاً شال كسوة التابوت وخرج إليَّ ووضع في يدي صُرَّة دراهم كثيرة ثم غاب عني ، فأخذتُ لأهلي هديةً وعبرت إلى الشحر ، ثم جئت إلى تريم فبنيت لي منها بيتاً واشتريت لي بالرملة نخلاً، وفعلتُ لي فيه غرفةً وهنا أنا أعيش في ذلك » ، ورأيتُ بيته وغرفته ونخله ، وهو نخلٌ جزلٌ ، وليس ما ذَكَرْنا بكثيرٍ من كرامات سيدنا الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس نفع الله به .

فافهم هذه القصة على وجهها ، وقِسْ عليها غيرها مما لا يحصى مما لم نطول بِذِكْرِهِ مما رأيناه من سيدنا عبدالله وغيره كهذه غير ما لم نره مما قد سمعناه ، واعلَمْ أن نسبة الكرامات للأولياء إذا أجراها الله لهم كنسبة المنافع إلى الأسباب التي جعلها الله لها يتوصل بها إليها ، والأسباب بأيدي الخلق والمقصود منها من المنافع بإرادة الله لا مطلقاً ، فإذا وقعت الأسباب وأراد الله تعالى إجراء المنافع وقعت معها لا بها .

والفرق بين ذلك أن معنى : « بها » أي من لازِم وقوع الأسباب وقوع المسببات وهذا لا يجوز وغير مرادٍ بالكلام ، ومعنى : « معها » ، أن الله أوقعها مع الأسباب لما أراد ذلك ، ولو لم يُرِدْهُ لما وَقَعَت وإن وقعت الأسباب .

فافهم المعنى المقصود ومَيِّز بينه وبين الآخر الباطل ، فإن الله سبحانه إذا أراد إجراء المنافع مع الأسباب حصلت وإلا فلا ، فالناس يفعلون الأسباب على رجاء أن يوافق إرادة الله حصول النفع عند وقوع الأسباب لا قطعاً بحصوله بها، فالقاطع بذلك إذا حصل السبب جاهلٌ أحمقٌ لا يعرف الحق من الباطل ، ولهذا تعلق الحمقى الجهال بالأسباب ونسوا مسبِّب الأسباب ، فما أفلحوا ولا أنجحوا .

ومثال الأسباب في حصول المنافع بها كحصول نَفْع السمع بالأذن ، وحصول النظر بالعين ،

وحصول النطق باللسان ، فإذا أراد الله تعالى إجراء هذه المنافع بهذه الأعضاء أجراها معها ، وإلا فتوجد هذه الأعضاء بدون هذه المنافع ، وترى هذه الأعضاء موجودة في فاقِدِ منافعها ، كما هي تراها في واجدها ولا فرق بينهما ، إلا أن الله سبحانه نزع منافعها منها وتركها كما هي ، فلا ترى فرقاً بين أذن الأصم وعين المسروق النظر ولسان الأعجم ، وبين أذن السامع وعين الناظر ولسان المتكلم ، إلا فَقْد منافعها لا غير ، فكذلك جميع أسباب الدين والدنيا والآخرة هكذا موقوفةٌ على مشيئة الله ، فقد توجد دون منافعها ، قال الإمام الغزالي : « فما كل من صلى وصام وعمل الطاعات غفر له . فكذلك الأولياء قد لا يكون لأحدٍ منهم كرامةً مدة عمره ، وهو قد يكون عند الله أفضل ممن كَثُرت له الكرامات ، ولكن حيث لم يشاء الله له حصول كرامةٍ ولا شاء شيئاً من منافع تلك الأعضاء ولا تلك الأسباب ، لم يكن شيءٌ من ذلك ، وإنما كل شيءٍ يتوقف على شيءٍ ، وكل شيءٍ متوقفٌ وجوده على مشيئة الله ، وإن حصل سببه فافهم ولا تغتر » هـ .

فالمحقِّق هو الذي جمع بين الشريعة والحقيقة ، فالشريعة على الأعضاء الظاهرة لأنها كلها أفعالٌ ظاهرةٌ ، وهي عبارةٌ عن تسببات الخلق لأمور دينهم ودنياهم على القانون المشروع . والحقيقة في الباطن لأنها مجاري باطنة ، وهي نسبة تلك الأسباب الظاهرة كلها إلى الله ، وهو اعتقاد أن لا تفيد تلك الأسباب في مطالبها المقصودة لها إلا بإرادة الله وفِعْلِهِ ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾، فافعل الأسباب ببدنك واعتمِدْ على معنى الآية بقلبك ، فهذا هو الجَمْع بين الشريعة والحقيقة ، فالشريعة جسمٌ والحقيقة روحٌ هـ .

قال رضي الله عنه : « من كان في المرتبة يعينه أهل زمانه كلهم ، ويعينه الأولياء الظاهر منهم والخامل ولو بالدعاء ، وأهل الدوائر ما يتسبَّبون في أمر المعاش إنما سببهم الإيمان والتقوى . وقد قيل للشيخ أبي مدين : إن أصحابك يتسبَّبون لمعاشهم وأنت ما تتسَبَّب ، فقال : إني تسببَّتُ بسببٍ خير من سببهم ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾» .

أقولُ : قوله : « في المرتبة » ، يعني في مرتبة القطبية التي من أقيم فيها صار مدداً للخلق وواسطةً لهم إلى حصول كل خيرٍ ودفع كل شر ، لا تنزل قطرة مطرٍ ولا تنبت شجرةٌ ولا تخضر ورقةٌ إلا بنظره، كما وصفه الشيخ أحمد الرفاعي ، ومدده من النبي ﷺ وأهل دوائر الولاية وغيرهم ، يُعِينُوه على ما كُلِّف به .

وقال : « إن الإنسان ضعيفٌ ، إلا إن أمده الله بقوةٍ وسلطةٍ ، وكل الأمور ينبغي أن يأخذ بأوساطها، لأن عن يمينك طريقاً وعن يسارك طريقاً ، فإذا كنت على الوسط إن مِلْتَ ؛ مِلْتَ إلى أحدهما ، وإن خَرَجْتَ منه ؛ خَرَجْتَ إلى المزلة ، إلا إن شككت في الأمر المطلوب ، فخذ بما فيه من اليقين ، كمن يشك أنه كريمٌ أو بخيلٌ فليأخذ بالكرم يفعله » ، وقال : « جعل الله في الإنسان قابليةً لكل شيءٍ ، لكونه يريد أن يجعله محلاً لخطابه ، فلو لم يكن قابلاً لكل شيءٍ لم يكن أهلاً لخطابه تعالى ، وقد قال سبحانه : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ » .

وجلس في الضيقة خارجاً لصلاة العصر يوم الأحد سادس من شوال سنة ١١٢٦ ، فأول ما تكلم به - حين جلس - استأذنه بعض الفقراء يعاود بعض السادة - أحمد بن هاشم - فقال له : « كيف تروح وأنت صائم ست شوال ؟ تريد أن تحكي لهم أنك صائم ؟ » ، قال : « ما أحاذره » ، قال : « لو لم يكن إلا علمهم بكونك صائماً ، خل عملك إذا تعبت فيه يكون مستوراً ، لعل الله يقبله ، وإلا راح التعب بلاش » .

ثم التفت إليَّ نفع الله به ، فقال : « لو كان لك عبدٌ قائمٌ لك بالخدمة لكرهتَ منه أن يُعلِم الناس بأنه يخدمك . وللشيطان على الإنسان مداخل خفية ، والرياء يجري فيه مجرى الدم . أما ترى يحيى بن معاذٍ الواعظ المشهور ، وهو من كبار تلامذة أبي يزيد البسطامي وكان يرقى للوعظ على المنبر ، قال لجاريته : إذا جئتُ إلى بغدادٍ انفتح لي الكلام في الوعظ ، وكان يحضره الخلفاء والأمراء وأبناء الدنيا ، وإذا كنتُ في غير بغداد لم يكن مثل ذلك ، فقالت له : يا سيدي هذا بسبب الرياء . والله سبحانه لا يأخذ العبد حتى تقوم عليه الحجة من عمله بفتواه ، بحيث لو بلغ هو رتبة القضاء وقيل له : اقْضِ أنت في من عَمِلَ هذا العمل . لَقَضَى بالذي جُوزِيَ عليه ، وإن لم يكن هو عمله » .

فقال ذلك الفقير : « إني رأيت هذا في نفسي وتيقنت أنه الرياء ، وذلك أنه كان في شهر رمضان إذا طلعت البلاد في الليل أحس نشاطاً ولا يجيني نوم ، مع أني ما أحب أن يعرفني أحدٌ ، ولو أحْرَمْتُ بركعتين في الحاوي طرأ عليَّ النوم ، حتى إني ما أتم الركعتين إلا بشدة ، فقال سيدنا : « هو الرياء بعينه . والله تعالى قد خلق ناراً وجعل لها دركاتٍ وخلق جنةً وجعل لها درجات ، والدرجات صعودٌ من حين يدخل الجنة جعل يصعد ، والدركات نزولٌ من حين يدخل النار جعل ينزل ، وقد حكم بأن يملي كل واحدةٍ منهما ، ولهذا اختلفت أحوال الناس في الرياء ونحوه . وفي الإخلاص كذلك ، فليس إخلاص العامة كإخلاص الخاصة ، ولا إخلاص الخاصة كإخلاص خواص الخواص ، فكل طبقةٍ من الناس

لهم رياءٌ ولهم إخلاصٌ ويكون إخلاص قومٍ رياء قومٍ آخرين ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين .

وكان بعضهم قد صلى في الصف الأول نحو أربعين سنةٍ ، فتخلف يوماً حتى ضاق الصف الأول حتى لم يمكنه الصلاة إلا في الصف الأخير فرأى في نفسه حياءً وخجلاً حيث خالف عادته ، فقضى صلاته في تلك المدة كلها » هـ .

أقُولُ : قوله : « تحكي لهم أنك صائم » ، أي تحكي لهم بلسان الحال بحيث يَعْلَمُون بصيامك ، سيما إن عرضت قهوةٌ فرَدَدْتَها فحُقِّق لهم صيامك ، فيُنْقَل من ديوان السِّرِّ إلى ديوان العلانية ، وعمل السِّرِّ يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً . أعني : إذا كان في العلانية مع الإخلاص بَعْشرٍ ففي السِّرِّ تضاعف العَشْر سبعين مرةً بسبعمائة ، وأيُّ تفاوتٍ بينهما . فالمغبون المنحوس من يفوِّت الكثير ويقنع بالأقل ، فكيف تقنع عن ذلك الكثير بهذا القليل ، فهذا دليلٌ على قلة الرغبة في ثواب الله ، وذلك أصح دليلٍ على ضعف الإيمان .

قوله : « لو كان لك عبدٌ » ، هذا تمثيلٌ بدليل الطبع عن حكم الشرع ، إذ لا يزال الطبع مخالفاً للشرع ، وهذا والله بَيِّنٌ واضحٌ في الطبع كراهته لما فيه من ظهور مِنَّة العبد على سيده وعجبه بنفسه ، ونسيان ما من سيده إليه من ملك رقِّ عبوديته ومنافعه المعاشية ، فهو بئس العبد .

قوله : « لقضى بما جوزي عليه » ، يعني لحكم في قضاه وفتواه بذلك الجزاء الواقع به على ذلك العمل من الله ، سواء عمله هو أو غيره ، فيحكم بأن فاعله يستحق ذلك حجةً عليه من قوله وفتواه ، فلا يَسْتَنْكِرهُ إذا وقع به .

وقد جرت عادة الله سبحانه أنه إذا أراد أن يجري على عبده جزاء عمله السوء بالعقوبة يضرب له مثلاً ويستفتيه على لسان أحدٍ من الملائكة ، ويقول له : ماذا يستحق من عمل هذا العمل ؟ فيقول : يستحق كذا وكذا . ولا يعلم أنه المراد بذلك ولا يبيِّن له ما يفهمه إياه ، ثم يُوقِع به ما أفتى به ، إتماماً لقطع حُجَّته ، لئلا يَعْتَل ويظن أنه أوقع به ما لا يستحقه ، فربما أنه ظالمٌ ويظن أنه مظلومٌ ، وقد سمعت سيدنا غير مرةٍ يقول : « فكم من لائمٍ ملومٌ ، وكم من ظالمٍ يظن أنه مظلومٌ » ، وهو معنى قوله : « والله سبحانه لا يأخذ العبد حتى تقوم عليه الحُجَّة البَيِّنة من عمله بفتواه » ، إذ لا أشفق عليه من نفسه ، فيرجع بعد ذلك على نفسه باللوم ويندم حيث لا ينفعه الندم ، ويتبين له حينئذ أنه مستحِقٌّ لذلك ، إذ طبيعة الآدمي عدم الإنصاف حتى لو كان ظالماً زعم أنه مظلومٌ لعدم رؤيته لعيوب نفسه .

وقد وقع كما ذَكَرَ مثالاً في وقائع كثيرةٍ سيما في الأمم السالفة من ذلك : « أن بني إسرائيل لما فسدوا وأكثروا العصيان فغضب الله عليهم ، وأراد أن يُنزِل بهم العقوبة جزاء أعمالهم ، مع قطع حُجَّتهم عن

دعوى أنهم لا يستحقون ذلك فيزدادون بذلك حسرةً وندامةً ، أوحى الله إلى نبيهم شعيا : أن قُم في قومك أوح على لسانك ، فألقى الله على لسانه خطبةً بليغةً طويلةً ، وضرب لهم فيها مَثَلاً ، فقال تعالى لهم فيما أوحى فيها : إني ضاربٌ لهم مَثَلاً فليسمعوه ، قل لهم : كيف تقولون في أرضٍ كانت خراباً ، وكان لها ربٌّ حكيمٌ ، فأحاط عليها جداراً وشيَّد فيها قصراً ، وأنبط فيها نهراً ، وصنف فيها غراساً من النخل والزيتون والرمان والأعناب وألوان الثمار ، وولّى ذلك قيِّماً أميناً حفيظاً ذا همةٍ قويًّا ، فلما أطْلَعَتْ جاء طَلْعُها خروباً ، قالوا : بئست الأرض هذه ، نرى أن يُهدَم جدارها وقصرها ، ويُحرَق غرسها ، ويُدفَن نهرها ، ويُقبَض قيِّمها ، حتى تصير كأول مرةٍ خراباً ، قال الله تعالى : قل لهم: فإن الجدار ذمتي، وإن القصر شريعتي ، وإن النهر كتابي ، وإن القَيِّم نَبِيِّي ، وإن الغراس هم ، وإن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة ، وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم ، وإنه مَثَلٌ ضربته لهم » ، انتهى ملخصاً من تفسير البغوي . ثم إن الله سبحانه أنزل بهم العقوبة جزاء أعمالهم بعدما قامت عليهم الحجة من فتواهم وأقوالهم ، وهو معنى قول سيدنا : « **والله سبحانه لا يأخذ العبد حتى تقوم عليه الحُجَّة من عمله بفتواه .. إلخ** » ، وهذا مَثَلٌ يُفهِمُك ما قاله ، فإن أقواله وأعماله وأحواله كلها مشيَّدةٌ بالحق ، ومؤسَّسةٌ على الحق ، ومؤيَّدةٌ بالحق ، ومبنيَّةٌ على الحق .

ومِثل ذلك أيضاً ما سمعت سيدنا غير مرةٍ يقول : « **لما أراد الله إهلاك فرعون وإغراقه في بحر القلزم، أرسل الله له جبريل في صورة رجلٍ يستفتيه . فقال له جبريل : ما تقول في عبدٍ لي أنعمتُ عليه وأعطيتُه وأعززْتُه ، فطغى عليَّ وزعم أن له مثل ما لي ، فقال : لو أن هذا عبدٌ لي لأغرقتُهُ في بحر القلزم، فقال له : اكتب لي بهذا كتاباً . فكتبه له ، فلما كان وقت غرقه في بحر القلزم تمثَّل له جبريل وقال له : هذا حُكْمُكَ على نفسك وفتواك . وأعطاه كتابه فنظره فرآه ، فتمَّت عليه بذلك الحُجَّة ، ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ ، وعادة الله أن لا يقبل إيمان أحدٍ ولا توبته إذا نزلت به العقوبة كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾** » .

وقوله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، أي نلقيك ببدنك الميت على ربوة ، يعني مكان مرتفع ليراك من سمعك تدعي الربوبية بعنادك وتجبرك .

ومراد سيدنا بقوله : « **لقضى بما جوزي عليه** » ، يعني فلا يلومنَّ أحدٌ وقعت به العقوبة على عمله السوء إلا نفسه ، فكل من خالف الأمر فالحُجَّة عليه قائمةٌ ، ومن امتثل الأمر فالحُجَّة له قائمةٌ ، فلا

يقول الناري : لِمَ أُدخِلت النار دون فلان ، أو لِمَ أُدخِل فلانٌ الجنة دوني ، فأعمالك شاهِدةٌ لك وعليك. ومِثل ذلك أن الله تعالى أظهر للملائكة في اللوح المحفوظ وذلك عند خلق آدم ؛ لأن المقضيات مؤقتاتٌ بأوقاتٍ .

وشقاوة إبليس مقضيةٌ مؤقتةٌ بخلق آدم إذا رُكِّب فيه النور النبوي عند أمر الملائكة له بالسجود فيمتنع ، فعند ذلك تظهر شقاوته ، أظهر لهم فيه ذلك وقد كان مخفيًا فأظهره عند قُرْبِ وقوعه ، أظهر لهم فيه أن عبداً يعبد الله ثمانين ألف سنةٍ ، ثم يأمره بأمرٍ فيعصيه ولا يمتثل ما أمره ، فيحبط الله عمله ويطرده ويلعنه ، وهو إبليس ، فقالت الملائكة له - وكان معزَّزاً بينهم ، ويسمى معلِّم الملائكة بإعزازيل ، وكان ذلك اسمه قبل أن يُلعَن ويُبَدَّل اسمه بإبليس ، أي المطرود - قالت له : ادع لنا أن لا يكون ذلك أحدٌ منا . وكل واحدٍ منهم خاف أن يكون ذلك العبد ، وإبليس اللعين أَمِنَ قلبه من ذلك ولا خَطَر له لتكبره بعبادته أن يكون هو ، فقال : اللهم لا تغضب عليهم ، فدعا لهم ونسي نفسه، وكان هو ذلك العبد الخبيث ، ثم قال : يا رب ائذن لي أن ألعنه . فأذن له ، فلعنه مدةً ، فإذا به هو ، فدعا لهم ونسي نفسه ، ثم لعن نفسه بنفسه . يعني فلا يستنكر أن أمر الله بلعنه وقد لعن هو نفسه ، كما لا يستنكر العاصي لما جوزي عليه بسوء عمله ، وهو لو سأل ما يستحق فاعل ذلك لأفتى بأنه يستحق ذلك الجزاء بعينه .

قوله : « **ليس إخلاص العامة كإخلاص الخاصة** » ، إلى قوله : « **فحسنات الأبرار سيئات المقربين**»، فالأبرار هم الذين يعملون أعمال البر . والبر هو الجنة لقوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾، أي الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، حتى قال أبو طلحة الأنصاري : « يا رسول الله ، سمعت الله تعالى يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، وإن أحب أموالي إلي بئر حاء فاجعلها في من ترى لَعَلِّي أنال البر»، فقال رسول الله ﷺ : « بخٍ بخٍ ، ذلك مالٌ رابحٌ أرى أن تجعلها في الأقربين » ، فعرف أن المراد بالبِر الجنة . يعني لن تنال الجنة إلّا بإنفاق أحب أموالك إليك ، فالبِر هو الجنة ، ثم أطلق اسمها على الأعمال المؤدية إليها من الإيمان والطاعة ، من تسمية الشيء باسم مسَبِّبه وتسمية المسبَّب باسم سببه ، وهذا سائغٌ وجائزٌ وجارٍ من توسعات اللغة العربية من تسمية الشيء باسم سببه ، وباسم محله وباسم مجاوِره، وذلك زيادةً في الفصاحة والبلاغة ، وأعمال البر الموجبة لدخول الجنة هي الإيمان والطاعة من أداء الواجبات وترك المحرمات وما أمكن من المندوبات .

ثم إن معاملة العبد لربه فيما بينه وبينه بهذه العبادات والأوامر على مقامين : مقام الرضا ومقام الصبر ، وقد بيَّنهما النبي ﷺ لأمته فقال : « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » ، فالمراد من العبد أن يعبد ربه على الرضا ، فإن العبادة التي خلق الله الخلق لها حيث قال

تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾: أحدهما : فِعل ما يرضي الرب من تلك العبادات المذكورة التي هي مباني الإسلام من فعل واجباتها ونوافلها ، والثاني : الرضا بكل ما يفعل المعبود بعبده من كل ما تكرهه نفسه ، وهو أصعب الأمرين ، ولهذا قدَّمه في وصف العبودية ولا ينتقل إلى الآخر مقام الصبر إلا إذا عجز عنه . فأهل مقام الرضا : هم الخواص المقربون السابقون ، وأهل مقام الصبر : هم العامة الأبرار أصحاب اليمين ، وليس الفريقان في المعاملة سواء ، ولا هم في الجزاء عند الله في الآخرة سواء كما قال سيدنا : « **لو كانوا سواء ، ما فاوت بينهم في سورة الواقعة** » ، فيكفيك التَّفاوت في الدنيا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وافهم الفرق بينهما مما سنذكره من وَصْفِ الفريقَيْن ، فأقل الحال أن الخواص المقربين يؤدون الأوامر بلذةٍ وإقبالٍ ورغبةٍ ، ولذلك سُمِّيَ مقامهم مقام الرضا ، والآخرين العامة الأبرار يؤدونها بتكلفٍ وتصبرٍ ومقاساةٍ ولذلك سُمِّي مقامهم مقام الصبر ، كما فَرَّق في الحديث المذكور بينهما ، وبَيَّن أن المقصود حال الأولين الخواص وأن لا يعدل إلى مقام الصبر إلا للعجز عنه ، وإن أهله عاجزون عن ذلك المقام الشريف .

فأما أهل مقام الرضا ، فطريقهم هي الطريق الخاصة ، وهي كما قال : « **الفراغ عما سوى الله في الظاهر والباطن ، والتخلي عن الصفات المذمومة بتفصيلها ، والتحلي بالمحمودة بتفصيلها** » ، والمريد الداخل فيها المبتديء في الطريق الخاصة كما فَسَّره بقوله : « **هو من تمخَّضَتْ فيه إرادة وجه الله والدار الآخرة بجميع حركات سرائره وظواهره لمعاده ومعاشه** » ، قال : « **وهذا أمرٌ عظيمٌ إذا صح واستقام فتأمله** » ، وشأن هؤلاء كما قال في هذه المقالة : « **يجب على من أراد الدخول في الطريق الخاصة أن يتفرغ عن الدنيا بقلبه وقالبه ، وإشغال الأوقات كلها بالذِّكر والطاعة وحفظها والإقبال على أمور الآخرة بالكلية** » ، فإذا كَمُلَ وعَلَتْ درجته كان حاله وسيرته .

قوله : « **لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا إلا مع الحاجة الظاهرة إليه ولا تقل : ربما تدعو إليه حاجة. فحاجة الدين والآخرة أولى من هذا** » ، فهذا شأن وَوَصْف الخواص السابقين ، ويخرجون لله جميع ما يملكون ، ولذلك قال في حقهم : ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾بلا ذِكْرِ معلوم ، ليشمل جميع ما يدخل في أيديهم ولو عشاء أحدهم أو غداه ، ففيه حقٌّ لمن ذَكَر ، ولا يدَّخرون بنية أنفسهم، إنما يراعون ما هو الأحب عند الله في حقهم من ادِّخارٍ وعدمه ، ثم إنهم لا يرون أنهم أحق بما في أيديهم من المحتاجين ، بل يرون المحتاج أحق به منهم ، فإن احتاجوا فيرون أنهم والمحتاجين فيه سواء ، ولا فَرْقَ بينهم سوى أنهم يتصرفون فيه .

وأما الأبرار فإنما ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾، يعني إنما حقهم من أموالهم في القدر المعلوم من النصاب وما يجب إخراجه منه في الزكاة وفيهم قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ وإذا عمل أحدهم الحسنة سرَّته وفرح بها ، واعتدَّ بها لما يرجو في ضمنها من الثواب ، وإذا عمل سيئةً ساءته وأحزنته لما يخشى فيها من الإثم والعقاب ، وفي الحديث : « المؤمن من سرَّته حسنته وساءته سيئته » .

والشرع إنما ورد على ما هو الغالب من أحوال الناس ، وأحوال المقربين الخاصة فوق ذلك ، فلا يرون ما يراه أولئك من الفرح بالطاعة والاعتداد بها ، ولا يخطر في بالهم المعصية ولا يحوم الشيطان بها حولهم حتى يحصل منهم الإساءة بها ، ولا يعتدُّون بمكان الطاعة ، ولو خطر لهم رؤيتها والاعتداد بها استغفروا وتابوا وعدُّوه خطيئةً ، فهذه سيئتهم التي هي عند الآخرين حسنة . كما قال بعض السلف لآخر : « ادع لي » ، فقال : « استعملك الله بطاعته » ، قال : « زدني » ، قال : « وسترها عنك حتى لا تراها » ، قال : « كفاني » ، فلهذا صارت سيئاتهم حسناتٌ للآخرين ، والدليل على أن الله سبحانه إنما كَلَّف خلقه وخاطبهم بالأمر والنهي بعمل العامة من مباني الإسلام ونوافلها وغيرها ؛ قوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ ، فهذه الأعمال والأحكام هي وُسعها التي تسع عامة الخلق دون ما عليه عمل الخاصة من قيام كل الليل مثلاً وصيام الدهر وترك ملاذ النفس المباحة ، حتى ترك بعضهم أكل الرطب ثلاثين سنة ، فقيل له في ذلك فقال : « هو أحب شهوات نفسي إليها فتركته لله » ، وهذا هو الشيخ عمر المحضار بن الشيخ عبدالرحمن السقاف باعلوي .

فهذه الأمور مواهب من الله خَصَّ بها الخواص الذين أحبهم بها ، ولا كلَّف بها خلقه ، فليست في حدِّ تكليفهم الذي حدَّه الله لهم بقوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾، وكذلك قوله : « **من أراد الدخول في الطريق الخاصة فيلزمه الفراغ عما سوى الله في الظاهر والباطن** » ، فإنما هذا موهبة من الله يخص بها من أحب فليس للإنسان فيه مدخلٌ ولا له فيه اختيارٌ ، ولذلك قال سيدنا : « **وما كلفنا الله أن ندعو الناس إلى الطريق الخاصة كثيراً ، إن دعوناهم إلى الطريق العامة** » .

وإنما لم يرى الخواص العبادة والطاعة والاعتداد بها ، لأن رؤيتها والاعتداد بها تدل على أنه ما عملها إلا لرجاء الثواب ، ولا ترك المعصية إلا لخوف العقاب ، وهذا نقصٌ في حقهم وغير لائقٍ بمقامهم ، وإن كان زيادة وكمالاً في حق العامة أهل مقام الصبر ولائقاً بمقامهم لكنه نقصٌ وتقصيرٌ كبيرٌ في مشهد الخواص وأحوالهم إذا كان لهذا مجرد عزمهم وقصدهم ، كالعبد السوء لولا رجاء حصول الآخرة لما عمل ، ولولا خوف الضرب لما ترك ، وإنما مشهدهم العمل بالأوامر وترك المناهي امتثالاً مجرداً لأمر سيدهم ، وقياماً بحق الربوبية وإظهاراً لشأن العبودية فقط ، مجرداً عن ملاحظة كل ما سوى ذلك ، ومن شأن أحدهم بذل المجهود ورجاء القبول مع الخوف من الرد ، لأن العبد يجب

عليه امتثال أمر سيده ففعل بذلك كذلك ، فإن تفضل عليه بعد ذلك بشيءٍ شكره ورأى أن ذلك فضلٌ منه من غير استحقاقٍ له من أجل عمله ، لأنه وعمله مملوكان لله لقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وخالقه مالكه ، فإذا كان الأمر كذلك فما معنى طلب المعاوضة على العمل ؟ إنما تُطلَب المعاوَضَة ممن لا مُلْكَ له ، وإن عاقبه بعد قيامه بالأوامر على الوجه المذكور على أكمل الوجوه صبر وسلَّم بل رضي وشكر ، حيث مقامه الرضا، ولا يرى أن ذلك خلاف ما كان ينبغي له لمكان عمله، كما رأى ذلك إبليس بعد طول مدة عمله واعتداده به وعظمته في عينه . حتى إنه لمَّا أُمِر بالسجود مع الملائكة لآدم لما رَكَّب فيه النور النبوي ، فاستبعد أن يشمله الأمر بذلك لمكان عمله ، فقال : أنا خيرٌ منه . يعني لأجل عبادتي ثمانين ألف سنةٍ ، فاستكبر عن أمر ربه لطغيان نفسه وتكبرها وتجبرها بالعبادة، وزاده كِبْراً على كِبْره رؤيته أن أصله النار خيرٌ من أصل آدم الطين ، فزاده ظنه ذلك كِبراً وعتوًّا، وزاده مقتاً وإثماً ، وسدَّ أبواب المغفرة عنه من كل الوجوه ، لما كان كبره على النور النبوي بقلة الإذعان والخضوع له ، حيث خضعت الملائكة له وانقادت ، فكان أول من تكبر وعتا ، فكان له نصيبٌ من إثم كل متكبرٍ جبارٍ .

فإن خليع بني إسرائيل المسمى بالكفل بقي مصِرًّا على الكبائر الموبقات مدة مائتي سنةٍ ، ومات مُصِرًّا عليها ، فرماه بنو إسرائيل على مزبلةٍ وقالوا : لا نصلي عليه قط ، فأوحى الله إلى موسى : « أن غَسِّله وكَفِّنه وصَلِّ عليه وادْفِنه » ، قال موسى : « يا ربِّ إن بني إسرائيل علموا أنه عصاك مائتي سنةٍ»، قال تعالى : « نعم عصاني مائتي سنةٍ ومات مُصِرًّا على المعاصي ، ولكنه كلما فتح التوراة ورأى اسم محمدٍ قبَّله وصلى عليه ، فشكرتُ له ذلك وغفرتُ له ذنوب مائتي سنةٍ ، وزوَّجته مائتي حوراء » .

فانظر كيف جعل الله له باباً إلى المغفرة ببركة تواضعه لسيدنا محمدٍ ﷺ ، ولو لم يكن من أمته ، فإنه أساس البركة على الخلق أجمعين في الدنيا والآخرة ، وسَدَّ على إبليس الخبيث كل وجوه الخير والمغفرة في الدنيا والآخرة من أجل تكبره وعدم انقياده له ، فلما نقل النور النبوي إلى وجه آدم صار في وجهه دارةٌ كدارة الشمس ، حتى أذعن بالسجود له كل من رآه ، لمكان سعادتهم ، وأبى إبليس لشقاوته ، وما علم الملعون بالمقصود .

إذْ لَـو رَأى الشَّـيطَانُ طَلعَـةَ نُـورِهِ ... في وَجْـهِ آدَمَ كانَ أولَّ مَـن سَـجَد
أو لَـو رَأى النُّمـرُودُ نُـورَ جَبِينِـهِ ... عَبَدَ الجَلِيلَ مَعَ الخليل وَلا عَنَد
لَكِـنَّ نُـور الله جَـلَّ فـلا يُـرى ... إلا بِتَخصِيـصٍ مِـنَ الله الصَّمَـد

فمقام المقربين السابقين مقام الرضا المعيَّن في الحديث المذكور والمشار إليه في آية الذاريات ، ومقام الأبرار أصحاب اليمين مقام الصبر كما بيَّنه في ذلك الحديث أيضاً ، فأهل مقام الرضا يتلذذون بالبلاء

كما يتلذذ الآخرون بالعطاء لما يرون أنه مختار سيدهم لهم ، فيحبون كل ما يختاره لهم ويخصهم به ، ولو فيه تلف أنفسهم ولا يطلبون غيره ، كما سمعتَ عن أناسٍ من الصحابة بعدما أفنوا أموالهم في الجهاد في سبيل الله جعلوا يتسابقون إلى الشهادة ويتمنونها ، لما يرون فيها من رضا ربهم فيرغبون في كل ما يحبه وإن كرهته النفوس العامية كتلاف نفسٍ وذهاب مالٍ ، فلهذا كان في مشهدهم كل ما عاملهم به ربهم سواءً الثواب والعقاب ، لا يختارون إلا ما اختار لهم ، قال بعضهم : « لئن أدخل النار وأنا مطيعٌ أحب إليَّ من أن أدخل الجنة وأنا عاصي » .

ومن أهل مقام الرضا ما ذكره في « شرح الحِكَم » لابن عباد : « أن رجلاً متسعاً في المال من أهل الشام يسمى ابن عبد ربه ، كان يسير بقافلته من الشام إلى مصر وعليها بضاعته ، الرِّكاب له وما حملت وسُوَّاقها عبيده ، فيبيع بضاعته ويشتري بضاعةً من مصر يسير بها إلى الشام فيبيعها وهذا ديدنه ، ففي بعض أسفاره نزل ببعض المنازل ، فلما كان وسط الليل إذا هو يسمع صوتاً يتحمَّد الله ويشكره على ما أولاه ويقول : اللهم لك الحمد على ما أعطيتني اللهم إني في نعمةٍ ليس فيها أحدٌ غيري ، ونحو ذلك. قال : فاتبعت الصوت أتسمعه ، إلى أن وقفت على الرجل ، فإذا به رجلٌ قد قطَّع الجذام جسمه من رأسه إلى قدمه ، والوقت شدة بردٍ ، حتى أن الثلج ينزل على الأرض كأنه القطن ، وإذا به إنما عليه خصفةٌ من خوصٍ ، فقلت له: كيف حالك ؟ قال : في حال نعمةٍ لا أقدر على شكرها ، قلت له : قُم سِرْ معنا إلى رَحْلِنا لنواسيك ونكسيك ما يغنيك عن هذه الخصفة ، قال : لا أريد غيرها ، ولا أريد إلا هذه الحالة التي اختارها لي ربي . وأبى أن يسير معنا ، فتقصارتُ إلى نفسي وقلتُ : يا نفس ويحك ما تركت في الشام ؟ من يكاثرني وأنا مع ذلك أطلب الزيادة في المال ؟ فقلت : إن صَدَقَتْ نِيَّتي ما سِرْتُ إلى متجري ، وصرفت عنان راحلتي إلى الشام ، ورجعت بقافلتي إلى الشام .

قال الحاكي عنه : فباع بضاعته ووضع يده في ماله ينفقه لوجه الله ، حتى حين حضره الموت لم يبق إلا ما يجهزه ، وقال : لو قيل من مسَّ تلك الإسطوانة مات ، لم يسبقني منكم إليها أحدٌ » .

وأهل مقام الصبر يتكلَّفونه ويتحمَّلونه مع المشقة لما يرجون عليه من الثواب ، فلما كان المقربون السابقون أهل مقام الرضا هذا حالهم ووصفهم ، وهكذا شأنهم وهو عزيزٌ نادرٌ . وهم أفرادٌ وآحادٌ ذَكَرَهُم الله بِوَصْفِ القِلَّة حيث قال تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني الأنبياء ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وهم النبي ﷺ والصديقون من أمته ، وذكر الآخرين الأبرار أصحاب اليمين بوصف الكثرة فقال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ، يعني به من اتبع الأنبياء ، ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، يعني أصحاب اليمين من هذه الأمة، وعلى حسب حال هؤلاء ورد الشرع وجاء به التكليف ، والآخرون السابقون خصهم الله بزوائد على ذلك المشروع في المعاملات من العبادات والعادات ثم خصهم في الدنيا بأحوالٍ وأمورٍ

تعجز عنها العبارات ، وأشياء تخرج عن الطاقة البشرية ، وفي الآخرة بأشياء لا يعلمها إلا من خصهم بها .

فلله خواصٌ من عباده خصهم بما خصهم به ، ولذلك قال سيدنا : « **جعل الله الجنة درجات** » ، أي على حسب ما خصهم به من العمل والعبادة والجزاء ، كما قال: « **إن النار دركات** » ، أي على حسب معاصيهم وما أراده لهم من الجزاء على سوء أعمالهم من الشر الذي بسبب إرادته ذلك لهم أزعجهم إلى أن عملوا تلك الأعمال التي أراد لهم جزاءها ، كما أزعج الآخرين إلى أن عملوا من الخير ما أراد لهم جزاءه، فالجزاء تابعٌ للعمل ، والعمل تابعٌ للإرادة الأزلية لا محالة ، خيراً كان أو شرًا ، وتوافقها الإرادة الشرعية في إرادة الخير في أهل السعادة فلذلك عملوه ، وتفارقها الإرادة الأزلية وتنفرد عنها في إرادة الشر في أهل الشقاوة فلذلك عملوه، وهذا هو معنى قوله : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، كما بيَّنَّا ذلك عند ذِكْرِ هذه المقالة .

وقال تعالى في صالحي أصحاب عيسى عليه السلام من الحواريين : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال في حق ناسٍ جاؤوا بعدهم خالفوا سيرتهم وما هم عليه وما اتبعوا طريقتهم : ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ . وفي التفسير: الرهبانية هي : رفض الدنيا واتخاذ الصوامع . وقوله تعالى : ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، أي ما أمرناهم بها. وقوله : ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾الآية ، إذ تركها كثيرٌ منهم وكفروا بدين عيسى وبقي عليه كثيرٌ منهم وأدركوا نبينا فآمنوا به .

فالمراد إن الذين فعلوا ذلك لشدة شغلهم بالعبادة تركوا ما يقطعهم عنها من التحمل بالنساء والأولاد ومؤنهم ، وتفرغوا في أماكن كالصوامع عوناً لهم على ذلك وتفرُّغاً عما يُلهيهم ويقطعهم عن العبادة ، ومرادهم اتباع الحق وما يعينهم عليه ، ثم اتبعوا الدين الذي ختم الأديان كلها ونسخها ، فحصلوا أجرهم مرتين، فأي خصوصيةٍ أبلغ من هذه ؟ ثم صاروا من خواص هذه الأمة ، يعني من أسلم من أهل الكتابين من النصارى واليهود كعبدالله بن سلام وأصحابه ، فكل هذه زوائد منهم في العبادة أوتوها لما كتب الله لهم من زوائد المجازاة على نفس العمل ، مع ما حصل لهم في ضمن العبادة من المعارف الربانية واللطائف الإيقانية والمواهب اللدنية ، فأين هم من الآخرين الذين قصروا عنهم في جميع ذلك ؟ بل حتى صار من كان من غير هذه الأمة من هؤلاء إلى الإلحاد والكفر والعناد

ولذلك البون البعيد الذي بين طريق الخصوص وطريق العامة ، *قال سيدنا* : « **ما كلفنا أن نحمل الناس على طريق السابقين ، غاية ما يمكننا أن نحملهم على طريق أصحاب اليمين** » .

أقول : لأن طريقهم طريق العموم وهي متيسِّرة ، وهي المشروع لكافة المؤمنين ، وما ورد الشرع

إلا بحسب أحوالهم كما قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾، وما عجز عنه بسببٍ أو شقٍّ كسفرٍ ومرضٍ عفا عنه ورخَّص فيه ، وما فوق ذلك من الزوائد من الأعمال فيختص بها الخصوص ، ومثاله كقراءة القرآن كله في ركعةٍ ، والمكث نحو أربعين يوماً عن الأكل ، ونحو ذلك مما يُقِر العامة بالعجز عنه ، كما ذُكِرَ عن بعض أهل الخصوص أنه صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة ، يعني من حين يصلي العشاء فهو في عبادةٍ إلى أن يصلي الصبح بالوضوء الذي صلى به العشاء ، وغير ذلك كثيرٌ مما ذُكِرَ عنهم .

فلذلك كان جزاؤهم سكنى أعلى الجنة ، وينظر الآخرون إليهم كما ينظر أهل الأرض إلى الكوكب الدُّرِّيِّ في أفق السماء ، ويشربون ماء التسنيم وهي الكافور، والسلسبيل أيضاً خالصاً ، وجزاء الآخرين أصحاب اليمين سكنى أسفل الجنة وشُربِهِ ممزوجاً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾، إلى أن قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾، إلى أن قال : ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، أي منها خالصة ، وفي السورة الأخرى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾أي ممزوجةً به ، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾، أي المقرَّبون الخواص خالصةً ، وهم أهل الطريقة الخاصة والآخرون الأبرار أصحاب اليمين لهم الشراب الممزوج من تلك العين الشريفة التي يختص الخواص المقربون بالشرب منها خالصاً غير ممزوجٍ .

فبهذا الفرق بَيْنَ أعمالهم وجزائهم كما سمعت تبين لك الفرق بين الفريقين ، ففرقٌ بعيدٌ بين أعمالهم ومعاملاتهم وجزائهم ، حتى صار حسنات قوم سيئات قومٍ آخرين ، يعني الذي يعدونه سيئاتٍ وتقصيراً في العبادات والمعاملات يعده الآخرون في أعمالهم حسنات وكمالاً ، ولذلك فرحوا بها ، والآخرون لو خطرت أعمالهم على بالهم عدوه نقصاً وتقصيراً . مثاله : لو قام أصحاب اليمين بكل الواجبات على الوجه الأكمل وتركوا المحرَّمات وأتوا بالمؤكدات من نوافل الخيرات عدّوه كمالاً وغايةً في العبودية ، وعده المقربون الخواص تقصيراً لتركهم بعض النوافل ، فوضح لك حينئذٍ واتضح ما قاله في شأن الفريقين من التفاوت .

وتكلم يوماً هذا المعنى *ثم قال* : « **لو كان جزاؤهم سواءً ، ما فاوتَ بينهم في سورة الواقعة** » ، يعني في قوله تعالى في وَصْفِ الخواص السابقين : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾، إلى : ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾، وقوله تعالى في الأبرار أصحاب اليمين : ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾، إلى قوله تعالى : ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾، فهذا تفاوت ما بين جزاء الفريقين، وإذا تأملتَ هذه السورة رأيتها من أولها إلى نحو نصفها وَصْفِ جزاء الخلق في الآخرة ، من مقرَّبٍ خاصٍ ، وبرٍّ وفاجرٍ، وهُم الأزواج الثلاثة كما قال تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾، وعَدَّ المقربين السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال هم وجملة الخلق البَرِّ والفاجر ، وبعد ذلك ذَكَرَ وَصْف خلقهم وأصله وما خلق

لهم، وذَكَرَ موتهم وذَكَرَ وَصْف القرآن ووجوب الطهارة له ، وأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وذَكَرَ أحوال الثلاثة الأصناف من الخلق عند الموت .

قال الشيخ علي بن أبي بكر علوي نفع الله به في كتاب « المعارج » : « وأعمال العامة على الشريعة، وأعمال الخاصة على الطريقة ، وأعمال خواص الخواص على الحقيقة ، فالشريعة : قيامٌ بما أمر ، والحقيقة: شهودٌ لما قضى وقدَّر وأخفى وأظهر، والشريعة حقيقةٌ من حيث أنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعةٌ من حيث أن المعارف به سبحانه وجبت بأمره . واعلم ، أن حاصل الوحي المنزل بواسطة الملائكة عليهم السلام إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم : التنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية ، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمالات القوة العملية » انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾، تشمل الفريقين : السابقين وأصحاب اليمين ، وكل ما جاء في ذِكْر التقوى أيضاً ، وقوله تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ إلى آخر السورة ، يدل على أن كل ما قال الله سبحانه في الكتب المنزلة على رسله المرسلة إلى الأمم كلها سابقاً ولاحقاً ، إنما خطابه سبحانه لعموم الخلق الخاص والعام ، ثم يختص الخواص بخصوصياتٍ يختصهم بها في المعاملات بينه وبينهم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، يعني مذكورٌ فيها معنى قوله تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، والخواص لا يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، فدَلَّ إنما خاطب بذلك العموم ثم اختص الخصوص بخواصٍ عن غيرهم من جملتها أنهم يؤثرون الآخرة على الدنيا ، بخلاف ما عليه عموم الخلق فافهم .

ومن الفرق بين الفريقين في جزاهم في الآخرة ما جاء في الحديث : « إن أهل الجنة بينا هم في نعيمهم سطع عليهم نورٌ من فوق ، أضاءت منه منازلهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فنظروا إلى رجالٍ من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يرون الكوكب الدُّرِّيَّ في أفق السماء ، وقد فضلوا عليهم في الأنوار والجمال والنعيم كما فضل القمر على سائر النجوم ، فينظرون إليهم يطيرون على نُجُبٍ تسرح بهم في الهواء يرون ذا الجلال والإكرام ، فينادون هؤلاء : يا إخواننا ما أنصفتمونا ، كنا نصلي كما تصلون ، ونصوم كما تصومون ، فما هذا الذي فضلتم به علينا ؟

فإذا النداء من قبل الله تعالى : إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويعطشون حين تروون ، ويعرون حين تكتسون ، ويَذْكُرون حين تسكتون ، ويبكون حين تضحكون ، ويقومون حين ترقدون ، ويخافون حين تأمنون ، فلذلك فضلوا عليكم اليوم ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾» ، انتهى نقل ذلك من شرح الحِكَم لابن عبادٍ . وقد بَيَّن هذا الحديث ما فضل الله به الخواص من الأعمال في الدنيا والجزاء عليها في الآخرة فافهم ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾، هذا مما وصف الله به الخواص وخاطب به عنهم ، ودَلَّ على عدم ذِكْرِ المعلوم أنهم جميع ما يملكونه يجعلونه لله ، وفيه حق للسائل والمحروم حتى عشاء أحدهم أو غداه وما يأخذون من الدنيا إلا ما اضطروا إليه ، وحالهم فيما ملكت أيديهم كحال غيرهم فيه بلا خلافٍ ولا فرقٍ إلا كونهم يتصرفون فيه . ومن خطابه تعالى ووَصْفِهِ للعامة في الآية الأخرى قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾، أي ليس يجعلون لله في أموالهم للمذكورين إلا مما وجبت فيه الزكاة بقدر واجبها ، وهذا أيضاً مع قصوره عن وصف الأولين مدحٌ لهم .

وقول النبي ﷺ في وصف الأولين المذكورين : « لا عدوى ولا طيرة » ، وأكْلِ مع مجذومٍ ، وقال له أعرابي : « يا رسول الله ، إني قد أجعل بعيري السليم مع بعيرٍ أجرب فيعديه فيجرب » ، قال ﷺ : « إن كان أعداه فمن أعدى الأول » ، فهذا خطابٌ ووصفٌ منه ﷺ للخواص ، وقوله : « فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»، وَصْفٌ وخطابٌ للعامة لمراعاتهم الأسباب ونظرهم إليها ، وأما الخواص فلا ينظرون إلى الأسباب ، وإنما نظرهم لمسبب الأسباب ، فخاطب الله ورسوله كِلَا الفريقين على مقتضى حاله ومقامه .

فانظر الفرق البعيد في الأعمال في الدنيا بما وفَّق الله له الخواص من الزوائد على الأمور المشروعة للعامة ، وبما رزقهم في الآخرة من الجزاء الجزيل على ما تقدم في الحديث المذكور آنفاً .

وكل ذلك مما كتب الله للعبد من الحظ والبخت والنصيب ، كما قال سيدنا : « **والبخت والبركة ما أحد داري أين هما ، وعلى هذا عوايد السلف ونياتهم ، فإذا فات الإنسان العمل ما فاتته النية ، وما مع الإنسان إلا إعانة الله ، إن أعانه تيسَّر له الأمر الصعب ، وإن لم يعنه لم يَقْدِر يشل ثيابه . والبيت بيت أجرٍ وصبرٍ ، والأجر يبغى صبراً ، ولا شيء إلا بالصبر ، حتى لو أحد جعل لك دواءً احتجت فيه إلى الصبر في مقاساته ومرارته ومعالجته ، وقد قالوا : الراحلة لا تطلب بالراحة ، إنما تنال الراحة بالتعب** » .

وأنشد :

بِقَدْرِ الكـدِّ تُكْتَسَـبُ المعَالي وَمَـن رَامَ العُـلا سَـهِرَ اللَّيـالي

انتهى ما قاله ، وقد تقدَّم ، وبعد هذا البيت :

تَـرُوم المجْـدَ ثُـمَّ تَنَـامُ لَيـلاً يَنَـالُ المجْـدَ مَـنْ سَـهِرَ اللَّيَالي

قوله : « **وعلى هذا عوايد السلف** » ، يعني اعتقاد أن البخت والبركة في العبادات والعادات إنما ذلك بفضل الله وأمرِهِ ، تحصل منه سبحانه لمن تفضل بهما عليه ، إما بالعمل مع النية ، أو بالنية بلا عملٍ عند عجز عنه ، فلا يفوته أحد الأمرين .

ومراده بـ « **السلف** » ، يعني سلف السادة آل باعلوي المتقدمين ، وهو مراده بذكر السلف كلما ذكره ، وكذلك قوله : « **البيت بيت صبرٍ** » ، أي بيت السادة آل باعلوي ، لكونهم من حين ينشأ الإنسان منهم فهو في العبادة ، فمنهم الخواص المقربون السابقون ممن بلغه الله مقام القطبية سيما المتقدمين منهم، ومنهم الأبرار أصحاب اليمين .

وما أحسن ما قال الشيخ ابن عطاء الله في « الحِكَم » يشير إلى مقام الخواص : « لا يكن طلبك سبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه ، وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بحق الربوبية ، كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العِلل عنايته فيك لا لشيءٍ منك؟ وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته ؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمالٍ ولا وجود أحوالٍ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال » .

قال الشيخ ابن عبادٍ في شرحه : « لم يأمر الله تعالى عباده بالطلب له والسؤال منه إلا ليظهر افتقارهم إليه ومثولهم بالتضرع والخضوع بين يديه ليكون ذلك إظهاراً لعبوديتهم قياماً بحق ربوبية ربهم ، لا لأن يتسبَّبُوا به إلى حصول ما طلبوه ونيل ما رغبوه من ما لهم فيه منفعة وحظ . هذا هو فهم العارفين عن الله تعالى ، ويدل على هذا المعنى ما يذكره المؤلف الآن ، قال أبو نصرٍ السراج رضي الله عنه : سألت بعض المشائخ عن الدعاء والتفويض لأهل التسليم ما وجهه ؟ فقال : تدعو الله تعالى على وجهين : أحدهما : يريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء ، لأنه ضرب من الخدمة فيريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة . والوجه الثاني : أن يدعو إئتماراً لما أمر الله تعالى من الدعاء .

وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه ، وإلا فالرب يفعل ما يشاء ، ومقتضى هذا أنه لا ينقطع سؤاله ولا رغبته ، وإن أعطاه كل مطلبٍ وأناله كل سؤالٍ ومأرَبٍ وأن لا يفرق بين العدم والوجود والمنع والعطاء ، فيما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر، فيكون عبداً لله في الأحوال كلها ، كما أنه ربه واسع الفضل في الأحوال كلها ، وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهوته وهواه .

قال سيدي أبو الحسن رضي الله عنه : لا يكن همك في دعائك الظفر بقضاء حوائجك فتكون محجوباً ، وليكن همك مناجاة مولاك .

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه : شر الناس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء وشدة التضرع والبكاء ، فإذا زالت شكايته ورُفِعت عنه آفته ، ضيَّع الوفاء ونسي البلاء ، وقابل الرفد بنقض العهد ، وأبدل العقد برفض الود ، أولئك الذين أبعدهم الله تعالى في سابق الحكم ، وخرطهم في سلك أهل الرد . وقد قيل : بلاءٌ يلجيك إلى انتصابٍ بين يدي معبودك خيرٌ لك من عطاءٍ ينسيك إياه ويقصيك عنه » .

قوله : « كيف يكون طلبك .. إلخ » ، هذا دليل على نفي السببية المذكورة ، لأن ما طلبه العبد أمرٌ سابقٌ في الأزل تقديره ، وطلبه أمرٌ لاحق فيما لا يزال ، وكيف يكون اللاحق سبباً في وجود السابق ؟ وهل السبب أبداً إلا مقدَّم على المسبب ؟

قوله : « جَلَّ حُكم الأزل .. إلخ » ، هذا دليلٌ آخر على ما ذَكَرَه ، وهو أن حصول ما طلبه الداعي حكمٌ من الله تعالى في الأزل ، فلا يكون سببه الدعاء والسؤال ، لأن أحكام الله تعالى تجل عن أن تضاف إلى علةٍ أو سببٍ من قبل ، إن له الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة ، فصُنعه علة لكل شيءٍ ولا علة لصُنْعِهِ، كما قال العارفون المحقِّقون .

قوله : « عنايته فيك .. إلخ » ، أي عناية الله تعالى في الأزل حين لم تكن حين لا حين ، غير معللةٍ بشيءٍ كائنٍ منك ، من إخلاص أعمالٍ أو وجود أحوالٍ ، تتوسل بجميع ذلك إليه ، وأين كنت إذ ذاك وأنت عدم محض ؟ بل لم يكن هناك إلا محض كرمه وإفضاله وعظيم إحسانه ونواله لا غير .

قال الواسطي رضي الله عنه : « أقسامٌ قُسمت ، ونعوتٌ وأحكامٌ أُجْرِيَت ، كيف تُسْتَجْلَب بحركاتٍ وتُنَال بسعيٍ وأدوات ؟ » .

انتهى ما أردتُ نقله من « الحِكَم وشرحها » مما هو وصف للخواص ودعاء لهم إليه ، ليعرف حالهم وشأنهم ، وفرق ما بينهم وبين غيرهم هـ .

قال سيدنا عبد الله رضي الله عنه في المجلس المتقدم ذِكْره ، لما خرج لصلاة عصر يوم الأحد ٦ شوال ، فاستأذنه ذلك الفقير أن يعاود ذلك الشريف ، فأجابه ثم امتد به الكلام في تلك المادة إلى أن ذَكَرَ قصة بعض السلف حين قضى صلاته مدة أربعين سنة ، ثم استأذنه بعض الفقراء في ذلك المجلس في صيام الإثنين والخميس *فقال* : « **خذ نفسك بما سهل عليك** » .

فقال : لو لم آخذ نفسي إلا بما سَهُلَ عليَّ ما فعلت شيئاً ، *فقال* : « **خذ ما سَهُلَ عليك وأحكِمْهُ ، ثم ترقَّ إلى ما هو أعلى منه ، وهكذا الأول فالأول ، وترقَّ من درجةٍ إلى ما هو أعلى منها ، ولو فعلت بعضاً**

من هذا وبعضاً من هذا لبقي محجوزاً ناقصاً ، ولكنك تم الأول ثم ارجع إلى الثاني وهكذا .

وخذ من العمل ما تطيق ويمكنك المداومة عليه ، ولا تكثر حتى تمل فتفعله مع الملل والتكلف، فإن هذا وصف المنافقين ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾، فذمَّهم بالفعل مع الكسل لا بعدم الفعل ، ولا تقصِّر بحيث لا تعمل شيئاً ، فإن الله تعالى ما كلف العبد بشيءٍ إلا وجعل له من المعونة أضعافه . ونحن وإن لم نُحكِم كل المقامات بالعمل فنحكمها بالعلم ، ونعمل بعمل العامة ، ونأخذ الناس بأعمال العامة على ما سَهُلَ عليهم وتيسَّر أولاً ، ثم نرقِّيهم ونأمرهم بما يناسبهم أولاً ثم إلى أعلى منه .

وبهذا السبب تبعنا ناسٌ كثير ، أكثر ممن اتبع المشايخ ممن مضى ، لأنَّا نعلم ضعف الناس اليوم وعجزهم ، ولو كلفنا الناس أن يعملوا بما نعمل - أو قال : بما نريده منهم - لنفروا عنا مرة انظر إلى عمر بن عبدالعزيز لم يساعده زمانه على الكلام الذي قاله له ابنه عبدالملك وهو في القرن الأول ، أفيساعدنا على ذلك زماننا هذا ونحن في القرن الثاني عشر ؟ ولو قلنا لأهل تريم : افعلوا كذا ، ونأمرهم بما أردنا ، لما جاءنا منهم واحد ، وهذا هو الذي منعنا من الكلام في هذه العلوم ، لأن الكلام فيها يؤيِّسهم . وهل تحاول الغزل المبلول إذا اشتبك بما تحاول به الجبال القوية من القوة ؟ لا ، بل باللطف والسهولة ، فخذ من العمل ما خَفَّ وسَهُل عليك ، ثم ترقَّ من شيءٍ إلى شيءٍ ، فسيروا إلى الله عرجاً ومكاسير » هـ .

أقول : قوله : « لنفروا بمرة » ، ومرةً قال : « لو نعمل بما نعلم لعادانا كل شيءٍ حتى ثيابنا التي على أظهرنا » .

وقوله : « انظر إلى عمر بن عبدالعزيز لم يساعده زمانه على الكلام الذي قاله له ابنه عبدالملك » ، هو أنه قال لأبيه : « يا أبتِ ، ما يمنعك أن تمضي لما تريده من العدل فوالله ما كنت أبالي لو أُغْلِيَتْ بي وبك القدور في ذلك » ، فقال له أبوه : « يا بني ، إنما أروِّض الناس رياضة الصعب ، فإني لأريد أن أحيي الأمر من العدل ، فأؤخر ذلك حتى أُخرِج معه طمعاً من الدنيا ، فينفروا من هذا ويسكنوا لهذا » ، فهذا هو كلامه الذي أشار سيدنا إليه .

وقوله : « نرقِّيهم » ، هي ترقيتان : ترقية في الحس والظاهر ، وترقية في السر والباطن .

فالأولى : وهي التي فيها مادة الكلام المذكور هنا على حسب حال العموم ، وهي أن نأمرهم باليسير من العمل بقدر ما يرغبون فيه ويخف عليهم كما ذَكَرَ هنا ، فإذا ألِفُوه وتدَرَّبوا عليه ورأينا فيهم قوةً على ما زاد على ذلك أعطيناهم بقدره ، ولا نزيدهم إلى حد الملل ، وعلى هذا إلى زيادةٍ .

حتى إن ذاك الذي استأذنه في صيام الإثنين والخميس ما سمح له بذلك لما اطَّلع عليه من حاله أنه لا يدوم على المواظبة ، فقال له : « **خذ ما سَهُلَ عليك** » ، وقد أمره أولاً بصيام البيض ، ثم طلب ذلك زيادةً فسكت عنه ، وأوهمه الإذن ولم يصرح له به ، فعمل على ذلك مدةً ، ثم قصَّر في الأمرين جميعاً .

وقال ذلك الفقير : قلت له : « قد استأذنتكم في الإثنين والخميس ، ولكن قد شغل عليَّ في بعض الأيام أو يحصل عارض » ، فقال : « **يكون بدله ، خصوصاً مثلك ، لأن معك مطالعة وكتابة فخذ نفسك بما سَهُلَ عليك** » ، فأخذ بذلك على ما سَهُل ، وقد كان قال : « ولو لم آخذ نفسي إلا بما سهل عليَّ ما عملت شيئاً » ، وكان عالجه على السهولة طوعاً فأبى حتى رجع إليها غصباً .

والترقية الثانية : التربية بالسِّر والباطن بالهمة والإعتناء بما يتعلق بالعمل ، وبما لا يتعلق به على الوجه الذي يعلمه هو على حسب الحظ المقسوم له من ربه والنصيب ، وهي التي قال فيها وذَكَرَ من شأنها حيث قال : « **من ربيناه يفوق غيره، لأنَّا نربيه تربية لا يشعر بها** » ، وهذه لا تكون في وقته بكمالها إلا عنده هو ، وإن وُجِدَت من الكُمَّل غيره فيقصرون عنه فيها ، وقد يحس بشيء منها من حصلت له، وإن لم يشعر بها ولم يحسن يعبِّر عما رأى منها .

وقد سألت سيدنا عن معنى الترقي الذي يذكرونه وبأي شيء يكون هو ؟ وما الذي يبدأ به ؟ فقال: « **هو الترقي في أحكام الإسلام وحقائق الإيمان واليقين ، ويُحكِمها شيئاً فشيئاً ، فيبدأ أولاً بإحكام الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان** » .

ثم كلمه رجل فأثقل كلامه عن تلك المادة ، فقال للرجل - وهو يمازحه - : « **لئن رُدَّ عملك من سماء الدنيا فإن حجتك ألا على قدرها** - أي ضعيفة - **فإن سماء الدنيا حد حقائق الإيمان ، وتحتها خزائن النيران ، ولا تظنن أن أحداً له مع الحق كلام ، إنما هم عبيده يعطيهم حقه ويثني عليهم** » .

وقوله : « **فسيروا إلى الله عرجاً ومكاسير** » ، هذه الكلمة ختم بها مجلسه ذلك فإنه لما قال : « **فخذ من العمل ما خَفَّ وسَهُلَ عليك** » ، نهض قائماً للصلاة وهو يتكلم ، ثم قال وهو قائم : « **ثم ترقَّ من شيءٍ إلى شيءٍ** » ، ثم فتح باب المصلى ثم مَدَّ رِجله داخلاً ، ثم قال بعدما وضع رجله في المصلى : « **فسيروا إلى الله عرجاً ومكاسير** » .

فكانت آخر ما تكلم به ، ثم بعدها قرأ أذكار دخول المسجد ، فكانت آخر كلامه من حين جلس في الضيقة خارجاً لصلاة عصر الأحد المذكور إلى أن قام ، فإذا وضع في المسجد رجله داخلاً كَرِهَ أن يكلمه أحد ولو بتبليغ السلام ، كما قدمنا ذلك من قوله .

وجملة كلامه في هذا المجلس هو هذا الذي ذكرنا من قولنا : ولما جلس في الضيقة ، إلى أن قال في

آخره هذه الكلمة فرضي الله عنه ونفعنا به ، ولا واخذنا بما نزيد وننقص من كلامه ، وما داخَلَنا فيه من الإعجاب والرياء والدعوى .

وقد انتهى ما تكلم به في هذا المجلس المبارك الميمون في هذا الشهر الشريف في هذا الوقت المنيف .

وكل مجالسه كذلك مباركة ميمونة مأنوسة ، وحديثه لا يُمَل ، وسامعه لم يَزَلْ في سرورٍ وبسط ، حتى إن مُجالسه حالة سماعه لكلامه يذهل عن كل ما يهمه من أمور الدنيا ، ويبقى يومه ذلك كله في أنسٍ وسرورٍ من سماع كلامه ولو معه من الهمِّ والحزن أمثال الجبال ، تبَدَّل ذلك منه بالفرح والسرور، وذلك من خصال النبوة وأوصافها ، إذ من صفات النبي ﷺ أن جليسه إذا سمع كلامه من شدة ما يذوق به يظن في نفسه أنه أحب الناس إليه ، وأنه يتبدل همه وحزنه فرحاً وسروراً، فكذلك رأيت من حال سيدنا عند سماع كلامه .

فاقْبَلْ ذلك عن قول من رأى ذلك وجرَّبه كثيراً ، فاسأل به خبيراً ممن عاش به زمناً طويلاً ، وذلك أني حين وصلت إلى حضرته غريباً لا أعرف أحداً ولا أحد يعرفني فصار معي وحشتان : وحشة الغربة، ووحشة عدم الأليف المعروف المؤانس ، فضاق صدري لذلك جدًّا وكثرت عليَّ الهموم والوساوس ، فكأنه أحس بذلك مني ، فأمرني أن أتعرض له بعد صلاة الظهر كل يوم إذا خرج من المصلى داخلاً إلى البيت في موضعٍ عَيَّنَه ، فكنت أقف له فيه فيمد لي يده وأمد له بذراعي فيقبضه إلى أن أدخل معه الضيقة ، وكان موظِّفاً ذلك على بعض الأولاد يقف له ذلك الحين في ذلك الموضع ، فقال له : « **خَلِّ هذا الغريب يقف لي هنا أقبض بيده، وقل له يقف لي هنا** » ، فقال لي الولد عن أمره ، وقال لي أيضاً : « **قف لي هنا كل يوم أقبض بيدك** » ، فتنحى الولد وبقيت أتعرض له ويقبض بيدي ، وعلى هذا إلى أن توفى إلى رحمة الله مدة ١٧ سنة .

وكذلك بعد درس العصر إذا أراد الدخول كان مرتِّباً خادماً له يتعرض له عند الإسطوانة النجدية فيقبض بيده ، فقال له : « **تنحَّ عن هذا الغريب ، وخله يتعرض لي هنا** » ، وقال لي : « **قف لي هنا كل يوم** » ، وبقيت كذلك إلى وفاته إلى رحمة الله ، فأتعرض له في الوقتَيْن في المحلَّيْن ، وذلك لحكمةٍ رآها وسياسةٍ عرفها نفعني الله به ، فكنت إذا دخلت معه إلى الضيقة يقول لي كليمة يسألني : « **هل وافقك هواء بلادنا ؟** » ، أو : « **هل قُوتنا يناسبك ؟** » ، ونحو ذلك ومن هذا القبيل ، وفي طَيٍّ نحو هذا الكلام ما لا يفهمه إلا هو .

فيحصل لي عند ذلك بهذا من السرور أضعاف ما كان معي من الهمِّ والتشويش وأبقى كذلك إلى

مثلها ، وما أصدِّق على الله يأتي ذلك الوقت فيقول لي مثل ذلك ، فيحصل لي كذلك ، فبقيت أعيش بذلك لمدة طويلة ، ثم انزاح عني ذلك ببركته ، فكان ذلك من جملة سياسته وحِكمته وتربيته نفعني الله به في الدارين .

هذا في حياته ، ثم بعد مماته كل ما أصابني مرض رأيته فيزول عني ذلك المرض وكلما أهمني أمرٌ رأيته فينجلي ببركته ، حتى رأيته مرة وإذا هو يقول لي : « **نزِّه نفسك عن حلول الفرضية** » ، فسألته ما معنى ذلك لأفهمه وأعمل عليه ، فقال : « **نزِّه نفسك عن حلول الفرضية** » ، فقلت : أعلموني بمعنى ذلك . فقالها أيضاً ، وهكذا سبع مرات أسأله فيقولها .

وأول الرؤيا : كأنه خارج من الضيقة يوم جمعة يريد للركوب إلى البلد ، فتعرضت له في الضيقة ليقبض بيدي إلى أن يركب كما هو العادة ، فقبض برؤوس أصابعه غير ممكِّن يده من القبض ، فحصل لي قبضٌ فَهِمتُ منها أنه كاللائم لي على شيء ، فقال الكلمة وهو ماشي في الضيقة يريد الركوب .

وبعد ذلك رأيته مراراً كثيرة ، ثم قلَّت الرؤية ولعل في ذلك خير ، ولكن من كثرة اشتغال الخاطر من ذلك ذكرتُ الرؤيا للسيد عمر البار رحمه الله ، وطلبت منه التأويل لها ، فقال في تأويلها : « كل ذلك إشارة منه رضي الله عنه للإعتناء بك ، ولا شيء مما توهَّمته » ، أو كما ذكر .

وفي مثل ذلك اليوم من السنة التي قبلها ، وهو يوم سادس من شوال سنة ١١٢٥ سمعني أقرأ دعاء سورة يس بعد قراءتها بعد صلاة العصر ، كما هو مرتَّبٌ قراءتها وقراءة الدعاء بعدها بعد كل صلاة على من رتب عليه الأذان ، فلما سمع قراءة الدعاء جعل يتسمَّعه ، وترك أوراداً كان حينئذ يقرأها إلى أن فرغ الدعاء، وكنت إذ ذاك قاعداً عند عتبة باب خلوة المصلى من خارج وهو في المحراب، والجماعة داخله حوله ، *فقال* : « **هذا أنت تجهر بالدعاء أو بالسورة ؟** » ، قلت : بل بالدعاء .

فقال : « **ادخل هنا واقرأه وارفع به صوتك ليسمعه الحاضرون** » .

فدخلت وقرأته كما أمر ، فبقي هو يستمعه ويستمعه الحاضرون ، فلما فرغت من قراءته رفع رأسه، ثم تنفس الصعداء *ثم قال رضي الله عنه* : « **قد بطنت علومنا الظاهرة لعدم المتلقي لها ، ما هو إنه ظهرت علومنا الباطنة ، وهنا أقوام يتكلمون في علوم لا نعدهم في العلماء أصلاً ولا نعدها في العلم** » هـ .

أقول : وتنفس الصعداء هو تنفس المحزون ، وهو معلوم عند العرب يصعد نفسه ثم يحدره بأنةٍ .

وذَكَرَ أقواماً أنكروا على بعض الصالحين ، فقال : « **أقوامٌ تجرَّدوا من الدنيا ، وزهدوا فيها وأقبلوا على الله ، وأخلصوا له الدين وانقطعوا عن الدنيا بقلوبهم حتى ظهرت عليهم أمور غريبة كيف يسوغ تكفيرهم ؟ وقد قال الإمام أبوبكر الباقلاني: إن إدخال ألف كافر الإسلام بشبهة إسلام واحدة أسلم من تكفير مسلم واحد بألف شبهة كفر . وقد ذكر ابن عربي أنه لما استلم الحجر الأسود في الحج ، خرجت من فيه : لا إله الا الله ، كالسلك فالتقمها الحجر ، إشارة إلى أنه هو العهد الذي أخذ عليه لما أداه** » هـ .

أقول : انظر إلى هذا الأدب العظيم من سيدنا واعلم أنه من أكبر آداب الأكابر وهو أنه لا يستحسن أن يُذكر أحداً بملام لا من نفسه ولا عن غيره ، سيما إن كان من الأكابر إلا إن كان له قولٌ يُنْكَر شرعاً، وأراد أن يحذِّر من قوله ، وذلك أنه ذَكَرَ قول المنكِر ولا ذَكَرَهُ ولا ذَكَرَ المنكَر عليه .

ثم إنه جعل يمدح الشيخ ابن عربي فَذَكَرَهُ في معرض المدح ، ولا أضاف إليه إنكار من أنكر عليه ، فيفهم الحاذق الفهيم أنه على حال الكمال ، وأنه بريءٌ من النقص والذم في قول من قال ، وأنَّ ذِكْرَهُ في هذا المعرض يشير إلى أنه ممن أشار إليه بالإعتراض عليه ، وأنه أراده وأمثاله بقوله : « **قوم تجردوا عن الدنيا** » إلى آخر ما قال ، وأنَّ كلامه هذا ردٌّ على من اعترض عليهم ، وما ذكر عنه عند استلام الحجر استشهاداً لرفعة قدره وعلوِّ شأنه ، وذلك ما جاء في حديث : « إن الله لما أخذ العهد على ذرية آدم بإقرارهم بربوبيته ، وأشهدَهُم على أنفسهم بإقرارهم ، فكتب شهادتهم في كتاب وألقمه الحجر الأسعد، فهو يشهد لكل من استلمه بصدق »، وأنَّ خروج كلمة التوحيد من فيه عند استلامه ثم التقمها الحجر، شاهدٌ له أنه استلمه بصدق ، وأنَّ عهده المأخوذ عليه قد سلَّمه إلى الحجر ليشهد له به عند الله ، إذ ورد : « إن الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح الرجل أخاه » .

وقد ذُكِرَ من بعض مناقب الشيخ ابن عربي : أن رجلاً من المعروفين ببغضه والإنكار عليه – ممن أشار سيدنا إليهم بذلك – قال له : « إني جعلت لله عليَّ نذراً أن ألعنك بعد كل صلاة » ، فقال له : « وأنا جعلت لله عليَّ نذراً أن أحلِّلك وأدعو لك بعد كل صلاة » ، وبقي بعد كل صلاة يحلِّله ويدعو له حتى مات ذلك الرجل، ثم حضر جنازته وصلى عليه وحلَّله ودعا له ، فلما فرغ من دفنه اختلى ثلاثة أيام وآلى على نفسه أن لا يخرج ولا يأكل ولا يشرب حتى يحصل له إشارة من قِبَلِ الله أنه غفر له ، فحصلت له الإشارة بمغفرة الله له ، فسجد لله شكراً حيث غفر الله له ثم خرج ، وكان في مدة خلوته يُدعى إلى أماكن فيمتنع لانشغاله بشأن ذلك الرجل حتى حصلت له الإشارة بمغفرة الله لذلك الرجل. فأيُّ كمالٍ أبلغ من هذا ، ومن يقدر عليه إلا الكامل من الرجال ، فاعرف من هذا عظيم شأنه وجليل كماله .

وقوله : « **العهد الذي عليه** » ، هو المشار إليه في دعاء المسلم للحجر بقوله : « ووفاء بعهدك » .

وما ذَكَرَ من كلام الباقلاني فهو رَدٌّ على جماعة خرج فيهم في هذا الزمان ضال دعاهم إلى الضلالة، فتبعوه على ضلالته وتحزَّبوا معه في الوادي المفتون الذي أشار إليه الحديث الصحيح حيث يطلع قرن الشيطان ، أنه معدن كل شرٍّ وضلالة وضرٍّ في الدين والدنيا ، وادي مسيلمة الكذاب ومحل حديقته، فضَلَّ بضلالة هذا الضال الخبيث جماعة جُهَّالٌ مثله ، زعموا بزعمه أن هذه الأمة من ستة قرون قد ارتدوا عن الإسلام لاعتقادهم في الصالحين ، ومن اعتقد في صالحٍ فهو في زعمه مرتد ، وما يدخل في طريقته أحد حتى يأخذ عليه العهد أن يلعن جماعةً من الصالحين في الوقت ، فهو على هذا مُجَدِّد لطريقة الذي قال للشيخ ابن عربي ما قال كما تقدم . وسمعنا عنه أنه إذا رأى امرأةً ممن خالفه وهي تحت زوجٍ أَمَرَهَا أن تُقِرَّ على نفسها بالكفر ، ويخوِّفها حتى تُقِر ، فإذا أَقَرَّت عَقَدَ بها على زَوجٍ آخر من أصحابه . فَعَظُمَت فِتْنَتُهُ واستطارت محنَتُهُ ، قَطَعَ الله دابِرَهم وأراح الإسلام والمسلمين منهم هـ .

وَرَأيتُ بخط الحبيب علوي بن سيدنا عبدالله نفع الله به قال : وتكلم الوالد في المشورة وفي نفعها ومحمود عاقبتها حتى *قال* : « **ينبغي للإنسان أن يشاور كبيره حتى في قبره بعد موته** » هـ .

أقولُ : ومعناه أن يتكلم بالإستشارة عند قبره كما يشاوره حيًّا ، فإذا علم الله منه صدق النية شرح صدره للعمل بما هو الصواب الأرجح ، كما ورد حصول ذلك لمن صلى صلاة الإستخارة ، وهذه حالة شريفة ما سمعت أحداً رآها وَذَكَرَهَا إلا سيدنا عبدالله نفع الله به ، وأظن أني أوقفت السيد علوي رحمه الله على ما نقلته من خطه هذا .

وتكلم سيدنا في مشورة أهل الزمان *فقال* : « **إن مشورتهم اليوم إنما هي استفتاء ، فافْتِهِ بما تراه من حيث العلم ، فمن استشارك في حجة الإسلام مثلاً فانظر له من حيث الإستطاعة وعدمها ، وإن أمكنك السكوت ولا تشير على أحد فهو أحسن ، لأن النيات اليوم معلولة ، لعل مراده أن يتخلص من حجة الاسلام ليصلح لأن يحج بالأجرة . وإن كان ولا بد فلا تُشِرْ إلا على من تعلم حاله ، بأن يكون من أهل بلدك ولا يخفى حاله ، ولا تبحث عنه فتصير متجسِّساً . ولو كنتُ أنا في الشحر مثلاً فاستُشِرْتُ في شيءٍ سكتُّ ولم أُشِرْ بشيء ، أوَ يريد الإنسان أن يحمل ذنوب غيره ؟ يكفيه أن يحمل ذنوب نفسه .**

وما مرادهم إذا استشاروا الصالحين إلا أنهم يعرفون الطريق الأنسب في أمور دنياهم ، فيشيرون عليهم لتنمو وتزيد لا أن يعرِّفوهم الصواب ، وليتباركوا بمشورتهم ورأيهم . وأنا من عادتي أن لا أشير

على أحد بمسيرٍ إلى بلاده ولا بأمر من الأمور إلا إن طلب المسير ، قلت ذلك صواب وأوصيه بتقوى الله تعالى . والإشارات الباطنة غير هذه ، لأن تلك أسرارٌ لا يجوز إذاعتها وإطلاع الناس عليها ، فمن أراد سفراً مثلاً فاستشارك وعلِمْتَ أنه بعد شهر يموت أو يقع عليه شيء من الأمور أفتخبره بذلك وتأمره بالجلوس من أجله ؟ لا ، ولم يفعله النبي ﷺ ولا الصحابة ، وهم المكاشفون بالحقيقة وأحرى بالكشف من غيرهم ، وهي أمرٌ خاصٌ لا يشار به إلا على أهل الخصوص ، وأما الإشارات الظاهرة فهي مجرد فتاوى وهي مذكورة في فتاوى العلماء . وقد استشار رجلٌ بعض الصالحين في سفر فقال له : إن سافرتَ في هذا الوقت قُتِلْتَ وأُخِذَ مالُك ، فاستشار الشيخ عبدالقادر أيضاً فقال له : تروح وتجيء سالماً . فقيل للشيخ عبدالقادر في كلام الأول فقال : إن كشفه صحيح ، وإني سألت الله تعالى أن يحوله في النوم » ، انتهى بلفظه ومعناه . وهو من جملة ما تكلم به في مجلسه في داره في البلاد ، وذلك ضحى يوم الجمعة غرة شعبان سنة ١١٢٤ .

أقول : إن سيدنا لما تكلم في مشورة أهل الزمان وأطنب فيها ، وميل قلب العارف عن التعرض للشور عليهم بشيء بقوله : « إنما هي فتاوى » ، يعني إنما هي كالذي يسألك عن أمر ما حكمه في الشرع فافتِهِ بما تعلمه من حكمه الشرعي من حِلٍّ وحرمةٍ ووجوبٍ وجوازٍ وكراهةٍ وإباحة ، ولا تتعرض لأن تشير عليه بأمر وتلزم عليه بفعله ، فتقع بسبب ذلك في الخطر وتكون محاسباً عن كل ما يعرض له بشورك مما يأثم به ، خصوصاً في هذا الزمان المتبع فيه الهوى دون الحق .

وقد أعرض الناس من أكابر الأمة وأخيارها عن الشور في زمانهم الصالح الذي الغالب فيه طلب الحق واتباع الحق . انظر كيف سيدنا عمر جعل الخلافة شورى بين الستة من الصحابة رضي الله عنهم يتشاورون فيما بينهم في من يصلح للخلافة فيقدِّمونه ولم يتعرض هو لتعيين أحد، فاجتمعوا أن يجعلوا الرأي لواحدٍ يختار من يراه أهلاً لذلك ، وأخذوا عليه العهد أن ينصح لله ورسوله ، وهو عبدالرحمن بن عوف ، فبذل مجهوده ونُصْحه وقَدَّم عثمان رضي الله عنه ، وتبعوه على ذلك ، ولكن سيدنا عمر جعل يعرِّض لهم بتقديم سيدنا عليٍّ وكَرِهَ التعرض لتعيينه ، فقال : « لله درهم إن ولوها الأجيلح ، ولئن ولوها الأجيلح ليسلكنَّ بهم المحجة البيضاء ولينهجنَّ لهم طريق الحق » ، فقيل له : « كأنك تعرِّض لهم بعليٍّ ، فما يمنعك أن تقدِّمه ؟ » ، قال : « لا أحب أن أتحملها حيًّا وميتاً » ، وقيل لسيدنا علي في خلافته : كان عمر يشير إليهم بتقديمك فما منعه لو قدمك ؟ قال : « خشي لو عمل الخليفة الذي قدمه خلافاً بعده أن يكون ذلك يلحقه في قبره ، ويكون هو المتبوع به » ، وهو معنى قول عمر : « لا أحب أن أتحملها حيًّا وميتاً » .

والأجيلح : تصغير الأجلح ، وهو الأصلع الذي انحسر شعر رأسه عن ناصيته ومقدم رأسه،

وكان سيدنا علي كذلك . وهذا عند العرب علامة على قوة الشجاعة والكرم ، وهي صفة يُمتدح بها عندهم ، وهي صفة مدح في من ذُكِرَ بها ، وكانت من صفات سيدنا علي كرم الله وجهه ، لكمال الأمرين فيه الشجاعة والكرم ، فاشتهر بهما كما اشتهر باسم الأجلح لأجلهما .

وإنما امتنع سيدنا عمر عن التقديم وتعيين أحد للخلافة بنصٍّ عليه ، وقد عيَّنه أبوبكر ونصَّ عليه وقدَّمه للخلافة ، لأنه تحقَّق منه دوام استقامته واستقامة أهل زمانه معه على الحق وأنهم لا يميلون عنه ، وذلك كشفٌ قد كشفه الله له وأطلعه عليه ، كما كان كثيراً في خلافته تعرض له أمور مشتبهات وتشتبه أمور معضلات ، فيبيِّن الله له وجه الحق والصواب فيها ، وذلك نصرة لدينه وتقوية لشريعة نبيه كما وعد بذلك ، ليتم وعده ويعز دينه .

كما رأى جهاد العرب وقت الردة وليس معه من الخلق معين ، فقيل له : « ما أحد يساعدك على ما تريد ، وما معك إلا هذه الفئة القليلة ، وقد ارتدَّت العرب على بكرة أبيها ورجعت عدواً لك ، فمن يقوم معك ومن يساعدك ؟ » ، فقال : « والله لئن لم تساعدوني لأقاتلنهم بالدبابير » ، وهي الزنابير الحمر . فما تَمَّ لفظ كلمته حتى امتلأ المسجد بالذبر ، حتى هرب الناس عن المسجد خوفاً منه ، فعرفوا أن تلك كرامة أيَّد الله بها أبابكر نصرة لدين الله فقاموا معه فتمت بذلك قوة الدين أتم قيام ، حتى دحر أهل الردة إلى الإسلام قسراً ، وقهرهم على اتباع الحق قهراً جزاه الله عنا خيراً . فتمَّت بذلك كلمة الله وتمَّ وعد الله .

ومن الإتفاق العجيب أن النبي ﷺ قال لبعض العرب : « لو قد جاء مال البحرين لأعطينك منه كذا وكذا » ، يعني حثوات . قال : « إن جئت ولم ألقك فمن آتي ؟ » ، قال : « ائت أبابكر » - وهذا دليلٌ على خلافته - فأتاه ، فأعطاه ما وعده به ﷺ ، ثم نادى أبوبكر : « من له على رسول الله دَيْن أوعده ، فليأتني فأوفي كل دَينٍ وعده على رسول الله ﷺ » ، ثم أتاه رجل فقال : « قد وعدني رسول الله بثلاث حثيات من تمر » ، فقال : « ادع لي عليًّا » ، فدعا له ، فقال : « إن هذا زعم أن رسول الله ﷺ وعده بثلاث حثيات من تمر فاحثها له » ، فحثا عليٌّ حثوة ، فقال أبوبكر : « ضعها هنا » ، وثم حثا الثانية ، فقال: « ضعها هنا » ، ثم حثا الثالثة ، وقال : « ضعها هنا » ، ثم قال أبوبكر : « عدوها » ، فعدوها فإذا كل حثية ٦٣ تمرة ما زادت منها تمرة واحدة ولا نقصت ، فقال للرجل : « خذها » ، ثم قال : « سمعت رسول الله ﷺ ليلة الغار قال : كَفِّي وكَفُّ عليٍّ في العدل سواء » .

فاعجب لهذه الإتفاقات العجيبة كيف وقعت له ، والتسديد والتأييد له من الله . ففهم أن مراد

النبي ﷺ بالحثوات يعني بكفه هو ﷺ ، وأين كان بروح[1] لمقياسه حتى سبق الله له لقياس كفه بكف علي في العدل سواء ، ولا سمعه معه أحد فصارت هذه الكلمة مخزونة مدخرة له إلى وقت حاجته لها .

ولو تَتَبَّعنا وقائع سيدنا أبي بكر في هذا المعنى ضاق عنها الكتاب ، حتى إنه لما انشرح صدره لتقديم عمر لها كيف استتبَّ له الدعاء إلى الحق والثبات عليه إلى أن مات ، فهذه أيضاً من عوارضه وكراماته ونكته السائقة إلى الحق والصواب لحسن النية في صدقها من الإثنين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

فمن مكاشفات أبي بكر : معرفته بثبات عمر في سيرته ، مع أهل زمانه على الحق إلى أن مات ، فقدَّمه من أجل ذلك للخلافة . ومن مكاشفات عمر : أنه علم أن الوقت بعده يختل ويختلف فلا يساعد الإمام المتبع للحق بهذا زمان على الناس - كما أشار سيدنا إلى هذا المعنى في عمر بن عبدالعزيز- وعلم عمر بن الخطاب بذلك فلم يتعرض للنص على خليفة بعينه ، فوقع الخلاف وأول الخلاف قتله ، ثم قوي الخلاف في وقت عثمان وفي وقت علي حتى لاقى ما لاقى من شدة القتال مع البغاة والخوارج حتى قُتِلَ آخر ذلك .

فاعجب كيف أصابت فراسة الإثنين ، وهذا في تلك الأوقات الصالحة فما بالك في وقتك هذا الزمان الرذل الذي صار فيه المنسوب فيه إلى العلم والعبادة أَلْأَمْ وأفظع حالاً من سارق ذلك الوقت ، وأن السارق في الزمن الأول تكون معه مروءة ووفاء ، ويخاف إذا خُوِّف بالله ، أحسن من العالم والعابد في هذا الوقت ، فاعرف فرق ما بينهما . واعرف من ذلك أيضاً عظيم شأن سيدنا وقوة اطلاعه على أحوال الناس في هذه الأزمنة ، ونقصانهم عن الحال في الزمن الأول ، وهو قوله : « **وإن أمكنك أن لا تشير على أحد بشيء فهو أحسن، لأن النيات اليوم معلولة ، لعل مراد من استشارك في الحج مثلاً أن يتخلص من حجة الاسلام ليصلح أن يحج بالأجرة** » .

فإن هذا مقصده فاسد ، فلو أشرتَ عليه به وهذه نيته صِرْتَ شريكاً له في جزاء سوء النية ولو لم تعلم به ، كما يلحق ذنب الخليفة للذي قدمه بعد موته ولو لم يعلم به ، وهو الذي منع سيدنا عمر من ذلك ، وهو قول سيدنا : « **أوَ يريد الإنسان أن يحمل ذنوب غيره ؟ يكفي الإنسان أن يحمل ذنوب نفسه** » ، ورغَّبَكَ في ترك الشور على أحدٍ خوفاً من ذلك بقوله : « **ولو كنتُ في الشحر** » إلى قوله : « **سكتُّ ولم أُشِرْ بشيء ، وإنك وإن كنت لا بد مُشِيراً فافْتِ لمن استشارك في الحج من حيث الإستطاعة وعدمها** » ، وسيأتي مثال ذلك قريباً من قوله : « **وشوره وفتواه** » ، لما سأله واستشاره بعض الفقراء في الحج مع والدته .

---

(١) هكذا في الأصل .

وقوله : « **الإشارات الباطنة** » ، يعني الأمور الغيبية التي لا يجوز ذِكْرها بحال إلا إن غلب أو أُذِنَ له فيعذر ، وأظن الحال الأول : الغلبة حال الشيخ الأول ، والذي استشاره الرجل في السفر فقال ما قال ، والحال الثاني : الإذن ، حال الشيخ عبدالقادر لما استأذنه فقال له ما قال .

وقول سيدنا : « **أفتخبره بذلك** » يعني لا يجوز لك إخباره به .

وقال في مجلس آخر : « **وإذا استشارنا إنسانٌ في شيء ، ورأيناه مائلاً إليه أشرنا به عليه ، وزيَّنَّاه له ما لم يكن مخالفاً للشرع ، فإن لم يظهر منه مَيْل أَشَرْنَا بما نراه** » هـ .

أقولُ : رأيت بعض الفقراء استشار سيدنا في الحج مع والدته ، وذلك في أول شهر رمضان من السنة المذكورة ، وقد علم منهما عدم الإستطاعة ، فقال له : « **صَلِّ معها صلاة الصبح آخر جمعة من رمضان في جماعة ، بحيث لا يراها الرجال واجلس معها** - أي حيث صليتما - **اذكرا الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم ليصلِّ كلٌّ منكما ركعتين ، فذلك لكما حجة وعمرة تكفيكما** » .

فهذا المثال الذي أشرت إليه لما قال من قوله : « **وشوره وفتواه** » ، حيث قال : « **فمن استشارك في حجة الإسلام فانظر له من حيث الإستطاعة وعدمها ، فإنما مشورتهم اليوم استفتاء ، فافْتِهِ بما تراه من حيث العلم** » ، وإنما أمرهما بذلك لعلمه منهما بعدم الإستطاعة ، وأمره لهما بذلك إفتاء منه بأنه لا يلزمكما السفر للحج لعدم الإستطاعة المشروطة لوجوب الحج ، لكنكما افعلا ما ذكر لما ورد في الحديث الصحيح مما رواه الترمذي أن ذلك بحجة وعمره - أي تامتين تامتين - يكفيكما عن السفر للحج مع عدم الإستطاعة . وقد جاء هذا ترغيباً في فعل ذلك واكتفاءً به مع عدم الإستطاعة ، أو بعد أداء فرض الحج أو عدم التمكن منه لوجود العذر .

وقد جاء في الشرع توسُّعاتٌ وترغيباتٌ في أمورٍ مطولة ، فيها معانات ومشقات وَوَرَدَ ما ينوب عنها في أمور مختصرات حكمها حكمها ، تنوب عنها وتكفي منها وفيها تسهيلات ، ومع عدم القدرة يكتفى بها ، فإذا أمكنته تلك يبادر إليها ، وكل ذلك شَرَعَهُ الله كرامةً لرسول الله ﷺ لأمته من ذلك هذا المذكور ، من كون الجلوس بِذِكْرِ الله في محل صلاة الصبح إلى الإرتفاع ثم صلاة ركعتين بحجة وعمرة ، وهذا مختصر ذلك وسهله ، وأما مطوله ومشقه فبأن يسافر لذلك ويقاسي مشاق السفر ومصارفه لنفسه ولأهله ومخاوفه إن عرضت لاشتراط أمن الطريق .

ومن ذلك قراءة القرآن كله من أوله إلى آخره وما يتكلف فيه ، وهذا مطوله ومشقه ، ومختصره قراءة سورة « **الإخلاص** » ثلاثاً ، وكونها تعدل ذلك وتكفي عنه ، إذ ورد في الحديث أن قراءتها مرةً

تعدل ثلث القرآن ، وثلاثاً تعدله كله فهي كختمة . وكذا ورد في « سورة الزلزلة » بنصفه فقراءتها مرتين كختمة ، و « قل يا أيها الكافرون » بربعه فقراءتها أربعاً كختمة ، وغير ذلك مما يطلع عليه من له سعة في العلم ممن لو تتبع ذلك لقي منه كثيراً .

ومن ذلك أن صلاة ركعتين تعدل عبادة أربعين ألف صفٍّ من الملائكة - أظن ورد كل صفٍّ من المشرق إلى المغرب - فمن صلى ركعتين فقد عَبَدَ الله بعبادة أربعين صفٍّ منهم عشرة آلاف صفٍّ عبادتهم القيام إلى يوم القيامة ، وعشرة آلاف صفٍّ رُكَّعاً إلى يوم القيامة ، وعشرة آلاف صفٍّ سُجَّداً إلى يوم القيامة ، وعشرة آلاف صفٍّ قعوداً إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم وقالوا: « يا ربنا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » ، وصلاة ركعتين مشتملة على كل عباداتهم من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ وقعودٍ ، فمن صلى ركعتين فقد عَبَدَ الله بعبادة هؤلاء الصفوف من الملائكة كلها، فلهذا جعلَ الله الآدمي نسخة مختصرة جامعة لجميع مجامع الأكوان ، لما أراد سبحانه أن يوظِّف عليه عبادة جامعة لجميع عبادات الملائكة ، لما تقدم من تفضيل أنفسهم عليهم .

وقوله في الإشارات الباطنة : « **إنما هي أسرارٌ لا يجوز إذاعتها** » ، ومَثَّل لها بمن استشارك في سفرٍ وعلمتَ من حيث الكشف أنه بعد شهر يموت ، فهذا سِرٌّ لأنه أمرٌ غيبي لا يجوز لك أن تخبره به ، فاتركه وما أراد وما يريد الله به .

ثم قال : « **وهو أمرٌ خاص لا يُشار به إلا على أهل الخصوص** » ، يعني به الأمور الباطنة الغيبية من الإشارات الباطنة التي هي أسرار لا يجوز إذاعتها ولا يشار بها إلا على أهل الخصوص ، يعني من له بك خصوصية من تلميذٍ منطرحٍ لك انطراحاً كليًّا لا يرى له معك اختيار على ما شرطوا أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسلِ ، يقلِّبه من جنبٍ إلى جنبٍ كيف شاء ، فإذا أشَرْتَ عليه كان منقاداً لأمرك ، كما يفهم هذا من قوله الآتي : « **محل الشور الأشياء الإختيارية** » ، إلى قوله : « **فبكره وتكلف** » .

فإذا كان تلميذ أو ولد على هذا الوصف المذكور فتأمره بترك السفر لذلك ولا تعلمه بما سيقع ، بل إذا نهيته امتثل ولا جعل يتبحث لم نهاني ، فإذا نقص عن هذا الوصف إما خالف الشور في الجلوس أو جلس وجعل يقول ما السبب في نهيه لي عن السفر .

ولكن تلك الحالة حالة الإنطراح الكلي عزيزة نادرة قَلَّ ما تحصل بكمالها لأحدٍ في هذا الزمان ، حتى قال سيدنا وقد ذَكَرَهَا في بعض المجالس وقال : « **نَوَدُّ لو حصل لنا من ذلك نصيب** » .

وإنما أعلم الشيخ عبدالقادر والشيخ الآخر للرجل بما سيقع له فربما أنهما كانا في حال غلبة واصطلام ففي تلك الحالة يعذر من أخبر بما كُشِفَ له وبما يجري من أحواله ، وهذا شأن من غلبته

الأحوال . وأما شأن من غَلَبَ الأحوال كسيدنا عبدالله نفع الله به ، فإنما شأنه السكوت وعدم الإخبار بحرفٍ والتعريض بشيء . ولا يجوز في ما يقتضيه حالة التكلم من ذلك بأمرٍ ما ولا بأدنى شيء من ذلك .

قوله : « ولو كنتُ في الشحر مثلاً فاسْتُشِيرْتُ في شيء ، سَكَتُّ ولم أُشِرْ بشيء » لأن كلامه إذا تكلم به يحصل فيه إشارات وتلويحات تظهر فيما بعد ، أسرعت أو أبطت ، وتتبين أنها منه مكاشفاتٌ وإشاراتٌ غيبيات . وكراماتٌ وخوارق عادات وفي غير مرة تتبين وتشتهر كثيراً ، وهو شديد الكراهة لذلك . وأما في تريم فقد يتبين من ذلك شيء ولا يظهر ، فلذلك ذَكَرَ لو أنه كان في الشحر أو في غير تريم لسكت ولم يتكلم بشيء ، خوفاً من أن يشتهر عنه ذلك ، وفي تريم حيث أنها محل يخمل فيه الأولياء ولم تشتهر كراماتهم ، فلذلك كان تحرُّزه دون ذلك ، كما يتبين لنا بعده كثير من ذلك من إشاراته كما تراه في هذا النقل .

وهكذا شأن جهة حضرموت ، أنه تختفي فيها الأولياء ويخملون ، وقَلَّ ما تظهر وتشتهر كراماتهم، حتى إن الشيخ ابن عيسى لما هاجر بدِينه عن الفتن طلب موضعاً يختفي فيه ، وكلما جاء موضعاً ظهر حتى جاء إلى حضرموت فاختفى ، فقال : « هنا طاب بي المقام » ، سيما تريم فلذلك صارت معشعشهم من بعده ، حتى إن الشيخ أبابكر العيدروس لما كان مقسوماً له ظهور الكرامات ، اقتضى الحال منه ومنهم أن لا يقيم فيها ، وكاشفه بذلك الشيخ علي فقال له : « أشهد أنك القطب ابن القطب ، وأنك ستسكن عدن » ، فسكنها بعد قوله بزمانٍ طويل - أظن أنه عشرون سنة - فكان يتحذى[1] على رؤيتها وليس مانعه العجز ، ولو أراد طويت له الأرض ، إنما المانع الحكم الباطن على مقتضى الحال أن لا يقربها وإنما يتحذى عليها، لأن من شأن من فتح عليه في بقعة فتوح الأولياء فهو يتشهاها ويتمناها ولا يصبر عنها - كذا بمعناه ذَكَرَهُ الشعراني - ومن كلام الشيخ أبي بكر في هذا المعنى قوله : « شَانْذرْ إِنْ شَاهَدَتْ عَيْنَاي عَيْدِيد عِيدْ » ، ونحو ذلك .

وذَكَرَ رجلاً من السادة سافر إلى الهند بعدما أشار عليه بالجلوس ، *فقال رضي الله عنه* : « **محل الشور الأشياء الإختيارية ، وما عداها فهو مضطرٌّ مقهور ، بأن تعلَّق قلبه بأمرٍ وجزم على فعله ، فلا ينبغي أن تشير عليه بتركه ، فإنك إن أشرت عليه خالفك ، وإن أجاب فبكره وتكلف** » ، *ثم قال* : « **إن أهل حضرموت عليهم دعوة ولي بلا شك في مسير الهند ، وإلا فأحدهم إذا كان بالهند ما يصدِّق على الله**

---

(١) هكذا في الأصل .

يشوف تريم ، ثم إذا وصلها ما ينشب أن يطلب المسير إلى الهند » .

قال رضي الله عنه : « **الخلق مكلوفين على ما خُلِقوا له ، فإن الحق أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، **ثم قال لي** : « **فاحفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً** » ، **فقلت : ها أنا كتبتها وأريد أن أحفظها هـ .**

أقول : فالْقِ سمعك وذهنك لما نَذْكُره لك من معاني هذه المقالة ، مما وعد بمعرفته وتبيينه ، وإنما سماها حكمة لأن لفظ الحكمة يشتمل على جميع ما أمر الله به وما وعد عليه ، وجميع المعارف والأحكام والآداب الدينية والدنيوية ، وذلك لأنها اشتملت على جميع معاني الحقيقة والشريعة باختصار ، وبيَّنت حال الفريقين أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وعلامة ما أراد الحق بكل منهما ، وبيَّنت إرادتي الحق سبحانه : الإرادة الأزلية : التي هي أحد صفات ذاته العلية ، وهي المتصرفة في كل شيء ، التي لها الحكم والأمن والإسعاد والإشقاء ، ولها التدبير والفعل والترك والإمضاء والتقدير والقضاء . والإرادة الشرعية : المقتضية لطلب الحقوق الربانية على كل من شملته العبودية . قال الله تعالى : ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ، ولهذا اقتضى معنى الحكمة جميع هذه المعاني .

قال الإمام الغزالي : « وهذا العلم - يعني علم التصوف - علم الوراثة الذي هو نتيجة العمل المشار إلى ذلك بخبر : من عمل بما عَلِم ، أورَثَهُ الله عِلْم ما لا يَعلم . وعلم الوراثة هو الفقه في الدين، وهو الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً» ، ثم إن هذه الإرادة الشرعية نتيجة عن تلك الإرادة الازلية ، وما يكون حصول مطالبها إلا على ما اقتضته تلك ، لا يحصل لها من مطالبها شيء إلا بمساعدتها لها . بمعنى إن الله سبحانه أراد بإرادته الأزلية أن يؤدي العبيد حقوق ربهم وما أمرهم به، إذ لا بد للعبد من خدمة سيِّده ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والقيام بحقه ، ووعدهم إن قاموا بذلك برضاه والجنة ، وإن خالفوا بغضبه والنار ، فانقسم الناس في ذلك على قسمين : الأول : قِسمٌ فعلوا ذلك راغبين في الجنة وخائفين من النار ، وهم العامة أصحاب اليمين ، والقسم الثاني : الخواص المقرَّبون ، قاموا بذلك أتم قيام ، وأبلغ من قيام الأولين وليس قصدهم طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار ، وإنما قصدهم مجرد امتثال لأمر سيِّدهم ، وقياماً بحق ربهم لا غير - كما تقدَّم تفصيله من شأن الخاصة والعامة - ولكنهم مع ذلك في غاية الطمع في فضله ، وفي غاية الخوف من مكره وعقابه ، ولا يرون أعمالهم شيئاً بالنسبة لما يلزمهم من حقه ، ويرون أنفسهم في غاية التقصير وإن عملوا وشمَّروا غاية التشمير .

فإنما أصل الطبيعة الآدمية والخِلقة الطينية الظلم والإفساد وخلاف الحق ، وإنما الله سبحانه استنقذ

من هذه الطبيعة الخلقية خلاصة استخلصهم واختصهم وتفضل عليهم وزكاهم ، كما استخلص من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . وما فهم الملائكة مِنَّا حيث ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ إلا الطبيعة الأصلية وما تدعو إليه من الذم والفساد ، وما فهموا شأن تلك الخلاصة المخصوصة من الله بالإختصاص والفضل . فدَلَّ على أن خصوصية الله في خلقه ، وما خصهم الله به لا يطَّلع على ذلك أحد ، لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرسَل ، إلا بإخباره تعالى لهم بذلك، فلما جهلوا بها أعلمهم بها ، ثم أعجزهم بتعليم آدم الأسماء ، ثم أمرهم بالسجود له لمَّا رَكَّبَ فيه نور النبي ﷺ وهو من نوره ، وذلك زيادةً في رفع آدم عليهم ، ثم باهاهم بهم في عباداتهم فلما أخبرهم بخصوصيته في بني آدم بعد ما أخبر بأنه يعلم ما لا يعلمون ، كان ذلك أبلغ في الإخبار والتعجيز والتعظيم للعلم الإلهي .

فلما أن كان الأمر كذلك أن الله استخلص الخلاصة من الطبيعة المقتضية للفساد ونقَّاهم قال الله تعالى في ذلك : ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، أي سميعٌ لدعاء من استخلصه من عباده ، عليمٌ بِمَن يختص منهم .

وواسعٌ عليمٌ ، أي واسع العلم والفضل فيتفضل على من أراد من خلقه بما أراد من فضله ، ولا لأحدٍ معه في نفسه تصرُّف ، كما قال سيدنا : « **لا تَظُنَّنَّ أنَّ أحداً له مع الحق كلام ، إنما هم خلقه يعطيهم حقه ويثني عليهم** » ، يعني يعطي من الفضل من أراد ، ثم يثني عليهم بذلك الفضل الذي أعطاهم كما قال تعالى : ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ ، فهو الذي أعطاه الإنابة وأثنى عليه بها .

والخلاصة التي استخلصها من بني آدم هم الفريقان : الخواص والعامة الذين استخلصهم من الطبيعة الأصلية المقتضية للفساد من النفس البهيمية والطبيعة الشيطانية والهوى الطالب لعمارة الدنيا، وترك العقبى إما كفراً أو عناداً ، والإعراض عن المولى بالمعاصي أو الكفر ، حتى استجرَّهم إلى الإيمان والطاعة ، ثم استخلص الخاصة عن العامة بخصوصيات كثيرة في الأعمال والأحوال والجزاء في الحال والمال كما سمعت ، فهم خلاصة الخلاصة وخاصة الخاصة ، كما ترى في هذا النقل كثيراً ما يذكرهم سيدنا ويَذْكُر الفرق بينهم وبين العامة ، وبين طريقة هؤلاء وطريقة هؤلاء ، وأوصاف ما اختصت به طريقة الخصوص عن طريقة العموم ، وقال القائل في المعنى :

وَالظُّلمُ مِن شِيَمِ النُفُوسِ فَإن تَجِدْ ذَا عِفَّـةٍ فَلِعِلَّـةٍ لا يَظْلِـمُ

والعلة المانعة من الظلم قد تكون تقوى وخوف من الله ، فهذا هو النافع في الدنيا والآخرة ، دون العلل الدنيوية كخوف من الخلق ، فهذا سَلِمَ من الشر ولا حصل خيراً ، وقد تكون العلة المانعة من الظلم المروءة والتشيم عن الظلم ، لكونه من أفعال الفجار والأشرار .

وقوله : « **إن عليهم دعوة ولي** » ، يعني دعوة مستجابة عليهم في أن يسيروا إلى الهند ، لا محيد لهم منها ولا محيص لهم عنها .

وقوله : « **ولي** » ، يعني إنما تستجاب دعوة النبي أو دعوة الولي ، ولذلك قال فيما تقدَّم : « **إن درجة الولاية تحت درجة النبوة** » ، وسِرُّ الولاية من سِرِّ النبوة ، وسِرُّ الولاية منطوٍ في سِرِّ النبوة ، أي فكما أن النبي قريبٌ من الله بسبب وبواسطة سِرِّ النبوة فتستجاب دعوته ، فكذلك الولي قريبٌ من الله بسبب وبواسطة سِرِّ الولاية فتستجاب دعوته ، وكل منهما مجاب الدعوة وإن اختلفا في المنزلة عند الله، وهؤلاء عليهم أثر الدعوة المستجابة في ذلك ، ولا تكون اليوم إلا من ولي ، حتى إن أحدهم لما كان بالهند يتمنى أن يرى تريم وما يصدِّق على الله أن يصلها ويعزم إن وصلها أن لا يخرج منها ، وأن يمكث فيها ولا يغيب عنها ، ثم إنه حين ما يصلها فما ينشب أن خرج منها ورجع إلى الهند . فهذا أمرٌ عجيبٌ، وما ذاك إلا أن عليهم به دعوة مستجابة في ذلك من أحد من الأولياء .

وقوله : « **مكلوفين** » ، أي مقهورين لا يستطيعون له ردًّا ، كما في حديث : « **اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّر لما خُلِقَ له** » ، وهو معنى قوله في بعض المكاتبات : « **والخلق مظاهر وأسباب ، مقهورون في عين اختيارهم لما يريده الله منهم ، فَرِيقٌ في الجنَّةِ وفَرِيقٌ في السَّعِير** » .

وقول الإمام الغزالي في « الإملاء على كَشْفِ مُشْكِلِ الإحياء » في ذِكْرِ كلماتٍ من اصطلاحهم قال: « ومن ذلك سِرُّ القدر ، وكيف تحكَّم في الخلائق وقادهم بلُطفٍ في عنف ، وبشِدَّةٍ في لِين ، وبقوَّةٍ في ضعف ، وباختيار في جبر ، إلى ما هو في مجاريه لا يخرج المخلوقون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون » .

وقوله : « **أراد بهم وأراد منهم** » ، بَيَّن بهذا أن الرب سبحانه له إرادتان : إرادة أزلية وإرادة شرعية، فأراد بهم بالإرادة الازلية : إما سعادة بالإيمان والطاعة في الدنيا والموت على ذلك ثم بلوغ رضاه في الدارين والجنة في الآخرة ، وإما الشقاوة بالكفر والمعصية والموت عليه ثم حصول غضبه في الدارين والنار في الآخرة ، فهذا معنى « **أراد بهم وأراد منهم** » ، أي بالإرادة الشرعية الإيمان والطاعة والموت عليه ، وهو متعلِّق بالإرادة الأزلية ، فأعمال السعادة المذكورة هو مطلب الإرادة الشرعية ، وتوافق الإرادة الأخرى فيها ، وتنفرد تلك الإرادة الأزلية عن هذه في أحوال من [1] الشقاوة وأعمالها كما سيذكره .

فالإرادة الأزلية هي صِفَةٌ من صفات ذاته تعالى ، كالحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل .

والعلم والكلام ، قالوا في تعريفها : إنها صفةٌ قديمةٌ أزليَّةٌ قائمةٌ بذاته تعالى كسائر صفاته ، من شأنها الحكم بإيجاد الموجودات وهو القضاء ، وتخصيص كل ما حَكَمَتْ بإيجاده بوقت وصفة ، لا يتخلف عنها ولا بُدَّ له منها، وهو القدر فهو يتجدد دائماً بتجدد الأوقات على مَمَرِّ الأنفاس ، فما من نَفَسٍ نبديه إلا وله سبحانه فيه قدر يبديه لا يبتديه ، وله فيه شأنٌ يمضيه ، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، ويبين معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾الآية ، كذا سمعته من سيدنا .

وقد سبقت الإرادة الأزلية في حق كل أحد بما أراد له سبحانه وتعالى من سعادةٍ وشقاوة ، ولكلٍّ منهما علامةٌ ترجى في الخير لا تُقطع ، وتخوف في الشر لا تُقطع فسابقة السعادة علامتها المرجية بلا قطع الإيمان والطاعة ، حتى يموت عليهما فيقطع حينئذ ، وعلامة الشقاوة الكفر والمعصية بلا قطع ، إلا أن يموت على ذلك فيقطع أيضاً .

وأما الإرادة الشرعية : فهي طلب ما يلزم على العبودية من حقوق الربوبية، من امتثال الأوامر وأداء الحقوق واجتناب النواهي ، فإذا قام بذلك فقد وافق الإرادتين ما أراد به الحق بالإرادة الأزلية من السعادة وما أراد به بالإرادة الشرعية من العبادة، فهو السعيد الذي أشار إليه بقوله : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق**»، أي بالإرادة الأزلية من السعادة ، « **وما أراد منه** » ، بالإرادة الشرعية من انقياده . ومن خالف ذلك فهو الشقي الذي اختلفت به الأمور ، إذا ترك الإيمان والطاعة اللَّذَين أرادهما منه الحق بالإرادة الشرعية ، فقد خالف هذه الإرادة والحق ما أراد به الحق بالإرادة الأزلية من الشقاوة بالكفر والمعصية .

فقوله يعني هذا : « **اختلفت به الأمور** » ، أي اختلفت فيه الإرادتان فوافق إحداهما وخالف الأخرى فشقي ، والأول وافق الإرادتين فسعد . فشرط في السعيد أن يوافق الإرادتين ، فإذا وافق الشرعية بالعبادة فقد وافق الأزلية بالسعادة ، فهما متلازمان . وإن خالفهما فقد وافق الأزلية بالشقاوة، فهذان متلازمان . فالإرادة الشرعية داعية السعادة إذا حكمت له بها الإرادة الأزلية ، وتَرْكُ إجابتها علامة الشقاوة ، وبه يتبين أنه حكمت عليه بها الإرادة الأزلية .

ومعلومٌ أن شرط السعيد أن يموت على الإيمان والطاعة ، وشرط الشقي أن يموت على الكفر والمعصية ، وإن لم يذكر الشرطين لأن ذلك معلومٌ من الدين بالضرورة ، وفي ترك ذِكْرِ ذلك وإطلاق طلب العمل بلا تقييدٍ به فائدة ، وهي أن ذلك أدعى إلى العمل وأحسن ، لما فيه من قوة الترغيب ، وفي ذِكْرِهِ تهييب عن العمل. فإنك لو قلت : من عمل كذا من الطاعة ومات على ذلك فله كذا ، فربما تقاعس عن العمل ويقول في نفسه : وما يدريني بما أموت عليه ، ويحس في نفسه تثاقلاً عنه ، ويقول : ربما أعمل وأتعب ولا أعلم على أي الحالين أموت ، فيثبطه ذلك عن العمل. والغالب من فضل الله أن

من وفَّقَهُ للطاعة أنه يموت عليها ، كما ذَكَرَ ذلك في حديث : « يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه » ، فالإطلاق بلا تقييد أحسن .

والشرط معلوم من القواعد الشرعية وإن لم يُذْكر في حالة الترغيب ، فإذا ورد مقيَّداً مرةً فقد يَرِد مطلقاً مراراً ، ويحمل ذلك المطلق على المقيد ، كما ورد : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة » ، وجاء مراراً في روايات كثيرة : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ، بلا تقييد بالإخلاص فحمل عليه وكذلك ما نحن فيه .

تتمة : كلما حَكَمَتْ به الإرادة الأزلية فهو مجرد قدرة لا تعلق له بالأسباب التي هي أفعال الخلق واستخراجه ما يكون إلا بالأسباب التي هي الحكمة ، على موافقة الإرادة الشرعية كما قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ ، فما كتب هو حكم الإرادة الأزلية بوقوع ذلك ، والإبتغاء هو التسبب في استخراجه على وفق الإرادة الشرعية . لكن الأسباب في المسببات غالبة ونادرة ، فالغالب بوقوع الأسباب الغالبة ، ونادراً بوقوع الأسباب النادرة ، بحسب ما حكمت به غالباً عاديًا أو نادراً قدريًا إذ لا تتقيد تلك الإرادة الشريفة الأزلية على شيء قط ، فالغالب كوجود الأبناء بسبب الآباء ، ونادراً كوجود آدم بلا أبوين ، وعيسى بلا أب ، وهذا مثالٌ فافهمه في جميع الأشياء .

وقال تعالى : ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، ومعلوم أن الرزق مضمون محكوم بحصوله وأمر بابتغائه لكن قال : ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾، أي أطيعوه ، بأن تطلبوه على قانون الشرع ، فيوافق الإرادتين : الإرادة الأزلية باتباع ما حكمت بحصوله ، والشرعية باتباع قانونها وما أمرت به وهو طريق السعادة، فإن لم يكن على قانونها وخالفها فقد وافق ما حكمت به الإرادة الأزلية من الشر وهو الشقاوة ، فعلى هذا كلٌ يسعى لما أراد ، فمن وافق الشرع فقد سَعِد ، ومن خالفه فقد شَقِي . وعلى كِلَا الحالَيْن فقد وافق ما أرادته به الإرادة الأزلية وأرادت منه وحكمت به عليه ، وقال النبي ﷺ: « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » رواه مسلم ، وقال سيدنا في معناه : « **أي كل إنسان يسعى ، لا ينفك أحد من السعي ، ولكن سعيهم مختلف ، فمنهم من سعيه خيرٌ ونَفْعٌ له ، ومنهم من يكون ضرراً** » انتهى. أي نفعه وضرره بحسب الطاعة والمعصية .

وقد جرت الحكمة الإلهية أن المسببات - أي الأمور الحاصلة من الأسباب - من لازِمها الأسباب، وأن تتقدَّمها الأقدار ، فأولاً تتقدَّم الأقدار وهو حكم الإرادة الأزلية بوقوعها وهو القضاء ، ثم تقع الأسباب في أوقاتها ، ثم المسببات في أوقاتها . وسواء كان السبب معتاداً غالباً ، وهو الحكمة والشريعة، يعني الذي للناس فيه نسبة ، أو نادراً قليلاً وهو القدرة ، أي لا مدخل للخلق فيه ولا نسبة ، كهزِّ مريم للنخلة الميتة في الشتاء فتساقط منها الرطب ، وأنه ليس من لازِم الأسباب وقوع المسببات ، كما أنه ليس

من لازِم السحاب وقوع المطر ، ولا من لازِم العين حصول النظر ، وذلك نَفْعٌ عَلَّقه الله به على حسب إرادته ، إن أراد جعله به وإن أراد نزعه ، وهكذا في كل الأسباب الدينية والدنيوية .

فاعرف معنى ذلك حتى إذا عملت سبباً تطلب به نفعاً فاعتمد على المشيئة وارج موافقتها لسببك، ولا تغفل عن هذا وتتعلق بالسبب ، فالأسباب أشباح والمقادير أرواح ، والأسباب بأيدي الخلق والمقادير بيد القادر ، ولكن من لازِم المسبب وقوع السبب ، كما لا يكون المطر إلا بالسحاب ، ولا النظر إلا بالعين ، ولا الكلام إلا باللسان . وإن من لازِم الأمرين السبب والمسبب الذي يتوقف حصولهما عليه سبق الإرادة الأزلية بوقوعهما ، وإن سبقت بوقوع السبب دون المسبب وقع دونه ، وهو القضاء الحاكم بوقوع الأشياء وهو على نوعين :

أحدهما : الحتم بالوقوع فنسميه محتوماً ، فلا بد من وقوعه ووقوع سببه المتوقف عليه ، وهو مجرد اختيار من الرب لا مدخل فيه للخلق ، وذلك مثل السعادة والشقاوة ، والأجل والرزق وغير ذلك وأسبابها للخلق فيها مدخل كالطاعة في السعادة ، والمعصية في الشقاوة ، وقتل النفس في الأجل ، وما هو من قبيل ذلك .

والنوع الثاني من القضاء : معلَّق ، أي حكم الله به كتابة ولا حكم به وقوعاً وجعل لِرَدِّه سبباً لا بد منه كالدعاء لرد القضاء إذا جعل سبباً لِرَدِّهِ ، والدواء لِرَدِّ المرض ، والبلاء إذا جعل كذلك ، والرقى مثل ذلك ، وذلك عند عدم حضور الأجل المحتوم ، فإذا حضر غلب كل دواء وكل رقى .

ومن المعلق الصلاة خمسين وسببها الدافع لها بأمر الله طلب التخفيف ، فسبب دفع المعلق محتوم لا بد منه ، ومن المحتوم الصلاة خمساً لا دافع لها ، وقال النبي ﷺ: « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة » ، وكان سؤاله في مواقف الحج التي تستجاب فيها دعاء غيره فكيف هو ، وكان الاثنتان من المعلق فأعطيهما ، والواحدة من المحتوم وقوعها فمنعها ، والحديث رواه مسلم ، وسيأتي بيان دعواته الثلاث ، والممنوعة سأل دفعها فكان محتوماً وقوعها . انتهى .

وذلك مما وَعَدَنا بمعرفته وتَبْيِينِهِ ، ولعله إن شاء الله على الوجه الذي يرضيه ، وذلك أني قلت لسيدنا : إني أكتب كلامكم ومافهمته ، فربما أني أفهمه على خلاف ما أردتم .فقال : « **اكتبه ، وعادك تعرفه** » ، وبعد ذلك بمدة قلت له بمثل ذلك ، فقال : « **سَنُبَيِّنه لك** » ، يعني يبينه الله لي ببركته ، فهذا مما فهمته وبَيَّنه الله لي ببركته .

والدعوات الثلاث : الأولى : أن النبي ﷺ سأل ربه قال : « اللهم لا تسلط على أمتي سنة ، يأكل بعضهم بعضاً فيهلكوا » ، فأعطاه الله إياها ، والسَّنة : القحط الشديد . والثانية : قال : « اللهم لا تسلط

على أمتي عدوًّا من غير أنفسهم ، يستبيح بيضتهم فيهلكهم » ، فأعطاه إياها ، والثالثة : قال : « اللهم لا تجعل أمتي بَأسَهُم بينهم ، فيقتتلوا فيهلكوا » ، فمنعها ، فقال الله تعالى : « يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَد ، أعطيتك الاثنتين فدع هذه » ، والمراد : إذا قضيتُ قضاء حتماً فإنه لا يُرَد ، وأما المعلق فرد منه بأمره كثيراً من ذلك الدعوتان ، وكل ما في ألواح المحو والإثبات موضع ، قوله تعالى : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

فلما ثبَّت الدعوة الثالثة فكان منها كل ما وقع من القتال بين المسلمين ، وفي كونها ثابتة لا تتغير قال الله لآدم لما أهبطه من الجنة إلى الأرض ، ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يعني العداوة بينهم حتماً، ورأى ﷺ ليلة المعراج عند العرش سيفاً مُعَلَّقاً يقطر دماً ، فقال : « يارب ارفع عن أمتي السيف » ، فقال عز وجل : « يا محمد ، إني بعثتك إلى أمة تقتتل بالسيف » .

وشكى إلى سيدنا رجل من القاطنين في الحاوي من سوء حاله وقوة طبعه وسوء خلقه ، *فقال* : « **ما عليك ، الطين اليابس إذا سقي بالماء ، هو ألا يلين ، وإنما الذي لا يلين بالماء الحجر** » هـ .

أقول : يريد بالطين اليابس القلب المتَّقِي المُقْبِل ، القابل للتعليم إذا ألقي إليه العلم ، أو يفهم بقوة ذكائه ، وتسري فيه مجالسة الصالحين ، ولكنه معه غفلة يوشك أن تزول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝﴾، و « **بالماء** » ، ما يسمع منهم من الوعظ والتذكير ، كما من شأن باعث البداية أنه يحصل عند نظر الصالحين ونظرهم - أي والنظر منهم - أي إذا نظروه بعين القبول وقبلته قلوبهم . وقد سمعت سيدنا يوماً يقول : « **إن رجلاً أتى إلينا** - لا أدري ذَكَرَ مِن أيِّ البلدان الريدة أو غيرها قال: - **وكان حسن الأخلاق مليح الطبع ، وكان يؤنس من جاء غريباً ، غير أن قلبي ما قَبِلَهُ ، وأكره جلوسه عندي ، وأنا متعجِّبٌ من ذلك ، حتى جاءنا ابن عمٍّ له يطلبه فسار به، وإذا به قد قتل نفساً ، وجاء إذ ذاك مُستخفياً** » .

و « **الحجر** » ، القلب المُدبِر القاسي الخلي من التقوى ، الذي لا تؤثر فيه مجالسة الصالحين ، ولا أقوالهم ولا أفعالهم وأحوالهم ، فهذا حَجَرٌ لا يلين بذلك الماء الشريف .

ويريد باللين : لين الطبع وحسن الخلق ، فكن لَيِّن الطبع رقيق القلب ، حتى يلين قلبك من مجالسة الصالحين وأهل الخير ، فينقاد لفعل الخير والصلاح ، فيصلح بذلك قلبك وجسمك فتكون من الصالحين ، فهذا للقلب كالماء للطين يليِّنه ويطرِّيه، فإن خالفت ذلك صار قلبك كالحجر لا يلين ، ولا ينقاد لفعل الخير ، فلا تفيدك مجالسة الصالحين وسماع كلامهم ووعظهم شيئاً ، وتبقى جماداً قاسياً مائلاً

إلى الشر وأهله ، بعيداً عن الخير وأهله ، فخذ حذرك وعالج قلبك ، ففي الحديث: « المؤمن هَيِّنٌ لَيِّن »، والفاجر بعكس ذلك قاسي القلب جامد الطبع ، وإن أبعد الناس من الله ذو القلب القاسي ، فاعرف نفسك بهذا الميزان ومِلْ إلى الخير واترك الشر .

وأتى جماعة من السادة زائرين وهم من سيئون ، فأرادوا مصافحته ، فقفز آخر ليصافحه قبله ، فقلت له : تأخر عنهم ليصافحوا أولاً ، وعالجته فأبى إلا أن يصافحه قبلهم ، وسَمِعَ قولي له ومعالجتي معه ، فلما أن صافحه ذلك الرجل ، قبض سيدنا يده بيده اليسرى ، حتى صافحوا وفرغوا ثم أطلق يده وقال له : « **لِمَ تتقدَّم عليهم وقد قَدَّمهم الله عليك ؟** » ، وكان ذلك وهو خارج لصلاة الظهر ، وكان يكره كلام من يكلمه أو يصافحه وهو خارج إلى الصلاة ، لكن ما تقيد الناس معه بذلك ، فلما رأى أن لا علاج فيهم عن ذلك ، ترك ما أراد واستمر معهم على ما أرادوا كأن لم يكرهه ، بل انقاد لهم في ذلك على خلاف طبعه ، تخلُّقاً معهم وتحققاً مع الله .

وقد عرف مني كراهتي لما يكره على ما أعرف من كراهته له ، حتى مرةً بلغته وهو خارج للصلاة سلام من حملني السلام عليه ، فَكَرِهَ ذلك مني ولامني عليه ، *فقال* : « **لا قط تبلغني بسلام أحد وأنا خارج للصلاة ، فإنا نخرج للصلاة باجتماعٍ وخشوعٍ وإقبالٍ وحضور قلب ، فلا تشوِّشوا علينا بتبليغ السلام ، ولا بشيءٍ من الكلام** » ، أو كما قال .

فهذا كما سمعتَ دليلٌ على كراهته للكلام حال خروجه للصلاة ، وإن حالته هذه معهم إنما هو تَخَلُّقٌ معهم وتكلُّف وحسن خلق ، وإن ذلك منه بخلاف طبعه ونحن نعلم ذلك منه لما رأينا من شأنه وجربنا من عادته ، وسمعنا من كلامه على ما ذَكَرْنا عنه ، فنريد من الناس في المحاياة والمصافحة أن يكونوا معه على ما يريد ، بأن يؤخروا ذلك إلى بعد الصلاة ، فلم يحصل ذلك منهم ، فإنهم في الغالب غرباء ومن لم يعرف ذلك منه ، وكذلك إذا رأوه انزعجوا ولم ينضبطوا ، فجاء معهم على ما أرادوا في الظاهر وترك ما أراد .

فلما دخل بعد الصلاة المذكورة إلى الضيقة ، ودخلت معه على العادة ، قال لي - وقد عرف كراهتي لتعرضهم له لمعرفتي ببغضه لذلك - *فقال* : « **إنما نحن قائمين للناس في مقام الرفق ، فتعَلَّم مِنَّا الرفق واللين ، فقد شكى الناس من قوة طبعك ، ونحن نعرف طباعكم يا أهل تلك الجهة إنها قوية ، فلا تتغلَّظ على أحد ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، وإذا رأيت أحداً يسيء الأدب ، فإن كان معذوراً في ذلك بأن كان غريباً لم يعرف الحال أو بدويًا فنحن نؤدبه ، وإن كان غير معذور بأن كان متجريًا فتكفيه القدرة** » هـ .

أقول : أي العقوبة الحاصلة له بقدرة الله على وجه خرق العادة من غير سببٍ معتاد ، وما كان على وجه خرق العادة يسمى : « ناب القدرة » ، لأنه لا مدخل فيه للخلق ، وما كان بالأسباب يسمى من باب الحكمة ، ولله الحكمة والقدرة .

وقال : « **وقد جرَّبنا أن من آذانا لا بد أن يعاقبه الله ، إلا إن تكلمنا في جانبه بكليمة فتتعداه العقوبة، فإذا كان أحد يشفق عليه تكلمنا عليه بقصد أن تتعداه فتتعداه** » أو كما قال ه .

أقول : إنما يتكلم على من يشفق عليه ويخشى عليه من العقوبة ، دون غيره ممن لا يشفق عليه ولا يخشى عليه العقوبة لعظيم جرمه فتصيبه ، وقد رأينا ذلك كذلك مراراً كثيرة عياناً ممن ذَكَرْنا وممن لم نَذْكر .

ومراده بالكليمة : كلمة علاق ، تدل على حنقه عليه لا أنه يدعو عليه ، وصغَّرها ليعلم أنها ولو كانت كلمة سهلة ، يظهر بها أنه حنق عليه وتشعر بذلك ، فإن المقصود ظهوره وشفاء الغليل والتعدي بها ، كما فهم من حديث : « من كظم غيظه وسكت لم يزل معه من الله ظهير » ، أي معين .

ومنه مجازاته بعقوبته ، فإذا تكلم تعداه ذلك ، وهذا في حق العوام من الخلق ، فكيف بالخواص بل خواص الخواص ؟

وكذلك في حديث مخاصمة سيدنا أبي بكر مع ذلك الرجل ، وكان يلغو عليه وذلك في حضرة النبي ﷺ ، وكان سيدنا أبوبكر ساكتاً ثم تكلم ، فغضب النبي ﷺ فقام ، فقال : « لِمَ قمت يا رسول الله ؟ » ، فقال : « كان مَلَكٌ يجاوبه عنك ، فلما تكلمتَ غاب المَلَك وحضر الشيطان ، فما كان ينبغي لي أن أحضر مكاناً حضره الشيطان » ، أو كما قال ﷺ وكما وقع .. إلخ . فيفهم من كل ذلك المعنى الذي قصده سيدنا بتلك الكلمة لتعدي العقوبة ، ويدل على غزارة علمه ، ودقيق فهمه لمعاني كلام الله ورسوله ، وغوصه على المعاني الغامضة واطلاعه عليها .

وقوله : « **فقد شكى الناس من قوة طبعك** » ، إنما شكوا مني معالجتي لهم في تأخيرهم المصافحة له والمحاياة حال خروجه للصلاة ، على ما تقدم نهيه عن ذلك، وطلبي منهم أن يؤخروا ذلك إلى بعد فراغه من الصلاة ، لشدة كراهته لذلك حينئذ، وسيأتي قوله لما أن أشغله كثرة الزوار بكثرة المصافحة والكلام ، فأشغلني ذلك منهم وأردت أن أؤخرهم عنه ، فقال : « **دَعْهُم ، فإن هذا منهم حسن ظن، ومِنَّا حسن خلق ، وكُلٌّ مِنَّا مأمورٌ بذلك ، إلا أن الإنسان من طبعه أنه لا يبقى على حَدِّ الوسط** » .

وقال لأحد رجلين من الزوار : « **قم اجلس إلى صاحبك** » ، وكانا جاءا معاً ثم جلسا متفرِّقَيْن

متباعِدَيْن في المجلس ، فقال لأحدهما : « **قم اجلس بقرب صاحبك** » ، يعني ليكون الخطاب لكما جميعاً، لأن خطاب كل واحد في محله يحتاج إلى الإلتفات لهذا ولهذا وفيه مشقة ، فإذا كانا إلى جهة واحدة وكلمهما معاً أو كل واحد بكلامٍ يخصه كان أسهل .

فلما أمره بالقيام قال رجل آخر ممن كان حاضراً قبل مجيئهما : « مرحبا » ، وهي لفظة إجابة كقول من أمرته بأمر وأجاب : « بسم الله » ، ومعناه إذا أجاب أنه أراد أن يمتثل في فعل المأمور به ، وقال مبتدئاً : « بسم الله » ، كما هو السنة أن يسمي الله في ابتداء كل أمر واجب أو مندوب أو مباح ، ويكره في المكروه ويحرم في الحرام . فلما قال الرجل : « مرحبا » ، قال سيدنا له : « **لا تقل ذلك ، كأن الكلام إليك**» ، *ثم قال* : « **إن أهل الزمان طائشة نفوسهم ، فإذا طلبت من أحدهم أن يجيء ببدنه أدبر بقلبه ، ولو جاء بالبدن عشرين مرة مع إدبار القلب ما نفعه ذلك ، ولو جاء بالقلب مرة واحدة انتفع وإن أدبر ببدنه ، ونحن ما نطلب من الناس أن يجوا بمجرد أبدانهم ، إنما يطلب ذلك الملوك فيجون طوعاً أو كرهاً ، وإنما نطلب نحن القلوب لا الأبدان** » هـ .

أقول : معنى الإقبال بالقلب قوة المحبة والإعتقاد والإقبال بما أُمِروا ، وقبول قلوبهم له ، فبهذا ينتفع وإن لم يجتمع بهم ، ومع عدم ذلك لا ينتفع وإن جاء ببدنه .

وكثيرٌ من الأولياء انتفعوا بمشائخهم وبلغوا من فضل الله ببركاتهم من الولاية مقاماً عالياً بسبب ذلك وما رأوهم وما اجتمعوا بهم ، كسيدنا عبدالله مع شيخه الشيخ محمد بن علوي ، والشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس مع شيخه الشيخ حاتم بن أحمد الأهدل صاحب المخاء وغيرهما .

ثم عرض في هذا المجلس كلام ، فأنشد هذين البيتين للإمام الشافعي رحمه الله فقال :

فَقُـل لأنَـاسٍ يَتَمَنَّـونَ أنْ أَمُـتْ ... فَتِلـكَ سَـبِيلٌ لَسْـتُ فِيهَـا بِأَوحَـدِ
وَقُـل لِلـذِي يَبْغِـي بَعـدَ مَـن مَـضَى ... سَـتَلحَقُ بِالمَـاضِي فَـكَأَنْ قَـدِ

أقول : رأيت في ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه ، أنه مَرَّ على أشهب بن عبدالعزيز من أصحاب الإمام مالك رضي الله عنه وهو ساجد ، وسمعه يدعو عليه وهو ساجد ويقول : « اللهم أَمِت الشافعي وإلا ذهب عِلْم مالك بن أنس » ، فأنشأ الشافعي يقول :

تَمَنَّـى رِجَـالٌ أَنْ أَمُـوتَ وَإِنْ أَمُـتْ ... فَتِلْـكَ سَـبِيلٌ لَسْـتُ فِيهَـا بِأَوحَـدِ

فَقُل لِلَّذِي يَبغِي خِلَافَ الذِي قَضَى تَهَيَّأْ لأُخرَى مِثلِهَا فَكَأنْ قَدِ

فذكروا أن الإمام الشافعي رحمه الله عاش بعد ذلك سبعة عشر يوماً وتوفي ، واشترى أشهب من تركته عبداً وجارية ، ثم عاش أشهب مثلها سبعة عشر يوماً ثم مات ، واشتُرِيَ ذلك العبد أو الجارية من تركته . فذلك قول الشافعي رحمه الله: «تهيّأ لأخرى مثلها فكأن قدٍ » ، أي فكأن قد وقع الأمران ، وتقال كلمة : « فَكَأَن قَد» ، للشيء الذي سيقع عن قرب بسرعة ، فكلٌّ منهما دعا على الآخر فأصابه ما دعا به ، والمدة بينهما واحدة ، وما في كلام الشافعي أنه دعا عليه إلا إن كان بقلبه ، قال اليافعي في مثل هذا : « ولعمري إن هذه أحوال تكِلُّ في جنبها السيوف القواطع، وكيف لا وُكُلٌّ منهما مستقيم على الحق ، لا يشذ عنه طرفة عين » . وأما دعاء أشهب عليه كما سمعه فهي غارية عذره الله فيها ، ولابد له فيه نية صالحة ، فقد تبع الإمام الشافعي لما جاء إلى مصر جماعة كثيرة من وجوه مصر ممن كان اتبع مذهب الإمام مالك ، فتبعوا الشافعي على مذهبه وتخلوا عن مذهبهم ، منهم ابن عبدالحكم وغيره ، ثم بعد وفاة الشافعي رجع إلى مذهبه مذهب الإمام مالك .

وقال سيدنا : **« لولا أن سلفنا أخذوا بمذهب الشافعي لكنا أخذنا بمذهب مالك لأن عمدته ما أجمع عليه أهل المدينة ، ومن تأمل عمدته وما أخذ به عَلِمَ أنه الحق ، ولكن الشافعي مالكي ، والمالكي شافعي »** هـ .

أقول : يعني كلٌّ منهما على الحق ، فمن قلَّد أحدهما فكأنما قلَّد الآخر ، وكثيراً ما كان يقول سيدنا : **« إنما مذهبنا الكتاب والسنة »** ، كما كاشفه بذلك الشيخ عبدالخالق في المدينة على ما سيأتي هـ .

قال رضي الله عنه : **« الطريقة التي تذكر إنما هي طريقة باطنة ، وهي العقائد والأخلاق ، وإنما مثل لها بالطريق الظاهرة لتعقل وتفهم »** ، *وقال* : **« الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمنا لصاحبها ، وإن كان حقائق بلا طرائق فإنما هي أخت الزندقة ، والشريعة عِلْم والطريقة عمل والحقيقة ثمرة ، وكلٌّ من الثلاثة قسمين ، ولا عليك من فروعها، فإن عَمِلْتَ ظاهراً فثمرتك ظاهرة ، وإن عَمِلْتَ باطناً فثمرتك باطنة ، ومن أظلم قلبه عمل بالمعاصي وهي ثمرته . وكان الشيخ عبدالله العيدروس يمثِّل للشريعة باللبن ، وللطريقة بالزبد ، وللحقيقة بالدهن . والزبد هو الدهن بعينه ، ولا فرق بينهما إلا أن يطبخ الزبد ويكبس وصار دهناً »** هـ .

أقول : يشبه مادة هذا الكلام لما مَرَّ في الدرس حديث جبريل ، فقال رضي الله عنه : **« الإسلام مجرد عمل فقط ، والإيمان مجرد إيمان وتصديق ، والإحسان مشترك بينهما ، والأول في الجوارح ، والثاني في**

القلب والثالث فيهما ، والأول ظاهر الثاني ، والثاني باطنه ، والثالث خالصهما ، والإحسان هو الغاية من الإسلام والإيمان ، إذا اجتمعا صارا إحساناً » .

وقوله : « **على قسمين** » ، أي ظاهر وباطن ، كما بَيَّنه بقوله : « **فإن عمِلْتَ ظاهراً فثمرتك ظاهرة .. إلخ** » ، والثمرة الجزاء ، يعني فإنها عملت من الثلاثة ، إن عملته باطناً أي سرًّا ، « **فثمرتك باطنة**»، أي جزاؤك جزاء عمل السِّر ، أو عملته ظاهراً أي علانية مخلصاً ، « **فثمرتك ظاهرة** » ، أي جزاؤك عليه جزاء عمل العلانية . ومراده بذلك يعني أن جزاء عمل السِّر يضاعف على جزاء عمل العلانية بسبعين ضعفاً ، كما في الحديث ، فإذا كان العمل الظاهر خالصاً لوجه الله فهو بِعَشْرٍ فإذا كان سِرًّا ضوعفت العشر سبعين ضعفاً فصار سبعمائة ، فشتان بينهما .

قوله : « **ومن كان قلبه مظلماً** » ، أي فاجراً ، « **عمل بالمعاصي فهو ثمرته** » ، أي جزاء معاصيه من العقوبة « **هي ثمرته** » ، أي محصوله ، كما أن محصول الأول في التقوى وعمل الطاعة الكامل سبعمائة، والناقص بِعَشْر . والكمال بكمال الإخلاص وإسرار الأعمال ، والناقص إذا ثبت له الإخلاص ولم يتمكن من الإخفاء قد توافق في هذه المادة كلام الله وكلام رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾، فذلك سبعمائة، وقال ﷺ : « يضاعف عمل السر على عمل العلانية بسبعمائة ضعفاً » . يعني إذا كررت العشر التي هي جزاء عمل العلانية مع الإخلاص سبعين مرة صار سبعمائة ، فتوافقت الآية والحديث، ثم قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي لم تتوقف المضاعفة على حد السبعمائة، بل تزيد حيث شاء الله لمن شاء ، وقال تعالى : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، وفي الحديث في الصدقة بعد السبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، فالآية في القرض والحديث في الصدقة وكلاهما نفعٌ للمسلمين ، فدَلَّ على أن نفع المسلمين لا يقاومه عمل .

وقد جاء بإسنادٍ أسنده السيوطي في كتاب « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » إلى أنس بن مالك وصححه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قضى للمسلم في الله حاجة كتب الله له مثل عمر الدنيا سبعة آلاف سنة صيام نهارها وقيام ليلها » ، فأيُّ فضيلةٍ أبلغ وأفضل من نَفْعِ المسلمين، ولو في الآية الكلام في الصدقة وهي مثال ، والمراد كل الأعمال الصالحة ، كما شمل ذلك عموم معنى الحديث حيث قال : « عمل السِّر يضاعف على عمل العلانية » ، فدَلَّ على أن المراد العموم ، أي كل عملٍ من أعمال البِرِّ يضاعف سِرُّه على علانيته سبعين ضعفاً .

وكلام سيدنا هنا يدل على العموم أيضاً ، حيث ذَكَر الشريعة وهي العلم بقانون الشرع، كما قال : « **الشريعة علم** » ، والطريقة هي العمل على ذلك القانون، كما قال : « **والطريقة عمل**

والحقيقة ثمرة ذلك العمل » وزبدته وخالصه، إذا أثَّر في القلب تأثيره المعلوم بزيادة الإيمان وقوته، حتى صار على ما وصف الله به المؤمنين الكاملين بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ، والقاعدة المطردة : إنه حيث ذَكَرَ المؤمن أو الإيمان في الكتاب والسنة أن المراد به المؤمن الكامل والإيمان الكامل لا الناقص ، وإلا لخرج عن وصف الإيمان كثيرٌ من المؤمنين ، كما في حديث: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، أي لا يؤمن إيماناً كاملاً ، وليس كل مؤمنٍ كذلك وإلا لكان خرج عن الإيمان كل من لم يكن كذلك من وصف الإيمان ، ولكن دين الله واسع وفيه الكامل والناقص والعامة والخاصة ، وكلٌّ له منه نصيبٌ بقدر ما أعطاه ربه ، وعلى قدر ما أعطاه يكون النصيب له والجزاء في الآخرة ، كما في حديث : « يتراؤون في الجنة كما يتراؤون الكوكب الدُّرِّيَّ في أفق السماء » ، يعني الدونيين يرون الأعلين أهل عليين، قال : « وما فيهم دني ، ونزع من صدورهم الغل ، لا يرى أحدٌ أن أحداً أعلى منه ليطيب لهم العيش » ، ويدل على المعنى الحديث المتقدم في الذين يطيرون على نُجُبٍ يزورون ربهم ، وماوصفهم به المجيب لهم ، أي وصف الفريقين بأوصافهم الدالة على كمال أولئك ونقصان هؤلاء في الأعمال الناشئة عنهم ، بحسب قوة إيمان الكاملين وضعف إيمان القاصرين .

قوله : « **الحقائق إذا تبعتها طرائق سلمنا لصاحبها .. إلخ** » ، **فالحقائق التي تبعتها طرائق هي** أعمال وأحوال من وافق الإرادتين على ما تقدم تفصيله ، فوافق الإرادة الأزلية فيما حكمت عليه من السعادة، وهي مراده بالحقائق ، ووافق الإرادة الشرعية بما أمرته به من العبادة ، وهي مراده بالطرائق ، فلذلك قال هناك : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق - وهي الحقائق - وأراد منه - وهي الطرائق - والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي وافق ما حكمت عليه الإرادة الأزلية من الشقاوة ، وهي الحقائق التي لم تتبعها طرائق ، حيث خالف الإرادة الشرعية ، فما وافق الإرادة الأزلية في الأمرين معاً هي الحقائق، وما وافق الإرادة الشرعية وهو أحدهما من جانب السعادة فهو الطرائق ، فهذه قد توافق ذلك في السعداء وقد تخالف وذلك في الأشقياء ، ومحال أن تخالف تلك أحد الفريقين ، فكلاهما تحت حكمها وفي قبضتها، لا يشذ عن حكمها في الكون ذرة ، فكل الخلق من شَقِيٍّ وسعيد موافقوها فيما حكمت به من أحد الأمرين فافهم . ولكن ربما حكمت على شقيٍّ بفعل أهل السعادة دونها ، وربما حكمت على سعيد بفعل أهل الشقاوة دونها ، ثم آخِرُ أمْرِ كُلٍّ أن يرجع ما أراد به الحق من أيِّ الأمرين السعادة وضدها .

وقد سمعت سيدي السيد الفاضل أحمد بن عمر الهندوان علوي نفع الله به يقول : « من عمل في هذا الزمان بمجرد الحقيقة خالف الشرع وتزندق » ، وهو قول سيدنا عبدالله : « **فإنما هي أخت الزندقة**» ، وهي الإحتجاج بالمقادير مع الإصرار على المعاصي . فقلت لسيدي أحمد : فإن عمل بالشريعة فقط ؟ فقال : « إن عمل بها فقد عمل بالحقيقة أيضاً لأنها لا تنفك عنها » ، يعني إن الشريعة لا تنفك عن الحقيقة من جانب السعادة ، فالشريعة هي باب السعادة من كل الوجوه ، لا مدخل في السعادة إلا منها ، ومن خالفها دخل باب الشقاوة ، وهي لا تنفك عن الحقيقة أيضاً من الباب الآخر بحسب الحكمين عنها .

وقد تَوَافَقَ معنى كلام سيدنا مع معنى كلام السيد أحمد نفع الله بهما ، واتفقا معنىً ولفظاً ، فاعرف أن الحق طريقٌ واحد ، وأن أهل الحق فيه على سبيلٍ واحد، وإن اختلفت عباراتهم ، كما ترى هنا من قول سيدنا : « **الحقيقة بلا طريقة أخت الزندقة** » ، يعني هي الزندقة بعينها ، فما صَدَقَ على أحد الأختين صَدَقَ على أختها. وقول السيد أحمد : « العمل بمجرد الحقيقة » معنى خالياً من الشريعة فهو زندقة، ومخالفة للشرع ، وهو معنى قول سيدنا : « **والشقي من اختلفت به الأمور** » على ما تقرر أولاً . وجعل السيد أحمد يذم الزمان فقال : « إن العمل في هذا الزمان إلى عدم القبول أقرب منه إلى القبول »، فقلت له : فما أرجى الأعمال في هذا الزمان إلى القبول ؟ قال : « الصلاة على النبي ﷺ والإستغفار » .

ومن كلامه لي غير مرة في مجالس متعددة في أوقات متفرقة ، يخاطبني به ويعلِّمني ذلك جزاه الله خيراً قال : « اعلم أن الإيمان بالقضاء والقدر على اختلاف أحواله واجب ، ثم ننظر إلى ذلك المقدور فإن كان واجباً شرعاً وجب الرضا به ، أو مندوباً ندب الرضا به ، أو حراماً حرم الرضا به ، أو مكروهاً كره الرضا به ، أو مباحاً جاز ذلك . أي جاز الرضا به » ، انتهى كلام السيد أحمد .

وقوله : « على اختلاف أحواله » ، أي من خيرٍ أو شرٍّ ، نَفْعٍ أو ضرٍّ ، ومراده أن اعتقاد كل ما وجد في الكون أو يكون يجب اعتقاد كونه مقدراً بأمر الله ، ومحكوماً بوقوعه بقضاء الله ، ثم يجري مجاريه بحسب أحكام الله من حيث داعية النفس لما يلزمه من امتثال أوامر الله رضا وكراهة وعدمهما ، طلباً وهرباً ودونهما ، انتهى .

وهذا ما فهمت من ظاهر معنى كلام سيدنا المتقدم ، وأما معنى باطنه فما يعرفه إلا أهل العلم الباطن ، ممن له حظٌّ وافرٌ من العلوم اللدنية ، فهو موكولٌ إليهم ، وكذلك ما ذكرت من معنى كلام السيد أحمد هو الذي فهمته هـ .

قال رضي الله عنه : « قال الشيخ عبدالله العيدروس رضي الله عنه : حكَّمت ربع أهل الدنيا » ، قال سيدنا : « يعني أُذِنَ له في تحكيم ربع أهل الدنيا ، وإلا فما حكَّم ربع أهل الدنيا » ، وتكرر هذا القول من سيدنا مراراً كما سيأتي أيضاً، وقال في بعض المرات : « ولعل هذا لأجل القَدْر الذي أمهر عليٌّ فاطمة رضي الله عنهما ، فقد جاء في بعض الأخبار أنه أمهرها ربع أهل الدنيا » ، قال سيدنا : « والذين انتفعوا بنا أكثر من الذين انتفعوا بالشيخ عبدالله » ، ومرة قال : « أكثر من الذين انتفعوا بالشيخ أبي بكر بن سالم»، ومرة قال : « أكثر من الذين انتفعوا بالمشايخ ممن مضى قبلنا » .

وسمعت عن شيخه الشيخ عمر العطاس : « أن ممن ينتفع بالسيد عبدالله الحداد ممن اسمه عمر خاصة ثلاثون » ، فقلت لسيدنا عندما تكلم بهذا الكلام : ما يطلب الإنسان إلا أن يستيقظ من غفلته ويتوب إلى ربه ، فما السبب الذي يتوصل به لتحصيل ذلك ؟ قال : « اعمل بما تَقْدِر عليه ويمكنك، واتَّقِ الله ولا تتعرض لما يبطله عليك ، فإذا عملتَ واتَّقَيتَ يكون عندك شيء لم تعلمه ، والإستتار في هذا الزمان أسلم ، كما في قصة إبراهيم الأعزب أنه أخذ أحوال أصحابه وقال : هذا أسلم لكم في الدنيا» هـ .

أقول : يعني إذا عملتَ كما ذَكَر يكون لك مع الله حال لم تعلمه ، كما قال في المكاتبة التي ذَكَرْنا : « قد يكون للمؤمن - أو قال : للولي - بينه وبين الله سِرٌّ لم يعلمه الولي نفسه ، وذلك فَضْلٌ من الله لا يشترط أن يعلمه العبد ، يجازيه به يوم القيامة ويُظهِره الله له إذ ذاك » ، والشاهد على هذا ذكره لقصة إبراهيم مع أصحابه ، ومرة في مثل هذا المعرض قال : « إن معك شيئاً لم تعلمه أنت كالذي يدور إقليده وهو معه » أو كما قال .

والسيد إبراهيم ابن أخت سيدي أحمد الرفاعي ووارث سِرِّه وحامل لواء طريقة الرفاعية في وقته، وهو ابن علي بن عثمان بن حسن بن غسله بن حازم بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن الحسن المهدي بن أبي القاسم بن محمد الحسين بن أحمد بن موسى بن إبراهيم المجاب المرتضى بن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق إلى آخر النسب . يجتمع مع سيدي أحمد الرفاعي في حازم الأول ، لأن سيدي أحمد له بنتان : فاطمة وزينب .

فتزوج علي بن عثمان بفاطمة فأولدت له إبراهيم الأعزب ، ونجم الدين أحمد الأخضر ، وهو أحمد الصغير ، وقولهم : أحمد الكبير يعنون به الشيخ أحمد الرفاعي احترازاً من هذا الصغير .

وتزوج عبدالرحيم بن عثمان بسِتِّي زينب ، فأولدت له سيدي شمس الدين محمد ، وهو الذي ينتسب إليه الرفاعية في نسبهم ، ويقولون محمد بن الشيخ أحمد الرفاعي .

وعلي بن عثمان ، وعبدالرحيم بن عثمان المذكوران أخوان من الأَبَوَيْن ، أبوهما عثمان بن حسن المذكور ، وأمهما الشيخة الصالحة ستّ النساء بنت السيد أبي الحسن علي بن الرفاعي ، أخت السيد أحمد رضي الله عنه من الأبوين .

ونسب السيد أحمد الكبير بن أبي الحسن علي الرفاعي بن يحيى بن ثابت بن حازم بن أحمد بن علي بن الحسين بن المهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق .

وقال الشيخ علي بن أبي بكر باعلوي في كتاب « البرقة » : « ومن ذرية الإمام جعفر الصادق الرفاعيون النازلون بأرض العراق ، الذين منهم سيدي الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه » .

أقُولُ : فثبت صحة نسبهم بشهادة هذا القطب المكِين ، وكل ساداتنا آل باعلوي يشهدون بذلك، فلا عبرة بقول الأعداء الجاحدين لهذا النسب الشريف ، ومحتجون بقول المؤرخين : أن الرفاعية نسبة إلى رفاعة قبيلة من العرب . وليس في هذا ما ينفي نسبهم ، لأن هذه نِسبة جِوار ، لا نِسبة نسب ، فكثيراً ما ترى أناساً نزلوا في جوار بعض القبائل من العرب فنُسِبوا إليهم وسُمُّوا منهم وليسوا في النسب منهم .

ومن مناقب سيدي الشيخ علي بن أبي بكر المذكور : أن رجلاً مُقعَداً جاء إلى تريم يزحف يسأل عن بيته ، فقيل له : « من أنت ؟ » ، فقال : « أنا من سمرقند ، لي ثلاث سنين قاصداً هذه المدينة ، لزيارة رجل اسمه الشيخ علي بن أبي بكر ، فإن له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية » ، وكان الرجل من أهل الأحوال .

وَرَأيتُ في ترجمة سيدي إبراهيم الأعزب أنه قال لأصحابه : « نريد نسلبكم أحوالكم في الدنيا ونردها لكم في الآخرة » ، *قال سيدنا* : « ولعل ذلك بسبب تذبذبهم » ، فقلت له : فما ينفع عمل لا ذوق فيه ولا حضور ؟ أعني إذا سُلِبوا الأحوال فلا ذوق ولا حضور في الأعمال ، *فقال* : « **ليس ذلك إليك، ويكفيك ما ضربه رسول الله ﷺ مثلاً لليهود والنصارى مع المسلمين** » هـ .

أقُولُ : يعني في حديث الصحيحين : « إنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجلٍ استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط . ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط . ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب

الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذي تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ، ألا لكم الأجر مرتين . فغضبت اليهود والنصارى فقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال الله : وهل ظلمتكم من حقكم - أي الذي شرطتُ لكم - من القيراط شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فإنه فضلي أعطيه من شئت » .

فشاهدنا في هذا الأخير : أن ذلك الزائد في العبادة المضروب لها المثل بالعمل من المعارف والأذواق واللذة ونحوها ، المضروب لها المثل بالفضل الذي يعطيه من شاء ، زائداً على أجر العمل ، إن ذلك الزائد ليس متعلقاً بالعمل وإنما حد أجر العمل الحسنات الموعود بها ، من عَشْرٍ وسبعمائة والأضعاف التي فوق ذلك، بحسب المشيئة المضروب لها المثل بالقيراطين في مقابلة القيراط الواحد للأمَّتَيْن ، على أن القيراط الثاني ولو أنه مذكورٌ في الشرط فهو أيضاً زيادة فضل منه ، بكثرة الجزاء على قلة العمل ، في مقابلة ما أعطى الأمَّتَيْن من القيراط الواحد على عملٍ أكثر من عملهم .

وفضل ربك كذلك لك ذلك أيها المحمدي على عملك ، فما زاد لك عليه من المعارف والأحوال والأمور الباطنة ، أيضاً لك زيادة على الآخر الذي وعدك ، على أنه قد قيل أنه من جزاء عملك عجل لك في الدنيا ، حتى قالوا : لا ينبغي العمل بقصد حصول ذلك ، لكونه حظًّا مُعَجَّلاً ، ولا يلزم ذلك من العمل ، وليس من لازِمه حصوله ، إلا إن تفضل به الرب سبحانه ، فإنه فضله يؤتيه من يشاء .

ولذلك مَثَّلَ به سيدنا ، وقال : « **يكفيك ما ضربه رسول الله ﷺ لليهود والنصارى** » ، ومراده هذا المعنى ، لأنه فضل آخر زيادة على ما وعدك من زيادة الأجر والجزاء ، أو مثل مدة الدنيا إلى يوم القيامة بمثل يوم واحد ، وأن مدة اليهود كنصفه مثلاً لكثرة عملهم وقلة جزاهم ، والنصارى كربعه فعملهم أقل والأجر واحد ، وهذه الأمة أقلهم مدة ، وهي أقل من الربع ، من العصر إلى المغرب ، والأجر مضاعَف في العامة على المشروط في الخواص ، مضاعَف إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، مع المعارف المذكورة كل على حسبه وحسب وَهْبِهِ ، ومدة عمل الصنفين من هذه الأمة إلى تمام اليوم الذي المراد به يوم القيامة .

فافهم هذه التماثيل بهذه الأمور لتعرف أن الذوق في العبادة والتلذذ بها ، والأحوال الشريفة التي أشار إليها من ذاقها بقوله : « إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه في الليل إنهم لفي عيشٍ طيِّب »، وقول الآخر : « منذ أربعين سنة ما غمَّني إلا طلوع الفجر » ، إن ذلك ليس من لازم العبادة ، ولا من كسب الإنسان بل ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء . فقد يؤتيه على العمل اليسير ولا يؤتيه على العمل الكثير ، فمن أوتيه فليحمد الله ، ومن حرمه فليسلِّم أمره إلى الله ، ويرضى بما قسم الله ، ولا يسخط قضاء الله ، فكما أن الله سبحانه خص هذه الأمة بالأجر الجزيل على العمل القليل ، وما أعطى

أولئك على العمل الكثير إلا الأجر اليسير .

ثم إنه سبحانه أعطى كلًّا على عمله كما وعده وما نقص مما وعد شيئاً ، وزيادة لهذه الأمة عليهم من زيادة الوعد بالأجرة والزيادة على ما وعد ، ومن زيادة المعارف وغير ذلك ، كل ذلك فضلٌ منه لا لمجرد العمل ، فيفهمك هذا من ضرب الأمثلة وما ذكر معها ، أن ذلك فضلٌ منه سبحانه أعطاه على القليل ، وقد منعه أولئك على الكثير ، كما هو مجرَّب يراه العامل من نفسه في وقت دون وقت .

ولما كان كل هذا الكلام متعلقاً بقول سيدنا لما قلت له : إذا سلبوا الأحوال فلا ذوق ولاحضور في الأعمال ، فقال : « **ليس ذلك إليك ، ويكفيك ما ضربه رسول الله ﷺ مثلاً لليهود و النصارى مع المسلمين** » ، يعني الحديث المذكور مع ما اشتمل عليه من المعاني التي ذكرتها ، فأحببت أن أَصِلَ ذلك بقصيدةٍ للشيخ الفاضل محمد الهندي ، تلميذ السيد منصور ابن السيد محمد بن عبدالخضر نفع الله بهم ، في سلسلة الطريقة الرفاعية وتسلسلها بالأبناء عن الآباء ، ثم اتَّصلت بالأخوال ، ثم اتَّصلت بمشايخ الصوفية المشهورين ، إلى الحسن إلى سيدنا علي إلى النبي ﷺ ، عن جبريل عن الله سبحانه . وهي هذه القصيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم

إذَا رُمـتَ تَقرِيبـاً بِحَـضرَةِ أحمَـدِ ... تَمَـدَّحْ رِجَـالاً في طَرِيقَـةِ أحمَـدِ
رجـالٌ لهـم جَـاهٌ عَظِيـمٌ وَمَنـزِلٌ ... بِهِـم يَرْحَـمُ الرَّحمـنُ مَـن رَامَ يهتَـدِي
فَأَوَّلُهُـم مَنصُـورُ شَـيخِي وَقُـدْوَتِي ... هُـوَ العَـارِفُ المشـهُورُ ابـنُ مُحَمَّـدِ
تَلَقَّنَهَـا مِـن وَالـدٍ جَـاءَ كَامِـلاً ... فَوَالِـدُهُ قُطْـبُ الوُجُـودِ وَذُو اليَـدِ
وَوَالِـدُهُ عَـن وَالِـدٍ كانَ آخِـذاً ... فَعَنْ عَبدِ خضرٍ سَيِّدِي وابن سَيِّدِي
فَعَـنْ رَجَـبٍ حقـاً لَقَـدْ كَانَ آخِـذاً ... سَـمِياً لِشَـهرِ الله يَعلُـو بِسُـؤْدَدِ
عَنِ الفَحلِ شَعبَانَ المكمِّلِ لِلْوَرَى ... وَسَـاقِيهِمُ كَأْسـاً بِغَـيرِ تَقَيُّـدِ
عَـنِ السَّـيِّدِ المشـهُورِ وَهـو مُحَمَّـدٌ ... فَهُـو صَـادِقٌ بالقَـولِ وَافٍ بِمَوعِـدِ
عَنِ الصَّالِحِ المشهُورِ قُطبٍ وَصَالِحٍ ... وَيُصلِـحُ مَـن يُدْعَـى هُنَـاكَ بِمُفْسِـدِ
فَعَـن عَبـدِ رحمـنٍ لَقَـدْ كَانَ آخِـذاً ... فَفِـي كُلِّ أَمـرِ عُـدَّتِي ثُـمَّ مُسْـنَدِي

وَعَن عَابِدِ لله قَدْ كَانَ آخِذاً | لَقَدْ كَانَ يُدْعَى في الأنامِ بِمُرشِدِ
وَعَن حَسَنٍ حَقاً لَقَدْ كَان آخِذاً | وَهوْ عَن حُسينٍ سَيِّدٍ وابن سَيِّدِ
وَعَن يُوسُف صِدقاً لَقَدْ كَانَ آخِذاً | طَرِيقَةَ أهلِ الله عَهداً بِمَعْهدِ
وَعَن رَجَب المقدَامِ قَد جَا مُلَقَّناً | تَرَاهُ دَوَاماً لِلْعُلا بِمُعَربِدِ
وَعَن شَمسِ دِينِ الله إرشَادُهُ أتى | فَأنوَارُهُ كالشَّمسِ تَزهُو بِمَعْبَدِ
وهو عن فَرِيدِ الوَقتِ قُطبٍ وَغَوثِنا | وَشَيخِ جَمِيعِ القَومِ يُدعَى بِأحْمَدِ
لِذَلِكَ يُدعَى بالكَبِيرِ فَجَاهُهُ | كَبِيرٌ لَدَى المولى بِهِ الكُلُّ يَقتَدِي
كَرَامَاتُهُ أضوَى مِنَ الشَّمسِ في الضُّحَى | بِهِ الصَّبُّ عَن طُرقِ الضَّلالَةِ يَهْتَدِي
وَمن وَعظُهُ يُلْقَى بِسَمْعٍ لِسَامِعٍ | مَسِيرُ ثَلاثٍ لِلْمُجِدِّ المسَدَّدِ
وَمن لُطفُهُ عِندَ التَّجَلي فَجِسمُهُ | يَذُوبُ كَمَاءٍ سَائلٍ مُتَبَدِّدِ
وَيَحْمَدُهُ عِندَ الرجُوعِ لحِسِّهِ | يَقُولُ وَلَولا اللُّطْف لَسْتُ بِعَائِدِ
وَيُدْعَى رِفَاعِيٌّ لِرِفْعَةِ قَدْرِهِ | وَمَن حَالُهُ يَبْدُو لهم كَمُهَنَّدِ
عَنِ الشَّيخِ مَنصُورِ الفَرِيدِ بِعَصرِهِ | وَهوَ وَاحِدٌ يُدْعَى هُنَاكَ بِمُفْرَدِ
وَهُوْ عَن أبي مَنصُورٍ اضحَى آخِذاً | وَعَن خَالِهِ حَقاً أتَانَا بِمُسْنَدِ
وَعَن شَيخِهِ بِابِي سَعِيدٍ مُلَقَّبٌ | بِنَجَّارِهِم يُدْعَى بِشَيخٍ وَمُرشِدِ
أبي القرمُزِي شَيخٌ لِذَاكَ مُحَقِّقٌ | لآدَابِهِم حَقاً أتَى بِمُجَدِّدِ
أبي القَاسِمِ السَّندُوسِ حقاً فَشَيخُهُ | لأركَانِ طُرقِ القَومِ جَا بِمُشَيِّدِ
وهو عَن رُوَيمٍ شَيخِنا وَمَلاذِنَا | مُرَبِّي رِجَالاً كُمَّلاً ثُمَّ مُبْتَدِي
وَعَن سَيِّدِ الأقْرَانِ أعنِي جُنَيدِهِم | دَوَاماً لَهُمْ يهدِي وَحَقاً فَمُهْتَدِي
فَعَن خَالِهِ حَقاً لَقَد كانَ آخِذاً | سَريٌّ هُو المشهُورُ لا زَالَ مُسعِدِي
وَهوَ عَن أبي مَحْفُوظ مَعرُوف عَارِف | وَتَعرِفُهُ أهْلُ السَّماءِ بِمُنْجِدِي
عَنِ الشَّيخِ دَاوُدَ وَطَيٌّ تَفَاخَرَتْ | بِنِسْبَتِهِ قَدْ طَابَ فِيهِمْ بِمَولِدِ

عَنِ العَجمِيِّ أعْنِي حَبِيباً مُكَمَّلاً فَأَوْرَادُهُ فَاقَتْ فَيَا نِعْمَ مَوْرِدِ
وَعَن حَسَنِ البَصْرِيِّ شَيخِ شِيُوخِنَا كَرَامَاتُهُ لا تَنْحَصِي بِتَعَدُّدِ
وَعَن وَارِثِ العِلمِ اللدُنِّي كُلِّهِ عَلِيٍّ هُو ابنُ العَمِ مُرْدِ لِمُعْتَدِ
وهو عَن رَسُولِ الله أَضْحَى آخِذاً بِلا فَاصِلٍ يَهْنِيه تَقْبِيلَ ذَا اليَدِ
عَنِ الرُّوحِ جِبرِيلَ الأمين فآخِذاً عَنِ الحَقِّ جَاءَ الوَحْيُ مِنهُ لِسَيِّدِي
فَيَا عِتْرَةَ المختَارِ يَا آلَ هَاشِمٍ بِأَنْوَارِكُم قَلْبِي دَواماً فَيَهْتَدِي
عُبَيْدُكُمُ الهِنْدِيُّ أَعْنِي مُحَمَّدٌ فَبِالقَولِ مِنكُم ثُمَّ بِالفِعْلِ يَقْتَدِي
وَبَعْدَ صَلاة الله تَغْشَى مُحَمَّداً عَلَى عَدَدِ الأنفَاسِ مَا سَارَ مُهْتَدِي
مَعَ الآلِ وَالأَصْحَابِ مَا صَاحَ عَاشِقٌ وَمَا نَاحَ مُشْتَاقٌ لِرُؤيَةِ أَحْمَدِ

تمت . وله هذه القصيدة بمعناها ، وفيها ذِكْر التلقين وثمرته ، وهي هذه :

قُمْ فِي الدُّجَى وَاهْتِفْ بِإسْمِ البَارِي بِتَرَنُّمٍ كَتَرَنُّمِ الأَطْيَارِ
وَاهْدِ الصَّلاةَ إلى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَينِ الوُجُودِ وَمَنْبَعِ الأَسْرَارِ
وَالآلِ وَالأَصْحَابِ مَا هَبَّ الصَّبَا أو لاحَ بَرْقٌ في دُجَى الأَسْحَارِ
مُتَمَسِّكاً بِطَرِيقَةٍ عَلَوِيَّةٍ نُقِلَتْ إلى الأخيَارِ مِن أَخْيَارِ
فَبِحَقِّهِمْ يَارَبِّ فَاسْمَعْ دَعْوَتِي وَاغْفِرْ ذُنُوبِي وَاعْفُ عَنْ أَضْرَارِي
بِأَمِينِ ذِكْرِ الله قَدْ أَرْسَلْتَهُ بِالذِّكْرِ لِلْمُخْتَارِ وَالأَنْوَارِ
فَحَبَا بِهِ أَصْحَابَهُ لَكِنَّهُ قَدْ خَصَّ بِالتَّلْقِينِ لِلْكَرَّارِ
فَعَلى عَلِيٍّ المرتَضَى كَأْسُ الرِّضَا دَارَتْ فَأَمْسَى كَالهزبرِ الضَّارِي
فَجَلا كُؤُوسَ الذِّكْرِ لِلْحَسَنِ الذِي يُنْمَى إلى البَصري في الأمصَارِ
فَحَسَا لِذَاكَ الكَأسَ ثُمَّ حَبَا بِهِ العَجمِي حَبِيباً نِعْمَ بَدْرٌ سَارِي
فَمَلا حَبِيبٌ كَأسَهُ فَحَبَا بِها دَاوُدَ طَيٍّ نِعْمَ ذَاكَ الجَارِي
فَجَلاهُ دَاوُدُ لمعْرُوفِ الذِي أَسْرَى سَرِياً فَالجُنَيدِ العَارِي

مِـنْ كُلِّ عَيـبٍ فَاخْتَسَـاهُ رُوَيمُهُـم ... نِعْـمَ الرِّجـال مُقِيمهـم وَالسَّـارِي
فَجَـلا رُويـمُ الـكَأسَ ثُـمَّ أَدَارَهُ ... لِفَتَـىً كَرِيـمٍ مَاجِـدٍ مِغْـوَارِ
أَعْنِي فَتَى سندُوسَ ذِي الفَضْلِ الذِي ... هَجَـرَ المضاجِـعَ في دُجَـى الأسحَارِ
فَأَدَارَهَـا هَـذَا لأكـرَم قُرمُـزٍ ... وَسَـقَى القُرمُـزِيْ للفَتَـى النَّجَّـارِ
وَأَبُـو سَـعِيدٍ قَـدْ أَمَـدَّ بِكَأسِـهِ ... الطَّيِّـبَ المشـهُورَ ذَا الأسْرَارِ
وَالطَّيِّـبُ المعنِـي أَبُـو مَنْصُورِهِـم ... أَهْـدَى إلى المنصُـورِ ذِكْـرَى الـدَّارِ
فَغَـدَا إذاً يُدعَـى بِسَـيِّدٍ عـارِفٍ ... بَـلْ مَعـدِنِ الأسْرَارِ وَالأنْـوَارِ
ثُـمَّ انْتَهَـتْ مِنـهُ لأحـمَدٍ الـذِي ... ذَلَّـتْ لَـهُ الآسَـادُ في الأزْوَارِ
أعْنِـي بِـهِ ابـنَ الرِّفَاعِـيْ أحـمَداً ... قُطْـبَ الوُجُـودِ التَّابِـعَ الآثـارِ
وَلَـهُ طَرِيـقٌ مِـنْ جُنَيـدٍ شِـبْلِهِم ... فَالعَجمِـيْ ثُـمَّ عَـلِيِّ البَـاري
فَـأبي غُـلامٍ وابـنِ كَامِـخِ الـذِي ... أَهْـدَى كُؤُوساً لِعَـلِيْ بـنِ القَـارِي
فَمَـلا عَـلِيٌّ كَأْسَـهُ بالذِّكْـرِ للمَـولى ... الجَلِيـلِ الصَّـارِمِ البَتَّـارِ
ابـنِ الرِّفاعِـيْ أحمـدٍ بَحْـرِ النَّـدَى ... جَـالي الصَّـدَى مِـن بَحـرِهِ المـدرَارِ
فَبِحَالِـهِ بَـرَدَ الحدِيـدُ وَرُدَّ عَـنْ ... صَـدْرِ المريـد وَمَـا بِـهِ مِـن عَـارِ

ثم قال سيدنا عبد الله رضي الله عنه : « ما يصح لأحدٍ عندنا قَدمٌ في زُهدٍ أو عبادةٍ أو فقرٍ أو غير ذلك أصلاً ، حتى يرمي بالدنيا خلف ظهره بالكلية ، صادقاً في ذلك . وأهل هذا الزمان لا يلازم أحدهم أحداً من أهل الصدق والدين ، إلا لطلب أن تحصل له الدنيا التي قد حذف بها وألقاها خلفه ، وقَلَّ أن يَصْدُق أحَدٌ منهم في ذلك » ھ .

أقولُ : قوله : « **حتى يرمي بالدنيا خلف ظهره** » ، هو كناية عن خُلُوِّ قلبه ويده منها ، فإذا كان كذلك فقد رمى بها خلفه ، وهذا شرطٌ عزيزٌ نادرٌ جدًّا ، قَلَّ أن يوجَد على وجهه في هذا الزمان ، وهو فيه كالمحال متعذر فيه جداً ، إلا إن كان في الغيب أحدٌ على هذا الوصف ، لا يطلع عليه الخلق ، مستور عنهم برداء الغيرة ، إذ لا مجال في وجود أمرٍ أراده الله ، ولو استعد في العادة واستنكر وجوده ، وإنما المحال وجوده ما لم يرده سبحانه .

وهذا يدل على عزِّ طريقة سيدنا وعظيم سيرته ، حيث أن هذا الأمر المتعذِّر اليوم شرطٌ فيها لا بُدَّ منه ، والمتعين عندهم فقدها من القلب وخلوه منها ، فإن وافقه خلو اليد منها أيضاً فهو الكمال ، كما قال ذلك في المقالة المتقدمة التي أولها : « **لا نفعل شيئاً من أمور الدنيا إلا عند الحاجة الحاضرة إليها ، ولا تقل : ربما تدعو إليه حاجة ، فحاجة الدين والآخرة أهم من هذا** » ، فتأمَّل في تلك المقالة وأمعِن نظرك فيها ، ليتحقَّق لك إنَّما ذَكَر فيها إنما هو وصف النبي ﷺ وسيرته ، لا يقدر عليه إلا هو ، لكن من نال مقام القطبية من أمته ربما قاربه في ذلك الوصف المذكور فيها .

وإذا خلا القلب من الدنيا ، وكان منها في اليد شيء فلا يضرُّه ذلك ، فإنه حينئذ ما يكون إلا حلالاً وبنيةٍ صالحةٍ وعملٍ صالحٍ فيه ، وأما إذا كان في القلب لها محل فلا يكون ما في اليد منها اليوم إلا خبيثاً، ولا يكون التصرف بها إلاَّ شرًّا ، أقله اتباع شهوات النفس ولو من حلال ، ومع ذلك يعسر التقيد به عند القدرة ، فإن في الحديث : « أفضل العصمة أن لا تقدر » ، وأما مع القدرة فتقل العصمة .

وقد وقع في القلوب اليوم ما هو من أكبر علامات الساعة الموعود بها : البخل الشديد والشح المفرط المانع من أداء الحقوق الواجبات ، كالزكوات فضلاً عن المندوبات من البِرِّ والصِّلات ، لا أقول الأشرار فقط بل الأخيار أيضاً ، فللأخيار هذا الزمان من ذلك النصيب الأكثر ، والقسم الأوفر إلا من شاء الله ، فما بالك بغيرهم . فالزهد الحقيقي اليوم اسمٌ على غير مسمى ، كبيض الأنوق وعنقاء مغرب يُذْكَرا ولا يُوجَدَا ، وربما ادعى الزهد بعض الناس كذباً وزوراً ، ودعوى باطلة وبهتان عظيم ، وربما مع ذلك يأكل الحرام ، فهذا يكذِّب دعواه ، فإن الزاهد من زَهِدَ في الحلال وتركه لله ، فأين آكل الحرام هو من ذاك ؟

فارْمِ ببصر بصيرتك في ميدان فِكْرِكَ في جهات الأرض ، هل ترى غالب من هو منسوبٌ إلى العلم والعبادة والصلاح إلا من بذل أمور دينه في حصول أمور دنياه ، أو مستعيض بعباداته وما ينفعه في معاده ما ينفعه في دنياه من أمور معاشه ، ومع ذلك يغره الشيطان ويُمَنِّيه أن أجرك على عباداتك ، ولو أخذت عليها منافع دنياوية ، أن ذلك مُدَّخَرٌ لك عند ربك ، ويزيِّن له أن يبتدع في الدين ما ليس فيه بأن يأخذ على عملٍ واحدٍ جزائين ، جزاء في الدنيا من عند الخلق ، وجزاء في الآخرة من عند الله ، وما سُمِع قط هذا في الشرع ، وإنما الذي جاء في الشرع أنك مهما رجوت بعملك المخلوقين ولاحظتهم به أنه لا أجر لك عليه عند الله ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، فمهما رجوت على عملك من الله وأشركتَ مع رجائك منه رجاءك من المخلوقين فيما هو من أعمال الآخرة ، فليس هو على ما شرط عملاً صالحاً ، فلا شيء لك فيها ، أما سمعت قوله سبحانه في الحديث القدسي : « إذا عمل لي عبدي عملاً وأشرك معي فيه غيري فنصيبي لشريكي ، ولا أقبل إلا

العمل الخالص » .

فهذه الأمور من بيع العبادات لتحصيل المعاش ، من البدع القبيحة التي حدثت بعد القرون الثلاثة ، واستُنكِرت في ابتدائها ، ثم ألفت واستمر العمل بلا نُكْرٍ ، ثم تمادت حتى صار النكير على من أنكر ، وهذه من العجب ، بل لو فعل أحدٌ هذا الفعل في تلك القرون الفاضلة لعدّوه من شرار المنافقين، وأي شَرٍّ أَشَرّ ممن ينكر عبادةً أمرك الله أن تتقرب بها إليه ، بمعيشتك التي هي من جملة رزقك الذي ضَمِنَه لك ربك ، وأي نقصٍ في الدين أعظم من هذا .

فلا تغتر بسعة الدين وتقول : هذا ما أفتى العلماء بحرمته ، فإن دين الله إنما خاطب به عامة الخلق على حسب أحوالهم ، وأما الخواص فلهم شأنٌ آخر ، فيكفيك في المَثَل المضروب للفرق بينهم ، أن الخواص في عِلِّيِّين ، يراهم القاصر كما يرى أهل الدنيا الكوكب في جوِّ السماء ، أنهم يضيء لهم نورٌ من أعلى يضيء به منازلهم ، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فيقولون ما هذا النور ؟ هل تجلى ربنا ؟ فيجيبهم مجيبٌ من أعلى : « إنما هذا نور حورية ضحكت في وجه زوجها » . فافهم ولا ترض بالدون في أمر دينك ، وأنت تقدر على الأعلى ، فالمغبون من غبن نفسه وهو يقدر .

وقال سيدنا في كتابٍ كَتَبَهُ لِرَجُلٍ من السادة ، يوصيه بالحزم في أمور دينه *قال له* : « **وكلامنا هذا يتوجه عليك ، إن كنت تحب أن تلحق برجال الله ، وإن اخترت أن تكون في عامة المسلمين وأوساطهم، فالحق واسع . فاحفظ منا الوصية ، وتمسَّك بها . وطالما التمستها مِنَّا ، فلم يسمح بها الوقت إلا الآن ، وهي وصيتنا لأنفسنا وجميع إخواننا** » ، فنهاه فيها عن التأويلات واتباع الرخص .

فأنَّى لهذا المبتدع ما ادعاه ، وحاشاه من ذلك حاشاه ، فالمغرور الخبيث لمَّا رأى التلبيس يغيِّر على الخلق ، جعل يلبِّس في دين الله ، فإن التلبيس في الدنيا يجري كثيراً وهي محله حيث للخلق فيها مدخل، وللأسباب فيها آثار ، وأما إذا كان يوم الدين، ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾، فلا يمكن هنالك التلبيس ، ولو لا أن كلمة التوحيد - نفعنا الله بها في الدارين وكتب الله وختم النفع بها لمن قالها في الدنيا والآخرة، وكتب لمن أراد أن يموت عليها، أن لا يخلَّد في العذاب - لرأيت من مات على تلك البدعة الخبيثة أن يكون في الدرك الأسفل من النار . ولكن كما نفعت المنافقين في الدنيا بالسلامة من القتل وسبي الذراري وأخذ الأموال المذكورة ، ولو ماتوا عليها لنفعتهم أيضاً هناك ، ولكن من كُتِبَ له المات عليها انتفع ، ولو بالسلامة من النار ، ولو لم تحصل له جزاء ما عمل لله ، وأشرك معه فيه رجاء الخلق .

فلو نظرت إلى جميع أقطار الأرض فلا ترى اليوم ممن يظن به الدين والمروءة ، وتختبر حاله إلا وجدته من الشحِّ والبخل ، وقلة الصدق وعدم المروءة على حالة يعض منها على الإصبع ، كما قال

بعض العرب : « ما من أحد من الناس إلا هو أَبْلِهِ تَقْلِهِ » ، يعني ما من أحد ولو أحسنت ظنك فيه إلا إذا اختبرته ، رأيت فيه ما يبغضه عندك ، فإذا اطلعتَ عليه وعرفتَ حاله ، تأسَّفتَ على ذلك ، ووَدَدْتَ أن كان بقي قلبك سليماً من جانبه من إساءة الظن ، إذ لا يمكنك ذلك بعد العيان ، إلا إن كان الله أعان. فإذا عرفتَ حاله رأيته في محبة الدنيا قد خلع العذار وهدم الجدار ، واطَّرح المروءة بل التقوى وراء ظهره ، ولم يبل باللوم والعار من فرط محبتها ، ويقيم لنفسه الأعذار في أخذ الحرام وأكله ، فضلاً عن الحلال ، وربما مع ذلك يدعي الزهد ، وإن الدنيا في قلبه لا في يده ، وليته لم يدَّعه لأن حاله هذا يكذبه ويفضحه ، والستر أولى له من الفضيحة بتلك الدعوى القبيحة .

فتراهم قد اضطرهم الطمع لقلة الديانة والحياء وعدم المروءة ، حتى باعوا دينهم وعباداتهم بمعايشهم ، بل بمجرد طمع ولو هو غنيٌّ ذو مال ، وذهب منهم في طلبها وتمنِّيها والتلهُّف عليها دينهم ومروءاتهم ، وصارت أموالهم أعز عليهم من دينهم وأعراضهم ، وصارت الدنيا أكبر همهم في ليلهم ونهارهم ، ومبلغ علمهم ومطمح نظرهم ، لا أقول الأنذال والأشرار بل الأجواد والأخيار، ولو عملوا أعمالاً ظاهرها العبادة كالزيارة والعيادة ، فباطنها والباعث لهم عليها استجلاب الدنيا ومحبتها والزيادة ، كسلام ومحاياة وغير ذلك مما لا يحصى كثره . فنعوذ بالله من أحوالنا هذه أهل الزمان ما أبعدها من الحق والصواب والصدق مع الله .

انظر قوله : « **وأهل الزمان لا يلازِم أحدُهم أحداً من أهل الصدق والدين إلا لطلب أن تحصل له الدنيا التي قد حذف بها خلف ظهره** » ، وهو لفظٌ عامٌّ لكل من شمله الزمان ، مع أنه لا يلازم المذكورين إلا من ظاهره الدين وسلوك طريق الصادقين ، وتجنب سبيل المفسدين والمخلطين فكيف بغيرهم ، فخذه دليلاً على ما ذَكَرْناه ، ثم إنهم - أي الملازمين - مع هذه الأحوال الرَّدِيَّة والهِمَم السُّفلية، ربما ادَّعى أحدهم بسبب ملازمته لهم أنه على أكمل حالة .

وسيدنا عالم بأحوالهم وبما هم عليه منطوون ، وبه عاملون ، فأيَّسهم من دعواهم هذه ، وشَرَطَ على من طلب الكمال بقوله : « **ما يصح لأحدٍ عندنا قدمٌ في زهدٍ وعبادةٍ أو فقرٍ ، حتى يرمي بالدنيا خلف ظهره .. إلخ** » ، أي يخرجها من قلبه ويده ، وذلك بعناية من الله ، لا باختيار العبد . فكأن مراد سيدنا : أنه لا يصح لأحد قدم عندنا أهل هذا الفن في المذكورات - أي نعده كاملاً فيها - حتى يمنّ الله عليه بعزوف نفسه عن الدنيا ، ثم يخلي يده منها ثم يكمل له مقام التوكل عليه والإلتجاء في كل أموره ، فقلبه إليه ، فحينئذ يصح عندنا له القدم في ذلك .

فَلْيَزِنُوا أنفسهم بهذا الميزان ، وليستبينوا حالها في هذا الميدان ، ليتَبَيَّنَ لهم شأنها على أيِّ شأن من كمالٍ أو نقصان ، أو توفيقٍ أو خذلان ، فإن كان على الكمال قيل له : أنت فلان ، وعلى النقص قيل : يا

أخس إنسان . فإذا وزنوها بذلك ففي الحال يتبين لهم كذبهم وبطلان دعاويهم ، وهم على هذا الحال ، فإن اعتقدوا بعد ذلك نقصهم وسوء أحوالهم - أعني يعتقد كلٌّ منهم ذلك في نفسه لا في غيره - فهو على خير ، وإن ادعى الكمال لنفسه فهو على شر ، سيما إن ادعى كمال نفسه ونقص غيره ، فأحسن ظنه في نفسه ، وأساء الظن بغيره ، فبَشِّرْهُ بأنه مخذول ، وليس له من سعيه محصول .

وفي الزمان من هذا الوصف كثير وهم أشر شرار الوقت ، ولو زعموا أنهم خيار الوقت وشهدوا لأنفسهم بذلك ، ولو انخذل بعض الناس وشهد لهم معهم .

وسيأتي قوله : « **من قال : أنا شيء ، وهو صادق قيل له : لستَ بشيء ، ومن قال: أنا لستُ بشيء ، وهو صادق قيل له : أنت شيء** » ، أو كما قال . فانظر كيف أخرج الأول من الشيء رؤيته لنفسه لتكبره، وأدخل الثاني في الشيء لعدم رؤيته لنفسه وتواضعه ، لتعلم أن النفس هي المانعة لكل خير ، والجالبة لكل شر ، وسيأتي قوله : « **يعني من أراد أن يوصله إليه منع منه نفسه بأيِّ مانعٍ أراد ، ومن أراد أن يمنعه عنه سلَّط عليه نفسه** » هـ .

قال رضي الله عنه : « **قاعدة ، ما يكون شيخ الإنسان إلا من اجتمع قلبه عليه ، حتى لا يرى أن أحداً أفضل منه ، فذاك هو الذي ينتفع به** » هـ .

أقول : يؤيد قول سيدنا هذا ما سمعت غير مرة من السيد الفاضل الحبيب أحمد بن عمر الهندوان رحمه الله يقول بمعنى ذلك ، وهو أنه قال : « إذا اعتقدت في إنسان أنه أفضل أهل زمانه ، ولكن انظر أن لا يكون اعتقادك لهوى ، فإن كان خالصاً لوجه الله ، فهو شيخك الذي تَصِل إلى الله على يديه ، ولو كان أجهل خلق الله »، هذا لفظه بحروفه ومعناه . فانظر عظم نفع الإعتقاد بشهادة هذين الشيخين، الكامِلَيْن العارِفَيْن بالله المطَّلِعَيْن على معنى ما قالا ، وعبَّرا عنه بذلك اللفظ ، شاهِدَا عَدْلٍ لا يزاحم شهادتهما شهادة أحدٍ غيرهما . وبقدر ما يعظم في الدارين من نفع الإعتقاد يكون ضرر الإنتقاد في الدنيا والآخرة أيضاً ، ومع عدمهما لا نفع ولا ضرر .

ويؤيِّد قول سيدنا وقول السيد أحمد أيضاً ، ما ذكر الشيخ ابن عربي في « رسالة القدس في مناصحة النفس » ، أن عمّاً له وعدَّه من مشائخه ، دخل هذه الطريقة ، وهو ابن ثمانين سنة ، على يد صبيٍّ صغيرٍ ، لم يَدْرِ قط هذا الطريق . قال : فكان عمه كل يوم يقرأ ختمة لازمة من القرآن ، ويهدي نصف الختمة لذلك الصبي الذي رجع على يديه ، بَصَّرَهُ ذلك الصبي بالطريق ، والصبي الصغير من أين يعرف الطريق ؟ لكن ربما سمع منه كلمة وافقت وقتاً من أوقات النفحات التي قال النبي ﷺ :

« إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها » . فلما وافقت تلك الكلمة وقت النفحة ، ووقت أراد الله له الهداية فيه كما قدَّره الله يوم قضاه ، ففتح الله قلبه لتلك الكلمة ، وألقى في قلبه منها معنى جعله سبباً لإقبال قلبه عليه والإنقطاع إليه . كما وقع للبهلول المسمى بابن عروس ، وكان قاطع طريق، فغار مع أصحاب له على جماعةٍ سائرين ، فيهم رجل تزوج في بلدٍ وسار بعروسه إلى بلده ، فلقيهم ابن عروس مع أصحابه ، فأخذوهم وتقاسموا ما أخذوا ، فصار سهم ابن عروس المرأة مع جَمَلِها التي هي عليه وما عليه ، فكلٌّ سار بسهمه، وجعل ابن عروس يسوق بجمل المرأة سائراً به إلى منزله ، فبقي الجمل يرعى من الكلأ النابت على الندى ، فسمعها تقول :

سِرْ يَا جَمَلَ الهنا وَلَا تَرْعَى النَّدَى   اليَـوم دُنيـا وَالملتَقـى غَـدَا

فأخذت الكلمة بمجامع قلبه ، فترك الجمل وما عليه ، وصعد الجبل ، وهام على وجهه وجذب، فأنشأ قصيدته التي يقول فيها : « أنا مالي فياش آش عليا مني » ، ومِثل هذا وقع لكثير من الصالحين، جذبهم إليه من الردى ، وسلك بهم سبيل الهدى ، في الوقت الذي أراد ، فلعل عمَّ الشيخ ابن عربي سمع من ذلك الصبي كلمة وافقت ، كما وافقت كلمة هذه المرأة .

وذُكِرَ أن الفضيل ابن عياض كان أيضاً قاطع طريق تخافه القوافل ، ويتحاذرون منه فسمع يوماً قارئاً يقرأ هـذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾الآية ، فألقى الله في قلبه منها ما أزعجه ، فصرخ وصاح وقال : « بلى آن » ، فتاب ورجع إلى طريق الله .

فهكذا صورة النفحة التي يرسلها الله إلى القلوب إذا أراد هدايتها وحضر وقتها ويظهر لها المعنى المزعج من الألفاظ في الأوقات المؤقتة لها ، بحكم القضاء والقدر وربما نظر فيها قبل ذلك تلك الألفاظ كثير مرات فلا تحركها في غير وقتها ، فلما صادفت وقتها أزعجتها كل الإزعاج ، فهكذا فافهم كما قال فيما سيأتي ذِكْره : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » ، فإن كثيراً ما تكون الأسباب فلا يحصل مقصودها ، فإذا وافقت وقته حصل كما ترى في هذه المذكورات ، فربما سمع الفضيل تلك الكلمة فلا تأثر بها حتى سمعها في الوقت المؤقت لذلك ، فأثرت معه حينئذ .

قال ابن عربي : « ومن كراماته - يعني عمه المذكور - أنه كان أعمى ويعرف أوقات الصلوات كلها من نفسه ، من غير ما يعلمه أحد ، فكان يجلس في البيت في محل مظلم ويقول : قد طلع الفجر. فسألته : من أين تعرف ذلك ؟ وكان في دار ظلماء . فقال : يا بني ، إن الله يوجد ريحاً من تحت العرش تهب في الجنة ، فتخرج بريحها عند طلوع الفجر ، فيشمها كل مؤمن في كل يوم» ، يعني المؤمن الكامل الإيمان ، وهو الذي يطلق عليه وصف الإيمان في الكتاب والسنة ، حيث ذكر فيهما

كما قدمنا، لا كل مؤمن ، فإن المؤمن إيماناً كاملاً هو من اتصف في ظاهره بكمال أفعال الإسلام ، وفي باطنه بكمال أوصاف الإيمان ، وهو الذي وصفه الله تعالى بقوله :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، فأولئك الذين يشمون تلك الريح الطيبة ، لا ذوو الإيمان الناقص ، وهو من خَلِيَ عن تلك الأوصاف الشريفة الباطنة ، ولا كَمُلَ في الظاهرة ، وإلا لكان يشمها عامة الناس ممن يقول : لا إله إلا الله ، ولا يحتاجون إلى التعريف بالفجر ، إذ هو أشد الأوقات اشتباهاً، وأشقها معرفة ، سيما مع قوة الغيم وضوء القمر .

ولا رأيت أحداً أعرف بمعرفة أوقات الصلوات من سيدنا عبدالله نفع الله به ، سيما الفجر مع ثقل الغيم وقوة ضوء القمر ، فيشتبه ذلك على البصراء ولا يشتبه عليه ، وما ذاك إلا لِشَمِّهِ تلك الريح الشريفة ، حتى إنا إذا حِرْنا في معرفة الفجر يقول لنا : « إنه فجر ، فاركعوا » ، يعني صلوا السنة ، فنصليها فما نفرغ منها إلا وقد اتضح الوقت ، وقد صلاها هو قبل ذلك بزمان وجلس ينتظر إعلام الجماعة له بذلك ، فإذا استبطأهم أعلمهم هو بالوقت . وكان هذه عادته يصليها في الغيلة ، ثم ينزل إلى الضيقة يقرأ الأذكار التي بعدها فيما يأتيه عكيمان خادمه يخبره أن الجماعة قد فرغوا من ذلك ، ثم يدخل ، فتقام الصلاة فيتقدم لها . وهذه عادته دائماً اقتداء بالنبي ﷺ ، كما هي عادته يصلي السنة ثم يجلس ينتظر حتى يأتيه بلال يؤذنه للصلاة ، وكان يخفف فيها جدًّا حتى قالت عائشة : « إني لأقول هل قرأ فيها بأم القرآن » ، وكذلك عادة سيدنا تخفيفها هـ .

قال رضي الله عنه : « **ومن كان منتفعاً في العلم الظاهر والعمل إذا أذن الله له في الفتوح ، ما يكون إلا على يد رجلٍ كامل ، كما في قصة السيد يوسف الفاسي ، وكان كاملاً في العلم الظاهر والعمل ، فجاء إلى الشيخ أبي بكر بن سالم ، فأخذ عنه وفتح له على يديه ، ولم يجتمع به في هذه المدة إلا نحو مرتين أو ثلاث** » هـ .

أقول : وللسيد يوسف في قصة وصوله إلى الشيخ أبي بكر بن سالم كلامٌ كثيرٌ وأخبارٌ تطول ، وله في ذلك رحلة في مجلد ضخم ، استعرتها من ابن ابنه السيد يوسف بن محمد بن السيد يوسف الفاسي ، ولخصت حاصلها كما ذَكَر في رحلته ، قال : إن الشيخ أبابكر كان يذكرني لأصحابه كثيراً ويقول لهم : « أنا موعودٌ برجلٍ يأتيني من المغرب ، وهو رجلٌ شريفٌ حسني ، يقرأ في مدينة فاس ، اسمه يوسف لا تبلعني الأرض حتى يأتيني » ، حتى إنهم كلما جاء إلى الشيخ رجلٌ غريبٌ قالوا: « لعله هو الذي يذكره » .

وكنت من أهل مدينة أنقاد من بلاد المغرب ، بينها وبين فاس ثلاثة أيام ، وكان ميلادي سنة خمس أو سنة ست وستين من القرن العاشر ، ومات والدي سنة ٧٥ من القرن العاشر ، وعشت بين أبوي عشر سنين ، ثم مات أبي ، ثم جئت إلى مدينة فاس وأنا ابن ٢١ سنة ، فجعلت أقرأ فيها القرآن بالقراءات السبع ، وبقيت أتردد إليها ، وسُمِّيتُ بالفاسي لكثرة ترددي إلى فاس ، وكنت من قبيلة من الأدارسة يقال لهم : « آل أبي الوكيل » ، فكنت أقرأ ، فما دريت بنفسي في بعض الأيام إلا وكأن أحداً أخذ قلبي من بين جوانحي ، وثقل لساني من غير مرض ، وجئت أقرأ على عادتي، فما قدرت أحرك لساني ، فعلم شيخي المقري أحمد القناوي أن هذا أمرٌ سماوي ، فصبَّرني وقال : « لك في هذا خير » ، وزاد بي الألم في باطني ، حتى خفت من الجذب ، وحصل معي خفة ، حتى إني كلما كلمت أحداً بكيت بعبرة .

فأردت السفر إلى بلد الشيخ أبي الطيب ، فسافرت ومررت في طريقي بمدينة مكناس ، وفيها رجلٌ مجذوب يقال له : يوسف الدادسي ، وكان له مكاشفات وتصرفات ، ومن أراد شيئاً من الأمور جاء إليه ، وأمَّل له أملاً ونال مراده ، ورُمِيَ مرة في النار فخرج منها سالماً ، وكان يتكلم على الخواطر ، فلقيني هذا الشيخ يوسف في الطريق وقال لي – يعني ابتدأه بهذا الكلام منه بغير سؤالٍ منه له – قال له: « أراك أراك ، ما تقرأ ، هذا شيخٌ عَقَدَ لسانك ، وأخذ قلبك ، أراد يعطيك العلم اللدني، وهذا الشيخ الذي تريده ما هو صاحبك ، فارجع اقرأ إلى حين مجيء وقتك»، قلت: ما يعقد لساني عن القرآن إلا الشيطان . فقال : « العلم اللدني خير من العلم الذي يتعاطاه الناس في زماننا البَر والفاجر ، والعلم اللدني ما يخص الله به إلا من أحبه» – في مراجعة طويلة – وقال لي : « أنا وقع لي مثلك » .

واطمأنَّ باطني بكلامه ، ولا أحدٌ اطَّلع على هذا الأمر الذي ذَكَرَهُ لي غيره ، فعلمت أن كلامه حقٌّ، وفراسته ليست سدىً ، وكرَّر عليَّ عدم الإنتفاع بالشيخ الذي أنا أريد الوصول إليه ، ولا وقفتُ على كلامه – أي ما عملت به – وسرتُ قاصداً الشيخ أبا الطيب وزرته ، ثم رجعت ، فمررت بمدينة مكناس راجعاً ، فرآني يوسف المذكور فقال : « ما قلت لك ما لك عنده شيء ؟ اجلس اقرأ حتى يجيىء إليك ذلك الوقت » ، فقلت له : وأين هذا الشيخ الذي ذكرت لي أنه أخذ قلبي ؟ يريد يعطيني فيه العلم اللدني، فقال لي : « عادك تعرفه » ، فهان عليَّ الأمر وسكنت الطبيعة مع علمي بصِدْقِهِ فيما قال لي ، والنفس تفرح بما قيل لها ، فيما يأتي إليها في مستقبل الزمن ، فإذا أخبر الإنسان مخبر يمكن صدقه تطمئن إليه النفس .

وجلست في مكناس على حالتي الأولى ، إلا أنه انطلق لساني قليلاً ، إلى أن ختمت ختمة على القناوي أحمد المذكور نفع الله به ، وكان هذا سبب خروجي لطلب التفقه في الدين وحفظ القرآن على

أربابه ، حتى كتبت من صدري ختمتين من القرآن غيب على حرف نافع لورش ، وأرى لساني ثقل بسبب ما ذَكَرَهُ الشيخ يوسف الدادسي .

وكنت أتردد على الشيخ عبدالله الحجام في جبل يسمى « رزهون » ، وهو في قرية فيها قبور الأدارسة أجدادنا ، وهم ثلاثة : إدريس الأكبر ، والثاني ، وإدريس الأصغر . وهي محترمة من الملوك لأجْلِهِم، وكنت أتردد إلى زيارتهم ، وزيارة من في هذا الجبل من الأولياء ، منهم الشيخ عبدالله الحجام، ولنا معه منازلات بعدما دخلت في الطريقة ، وكان إذا قابلته يقول : ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مع أنه أمّي، لا يقرأ ولا يكتب ، وكان حجاماً ، وكان أستاذه الشيخ معروف في هذا الجبل ، فزرت قبره، وقال لنا الذين أدركوه : كان في آخر عمره حجمه الشيخ عبدالله وأراد أن يجعل الدم في الأرض، فانفتحت الأرض لتلتقي الدم ، فعرف ذلك وانكشف له حال الشيخ ، فشرب هو الدم . فقال له شيخه : « أخذتها يا عبدالله » .

فلما حضرت شيخه الوفاة سألوه عمن يكون نائباً عنه في أحواله وأقواله ، فقال لهم : « السر ما يدخل معنا القبر ، وهو يظهر لكم » ، فظهر مع الحجَّام هذا ، وبانت على يديه خوارق عادة ، وكان لا يزال صائماً الدهر لا يفطر إلا أيام الأعياد ، ولا له مال يملكه ، بل ما جاء لله صار لله ، وأقامه الله إقامة نَفْعٍ نَفَعَ الله به .

فذكرت للحجَّام مقالة الشيخ يوسف الدادسي ، فقال : « ارجع إليه ، وهو يدلك على صاحبك، وأما أنا فلا أقول لك ، إلا اتبع ريحك حيث سارت سِر معها » ، فجئت إلى الشيخ يوسف المذكور في مكان يعتكف فيه في مدينة مكناس ، بدلالة أحدٍ من تلك الجهة ، فدخلت عليه في مكانٍ مظلم ما نرى فيه اليد ، والمكان ضيق جدًّا ما يمكن الدخول عليه إلا حَبْواً ، إلى أن تصل إليه في مكانٍ واسع ، لكنه قدر ما تمد ظهرك فيه ، فذكرت له ما قال الحجام ، فما أعطاني خبراً مما قال لي أولاً ، وكلما سألته عن الذي قال لي أولاً من شيخٍ عَقَدَ لساني ، وأخَذَ قلبي أعرض عن ذلك .

فدخل علينا رجل في تلك المغارة ، فقال لي : « أتعرف هذا ؟ » ، فقلت : لا ، قال : « هذا الخضر جاء يزورني حيث أنا في هذه » ، فقال ذلك الرجل : « ما أنا الخضر » ، فدخل علينا ثاني ، فقال لي : « أتعرف هذا ؟ » ، قلت : لا ، قال : « هذا إلياس جاء يزورني مع الخضر » ، فقال ذلك الرجل : « ما أنا إلياس » ، ثم دخل علينا ثالث فقال : « أتعرف هذا ؟ » ، قلت : لا ، قال : « هذا روح الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ، جاء يزورني » ، فقال ذلك الرجل : « ما هو أنا » .

ثم عرج به كأنه ميت - يعني غشي عليه - ولا كلمني عما أردت بكلمة ، وكلما كلمته رأيته في عوالم ، إلى حد أني قرصته بأظفاري في فخذه فما حسَّ بذلك ، فبقي كالميت ملقى ، فخرج أولئك قبلي،

وبقيتُ بعدهم أتردد من جانبٍ إلى جانبٍ من ضِيْقِ المكان ، فحين خرجت سألت الناس : هل أحدٌ مَرَّ عليكم ؟ قالوا : « ما أحد دخل علينا ، ولا خرج من صِلا الشيخ » ، أي جانبه . فصدَّقت في نفسي بما قال لي . ثم بعد ذلك جاءني صاحبي - أي الذي ذَكَرَهُ لي في الحلم - أراه في الرؤيا مع ناس ، وتارة وحده ، وكلما رأيت هذا الشخص في النوم ازددت نشاطاً فيما أنا فيه من الجد والإجتهاد ، ولا أحد ذكر لي أين هذا الذي يطوف - أي يتردد - عليَّ في عالم الخيال ، ولا بَيَّن لي نفسه حتى أعرفه .

فقال لي الشيخ عبدالله الحجام : « سِر إلى قبر الشيخ عبدالسلام بن مشيش، لأنه أول طريقة الشاذلية على يديه ، وقم عند قبره حتى يتبيَّن لك صاحبك ، من هو وأين هو » ، فجئت إلى قبره ، وأقمت عنده نحو أربعة عشر يوماً في رأس جبل ، حيث قبره عند المغارة التي دخل عليه الشيخ أبو الحسن الشاذلي فيها ، وكذلك شيخه الذي كانت توالت أمداده إليه من المشرق في المداين ، وهو الشيخ عبدالرحمن الصغير المدايني رضي الله عنه ، كانت تسري إليه أمداده من حيث لا يدري ، إلى أن حضرت وفاة المدايني ، فحينئذ جاء هاتف من قِبَل الله إلى الشيخ عبدالسلام ، وعرَّفه بأن الأمداد التي كانت تجيء إليه من قبله ، وأقمتُ عند قبر الشيخ عبدالسلام هذه المدة ، وبانت لي أمداد وإشارات .

وفي هذا المكان التقيت مع الشيخ محمد بن علي بن رسيون - من ذرية الشيخ عبدالسلام بن مشيش- ونصَّبه بإشارته الشيخ الشريف عبدالله بن حسين ، ونشدني عن نسبي وقال لي بعد مراجعة، إلى أن ذكرت له أني من أولاد أبي الوكيل، فأخذ يذكر لي مناقب أبي الوكيل ، إلى أن قال لي : « ولا لأحد من عربنا أربعة قبور إلا هو » ، فقلت له : وما سبب ذلك ؟ قال : « كان محبوباً في تلك الجهة » .

وهي أرض قبائل - أي حملة سلاح - تغير في قرية قنبسة أهل قرية أخرى ، وعلم به أهل قرية أخرى فنبشوه، وعلم به أهل قرية رابعة فنبشوه ، وثارت بين أهل تلك القرى حرب على هذا السبب، وكان معه ولد له وخادم معه ، فقال لهم الخادم أو الولد : « انبشوا قبور الشيخ الأربعة ، لعل الله يرضيكم الجميع . فنبش كل أهل قرية القبر الذي عندهم ، فوجدوه في كل قبرٍ من القبور الأربعة » ، وقال لي : « هذه أكبر منقبة من مناقب الأشراف المدونة عندنا في المناقب » ، قال : « ونحن وإياكم أولاد عم ، جدنا وجدكم أحمد بن محمد بن الإمام إدريس الأكبر .. إلخ » ، والناس الحاضرون يسمعون منه ذلك .

ثم نزل من رأس الجبل بدرسته ، وبقيت أنا في رأس الجبل عند قبر الشيخ أياماً ، فجاءني رسولٌ من الشيخ محمد المذكور بخبزٍ وعسل ، وفاكهة من الفواكه الموجودة ذلك الزمان كالبرقوق ، ومعه ورقة جاء بها ، ومعه حامل رجل آخر فقال لي : « أنت يوسف أبو يعقوب ؟ » ، قلت : نعم . فناولني الورقة وفهمت ما فيها ، فقال حاملها : « وما المشار إليه عند القوم ؟ » ، قلت : اسم الجلالة ، أمرني

الشيخ بذِكْرِهِ كل يوم سبعين ألفاً ، وبالليل مثل ذلك ، ومن الصلاة على رسول الله ﷺ كذلك ، وإذا ورد عليك واردٌ فقل : « اللهم اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً»، إلى غير ذلك من أدعية الفرج . وبقيت أنا وهذا الرجل الذي جاء بالكتاب ، وبِتُّ أنا وإياه ، فقال : « صلِّ بنا المغرب » ، فلما سلَّمتُ وسلَّمَ التفت إليَّ وقال : « أنت لا بد ما يكون لك شأن ، ما لم تعجل على نفسك بالظهور قبل أوانه ، احذر تغتر بالجاه إذا أقْبَلَتْ عليك نفوس العوام وغيرهم ، فإن الفرخ إذا أراد الله فساده حين يدخل فيه روح الحياة ، يريد يخرج من البيضة قبل أوان ذلك فيفسد ، وإذا أراد الله تمامه سكن في البيضة سكوناً حتى يتم صلاحه بإذن الله تعالى ، وكذلك المريد إذا بانت عليه أنوار العبادة ، وأقبلت عليه نفوس أهل العقائد بما جبلت أنفسهم عليه من محبة الأولياء ، فيقطعونه عن مطلبه الذي هو غاية الكمال ومنتهى الآمال ، ونهاية سفر الإنسان إلى مولاه بالأعمال الصالحات ، ورجوعه من سفره من قرب ربه إلى المريدين بالأسرار والأنوار التي بها تصلح الإفادة لمن قصد الإنتفاع بالأولياء » .

ولا علمتُ من هو هذا الرجل إلى غدوة النهار ، فجاء إلى زيارة الشيخ قاضي البلاد ، وهو عالِمٌ كبيرٌ من ذرية الشيخ عبدالسلام بن مشيش ، ورأيته يعظم هذا الرجل ، فقلت له : من هذا يا سيدي ؟ قال : « هذا محمد بن سعيد المصمودي السياح » ، وكنت أسمع بذِكْرِهِ ، وتكلم القاضي بأحواله - أي ذِكْر مناقبه - وقال لي : « ودك من يتصل به » ، أي ينبغي أن يكون لك به اتِّحاد وصحبة ، لأن غالب وقته في سواحل البحر يتعبد ، وله إخوان في الله ، إلا أنه جاء زائراً قبر الشيخ .

فلما رجع القاضي إلى مكانه - أي رجع إلى بيته - تحاكيت أنا وإياه بكل ما كان مني ومنه ، بسبب دخوله في هذه الطريقة ، هل هو بالإختيار أم بالقهر والإضطرار ؟ فقَصَّ كُلٌّ مِنَّا على صاحبه قصته ، حيث كانت حالتنا قهرية ، فدعونا الله تعالى أنا وإياه عند قبر الشيخ أن يبلغ كل واحد منا مراده ، وأن يجمعنا وإياه عند قبر النبي ﷺ .

وافترقت أنا وإياه ، ونزلت أنا ، ثم بعد ما زرت شيخاً من الهبط من سواحل اسمه الشيخ منصور بن عبدالنعيم الهبطي ، بِتُّ عنده ليلة وطلبت منه الدعاء ، وقال : « ارجع إلى قبر الشيخ عبدالسلام حتى تأتيك الإشارة منه » ، فرجعت أيضاً وأقمت عنده أياماً ، حتى رأيت كأن خيَّالاً جاء إليَّ من صِلا القبر - أي ناحيته - وقال : « هرول هرول » ، فسقاني قدح لبن وهو على فرسه ، ثم نزلت من عند القبر، وقد أَلِفْتُ المكان والأنس الذي فيه حتى بكيت لمفارقته ، فكان هذا آخر عهدي بقبر الشيخ عبدالسلام إلى الآن .

فلما وصلْت إلى قرية الشيخ محمد بن علي بن رسيون بِتُّ عنده وقال : « صلِّ بنا المغرب » ، فأَبَيْتُ، فقال : « صلِّ بنا لأجل أبي الوكيل ، نتبارك بالصلاة وراء رجل من ذريته ، ولا تقل أنك أفضل منا » ،

فقلت له : نعم خفت أنا من ذلك .

فكان فيه مداعبة معي ، وتَنَزَّلَ معي غاية التَّنَزُّل مع صِغَرِ سني ، إلا إن الأولياء ينظرون بنور الله صدقاً ، أرباب التوجه إلى ربهم بقلوبهم وقوالبهم ، حتى إن أكثر المتمسكين بالدين من أهلي فيهم أمور من قلة العقيدة في الأولياء الظاهرين ونخوة منصبهم ورئاسة الجاه ، فلما رأوا حالي مع أرباب أهل الصلاح ، وشافوا حالي يزيد بنظر الأولياء إليَّ انقادوا للحق ، حتى كنت لهم سبباً في ذلك .

وَذَكَرَ شيخاً كبيراً عالماً بالظاهر والباطن ، اسمه الشيخ محمد بن عبدالله الهبطي وهو خزانة الغيب في ذا الزمان ، بما ذَكَرَهُ له الشيخ محمد بن رسيون ، وكان - أي محمد بن رسيون - يجابرني كثيراً ، وينظر حالي ، حتى إني من تَنَزُّلِهِ معي ذَكَرْتُ له شيئاً من النُّسَخ التي تتضمن شيئاً من الأكاسير ، فتصفَّحَها أياماً وأنا مقيم عنده في أماكنهم من جبال غمارة ، فلما تصفحها قال لي : « هذه نسخة صحيحة ، إلا إننا ظننا فيك أن تكون بدك إكسيراً كفلان - وذكر الشيخ محمد بن عبدالله الهبطي المذكور كان إذا احتاج لشيء من الذي لا بد منه ، دخل مكانه الذي يتعبد فيه ، وحَمَّى حديدة أو غيرها ، ويلقيها في الماء القراح ويقول : بحقي عليك يا رب إلا ما جعلته لي كذا وكذا ، فينفعل له ذلك - وأنت نظن فيك هذا وأكثر من هذا » ، فتركتُ ذلك العلم ، وجعلت تلك النسخة في ماء جار ، وجعلت عليها حجارةً كبيرةً فيه، وهي كراريس ، فعدت إليها بعد زمان فوجدت كتابتها على حالها لم يغيرها الماء .

وإنما تفرَّس فيَّ الشيخ محمد المذكور لأني كنت ملازماً شيخاً من بلاد تسمى دمنات وراء نهر أم ربيع ، وجدته في مدينة مكناس فلازمته ، وكان حكيماً مقرئاً زاهداً ، وكان يساررني بأسرار ، ويحكي لي بأبواب ما أدريها من هذا الفن ، وربما تكون النسخة المذكورة مما ناولنيه ، فلهذا زهَّدني فيها ، وأشار إلى قلب الأعيان من الله لأوليائه من غير عقاقير التي في كتب أرباب هذا الفن - والهبط اسم لجهة على ساحل البحر غربي مدينة فاس وجبال غمارة - فلما تركت هذا العلم الذي كنت اشتغلت به ، وتعلقت بطريقة أهل الله والعبادة من عقد لساني وفقد باطني وقال لي الدادسي ما قال ، أي بسبب ذلك . ثم ظهرت لنا ملازمة زيارة الأولياء الأحياء والأموات ، وظهرت فيَّ بركة صحبتي لهم ، وسَرَتْ فينا سرايا منهم ظاهرة .

ودخلتُ بلاد غمارة ، وجئت إلى الشيخ أحمد الفلالي ، فلما دخلت عليه تبسم في وجهي وقال لي : « أنت من أصحابنا ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « الزم الباب » .

وقال بعض أرحامي للشيخ الهبطي : يا سيدي ، نريد منك تشير على فلان يرجع إلى ما كان عليه من تحصيل العلم الذي يعود نفعه عليه وعلى غيره ، فإذا حصل ما تقوم به الحاجة يرجع إلى بلاد آبائه ينفع الله به غيره ، لأن والده كان كبيراً لنا . فقال الشيخ : « كيف كان حاله في حال صغره ؟ » ، فذكروا

له الحال إلى وقت سفري ، يطلب ما ذُكِرَ على ما تقدم ذِكْره ، ثم خرج من تلك الحالة إلى هذه الحالة، فقال لهم : « ما يعترض على هذا حيث حاله على ما ذكرتم ، فإن الله أرشده إلى ما يحبه ويرضاه » . فلهذا سكتوا عني . وكنت أتردد في هذه الجهات - جهات جبال غمارة الهبط - على من كان فيها من الأولياء الأحياء والأموات ، منهم الشيخ عبدالسلام بن مشيش ، والحاج الشطيبي ، والشيخ عبدالوارث ، والشيخ الحزوي وغيرهم ، وما واحد منهم إلا رأينا منه إشارة .

نمت مرة عند قبر ولي من هذه الجهة بعد قراءة ختمة قرآن ، وقد سألت الله أن يريني هذا الرجل الذي يطوف علي ، وكان ذلك المكان خالياً من الناس ، فرأيت كأن رجلاً يضرب الزمر - الناي الرطب - وأنا على يمينه ، وأنا وإياه متوجهين إلى المشرق ، وأنا معي دف ، والذي يقابلني متوجه إلى المغرب ، ومعه أيضاً دف مثلي، في حركة قوية كلٌّ مِنَّا بجهده فيما هو من الهمة ، وصاحب الزمر كذلك، إلى أن غاب بالوجد ، وسقط على شقه الأيسر ، وترك المزمار على شقه الأيمن ، وبقيت وصاحبي في ضرب دفوفنا إلى أن انتبهت .

وجئت إلى الشيخ محمد بن عبدالله الهبطي وذكرت له الرؤيا فقال : « هذه إن شاء الله حال لا يدرك ، تنال درجته على يدي إن شاء الله » ، لأنه كان في ذلك الزمان عالم الوقت في المغرب ، وذكر مزامير دواود عليه السلام ، وقول النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري : « لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود».

ومن الأحياء في هذه الجهة محمد بن علي بن ريسون ، وكان في بادية يسمون : « عريب » ، وراء وادي دراء بنحو عشر مراحل . وذكرت له كلام الدادسي ، وأني دخلت فاس ومكناس في طلبه ، فقال لي : « لا بد لك تلقاه ، ولو لم يبق من عمرك إلا يوم واحد ، لا بد لك تصافحه بيدك هذه » . يعني الذي يطوف عليه ، فأخذته منه إشارة على قصد كلامه عندي أني ألقاه .

وكذلك في هذه الجهة الشيخ محمد أبوشتاء ، ولنا معه منازلات ، سُمِّيَ بذلك لأن الشتاء بلغة أهل المغرب اسم للمطر ، فإذا احتاجوا للمطر جاؤوا لهذا الشيخ وأعطوه أَمَلاً ، وقالوا : نريد الشتاء. فيحصل لهم ، فَسُمِّيَ أبو شتاء ، أي أبو المطر .

وممن أخذت عنه أيضاً الشيخ عبدالله ابن حسون السلاسي ، والشيخ عمر البطوي ، والشيخ موسى بن علي الرياحي ، والشيخ منصور بن عبد النعيم ، والولية الصالحة عائشة الهبطية ، وهؤلاء كلهم في جبال غمار وسواحل بحرها ، وكل هؤلاء أتاهم يظن كل واحد أنه صاحبه ، فإذا عرف أنه ليس هو ، أخذ عنه ، لا يترك تعبه بوصوله إليه بلا فائدة . وممن أخذت عنه أستاذي الشيخ أحمد بن حميدة الشظاظي ، قبيلة من البدو وأهل إبل وغنم وخيل، وفتح الله على هذا الشيخ ، وهو من أصحاب

الفتح عبدالله المحجوب ، عن الشيخ أحمد الملياني نسبة إلى بلد تسمى مليانة ، من أعمال المغرب الأدنى، عن الشيخ أحمد زروق .

وكان الشيخ أحمد بن حميدة المذكور صاحب تصرف بالأسماء وغيرها ، فتح الله عليه بسبب ذلك. وذكرت له أني متعلق باسم الجلالة : الله الله . أجرى الله ذكرها على لساني ، وسألته : كيف التعبد بهذا الاسم ؟ فأمرني بكيفية التعبد به ، وكم يكون وظيفة ذلك من الأعداد ، وكيفية الإستعداد من لباس ومكان ، ومن الروائح الطيبة اللائقة بأرباب الرياضات ، وكذلك الدعاء اللائق باسم الجلالة، فأرشدني إلى ما ذكرته له .

وتوجهت إلى مكانٍ خالٍ من العماير ، كان يتعبد فيه الأولياء القدماء ، مثل أبي يعزى وأبي مدين وغيرهم ، ويسمى الجبل الأخضر ، وكان طريقي على مدينة سلا ، على ساحل البحر غرب مدينة فاس مقبور فيها الحاج ابن عاشر ، شيخ الشيخ ابن عباد شارح الحكم ، وأمير المؤمنين يوسف بن يعقوب بن عبد المؤمن ، الذي خرج من المُلك وتجرَّد للعبادة ، وحكايته مشهورة وذكره اليافعي في « روض الرياحين » ، وزرت من في هذه المدينة من الأحياء والأموات ، وذلك في آخر صفر من سنة ٩٩٠ ، ثم توجَّهتُ إلى مكان حول هذا الجبل ، فدخلت في خلوة تُنسَب إلى سيدنا الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع الله به ، فأقمت فيها ثلاثة أيام ، ولا تيَسَّر لي في هذا المكان خلوة على ما أمر الشيخ ، لأنها مزار عند أهل تلك الجهة . واتفق العزم على الخروج من هذه إلى سواحل البحر ، حول قبر الشيخ - أي محمد صالح الدكالي- وبقيت قليلاً في مسجد ذلك المكان نصلي فيه ما شاء الله .

ثم جئت إلى خلوة سيدي عبدالقادر ، وإذا أنا بحنشٍ كبيرٍ اعترض لي دون باب الخلوة ، له خلقة كريهة ، وله عُرْفٌ يتركز ، ولا بقى لي ممر للدخول لأخذ ما لي في الخلوة ، فعوذته بالله : يا هذا إلا ما رحت عني لا يقع بيني وبينك ، وما أنت إلا من الجن ، وأنا لا أقتلك إلا بعِلْم لأني فقيه ، وقد بلغنا عن نبينا ﷺ أنه قال : « إن الله يحب الشجاعة ولو بقتل حية » ، وقال : « منذ عاديناكم ماصالحناكم»، إن كنت من الحناش والحيات ، وإن كنت من الجن فلا تجيء على صورة الخصم تقتل ، ولا إثم على قاتلك ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من تزيى بغير زيه فقتل ، فلا إثم على قاتله »، ثم دخل الخلوة ودخلت في أثره ، وأنا أقرأ : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، حتى دخلت أقصى الخلوة وأنا أحبو ومستند بيدي ، وعلمت أن ذلك لطفٌ من الله ، وأخذت ما كان لي ، وخرجت أسير إلى أن آواني الليل .

ووجدت جماعة فيهم فقير من فقراء الشيخ أحمد بن عمر العروسي ، فقال لي ذلك الفقير : « أنت شريفٌ مبارك ، وتتعبد في أماكن الأولياء ، ولم تعرض نفسك على صاحب الوقت » ، قلت : ومن هو

صاحب الوقت ؟ قال : « الشيخ أحمد بن عمر العروسي ثم العمري ، ببطنٍ من بطون قبائل المغرب » ، قلت له : وأين هو اليوم ؟ قال لي : « ادخل مدينة مراكش ، تزور من كان فيها من الأولياء من الأحياء والأموات ، مثل القاضي عياض ، والشيخ أحمد العريف ، والشيخ محمد بن سليمان الجزولي وغيرهم من المشايخ ، ثم تخرج مع من خرج من الأبواب التي يخرج منها لوادي دراء ، ثم لا بد تجد من يسايرك إلى البدو الذي وراء وادي دراء ، وهم قبائل يقال أنهم من بني هلال ، خَلْقٌ كثيرٌ يسمون : عريب » .

فكان الأمر والإنزعاج بسبب إشارة هذا الفقير المبارك الناصح ، فاستبعدتُ ذلك لِبُعْدِ الجهة التي هو فيها ، وعدم الزاعج لتلك الجهات ، وهي مفاوز ما تُقْطَع إلا على مطايا مستعدة لتلك المفاوز ، فحصل الزاعج بإشارته .

فتوجهت إلى مدينة مراكش حتى وصلت إليها ، إذ وجدت في طريقي إليها علماء وفقراء وأولياء وقراء في عماير كنا نسير إليها ، وتوجهت من مراكش مع القوافل التي تخرج إلى وادي دراء ، وسرت معهم عشر مراحل ، ووصلت الوادي المذكور ، وفيه قرى كثيرة ، وهو واد عظيم يخرج من جبل وينزل من بين جبال ، وعليه نخيل ومزارع ، وسرت إلى إنتهاء هذا النهر ، فلا وجدت في آخر الجهة من تسقي منه شربة ماء ، وأطلع النخل وعليه من الثمرة الأولى شيء كثير . فقلت لهم في ذلك ، فقالوا: « كثير معنا أخذ مطايبه » ، فقلت لهم : هذا عليكم فيه لوم من الله ، حيث ما تخففون عن عمتكم النخلة مما عليها ، ولا مكنتوا من كان محتاجاً . ونبَّهت أناساً منهم على ذلك ، فقالوا : « ما يرغب البدو فيه ، وهذا التمر فيه رُبٌّ كثير ما يؤكل إلا بمسال أو شوك النخل لكثرة رُبِّه » ، يعني دبسه . وفي هذه الجهة علماء وأولياء ، أحياء وأموات ، وخُطَبٌ وجُمُعَات .

ورأيت أناساً يريدون البدو الذين أريدهم لزيارة الشيخ أحمد المذكور ، فساروا وتبعتهم ، فأبوا خوفاً علي من الظمأ ، لأنها خبوتٌ خلِيَّة ، فاجتمعنا عند فقراء أهل خدور ، في أسفل الوادي ما وراهم إلا مفازة ، لا ماء فيها ولا عماير، فساروا ليلاً وقالوا لأولئك : « اقبضوه عنا لا يموت علينا بالظمأ»، فذهبوا وبقيت إلى الفجر عند الفقراء ، فقالوا : « اتبعهم » ، لما رأوا فيَّ من الرغبة لزيارة هذا الشيخ المذكور ، وكان لهم فيه عقيدة ، وأعطوني وعاء فيه ماء ، وقالوا : « بركة الشيخ » ، فتبعت أولئك بالأثر، فوجدتهم مقبلين في الخبت تحت الطلح ومعي ماء ، فقالوا : « ما هو بغض لك لكنا خفنا عليك» ، فقلت لهم : لا تخافوا عليَّ فمعي نية صالحة في هذا الشيخ .

فسِرتُ معهم نحو ثلاث مراحل ، وافترقنا بالمشاة نحن وأهل المطايا ، وبقينا نسير على أرجلنا ، وفرغ الماء والزاد ، ولا بقينا نأكل إلا اليرابيع والضبوب والورر وهم يأكلونه وأنا لم آكله . وقالوا لي: « قال علماؤنا إنه حلال » ، وهم مالكية . فقلت لهم : ما هو بأرضنا ، وقال علماؤنا أهل فاس : « أكل

الضب في زمن النبي ﷺ ولا نهى عن أكله » ، وأنا إذا ما كفاني من حصتي من اليرابيع واحتجت إلى أكل الضب أخذت حد كفايتي منه ، وأما الورل فلا آكله ولو مِتُّ جوعاً . فكانوا يخصوني بلحم اليرابيع ويأكلون الضب والورل .

ولقينا في هذه المفازة تعباً كثيراً ، حتى كان الذين أرادوا منعي من المسير معهم نفعتهم بحمل ثيابهم وسيوفهم لما تعبوا من الظمأ والجوع ، وأنا متعود الجوع والعطش في رياضات دخلتها على أيدي المشايخ ، إلا أنهم يعرفون الطرق ، فلما قربنا من بعض المياه قالوا لي : « يا فقير ذاك مكان الماء ، وأنت فقير ما حد يقول لك شيئاً ، ونحن مطلوبين من القبائل » . فسرت إلى الماء ولا لقيت عليه أحداً ، وأخذت من الماء بلا مسب ولقيتهم به ، ثم أخذنا ما يكفينا ، وسرنا ليلة .

وأول ما جئنا إلى ناس يعرفونهم دون جماعة الشيخ ، وخلوا واحداً منهم يوصلني إلى الشيخ ، فسار بي حتى دخلت على الشيخ آخر النهار ، ففرح بوصولي إليه كثيراً ، وأردت أن أقبِّل قَدَمه فأبى ، وقال : « لو تركنا أيدينا وأقدامنا يقبِّلها مثلك ماجاءت إلينا الأقدام » ، يشير بذلك إلى التواضع مع الله، وينزل الناس منازلهم ، ولكل مقابلة من المشايخ الوافدين عليهم قدر أحوالهم وما تقتضيه المراتب ، لقوله ﷺ : « أنزلوا الناس منازلهم » . فأقمت عنده خمسة عشر يوماً في أطيب حال وأنعم بال. وكانت بيني وبينه منازلات ومطارحات في مكاشفات منه على ما في ضميري ، وأخذت اليد منه كما أخذها من مشائخه . وسألته عن الحنش الذي عرض لي في خلوة الشيخ عبدالقادر فقال : « جان اسمه فلان من أصحاب الشيخ عبدالقادر يمتحن من جاء يتعبد فيها ، فإن وجده ثابتاً تصور إنساناً يخدم من دخلها فيما يحتاج إليه » ، وذكرت له ما جرى بيني وبينه .

وقال لي حين استخلفت منه وسار معي ينفذني مع خطار : « افتح فاك » . ففتحته ، فقرأ : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، ثم نفخ في فمي ثلاث نفخات وقال لي : « لا تفتح فاك إلا في المكان الفلاني » ، ودعا لي بالبركة ، فهذا آخر منتهى سفري من بلاد سوس الأقصى .

ثم توجَّهتُ إلى البحر ، وجعلت جبال سوس على يميني ، والمفازة على يساري متوجهاً للبحر المحيط ، لزيارة شيخ شيوخنا أحمد السياح ، وفي هذه الجهة عماير وعلماء وأولياء يتعاطون التصوف ، لكنهم ما يعرفون اللغة العربية .

ووصلت إلى قرية أحمد بن موسى السياح وكان مسيري إليه ، لأني أخذت اليد من الشيخ أحمد السياح نزيل فاس ، وهو عن شيخه الشيخ سعيد بن أبي بكر ، وهو عن الشيخ أحمد بن موسى هذا ، وهو أخذ عن الخضر عليه السلام - هكذا قال لي شيخي أحمد السياح - فأقمت عنده ما شاء الله ، ثم توجَّهتُ إلى جهات البحر، وعلى سواحله عماير فيها كثير من أهل الخير والصلاح ، ومن ينتمي إلى

الطريقة الشاذلية ، وإلى طريقة الشيخ أحمد بن موسى المذكور ، لأنه انتفع به ناس كثير .

ثم جئت إلى مدينة ماسة خالية ، وفيها أماكن حتى قالوا لي : هذا الجرف فيه ريح اليقطين ، من ريح الشجرة التي أنبتها الله على نبيه يونس عليه السلام ، والبحر تضرب مع زيادته إلى هذا الجرف ، وإذا رجع البحر بقي الجرف ما فيه ماء ، وتجد رائحة اليقطين كأنه قريب عهد ، وأنا شمَمْتُ ذلك في ذلك ، ولا يوجد في غير المكان ، لأنهم جاء معي فقراء يزورون معي ، ويحكون لي بالأماكن التي يتبرك فيها الناس .

ثم توجَّهتُ إلى وادي ترودانت ، من أودية سوس الأقصى ، وهو وادي يصب في البحر المالح ، وعليه قلعة أهل الخميس على شاطيء البحر المالح عند مصبه في البحر ، فأدخلوني القلعة ، وطلعت مع الجند الذين فيها ، وإذا هي حاكمة على البحر الجميع ، والبحر تحتها ، وفيها مدافع منصوبة إلى جهة البحر مقابلين بها العدو ، فصليت في رأس القلعة ركعتين ، ودعوت الله بالنصر والتأييد لعز الإسلام وخذلان العدو ، ولو لم يتوسموا فيَّ خيراً ما أطلعوني القلعة ، لئلا يظنون أني جاسوس عليهم من الكفار .

ثم توجَّهتُ إلى جهة مراكش ، وأخذت على شاطيء البحر ، فوصلت إلى دير فيه عابد من عبَّاد المغرب ، وهو شيخٌ كبيرٌ من أصحاب الشيخ سعيد النجار ، وأقمت عنده ليلة ، وكلمته ولا ردَّ عليَّ كلاماً إلا إذا غفل أو الْتَفَتَ نظرتُ إليه ، وإذا غفلتُ أنا نظر إليَّ . وهكذا مدة مجلسي عنده إلى غد ، فلما أَيِسْتُ من كلامه قلت له : الفاتحة لنا يا سيدي . فقرأ الفاتحة ولا قال لي شيئاً ، وقال لي أصحابه : « نحن معه في هذا الدير نحو كذا وكذا ما رأيناه فعل مع أحد ما فعل معك » .

وسرت إلى مسجد الأبدال جهة شرقه نحو مرحلة ، وكان يتعبد فيه الأولياء الأولون كالشيخ محمد بن عربي الحاتمي وغيره ، وعنده قبور أولياء من القدماء ، وعنده في طرف البحر عين ماء عندها صخرة كبيرة ، إذا زاد البحر غطى الصخرة التي تحتها العين في وسط المالح ، وإذا نقص الماء نحو ما يصل الماء إلى سرة الداخل إلى العين ، وهي فوارة تدفع ماء البحر بقوة النضخ ، ولا يعرفها إلا من تعبَّد في هذا المسجد من الأولياء ، ولا دلَّني عليها إلا الشيخ أحمد العروسي ، وكان يتعبَّد فيه ، وأمرني بالإقامة فيه أياماً على ما أودع الله فيَّ . فأقمتُ فيه سبعة أيام متوالية ، وظهر لنا فيه من أنوار الذِّكر والدعاء والصيام والعزلة من الناس أشياء كثيرة ، ما كنت أعرفها قبل تلك المدة .

وجاءت امرأة زائرة لهذا المسجد ولمن حوله من قبور الصالحين ، فأرادت الدخول فيه فغلَّقت الباب دونها ، وقلت : خليني أخرج ثم ادخلي ، قالت : « نريد الاتفاق بك » ، فَغَلَبْتُ - أي أَبَيْتُ - وقلت لها : ما أنا جالس هنا إلا لألم أصابني أرجو العافية ببركة من صلى فيه من الأولياء . فَقَبِلَتْ

عذري وراحت ، فلما كان الغد جاءني عبدها بخبزٍ وعسلٍ ، وقَبِلْتُ ما جاء به .

فلما مضى خرجت من المسجد وتوجَّهتُ إلى مراكش ، فأقمت فيها أياماً نتردد على من فيها من الأولياء وأهل الصلاح ، والعلماء وأهل الدروس في الفقه والأصول ، ثم خرجت إلى فاس ، وزرت قبر أبي يعزى في قرية تاغية ، وكان قُبِرَ في القرية التي مات فيها ، فنبشه أهل هذه القرية ودفنوه عندهم .

وأخذتُ طريق وادي العبيد نهر كبير ، قالوا : هو أحد بلاد سوس .

ثم دخلت قرية ما بينها وبين وادي أم ربيع ، وهي إلى نهر ربيع أقرب إلينا يا أولاد الشيخ أبي الوكيل ، ودخلت وأنا مستخفي ، ودخلت المسجد آخر النهار ، وصليت معهم المغرب ، وقرأت معهم الأحزاب التي يقرأونها بين المغرب والعشاء فسألوني من أنا ؟ فورَّيت عنهم حتى ألحوا ، فذكرتُ لهم أني من أولاد أبي الوكيل ، فقالوا : « لِمَ أخفيتَ نسبك ؟ » ، قلت : لأمرين ، الأول : أن الناس ينتسبون بأهل الخير لغرض دنياوي ينالهم بسبب ذلك ، والثاني : لأنكم تظنون أنا على طريقة آبائنا والأرض تغيَّرت علينا بسبب الفتنة التي وقعت بين القبائل التي فيها . فتذاكرت أنا وإياهم طريقة القوم لعلي آخذ نفحة من نفحات الأولياء على المريدين ، إلى أن وصلت إلى عندكم لطلب ذلك .

وكان في أهل القرية ولد الشيخ محمد بن أبي القاسم ، عُرِفَ بصاحب اللطيف كان هو ودرسته وأصحابه يذكرون اسم اللطيف بهذه الصيغة : يالطيف يا لطيف نحو سبعين ألفاً كل يوم ، وولده على طريقة أبيه ، ولهم في هذه الجهات جاه وعقيدة ، وسألته عن الرجل الذي ذَكَرَهُ لي الدادسي ، ولا أحد من الأولياء ذَكَرَ لي هذا القول، إلا أنني أرى في بعض الأحيان في النوم رجلاً يطوف عليَّ ولا أراه، ويظهر لي بعد رؤيته نشاط في الطاعة ، فتعجبت من هذه الحالة ، إلى أن قال لي : « مطلبك هذا قليل من يتصرف فيه من أهل الزمان ، ولا يقع مطلوبك إلا من الله وزيارة الأولياء، وحسن الظن بهم مما يستعان به على المطلوب الذي تطلبه ، لحديث: ادعني بلسان لم تعصني به ، قيل : ما هو يا رب ؟ قال: بلسان غيرك ، لا سيما دعاء أهل الصلاح » ، وزار قبر والده وأنا معه ، وجاءني بتمر وزَوَّدني إياه ، وقال لي أهل القرية : « ما بتَّل[1] أحداً غيرك ، لعله رأى فيك خيراً » ، ولقَّنَنِي جملة أسماء من أسماء الله الحسنى وقال لي : « رتِّبها » ، فكنت أرتبها أياماً .

ثم توجَّهتُ إلى مدينة فاس ، وعبرت على الشيخ محمد الشرقي ، فزرته وهو حيٌّ في مكان دون وادي أم ربيع ، ثم إلى زيارة أبي يعزى ، ورأيت منه إشارة .

وسرت إلى بلاد مكناس ، وجددت عهداً بمن صحبناه من الأحياء والأموات ودخلت مدينة

---

(١) اي ارسل .

فاس إلى شيخنا أحمد بن حميدة المطرفي ، الذي أمرني برياضة الجلالة وذكرت له ما كان مكتوباً علي من الخطى والرزق ، وبقى متعجباً من القضاء والقدر وكان أهلي يسألونه عني ويقول لهم : « إنه محفوظ، لا تخافوا عليه » ، فجددت به عهداً وبمن كان في المدينة ، مثل الشيخ أحمد السياح ، وكل من لنا به خلطة من أهل الخير والصلاح ، ولا أحد منهم سألني أين كنت ، لأجل الأدب .

ثم توجَّهتُ إلى زيارة قبور من مات لنا في وادي اللبن ، والدتي وإخواني وأخواتي ، وأرحامي وبقية أهلي الأحياء والأموات ، فأقمت عندهم ما شاء الله .

ثم سرت إلى جبال سلاسل من وادي غمارى ، وجددت عهداً لنا بالشيخ عبدالله بن حسون ، والشيخ محمد أبو شتاء ، واستراح بوصولي إليه بعد تلك الأحوال التي جرت لي منه ، ورجعت إلى من كان من أرحامنا حول مدينة فاس ، حالِّين في زواغة - بالزاي والواو والغين المعجمة - وطلب أهلي أن يزوجوني ، فشاورت مشايخي : سيدي عبدالله بن حسون ، وسيدي أحمد بن حميدة ، فأذنوا لي فيه، وكنت استاذنتهم فلم يأذنوا ، لأن عادني في مجاهدة النفس ، واستأذنتهم بعد هذا في رياضة الفاتحة لما فيها من الفوائد لما رأيت خصائصها ، وما للذي يلازم قراءتها ، وما يضاف إليها من الأدعية ومن أسماء الله الحسنى ، على نظر المشايخ وأَخْذِ الإذن منهم ، وكيفية التلاوة للفاتحة ، وما يتعلق بهذا الفن من شرائط العكفة . فأدخلني الشيخ أحمد الرياضة ، وأمرني أن أتخذ حرزاً يكون فيه سورة الأنعام بتمامها - من غير أن يطمس منها حرف - بالزعفران وماء ورد ومسك ، وهو وفق الفاتحة المعشر الحرفي ، وهو معروف عند أهل الفن ، وبخور يليق بعوالم الفاتحة .

وأمرني أن أمكث في الخلوة نحو ثلاثة أسابيع أو أربعة في خلوة تعرف لإبراهيم بن أدهم في رأس جبل زرهون - جبل معروف بالمغرب - ففعلت ما أمر به ، وذلك في شهر الله رجب .

وأما الشيخ عبدالله بن حسون فلم يؤقِّت عليَّ أياماً معدودة ، إلا أنه قال : « سِرْ مع الله حيث سارت بك رياح القضاء » . وقال لي : أرسلناك في رياضة قبلها أربعين يوماً ، فما جئت إلا بعد أربعة أشهر ، سارت بك رياح القضاء ، وهذه المرة ما ندري ما يكون الأمر ، لكن سِرْ كما قيل :

اتبـعْ رِيَـاحَ القَضَاء　　وَسِرْ حَيثُ سَارَت
وَسَـلِّمْ لِسَـلْمَى　　وَدُرْ حَيـثُ دَارَت

وكان لنا في بعض الأوقات مجلس خاص مع الشيخ أحمد السياح ، فتذاكرت أنا وإياه في حال الرجل الذي يطوف عليَّ في النوم ، ولا أحد ذَكَرَهُ لي ممن يُشار إليهم من أهل المغرب الذين وقفت بين أيديهم ، إلا ما ذكره الدادسي والشيخ محمد أبو شتاء ، فقال لي : « صاحبك هذا ما حواه غربنا ، وإن

أردت أن نحلف لك بين المنبر والمحراب الذي نخطب فوقه في جامع القرويين فعلت ، فلا تتعب نفسك في المغرب » .

ثم توجَّهتُ إلى زيارة جدنا الإمام إدريس بن إدريس الأكبر ، ثم طلعت الجبل للخلوة التي أمرت بالدخول فيها ، وهي خلوة في رأس جبل ، أظنها بُنِيَت بقصد الشيخ إبراهيم بن أدهم فَنُسِبَت إليه، واستفتحت الراتب على ما أمرني الشيخ أحمد المذكور ، وبقيت على هذه الحالة إلى الليلة الثالثة من العكفة بعد صلاة المغرب ، وجلست وأنا متكيء أتلو الفاتحة ودعاء لها من الأدعية السالمة من العجمية، بل كلها عربية ولا فيها ما ينكره الشرع من الإستحضار لخدامها ، فبينما أنا أتلو الراتب فإذا أنا بصوتٍ كالرعد القاصف الذي يُخشى منه من شدة الصوت ، فقعدت وخرجت من الخلوة ، وإذا أنا بصاحب ذلك الصوت ، التقيت أنا وإياه عند باب الخلوة ومسَّ قفاي ، فقلت له : اذهب يا لعين .

ورجعت إلى الدعاء وأنا خارجها ، وكان في لساني تلك الساعة : يا هادي المضلين لا هادي لهم غيرك . ثم زندت النار وأعلقت شمعة كانت معي ، ودخلت الخلوة ورتبت الدعاء من الورقة التي فيها الدعاء ، ورجع إليَّ صاحب الصوت ، وإذا هو يدور برأسي وله صوتٌ هائل ، ولكنه دون الصوت الأول وجِرْمه صغير مثل العصفور وأصغر منه ، وفوق الجراد إلا أنه أشبه بالجراد ، وكان حولي ماء قليل أتطهَّر منه ، فأصبح ذلك الماء غائراً ، فوجدت رجلاً جاء قبلي إلى الماء ، فقال : « ما سبب غور هذا الماء ؟ ما أصبح فيه ما يتطهر به الإنسان » ، فتيمَّمْتُ لصلاة الصبح، وعلمت أن العكفة بطلت لعدم الماء الذي يُتَطَهَّر به فيها للصلاة الخمس وغيرها . وكان هذا سبب نزولي من الجبل ، وآثرت الخلوة في غير هذا المكان .

وكان مسيري من الجبل إلى مدينة مكناس ، وكان طريقي على الشيخ موسى بن علي صاحب الصخرة ، فوجدته ضحوة ذلك النهار ، وأضمرت أن آخذ منه ما بَدَا منه لي في أول مفاجأة ، فلما وقفت على الباب خرجَتْ إليَّ جارية ، وأعلمتها أني أريد الشيخ ، وقد كُفَّ بصره في آخر عمره ، فخرج إليَّ وحدثته ، ولا قال لي : من أنت ؟ ولا من أين جئت ؟ إلا أنه قال : « الناس حجوا وأنت كذا وكذا! هرول هرول»، ونفض يديه وقال : « يا فلانة - يريد الجارية - أدخليني أدخليني » ، وهي واقفة ، وأنا أشير إليها بالسكوت حتى نأخذ منه الإشارة ، ففهمت الإشارة منه ، وكان هذا سبب خروجي من الخلوة بسبب صاحب الصوت .

ودخلت مدينة مكناس ، واتفقت بشيخنا أحمد القناوي نفع الله به وكانت عقيدته فيَّ صالحة ، وتوسَّم فيَّ خيراً من جملة الدرسة ، وفي حين قراءتي عليه عقد لساني وفقد باطني ، وطلب مني الدعاء فقلت له : هذا كله من بركتك يا سيدي معنا ، جزاك الله عنا بذلك خيراً ، ثم قلت له : نحب من

فضلك إذا جاءك أحد من أهلنا فاعلمهم بي أني توجهت إلى القبلة ، إلى وادي تفلات ، بينها وبين مدينة فاس نحو عشر مراحل في جهة قبلتها ، وقبلة فاس أن تجعل الجدي على يسارك متوجهاً إلى جهة المشرق .

وسِرتُ من مكناس من طريق رأس فِقيق ، وسِرتُ نحو ثمانية أيام في عماير ومفاوز ، فيها أسود ضارية حرسني الله منها ، إلى أن دخلت تفلات لزيارة ولد شيخنا الغازي ، ولما وصلت إلى قريته لم يأذن لي بالدخول عليه إلا بعد ثلاثة أيام أو نحوها ، ثم أذن لي واستعذر مني وقال : « كنت أرمد » . قلت : يا سيدي ولو ما أذنت لي إلا بعد شهر ما وجدت في نفسي حرجاً من ذلك ، فدعا لي وأوصاني بالتقوى وقال : « الله الله في التقوى ، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾كررها علي مراراً ، وكذلك: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾» ، ثم خرجت منه إلى شيخ آخر حول مكانه له تلامذة ، ثم خرجت من عنده إلى زيارة الشيخ عبدالرحمن ، الملقب بمن لا يخاف إلا الله ، فوجدته في حال القيلولة عند عياله ، وما وجدت إلا طلبة العلم - يعني طلبته - كل على حاله ، فتطهرت وصليت ركعتين في المسجد ، ونمت وجاء الشيخ لصلاة الظهر ، وأعلموه بي وأمرهم أن يخبروني بخروجه ، فوجدوني نائماً فأقعدوني لعلي أنتبه من النوم، فما دريت أين سارت نفسي في تلك الساعة ، وأرادوا قيامي من النوم ، فقال الشيخ : « اتركوه حتى يقوم بنفسه » ، ولم ترجع إليَّ نفسي إلا بعد .

ثم استيقظت من تلك الحالة بنفسي ، وكان أصابني عرق كثير ، بحيث سال مني وخرج إلى المسجد ، فجاؤوا بقدح ينزفون ذلك العرق السائل من جسدي ، وذلك مما لحقني من تعب ذلك الرجل المدعي لما لا يعرف ، فلما قمت وتطهرت وأخذوا ثوبي وغسلوه من العرق ، فأمر الشيخ عبدالرحمن المذكور وجئت إليه وسلَّمت عليه ، وسألني : « ما سبب هذه الحالة ؟ » ، فحكيت له ما وقع بيني وبين ذلك الرجل ، فقال لي : « يا ولدي دجاجيل تأتي بعد النبي ﷺ أكثر من ثلاثين دجالاً، ولربما يكون هذا منهم » .

وكان الشيخ عبدالرحمن هذا له جاهٌ كبيرٌ في مدينة فاس عند العلماء والملوك ، مقبول الكلمة عندهم ، وكان مالك فاس ونواحيها إلى تفلات وغيرها السلطان أحمد ، وذلك سنة ٩٩٠ ، وله في الشيخ نية صالحة لورعه وديانته ، وكان الشيخ عبدالرحمن قد حج واتفق بالشيخ محمد البكري ، وأخذ اليد منه ، وسألني عمن أنتمي إليه من المغرب ؟ فقلت له : من أولاد أبي الوكيل ، فقال : « من أيِّ بطونهم؟» ، قلت : من أولاد عيسى بن أبي الوكيل ، من أهل أنقاد والفيضة المعروفة ، قال : « ما يكون لك عمر بن إبراهيم ؟ » ، قلت : هو جدي ، أنا يوسف بن عابد بن محمد بن عمر . فتعجب

وقال : « كيف وأنتم الذين كانت تهاجر الطلبة إليكم للتفقه في الدين واليُسر في المعيشة عندكم ؟ واليوم صرتم تطلبون ذلك عند غيركم ، وأنا ممن قرأ على من قرأ على جدك عمر بن إبراهيم المذكور » .

وذكرت له السبب الموجب لفساد الجهة بالفتنة التي ثارت بين أولاد طلحة بن يعقوب وتعصب القبائل مع كل أحد منهم ، حتى قلَّت الهيبة في قلوب هذه القبائل لأهل الزوايا المباركين مثلنا ومثل غيرنا على ما بلغكم خبرهم ، وإني سرت في المغرب على طوائف ممن هم متزيين بزيِّ أهل الصلاح ، ويدَّعي التصرف في الأكوان بالهمة وغيرها ، لعلني أجد نفحة نحيي بها آثار أسلافنا ، فما وجدت إلا كل أحد يدَّعي العجز عن الطلب الذي كان يتعاطاه الأولون بالتصريف بالهمة في الأكوان ، فقال لي: « هذا معدوم اليوم » .

وذكر لي الإقامة عنده فقلت له : أريد المشرق ، قال : « الحج ؟ » ، قلت : لا ، ما معي آلة الحج ، قال : « إلى أين تريد ؟ » ، قلت : نشاورك في زيارة الشيخ محمد بن أبي الحسن البكري ، فقال : « أما هذا فلا نردك منه ، لكن لا تسأل الناس تقع في المحذور ، لأن السؤال مما حذر الله من الفواحش ، وما أباح الله شيئاً من الفواحش إلا هو عند الضرورة ، فلا يجوز لمسلم السؤال إلا عند ضرورة كبيرة ، وما جاء إليك من غير سؤال فاقْبَلْهُ ، ولا تجيء حول أبواب الملوك والأمراء » ، ثم جابرني مجابرة مليحة، وقرأت عليه من أول البقرة إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾الآية ، أنا وإياه في صوتٍ واحدٍ على عادة القرَّاء الذين كنا نقص عليهم من الألواح يقرأون معنا في صوت واحد، ويرون كيف يكون مخارج الحروف من أفواههم ، وصيغة المدِّ والقَصْر ، وغير ذلك .

وسألته عن قراءة الجن الذين كانوا يقصون عليهم قراءتهم ، فقرص أذني يؤدبني وقال : « ما حملك على هذا يابن أبي الوكيل ؟ » ، وهو قابض بأذني وهو يفحصها بيديه الكريمتين ويضحك تبسماً ، ثم دعا لي بالبركة وقال : « إذا أوصلك الله إلى الشيخ محمد البكري فسلِّم عليه مني كثيراً كثيراً ويدعو لنا » ، وناولني ما فتح الله من الدراهم وقال : « خذ هذه استعن بها على بعض حوائجك في الطريق»، وأمر أحد الفقراء أن يسير معي إلى امرأة صالحة عجوز ، أرسلني إليها وكأنه توسَّم في خيراً وكأنها قالت له: « يا سيدي أنت يجيء إليك الأخيار ، فإذا توسمت في أحد خيراً فأرسله إليَّ ، لأن النساء ما يتصلن بها يتصل به الرجال » ، فلما وصلتُ إليها طَلَبَتْ مني الدعاء ، وأنا كذلك طَلَبْتُ منها الدعاء، قلت : ما أرسلني الشيخ إليكِ إلا لأنال منكِ دعوة خير . فَدَعَتْ لي فَدَعَوْتُ لها ، وناولتني قليل دراهم وقالت: « تستعين بها في سفرك ، وادع الله لي بحسن الخاتمة والثبات عند الموت بتلقين الشهادة » . وغير ذلك من المنازل التي ما ينفع فيها إلا صدق معاملة العبد مع الله ، والإستعانة بدعوة أهل الصلاح .

ثم رجعت إلى وادي فقيق ، بفاء مكسورة وقاف بعدها تحتية ساكنة بعدها قاف، وادٍ فيه نخل

كثير، وفي أعلاه قرية الشيخ عبدالرحمن الفقيقي ، شيخ شيوخي الذين أخذت عنهم اليد ، منهم الشيخ عبدالقادر بن محمد بن سماحة الحمياني ، فزرت قبر الشيخ عبدالرحمن ، وعليه جلال من الهيبة حتى فزعت من الهيبة ، وقلت: يا سيدي عبدالرحمن ، قابلني بالأنس ولا تقابلني بصفة الجلال ، فإني ما أحتمل ذلك لضعف تركيب مزاجي وكبر حالك . ولا قلت ذلك إلا لما فزعت من هيبته ، وقبره في قبور بعيدة من القرية .

ثم سرت مع زوار إلى بلاد الشيخ عبدالقادر الحمياني المذكور ، وكان في مكان شرق أرضهم بنحو خمس مراحل من فقيق ، معتزل بسبب حروب وقعت بين قبائل الجهة ، وكان خبره يصل إليَّ وأنا في مدينة فاس ، وكنت أتمنى لقاءه لما يوصَف لنا من أحواله من تلقين الذِّكْر للمريدين والأخذ عنه ، وهو يُنسَب في الخرقة إلى الشيخ عبدالرحمن الفقيقي عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني عن الشيخ أحمد زروق . وأضمرت في نفسي أن لا أحكي لهذا الشيخ بحالي ، ولا من أين جئت ولا أذكر له نسبي ، إن كان على ما يقوله فقراؤه لا بد يطلعه الله على حالي ، ومن وقفت بين يديه من الأولياء في سفري الذي وصلت فيه إلى الساقية الحمراء التي هي أقصى بلاد سوس في المغرب - يعني كل هؤلاء المذكورين يذكرون أن هذا الشيخ يطَّلع على حال من وقف عليه - فرأى هو ذلك كذلك ، فلما وصلت إليه مع الزوار ودخلوا عليه قبلي ، وأنا دخلت إلى مكان أريد أتطهر من تعب السفر ، وأنظر ماذا يحدث من الشيخ في أمري ، فلما رآهم وتصفَّحهم ولا وجدني معهم قال : « أين الشريف الذي جاء معكم ؟ » ، فقالوا : « ما معنا أحد شريف إلا رجل عليه هيئة البداوة » ، فأرسل إليَّ من يأتيه بي ، فقال لي الرسول: « أجب الشيخ » ، فجئت إليه ، فقام في وجهي وسلَّم عليَّ سلامَ مُحِبٍّ لِمُحِب ، وهم كما قال الله تعالى في نبيه يوسف : ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾، فقالوا لي : « لم أخفيتَ نسبك وأنت شريف ؟ » ، فقلت: من رأس الشيخ أولى من ذِكْري لكم ذلك ، لئلا تصيروا في محذور منكم ، من يصدق ومنكم من يكذب ، أو يهون عليكم الشرف ، فكان السكوت أحب إليَّ حتى جاءت من الشيخ .

فكنت عندهم مهاناً وعند الشيخ عظيم القدر ، فأخذت مقعد الشيخ عنهم وكان يسألني عن فلان وفلان ممن لقيته من الأولياء في تلك الأماكن ، وعن الأماكن التي وصلتها ، حتى سألني عن الصومعة التي على ساحل البحر المحيط فقلت : ما وصلت إليه لبعده عن المكان الذي وصلته ، فقال الشيخ : « إنه قريب من المكان الذي وصلت إليه بنحو نصف يوم ، وإن ذلك الذي في الصومعة ما هو منا بالمغاربة، وإن عليه دركاً في ذلك المكان ، وهو من أولياء المشرق » ، فقلت له: والله يا سيدي ما أحد سألني عن الذي سألتني عنه ولا أحد درى إلا الله ، ولا حكيت لأحد من الناس لا قريب ولا بعيد إلا أنت حيث سألتني عنه ، فقال لي : « والله ما تحركتَ ولا سكنتَ إلا وعيني عليك » ، أو كلام

هذا معناه .

وكان عنده رجل يريد السفر فقال له : « أقم عندنا إلى غد ، فإنهم وافدين علينا زوار كثير ، ومعهم شريف قد طاف بلاد سوس ، يحكي لنا بأخبار تلك الجهة »، وأنت تسمع والسؤال من الشيخ والجواب مني ، وذلك الرجل يسمع فلما قام الشيخ إلى منزله قمت معه ، فَذَكَر لي الراتب الذي من الشيخ أحمد بن حميدة المتقدِّم ذِكْره ، وكان الراتب نحو ثلاثة عشر اسماً ، أو أحد عشر اسماً من أسماء الله الحسنى المأمور بالتعبد بها ، فقال لي الشيخ : « خذ منها خمسة واترك الباقي » ، فقلت له : عدها جميعها واعطني منها ما اخترت لي فيها لي واحداً واحداً ، واختار لي منها خمسة أسماء وأمرني بملازمتها مع كل فرض مائة ، مدة أيام الإقامة عنده ، ثم توسَّم فيَّ غلبة ذِكْر الجلالة عليَّ والتعلق بها ، فأمرني بِذِكْرِ الجلالة دون تلك الخمسة .

فأقمت عنده أياماً في أطيب حال وأنعم بال مع طلبة العلم والفقراء ، ونقرأ بين يديه كتاب البخاري بعد صلاة العصر إلى اصفرار الشمس ، وطلبت منه العزم إلى المشرق ، وطلب مني الإقامة عنده وتحت نظره ، فرأيت نفسي مولعة بالمشرق فقلت له : يا سيدي ، رأيت نفسي سائرة إلى المشرق كما يسير السحاب في الهواء ، فقال لي: « والأمر كذلك » ، فأخذ ثيابي وألبسني ثياباً دون ثيابي في الرثاثة ، وناولني عكازاً وبرنص وسبحة وكوفية ، وقال لي : « هذا لباسك مني خرقة التصوف وخرقة الإشارة، كما ألبسني شيخي عبدالرحمن الفقيقي ، كما ألبسه شيخه أحمد بن يوسف الملياني » ، نسبته إلى بلد تسمى مليانة في مشارق بلادنا دون تلمسان إلى المشرق .

وتوجَّهتُ من عنده إلى مدينة قابس ، ودخلتها في آخر شهر رمضان ، في خبوت وعماير فيها قرى وأوقاف للحجاج مدة إقامتهم هناك وهي ثلاثة أيام ، وبدوانهم فيهم خير عندهم أناس متمسكون بالصلاح من آبائهم وأجدادهم ، حتى جرت لي في هذه الجهة قصة : سريت من قرية منها إلى المشرق، فقال لي أهلها : إن هذه القرية هي آخر المعمور ، وما قدامك إلا خبوت ومفاوز إلى الأرض الفلانية، وإلى أن تصل إليها أُسود عادِيَة ، ومفازة ما تقطع إلا على الإبل لا على الأرجل ، ولكنك إذا عزمت على المسير ولا بد ، ساير هذا الوادي ولا تفارقه إلى أن تصل إلى أسفله تجد عنده العماير كثيرة ، وهذه المفازة أعسر مفازة عليك ، وإنها نحو خمسة أيام ما يرى فيها ساكن .

فعزمت من عندهم وتوكلت على الله والنية الصالحة ، إلى أن حَضَرَتْ صلاة الظهر ، وإذا بدو خطوا قدامي ، جاؤوا من بُعْد يريدون بلاد أخرى ، فعزم عليَّ نفر منهم ، فأتوني بقرص بُرٌّ مجمور - أي مخبوز على جمر - وقالوا : « هذا القرص من بُرٍّ أخذناه من ناس نهباً » . فقلت لهم : لا جزاكم الله عني خيراً ، كان ما ذكرتوا لي ذلك ، قالوا : « خفنا ، لا يعاقبنا الله بغشك منا بأكل الطعام المغصوب ، وأنت

رأينا فيك هيئة الصلاح » . فقلت لهم : أسير بالقرص معي ، فإن وجدت غيره فذاك ، وإن لم أجد واحتجت لأكله أكلت منه ما يسد الرمق .

فسرت منهم من صلاة الظهر إلى نحو اصفرار الشمس ، وأنا أساير هذا الوادي الكبير ، وفيه من الأشجار وفيه مخافة لكل من مَرَّ فيه ، فبينما أنا أسير ، إذ سمعت رغاء إبل أمامي ، وإذا بفقراء جاؤوا نجيع من أرض بعيدة ، يريدون جهة أخرى إلى جهة الشمال ، فإذا هم يصلون جماعة ، فوصلت إليهم وهم قيام في الصلاة فسلَّمت عليهم ، فلما تموا صلاتهم ردوا علي السلام فقالوا لي : « من أين جئت ؟ » ، قلت : من مدينة فاس . قالوا : « وإلى أين تريد ؟ » ، قلت : إلى المشرق للحج إن شاء الله ، قالوا : « تقرأ شيئاً من القرآن ؟ » ، قلت : نعم ، قالوا : « غيباً أم نظر ؟ » ، قلت : غيباً . قالوا : « على أي حرف ؟ » ، قلت : حرف نافع لورش .

وعندهم لوح مكتوب فيه نحو مقرأ ، فقالوا : « اضبطه لنا » . فضبطته على حرف نافع لورش ، فبان صدقي عندهم ، فقالوا : « أتقرأ شيئاً من الفقه ؟ » ، قلت : نعم ، الرسالة ، فقالوا : « لِمَ سلَّمتَ علينا ونحن في الصلاة وأنت فقيه تعلم ما لا يجوز فيه السلام على من كان يباشر شيئاً منهيًّا السلام عليه فيه من جملة ذلك الصلاة ؟ » ، فقلت لهم : أعلم ذلك ، إلا إنكم أهل علم ، علمت أنكم إذا أتممتم الصلاة رديتم عليَّ السلام ، كما فعل رسول الله ﷺ لمن كلمه وهو على قضاء الحاجة ولا رد عليه السلام إلا بعد ما قضى حاجته ، فتيمم ورد عليه السلام وكلمه بما أراد وقال له ما قال من النهي ، وأما ما ذكرت لكم ذلك إلا لئلا تفوتكم فضيلة رد السلام عليَّ بعد تمام صلاتكم في كلام كثير في هذا المعنى .

ثم ذكرت لهم قصة القرص على ما ذكر الذين أعطونيه ، وما كان من الأمر فيه والآن وجدتكم وعندكم ما يغنيني عن أكله ، لأنه ما يؤكل لمثلي إلا عند الضرورة وهو طاهر العين ليس كالميتة ، وأيضاً هو مجهول الأرباب ، وما كان كذلك يعطى لمن يستحقه من الفقراء المحتاجين ، فقالوا : « أعطوه الكلاب » ، فأبيت أنا وقلت: ما يجوز يعطى للكلاب مع احتياج المساكين له . فتبعوني على هذا الكلام ووافق عندهم ، ثم أظهروا كتاباً فيه : « إذا كان أحد من الناس مع البدو واضطروا إلى البيع والشراء معهم فهل يعذر في ذلك لضرورة الحال ؟ » ، فقال في ذلك الكتاب : « يجوز المعاملة معهم للضرورة الداعية لذلك ، والمشقة تجلب التيسير » .

وأقمت عند هؤلاء الحي المباركين ، ورغبوا في مجالستي وقالوا : « أقم عندنا حتى تسير مع خطار تركب معهم في هذه المفازة إلى العماير » ، فأقمت عندهم ذلك اليوم ، وهذا كله ببركة العلم ، حتى صرت كأني نشأت معهم .

ثم توجَّهتُ معهم في هذه المفازة على أتم حال وأنعم بال ، إلى أن وصلنا إلى العماير ، ودونها قرية فيها قبر عليه شباك حديد ، قال أهل تلك القرية : هذا قبر نبيٍّ قديم ، وربما قالوا : هو قبر نبي ، قبر خالد بن سنان الذي بُعِثَ لقومه بعد عيسى عليه السلام .

ووقع بيني وبين علماء المكان في ذلك مراجعة ، إلى أن قلت لهم : إني سمعت ممن أخذنا عنهم العلم في مدينة الإسلام فاس ، أن الأنبياء عليهم السلام قبورهم غير ظاهرة إلا قبر نبينا عليه الصلاة والسلام ظاهر ، حتى يتشفع به أمته فيما بينهم وبين الله فيما اقترفوا من الذنوب والمعاصي ، وأما قبر إبراهيم ومن معه من الأنبياء في بيت المقدس فيقولون إنهم في المكان الذي يتبرك به الناس من غير تعيين للقبور وذلك أن الله أخفى قبور الأنبياء الماضين غيرة عليهم من الله ، لئلا يتوسل بهم أممهم مع إنكارهم لنبوتهم ، أو لغير ذلك من الأسباب الموجبة لذلك والله أعلم .

ولما توجَّهتُ إلى مدينة قابس من الغرب ونواحيها ، دخلت قرية اسمها جربة، فيها فرقة من الخوارج تسمى في المغرب العزابة ، يطعنون في سيدنا علي كرم الله وجهه ، وكذلك في السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن السبط المصرية ، وغيرها من أهل البيت قبح الله رأي من يفعل هذا الفعل وهو ينتمي إلى الإسلام .

ثم توجهت من الجربة إلى ترابلس ، دخلت مدينتها ولقيت فيها رجلاً صالحاً يقولون أنه من ذرية ابن التلمساني المشهور ، وذلك في آخر شهر رمضان ونحن صيام زرناه مع أناس عرَّفوني به ، فلما أصبحنا وجئناه مستخلفين منه نريد المشرق، وكنت ما عليَّ إلا ثياب تقطعت من طول السفر ، فجاء إلي بكساء صوف وبرنص غالي وجوخة غالية ، فقال لي : « اختر واحداً من هذه الثياب » ، فقلت له : ما سبب هذه الكسوة يا سيدي حفظكم الله ؟ فقال : « عوتبت فيك البارحة ، جاءني النبي ﷺ وقال لي : وفد إليك واحدٌ من ذريتي عليه باقي خلق ثوب ، وأنت معك سعة من الدنيا ولا سترت عورته»، فقلت له : هكذا قال لك النبي ﷺ ؟ قال : « هكذا قال لي النبي ﷺ » ، فبكيت لذلك بكاء فرح لاستحقاري عند نفسي ، من أنا حتى يذكرني النبي ﷺ ؟ فأخذت كساء الصوف لأنه لباس الصوفية وأقل ثمناً وتركت له باقي الثياب ، وهذه الكرامة من هذا الشيخ بإعلامه من النبي ﷺ أني من ذرية النبي ﷺ ، فالحمد لله على ذلك . وكذلك ما ذكر لي من الكشف الشيخ الحمياني بأني شريف قبل وصولي إليه على ما ذكرته فيما قبل .

ولقيت في ترابلس الغرب هذه من أولياء الله كثيراً ، من أجلهم عندي الشيخ عبدالصادق ، شاذلي الطريقة ، والشيخ سالم مفتي تلك الجهة في زمانه وغيرهما ، فأخذت عنهم اليد والأخوة في الله ، وزرت من كان فيها من الأموات كالشيخ القوري وغيره .

ثم توصلت إلى القرية المقبور فيها الشيخ أحمد زروق نفع الله به ، وفي سكانها جفاء لمن جاء إليه من أرض المغرب ، وأقمت فيها ما شاء الله ، واسمها مسراة ، قبر فيها آخر القرن التاسع ، وهو شيخنا الذي ننتمي إليه بواسطة المشايخ الذين أخذنا عنهم طريقته ، وكان هذا آخر عهدي ببلاد المغرب .

ثم توجَّهتُ إلى مصر وحدي ، ولا وحيد من الله ، وأخذت طريق برقة المعروفة وهي مفازة كبيرة ومهاوي وقفار ، ولا تجد ساكنها إلا بادية مكافحة ، ولهذا يقول المغاربة في الأمثال : « إما غرقة إن سرت في البحر وإلا برقة إن سرت في البر » ، لكثرة المشقة في هذين الحالين ، وحملت ما قدرت عليه من الزاد الذي لا بد منه ، قليل تمر وقليل سويق ، ورأيت من مشاق السفر في هذه المفازة ما لا رأيته في غيرها. إلى أن دخلت اسكندرية ، وفيها قبور جماعة من مشايخ الشاذلية ، زرت قبورهم منهم : الشيخ أبو العباس المرسي وغيره . وأقمت فيها أياماً ثم قيل لي : « إن الشيخ محمد بن أبي الحسن البكري ما حج هذه السنة ، ومن عادته إذا ما حج زار قبر الشيخ أحمد البدوي » .

فتوجَّهتُ إلى القرية المقبور فيها الشيخ أحمد البدوي ، وأقمت فيها إلى أن وفد الشيخ محمد البكري، وعياله وفقراء كثير ، وخرج عيال الشيخ أحمد البدوي برايات الشيخ أحمد جدهم ، وقالوا لي : « تسير معنا » ، حيث ذكرت لهم إن ما قصدي من المغرب إلا الشيخ محمد البكري ، فجابروني وكسوني كسوة تليق بالمروءة لمثلي ، فلما واجهناه قالوا له : « هذا شريف يقول أنه ما جاء من المغرب إلا إلى الله ثم إليك». فقال لي : « من أي الأشراف أنت ؟ » ، قلت له :حسني ، فقال لي : « أنت حسيني»، فقلت له: إني حسني ، فقال : « من أي الحسنيين أنت ؟ » ، قلت : من الأدارسة ، وقبيلتي في المغرب معروفون ، فقال لي : « رأيت الحسين مكتوباً في جبينك » ، وقام وأجلسني في مكانه تعظيماً للشرف .

وكنت رأيت في الليلة التي واجهناه في صبيحتها مع عيال الشيخ أحمد البدوي كأني في مكان وفيه سوق كبير ، وكأنَّ في ذلك السوق طبيباً ، فقلت له : يا سيدي هذه علقة في حلقي - بمعنى سر - ، فحس حلقي بيده وقال : « نعم » ، ثم أدخل في حلقي آلة يعالج بها ذلك ، بعدما استلقاني على قفاي، فأخرج من حلقي علقة كبيرة وتقيأت بشيء كأنه رز ، وكأن الناس يأكلون من ذلك الذي يخرج مني، وقال بعدما عس - بمعنى سر ثانياً - : « عاد فيك أخرى ولدتها العلقة الكبيرة » ، فأخرجها مثل الأولى ، وبقيت بعدها أيضاً كذلك وقال : « عاد ثالثة » ، فأخرجها أيضاً ، وبقيت أيضاً بعدها مثل التي قبلها ، وقال : « قم ما بقي فيك شيء » ، فقلت له : إني حسيت بحركة في حلقي ، فقال لي : « قم ما بقي شيء في حلقك » ، ثم ضرب بين كتفيّ ثلاث ضربات ، وهو يقول : « ما بقي فيك شيء من العُلَق»، فذكرت هذه الرؤيا للشيخ محمد البكري في جَمْعٍ كثيرٍ عنده فاستراح بها - يعني سرَّته - وقال: « يكون ذلك على يدي إن شاء الله » .

ثم سألني عن أعيان المغرب ، ومن سلَّم عليه منهم ورد السلام على كل من سلَّمت عليه ممن أوصاني بالسلام عليه من مشايخ المغرب ، كالشيخ عبدالرحمن المذكور أولاً ، والشيخ عبدالصادق وغيرهما ، لأني حينما قابلته دخلتني منه هيبة لأنه في زي الملوك ، ولست أنا ممن يتردد على الملوك ، لأنهم عليهم هيبة الجبروتية للمظهر الذي أقامهم الله فيه ، كما قيل في الإمام مالك ابن أنس رحمه الله :

يَـدَعُ الـكَلامَ فَـلا يُرَاجَـعُ هَيْبَـةً والسَّـائلُونَ نَوَاكِسُ الأذْقَـانِ
سِيْما الوَقَـارِ وَعِزُّ سُـلْطَانِ التُّقى فَهُـوَ المهيـبُ وَلَيـسَ ذَا سُـلطانِ

فكان الشيخ محمد البكري هكذا من الهيبة التي عليه والجلال ، فلما أخذ ما عندي من الأخبار ، ورد السلام على من استودعني السلام عليه ، قال : « ما جاء بك إلا لزيارتي ؟ » ، قلت له : نعم ، فقال لي : « آلله عليك؟ » ، قلت : الله عليَّ ، ما جئت من بلادي وأهلي إلا حيث طرق سمعي في مجالس العلماء ، ومن ينتمي إلى طريقة الصوفية أنهم يقولون : « إن كان قطب الوجود يجوز إظهاره للناس فهو الشيخ محمد بن أبي الحسن البكري » ، لما سارت به الركبان وتسامرت في حديثكم الخلان عند أرباب الصلاح والعلماء ، وتقويم سيرتكم الحميدة ، فكان هذا سبب تحرك الهمة إلى حضرتكم الكريمة .

فأعجبه كلامي ثم رجع يثني على أهل المغرب بالخير وطلبهم الزيادة ، ولا يزالون يتوجهون إلى الشرق لطلب الزيارة ، وعَدَّ منهم جماعة ، ثم ذَكَرَ في النسب النبوي إلى أن ذَكَرَ فيما ذَكَر حكاية المأمون التي ذكرها الإمام الغزالي في كتابه « سر العالمين » ، وهي قوله : « ذكر من أثق به أن المنصور أغرى بقتل العلويين ، حتى نفر أكثرهم إلى اليمن فلما وصلت النوبة إلى المأمون ، وكان يتولى محبة أهل البيت، فسأل عمن بقي من الأشراف الفاطميين ، فأُخبِرَ عن قوم بأرض اليمن ، فأنفذ إليهم يستعطفهم ويطلبهم إلى عنده ، فأجمعوا رأيهم على أن كل واحد منهم يبعث شخصاً يشبه به من وكيله وغلامه ، فإن كان خيراً فما يضر ، وإن كانت الأخرى فلهم أسوة بالسادات . فلما وصلوا إلى المأمون أكرمهم وأعطاهم ، وتزوجوا وتوطنوا ، فإذا وجدت شريفاً مقبحاً غير زاكي ولا زكي فهو منهم ، لأن هذا البيت المعظم لا تسلط الفحشاء على منازلهم ، وهو معنى قوله ﷺ : نحن أهل البيت الطاهر لا نفجر ولا يفجر بنا » ، انتهى .

فقال واحد من أهل المجلس : « فما الفرق بين من جاء من أشراف المشرق بين السني وغيره من هذه الأنساب المزورة ؟ » ، فقال الشيخ : « السنة واتباع آثار آبائهم وأجدادهم الكرام » ، قال : « وأما أشراف المغرب ، خصوصاً إدريس الأكبر ومن قام بعده من ذريته بالأمر ، فما قدرت عليهم الملوك في ذاك الزمان ، وهم إلى الآن نسبهم مضبوط » ، انتهى كلام الشيخ البكري .

ثم سِرنا معه إلى قبر الشيخ أحمد البدوي ، في قرية معروفة من أعمال مصر إلى البحر ، بينها وبين مصر نحو خمس مراحل تقريباً ، وأقام عنده ثم رجع قافلاً إلى مصر ومن معه ، وكان في بعض الأوقات إذا رآني نسايره من بعيد وهو راكب في المحفة - وهي معروفة بمصر تُحمل بين جَمَلَيْن مقدم ومؤخر، كالحجفة مغشى عليها ، فإن شاء راكبها أزال الغشاء من جانبها وإن شاء أسدله - وكان إذا رفع الغشاء ورآني قبله دعاني فيستخبرني عن مجيئي إليه ، وعمن لقيت من الأولياء ، وهل ركبت في سفرك هذا أو تسير على رجليك ، فذكرت له : أنه قليل ركوبي إلى حضرتكم الكريمة .

فلما رأى ما عليَّ من أثر تعب السفر ، روى حكايةً عن وافدٍ وَفَدَ على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ في حقه : « من أراد أن ينظر شابًّا من شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا الوافد » ، وأشار في الحديث إلى جنابي معه في قرينة الحال ، حالي وحال الوافد على النبي ﷺ ، وهذه بشارة لي منه رضي الله عنه .

وهكذا أنا وإياه في طريقه إلى مصر راجعاً من الزيارة ، حتى قال لي مراراً : « آلله عليك ، إنك ما تحركت من المغرب إلا لما ذَكَرْتَ من الثَّناء عليَّ من أعيان أرباب المغرب المشار إليهم ؟ » ، فقلت: نعم، أنت يا شيخ تطالبني بين يدي الله تعالى إن كنت كذبت عليك أو قصدي لغيرك في المشرق، وأنا أطالبك بين يدي الله تعالى إن كنت تعلم الاسم الأعظم ولا تعلمني إياه . قال لي : « ما تريد بالاسم الأعظم ؟ » فقلت له : نستدل به على المسمى ، فقال لي : « محمد ما يعرف الاسم الأعظم» ، ففهمت منه أنه يريد التورية علي ، أو يريد أنه يعرف المسمى دون الاسم، فقلت له : يا سيدي من لا يعرف الاسم لا يعرف المسمى ، فكان جوابه عليَّ بالتبسم وأنا قلت ذلك من باب الإدلال عليه ، ثم جاء من حال بيني وبينه من الزوار ، إلى أن قرب من مدينة الإسلام مصر ، وقابلته على العادة حيث يراني إذا رفع أستار المحفة ، فقلت : يا سيدي الفاتحة النية حصلت برؤيتكم .

وسبب كلامي هذا أن شيخي عبدالقادر الحمياني المذكور أولاً قال لي : « الوعد بيني وبينك جبل الطور في مسجد موسى عليه السلام بعد صلاة المغرب » . فذكر لي ليلة معينة نسيت اسمها ، فقال لي الشيخ محمد المذكور : « أنت ضيفنا ، ادخل معنا مدينة الإسلام مصر » ، فدخلت معه بعد مراجعة بيني وبينه في ذلك ، فدخلت معه إلى منزله مع جملة من دخل معه من عياله والفقراء والأخدام ، وقصروني أنا من الدخول مع من دخل ، قصرني واحد من الترك من أخدامه ، فرآني ما اقتصرت، فضربني بكرسي البندق بين كتفي ، وذلك لظنه الفاسد أنه كلما دعاني الشيخ توهَّم أنه يعطيني دراهم وليس ذلك مطلبي ، وبِتُّ مع الفقراء خارج المسجد إلى الغد ، وجلست ساعة على باب الشيخ ، والناس يدخلون عليه أفواجاً حيث وفد من زيارة الشيخ أحمد البدوي ، وحيث عجزت عن الدخول

عليه مع من دخل ، وحالَ البوَّابُ بيني وبينه ، سِرتُ من مكانه إلى الجامع الأزهر ، فلقيت جماعة من المغاربة ، واستخبروني عن أوطانهم التي دخلتها ، وعن أعيانها ورخاء أسعارها وغلاها وعن الفتن ، إلى أن قالوا : « ما جاء بك إلى هنا ؟ حاجًّا أو زائراً أو طالب علم النقل ؟ » ، فقلت لهم : ما جاءني إلا زيارة الشيخ البكري لما تقدم ذِكْره ، وحكيت لهم ما وقع من الخادم .

فتعبوا من ذلك المغاربة كثيراً لإهانتي ، وقالوا : « ما وجدت في بلاد المغرب من يكفيك في مطلبك عن هذه الإهانة » ، وزادوا في الكلام ونقصوا فيما بين المغاربة وأهل مصر من المنافرة في الطباع ، إلى أن قالوا : « لو كان في الشيخ همة فعالة من همم المشايخ لكان تصرف بها في التركي الذي مد يده إليك، إما أبطلها أو فعل غير ذلك ، لأنه أمرك بالدخول معه ، وتركك لما فعل بك من الإهانة » ، ثم قال بعضهم لبعض من الحمقى : « ما ينصفنا إلا إذا جلس الشيخ لنشر العلم ، مكنًّا واحداً من سفهاء المغاربة يضربه على رؤوس الأشهاد » ، فقلت لهم : ما يصلح هذا من أجلي ، وأنا حملته على النسيان ، والنسيان جائز عليه وعلى غيره . فقبلوا عذري في ذلك ، وقام واحد منهم معي إلى صاحب الجراية - وهي الصدقة - التي لطلبة العلم وللمجاورين في الجامع الأزهر ، فرسموني من جملتهم .

وكنت أتردد ما بين جامع الأزهر وما بين بيت الشيخ محمد البكري نحو خمسة عشر يوماً ، وكلما جئت إلى الباب ردني أخدامه ، وأناسٌ يدخلون ويخرجون في هذه المدة ، والمغاربة المجاورون تعبوا لذلك حتى ربما أحد منهم دخل في عِرْض الشيخ ، وأنا أعتذر لهم لئلا يسيئوا به الظن ، وربما يكون له مرادٌ بذلك ، وهو من أكبر الرياضات في حقي ، لأن نخوة رئاسة أرباب المناصب تكسر في الوقوف على أبواب الصالحين ، لأن آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين الرئاسة .

والرئاسة رئاستان : رئاسة مذمومة : وهي المقرونة بالكبر والعجب والرياء وغير ذلك . ورئاسة محمودة ، وهي على غير ذلك .

- **أقول** : الرئاسة المحمودة ، ما أرادها الرب لعبده ، وهي واقعة لا محالة . والرئاسة المذمومة هي ما أرادها العبد لنفسه ، ولا تقع هذه إلا إن وافقتها الأولى ، أي إرادة الله ، وهذه هي التي فيها ما ذكر والأولى مجردة عن ذلك . انتهى -

قال : فحملت الشيخ على هذه الثانية - أي المحمودة - كما جرى لكثيرٍ من عيال الأقطاب إذا وفدوا على من يريدون منه الإنتفاع به ، وكانوا يرون ذلك إقبالاً في حقهم ، وعلموا من ذلك صدق التوجه إليهم لتذللهم على أبواب المشايخ ، وغير ذلك مما يحسن به الظن في الشيخ ، إلى أن جاءني رجلٌ من أهل الخير ، وأنا على هذه الحالة فقلت له : سلِّم على الشيخ ، وقل له : إن الشريف الذي وفد إليك

من المغرب قاصداً إليك وأمرته بالدخول معك ، وقلتَ له : إنه ضيفك ، فدخل على ما ذكرتَ له ، وأراد الدخول مع من دخل معك ، فقصر من الدخول ، والآن قال : إن كان راضياً عنه سار حيث أراد ، فإنه ما قيَّده إلا كلامك .

فأبلغه الرسول ما ذكرت له ، فلما أعلمه خرج الشيخ وهو يبكي ، وقال : ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، استشهد بالآية الكريمة ، ثم قَبَّلَ بين عَيْنَيَّ وقال : « كيف يكون حالي مع النبي ﷺ حيث منعت من دخولك عليَّ ، وأنا الذي أمرتك بالدخول معي ، وأنت ضيفي » ، وأخذ بيدي وأطلعني من مكانٍ إلى مكان في منازله ، إلى مكانٍ دون حريمه وبناته ، وقال لي : « هذا حدك ، فإن زدتَ على هذا أدبتك » ، وهو يتبسم . وبعد ذلك كنت كل من أراد الدخول عليه حتى من عياله ما يدخله عليه إلا أنا ، وكذلك كل من لا يعبأ به من الناس لاستحقاره ما يدخله إلا أنا ، ومعي ومعه في هذه الأشياء مفاكهة ، حتى جاء إليه مرة زوار من فقراء ومساكين وحجاج وغيرهم ، وأرادوا الدخول عليه ، فقال لهم البوَّابون : « ما يدخلكم إلا فلان الشريف يوسف » ، فقالوا : « أين يكون هذه الساعة؟ » ، قالوا: « في الجامع الأزهر عند علماء المغاربة في رباطهم » ، فجاؤوا إليَّ مثل الرُّسُم - أي الحوائل - فسرت معهم واستأذنت لهم عليه ، فأذن لهم بالدخول عليه ، وانبسط معهم غاية البسط ، وقال لواحدٍ من البوابين اسمه بدر : « هكذا أدخل عليَّ الوافدين إليَّ في الله ، مرحباً بوفود الله » ، ثم تَنَزَّل معهم في المفاكهة إلى أن قال لهم : « غداكم اليوم على مولاي الشريف اقبضوه فيه » وهو يضحك، فقال واحد من الوفود : « إذا أذنت لنا في ذلك ، إما غدّانا وإلا بعناه في غدانا » ، فقلت له : يا سيدي هم أضيافي وأنا ضيفك . فأخرج لهم سماطاً وجابرهم لأجلي .

ولا لقَّنَنِي الذِّكر إلا بعد خمسة عشر يوماً ، قال ليلة لقنني بعد صلاة المغرب : « الآن سمعتُ فيك النداء من قِبَل الحق ، وأنا ألَّا صاحبك وعاد لك شيخ غيري». وهذا من باب التنزُّل معي ، فاستحييت أن أقول : من هو غيرك ؟ أو في أي جهة هو؟ ولو ذكرتُ له ذلك لأجابني ، لكن لَزِمْت الأدب حتى تجيء منه ذلك . فأجلسني في حال التلقين بين يديه متربعاً ، وهو كذلك وجعل يديه الكريمتين على فخذي وقال : « هكذا لَقَّنَنِي والدي أبو الحسن البكري ، كما لقَّنه شيخه أبومدين النجار » ، وأتى بسلسلته من شيخ إلى شيخ إلى أبي الحسن الشاذلي ، إلى سيدنا الحسن بن علي السبط عن سيدنا علي بن أبي طالب إلى النبي ﷺ ، فقال : « لا إله إلا الله » ، مَدَّ بها صوته ثلاث مرات ، وأنا ساكت ، فلما تمها قلتها ثلاث مرات ، وقالها معي من حضر تلك الساعة من عياله وفقراه .

ثم أقمت عنده بعد التلقين أربعة أشهر ونصف لا نفارق مجالسه ، ونظره الكريم عليَّ بعين الخصوصية ، ولربما طاب مجلسه في بيته الذي هو مختص به لإجتماع الناس إليه ، وأراد لأحد من الناس

الذين هم أهل الطلب للأسرار قال له : « اجلس إلى حول مولاي الشريف ، لأنه محل النظر عليه » .

ولنا معه منازلات وأحوال غريبة ، وكان يعاملني بمعاملة ما عاملني بها أحد من المشايخ الذين أخذت اليد منهم من المغرب ، وبانت لنا نتيجة من تلقين الذِّكْر ما كنا نعتادها قبل ذلك من الذِّكْر الذي هو قول : « لا إله إلا الله » .

وكان من أمر الله تعالى أني ذكرت له في دخول الرياضة على يديه يوماً وليلة فقال لي : « الآن علمت منك صدق التوجه إلى الله ، لكنك اعتكف الليلة عند قبر الشيخ أبومدين النجار المقبور حول بيته » ، وهو شيخ والده المذكور ، فاعتكفت والتزمت ذكر : لا إله إلا الله ، حتى غلب عليَّ النوم ، فإذا برجل وفد عليَّ وقبضني بجميع ثيابي على رقبتي ، وجرَّني إليه بعنف من علوٍّ إلى سُفْلٍ ، فإذا أنا عند أطناب بيت الشيخ البكري .

ثم أصبحت ولا خرج الشيخ ذلك اليوم ، فسرت إلى الجامع الأزهر لحضور درس التوحيد عند الشيخ مخلوف المغربي ، وكان يدرِّس في شرح أم البراهين لمصنفها ، فأعلمته بالقصة فقال لي : « أنت شريف ؟ » ، قلت : نعم ، فقال : « جاء رجل من الهند من قرية المحلة - وهي قرية من أعمال مصر - وجاء إلى حضرموت لزيارة من فيها من الصالحين أشراف وغيرهم ، وفيها شريف اسمه أبوبكر بن سالم أو سالم بن أبي بكر - فتذاكر المحلي هو وإياه في من ينتفع به من الأولياء بمصر والشام والمغرب ، فجوَّب عليه بما يقتضي سؤاله في الحال ، وذَكَرَ له في جملة ما ذَكَرَ أني موعودٌ بولد صغير شريف ، يقرأ العلم في مدينة فاس ، فتَحَيَّرَ عليَّ ، وأنا موعودٌ به ما أموت حتى يجيء إليَّ - فإن كنتَ شريفاً فَسِرْ إليه فإنه صاحبك » ، فجئت أنا وإياه إلى عند المحلي ، فما وجدناه في بيته الذي في مصر ، وقالوا خرج إلى المحلة ، وذكر لي نسيبه ما قال لي الشيخ مخلوف .

ثم جئت إلى دار الشيخ محمد البكري فقال لي : « نريدك تسير إلى جدك رسول الله ﷺ ، لأن هذا الذي تطلب ما تجده إلا عنده » . في كلام كثير ، ثم أمرني أن نكتب مع الحجاج المغاربة إلى أهلي ومن كان من مشايخي في مدينة فاس ونواحيها، فقلت له : وكيف أقول لأهلي ؟ فقال لي : « قل لهم : أني وجدت الرجل الذي يطوف عليَّ بالمغرب ، وأنا كتبت هذه الورقة من محروس مصر ، وأنا ملازم حضرة سيدنا الشيخ محمد البكري ، وهو يسلم عليكم ويدعو لكم » . فكتبت إليهم بإذنه، ووجهت الكتاب إلى مدينة فاس .

ثم جهزني إلى مكة ، وزودني بما كتب الله من الدراهم ، وكتب معي كتاباً إلى صاحب جرجة ، وهو أمير صعيد مصر ، من قبائل يسمون الشراكسة ، ومن جملة ما قاله في كتابه : « إنه وصل إلينا هذه السنة من بلاد المغرب هذا الشريف الوافد إليك بكتابنا ، فلا أحد يطلع عليه إلا الله ، فاستوص به خيراً فيما

يوصله إلى مكة من بندر قصير هو ومن معه » .

وأرسل معي واحداً من ذرية الشيخ عبدالرحيم القناوي حالِّين في قرية قنا، وأمرهم أن يأخذوا لي زاد بُرٍّ يطحنونه ويجعلونه على سالف أغراضهم محمص وطحين وحب بُر ، فلما قضيت حاجتي من الشركسي صاحب جرجة ، جابرني وناولني ما فتح الله به دراهم واعتذر مني ، وكتب معي إلى والي بندر قصير مع واحد من ذرية الشيخ عبدالرحيم القناوي ، وسرت مع الشريف القناوي وتوجهنا إلى قصير ، فأوصلني إليه ورجع عني . فركبنا من قصير ، وكنا جماعة نحو سبعين، فركبنا في خمسة مراكب صغار ، وكل منهم زاده معه إلا أنا فزادي على صاحب المركب للتبرك بي وحسن ظنه ، فلما دخلنا جدة أخذت له خطًّا من حاكمها أن لا أحد يفتش عليه لما فعل معي من المعروف ، ثم أحرمنا بعمرة من ميقات الجهة . دخلنا مكة يوم عشر في شهر رمضان من شهور سنة ٩٩١ .

فلما دخل شوال توجهت إلى المدينة على ما قال شيخنا محمد البكري ، وأخذت طريق درب الماشي، ووجدت زواراً من أهل القرى ، فزرت معهم النبي ﷺ ، وأقمت في المدينة خمسة أيام نتردد على قبر النبي ﷺ وصاحبيه ، وزرنا حمزة والشهداء بأحد والبقيع ، ومن كان في تلك الأماكن المباركة والمشاهد المعظمة .

ثم توجَّهتُ إلى مكة أيضاً ، آخذاً طريق درب الماشي ، وخرجت مع الحجاج لعرفة ، وحججت هذه السنة ٩٩١ ، وكنت ملازماً أيام إقامتي بمكة درس الشيخ يحيى الحطاب ، ومشاهداً البيت .

وحضرت وفاة الشيخ محمد بن بركات أبونمي ، وهو سلطان مكة في ذلك الزمان ، ولنا المغاربة فيه عقيدة ، حتى إنه يسمى عندهم : باشحوحية ، لعدله ، وزرته وهو حي بعد ما حج تلك السنة ، وزرته بعد ما خرج من منى متوجهاً إلى عرفة ومعي جماعة من المغاربة ، فلما رآنا مقبلين إليه قام لنا ، وقبلنا ركبته الكريمة ، وطلبنا منه الدعاء ، فدعا لنا ونرجو من الله أن يقبل دعاءه لنا ، لأنه صاحب عدل في رعيته وأهل مملكته ، وسبب وفاته أنه خرج إلى الفريق فسقط من فوق مطيته ، فكان ذلك سبب موته ودخلوا به مكة وقبروه في مقبرة آبائه ، وقرأوا عليه ثلاثة أيام في الحرم الشريف تجاه الكعبة، وأنا من جملة من قرأ عليه مع الشيخ الحطاب وأصحابه ، ثم فتحوا الكعبة ودخلت في جملة من دخل ، وسألت الله فيها أن يبلغني مرادي .

ثم خرجت إلى جدة ، وركبت في مراكب اليمن ، وذلك في شهر المحرم من شهور سنة ٩٩٢ ، وخرجت على بندر جيزان بعد شدة طوفان في البحر ، فأنجانا الله من الغرق ، ثم توصلت إلى قرية بوعريش ، وفيها المشايخ آل الحكمي ، وكتبوا معي كتاباً إلى فقيرٍ لهم في صعدة ، فوصلت بالكتاب إليه، وجابرني أيام الإقامة في صعدة .

وخرجت مع قافلة خارجة إلى الجوف ، وفيها أشراف الحمزات آل غر وآل جودة ، وسألوني عن نسبي فحكيت لهم أني من ذرية الإمام إدريس الأكبر ، وإذا أخبارنا عندهم أكثر من أخبارهم عندنا ، فزودني أمير الزاهر اسمه ياسين بن ناصر من آل جودة .

ثم جئت إلى الشيخ أبي بكر بن سالم مع زوار كثير ، خرجوا من وادي بيحان ومعهم أمل للشيخ، وكان بين شبوة وبيحان مفازة خبت ما تُقْطَع إلا على المطايا ، وكان هؤلاء الزوار معاملتهم معي معاملة جفاء ، كما قال الله تعالى حاكياً عن نبيه يوسف عليه السلام :﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾.

فلما وصلنا إلى الشيخ أبي بكر بن سالم في بيته المعروف بقرية عينات ، فجابرني بعكس ما هم فاعلين معي من الجفاء ، وأخذت المجالس عليه في نحو ثمانية أيام، وحكيت له ما سبب مجيئي إليه ، وإن الرجل الذي كان يطوف عليَّ بالمغرب بعد ما أخذ قلبي وعقد لساني ، من قول الشيخ يوسف الدادسي نزيل مكناس ، ولا أحد دلني عليك إلا الشيخ المحلي أنك قلت له : « إني موعود بشريف يقرأ في مدينة فاس » ، فإن كنت أنا صاحبك فإني قد جئتك ، وإن لم أكن أنا صاحبك وقد أطلعك الله عليه فدلني عليه - أي على الذي كان يطوف عليه بعدما أخذ قلبه وعقد لسانه ، والعجب أنه هو ولم يقل : أنا هو، كبعض الأكابر بالتلفظ بالدعوة إلا بأمر النهي لزيادة تحقق المعنى والزيادة في الإعتقاد ولذلك قال : « رأيتك في ظهر أبيك وحضرت ولادتك» ، إلى آخر ما قال ، ولتوقف الأمر على الإذن من الله، توقف الذين كاشفوه به عن تعيينه فلم يعيِّنوه ، حتى بيَّنه الله له على لسان ذلك الرجل المحلي - فإن البكري قال : « أنا صاحبك ، وعاد لك شيخ غيري » ، فجوَّب عليَّ الشيخ بكلامٍ يناسب حالي في تلك الساعة .

وأقمنا عنده ثمانية أيام وحكَّمَني فيها ، وكان دخولي عليه في ثاني وعشر من شهر ربيع الثاني سنة ٩٩٢ ، وسِرتُ من عنده مع الخطار إلى مدينة سبأ ، فلما أقفيت منه حكى لبعض خواص أصحابه : « بأن الشريف الذي وعدتكم بمجيه إلي قد جاءني مع هذا الوفد » ، فقال لي الذي حكى له بهذا وقال : « فبكيت حين ذَكَرَ لي ذلك ، وعلمت أن الشيخ قَرُبَتْ نقلته ، لأجل معرفتي بهذا الشريف الذي وعدنا الشيخ بوصوله»، ثم قال : « فقال الشيخ : عاد يرجع إلينا » .

فرجعت إليه من مأرب ، ووجدت أهل حضرموت ومن كان ينتمي إلى الشيخ في لبس الخرقة وغيره مقبلين عليَّ ، لما سمعوا من الشيخ أنه ذَكَرَني قبل وصولي إليه ، وبعد وصولي إليه وقال : « هذا هو الشريف الذي وعدتكم بوصوله إلينا » . فازداد أهل الجهة فيَّ محبة ورغبة .

وأقمت عنده ما شاء الله نحو خمسة عشر يوماً ، ثم قال : « اعزم » ، فعزمتُ من عنده إلى قرية يشبم، فصمت رمضان عند شيخ من مشايخ تلك الجهة ، وهو رجل مبارك اسمه عبيد بن عبدالملك .

- من جماعة هناك الآن يسمون العوالق ، يقولون إنهم من بني أمية ، ومن ذرية يزيد بن معاوية، وفيهم أناس أخيار ، ومنهم كثير يترددون على سيدنا عبدالله للزيارة ، وكل سنة في آخر ذي القعدة يرسلون له بنحو عشرة رؤوس غنم ، منها ضحاياه في العيد ، وما بعده من أيام التشريق ، ويوم الثامن يأمر بذبح نحو أربعة أو خمسة يقسِّمها على الأقارب والضعفاء من السادة ومن غيرهم من الفقراء -

ثم رجعت إلى الشيخ بإشارة منه بنقلته إلى لقاء مولاه ، ودخلت عليه في خامس أو سادس في شهر ذي الحجة ، وقال حين واجهته : « هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا ، تحيَّرتَ علينا يا يوسف ، وأنا أبو الأرواح، وأما والدك فهو أبو الأشباح ، والله لقد نظرتك في صلب والدك عابد ، وحضرت ولادتك » ، ثم جاء بعدي اثنان : واحد من الروم اسمه : شكر ، وواحد شريف حسيني من وراء النهر ، وعيَّدنا الجميع عنده عيد عرفة . وقال بعد عيد النحر قبل أن يمرض بيوم ، ومعي محمد علي بن عمر الكثيري : « أما يوسف فقد جعلناه شيخاً مربياً » .

وبدأ به المرض ليلة الثلوث ، أربع عشر في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة سنة ٩٩٢ ثنتين وتسعين في القرن العاشر ، إلى ليلة الأحد ليلة ست وعشرين في الحجة . وهو لا يزال يلاطفني ويعاملني حتى أني أغمضت عينيه عند خروج روحه الزكية إلى الحضرة العلية . وكانت مدة نظره عليَّ منذ لقيته إلى أن فارقت روحه جسده ، ثمانية أشهر وثمانية أيام ، ولنا معه منازلات ومراجعات .

فهذا سبب نقلتي من مصر إلى حضرموت ، ومن المغرب إلى مصر ، فكان مجيئي من المغرب إلى مدينة الإسلام مصر الشيخ محمد البكري ، ومن مدينة مصر إلى جهات حضرموت الشيخ أبوبكر بن سالم . وكانت وفاته الشيخ محمد البكري بعد وفاة الشيخ أبي بكر بن سالم نفع الله بهما بمصر ، في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وتسعين في القرن العاشر ، وهو من ذرية طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

فلنرجع إلى ذكر سبب الإقامة بحضرموت بعد انتقال المشايخ المذكورين ، الذين كانوا سبب هجرتي إليهما : فلما انتقل الشيخ أبوبكر بن سالم ، أقمت في بيته عند عياله ، وهم سادات أجلاء فضلاء: الشيخ أحمد ، وهو أكبر عياله الذين أدركتهم ، والشيخ الحامد ، والشيخ عمر ، والشيخ الحسين ، والشيخ صالح ، فهؤلاء هم الكبار من عياله ممن كان يجابرني في حياته وبعد مماته ، ومن بناته : السيدة الفاضلة طلحة بنت الشيخ أبي بكر كانت تحت ولد عمها عبدالرحمن بن الحسين بن سالم نفع الله بهم .

وهذا نسب سيدنا الشيخ أبي بكر بن سالم نفع الله به : « هو الشيخ أبوبكر بن سالم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن الملقب بالسقاف بن محمد الملقب مولى الدويلة بن علي بن علوي بن الشيخ محمد الملقب بالمقدم بجميع الفضائل بن علي بن محمد صاحب مرباط وهو مجمع كل السادة

آل باعلوي بن علي المعروف بخالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي الذي ينسبون إليه بن عبيداللاه بن أحمد المهاجر بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنهم أجمعين»، وهم سادات فضلاء ، ومشايخ أجلاء ، علماء لهم أتباع في الخير والبركة ، ونال منهم أهل الجهة شيئاً كثيراً من أحوال الصالحين، مثل ما قصدتهم أنا لذلك ، وجدناهم كذلك لإعانة الملهوف ولمن قصدهم لمثل مطلبي ، فلله الحمد على ذلك .

وكان من الذين انتفع من آبائهم الشيخ أحمد بن عبدالقادر الملقب بابن عقبة الحضرمي من شيخ منهم يقال له : الشيخ عبدالله بن أبي بكر الملقب بالعيدروس بن الشيخ عبدالرحمن السقاف .

وقال لي ثقات حضرموت : هو الذي أمره بالسفر من قريته شبام من قرى حضرموت إلى مكة والمدينة وبيت المقدس ، ثم جاء إلى مصر وتوطن ، وبها اتفق به أحمد زروق ، وكان من أمرهما ما شهر خبره في رسائل أحمد زروق ، خصوصاً ما يتعلق ببعض مناقب الشيخ ابن عقبة .

ثم نويت السفر من عند عيال الشيخ أبي بكر بن سالم إلى جهة بلادنا بالمغرب ، وذلك في آخر محرم عاشور أول سنة ٩٩٣ ثلاث وتسعين في القرن العاشر ، وأنا إذ ذاك لي من العمر نحو سبع وعشرين سنة أو ثمان وعشرين سنة .

فلما توجَّهتُ من قرية الشيخ راجعاً ، بِتُّ في قرية حول قرية الشيخ من مغاربها اسمها روغة ، وفيها شيخ شريف مبارك من أصحاب الشيخ ، يقال له : عقيل باحسن ، يكنى بجمل الليل ، وكان حضر وفاة الشيخ وغُسله والصلاة عليه ودفنه، وقد طلبني نمر عليه عند رجوعي .ولأن الشيخ رضي الله عنه ما مات حتى شيَّع ذِكْري في جهة حضرموت ونواحيها ، فأكثر الناس أرادوا التعرف بي ، لما رغبهم الشيخ في جنابي ، وكان يقول لبعض خواصه : « اقرأوا علم التوحيد على يوسف، لأن أرض حضرموت خلية عن علم التوحيد ، وذلك لسلامة الجهة وما فيها من المذاهب إلا مذهب الشافعي»، فبِتُّ عند هذا الشيخ المذكور وجابرني وبتُّ في مسجده ، فرأيت فيما يرى النائم : كأنني عند قبر النبي هود عليه السلام ، وهو في أسفل حضرموت على ما ذكره الغزالي في كتاب « سر العالمين » ، وهو مشهور عند أهل الجهة ومزار عندهم ، يأتي إليه الزائر من جهة اليمن ونواحيها ، وتجاب الدعوة عند قبره - فرأيت تلك الليلة : كأني عند الجامع الذي حوله ، فإذا برجل خرج إليَّ من تلقاء القبر وهو في سفح جبل مقبور ، فدخل عليَّ ذلك الرجل ومعه وعاء من أدم يسمى جراب أو مزود أو قَرعَة فيه برلص ومسبحة وكوفية ، وقال لي : « هذه ثياب زروق ، كَسَوْنَاك إياها » ، فأصبحت مسروراً بذلك . وزروق من مشائخي الذين أنتمي إليهم بواسطة من أخذت عنهم اليد في بلاد المغرب .

فذكرت هذه الرؤيا للشيخ الذي بتُّ عنده ، فاستَرَّ لي بذلك وقال لي : « إن كل شريف من السادة العلويين النازلين في وادي حضرموت إذا أراد الله أن يعطي أحداً منهم من أسرار لبس الخرقة ما يعطون إلا عنده » ، ثم دخلت مدينة تريم إلى السادات الفضلاء من آل با علوي ، منهم الشيخ عبدالله بن شيخ ، وهنأني بهذه الرؤيا ، وبها قال لي الشيخ أبوبكر بن سالم قبل مرضه : « جعلناك شيخاً مربِّياً »، وألبسني خرقته التي فوق رأسه وهو القبع المعروف ، وأجازني مع القبع إجازة ونصَّبني شيخاً ، وأذن لي في لبسها لمن رأيته متأهلاً لذلك ، وكذلك الشيخ عبدالرحمن بن شهاب الدين ، وكذلك غيرهم من المشايخ من غير السادة لا يحصر عددهم .

ودخلت قرية سيئون من قرى حضرموت ، فيها قبر الشيخ من فقراء يقال لهم : آل با رجاء ، منهم محمد بن عمر الخطيب ، شهد له الشيخ أبوبكر حيث عَقَدَ أُخُوَّةً بيني وبينه ، والشريف عبدالرحيم الحسائي - ولده الآن سنة ١٠٣٦ قاضي بمكة اسمه عمر بن عبدالرحيم - وقال : « إنه من أولياء الله الذين لو أقسموا على الله لأبرهم » .

انتهى ما لخصته من قول السيد يوسف الفاسي من كتاب رحلته من لفظه ، وهو مجلد ضخم .

وقوله هنا : « إنه من أولياء الله .. إلخ » ، أي شهد الشيخ أبوبكر بن سالم للشريف عبدالرحيم بذلك ، وعبدالرحيم من سادة الحساء يقال لهم : آل الرديني ، كان جدهم سار مع الشيخ مبارك بن سلمة إلى بغداد ، وأخذوا الطريقة عن الشيخ الشعري . وجاء السيد عبدالرحيم في وقت الشيخ أبي بكر بن سالم إلى حضرموت زائراً ، ثم رجع إلى مكة ومات بها .

قال السيد علي باهارون في كتابه الذي في مناقب السادة آل باعلوي عن بعض المحبين ، قال : « جاءنا إلى مكة الشريف علي خرد باعلوي ، فحصل له القبول التام واستعقد فيه الناس ، فرأيته في المنام يقول لي : « أعلِم الشريف الرديني إنه وقع من الأبدال في هذه الليلة ، وخله يجيء إلينا » ، فلما أصبح الصبح جئت إلى الشريف الرديني ، وكان مريضاً فأعلمته ببعض الرؤيا ، فقال لي : الباقي ، ليش ما تعلمنا به كله ، أما قال لك : قل له يجيء إلينا ؟ فعرفت أنه اطلع علي » ، ومات الرديني بعد الرؤيا بأربعة أيام رضي الله عنه .

وعن الشريف عبدالرحيم المذكور قال : « ثلاث خصال لا يعتقد ولا يظن أنها في شريف : الأولى: البخل ، والثانية : الذلة ، والثالثة : ارتكاب المعاصي ، لأن أهل البيت مطهرين منزَّهين قد اختارهم الله من خلقه ، وجعلهم رحمة لأهل أرضه » .

وهذا نسب السيد يوسف الفاسي قال : « أنا يوسف بن عابد بن محمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر

بن عيسى بن الشيخ أبي الوكيل ميمون - وقيل : مسعود - بن عيسى بن موسى بن عزوز - بزائين الأولى منهما مشددة - بن عبدالعزيز بن علال - بتشديد اللام - بن جابر بن عياد - بالياء المثناة من تحت المشددة وبالدالة المهملة قبلها ألف - بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن الإمام إدريس المثنى بن الإمام إدريس الأكبر بن عبدالله المحض - ويقال له أيضاً : الكامل - بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه » .

وقول الشيخ أبي بكر : « أنا أبو الأرواح » ، هو معنى قول البكري : « أنت حسيني ، رأيت الحسين مكتوباً في جبينك ، وإنما أبوك حسني » ، فكأنه إنما رأى أبا الروح .

ثم إنه أصعد يريد السفر إلى بلاده برًّا ، إلى صنعاء ثم إلى اليمن ، ثم إلى الحرمين ثم من هناك إلى مصر ، ثم إلى بلاده المغرب كما قَفَلَ منها كذلك في مجيِّه ، فهذا كان نَوُّه وعزمه ، لكن اعترضه في مريمة من قرى حضرموت المعلِّم الزبيدي ، وكان من المترددين على الشيخ أبي بكر وسمع منه ما قال في شأنه، فقبضه وريَّضه عن السفر وزيَّن له الإقامة بحضرموت ، وزوجه بإبنته ، فكان من قضاء الله عليه أن تزوَّجها وتوطَّن بلادهم ، وجاءه منها ذرية ، وإلى الآن موجودون حمولة معروفين ، وفي الحرمين منهم جماعة ويقال لهم : « آل الفاسي » ، وصاهروا السادة آل باعلوي وتزاوجوا معهم - أي أخذوا منهم وأخذوا منهم - ومنهم في مريمة من جماعتهم : السيد الفاضل يوسف بن محمد بن عمر بن السيد يوسف الفاسي وغيره ، ومنه استعرت كتاب رحلة جَدِّه السيد يوسف المذكور ، ولخصتُ منها ما ذكرتُ .

وتوفي السيد يوسف بن عابد الفاسي ليلة ثامن عشر من شهر رجب سنة أربع وأربعين وألف ١٠٤٤ ، ودفن بمريمة ، وقبره بجنب قبر السلطان العادل الصالح المحدث عبدالله بن راشد من آل قحطان وهو صاحب وادي حضرموت الذي ينسب إليه ، فيقال له : « وادي ابن راشد » ، كما قال سيدنا عبدالله نفع الله به في القصيدة التي مدح بها الفقيه المقدم ، التي أولها :

يَا ظَبيْ عَيدِيدْ مَا في الحسنِ لَكْ ثَاني   هَـلْ مِـن سَـبيلٍ إلى لُقيَـاكَ يَـا غَـانِي

إلى أن قال :

نَعَـمْ وَبالـوَادِي الميمُـونِ أَجمعِـهِ   وَادِيْ ابنِ رَاشِـدَ مِن أَقْيَالِ قَحْطَانِ

والأقيال : جمع قيل هو الوزير من آل قحطان ، ويسمى الوزير في بني عدنان ، لأن العرب بطنان: عدنان وقحطان .

وكان الملك عبدالله بن راشد من أهل العلم والخير ، وقرأ صحيح البخاري على الشيخ المحدث محمد بن نعمان من أهل الهجرين ، ثم سار من تريم وهي وطنه إلى مريمة ، ليصلح بين قبيلتين من الزَّبْدِة ، فقتل وقبر فيها ، وزرت قبره وقبر السيد يوسف بحمد الله ، وعام وفاة السيد يوسف هو عام ولادة سيدنا عبدالله ، ولد ليلة الإثنين خامس من صفر ، قبل وفاته بخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً .

وفي قصة يوسف المذكورة هذه عبرة وأي عبرة ، فإنه كان في أقصى الأرض من مغاربها ، والشيخ أبوبكر عنه في مشارق الأرض ، فلو جاء القاصد عانياً من بلد أحدهما ما وصل بلد الآخر إلا بعد نحو سنة أو أكثر ، فلما أن الله سبحانه وتعالى أراد اجتماعهما ، وقدَّر له نصيباً على يده ، وكان الخبر الحسي لذلك متعذِّراً لعدم القاصدين من جهتيهما ، أجرى الله له ذلك السبب وحققه الله له ، فأجرى ذِكْرَه وخبره وشأنه على أَلْسِنَةِ أهل الكشف من الأولياء أهل الحقيقة ، ولكن لم يأذن لهم في تعيينه باسمه وكُنْيَتِهِ وما يعرف به ، وذِكْرِ بلده لما أراد أن يبينه له على لسان ذلك الرجل .

كما أجرى الله ذِكْرَ سيدنا عبدالله وأذن لذلك الولي بذكر اسمه واسم بلده ولقبه ووصفه بمقام القطبية ، على ما كاشف بذلك السيد أبا الطيب ، وبلاده وبلاد الذين كاشفوا السيد يوسف بشيخه الشيخ أبي بكر بن سالم واحدة ، فهذا صرح بذكر سيدنا وبينه ، وهذا يقتضيه الحال في وقته لشدة ظلمة الوقت وقلة أو عدم أهل البصيرة والمكاشفين المطلعين على بواطن الأحوال سوى ذلك الإنسان ، فأراد الله سبحانه إظهار شأنه وبيانه ، فبيَّنه على لسانه بخلاف وقت الشيخ أبي بكر ، فإن الأكابر فيه متظاهرون في كل مكان ، كما ذَكَرَ السيد يوسف من كثر من قصدهم ورآهم على طمعه في كل واحد أنه المشار له إليه على كثرتهم ، فأشاروا له إليه ولم يصرِّحوا به له ، حتى بيَّنه الله له على لسان ذلك الرجل في الوقت الذي أراده . ومن فائدة عدم تبيينه ليبقى مشتاقاً إليه مُجِدًّا في طلبه ، إلى أن قطع نحو نصف المسافة إلى مصر ، فبيَّنه له حينئذ وعيَّنه في عالم الحس عالم الشريعة ، فأُخبر أولاً حقيقة من عالم الغيب، على ألسنة رجال ذلك العالم ، ثم أُعلِمَ ثانياً شريعة من عالم الحس ، الذي هو عالمها على لسان أهلها ، لحكمةٍ أرادها العليم الحكيم ، فيالله من هذا العجب العجيب .

وشأن سيدنا عبدالله وحاله يقتضي أنه لو أعلمه الله أن رجلاً سيأتيه من المغرب أو من أقصى الأرض وأبعد بلاد أنه لا يخبر عن إتيانه إليه بحرف ، ولا يتكلم فيه بكلمة ، حتى يأتي بلا علم أحد عنه بشيء قط . فافهم الفرق بين حاله وحال من قبله ، وبين شأنه وشأن من سواه ، وذلك لأن الإخبار بأمرٍ سيقع فيه مكاشفة عظيمة وَشُهْرة مكينة ، وهو شديد البغض لذلك ، ويفر منه غاية الفرار ، ولا يمر بواديه .

وقول سيدنا : « **إنه لم يجتمع بالشيخ أبي بكر إلا نحو مرتين أو ثلاث** » ، فهي ثلاث على ما ذكرنا من قوله : الأولى : أول قدومه عليه ، وبقي عنده ثمانية أيام ثم سار مع الخطار إلى مأرب بأمره . ثم رجع إليه ، وهذه الثانية ، وبقي عنده خمسة عشر يوماً . ثم أمره أن يسير إلى يشبم بلاد العوالق ، وأن لا يرجع إلا بإشارة منه ، وصام فيها شهر رمضان ، ثم رجع إليه بإشارة منه ، ودخل عليه سادس ذي الحجة وهذه الثالثة ، ثم بدأ به المرض ليلة أربعة عشر من ذي الحجة إلى ليلة ست وعشرين وتوفي فيها، فهذه اجتماعاته به كلها ثلاث مرات كما أشار إليه .

والمقصود من ذلك قلة رغبتهم في كثرة مخالطة المريد للشيخ ، احترازاً من سقوط الحرمة وضعف الإعتقاد ، وكما قال فيما تقدم من قوله : « **إن المخالطة والإجتماع مانعٌ وحجابٌ عظيم** » ، حتى قال : « **إن السيد يوسف الفاسي في هذه المدة كلها ما اجتمع بالشيخ أبي بكر إلا نحو مرتين أو ثلاث** » .

وإلا فالسيد يوسف مع طول مدة تفتيشه والبحث عنه لما أخبره عنه أهل الكشف ، مع كثرة التفحص عنه في كل أرض وجهة ، وبلاد من بلدان المغرب ومصر ، وشدة ما قاسى من المتاعب في ذلك على ما نقلنا عنه من قوله ، إلى أن أتت به المقادير إليه حتى اجتمع به ، كان يقتضي الحال أن لا يصبر عنه لحظة ، ولا يغيب عنه ساعة ، لكن سياسة المشيخة وسلوك الطريقة يخالف مقتضى العقل والطبيعة ، كما سيأتي قوله : « **طريقتنا طريقة مظلمة** » ، أي لا مجال للعقل فيها ، كالذي يمشي بليلٍ في طريقٍ مظلم ، لا يعرف الطريق إلا بدليل ، والمراد بذلك الطريق الخاصة ، ولهذا شرطوا فيه الإنقياد الكلي ظاهراً وباطناً ، حتى يكون كالميت بين يدي الغاسل، لا يدبِّر معه شيئاً ولا حركة له معه ، فلما كان مراده أمراً لا يخطر في البال من الأمور الكشفية ، كذلك يلزمه أن يترك كلما يقع في البال من الأمور العرفية .

وهذا المعنى المذكور في عدم المخالطة ، هو الذي استشهد به ذلك الرجل الدمشقي في حق نفسه لما لمته وأكثرت عليه في عدم مجيئه إلى عند سيدنا ، مع مكابدته لأحوال الجهة ، فاعتَلَّ بذلك المعنى ، ولو كان على صدق ونصيحة لنفسه لكان عذره حقًّا وصواباً ، فإن ظاهر هذا مع حسن الباطن من كمال المحبة والعقيدة ، سياسة جليلة وسيرة جميلة ، فإذا خالفه الباطن كان ذلك حالاً خبيثاً فاحشاً ظاهره رياء وباطنه نفاق ، إذ النفاق إصلاح الظاهر مع خبث الباطن ، فظاهره إسلامٌ وباطنه كفرٌ نعوذ بالله منه .

وكل ما شابه هذا فهو مندرج فيه ، كعمل الطاعة الظاهرة إذا قصد بها غير الله ، فالصورة موجودة كصورة عمل المنافق من نطقه بالشهادتين وفعل أعمال الإسلام ، والحقيقة التي هو للروح وهو التصديق في المنافق وقصد وجه الله في العمل مفقودة فما نفع المنافق عمله في الآخرة ، إذ صار في

الدرك الأسفل من النار ، ولا نفع ذلك العامل عمله ، حيث حُرِم نفعه في الآخرة لعدم الإخلاص .

وما ورد في الكتاب والسنة من الوعد بحسن الجزاء على العمل الصالح ، لا يكون إلا بحسن العمل ، بأن تكون على قانون الشرع ، وبحسن النية ، بأن يقصد به وجه الله ، فهذا هو العمل مع حقيقته لا يحصل ذلك الوعد إلا مع اجتماعهما .

ثم إنهم في هذا الزمان خَلَوا عن الحقيقة ، حيث قصدوا بالأعمال الأطماع الدنيوية ، واكتفوا بالصور ، وادعوا أن تلك المواعيد باقية مدَّخرة لهم في الآخرة وقالوا : هذا جائز في قدرة الله ، ولا يجوز أن يبطل الله حكمته وما شرعه في دينه من شرطه الإخلاص في الأعمال ، لحديث : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، لأجل أهويتهم وشهواتهم ، بطلب جزائين على العمل ، جزاء يتعجله وجزاء يتأجله ، لا يكون هذا بل هذا غرهم به الشيطان وسوَّلت لهم به نفوسهم ، فساء ما يزعمون ، ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، فلو صَحَّ ما يدَّعون من ذلك ، لصَحَّ شراء الرقيق الميت ، وما لا يقصد إلا لنفعه لا لصورته ، فإن العبادة للطمع لا لوجه الله كالرقيق الميت .

ثم إن الله سبحانه لما أشهر الشيخ أبابكر على ألسنة المكاشفين من أهل المغرب ، بعدما أظهره وبيَّنه في قلوبهم تلويحاً ، كذلك أظهر سيدنا عبدالله في قلوب المكاشفين من أهل تلك الجهة وعلى ألسنتهم تصريحاً كقصة الذي كاشف به أبا الطيب .

والمتبادر من شأن سيرة سيدنا عبدالله نفع الله به كما ذَكَرَ وقال ، أنه لو كُشِفَ له أن رجلاً يأتيه من البلاد البعيدة المغرب أو غيره ، أنه لا يذكر ذلك قط ، ولا ينطق عنه بكلمة ولا يفوه فيه بحرف تحقُّقاً بالخمول وستر الحال في هذا الزمان الرذل .

انظر لما حكيت له برؤياي أني أسبح في الماء ، فحكيت له بالرؤيا وطلبت منه تعبيرها فقال : « **الماء عذب أم لا ؟** » ، قلت : عذب ، قال : « **وأنت تحسن السباحة أم لا ؟** » ، قلت : أحسنها . ثم سكت لما أنه عرف تأويلها ولم يستحسن ذكره لي ، مع رغبته في اطلاعي عليه من غيره ، حتى أحالني بالحال أن أفتح كتاب « حياة الحيوان » ، ففتحته فقابلني في أول مرة قوله : « من رأى أنه يسبح في ماء ، والماء عذب وهو يحسن السباحة ، فإنه يخالط رجلاً من الأكابر » .

فلما عَلِمَ أنه هو ذلك الرجل لم ينطق لي بحرف ، لما فيه من الإشارة إليه ، كراهة طبعية منه لكل ما فيه إيماء إليه بالتبجح والدعوى ، كما قال : « **لو عُرِضَ علينا هذا الكشف الصوري ، وقيل لنا : لا ينقصكم عند الله ، لما اخترناه** » ، عكس ما عليه المدَّعون اليوم ، من اشتهائهم أن يظهروا بين الناس،

وتظهر لهم كرامات يشتهرون بها ، وهذا منهم يشهد بكذبهم وانتفاخهم ، وأن نفوسهم فرعونية وسيرتهم هامانية وطريقتهم قارونية ، أخلى الله وجه الأرض منهم ، فلا جرم لمَّا عَلِمَ الله من سيدنا شدة رغبته في الخمول وقوة كراهته للظهور ، نوَّه بِصِيْتِهِ في الخافِقَين ، وأذن لأهل الكشف بالتصريح بذِكْرِهِ والله أعلم هـ .

قال رضي الله عنه : « لا يزال في كل زمان من آل أبي علوي أولياء ، إلا ما بين ظاهرٍ أو خامل ، ولا يكون الظهور إلا لواحدٍ منهم ، والبقية خاملين ، إذ لا حاجة إلى ظهور اثنين أو ثلاثة من بيت واحد وبلد واحد . والستر على حالين : ستر الولي عن نفسه : بحيث لا يعلم - أو قال : لا يعرف - بأنه ولي، وستر الإنسان عن غيره: بأن يَعرِف هو بأنه ولي ، ويُخفِي ذلك عن غيره ، ولا يطَّلع منه الغير على ذلك».

وذَكَرَ سيدنا في بعض مكاتباته : « **إن سِرَّ الولي بينه وبين الله تعالى قد لا يطلع عليه الولي نفسه** » ، **قال : « إن آل باعلوي إنما لم تشتهر مناقبهم لكونهم من طبعهم لا يذكرون مناقبهم ، بخلاف غيرهم كآل باعباد ، وأهل بلدهم يحسدونهم . ومن صنف في مناقبهم من أهل البلد كآل الخطيب هوجان لا يعرفون ترتيباً ، حتى إنه أُنكِر على صاحب الجوهر لكونه يَذكُر في المناقب أشياء مدح لأحد وفيها ذم لغيره ، لكن شَكَرَ الله له لكونه جمع المناقب ، ومن فيه شيء يقتدى ، ولو شهد لأبيك أهل الدائرة ما نفعك إلا إن اقتديت به ، ويقال : إن بعض السادة من آل مولى الدويلة عاونوا الخطيب على الجوهر ، وهو ظهر به » .**

أقول : مراده بالجوهر كتاب في مناقب السادة وتراجمهم وذكر كراماتهم ، يُسَمَّى: « الجوهر الشفاف في مناقب السادة الأشراف » ، مؤلِّف الشيخ محمد الخطيب بن الشيخ علي مولى الوعل على قُربٍ أو بُعدٍ من جماعة يسمون الخطباء ، وهم خطباء جامع تريم ، يقال إنهم من الأنصار من الخزرج ، من ذرية عباد بن بشر .

و « **هوجان** » أي سليموا الصدر ، يكادون من سلامة صدورهم أن يشبهوا الحمقى في أحوالهم وأمورهم .

وقوله : « **يذكر أشياء فيها مدح لأحد وذم لغيرهم** » ، وهذا من سلامتهم إن ذكرها قصد بها المدح لمن ترجم لهم وغفل عما فيها من الذم للآخرين . كما ذَكَرَ في مدح بعض أكابر السادة وقوة زهدهم ، وأنه لا يبالي بما ذهب عليه من الدنيا ولا يسأل عنه ، حتى إن بعض أولاده يسرقون عليه أشياء ويعلمها ولا يسأل عنها . وما هو بمعنى ذلك ، وكان أولاده إذ ذاك أطفالاً ، ثم بعد ذلك بلَّغهم الله مقام

القطبية ، فنسبة ذلك إليهم لا يليق في جلالة منصبهم ، وإن كانوا إذ ذاك معذورين لصغرهم، لكنه حين ذَكَرَ ذلك وهم في حالة الكمال ، كان الأولى أن يقول : فقد يُسْرَق عليه كثيرٌ ويعلم به ولا يسأل عنه ، ولا يضيفه إلى الأولاد . وذلك لما أشار سيدنا إليه به من سلامة الصدر .

وقوله : « **ومن فيه شيء يُقتدى به** » ، أي من معه شيء من الإتباع للنبي ﷺ ، والمشي على سيرته في العبادات والعادات من آبائك ، فاقتد به في ذلك ، ليكون مقتدياً بالنبي ﷺ ، ومحبوباً عند الله لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾الآية ، فهذا الذي ينفعك ويقدِّمك عند الله وعند خلقه ، ويرفعك في الدنيا والآخرة ، ولا تفتخر بآبائك لما لهم من المناقب فذلك لا يفيدك شيئاً ، ولو شهد لأبيك بكمال المعرفة والمنزلة أهل دوائر الأولياء كلها وجميع الخلق ، ما نفعك أنت ما لم تتبع أثره وتقتد به وتسير على سيرته .

وقوله : « **من آل مولى الدويلة** » ، مولى الدويلة محمد بن علي بن علوي بن الفقيه المقدم ، وهو أبو السقاف الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ محمد مولى الدويلة ، وذرية ولده السقاف وحده تشتمل على نحو أربعين قبيلة ، منهم آل العيدروس . وغير الشيخ عبدالرحمن من أولاده لهم ذراري تشتمل على قبائل كثيرة كلهم يقال لهم : « آل مولى الدويلة » ، وذَكَرَ في « الجوهر » من مناقب مولى الدويلة : « أنه توضأ وصلى في مسجد آل باعلوي ، ثم انسدح ساعة ، ثم أقيمت الصلاة لبعض الفرائض ، ثم قام وصلى مع الجماعة ، فقيل له: كيف تصلي ولا توضأت وقد نمت ؟ فنفض لحيته وإذا هي تقطر ماء وقال : وعزة ربي لقد توضأت للصلاة الآن من الكوثر » .

وسُمِّيَ مولى الدويلة ، لأن الدويل في لغة حضرموت : القديم والعتيق، يقولون : ثوبٌ دويل ، أي قديمٌ وعتيق . لأنه من دون بقية السادة نزل بُليدة « يبحر » ، بقرب قبر النبي هود عليه السلام ، ليتردد لزيارته متى أراد من قرب ، لتعطشه إليها وقلة صبره عنها ، لكونه موضع فتوحه ، كما ذكر الشعراوي: « إنه إذا فتح الله على وَلِيِّهِ في موضعٍ لم يزل يَحِنُّ إليه ويشتاق لرؤيته ، ويتغزلون في التشوق إلى تلك المواضع » ، كما في نظم ابن الفارض من التشوق إلى مكة للفتح عليه فيها كقوله :

وَحَيَاتِكُـم يَـا أَهْـلَ مَكَّـةَ وَهِـي لي　　　قَسَـمٌ لَقَـدْ كلفـت بِكُـم أَحْشَـائِي

وقوله :

قَسَـماً بِمَكَّـةَ وَالحَطِيـمِ وَمَـن أَتَـى　　　البَيـتَ العَتِيـقَ مُلَبِّيـاً سَـيَّاحَا
مَـا رَنَّحَـتْ رِيـحُ الصَّبَـا شِيـحَ الرُّبا　　　إلا وَأَهْـدَتْ مِنكُـمُ أَروَاحَـا

وغير ذلك ، بل كل ديوانه تشوُّقٌ إلى مكة المشرفة ، وتعلُّقٌ بها وتذكر أهلها بِذِكر مساكنها ، وذِكْر مواقف الحج فيها ، وذِكْرِ ما كان فيه من أحواله فيها ، وذِكْرِ تعبُّداته وتردده في مواضعها .

وكذلك قول الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن :

نَـذَرت أفْعَـلْ إذَا شَـاهَدَتْ　　　عَينَـايَ　عَيدِيـدْ　عِيـدْ

وقول السودي مثل ذلك وغيرهم .

فلما كان الأمر كذلك كان نزول سيدنا محمد بن علي مولى الدويلة قرية يبحر للتردد للزيارة لنبي الله هود لكونه موضع فتوحه ، كما ذُكِرَ أن غالب السادة بني علوي إنما فتح عليهم هناك . ويبحر تسمى الدويلة ، لكونها بلداً قديمة من بلدان عاد ، وبينهم وبين وقت الإسلام نحو أربعة آلاف عام ، ومن عاد شداد بن عاد باني إرم ذات العماد المتقدم ذِكْرَها . فنزلها الشيخ محمد المذكور وتوطَّنها ، وله فيها إلى الآن مسجد وبيت ينسبان إليه ، وصلينا بمسجده ودخلنا بيته ، وله هناك ذرية بادية يقال : آل مولى الدويلة وما عَدَلَهُم الشرف والفضيلة وتسمى يبحر إلى غرب بلدة قديمة عادية كانت عامرة في أول الإسلام تسمى تِنْعِة ، ثم خربت واندرست وما بقي منها إلا رسوم أساس بنيانها تدل عليها . وذَكَرَها في « القاموس » وأثنى على أهلها ، قال : « تنعة : بلدة بأسفل حضرموت ومن أهلها علماء محدثين ، منهم فلان وفلان التنعيون من أئمة أهل الحديث » ، انتهى . ويسمع الصوت منها إلى يبحر .

وكان برد سيدنا عبدالله رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١١٢٣ في دويرة قرب المكان في الحاوي بين النخل ، وذلك بعد العشاء وبعد ما قام من الراتب ، ولم يحضر إلا العيال فقط ، وهم الثلاثة حسين وعلوي وحسن وخامسهم خادمهم وفقيرهم، ثم تكلم بهذا المتقدم في المقالتين من قوله : « **لا يزال في كل زمان من آل باعلوي أولياء ..إلخ** » ، وقد تعوَّد البرود فيها في هذا الوقت ، وفي هذا الشهر في ثلاث سنين ، السنة المذكورة وسنتين بعدها .

وَبَرَدَ فيها أيضاً كذلك ليلة الأحد ١٨ ربيع أول سنة ١١٢٤ مع المذكورين أولاً فتكلم في السادة آل باعلوي *فقال* : « **إنهم غالب حالهم ألَّا الخمول ، ولا يظهر منهم إلا واحد ويُسلِّمون كلهم الأمر إليه، ويُمِدُّونه بالدعاء ، وهم في حالة الخمول ، فيبقى ذلك الواحد ظاهراً لإتيان الناس إليه ، وقصدهم إياه بالخصوص ، لكونه ظاهراً يُعرف من بينهم** » .

فقلت : وما السبب في كون الصالحين يخملون في تريم ، ويظهرون في غيرها ؟ فقال حينئذ : « **رح تخبَّر** » ، أي اسأل ، *ثم قال* : « **ذلك لكثرتهم فيها ، فلو كان في بلدةٍ أربعون مخزَناً يُبَاع فيها المسك**

هل لا تراه رخيصاً ؟ أفيكون مثل بلدة لم يكن فيها إلا مخزن مسك واحد ؟ وقد كان في وقت الشيخ عمر المحضار في مقامه أربعون من آل باعلوي ، منهم عشرون خلفه وعشرون أمامه ، وقد كان في وقته سريع الإنتقام ، كثير الأخذ للمجترئين المعتدين المتعدين ، لكن قال : ما دعوت على أحد وإنما إذا أغضبني أحد بقي في نفسي إشتحان عليه ، لم يزل حتى يموت . ولم يظهر من أولئك الذين في مقامه شيء من هذا » هـ .

أقول : وذلك لأنه متصرِّف في الكون بالهمة ، فلا يقول شيئاً من دعاءٍ أو غيره ولا يفعل شيئاً يتسبب به قط ، إنما هو بالهمة إذا هَمَّ بشيء أو اهتمَّ به كان لوقته بأمر الله ، وقليل من أكابر الأولياء من يتصرَّف بالهمة كما نقلنا من قول السيد يوسف الفاسي على ما تقدم من قوله حاكياً : « إني سرت في المغرب على طوائف ممن هم متزيين بزي أهل الصلاح ويدعي التصرف في الأكوان بالهمة ، فما وجدت إلا كلٍّ يدعي العجز عن هذا المطلب الذي كان يتعاطاه الأولون بالتصريف بالهمة في الأكوان » ، قال ذلك حاكياً على الشيخ الكامل عبدالرحمن الملقب بمن لا يخاف إلا الله ، فقال له : « هذا معدوم اليوم»، وكان عبدالرحمن هذا من كبار من لَقِيَهُم، ورجل آخر من كبارهم يقولون أنه القطب صاحب الوقت ، اسمه أحمد بن عمر العروسي وغير هؤلاء من الأكابر ، كلهم يُقِرُّون بالعجز عن هذا المقام .

وكان هذا مقام سيدنا الشيخ عمر المحضار نفع الله به ، وقد حصل منه من هذا كثير لمن أغضبه فيقتل أو يموت ، حتى إنه مرة كان بِعَرَف ، قريته التي كان ينزلها وقت حرث البُرِّ وتُنسَب إليه ، وقال القائل في ذلك :

مَـنْ خَـافَ ضُرًّا أو تَلَـفْ　　فَدَعَـى سُـحَيراً أو هَتَـفْ
بِاسْـمِ الشُّـجَاعِ المرتَـضى　　المنْتَقَـى صَاحِـبْ عَـرَفْ
جَاءَتـهُ　غَـارَةُ　سِرِّهِ　　تُنْجِيـهِ مِـن كُلِّ الكَلَـفْ

وكان عادته يحرث بها بعض الحرث ، فأرسل إلى الشحر يُشترى له بذر ، فجيء له بحمل طعام على جمل ، فسرق الجمل بما عليه جماعة من البدو ، فأرسل إلى شيخهم وأمره بِرَدِّ الجمل وحِمْله ، فرَدَّ الجمل وأبى أن يرد الطعام وقال : اتبعوا من نهب الطعام ، فقال الشيخ عمر : « ما تذبح المهزولة بل تذبح السمين » ، وقال : « يقتل وقت العشاء » ، فكان كما قال . وكان عند العوام والياً يسمى الذباح ، حتى إن امرأة كانت تمر على نخلة لبعض السادة وقت الرُّطَب ، فتأخذ منها رُطَباً ، فنهتها امرأة أخرى عن ذلك وقالت : « إنها للسيد فلان فلا تمسيها » ، فقالت : « ما كنت أحسب ألَّا إنها للذباح ، فلما كانت لغيره لا أبالي » ، ومكث ثلاثين سنة لا يأكل الرطب ، فقيل له في ذلك فقال : « تركته لله ، لأنه

كان أحب شهوات نفسي إليها » .

وقال في « المشرع » : وعَرَف بعين مهملة وراء مفتوحة وفاء : قرية على مرحلة من الشحر ، وله بها أملاك ، وغرس بها نخلاً ، وكان يزرع فيها ، وهي بقرب جادة تريم ، وكان الضيفان يقصدونه فيها ذهاباً وإياباً ، فيكرمهم الإكرام التام .

وحكي أن عسكراً معهم نحو ثمانين فرساً مرُّوا بِعَرَف ، وهموا أن يتجاوزوه خشية أن يشقوا عليه لكثرتهم وكثرة دوابهم مع قلة زرعه وقلة خدمه ، ثم عَظُمَ عليهم خوف غيظه عليهم إن لم ينزلوا به، ثم نزلوا عليه فقال لهم : « والله لو لم تنزلوا عليَّ لم يصل منكم أحد ، والله لو كان معكم عدد أوراق هذه الأشجار لم يهمنا » ، ثم أضافهم في أسرع ما يكون ، وأخرج زنبيلاً فيه الطعام ، وهو لا يسع إلا أربعين مُدًّا ، فأشبع تلك الخيول كلها . ولامه بعضهم على كثرة الإنفاق فأجابه بقوله تعالى : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾، وكان إذا غضب على أحد لا تتعدى العقوبة إلى ثلاثة أيام ، وإذا غضب على أحد أصابه الجذام أو غيره من الأسقام بعد ثلاثة أيام ، واعلم أن كراماته كالبدر ليلة الكمال ، أو كالشمس وقت الزوال ، وكأنما عناه القائل بما قال :

لَهُ كَرَامَات مِثل الشَّمسِ ظَاهِرَةً وَسِرُّهُ ظَاهِرٌ كَالشَّمسِ وَالقَمَرِ

وشكى إليه بعض الناس أنه عجز عن حفظ نَخْلِهِ لكونه بقارعة الطريق ، وجعل له رُبُعه فأبى أن يأخذه إلا بالمشترى ، فاشتراه منه فهابه الناس ، ثم قطع بعض الأرقَّاء منه سعفاً ، فأصابته شوكة وورم جسده ومات بعد ثلاثة أيام . وشكى له رجل أنَّ حُلِي امرأته سُرِق ، فأمره أن ينادي من عنده الحُلِي فليرده ، وإلا مات بعد ثلاثة أيام ، وقال له : « إن مضت الثلاثة ولم يرده فيموت وتجد حُلِي امرأتك في ثوب الميت » ، ففعل ، فمات الرجل بعد الثلاثة ، ووجد الحُلِي في ثوبه .

وأنشد في مدحه قصائد كثيرة ، منها لابن ابن أخيه ، وابن بنته الشيخ عبدالرحمن بن علي بن أبي بكر :

وَلُـذْ بِـأَبي الخَطَّـابِ في كُلِّ شِـدَّةٍ أَيَا عُمر الخُضْرَ مفرجاً كُلَّ كُرْبَةِ
فَقَـدْ جَـرَّبَ الغربـانُ تِريـاقَ غَوثِـهِ إذا باسْـمِهِ يُدْعَـى أَجَـابَ بِسُرْعَـةِ
وَذَلِـكَ مَشـهُورٌ لَـدَى كُلِّ مُسْـلِمِ تَوَسَّـلْ بِـهِ وَاسْـأَلْ بِـهِ دَفْـعَ محنَـةِ
وقُلْ : يا أبا الخَطَّاب يا ضَيْغَمَ الوَغَى وَيَـا مُنقِـذَ اللهفَـان يـا غَـوث فرجَـةِ

أقول : المعنى أن الله سبحانه هو الذي ينقذ اللهفان إكراماً له ، وكرامة لما له عنده من المنزلة والقدر

الجليل ، فنسبة الكرامة للأولياء كنسبة المسبب للسبب ، والله هو الفاعل والله سبحانه هو الفاعل في السبب ، ولكن تنسب الأشياء إلى أسبابها ، كما تقول : أعطاني فلان كذا ، وإنما جعله الله سبباً لما أراد أن يعطيه ، ولو لم يعطه الله ما أعطاه فلان شيئاً ، فلذلك تُطلَق الأشياء وتُنسَب إلى مسبباتها ، والمراد ما في الأسباب مما هو خافي على الخلق ، لا يطلعون عليه في إرادة الله وقدرته ، فخاطبهم بما يطَّلعون عليه من الأسباب على أفعالهم ، كما خاطبهم بكلامه القديم الذي لا يطَّلعون عليه على وجهٍ يطَّلعون عليه، وَيَسَّره لهم بلسانهم على ألسنة أنبيائهم ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، وقال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾.

وكذلك الأسباب يسَّرها لهم وبيَّنها لهم في باب الحكمة ، وأخفاها عنهم في باب القدرة كالمعجزات والكرامات ، ولهذا سُمِّيَت خارقة للعادة ، لأن العادة أن الأسباب بأيدي الخلق يطَّلعون عليها ، وهذه بخلافها ليست بأيديهم ولا يطَّلعون عليها ، ولكن إضافة ذلك إلى من هي له جائزة على عادة الأسباب من إضافتها إلى أربابها ، فيقال : انشقَّ القمر معجزةً للنبي ﷺ ، وأُجْرِي السيل كرامةً له ، والله سبحانه هو الذي شَقَّ القمر وأجرى السيل . ومثل ذلك في كل معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، كما هنا من قوله : « يا منقذ اللهفان ومنجي الغريق » ، أي أن الله هو الذي أنقذ وهو الذي نجى ، ولكن أضيف إلى من ذُكِر ، لأن الله فعله بسببه فافهم .

ورأيت ما مثاله فائدة لجميع المطالب يقال ثلاثاً ، وهي لابن بنته المذكور أيضاً :

سَيِّدي يَا عُمَر يَا حَيْث الغَارَة   يا هزبر الأُسُود يا رَفِيع الشَّارة
يا مُنَجِّي الغَرِيق يا نَقَد مَن زَارَه   يَا عُمر يَا عُمر يَا عُمر يَا محضَار

وكان الشيخ عمر شديد الخوف لله تعالى ، وكان يقول : « وددتُ أني شاة تذبح فيؤكَل لحمها ، أو كلب فيموت ويصير تراباً » ، وكان يقول : « إني أخاف إذا خرج مني نَفَس أن يحال بيني وبين الآخر » ، وبنى ثلاثة مساجد ، وحوَّط مواضع كثيرة ، وكلها محترمة مُجَلَّلة مُعظَّمَة ، من أساء فيها الأدب عاجَلَهُ العَطَب . وكان وفاته يوم الإثنين ثاني ذي القعدة الحرام سنة ٨٣٣ ، وهو ساجدٌ في صلاة الظهر ، بعد ما سمع المؤذن وأجابه ، ثم توضأ وأذَّن وأقام لنفسه ، وأحرم بالفرض فلما سجد خرجت روحه الشريفة وهو ساجد ، فلما طال سجوده حرَّكوه فإذا هو قد قُبِض ، وبقي على هيئة السجود لم يتغير حتى رفعوه للغسل . وشيَّعه خلائق لا يحصون ، والفقراء والمساكين حول جنازته يبكون ، ودفن بمقبرة زنبل من جنان بشار ، وقبره مشهورٌ معروفٌ يزار ، رحمه الله رحمة الأبرار وجمعنا به في دار القرار .

انتهى ملخصاً من « المشرع » ، سوى تلك الفائدة فمن غيره .

وإنما ذكرت من العشرين الكلمة ، كلمة تتمة لقول سيدنا : « **كان سريع الإنتقام من المعتدين الطغام** » ، ومما يُحفظ مما هو متداول بين شيبان السادة ممن لهم اطلاع على المناقب ، وما مَرَّ علينا في مجالس سيدنا عبدالله في قراءة كتب المناقب «كالغرر والترياق » ، وما طالعته منها « كالجوهر » : أن في ابتداء أمره أرسله أبوه الشيخ عبدالرحمن السقاف نفع الله به إلى قبر النبي هود عليه السلام ، يرتاض وينتظر ما يفتح الله به عليه من أحوال الأولياء ببركة رسول الله ﷺ وبركة نبي الله هود عليه السلام، فجعل يقتات هناك من ثمر الأراك ويصطاد من حَرَاسِين النهر ، فيطبخه ويأكله لِتَحَقُّقِ حِلِّه بلا شبهة، فأرسل له أبوه يلومه يقول : « أرسلتك ترتاض ، فجعلتَ تأكل العنب والمغاضيف ؟ » .

وأنه لما بنى مسجده ما أوقف عليه شيئاً ، فقيل له : « ما يستقيم أمر المسجد إلا بوقفٍ عليه » ، فقال : « إن ما قام بنفسه لا خير فيه » ، فصار تأتي إليه النذور من الجهات البعيدة ، ويرسل إليه من الهند والحرمين ومصر والشام ، كل ذلك بِنِيَّةِ مسجد الشيخ عمر ، وكذلك من تريم وغيرها من بلدان حضرموت ، ولا يتعرض لشيء من جوائزه أحدٌ من ولاة ولا حكام ولا متولي صدقاته ، لما رأوا من العقوبات الحالَّة لمتعرِّضه ، ولو خان في أقل قليل ، حتى إن السليط الفاذ من سراجه يأخذه القَيِّم فيصبه فوق تابوت قبره - كما رأيناه مراراً - فقيل له : « بِعْهُ واجعله في مصالح المسجد » ، فقال : « ما عليَّ منه ولا أتعرَّض له » .

ومسجده في طرف السوق ، وهناك يكثر اللغو والخصام من المتداعين والمتخاصمين ، فما من اثنين يتخاصمان إلا قال أحدهما للآخر : امْضِ بنا إلى الشيخ عمر - يعني مسجده - ، فمن حين يذكره أذعن مَن عليه الحق وأقَرَّ به ، وترك جَحْدَه وخصامه . وكانوا مجرِّبين إذا دخله الخصمان أن الذي عليه الحق وهو جاحده يتبيَّن بعلامةٍ تظهر عليه في المسجد يفتضح بها ، فصاروا يخافون لذلك ، وكانت في الزمن الأول تظهر العلامة ، فكانوا إذا أُدِّب واحدٌ استأدب ألف ، واليوم لو أُدِّبَ ألفٌ ما استأدب واحد ، ولم تظهر العلامة اليوم لكنهم ما زالوا اليوم يخافون منها ترهيباً لهم من الله تعالى ، لإظهار الحق لمن هو له والله أعلم . وفي هذا القليل كفاية ، وإلا فأمور الشيخ عمر وأحواله وكراماته ومناقبه لا تعد ولا تحصى . انتهى .

وقول صاحب المشرع : « أذَّن لنفسه بعدما أجاب المؤذن .. إلخ » ، يعني أذَّن مؤذن المسجد - يعني مسجده - وهو فيه ينتظر اجتماع الجماعة ليصلي بهم ، فأجاب المؤذن وبقي ينتظر ، ففي الحال كُشِفَ له أن هذه ساعة موته وانقضاء أجله ، فأحبَّ أن يموت وهو في الصلاة ، فقام في الحال فأذَّن لنفسه وأقام لنفسه ، وأحرم بصلاة الظهر منفرداً فخرجت روحه وهو في السجدة الثانية من الركعة الأولى ، أو في السجدة الأولى من الركعة الثانية .

ولم يترك ولداً ذكراً بل ترك ابنتين ، إحداهما عائشة تزوجها في حياته ابن أخيه الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس ، وجاءت له بالشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن ، والأخرى فاطمة بنت الشيخ عمر ، تزوجها ابن أخيه - أي الشيخ علي بن أبي بكر - بعد وفاته وجاءت له بالشيخ عبدالرحمن بن علي ، فهو والشيخ أبوبكر أبناء عم وأبناء خالة ، وكلاهما وآباؤهما وجدودهما بلَّغهم الله مقام القطبية ، بل قيل هي بعد الشيخ عبدالقادر في الفقيه المقدم ، وهي في آل باعلوي ولم تخرج منهم إلى الآن . ومن ذُكِرَ بها من غيرهم فهم فيها نوابٌ إلى أن يتأهَّل لها صاحبها من آل باعلوي ، كالشيخ معروف باجمال كان نائباً فيها للشيخ أبي بكر بن سالم ، كذا سمعته من رجالهم ومن مؤلفاتهم .

حتى ذَكَرُوا أن معروفاً لما مات رأى بعضهم أنه خرج سيلٌ عظيمٌ من قبره، وسال في وادي ظرفون الذي هو مقبورٌ بقُرْبِه ، وجرى فيه إلى أن وصل إلى حضرموت ، ثم جرى إلى أن وصل إلى عينات فالتقاه الشيخ أبوبكر بصدره وفتح فاه له وشربه كله ، فأصبح ذلك اليوم سكراناً ، وأوَّلوه أنه ورث حاله .

وجاءه درويش بعكاز ومسبحة من عند الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس من عدن ، وجاء وهو يتعبد في مسجد باعيسى خارج اللسك ، فقال له : « هات الأمانة » ، فأدَّاها ، وكان وصَّاه أن لا يدفعها له إلا إن طلبها منه ، فطلبها فأعطاه إياها وأوَّلوا معناه أنه أعطاه لسانه الذي يتكلم به في الحقائق ، فكان كلامه فيها كثيراً حتى قال : « إنما أُذِنَ لنا نتكلم بذرة من مائة ألف بهار » .

فانظر كتابه « معراج الأرواح » لترى العجب من ذلك .

وَبَرَدَ سيدنا عبدالله نفع الله به في هذه الدويرة ، وفي هذا الموضع في العام بعده أيضاً في الشهر والوقت مع الأولاد المذكورين ومن معهم فقط ، وذلك ليلة الخميس حادي عشر ربيع الأول سنة ١١٢٥ كما اعتاد ذلك من سنة ١١٢٣ وهذه آخرها، فذَكَرَ في مجلسه هذا : « **إن أقواماً دخلوا في الطريق، منهم في أول عمره وحصل له التجرد التام فنفذ ، ومنهم في آخر عمره فلم يحصل له هذا التجرد فلم يحصل له منها كالذي قبله . وقد قال الإمام الغزالي بعد كمال جِدِّه واجتهاده ، وبعد ما ساح : لم يحصل لي منها مثل ما حصل لمن لم يتعلق بالعلوم الظاهرة ، لأن شرطه أن ينساها ويتجرد القلب عنها ، ولهذا إن الإمام الرازي لما كان مُمْعِناً فيها لم يبلغ الأقصى من هذا الأمر ولعدم التجرد الكلي من الدنيا لأنه كان صاحب ثروة** » ، *ثم قال* : « **لا أحسن للإنسان في هذا الزمان إذا أراد سلوكها من تصحيح أصول التوحيد ، وفعل الواجبات وترك المحرمات ، والإتيان من السنن على مقتضى الكتاب والسنة ، من غير أن يتعداها ، فإذا أثْمَرَتْ له هذه حصل له خير . وأما أمور المكاشفات فلا تنبغي في هذا الوقت ، ولو**

ظهرت فيه على أحد تحسَّف عليها ، وتمنى أنها لم تكن ظهرت له ، لأنك إذا كُشِفَ لك عن أحد أنه يبغضك ويشتمك، كيف تفعل ؟ هل تقوم تسبطه ؟ - أي تضربه - لا ، بل الستر أحسن . فقد كان بعض الصالحين ارتاض كثيراً فرأى جماعة واردين على ماء ، فرأى بعضهم على صورة كلب ، وبعضهم على صورة خنزير وغير ذلك ، فأظهرهم الله له على صورهم المعنوية ، فسأل الله أن يستر ذلك عنه . ومن لا يمكنه إذا أشرت إليه بكلمة سِرٍّ أن يكتمها بل يضيق صدره منها ويفشيها ، لا تظهر عليه هذه الأشياء ، لأن سَتْرها واجب ، وشرط من أُهِّل لها أن يسترها » .

فقلت له : فإن كان في نحو طعام ، إنه حرام أو شبهة ، أيتركه ؟ *فقال* : « لستَ بمكلف بما لا تعلم، فإذا كان كله حرام ، هل تجلس بلا أكل ؟ وفي هذا توسعة من الله تعالى » .

ثم سألته عما قال في مجلسه هنا في العام الماضي من قوله : « إن الشيخ عمر المحضار كان في وقته في مقامه أربعون من آل باعلوي ، عشرون خلفه وعشرون أمامه » ، *فقال* : « وهل أحد يدري بهذا ؟ إنما هي أسرار ، وإن كان شيء يكون عشرون ظاهرين معروفين ، وعشرون خاملين لا يُعرفون بأنهم في تلك المرتبة ، ويَدْعُون للآخرين ويمدُّونهم » أو كما قال هـ .

أقول : يعني أنهم كلهم في مقامه كما قال ، إلا أنهم لم يُعرفوا لأنهم قدَّموه وأمدُّوه بالدعاء ، فظهر وخملوا ، وقوله : « عشرون ظاهرين » ، أي من أولئك الأربعين ، لهم بعض ظهور دون ظهوره بكثير ، وأما العشرون الآخرون فما لهم من ظهور قط ، وسيأتي قوله : « ما يظهر أحد من الأولياء إلا باجتماع جميع الأولياء ، فإذا ظهر فمن أراد منازعته في الظهور دعا عليه جميع الأولياء حتى يهلكه الله » .

وهذا آخر ما تكلم به في المجلسين في السنتين ، والتي بينهما وبين ذلك مجالس كثيرة مذكورة كلًّا منها في مواضعها هـ .

قال : « حب الشهرة ليست من عادة سادتنا آل باعلوي ، ومن أحبها منهم فإنه من كان صغيراً ، ثم يعودون يكرهونها تربية لهم من الله عز وجل ، ومن كَمُلَ لا يطلبها ولا يريدها ، ومن لا يخاف الله إذا رأى أحداً على تلك الحالة ينكر عليه ، ولا يعلم بما في عاقبة الأمر » .

ثم قال لرجل صافي القلب مسكين ، كان حاضراً من السادة بياسطه ، وهو سالم بن عمر من آل الشيخ أبي بكر بن سالم : « كيف تقول يا فلان إن كنت تحب ذلك ، لو جاءك أربعون رجلاً مرتين أو ثلاث ضجرت منهم وشردت عنهم ، كما لو جاءك أحد بكعدة قهوة معسلة ، وقال لك : قف اشرب . فإنك تستحلي ذلك وتفرح ، ثم إذا جاءك آخر بخمس ضجرت منهم وخفت من مقطعتهم » .

وذَكَرَ أناساً يدَّعون أنهم في الفضل مثل السادة ، *فقال* : « **لا تسابق من لا يسبق وإلا وقعت في ثلاث خصال ، لأنك لا تدركهم فيحصل عليك التعب الشديد ، والفضيحة بين الناس ، والسقوط من منزلتك التي كنت عليها** » .

ومَرَّ في القراءة في « البرقة » للشيخ علي رده على باطحن تلميذ الشيخ سعد بن علي الظفاري الملقب بتاج العارفين ، وذلك أن الشيخ علي أثنى على الفقيه المقدم ثناءً عظيماً ، ووَصَفَهُ بأوصاف الكمال من القطبية ، وما بلَّغه الله من الكمالات ثم قال : « وإنما جَرَّنا إلى ذِكْرِ هذا الأنموذج من أخبار الشيخ المذكور - يعني الفقيه المقدم - ما عَرَّضَ به صاحب كتاب « تحفة المريد وأنس المستفيد في مناقب الشيخ سعد بن علي الظفاري » - يعني صاحب الكتاب باطحن والكتاب أَلَّفه في مناقب شيخه الشيخ سعد المذكور ، وشرح رسالتين للشيخ سعد أرسلهما للفقيه المقدم جواباً لرسالتين أتته منه ، يسأله عن أشياء من الحقائق - قال : وجعل يشرحهما ويتكلم على بيان معانيهما ، ويغض عن عالي منصب هذا القطب المشهور ، الفقيه المنور المشكور محمد بن علي ، ويأتي بمحامل وطية ، وتلاحين ردية وتلاويح سفلية » ، إلى آخر ما ذكر في كتاب البرقة .

فقال سيدنا عبدالله عند ذلك لما سمع رده عليه *قال* : « **إن السادة قد أعطاهم الله الأكثر من الفضل، وأعطى غيرهم الأقل منه ، ثم إنهم مع ذلك يغارون ، ويطلبون أن يكون ذلك لهم أيضاً مع ما هو لهم . ولم يقل الشيخ باطحن في حق الفقيه ما يُلام عليه ، وإنما مراده تفضيل شيخه على غيره ، حتى لا يكون أحدٌ أفضل من شيخه ، وذلك في عقيدته وليس يُلام في ذلك** » هـ .

قال رضي الله عنه : « **من رأيتَ من السادة آل باعلوي ، على غير طريقة أهله فإنما منعه منها الضعف ، والضعف قد يكون في الحال والمال والقلب ، ومَبْنَى أمر السادة آل باعلوي على الكرم والتقوى . ومثال الدول إذا اثنان كلاهما يريد الولاية كَثَوْرَيْن يتناطحان عند بقرة ، يأخذها من غلب منهما ، فلا تكن أنت خلفهما ، ولا أمامهما ، ولا بينهما . والسادة بنو علوي من قديم الزمن خارجين من بينهما ، ولا يدنون منهما، ومن دنا خالف ما عليه سلفه** » .

قال رضي الله عنه لي يوماً : « **طريقة السادة آل باعلوي : العقيدة التامة ، والتعلق بالشيخ ، والإعتناء من الشيخ ، والتربية بالسر . وهي طريقة السلف ، كالحسن البصري وغيره ، وليس من شرطها الأربعينية ولا بأس بذلك ، وقد فعله كثيرٌ منهم، ومن لم يجتمع قلبه بَعْدُ على شيخ معين ، فلا يختص بأحد منهم ولا يُنتسب إليه بل يُكثِر من لقاء المشايخ ، ويتبرك بهم ما دام كذلك حتى يجتمع قلبه على واحد، فحينئذ يلزمه ويختص به ، وينطرح تحت نظره** » ، أي ويكون منسوباً إليه .

قال رضي الله عنه : « **اثنان لهما أكبر المنة على آل باعلوي : الشيخ أحمد بن عيسى، خَرَجَ بهم من البدع**

والفتن من أرض العراق ، والفقيه المقدم سَلَّمهم من حَمْل السلاح والعمومية بِكَسْرِه السِّلاح لمَّا تَفقَّر » .

وذلك أن سيدنا أحمد بن عيسى لما وقعت فتنة الزنج بالعراق ، وعمَّ ضررها في الدين والدنيا ، وهناك تكثر الفتن وتنهل كالقطر ، فَفَرَّ بِدِينه وعياله وأمواله سنة ٣١٧ يطلب أرضاً يختفي فيها ، فكلما جاء بلداً اشتهر فيها ، فَفَرَّ منها حتى جاء إلى حضرموت ، فاختفى فيها فقال : « هنا طاب لي المقام » .

وأما الفقيه المقدم فإنه لما جاءته الخرقة من أبي مدين فدخل طريقة الفقر فكسر سيفه ودفنه في التراب وقال : « الفقر خير ، الفقر خير » . فتبعوه كلهم على ذلك وتركوا بعده حمل السلاح ، فسلموا من مزاحمة القبائل .

قال : « **مقام ساداتنا آل أبي علوي الضعف والمسكنة والخمول ، غير ما هو لغيرهم من الأولياء من ضد هذه ، والصفات المذكورة أمرٌ عظيم في التقرب إلى الله والسلامة في الدين** » .

وذَكَرَ السادة آل باعلوي يوماً فأكثر ثم *قال* : « **ما مدد آل باعلوي أَلَّا من بعضهم بعض ، وكم مشهور في بركة مستور . وكان السادة في طبقات العامة يدخلون الأسواق ويخالطون الناس من غاية الخمول ، وإنما ظهر منهم الشيخ عبدالله** - أي العيدروس - **فلاموه . وأهل الجهة من سابق محرومون، حتى أنه ما انتفع به إلا أولاده وعمر صاحب الحمراء ، ويحصل للولي بمخالطة العامة تمكُّن وزيادة فضل . والله أراد لهم الخمول وأرادوا ذلك لأنفسهم ، لأن ما نقص من الدنيا زاد في الآخرة ، وساعدهم القدر على ذلك ، وكانوا يسمّون الرِّقة لمن خالطهم أو أخذ عليهم شيئاً** » هـ .

أقُولُ : ومعنى ذلك أنهم السُّم القاتل لمن آذاهم ، وما يصلهم الأذى إلا بسبب المخالطة ، أو خالطهم أحد بسوء أدب وعدم احترام هـ .

قال : « **السادة من أهل حضرموت** - يعني آل باعلوي - **مناقبهم شائعة وفيها خمول ، لأنهم لا يتكلفون ظهورها ، وفي الجهة ناس يحسدونهم ، وهم مع ذلك يحبون الخمول والستر ، حتى إن الشيخ عبدالله باعلوي إذا قيل له : يا شيخ ، يقول: الشيخ أبوك . ألا ترى إلى كُتُبٍ تَرجَمَتْ لآل باعباد وغيرهم ولم يُذْكَروا فيها بشيء ، وما تَمَيَّزَ الصالحون عن غيرهم إلا بالطاعة والتحرُّز والوَرَع والإقبال على الله والدار الآخرة ، وإلا لكانوا مثل سائر الناس** » هـ .

أقُولُ : مراده إنما لم يُذكَروا لِعَدَمِ اطِّلاع من أَلَّف على مناقبهم لاجتهادهم في إخفائها .

قال رضي الله عنه : « ما عاد في هذا الزمان خير ، ولا أحسن من طريقة آل باعلوي ، وقد أقرَّ لهم بذلك أهل اليمن مع بدعتهم ، وأهل الحرمين مع شرفهم ، وما بقي المفاضلة إلا بينهم بعضهم بعض، وهي طريقة نبوية ، ولا يستمد بعضهم إلا من بعض ، فإن حصل لهم مدد من غيرهم فهو بواسطة أحد منهم . وهذا الأمر إنما عمدته الإنقياد الكلي فَبِهِ يحصل للإنسان ، وهو أن ينطرح للشيخ في كل شيء، ولا يعترض عليه في شيء ، ويمتثل ما يأمره به وإن لم يَعْرِف وَجْهَ ذلك، وبهذا السبب قيل أن طريقة الإمامة طريقة مظلمة ، لا يعرف معنى الشيء فيها ، ومن حضر عند المشايخ المسلِّكين ولا انقياد له سَمِعَ من عِلْمِهِم كما يسمع الناس ، وكلٌّ يأخذ ما قسم الله له . وقد ذكر الإمام الغزالي أنه لا بد للمريد من شيخ صادقٍ ينطرح تحته في كل شيء ، وإن لم يكن فأخٌ صالحٌ ناصحٌ يحكي له بعيوبه ولا يداهنه، وهذا لأهل الرياضات الشديدة ، وأما من لم يكن كذلك فلا أحسن له من التسليم . ولا أسلم ولا أحسن من طريقة سادتنا آل باعلوي ، كلٌّ يتربى من أبيه أو من ينوب عنه ، وهو يربي كذلك ، وعلى هذا حتى يبلغوا ، والأمر قريب كالذي يستخرج الماء من قرب ، وفي أمر القوت على ما رُبِّي عليه ، وفي الثياب قده ما يحصل له إلا وهو محتاج إليه والفقر في الوسط » .

قال : « تريم مسكن آل باعلوي ، لا نقل لك أن أحداً منهم ما مسكنه تريم وإنما تفرقوا بتقدير الله، ولأجل تعم البركة في الجهات ، وإلا فهي مأوى الكل وإليها يعود » .

قال في قولهم في المتوكل : « أن يكون بين يدي الله كالميت .. إلخ » ، *قال* : « أي يكون كذلك في الباطن لا في الظاهر ، أي لا يتحرك قلبه ولا يتكدر خاطره عند الطلب لما يريد والترك لما يكره » هـ .

أقول : قوله : « أهل اليمن مع بدعتهم » ، انظر اليوم أهل اليمن الذين قال النبي ﷺ فيهم : « أهل اليمن أهش قلوباً وأرق أفئدة ، الإيمان يمان والحكمة يمانية » ، كيف صاروا اليوم في هذه الأوقات أهل بدعة وضلال ، يتبين لك قول سيدنا : « إن الأمور في هذا الزمان قد انقلبت عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها ، فينبغي أن يسمى الزمان مخيِّب الظنون » ، يعني إن أخذت فيه بالعادة المعروفة الحسنة في كل أمر ، رأيت الأمر بخلاف ما ظننت وخاب ظنك ، والغالب أن الظن الحسن في هذا الزمان يخطيء والظن السوء يصيب . وجرب هذا في أمور كثيرة ، فترى كلمته واقعة في كثير من الأمور ، فمن ذلك أن أناساً كانوا معروفين بالفضل والمعروف والإحسان وحسن الظن بالصالحين ، فرجعوا على خلاف ذلك من البخل وقلة المعروف ، وسوء الظن بالصالحين ، وناس كانوا معروفين بالمروءة صاروا إلى لآمة وشر ، فيكفيك أن العبادات الشرعية التي أمر الله بها عباده أن يفعلوها امتثالاً لأمره وتقرباً بها إليه ، ورجاء وعده بثوابها ، صارت تُفعَل لأطماعٍ دنيوية ، وأيُّ انقلابٍ إلى الأضداد أشد من هذا .

لكن ما ذكر رسول الله ﷺ من مدح اليمن وأهله ، المراد بذلك المدح الأنصار رضي الله عنهم ،

فإن أصلهم من اليمن ، والمدح حاصلٌ بهم وقد مدحهم الله في كتابه بقوله سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ وآيات غيرها ، فقد فازوا بهذه المدائح من الله ورسوله ، وحُرِمها غيرهم ممن لم يسلك سبيلهم ويتبعهم بإحسان هـ .

وذكر الضعفاء من الناس *فقال* : « **إن الله يغضب إذا ظُلِمُوا أكثر من الأقوياء وإن لم تشملهم دائرة الإسلام ، فإنهم كالسمك في البحر ما يعيش إلا إن غمره الماء** » هـ .

أقول : قوله : « **غمره الماء** » ، هذا كناية عن سعة الرزق وإن نقص ذلك عليهم ماتوا ، كما إذا جفَّ الماء عن السمك ، وربما أكل بعضهم بعضاً ، القوي يأكل ما هو أضعف منه ، ويأكله ما هو أقوى منه، حتى إنك قد تجد في بطن الواحدة منه أخرى وفي بطن التي في البطن أخرى ، وفي بطنها أيضاً كذلك. هكذا السمك ، ومثله وشبهه ما ترى في الآدميين من استعلاء القوي على من هو أضعف منه، ويستعلي عليه من هو أقوى منه .

قوله : « **وإن لم تشمله دائرة الإسلام** » ، لحديث : « اتقوا دعوة المظلوم ولو من كافر » ، وكذلك ذلك القاضي الذي خُسِفَ به بدعوة يهودي ظَلَمَهُ آخر من المسلمين في ضيعة له يرثها عن آبائه عن أجداده ، فظلمه إياها رجلٌ له نِسبة بالقاضي ويستقوي به ، فشكا معه إليه ، فأفتى لذلك الرجل بها، وخرجا من عند القاضي واليهودي مفلوج ظلماً ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : « يا رب إن كان هذا حكمك الذي أنزلته في كتابك على نبيك فقد رضيت به ، وإن لم يكن هذا حكمك فخذ لي حقي - أو قال : بثأري - من القاضي » ، فخسف به . أو كما هو معنى القصة وهي مذكورة في كتاب « الفرج بعد الشدة » بمعناها .

وتكلم كثيراً في أحوال الناس والزمان ، وقلة الحق وكثرة الباطل *فقال* : « **اشتبهت على الناس الأمور ، واختلط عملهم الحق بالباطل ، لكن الله يظهر الحق لأهل الحق ، ويظهر الباطل لأهل الباطل**».

وشكى إليه رجل ما لقيه من أمر الدولة *فقال* : « **لو وقع للسلطان كأس أو كأسان من جانبنا ، أصبح لابِداً في غوضة مسجد ، ولو دخلوا عليكم ينهبونكم من بيوتكم أحب إليكم ، اصبروا إلى أن يأتي الله بِفَرَجٍ من عنده ، ولا يستقيم الملك إلا بمال ، ولا مال إلا برعية ، ولا رعية إلا بعدل** » .

وقال : « **وإذا بقي العود فالخير يعود ، وإن راح فكل شيء إنما هو للفناء ، وإنما هي مقدمات الأول**

فالأول » .

قال رضي الله عنه : « **الأمور مبنية كلها على الصدق ، وأما من تعوَّد على الكذب فبناؤه على الماء ، ومن الناس من يعرِّفه الله حاله قبل الموت فيتوب منه ، ومنهم من يعرِّفه إياه عند الموت فيندم حيث لا ينفعه الندم** » .

أقول : قوله : « **فبناؤه على الماء** » ، أي مبنى أمر دينه ، معناه : أنه في أمر دينه ليس على أصل صحيح، لأنه كما قال : « **الأمور كلها مبنية على الصدق** » ، فيعني أمور الدين والدنيا في معاملته مبنية بينه وبين ربه ، وفي معاملته بينه وبين الخلق ، فإذا أكثر الكذب والكذاب ملعون ، فعلام استقام له أمر دينه ودنياه ، إنما بناءه في الأمرين على شفا جُرُف هار ، فانهار به في نار جهنم ، لكن من أراد الله به خيراً وفَّقه للتوبة منه ، ومن جميع الذنوب حيث يدرك التوبة وتحصل له ، وإلا قَدِمَ على ربه على أسوأ حال، نعوذ بالله من أحوال أهل الضلال هـ .

قال : « **والخوف طبعه الحرارة ، والحرارة تستدعي الحركة ، فإذا سكن القلب انطبعت حرارته على البدن وانجرَّ إلى الحركة . والرجاء طبعه البرودة ، وهي تستدعي السكون ، فإذا سكن انطبعت برودته على البدن وأوجب ذلك سكونه فيسكن لذلك** » .

قال : « **وحق اليقين ، هو علم اليقين إلا أنه إذا شاهد الشيء حصل له زيادة علم** » .

وتكلم في الإخلاص ، *فقال* : « **لا أحد يدَّعي الإخلاص ، بل يلزم حدَّه ولا يتعدى طوره ويعتقد في نفسه الرياء ، فإنه إن كان كذلك فقد وقف عند حدِّه وعرف قَدْرَهُ ولم يتعدَّ طوره ، وإن لم يكن كذلك لم يزده ذلك إلا رفعة وقدراً عند الله تعالى . وأين الإخلاص اليوم ؟ ومما يدلك على أنه عزيز لا يكاد يوجَد قول الإمام الشافعي رحمه الله : وددت أن لو انتفع الناس بهذا العلم - يعني علمه - ولا ينسب إليَّ منه حرف . فكم أعجبنا كلامه هذا، ولو قلت لمصنف كتاب : امحُ اسمَكَ منه واكتب عليه اسم آخر ، أو لا تكتب عليه اسم أحد لأن الأجر حاصل لك فلا حاجة إلى نسبته إليك لأبى ، وهذا يدل على عدم إخلاصه . وكانت رابعة فيما سمعنا عنها ، يصح ذلك أو لايصح ، أنها كانت ما تستحي إبراهيم بن أدهم وتستحي غيره كسفيان الثوري وغيره ، فقيل لها في ذلك فقالت : ماذا ترك سفيان لله؟ وأما إبراهيم فقد الملك والدنيا لله ، فلا عاد يطلب أمراً آخر . فقل لأقوام إذا تصدق أحدهم بربع أوقية أحب أن يعلم به جميع الناس . ولما تكلم الإمام الغزالي في إظهار العمل فذكر شروط ذلك ثم قال : لا ينبغي ذلك لأمثالنا، لأنا لا نطمع في الإخلاص ، إذ مثل هذا مع ما كان له من الجاه والحشمة حتى إنه**

يحضر درسه من أبناء الأمراء نحو ثلاثمائة عمامة فضلاً عن غيرهم ، حتى خرج من جميع ذلك لله ، حتى قيل أن خروجه من ذلك عينٌ أصابت المسلمين » هـ .

أقول : سمعت المعلم عبدالله باغريب يستأذن سيدنا في بناء مسجد في نخله بمسيلة عدم ، بعد ما أخرب السيل - سيل الحوت - مسجداً كان به ، وكان مجيء هذا السيل يوم الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان سنة ١١٢٤ فقال رضي الله عنه له : « **إن كان نيتك خالصة لوجه الله ما نردك عن بناء مسجد ، وإن كان نيتك ما هي خالصة فلا تبنه ، فلا حاجة إلى تعب وخسارة بلا فائدة** » ، قال : « بلى ، إن نيتي خالصة » ، فقال له : « **انظر لو بَنَيْتَهُ وتَعِبْتَ في بنائه ، وصرَفْتَ فيه مالاً كثيراً ، فلما تَمَّ ما نُسِبَ إليك ، بل إنما نُسِبَ لآخر غيرك ، وقيل مسجد فلان واشتُهِر بذلك ، وأنت ما نُسِبَ إليك ، ولم تُذكَر به في شيء، هل ترى نفسك تطيع لذلك ؟** » ، ففكَّر ثم قال : « لا ما أرى أن نفسي مطيعة لذلك » ، فقال سيدنا له: « **اتركه ، فإن نيتك غير خالصة** » ، فتركه إذ ذاك ، وما عَلِمنا به بعد ذلك .

ومَرَّ في القراءة في الإحياء في أيما هو الأفضل تحصيل المال وإنفاقه في الخير أو تركه ذلك والإشتغال بالذِّكر ؟ وذَكَرَ المصنف أن كل واحدٍ من هذين القولين رجَّحه أقوام من السلف ، فقال سيدنا عند ذلك : « **فإن حصل المال من غير سبب ولا تعب ، أي كالإرث ، فما الأفضل ؟ فنقول : الأفضل أن يأخذه ظاهراً إن وثق بنفسه ، ويتصدق به سرًّا ولا يتمتع به ، بل يأخذ منه ما يضطر إليه ويقدمه للآخرة، لأنه إذا كانوا أرادوا أن يعطوه في الجنة بيوتاً من ذهب وفضة وجواهر وترابها مسك وهو في الدنيا لعله ما رأى المسك ولا الذهب والفضة والجواهر بعينه ، فماذا يريد بمتاعٍ قليل ؟ فليقدِّمه إلى ما هو خير له** » .

ومَرَّ في الإحياء أيضاً ذِكْر الوعظ والتذكير ، وأن الرياء فيه وفي العلم كما في الولايات ، *ثم قال* : « **فلو استأذننا رجل ليقرأ كتاباً في السقاف ، مع أنه يقرأ في باعلوي ، فلا نشير به عليه بل ننهاه ، ولا نريد افتراق الكلمة ، بخلاف ما لو استشار في قراءة القرآن آخر الليل - أي في السقاف - مع أنه يقرأ في باعلوي ، فإنا نشير عليه بذلك ، لأن هذه القراءة إنما تكون سرًّا ، ويقوم فيها أناس مخصوصون ليسوا كثيرين** » هـ .

أقول : يعني ولو أقيمت قراءة القران في المسجدين فلا تنافس في ذلك ، فلا يكون افتراق كلمة ، ولو كانت الأخرى حادثة ، بخلاف قراءة كتاب فقد يكون في النفس شيء من الحادث .

وعاتب بنَّاءَ بنى له قبة مسجد في موضع تَمُرُّ تحته السيول سقط منه جزء ، ثم تكلم كثيراً في أودية تريم كثبي وغيره ، وذَكَر من بناها ، وذَكَر أَن ثبي إنما عُمِرَ بعد سنة ٩٧٠ ، وأنه ينبغي أن يزن ويقدر من يريد بناء واد أو بناء بقربه *ثم قال* : « **إذا باشرتَ فِعل شيءٍ لنفسك أو لغيرك فافعله على التنويه – أو كلمة نحوها – وإلا كنت ظالماً ومظلوماً ، وأنت مأزور على كل حال ، إما كونه ظالماً فإنه ضيع حق غيره وإما كونه مظلوماً فإنه ضيع على نفسه ، ولا يعذر بكونه مظلوماً في ظلم غيره مقابلة لذا بذا ، بل هو مظلوم على تعديه** » ، ومثَّل لذلك فقال : « **كما أنه إذا توجه حَدٌّ على رجل بقطع يده فقال : أنا أقطع يدي بنفسي ، فإنه لا يكفي عنه ، ثم يتوجه عليه اللوم في فِعْل ذلك بنفسه ، وهو في خطر الحدود** » . أو كما قال .

قال رضي الله عنه : « **إن الله لا يأمر بالإضاعة ، والأشياء مربوطة بالحكمة والأسباب والتدريج ، ولا يجوز له أن يدَّعي أحوال الصالحين ، وهو بَعْدُ يوسوس في صلاته ، ولو مع الإنسان نخلة شغلته في صلاته ، وجميعها شواغل ، وإنما التجرد الكلي لأقوام خرجوا من الدنيا بقلوبهم ، فكل ما شغلهم منها تركوه حتى لا يبقى لهم همة إلا نفوسهم . وقد ادعى أقوام أنهم مثل هؤلاء ، وقالوا : إن الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا ، ومع ذلك بَخِلُوا بها ، واشتغلوا ولم يخرجوا الزكاة** » هـ .

أقول : قوله : « خرجوا من الدنيا بقلوبهم » ، أي خرجت الدنيا من قلوبهم فلا بالوا بها ولا احتفلوا بها وهانت عليهم .

وقوله : « واشتغلوا » ، أي اشتغلوا بالدنيا طمعاً فيها وتمنِّياً لها ، وأحوالهم وأعمالهم هذه تكذِّب أقوالهم ودعواهم ، وفي حكم : لا تثبت الدعاوي بالأقوال ، حتى تشهد بها السيئات من الأفعال والأحوال .

وذكر رضي الله عنه حديث : « حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، وأن من قالها سبعاً صباحاً ومساءً كفاه الله ما همَّه من أمور دينه ودنياه صادقاً كان أو كاذباً »، *ثم قال* : « **ما كل أحد يقول ذلك صادقاً ، إلا إن الإكتفاء بالله شديد ، قلَّ أن يتصف به باطناً وظاهراً وإن قال ذلك** » .

وتكلم في حديث : « إن الله يؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم » ، *قال* : « **كما ترى أقواماً يقاتلون الكفار مرادهم الغنائم وأخذ البلدان ، فيحصل بهذا دفع عن الإسلام والمسلمين، وآخرين يقاتلون قطاع الطريق ، وغير ذلك مما يقوى به الدين ، وأكثر ما يكون ذلك في الولاة ، أفلا**

يكونوا أولئك من خير الناس » .

وفي حديث : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ، *قال* : « **أي إذا كان واجداً فلا ينبغي أن يقتر على نفسه ، إلا إن كان بنية زهدٍ وكان من أهله** » .

وفي حديث : « إن الله يحب أهل البيت الخصب » ، *قال* : « **أي في المعيشة ، إذا كان هناك شيء بغير إسراف** » .

وفي حديث : « هل بقي من بر الوالدين شيء ؟ فقال عليه السلام : نعم ، أن تصل الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وأن تصل أهل ود أبيك .. الحديث » ، *قال* : « **هذا إن عهد إليه في شي من ذلك** » .

وفي حديث : « إن الله يلوم على العجز .. إلى قوله : ولكن عليك بالكَيْس » ،*قال* : « **أي الحذق في الأمور ، بأن يأخذ فيها كما ينبغي ، ولا يجلس ويتسهَّن من الناس ، وهذا في أمور الدين ، وأما في أمور الدنيا ، فالعجز أحسن** » ، أي إن لم يكن محذور .

وفي حديث النهي عن الحلف بالآباء ، *قال* : « **أي من ليس فيه صلاح ، فإن كان فيه صلاح فإنما هو حلف بالله ، إذ لا ينبغي أن يحلف به كل حين ، فيبتذل الاسم الكريم . وفي الغالب أنك لا ترى من يحلف بأحد من آبائه إلا إن كان فيه صلاح، إلا إن كان أحد من النساء ، ولو حلف حالف بما كان يحلف النبي ﷺ به ، مثل: والذي بعثني بالحق . فيقول : والذي بعث محمداً بالحق فيحسن ، إذ يحصل به التعظيم له عليه السلام ، والتبرك بذِكْرِه ، والسلامة من اليمين ، ومن الحلف بالآباء** » هـ .

أقول : قوله : « **فإن كان فيه صلاح ، فإنما هو حلف بالله** » ، يعني إن الصلاح صفة شريفة من عند الله ، يخص بها من يشاء من عباده ، فإذا خصَّها أحداً فحَلَفْتَ به لأجلها ، فإنك في الحقيقة ما حَلَفْتَ به ، إنما حَلَفْتَ بصفة الفضل من الله التي اختصه بها ، فلا حرج عليك في ذلك فافهم .

وتحرَّ هذا المعنى في مواضع كثيرة ، منها أنك إذا استغثت بوليٍّ من أولياء الله أو ناديته في شدة ، فإنما استغثت بالله بقلبك ، وناديته بالتفات قلبك إليه وإنزال حاجتك به ، وقطعك يقيناً لا شك فيه أن لا يجلب النفع ولا يدفع الضر إلا الله ، وإنما معنى استغاثتك بالولي ومناداتك له ، أي يا فلان الذي أنعم الله عليه بالولاية وصفة الكمال ، كما منَّ الله عليك بما أعطاك ، أرجوه أن يعطيني ما سألتُ من فضله سبحانه ، وكرمه يشملنا إذ كلنا عبيده ، وعند ذِكْرِ من أنعم الله عليه فيه تمثل وبيان لمن أولى النعمة، وجدير بمن ذكر المحبوب المنعم عليه أن ينعم عليه أيضاً بإبلاغه ما أراد ، كما تقدم من القصص ، كقصة الشيخ أبي بكر في إرسال السحابة التي سقت المعطشين وغير ذلك ، فكذلك السائل يطمع في ذلك فهو جدير ، ويحقِّقه ما وقع لكثير من نجاح المطالب من رب العالمين عند ذِكْرِ عباده الصالحين،

كما جُرِّب ذلك . وأما النساء فقد يكون من بعضهن الخلف بآبائهن بلا صلاح ، تكبراً منهن وعتوّ . وربما تكبَّرَتْ بأبيها لكونه ظاهراً لالتفاتها إلى الدنيا ، لعظمها في نفسها ، بل ربما كان أميراً ضدّه .

وفي حديث : « لا أجمع على عبدي خوفَيْن ولا أمْنَيْن .. الحديث » ، قال : « **أما خوفه في الدنيا : بأن يجتنب ما نهى عنه من حرامٍ ومكروهٍ وفضولٍ ونحو ذلك، وأَمْنه : بالغفلة عن الله ، وتضييع ما ذكر ، ويتناول كل ما يشتهيه ، ويفعل كل ما أراد ، ولا يبالي ولا يمنع نفسه مما يذم** » ، أو كما قال .

وفي حديث : « قول الرجل : دعوت فلم يستجب لي » ، قال : « **إن كان ما دعا به من أمور الآخرة فمن أين يعلم أنه ما استجيب له ؟ لعله حصل له الإستجابة في أمر يكون في الآخرة ، أو من أمور الدنيا، فلعله دعا في شيء لو استجيب له فيه لكان يضره** » .

أقول : فمن لُطْفِ الله بعبده المؤمن ، أنه إذا سأله شيئاً من أمور الآخرة عطاه الله إياه فيها مطلقاً، ولا استثناء فيه ، لأنها - أي أمور الآخرة - كلها خير ونافع ، وبهذا يتبين قوله تعالى : ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، يتبين نجاز وعده بالإستجابة في أمور الآخرة لمن دعا بها دعا من غير تخلف .

وأما أمور الدنيا لما كان أغلب الناس مشغوفاً بها ، ومنهم من لا يبالي بالحرام ، وخطاب الله لخلقه على حسب الأغلب من أحوالهم ، كان منه سبحانه الإستثناء في ذلك ، إن كان ينفعه أعطاه إياه إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وإن كان يضره منعه منه في الدنيا وأعطاه عنه في الآخرة عوضاً منه أنفع له منه ، والدليل عليه حديث صلاة عيد الفطر ، إذا اجتمعوا في مصلاهم نظر الله إليهم وقال : « يا أمة محمد لقد أرضيتوني ورضيت عنكم ، وعزتي وجلالي لا تسألوني في موقفكم هذا شيئاً لأمر آخرتكم إلا أعطيتكم إياه ، ولا تسألوني شيئاً لأمر دنياكم إلا نظرت لكم » ، يعني نظرت لكم إن كان ينفعكم أعطيتكم إياه ، أي إما في الدنيا أو في الآخرة فربما إذا ادخر للعبد في الآخرة وما رآه في الدنيا قال : « دعوت فلم يستجب لي » ، وظن بخلف الوعد بالإستجابة ، والله سبحانه لا يخلف الميعاد ، إلا إن كان العبد أخلف نفسه بأكل الحرام ، حتى نَبَتَ عليه جسمه ، فكل لحم نَبَتَ من سُحت فالنار أولى به ، فإذا كان مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام فأنّى يستجاب لذلك ، فالمصلحة له فيما اختاره الله له ، وإن كان يضره أعطاه عِوضه في الآخرة أنفع له منه .

قال رضي الله عنه : « **جزى الله العلماء عن الناس خيراً ، جمعوا للناس ، وصحَّحوا للناس ، ونقّحوا للناس ، فأين كانوا يروحون اليوم إذا احتاجوا إلى مثل هذا مع انعكاس الزمان ، وإذا رأيت شغل هؤلاء عرفت أن أولئك هم المشغولين فيما ينفع وهؤلاء أهل هذا الزمان كالنسوان ، شغلهم بما لا نفع فيه** »، وذَكَر حديث :« لا تنزلوا النساء الغرف وألهوهن بالمغازل »، ثم ذَكَر النساء وخداعهن *ثم قال* : « **إن بعضهم قال : إذا صاحت المرأة فأدركوا الرجل** » .

أقول : يعني لعل أن تكون قد دَهَتْهُ بشيءٍ من مكائدهن ، ثم صاحت ستراً لحالها ورمياً للتهمة عليه، فإن كيدهنَّ عظيم ، فقد عظَّم الله كيدهن وضعَّف كيد الشيطان ، قال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال سبحانه : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ومن كيدهن : أن تَتَظَلَّم وهي ظالمة ، وتَسْتَخْوِن غيرها وهي خائنة .

وذُكِرْنَ النساء عند سيدنا علي كرم الله وجهه فقال : « لا تتخذوا النساء على حال ، ولا تأمنوهنَّ على مال ، ولا تدعوهنَّ يدبِّرْنَ أمرَ العيال ، ولا تفشوا لهن سرًّا ولا تدعوهن يدبِّرْنَ أمراً ، فإنهن إن تُركْنَ وما يُرِدْنَ أفسَدْنَ المسالك ، وعصين المالك ، وأورَدْنَ المهالك ، فإنا وجدناهن لا ورع لهن في خلوتهن ، ولا دين لهن عند شهوتهن ، يتهافتن على العصيان ، ويتمادين على الطغيان ، وينكرنَ إذا مُنِعن القليل ، ينسين الخير ، ويذكُرنَ السوء ، اللذة بهن يسيرة ، والحيرة بهن كثيرة ، أما صوالحهن فغادِرات، وأما طوالحهن ففاجرات ، وأما المعصومات فهن المعدومات إن أؤتمنَّ على مالٍ ضاع ، أو على سرٍّ شاع ، فيهنَّ ثلاث خصال من اليهود : يتظلَّمنَ وهنَّ ظالمات ، ويَحْلِفْنَ وهنَّ كاذبات ، ويمتَنِعْنَ وهنَّ راغبات ، فاستعيذوا بالله من خيارهِنَّ ، وكونوا من شرارهِنَّ على حَذَر » ﻫ .

وتذاكر مع بعض السادة في النساء واستطالتهن على الرجال ، فذَكَرَ سيدنا له حديث الذي قال للنبي ﷺ : « يا رسول الله ماذا خير لنا بعدك : بطن الأرض أو ظهرها ؟ » ، فقال ﷺ : « إذا كان أمراؤكم خياركم ، وتجاركم أمناؤكم ، ورأيكم عند خياركم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وتجاركم خوناءكم ، ورأيكم عند نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » أو كما ورد ، *ثم قال سيدنا* : « **لا تجعل للمرأة وجوداً – أي تصرفاً – إلا إن كان وجودها من تحت وجودك ، ولا تجعل الأمر إليها ، بحيث لو أردتَ أن تتصدَّق بشيءٍ مَنَعَتْكَ فإن مثل هذه قهرمانة، ما هي صاحبة أمانة ، وانظر من كل شيءٍ إلى أحسنه . وقيل: لا تُمدح المرأة إذا هي صالحة حتى تموت. ومنهنَّ عطايا ومنهن خطايا ، ولا يحصل للإنسان الأجر إلا بالصبر والإستقامة وأن تقوم عليها في حقوق الله ، فلا تفرِّط في أمور الدين فتتركها تمكث بجنابتها وتترك الصلاة ، وكن معها من أول الأمر**

على حزم ، فلا تمنعها اليوم مثلاً من أمرٍ وغداً تمنع - أي تتعلق - فيها » .

فقال له ذلك السيد : « إنها تحتاج إلى ما لا بد منه » ، فقال : « لا بد لها من شيء ، من العدل والإحسان»، ثم قال : « ومثل هذه الأمور لا يمكن العلماء فيها التفصيل، فلو فَصَّلوها لاحتاجت كل مسألةٍ إلى مجلَّدٍ وتفصيلٍ كثير ، ولكن يفصّله الناس بالعقول » .

قال رضي الله عنه : « ما مشوش على فلان - أي زين العابدين - إلا زوجته ، وهو عارف بالدواء ولكن أبى أن يستعمله ، وهنَّ مجرَّبات ومعروفات بأنهن يغلِبْنَ الأخيار ويغلبهن الأشرار ، ولا يسلك الإنسان معهن إلا بأحد أمرين : إما باليسر إن أمكن ، وإلا فبالرفق . لأنهن إذا أَرَدْنَ أمراً فمع الأشرار يغلبونهنَّ حتى يدخلن في أنفسهن ودينهن ، ومع الأخيار يأخذونهن باليسر والمسامحة ، فإن لم يجيء مع ذلك منهن شيء داروهن ورَفَقُوا بهن ، وصَبَروا عليهن . ومن رأى حال النبي ﷺ مع أزواجه وكثرة شاغلهن لم يستنكر منهنَّ ما يكره ، وإبراهيم الخليل عليه السلام أخرجته زوجته سارة من وطنه الشام إلى الحجاز غريباً مع ولده وسريته قهراً من غير اختيار منه ، وهكذا عادة أهل الخير معهن . وقيل : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك: المرأة والعبد والولد » ، أو كما قال ه .

أقول : حفظتُ من بعض التواريخ في هذا ، أن هاجر كانت جارية لسارة ، أعطاها إياها النمرود الجبار ، وذلك أنها خرجت يوماً في بعض حوائجها ، فرآها وهو في قصره مارة في الطريق ، فأمر من قَبَضَها وأتى بها إليه فمدَّ يده إليها ، فحصلت له كفخة في دماغه فغشي عليه ، فلما أفاق مدَّ يده أيضاً فحصل عليه كذلك ثم أفاق، ثم مدَّ يده ثالثة فحصلت عليه أيضاً هكذا ثلاث مرات ، ثم إنه سرحها من غير أن يمسَّها بيده حمايةً من الله ، ووهب لها هاجر ، وجاءت بها إلى إبراهيم ، وأخبرته بما جرى، ثم وَهَبَتْهَا له ، وقالت : « تسرَّرها لعل الله أن يرزقك منها ولداً لما لم يحصل لك مني » ، فتسرَّرها فحملت بإسماعيل ، فلما أحسَّت منها بالحبل جاءتها الغارية التي هي طبيعة النساء ، وهو من الحسد المحرَّم ، لكن الله سبحانه حليم لا يعجل، فحلم عليهن وعذرهن ، وأمر الرجال بالحلم عليهن كذلك ، فلما تحركت تلك الطبيعة معها تصبرت حتى ولدت ولداً فزاد عليها الأمر ، فحلفت أن تقطع جزءاً منها وأن تُدْمِيها وأن تعزِّر بها ، وأن يبعدها وولدها عنها . فأمر الله إبراهيم أن يطيع سارة فيما أرادت ، وأمر الله تعالى إبراهيم أن يأمر سارة بأن تبر بيمينها ، فأمر إبراهيم سارة أن تبر بيمينها ، وأمر هاجر أن تسمع لسارة وتطيع لها ، فأمر الله إبراهيم أن يأمر سارة أن تُدْمِيها ، بأن تخزق آذانها ، وتقطع جزءاً منها بخَفْضِها - و هو الختان - وتعزِّرها بأن تشبهها بالرجال ، بأن تحزمها بسير ، وهو النطاق المعروف عند العرب ، وتُسَمَّى أسماء بنت أبي بكر : ذات النطاقين ، لأنها شَقَّت نطاقها نصفين ، نصف تحزَّمت به ونصف ربطت به الجراب الذي فيه زهاب النبي ﷺ مع أبي بكر لما أرادا السفر مهاجرَيْن إلى المدينة،

وكلها صارت عادة معروفة عند النساء .

وأول من فُعِلَ به ذلك هاجر ، كما أن سيدنا إبراهيم أول من اختتن ، وذلك في القدوم موضع ، ويبعدهما عنها ، بأن يضعهما - أي هاجر وولدها - عند البيت فوضعهما عند البيت الحرام ، ثم قال : ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

ثم إن الله سبحانه لطف بسارة ورزقها الولد ، فأطفأ نار غاريتها بحصول الولد لها ، فأرسل الملائكة يبشِّرونهما مع إبراهيم بالولد ، فأتوهما في صور آدميين ، فحين ما رأتهم حاضت ، وكان الحيض قد انقطع عنها ، وهو قوله تعالى : ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ ، أي تنظر إليهم ، ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ أي حاضت ، ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ ، أي ولداً لإسحاق . وفيه خاصية زائدة ، أن جميع الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته من ذرية إسحاق ، كما أن الخاصية الكبرى لإسماعيل أن النبي ﷺ من ولد إسماعيل خاصة ، وجده لا نبي من ذريته غيره . فهذا ما حَلَفَتْ لتفعلنه بها ، وكيفية إبرارها بيمينها ، ولطف الله وحلمه على ما صدر منها من تلك الطبيعة ، وأن تلك الكفخات في دماغ عدو الله مقدمات لما سيهلكه الله به ، وهو تسليط البعوضة التي هي أضعف ما خلق الله على دماغه ، حتى دخلته وأكلته فأهلكته بتجبره وتكبره ودعواه ما ليس له بحق .

قال سيدنا : « **فانظر كيف أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بامتثالها ، وفعل ما أرادت ، وهذا من باب الرفق بهن والصبر عليهن ، وكذلك جرى كثيراً لكثير من الصالحين** » .

قال : « **ومن تأمل فتن بني آدم من وقت آدم فأسفل ، رأى كلها أو أكثرها من النساء ، أو هن سبب فيها ، أو لهن في ذلك شرك** » ، وسمعته غير مرة يقول : « **الأخيار يأكلون بشهوات أهلهم ، والأشرار يأكلون أهلهم بشهواتهم** » .

وقال رضي الله عنه : « **من خاف الله قيَّد يديه ، وإلا انطلقت جميع جوارحه ، كقصة برصيصاً ، وهاروت وماورت ، والنفس ما يقدر عليها إلا بمنعها في أول الأمر عن جميع مطالبها ، وإلا أوقعتك في بليتين وفتنتين : الأولى : بلية وفتنة المحرمات ، والثانية : بلية وفتنة المباحات . ثم إذا طلبت منها الرجوع عن ذلك لا تقدر عليه** » .

قال رضي الله عنه : « **لا تسأل عن أعمال أهل الزمان ، والزمان زمان مسايرة ومداراة وتغافل ، فمن فعل ذلك معهم تمت له أموره ، فإذا كان الإنسان منهم لا يحتمل التقصي من والده فما بالك. لكن ينبغي أن يبذل الإنسان وسعه في الطاعة وإن قَلَّ ، كالضفدعة أتت في فمها بماءٍ لإطفاء نار**

النمرود عن إبراهيم عليه السلام وقالت : هذا جهدي . فشكر الله لها ذلك ، **وإذا رأيت الإنسان ما همه إلا الدنيا، فانفض يديك منه ، وإذا أَقْبَلَت الدنيا خذ منها ، وإذا أَدْبَرَت احترز منها مثل النهار** » هـ .

أَقُولُ : معنى ذلك أي لا تطمع منه في حصول خير ، ولا ميل إلى خير ، هذا باديء الرأي وظاهر الحال ، فإن كان له في علم الله نصيب في الخير فسيصير إليه ، وإنما هذا بالنسبة إلى تأثير الأسباب وعلامات الأحوال ، كما سيأتي من قوله : « **إنما نحن مع الناس إنما هو اليوم بالعناية ، وإلا فأما الأسباب فقد أتينا منها كل ما أمكن ، ولا جئنا منها بشيء** » .

والتمثيل بالنهار بمعنى أنه إذا أقبل كل ما له يتزايد ، وإذا أدبر كل ما له يتناقص، وكذلك الدنيا مُقْبِلة ومُدْبِرة .

وتكلم في أهل الزمان وقلة الأمانة فيه ، وأكثر في ذلك ، ثم قال عن الشيخ حسين بافضل : « **إنه قال : إن أكثر الناس اليوم قوالب بلا قلوب ، إن لم تقهرهم قهروك وما هم داريين ، أي قهروك بأفعالهم فيفعلون خلاف ما تريد قهراً** » .

قَالَ : « **وحسين هذا أخو أحمد الشهيد ، كلاهما أولاد الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل صاحب المختصر ، ذرية الشهيد في مكة ، وذرية حسين هنا في تريم** » .

قال في كلام الحكماء : « ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : المرأة والولد والعبد » على ما تقدم ، قَالَ : « **أي ظلم صوري . ثلاثة لا يطاقون : جائع شبع ، وشوهاء تزوجت - أظن قال : - وفقير استغنى** » .

ومَرَّ في القراءة في « العهود » للشعراوي لما ذَكَرَ اجتماعه على الخوَّاص ، قَالَ : « **والشعراوي قد اجتمع بمشايخ كثيرة ، والذي رباه شيخٌ كبير ، وهو محمد بن عنان ولكن المقدر له الفتوح ألَّا على يدي الخوَّاص** ، وكان **ألَّا رجلاً خاملاً جالس في مخزنه يسف الخوص ويبيعه** » ، قَالَ : « **وهذا الأمر إنما عمدته الإنقياد الكلي فيه يحصل للإنسان ، وهو أن ينطرح للشيخ في كل شيء** » ، إلى آخر ما تقدم في غير هذا المجلس إلى قوله : « **والفقر في الوسط** » ، ثم ذَكَرَهُ هنا في هذا المجلس كلفظ الأول حرفاً بحرف ، فأَحَلْنَاه على الأول قبل هذا بنحو ورقة وصافحة ، فإذا رأيته هناك فهو كما لو ذكرناه هنا ورأيته .

ولما كان الإنقياد الكلي على ما وصف من كونه عمدة هذه الطريقة ، وقد عدم اليوم على هذا الوصف من الكمال ، فبسبب ذلك قال : « **ولما رأينا الزمان يتناقص بنينا أمرنا على ثلاثة أشياء** » ، وعَدَّ منها : « **أن لا نحكم أحداً** » ، أي لعدم هذا الشرط في أحد وهو الأغلب ، إلا من أراد الله له ، فكان

المريد لو أمره شيخه أن يقع في النار أو في بئر امتثل طوعاً من نفسه ولم يتوقف ، واليوم ربما يقع في نفسه إنكار على شيخه ، فأين الحال من الحال ؟ فهذا من تدابير القضاء والقدر ، فاعجب من تدابيره سبحانه أن محمد بن عنان من كبار المشايخ ، وأنه هو الذي ربى الشعراوي وهذَّبه ، وزوَّجه ابنته فاطمة بنت الشيخ محمد ، وهي أم ولده عبدالرحمن ، ومع ذلك ما كتب له الفتوح إلا على يد الشيخ علي الخوَّاص، وهو رجل أُمِّي خامل ، كما قال سيدنا : « **إنه خامل جالس في مخزن يسف الخوص ويبيعه** » ، كمن غرس غرساً ورباه حتى أثمر ، ثم جنى ثمره غيره ، فيا لله العجب .

ومن عجائب قضاء الله وقدره قصة السيد يوسف ، حيث كانت بلده وجهته ملآنه من كبار الأولياء ، سيما الذين اجتمع بهم ورآهم وأخذ عنهم ، كالشيخ أحمد بن عمر العروسي ، والشيخ الحمياني والملياني والهبطي والشيخ عبدالرحمن الملقب بمن لا يخاف إلا الله ، والشيخ أحمد السياح والشيخ محمد أبوشتاء والشيخ محمد بن حسون ، وابن ميسون وغير هؤلاء مشايخ لا يحصون ، مع كثرتهم وتوافرهم وقربه منهم ومعرفته بهم ، فما كتب الله له الفتوح إلا على يد الشيخ أبي بكر بن سالم في جهةٍ لا يعرفها ولا سمع بها ، وهي عنه في أقصى الأرض ، ولا سمع بالشيخ أبي بكر ، فكشف الله للشيخ أبوبكر شأنه ، ونبَّه السيد يوسف أمره بمكاشفة يوسف الدادسي له ، وعيَّنه له بإخبار الرجل المحلي ، وساق المحلي من المغرب إلى الهند ثم إلى حضرموت ثم إلى عينات ، ثم إلى الإجتماع بالشيخ أبي بكر يسمع كلامه في جانبه ، فسمعه وبلَّغه إياه ، فتعين له حتى جَمَعَتْهُ المقادير به ، ثم حصل له منه ذلك الأمر الذي كتبه الله له على يديه خاصة دون أولئك المشايخ .

فأيُّ أمرٍ أعجب من هذا ؟ وأين الأمر من مدارك العقول وقياساتها ؟ ولهذا صار العمدة في هذه الطريق على التسليم الكامل والإنقياد الكلي على ما وصفوا ، ولِعِزَّتِهِ قال سيدنا في بعض المجالس : « **حتى نحن وَدَدْنا أن يكون لنا منه نصيب** » ، وهذا منه مبالغة في عِزَّته وستراً للحال هـ .

وقال له رجل : إني أطالع في كتاب « التنوير » ، *فقال له* : « **اعرف مقصوده وفائدته وما جُعِلَ لأجله ، وهو أن ترضى بما أقامك الله فيه ، مع القيام بالأوامر واجتناب النواهي ، ومن تجريد بلا تعلُّق بمخلوق ، بل محض توكل على الله ، وتعلق به ظاهراً وباطناً قلباً وقالباً ، أو سبب مع عدم الاعتماد عليه، والقيام فيه بجميع الحقوق ، فإذا عرفتَ ذلك فطالع فيه ، ولا تكن كلحم على وَضَم . ولكنك اخلط مع مطالعته المطالعة في الأربعين الأصل ، واجعله الطعام والتنوير خصَاراً، واستخرج الزبد منهما إن أحسنت المخض . ولا تفهم من التنوير أن المراد طرح الأمور كلها ، لا ، بل أن تتقي الله فيما أنت فيه ، أي من تجرُّدٍ أو كَسْبٍ ، فقد ضَلَّ أقوام بالكتب فلا يكون الرجال إلا بالرجال لا بالكتب** » هـ .

أقول : عندما كتبتُ هذا هنا ، ظهر لي معنى رؤيا رأيتها قد جرَت في معناها ، وما ظهر لي حتى أني أرسلت إلى سيدي عمر البار إلى حضرموت سألته عنها ، وهي أني رأيت سيدنا يقول لي : « **نزِّه نفسك عن حلول الفرضية** » ، فسألته عن معنى ذلك فقال : « **نزِّه نفسك .. إلخ** » حتى إني كرَّرتُ عليه السؤال سبع مرات ، وفي كل مرة يعيدها علي ، ولا يزيد عليها شيئاً .

فظهر لي الآن أن معنى لفظ الرؤيا المذكور هو قوله : « **أن ترضى بما أقامك الله فيه** » ، إلى قوله : « **بجميع الحقوق** » ، فإن قوله في الرؤيا : « **نَزِّه نفسك عن حلول الفرضية** » ، هو ما ذَكَرَه يقظة في هذا المجلس من قوله : « **بلا تعلُّقٍ بمخلوق** » ، أي ترجو منه نفعاً أو دفعاً ، وذلك موافِقٌ لما أوَّلها به الأكرم الشيخ محمد بن خاطر المصري : « أن المراد به : الدَّين » ، أي نَزِّه نفسك عن أن لا يلحقك الدَّين فيحل عليك فرضُ قضاه ، والله أعلم هـ .

قال رضي الله عنه : « **إن الله يحب السؤال - أي الدعاء - وإنما تركه من هو من أهل التوكل الكامل، فلا تتشبه بالأكابر فتطرح الثوب على الجرب** » هـ .

أقول : يعني تدَّعي ما لستَ من أهله ، فتظهر المليح وأنت حالك قبيح فتستره به ، وقد ذَكَرَ الشيخ ابن أبي جمرة : « إن الإنسان ما دام متعلقاً باختياراته ومصالحه ومطالبه ، فالدعاء في هذه الحالة أفضل له من تركه ، فإذا فنيت إرادته وكمل تعلقه بالله ، فترك الدعاء حينئذ أفضل له فافهم » ، انتهى بمعناه .

وذَكَرَ الشباب ، *فقال* : « **وما ينفع الشباب مع الغفلة ؟ إنما ينفع مع اليقظة ، وإلا راح عليه شبابه ضياعاً ، وبهذا السبب ضاع على الناس شبابهم لغفلتهم ، والمشيب مع هذا أحسن ، لأنه يرجعهم إلى الله من غير اختيار** » .

وقال في حديث : « إذا ابتليتُ عبدي بحبِيبَتَيْهِ فصبر ، فليس له جزاء إلا الجنة » ، أو كما ورد . *فقال* : « **يختلف الأجر باختلاف الصبر ، واختلاف طول المدة بعد ذلك وقصرها ، فيزيد الأجر وينقص بحسب ذلك ، وإذا كان ذلك في صغره أو كبره ، أو كان يحتاج إلى التمتع بهما أكثر ، فله على قدره ، وتتفاوت منازل الصبر في الدرجة الواحدة ، كما تختلف في الدرجتين . وكثير من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين حصل لهم ذلك في آخر أعمارهم ، كعبدالله بن عباس وكعب بن مالك والشيخ أبي بكر بن عبدالله العدني وغيرهم** » .

ومرة قال : « **إن جملة من الصحابة والتابعين ومن السادة آل باعلوي كفت أبصارهم في آخر**

أعمارهم، كابن عباس والشيخ أبي بكر صاحب عدن ، لكثرة المطالعة والكتابة سيما بعد العصر ، والسهر في الصبا، وكثرة البكاء تعمش العيون ، ولما كُفَّ ابن عباس أنشد :

إِنْ يَأْخِذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا ... فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُما نُورُ
قَلْبِي ذَكِيٌّ وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ ... وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُورُ

قال رضي الله عنه : « وقد تقدم أن الله سبحانه لا يعطي بالإستحقاق ، وإنما يعطي بالمشيئة ، فإن وافق الإستحقاق المشيئة أكمل له العطاء - أو قال : أجزل له العطاء - » .

ثم قال بعد ذلك : « إن رجلاً من الصحابة قال : اللهم أرني الجنة . فنهاه النبي ﷺ عن قوله ذلك، وقال له : قل اللهم أرني الجنة كما أريتها عبادك الصالحين . ومن تأمّل أحكام الله تحقق أنه لا يصلح الأمر إلا كذلك ، أو ألا على ذلك ، كالزكاة مثلاً ، قياس من لا بصيرة له أنها تنقص المال ، فربما منعها من مالِهِ فبعد قريب هلك مالُهُ ، أو انتقل إلى من لا ينفعه » .

وذَكَرَ الظلم والميل عن سبيل الحق ، وعدم امتثال الناس لمن يدلهم عليه ، *فقال* : « ومن يدعوهم إلى ذلك فهو معهم كرجلٍ أعمى لا يعرف الطريق ، يقول له بصيرٌ عارفٌ بالطريق : اطرح يدك في يدي وسِرْ معي ولا تتكلم فإني أوصلك ، ولا تقل: تعال من هنا أو من هنا . ثم إنه ما يسمح أن يجعل يده في يدك بل يستحلي ما هو عليه من العمى والجهالة إذ لا يعرف وجه ذلك ، ومن رأيته في الماء ولم يعطك يده أو أعطاك ولم تقدر عليه فاتركه ، ولا تحمل المحفر بعُروةٍ واحدة فينتثر ، بل بعروتيه جميعاً ، أو اتركه في الأرض » .

ثم قال : « طريق الحقيقة طريق الخصوص ما هي الَّا مظلمة ، لا يبصرها العامة لأنهم بعدوا من طريقهم ، فليس من قوتهم معرفة ما يعرفون ، فإن سلموا إليهم بلا اعتراض وصلوا ، وإلا بقوا متحيرين » هـ .

أقول : معنى ذلك أن طريق الحق والشرع مخالف لطريق الباطل والفساد ، فمن أَلِفَ الفساد فإذا دعوته إلى الحق فربما عصاك وخالفك ، فهذا الذي لم يعطك يده ، فاتركه ولا تحفل به ، وربما أطاعك ظاهراً وخالفك باطناً ، فهذا الذي أعطاك يده ولم تقدر عليه . وهو أيضاً حمل المحفر بعروةٍ واحدةٍ، فيوشك أن لا يكون محصلاً ، إذ حاله حال أهل النفاق ، فإن أقرَّ لك ظاهراً وباطناً وامتثل الأمر في الحالين ، فهو إمساك المحفر بعروتيه ، وهو أول طريق الخصوص ، فإن كَمُلَ في الحالَيْن الظاهر والباطن علماً وعملاً وانقياداً فهو من أهل الحقيقة ، فيعترض له أمور تخالف قياس العقول وظواهر الأحوال ، وهذا ظلامها .

« لا يبصرها » ، أي لا يعرفها العامة ، وإنما يعرفها الخواص ، فإن سَلَّم من لا يعرفها لمن عرفها ، وانقاد واتَّبع بلا إنكار عليها ، يقتضيه الحال الظاهر من تحكم العقول ، وصلوا إلى الحقيقة وعرفوا ما كانوا يجهلون من ذلك ، وإلا بقوا في موطنهم الأول ، لا وصلوا إلى حقيقة ، ولا كملوا في الشريعة ، وهو التحيُّر المذكور .

هذا ما فهمته من معنى كلامه الذي لا يعرفه إلا هو هـ .

وقد قال لي مراراً ، وكذا سمعته غير مرة يقول : « **طريقتنا طريقة الإمامة ، وهي طريقة مُظلِمة** » ، فسألته عن معنى كونها مُظلِمة ، *فقال رضي الله عنه* : « **المراد الطريق الخاصة ، ومعناه أن يقتدي بمن تأهَّل فيها ، ويمتثِل له ولا يدبِّر معه فيها بعقله وبما يستصوبه فإن العقل لا مجال له فيها ، ويسلِّم له في كل ما أمَرَهُ به أو نهاه عنه ، وإن كان يرى أن ذلك خطأ ، وأن الصواب عنده خلاف ذلك . كما ذُكِرَ عن بعض مشايخ مصر ، واسمه قطب الدين الحنفي ، أنه كان يوماً يمشي على الماء ، فأخذ بعض جماعته يمشي معه على الماء ، فقال له الشيخ : قل بسم الشيخ قطب الدين ، ولا تقل : بسم الله . ففعل ، وهذا عند ذلك المريد ظلمة - أي خطأ - فسارا ساعة ، ثم قال المريد في نفسه : لأي شيء ما أقول : باسم الله ، ثم قال ذلك وهذا عنده نور - أي صواب يعني قوله : باسم الله - فغرق فصاح بالشيخ ، فالتفت إليه وقال: ماذا فعلت ؟ قال : قلت : بسم الله ، فقال له الشيخ : ألم أقُل لك لا تَقُل ذلك ؟ لأنك ما تعرف الله ، وإنما أنت تعرفني وأنا أعرف الله ، وما مشيت على الماء إلا باسم الله .**

فانظر ما أبعد القياس من هذا الأمر ، فلو كان في المسجد مثلاً في قراءة قرآن أو في أمر ديني ، وهذا عنده نور ، فقال له الشيخ : قم اجلس في السوق ، أو افعل كذا أو كذا من أمور الدنيا ، وهذا عنده ظلمة ، ولكنه ما عَلِمَ مقصود الشيخ بذلك، فربما رأى فيه كبراً أو كان جلوسه في المسجد لرياء ، وأراد أن يكسره منه ، فإذا كان في السوق وقلبه متعلِّق بالمسجد ، أو بأمرٍ ديني خير من عكس ذلك ، وقد كان جماعة من الأكابر يعملون في السوق كالسري والجنيد وغيرهما ، وله بهم أسوة ، فإذا امتثل له كذلك أوصله من الظلمة إلى النور . وأما الأحكام الظاهرة العامة ، فكل الناس يعملون عليها ونورها فيها ، وقد سبق إلى ذلك النبي ﷺ وقبله في ذلك جميع الأنبياء ، وإنما الكلام في الخاصة » .

فقلت له : فعسى الخواطر المخالفة لا تضر في ذلك ، أعني يصير بها كحال المنكر المعترض .

فقال : « **لا ، الخواطر الغير الإختيارية لا تضر ، فقد حصل مثل ذلك لسيدنا عمر يوم الحديبية ، وإنما على الإنسان ما فيه اختياره ، وما وراءه فأمره إلى الله ، ما عليه في ذلك شيء** » .

قلت : فالإختيارية أيضاً ، أعني ما له فيه اختيار وقدرة ، من فعل الأوامر واجتناب النواهي ، لا يمكن الإنسان أن يأتي بها كلها ، لأن نفسه تقطعه عنها ، *فقال* : « **تسير معها** - يعني النفس - **كما تسير مع المرأة ، فتقدِّرها امرأة ، فتداريها مرة وتخالفها أخرى ، فمرة طاعة ومرة معصية** - أي إذا غلبتك- **مرة بغضب ومرة برضا ، وعلى هذا ، ولكنك خذ ضابطاً وهو أن تنظر في أعضائك كلها وأفعالك وحركاتك ، فإن كان أكثرها خيراً فأبشر ، فإن العبرة بالأكثر** » ، هذا أو كما قال رضي الله عنه ، ورزقنا من أسراره وأحواله ، وجعله حجة لنا لا حجة علينا هـ .

أقولُ : فيما ظهر لي في بعض كلامه في هذه المقالة : والفهم بحرٌ واسع ، كلٌّ يسبح فيه بقَدْرِ ما قَسَمَ الله له ، ومن فَهِمَ غير ذلك فلا بأس إذا كان على القانون الحق ، وذلك أن العبادات التي تعبَّد الله بها خلقه شيء واحد ، معلوم من الإيمان والعمل، كلٌّ يأخذ بقَدْرِ حظِّه من قُربِهِ من ربِّه ، ولكن للصدق فيه والكمال درجاتٌ كثيرة مختلفة متفاوتة ، من أدنى وأعلى وأعلى منه ، ولهذا كانوا مختلفين في اليقين والعمل ، ويختلف لهم الجزاء عند الله بحسب ذلك ، وذلك بحسب إرادة الله سبحانه لكلٍّ .

فالأدنى هو الظاهر المشروع لكافة الخلق ، وهي طريقة العامة التي كثيراً ما يذكُرها ويصفها ويبيِّن أمرها ، وهي التي تقدَّم وَصْفُهُ لها ، وقوله فيها هي المهيع الواسع ، وهي التي تسع كافة الخلق ، فعل الأوامر واجتناب النواهي ، وفعل ما تيسَّر من النوافل على موافقة الكتاب والسنة لا يتعداهما ، وما فوق هذه من الدرجات هي درجات الخواص ، درجات الولاية من أعلى إلى أعلى منه ، التي قال فيها كما تقدم : « **قد يعطى من هذا المقام ما يرى به آثار السائرين ، وآخر ما يرى به أقدام السائرين** .. » إلى آخر ما ذَكَرَ على ما قدَّمنا ، فانظره في محله ، وهم أهل الطريقة الخاصة على ما يذكره كثيراً .

ومعاملة العامة بتلك الظواهر بمجرد الحواس ، وما معهم من أعمال الباطن إلا نفس التصديق ، فلا تبلّغهم إلى خوارق العادات ، ومعاملة الخواص بالحواس والأرواح على حسب درجاتهم وكمالها في اليقين والصدق ، فتبلّغهم ذلك ، وإلا فما الفرق بين قول الشيخ : « بسم الله » ، ومشى على الماء، وبين قول الآخر : « بسم الله » وغرق ؟ ما ذلك إلا لكمال الصدق والمعرفة واليقين من الشيخ ، ونقصان المريد عن ذلك القدر ، الآية هي الآية ، ولكن القاريء غير القاريء .

ولما ذكر النبي ﷺ سيدنا عيسى عليه السلام أنه كان يمشي على الماء قال : « لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء » ، يعني لو أراد أن يمشي بقوة يقينه على الهواء لمشى ، لكن ما أراد إلا المشي على الماء . لا تفهم ذلك إلا كذلك ، فكثيراً ما تعتاص المعاني عند ذِكرِ ألفاظها ، كما قال النبي ﷺ : « رأيت البارحة عفريتاً من عفاريت الجن ، فأردت أربطه بهذه السارية ، لينظره ولدان أهل المدينة ، فذكرت دعوة أخي سليمان: هَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، فتركته » .

وأن الشيخ محمد باحسن جمل الليل باعلوي سخَّر الله له واحداً من عفاريت الجن يسقي له نخلاً غَرَسَهُ حتى أثمر ، فأنكَرَ هذا بعض الطلبة ممن ليس له إمعان في العلم ، لأن النبي ﷺ امتنع من استِسْخَارِه وهذا اسْتَسْخَرَهُ ، فأوَّل هذا المفتون في العلم أن دعوة سليمان : « لا ينبغي لأحدٍ من بعدي»، أي لا يجتمع لأحد بعدي الملك والنبوة . فامتناع النبي ﷺ لمكان النبوة ، وهنا ليس نبوة فلم يمتنع ذلك في حقه ، وأيضاً ليس ترك النبي ﷺ لذلك واجباً عليه ، إنما هو تعفُّفاً بلا وجوب ، ولهذا كانوا درجات ، وكان سيئاتهم حسنات الآخرين .

ونحو ذلك ما سمعنا عن رجل من أهل زماننا ، وكنا في الصغر اصطحبنا معه في طلب العلم ، أنه رأى رجلاً توسَّم فيه الصلاح فقال له : « علِّمني الاسم الأعظم » ، فبَعَّد على نفسه الأمر حتى أنه كان متشبِّهاً بزيٍّ بدوي ، فلازمه وقال له: « لا بد ما تعلمني به » ، قال : « لا بد ؟ » ، فقال : « لا بد» ، فخرج به إلى خارج البلد ، ووضع يده على صخرة صماء وقال : « الله » ، فَتَفَلَّقَت الحصاة قطعاً ، ثم قال له : « ضع أنت يدك على صخرة ، وقل كذلك » ، فوضع يده على صخرة وقال : « الله » ، فلم يكن مثل ذلك .

فانظر كيف أن الكلمة واحدة ، والقائل غير القائل ، باختلاف حالَيْهما في المعاملة اختلف الحال بينهما ، لِتَعْرِفَ أن ما فوق طريق العامة أنها كلها مواهب من الله في الأعمال والأحوال ، لا باختيار العبد ، وإلا لاختار الأكمل ، وكذلك الجزاء في الآخرة ، فلما كملوا في معاملاتهم لربهم بكمال الصدق والعمل ، وذلك بتكميله لهم لا بذات أنفسهم ، عاملهم في الدنيا بالمكاشفات وخوارق العادات ، وعاملهم في الآخرة بعلوِّ الدرجات ونَيْلِ الكرامات ، وكل ذلك من اختلاف الحالَيْن على وفق إرادته تعالى للفريقين لا غير ، حتى صارت أعمالهم أيضاً مختلفة بحسب إرادته تعالى .

فإرادته سبحانه هي الأصل في كل شيء ، وإنما الأسباب تابعة لها بحسبها ، أعني الأسباب المبلِّغة إليها ، وإلا فكثير من الأسباب غير مبلِّغة إلى المراد كما تبَيَّن لك من هذا الكلام ، كما قد ظهر أسباب خير على من أُرِيدَ له الشر ، فلا أثر لها به ولا بد بعد ذلك من أسباب كثيرة تؤثِّر به ذلك ، وتبلِّغه الشر الذي أُريدَ له ، وقد تظهر أسباب شرٍّ على من أريد له الخير فلا تؤثِّر به ذلك ولا تبلِّغه إياه ، ثم لا بد له بعد ذلك من أسباب خير تؤثر به ذلك وتبلِّغه إياه . والحكمة في ذلك أن لا ييأس العاصي ويقنط ، ولا يغتر المطيع ويعجب ، بل ليكون كلٌّ منهما قوي الرجاء في ربه، مشفِقاً خائفاً من ذنبه .

وقوله : « **مُظلِمة** » ، أي كطريقة الماشي في ظلام ، لا يبصر بالبصر الحسي ، فهذا أيضاً لا يبصر بالبصيرة المعنوية ، كما قال : « **في ظلمة لا يبصرها العامة** » ، أي لأنهم إنما بصرهم بالعين الحسية ، لا مدرك لهم بالبصيرة المعنوية ، والمراد بها بصر قلب بالبصيرة ، لا بصر عين حسية ومعناه لا تدرك

معانيها عقولهم لأن مبناها على أمورٍ كَشْفِيَّة لا يدركها الحس ، كحياة الميت في قبره حين السؤال ، وهي حياة حقيقة محققة في عالمها ، يجب الإيمان بها ، ولا تدرك معرفتها حال الحياة الدنيوية إلا للخواص المكاشفين ، دون العامة الغافلين ، فلذلك لو فَتَحْتَ عليه لا تراه إلا كما وُضِع ، ومِثل هؤلاء أهل البصائر الخواص يدركون حياته ، فانظر هذا الفرق بين الفريقين ، فالشيخ في هذا الطريق يرى ما لا يراه غيره ، كما تقدم من قوله : « **درجة الولاية تحت درجة النبوة** » . وقد يُعطى ما يرى بسببه الطريق إلى الله ، فإذا كان هو يرى ذلك فيهدي بمعرفته من لا يرى ، فهذا معنى طريقة الإمامة يعني طريقة الاقتداء ، فيقتدي به كما يُقتدى بإمام الصلاة لا يجوز له التقدُّم عليه ولا التأخُّر عنه، ولذلك سُمِّيَت : طريقة الإمامة . وكونها مظلمة فإمامهُ فيها شيخه الذي اقتدى به ، فيسلك به فيها أموراً ينكرها عقله، لعدم إدراكه لها ، فهو فيها كالذي يمشي في ظلام ، أو أعمى لا يبصر ، فيأمره بأمور لا يعرف وجه الصواب فيها ، وربما رآه خطأ ، وهي طريقة الخصوص أهل الباطن ، فإن أحوال أهلها التي لم تدرك تستنكر، فلذلك سماها ظلمة ، يعني مستنكرة عند من لم يعرفها . وخلاف ذلك الذي يرونه صواباً سماه نوراً ، يعني عند هذا القاصر ، فإذا كمل وبلغ ما بلغوا رأى الأمر بالعكس ، ما رآه نوراً - أي صواباً - هو الظلمة - أي الباطل - والظلم والخطأ ، وما رآه ظلمة وباطلاً هو الصواب والنور والحق .

وقصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر تدل على ذلك ، وعلى أنه لا يلزم من كون المطلع على ذلك أفضل من الذي لم يطَّلع ، إذ ليس الخضر أفضل من موسى عليه السلام لأجل اطلاعه على ذلك، إلا إن سيدنا موسى عليه السلام أفضل قطعاً ، وهذا في حق الأنبياء خصوصاً ، لأن علمهم وحي ، وهو أفضل وأعلى من علم الأولياء وهو إلهام ، وأما غير الأنبياء فمن اطلع على ذلك من الإلهام من أهل العلوم اللدنية فهو أفضل ممن لم يطَّلع ممن لم يكن من أهله ، وأما أهله فهم يتفاضلون أيضاً .

وطريقة الخصوص المذكورة ، مبناها وأساسها الإنقياد الكلي والتسليم البالغ ، بحيث لم يكن له معه رأي في أمر ما قط ، فيصير مع من تحكَّم له فيها مقتدياً به ، ومرتبطاً به كارتباط أفعال المأموم بأفعال الإمام ، لا يجوز له التقدم والتأخر ، وهذا أمرٌ شديدٌ إلا على من سلك الله به مسالك الأولياء ، إذ كيف يسلّم في أمور يراها خطأ على حسب معتقده لا يشك في ذلك .

كيف ولم يسلِّم سيدنا موسى لما استنكره من أفعال الخضر ، من خَرْقِ السفينة وقَتْلِ الغلام ، لما رأى ذلك منكراً ، مع أنه قال له ربه : « إنه أعلم منك » ، أي في إباحة الله له تلك الأمور في تلك الواقعة في تلك الحالة خصوصاً ، ثم لم تُبح بعدها وما أبيحت قبلها ، وقال له الخضر : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، ما أحاط علمك بإباحتها وما أبيحت ، ليري الله سبحانه سيدنا موسى ، أن ثَمَّ علوماً

ما أحاط بها ، وإن من وراء علمه علوماً ، لكنه على حسب شَرْعِهِ الذي شَرَعَهُ الله لعباده على يده يجب عليه أن ينكر ذلك ، لأنه لا يجوز ذلك في شَرْعِهِ ، فحصل لكلٍّ منهما ومن كلٍّ منهما ما أراد به وما أراد منه ، وإنما أباح الله ذلك للخضر في تلك الواقعة خاصة ولا يجوز له بعدها فِعْل مثل ذلك، وإنما أباحه ليرى موسى عليه السلام ، أن من وراء علمه علماً ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

وذلك لأنه خطب في بني إسرائيل خطبة بليغة فقال له بعض من سمعها لما أعجبته وتعجب منها: هل على وجه الأرض أحد أعلم منك ؟ فقال : « لا » ، وذلك على حسب ظاهر الحال ، أنه لا أحد من الخلق أعلم منه ، لأنه رسول ذلك الوقت ، فلا أعلم منه في ظاهر الحال ، ولكن عِلْم الله من وراء ذلك ، فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم إليه ، يعني : كان الأولى أن يقول : « الله أعلم » ، فلما لم يقُلْه، قال الله سبحانه له : « بلى ، عبدنا خضر أعلم منك » ، أي في ما ذكر ، فساقه إليه وجمع بينهما ، فرأى منه ما رأى ، ولم يعلم بإباحة ذلك ، فهو أعلم منه بذلك لا غير.

حتى قال له الخضر: « أنت على علم علَّمَكَهُ الله لا أعلمه أنا - يعني علم الوحي- وأنا على عِلْم علَّمَنيه الله لم تَعْلَمه أنت». يعني العلم اللدني الذي قال الله فيه : ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، وسُمِّيَ لذلك بالعلم اللدني، لأنه من لدن الله له ، أي جاءه من عنده ، وهو علم الإلهام ، ويُسَمَّى وحيٌ مجازاً كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾، أي ألهمناها ، والوحي الحقيقي هو علم المَلَك الذي يكون للأنبياء، والإلهام للأولياء . والفرق بينهما أن الوحي خطاب يخاطب المَلَك به الأنبياء ، كما يخاطب الرجل الرجل ، والإلهام شيء يلقيه الله في قلوب الأولياء ويكون صدقاً وحقًّا ، وقد يخطيء إلا إن أريه مكتوباً في اللوح المحفوظ فلا يخطيء، كما قال : « **الإلهام كلام أو أوهام وقد يخطيء الأمرين في اللوح المحفوظ**» .

قوله : « **مُظلِمة** » ، أي مستنكَرَة لمن لا يعرفها ، لا يمكن أن يستهل فيها بشيء وإن اعتقده الصواب، وخلافه الخطأ ، كما مثَّل له بقصة الشيخ قطب الدين مع تلميذه في المشي على الماء بقول : « بسم الله » ، وأن الشيخ مشى بها عليه ، فإن التلميذ غرق بها فيه .

وقوله : « **لأنك ما تعرف الله** » ، أي لأنك ذَكَرْتَهُ وعَبَدْتَهُ من غير معرفة خاصة حقيقية ، بل بِذِكْرِ العامة في عبادتهم التي هي مجرد التصديق ، والأفعال الحسية الظاهرة ، وذلك لا يبلِّغك مقام الكرامات وخوارق العادات ، التي من جملتها المشي على الماء ، وإنما تفيده المعرفة الخاصة التي هي شأن أهل الخصوص وكمال الصدق ، فلما كان الشيخ بهذا الوصف الكامل مشى على الماء باسم الله . وإنما هو أمشى ذلك الرجل بحالِهِ تلك اللحظة ، حيث كان ممتثلاً له مخالفاً لما يراه ، وعلى كمال وصف الإنقياد والإعتقاد ، ورؤية النقص في نفسه ، فلما خالف الإمتثال رجع إلى ما يراه ، فداخَلَهُ في ذلك

الهوى برؤية نفسه أنه عالمٌ بالصواب ، مُتَّبع لعلمه بما يراه صواباً ، فباتباع ما يهواه غرق لأنه لا يمشي على الماء إلا بمخالفته الهوى ، كما قاله بعضهم ، لأنه يدل على قوة اليقين ، وبهذا تبيَّن اشتراط الإنقياد الكلي الذي لا يداخله معه اتهام قط .

وسيأتي قريباً قوله : « **وَضْع القدم على القدم يحصل به خير ، ولو لم يكن التابع من أهل الباطن** » ، حتى قال : « **ألا ترى لو أن شخصاً من أهل الخطوة تُطوَى له الأرض وضع آخر قدمه موضع قدمه في المسير ، كيف تُطوَى له الأرض مثله بانطوائها للآخر** » ، وقصة الشيخ المذكور مع تلميذه في المشي على الماء هنا تشهد لذلك .

ومراد سيدنا عبدالله نفع الله به أن السالكين معه على طريقة أهل مقام الخصوص على مثل هذا السبيل لا يهتدون إلى المقصود الحقيقي المبلِّغ إلى ذلك المقام العالي ، إلا بالإمتثال الكلي ومخالفة كل ما يستصوبه معقولهم، وأن زعمهم غير موافق للمقصود ، وإن رأوه صواباً وغيره الخطأ ، كما استصوب ذلك التلميذ ، أن قال : « بسم الله » ، فغرق . فيلزمهم التسليم والإنقياد التام ، وترك ما يرونه الصواب، فإنه غير صواب حتى يوصلهم إلى الله ، فعند ذلك تنقطع عنهم جميع الملاحظات الهوائية في المعاملات الحقية ، فحينئذ يعرفون ما عرف مما لم يكونوا عرفوه ، ويتحقَّقون ما تحقَّق به مما لم يتحققوه .

وقوله : « نوراً » أي صواباً ، و « ظلمة » أي خطأ ، وما ذَكَرَ من ذلك الضابط، أراد أن يتفقد المريد أعضاءه ، لأن منها يصدر الخير والشر ، وهي منبع الأعمال الصالحة والطالحة ، فينظر أيها أكثر مما يصدر منها الخير والشر ، فالعبرة بالأكثر ، فإن كان الخير فأَبْشِر ، وإن كان الشر فَخِفْ وشَمِّر ه .

قال رضي الله عنه : « **وَضْع القدم على القدم يحصل به خيرٌ كثير ، ولو لم يكن التابع من أهل الباطن، فإذا وضع قدمه على قدمهم يحصل له ما يحصل لهم ، ألا ترى لو أن شخصاً من أهل الخطوة تُطوى له الأرض وضع آخر قدمه موضع قدمه في المسير ، كيف تُطوى له الأرض بانطوائها للآخر ، وإن لم يكن مثله . فإذا كان هذا في الأقدام الحسية ، فما بالك إذا كان في الأقدام المعنوية - أو قال : الدينية - ومقام الإسلام بجامع الأفعال الإلهية ، ومقام الإيمان بجامع الصفات الربانية ، ومقام الإحسان بجامع الصفات الذاتية** » .

أقول : وفيما ذكر من فائدة : « **وَضْع القدم على القدم** » ، ترجية لمن عمله على عمل العامة الذين لم يبلغوا في عملهم درجة الخاصة بإقتدائهم ، ولو فيما لم يعلموا وجهه ، ويحقق أن « من تشبَّه بقوم فهو منهم » .

وفي هذا الإختلاف في العمل من الزيادة والنقصان ، اختلفوا في زيادة الإيمان وعدمها ونقصانه، واتفقوا أن نفس الإيمان الذي أمر الله به وأرْسَلَ به رُسُلَه شيء واحد لا يزيد ولا ينقص ، وإنما تزيد منها له التي هي القلوب تأثراً به قليلاً وكثيراً بكثرة التأثر به ، وقلته وعدمه ، فزيادة التأثر به هي زيادة الإيمان . ومثَّلوا له بالمطر النازل من السماء في الأرض ، فرُبَّ أرضٍ دَمِثة تأثَّرت به وداخَلَ أجزاءها ، ورُبَّ قاع قَوْع صفصفٍ وصخرةٍ صماء لا تتأثر به أجزاءها ، إنما هو في أعلاها ، والكتاب والسنة وردا بزيادة الإيمان ونقصه ، ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ ، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ ، وفي الحديث : « الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية » ، ويكفيك العيان من الفرق بين حال الشيخ المذكور وتلميذه ، وإنما مثَّل به ليعرف المعنى ، فافهم المعنى من التمثيل .

وقوله : « **فقد وقع مثل ذلك لسيدنا عمر يوم الحديبية** » أي فلا لوم في ذلك ، لأنه بغير اختيار وذلك محقق أن الخواطر الإختيارية ليست منه ، إنما هو وسوسة من الشيطان وقولٌ له ، فلا يؤاخذ أحد بقول غيره .

وقول سيدنا عمر مستنكراً للصلح ، لأنهم جاؤوا إلى مكة مستعدين للحرب وأن يستأصلوهم ، وراغبين كل الرغبة في قتال أعداء الله وقَطْع دَابِرِهم ، فما دروا إلا والنبي ﷺ قد أمرهم بصلحهم ، فصار لذلك في قلوبهم حسرة وأيُّ حسرة . فقال سيدنا عمر : « فلم نُعطِ الدَّنِيَّة في ديننا ؟ » ، أي : أَنَذِلُّ لِعَدُوِّنَا بالصلح ونحن أعز منهم وأقوى ، ونحن على الحق وعدونا على الباطل .

وأمرهم أن يذبح كلٌّ منهم شاة يتحلَّلوا بها من عمرتهم ، فما ساعدتهم أيديهم على ذلك وقالوا : « أي بِرٌّ هذا ؟ » ، فقال ﷺ : « هو البِر كله ، وقد أمرني ربي بهذا ، ولا أخالف ما أمرني به » ، ووعدهم الله بفتحها في العام القابل ، فصالحوا وتَمَّ الصلح ، فلما تَمَّ نَزَلَت : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ .

فكان سبب أمر الله لهم بصلحهم أن هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات كانوا بينهم مستضعفين لم تعلموهم ، لو دخلتم عليهم لسحقتموهم معهم ولم تعلموا ، فتبيَّن لهم الحال بعد ذلك وفرحوا ، وقال سيدنا عمر : « قط ما داخَلَني الشك في أمري إلا يوم الحديبية » ، وهذا الذي أشار سيدنا إليه ، وكلما أشار إليه ومَثَّل به ، ليوضح لك أيها المريد المعاني التي أنت قاصدها ، ولا اطلاع لك عليها، فإذا سلَّمتَ أمرها للشيخ ، واتَّبَعْتَ ما أمَرَك به بانقيادٍ كُلِّي ، تَبَيَّنَ لك بعد ذلك المراد . وهذا يريد عقلاً راجحاً ثبتاً ، فما أنت أعلم ولا أعقل ولا أقوى إيماناً من أصحاب رسول الله ﷺ ، سيما كبارهم

وأكابرهم ، ولا اطلعوا على حقيقة الأمر لأنه أمر من عند الله لا اطلاع للخلق عليه ، حتى يبيِّنه لهم على لسان رسوله ، والرسول امتثل الأمر ولا توقف ، وأين انقياده من انقيادهم ؟ حتى تبين له ولهم بنزول الآية ، ولعله أطلعه الله عليه قبل نزولها ، وتأكد عنده بنزولها .

فافهم هذا التمثيل العجيب والأسلوب الغريب ، أن في هذا الطريق وهو طريق الإنقياد الكلي ، يعني بالقلب والقالب قبل الإطلاع ، ثم لا بد من اطلاعك عليه ، كما قال الخضر لسيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾، ولأجل صعوبة الصبر والإنقياد قبل العلم ، قال له : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾، سيما إن كنت تعتقد حرمته ، لكن الشيخ بقوة تصرفه وتأييد الله في هداية الخلق إليه يحميه عن وقوعه فيما لا يجوز شرعاً .

كما ذَكَرَ سيدنا غير مرة أن رجلاً في وقت الشيخ عبدالله العيدروس نفع الله به كان عاشقاً امرأة، وإذا رآها من بُعدٍ ذهل وتغيَّر عقله ، فاتفق أنه حضر مجلس الشيخ ، وبين يديه سماع ، وكانت المرأة تتشرف مع نساءٍ كثير ، فأحسَّ بها ولم يلتفت قلبه إليها في حضرة الشيخ ، وكأنما ينظر حائطاً ، حتى قام الشيخ فرجع على حاله من شأنها .

وكذلك الشيخ عمر بامخرمة لما سمع بشيخه الشيخ عبدالرحمن باهرمز أنه يجمع بين رجال ونساء في مجلسه - وذَكَرَ العلماء له أعذاراً تبيح له ذلك كما تبيح الضرورة أكل الميتة - فقَصَدَهُ بِنِيَّة الإنكار عليه في ذلك ، فحين دخل عليه ، أمر إمرأة منهن تعتنقه . فحين أقبلت عليه سقط مغشيًّا عليه وما أبصرها، فحصل له بهذا رياضة عظيمة وانقياد كلي ، ثم بعد ساعة أفاق فقال للشيخ : « أعطني الطريق» ، فقال : « ما أعطيك حتى تستقبل المشرق وتحرم بركعتين » ، وكانت القبلة في جهتهم غربية، فيصير مستدبرها، فلما استقبل جهة المشرق تراءت له الكعبة ، فأحرم وهو يراها. فحُفِظَ في هذه الحالات عن المخالفات، وهكذا أنت آتٍ بما تؤمر به من الشيخ المحقِّق ، فإنه أعلم بالله وبأحكام الله من غيره ممن تثق بقوله فافهم هـ .

قال رضي الله عنه : « **للشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس علينا مشيخة ، باطناً من غير إسناد ، وظاهراً بإسناد واتصال** » هـ .

أقول : ذكر في سند سلسلة إلباسه التي طلبه السيد عبدالله بن أحمد بروم من أهل الشحر أن يكتبها له ، فقال فيها لما ذَكَرَ اتصالها به حين ذَكَرَهُ ، لما وصل إسناده إليه : « **ولنا بحمد الله منه** - أي العيدروس - **يد باطنة في واقعة عظيمة ، بل وقائع متعددة** » .

وقد أخبرني بمدينة شبام السيد عبدالله بن حسين العيدروس صاحب المعيقاب بخبر تلك الواقعة، عن من أخبره بها ، عن السيد علي بن عبدالله الصليبية العيدروس صاحب سورت ، أنه ذكر قصة له مع سيدنا عبدالله ، أنه كان يزور معه التربة كل ليلة ، وكان من عادتهما أن يزورا ليلاً بعد العشاء أيام اجتماعهما قبل مسيره إلى الهند ، وسمعنا عنهما أنهما بعد الزيارة كانا يقفان في طرف التربة عند مسجد الجوهري، يتذاكران ويستغرقان في المذاكرة من وقت العشاء حتى يطلع الفجر عليهما وهما واقفان ، قال : « ثم تَخَلَّفتُ عنه ليلة ، فزار الحبيب عبدالله التربة وحده تلك الليلة ، فلما جاء إلى ضريح سيدي عبدالله العيدروس رضي الله عنه ، رآه جالساً خارج القبر وداخل التابوت ، وأنه صافحه وقبَّل يده ، وتفل فيه ، وأعطاه أمانة » .

فهذه الواقعة التي أشار إليها ، ونحوها مرة أخرى في مسجد آل باعلوي سنشير إليها فيما سيأتي، ولذلك كان كثيراً ما يقول : « **عندنا من الشيخ عبدالله بن أبي بكر أمانة** » ، ومرة قال : « **في واقعة وقَعَت لنا** » ، وهي هذه الواقعة المذكورة ، ولم أسمعه ذكر التفل والمصافحة ، ولعله ذَكَرَ ذلك لأحدٍ ممن سبق قبلنا .

وأما ذِكْر الأمانة فسمعته مراراً كثيرة ، وسمعه غيري كثير في حاضري مجالسه يذكرها ، فمرة قال: « **عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي** » ، ومراراً قال : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، ومرة أو مرتين قال : « **أو ستون** » ، ولعله يشير إلى الإمامة المذكورة، وصرَّح بها مراراً فقال : « **عندنا من الشيخ عبدالله بن أبي بكر أمانة لا يحملها إلا المهدي** » ، ومرة قال : « **جمعنا من الكتاب والسنة ما لا يحمله إلا المهدي** »، حتى إنه جمع عنده أصول كتب الحديث السبعة وقال : « **إنما جمعناها لأجل المهدي ، لأنه يحتاج إليها، فإنه لا يعمل بأقوال الفقهاء ، وإنما عمله على الكتاب والسنة ، مجتهداً لا مقلِّداً** » ، والله أعلم بمعنى جميع ذلك ، والقدرة صالحة لكل شيء .

وذكر السيوطي في « العَرْف الوردي في أخبار المهدي » قال : « أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس

قال : لا تمضي الأيام والليالي حتى يلي منا أهل البيت فتى لم تلبسه الفتن ولم يلبسها . قيل : يا ابن عباس، يعجز عنها مشيختكم وينالها شبابكم ، قال : هو أمر الله يؤتيه من يشاء . وفي الحديث : المهدي منا أهل البيت ، يصلحه الله في ليلة ، يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يكون عطاؤه حثياً . المهدي مني ، أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئت قبله ظلماً وجوراً، يكون سبع سنين .

ولمسلم وأحمد عن أبي سعيد وجابر قالا : قال رسول الله ﷺ : يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده ، يخرج في آخر الزمان خليفة يعطي الحق بغير عدد ، لو لم يَبْقَ من الدنيا إلا يوم واحد لبعث الله رجلاً منا يَمْلَؤُها عدلاً كما مُلِئَت جوراً » ، والذي ظهر لي أن تلك الأمانة التي حصلت له من الوجوه المذكورة من الشيخ عبدالله ، ومما جمع من الكتاب والسنة أنها مقام القطبية، ومقام الدعوة إلى الله، لأن من لازِم صاحب مقام القطبية الدعوة إلى الله ، وهو مقام النبي ﷺ ، وكل من دعا إلى الله سواه ، فهو نائب عنه ، والمهدي آخر أقطاب هذه الأمة ودعاتها .

وإن معنى لفظة الحديث : « يصلحه الله في ليلة » ، أي يُلهِمه الله الإطلاع على معاني الكتاب والسنة، ويُطْلِعه عليها ، وذلك كل أحكام الله التي شرعها لعباده ، فَيَحكُم بها ويبيِّنها للناس ، ويدعوهم إليها ويجاهدهم عليها ، ولا يشذ عن حُكْمٍ من أحكام الله جَلَّ أو دَقَّ ، حتى يعلم جميع الأحكام جليها وخفيها ، إذ كلها مُودَعة في كتاب الله وسنة رسوله .

قال السيوطي في كتابه « الإعلام في أخبار عيسى عليه السلام » : « القرآن قد انطوى على جميع الأحكام الشرعية ، وفهمها النبي ﷺ بفهمه الذي اختص به ، ثم شرحها لأمته في السنة ، وأفهام الأمة تقصر عن إدراك ما أدركه صاحب النبوة. وشاهِد ما قلناه من أن جميع الأحكام الشرعية يفهمها النبي ﷺ من القرآن، قول الإمام الشافعي رضي الله عنه : جميع ما حكم به ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. ويؤيِّده ما أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : إني لا أحل إلا ما أحلَّ الله في كتابه ، ولا أحرِّم إلا ما حرَّم الله في كتابه، وقال الشافعي أيضاً : جميع ما تقوله الأمة شرحٌ للسنة ، وجميع السنة شرحٌ للقرآن، وقال الشافعي أيضاً : ليست تنزل بأحد في الدين نازلة ، إلا في كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها ، وقال المرسي في تفسيره : جَمَعَ القرآن علوم الأولين والآخرين ، حيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ثم رسول الله ﷺ ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل ابن مسعود وابن عباس ، حتى قال : لو ضاع عليَّ عقال بعير لوجدته في كتاب الله ، وقال ابن مسعود: من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين .

فعُرِفَ بمجموع ما ذَكَرْنَاه ، أن جميع الشريعة منطوية تحت ألفاظ القرآن ، غير أنه لا ينهض لإدراكها منه إلا صاحب نبوة ، وقال بعض العلماء : العبارة في القرآن للعلماء ، والإشارة للخاصة ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء ، وعيسى عليه الصلاة والسلام نبي ورسول ، فيفهم من القرآن ما انطوى عليه ، ويحكم به وإن خالف الإنجيل ، وهذا معنى كونه يحكم بشرع نبينا ﷺ » ، انتهى كلام السيوطي بتلخيص . يعني يحكم به إذا نزل عند قُرْبِ الساعة ، وكذلك المهدي يفهم ما انطوى عليه القرآن، كما فهمه غيره ، فَيَحْكُم به ، وتبلغ إليه تلك الأمانة مجموعة له بعد تفريقها له عن سيدنا ، كما كانت مجموعة عند سيدنا أيضاً، وبه ختامها ، فيكون عمله وسيرته عبادة وعادة ظاهراً وباطناً على سيرة النبي ، كما فَهِمَهُ مِن معاني الكتاب والسنة ، لا يتبع في شيء من ذلك قول أحد تقدمه ، بل هو مُستَقِلٌّ بِعِلْمِه ، مُسْتَبِدٌّ بفهمه ، وذلك على القانون الحق الذي مَن مالَ عنه مالَ إلى الباطل .

وكون تلك الأمانة ما يحملها عنه إلا المهدي ، أو تقسَّم على أربعين أو ستين يحملونها عنه للمهدي، أو تُحمَل عنهم أيضاً له ، فتجتمع له ، وكل ذلك يدل على أن الوقت له ، من وقته وأوقات من حملها عنه، من حاملٍ ومحمولٍ عنه ، إلى المهدي في وقته ، أن ذلك الوقت كله له منه إلى وقت المهدي ، فالناس في دعوته هذه المدة نيابة عن النبي ﷺ إلى وقت المهدي .

وأما ثبوت الوقت له أولاً، فقد ثبت بأقوال المكاشفين ، بأنه صاحب مقام القطبية، كما كاشف الولي الذي بالمغرب أبا الطيب فقال له : « إنما القطب اليوم السيد عبدالله الحداد » ، وكذلك أقوال من تقدَّم أول النقل ، وما ذَكَرَ في تلك الرؤيا التي رأى الشيخ أبابكر بن عبدالله العيدروس في المنام ، فاستنكر منه حاله حينئذ، فسأله عن ذلك فقال : « الناس غير الناس ، والوقت غير الوقت ، كان ذلك في وقتنا والوقت لنا واليوم الوقت لغيرنا » . قال الرائي : قلت له : من الذي له الوقت اليوم ؟ قال : « أريك إياه الآن » ، ثم سار معه إليه ، فلما وقع بصر الشيخ أبابكر عليه أطرق رأسه ثم قال : « الوقت اليوم لهذا الرجل » ، ثم قَدِمَ معه عليه وقَبَّل يديه ثم مشى القهقرى ، ولم يجلس في الصف حتى جاء إلى صف النعال فجلس هناك . قال الرائي : فصافحتُ الرجل الذي أشار إليه أنه صاحب الوقت ، فإذا هو سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به . فبهذا ونحوه مما تقدَّم ثَبَتَ أن الوقت له ، ومما قدَّمنا هنا ثبت أن الوقت له مستمرٌّ إلى خروج المهدي .

ولسيدنا في مذاكراته المتقدمة مع السيد علي بن عبدالله التي كانا يقطعان فيها جنح الليالي قائمين، وتلك المسامرات كثير إشارات في كثير أبيات من قصائد كثيرات ، يشير إليها بها يتذكرها ويتذكر أوقاتها وصفاء أحوالهما فيها التي كانت قبل هذه الأوقات الكدرة ، وهذه الأحوال النكدة ، من ذلك

قوله :

وَكَمْ حَبِيبٍ وَفِيِّ الْعَهْدِ مُجْتَمِعٍ   عَلَى المودَّةِ لاَ بِالْعَاجِزِ الوكِلِ
مِنْ آلِ فَاطِمَةٍ بِيضِ الوُجُوهِ لَهُ   إِلَى المَكَارِمِ سَعْيُ المُسْرِعِ العَجِلِ
فَهَلْ تَرَى عَائِداً فِي الحيِّ مُجْتَمِعاً   مَعَ الأَحِبَّةِ بِالإِبْكَارِ وَالأُصُلِ
وَبِالمسَامِرِ مِنْ لَيْلٍ وَقَدْ هَدَأَتْ   عَيْنُ الشُّنَاةِ وَأَهْلِ النَّقْلِ وَالْعَذَلِ
يَدُورُ مَابَيْنَنَا كَأْسُ الحدِيثِ مِنَ   الْقَدِيمِ نُسْقَى بِهَا فِي النَّهْلِ وَالعَلَلِ
لَسْنَا نُبَالِي وَلاَنَدْرِي بِنَائِبَةٍ   تَنُوبُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ وَالعِلَلِ
أَنَّى وَهَيْهَاتَ أَنْ تُثنِي أَعِنَّتَهَا   تِلْكَ الأُوَيْقَاتُ بَعْدَ الأَوْبِ وَالْقَفَلِ
فَقَلَّمَا عَادَ مَا قَدْ فَاتَ مِنْ زَمَنٍ   صَفَا وَخِلٌّ وَفِيٌّ فَاقْصِرْ وَلا تُطِلِ
فَمَا نَهَيْتُكَ عَنْ تَذْكَارِهَا مَلَلاً   لَهَا وَلاَ سَلْوَةٍ عَنْهَا وَلاَتَهَلِ
لَكِنْ تُهَيِّجُ أَحْزَاناً وَتَبْعَثُهَا   وَحَسْرَةً فَدَعِ التَّذْكَارَ وَامْتَثِلِ

وقال في قصيدته في السيد علي المذكور التي مطلعها :

ذَكَرَ العَهْدَ وَالرُّبَى وَالمنَازِلْ   فَغَدَا دَمْعُهُ عَلَى الخدِّ سَائِلْ
وَذَكَتْ مِنْ فُؤَادِهِ نَارُ وَجْدٍ   وَاشْتِيَاقٍ وَلَوْعَةٍ وَبَلاَبِلْ

إلى أن قال :

يَارُبُوعَ الأَحْبَابِ بِالسَّفْحِ منْ عَيْدِيدَ   هَلْ عَيْشُنَا الذِي مَرَّ آيِلْ
يَا زَمَانَ الوِصَالِ إِنْ عُدْتَ عُدْنَا   وَاجْتَمَعْنَا فِي الحيِّ وَالحيُّ آهِلْ
بِالْغَوَانِي الحِسَانِ يَرْتَعْنَ فِيهِ   نَاعِمَاتٍ بَيْنَ الحِمَى وَالمنَاهِلْ
وَالأَحِبَّاءِ وَالمُحِبِّينَ وَالسَّادَاتِ   مِنْ فَاضِلٍ ومن ابْنِ فَاضِلْ
مِثْلِ نَجْلِ الْعَفِيفِ شَيْخٍ كَرِيمٍ   مِنْ كَرِيمٍ مَا إِنْ لَهُ مِنْ مُمَاثِلْ

إلى أن قال :

كَانَ فِينَـا حِيناً وَكُنَّـا جَمِيعـاً ... فِى سُرُورٍ وَغِبْطَـةٍ وَفَوَاضِـلْ
فَتَنَـاءَتْ بِـهِ المَنَـازِلُ عَنَّـا ... وَاجْتِمَـاعُ الأَرْوَاحِ بَـاقٍ وَحَاصِـلْ

ومثل ذلك كثير ، وما بينهما من الأخوة والمحبة معروف ومشهور ، وذَكَرَ أنه عَقَدَ معه عَقْدَ الأخوَّة عند قبر الفقيه المقدم ، ودام بينهما مراعاة شروط ذلك العَقْد في حضورهما ، وبعدما سافر إلى الهند قال: « **وقد سافر وما أعلمني ، خوفاً أني أثبِّطه عن السفر ، لكنه كتب لي ورقة استيداع من الشحر ، وذَكَرَ أنه ألجأه إلى ذلك ضرورات من ديون ونحوها ، أظن قال من وقت أبيه ، وما كان مراده أن يقيم في الهند إلا مدة قليلة ويرجع في سنته ، ثم إنه شاحت عليه البنية ، فمكث إلى اليوم نحو ستين سنة ، وما سمعنا ولا رأينا أن أحداً من السادة سار إلى الهند على نية أن يرجع في سنته ، ثم مكث ستين سنة إلا السيد علي بن عبدالله** » .

وسيأتي من كلامه مما يدل على قوة الإتحاد بينهما والصحبة والمحبة شيء كثير حتى قال : « **كنت أظن أن انتقالي وانتقاله معاً في عام واحد** » ، وإن بعض أهل بيته قالت له في مرض موته : « **الله يطيل لنا عمرك** » ، فقال لها : « **أما علمتِ أن السيد علي بن عبدالله ينتظرني** » ، ونحو هذا .

لكنه رأى رؤيا سنذكرها ، فاستدل بها أنه الثلاثاء لم يكن موته وموته في عام واحد ، فخرج عن عام موته تسعة عشر يوماً ثم انتقل ، فكان انتقال السيد علي بسورت ، ليلة الثلاثاء ١٨ شوال سنة ١١٣١ ، وانتقال سيدنا ليلة الثلاثاء أيضاً ٨ ذي القعدة سنة ١١٣٢ ، فكان انتقاله بعده بسنة ، و١٩ يوماً ، وقال : « **أرجو أني والسيد علي بن عبدالله ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، رجلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه** » .

وسيأتي ذِكْر كُل ذلك وغيره وأكثر منه بأضعاف عند ذِكْرِ مرض موته هـ .

قال رضي الله عنه : « كان النبي ﷺ له قوة لا يطيقها البشر ، وكذلك كان قوة في الأولياء ، لأنهم جاهدوا أنفسهم بالرياضات حتى اطمأنت نفوسهم بقلة الأكل ، ولم يعوِّلوا على القوت ، وجميع ما تسمعه عن الصالحين ليس من الدنيا إنما هو من الآخرة ، من رؤية حُور ، أو قصور ، أو مَلَك ، أو مكاشفة ، أو حصول شيء من الدنيا ، فلم يشغلهم عن اللهّ ونحو ذلك ، فكل هذا من الآخرة » .

قلت له: فلو تكلف اليوم الإنسان شيئاً ، ما أمكنه أن يحصل له مثل ذلك ، قال : « ليعرف قَدْرَه ولا يتعدَّى طَوْرَه ، وقد قال سيدنا علي : رحم الله امرءاً عَرَف قَدْرَه ولم يتعَدَّ طَوْرَه ، ولهذا إذا قبل منهم وصدقهم كان مؤمناً ، وإذا أحبهم كان معهم ، وأين الناس اليوم ، وكم بينك في الوقت وبين وقت الشيخ عبدالقادر، إنما أنت في القرن الثاني عشر ، فهل سمعت هذا القرن يُذكَر في شيء من الكلام ، أو في كتاب ، إنما حدّ ما يُذكَر الحادي عشر على الندور أيضاً ، واليوم قد ضعفت الهمم، وضعف كل شيء عن الحال الأول، حتى الشجر والنبات » .

قلت : فماذا يفعل الإنسان ؟ قال : « يُحكِم الإسلام والإيمان ، فهذا هو الذي عليه ، وإذا أراد الله شيئاً فما هو ببعيد » .

قلت : فما يريد الإنسان إلا حصول كمال التوحيد والعبودية ، قال : « ليعرف الإنسان حال نفسه، ويحبهم فيكون معهم ، فتشمله المعية ، ويكفيك ما قال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾» .

قال رضي الله عنه : « إنا لا نترك ولا ندع المتَّصِل بنا » ، ومرة قال : « المتمسِّك بنا سواء كان دويلاً - أي قديماً - أو جديداً ، والتمسك إنما هو من الطالب » ، ومرة قال : « من مَسَكْناه لا نُسَيِّبه ، وإن هو سيَّب ؛ أصل أنّا نمسكه ، ومن لم نمسكه فإنَّا لا نحب كثرة التحمل » ، ومرة قال : « من تعلَّق بنا، ووَضَعْنَا عليه نظرنا لم نُفْلته ، ولم نَدَعْه ، وإن بَعُدَ عَنَّا ، ولكن ما لم نطرح عليه النظر ، فإنا لا نحب كثرة التحمل، وعلى هذا جرت عادة سلفنا من السادة آل باعلوي ، أن من تعلق بهم لم يتركوه ، ويكون مقتدياً بمن تعلق به منهم فيما يقدر والباقي يحمله عنه ، وقد قال الشيخ عمر المحضار : نرد موسومتنا ولو بالصين » .

وكان رجل من السادة وهو السيد علي باحسن الفقيش من آل السقاف مواظباً على حضور مجلس سيدنا بالسبير ، إذا ندر إليه يوم الأحد ، فتخلَّف عن الحضور نحو دورين أو ثلاثة لحمى أصابته ، فسأل عنه فأخبر بعذره ، ثم صَحَّ منها فحضر بعد ذلك ، فقال سيدنا له : « أين كنت ؟ » ، فَذَكَرَ عُذْرَهُ،

فقال : « قد سألنا عنك كلما جلسنا ولم نرك ، أتظن أن من تعلَّق بنا وأمسكناه أنا نسيبه ؟ لا ، ولو سيَّبنا هو؛ أصل أنا نمسكه ، ثم بعد لا نسيبه » .

وذَكَرَ عبدالله باشراحيل في مؤلَّفه الذي جمعه في كرامات سيدنا عبدالله نفع الله به قال : « ذكرتُ له مرة بعض أصحابه » ، **فقال** : « يا باشراحيل ، نحن لا ننسى من عرفناه ، ولا نتركه ولا نسمح به ، وإن تَرَكَنَا هو وسمح بنا ، فإنا ما نتركه ولا نسمح به ولا ننساه » هـ .

أقول : وهذه الكلمات تكرَّرت منه مراراً في أوقات متعددات في مجالس كثيرات متفرقات .

وقوله : « **من قبضناه** » ، أي أحببناه وقَبِلْناه ، يعني قَبِلَتْهُ قلوبهم ، فإن قلوبهم ما تَقْبَل إلا من هو على خير ، في ظاهره وباطنه ، فظاهره عمل الخير ، وباطنه إضمار الخير ، ومن عمل الشر أو أضمر الشر لا تَقْبَله قلوبهم ، بل لو أظهر عمل الخير وأضمر عمل الشر لا تقبله قلوبهم ، كالذي ذَكَرْنَا عنه أنه قال: « **إن رجلاً كان جاء عندنا وبقي عندنا مدة ، وظاهره الطاعة وطبعه مليح وخلقه حسن ، وكان يؤنس الغرباء ويجبر خواطرهم ، ولكن قلبي ما قبله** » ، قال : « **وتعجبت من عدم قبول قلبي له ، حتى جاءنا بعد ذلك أخٌ له** - أو قال : **قريبٌ له** - **يطلبه ، وقال : أنه قَتَلَ نَفْساً وجاء متغيِّباً عندكم** » ، أو كما قال في حقه . ونحو ذلك مما يشهد أنهم لا يقبلون إلا الطيب ، والخبيث لا يقبلونه ، ولهذا قال : « **أصل إنا نمسكه** » ، أي ما كل أحد نمسكه ، إنما نمسك من طاب ضميره وحسن عمله ، فمحبتهم للإنسان وقبولهم له ، هو طرح النظر والإمساك ، وضده الإفلات إذا ما قبلته قلوبهم فأعرضوا عنه .

وقوله : « **لا نسيبه ، وإن هو سيَّبنا** » ، أي جفانا وبَعُدَ عنا ، وهذا مع وجود المحبة والعقيدة ، وأما مع عدمها أو تبدلها بضدهما والعياذ بالله فلا يستحق ذلك يؤخذ ذلك من قوله : « **والتمسُّك إنما هو من الطالب** » ، والتمسك هو المحبة والإعتقاد ، ومع عدم ذلك فلا تَمَسُّك معه ، فلا مَسْكَة له منهم .

وقوله : « **جفانا وبَعُدَ عنا** » ، أي جفانا بعدم المنافع الدنيوية ، وبَعُدَ عنَّا مجفياً وبَعُدَ عن ذلك بقلبه، أي مال قلبه عن فعل ذلك ، لأن من شأن المحب المعتقد ، أنه يبذل حاله وماله لمن أحبه واعتقد فيه، وذلك علامة محبته وصدقه ، لأن المحبة في القلب ، ولا شاهِد لها في الظاهر يدل عليها إلا ذلك ، ويحتاج في ذلك إلى شهادة الظاهر حاجة شديدة ، ليتبيَّن به شأن الصادق من الكاذب .

فإذا ثبتت دعوى المحبة بهذه العلامة الظاهرة الشاهِدة بالصدق ، حصل منهم له حلول النظر عليه، والمَسْك بعلامة ظاهرة مراعاة للشرع ، لأن أموره كلها في الظاهر لأنه خطاب للخلق ، ولا يفهم الخلق إلا ما ظهر ، وأما ما يُكِنُّه فهو سِرٌّ بين العبد وربه لا تعلق للخلق به ، فإذا حصلت علامة ظاهرة من الطالب ، حصل كذلك له علامة ظاهرة من المشايخ شاهِدة بذلك منهم إليه من الناس أو

تلقين أو إعطاء سبحة أو معنى يريدونه له مما يوجِب الرابطة بينه وبينهم .

وقد سمعتُ سيدنا مرة يذكر الإلباس فقال : « **الإلباس لا يُراد لصورته ، ومن طلب الإلباس لصورته ما حصل شيئاً ، وإنما يُراد الإلباس لمعنىً فيه ، وهو الرابطة**»، أي بينه وبينهم ، فإذا ثبتت الرابطة التي هي المحبة والعقيدة بشواهِدها الظاهرة من الطالب ، وحصل له الرابطة التي هي النظر والـمَسْك بشواهدها الظاهرة من الشيخ ودام ذلك ، ثم حصل مع ذلك من الطالب جفاء بعد ذلك بعدم المنافع الحسية ، والرابطة التي هي ما ذكر من المحبة والعقيدة موجودة ، فهو في مَسْكِهم وعلى ما هو عليه من نظرهم ونفعهم ومراعاتهم له في الدنيا والآخرة . وسنذكر شيئاً من المنافع الحاصلة لمن ثبت له النظر ، مع من ثبت له منه النظر ، فضلاً من الله ببركتهم لحصول نظرهم بجَلْبِ ما ينفع ودَفْعِ ما يضر .

قوله : « **وموسومتنا** » ، أي من عليه نظرنا ووسمنا المميِّز له عن غيره ، فالمراد بالوسم وضع النظر، وهو المحبة والقبول والمراعاة من أجل ذلك ، فهذا وَسْمُهم يتميَّز به نسبته إليهم ، ويعرف حلول نظرهم عليه ورابطته بهم ، وسُمِّيَ وَسْماً لتبين حصول الرابطة وحصول النظر به ، وتميز ذلك به ، كما تميز البعير الموسوم بصاحبه المجعول علامة له عليه . والموضوع عليه النظر هو الموسومة لمن وضع عليه النظر فهو موسومته ، فيعترض من له النظر بين من عليه النظر وبين كل شرٍّ في الدنيا والآخرة، فيدفعه الله عنه ببركاته ، فلا يصيبه شرٌّ ولا يمسه سوء ، وهو تحت نظرهم ، وذلك في الدنيا والآخرة، لأنهم عبيد مكرمون عند الله ، وهو سبحانه يحبهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة ، ويعطيهم ما سألوا منه في الدنيا والآخرة ، سواء سألوا لأنفسهم أو لغيرهم . ومن وضعوا نظرهم عليه أكرمه لأجْلِهم وببركتهم ، وأعطاه ما ينفعه ويطلبه ودفع عنه ما يكرهه ويضره في الدارين ، وربما وقع شيء من ذلك بتعرضهم أو بتعرض من نُسِبَ إليهم ، أو ببركتهم بلا واسطة أحد . فافهم معنى ذلك وتفصيله مما قصصناه ومما سنقصه .

وقد رأيت في كتاب « **الجوهر الشفاف في مناقب السادة الأشراف** » - يعني ساداتنا آل باعلوي- أن رجلاً من أهل غرفة باعباد كان خادماً للشيخ عمر المحضار وعليه منه نظر ، لما توفي وقُبِرَ في مَقْبَرَةِ بَلَدِهِ الغُرفة ، رأى بعض أهل الكشف أن الشيخ عبدالله باعباد القديم قد جاء عنده ليحضر سؤال الملكين له ، لكونه من أهل بلده ، فإذا الشيخ عمر قد جاء عنده وعداه عنه ، وقال : « هذا في حدِّنا ، وحدُّنا من يَرقق إلى تريم » ، وذلك مسير نحو من الصبح إلى العصر بالسير المعتدل ، وقال له : « وأنت حدُّك من كذا إلى كذا » ، وسَمَّى موضعين من بلد الغرفة وذلك شيء يسير نحو ما يسمع النداء بصوت معتدل . وتولى الشيخ عمر عنه جوابهما ، وذلك بعد وفاة كل من الشيخَيْن : الشيخ عمر والشيخ

عبدالله ، وهذا معنى الحكاية . وكل ذلك ببركة نظرهم ، وقِسْ على ذلك معنى ما ذَكَرْنَا .

وكان نظر الشيخ عمر أمكن لزيادة فضيلة نسبة أهل البيت النبوي ، وهذا يدرك في طَوْر الولاية، وهو وراء طَوْر العقل والإيمان بذلك والتصديق به لأهله ولاية صغرى ، حتى يبلغها فتكون ولاية كبرى ، ولذلك قال الجنيد : « التصديق بِعِلْمِنا ولاية » ، وقال سيدنا : « **إذا سمعتَ من كرامات الأولياء ما يعجز عنه عقلك ، فأضفه إلى القدرة وابْقَ حَسَنَ الظن بربك** » .

وفي طَوْر الولاية يعرف كيفية طرح النظر ، وكثير من أحوال الولاية غير ذلك بل كلها لا تعرف إلا في ذلك الطَّور ، وكذلك كثير من الأمور الشرعيات المتعبد بها لا يعرف حقيقتها إلا في ذلك الطَّور، كما عدَّده الإمام الغزالي وفصَّله في « كتاب العلم » ، ومن تلك الأمور المتعبَّد بها ويجب الإيمان به سؤال الملكين في القبر ، يقعدانه حيًّا سويًّا ، فيسألاه فلا يعرف حقيقة ذلك إلا من طَوْر الولاية، وإلا فالعقل يعجز عن إدراك ذلك ، لأنه لو بحثه لما وجده إلا على هيئته يوم وضع . فيفهم بالإيمان أن هناك حياة فيها خطاب وسؤال وجواب ، لا يعقل في الدنيا بالعقل المعهود ، ولكن يجب عليه الإيمان بذلك ، ويَكِل معناه إلى الله كسائر المعتقدات المتشابهة .

وباعباد المذكور ، من تلامذة سيدنا الفقيه المقدم من أهل القرن السابع ، والشيخ عمر في أول العاشر ، وفي الموضع المسمى « يَرْقق » تحت الجبل الشرقي المشرف عليه البئر التي اختلف في ادعائها الرجلان الكنديان ، الأشعث بن قيس وصاحبه ، وتداعيا فيها إلى رسول الله ﷺ ونزلت في شأنهما الآية . ولا يشترط في وضع النظر الاجتماع بالشيخ والرؤية له ، بل بصدق المحبة والعقيدة فقط ، كما يفهم مما سنقصه ، وقد قالوا : « إنه ينتفع المريد بشيخه ، وإن لم يره ولم يسمع به » ، ويشهد لذلك قصة السيد يوسف الفاسي المتقدِّمة ، وقال الشيخ علي بن أبي بكر في كتاب « معارج الهداية » : « المريد ينتفع بشيخه وإن لم يره ولا عرفه ولا سمع به » .

وقد تكمَّل جماعة بمشايخهم وبلغوا أعلى المقامات وما رأوهم ولا اجتمعوا بهم كحال سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به مع شيخه الشيخ محمد بن علوي السقاف ، وما رآه ولا اجتمع به وصار خليفته بعد موته ، وإلى ذلك الإشارة بأن الشيخ محمد كتب لسيدنا كتاباً فوصله إلى تريم في اليوم الذي توفي فيه السيد محمد بمكة ، وأشار سيدنا في ذلك في القصيدة بقوله :

بَقِيَّـةُ قَـومٍ قَـدْ مَضَـوا وَخَلَفْتُهُـمْ وَهُمْ خَلَّفُونِي فِي الْحِمَىَ عِندما سَارُوا

وكان مُخفياً هذا المعنى من القصيدة ولا تكلم به ، وفهمه السيد علي بن عبدالله وتكلم به ، فقال سيدنا : « **أول من فهم هذا المعنى من القصيدة السيد علي بن عبدالله** » ، وأشار فيها إلى عدم اجتماعه

به بقوله :

وَمَـا أَنَـا بِالنَّـاسِي عُهُـودَ أَحِبَّتِـي وَإِنْ لَمْ أَزُرْهُـمْ فِي الزَّمَـانِ وَلا زَارُوا

أي ما جئته ولا جاني ولا رأيته ولا رآني ، فإنه قد توفي بمكة سنة ١٠٧٢ قبل أن يصلها سيدنا للحج بثمان سنين وذلك سنة ١٠٧٩ .

وكذلك الشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس بسورت ، لم يجتمع بشيخه الشيخ حاتم بن أحمد الأهدل وهو بالمخاء ، وقد كَمُلَ حَدَّ الكمال وإنما بينهما المكاتبة ، وقد ذَكَرَ الشيخ عبدالقادر في كتابه « الزَّهر الباسم في مناقب شيخه الشيخ حاتم » ، قال : « آخر كتاب كتبته إليه سألته سؤالاً ، وقلت لحامل الكتاب : إن ما لقيته وقد مات قبل أن تلقاه ، فضع الكتاب على قبره » ، قال : « فحين دخلت المخاء رأيتهم راجعين من جنازته ، فوضعته على قبره كما أمرني » ، قال الشيخ عبدالقادر : « فبعد أيام جاءني منه الجواب على أكمل وجه » .

فاعجب من أحوال الأولياء وكمالهم حتى صار الإجتماع الحسي عندهم وعدمه سواء ، فإن أرواحهم مجتمعة ينتفعون بها ، وإن تباعَدَتْ وتفارَقَتْ أشباحهم ، وربما حصل لمن عليه النظر بعض الكرامات وخوارق العادات ، وهي كرامات للشيخ صاحب النظر لا للمريد الذي عليه النظر .

ولنذكر بعض الوقائع التي وقعت لنا مما يبيِّن ذلك المعنى ، ويحقِّقه ويبيِّن كيفية حصول الكرامات من الله لمن شاء له ذلك ، ولا مَدْخَل للولي بفعل شيء منها في حصولها بل هي مجرد فِعْل الله وقدرته وإرادته ، وإنما نسبة المعجزة للنبي ونسبة الكرامة للولي كَنِسْبَةِ المسببات للأسباب ، يعني أنها تكون بالأسباب بشرط أن يريد الله ذلك وقد حضر وقَّتها الذي وقتها به ، فهذه ثلاثة شروط لا بد منها : أعظمها الإرادة منه سبحانه ثم حصول الوقت المؤقت ، ثم حصول السبب فيه . أي في الوقت المؤقت لذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾، أي وقتاً حده مثالاً لكل شيء ، والسبب كالغيم للمطر ، فإذا سبقت إرادة الله به وحضر وقته ، وقارنه حصول السحاب وقع ، وإلا والدليل في كون وقع كل المسببات - ومنها خوارق العادات من المعجزات والكرامات - بمجرد قدرة الله وإرادته ، وأنه لا مدخل للخلق فيها قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾، أي لا تستطيع ذلك ولا يستطيعه أحد إلا الله سبحانه ، وأنها مجرد فعله .

وقد رأينا من كرامات سيدنا عبدالله خوارق وعجائب قبل أن أراه بسبب طرح النظر وهو من

جملة الإنتفاع به ، من دَفْعِ مرهُوبٍ وجَلْبِ مرغُوبٍ ، كما ترى من انتفاع كثير بسبب محبتهم وعقيدتهم في المشائخ المتقدمين وما رأوهم ، كالشيخ عبدالقادر والشيخ أحمد الرفاعي ، والشيخ بدر الدين وغيرهم، والشاهِد في ذلك ذِكْره لكلمة سيدي الشيخ عمر المحضار نفع الله به ، لما ذكرتُ له قصَّتنا في البحر لما أشرفنا على الغرق ، على ما سأذكُره وهو ما شابهه شاهد لما يحصل من فضل الله ببركتهم من النفع من جلب ما ينفع ودفع ما يضر .

وقبل ذلك في صغري أيضاً أموراً تبيَّن لي بَعْدَ ذلك أنها من كراماته فليعتبر بذلك المعتبر المعتقد ، وليستدل به وبها في معناه على المعنى الذي أردنا بيانه من تأييد قول سيدنا: « **من وضعنا عليه نظرنا لم نفلته ، ومن مسكناه لا نسيِّبه** » ، أي لا نتركه في الشر الواقع به ويخافه ، ولا من النفع الذي يرجوه ، حتى نتشفَّع له إلى الله بأمر الله ، حتى يحصل له ما رجا ويندفع عنه ما خافه .

فمن ذلك قصتنا المذكورة المشار إليها في سفري إلى حضرته قبل وصولي إليه ورؤيته ، فسافرت إلى الحج بنية الوصول إليه بعد الحج والزيارة على اليمن ، فلم يتيَسَّر لي ذلك - وذلك سنة ١١١٣ - ثم رجعت إلى بلدنا الأحساء ، ثم في شهر ربيع الأول من سنة ١١١٥ سافرت إلى مسكت بقصد المسير مع السائرين إلى اليمن فلما جئت إلى مسكت ، رأيت رجلاً يعرف بـ : بابخيتار ، من أهل سيحوت - أحد بنادر حضرموت - ومعه مركب له عزاب وأناس حضارمة منوِّلينه إلى الشحر ، وهم يحملون فيه، فكلمته في الركوب معهم في مركبه ، فوعدني بالركوب فيه معهم وأكدت عليه في ذلك فأجاب . وبقيت على وعده أنتظر سفره مدة شهرين ، فلما قرب سفره قال لي : « ما بقى لك في المركب موضع »، فلمته كثيراً على وعده لي ، ثم غدره بي بعد طول الإنتظار فعالجته فما فيه علاج .

فشكوته إلى السيد علي باعبود ، وكان مجاوراً في حضرة الرفاعي ، فسَكَتَ وكان يعرفه وبينهما خِلطة ، فغاضه ذلك لغيضي وأزعله لزعلي ، فقال لي : « اتركه ما فيه بركة ، ولا في مركبه ، وأنا أشوف لك مركباً تركب فيه » ، فأتاني برجل من المهرة من أهل شرج مقابل لفرتك[1] تسمى : حصويل ، واسم الرجل حرثان ، ومعه سنبوق كسنابيق الصيادين ، كل الذي فيه من النوخذا والمعلم والبحرية أربعة أنفس ، البحرية اثنان والعبرية ثلاثة أنا ثالثهم ، وقال : « اركب فيه واترك مركب بابخيتار » .

وأوصى بي صاحب السنبوق ، وكان عريفاً له ، لقرب شرجه من بلد ظفار، وقال له : « أرْكِبْ هذا الرجل معك ، وراعِهِ كما تراعيني ، فقدره أنا ، فما كنت فاعله معي فافعله معه » ، فسمع قوله

---

(١) اسم قرية .

وعمل ما قال ، واستعظم الرجل شأني لما سمع من السيد علي من هذا الكلام جزاه الله عني خيراً . فركبت في السنبوق ، فلما رأيته صغيراً جدًّا وما فيه إلا صاحبه ومعلِّمه الذي يمسك السكَّان ، وبحرِيَّته اثنان وعبريَّته اثنان وأنا ثالثهم ، عجبت أن يقطع هذا السنبوق غُبَب بحر اليمن ، وإنما يسلكه البرش والعربان والمراكب الكبار ، فَرَكِبْتُ فيه امتثالاً لأمر السيد علي ، وكان ذلك في شعبان سنة ١١١٥ .

فأصابنا في غُبَّة قمر طوفان عظيم ، وصار الماء يدخل من جوانب السنبوق صبًّا ، فجعلوا يتغوَّثون مما يرون ، وعظم ذلك في الصدور ، وهو عظيم لولا لطف الله ، لدُمِّر السنبوق بمن فيه . ونزيف الجمَّة عَمَّال لا يقف ، أناس يدخلون وأناس يخرجون ، حتى عجز البحريون وقام عنهم العبريون ، وكلهم لا يعرفون الصلاة ولا يتمعَّنون بها جهلاً وفجوراً ، وهذا منهم زادنا خوفاً حتى أن معلمهم العاقل منهم والأعرف فيهم لما رآني أتوضأ للصلاة قال : « أسألك ، هل تتنجس أعضاء الإنسان إذا نام ؟ مالك إذا قمت من النوم تغسل وجهك ويديك ورجليك ؟ » ، فقلت له : أما تعرف الصلاة وأن لها وضوءاً ؟ قال : « أسمع بالصلاة وما سمعت بالوضوء » ، فهذا جهل معلِّمهم وعاقلهم إلى هذا القدر ، فجعلوا في تلك الشدة يبكون ، ويقولون : « ادع لنا حيث أنك قاصد لزيارة السادة » .

قلت : دعائي لا يستجاب لكم ، وأنتم تاركون للوصلة التي بينكم وبين ربكم وهي الصلاة، ولكنكم اعطوا الله منكم عهداً وميثاقاً ، وانذروا نذراً إن نجَّاكم الله من هذه لتقضين ما فوَّتُّم من الصلاة ، ثم تواظبون عليها ، ولا تتركون بعد ذلك منها شيئاً . فأعطوا العهد إذ ذاك قهراً لا طوعاً .

ثم إني أردت النوم وكان ذلك بعد العشاء والوقت شديد البرد ، فما حصل ولا اكتحلت عيني ولا عيونهم بالنوم ، من شدة ما نحن فيه من تلك الشدة ، وهم في بكاء وعويل ، فقرأت أبياتاً من قصيدة لسيدنا فيها استغاثة وتوسُّل بالسادة أهل بيته ، ساداتنا بني علوي نفع الله بهم لما جاء الزيدية إلى تريم عام ١٠٧٢ وعاثوا فيها، ففرَّج الله لهم منهم ، فقرأت تلك الأبيات طالباً للفرج من فضل الله ببركتهم، فحصل ذلك من فضل الله ببركتهم .

وما أسرع حصول الفرج من الله لمن استغاث بهم ، وتوسل إلى الله ببركتهم في كل أمر يهمه ، لكرامتهم على الله وببركة جدِّهم ﷺ ، فعند تمام الأبيات أخذني النوم ، فعندما أخذني النوم بعد إنشاد الأبيات ، رأيت فيما يرى النائم : كأني مع رَجُلَيْن معي ، فنحن ثلاثة نمشي في المعلاة - مقبرة مكة المشرفة - ونحن نستعجل في المشي جهدنا ، قيل لنا : إن السيد عبدالله الحداد نفع الله به جالس في مجلسه ، وإنه في آخر المجلس يريد القيام ، فنحن نستعجل في المشي لنلحق عليه قبل أن يقوم .

فمررنا في مسيرنا على قبر خديجة الكبرى رضي الله عنها ، فقلت لأصحابي : هذا قبر جدته خديجة، قفوا بنا نزورها ، فبزيارة الأصول تحصل زيارة الفروع ، فأبوا وقالوا : مرادنا نلحق على السيد عبدالله

قبل أن يقوم . فمضوا وتأخرت أنا عنهم للزيارة ، فإذا أنا على غير وضوء . فقلت للقيِّم : ائتني بماء أتوضأ . فأتاني بماء فتوضأت وصليت ركعتين ، ثم زرت زيارة مطولة بتأنٍّ ورياض ، ومكثتُ عند ضريحها ساعة طويلة ، ثم مضيت إلى زيارة سيدي عبدالله ، فأتيته ولحقت عليه في مجلسه قبل أن يقوم ، فسلَّمت عليه وقبَّلتُ يديه وتحدثت معه ساعة طويلة ، وحصل معي إذ ذاك برؤيته سرورٌ عظيمٌ وبكاء كثير ، وجلست معه مجلساً فسيحاً، ووجدت منه انشراحاً أنيساً .

وهي أول رؤيا ورؤية رأيته وأول مجلس جلسته معه ، فكان حصول ذلك مناماً مقدِّمة لتلك المجالس الأنيسة المنورة المأنوسة في اليقظة ، كما أن لسان حال اليقظة مبشِّر ومرجو أن يكون كذلك إن شاء الله مقدِّمة للإجتماع به في الآخرة ومجالسته هناك بدليل قرينة - سيأتي ذِكْرها تدل على ذلك يزيد بها الرجاء - فنرجو ببركة مُجَالسَتِنا له في الدنيا والتأنُّس معه والتحدث ، أن تحصل لنا السلامة والخير في الدنيا والآخرة ، وأن أكون من جلسائه في الآخرة ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، والدنيا نوم بالنسبة إلى الآخرة ، والآخرة يقظة بالنسبة إلى الدنيا .

فلما طال بي المجلس معه - في رؤيا المنام - والتحدث معه ، وإذا أولئك النفر مقبلين يركضون جهدهم ، فقلت لهم : فما أبطأ بكم ؟ فقالوا : هذا جهدنا وهذا مسيرنا مذ فارقناك وفارقتنا . قلت : أنا زرت وتأخرت عنكم وأبطأت كثيراً ، ثم إني وصلت قبلكم ، وقد وصلته قبلهم بزمان ، وسبقتهم إلى رؤيته بمدة .

وربما أن ذلك إشارة إلى بعض الأخوان من أهل الحساء ، كنت تواعدت معهم إلى زيارته ، وحججنا جميعاً سنة ١١١٣ متواعدين على ذلك ، فتعلقوا بأسباب الدنيا وانقطعوا عن الوصول إلى حضرته ، وأنا أيضاً بعد الحج تعوَّقت عن الوصول إليه ثم رجعت إلى بلدي الأحساء ، ثم بعد سنتين سافرت إليه . وفي مدة السنتين أنا أتلهف على الوصول إلى حضرته ، وأحير الأفكار كيف يكون ذلك، حتى يسَّر الله أمره ، فعزمت على البحر على ما قدمت ذكره ، فعرضت لنا هذه القصة .

ثم انتبهت من الرؤيا المذكورة ، وأنا معتقد أن عرضة سيدنا في رؤيتي له في المنام بعد التوسل من قوله برسول الله ﷺ وبساداتنا آل باعلوي نفع الله بهم ، أن ذلك بشرى عاجلة مُبَشِّرة بحصول الفرج، وأن لا نرى بعدها بؤساً ، وأن يحصل لنا خير الدنيا والآخرة ، وأن يصرف عنا شر الدنيا والآخرة ، فرأيت أهل السفينة كلهم حينئذ في فرح وضحك وسرور ، فسألتهم : « كيف شأنكم ؟ » ، فقالوا : « الحمد لله ، زالت عنا تلك الشدة ، حين ما رأيناك قد نمت » ، وقد أبدلهم الله بالفرح بعد الحزن ، وبالضحك بعد البكاء ، وبالسرور بعد الكآبة ، وبالأمن بعد الخوف ، وقد ذهب عنهم الطوفان وأَمِنُوا والحمد لله من الكرب العظيم ، الذي هو الغرق كما سماه الله تعالى بذلك في قصة نوح ، كما قال تعالى:

﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وفي قصة موسى وهارون : ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وجعلت أطالبهم بما عاهدوا الله عليه ، ونذروه في شأن الصلاة ، فكلهم غدروا وما وفُوا لله بالعهد وما نذروا ، فقال واحد منهم : « يا شيخ ، ادع الله أن يرزقنا حلاً - يعني سمكاً - نأكله ، فإن التمر عندنا موجود ، ولكن ما عندنا له حلا » ، فقلت : الحلا إنما يؤتى به من البحر وهذا انتوا في البحر، فارموا بمجدار وصيدوا لكم حلاً من البحر ، قال ذلك القائل : « ما يمكننا ذلك » .

وإذا عند ذلك في الحال نسمع صوت وقعة شيء مزعج سقط في السنبوق ، وله صوت هائل ، وإذا بسمكة كبيرة جداً قد طفرت من البحر إلى السنبوق كالثور الكبير ، زرقاء اللون وفي رقبتها حذو رأسها عظمان ناتيان ، فجعلت تضرب بنفسها وتلبط لبيطاً خشوا منه على السنبوق . فوضعوا فوقها خصفة وثلاث قواصر حتى رَكَدَتْ . فاعرف من ذلك عظيم كبرها ، حيث لم يركِّدها إلا الثلاث القواصر ، وتركوها فوقها إلى الصبح فوجدوها ماتت وما بها من حركة ، فقطعوا منها وطبخوا في صبح ذلك اليوم نحو سبعة قدور أو ثمانية، ومثل ذلك كل يوم إلى نحو عشرة أيام .

ثم إنا وصلنا بندر مرباط ، فنزلت فيها لزيارة سيدي الشيخ محمد بن علي صاحب مرباط جد السادة بني علوي ، فإنه يجمعهم كلهم وكلهم يجتمعون فيه ، وقال سيدنا عبدالله في معنى ذلك في القصيدة العينية بقوله :

وَنَزِيـلِ مِرْبَـاطِ إِمـامٍ جَامِـعٍ   أَصْلٍ لأَشْياخِ الطَّرِيقِ مُفَرَّعِ

وفي الميمية بقوله :

وَصَاحِبُ مِرْبَاطٍ إِمامٌ وجامعٌ   تَفَـرَّعَ مِنْـهُ أَصْـلُ كُلِّ إِمَـامِ

فرأيت في ساحل بندر مرباط ألواح مركب متكسِّر ألواحاً مسندة ، فسألت عنه ومن هذا مركبه؟ فقيل لي : « هذا مركب بابخيتار - ذلك الغدار الذي غدر بي لما أصابه ذلك الطوفان - تفدَّع كسراً ألواحاً» ، فحمدت الله ربي على السلامة من الركوب فيه وقد كنت كرهت غدره بي ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾، فظهرت الخيرة الصالحة إذ ذاك بعد ما كرهت ، وهذا من فضل الله ، وببركة سيدنا عبدالله وحُسْن نظره ، تتمة للمقصود من حصول السلامة والعافية ، وحصول الخير ودفع الشر في الدارين . ثم إن الله سبحانه لطف بالحضارم الذين هم فيه بطرَّاد ، وكان يسايرهم ، ففي الحال لما اختلَّ مركبهم دنا منهم فحملهم وقشهم ، فَسَلِمُوا وذهب المركب من كيس صاحبه ، وكان ذلك حسرة في قلبه وخسارة في ماله كما يستحقه .

وبقينا نأكل من تلك السمكة كل يوم على ذلك الوصف ، إلى أن وصلنا سيحوت ، وكان بها السيد سالم بن سيدنا عبدالله نازلاً فنزلت إليها ، وكان نولي إلى الشحر ، ونزلت معي بما بقي من السمكة ، وذلك قطع كبار جئت بها إلى السيد سالم وأخبرته بالقصة فتعجب وقال : « كان سيدنا الوالد يعجبه لو ذاق من ذلك شيئاً »، ثم بقيت عنده سبعة عشر يوماً ، وكان ذلك في شهر رمضان دخل علينا وأنا عنده. ثم رأيت قطاراً سائراً إلى حضرموت لناس من أهل تميم ، فسرت معهم ومررنا بقبر نبي الله هود على نبينا وعليه السلام .

ثم وصلت إلى حضرة سيدنا عبدالله نفع الله به ، بعد عصر يوم الثلاثاء ١٩ شهر رمضان سنة ١١١٥ ، بعد تمام قراءة من كان يقرأ في الكتب المعهودة قراءتها في شهر رمضان ، وهم : السيد علوي بن سيدنا في كتاب « مجمع الأحباب » ، والسيد أحمد الوهط في « طبقات الخواص » ، والسيد عمر حامد في شيء من كتب الحديث وهو إذ ذاك في « المستصفى » ، وعبدون بن قطنة في « الإرشاد والتطريز» . ثم أمرني من رمضان الآتي فيه ، وبعد تمامه في « روض الرياحين » ، مهما تَمَّ أحدهما أمرني بالقراءة في الآخر ، وفي غير رمضان في كتبه حتى أتممتها ثمَّ في غيرها ، وهي مذكورة في غير هذا المحل .

ثم إن سيدنا استدعاني إلى عنده في الغيلة صبيحة غد يوم وصولي ، في خلوة وفراغ وسألني عن الحال ، وما كان مني في سفري إلى حضرته ، واستخبر الحال : هل جئته قاصداً مجرِّد القصد إليه أو مارًّا في طريقي إلى قصد آخر عليه ؟ في كلام كثير . فأخبرته بحقيقة نيتي وقصدي ، فتحقَّق له وتبيَّن إنما المقصود بالمجيء إلا إليه وإني جئته قاصداً لرؤيته وزيارته ، وللنظر من الله بالنظر إليه لا غير ، ومترجياً لما قال في القصيدة في حق من جَرَّد الزيارة للسادة بني علوي نفع الله بهم حيث يقول :

مَنَازِلُ خَيْرُ سَادَةْ لِكُلِّ النَّاسْ قادَهْ

مَحَبَّتُهُمْ سَعَادَهْ

أَلاَ يَا بَخِتْ مَنْ زَارَهُمْ بِالصِّدِقِ وَانْدرْ إِلَيْهِـمْ مُعْتَنِـي كُلّ مَطلُوبِـهْ تَيَـسَّرْ

ثم أخبرته بالواقعة على وجهها المذكور وما احتوت عليه ، فتعجب من ذلك فقال : « **سبحان الله**»، ثم قال : « **كان الشيخ عمر المحضار يقول : نرد موسومتنا ولو تكون بالصين** » ، أي في أبعد محل من أقاصي الأرض ، كما أن جهة الصين أبعد محل من الأرض ، فهو مثل لا قيد ، بل فيه مبالغة عظيمة تدل على عظيم اعتنائهم بنفع من طرحوا عليه نظرهم ، ولو كان في أبعد محل .

وهو معنى قول سيدنا : « **وإن بعد عنا** » .

وما قال لي كلمة الشيخ عمر حتى تحقَّق مني حقيقة الحال باطناً ، مع الشواهد الدالة عليه ظاهراً،

لأن ما عندهم من طرح النظر وغيره عزيز جداً ، كما عرَّفناك من منافعه في الدارين فلا يضعونه إلا عند من يستحقه ، ممن حصل له فيهم الإنطواء الباطن الكلي ، مع شواهده الظاهرة ، فإذا وضعوه على أحد وهو أمر باطن ، أعطوه معه أمراً حسيًّا يدل عليه ، ويشهد له به من إلباس أو ورد ونحو ذلك ، وقد قال : « **ليس الإلباس يراد لصورته الظاهرة ، ومن أخذه** - أو قال : **طلبه** - **لصورته ما حصل شيئاً ، وإنما يراد لمعنى فيه وهي الرابطة** » ، أي المعنى الدال عليه ، وهو طرح النظر والإنتساب إليه ، وسنُبيِّن معنى ذلك هنا في هذه المادة .

ثم أقول : افهم أيها السامع ، أن ما مراد سيدنا بذكر كلمة الشيخ عمر الحكاية عنه أنه قالها ، إنما مراده بذكرها إلا معنى أنه قال : نحن أيضاً نرد موسومتنا ، ولو تكون بالصين - كما قال ذلك الشيخ عمر لمن وضع نظره عليه - فنقولها كذلك لمن وضعنا نظرنا عليه . ولا يحتاج هذا إلى تبيين وتعريف بل يفهم من سياق الكلام ، ولكن هذه عادته إذا أراد أن يقول هذا ومثله لأحد من محبيه ، وقد قيل قبله حكاه عن قول من قال ستراً للحال ، فالحاذق يفهم المعنى ، بل البليد يفهمه أيضاً .

وسنحكي عنه من ذلك كثيراً في مواضعها ، فإن كل ذلك الذي ذكرنا كرامات لسيدنا تحقِّق قوله المذكور : « **من وضعنا عليه نظرنا لا نفلته ، ومن مسكناه لا نسيبه** » ، فإن القول الصدق يحقِّقه الفعل - أعني وقوعه كذلك عن أمر الله - والقول بلا فعل يحقِّقه كالرماد الذي تطيره الريح ، وما أكثره اليوم عند كثير من المتشبهين المدَّعين في هذا الزمان لا أكثر الله منهم ، فما أجهلهم وأسخف عقولهم .

فببركة سيدنا وبركة من توسل بهم وتوسلنا بهم تبعاً له ، زالت تلك الشدة الشديدة والكرب العظيم ، وحصلت مع ذلك أيضاً تتمة له ، تلك الضيافة العظيمة والكرامة الجليلة بعد الشدة بفضل الله وله الحمد والمنة ، وما رأيت قط في كثرة ما رأيت من السمك في البحور حلوه ومالحه سمكة تشبهها في الكبر واللون ونسمع أن في البحر حيوانات كبار كالنهم .

وببركة رؤية سيدنا في المنام حصلت لنا السلامة في اليقظة من الكرب العظيم الذي هو الغرق، ثم تتمة لذلك بتلك الضيافة العجيب أمرها ولا يقدر قدرها ، ثم حصل بعد ذلك رؤيته في اليقظة، ومجالسته في تلك المجالس المأنوسة ، مما نقلنا فيها من كلامه ومما لا نقلناه . فكما كان ذلك المجلس الأنيس معه مقدمة لما حصل في اليقظة من تلك المجالس المباركة ، فنرجو أن تكون هي أيضاً مقدمة لمجالس الآخرة معه كذلك ، وما ذلك على الله بعزيز .

ويحقِّق رجائي لذلك أنه لما ألبسني آخر إلباس تتمة لستة عشر إلباساً ، وذلك في مرض وفاته قال لي حينئذ : « **ألبسناك الآن ، وقد ألبسناك مراراً ، وعادنا نلبسك** » ، أي سنلبسك فيما بعد ، وما بعد مجلسه هذا يكون في الدنيا إلباس أو مجلس فيه أنس ، إلا أن يكون إن شاء الله في الآخرة ، فهذه

القرينة التي أشرت إليها آنفاً التي تحقّق الرجاء ، مع كلمة عجيبة قالها لي لما أمرني بقراءة أوراده عليه ، فلما قرأتها عليه قال : « **أجزناك في ترتيب أورادنا هذه** » ، وقال تلك الكلمة وذلك في مجلسه في السبير وسمعها الحاضرون كلهم ، أولاده وفقراؤه وغيرهم ، وكتب لي ابنه السيد علوي يعرِّض لي بها ، وكل ذلك مما يقوِّي الرجاء في الله بحصول ذلك. وما حصل بعد هذا المجلس معه مجلس فيه أنس ، وقد دخلت عليه مراراً وهو مشغول بالمرض ، ولم يتفرغ لما تفرغ له في هذا المجلس ، وكان هذا آخر مجالسه والله المستعان ، كما سنذكر من شأنه عند وفاته ثم توفي ، ووعده هذا بالإلباس باقٍ، ووعده لا يختلف، فيتم إن شاء الله في الآخرة ، وهو من جملة مواعيد كثيرة ، وهو من أرجاها ، ونرجو تمام الكل من فضل الله .

وسمعت أن أهل ذلك السنبوق بعد ما رجعوا انكسر بهم في البحر ، وبقي ممن كان عابراً معنا فيه رجل من أهل سيئون ، من آل با شيخ - وهو مثلهم في ترك الصلاة - تخلف عنهم اسمه : سالم باشيخ، وكان له أخوان : أحدهما اسمه عمر ، والآخر عبدالله . وكثيراً ما كنت أراه معهما يأتون إلى الحاوي لزيارة سيدنا عبدالله ، ويترددون إليه أيام حياته ، وأن سالم سار بعد سنين إلى بندر ظفار ، ونوَّل سنبوقاً وأشحنه مالاً وركب فيه وهو في ذلك البندر بندر السلامة يريد يسافر فيه، فحصلت عليه موجة من البحر ، وليس هناك ريح فقلبته فغرق هو وماله . لأن العهد مع الله في حالة الشدة ثم الغدر بعد العهد في حالة الرخاء أمره شديد عند الله، يعجل عقوبته في الدنيا مع ما يدخر له من العقوبة في الآخرة . انتهى . والأبيات التي قرأتها حالة تلك الشدة ، متوسِّلاً بمن فيها من قصيدة لسيدنا التي أولها :

حُيِّيتَ يَا مَرْبعَ الأَحْبَابْ ... بِالسَّفحِ مِنْ وَادِي السِّدْرِ

إلى أن قال :

هُمْ شَوَّشُوا عَيْشَ وَدِاينَا ... بِالظُّلْمْ وَالْبَغِي وَالعُدْوَانْ
وَكَدَّرُوا صَفْوَ نَادِينَا ... بِالحِرصِ وَالشُّحِّ وَالطُّغْيَانْ
يَا سَيِّدَ الرُّسْلْ هَادِينَا ... هَيَّا بِغَارَةْ إِلَيْنَا الآنْ
يَا هِمَّةَ السَّادَةِ الأَقْطَابْ ... مَعَادِنَ الصِدْقِ وَالِسرِّ
نَادِ المُهَاجِرْ صَفِيَّ اللهْ ... ذَاكَ ابْنَ عِيسَى أَبَا السَّادَاتْ
ثُمَّ المُقَدَّمْ وَلِيَّ اللهْ ... غَوْثَ الوَرَى قُدْوَةَ القَادَاتْ
ثُمَّ الوَجِيهَ لِدِينِ اللهْ ... سَقَّافَنَا خَارِقَ العَادَاتْ

والسَّـيِّدَ الْكَامِـلَ الأَوَّابْ　　　العَيْـدَرُوسْ مَظْهَـرَ القُطْـرِ
قُومُـوا بِنَـا وَاكْشِـفُوا عَنَّـا　　　يَـا سَـادَتِي هَـذِهِ الأَسْـوَا
وَاحْمُـوا مَدِيَنتَكُـمُ الغَنَّـا　　　مِـنْ جُمْلَـةِ الـشَّرِّ والبَلْـوَى
يَا اهْلَ الحَسَبْ وَالنسَّبْ الاسْنَى　　　وَالْعِلْـمِ وَالحِلْـمِ وَالتَقْـوَى
بِجَدِّكُـمْ وبِكُـمْ تَنْجَـابْ　　　سُـحْبُ البَلِيَّـات وَالـضُّرِّ

انتهى . قال سيدنا : « نَظَمْنَاهَا في وقت مسيرنا إلى الحج ، وكان قد حدث حوادث وليس المراد به الناس » ، هذا كلامه .

وقال : « لما سافرنا إلى الحج كان قد انتهى الديوان إلى هذه القصيدة ، التي أولها : حُيِّيت ، والتي بعدها : وَصَلْنَا إلى الحي ، والتي بعدها : سَلَكْنَا ، نظمناهما في السفر ، ولم يتفق فيه غيرهما ، وما بعد ذلك كله بعد أن وصلنا » ، وكان وقت مسيره إلى الحج سنة ١٠٧٩ ، وأول تلك الحوادث والإختلاف ، وما أشار إليه في القصيدة من التشويش ، مبدأه من مجيء الزيدية إليها ووضعهم يدهم عليها وذلك سنة ١٠٧٢ وعمالهم فيها إلى أن وصلت إليها ، وكان مؤذن صلاة الجمعة يقول في أذانه : « حي على خير العمل » ، كما هو في مذهبهم خوفاً منهم ، حتى دخلها يافع أول يوم من سنة ١١١٧ ، ثم انقطع ذلك من الأذان وفرح الناس بهم لذلك، لكن صار ضررهم على الناس في الدين والدنيا أشد من الزيدية بكثير ، من الربا الفظيع والظلم الشنيع ، حتى أخرجوا الناس من أموالهم وديارهم وهم كذلك إلى الآن وهو عام ١١٦٧ ، وهي الفتنة التي كان سيدنا يخوِّفهم من التعرض لأسبابها ، وينهاهم نهياً بليغاً عنها ، فما امتثلوا له حتى وقعت ، وقال : « يوشك أن يكون آخر الفتن » ، أي لا تزول كغيرها ، بل تدوم عليهم إلى آخر الوقت .

وقوله : « الغَنَّاء » ، قال في « المشرع الروي » : « ومن أسماء تريم الغَنَّاء - بفتح الغين المعجمة والنون المشددة - سُمِّيَت بذلك لكثرة أشجارها وأنهارها . وتسمى مدينة الصديق رضي الله عنه ، لأن عامله زياد بن لبيد الأنصاري لما دعا لبيعة الصديق أول من أجابه أهل تريم ، ولم يختلف عليه أحد منهم ، وكتب للصديق بذلك ، فدعا الله تعالى لها بثلاث دعوات : أن تكون معمورة ، وأن يبارك في مائها وأن يكثر فيها الصالحون . ولهذا كان الشيخ محمد بن أبي بكر عباد يقول : إن الصديق رضي الله عنه يشفع لأهل تريم خاصة ، وكان إذا ذكرت عنده يقول : سعدوا أهلها » ، انتهى ما ذكر في « المشرع».

وفي قول : سُمِّيَت « الغنَّاء » لأنها كانت في زمن عاد روضة كثيرة الأشجار، تتغنى في أرجائها الأطيار . وكانت جهة حضرموت هي مسكن عاد ، حتى أن نبيهم هود عليه السلام قبره فيها معروف، له ليلة النصف من شعبان زيارة عظيمة يأتي فيها الزائرون له من كل بلاد .

وسُمِّيَت تريم باسم أول من سكنها : وهو تريم على أجداد كثيرة إلى حضرموت كما أن شبام أيضاً أول من سكنها إلى حضرموت على أجداد كثيرة . وهو من كندة وكندة من سبأ ، وسبأ من قحطان ، وعاد أيضاً من قحطان ، وبين عاد والإسلام نحو أربعة آلاف سنة ، ومنهم شداد بن عاد باني إرم ذات العماد .

ثم إني لما قرأت الأبيات في تلك الحالة قلت : « واحموا سفينتكم الغنَّاء » ، لأن لسان الحال حينئذ خصص السفينة لذلك ، لأن مرادنا سلامتها إذ ذاك ، كما خصص تريم في حال إنشاء سيدنا القصيدة بذلك ، لأن مراده سلامتها من الأذى فحصل ، لكن طبع الزمان والجهة لا يثبت ذلك فيها ، كما قال سيدنا : « **وكان السلطان محمد** - أي ابن بدر - **إذ ذاك ، وهو رجل مليح ، لكن غَيَّره المخالطون**» ، قال : « **وقد قال بعضهم : لا يتولى تريم إلا رجل مليح ، لكن يغيره الناس** » ، انتهى، ورأيت في نَقْلِ من نَقَلَ عنه ، لما وصل إلى عدن في مسيره إلى الحج دعا على ذلك السلطان محمد بن بدر ، وأنه قال : « **ضربناه بثلاثة أسهم ، فما أخطأته** » ، وأنه مات في غيبته في الحج .

وقوله : في الدعوة الأولى من ثلاث دعوات سيدنا أبي بكر لتريم ، أن تكون معمورة وذكر ذلك بالمعنى ، وإلا فلفظ دعوة سيدنا أبي بكر أنه قال : « أن لا تنطفيء لها نار إلى يوم القيامة » ، وهو معنى أن تكون معمورة ، كذا ذكره المحققون.

ومن عجيب ما يقع ببركتهم من النفع ، بسبب طرح النظر منهم على من طرحوا نظرهم عليه ، وذلك من إشاراته بعد موته نفع الله به وهي كثيرة جدًّا ، وذِكْر القليل منها ولو واحدة يدل على الكثير، كما يدل الأنموذج وهو قليل من صبرة الحب على باقيها : وذلك أن امرأة مباركة من أهل الحساء ، وكان بيننا وبينها أخوة ومحبة ، ولها في سيدنا محبة وعقيدة تامة ، أَرْسَلَتْ إليَّ - وكنت في حضرته وفي خدمته - عباءة من صنعة الحساء ، وقالت : « قدِّمها لسيدنا عبدالله ، وأخبِرْهُ أنها هدية مني له » .

فكان ذلك شاهِداً منها ظاهراً تقوم لها به البيِّنة الشاهدة الدالة على ما في الضمير الباطن من قوة المحبة والعقيدة ، وفَّقها الله لذلك لسعادتها ليتم به الأمران جميعاً ، فالظاهر كالجسم والباطن كالروح، فلا يتم الأمر إلا باجتماعهما .

فقدَّمتها له وقلت : هذه هدية لكم من أخية لنا اسمها : فلانة بنت فلان . وذكرتُ له ما بيني وبينها من المحبة والصلة ، فقال : « **هذه هدية منها لنا ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **قَبِلْنَا الهدية** » ، وأخذها بيده ودخل بها إلى داخل البيت ، ثم بعد أيام ناداني وأعطاني لها سبحة وقال : « **أرسل هذه السبحة لفلانة** » ، وسماها باسمها . فكانت هذه أيضاً علامة ظاهرة منه دالة على ما حصل منه لها من وَضْعِ النظر والإعتناء في الباطن ، على ما ذَكَرْنَا من كِلَا الأمرين المحبة والعقيدة في الباطن من الطالب يطلب علامة ظاهرة شاهدة ، ووضع النظر والإعتناء من الشيخ أيضاً أمر باطن يطلب أيضاً علامة ظاهرة ، فحصل كِلَا الأمرين الظاهرين والباطنين من الطالب والشيخ ، فتَمَّ الأمر بينهما ، فلزم بينهما المراعاة والحقوق التي اقتضاها الحال لهذا السبب ، وكان ذلك قبل وفاته بنحو أربع سنين .

ثم إن تلك المرأة اعتراها بعد وفاته بنحو سنة - سنة ١١٣٣ - وجع شديد في عيونها ، وصار يعاودها في كل شهر عشرة أيام ويتعبها جداً ، وبعد العشرة إلى تمام الشهر يزول عنها وتبرأ منه ، فإذا دخل الشهر عاد لها عشرة أيام وأتعبها فيها تعباً شديداً ، وبعد العشرة يزول ، ثم إذا دخل الشهر عاد لها كذلك ، وعلى هذا بقي معها كذلك نحو عشر سنين ، إلى سنة ١١٤٣ .

وفي هذه السنة في آخر مرة اشتد عليها فوق العادة ، وأتعبها أكثر مما كان قبل ذلك ، واشتَغَلْتُ من جانبها جدًّا مواساة لها ورحمة بها ، وتَعِبْتُ لِتَعَبِهَا .

فرأيت فيما يرى النائم : كأني سرت من بلدنا المبرَّز ، إلى البلدة الأخرى الهفوف أريد أشتري لها دواء من هناك ، فالتقيت بسيدنا عبدالله في الطريق في موضع يسمى العذيب ، وهو راكب على فرس قاصداً إلى المبرَّز ، فصافحته وقبَّلت يده فقال : « **أين تريد ؟** » ، قلت : أريد الهفوف ، أشتري دواء لعيون فلانة من عند حواويج الهفوف ، فقال : « **افعلوا لها كذا وكذا** » ، ووَصَفَ دواء وفهمته فأصبحت بارئة وما عاودها بعد ذلك مدة نحو أربع سنين إلى أن توفيت ٢٣ عاشور من سنة ١١٤٧ ، وما عملنا لها ذلك الدواء ، ولا احتيج إليه إلا من سِرِّ نظره ، واكتفاء بإشارته وبركة اعتنائه .

فافهم ذلك المعنى الذي ذَكَرْنَاه من دفع الضرر وجلب النفع ببركتهم ، لمن حلَّ عليه نظرهم ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وما ذَكَرْنَا من شَرْطِ وقوع العلامة الظاهرة لتدل على ما بطن من الجانبين ، الظاهرة هي أفعال الشريعة وأمورها الظاهرة من مباني الإسلام وغيرها ، فهي إن وجدت كانت دلالة قاطعة من العبد على ما بطن منه من الإيمان والتقوى ، الذي هو عين الحقيقة ، الشاهدان له عند الله بجزاء الخير والسلامة من الشر في الدنيا والآخرة . فإذا خلي من تلك الأعمال الظاهرة التي هي الشريعة ، دلَّ على خلوه من التقوى ومن الحقيقة الباطنة ، فإن كان معه في قلبه إيمان بلا عمل ، أفاده عدم الخلود في النار

ولو عُذِّب عذاباً شديداً ، وإنما المقصود الأكمل السلامة من العذاب مع الخلود في دار الثواب وحسن المآب والجزاء عند الله فيها ظاهراً وباطناً ، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فقيَّد ذلك بالعمل ولم يجعله مطلقاً ، كذلك ما يجعل لك على أيدي أوليائه من الخير الحاصل من عنده بسببهم ، لن تناله منه إلا بالعملَيْن الباطنَيْن منك ومنهم ، والظاهرَيْن منك ومنهم إلا إن تحقق الباطن ومنع من الظاهر عذر مقبول فيقبل باطنه .

ومثَّلوا له : كمن آمن قلبه وما تمكن من الأعمال الظاهرة ، كالذي آمن في وقت النبي ﷺ وخرج معه إلى أحد فاستشهد ، فرأى الملائكة تغسله وكان جُنُباً ، بل لو تحقق إيمانه ولم يتمكن من النطق بالشهادة ، فيحكم بإيمانه بعذرٍ يعذره عند الله ، وإلا فلا لدلالة تركها على عدم الإيمان فافهم .

وهذه الأفعال الظاهرة مطلوبة وتُراد لذاتها ، وتُراد أيضاً لكونها دالة قطعاً على ما في القلب والباطن من المعاني المقصودة المطلوبة ، فمن أدى الأحكام ومباني الإسلام الخمسة الظاهرة ، دلَّ ذلك منه قطعاً على وجود الإيمان وتقوى الله في قلبه الذي هو المقصود بالذات ولأجله بعث الله الأنبياء والمرسلين، وعليه تترتب مصالح الدنيا والآخرة ، وإقامة حقوق الله وحقوق عباده ، وكل خير في الدارين من جلب نفع ودرء ضر . وقد تُراد لذاتها وتوصف بالمدح لكونها مطلوبة شرعاً وطبعاً ، وإن خلت عن ذلك الباطن المقصود وساءت عاقبتها ، ودليل ذلك أنه لمَّا أُخِذَت سأل رسول الله ﷺ الحطم بن ضبيعة ، وهو قاصد البيت ومعه الهدي مشعور ومقلد ، وذلك قبل أن يسلم فقال : « يا محمد إن خيلك أخذتني وأنا قاصد الحرم ومعي الهدي » ، فلما رأى النبي ﷺ هديه مشعور قال : « اجلس حتى ينزل فيك أمر من عند الله » ، فنزلت فيه هذه الآية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾، ثم إنه أسلم بعد ذلك وارتدَّ ومات قتيلاً مرتدًّا أيام الردة .

فأي فضل ابتغاه ورضوان وهو مات كذلك ؟ فإنما المعنى أنه فعل أمراً ظاهراً بتقليده الهدي قاصداً البيت ، وذلك مما يبتغى به فضل من الله ورضوان ، وإن لم يكن هو من أهل ذلك فإن ذلك الفعل مطلوب بذاته في الشرع والطبع ، لأن ظاهره من الكرم والمروءة ، وباطنه تعظيم للبيت الحرام وإكرام له ، وكل ذلك محبوب عند الله وعند خلقه ، فدلَّ هذا على أن الفعل الظاهر الجميل مطلوب ومحمود لذاته ، ولو لم يوافقه الباطن ، فإن وافقه الباطن ووافقته العاقبة الصالحة والخاتمة الحسنة صار من أكبر الخصال ، ومن أعظم خصوصيات أهل الكمال فافهم .

وكان إهداء البُدن للبيت وتقليدها وإشعارها مما يتبرك بها في الجاهلية ويتعبد به ، وهو كذلك محبوب عند الله ، ولذلك قرَّره في شَرْعِهِ وحمد فاعله ، ووَصَفَهُ بأفضل أوصاف أهل كمال الإيمان ،

من ابتغاء الفضل من الرب والرضوان ، ولو خالَفَتْهُ الخاتمة ، فإن الله سبحانه ما كَلَّفَ خلقه إلا بطلب الإيمان والأفعال ، وهي التي في مقدورهم ، وما كلفهم بأمر الخواتم فإنما أمرها إلى الله ، فإن وافقت فذاك ، وإن خالَفَت فما على العبد لوم إذا أدى مقدوره وخالفه القدر .

ومن العجيب الشاهِد لما قرَّرنا آنفاً ، وما بعده من الكلام متعلِّقٌ به ومتفرِّعٌ عنه ، وهو ما يحصل من الله بسبب الأولياء من النفع والدفع ، وربما أُدِّب إن أساء الأدب ، وأن ذلك مجرد فعل الله وينسب إليهم نسبة ما ، وربما لم يعلموا به ، وربما وقع في حياتهم أو بعد مماتهم : وذلك أنَّا كنَّا ساكنين بالبصرة بجوار سيدي السيد محمد بن عبدالخضر الرفاعي نفع الله به ، فكنت يوماً جالساً مع الوالد في موضع، إذ مَرَّ السيد محمد مع فقرائه معزومين في مولد ، وذلك في جمادى أول من سنة ١١٠٢ ، وكان سني نحو تسع سنين ونصف ، فقال لي الوالد : « قُم قَبِّل يد السيد محمد ، وقل له : يا سيدي اسقني » ، فقمت إليه وصافحته وقَبَّلتُ يده وقلت له ذلك ، فتبسَّم وقال : « وأنت بعد صغير » ، ثم التفت إلى الوالد وأومأ إليه بيده ليجيء إليه، فجاء فسارَّه بكلام ، وأمره أن يأتي بمزيِّن فيحف جوانب رأسي ، ويُبْقِي كالوفرة ، فَفَعَلَ لي ذلك .

وكان هذه عادة السادة الرفاعية يفعلونه لمن أراد أن يدخل في طريقتهم ، يكون علامة على ذلك، وهي من العلامات الظاهرة الدالة على ما في الباطن من النسبة والنظر ، كما فصَّلنا لكل أهل طريقة علامات لذلك دالة على ما ذكر : « **اصطلاحات اصطلحوا عليها** » .

ثم إن الطاعون جاءنا في البصرة في آخر هذا الشهر ، أو أول الذي بعده جمادى الآخر من السنة المذكورة إلى آخر شعبان منها ، فتوفي فيه السيد محمد ، وقد أخبر عنه الوالد قبل وقوعه وحذَّر وأنذر منه ، وأوصى جماعته بالاجتهاد في العبادة والطاعة وقد ذَكَرْنَا ذلك عنه في غير هذا الموضع ، وتوفي فيه الوالد أيضاً ، وبَقِيَت تلك العلامة عليَّ وهي الوفرة ، ثم جئت الحساء في آخر رمضان من تلك السنة، ثم في صفر سنة ١١٠٣ جاءني عمي بحلاق وأَمَرَهُ بِحَلْقِهَا كراهةً لها ، فامتلأ رأسي بثراً كثيراً عمَّ كل الرأس ، وأحس في كل بثرة كنغز الإبرة ، وآذاني كثيراً وأقلقني، وحرمت النوم فأسهرني أياماً ، ثم بعد أيام بريء سوى نحو ثلاث ، انفقشت وصارت قرحة واحدة يسيل دمها وصديدها ، وبَقِيَت عليَّ هكذا اثنى عشر سنة ونصف .

وفي سنة ١١٠٨ سافرت مع صهر لنا إلى مسكت ، ثم إلى اليمن ، ثم إلى بلاد العجم ، فداويتها بمسكت عند صاحب مراهم يداوي بها القراح فما نفع ذلك ، وكذلك داويتها في المخاء عند حكيم يداوي القرحاء فما نفع ذلك ، وداويتها في شيراز عند حكماء وأطباء فلم يفيد شيئاً .

فلما وصلت إلى حضرة سيدنا عبدالله نفع الله به ، وكان ذلك يوم تسعة عشر من شهر رمضان سنة ١١١٥ فما مكثت إلا نحو ثلاثة أيام وبرأت وصحت هي من نفسها كما ينبغي بلا تبيين ، والله لا أعلمت سيدنا بها ولا علم بها ولا مسَّها ولا قرأ عليها ، إلا بمجرد نظره واعتنائه ، تصديقاً لقوله . كما أن السيد محمد ما علم بمخالفة أمره بحلق الشعر ، توفي في طاعون البصرة قبل ذلك بنحو سبعة أشهر، توفي في شعبان والحلق في صفر الذي يليه .

وفي هذا وأمثاله دلالة على أن الله سبحانه يغار لأوليائه فيفعل ما يقتضيه الحال منهم لمن أحسن أو خالف مثوبة وعقوبة ، فيجلب الخير ويدفع الشر ببركاتهم واعتنائهم لمن طرحوا نظرهم عليه ولم يخالف ، فإن خالف واقتضى الحال منهم تأديبه أدب ، علموا بذلك أو لم يعلموا ، وكذلك علم المفعول به ذلك أو لم يعلم . فانظر ما أبرك محبتهم والمحبة منهم ، وما أنفع نظرهم والنظر منهم ، وما أكثر نفع ذلك ، والخطر فيه أيضاً لمن ساء أدبه .

وقد أخبرت بهذه القصة السيد المنور المبارك هاشم بن محمد بن يوسف بن سيدي السيد محمد بن عبدالخضر المذكور ، وأريته موضع القرحة من رأسي وقلت له ممازحاً : سِرُّ آل باعلوي غلب سِرَّكُم يا آل الرفاعي . فضحك ، وقال : « كلهم واحد » ، وصدق ، كلٌّ منهم يعتقد الآخر وينزله بالفضيلة، ولا مشاحة ولا مشاحنة بينهم . وجرت المذاكرة بيني وبينه أيضاً بعد ذلك بمدة نحو أكثر من سنتين فقلت له : قد جرى الأمر الأول من الله تعالى كرامة للسيد محمد ، وجرى الأمر الآخر بعد ذلك من الله سبحانه كرامة للسيد عبدالله ، فاصطلح السيدان وقد حصل المقصود من أمر الله بمقتضى حال الإثنين ، وبفضل الله أَعْفَى العقوبة بحصول ذلك الألم ، والمثوبة بالبراءة منه من غير ما يَعْلَمَانِ بذلك .

فقولي : « اصطلح السيدان » ، أجرى الله سبحانه هذه الكلمة على اللسان من غير قصد ولا تعمُّل ولا تأمل ، وظهر لي بعد ذلك أن فيها علوماً غزيرة عزيزة ومعان جمة ، تبيِّن كيفية نسبة الكرامات إلى الأولياء مع كونها مجرد فعل الله ، كما قدمنا الإستدلال على ذلك بقوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾الآية ، فإن قوله : ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾، أي لا تستطيعه يا محمد ولا يستطيعه أحد إلا الله، لا مدخل للأنبياء والأولياء ولا غيرهم في فعلها ، بل الله هو الفاعل لها ، فهي مجرد فعل الله لا مدخل في فعلها لأحد غير الله ، بل ربما لم يعلموا بوقوع ذلك - كما ذَكَرْنَا من قصة السيد محمد والسيد عبدالله- في تلك العقوبة وتلك المثوبة نفع الله بهما ، ولو أن لهم فيها نسبة ما ، إما دعوة منهم استجيبت أو أمر اقتضاه الحال من جانبهم كقصتنا هذه ، وكان ذلك من الله على وفق ما يريدون فنسبت إليهم، ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وكيفية ذلك يتبيَّن لك من تفصيل الشأن في هاتين الواقعتين .

ثم افهم منه المعنى وقس عليه كل ما عداه مما في معناه ، من نسبة ذلك إليهم، وذلك أن السيد محمد لما أمر بذلك الأمر اقتضى حاله الإمتثال لأمره ، وأن لا يخالف في ما أمر به ، وهو يهوى الإمتثال ويريده، ويكره خلافه ويريد العقوبة لمن خالفه ، والقدرة والإرادة الإلهيان يعملان عملهما وتصريفهما، ويوافق ذلك غالباً ما يهوى من تجرد عن الهوى . أعني الهوى النفسي الذي ذمَّه الله ، ومدح من نهى نفسه عنه، ووعده بمأوى الجنة بقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾، لا الهوى الإيماني الذي قال النبي ﷺ: « لا يؤمن أحدكم - أي إيماناً كاملاً - حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، وليس كل مؤمن هكذا، إلا من كَمُلَ إيمانه من خواص المؤمنين . ولا يُذكَر المؤمن في الكتاب والسنة إلا والمراد به المؤمن الكامل ، ولا يوجه الخطاب فيهما إلا إليه كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، وقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وليس كل من يدعي الإيمان كذلك ، بل خواص المؤمنين ، ففهم من هذا أن المؤمن الناقص الإيمان لا يذكر ولا يوجه إليه بخطاب ، إذ ليس الكامل كالناقص ، فإذا كَمُلَ العبد وتجرد عن الهوى النفسي فقد يكون ما أراده الله وفق إرادته ، ويكون ذلك لا محالة علم به أو لم يعلم .

مثاله : أن السيد محمد قد توفي حينئذٍ - أي في الشهر الذي أمر فيه بذلك - أي ما بين أمره ووفاته إلا نحو شهر ، وما وقع المخالفة لأمره إلا بعد نحو عشرة أشهر من وفاته ، وبعده بنحو ثلاثة أيام وقعت تلك العقوبة كرامة له ، ثم الشاهِد والدليل أن ذلك عقوبة وكرامة له ، أنه ما نفع فيها أدوية المداوين ولا حكمة المتطبِّبين مدة نحو اثنى عشر سنة ونصف ، من نحو شهر صفر سنة ١١٠٣ إلى ٢٩ من شهر رمضان سنة ١١١٥ ، ولما أوصل الله ذلك الإنسان الذي حلَّت به العقوبة إلى حضرة السيد الآخر سيدي عبدالله نفع الله بهما لم يمكث إلا نحو ثلاثة أيام ثم بريء بفضل الله .

فإنه قد اقتضى الحال منه أن هذا الإنسان المعاقَب ، لما أوصله الله إلى شريف حضرته بعد اللتيا والتي - أي الشدائد التي قاساها في البحر والبر كما مَرَّ تفصيله - مجرِّداً القصد لزيارته ، فاقتضى منه الحال أن يطرح عليه نظره ، وأنه يرغب من فضل الله أن يَصْرِف عنه كل سوء ، ويشفيه مما يجده، ويجلب إليه كل خير ، وأن يمنَّ الله عليه بعفوه وعافيته ، فحصل من فضل الله هذا الظاهر العافية والبُرء بسرعة ، بعد طول البطاء ومعالجات الدواء ، ونرجو معه أيضاً حصول الآخر الباطن ، العفو وحسن العاقبة والخاتمة مع صلاح الحال والمآل .

وكل ذلك نرجو من فضل الله واقتضاه الحال من سيدنا ، وهو أيضاً لم يعلم بذلك المرض وما

مسه، وإنما ذلك - أي برؤه منه - هو ما يقتضيه الحال منه ويوده ، ففعل الله سبحانه ذلك بمقتضى إرادته وقدرته ، فوافق مقتضى الحال من سيدنا عبدالله نفع الله به ، كما فعل الأمر الأول أيضاً بمقتضى القدرة والإرادة منه سبحانه ، فوافق مقتضى حال السيد محمد فحصل لكلٍّ منهما ما أراد لذلك الإنسان من عقوبة ومثوبة ، والكل مجرد فعل الله وإرادته لا مدخل لهما فيه ولم يَعْلَما به إلا ما اقتضاه الحال من كل منهما .

فاعرف منزلة الأولياء عند الله ، وكيفية إكرامه لهم بفعل الكرامات وخوارق العادات ، وكيف نسبتها إليهم ولما كانت المثوبة بعد العقوبة وماحية لها ، قلنا : « غلب سِرَّهم » ، ولما كان قد حصل المراد لكلٍّ منهما ما اقتضاه الحال منه فحصل مقتضى الحال من كل منهما بأمر الله ، ولو لم يَعْلَمَا بذلك ، ثم ختم الله بالمثوبة بعد العقوبة ومحنتها قلنا : « قد اصطلحا » ، أي اقتضى الحال من كل من السيدين حصول العافية ، فتَمَّ الأمر عليه ، وختم الله الأمر بذلك ، لأن رحمة الله سبقت غضبه ، أي غلبته وقهرته .

ومن معاني هذا : أن ملائكة الرحمة موكلين على ملائكة الغضب ، حتى إنهم لا يفعلون أمراً مما وكلوا به إلا بإذن منهم ، كما ورد في كاتب الحسنات أنه موكل على كاتب السيئات ، حتى لا يكتب سيئة إلا بإذنه ، فيأمره بالتأخير عن الكتابة مدة - أظن ورد : ست ساعات - لعله يتوب ويستغفر فيها، فإن لم يفعل أمره بالكتابة ، وغير ذلك كثير .

ولو قد عاقب الله عبده بذنب صدر منه ، فأَخَّر ذلك يقتضي فضله أن يعفو عنه إما بسببٍ كاستغفار أو شفاعة ، أو بلا سبب بل فضل منه سبحانه ، فيتوب على عبده في الدنيا ، أو يعفو عنه في الآخرة . والمرجو من تمام فضل الله سبحانه حسن الخاتمة بعده المشار إليه ، ويلحقه بأسياده المذكورين، وأسلافهم الصالحين ، ويحشره معهم في زمرة جدهم خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم معه أجمعين .

والمراد ذكر نسب سيدَيَّ المذكورين :

أما نسب سيدي عبدالله الحداد نفع الله به ، فهو شيخنا وإمامنا وذخرنا وحبيبنا شيخ الإسلام وإمام الأولياء الكرام ، وختم الأقطاب في الأنام ، فهو السيد : عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد الحداد بن علوي بن أحمد بن أبي بكر بن أحمد مسرفة بن محمد بن عبدالله بن الفقيه أحمد بن عبدالرحمن بن علوي بن محمد صاحب مرباط بن علي بن علوي بن محمد بن علوي - هذا الذي ينسبون إليه - بن عبيداللاه بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق - وهنا

محط أنساب جميع السادة الحسينيين ، فمن اتصل به ولم يختلج من دونه فقد صح له النسب ، وحق على من اعترضه وأنكره العطب - وسيدنا جعفر الصادق بن الإمام سيدي محمد الباقر بن الإمام زين العابدين علي بن السبط الإمام الحسين بن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابن البتول فاطمة بنت الرسول الأمين على وحي الله وتنزيله محمد ﷺ وعليهم أجمعين وعلينا معهم اللهم آمين .

وأما نسب سيدي السيد محمد ، فهو السيد الكامل صاحب الكرامات والمناقب الباهرات الفَخِرات السيد : محمد بن عبدالخضر بن السيد رجب بن السيد شعبان بن السيد محمد بن السيد صالح بن السيد عبدالرحمن بن السيد عبدالله بن السيد حسن بن السيد حسين بن السيد يوسف بن السيد رجب بن السيد شمس الدين محمد .

ثم هنا قال تقي الدين الواسطي عبدالرحمن بن عبدالمحسن الواسطي في كتابه « جلاء الصدى في سيرة إمام الهدى سيدي أحمد الرفاعي » ، قال : « شمس الدين محمد المذكور ، أمه زينب بنت الشيخ أحمد الرفاعي ، وأبوه سيدي عبدالرحيم بن عثمان ، وهو ابن أخت سيدي أحمد الرفاعي ، المسماة بِستِّ النساء ، وهو عثمان بن حسن بن عبلة بن حازم ، وفيه يجتمع نسبه مع نسب سيدي أحمد الكبير بن السيد أبي الحسن علي بن الرفاعي » .

فالشيخ أحمد المذكور هو سيدي أبو العباس أحمد الكبير بن أبي الحسن علي بن يحيى أول من سمي الرفاعي ، بن ثابت بن حازم المذكور بن أحمد بن علي بن الحسن بن المهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق .. إلى آخر النسب المتقدم . وهنا التقى البحران العذبان : سلسلتا نسب ساداتنا السادة بني علوي ، ونسب ساداتنا الرفاعيين نفعنا الله ببركاتهم أجمعين . شعر ، في مدح أهل البيت :

مُطَهَّـرُونَ نَقِيَّـاتٌ جُيُوبُهُـمُ ... تَجري الصَّلاةُ عَلَيهِمْ أينما ذُكِرُوا
مَـن لم يَكُـنْ عَلَوِيـاً حِـينَ تَنْسِبُهُ ... فَـمَا لَـهُ فِي قَدِيـمِ الدَّهْـرِ مُفْتَخَـرُ
اللهُ لمـا بَـرَى خَلقـاً فَأَتْقَنَـهُ ... صَفَاكُـمُ وَاصْطَفَاكُـمْ أَيُّهـا البَشَرُ
فَأَنتـمُ المـلأُ الأَعْـلى وَعِندَكُـمُ ... عِلْمُ الكِتَابِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّوَرُ

وقال غيره :

لَـوْ فَتَّشُـوا قَلْبِـي رَأَوا وَسطَه ... سَـطرَيْنِ قَـدْ خُطَّـا بِـلا كَاتِـبِ
العِلْـمَ وَالتَّوحِيـدَ في جَانِـبٍ ... وَحُـبَّ آلِ البيـتِ في جَانِـبِ

وقال غيره :

تَحَرَّكَنَا ذِكْرُ الأَحَادِيثِ عَنْهُمُ ... وَلَولا هَوَاكُم في الحَشَا مَا تَحَرَّكْنَا
وَلَولا مَعَانِيهِم تَرَاهَا قُلُوبُنَا ... إذا نَحنُ أَيقَاظٌ وَفِي النَّومِ إنْ نِمْنَا
لذبنا أَسىً مِنْ لَوْعَةٍ وَصَبَابَةٍ ... على أنَّ فِي المعنَى مَعَانِيهُمُ مَعْنى
فَقُل للَّذي يَنْهَى عَنِ الوَجْدِ أهلَهُ ... إذَا لم تَذُقْ مَعْنَى شَرابِ الهوَى دَعْنَا
وَسَلِّمْ لَنَا فِي مَا غَشِيَنَا فَإنَّنَا ... إذا غَلَبَتْ أَشْوَاقُنَا رُبَّمَا بُحْنَا

قال الشيخ القطب علي بن أبي بكر بن الشيخ عبدالرحمن السقاف باعلوي ، أخو الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس رضي الله عنهما ، في كتاب « البرقة في لبس الخرقة » ، لما عَدَّ ذرية الإمام جعفر الصادق قال : « منهم بنو علوي ذرية الإمام علي العريضي بن الإمام جعفر الصادق ، ومنهم الرفاعيون الساكنون بأرض العراق ، الذين منهم سيدي أحمد الرفاعي نفع الله به » ، وكفى بهذا القطب الجليل حجة في صحة هذا النسب الشريف ودليل ، وكذلك كل جماعة بني علوي يقولون ذلك ، ويُقِرُّون به ويعتقدون صحة هذا النسب العالي وهم يبلغون مائة وعشرين قبيلة من أقطاب وأولياء أكابر علماء أعلام . فلا عبرة بجاهلٍ بأنساب السادة أهل البيت النبوي ينكر هذا النسب الشريف ويخالف إجماع هؤلاء الأكابر ويحتج بقول بعض المؤرخين : الرفاعي نسبة إلى رفاعة قبيلة من العرب . وإذا كان النسبة لذلك لا ينفي صحة لنسبه ، لأن هذه نسبة جوار جاوروهم فنُسِبوا إليهم ، وليس لهم بهم نسب، فليست نِسبة قرابة بل حيث جاوروهم في القُرْقَانِ والمنازل ونسبهم مُتَّحِد وحده ، كما ترى هنا من عبيد مستولدين حيث جاوروا أناساً من صميم العرب العاربة نُسِبوا إليهم وسموا بإسمهم ، وهكذا عادة العرب فليس هذا قادحاً في صحة نسب السادة الرفاعية نفع الله بهم .

ومن مناقب سيدي الشيخ علي المذكور المقرر صحة نسبهم : أن رجلاً مقعداً من أهل الأحوال دخل إلى بلد تريم وهو يزحف ، ويسأل عن بيت الشيخ علي ، وقال : « أنا رجل من أهل سمرقند ، خرجت من بلدي منذ ثلاث سنين قاصداً هذه المدينة ، لأزور رجلاً فيها يقال له : الشيخ علي بن أبي بكر ، إن له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية » ، فانظر شهادة هذا الولي له بهذا المقام ، أتراه أخطأ في تصحيح هذا النسب الشريف ؟ انتهى .

ومعنى السقي المتقدم ذكره في اصطلاح الرفاعية ، وهو كما قررنا : عمل حسِّي من الشيخ لمن

أعطوه طريقتهم ، ووضعوا عليه نظرهم ، وصار منسوباً إليهم ، يدل على معنى آخر باطناً ، وهو أن ينفث في فمه يسيراً من ريقه فيقذف بواسطته سر لا يطيقه إلا الأقوياء - ولهذا قال السيد محمد : « أنت بعد صغير » ، أي لا تطيق ذلك - فيزعجه ويقلقه ويحمله على فعل أمور تعجز عنها الأجسام في العادة، وتَكِلّ عن إدراكها العقول ، فيتحركون بحركات ، ويفعلون أفعالاً خارقة للعادة ، وكلها كرامات لسيدي أحمد الرفاعي نفع الله به ، وإن كان أنها ما حدثت إلا بعده فذلك لا بد ما تظهر على الأخيار من أهلها في كل وقت ، فيشبهون أوقاتهم أكثر مما يشبهون آباءهم ، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » ، كما ترى في الظاهر من شحِّ النفوس في الأخيار مشابهة بأوقاتهم ، فَقِس عليه تلك المعاني الباطنة .

وفيما يصدر منهم شاهد ودليل على أن من حصل له الرابطة معهم ونسب إليهم ، وطرحوا عليه نظرهم ، أنه لو تعرض لما يؤذيه عمداً أو من نفسه فيما يؤذيه قصداً أنه يحميه الله ببركتهم عن كل ما يضره ويؤذيه :

فَعَارٌ عَلَى حَامِي الحِمَى وَهوَ فِي الحِمَى ... إِذَا ضَـاعَ فِي البَيْـدَاء عِقَـالُ بَعِـيرِ

والغالب أن هؤلاء يلقي الله عليهم ما يغيِّبهم عن شعورهم ، فيفعلون ما يفعلون بلا شعور ومع عدم الشعور أقرب للعذر عند الله ، كما في قصة الشيخ عبدالرحمن الأخضر باهرمز مع الشيخ عمر بامخرمة ، لما أمر امرأة أن تعانقه فغشي عليه قبل أن تصل إليه ، ثم أمرها أن لا تجيه وذلك تدريباً له لمخالفة ما في نفسه من الإنكار ممن يحمونه عما لا يجوز في الشرع ، كهذا العذر فافهم .

وبعضهم يكنون معهم بعض شعور ولا يتعرضون لما يضر ، ومثل هذه الأمور لا يرونها سادتنا بنو علوي في حالهم وحال جهتهم ، ولا تتأتى لمتعاطيها في بلدهم تريم ، حتى أن واحداً من فقراء الشيخ أحمد بن علوان وهم يفعلون ذلك أتى إلى تريم ، وأراد أن يفعل شيئاً من ذلك على عادته ، فنهاه بعض السادة منهم وقال : « هذا ما يستقيم لك في بلادنا » ، فضَرَبَ بطنه بسكين ، فشَقَّ بطنه وخرجت أمعاءه فجاء له السيد بحكيم فعالجه فبريء . انتهى .

تتمة خاتمة للمعنى : اعلم أنه من سبق له من الله في سابق علمه أنه يوصله إلى مقامات الخواص على يد أحد من العارفين ، أو أن يجعله تحت نظر أحد منهم ، أن الله سبحانه يكشف لذلك العارف شأنه وأمره ، ويُعلِمه أن له على يده كذلك ، أو أن يكون ذلك الإنسان تحت نظره ويميل الله بقلبه إليه ، فيكون مراعياً له ومُقبِلاً عليه ، وملتفتاً إليه بعنايته وشفقته ومدده ، سواء كان ذلك بعد وجود

ذلك الإنسان أو قبل وجوده . فإن كان كتب له ذلك مع الإجتماع به ، فلا بد أن يجمعه الله عليه ويبلغه ما كتب الله له على يديه ، كما قال سيدنا لذلك الرجل الذي يعاتبه كما قدمنا قصته ، قال له : « **أو أنّا نضع فيك ما ليس فيك ؟ إنما الأولياء مهيّئين ما جعل الله في العبد كما قال النبي ﷺ : إنما أنا قاسم والله المعطي** » .

وربما سبق في قضاء الله وحكمه أن يحصل له ذلك بواسطته بلا اجتماع منه به فيحصل ذلك كذلك، كما ترى كثيراً من أكابر الأولياء تربوا بأكابر ، وحصل لهم ببركاتهم الوصول إلى الله ولم يجتمعوا بهم ، كما ذَكَرْنَا عن سيدنا عبدالله أنه لم ير شيخه الشيخ محمد بن علوي ، وما ذَكَرْنَا عن السيد عبدالقادر بن شيخ العيدروس أنه لم يَرَ شيخه الشيخ حاتم بن أحمد الأهدل ، كما قدمنا عن الشيخ علي بن أبي بكر في قوله في كتاب « البرقة » : « فقد ينتفع المريدون بالشيوخ وإن لم يعرفوهم ولم يروهم ولم يسمعوا بهم » ، وقال سيدنا في « رسالة المريد » : « **وقد يحسب بعض المريدين أنه لا شيخ له ، فتراه يطلب الشيخ ، وله شيخ لم يره ولم يعلم به ، يربيه بحسن نظره ويراعيه بعين عنايته ، وهو لا يشعر به** » ، واستشهد لذلك لما سئل عنه بقصة السيد يوسف الفاسي مع الشيخ أبي بكر بن سالم ، لما كان الشيخ أبوبكر يذكره كثيراً ويقول : « لا تبلغني الأرض حتى يأتيني رجل من المغرب اسمه يوسف ، شريف حسني ، شاب يقرأ في مدينة فاس » .

وكان ذلك كذلك ، وكاشفه بذلك جملة من أولياء المغرب بأن لك شيخاً لم تعرفه ، فبقي يتقصى عليه ويدوره في كل بلد من بلدان المغرب ، كلما سمع بشيخ في بلد قصده ، إلى أن قال له بعضهم : « إن أردتَ حلفتُ لك على منارة مسجد القرويين أن شيخك هذا ليس في غربنا » ، فقصد إلى البكري في مصر فقال له : « لك شيخ غيري » . حتى أتت به المقادير إليه ، على ما قدَّمنا مما نَقَلْنَا من رحلته عن قوله كما حكاه عن نفسه ، فلما وصل إليه وسلَّم عليه قال له : « يا يوسف تَحَيَّرتَ علينا ، وكنا نظنك تأتينا قبل ذلك » ، فقال : « ياسيدي تعرفني وتعلم أني سآتيك ؟ » ، فقال : « والله لقد رأيتك وأنت في ظهر أبيك عابد ، ولقد حضرتُ ولادتك حين ولدتك أمك ، وما زلتُ أراعيك وأربيك بحسن نظري» ، فاعجب لهذا العجب العجيب من أحوال الأولياء ، وهو من أعجب أحوالهم .

وقد سئل سيدنا عن قوله في « رسالة المريد » الذي ذَكَرْنَا ، فأجاب عنه واستدلَّ عليه بقصة السيد يوسف هذه، وكذلك قصة الشيخ أبي العباس المرسي في ياقوت العرشي ، وأمره لأهله أن يفعلوا ضيافة من عصيدة ، قال : « اليوم ولد لنا مولود بأرض الحبشة » ، ففعلوها وعزم عليها جماعة من الفقراء، وما علموا شأنه ، فلما كان بعد سبع سنين حجَّ بعض أصحاب الشيخ أبي العباس ، فرأى في سوق الرقيق بمكة عبداً حبشياً ابن سبع سنين ، فخطر بباله أن يشتريه ويهديه للشيخ ، فاشتراه وأهداه له

فقال : « هذا مولودنا الذي وُلِدَ لنا بأرض الحبشة ، وفعلنا له الوليمة ، هو ذا قد أتانا » ، ثم ربَّاه وأفاض عليه مدده وسره ، وصار خليفته من بعده ، حتى إن أكابر أصحابه كالشيخ ابن عطاء الله وأضرابه ، صاروا من تحته بعناية الله وسابق حكمه ومشيئته ، بلا سبب منه اقتضاه ولا وسيلة استحق ذلك بها ، بل بمحض إرادة الله وسابق عنايته ، فالسعيد أسعده الله بلا سبب ولا وسيلة ، والشقي أشقاه الله بلا سبب ولاوسيلة، ثم بعد ذلك تعلق الجزاء بحسب الأعمال الناشئة عن الأمرين ، « اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّر لما خُلِقَ له » ، وقول سيدنا : « **الخلق مكلوفون لما خلقوا له** » ، على ما تقرر هـ .

وذَكَرَ حديث : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » ، *فقال* : « **للرزق جهات متعددة ، وكذلك الذنوب ، فقد يكون الذنب في جهة الرزق ، فإذا حصل ذنب في جهة رزقٍ كأن كان رزقه في البيع والشراء فأذنب ببخسٍ وتطفيفٍ ونحو ذلك ، حُرِمَ ذلك الرزق ، بأن ذَهَبَتْ بركته وتلاشى عليه فَيَفْتَقِر ، أو حصلت له آفة أذهبته من يده ، كما هو مشاهَد في أهل الربا ومانعي الزكاة وغيرهم .**

ويحرم الرزق المقابل لذنبه خاصة دون غيره ، فإن كان له رزق في الحراثة أو غيرها ولم يذنب في جهته ، فلا يحرم الرزق منه بذنبه في جهة البيع والشراء ونحو ذلك ، وإن كان ذنبه في ما هو عام لجميع الأرزاق أو أكثرها كالنقد ، حرم الرزق بذلك المعنى من جميع الجهات التي يأتيه رزقه به منها ، لأن عليه مدارها، وإن أحسن في الكل حصلت له البركة والنمو في الجميع ، أو أحسن في البعض ففيه دون غيره ويجبر خلل كل واحد بالإحسان فيه دون الآخر، كما يجبر خلل العبادة بعضها ببعض ، كذلك كما تُجْبَر الصلاة بالصلاة ، والصوم بالصوم ولا عكس . وإن كان الذنب بأمرٍ خارجٍ عن أسباب الرزق كزنا وترك صلاة وغير ذلك عمَّ الضرر العمر والرزق ، وإن توالت عليه أرزاقه مع عصيانه فذلك استدراج له » هـ .

أقول : انتهى كلامه . وهذا التفصيل العجيب والتقييد البديع من سيدنا نفع الله به من ثقوب فهمه وحِدَّة خاطره ، وهو يدل على تبحر علمه، واطلاعه على معاني علوم الشريعة ، وأنه نتيجة من علم الوراثة كما قدَّمنا تفصيله ، وقد قال : « **قرأنا قليلاً ، وطالعنا كثيراً، وفتح علينا بأكثر** » ، ويدل على غزارة علمه إطِّلاعه على وِزَان العادات من العبادات ، بإطلاع الله له على ذلك ، وعلى غيره بالإلهام والعلم اللدني . وقد قال في بعض المكاتبات ، وهي مكاتبته لباشعبان ، مجاوباً له على كتاب جاءه منه ، سأله فيه عن سؤالات كثيرة ، فلما أورد عليه فيه أجوبة مسائله التي سأله عنها ، وكانت المسائل في غاية الغموض ، فوضَّحها بالأجوبة البديعة ، ثم قال في آخر ذلك : « **وهذا ما تيسَّر إيراده في هذا الوقت الحاضر ، من غير تفكر سابق ولا روية ، بل هو وارد الوقت وفيض الفضل ، ومن أثر نَفَس مدد تنزل**

ترجمة طلسم معنى ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وكل ما مَعَنا ولدينا فمن هذه الحضرة جاء ، ولو أردنا أن نقول لقلنا شيئاً كثيراً، ولكنَّا صادفنا وقتاً وزماناً تعرفه وتراه » .

وهذا ومثله يدل دلالة قطعية على أنه المجدِّد للدين في قَرْنِه ، لأن الله سبحانه يطلع المجدِّد لدينه في كل وقت ما يناسب أهل وقته مما لم يطلع عليه من تقدمه ، وينطق علماء كل زمان بما يناسب أهل زمانهم . وذكر الشعراوي أنه يتجدد لكل أهل زمان أحكام شرعية بحسب ما أحدثوا من البدع . قال بعضهم : « فتجري في البدع الأحكام الخمسة » ، يعني فيتكلم لهم علماؤهم بما تبين لهم الحق من الباطل ، كما ترى كثيراً في هذا النقل من كلام سيدنا في أحوال أهل زمانه ، ويشمل كلامه فيهم من يأتي بعده وبعدهم إلى يوم القيامة .

والذي نراه ونعتقده أنه لا يقوم مقامه أحد من بعده في مقامَيْ القطبية وتجديد الدين إلا المهدي ، وأن تجديد الدين باقٍ إلى خروج المهدي ، فهذا الوقت كله له ينوب عنه فيه أصحابه ، كما كان الوقت للنبي ﷺ إلى يوم القيامة ، وناب عنه أصحابه أولاً ، ثم نوابه في الدعوة والتجديد إلى خروج المهدي، بل إلى يوم القيامة . والدليل على ذلك قوله : « **عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي** » ، وقال : « **جمعنا من الكتاب والسنة ما لم يستطع حمله إلا المهدي ، فإن أدركناه أديناه إليه وسَلِمْنَا من تلك الأمانة** » ، فهو إشارة إلى ذلك ، وقال في بعض المرات :« **أو أربعون من أصحابنا**». يعني إن لم يدركنا تفرَّق له ذلك في الأربعين حتى يدركوه فتجتمع له كلها وإن لم يدركه إلا الأربعون الذين اجتمعوا بسيدنا ، تفرَّق له منهم في غيرهم ، وغيرهم في غيرهم ، وهكذا حتى يدركه كل من عنده من الأمانة شيء فيتم له . كما اجتمع لنبينا ﷺ جميع ما تفرَّق في جميع الأنبياء ، وكذلك يجتمع للمهدي جميع ما تفرق في جميع الأولياء ، يؤخذ هذا كله من قوله : « **إن الأمانة التي عندنا لا يحملها إلا المهدي أو أربعون** » ، ومرة قال: « **أو ستون من أصحابنا** » ، يعني يحملونها عنه للمهدي إن أدركوه ، وإلا جاء التفصيل الذي ذَكَرْنَا والله أعلم .

وقال له رجل في المجلس : « أريد أن الله ييسر لأهلنا زيارتكم » ، *فقال رضي الله عنه* : « **إن شاء الله إن لحقتونا ، وإلا فقبورنا تنوب منابنا ، فإن الأخيار إذا ماتوا لم يفقد منهم إلا أعيانهم وصورهم ، وأما حقائقهم فموجودة** » .

فقال رجل آخر: « الله يمتع ببقاءكم » ، *فقال* : « **وإلى متى يكون ذلك ؟ قد تمت الأمور . إذا رأى الإنسان الضعف وأمارات الكبر ، ظن أنه قرب أمره ، ومرادنا عسى أن العيال يكبرون ، عسى الله أن**

يكون منهم نائب عنَّا ، قال تعالى : ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾ ، ولو ناب عنَّا حتى أربعون رجلاً . وقد أخذنا عن كثير من المشايخ ، لو عددناهم لبلغوا مائة وأربعين » ﻫ .

أقول : قوله : « **يكبرون** » ، أي يتأهلون لحمل الأمانة المذكورة ، يدل عليه قوله : « **ولو ناب عنا حتى أربعون** » ، وقد سمعته غير مرة قال : « **لا ينوب عنا ويقوم مقامنا إلا المهدي ، وإلا فأربعون رجلاً** » ، وكذا كل من بلغ درجة الكمال لا ينوب عنه إلا أربعون ونحو ذلك .

وذكر رضي الله عنه حديث : « من أسَرَّ سريرة أَلْبَسَهُ الله رداءها » ، *ثم قال* : « **أي حسنة كانت أو سيئة ، ويلبسه ذلك بالجملة لا بالتفصيل ، وهو أنه إذا أسَرَّ حسناً حصل له القبول عند الناس وأثنوا عليه خيراً ، وإن أسرَّ سيئاً لم تَقْبَلْهُ قلوبهم وأثنوا عليه شرًّا ، وربما برز منه قليل - أي مما أَسَرَّ - فاستدل به على الباقي من الأمرَيْن وعرف به** » ﻫ .

أقول : قد جاء ما يحقق ذلك ويشهد له في حديث وفي قصة ، أما الحديث : فهو أنه ورد أن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر .

وأما القصة : فحكي أن رجلاً في وقت الحسن البصري قال : « لأعبدنَّ الله عبادة يذكرني بها الناس» ، فكان يصوم النهار ويقوم الليل ، وأول داخل للمسجد وآخر خارج منه ، فكان الناس إذا رأوه شتموه وسبوه وأثنوا عليه شرًّا ولعنوه ، وقالوا : « لعن الله هذا المرائي الكذاب » ، ثم إن الله بعد ذلك ألهمه رشده ، فقال في نفسه : « أراني أعمل في غير معمل فماذا ينفعني به الناس ؟ والله لأخلصنَّ عملي لله » ، فأخلص نيته لله ولم يزد على ما كان يعمل من عبادته تلك شيئاً ، فصار الناس بعد ذلك إذا رأوه قاموا له وقبَّلوا يديه وتمسَّحوا به ، واعتقدوه وأثنوا عليه خيراً.

فانظر الفرق بين الحالتين ولم تختلف منه إلا نيته ، لما كانت سيئة أبغضوه ولعنوه وأثنوا عليه شرًّا ، فلما حَسُنَت وصَلُحَت أحبُّوه واعتَقَدُوه وأثنوا عليه خيراً . وهذا مصدِّق لقوله ، وبهذا إن الظاهر تابع للباطن صلاحاً وفساداً ، فيُلبِس الله ظاهرَهُ ما تَلَبَّسَ به باطنه ، ويُظهِره للناس على كِلَا الوجهَيْن ﻫ .

ومرَّت في الدرس بعد العصر أحاديث في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإحياء ، *فقال* : « **عاد الناس الدين فيهم ظاهر ، والمنكر غير مقبول ولا ظاهر ولا معتقد حِله ، غايته أن يكون في آحاد بين الناس ، كالذين يفعلون الربا ويستحلونه بمناذرات وإقرارات باطلة ، سوَّلت لهم في ذلك نفوسهم ، وقادهم إليه حب الدنيا ، وأقحمهم فيها أناس أيضاً ، وهذا متعلِّق بالولاة وأمرهم به على**

الفقهاء ، فلا تُحوِج نفسك إلى مقاربتهم ، والميل منهم أحسن » هـ .

أقول : ذكر في بعض مكاتباته أنه ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « سيئات كل مَلِك في صحائف علماء زمانه ، حيث لم يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر » هـ .

وقال رضي الله عنه : **« ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم . وما أفسد على الناس دنياهم إلا الأمراء ، ولكن بعد فساد دنياهم . فبفساد العلماء يفسد الدين ، وبفساد الأمراء تفسد الدنيا ، لأن قوام الأمر إنما هو بالرؤوس، أهل الدين لأهل الدين ، وأهل الدنيا لأهل الدنيا ، فإذا تغير الرؤوس تغير المرؤوس. وقد يتعدى ضرر ذلك إلى الأحكام والعقود ، لأنها تصير حينئذ أحكام بغاة فتنفذ للضرورة . والناس قد نَزَلوا - أي نقصوا - في جميع الأشياء ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فعد مَنَازع - أو قال : منازل - العلوم كيف تراها ؟ يفتون بأمور وإقرارات لا تصح يتحيَّلون بها ، وينبغي للمفتي أن يعرف قرائن الأحوال » هـ .**

أقول : وعلى الرؤساء من الفريقين إثم مرؤوسيهم ، لحديث كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل : « فإن تولَّيتَ فعليك إثم الأريسيين » ، أي من أنت رئيسهم في أمور دينهم وأمور دنياهم ، فإنه كان رئيساً للفريقين في أمور دينهم وأمور دنياهم ، ومُتَّبعاً عندهم ، فلو أسلم لربما تبعه الفريقان فيهما ، فكان له أجرهما ، فلما لم يسلم كان عليه وزرهما .

وفي « تاريخ الخميس » أنه لما تأمل كتاب رسول الله ﷺ رغب في الإسلام وخاف من قومه ، فأرسل الذي جاء بالكتاب إلى رجل رئيس عندهم ، اسمه صغاطر ، فقرأه فأسلم في الحال ، فقاموا عليه فقتلوه في ساعته ، فقال للرسول : « أخبِرْ رسول الله ﷺ أن ما ردَّني عن الإسلام إلا خوف القتل كما رأيت من شأن الرجل ، وكان أرأس مني فيهم » ، وذَكَرَ الرسولُ لرسول الله ﷺ عنه أنه لما رأوه مائلاً إلى الإسلام حاصُوا عنده حَيْصَةَ الحُمُر يريدون قتله ، ولكنه تألَّفهم بلين من الكلام فتركوه ، لكن يقال أنه أسلم بعد ذلك خفية منهم .

وتكلم رضي الله عنه في قول بعضهم : « علماء السوء قطَّاع الطريق على عباد الله » . *قال* : **« إذا لم يكن طريق إلى الله إلا من جهتهم ، وإن كان هناك علماء عاملون فيكون هم الطريق إلى الله ، دون الآخرين الذين هم علماء انسدَّت الطريق منهم » .**

وذكر حديث : « الفقر على المؤمن أحسن من العِذار الحسن على خدِّ الفرس»، *فقال* : **« ليعرف**

الإنسان أحكام الفقر والغنى من العلماء بالله ، فإن الفقر المحمود ما كان مع الصبر والرضا ولا يغبط الأغنياء ، وأما الذي يتمناها ويده منها خالية ويضجر ويتبرم فهو أخس من الأغنياء ، فليعرف أحكام الفقر والغنى ، والدنيا كلها لهو ولعب ، فخذ من اللهو واللعب ما ينفعك في الآخرة » هـ .

أقول : الإنسان خُلِق في الدنيا تاجراً يسعى فيها لطلب كل ما يربحه ، ويتجنب فيها كل ما يخسره، وصار الإنسان فيها غارقاً في كثرة أمور الخسران ، وقليل ما يربحه . وربحه ما يرضي الله ويفوز به يوم لقاه وينفعه في الآخرة ، وخسرانه ما يغضب الله ويضره في الآخرة . والنفس بجهدها ومجهودها تدعوه إلى ما يضره ويرديه من أهويتها ، والشيطان يدعوه ويقوده إلى المعاصي ، ومحبة الدنيا قد جُبِل عليها ، فسَحَرَته ببهجتها وبهرجها وزخرفها ، وهي لهو ولعب لا طائل تحته ، أشبه شيء بالخرافات ولعب البنات .

فصار في هذه البلايا والرزايا حائراً ، يرى ما ينفعه ويحال بينه وبينه ، ويرى ما يخسره ويضره فيقع فيه قهراً ، يستجره إليه هوى النفس ودعاء إبليس فيتمكن منه، فأمره الله أن يجاهد نفسه في هذه الأمور كلها ، ويَحْمِلها قهراً بجهاده لها على اتباع الأحسن النافع وعلى ترك الأسوء الضار ، فيأخذ بالخُلُق الحسن ويترك السيء، ويأخذ بالطاعة ويترك المعصية ، فهو في ذلك في شدة وعناء وكثرة بلاء ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾، أي شدة مكابدة ومعاناة ، وتعب شديد مما يلاقي من هذه الأمور والأحوال . وقد بيَّن الله له في كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما ينفعه عند الله وفي الدنيا والآخرة، وأمَرَه به وحثَّه على فِعْلِهِ وأكَّد عليه في ذلك ، وبيَّن له جميع ما يضره في الدارين ، وأكَّد عليه في تركه وتجنُّبه ما استطاع ، فإن وفَّقه مع ذلك أعانه على الإمتثال في الفعل والترك، واستخرج له النافع من الضار ، كما استخرج اللبن من بين فرث ودم ، واستجرَّه إلى ما ينفعه ، ودفعه عما يضره ، وقاده إلى أمور الحق ، وجنَّبه أمور الباطل طوعاً وكرهاً ، كما ورد : « كلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له » ، وقال سيدنا: « **الخلق مكلوفون لما خلقوا له** » ، أي مكرهون على فعله ، يجرُّهم إليه بكلاليب القضاء والقدر ، لا محالة لا محيص لهم عنه ، كما قال الإمام الغزالي : « **يجرُّهم بلطفٍ في عنف ، وطوعاً في كره ، وبلينٍ في قهر** » ، أو كما قال .

ويقال : إن علامة السعادة أن يقصد العبد إلى فعل الشر فلا يتمكن منه ، ويحال بينه وبينه ، ويقصد فعل الخير فيتمكن منه ، ويتيسَّر له ويفعله . وعلامة الشقي بعكسه : أن يقصد إلى الخير فلا يمكنه ، ولا يتيسَّر له فلا يفعله ويقصد إلى فعل الشر فيتيسَّر له ويفعله .

فالموفَّق يأخذ الدنيا بلاغاً وزاداً للآخرة ، واستعانة على الطاعة على الوجه الشرعي ، ولا يعرِّج على ما وراء ما يتزود به لآخرته ، والفاجر يتخذ الدنيا متاعاً ، يعني يمتع بها نفسه بتمكينها بها من شهواتها ، ولا ينوي بها الإستعانة على الطاعة، وربما كان حراماً ولا يبالي ، فإذا صلح قلبه وتجرَّد عن

الدنيا بقلبه وبدنه ؛ فهو غاية الكمال ، وهو الفقر الصادق الحقيقي المطلوب ، الذي هو على المؤمن كالعِذار الحسن على خد الفرس ، وإن تعلَّق قلبه وبدنه بمالها فهو الفقر المذموم المستعاذ منه الذي قال فيه : « إن حاله أخس من أحوال الأغنياء الراغبين فيها » . وقولنا : « بها » ، أعني تعلَّق بها وسعى في تحصيلها لنفعها ، بأن قصد بها نفعها الدنيوي الذي في الدنيا خاصة ، دون ما ينفع في الآخرة وعند الله، فإن قصد بها الإستعانة على ما عند الله فذلك لله لا للدنيا .

وقد اختلف كلام الشيخين سيدنا عبدالله ، وسيدنا أحمد بن عمر الهندوان في معنى الفقر المستعاذ منه على الوجهين الآتيين عنهما : فقد حضرت يوماً مجلس السيد الكامل الفاضل أحمد بن عمر الهندوان باعلوي رحمه الله ، فقال لي : « يا الحساوي »، قلت : لبيك . قال : « ما الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ ؟ » ، فقلت كما حفظته من قول سيدنا عبدالله : إنه هو الفقر المقرون بالتضجر والتبرم والتسخط لقضاء الله تعالى ، فقال : « لا ، ماهو هذا ، فاسأل حبيبك » ، يعني سيدي عبدالله ، فقلت: هكذا حفظته من قول حبيبي ، قال : « لا فاسأله عن ذلك » .

وكان ذلك يوم الخميس ، وكنت مرتِّباً زيارته وحضور مجلسه يوم الخميس والجمعة ، فبعد ذلك بثلاثة أيام وهو يوم الأحد ، كنت أماشي سيدنا عبدالله خارجاً إلى السبير ، على عادته من خروجه إليه كل يوم أحد إلا لِعُذر ، فهو يسير مشتغلاً بقراءة وِرْدِه ، ونحن نسايره جماعة خارجين معه ، وهو مشغول عنا بالقراءة ، إذ سكت عن القراءة والتفت إليَّ وقال : « **يا حاج** » ، قلت : لبيك . وما كان يسميني ويدعوني إلا بقول : « يا حاج » ، فقال : « **ما قط سألك السيد أحمد عن مسألة ؟** »، فقلت : بلى، سألني يوم الخميس وقال : ما الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ ؟ ، قال : « **فماذا قلت له ؟** » ، قلت: فقلت له عن قولكم أنه الفقر المقرون بالتضجر والتبرم والتسخط لقضاء الله تعالى ، قال : « **فما قال لك؟** » ، قلت : قال : لا ما هو هذا ، فاسأل حبيبك عن ذلك ، ***فقال رضي الله عنه*** : « **أنت ما تعرف السيد ، ما سألك ليستفيد منك ، إنما سألك ليرى ما عندك من العلم ، فإذا سألك بعدها فلا تُجِبْهُ بشيء وقل : أنا مستفيد . وخله يحكي لك بما عنده ، والذي عندك هو محفوظ** » هـ .

أقول : أي مضموم ، فاعجب لهذه المكاشفة العجيبة من سيدنا نفع الله به ، وما وقعت إلا لأمر ، فعزمتُ بعد ذلك على أنه إن سألني عن شيء أن أقول وأفعل ما أمرني به سيدي . فلما كان الخميس الآخر أتيته على العادة ، فلما استَتَمَّ المجلس سألني عن المسألة بعينها ، ونَسِيَ أنه سأل عنها أولاً أو أنه كُشِفَ له ، وأراد أن أقول له كما أمرني سيدي ليقول فيها ما قال ، فلما سأل قلت: الله يحفظك ، أنا مستفيد . أي طالب فائدة لا مدَّعي علماً ، فقال : « الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ هو خوف الفقر»، فحفظت ما قال وسكتُّ ، فلما كان يوم الأحد وسِرْنا مع سيدنا إلى السبير ، أخبرته في الطريق بأن السيد

سأل أيضاً عن المسألة كما سأل عنها أولاً ، وأني قلت له : أنا مستفيد ، كما أمرتني، فقال : « **ماذا قال؟** » ، قلت : قال في معنى ذلك : أنه خوف الفقر ، فقال: « **هكذا** » ، أي كن هكذا ، أو قُلْ ذلك له إذا سألك وخذ جوابه وافهمه .

ومعنى سيدنا : مدح فقر اليد إذا صحبه غنى القلب ، فَسَلِمَ فيه من الأوصاف المذكورة وما دَعَت إليه ، ولا يكون ذلك إلا مع غنى القلب ، والزهد الصادق . وتفضيله إذا كان كذلك على الغني بالمال، ولو كان زاهداً صادقاً ، فإن خلي عن الزهد وصحبه فقر القلب ، بأن كان كما قال : « **يتمناها ويده خالية منها** » ، كان حينئذ أخس من الأغنياء ، وكان فقره هو الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ . ومعنى السيد أحمد : تفضيل غنى القلب على غنى اليد ، وذم فقره مطلقاً من غير نظر إلى غنى اليد وفقرها ، فمهما خاف الفقر ولو كان غنيًا فهو فقير القلب ، وهو المستعاذ منه ، فإذا استغنى القلب ففقر اليد لا يضر ، وفقرها وغناها سواء ، وإذا افتقر القلب فلا ينفع معه غنى اليد .

وفي تسمية سيدنا لي بالحاج ، سمعته يوماً يتكلم من جانبي مع ابنه الفاضل الحبيب حسين ويقول له : « **إنما سميناه بالحاج رجاء أن يحجَّ بعد ذلك** » ، وقد حقَّق الله رجاه بحمد الله ، وأرجو كما حقَّق رجاه في ذلك أن يحقِّق رجاه في غيره من كل ما رجاه لمُحِبِّه وخادِمِه وفقيره في الدنيا والآخرة ، فقد سمعته ذَكَرَ الرجاء لي في أشياء كثيرة مما يتعلق بأمور في الدنيا ، وأشياء في الآخرة ، وأعتقد أن الله لا يخيب رجاه في كل ما رجاه . فقال له ابنه الحبيب حسين : « نود أن نسمِّيه : فقيه » ، فقال رضي الله عنه: « **الفقهاء اليوم غالبهم أحوالهم غير سديدة ، فلا نحب أن يكون على وصفهم ، إلا أن نقول : فقيه صالح ، فنصفه مع ذلك بالصلاح** » ، نفع الله به ، وهذا من جملة مزاحه في الأوقات البسيطة .

ومرة دعاني إلى عنده في الغيلة ، لأصحح عليه بعضِ القصائد من توالي الديوان، فصعدت إليه وكان عنده السيد حسين ، فقال له : « **قم اجلس هنا، وخلِّ الحاج يجلس هنا** » ، ثم قال رضي الله عنه: « **أحب إلينا أن نقول له : يا حاج ، ولا نقول له: يا فقيه ، لأن فقهاء الزمان ما عاد فيهم خير ، وأيضاً ليس الفقيه إلا كما قال الحسن البصري : و هل رأت عيناك فقيهاً قط ، إنما الفقيه** .. - وذكر رأي الحسن إلى آخره- **ثم إنهم اليوم تَعَدّوا بفقههم ، وتجروا به على محرمات وأمور منكرات ، وحِيَل في أمور باطلات**»، وأكثر في ذمهم ، ولو أطلق القول ، فالمراد والعبرة بالأكثر ، ومراده أن النبي ﷺ كان يحب التفاؤل ، ومن كان يكثر من أمر فَذُكِر تفوَّل منه بما كان يُكثِر منه ، كما قال سيدنا علي : « من أكثر من شيء عُرِفَ به ». وربما وافق القدر فكان له مثل ما للأول ، فَكَرِهَ التسمية بفقيه ، لما كان شأن الكثير من الفقهاء بتلك الأوصاف المذكورة هـ .

قال رضي الله عنه : « ما يصلح الجلوس للعبادة إلا للمتجرِّد المرتاض القوي ، إذا لم يكن له غداء لم يتعب ، بل يقول : إذا ما وقع الغداء يقع العشاء ، وإذا لم يقع يقع وقتاً آخر ، وهو متفرغ للذِّكر والعبادة، لا يشغله همُّ الرزق عن ذلك . وأما الضعيف عن هذا فيكون في أغلب أوقاته في العبادة ، وفي بعضها في طلب الرزق المُعِين له عليها » .

وتكلم في حديث : « الزهادة في الدنيا تريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن»، فقال : « أي يستريح قلبه عن همِّها ومحبتها ، والفكر في جَمْعِها وحفظها ، وبدنه عن طلبها والسعي لها ، وزُهد القلب أفضل من زُهد الظاهر . وأما مع الرغبة فإذا زَهِد في ظاهره وهو راغب يكون فتنة وبلاء على نفسه وعلى غيره ، فيغتر به . وأما إذا زهد في الدنيا أولاً، ثم أَقْبَلَتْ عليه وكثرت ، فلم تشغله وفَرَّقَها فهو الزهد الكامل وهو زهد النبي ﷺ ، وزهد الصحابة رضي الله عنهم » .

قال رضي الله عنه : « رأيت أفعال أهل الزمان كلها هوى ، وكل ما لا يصحبهم فيه هوى لايعبأون به ، ولا يعدونه شيئاً » .

وقال لرجل : « استقوِ على الشيطان ولا يغلبنَّك ، فإن الله سماه ضعيفاً ، وما سماه بذلك إلا ليستقوي عليه المؤمن ويقهره ، ولا ينجذب له » .

قال رضي الله عنه : « صاحب سِرِّ الولاية ما يتظاهر بالكرامات ، وأما أهل علم الحرف ولو كانوا أهل سِر ، يتظاهرون بها بالتصرف بالحرف » .

وأوصى رجلاً فقال له : « الله الله في دينك ، احتفظ على دينك ، حتى إذا كنت على أي حال تكون محمود الحال » .

قال : « نحن اليوم في أطراف أيام الدجال ، وفي أيامه ما يكون غداء الإنسان إلا الذِّكر ، يترَفَّعُون في رؤوس الجبال خوفاً من الدجَّال ، وغذاهم الذِّكْر » هـ .

أقول : الذين يترفَّعون عنه ويفِرُّون منه وغذاهم الذِّكْر ، هم خواص من المؤمنين يعصمهم الله من فتنته وبلائه ، وأما عموم الناس ضعاف الإيمان ، فهم يتهافتون معه والعياذ بالله ، فإن من أشد فتنته أن من لم يتبعه يطير ماله منه إليه ، وأيُّ قلبٍ للعامة يحتمل التَّثَبُّت من اتباعه ، ومع هذه الفتنة ، فدلَّ ذلك على أن ما المحفوظ منه إلا الزاهدون العارفون الكُمَّل هـ .

وذَكَرَ بلدان حضرموت ، *فقال* : « **ما عاد شبام بشبام ، ولا الغرفة بالغرفة ، ولا تريس ومدودة بتريس ومدودة ، راحت الأرواح وبقيت الأشباح ، كانت كلها حية فرجعت اليوم كلها ميتة ، وما يهمهم اليوم إلا تحسين الثياب ، فلما ذهبت الأرواح رجعوا إلى تحسين الأشباح ، فانعطفوا إلى هذه ، فرجعوا من تحسين السرائر إلى تحسين الظواهر** » هـ .

أقول : يعني بالأرواح : الرجال الكُمَّل الذين تغلب عليهم داعية الروح من المعرفة بالله واتباع أحكامه والتلذذ بالعبادة والرغبة فيما عند الله ، وهم الأولياء العارفون ، وكانوا في هذه البلدان المذكورة متكاثرين معروفين ، وهم الرجال الذين تُنسَب إليهم القبائل والبلدان ، فإذا خَلِيَتْ منهم كانت كالعدم، ولهذا ذَكَرَها بـ : « ما » النافية ، فوصَفَهَا بالعَدَم لمَّا عُدِموا منها ، وكانت موجودة بوجودهم وحية بحياتهم فيها ، فلذلك قيل :

تَحْيَا بِهِمْ كُلُّ أَرضٍ يَنْزِلُونَ بِها   كَأَنَّهُـم لِبِقَـاعِ الأَرْضِ أَمْطَـارُ

فتحيا بهم كحياة الجسم بالروح ، فلما عُدِموا منها عدمت وماتت ، كما يعدم الجسم ويموت بفراق الروح له . ومراده بالأشباح : الأجسام الذين تغلب عليهم داعية الجسم من الشهوة والغضب ، فإذا تجرَّدت عن الأولى خرب ، فهي خرابةُ والأولى عمارةُ . فلما تجرَّدوا في هذه البلدان عن الأولين كانت بهم خراباً ، فلا حُكْمٌ يُتَبَع ولا حَدٌّ يُقام ، فهذا هو الخراب ، وإنما همهم تحسين صورهم وثيابهم كما هو شأن النساء وبه اهتمامهن . فأي صلاح في هذه الأحوال ، وأي طلاح في أحوال أولئك الرجال ، فلما عُدِمَت تلك الدواعي الطيبة رجعوا إلى اتِّباع هذه الدواعي الخبيثة هـ .

قال رضي الله عنه : « **لا تحرِّك أهل الزمان ، فإن حَرَّكتَهم ظهر من أمورهم الباطنة أشد من أمورهم الظاهرة التي أنت مشمئزٌّ منها ، وأهل الحق إذا فسد الزمان يتعيَّن عليهم أن يتشبَّهوا بأسلافهم ، قال النبي ﷺ : لِيَلِيَنِي منكم أولوا الأحلام والنهى . وكذلك السلطان والتاجر ينبغي لكلٍّ أن يتشبه بسلفه، فإذا لم يقدروا على كمال الإقتداء بهم والفِعل بمثل فِعلهم ، فليقاربوهم في ذلك ، لأن كل عاملٍ من مُحتَرِفٍ أو عابدٍ له إمامٌ يقتدي به ، ومن لا له إمام فإمامه الشيطان ، فكل من يقتدي بأحد يقال له إمامه، حتى إن المتبوعين من الكفار سُمُّوا أئمة ، قال الله تعالى : ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَيِـمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾** » هـ .

أقول : يعني يقتدى بهم في أفعالهم وسِيَرهم المحمودة شرعاً ديناً ومروءة ، ويؤسسوا أمورهم وسِيَرهم عليها لا على السيئة في الشرع والمروءة ، فمن لا له سيرة في الخير وإمام فيها يقتدي به ، فبالضرورة الجذب إلى ضدها ، وهو دعوة الشيطان التي يدعو إليها ، فكأن الشيطان إمامُ سالِكها ،

كما قال سيدنا علي في خُطبته : « ألا إن لكل مقتد إماماً يقتدي بآثاره ويستضيء بأنواره ، ومن لا له إمام في الخير كان إمامه الشيطان في الشر ، ألا إن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمْرَيْه ، ومن مطعومه بقُرصَيْه»، ويعني بقوله : « إمامكم » ، يعني نفسه ، ومراده يقول : فاتبعوني في ذلك قناعة وزهادة ، لتكونوا مقتدين في الصواب بإمام قدوة لكم إلى الحق ، وإلا صِرْتم مقتدين بالشيطان ، وصار قدوة لكم إلى الباطل مقتدين به إليه، فمن لا له سيرة حسنة في الشرع والمروءة ، ولا كان في سيره مقتدياً بالنبي ﷺ ، وبأهل الديانة والفتوة ؛ كان سيرته الباطل وقدوته الشيطان وإمامه في ذلك ، فإذا بطلت السياسة بطلت الرئاسة .

وقد كانت هذه الأمور الجميلة من اتباع الشرع والمروءة تهم الأخيار في أوقات الخير ، ويحبون الإقتداء فيها بأسلافهم ، وأما اليوم فلا تهمهم ولا يتشبهوا فيها بآبائهم الصالحين ، رغبة في الإقتداء بجميل أفعالهم ، بل للتجمل بين الناس بانتسابهم إليهم . كما ترى من أراد أن يرفع نفسه بدعوى السيادة ولو كذباً وزوراً وضع على رأسه خرقة خضراء ليراه الناس كذلك ويظنوا به ما ادعاه ، والله حسيبه إن كذب ، وينتسبوا إليهم أيضاً لأجل أخذ أموالهم والترفُّع بهم ، ثم هم ينكصون عن جميل أحوالهم وأفعالهم ، فلهذا سَمَّى من تجردت فيه دواعي الرَّدى ، وتخلَّفت عنه دواعي الهدى : ميتاً . وصَحَّ وصدَقَ قول سيدنا علي كرم الله وجهه : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » هـ .

قال رضي الله عنه : « **رأيت جدَّنا الشيخ أحمد الحبشي صاحب الشعب في النوم ، وسألني فقال : ما تقول ، مَنِ الرجل الحي ؟ فقلت : الحي من حيي قلبه . فاستحسن الجواب ، ثم إنه أخرج قُبْعَيْن ، أحدهما صغير فألبسنيه ، وجاء في خاطري أنها خرقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، لأن أهل الجهة كانوا يلبسونها . ثم أخرج قُبْعاً آخر كبيراً على المعهود ، من أقباع آل باعلوي ، فألبسنيه فوق الأول** » ، ثم قال سيدنا : « **وكم مرائي تقع ، والعبرة على الخواتيم** » هـ .

أقول : ولما ذَكَرَ هذه الكلمة ، وهي قوله : « **والعبرة بالخواتيم** » ، جرى في خاطري أن أذكر هذا الذي سأذكره الآن : وقد مَرَّ في الدرس في حضرته في قراءة من كان يقرأ عليه في « المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » للإمام الغزالي ، في شرح اسمه تعالى « الحَكَم » ، وقد أسهب فيه الكلام وذَكَرَ صِدق الباعث ممثلاً به لفهم المعنى الذي أراد بيانه ، فقال : « الحَكَم : هو الحاكم المحكم ، والقاضي المبرم الذي لا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّب لحكمه ، ومن حِكْمَتِهِ في العباد ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ .

ومعنى حُكمه على البرِّ والفاجر بالسعادة والشقاوة ، أنه جعل البرِّ والفجور أسباباً تسوق صاحبها

إلى السعادة والشقاوة ، كما جعل الأدوية والسموم أسباباً تسوق متناولها إلى الشِّفاء والهلاك ، فإذا كان معنى الحكمة ترتيب الأسباب وتوجيهها إلى المسببات ، كان المتصف بها على الإطلاق حَكَماً مطلقاً ، لأنه مسبِّب كل الأسباب جملتها وتفصيلها .

ومن الحكم يتشعب القضاء والقدر ، فتدبيره أصل وضع الأسباب ليتوَجَّه إلى المسببات هو حكمه، وإيجاده الأسباب الكلية الأصلية الثابتة المستقرة التي لا تحول ولا تزول إلى وقت معلوم ، كالأرض والسماوات السبع ، والكواكب وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغير ولا تنعدم إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ووَضْعِهِ إياها ونَصْبِهِ لها هو قضاؤه ، كما قال عز وجل : ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾، وتوجيهه هذه الأسباب بحركاتها المتناسبة المحدودة المقدورة المنسوبة إلى المسببات الحادثة ، منها لحظة بعد لحظة هو قَدَره ، فالحكم : هو التدبير الأول الكلي ، والأمر الأزلي الذي هو كَلَمْحِ البصر ، والقضاء : هو الوضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة ، والقدر: هو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدرة المنسوبة إلى مسبباتها المقدورة ، المحدودة بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص ، ولذلك لا يخرج شيء عن قضائه وقدره .

ولا يفهم ذلك إلا بمثال : ولعلك شاهدتَ صندوق الساعات التي يُعرَف بها أوقات الصلوات، وإن لم تشاهِدْهُ فجملة ذلك أنه لا بد فيه من آلة مخصوصة، على شكل اسطوانة تحوي مقداراً من الماء معلوماً ، وآلة أخرى مجوَّفة موضوعة فيها فوق الماء ، وخيط مشدود وأحد طرفيه في هذه الآلة المجوَّفة، وطرفه الآخر في أسفل طَرَفٍ صغير موصول فوق الإسطوانة المجوَّفة ، وفيه كُرَة وتحته طاس آخر ، بحيث لو سَقَطَت الكُرَة وَقَعَت في الطاس وسُمِعَ طَنِينُها ، ثم يثقب أسفل الآلة الإسطوانية ثقباً بقدر معلوم ، ينزل الماء منه قليلاً قليلاً ، بقدر معلوم في زمن معلوم ، فإذا انخفض الماء انخفضت الآلة المجوَّفة الموضوعة على وجه الماء ، فامتدَّ الخيط المشدود بها ، فحَرَّكَ الطرف الذي فيه الكُرَة تحريكاً يُقَرِّبه من الإنتكاس إلى أن ينتكس ، فتتدحرج منه الكُرَة وتقع في الطاس ويطن ، وعند انقضاء كل ساعة تقع واحدة .

وإنما يتقدَّم الفصل بين الوَقْعَتَيْنِ بتقدير خروج الماء وانخفاضه ، وذلك بتقدير سعة الثقب الذي يخرج من الماء ، ويعرف ذلك بطريق الحساب ، فيكون نزول الماء بمقدار معلوم ، بحسب تقدير الثقب بقدر معلوم ، ويكون انخفاض أعلى الماء بذلك المقدار ، وبه يتقدر انخفاض الآلة المجوَّفة وانجرار الخيط بها ، وتولد الحركة في الطرف الذي فيه الكرة ، وكل ذلك بتقديرٍ مُقَدَّرٍ بسببه لا يزيد ولا ينقص .

ويمكن أن يجعل وقوع الكرة في الطاس سبباً لحركةٍ أخرى ، وتكون الحركة الأخرى سبباً لحركةٍ ثالثة ، وهكذا إلى درجات كثيرة ، حتى يتولَّد منها حركات عجيبة مقَدَّرة بمقادير محدودة ، وسببها

الأول نزول الماء بقدر معلوم .

فإذا تصوَّرتَ هذه الصورة ، فاعلم أن واضعها يحتاج إلى ثلاثة أمور : أولها : التدبير ، وهو الحكم بالذي ينبغي أن يكون من الآلات والأسباب والحركات ، حتى يؤدي ذلك إلى حصول ما ينبغي أن يحصل ، وذلك هو الحكم . والثاني : اتحاد هذه الآلات التي هي الأصول ، وهي الآلة الإسطوانية لتحوي الماء ، والآلة المجوَّفة لتوضع على وجه الماء ، والخيط المشدود بها ، والطرف الذي فيه الكرة ، والطاس الذي تقع فيه الكرة، وذلك هو القضاء . والثالث : نَصْبُ سببٍ يوجِب توجه حركة مقدَّرة محسوبة محدودة ، وهو ثقب أسفل الإناء ثقباً مقدار السعة ، ليُحدث نزول الماء منه حركة في الماء ، تؤدي إلى حركة وجه الماء بنزوله ، ثم إلى حركة الآلة المجوَّفة الموضوعة على وجه الماء ، ثم إلى حركة الخيط ، ثم إلى حركة الطرف الذي فيه الكرة، ثم إلى حركة الكرة ، ثم إلى الصدمة بالطاس إذا وَقَعَتْ فيه ، ثم إلى الطنين الحاصل منها ، ثم إلى تنبيه الحاضرين بأسماعهم إلى حركاتهم ، ثم إلى الإشتغال بالصلوات والأعمال ، عند معرفتهم بانقضاء الساعة ، وكل ذلك يكون بقَدْرٍ معلوم ومِقْدَارٍ مُقَدَّر ، وبسبب تقدر ذلك كله تقدر الحركة الأولى ، وهي حركة الماء .

وإذا فهمتَ أن هذه الآلات أصول لا بد منها للحركة ، وأن الحركة لا بد من تقدرها ليتقدر ما يتولد منها ، فكذلك فافهم أصول الحوادث المقدرة التي لا يتقدَّم منها شيء على شيء ، ولايتأخر إذا جاء أجلها - أي إذا حضر سببها - وكل ذلك بمقدار معلوم ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝﴾، فالسماوات والأفلاك والكواكب والأرض والبحار والهواء ، وهذه الأجسام العظام في العالم كتلك الآلات ، والسبب المحرك للأفلاك والكواكب والشمس والقمر بحسبان معلوم ، كتلك الثقبة الموجِبة نزول الماء بقدر معلوم ، وإفضاء حركة الشمس والقمر والكواكب إلى حصول الحوادث في الأرض، كإفضاء حركة الماء إلى حصول تلك الحركات المفضية إلى سقوط الكُرَة المعرِّفة انقضاء الساعات .

ومثال تداعي حركات السماء إلى تغيرات الأرض عنها ، هو أن الشمس بحركتها إذا بلغت إلى المشرق واستضاء العالم ، وانتشر على الناس الإبصار ، فتيسَّر عليهم الإنتشار في الأشغال ، فإذا بلغت المغرب تعذَّر عليهم ذلك ، فرجعوا إلى المساكن ، فإذا بلغت قريباً من وسط السماء وسامَتَتْ رؤوس أهل الأقاليم ، حَمِيَ الهواء واشتدَّ القَيْظ وحصل نضج الفواكه ، وإذا بَعُدَت حصل الشتاء واشتدَّ البرد وإذا توسطت حصل الإعتدال فظهر الربيع وأنبتت الأرض وظهرت الخضرة .

وقِس بهذه الأمور المشهورات التي تعرفها على الأمور الغرائب التي لا تعرفها ، واختلاف هذه الفصول كلها مقدَّرة بقدر معلوم ، لأنها منوطة بحركات الشمس والقمر ، قال الله تعالى : ﴿ٱلشَّمۡسُ

﴿وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٖ ۝﴾، أي حركاتهما بحسابٍ معلومٍ ، فهذا هو القدر والمقدار والتقدير .

ووضع الأسباب الكلية هو القضاء والتدبير الأول الذي هو كلمح البصر ، هو الحكم ، والله تعالى هو الحكم العدل ، باعتبار هذه الأمور .

وكما أن حركة الآلة والخيط والكرة ليست خارجة عن مشيئة واضع الآلة ، بل ذلك هو الذي أراده بوضع الآلة ، فكذلك كل ما يحدث في العالم من الحوادث شرها وخيرها ، نفعها وضرها غير خارج عن مشيئة الله تعالى ، بل ذلك مراد الله تعالى ، ولذلك دَبَّرَ أسبابه ، وهو المعني بقوله تعالى : ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾، وتَفَهُّم الأمور الإلهية بالأمور العرفية عَسِر ، ولكن المقصود من الأمثلة التنبيه فَدَعْ عنك الأمثال وتَنَبَّه للغرض ، واحذر من التشبيه والتمثيل .

تنبيه : قد فهمت من المثال المذكور ما إلى العبد من الحكم والتدبير والقضاء والتقدير وذلك أمرٌ يسير ، وإنما الخطر منه ما إليه في تدبير الرياضات والمجاهدات وتقدير السياسات التي تفضي إلى مصالح الدين والدنيا ، ولذلك استخلف الله تعالى عباده في الأرض واستعمرهم فيها ، لينظر كيف يعملون .

وإنما الحظ الديني من مشاهدة هذا الوصف لله تعالى ، أنه تعلم أن الأمر مفروغ منه ، وليس بالأُنف وقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأن الأسباب قد توجَّهَتْ إلى مسبِّباتها وانسياقها إليها في أحيانها وآجالها حَتْمٌ واجب ، وكل ما يدخل في الوجود فإنما يدخل بالوجوب ، فهو واجب أن يوجد وإن لم يكن واجباً لذاته ، ولكن هو واجب بالقضاء الأزلي الذي لا مَرَدَّ له ، فتعلم أن المقدور كائن، وأن الهمَّ فضل ، فيكون العبد في رزقه مجمِلاً في الطلب ، مطمئن النفس ساكن الجأش غير مضطرب القلب .

فإن قلت : فيلزم منه سؤالان إشكالان ، أحدهما : أن الهمَّ كيف يكون فضلاً وهو أيضاً مقدر ، لأنه قد قدر له سبب ، إذا جرى سببه كان حصول الهمِّ واجباً . والثاني : أن الأمر إذا كان مفروغاً منه ففيم العمل ، وقد فرغ من أسباب السعادة والشقاوة .

فالجواب عن الأول : أن قولهم أن المقدور كائن والهمَّ فضل ، ليس معناه أنه فضل عن المقدور – أي خارج عنه – بل معناه أنه فضل ، أي لغو لا فائدة فيه ، فإنه لا يدفع المقدور ، ولأن سبب الغم مما يتوقع كونه هو الجهل المحض ، لأن ذلك إن قُدِّرَ كونه فالحذر والغم لا يدفعه ، فهو استعجال نوع من الألم خوفاً من وقوع الألم ، وإن لم يقدر كونه فلا معنى للغم به ، فبهذين الوجهين كان الهمُّ فضلاً. وأما العمل فجوابه قوله ﷺ : « اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خُلِقَ له » ، ومعناه أن من قُدِّرَت له السعادة

قُدِّرَتْ بِسَبب فتيسَّر له أسبابها وهي الطاعة ومن قدرت له الشقاوة قُدِّرت له بسبب وهو بطالته عن مباشرة أسباب السعادة وقد يكون سبب بطالته أن يستقر في خاطره ، أني إن كنت سعيداً فلا أحتاج إلى العمل، وإن كنت شقيًّا فلا ينفعني العمل ، وهذا جهل ، فإنه لا يدري أنه إن كان سعيداً فإنما يكون سعيداً ، لأنه تجري عليه أسباب السعادة من العلم والعمل ، وإن لم يتيسَّر له ذلك ، ولم يَجْرِ عليه فهو أمارة شقاوته .

ومثاله : الذي يتمنى أن يكون فقيهاً بالغاً درجة الإمامة ، فيقال له : اجتهد وتعلم وواظب ، فيقول: إن قضى الله لي في الأزل بالإمامة فلا أحتاج إلى الجهل ، وإن قضى بالجهل فلا ينفعني الجهد، فيقال له : إن سلَّطَ عليك هذا الخاطر فهذا يدل على أنه قضى عليك بالجهل . فإنه من قُضِيَ له في الأزل بالإمامة فإنما يقضيها بأسبابها في الأزل أيضاً ، فيجري عليه الأسباب ويستعمله بها ، ويَدْفَع عنه الخواطر التي تدعوه إلى الكسل والبطالة بل الذي لايجتهد لا ينال درجة الإمامة قطعاً ، والذي يجتهد ويتيسَّر له أسباب الإمامة يصدق رجاؤه في بلوغها إن استقام على الإجتهاد إلى آخر أمره ، ولم يستقبله عائق يقطع عليه الطريق ، فهكذا ينبغي أن يفهم أن السعادة لا ينالها إلا من أتى الله بقلب سليم ، وسلامة القلب صفة تُكْتَسَب بالسعي كصفة النفس ، وكصفة الإمامة من غير فرق .

نعم ، العباد في مشاهدة الحكم على درجات ، فمن ناظرٍ إلى الخاتمة أنه بماذا يختم له ، ومن ناظرٍ إلى السابقة أنه بماذا قضى له في الأزل وهو أجلّ وأعلى ، لأن الخاتمة تبع للسابقة ، ومن تارك للماضي والمستقبل هو ابن وقته ناظر إليه ، راضٍ بمواقع قَدَرِ الله تعالى ، ومايظهر منه مع كل زمان ، وهو أعلى وأجل مما قبله ، ومن تاركٍ للماضي والحال والمستقبل ، مستغرق القلب بالحكم ملازم للشهود ، وهذه هي الدرجة العلياء » ، انتهى ما ذَكَرَهُ الإمام الغزالي بحروفه في شرح اسمه تعالى « الحكم » ، أحببتُ ذِكْرَ ذلك لما تعلق به من معنى تلك الكلمة المتقدم ذِكْرها التي قالها سيدنا وما انطوت عليه من المعاني .

ولما سَمِعَ قولَهُ : « وإن لم يقدر كونه فلا معنى للغمِّ به » ، *قال* : « **وهذا في الحديث : من آمن بالقضاء والقدر ذهب همُّه ، أي ذهاباً ما** » ، *وقال* : « **إنما معنى ضَرْب الأمثال لإيصال المعاني إلى قلوب العامة ، إذ لولاها لما عرفوا تلك المعاني** » .

ولما تَمَّ كلام الإمام وتأمَّله ، *فقال* : « **هذا كلام مُقنِع ، لأن العلم والعمل كائن والمكون منهما كذلك، وقد احتجَّ الكفار بالقضاء والقدر ، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، فقال الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾، وإلا ما كذَّبهم بذلك** » ، انتهى كلام سيدنا .

أقول : إن سيدنا يعني أن الله سبحانه طلب من الكفار أن يبيِّنوا عِلْم ذلك ، فإنه لا يتبيَّن علمه إلا على لسان من يؤمن بالله وبقضاء الله وقدره ، أي آمِنوا بالله وبكل ما أخبر به ثم قولوا ذلك ، وإلا

فلا حُجَّة لكم بذلك ، كمن يقول ما لا يعمل، فلا يُقبَل منه مجرَّد القول ، فمرادهم يحتجُّون لأنفسهم فانقلبت الحجة عليهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ أي تكذبون، كما قال تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ أي الكذَّابون ، بمعنى أن قولكم يكذِّب فِعْلكم ، فيكذبون كما هو شأن من يتكلم في الخرص أي الظن ، وفي الحديث : « الظن أكذب الحديث » - انتهى الحديث ، أي أكذب كلام يتكلم به الإنسان ما يتكلم به بالظن ، فافهم . إذ لا عِلْمَ لكم بذلك وتقولون ما لا تعلمون ، وإلا فالمؤمن إذا قال ذلك فهو صادق ، والأمر كذلك قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾، فالمشيئة سبقت لكل أحدٍ بما شاء الله . وفي هذا دليلٌ على أن المبطل إذا احتجَّ بحُجَّةٍ صحيحة رَجعَت الحُجَّة عليه وصار مخصوماً لا خاصماً ، فلو صدق لاتبع حُجَّته وصار خاصماً ، فإذا لم يتبعها فما له من حُجَّة . كالذي يأمر بخيرٍ ويتركه ، وينهى عن شرٍّ فيفعله ، فيقال له : قل لنفسك لا حُجَّة لك علينا .

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

ولو شهد بما قال وهو مخالف له لا تُقْبَل له شهادة ، فأما إذا قال وأمر و عمل بما أمر به وترك ما نهى عنه فحُجَّته قائمة على خصمه بالغة في أمره ، كما قال تعالى في الرد عليهم : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ أي على خلقه إذا خالفوا أمره ، ولو أقروا بخلافهم ، بل الحجة في ذلك عليهم أبلغ ، ثم عقَّبَ ردَّه عليهم بتقرير إثبات الحق والصواب فقال : ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وقول الإمام الغزالي : « وَتَفَهُّم الأمور الإلهية بالأمثلة العرفية عسر » . أي صعب ، وذلك أن تلك الأمور الإلهية الشريفة العالية الجليلة الغيبية مختص علم حقيقتها بالله ، ومن أطْلَعَهُ الله على شيءٍ منها من خواصه من ملائكة وأنبياء على كثير منها فعلى وجهٍ يليق بكل من أَطْلَعَهُ ، أو من الأولياء فعلى قليلٍ مما أطلع عليه الأنبياء على وجهٍ يليق أيضاً . كما أطلع من صفة كلامه التي لايدركها الخلق النبيَّ ﷺ وأمته على هذا الوجه الذي هو القرآن ، وهو سبحانه يعلم منها ما لا يعلمه الخلق . وكذلك سائر صفاته سبحانه وتعالى ، لا يحيط بعلمها كما هي على ما هي عليه إلا الله سبحانه .

ومن أصل طبيعة خلقة الآدمي أنه لا يدرك ولا يطَّلع إلا على ما هو من جنسه من الحادثات ، ولا يختلج في ضميره إلا ما هو حادث مثله ، وجاءنا الأمر من عند الله بالإيمان به وبصفاته العليا ، وبكل ما أخبر به وأراد أن يفهمنا من معاني صفاته ما يليق بنا في معاملته واتباع أوامره ، كما فهمنا كلامه القرآن، فضرب لنا الأمثال من عالمنا لتفهيمنا ، فقال تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾، وغير ذلك .

وأذِنَ لنا في ضَرْبِها لتفهيم غيرنا ، كما تقدم من قول سيدنا فيها : « **فنضربها لتفهيم المعنى مع التنزيه عن التشبيه والتمثيل** » ، أي لا نعتقد تشبيهاً ولا مماثلة لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، أي أثبتوا هاتين من صفات الله ولا تشبهوهما بما يسمى فيكم بإسمهما ، فإنه سبحانه لا يُشبِه شيئاً ولا يُشبِهُهُ شيء ، وكذلك كونوا في باقي الصفات من الحياة والقدرة والعلم والإرادة ، وهو سبحانه أعلم بصفاته ، فإذا اختصَّ أحداً من خَلْقه وأراد أن يطلعه على شيء منها، أطلع منها ما شاء على من شاء كيف شاء ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ وإذا أراد أن يبين منها ما شاء بمثال مما يدركون بيَّنه كما شاء ، مثال ذلك أنه تعالى دبَّر بإرادته وقدرته على مقتضى علمه في خلقه بحكمته، وقضى بإيجاد الموجودات، ثم أمر حين أمر القلم يكتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن، كما قال تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾، ثم أَجَّل كلَّ مَقْضي - أي محكوم بإيجاده - إلى أجل لا يتقدمه ولا يتأخره ، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾، وغير ذلك من الآيات في هذا المعنى ، وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾، فأجَّل موت كل من مات في وقته الذي مات فيه قبل خلق جميع المخلوقات ، آدم وما قبله وما بعده بألوف سنين كثيرة .

فهذه من أمور الله الغيبية التي لا تدركها العقول ، فيطلب منا معرفتها والإيمان بها ، ولا نقدر على معرفة حقيقة ذلك إلا بمثال من عالمنا ندركه ونعرفه نفهم به ذلك ، والمثال له من ذلك، ولله المثل الأعلى : إنك إذا كان لك دَيْن من مال مؤجل إلى أجَلٍ لا يحل لك طلبه قبل حلول أجله ، فإذا حَلَّ الأجل حَلَّ لك الطلب ، ولا يجوز للذي هو عليه أن يمتنع من الأداء وهو يمكنه ، وسُمِّيَ بمطله ظالماً، فإن امتنع مع ذلك رسم عليه ، أي جعل عليه من قبل الحاكم من يتخرجه، يسمى في لغتنا حوالة ، وحوالة الآجال المؤجلة ملك الموت ، فقبل حلول الأجل ملزم عليه من الله أن لا يتعرض لأحد ، وإذا حَلَّ الأجل لزم عليه عن أمر الله أن لا يؤخره عن أجله لحظة، وهو معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾، أي كتبه وأَجَّله إلى وقته هذا الذي وقع فيه ، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

فافهم ذلك المعنى الغيبي بهذا المثال الحسي ، كما هو مفصل في تأجيله وإثباته في آية المداينة ، فافهم الموازنة منها لذلك المعنى اهتماماً بهذا الحكم الشريف الشرعي، فكانت أطول آية في القرآن لثلاث معان : الأول : الإعتناء باستيفاء الحقوق عند حلولها على الوجه المشروع ، وعدم تفويتها طلباً لبراءة الذمة من أموال الناس ، للسلامة من الظلم الذي لا يتركه الله .

الثاني : اهتماماً بصِدْق الوعد عند حلول الأجل للسلامة من الكذب الملعون صاحبه ، والسلامة من خصال النفاق التي مَن كانت فيه واحدة منها كان فيه خصلة من النفاق ، ومن كانت فيه كلها فهو منافق خالص ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن ، وهي : من إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر . وكل ذلك موجود في التأخر عن الوفاء عند محل الأجل .

الثالث : تحقيقاً لكمال التقوى التي ترفع العبد عند الله ، وبها يفوز بخير الدنيا والآخرة ، ويَسْلَم من شر الدارين ، وهي وصية الله للأولين والآخرين من عباده كما قال تعالى :﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾، وذلك إذا قام بأداء ما عليه عند حلول أجله في الحال بلا مطل وأوعاد مخلفة ، وتشويش خواطر ، كما هو الغالب من أحوال الناس اليوم ، إلا القليل ، وقليل ما هم . ثم ختم الآية بأن القيام بذلك هو الأقسط عند الله ، وأن خلافه فُسُوق ، ثم أمر بالتقوى بأن تفعلوا ذلك ولا تخالفوه ، وإن ذلك عِلْمٌ من عند الله علَّمكموه ولم يكن لكم به علم قبل ذلك ، فإن عملتم بذلك علَّمكم من علوم الحقائق ما لم يكن لكم به عِلم من العلوم اللدنية الشريفة عند الله ، مما لم يخطر لأحد على بال .

فهذا المثال هو في الفعل الحسي الذي على أيدي الخلق الذي يعرفونه ، ومثَّلنا به لفهم ذلك المعنى الغيبي الإلهي ، فما بالك به في تنزيهه سبحانه عن خلف الوعد وتعدي الأجل المؤجل به عند انقضاء الأجل ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾، فكأنك إذا كرهت موت عزيز عندك عند محل أجله، أحببت أن وعد الله يتخلف عن وعده ، وأي أمر أفظع وأقبح من أمر أتيته ، فَتُب واستغفِر مما جنيْتَه، ولعل الله يتوب عليك . ألا ترى حتى أن الأنبياء الثلاثة عليهم الصلاة والسلام - كما سيأتي- استنكروا من أمر أَبْهَرَهُم وسألوا الله سبحانه وتعالى عنه ، فما أجابهم عنه بشيء إلا أن قال لهم : « لا أُسأل عما أفعل » ، لأجل ما حق من كلمته وتصديقاً للوفاء بوعده وإتماماً لحكمته ، فما بال طبعك اللئيم في عدم الرضا والتسليم .

واعلم أن القضاء على نوعين : محتوم : لا بُدَّ من وقوعه ، وسببه لوقوعه محتوم مثله لا بُدَّ منه ، ليقع به ما لا بُدَّ منه ، ومعلَّق : وسببه لرده محتوم لئلا يقع ، ومثَّلوا له بقضاء الصلاة خمسين معلق ، والمحتوم منها خمس ، وما زاد عليها كان سبب ردها طلب التخفيف ، وهو سبب محتوم لردِّها أن لا تقع ، ومحتوم وقوعه مدة ورفعه محتوم أيضاً بعد مدته ، وسبب رفعه محتوم ، كالأمراض قبل حلول الأجل إذا دويت ثم برئت ، وشيء منها محتوم رفعه بلا سبب ، كما إذا برئت بلا تداوي.

وقولهم : « المقدر كائن » ، أي كائن لا محالة ولا بد من كونه ، والمراد به المحتوم وقد جرت عادة

الله أن لا يكون كائن إلا بسبب ، إما سبب يطلع الناس عليه ، وإما سبب لا يطلعون عليه ، ألا ترى أن الموت محتوم على كل ذي روح ، ولكن قَلَّ ما مات ما له روح إلا بسببٍ من مرض أو قتل أو غيرذلك من الأسباب ، وقَلَّ موتٌ بلا سبب . وكذلك الرزق محتوم ، وقَلَّ ما يكون إلا بسبب إما من المرزوق إن أمكنه وسعى فيه ، أو من الرازق إن ما أمكنه ولا سعى ، أعني إما أن يكون السبب ظاهراً أو خفيًّا، وتيسير الأمور بأسبابها موقوف على مشيئة الله ، إن شاء وحضر الأجل الذي وقَّته فيه ، ويكون على صفته في وقته ، والحكم بوجودها هو القضاء ، وكونها في أوقاتها وبأسبابها وعلى صفتها هو القدر ، أي قدرها بذلك في ذلك كذلك ، أعني السبب والوقت والصفة .

والحاصل أن المقدور منسوب إلى الحق حقيقة ، وذلك عالَم الأمر ، والسبب منسوب إلى الخلق مجازاً، وذلك عالَم الخلق ، ولله الأمر والخلق جميعاً ، ولا يتوصل إلى عالَم الخلق إلا على أيديهم ، كذا جرت سنة الله ، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، ولكن السبب المسبَّب كلاهما من الله ، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فهما منسوبان إلى الله حقيقة ومجازاً خلقاً وتقديراً وحكماً وقضاء ، فإذا أراد سبحانه شيئاً جعل له سبباً من جنسه يكون واسطة بين الحق والخلق ، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، كما كان الأنبياء سبباً لهداية الخلق ، وواسطة بين الحق والخلق، وهم من جنسهم ، فكذلك أسباب جميع المنافع واسطة بين الحق والخلق . بمعنى أنه تعالى أراد حصولها لهم بالأسباب ، ولولا إرادته لذلك لما حصلت لهم بها ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾، أي اطلبوا ما قضى الله لكم حصوله بسببه ، ولو لم يكتبه ما حصل بالإبتغاء وهو السبب .

فكذلك أسباب الشر ما كتب الله وقوعه وقع بسببه فكان واسطة ، وما لم يكتبه لم يقع ، وكتابته هو إرادته له ذلك في الخير بأسبابه وفي الشر بأسبابه ، فإن المقادير كامنة في الأسباب كَكُمون الأرواح في الأشباح ، وبالمقادير تكون الأشياء لا بدونها قط ، والمقادير هي إرادة الله لوجود الأشياء بأسبابها خيرها وشرها ، وفي أوقاتها لصفاتها فهذا هو معنى القضاء والقدر .

وفي القضاء المعلق يكون الرقى والدعاء بحصول خير ودَفْع شر ، وفيه المحو والإثبات وفيه يكون التداوي ، ومن المحتوم السعادة والشقاوة والرزق والأجل وينفع فيه التسبُّب إن وافقه ووافق الوقت، وقد تكون السعادة غير محتومة ، والمحتوم ضدها فآخرها يرجع إلى المحتوم ، كسعادة إبليس بعبادة ثمانين ألف سنة فآخرها رجعت إلى المحتومة وهي شقاوته . وقد تكون الشقاوة غير محتومة، والمحتوم السعادة فرجعت إليها ، كشقاوة ذلك الولي كما في قصته ، ثم مُحِيَت وأُثبِتَت سعادته ، وهنا يطلب محو الشقاوة ، وهو إثبات السعادة ، كما في دعاء النصف من شعبان .

وقد قال النبي ﷺ كما في الأحاديث الصحيحة : « سألت ربي في الحج ثلاث دعوات ، فأعطاني

ثنتين ومنعني واحدة ، فكان الثنتان من المعلق والواحدة من المحتوم » ، قال : « سألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدوًّا من غير أنفسهم ، فيستأصلهم فيهلكهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم سنة - أي قحط - يأكل بعضهم بعضاً فيهلكوا فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل أمتي بأسهم بينهم ، فيقتتلوا فيهلكوا فمنعنيها » ، وهذه المحتومة ومنعه منها لأمر أراده الله سبحانه ، فكان منها ما جرى بين خيار الأمة لأمرٍ أراده سبحانه ، وقتل الشهيدين ، ورأى ﷺ ليلة المعراج عند العرش سيفاً معلقاً يقطر دماً، فقال : « يا رب ارفع عن أمتي السيف » ، فقال تعالى : « يا محمد ، إني بعثتك إلى أمة تقتتل بالسيف » ، وقال تعالى لآدم وحواء : ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وضمير الجمع يعود إليهما وإلى ذُرِّيَّتَيْهِما، ولكن لما مَنَعَهُ الدعوة الثالثة تلطَّف له بالجواب ، فقال تعالى : « يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، أعطيتك الدعوتين وهذه دعها » .

وكلا القضائين في اللوح المحفوظ ، وينقل منه إلى ألواح المحو والإثبات ، ما كان معلقاً فيمحى، أو شيئاً يقع في ذلك العام يُثْبَت إلى أن يقع كل ما يقع في وقته. وهكذا ينقل ذلك ليلة النصف من شعبان ، يمحو سبحانه ما أراد محوه ، ويثبت منه ما أراد إثباته ، وهو قوله تعالى : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، وأما المحتوم المتأخر وقته فهو باقٍ فيه لا ينقل إليها إلا في علمه كما تقدم ، وهو قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي أصله الذي نقل منه ذلك ، وترك فيه الآخر ولم ينقل .

والدعاء مطلوب مطلقاً ، فإن كان محتوماً وقوعه وقع وحصل المطلوب ، أو محتوماً دفعه اندفع وقضي الأمر ، وإلا حصلت فائدة الدعاء ، وله ثلاث فوائد : أحدها : إظهار العبد حاجته إلى ربه وفاقته إليه ، والتذلل بين يديه ، وثانيها : إن فيه إعتقاد أن لا نافع ولا ضار إلا الله ، ولهذا طلب منه جلب ما ينفع وإن كان ممنوعاً أو مؤخراً حتماً ، ودَفْع ما يضر وإن حتم وقوعه ، وهو معنى : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعطِيَ لما مَنَعت » ، وثالثها : وهو خاصٌّ بالخواص ، وهو الخاص بالخطاب مع ربِّ الأرباب ، حيث يقول : اللهم - أي يا الله - أعطني كذا من المحاب ، أو ادفع عني كذا من المضار، واستغفرك الذنوب ، وغير ذلك من أوصاف الخطاب ، فيتلذذ بذلك ويذكر ربه غاية اللذة من صَفَا قلبُهُ وطاب من الكدر لبُّه ، كما قالت رابعة ما معناه : « لذتي في خطابه وإن حكم عليَّ بدخول النار، أليس يخاطبني ويقول : يا أَمَة السوء ؟ فوا شوقاه إلى لذيذ خطابه » انتهى ، فلأجل هذه المعاني العجيبة ورد : « أن الدعاء مخ العبادة » ، أي على أي حالة من الوجهَيْن المذكورَيْن من كونه محتوماً وقوعه أو عدمه ، فافهم .

فانظر دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، أي حيث يراه الخلق في موقف القيامة يعذَّب ، وفي عذاب النار يخلَّد ، فيستحي سيدنا إبراهيم

أن يقول الخلق : كيف يعذَّب أبو إبراهيم ، ولإبراهيم عند الله المنزلة العظمى ؟ فيقول الله تعالى له : « ارفع رأسك » ، فيراه قد قَلَبَهُ الله ذِيخاً له ذنب طويل ، وهو ذَكَر الضباع ، فلا يعرف أنه أباه ، فيذهب عنه الخجل . فلما كان محتوماً تعذيبه ، فكتب الله حتماً عليه ارتكاب موجبة من الكفر والعصيان ، فكان ذلك كالدعوة الثالثة المحتومة من دعوات النبي ﷺ المتقدم ذكرها .

وكذلك دعاؤه كما حكى الله عنه حيث قال : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾، وكذلك استغفار النبي ﷺ لعمه أبي طالب فلم يغفر له ، فقال : « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عن ذلك » ، فنزل النهي وهو قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾، وقال تعالى في حق المنافق ابن أبي وأمثاله : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ، كل ذلك لما كان حتماً تعذيبهم ، ما أفادهم استغفار الأنبياء .

وكذلك لما حتَّم الله شقاوة امرأة نوح وامرأة لوط ، فما نفعهما كونهما زوجات الأنبياء ، حتى ضرب الله بهما المثل للذين كفروا ، ولما حتَّم الله السعادة لامرأة فرعون ، ما ضرها كونها زوجة عدو الله ، حتى ضرب الله بها وبمريم المثل للذين آمنوا ، فقال تعالى : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ إلى آخر السورة ، وقال القائل في المعنى :

جَرَى قَلَمُ القَضَاءِ بِما يَكُونُ ... فَسِيَّانَ التَّحَرُّكُ وَالسُّكُونُ
جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ ... وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ الجَنِينُ

وقيل أيضاً :

الرِّزْقُ يَسْعَى وَإِنْ لم يَسْعَ طَالِبُهُ ... حَتماً وَلَكِن شَقَاءُ المرْءِ مَكْتُوبُ

وقيل في ذلك :

اقْنَعْ فَما تَبْقَى بِلا بُلْغَةٍ ... فَلَيسَ يَنْسَى رَبُّكَ النَّمْلَهْ
إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِماً ... وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِراً قُمْ لَهْ

وهذا المعنى أطول الكلام كله مادة ، لِعِظَمِ شأنه وجلالة أمْره ، وذلك كان أكثر المواد تطويلاً وأكثرها تكريراً ، كما ترى كثير ما يتكرر فيه كلام سيدنا والله أعلم . كيفَ ، وفيه غاية التعلق بالله بالقلب والقالب ، وعدم الإلتفات لغير الله بهما ، واعتقاد أن لا مانع ولا معطي إلا هو ، وإن ما طلب

حصوله والسلامة منه قد فرغ منه ، فيسأل المطلوب على رجاء موافقة المكتوب ، ويستعيذ من الشر ويستغفر من الذنب ، على رجاء موافقة المراد منه سبحانه بأن كتبه ، وهذا أبلغ وأخص مطالب الإيمان الباطنة ، والأعمال الظاهرة تابعة لذلك هـ .

قال رضي الله عنه : « **ليس العاقل من يميِّز بين الخير والشر ، ولكن العاقل من يميز بين خير الخيرين وشر الشرين ، فيعرف أي الخيرين أرجح فيتبعه ، وأي الشرين أقبح فيتركه** » هـ .

أقول : يعني أن الخير من الشر معروف لكل أحد ، لا يخفى إلا على أحمق مُختَلِّ العقل أو على مجنون لا عقل له ، وإنما أضعف الناس عقلاً يشتبه عليه خير الخيرين وشر الشرين ، وإنما يتبينهما الكامل العقل من الرجال ، فذلك عند عروضهما للعمل بهما ، فإن أمكنه العمل بهما فهو الأرجح ، وإن لم يمكنه العمل إلا بأحدهما تَخَيَّر الأرجح منهما فيعمله ، وفيه كفاية عن الآخر . وربما كان الراجح مرجوحاً في وقت أو لحال آخر أو في حال ثان ، وإذا عرض له شران كان تركهما معاً إن أمكن أرجح ، وإن لم يمكنه ولا بد له من الوقوع في أحدهما تخيَّر ، وميَّز بعقله شرهما فيتركه ، وفي تَرْكِهِ تكفير للآخر ، كما ورد : « اجتناب الكبائر تكفير للصغائر » .

وذَكَرَ يوماً الخير والشر *فقال* : « **لا بد من المكافأة عليه ، إما ممن عاملته به أو من غيره ، في الدنيا أو في الآخرة ، وقد يقع من وجهٍ يطلع عليه الناس ، وقد يقع من غير ذلك ، ويكون ذلك في البِرِّ والعقوق ، والإحسان إلى الجيران والإخوان والأصحاب والإساءة إليهم ، كما قيل : البِر سلف . والمجازاة على الخير أكثر من الشر ، وذلك من فضل الله ، فإنها تضاعف في الخير دون الشر ، إلا أن الشر يعظم جدًّا بحسب مواضعه ، فالسرقة على اليتيم والفقير ليست كما هي على الغني والقوي ، واجتماع الإخوان والأصحاب ما يجيك منهم إلا واحد من عشرة ، لأنه لا بد في كل واحد خصلة مليحة ، يريد الله أن ينفع الناس بعضهم من بعض** » هـ .

أقول : يعني لا بد من المجازاة على الخير والشر في الدنيا والآخرة ، جزاءً وفاقاً من الله عليهما في الدارين ، وسمى جزاء الدنيا بالحسنات والسيئات ، ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بمعنى الرخاء والقحط ، ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ ﴾ وغير ذلك من الآيات ، حتى إنه شرّع المكافأة على الصنائع ، وهي سنة مؤكدة إن لم يقصد صاحبها طلب المكافيء ، وإلا وجبت .

ومن المكافأة على الخير [1]. ومن المكافأة على الشر : أن رجلًا اتُّهِمَ بسرقةٍ فَقُطِعت يده ، فقال: والله ما سَرَقْتُ في هذا ، وإنما سَرَقْتُ مرة فاتُّهِمَ غيري فقُطِعت يدُه ، فجازاني الله في هذه بأن سرق غيري فقطعت يدي ، كما قُطِعَت يد غيري في سرقتي ، كذلك فَقُطِعَت يدي في سرقة غيري . وكذلك ما رتَّب الله من الحدود في الدنيا مجازاة في الدنيا ، لكن الحدود في الدنيا كافية عن عذاب الآخرة عن تلك المعاصي .

قوله: « **واجتماع الإخوان .. إلخ** » ، يعني إذا كان لا بد من المكافأة ، فيتعين الدعاء إلى الخير تعرضاً للمكافأه عليه في الدارين ، والنهي عن الشر حذراً من المجازاة عليه فيهما ، فإذا قمت في وظيفة ذلك وانتهضت لها ، لطلب أن لا يخلو أحد من خصلة مليحة لينفع الله الناس بعضهم من بعض .

« **فلا يجيك** » ، أي لا يجيبك منهم أحد إلى ما دعوت إلا نحو واحد من عشرة وقد ورد : « بَرُّوا تَبَرّكم أبناءكم - وهو معنى قوله : « **البِر سلف** » - وعِفُّوا تَعِفَّ نساؤكم » هـ .

قال رضي الله عنه : « **قاعدة : الرجل الصالح إذا كان له وجْهٌ وقفا ، جاء الصالحون من وجهه وجاء المُتَفْتِفُون من قفاه . مثاله : إذا كان الرجل الصالح يحب الشرح ، ويجالس المذمومين من الناس ، فعل ذلك الأنذال وقالوا إنهم اقتدوا به ، وإن بقي على الحالة المعروفة التي عليها الصالحون اقتدوا به** » هـ .

أقول : يفهم من تمثيله وتفصيله ، أن المراد بالوجه : الحالة المرضية المعروفة من الصالحين . وأن المراد بالقفا : الحالة المذمومة التي تستنكر عليهم . وإنما تعرف في المتفتفين ، فإن كان الظاهر عليه الوجه اقتدى به الأخيار الراغبون في الخير والصفات المحمودة المرضية عند الله ، وإن كان الظاهر عليه القفا اتبعه في ذلك الأشرار الراغبون في الشر والخبث ، ليجعلوه حُجَّة لهم في ذلك عند من لامَهُم وأنكر عليهم ، فإذا أنكر عليهم أحد ادعوا أنهم اقتدوا بالشيخ العالم الكامل القدوة فلان فلا حرج عليهم ، وهذا منهم تسويل من النفس ، وغرور من الشيطان سوَّلت لهم به نفوسهم ، وزَيَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم ، وهذا احتجاج للنفس .

وقد سمعتُ سيدنا غير مرة قال : « **من احتجَّ لنفسه عند المعصية ، فذلك معصية أشد من الأولى** »، ومرة قال : « **من فعل معصية فأنكر عليه فقال : هذا مُقَدَّر عليَّ . فتلك معصية أعظم من معصيته التي قبلها** » أو كما قال ، ومرة ذَكَرَ أن بعض المشايخ كان له تلميذ مصر على معصية ، وكلما لامَهُ الشيخ وقال: « لِمَ فَعَلْتَها ؟ » ، قال : « هذا مُقَدَّر عليَّ » ، فلما تكرر ذلك منه مراراً، استعد له بجريد كثير من

---

(١) فراغ في الأصل .

جريد النخل ، فلما دخل عليه وقال له : « لِمَ فَعَلْتَ المعصية وقد نهيتك عنها ؟ » ، فقال : « **ذلك مُقَدَّر عليَّ** » ، أمر أن يُبطَح ويُضرَب بذلك الجريد كله ، وهو يصيح ويصرخ بالشيخ ، والشيخ يقول له : « هذا مُقَدَّر عليك ، فلا حيلة في دَفْعِهِ ، ولا بد لك منه » .

وقد رأيت يوماً رجلاً ظاهره الحشمة والديانة ، والتبصر في الدين في مسجد آل باعلوي ، يصلي بلا طمأنينة وينقر في صلاته ولا يحسنها ، فأنكرت عليه ولمته ، فقال: « أنا مقتد بالسيد فلان » - يعني السيد أحمد الهندوان - فقلت له : هل أنت زاهد في الدنيا كزهده ؟ إنما تحتج لباطلك بالأخيار ، وهذا جهل منك ، فحتى تصير مثله في المعرفة والزهد في الدنيا ، واستغراق القلب بالله ، فمن كان هكذا فهو أعرف بالله وبأحكام الله ممن ينكر عليه ، فإن صَدَقْتَ في دعوى الإقتداء فاندر إلى الحاوي ، اقتد بصاحب الحاوي ، فإنه القدوة اليوم لكل أحد ، ولا تغترَّ وتدَّعي في نفسك ، فقال : « نروح نشوف كيف صلاته » ، وفي هذا شاهِد لقول سيدنا : « **فعل ذلك الأنذال ، وقالوا إنهم اقتدوا به** » ، أي جعلوه حُجَّة لهم . وما أحسن تمثيله واستعارته الوجه والقفا للأمرين المذكورين : تشبيهاً للأحسن بالوجه ، الذي من معانيه المواجهة والمقابلة والإقبال والقبول والإستقبال ، وتشبيهاً للأسوء بالقفا ، الذي من معانيه الإدبار والإستدبار والإعراض . والإستقبال له معنيان : حسي يفهم من المقابلة ، ومعنوي وهو الرضا . يقال : استقبله برضا ، أي رضي به ، فالأحسن مرضيٌّ يرضى به الله ، ويرضى به الخلق ، والأسوء بالعكس .

وقد رأيت من ذلك السيد ، الذي ادَّعى ذلك الرجل الإقتداء به أمراً عجيباً لا يكاد يتصور إلا مع الإستغراق الكلي : وهو أني حضرت عنده يوماً وقت صلاة المغرب ، فبعدما أذن المؤذن وأقام الصلاة وتقدَّم السيد ليصلي بالجماعة صلاة المغرب ، فحصل له قبل الإحرام عندما أراد أن يحرم بالصلاة دهشة عظيمة ، فجعل يضطرب ويتحرك بكل بدنه وتلابط عيونه وأجفانه ، ثم التفت إلى الجماعة وقال: « هو أذن ؟ » ، فقالوا : « نعم أذن وأقيمت الصلاة ، وأنت متقدم لتحرم بالصلاة » ، فعند ذلك سكن مما به ، ثم أحرم وأحرمنا وصلينا خلفه تلك الصلاة - وهو السيد أحمد بن عمر الهندوان نفع الله به - فأنَّى لمن يدَّعي الإقتداء به مثل حاله ، ومن ادَّعى ذلك كَذَّبَ حالُه مقالَه ، ولسان الحال يقول: « ليس التكحُّل في العينين كالكَحَل » ، فالكَحَل : خِلقة من الله لازِمة كسواد عين بعض الأطيار، والتكحُّل: هو التكحُّل بالإثمد لا يدوم .

وسيأتي سؤالي لسيدنا : مارأينا ظَهَرَ لفلان من وارث ، فهل ورثه أحد من جماعته ؟ فقال : « **ما ورثه منهم أحد** .. » ، إلى آخر الكلام الآتي في محله .

حتى إن بعض السادة من جماعته المترددين عليه بعد وفاته بأيام قليلة ، وقد حضر هذه الواقعة ،

قدموه في بعض الصلوات ليصلي بهم ، فسأل كسؤاله لما تقدم في المحراب ، سأل : « هل أذن ؟ » ، تشبهاً به . فشدوا بيده وجرُّوه وأخَّروه عن إمامة الصلاة بهم ، وأَبَوا الصلاة خلفه ، ففشل واستحيى من الناس بعد ذلك ، وهرب ليلاً من البلد من عام وفاة السيد وما علم له بخبر من سنة ١١٢٢ إلى أن حَجَجْتُ بعد وفاة سيدنا سنة ١١٣٣ ، فالتقيت به بمكة المشرفة ، وإذا به عايب الرِّجل أعرج ، لا يستطيع المشي إلا بتعب ، فسألته : أين أنت فقدناك ؟ وما عَلِمْنا عنك بخبر ، ولا درينا أنت في أي أرض ؟ فقال : « ادعيت دعوى باطلة ، فهربت من البلد حياء من الناس » ، وذَكَرَ قصته لما قال ما قال في سؤاله عن الأذان : « ادَّعيت » ، فقلت كما قال الحبيب أحمد فأصابتني عقوبة ، أول ما صرت جَمَّالاً بزبيد ، ثم بعد ذلك سقطت من فوق الجمل ، واسْتَوْهَنَتْ رِجلي ، ثم جئت حاجًّا، وها أنا ذا كما ترى .

أقول : فيا للعجب هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا رأيت أحداً من الصالحين يتعاطى أموراً منكرة فذاك ينبغي أن يُجتنب ويُعتقد، ولا يفعل كَفِعْلِهِ إلا من غَلَبَت عليه الحقيقة ، كما غَلَبَت عليه » هـ .

أقول : يعرف أهل الحقيقة من هو منهم ، فيعمل معه ما قال سيدنا ، وذلك إذا كان من المتمكنين الذين الغالب عليهم الصحو ، أو من كان في حالة الصحو ، وأما المستغرق فيها فهو أعلم بحاله ، ولا لنا معه مقال ولا لنا عليه اعتراض . وأما نحن القاصرون عن حاله ، وإنما نحن من جملة العوام ، فواجب علينا تتبع مراعاة الشرع، فما وافقه اتبعناه وأقريناه ، وما خالفه تركناه وأنكرناه ، فإن كان ممن سلم له مقام الولاية أهل مقامها عامَلْنَاه أيضاً بقول سيدنا ، وإلا أنكرنا عليه وشنَّعناه هـ .

قال رضي الله عنه : « حسن الظن بالمسلمين عموماً هو الأمر الواجب ، إلا من رأيته على باطل صريح ، فيكون ذلك - أي حسن الظن - سوء ظن ، لأنه قادح في الشريعة . وأنت ساير أهل زمانك ما لم يغلبك الجواز ، فإذا لم تجز المسايرة فلا تساير قال الشيخ أبوبكر: لا تغالِبْ زَمَانَك يَغْلِبُكْ ، كُن مُسَايِرْ يسايِرْكَ الزمان » هـ .

أقول : هذا في مراعاتك لغيرك ومسايرتك له ، فعلى ما شَرَطَ إذا لم يمكنك أن تقيمه على الوجه الأكمل . فسايره : أي سِرْ معه على ما هو عليه ، إذا لم يرتكب منهيًّا ولا ترك واجباً ، لقوله : « **فإذا لم تجز المسايرة فلا تساير** » .

وقوله : « **ما لم يغلبك الجواز** » ، أي يعوزك فلا تجده عند من أردت مسايرته ، فلا تسايره حينئذ ،

فساير على هذ الشرط بما يناسب في كل زمان ومكان ، فهكذا أمرك في سيرتك مع غيرك .

وأماني خاصة نفسك فلا تقنع منها إلا بأكمل الوجوه ، وجاهدها على ذلك إن أمكن في كل الأمور ، وإلا في البعض الذي يمكن ، وكذلك في من يساعدك على ذلك إن أمكن .

ولا تغتر إذا سمعت هذا الكلام ونحوه في كلام المشايخ كالشعراوي وغيره من الأكابر ، أن تتخذه رخصة لنفسك ، فتأكل الحرام وأموال السلاطين الظلمة سيما من أهل هذا الوقت ، الظلمة الغشمة المفسدين ، الذي لا يجدون درهماً حلالاً ، وتفعل فِعل الأراذل من عدم التقوى والورع والإحتياط للدين ، وتقول : قال الشيخ فلان كذا ، فتحتج لنفسك على ربك في اتباع هواها ، وما يلذ لها من بلوغ مناها ، ومع ذلك تُحسِن ظنك بنفسك ، وترى أنك من الأولياء الكبار ، وتمد يدك للناس يقبِّلونها ، فبئس ما صَنَعْتَ ، فلقد أَزْرَيْتَ بنفسك وبالأولياء في حالتك هذه، لكن الإنسان ما يرى عيب نفسه .

فافهم أن ما المراد من كلام سيدنا هذا إلا مراعاة الناس فيما هم فيه ، ما لم يكن إثماً ، لا مراعاة نفسك فيما تهوى ، وإن لم يكن إثماً إن كان نقصاً . ولا يخفاك شأن الصالحين من كونهم في مخالفة أنفسهم وأهويتهم في العادة القصوى ، فكيف في كونه يصير لها عبداً مملوكاً ، هذا لا يكون فلا يجوز أن تتبع هوى نفسك في التقصير ، وتحتج بأقوال المشايخ ، فهذا لا يجوز ولا قال به أحد من أهل الحق إلا من لا خير فيه ، ممن لا يرى الحرام إلا ما حرمه ، ولا الحلال إلا ما حلَّ بيده . وافهم ما سَنَذْكُره في المقالة بعدها ، فإنها مبيِّنة لهذا المعنى هـ .

قال *رضي الله عنه* لبعض الفقراء - هو نبيهان - : « **لو تَلَوْتَ القرآن حق تلاوته لَزَهِدْتَ في الدنيا بين يديك ، والإنسان في حالة التقصير ، ويرى أنه على الحال الأكمل ، ويعذر نفسه ويستدل لها بأشياء باطلة . والإنسان لا يعذر نفسه ، إنما يعذره غيره ، لأنه لا يطَّلع على عيب نفسه ، وإنما يطَّلع على عيبه غيرُه ، ألا ترى كيف يستقذر نخامة غيره ويتحاشى أن تصيب ثوبه ، ولا يستقذر ذلك من نفسه . فكذلك العيوب لا يَعْلَمها من نفسه ، وإنما يعلم عيوبه غيره - ومرة قال : وإنما يعلم عيوب غيره - فينبغي أن يجتنب كل ما رآه من عيبٍ في غيره ، وهو معنى حديث : المؤمن مرآة أخيه . في تأويل بعضهم** » هـ .

أقول : من طبع الإنسان أن لا يرى عيوبه بسبب محبته لنفسه ، فحبُّك للشيء يعمي ويُصِمُّ ، يعني يعمى عن رؤية العيوب ، ويُصِمُّ عن سماعها ، بل ربما رآها محاسن ممن أحبه ، ورأى محاسن من يبغضه مساويء .

وَعَينُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخطِ تُبدِي المَسَاوِيَا

فلا يرى لنفسه وكل ما ينسب إليها إلا بعين الرضا والإجلال ، فلذلك يرى عقله كاملاً وإن كان ناقصاً ، ويرى سوء عمله حسناً ، ويرى ما يستقذر منه كالنخامة غير مستقذر ، ويرى محاسنه ولا يرى عيوبه ، بل ربما رأى عيبه مليحاً وفاسده صحيحاً . كل ذلك من محبته لنفسه ، حتى إنه ليرى عقله الناقص أكمل من عقل غيره الكامل ، لجهله بذلك المعنى ، فقد يستحسن بمقتضى عقله القاصر ما يستقبحه غيره بمقتضى عقله الكامل .

والشرع لم يزل يذم ما تستحسنه النفوس القاصرة ، حتى إن الشهادة بمقتضى الهوى كما صديقه وعدوه لا تُقْبَل شرعاً ، وكل هذه الأمور وأمثالها من عيوبه لا يراها من نفسه ، ويرى كل ذلك من غيره ، وفي الحديث إخباراً عن الطبع الجبلي العام : « يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ، ولا يرى الجِذْع في عينه » ، والقذاة : كناية عن العيب الصغير يراه ويدركه من غيره ، والجِذْع : كناية عن العيب الكبير يخفى عليه من نفسه ولا يدركه منها لعدم إنصافه . ولو أنصف لعكس ، فرأى كل ما منه سيئاً وتقصيراً ، وما من غيره إذا لم يحرم حسناً واحتياطاً ، لكن إذا قام الهوى اضمحل الحق ، وبالعكس إذا غلب الهدى ساء ظنه بنفسه ، ورأى كل ما منها خلافاً وتقصيراً ، وبقيام الهوى يظهر الردى وباضمحلاله يظهر الهدى . وكان الأولى والأوجب والمطلوب اتباع الهدى والحق والإنصاف ، سواء كان لك ومنك أو عليك ومن غيرك لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، وفي الحديث الذي ذكر فيه : « المؤمن مرآة أخيه » على ذلك التأويل المتقدم ، أي حيث كان من طبع الآدمي ألا يرى العيب الذي فيه ، ويراه إذا كان في غيره ، فإذا كان فيه وفي غيره فيراه في الغير ولا يراه في نفسه . شبَّه الغير بالمرآة التي ترى فيها الصور والألوان ، فإذا كان في وجهه لون لا يراه ، فنظره في المرآة رآه فأزاله عن وجهه ، فكذلك إذا رأى عيبه في غيره ، فينبغي أن يزيله عن نفسه . كما قيل لبعضهم : « من أدَّبك ؟ » ، قال : « ما أدَّبني أحد ، لكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته » .

وقوله : « **والإنسان لا يعذر نفسه ، إنما يعذره غيره** » ، يبيِّن ما ذَكَرْنَا من كون إنما المطلوب أن يساير غيره ويعذره على الشرط المذكور ، لا أن يساير نفسه ويعذرها، فإن هذا فهم الجاهل المغتر ، وفعله بمقتضى فهمه القاصر ، وهو شأن الجاهلين البعيدين من العلم والتقوى ، وهو كمن سمع فضيلةَ مَن فَطَّر صائماً فله من الأجر كذا ، فصام هو وفعل لنفسه فطوراً وفَطَّر نفسه ، وادَّعى أنه فطَّر صائماً ، وظن أنه أصاب المراد ، وليس كذلك هـ .

قال رضي الله عنه : « خذ ما بلغك عن رسول الله ﷺ عن نفسه أو عن غيره ، ولا تتركه لشيء ، ومن نَقَلَ شيئاً فخذ به عنه ، فهو بأمانته ، وكلٌّ مطالَب بما قال ، والأمر واسع » هـ .

أقول : قوله : « عن نفسه أو عن غيره » ، أي بما فعله أو أمر به .

وقوله : « ولا تتركه لشيء » ، أي لا تقدم عليه شيئاً فتفعله ، وتترك ما بلغك عنه ﷺ .

وقوله : « من نقل شيئاً » ، إلى قوله : « وكلٌّ مطالَب بما قال » ، مما يزيدنا خوفاً ورهبة في نقلنا كلامه، ونرجو من الله سبحانه أن يسامحنا ويعفو عنا فيما أخطأنا وزدنا وتعمدنا من الخطأ .

وقوله : « والأمر واسع » ، فيه تنفيس وتوسعة لما ضاق من هذا الأمر إن شاء الله وتفريج للكرب هـ .

وذُكِرَ له بعض الأموات ، فقال : « أرحم ما يكون الربُّ بعبده إذا وُضِعَ في قبره ، وإذا رأيت عمل الرجل أيام حياته إن كان قائماً بفروضه وبارًّا بأرحامه ، قَوِيَ جانب الرجاء له ، وإن كان بالعكس قَوِيَ جانب الخوف عليه . وقد كانوا إذا خرجوا مع جنازة لا يُعرَف المصاب منهم ، لكونهم كلهم يبكون ، وهؤلاء أيضاً لا يُعرَف المصاب منهم ، لكن لكونهم كلهم يضحكون ويلهون ، فكم فَرْق بين من مضى ومن بقي ، فالأمر اليوم كالطُّعم تحت العَقْبة » ، أو كما قال رضي الله عنه هـ .

أقول : قوله : « أرحم ما يكون الربُّ بعبده إذا وُضِعَ في قبره » ، في ذلك ترجية عظيمة من فضل الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان إنه إذا مات انقطع عمله ، فانقطع لذلك أَمَله ، فما يرجو من صالح عمله الذي يرجو أن ينفعه في قبره ، فإذا قابله إذ ذاك زيادة رحمة ربه فذلك أفضل له وأنفع من عمله الذي يرجو نفعه . فالحمد لله على جزيل فضله وكرمه ورحمته ، وكل ذلك ببركة نبينا محمد ﷺ جزاه الله عنا ما هو أهله ، ونرجو ببركته أن لا يعاملنا بما نحن أهله .

ويشهد لذلك حديث : « إذا مات العبد وقد علم الله منه شرًّا ، فشهد له اثنان من المسلمين أنه من أهل الخير ، عامله الله سبحانه بما شهدا له ، وترك ما علم منه » ، أي ترك مجازاته بالشر الذي علمه منه، وجازاه بما شهدا به له المسلمان من الخير كما ورد : « أنتم شهداء الله في أرضه » ، وورد : « ألْسِنَة الخلق أقلام الحق » ، وتحقيقاً لحكم الشرع بثبوت الحق بشهادة العَدْلَيْن .

وفي ذلك قصة : أن بعض العصاة لما حضره الموت ، دعا برجلين ودفع لكلٍّ منهما ديناراً وقال : « أريدكما تشهدان لي شهادة زور » ، فامتنعا ، فقال : « ما مرادي تشهدان لي عند قاضٍ أو حاكم ، إنما

أريدكما أني إذا مِتُّ وحُمِلَت جنازتي ، يقف أحدكما عن يمينها والآخر عن يسارها ويقول كل واحد منكما : كان من أهل الخير رحمة الله عليه » ، فلما مات وحُمِلَت جنازته وقفا عن يمينها وشمالها وقالا : « كان من أهل الخير رحمة الله عليه . فسمعوا في الهواء صوت قائل يقول : قبلنا الشهادة ، ولو كانت زوراً » ، وعلى هذا عمل أهل الحرمين ، إذا حُمِلَت الجنازة لم يزل قائلاً من الجانبين يقول ذلك إلى أن يَصِلوا القبر .

واعلم أيها الواقف على هذا النقل من كلام سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به ، وما يتصل به من كلام الناقل ، وذلك في بعض المقالات لا كلها كما ترى ، أنه ما مرادي إلا ذِكْر ما يشهد لكلام سيدنا ويحقِّقه، إن حصل من كلام الله ، أو كلام رسول الله ﷺ ، فهو الأحق بالذِّكْر ، أو من واقعة ، أو غير ذلك مما يصدِّقه ويَشْهَد له ويؤيِّده لا غير ، ولا تظن أن مرادنا إظهار أن لنا فهماً في كلام الصالحين ، فإن ذلك تَنَطُّع ودعوى يدل على خُلُوِّ القائل مما ادعى ، وإنما يفهم حقيقة معنى كلامهم من بلَّغه الله إلى مقامهم، وهذا اعتذار ممن يقف عليه من أهل الظاهر أو أهل الباطن ، فإذا صلحت النية صلح معها كل شيء ، وإن ساءت ساء معها كل شيء .

والمثل الذي ضربه سيدنا لهذا المعنى من قوله : « **كالطُّعم تحت العَقْبة** » ، هو مَثَل يُضرَب على لسان أهل الجهة ، لمن ضَيَّع أكثر عمره إلى أن ضاق عليه الوقت ثم أراد حينئذ يتدارك ما فات فلا يمكنه ذلك، وأصله يقال فيمن ضرب طريقاً بعيداً فيه مشقة ، فمَرَّ في طريقه بعقبة صعب صعودها إلا لراحلة قوية إلى الغاية ، وكانت راحلته ضعيفة جداً ، ومراده قطع الطريق بسرعة ، فجعل يُطعِم راحلته تحت العقبة تلك اللحظة لتقوى على قطعها ، فلا يحصل له ما أراد من نشاطها وقطعها العقبة .

فمراد سيدنا بالمثل : أن من ضَيَّع عمره في البطالة غافلاً إلى أن قرب أجله ، فلوأراد يتدارك وهو في غفلته ما فوَّت من عمره لا يدرك ذلك مع الغفلة ، بل تشغله نفسه وعوارضها عن ذلك ، وأما إذا حصل له من فضل الله باعث من الله ، وإقبال قلبه على الله ، والإعراض عن كل ما سوى الله ، فإنه لو لم يَبْقَ له من العمر إلا يوم واحد فقد حصل له خير كثير . ولكن ليس هو كمن هو كذلك مدة عمره، فإن مثله كمن كَبَّر محرماً قبل سلام إمامه ، فيدرك فضيلة الجماعة السبع والعشرين الدرجة عند الشافعي، ولكن ليس هو كمن أحرم بالصلاة مع الإمام من أولها ، فإن واحدة من سبع وعشرينه تعادل سبع وعشرين الآخر كلها .

وهذا مَثَلٌ في شأن أهل الزمن المتقدم لصلاح أحوالهم ، وكون لحومهم تنبت من الحلال ، فإذا أقبل الله بقلوبهم عليه ففي الحال يصلح حالهم يستقيم لهم الأمر كما ذُكِر عن ناس كانوا سرقة وقطاع طريق وشربة خمر ، فتاب الله عليهم فتابوا ، فصاروا من كبار الصالحين .

وأما نحن أهل الزمان فلو أقبل منا مُقبِل على الله يحتاج أن يعالج أكل الحلال مدة طويلة ، حتى يضمحل اللحم النابت على الحرام ، ويتبدل بلحم آخر ينبت من الحلال ، ثم يعالج الأمور على شروطها بشدة بسبب ما ذُكِر ، حتى يستقيم أمره ويسدد حاله ، فكم فرقٌ كما قال بين من مضى ومن بقي .

فإنما مثلنا أهل الزمان كمن كَبَّر للإحرام بعد سلام الإمام ، فما أدرك من الفضيلة شيئاً ، وهم كمن عجزت راحلته عن قطع العقبة فنكص راجعاً ، وهذا هو الفرق بين الفائزين والغابرين ، لكن لا يبعد من فضل الله أن يسوق له من يقتدي به ، فينوي القدوة وتحصل له الفضيلة ، وأن يهيء الله لراحلته النشاط الكثير بأكل الطِّعم القليل ، وما ذلك على الله بعزيز هـ .

قال رضي الله عنه : « من أراد من الدنيا حاجته وما لا بُدَّ له منها ، لا يقطعه ذلك عن أمور دينه ، بل أمور الدين تيسره وتزيده ، فمن جعل الدنيا حذاء منعته النجاسة والشوك والأذى ، ونفعته وهو عزيز، فإن جعلها على رأسه قذَّرته ووضعت من قدره وهو ذليل ، بل لو جلس وهي في رجله ينبغي له أن ينزعها ، فكيف إن جعلها على رأسه ؟ وقد قال بعضهم : ماذا تريد بأمِّ أمومتها يُتْم ، وفائدتها غُرم » .

وقال لبعض السادة يوصيه في أهله : **« احذروا من العلاق ، فإن الشحنة كما يقال : إذا ما لحقت شيئاً كسَّرت القبال » .**

وقال لآخر : **« نوصيك بلا إله إلا الله كل وقت ، وخصوصاً عند الهموم والشواغل وضيق المعيشة، فإنها توسع الرزق ، ومن طبعها الرطوبة ، حتى قد يحصل منها النوم » .**

وقال لرجل من المتعلقين بعلم الظاهر : **« اِحْيَ في قلبك ولا تمت في نفسك ، فإن القلب له صفات كالزهد والتواضع ، والنفس لها صفات كالرغبة والرياء وحب الجاه ، فإذا اتَّصف القلب بصفات النفس اندرج فيها ، وإذا اتَّصفت النفس بصفات القلب اندرجت فيه ، فاترك عنك الوسواس فإنه في الظاهر مذموم ، فكيف به في الباطن ، ألا ترى من يوسوس في صلاته : نويت .. نويت .. ماذا حصل من ذلك ؟ فوسواس الباطن أشد . والمتعلق بالفقه لا يفتح عليه بشيء ، فطالع في الأربعين الأصل ، وخذ بما في كتب الإمام الغزالي ، ولا تطلب التدقيق ، فإن هذه الأشياء في هذا الزمان إلى الطيِّ أقرب، وقد صارت العامة فيه خاصة ، وانقلبت فيه أمور لو سَمِعْتَها قبل أن تراها ما صدَّقت بها ، فلو قيل لك: إن فلاناً يفطِّر الناس في شهر رمضان ، ويكلِّفهم ترك الجمعة والجماعة ما صدقت ، وهو وفلان قد سَكِرا بخمر الظلم ، فما يفيقان إلا في القبر ، وفي مثلهما قال الله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ » هـ .**

أقول : قوله : « لا يفتح عليه بشيء » ، يعني من أحوال الأولياء ، لأن شرط ذلك أن يكون القلب متجرداً بالكلية عن جميع الدواعي ، سواء ما ذَكَرَ أو غيره ، سيما دواعي النفس ، فإذا أراد سبحانه أن يختص عبداً من عباده ويهب له شيئاً من ذلك ، سلبه جميع ذلك وجرَّد قلبه له .

وقوله تعالى في الآية : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾الآية ، هذا الأمر من حيث الحقيقة المتعلقة بالإرادة ، ولهذا وقفه عليها ، بمعنى : إذا أردنا لمن أردنا من خير أو شر قهرناه على العمل بأسباب ذلك، حتى يعملها فتجري عليه ما أردنا له ، وكان حُجَّة له أو عليه . وهذه هي الإرادة الأزلية والصبغة الربانية التي جميع الخلق يَجْرون عليها ، لا يشذ عنها أحد طرفة عين ، ولهذا تعجب منها الأنبياء وسأل عنها الثلاثة الأنبياء فلم يجابوا ، فالخلق كلهم في قبضتها ، وعملهم عليها من خير أو شر عملاً وجزاء .

وأما إرادته سبحانه في سابق علمه لهم جزاء أعمالهم هذه التي عملوها ، أوقعهم فيها بحكمه، ثم أجرى عليهم جزاءها الذي أراده لهم في الدنيا والآخرة بِحِكْمَتِهِ لأهل عمل السوء من الذم والعار والخزي والدمار في الدنيا والآخرة من الإثم والنار ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ولأهل الخير كذلك ، أي وفَّقهم لعمل الخير ثم أجرى لهم جزاءه الذي أراده لهم ، وأرادهم به في سابق علمه وتقديره . فهذا هو معنى الأسباب ، وحقيقتها أن جزاءها قد أراده الله تعالى لعامِلِها من خير أو شر ، قبل خلقهم وصدور العمل منهم، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، يعني أن سبب عملهم ذلك أن الله لا يريد لهم حظًّا ، يعني مجازاة بالخير ، وإنما أراد لهم المجازاة بالشر، ثم لما أوجدهم في أوقاتهم ، وبعد تكليفهم أجراها عليهم ، ثم أجرى عليهم جزاءها كما أراده على ما أراده .

انظر كيف رأى النبي ﷺ ليلة المعراج نساء معلَّقات بِثُدِيِّهِنَّ وشعورهن يعذَّبْن، ورجالاً رأى عليهم من أنواع العذاب ، كل ذلك ولم يوجَدُوا بَعْد ، أظهرهم لِنَبِيِّهِ ﷺ ليُخبر به أمَّتَهُ فينزجروا عن مثل أعمالهم ، وإنما وُجِدوا وأجري عليهم تلك الأعمال بَعْدَ ذلك ، وذلك الجزاء لهم إنما هو في الآخرة، وما كان موجوداً في وقته ﷺ من أُمَّتِهِ إلا الصالحون والصالحات ، ممن رآه من أصحابه أو لم يره من الصالحين كأويس القرني وأمثاله ممن ليسوا من هؤلاء المعذبين .

فمعنى ﴿أَمَرْنَا ﴾، في هذا الموضع وفي هذه المادة : أي قدَّرنا وأَرَدْنَا بالإرادة الأزلية . وأما الإرادة الشرعية فمقتضاها الآية المتقدمة : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ ﴾، فالإرادة الأزلية كما أراده واختاره بلا تعلق لذلك بأفعال الخلق كنفس الإسعاد والإشقاء وغير ذلك ، والإرادة الشرعية على ما اقتضته تلك الإرادة من التعلق بأفعال الخلق من أعمال السعادة وأعمال الشقاوة ، لِيُتِمَّ بذلك وعده سبحانه للدارين

بما وعدهما به من ملئهما ، وفاء بوعده وإتماماً لكلمته ، وكما قال تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾، وسؤاله تعالى لها عن تمام ذلك الوعد : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾، أي هل في زيادة أحتملها أكثر مما حصل مما وعدت ؟ بمعنى أنها أخبرت عن تمام الوعد أنه حصل لها، وتَمَّ وَعْده فتَمَّ لهما ما وعدهما به ، لا يرده عن ذلك وجاهة وجيه ولا لآمة لئيم .

والذي يفطِّر الناس في شهر رمضان هو حسن بن مطهر العمودي ، أيام ولايته لما ندب أهل بلده إلى حرب يافع في بلاد الهجرين في شهر رمضان سنة [1]، فأفطروا لذلك ، وسار بهم إليهم وتركوا الجمعات والجماعات في هذا الشهر الشريف . ومَثَّل بذلك على صورة الإستبعاد لذلك منه ، وأنه من نوادر الزمان إن صدر ذلك منه ، وهو من بيت أهل علم وصلاح ، فهذا مستبعد منه جدًّا ، يدل على فساد الأحوال في هذا الزمان ، ونقص أحوال الناس عن السنن السابق ، ولو لم يكن من نسل قوم صالحين ما استبعده منه ، كما لو كان من ذرية قوم ظَلَمة من ملوك الجهة . كيف وهو من ذرية الشيخ سعيد الذي جاءته الخرقة مع سيدنا الفقيه المقدم من أبي مدين من الغرب ، وألبسهما إياها عن أمر إلهي، فهذا منه مُسْتَبْعَد .

وهذا من إشارات سيدنا في هذا الوقت ، فقَلَّ ما نرى من النوادر الحادثة إلا وقد أشار إليها ، وهي من علامات الساعة التي أخبر الله تعالى بها على أَلْسِنَة الأنبياء ثم على أَلْسِنَة أكابر الأولياء . فإنَّا نرى أيضاً في هذا الوقت في جهات كثيرة مفاسد وأشرار ، خرجت من أيدي ناس أخيار ، فكيف لا يكون ذلك من علامات الساعة التي أخبر الصادق بها أنها من علاماتها ، من انعكاس الأحوال إلى أضدادها، كما قال عليه الصلاة والسلام : « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » ، فهذا انعكاس حال هؤلاء من شدة الفقر والفاقة ، إلى غاية السعة وخفض المعاش ، وغايته تطويل البنيان من علامات القيامة ، وهذا نوع معين عليه كل نوع خرج عن شكله إلى ضده .

وأما شأن حسن بن مطهر لما ندب إلى الحرب وسار بهم إلى الهجرين لحرب يافع في الشهر الشريف، فخذلوا وانكسروا وقُتِل منهم كما سمعنا نحو سبعين ، ثم إن يافع سيَّروا عليهم وقصدوهم بالحرب إلى بلادهم فخُذِلوا ولم يُنصَروا ، وقُتِلَ منهم بين الحصنين بقيدون عدة رجال ، فانقلبوا خائبين .

وهذا فيما سمعنا كرامة لجدِّه الشيخ سعيد بن عيسى العمودي نفع الله به ، وذلك أنه دعا على أهل بلده إن بغوا على أحد أن لا يُنصَروا ، ودعا لهم إن بُغِيَ عليهم أن لا يُنْصَر الباغي ، وكذلك دعا لزروعهم أن لا يضرها الجراد والدَّبَا، ولقد رأينا زرعهم بسنبله على أصلح حالة ما دخلته جرادة

---

(١) فراغ في الأصل .

واحدة ، ولا مَسَّ شيئاً منه ضرر ، ورأينا زروع أهل الهجرين قد أكلها وأتلفها ولم يَبْقَ فيها عوض ، والزرعان متحاذيان مابينهما إلا سوم - أي تل - فاصل بينهما كما بين الجربين ، وترى الجراد إذا طار في الهواء لا يعلو فوق زروع أهل قيدون ، وهذا قد رأيناه كذلك رأي العين، فاعجب لهذه الكرامة العجيبة . والرجل الآخر الذي ذَكَرَ أنه معه قد سَكِرًا من خمر الظلم ، فما يفيقان إلا في القبر ، هو : عمر بن جعفر الكثيري سلطان حضرموت ، وقد مات في عمان طريداً شريداً ، سمعنا أنه مات قتيلاً بهدمٍ ، سَقَطَ عليه جدار فقتله بصحار من أرض عمان، وذلك عاقبة ظلمه كما وصفه بالظلم ، وكثرة مخالفته لأشوار سيدنا عليه .

وهذا كلامه فيه آخراً لما أَيِسَ من هدايته ورشده ، وقد كان أولاً يحبه ويثني عليه ويشير عليه بالأشوار الصائبة ، ويأمره بالأوامر الصالحة مشافهة وفي مكاتبات كثيرة كما هي تراها في المكاتبات، يأمره ويسدِّده لما كان طامعاً في هدايته وأن يعمل بقوله وفي كل ذلك يخالف أوامره وأشواره ، فلما جرَّبه بالخلاف تركه وأبغضه ودعا عليه ووصفه بالظلم وحاق به سوء عمله ، وقال فيه هنا ما قال .

وفي غير هذا المجلس أيضاً ذَمَّه بالظلم والخلاف في مجالس كثيرة ، ومن قوله فيه أولاً قبل ذلك لما كان طامعاً منه في الاتباع فيمدحه ويثني عليه ويحبه ، وذلك أن في العادة التي أمرني بها وتعودتها أنه إذا بات في البلد ، أني أغبش له من الحاوي وأخرج معه ، فبات ليلة في البلاد وأتيته على العادة ، وإذا به عنده في الغيلة ، وحدهما يكلمه ويحثه على أمور مما يتعلق بمصالح المسلمين ، فجلست في الضيقة ولم أصعد إلى عنده تأدباً ، إلى أن نزل ثم نزل سيدنا بعده ، فصافحته وقَبَّلت يده فقال : « **لما كان هنا ، قد جيت ؟** » ، قلت : نعم ، لكن أحْسَسْتُكم معه تكلمونه ، وليس عندكما أحد ، فجلست في الضيقة وما صعدت عندكم ، فقال : « **أحسنت ، نحن الغنى وهو الفناء** » ، في كلامٍ سيأتي فيما بعد ، فهذا كلامه فيه لما كان راجيه ، وذلك كلامه لما قلاه .

وإنما عيَّنتُهما وقد ذَكَرَهُما بالإشارة بلا تعيين لفائدة ، وإنما ذَكَرَهُمَا كذلك كراهة لطاريهما من أجل ظلمهما ، وإلا فلا غيبة لهما ، لأن من تظاهر بالمنكر لا غيبة له، وقد قال مرة : « **وددنا أن نُطَهِّر مجالسنا من ذِكْرِهم أو جلوسهم فيها - يعني الظلمة - لفائدة** » ، وهي كالفائدة في ذِكْر شرَّاح الحديث ، حديث : « مَرَّ النبي ﷺ بقبرَيْن قال : إنهما لَيُعَذَّبان ، وما يُعذَّبان في كبير » ، فذكرهما الشُّرَّاح وعيَّنوهما أنهما فلان وفلان من كبار الصحابة الأنصار .

وفائدة التعيين : أنك إذا أُمِرتَ بِفِعْلِ خيرٍ وذَكَرْتَ فاعله وعيَّنته بعينه وما حصل له من الخير على فعله كان ذلك أبلغ في الترغيب ، وإذا حذَّرتَ من فِعل شرٍّ ثم عيَّنت فاعله وما حصل عليه من أجله من الشر كان أبلغ في التحذير . كما عيَّن ﷺ ما حصل عليهما حيث قال : « إنهما لَيُعَذَّبان ، وما يُعَذَّبان

في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبري من البول » ، وجميع روايات البخاري وأكثر روايات مسلم : « لا يستنزه من البول ، وأما أحدهما فكان يمشي بالنميمة » ، فعَيَّن الفعل وما جوزيا عليه في الصحاح مبالغة في التحذير ، وعُيِّنا في غير الصحاح كما ذَكَر الشُّرَّاح زيادة في المبالغة .

وقوله : « وما يُعَذَّبان في كبير » ، أي في مشهدهما لقرب عهدهما بالإسلام ، فإذا عُيِّن الفاعل وفعله وجزاه عليه من خير أو شر ، كان أبلغ في الأمر والنهي ، سيما إذا كان الفاعل أو الفعل لا يؤبه له ، فغيره من باب أولى . كما رؤي الإمام الغزالي في النوم ، فسئل : « ما فعل الله بك ؟ » ، قال : « غفر لي بمدادة في القلم رفعته لأكتب فوقع عليها ذباب يشرب فتركته حتى روي » ، فما ذَكَر أنه غفر له إلا بهذا الأمر اليسير .

وهذه الأمور السهلة التي لا يؤبه لها في العادة وتُستَحقَر ولا يُلتَفت إليها في النفع ، فربما أنها تنفعه في مضيق من أمره فعاد عليه غيرها ، وهذه هي موجبات الرحمة المسئولة في الدعاء : « اللهم إني أسألك موجبات رحمتك » ، فلا ينبغي أن يستحقر من أعمال الخير شيئاً ، وإن كان حقيراً في النفس بالنسبة إلى غيره ، كما ورد: « لا تستحقرنَّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقَ أخاك بوجهٍ طلق » ، وورد أيضاً : « إذا التقى المسلمان فتصافحا وتكاشرا قسمت بينهما مائة رحمة ، تسع وتسعون لأحسنهما بِشْراً ، وواحدة للآخر » ، لأن البِشْر والوجه الطَّلق علامة على حسن الخلق ، وهو أرجح الأعمال في الميزان ، كما ورد: « وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بحسن الخلق وطلاقة الوجه » ، وإنما كان حسن الخلق أرجح من الأعمال الظاهرة لأنه من أعمال القلب ، وذرة من أعمال القلوب تعادل أمثال الجبال من الأعمال الجسمية الظاهرة ، وهي لا تنفع بدونها ، وإنما كان نفعها إذا كانت معها ، وأما دونها فلا .

انظر إلى أعمال المنافقين لمَّا كانت منفردة عنها ضَرَّت وما نفعت ، فإن التوحيد أشرف أعمال القلب، وما تنفع الأعمال إلا إذا صحبها ، وضررها إذا كانت بدونه أن جعلوا في الدرك الأسفل من النار ، وأهل الكفر الظاهر فوقهم فيها لزيادة المخادعة كما قال تعالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾الآية .

فالإنسان ربما عنده كثير من الأعمال مثاقيل الجبال ، فيشدد عليه الحساب ويشتد به الكرب ، ويتخلف عنه نفع أعماله ، ويرى أنه هالك ولا يعرف له نافع من عمل ، وإذا قد ادَّخر له ربه من تلك الأمور المحتقرة التي لا يراها خصلة واحدة ، أخفاها سبحانه عنه وعن الحفظة الكرام الكاتبين ، وادخرها له وغفر له بها ورَحِمَهُ بسببها ، وإنما ذلك لسابقةٍ له عند ربه لا لأجل عمله ، فإن عمله تخلَّف عنه حينئذ ، وانقطع منه رجاه ، وإنما العمدة والنجاة على سوابق الخير ، سيما إن صَحِبَها العمل فلهذا سُمِّيَت موجبات الرحمة ، أو كان كثير الخطايا والذنوب لا يعلم لنفسه حسنة وتمد له سيئاته ، كالذي يمد له تسعة وتسعون سجلًا من الخطايا كل سجل مد البصر ، فإذا أيس من النجاة رُفِعَت له كلمة لا

إله إلا الله في بطاقة دون الإصبع وتوزن مع تلك السجلات فترجح بها كلمة التوحيد ، لا يوازنها شيء عند الله ، كل ذلك موقوف على إرادة الله سبحانه .

وقال سيدنا لذلك الرجل المتعلق بالعلم الظاهر عند الإلباس ، وقد ألبس جماعة وهو حاضر وألبسه معهم ، ثم قال له : « إنما يكون الإلباس والتلقين لواحد مرة واحدة ، ولكن إذا حصل كذلك وهناك ممن قد لبس وتلقن ، أو ممن ليس من أهله كعامي وبدوي كما فعلناه في هود ، فإنَّا إذا ألبسنا أحداً دخل مع من حضر تبعاً لا مقصوداً ، ومن هذا الجانب قد يتكرر ، وإلا فلا تكرر ، لأن المقصود بذلك واحد وغيره تبعاً له ، لأن هذه الأشياء عزيزة عند أهلها ، فإن بذلها فيه ابتذالها ، ولا يجوز لأحد من المشايخ أن يبتذلها ، ولو فعل مُنِعَ لأنها عزيزة . ألا ترى أن المِسْك لو كثر هان ، ولو أكثرت من شَمِّه هانت رائحته عندك ، فكيف بالأمور الإلهية ؟ وقد ذكر الإمام الغزالي أنه لا عزيز على الحقيقة إلا الله سبحانه وصفاته ، وأن شروط العزة ثلاثة : أن يكون عزيز الوجود ، وأن تكون الحاجة إليه داعية، وأن يعسر الوصول إليه . وما زال صاحب التلقين والإلباس حيًّا فيتلقن منه ، ويلبس ومن واسطة بإذنه ويأخذ الناس لهم ولمن أحبوا حتى أولادهم وأهلهم . ألا ترى لو وصل مركب إلى البندر كيف ترى كلًّا يأخذ منه ، وأهل الطريق عليها إلا ما بين كونه بجنبك وتراه، أو لا تراه أو بعيد منك ، وإذا سقطتَ في الطريق لا بد ما يحملك المارون ، وهذا معنى لا يهلك مع الله إلا هالك ، وهو ملزم له بذلك ، وإن رمى نفسه في غير الطريق فلا يعلم به أحد ، وهو الهلاك » ، أو كما قال ، كل ذلك بعد صلاة ظهر يوم الثلاثاء، رابع ربيع أول سنة ١١٢٦ هـ .

أقول : قوله : « لواحد مرة واحدة » ، أي من أذن في تلقينه مرة واحدة ، يعني يدخل بها في الطريق، ولا يحتاج في دخوله إلى أكثر ، وإنما ما زاد مجدِّداً لها ومؤكِّداً كشهادة التوحيد يدخل بها في الإسلام بمرة واحدة ، وما زاد مجدِّداً لذلك ، كما ورد : « جدِّدوا إسلامكم بقول : لا إله إلا الله » .

قوله : « ليس من أهله » ، أي أهل طريق الخصوص ، « كعامي وبدوي » ، فيكون مع جملة العموم فيقولها مع أهلها كما يقولها وحده وإذا سمعها من الشيخ وقالها معه فزيادة في تخصيصه .

والإبتذال : قلة الإحترام بإذنه ، أي إذا ألبس أحداً وأذن له في الإلباس فيكون واسطة بين الشيخ وبين اللابسين منه ، فيعد كمن لبس من الشيخ بنفسه ، وهذا بأمرٍ من الله ، كما جعل جماعة ممن لم يحضر بدراً كمن حضرها ، حتى لو حلف بالطلاق أنهم منهم لم يقع الطلاق .

وقوله : « ملزم له بذلك » ، أي من له من ذلك نصيب ، لا بد أن يهيء الله له من يوصله إليه ، كما

أرسل أبومدين من المغرب الإنس لسيدنا الفقيه نقده وجمعة .

ومعنى كونه في الطريق أو غيره راجع إلى مراد الله في عبده من جعله له نصيباً أولاً ، وهذا من غامض معانيه .

ومماأشار إليه من قول الإمام الغزالي في العزة . ذَكَرَهُ في « المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، في شرح اسمه « العزيز » . قال : « العزيز : هو الخطير الذي يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه . فما لم تجتمع هذه المعاني الثلاثة لم يطلق اسم العزيز عليه ، فكم من شيء يَقِل وجوده ، ولكن إذا لم يَعظُم خطره ولم يكثر نفعه لم يُسَمَّ عزيزاً ، وكم من شيء يَعْظُم خطره ويَكْثُر نفعه ولا يوجَد نظيره ، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يُسَمَّ عزيزاً كالشمس مثلاً فإنها لا نظير لها ، والأرض كذلك ، والنفع عظيم في كل واحدة منهما ، والحاجة شديدة إليهما ، ولكن لا يوصفان بالعزة، لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتها ، فلا بد من اجتماع المعاني الثلاثة . ثم إن في كل واحد من المعاني الثلاثة كمالاًونقصاناً ، فالكمال في قلة الوجود يرجع إلى واحد ، إذ لا أقل من الواحد ، ويكون بحيث يستحيل وجود مثله ، وليس هذا إلا لله تعالى ، فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان ، فيمكن وجود مثلها في الكمال ، وللنفاسة والكمال في شدة الحاجة إليه أن يحتاج إليه في كل شيء ، حتى في وجوده وبقائه وصفاته ، وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالى ، والكمال في صعوبة المنال أن يستحيل الوصول إليه على معنى الإحاطة بكنهه ، وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالى . فإنَّا قد بَيَّنَّا أنه لا يعرف الله إلا الله ، فهو العزيز المطلق الحق ، لا يوازيه فيه غيره » .

وتقدم قوله ، فإن قلت فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى فنقول نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، فمعرفتهم بالحقيقة هي إنهم لايعرفونه وإنهم لا يمكنهم البتَّة معرفته ، وإنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة المحقَّقة المحيطة بكُنْهِ صفات الربوبية إلا الله تعالى ، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافاً برهانياً كما ذَكَرْنَاه فقد عرفوه ، أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته ، وهوالذي أشار إليه الصديق الأكبر حيث قال :« العجز عن درك الإدراك إدراك » ، بل هو الذي عناه سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه حيث قال : « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك » ، ولم يرد به أنه عرف منه ما لم تطاوعه لسانه في العبارة عنه، بل معناه أني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك ، وإنما أنت المحيط بها وحدك . فإذاً لا يحظى مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة ، وأما اتساع المعرفة فإنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته ، وفيه تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء، فذلك مفتوح للخلق وفيه تتفاوت مراتبهم ، فليس من يعلم أنه عالم قادر على الجملة ، كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد ، واطلع على بدائع المملكة

وغرائب الصنعة ، مُمْعِناً في التفصيل ومُسْتَقصِياً دقائق الحكمة ، ومُستَوفِياً لطائف التدبير، ومُتَّصِفاً بجميع صفات الملائكة المقربين من الله تعالى ، نائلاً لتلك الصفات نيل اتصاف بها ، بل بينهما من البون البعيد ما لا يكاد يحصى.

وفي تفاصيل ذلك ومقاديره تتفاوت الأنبياء والأولياء ، ولن يصل إلى فهمك إلا بمثال - ولله المثل الأعلى - ولكنك تعلم أن العالم التقي الكامل مثلاً مثل الشافعي رحمه الله ، يعرفه بوَّاب داره ، ويعرفه تلميذه المزني ، والبوَّاب يعرف أنه عالم بالشرع ومصنِّف فيه ومرشِد خلق الله إليه على الجملة ، والمزني يعرفه لا كمعرفة البواب ، بل يعرفه معرفة بتفاصيل صفاته ومعلوماته ، بل العالم الذي يُحسِن عشرة أنواع من العلوم مثلاً ، لا يعرفه بالحقيقة تلميذه الذي لم يحصل إلا نوعاً واحداً ، إنما عَرَفَ على الحقيقة عُشْرَهُ إن ساواه بالتحقيق في ذلك العلم ، حتى لم يقصر عنه ، فإن قصر عنه فليس يعرف في الحقيقة ما قصر عنه إلا بالاسم وإيهام الجملة ، وهو أنه يعرف أنه يعلم شيئاً سوى ما علمه .

فكذلك فافهم تفاوت الخلق في معرفة الله تعالى ، فبقدر ما انكشف لهم من معلومات الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته في الدنيا والآخرة والملك والملكوت تزداد معرفتهم بالله تعالى ، وتقرب معرفتهم من معرفة الحقيقة .

« تنبيه : العزيز من العباد ، من يحتاج إليه عباد الله في أهمِّ أمورهم وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية ، وذلك مما يقل لا محالة وجوده ويصعب إدراكه ، وهذه رتبة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ويشاركهم في العزِّ من ينفرد بالقرب من درجتهم في عصره كالخلفاء وورثتهم من العلماء ، وعزة كل واحد منهم بقدر علو رتبته عن سهولة النيل والمشاركة ، وبقدر عنايته في إرشاد الخلق » ، انتهى ما أردنا تلخيصه من كلام الإمام الغزالي في « المقصد الأسنى » .

والمراد الكلام على كلماتٍ تَقَدَّمَت : « لا يعرف الله إلا الله » ، أي لا يعرفه حقيقة غيره ، لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، أي ليس كمثله شيء مما عداه ، وإنما يعرف الشيء من هو مثله .

وأنشد أبو حيان الأندلسي في شرح أسماء الله الحسنى :

جَـلَّ المهَيمِـنُ عَـنْ صِفَـاتِ عَبيـدِه ... وَلَقَدْ تَعَالى عَنْ عُقُولِ أُولي النُّهى

رَامُـوا بِوَصْفِهِـمُ صِفـاتَ مَلِيكِهِـمْ ... وَالوَصْفُ يَعْجَزُ عَن مَلِيكٍ لا يُرى

أنشدهما في صورة المناظرة مع المجسِّمة فكلما تصوره مخلوق من الخلق فهو مثله فما تصور إلا ما هو من جنسه ، والله سبحانه هو العارف بحقيقة نفسه وصفاته .

وما مع الخلق أيضاً من معرفة صفاته تعالى إلا آثارها التي يرونها بأبصارهم أوبصائرهم التي يتفاوتون في المعرفة بمعرفتها ، ولهذا قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : « ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » ، ولهذا كان كمال المعرفة بذلك ، هو كمال المعرفة بالله ، كما ذكر عن النبي ﷺ وعن صاحبه رضي الله عنه ، وأيضاً معرفة ذلك ليس هي بالطوع والاختيار متى أراد ، إنما ذلك باختيار من الله سبحانه ، ونفحات منه في أوقات ، كما ورد : « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها » .

وسيأتي سؤالي لسيدنا : بماذا يكون التعرض ؟ وجوابه ، ومنه أنه قال : « **أن يكون في وقتها منتبهاً فإن النائم غير متعرض ، كما ترى من نفسك في بعض الأوقات يحصل لك خشوع ، وإقبال قلبك على الله ، وفي أوقات بخلاف ذلك ، كما ورد : إن قلب المؤمن أحياناً يمتلي إيماناً حتى لا يجد للنفاق مغرز إبرة ، وأحياناً يمتلي نفاقاً حتى لا يجد للإيمان مغرز إبرة . ففرقٌ بين اختلاف أحوالك ، وكونك في وقت أكمل إيماناً منك في وقت ، واعرف بذلك تفاوت ما بين الأنبياء والأولياء من التفاوت في المعرفة ، كما قال تعالى :** ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾» .

يعني بما فضَّلهم الله من ذلك الكمال ، الذي حق لمن كَمُلَ فيه أن يكون أكمل من غيره ، فإذا رأيت إنساناً ساكن الجأش عن التعلق بأسباب المعاش ، وصابراً بل راضياً بما أقامه الله فيه ، مع قيامه بحقوق الله عليه ، ألا تراه أفضل ممن يكدح ولا يبرح طول وقته ليله ونهاره في أسباب دنياه وهمومها ؟

وقوله : « انكشافاً برهانياً » ، أي اعتقاداً قويًّا جازماً ، عن علامة قاطعة ، وأثر من آثار القدرة واضحة ، وأثَّر ذلك في قلبه تأثيراً بالغاً ، حتى أشغله عن جميع أسباب دنياه ، وأزعجه إلى الإقبال على مولاه ، باتباع كل ما يرضاه ، فذلك إيمانه هو الإيمان الكامل ، ومعرفته هي المعرفة التي أكمل ما يعرفه تعالى بها الخلق ، وليست بالمكاسب إنما هي بالمواهب ، ولكن التعرض للنفحات مطلوب ، كما ذَكَرَهُ في « رسالة المريد » عما ذكر في الحديث هـ .

وشكى إليه بعض الناس ما مع الناس من التعب من عدم الغيث ، وقلة الرحمة وقحط البلد ، *فقال له* : « **فرِّح الناس وبشِّرهم عن سعة رحمة الله ، فإنهم يغترفون من بحر لا يخشى منه الإنقطاع ، وإن عصوه فإنه لا يعجل عليهم ، بل يمتِّعهم إما إلى مدة آجالهم ويجازيهم في الآخرة ، وإما أن تُقْبِل عليه قلوبهم** » .

فقال له ذلك الشاكي : « يا مولانا ، إني أريد أن أبشر بالرحمة من قولكم ، فإن الناس في ضيق»،

قال له : « إن ربك قد وصف نفسه بالرحمة ، فقال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، فبَشِّر بالوصف ولا تُبَشِّر بالقول ، فقل لهم يسترحموه يرحمهم ، يسترحمونه بأفعالهم - أي بالعبادة - وأقوالهم- أي بالدعاء- ليرحمهم » .

وَذَكَرَ تأخر الرحمة في البلد مع حصولها لغيرها فقال : « عسى إنها تأخرت للوقت لا لغضب ، فما خوفنا إلا من ذلك ، ولو أراد أن يعذبهم بذنب واحد ، لكن رحمته أوسع ، وهو يمهلهم لأنه واثق بأخذهم ، إذا أراد لا يفوتونه . فمن أراد له منهم خيراً وفقه لتوبة وعمل صالح ، ومن أراد به غير ذلك فليس يفوتونه ، وعسى أن تحصل توبة وعمل صالح ، فيكون مثل قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل أن يسقيهم بمن منعهم بسببه ، إذ كان مُصِرًّا على معصية فتاب بينه وبين ربه ، وذاك نبي يعمل بالوحي ، وبنو إسرائيل فيهم أيضاً تخليط ، ولكن هذه الأمة لمَّا كانت آخر الأمم ، وقريبة من الساعة ، ينبغي أن يكون تعلقهم بالآخرة أكثر ، فإنها آخر الأمم ، وتلك أمة جاءت من بعدها أمم » هـ .

أقول : قوله : « وعسى أن تكون من توبة .. إلخ » ، أي كما شكى هؤلاء من قلة المطر والقحط بسبب ذنوبهم ، فعسى تحصل منهم توبة تمحى بها هذه العقوبة عن فاعلها ، فيحصل لهم من ذلك ما طلبوا ، فيكون سبب غيثهم هو سبب قحطهم ، وعدم سَقْيِهم من معصية من عصى . وتوبتهم كقصة بني إسرائيل لما قحطوا ، خرج بهم موسى عليه السلام ليستسقي معهم ، فصلّوا ودعوا فلم يمطروا ولم يغاثوا ، فسأل موسى ربه عن سبب منعهم، فأوحى الله إليه أن فيكم عاصياً منعتكم بسببه ، فقال موسى : « يا ربِّ من هو حتى نخرجه من بين أظهرنا ؟ » ، فقال سبحانه : « أفأنهاكم عن النمامة وأكون نماماً ؟ لكنك نادِ وقُل : أيها العاصي اخرج من بيننا ، فإنما مُنِعْنَا القطر بسببك » ، فنادى سيدنا موسى كما أُمر ، فتلفت ذلك العاصي يميناً وشمالاً فما رأى أحداً خرج من بينهم ، فألهمه الله فقال في نفسه : « والله ما المراد بالنداء غيري ، وإن خرجتُ من بينهم افتضحت » ، فاستغفر ربه بقلب خالص وتاب بينه وبين ربه فسقوا ، فقال موسى : « يا ربِّ ، سُقِينا وما رأينا أحداً خرج من بيننا » ، فقال سبحانه : « سَقَيتكم بالذي مُنِعتُم به لما تاب توبة خالصة ، بيني وبينه وما علم به أحد » ، فقال موسى: « ربِّ أرني هذا العبد الصالح أنظره » ، فقال تعالى : « لا أنهى عن النمامة وأكون نمَّاماً » ، وهذا معنى قول سيدنا ذلك .

وقوله : « وذاك شيء يعمل بالوحي » ، أي على ما ذَكَرَ من مراجعته الكلام بينه وبين ربه بما أمره ونهاه ، وما أخبره به من عدم السَّقْي وحصوله .

وقوله : « فيها تخليط » ، أي أعمال صالحة مختلطة بعمل سوء ، كقوله تعالى : ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾

وقوله : « ولو أراد أن يعذبهم بذنب واحد » ، وقوله : « واثق بأخذهم إذا أراد » ، وقوله : « فمن أراد له منهم خيراً » ، وقوله : « ومن أراد به غير ذلك » ، كل ذلك مما ذَكَرَ في هذا المجلس ، وما ذَكَرَ في كثير من المجالس غيره ، بل قَلَّ أن يخلو مجلس من مجالسه عن ذلك . وما في معناه كله يدل على أن إرادته سبحانه المجازاة بخير أو بِشَرٍّ لمن أراد له ذلك أنها هي الأصل ، وأن الأعمال منهم والمجازاة لهم منه سبحانه عليها تابعة لذلك ، وذلك جارٍ في جميع الأسباب : أسباب الخير ، وأسباب الشر ، الدنيوية والأخروية . وإن مَن أراد له الجزاء بالخير أو الشر أراده له قبل وجوده وقبل فعله ما عليه الجزاء ، ثم أجرى عليه الفعل ليوقع عليه الجزاء ، ثم أجرى له الجزاء عليه كما أراد من جزاء في الدنيا أو في الآخرة، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ في الخير والشر .

وجزاء الدنيا في الخير يسمى الحسنات ، وفي الشر يسمى السيئات ، كما قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، أي على الخير والشر ، وهما الخصب والسعة فهي الحسنات ، والقحط وضيق المعاش هي السيئات ، وفي الآخرة هما الإثم والثواب على السيئات والحسنات .

وكل ذلك على ما سبقت به إرادته تعالى لكل أحد ، إما بسعادة أو شقاوة ، وأنه سبحانه جعل ظاهر الجزاء إنما هو على الأعمال حثًّا على التقوى ، ومبالغة في الأمر للعبد بامتثال أوامر سيِّده وما يرضيه ، وتجنب ما يسخطه ، وهو الجاري كثيراً في كلام الله وكلام رسوله ، وكلام الدعاة إليه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ، وقال ﷺ لمّا جمع الناس ووعظهم: « أيها الناس، إني لا أملك لكم من الله شيئا » ، وحثّهم على الإسلام والطاعة وتجنب الكفر والمعصية، وحذّرهم ونصحهم ، وقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾، وهذا هو ظاهر الشريعة ، وذلك المعنى هو باطن الحقيقة .

فإنما الحقيقة إن الأعمال والجزاء عليها تابع للإرادة منه سبحانه للأعمال وللجزاء عليها ، وهي إلا مثل للجزاء ، والأعمال أسباب للجزاء حيث أراده ، فهذا هو مشهد الخواص أهل الحقيقة ، كما دلّت عليه آيات كثيرة ، كما سَنَذْكُر بعضها للإستدلال بها ، وعليها يحمل ما في بعض الآيات من تخصيص الجزاء بالأعمال ، وهو مشهد العامة المخاطَبون بالشريعة ، وهو حكم الله العام للخاص والعام ، كما قال سيدنا في تلك المقالة المبيِّنة لشأن الفريقين ، الخصوص والعموم ، أهل الحقيقة وأهل الشريعة كما تقدَّم ويأتي ، وهي قوله : « الخلق مكلوفون على ماخُلِقُوا له ، فإن الحق أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور » ، ثم قال لي : « احفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً » .

ولعمري إن مقالته هذه لمن أبدع الكلام ، وإنما نشأت من سِرٍّ وراثته لجدِّه ممن أوتي جوامع الكلم

ﷺ ، فإنها اشتملت على أحوال الفريقين الخواص والعوام ، وأحكام السعداء والأشقياء ، ومجامع أمور الخلق في معاملاتهم لربهم ، وفيما بينهم في العبادات والعادات ، وقد تقدَّم من تفصيل بعض معانيها بعض ما أجراه الله .

فمن المعلوم أن الله سبحانه جعل الإيمان والطاعة سبباً لرضاه ومجازاته بالخير ، لمن سبقت إرادته تعالى له ذلك ، وجعل الكفر والمعصية سبباً لغضبه ومجازاته بالشر لمن سبقت إرادته سبحانه له ذلك ، فإذا أراد سبحانه بعبد أيَّ الأمرين ، أجرى عليه سببه ، ثم أجرى عليه جزاءه . أعني بذلك الشرط ، وهو إرادته الجزاء ، وإرادته قديمة سبقت بما سبقت به ، قبل وجود العامل وعمله وجزاه ، فالعامي يرى ما ظهر من العمل وتعلق الجزاء به ، والمحقِّق يرى ما بطن من سبق الإرادة ، وتعلق العمل والجزاء به ، فإن الباطن كالشاخص والظاهر كالظلال ، وهو تابع له لولاه ما حصل ولا وجد .

فقد قال في بعض مكاتباته : « **والناس مقهورون في عين اختيارهم لما يريده الله منهم** ، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ » ، والدليل على هذا قوله تعالى :﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، يعني لمَّا أراد أن لا يجعل لهم حظًّا في الآخرة - يعني جزاء بالخير - وإنما أراد لهم في الآخرة الجزاء بالشر ، فأوقعهم في الكفر والمعصية التي هي جزاء الشر ، ومنعهم الإسلام والطاعة الذي هو جزاء الخير .

هذا في الشر ، وأما في الخير فقال تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ ، يعني أراد توبتهم فتابوا ، فالإرادة قد سبقت الفعل والجزاء في الخير والشر ، وكذا قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، أي أرادهم لها قبل خَلْقِهم، ثم خَلَقَهم لها وجعل مصيرهم إليها . والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

فهذا إيمان العارفين بسِرِّ القدر ، ويعلمون ذلك ذوقاً ، وهم والعوام يعلمون إيماناً أنه إذا سبقت الإرادة حتماً بالخير فلا تردها معصية ، ولو وقعت فلا بد ما تعقبها طاعة تمحوها كتوبة ، ولا يموت إلا على الخير فلا تضره تلك المعصية ، كما لم يضر طليحة رِدَّته عن الإسلام حتى مات على الشهادة شهيداً، وإذا سبقت إرادته تعالى حتماً بعبد الشقاوة فلا تنفعه طاعته ، ولا بد ما تعقبها معصية يختم له بها ، فلا نفع إبليس عبادته ثمانين ألف سنة حتى أعقبتها معصية إبائه السجود لآدم ، فبقيت هي خاتمته .

وأعني بقولي : « سبقت » ، أي سبقت السبب فتَقَدَّمَتْهُ ، فلا يؤثِّر السبب في تبدلها كما مَثَّلنا ، فقد يُلبِس أولياءه ملابس أعدائه ، وقد يُلبِس أعداءه ملابس أوليائه ، ثم عند الخاتمة يعكس الأمر فيجري عليه سبب ما سبق له من إرادته به وله فيعمله ويموت عليه ، فإن كان الخير فهو السعادة وحسن الخاتمة . ودليله قوله ﷺ: « إذا أحب الله عبداً غسله » ، وفي رواية : « عسله » ، بالمعجمة والمهملة ،

فقالوا : « يا رسول الله ، ما معنى ذلك ؟ » ، قال : « يوفقه لعمل صالح قبل الموت فيموت عليه » ، فهذا لمن أحبه ، ومن أحبه أسعده ، وما يسعد إلا من يحب ، ولا يشقي إلا من يبغض ، وهذا دالٌّ على سبق الإرادة للإثنين ، وإن كان الآخر وهو الشقاوة وسوء الخاتمة .

ولا بد من اتفاق الأمرين : السابقة والخاتمة ، ولا عبرة بما بينهما إذا خالفهما ولا يحقق الدلالة عليهما ، لكن الغالب إن عمل الخير يدل على حسب الأمرين معاً : السابقة والخاتمة . وعكسه أقل دلالة، وهو من معاني سبقت رحمته تعالى غضبه ، ومن معانيه أن الأعمال الحسنة لا بد ما يجازى عليها، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾، ولا كذلك السيئة ، فالغالب فيها العفو وقد يجزى .

وفي هذا المعنى دلائل كثيرة ، ويشهد له التمثيل بمن ذَكَرْنا ، بأن الولاية منه سبحانه ، والعداوة قد سبقت منه تعالى قبل وجود الولي والعدو ، وعملهما المقتضي للولاية والعداوة ، فافهم . ثم إن الخاتمة مجهولة لا يعلم بها إلا الله ، ولا تكون إلا وفق السابقة ، ولا عبرة بالعمل بينهما إذا خالفهما ، وهنا انقطعت ظهور الأكابر من خوف الخاتمة ، لأنها لا تتعلق بحسن عمل ولا بسيئه ، كيف وأفضل خلق الله، وأقربهم عند الله ، وأحبهم إلى الله رسول الله ﷺ مع طاووس الملائكة ومقدمهم، وأمين وحي الله جبريل عليه السلام ، جلسا يوماً يبكيان خوف الخاتمة، فأوحى الله إليهما : « ما يبكيكما ، وقد أمَّنتكما؟ »، فقالا : « يا ربنا ، لا نأمن مكرك »، يعني نخاف من مكرك ، ولو قد أمَّنتنا ، فقال الله سبحانه لهما : « هكذا كونا ، لا تأمنا مكري » - ذكره في كتاب الخوف من الإحياء - فأمرهما مع ذلك بما يزيدهما خوفاً ، أن لا يأمنا مكره ، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾، ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

وفائدة هذا المعنى : أن يعتدل الأمران في قلب المؤمن ، خوفه ورجاه دائماً ، ويترجح الخوف منه وقت صحته ونشاطه ، لئلا ينجر بالدعة إلى المخالفة ، ويترجح الرجاء حال ضعفه ومرضه ، سيما عند موته ، ليلقى ربه وهو حسن الظن به ، طامعاً في فضله ، فإنه سبحانه عند ظن عبده به .

فإذا ثبت إنما العمدة على الإرادة منه سبحانه ، فلا تختص فضيلة أو مزية بفلان دون فلان ، أو أن فلاناً أولى من فلان ، فإن هذا تشهِّي وتحكم بالعقل ، وليس من دين الله ، بل هو سبب بدع وضلال عن دين الله ، وربما توهَّم لضلاله دلائل باطلة يفهمها على غير الصواب من الكتاب والسنة ، جَرَّه إلى ذلك عقده الفاسد في دين الله لا أصل لدلائله ، كما لا أصل لعقده ، فيحتج بفهمه الضال لضلاله، ويرى أنها الحق ، كتوهم الرافضة أن عليًّا كرم الله وجهه هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ، لكونه ابن عمه وصهره، واحتجُّوا لزعمهم ذلك بهذه الآية : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾الآية ، وبحديث غدير خم : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، حتى أجحفوا وزعموا أن معنى هذه الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، قالوا معناها : وإن لم تبلّغ فضائل علي فما بلَّغتَ رسالة الله ، فأراد الله تعالى إضلالهم لما أراد لهم جزاءه ، فأجرى عليهم سببه بفهم باطل .

فافهم معنى الإرادة البالغة منه سبحانه ، ويكفيك في ذلك شاهداً كفر امرأتي نوح ولوط ، وما نفعهما كونهما نساء الأنبياء ، لما أراد الله شقاوتهما حتماً سابقاً ، وما ضَرَّ امرأة فرعون ، كونها زوجة عدو الله فرعون ، لما أراد الله سعادتها حتماً سابقاً . ومثل ذلك إيمان الأنصار على بُعْدِ دارهم ونَسَبِهم ، وكفر أكثر قريش على قُربِ دارهم ونسبهم ، فسبقت إرادته تعالى أن يدخل الجنة عَبْدٌ حَبَشي ، ويدخل النار شيخٌ قُرَشِي ، وهذا من معنى ما تقدم من قوله : « **إن الله لا يعطي بالإستحقاق، وإنما يعطي بالمشيئة ، فإن وافق الإستحقاق المشيئة أجزل له العطاء** » ، ومراده بالإستحقاق القرابة ، كما يستحق بها استحقاق إرث المال ، فإن وافقَت الإرادة ذلك كان أبلغ ، وإن كان لا فلا يكون شيء إلا بها .

واعلم أن أفعال العباد ، خيرها وشرها فرع مشيئتهم وعنها نتجت ، ومشيئتهم فرع مشيئة الله ، وإنما نشأت عنها بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، ومشيئتهم وأفعالهم خلق لله، لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، فلما شاء لقوم جزاء الخير شاؤوا فعله ففعلوه ، وهو سببهم وسيجزيهم بها أراد لهم من الخير ، وشاء بقوم آخرين جزاء الشر ففعلوا سببه وفعلوه ، ليوقع بكلٍّ ما أراده لهم وأرادهم به ، حُجَّة لهم وحُجَّة عليهم ، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وسيأتي قوله لذلك الرجل : « **لأي شيء ما حليتم ، والمحلة عادتكم ؟** » ، فقال : « **نحن في الهِمَّة ، والمشيئة بيد الله** » ، فقال له : « **ما عليك ، مشيئة الله شيء ، ومشيئتك شيء آخر ، مشيئة الله قوية قاهرة، وإذا لم يرد شيئاً لم يقع ، وإنما هي هِمَّتك وعزمك** » ، وسيأتي ذلك مع ما عليه من الكلام ، وهو بمعنى الكلام هنا ، ولكن كما ترى هذه المادة تتكرر كثيراً في كلام سيدنا ، وكلما مَرَّ فيها كلام فعند ذِكْرِهِ يظهر لنا فيها شيء من الكلام في المعنى .

وإذا فهمتَ أن إرادته تعالى هي الأصل ، وأن الأسباب وجزاءها بحسبها وتابعة لها ، وأن ذلك جارٍ في كل شيء من أسباب الدين وأسباب الدنيا كما عرَّفتك ، فعلِّق قلبك بالإرادة الإلهية منه تعالى ، واعتمد عليها بقلبك ، واجتهد في اتباع أسباب الخير وترك أسباب الشر ، وذلك هو الشريعة واتباع الحكمة التي هي الشريعة ، وهو دليل السعادة وفيه الخير كله في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك كن متعلِّقاً بقلبك بربك ، وما أراده بك ولك ، ومسلِّماً الأمر لوالي الأمر ، فقد يجعل سبحانه سبب خير سبب شر إذا أراد ، وكذلك بالعكس . وقد لا يفيد ولا ينفع أحدهما في بابه، وينفع ويفيد في باب الآخر ، فيحصل أحدهما بسبب الآخر . أعني يحصل خير بسبب شر ، ويحصل شر بسبب خير ، كما في الحِكَم: « رُبَّ معصية أورثت ذلًّا وانكساراً ، خيراً من طاعة أورثت عِزًّا واستكباراً » .

واتباع الحكمة والشريعة التي هي الأسباب ، وامتثال الأوامر هي الأصل الذي يلزمك ، مع التعلق بالإرادة والقدرة - وهو الحقيقة - وهو روح وذلك جسم ، ولا بد منهما جميعاً ، كل واحد في محله : الأعمال الجسمانية : وهي الأفعال الشرعية على الجسم الظاهر لا بد منها ، والأمور الباطنة : وهي الروح من الإيمان المحقق والتعلق بالله ، لا بد منها في الباطن . إذ لا يستقيم روح إلا في جسم ، ولا جسم إلا بروح ، كذلك لا تستقيم شريعة إلا بحقيقة ، ولا حقيقة إلا في شريعة، كما قال: « **الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمنا لها ، وإن لم تتبعها طرائق فهي أخت الزندقة** » ، وقد تقدَّم هذا من قوله ، وماهو في معناه من قول السيد أحمد الهندوان . ومرادهما بالطريقة والطرائق هي الشريعة ، وهذا المعنى هو مشهد الخواص دون العوام ، وكل ذلك جارٍ في أسباب الدين والدنيا كما تقدم .

ومن أسباب الدنيا التداوي لكل داء بما يخصه من الدواء ، أعني الذي جعله الله سبباً للشفاء - أي عيَّنه لذلك - ولو له غيره ألف دواء ، فالذي خصَّصه الله سبحانه بحصول العافية من جملتها هو دواؤه، ولا يقدح ذلك في الباقي ، فقد يريده الله للشفاء في وقت آخر ، أو على يد رجل آخر ، لقوله ﷺ : « تداووا عباد الله ، فإن الله ما جعل من داء إلا جعل له دواء ، عَلِمَه مَن عَلِمَه وجَهِلَه مَن جَهِله»، أي علمه أنه دواء لتلك العلة فاستعمله ، ووافق الذي عيَّنه الله لشفائها وإلا لم ينفعها، وإن كان من طبيعته شفاءها ونافعاً فيها ، كما سنمثله لتفهم ذلك . وفي رواية في هذا الحديث بعدما ذكر : « فإذا أصاب الدواء الداء برئت العلة » ، أي أصاب الدواء المعين لبرئها دون غيره ، وإن كانت كلها نافعة له، فالجاهل إذا استعمل من تلك الأدوية شيئاً ، ولا أراده الله لتلك العلة سبباً قال : « ذلك لا ينفع»، أو داواه حكيم ولا أراد الله شفاءه على يده ، قال : « ما عنده علم » . فافهم أن الأمر ليس كذلك، « فلا ملام إذا لم يُسعِف القَدَرُ » ، فالأدوية بالنسبة إلى الإرادة ، لا إلى طبائعها وأحوالها، على أربعة أقسام : دواء نافع ، ودواء أنفع ، ودواء ضار ، ودواء لا يضر ولا ينفع .

فالدواء النافع : هو الذي إذا وضع على العلة ربما زادت ثم انطفت وبرئت ، وزيادتها دليل نقصانها وشفائها ، فافرح بذلك إن وقع لك لا تَهَبْ منه ، وذلك مثل زيادة برد الهواء عند طلوع الشمس ، علامة على انقطاعه وذهابه ، وزيادة ضوء السراج عند انطفائه ، ونشاط المريض عند موته حتى يظن عافيته ، وتسميه العامة راحة الموت ، فما يلبث بعدها ويموت . والدواء الأنفع : هو الذي إذا وضع على العلة نقصت وبرئت بلا زيادة . والدواء الضار : هو الذي إذا وضع زادت العلة ، وبقيت بزيادتها ولا برئت . والدواء الذي لا يضر ولا ينفع : هو الذي إذا وضع لم يتبين زيادة ولانقص . وهذه الإختلافات في الأدوية ليست بالنظر إلى ذواتها ، إنما هو بالنظر إلى الإرادة كما قلنا .

وسنبيِّن لك ذلك بالأمثلة ، وإنما كَرَّرنا الألفاظ الدالة على المعاني ، ليتأكَّد عندك المعنى المقصود

إنما النظر ، وتقسيمها إلى هذه الأقسام إنما هو بمقتضى الإرادة منه سبحانه لا غير ، فقد يكون الأنفع ضاراً والضار أنفع ، ويكون سبب خير سبب شر وعكس ذلك بحسبها، ولا يكون ذلك قادحاً فيما جُعِلت سبباً له من خير أو شر ، وحصول شفاء أو بلاء ، فهي على ما جعلها الله عليه ولكن إذا أراد الله ، إنما الحكم للإرادة - كما سنذكر في قصة موسى عليه السلام - وذلك جارٍ في كل الأسباب من أسباب الخير والشر ، كما قُرِّر كثيراً . فلا يغتر الجاهل بهذا المعنى ، وليجتهد في معرفته ويعتمد عليه ، وعلى هذا الوجه يجب أن تعرف الأسباب ، ألا ترى أن المرض سبب للموت مثلاً، ولكن حين يشاء الله لا بمجرد وقوعه ، وإلا لكان كل من مرض مات .

وبالنظر إلى ما ذَكَرْنا من أن العبرة بالإرادة في كل شيء دون السبب ، أخذ بترك التداوي بعض السلف ، إذ لا عبرة إلا بما أراده الله سبحانه لا غيره ، ولا عبرة بالأسباب ولا نظر إليها ، لكن حكم الشرع العام لكل الخلق الأمر بالتداوي ، نظراً إلى اتباع الحكمة ، وسنة الله التي قد خلت في عباده التي لا يسع أحوال الناس وعقولهم إلا هي ، كما يأتي قوله تعالى لموسى عليه السلام : « أتريد أن تبطل حكمتي بتوكلك عليَّ ؟ » ، فيجب مراعاة الأسباب واتباع امتثال أمر الله بفعلها في ظاهره ، مع الإعتماد على إرادة الله ، واعتقاد توقف حصول المقصود عليها في باطنه ، فهذا هو المذهب الحق ، فإن الظاهر هو أمر الله وحكمه بالإرادة الشرعية ، والباطن هو أمره وحكمه بالإرادة الأزلية ، ولا بد منهما في كل أمر ، ويجب اتباعهما في كل وِرْدٍ وصَدْر ، وهو الكمال المحقَّق ، وتجرُّد إحداهما عن الأخرى تفسق وتزندق .

فافهم كما تقدم ويأتي معنى ذلك من قوله ، كقوله : « **الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمنا لها ، وإن كانت حقائق مجردة فإنما هي أخت الزندقة** » ، وقول الإمام مالك: « من تَفَقَّهَ ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوف ولم يتَفَقَّه فقد تزندق ، ومن تفقَّه وتصوَّف فقد تحقَّق » ، والمراد بالتَّفَقُّه : اتباع الأعمال الظاهرة مجردة عن الأحكام الباطنة . والمراد بالتصوف : اتباع الأعمال الباطنة مجردة عن الأحكام الظاهرة . والتحقُّق : هو الجمع بينهما بفعل الظواهر مصحوبة بتلك البواطن . والتداوي من جملة ذلك الظاهر ، بأن تفعل الدواء امتثالاً للأمر ، وتعتقد أن العافية من عند الله وهذا باطنه .

كما أن مباني الإسلام هي ظواهر الدين ، والتوحيد والتقوى هي بواطنه ، وعلى طلب اتباع الأمرين المذكورين كل في محله وعلى وجهه ، في العبادات والعادات جاءت الشريعة المطهرة ، فإنها ما جاءت إلا على ما هو الغالب العام من أحوال الناس - كما تقرَّر ذلك مراراً - فإذا كان أحد من الخواص أهل مقام الرضا، وهم المقربون الزائدون في الهدى والإيمان على إيمان غيرهم ، كما قال تعالى في حق أصحاب الكهف : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، يعني الإيمان العام لهم ولغيرهم ، ثم قال فيما خصهم به على أولئك من زيادة الإيمان : ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ ، أي كمَّلناهم على الآخرين بهذه الزيادة ، حتى

فاقوهم في الحال والمآل ، في الأعمال والجزاء ، فهؤلاء لهم حال يخصهم ولا يشتبه عليهم الأمر ، فإنهم أعرف بالله وبأحكام الله من غيرهم ، ولا يسلكون إلا الطريق الأحب إلى الله ، كيف وهم يتلذذون بالبلاء الذي يتضرر به الآخرون ويتصبَّرون عليه .

وهولاء هم أصحاب الإيمان الأول - قبل الزيادة - أصحاب اليمين ، أهل مقام الصبر ، وهم أهل الطريقة التي وَرَدَ الشرع بها ، الذي هو خطاب الله العام للخواص والعوام ، فكِلا الفريقين عليها، ولكن لما رَقَّى الله من اختصَّ منهم إلى تلك الزيادة ، خصَّهم في بواطنهم بسبب زيادة الإيمان إلى معانٍ تبعتها عليهم ظواهرهم ، حتى صاروا في معاملتهم لربهم في مقام الرضا ، وأولئك لقصورهم وعجزهم عنها بقوا في مقام الصبر ، وهم على خير كثير ، كما قال النبي ﷺ ، لما بيَّن مقامَيْ الفريقين : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » .

وحكي أن سيدنا موسى عليه السلام مرض فبقى أياماً ثم شفاه الله بلا دواء ، ثم عاوده المرض وأبطأ عليه ، فنادته حشيشة : « خذني فَكُلْني ، فشفاؤك يحصل بذلك » ، فقال : « لا كرامة لكِ ، إن الله هو الشافي » ، ثم لما طال به المرض شكى حاله إلى الله تعالى ، فأمره أن يتداوى بها ، فتداوى بها فشفي ، فبعد مدة عاوده المرض فتداوى بها فزاد مرضه . فانظر كيف صارت الحشيشة في المرة الأولى دواء أنفع وفي هذه المرة دواء ضاراً لتفهم معنى ما قلنا ، أن اختلاف الأدوية إلى هذه الأقسام بالنسبة إلى إرادة منه سبحانه لا إلى ذواتها .

ثم إن سيدنا موسى شكى ذلك إلى الله عز وجل ، فقال سبحانه له : « اذهب إلى فلان الطبيب ، واخبره بِعِلَّتِك ، وافعل ما يقول لك » ، فمضى إليه وأخبره ، فدفع له تلك الحشيشة ، فأكلها فبرئ، فقال : « إلهي ، ما هذا ؟ » ، تعجب من اختلاف الأمر في الحشيشة ، فأوحى الله إليه : « يا موسى شفيتك من غيردواء لتعلم قدرتي، وشفيتك بالحشيشة لتعلم حكمتي ، ثم زِدْتُ في مرضك باستعمالها لتعلم قهري وسطوتي ، ثم أَحَلْتُكَ على الطبيب لتعلم ترتيب مملكتي ، فأنا الشافي أشفي من أشاء بما أشاء » ، فافهم بهذا ما قررناه لك وهذه القصة تحقق لك ذلك ، فالحشيشة لما أمره الله سبحانه باستعمالها، وحين أمره يعمل بقول الطبيب صارت له دواء أنفع، ولما استعملها من رأيه بنفسه صارت دواء ضار ، فما الذي جعلها تختلف هكذا والشجرة هي بعينها ، والعلة هي بعينها أيضاً ؟ فاعرف إنما الأمر من جانب الإرادة الإلهية ، لا من جانبها - أي الحشيشة- .

وروي : أنه كان في بني إسرائيل علة معروفة عندهم تعتريهم كثيراً ، ولها عندهم دواء معروف، فكل من أصابته تلك العلة تداوى بذلك الدواء ، فأصابت سيدنا موسى عليه السلام فلم يتداوى وطال عليه ذلك المرض ، فشكى إلى الله ، فأوحى الله إليه : « وعزتي وجلالي لا أبرئك حتى تتدواى

بما يتداون به ، أتريد أن تبطل حكمتي بتوكلك علي ؟ » ، فتداوى به فبرئ . هذا لما وقف سبحانه بُرأهُ على التداوي به ، وإلا فقد أبرأه أولاً بلا تداوي .

وفي حديث الذي شكى انطلاق بطن أخيه إلى رسول الله ﷺ فقال : « اسقِهِ عسلاً » ، فسقاه ، فأتاه ثاني يوم فقال : « سقيته عسلاً فزاد » ، فقال له : « اسقه عسلاً » ، ثم أتاه في اليوم بعده وقال : « سقيته عسلاً فزاد » ، هكذا ثلاثة أيام ، ثم أتاه في اليوم الرابع فقال له مثل ذلك ، فقال له ﷺ : « صدق الله ، وكذب بطن أخيك ، اسقِهِ عسلاً » ، فسقاه فبرئ .

وإنما توقف عنه البراء في الثلاثة الأيام ، لأن بُرأهُ مؤقت في تقدير الله بوقت معلوم لا يحصل قَبْله قط ، ولو تداوى بألف دواء ، فلما حضر حصل ، فلو وقف سبحانه البراء على دواء معلوم ووقت معلوم وحصل استعماله في وقته معاً حصل البرء في الحال ، وكذلك إذا لم يوقف على أحدهما ، بل أطلق البُرء بلا وقت ولا دواء حصل دونهما ، وإلا فلا يتأخر وصف أعلم العلماء ﷺ عن وقته الذي عيَّنه إلا للوقت الذي عيَّنه الله ، لا علاج عن ذلك أبداً ، ولذلك قال سيدنا عبدالله : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها ، فترى أشياء تحصل أسبابها فلا تقع ، فإذا حضرت أوقاتها وَقَعَت** » انتهى قوله .

وربما لم يحصل الشفاء إلا بعد الدواء بزمان لذلك المعنى ، ولو لم يعيِّن الله سبحانه للشفاء وقتاً لما تأخر عن وقت النبي ﷺ الذي عيَّنه بقوله : « اسْقِهِ عسلاً » - أي اسقه الآن - وربما حضر الوقت المعيَّن عند استعمال الدواء المعيَّن فحصل البرء في الحال ، ولو كان على يد غيره ﷺ فضلاً عنه .

وقال الحكماء لقصور نظرهم : « إذا قويت مادة العلة ، لا يكفي فيها استعمال الدواء إلامراراً كثيرة، في أوقات متطاولة » ، ولذلك تأخر شفاء بطنه حتى تكرر عليه الدواء وطالت مدته ، فيجوز ذلك إن وقفته الإرادة عليه ، فإنما العمدة عليها دون غيرها .

ثم نقول : إن النَّاقِهَ من المرض أو من هو في خطره ، لا بد له من الإحتماء عن أربعة أمور ، فإن عرض له منها واحد فهو في خطر رجوع المرض عليه ، ورجوعه أشد من ابتدائه ، لأن ابتدأه وهو في نشاط وقوة من بدنه ، وعَوْده عليه وهو في ضعف من بدنه ، ومع القوة يطيق ما لا يطيقه مع الضعف، وفي الغالب أن في انتكاس المرض انقضاء الأجل :

أولها : وهو أعظمها وأخطرها ، تعب القلب بهمٍّ أوغَمٍّ ، كما هو على موت عزيز أو ذهاب مال فائت ، وغير ذلك مما يوجب أحد الأمرين ، والفرق بينهما : أن الهم على أمرٍ متوقعٍ ، والغم على أمرٍ واقع . فلو كان غير مريض فربما مرض بسببه، فعليه منه خطر عظيم ، فكيف بالنَّاقِه من المرض الضعيف الحال . ثانيها : تعب الجسم بسعي أو حمل شيء ثقيل ونحو ذلك . ثالثها : كثرة الأكل حتى

يشبع ، والامتلاء من الزاد ، فينبغي أن يأكل دون الشبع ، ويقوم عنه وهو يشتهيه . رابعها : الجماع .

فكل واحدة من هذه عليه منها خطر من حصول المرض ، أو عَوْده عليه من الحمى وغيرها ، فكيف باجتماعها ، ومن جمعها وسَلِم فلا حجة له بذلك ، حيث لم يوافق في هذه المرة قدر وإرادة ، ومن له بالسلامة في كل مرة ، فيتوقى أسباب الشر أحوط وأسلم عاقبة .

فكل هذا الذي ذَكَرْنَا استشهادٌ على المعنى المذكور ، وتحقيقاً لقول سيدنا أولاً : « **فمن أراد له خيراً وفَّقَه لتوبة وعمل صالح ، ومن أراد له غير ذلك فليس يفوتونه** » ، وتبيينٌ وتحقيقٌ أن ذلك هو الحق ، وأن ما العمدة إلا عليه ، وأن خلافه هو الباطل ، ولوأن كل أحد يعرف ذلك علماً ، ولكن قليلاً من يتحقق به ذوقاً ، بل هو منهم قول باللسان بلا تحقُّق بذلك ، فتراهم يقولون أن الله هو الرزاق وأنه هو الفعال ، وما أحد غيره ينفع ويضر ، وهذا هو الحق الواجب اعتقاده على كل مسلم ولكنه يقوله بلسانه ، وهو مع ذلك متعلِّق قلبه بالأسباب إلى الغاية ، لا يرى النفع إلا من جهتها ، حتى نَسِيَ في ذلك مسبِّب الأسباب ، وصارت الدنيا آثر عنده من الآخرة ، فعمله كَذَّب قوله ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال . وعلى حسب إرادته تعالى يكون القضاء والقدر ، الحاكم على كل مخلوق بما أراده الله منه من خير أو شر ، لتنفيذ حكمه وليتم وعده للدارين بما وعد كلًّا منهما به من ملئها .

فالقضاء : هو حكم الله تعالى في سابق أزله بوجود كل ما أراد إيجاده من ذوات آدميين وغيرهم وأفعال ، وكل شيء يكون من خير أو شر أو مليح أو قبيح أو نفع أوضر . والقدر : هو إرادته تعالى إيجادها في وقت معلوم ، وعلى صفة معلومة ، عيَّنهما سبحانه لكل موجود يوجد ، لا يكون إلا كذلك، لا يتخلف شيء قط عما عيَّنه له من وقته ووصفه ، لا يتقدم على وقته ولا يتأخر عنه ، ولا يختلف عن وصف ما أراده .

والقضاء والقدر على نوعين كما تقدم : المحتوم : ويقال له : المبرم ، الذي لا يتغير ولا حيلة في دفعه، ولا يدخله محو ولا إثبات ، ولا يؤثِّر فيه سبب بحيلة عما أراده الله به ، ومن هذا النوع الأجل والرزق والسعادة والشقاوة وغير ذلك ، كالصلوات الخمس .

والنوع الثاني : المعلق ، وهو ما يدخله المحو والإثبات ، وتفيد فيه الأسباب كالتداوي ، ومنه فرض الصلاة خمسين ، فأثَّر في ذلك سؤال التخفيف ، وجعله الله سبباً لرفعها دون الخمس لأنها من المحتوم، فما أثَّر فيها ، كأحد الثلاث الدعوات التي سألها النبي ﷺ من ربه في مواقف الحج التي يستجاب فيها الدعاء من كل مؤمن ، فكيف هو ؟ فأعطي اثنتين لأنهما من المعلق ، ومُنِع الثالثة لأنها من المحتوم وتقدَّم ذِكْرهما . فالرقى والتداوي خصوص الأوراد ونحو ذلك تفيد في المعلَّق دون المحتوم .

وحاصل ذلك : أنه سبقت إرادته تعالى لقوم أحبهم بالسعادة حتماً ، فسيئاتهم محمولة ، وسبقت إرادته حتماً لقوم بالشقاوة ، فحسناتهم غير مقبولة ، وذلك بمحض اختيار منه سبحانه ، بلا وسيلة سابقة ممن أحب ، ولا جريمة سابقة ممن أبغض . كما قال سيدنا في التائية :

فَسَبْقُ سَعَادَاتٍ وَسَبْقُ شَقَاوةٍ بِمَحْضِ اخْتِيَارٍ دُونَ سَعْيٍ وَحِيْلَةِ

وذَكَرَ سيدنا أن بعض مشايخه كان إذا رآه مُقبِلاً عليه يَتَمَثَّل بهذا البيت ، مشيراً به إليه :

وَإِذَا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُها نَمْ فَالمخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

قال : « **وكنا إذا دخلنا على شيخنا السيد عبدالرحمن بن عقيل أيام مخالطتنا له يتمثل بهذا البيت :**

وَمَنْ رَعَتْهُ العِنَايَةُ في المجِيءِ وَالذَّهَابْ فَلَا يُبَالِي وَمَنْ خَانَتْهُ الاقْدَار خَابْ

وإذا دخل عليه عباد بن سعد ، وكان فيه بلوة واعتراض يتمثل ويقول :

وَإِذَا كُنتَ في المدَارِجِ غِرّاً ثُمَّ أَبْصَرْتَ حَاذِقاً لا تُمَارِ
وَإِذَا لم تَرَ الهِلالَ فَسَلِّمْ لِأُنَاسٍ رَأَوهُ بِالأَبْصَارِ

قاله في مخاطبته للسيد زين العابدين العيدروس في مجلسه عنده ، وذلك مجلس أنيس فيه مذاكرات وملآن بِذِكْرِ أخبار عن أناس صالحين ، ومن جملة كلامه فيه : « **احفظ الله يحفظك ، أصل أن تحفظ الله في أوامره ونواهيه ، وما له عليك من الحق يحفظك في كل شيء** » ، وكان ذلك بعد ظهر يوم الأربعاء في ٧ ربيع أول سنة ١١٣٢ وهو عام وفاته وكان عادة السيد زين العابدين يجيء للقراءة يوم الثلاثاء ، فحصل له مانع عن المجيء إذ ذاك ، فجاء في اليوم بعده ، انتهى .

وما أحسن ما قاله الشيخ عبدالله بن أبي جمرة في حديث بناء المسجد ، وقوله: « **فأمر ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، ثم بالخرب فسويت** » ، قال : « وهذه إشارة لمن سعد في الأزل ما ضره ما جرى عليه من الفتن ، يؤخذ ذلك من أنه لما كانت هذه البقعة قد سبقت لها السعادة العظمى وهي أن تكون منزلاً ولحداً لسيد بني آدم والمرفع في العالمين ، وأن تكون فيها روضة من رياض الجنة ، ما ضرها ما تداول عليها من أيدي المشركين ومخالفتهم إذا حسنت العقبى ، فكل قبيح يزول ، وإن فسدت فكل جميل يحول » ، انتهى كلام ابن أبي جمرة .

فالعبرة إذاً بما سبق للعبد من ربه لا بعمله ، لأنه تابع لذلك ، فهو على ما سبق له من سعادة بلا وسيلة سابقة من العبد ، أو شقاوة بلا جريمة سابقة منه ، بل بمحض اختيار من الرب ، وبمجرد

الإرادة منه له . والغالب أن السعادة يتبعها العمل الصالح ، والشقاوة يتبعها العمل الطالح ، وهكذا وعلى هذا غالباً ، وقد يتزيَّا الرجال - أعني السعداء - بزي ربَّات الحجال - أعني الأشقياء - تشبيهاً لهم بالنساء حيث لم يَعْرِفوا مصالحهم ويتبعوا ما ينفعهم ويتركوا ما يضرهم ، فإن الرجال هم كاملوا العقول ، والنساء قاصرات العقول ، وقد يَلْبَس الذّكْران براقع النسوان ، فقد يفعل السعداء قبائح الأشقياء ، ويجري على الأشقياء محاسن السعداء ، والعمدة على الخاتمة التابعة للسابقة ، كما تقدم قوله : « **والعبرة بالخواتيم** » ، لا بد من ذلك ، بأن يعقب طالح السعيد عمل صالح فيموت عليه ، وذلك هو حسن الخاتمة للسعيد ، ويعقب صالح الشقي عمل طالح فيموت عليه ، وذلك هو سوء الخاتمة للشقي . والحكمة في ذلك أن لا يغتر المحسنون وإن بلغوا الغاية في ذلك ، وأن لا يقنط المسيئون ولو فعلوا ما عسى أن يفعلوا ، وكيف يغتر المطيعون أو يقنط العاصون ومن ورائهم القضاء الحتم الإرادي المبرم ، الذي يُسعِد الشقي - أي العاصي - ويُشقِي السعيد - أي المطيع - . وتسمية السعادة والشقاوة بأعمالهما توسُّعاً من حيث اللغة العربية ، لأن المعروف من كل النوعين عمله الذي هو علامته، فإن الطاعة علامة السعادة ، والمعصية علامة الشقاوة .

والدليل على أن إرادته تعالى فِعل الطاعة ممن أرادها منه وضدها فعل المعصية ممن أرادها منه ، سبقت إرادة العبد لذلك وعمله له ، وأن عمله تابع لإرادته وإرادته سبقت عمله ، قوله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني أن مشيئة الله للعبد أن يشاء أحد الأمرين فيفعله، سبقت مشيئة العبد وعمله وبسبب مشيئته تعالى للعبد أن يشاء ويعمل ، شاء وعمل .

انتهى ما خطر لنا ذِكْره مما يتعلق بكلمة سيدنا المتقدم ذِكْرها ، وهي أن كل شيء متعلق بالإرادة ، لا يشذ عنها قليل ولا كثير ، ولا صغيرة ولا كبيرة ، ولا خطير ولا حقير ، فانظر كيف انجرَّ بنا الكلام إلى هذه المواد العجيبة والمعاني الغريبة ، فلهذا حثَّ الأكابر على مجالسته وسماع كلامه والإنتماء إليه ، وقالوا : « إن مجالسته عِلْم بلا تعَلُّم » .

وقد سألت سيدنا عبدالله نفع الله به : ما معنى كتب الأربع الكلمات بعد نفخ الروح فيه ، وقدها مكتوبة في اللوح المحفوظ ؟ فقال رضي الله عنه : « **تنسخ نسخة أخرى من اللوح المحفوظ ، على وفق ما هو فيه ، واختلفوا في أين تكون الكتابة من الشخص ، فقيل : في جبهته ، وقيل غير ذلك** » ، فقلت: أيتهما ؟ أعني الكتابتين التي يدخلها المحو والإثبات ، الأولى التي في اللوح المحفوظ ، أو الأخرى المنقولة والمنقول منها ، فقال : « **كل ما أحد يحكم على الملوك بثبوت شيء أو تركه يمحو ما أراد منهما ويثبت منهما ما أراد** » ، وهذا المعنى المقرر المذكور ، كثيراً ما يتكرر في هذا النقل من كلام سيدنا ، لأن عليه مدار الإسلام والإيمان والإحسان ، وعليه مبنى أصول الدين وفروعه ، وعليه ترتبت الشريعة

والحقيقة ، منه يفهم ومنه تعرف أسرار العبودية للربوبية ، فاعلم أن عليه المدار في الدين هـ .

وذَكَرَ الطب ، *فقال* : « **أصل الطب نبوي ، مأخوذ عن النبوة ، كما جاء أن كل يوم تنبت شجرة في محراب سليمان عليه السلام تقول له : أنا دواء لكذا وكذا. والأمراض أمور إلهية ، ولا ينبغي لمن طبه من الكتب أن يداوي إلا بالأمور التي يذكر فيها دواء وقوت ، فإن لم يكن دواء كان قوتاً ، ولا بأس بأن يداوي بالأمور التي أجمع أهل الجهة أنها داوء لذلك المرض ، حتى إن أفاد فذاك ، وإلا سَلِمَ من اللوم عند الناس . وكنت متعجباً كيف يتداوى من قرصة الحية بالعنبر ، مع أن كلًّا من العنبر وسُمِّها حار ، لكن رأينا كلاماً للإمام الغزالي أن سُمَّها إذا وقع في الجسم انقلب بارداً جداً** » هـ .

أقول : ذَكَرَ الحكماء أن أولى ما يتداوى به القوت المأكول إذا كان دواء لتلك العلة ، فإن لم يكن فبالدواء المفرد دون المركَّب ، فإن لم يحصل فبالمركَّب من دوائين ، فإن لم يكن إلا بزائد فيه . وكلما قَلَّت أجزاء تركيبه كان أولى من أكثر منه .

وذَكَرَ السموم ، *فقال* : « **أصلها من الحرارات ، وبالأمور الحارة الرطبة تداوى إن لم تمنع - أو قال : تنفع - لم تضر ، كالعسل والحبة - أي السويداء - وحب الحلبة. وأخبرنا بأن رجلاً أعجمياً كان بالمخاء ذا طب ، وكانت امرأة دلالة تترد إليه لبيع البضاعة ونحو ذلك ، فتواعد معها أن يحملها معه إلى بلاده ويتزوجها ، فسافر بها ، فلما كان في بلده تزوجها ، ففي بعض الأيام مكَّن منها قرداً ، فَحَمَلَت منه ، فوقع في قلبها حقد على الرجل ، فلما وضعت حَمْلَها أخذه وجعله في مرطبان ، وكان ليلة يتعشى معها إذ ناداه من الباب منادٍ فقام إليه ، وتبعته تتسمع ما يقولان ، كما هو عادة النساء التجسس ، فسمعت الذي طرق يقول له : إن الرجل قد حضر الآن ، فإن كان معك شيء فهيا به الآن ، فرجع وأخذ من ذلك المرطبان قطعة وناوله إياه ، فلما قام يناوله وقد فهمت معنى كل منهما أخذت منه قطعة فوضعته في القوت من جانبه ، فلما أخذ لقمة أحسَّ السم ، فتناول من المرطبان عظماً فضربها به ، فصار في وجهها مثل الكَيَّة ، فلم يثبت إلا لحظة ومات ، وإذا المرأة قد تورَّم بدنها ثم ماتت ، وإذا ذاك سُم ساعة** » هـ .

أقول : وفائدة ذِكْره لذلك التحذر من كيد النساء ، وعدم الثقة بأقوالهن وأفعالهن ، حتى يتبين له السلامة من ذلك ، وأن يراعى فيهن أمر الله ، وإلا رجع عليه الضرر ووقع في البلاء ، مجازاة له من الله على سوء عمله .

وذَكَرَ العنبر يوماً ، *فقال* : « **التجربة نافع للدماغ ، وإنه يتداوى به من قرص الحيات ، لأن سمها في البرودة في الدرجة الثالثة ، فإذا انتقل إلى البدن صار في الرابعة من البرودة ، فإذا قوبل بحرارة العنبر حصل الشفاء** » .

ثم ذَكَرَ أنواع الطيب من الماء ورد والدخون - يعني العود - ، *فقال* : « **إنا نحتاج إلى أمثال هذه الأشياء كثيراً ، لأن علينا في هذا مداراً كبيراً ، فنعطي من ذلك خيار الناس القريب في البلد ، وفي البلاد البعيدة غير ما نأخذه لأنفسنا ، فلا يستكثرنَّ أحد لنا ذلك . وقد ذَكَرَ بعضهم أنه ينبغي أن يكون الخرج على قدر الدخل ، والأحسن أن يكون الخرج ربع الدخل ، وأما نحن فلو أن أحداً تأمل في مدخولنا وما يخرج ، رأى الخارج أكثر** » .

فخطر لي عند قوله ذلك في الحال : فلأي شيء يكثر الخارج ، إذا كان الداخل قليلاً ؟ فالتفت إليَّ وقال في الحال ، وهو مقابلني بوجهه الشريف يخاطبني : « **لا يبلغ الإنسان درجة الكمال الباطن أو الكمال الظاهر ، حتى تكون له أسرار تخفى حتى عن ثيابه - أو قال : يخفيها حتى عن ثيابه التي عليه -** ».

قلتُ : ولما حفظتُ منه ما ذَكَر من منافع العنبر ، فاتفق في بلاد الحساء أن بعض الأخوان مرض مرضاً شديداً ، وسَكَنَت أعضاؤه وعروقه عن الحركة ، وما بقي فيه من أمارات الحياة ما يُعرَف به حياته ، حتى النَّفس لا يحس منه له أثر ، حتى أن زوجته عَزَمَت على الدخول في العدة ، فقيل لها : « توقفي حتى نتحقَّق وفاته » .

وسمعت أن بعض أقاربنا جاء من اليمن وعنده عنبر ، فأرسلتُ له طلبته عنبراً فأرسل لي بكسرة صغيرة كحبة اللوباء ، فَتَرَكْتُها في جيبي إلى يوم الجمعة لأتبخَّر بها للخروج للصلاة ، وما علمت بمرض ذلك الأخ ، فأخْبِرتُ عنه أنه على تلك الحالة فَسِرْتُ إليه مسرعاً لأراه قبل خروجه من الدنيا، وأردت الدخول عليه ، فمنعني أهله من الدخول وقالوا : « لا عاد يدخل عليه » . وكان في غرفته، وباب السطح مردود ومردوم بحجارة كبيرة ، وعالجتهم أن يأذنوا لي أدخل عليه ، فأبوا وامتنعوا أشد الإمتناع ، فعند ذلك تركتهم ودفعت الحجارة وطلعتُ السطح وهم كارهون وتحشدوا من ذلك ، ودخلت عليه وناديته مراراً فلم يجب ، وحسست أعضاءه وعروقه فما أحسست بشيء من أمارات الحياة فوضعت كفي على خيشومه أتحسس نفسه ، فما تبين لي منه أثر .

وكنت ناسياً للعنبر ولكلام سيدنا ، فلما أردت النزول ذَكَّرَنيه الله وكان في جيبي ، وذكرتُ كلام سيدي فيه ، فأشرفتُ على الخادم وقلت : ائتني الآن بمبخر فيه جمر ، فَأَبَتْ وقالت : « ما عندنا نار»، قلت : إِئْتِ به من خارج البيت . فَأَبَتْ وقلت : إن ما سِرْت حذفتك بحجارة ، فقالت زوجته أو أخته، وكانتا جالستين في الحوش ينطران من يريد الطلوع عليه ، وهما اللتان منعتاني عن الرقي عليه :

« تراك ألا شوشت علينا اليوم » ، قلت : احتملا تشويشي اليوم ، فما أنا كل يوم أجيكم أشوّش عليكم. فمضت الخادم كرهاً وأتت بالجمر ، وهم كلهم كارهون لهذا الفعل مني ، فجعلت كسرة العنبر في المبخر ، ووضعته قرب منخره ، وجعلت أهف على دخانه بيدي ، أرده إلى منخره ، وإذا به في لحظة يَجُرُّ نَفَسَه إلى خيشومه ليشتمه ، وإذا به قد فتح عيونه ونظر إليَّ ، فناديته فأجابني ، فقلت : كيف أنت ؟ قال: « طيب » ، قلت : أين كنت ؟ قال : « أنا هنا » ، قلت : كيف وقد ناديتك ولم تجبني إذ ذاك ، ولكنك الآن أنت هنا ، ثم بقيت معه في حكي وكلام ، ثم إنه طلب الزاد ، ثم نزلت من عنده وقلت لأهله : اصعدوا عنده . فطاب وصَحَّ وعاش بعد ذلك نحو ١٢ سنة .

وإنما هذه كرامة لسيدنا نفع الله به ، فإن كلامه مراهم شافية وأدوية نافعة ، وينطقه الله سبحانه بما فيه مصالح العباد ، في أوقات يريدها الله سبحانه ، ولو لم يحضر وقت حاجته ضَمَّ إلى وقت تحضر فيه حاجته ، كهذه القصة . فَبَيْنَ كلامه في مصالح العنبر وإشارته فيه إليه ، وبين وقوع هذه القضية وحضور حاجة كلامه فيها ، نحو خمس وعشرين سنة .

والعجب كيف برز منه هذا وذكره وظهرت به هذه الفائدة بعد هذه المدة ، وما حصل مباشرة هذا الأمر إلا بعد معالجة شديدة وكره شديد من أهله ، وغيظ قوي منهم ، وسعي بطوع في كره ، واختيار في غصب ، ورضا في غضب ، وهكذا جري القضاء والقدر إلى كل أمر يريده الله من العبد ، محمود أو مذموم من حيث الشرع .

ولسيدنا كذلك وقائع كثيرة ، تدل منه على قوة تصرفه بأمر الله ، كقصة تعبير رؤيا السباحة في الماء وإبائه عن التعبير لذلك المعنى المذكور في موضعه ، والإنسياق إلى فتح الكتاب ومعرفة التعبير منه ، وغير ذلك كما سترى في هذا النقل أشياء من ذلك انتهى هـ .

قال رضي الله عنه : « **هذه كلمة جامعة واقعة : من تعدَّى حدَّه ، رجع إلى ضده** » هـ .

أقول : يعني حد الشيء المحمود وسطه ، كما ورد : « دين الله الوسط » ، وقال سيدنا : « **كلما نأمركم به إنما نحثكم به على الوسط ، وخير الأمور أوساطها** » ، وكلما تعداه - أي خالفه - إما إلى قصور وتفريط دون الوسط ، أو زيادة عليه إلى إفراط ومبالغة رجع إلى الحد المذموم ، وهو ضد المحمود ، فالضمِيْرَيْن راجِعَيْن إلى غير مذكور في اللفظ ، اكتفاء بالعهد المعهود في الذهن هـ .

قال : « **اسلك ولا تتعمَّق ، فمن سلك مَلَك ، ومن تَقَصَّى هَلَك** » هـ .

أقول : هذا بمعنى الأول فافهمه ، بأن لا تتقصى في الأمور ، بل في الوسط المعتدل هـ .

وقال : « **إن الله خلق الدنيا ، وجعل فيها كثيراً من الشهوات ، ليأكل المؤمن قدر ضرورته فقط ، ويعبده في مقابلة ذلك ، ويترك شهواته لدار إقامته في الآخرة ولا يَتَعَجَّلها هنا** » هـ .

أقول : أَفْهَمَ كلامه أنه إذا تعجَّل شهوة اشتهتها نفسه وأكلها في الدنيا ، أن تلك الشهوة بعينها لم تحصل له في الآخرة ، فلو سَلِمَ مَن أكلها في الدنيا لتوفرت له في الآخرة ، ويعضِّده قوله تعالى :﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾الآية ، وفهم سيدنا عمر أن ذلك لا يختص بالكافر ، بل يشمل المؤمن أيضاً، ويحقِّقه حديث : « من أوتي حظه من الدنيا ، نقص بقدره من حظِّه في الآخرة ، ولو كان ذا منزلة عالية عند الله » ، ويشرحه حال النبي ﷺ، حيث تمثلت له الجبال ذهباً وراودته أن يأخذه ، فامتنع من ذلك واختار الفقر ، حتى كان تمُرّ عليه ثلاثة أهِلَّة لا يوقد في بيته نار لطعام ، كل ذلك لتوفر حظِّه عند الله في الآخرة ، وإن كان لا ينقصه ذلك شيئاً .

فما بال الأحمق المعتوه الجاهل ، يأخذ على عباداته أطماعاً دنيوية يتعجلها في الدنيا ، وتُمَنِّيه نفسه الأمارة له بالسوء بغرورها وخدعها ، أن ثواب عبادته التي باعها بثمن قليل عاجل متوفر له في الآخرة، ويبطل حُكْمَ الله الذي حَكَمَ أن لا يؤتى جزاء في الآخرة على العبادة إلا بشرط الإخلاص فيها ، بأن يقصد بها امتثال أمر الله ، ورجاء ثوابها عند الله في الآخرة لا في الدنيا هـ .

وقال رضي الله عنه يوم الخميس ثالث وعشرين من ربيع الأول سنة ١١٢٦ ، بعدما انجرَّ كلامه في ذِكْرِ الجنة ، *ثم قال* : « **لا ينبغي أن تقاس أمور الآخرة على أمور الدنيا ، فلو قال قائل : كيف تكون**

نخلة من لؤلؤ، أتثمر ثمراً يؤكل ؟ فيقال له : ألا ترى أن نخلة الدنيا خشبة ، تأتي بثمر يؤكل ، فتلك أقمن بالثمر من هذه ، والذي أخرج الثمرة من هذه يخرجه من تلك .

ولكن الإنسان يصدّق ولا عليه ، ولا يبخل على نفسه بالتصديق ، ويبتدئ أولاً بترك المحرمات ، ثم فعل الواجبات ، ثم ما استطاع من النوافل ، والطريق في هذا الزمان فعل الواجبات وترك المحرمات، واجتناب ما يقدر على تركه من الشهوات . وإنما قَصُرت أعمار أمة محمد ، وقَلَّ ما يتمتعون به من الدنيا مأكلاً وملبساً، ونحو ذلك بالنسبة إلى الأمم السالفة ، ليستوفوا نصيبهم في الآخرة كاملاً، وسأل النبي ﷺ من ربه لأمته لقصر أعمارهم وقلة أعمالهم ، فأعطاه ليلة القدر . وسمع واحد من عُبّاد بعض الأمم بقصر أعمار أمة محمد فقال : لو أدركتهم لقطعت عمر الواحد منهم في سجدة ، فأعطي نبينا ﷺ كرامة له ولأمته ليلة القدر . ويقال: من عمل فيها اثنى عشر سنة ، فاق عمله عمل ألف سنة . لأن كل واحدة خير من ألف شهر » ، انتهى ما حفظناه من جملة ما تكلم به في مجلس القراءة يوم الخميس المذكور .

قال رضي الله عنه : « إذا كنت مسموعاً عند الناس في أمر دنياهم ، فكن عندهم أيضاً مسموعاً في أمر دينهم ، فإن سمعوا لك في الكل وإلا ففي البعض ، وإن سمعوا كلهم أو بعضهم ولو واحداً ، أو في وقت دون وقت وهكذا ، وإلا كنت أحق بالعذاب الوارد في قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾، فيحل بك قبلهم . ومن يخالط أهل الدولة فينبغي أن يفعل ذلك معهم ، كفارة لما صدر منه من مخالطتهم ، ولو معنا نحن ماء نتطهر به ونطهر به مجالسنا منهم فعلنا . ولا ينبغي أن يحرِّكوا ، فإنهم كعقارب وحيَّات ساكنة، فيزيد في سكونهم ولا يحركهم ، وقد قيل: إن بعض الجبابرة قحطت أرضه جداً ، فقال لنبي زمانه : قُل لربك يغيثنا وتخصب أرضنا وإلا آذيته ، فقال له ذلك النبي : ألك قدرة على إيذائه وهو مالك السماوات والأرض ؟ فقال : نعم ، أقتل أولياءه . فأرسل الله عليهم الغيث وخصبت تلك الأرض » هـ .

أقول : يعني إذا كنت عند الناس مسموع الكلمة ، وكنت تأمرهم بمصالح دنياهم ، فيسمعون لك ويعملون بقولك ، فيلزمك أن تأمرهم بصالح دينهم أيضاً وتعالجهم في ذلك ، وتصبر عليهم فيه الزمن الطويل ، لعل أن يحصل لك من يهديه الله بك ، فتحصل خير الدارين كما ورد : « لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً ، خير لك من حمر النعم » . والصبر على ذلك من سجايا الأنبياء ، كما صبر نوح على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وتداول عليه أمم بعد أمم ، وقرون بعد قرون ، ومع ذلك ما استجاب له إلا القليل ، فلشدة صبره الذي أعطاه الله وأعانه عليه ، عُدَّ من أولي العزم من الرسل ، الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر في عمره القصير على الدعوة إلى الله ، كما صبر أولئك في أعمارهم الطويلة على ذلك،

وزيادة أفضليته عليهم كما أنهم أفضل الخليقة أجمعين ، فذلك مجرد فضل من الله سبحانه ، كما اقتضته إرادته الأزلية ، كما قرَّرناه أولاً بسبب منه في تحصيله .

وكذلك أولوا العزم الخمسة ، ما نالوا ما نالوا إلا بتخصيصٍ منه سبحانه ، بل سائر الأنبياء ما أوتوا النبوة إلا بتخصيصٍ منه لهم بذلك ، ثم اختصَّ الرسل من جملتهم برسالاته بتخصيصٍ منه ، وكذلك كل من لديه خصوصية وتخصيص كذلك . ثم كل ذلك قد سبقت به إرادته في سابق أزله قبل وجودهم ، ثم وجدوا كل في وقته ، وحصل له ما أراد له من الخصوصية ، في أوقاتها المعينة منه سبحانه، كل في وقته ، وهذا تقرير لما تقدم وتمثيل له هـ .

وتكلم يوماً في الدول ، *فقال* : « **إذا رأيت كلام أحدهم أعجبك ، فظننتَ أنه ذا امتثال ، ويزعم قبل أن يجلس على الكرسي أنه إن جلس عليه لو أمرته أن يرجع من حيث جاء فعل ، وساعة يجلس على الكرسي ما كأنه يعرفك . وغايتهم إذا أردت منهم أمراً ، إن أراد جبرك تملَّق لك بكلام ولا يقع منه شيء وإن ما بالا بجبرك قال لك : مالك حاجة في هذا الكلام . ثم هُم كل حين يكتبون لنا بكتب ونجوّب لهم ، ولا يعملون بها نأمرهم به ، ومثل هؤلاء ترك خطابهم أولى ، ومن يكتب لك منهم في الشهرين أحسن حالاً ممن يكتب لك في نصف شهر ، كالذي يدخل عليك حيرة ، ولا عاد ألا تعال معهم بالمداراة ، فإن امتثلوا لك في شيء من الأمور فذاك ، وإن قاووا فما هم أقوى ممن قبلهم ، فقد أخذهم الله . وتولية الأمر ما تصلح لضعيف ولا لفاجر ، ما تصلح إلا للوسط بينهما ، أي وهو القوي في أمر الله والضعيف في ما يخالفه .وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما لي ولأهل الكوفة، إن وَلَّيْتُ عليهم عادلاً قالوا : هو ضعيف . وإن وَلَّيْتُ عليهم قويًّا قالوا : هو ظالم ، فقال له المغيرة بن شعبة: ولِّ عليهم قويًّا ، فإن كان فاجراً ففجوره على نفسه وقوته تنفعك ، فقال له : فأنت القوي الفاجر، قد ولَّيْتُكَ عليهم . والقوي إذا أراد يأخذ الشيء بهواه لا يصلح أيضاً** » هـ .

أقول : مقالته هذه فيها سياسة وتعليم لمن بلي بمخالطتهم ، أن يعمل معهم كما ذَكَرَ من المداراة والمراعاة ، لعل أن يسمعوا له ولو مرة في الدهر ، وإن حصل له أن لا يعرفهم ولا يمر بهم فهو الأولى والأحسن .

قوله : « **فظننتَ أنه ذا امتثال** » ، هو الذي طمَّعه في عمر بن جعفر ، إذ كان يتردد إليه قبل الولاية ، وملازم الراتب طامعاً فيها ، فلما ولي طمع فيه أن يكون ذا امتثال ، فكان يُدْنِيه ويقرِّبه ويخصه بالكلام في السِّر مما فيه صلاحه وصلاح المسلمين على ما ذَكَرْنَا من قوله بعد ما جلس معه يوماً في خلوة ، فلما خرج من عنده قال لي : « **نحن الغنى وهو الفناء** » ، أو غير ذلك ، حتى تبيَّن له حقيقة شأنه وقلة امتثاله

بعد طول مدة مداراته ومراعاته له ، والصبر على تقرّبه منه ، رجاء عمله بشيء من أوامره ، ثم قلاه بعد ذلك وتركه لما أصابه من الشر مما أراده الله به وأراده له ، وهو معنى قوله : « **فما هم أقوى ممن قبلهم ، فقد أخذهم الله** » ، فكأن لسان حاله في هذه المقالة حكاية ما وقع له معه .

وقوله : « **ومن يكتب لك في الشهرين أحسن حالاً .. إلخ** » ، معنى أحسن ، أسهل عليك وأقل كلفة وتعباً ، يعني من تقل كتابته أهون ممن تكثر منه الكتابة ، لكونها تعباً بلا فائدة ، حيث لم يمتثلوا ، أو يعني بذلك نفسه ، يعني : يتعبونا بأجوبة كتبهم ولا يمتثلون أمرنا .

وقوله : « **يجلس على الكرسي** » ، أي يجلس في ذلك المنصب ، ومراده بالكرسي هو المنصب ، لأن القائم فيه متعلي على غير القائم فيه ، كما أن القاعد على الكرسي متعلي على غير القاعد عليه ، فهو كناية عن رفعة صاحب المنصب على غيره ، ولو غير قائم بحق المنصب وكان وضيعاً عند الله ، فإن كان قائماً به كان رفيعاً عند الله وعند الخلق .

والقيام بحقه منزلة عظيمة عند الله ، كما ورد : « يوم من سلطان عادل ، خير من خصب ستين عاماً» ، ومفهومه : أن يوماً من سلطان جائر ، أشد ضرراً من قحط ستين عاماً ، كيف لا وهو مقام تقام فيه حقوق الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وإقامة أحكامه وحدوده ، وقد ورد : « حَدٌّ يُقام في الأرض ، خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين عاماً » ، ويستقيم بالقائم فيه للخلق أمور دينهم وأمور دنياهم ، ولا يقوم فيه إلا من جَمَعَ الله له بين كمال العلم والعمل والتقوى والشجاعة والمروءة والكرم والقوة في أمر الله والسياسة ، كما قال : « **وتولية الأمر ما يصلح لضعيف ولا فاجر** » ، بل للقوي في أمر الله ، وفيه قوة على حرب الكافرين وجهاد المبطلين ، والذب عن الإسلام و المسلمين .

وأول من قام في هذا المنصب الشريف النبي ﷺ ، ثم بعده خلفاؤه على قدمه وكمال الإتباع له، حتى حثَّ ﷺ على اتباعهم والتمسُّك بِسُنَّتِهِ وسُنَّتِهِم ، لأن المتَّبِع لهم مُتَّبع له ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بِسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ » ، أي تمسكوا بها، لا تنفلتوا منها ، كالمتمسك بالشيء بيديه وعاضًا عليه بأنيابه رغبة فيه لا يفلته . وكل من قام فيه بعد النبي ﷺ فهو نائب عنه فيه ، ولهذا شَرَطَ فيه مع تلك الشروط أن يكون من قريش على قدمه، ومن لم يكن منهم وتوفرت فيه الشروط فهو نائب عنه ، والكل نائب عنه ﷺ إلى يوم القيامة ، لأنه منصب القيام بالأحكام والذب عن الإسلام ، وحماية المسلمين وجهاد الكافرين .

وهو ﷺ أحكم وأكمل من قام به وفيه من كل وجوهه ، وأحاط به من كل جوانبه ، ثم قام به على قدمه خلفاؤه ، على أكمل وجه في اتباعه والإقتداء به ، على ترتيبهم في الفضل والمزية والعمل ، في مدة الثلاثين سنة ، كما قال ﷺ : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم تكون مُلْكاً عضوضاً » ، يعني هذه

مدة الخلافة الحق التي فيها كمال الإقتداء به والإهتداء بهديه في كل أمر ، لا يشوبها جَور ولا ظلم ، ولا مخالفة للحق ، بل الدين فيها قائم على التمام والكمال ، أنواره ساطعة ونجومه طالعة، ثم بعدها يكون ذلك المنصب الشريف ملكاً عضوضاً ، أي سلطنة مشوبة بالظلم . وقوله : « عضوضاً » ، يعني يكون تولياً بقهر وقتل وحرب ، مُضِرٌّ كما يضر ويوجع العض ، وهذا اللفظ كناية عنه ، لكنه ظلم وفساد لا أثر له مع كثرة الحق وغلبة العدل في القرن الأول بعد الثلاثين السنة ، إلى تمام القرن بتمام إتمامه السَّنة ، لحديث البخاري : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة سنة لا يبقى على ظهر الأرض ممن هو على ظهرها اليوم أحد » ، أي ينقضي القرن بتمامها ، وما بقي عند تمامها أحد من الصحابة ، ولا من غيرهم إلا عمرو بن الطفيل ، توفي في اليوم الذي هو تمامها .

- وأخذ المحدِّثون من هذا الحديث ، ومن آية قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ ، نفي وجود الخضر ، ومن قيل بوجوده معه ، ووجَّه من قال بوجوده للآية والحديث وجوهاً ، منها : أنه قال على ظهر الأرض ، وليس الخضر حين قال ذلك على ظهرها ، إنما هو إذ ذاك في جزائر البحر .

وما تواتر من رؤية الخضر لكثير من الصالحين لا ينفي قول المحدثين ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، فَرُبَّ مكروب في بَرٍّ أو بحرٍ يرسل الله شخصاً يغيثه به لا يعلمه إلا الله .

- وقد أخبرني بعض سادتنا من بني علوي من آل العيدروس قال : « أتعبني شدة الفقر في تريم، فسِرْتُ إلى عدن ، ووقفت عند قبر الشيخ أبي بكر ليلة جمعة ، وجعلت أهتف به وأشكو إليه الحال ، فإذا بشخصٍ شال كسوة التابوت ، وخرج إلى عندي ، وإذا به رجل طويل يكاد رأسه يمس السقف ، فوضع في يدي صرة ، فحين ما وَقَعَتْ في يدي ما علمت أين ذهب ، فاشتريت منها لي نخلاً وداراً في البلد وغرفة في النخل » ، ورأيتُ نخله وغرفته بالرملة ، فكل شيء في إرادة الله سبحانه وقدرته ليس ببعيد ، انتهى ما اعترض لنا من هذا الكلام - .

فمدة خلافة الحق الثلاثين : كل دائرة الإسلام على الحق المجرد والصواب في الدين والدنيا وفي العبادات والعادات ، لا يشوبها باطل ما في وقت من الأوقات ، وبعدها إلى آخر القرن يكون بعض ظلم وفساد ، لا يضر في غلبة الحق ، والحلال عام متوافر بين الخلق ، وهو فيه كقطرة بَولٍ وَقَعَتْ في قِلالٍ من الماء لا تنجِّسه ولا تغيِّره . وفي القرن الثاني : يكثر الظلم والفساد أكثر ، لكنه مقهور مغلوب لا يظهر له ظلام ، مع غلبة أنوار الحق . والقرن الثالث : زاد فيه الظلم والجور على ما قبله ، لكن الحق وأهله غالبون ظاهرون ، لا يزاحمهم من خالفهم ولا يضرهم من عاندهم ، ولا أثر له معهم .

ثم بعد الثلاثة التي هي خير القرون كما قال ﷺ : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين

يلونهم » ، فرتبهم في الخيرية ، لأن أول الأول الثلاثين ، حق وصلاح مجرد لا يشوبه جور ولا ميل ما عن الحق ، وكلٌّ من أهله يرغب في الحق له وعليه ، حتى لو تخاصم اثنان في مال كل يدَّعي أنه مُلكه ، ثم أفتى لهما عالم بالحق على الوجه الشرعي أنه لأحدهما دون الآخر ، ثم أراد الذي تبيَّن أنه له أن يتركه للآخر ، أبى أن يقبله وفارق صاحبه ونفسه طيبة ، وراضٍ على صاحبه من غير شحناء . فأين هذا من حال أهل زمانك الذين إن أفتي لأحدهم بالحق ، قال الآخر: « ما هذا إلا هو الباطل » ، ولو أفتي له بالباطل قال : « هذا هو الحق » ، وشأن الرضا بالحق له وعليه ، هو شأن أهل التقوى في كل مكان وزمان . وما وقع في القرن الأول بعد الثلاثين لا يضر مع غلبة الحق ، لأن العمل والعمدة على الأكثر الغالب ، ولا عبرة بالأقل ، وكذلك ما ظهر من أكثر من ذلك في القرن الثاني ، وأكثر منه في الثالث ، وفي كلها الحق والدين والصواب في كل الأمور غالب ظاهر ، وضد ذلك مغلوب مقهور لا عبرة به ولا شعار له ، إنما الشعار للحق فلذلك رتبها .

ثم بعد القرون الثلاثة انصبَّ الظلم والجور ومخالفة الحق انصباب الماء من علو إلى سفل ، وظهر شعار المنكرات ، لكن الحق مع ذلك قوي غالب ، ثم ما زال الباطل يكثر ويظهر ، والحق ينقص ويخفى، بسبب ولاة ظلمة وقضاة غشمة ، يتقربون إليهم لطلب محبتهم بالفتوى لهم على ما يشتهون ، أكالين للسُّحت والرشا ومائلين عن الحق والهدى ، وما زال الدين يضعف قليلاً قليلاً ، ويكثر الظلم والفساد بضعفه وقِلَّته ، إلى زمانك هذا الذي قرب من الساعة ، وصار فيه الباطل منصوراً مُتَّبعاً مسلوكاً ، وصار فيه الحق مخذولاً مدفوعاً مجتنباً متروكاً ، حتى لو تداعى اثنان في طلب حق ، أحدهما محقٌّ مصيب ، والآخر مبطِلٌ مخطيء ، رأيتَ الحكام والوزراء والقضاة كلهم يساعدون المبطل على المحق ، فهكذا الأمر اليوم رأي العين .

فابتدأ هذا المنصب الشريف بالنبي ﷺ ، وختم بالمهدي وعيسى ابن مريم عليه السلام ، فينصره الله بهما بعدما ضعف باختلاف الأوقات والأحوال ، وممر الدهور والأعصار ، وفي كل هذه الأوقات، الأحكام الشرعية مطلوبة فيها لا عذر في تركها لأحد لا لعالم ولا جاهل ، وإن اختلَّت بعد الثلاثين السنة ، إلى أن ينتعش بمحمد بن عبدالله المهدي القائم بأمر الله ، ثم بعيسى ابن مريم عليه السلام ، إلى أن ينفخ في الصور النفخة الأولى ، التي يموت بها كل حي ، ويُطوى بساط الشريعة حينئذ ، إذ لا على وجه الأرض يومئذ من يعمل بها .

وقول الخطيب في الخطبة الثانية : « اللهم أيِّد الإسلام والمسلمين ، وانصر كلمة الحق والدين ، بدوام أيام سلطنة عبدك فلان » ، فليس المراد الدعاء له أن يخلَّد في الدنيا ، وأن يَسْلَم من الموت ، إنما المراد الدعاء لهذا المنصب الذي هو قائم فيه الآن بدوام بقائه مدة التكليف ، وأن لا يخلو أبداً من قائم

فيه مدة ما أحكام الشريعة مخاطب بها الخلق ، ومطلوب منهم اتباعها ، وهو مدة الدنيا إلى يوم القيامة ، وبأمر الله سبحانه بالنفخة الأولى ، التي يموت بها كل حي ، ويُطوى بها حينئذ بساط الشريعة الشريفة، بأن يبقى كل هذه المدة في هذا المنصب من يُقيم الأحكام ، ويأمر بالحق ويجاهد أعداء الدين ، وينصر الإسلام ويذب عن المسلمين ، مع تيسير أعوان له يُعِينونه على القيام على ذلك على الوجه الأكمل ، فيصلح به للخلق أمور دينهم وأمور دنياهم ، ويظهر به شعار الدين وشرائع المرسلين إلى يوم الدين ، فلا يقوم فيه إلا من اجتمعت فيه هذه الشروط المذكورة ، من كمال العلم والتقوى والشجاعة والكرم والمروءة ، والقوة في أمر الله ، ومع ذلك هو من قريش أو نائب عنه إذا كان على هذا الوصف .

فالخطيب بقوله ذلك يدعو بدوام ذلك المنصب الشريف ، أن لا يزال فيه من هو قائم به ، كذلك متَّصف بهذه الشروط ، فإنه لو قام فيه من اختلَّت فيه هذه الشروط وأخلَّ بها ، اختلَّ ذلك المنصب باختلاله كما ترى في زمانك هذا من اختلال الدين ، وعدم القيام بالأحكام من القضاة والحكام ، واختلال النظام بسبب ذلك وانصراف همهم إلى جمع الحطام من الحرام ، وعدم القائم فيه على الوجه التام ، فنفذت الأحكامِ للضرورة ، كما نفذت في أحكام البغاة فالله المستعان ، وقد ورد الحديثان المتقدمان : « حد يقام في الأرض .. إلخ » ، « ويوم من سلطان عادل .. إلخ » ، مع مفهومه المذكور .

وكان سيدنا عبدالله نفع الله به لما رأى اختلال هذا المنصب الشريف عن ما أُسِّسَ عليه من الحق، ورأى ضياع الأحكام وعدم إقامة الحدود ، وتمنى أن يتولاه لِيُقِيمه على أساسه وسَنَنه ، ويؤسِّس قواعده ، وإن لم يحصل له ذلك فسياحة على وجه الأرض ، لا يرى ولا يعلم من اختلاله شيئاً يلزمه فيه الأمر والنهي ، ويتعلق به من جهة الشرع أمر لازم ، ليسلم بذلك من الخطر ، ويفوز مع ذلك بالظفر، وقد قال في هذا المعنى : « **نفسي تُمَنِّيني أن أَلِي ولاية ، لِأُقِيم فيها أحكام الله ، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ولو في بعض الجهات** » ، يعني إذا لم يكن في كلها كما في الخلافة الظاهرة ، وأما الباطنة فقد بلَّغه الله إياها .

وكان مُناه أن يضيفها إليها ويجمع بينهما ، قال : « **ولكن بعيد أن يتم لنا ذلك، لعدم تمامه لأسلافنا، كسيدنا علي والحسن والحسين ، أو بتولي والٍ يسمع لنا ، ويمتثل أمرنا ، وكُنَّا طمعنا في هذا الرجل أن يكون لنا كذلك سامعاً مطيعاً ، ولكن خاب فيه الظن** » - يعني عمر بن جعفر المذكور على ما تقدم من شأنه - ، قال : « **فإذا لم تكن ولاية ، فسياحة في الأرض ، وكُنَّا راجين ذلك أيام النشاط والقوة ، وأما اليوم فلا** » .

وإنما رغب فيه - أي عمر - مما رأى منه قبل الولاية ، من التردد إليه وحضور مجالسه ، فظهر بعد ذلك أن ما له في الخير من الإمتثال من نصيب ، وإنما رغب سيدنا في تولي هذا المنصب ، منصب الولاية،

لما شغفه ومازَجَ لُبَّهُ من محبة الإقتداء بجدِّه سيد الكونين ﷺ في جميع أحواله وموارده ومصادره ، ما دقَّ منها وما جَلَّ ، وكان شاء أن يتولاه ليتَّبع جميع مآثره فيه ، وما دَرَجَ عليه خلفاؤه في سِنِي العدل الثلاثين ، من اتباعه والمشي على سننه ، حتى صار هذا المقصد فيه طبيعة ثابتة وسجية راسخة، يود أن يباشر كل ما باشره ﷺ ، ليتبع فيه آثاره ويُقِيم فيه مناره وشعاره ، في كل أمر ما ، فإنه كان منصبه ﷺ ، وكل قائم فيه بعده في كل جهة ، وفي كل وقت فهو نائب له .

فكان مراد سيدنا أن ينوب عنه فيه ، فيتتبع فيه كل مآثره ما دَقَّ وجَلَّ ، ويتبعه في جميع شؤونه في عاداته وعباداته ، فهل رأت عيناك أو سَمِعَتْ أذناك بعد مضي سِنِي العدل الثلاثين ، من هو متحقِّق بهذا الحال ؟ أو مُتَّصف بهذا الشأن ؟ ومن صار هذا فيه ، وغلبت عليه هذه الطبيعة الشريفة ، التي تشبه طباع الأنبياء ، وإنما ترى وتسمع أن كل من طلبه بعد تلك المدة إنما يطلبه للعلو الصوري والجاه الوهمي الجِبِلِّي .

وهذا المعنى يحقِّق ما قدَّمنا من قوله ، لما نقل له عن شيخه الشيخ عمر بن عبدالرحمن العطاس نفع الله به أنه قال : « السيد عبدالله الحداد ثوبٌ طُوِيَ ، نُشِرَ في هذا الزمان ، لأنه من أهل القرن السابع ، إنما أخَّره الله سعادة لأهل وقته »، فقال : « **أنا بحمد الله ، ما أنا من أهل هذا الزمان ، قد جعلني الله بينهم وأنا وحدي منفرد عنهم بقلبي ، بل أنا من أهل القرن الثاني ، ولولا الأدب مع أهل القرن الأول، لقلت: أنا منهم ، فانظروا في حالي ، وحال أهل الزمان ، إن كنت أشبههم أو يشبهوني** » ، انتهى .

وهذا الحال منه والشأن المذكور يشهد له ، ويحقِّق أنه ليس من أهل هذا الزمان وما يشبه إلا أهل القرن الأول ، بل شبه حال أهل سِنِي العدل الثلاثين ، من كون طلب الولاية طبيعة خلقية ، وجِبِلَّة راسخة في القلب منه لإقامة الحق فقط ، مجردة عن ملاحظة هوى نفس في أمر ما ، كائناً ما كان ، بل في القرن الأول بعد الثلاثين ما طلبوه إلا للعلو والرئاسة وجَبْيِ الأموال ، وكلما لذلك يرسخ بمرور السنين ، ويستقوى ويضعف فيه باعث الدين ، فما بالك بزمانك هذا .

فلما تحقَّقَ الشيخ عمر من سيدنا هذا الحال بالكشف والعيان قال فيه ما قال ، ورأى هو وكثير من مشايخه أيضاً منه ذلك ، في ذلك وفي غيره ، مما يخالف الطبائع المجبولة في الخلائق ، جِبِلَّة فيه راسخة في الدين وَهْبِيَّة من الله ، لا حول منه ولا قوة ، فسبحان من خصَّه واختصَّه ، واجتباه ونصَّبه ، فلذلك قالوا فيه ما قالوا على ما قدَّمنا من أقوالهم ، كالشيخ أحمد بن ناصر صاحب الشحر وغيره ، وسيأتي عنه أيضاً في ذلك كلام ، عندما التقى به السيد عمر المغربي .

وذَكَرَ رضي الله عنه ليلة ، أن أهل بلد تجاوزوا الحد ، فسلَّط الله عليهم من آذاهم ، وتكلم فيهم بكلام كثير ، إلى أن قال : « يحكى عن امرأة منهم ، أنها حملت ابناً لها صغيراً وفي يده حجارة ، فقال لأمه: أتجيبين وإلا ضربتك بهذه الحجارة . فلم تجب ، فضربها بالحجارة في وجهها . قال الشاعر :

وعَاقِبَـةُ الظُّلْـمِ مُهْلِكَـةٌ   وَإِن تَرَاخَـتْ مُـدَّةَ الأَمَـدِ
كَـم لُقْمَةٍ دَخَلَـتْ حَشَـا شَرِهٍ   فَأَخْرَجَـتْ رُوحَهُ مِنَ الجَسَـدِ

ثم قال : « وما معك في هذا الزمان إلا التعريف باللطف ، بأن تحكي له وتقول إن هذا واجب عليك تثاب عليه في الآخرة ، أو هذا حرام عليك تأثم عليه ، ومثل هذا سِرًّا ، وإلا رجع عليك هو وغيره ، كما لو رأيت مُدًّا فيه نقص وأنكرتَ عليهم وأردتَ منهم أن يجعلوه وافياً على المعتاد ونحو ذلك ، وتبيَّن له الأمر الرائق في الوقت اللائق ، ويختلف هذا بطبقات الناس » هـ .

أقول : « فقال » ، أي الولد لأمه ، أي أنطقه الله بقوله : « أتجيبين » ، وإلا فليس في أوان النطق ، وذلك كرامة واضحة مبيِّنة لكونهم مخطئين عن الحق ، يريد من أمه اتباع الحق ، أي أتجيبين للحق وإلا ضربتك ، فلم تجب له فضربها ، وفي هذا عبرة لهم فلم يعتبروا . وأظنها بُليدة في أعلى دوعن تسمى « الحرقة » ، رأيناها خاربة وبيوتها خاوية ، وكان فيها شيخ من الصالحين دَعَاهم إلى الحق فلم يجيبوه ، فانتقل عنهم إلى قرية مقابلتها تُسَمَّى : « الرشيد » ، بينهما مسيل الوادي الأيمن من دوعن ، وزرنا قبره فيها يدعى : « بحر النور » ، ودعا عليهم الشيخ لما لم يسمعوا له ، فأرسل الله عليهم ناراً أحرقتهم ، فسُمِّيَت : « الحرقة » .

قوله : « وما معك في هذا الزمان » ، أي ما معك مما يُعينك على دعوتهم إلى الخير إلا ما ذَكَر ، وكونه « سِرًّا » ، وإلا ضَرَّ أكثر مما نفع ، وهو معنى قوله : « وإلا رجع عليك هو وغيره » ، يعني رجعوا عليك باللوم والمعاندة بمخالفة ما أمرت إذا طلعت طباعهم عليك ، إذا تكلمت ظاهراً بين الناس فإن في ذلك تخجيلاً للمأمور وتقبيحاً لحاله ، فإذا كان في السِّرِّ بستر أدعى للإجابة ، وإذا كلَّمته بعنف فكلٌّ يلومك هو وغيره ، واللطف أحسن ، وفي الحديث : « ما كان اللطف في شيء إلا زانه ، وما كان العنف في شيء إلا شانه » .

وقوله : « طبقات الناس » ، أي يختلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باختلاف أحوال الناس، فَرُبَّ إنسان ما يفيد فيه إلا الغلظة في الكلام ، كما قال تعالى : ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ ورُبَّ آخر يوحشه ذلك ولا يجدي فيه إلا التلطف .

قوله : « كما إذا رأيت مُدًّا » ، إنما ذَكَرَ المُد لأن الجهة أكثر ما يتعاملون بالكيل دون الوزن ، وذلك

في الحبوب كلها ، من البُرّ والذرة والأرز وغير ذلك ، وعندهم لذلك مُدٌّ معروف ، يسمى مُضَرًا ، هذا في تريم ، وكل بلد من بلدان حضرموت لها مُد ، كشبام وسيئون .

ومُد سيئون قَرَّر جماعة من علماء حضرموت كالشيخ محمد بن عمر بحرق ، والشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة ، والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل صاحب مختصر بافضل المشهور عند الشافعية كلهم ، ذَكَرُوا أن مُدَّ سيئون ، على مُدِّ النبي ﷺ سواء ، وأربعة منه صاع نبوي . وقياسة الحساء بهذا المُد : اثنى عشر مُدًّا، فتكون ثلاثة أصوع ، وبمد تريم عشرة أمداد ، وبمد شبام أربعة عشر مُدًّا ، وبمُدِّ الخريبة من دوعن ثمانية ، وبقرص الشحر ستة عشر قرصاً ، وبكيلة جدة ثلاث كيلات ، لأن تلك الكيلة ثلث القياسة وبكيلة مكة أربعة كيلات ، لأنها ربع القياسة، وبكيلة المدينة خمس كيلات وثلث كيلة ، هكذا قدَّرته بالمُد السيؤوني، وكان معي إذ ذاك ، ويتعامل أهل تريم وكل البلدان المذكورة بالوزن في التمر والأدهان ، وفي اللحم بتقسيم الذبيحة أجزاء يخلط لحمها وشحمها، ويقسم أجزاء فيقال : نصف الشاة وربعها ، وثمنها ، وثلثها ، وسدسها ، وثلثاها ، على هذا بلا وزن ، بل بالتراضي وتقدير القيمة ، هكذا جرت عادتهم .

ومراده : لمَّا كان الناس اليوم انقلبت طباعهم وجِبِلَّاتهم في دينهم ودنياهم ومروءاتهم عن السَّنن المعتاد في الناس قديماً ، كما قال كما قدَّمنا ويأتي : « **انعكست الأمور في هذا الزمان عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها** » ، فما معك معهم في استقامة حالك معهم في معاشراتهم ومخالطاتهم إلا ذِكْر حقوق الله ، وما يترتب عليه من الثواب عاجلاً وآجلاً ، وذِكْر معاصيه وما يترتب عليها من العقاب في الدنيا والآخرة ، وذكر بعض من حصل له أو عليه بسبب ذلك ولعل أن يوافق سماعه منك وقت نفحة من نفحات الله التي ورد ، إن لله لنفحات في أوقات ، فيهديه الله بسببك ، كما وافق لكثير هداهم الله بكلمة سمعوها من أناس عوام من غير قصد ، فأثَّرت في قلوبهم فتابوا وأَقْبَلُوا على الله بقلوبهم وأبدانهم فصاروا من عباد الله الصالحين ، كما سمع البهلول المسمى بابن عرس من الحرمة التي هو يقود جملها ، فرأته يرعى من الكلأ النابت على الندى ، فقالت :

سِرْ يَاجَمَلَ الهَنَا وَلا تَرْعَى النَّدَى اليـوم دُنْيَـا وَالملتَقَـى غَـدَا

فأخذت بمجامع قلبه ، وصعد الجبل وتركها وجملها وما علم بها ، وانجذب وأنشأ قصيدته « الفياشية » .

وكذلك ذكر ابن عربي أن عمًّا له دخل الطريق وهو ابن ثمانين سنة بسبب كلمة سمعها من صبيٍّ صغير ، لا يعرف الطريق ، فكان كل يوم يقرأ ختمة من القرآن ويهدي نصفها لذلك الصبي . وهكذا

من صادف وقتاً وأراد الله له الهداية ، وإن كان الوقت إنما الغالب على أهله الغواية ، وانقلبوا إلى أحوال باطلة . ومن باطل أحوالهم أن جملة ناس وقعت لهم خصومات مع خصوم لهم ، فحاولوا يطلبون منّا أن نشهد لهم على خصومهم بالكذب والزور ، ويَسْلموا من مطالبتهم ، ويرون من جهلهم أن ذلك عذر يبيح لك الشهادة ، وتجوز بسببه ، وإذا أَبَيْنَا عن ذلك عادونا ، ولا نعبأ بعداوتهم ، يرون إذا شهد لهم فلان المعروف بكذا فإن حُجَّتهم غالبة ، فلو شهد كذلك فلا حُجَّة له عند الله ، ومثل هذا من فتن الزمان نعوذ بالله منها ، لكن الغالب أن من طلب ذلك كذلك لا يموت إلا على أخس حالة ، رأينا ذلك منهم عياناً هـ .

قال رضي الله عنه : « من تحرِّكه الرغبات الدنيوية لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً ، كمن يسمع أن من واظب على صلاة الضحى تَيَسَّر رزقه ففعل لذلك ، فلا يقل : أرجو بذلك الجنة ، إلا إن كان للتبرك بذِكْرها ، كما روي أن ابن المبارك خرج يوماً على أصحابه فقال لهم : إني استجريت البارحة على ربي فسألته الجنة » هـ .

أقول : قد حضرني في هذه المقالة كلام كثير ، فنذكر منه قليلاً ، لأنه بخلاف ما العمل عليه في هذا الزمان ، فصاروا لذلك يستنكرونه وينكرونه على من أنكره عليهم ، لأنه بخلاف عملهم ، ومع ذلك يعرفون ويعترفون أنه الحق ، وهو معنى قول سيدنا : « **لو يسمعون لنا أهل الزمان ، لَبَيَّنَّا لهم من الحق أموراً لا يعرفونها ولا سمعوا بها إلا في الكتب كالإحياء** » ، ويعرفون أنها الحق ، وعدم سماعهم لما أَلِفُوا العمل بخلافها ، وجروا على هذا العمل من قديم في قرون سَلَفَت فما علموا إلا بما أَلِفُوا ، كما قال من قبلهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾أي ملة ، فلهذا لما كان بخلاف العمل أنكروه وهو الحق، وعملهم بخلاف الحق ، فلما ألفوا الباطل أنكروا الحق .

وهذه قاعدة معروفة ، أن من عرف الحق وأَلِفَه أنكر الباطل وخالفه ، وكذلك عكسه ، من أَلِفَ الباطل أنكر الحق كما هُم عليه اليوم ، في هذا المعنى وفي كثير من غيره .

والمطلوب من العاقل مراعاة أهل وقته في غير إثم ، وإن كان الصواب خلافه ، فحينئذ ينبغي أن يبيِّن لهم وجه الصواب ودلائله ، فإن قَبِلوا وإلا فاتركهم واعمل على الصواب في خاصة نفسك ومن تبعك كائناً ما كان ، لا تقنع من نفسك إلا بذلك واجباً كان أو مندوباً . فمعنى المراعاة والمسايرة أن ذلك مع غيرك فيما لا يحرم كما تقدم قوله ، فإذا أعجزك الجواز فلا تراع مع ما تقدم معه من الكلام ، وأما إذا ارتكبوا محرماً من ترك واجب أو فعل حرام ، فلا تراع ولا تساير ، فأما في حق نفسك فلا بد لك من تقويمها على الصواب إن وجب أو ندب فافهم .

فقول سيدنا : « من تحركه الرغبات .. إلخ » ، فمعنى تحركه : أي تزعجه إلى العمل ، وتنهضه له وتدعوه إليه ، وهذا منطوقه موافق لمفهوم حديث الصحيحين: « من توضأ في بيته وخرج إلى المسجد للصلاة لا تنهزه إلا الصلاة ، فيكتب له بكل خطوة حسنة ، وتمحى عنه سيئة ، وترفع له درجة » ، لكن على شَرْطِه الذي شَرَطَهُ من كونه : « لا تنهزه إلا الصلاة » ، أي لا تنهضه وتزعجه إلى خروجه إلى المسجد إلا مجرد الصلاة لوجه الله تعالى ، لا يريد بها معنى آخر كوظيفة أو طمع دنيوي .

و « تنهزه » في الحديث : هي معنى « تحرِّكه » في قول سيدنا ، فمفهوم الحديث أنه إذا كان لا تنهزه الصلاة بل غيرها ، هو منطوق قول سيدنا : « **تحرِّكه الرغبات الدنيوية** » ، فالمعنى منهما واحد ، فكلمة الحديث شرط لحصول المأمول ، وكلمة سيدنا شرط لفوات المحصول .

فمراد الحديث بقوله : « تنهزه » ، إن حصل هذا الشرط بأن لم ينهزه إلا الصلاة مجردة خالصة لله دون أمر آخر يخل بالإخلاص من طلب أمر دنيوي ، بل مجرد امتثال أمر الله ، حصل له الوعد المشروط على الإنتهاز الخالص من كتب الحسنة ومحو السيئة ورفع الدرجة بكل خطوة . وهو معنى قول سيدنا، إن لم يحركه إلى العمل ويجرُّه إليه إلا الرغبة في أمور الدنيا ، فلا ثواب له عليها في الآخرة ، وهو قوله: « **فلا تقل : أرجو به الجنة** » ، لأنه ما نوى ذلك ، وإنما حظه منها أي من عبادته ما نوى من نفع الدنيا فقط ، لقوله ﷺ : « وإنما لكل امرء ما نوى » ، فمن نوى بالجهاد عقالاً فهو نيته ، وهذه هي نيته ما طلب من أمور الدنيا لا غير .

وفي ذلك دليل على بطلان غرور المغترين المدَّعين ، أنهم يأخذون على العبادة طمعاً في الدنيا ، ويدَّعون أن ما وعد على تلك العبادة من الثواب في الآخرة ، أن ذلك مدخرٌ لهم إلى يوم القيامة ، فكذبوا على الله ورسوله بدعواهم حصول أجرين على العبادة ، أجر في الدنيا وأجر في الآخرة ، فما أجهلهم بقوله تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، فاعرف مما ذَكَرْنا من توافق معنى كلامه مع معنى الحديث ، أن كل كلامه وأعماله مؤسسة على الكتاب والسنة .

يعني فكما يحصل له بشرط الحديث ذلك الوعد الشريف ، كذلك يفوته ذلك الوعد إذا تبدَّل باعث الدين ، الذي هو الصلاة مثلاً هنا بباعث الدنيا الذي هو الرغبة الدنيوية المحرِّكة له إلى العمل ، وهو معنى قول سيدنا ، يعني فلا يستحق على تلك العبادة جزاءها الموعود به في الآخرة إذا نوى به الدنيا ، فاتفق المعنيان معنى الحديث ومعنى قوله ، يعني فلا يغتر الجاهل فيطلب على عمل واحد أجرين أجراً في الدنيا وأجراً في الآخرة ، فما عُرِفَ هذا قط شرعاً في أمر من الأمور ، مع أن الدنيا والآخرة ضرَّتان مهما أرضيت إحداهما أسخطتَ الأخرى ، فلا تجتمع نيتهما في عمل واحد ، فمن أراد رضا ربه أسخط نفسه ، وإن أرضى نفسه أسخط ربه ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ . وإرضاء النفس هو الهوى، وهو إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وذلك من أوصاف الكفار ، فكيف لا يكون مسخطاً لله ، قال تعالى : ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، علَّل العذاب العظيم باستحباب الدنيا على الآخرة ، وكيف لا يكون ناوي العبادة للدنيا مستحبًّا للدنيا على الآخرة ، وإذا ثبت ذلك كيف لا يكون مغضباً لله ، وإذا وَرَدَت آيات في وصف الكفار وتهديد لهم على عمل من أعمال السوء ، فإذا عمله المسلم المؤمن كان شريكاً لهم في جزاء العمل وإن خالفهم في الإيمان، كما فهم سيدنا عمر من قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ الآية ، أن ذلك الجزاء يشمل المؤمن إذا شارك في العمل بقدر استحقاقه لذلك مدة وقدراً . وسيأتي لسيدنا كلام في هذا المعنى .

وكان شرط جزاء العمل الصالح في الآخرة موقوف على كمال الإخلاص لله بأن لا يكون له قط ملحظ بعمل العبادة سوى امتثال أمر الله ورجاء ثوابه لا غير ، فكيف يرجو ثواب عمل ما نواه إنما نوى به طمع الدنيا ، أو أشرك مع نيته قصد غير الله ، وقد قال الله سبحانه في الحديث القدسي على لسان رسوله ﷺ حيث قال : « قال الله تعالى : من عمل لي عملاً وأشرك معي فيه غيري فعمله لشريكي ، ولا أقبل إلا ما كان خالصاً لوجهي » ، فإذا قصد مع رجاه رجاء غيره ، فهل يكون رجاه لربه مشروكاً، وهذا قوله أنه لا يقبل العمل المشروك ، فلو نوى بالعمل وجه الله ثم منعه عذر صحيح لَثَبَتَ له أجره في الآخرة ، وهذا معنى : « نية المؤمن خير من عمله » ، أي خير من عمله للدنيا ، فقد ورد : « أن العبد ليعطى ثواب أعمال لم يكن عملها ، فتقول الملائكة : يا ربنا إنه لم يعملها ، فيقول سبحانه : إنه نواه ، إنه نواه » . ويكفيك دليلاً في هذا : أن أناساً من الصحابة ما حضروا وقعة بدر لعذر صحيح مع حرصهم عليها ، فضرب لهم رسول الله ﷺ مع من حضرها بسهمهم وأجرهم ، فأعطاهم من الغنيمة ما يعطي من حضرها ، وجعلهم معهم في الأجر عند الله في الآخرة سواء ، وكُتِبوا عند الله كمن حضرها ، وعُدُّوا من أهل بدر ، حتى لو حلف حالف بالطلاق أنهم من أهل بدر لم يحنث ولم تطلق زوجته . من العشرة منهم ثلاثة : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيدالله ، وسعيد بن زيد ، فأما عثمان : فأمَرَه رسول الله ﷺ أن يتخلَّف على زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فتخلَّف عليها ، وتوفيت في غيبة أبيها ببدر . وأما طلحة وسعيد : فإنهما كانا مسافِرَيْن في الشام ، فَقَدِمَا المدينة حين قدومهم إليها من بدر . وستة من غير العشرة : عاصم بن عدي بن العجلان من الأوس ، خرج فرَدَّه رسول الله ﷺ ، والحارث بن حاطب ، وأبولبابة خرجا فردَّهما ، والحارث بن الصمة ، وخوَّات بن جبير ، وعاصم بن عدي خلفهم حراساً في المدينة وأمَّر عليهم أبا لبابة ، فهم تسعة .

وكونه لا يستحق ثواباً إذا نوى بالعبادة الدنيا ، هو معنى قوله : « **فلا يقُل : أرجو بذلك الجنة**»، إذا قصد بصلاة الضحى تيسير الرزق ولولا ذلك ما صلاها وهو مع ذلك إنما طلبه من الله لا من الخلق، بل لكونه لحظ في العبادة طلب طمع الدنيا ، فصار قادحاً في عمله ، فكيف بمن لم يعمل العبادة إلا لمجرد طلب الدنيا من الخلق ، لأن ثوابها موعود به مشروط بالإخلاص ، وهو مجرد قصد وجه الله دون غرض آخر ، كما شرط في الحديث كون الإنتهاز لمجرد قصد الصلاة فقط ، شرط في حصول ذلك الوعد ، وإذا فُقد الشرط فُقد المشروط ، فالثواب الموعود به متوقف على ذلك ، ومثل ذلك في جميع العبادات أنه لا يحصل ثوابها الموعود به إلا بكمال إخلاصها .

وكل الآيات والأحاديث وأقاويل السلف المقتدى بهم وأفعالهم على ذلك ، أن الثواب متوقِّف على الإخلاص ، وإنما نوى به وجه الله ، فجزاؤه ثابت له عند الله بمقتضى وعده سبحانه ، وحيث قال تعالى : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، والإحسان هو العمل الصحيح مع النية الخالصة، ومفهومه أن من لم يحسن عمله واختلَّت نيته أن أجر عمله ضائع ، وإنَّ كل ما نوى به غير مجرد امتثال أمر الله وطلب مرضاته وثوابه كطلب طمع دنيوي أو منزلة في قلوب الناس ونحو ذلك أنه غير مخلص، قال الله تعالى أكرم قائل عظيم : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ ، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾، فَشَرَطَ في ذمِّ عاقبة طالب الدنيا بعمله نفس الإرادة فقط ، وشَرَطَ في مدح عاقبة طالب الآخرة ثلاثة شروط: أن يسعى لها ، ولا يتعطل، وأن يكون سعيه لها بعملها المجعول شرطاً في طلبها. وشَرَطَ أن يكون ذلك السعي بذلك العمل بنية طلبها، لا بنية طلب غيرها ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إنما شَرَطَ نفس الإرادة فقط ، وغير ذلك من الآيات .

وأما الاحاديث : ففي الحديث الصحيح القدسي عن الله عز وجل قال : « **قال سبحانه : من عمل لي عملاً وأشرك فيه غيري فنصيبي لشريكي** » ، ويشمل ما لو أشرك في رجاه منه سبحانه الجزاء على ذلك العمل ، رجاء غيره عليه ، وما لو أشرك مع قصده به وجه الله في الآخرة قصد رجاء طمع منه تعالى عليه في الدنيا كما دلَّ عليه قوله : « **كمن يسمع أن من صلى الضحى تيسَّر رزقه ففعل لذلك ، فلا يقل : أرجو به الجنة** » ، فكيف لو جرده لقصد الطمع بالعبادة من المخلوق نعوذ بالله ، كما تراه اليوم من

أحوالهم سيما من ينتسب إلى الدين ويُنسَب إليه ، وقال عليه السلام: « من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس الله وجهه ، ومحق ذِكْره ، وأثبت اسمه في النار » .

وذَكَرَ الإمام السيوطي في « الدر المنثور » : أخرج أحمد والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وابن حبان عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: « بَشِّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكن في الأرض ، ما لم يطلبوا الدنيا على عمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب » ، وفي بعض الأحادث : « ومن أخذ على شيء مما يبتغي به وجه الله حظًا من الدنيا فليس له عند الله حظ » . أو كما ورد ، وورد أن النبي ﷺ قال : « اقرأوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرأونه من فاتحته إلى خاتمته لا يجاوز حناجرهم، يتعجلونه ولا يتأجلونه » ، أي يطلبون به العاجلة وهي الدنيا ، يعني يطلبونه عاجلاً ولا يؤخرونه إلى الآجلة - أي الآخرة - .

فافهم من هذا أنها الجزاء شيء واحد ، إما يعجله في الدنيا فصار هو حظه ولا حظ له هناك ، وإما أجَّله إلى الآخرة فاستوفاه هناك كاملاً ، والمراد بالتعجُّل والتأجُّل : نيته ، إن نواه معجلاً وأراده هنا ، سواء حصل له أو لم يحصل ، فإن نيته أخلَّت بعمله ، ولو نواه في الآخرة وعجل له فَنِيَّته كاملة وعمله ناقص ، ولو نواه عاجلاً وحصل له فَنِيَّته وعمله ناقصان .

فإذا فهمت هذا الحديث فلا تغتر فتقول : لي على العمل جزاءان ، جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة، فتكون مكذباً بهذا الحديث ، بل بكل هذه الآيات والأخبار ، وإن اعتقدتَ أنت ما يخالفها ، فلست بمصدق بها ، وحينئذ يصدق عليك حديث المعراج : قال النبي ﷺ : « رأيت ليلة المعراج في النار رجالاً تُقرَض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار ، ولهم صراخ وجلبة كصراخ البعير ، فقلت لجبريل : « من هؤلاء ؟ » ، قال : « هم رجال من أمتك يأكلون الدنيا بالدين » ، فانظر هذا الوعيد الشديد الذي تعرَّفتَ عليه ، يدل على أن يكون ذلك الفعل حراماً ، فإن القاعدة الشرعية : إن الحرام هو ما توعَّد الله على فِعله بالوعيد الشديد والعذاب العظيم ، وأي عذاب أعظم من هذا .

فاعلم ذلك يا من يقول لا يحرم ذلك ، بل من خالف قول الله وقول رسوله ، وعمل بخلاف ما قال الله ورسوله فإلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان . فانظر لنفسك ، ولا تلتفت إلى تأويل المتأوِّلين ، الذين قادهم الهوى وغرَّهم بِنَيْلِ المنى ، وأعماهم عن اتباع الهدى محبة الدنيا ، فباعوا الدين بالدنيا - وهذا فساد في الدين ظهر بعد زمان الصحابة والتابعين والقرون الثلاثة ، وكان فيها البُصَراء بالدين - بسبب بعض من علم طَرَفاً من العلم الظاهر، وخَلَت قلوبهم عن التقوى، ثم تداولت عليه القرون والسنون فألِفَه الناس أجمعون ، ورأوا أنه هو الحق الذي لا يخالَف ، وهذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما ترى ، لكن أهل الورع والتقوى لهذا في كل وقت يُنكِرون ، وللحق يُبيِّنُون وفيه يتكلمون وللخلق يرشدون ،

إنما على هذا اليوم آحاد وأفراد ، خواص الله من عباده يعملون عليه وينكرون على من خالفهم ، فبهذا يتبيَّن أن الأمة ما اجتمعت على ضلالة ، ومصدِّق لمعنى ولو على واحد منهم على الحق لخالفه الكل .

وقد قال سيدنا : « **فما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » . يعني علماء الدنيا كهؤلاء المشار إليهم ، بخلاف علماء الآخرة العارفين بالله وبأحكام دين الله ، أهل الورع والتقوى والنيات الصالحات ، أهل البصيرة المتمكنين في العلم ، الذين يعرفون مراد رسول الله ﷺ بقوله : « **من غزا ولم يَنْوِ إلا عقالاً ، فله ما نوى** » ، يعني هي نيته ، فلا يحدِّث نفسه بغير ذلك .

قال الإمام الغزالي : « قال الحسن البصري : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولذلك قال يحيى بن معاذ الرازي ، وهو من أصحاب أبي يزيد البسطامي ، كان واعظاً مشهوراً قال : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا ، وأنشدوا :

عَجِبْتُ لمبتَاعِ الضَّلالَةِ بِالهُدى وَلَلْمُشتَرِي دُنْيَاهُ بِالدِّينِ أَعْجَبُ

وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب ، أن الله عز وجل يقول : إن أهون ما أصنع بالعالِم إذا أحب الدنيا ، أن أُخرج حلاوة مناجاتي من قلبه ، وروى أبوهريرة عنه ﷺ قال : من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة . وقد وصف الله تعالى علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد ، فقال في علماء الدنيا : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾، وقال في علماء الآخرة : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، انتهى كلام الإمام الغزالي .

فتبين أن هؤلاء الأخيرين الذين هم علماء الآخرة ، لهم أجرهم الموعود به على طلب العلم باقٍ مُدَّخر لهم عند الله ، حيث لم يأخذوا عليه أجراً في الدنيا ، وإن الآخرين المذكورين قبلهم ، الذين هم علماء الدنيا ، حيث أخذوا عليه أجراً في الدنيا ، هو الذي يسمى : ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، ليس لهم هنالك شيء ، فقد باعوا أجرهم في الآخرة بما أخذوا عليه في الدنيا ، ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾، حيث أخذوا فانتاً عوضاً عن باقٍ ، وذاك لجهلهم وعدم تقواهم . فكل هذه المفاسد في الدين إنما نشأت عن علماء فاسدين خالين عن التقوى والدين ، لعملهم بخلاف ما يعلمون ، فكل من عمل بمثل عملهم فهو مثلهم من الخاسرين في الدنيا ويوم الدين .

وذكر الشعراوي حديث : « سيأتي على أمتي زمان يقرأون القرآن يستأكلون به الدنيا » ، وفي

رواية: « يبيعونه بعوض من الدنيا ، أولئك أول من تُسَعَّر بهم النار » ، وذلك لاستهانتهم بالقرآن وعدم تعظيمه .

أقول : أخبِرني ، هل هذ الوعيد وَرَدَ عن رسول الله ﷺ على أمْرٍ مكروه أو على محرَّم ؟ وهل يبيح هذا عذر من الأعذار ؟ سيما وقد علَّله بالإستهانة ، وهي من لازِم هذا الفعل لا تنفك عنه قط ، فمن باعه فهو على كل حال مستهين به غير معظِّم له ، وإنما وصفه بالبيع لما جرت به العادة شرعاً وعُرفاً أنك إذا بِعْتَ شيئاً وأخذتَ ثمنه اليوم ، ما لك أن تطلبه غداً مرة ثانية ، فإنما حقك منه المرة الأولى لا غير .

وقال الإمام الشعراوي رحمه الله : « قد صَرَّح العلماء في علم الحديث بأن من روى الحديث بأجرة لم تُقْبَل له رواية منهم » ، أي العلماء القائلون بذلك : الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، والرازي وغيرهم ، وقالوا : هو شبيه بأجرة القرآن في كونها تخرم مروءة الإنسان .

وإسحاق بن راهويه هو الذي يقال له : إسحق بن إبراهيم الحنظلي ، وهو من كبار شيوخ البخاري، وهو الذي أمره بتجريد تخريج الصحيح ، فتجرد بتخريج صحيح البخاري ، انتخبه سبعة آلاف حديث من نحو سبعين ألف حديث كان يحفظها ، فهو أصح الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ ، وما وافقه مسلم فيه منها فهو أصحها ، وأظنها نحو ألف حديث وعشرة أحاديث ، وإن كان خلاف ذلك فهو غلط مني والله أعلم .

قال الشعراوي : « وقد جرَّبْتُ الأكل من أجرة القرآن والأذان والإمامة وغير ذلك من أمور الدين ، إنه يظلم قلبي ، جربته وأنا صغير ، ومن حين وعيت على نفسي ما أخذت معلوماً على فعل شيء من القربات الشرعية » ، وقال الشعراوي أيضاً ، لما ذكر آداب طالب العلم وعددها فقال : « ومنها – أي من آداب طالب العلم – أن ينظر في أحوال العلماء ، ويأخذ العلم عن أقلهم رغبة في الدنيا ، فإنه أنور قلباً وأقل إشكالاتٍ في الدين » .

وقد قال ﷺ : حب الدنيا رأس كل خطية . فكيف يُؤخَذ العلم عن من جمع قلبه رأس كل خطيئات الوجود كلها ، ومُنِعَ من دخول حضرة الله تعالى ، وحضرة رسوله ﷺ ، فإن حضرة الله كلامه ، وحضرة رسوله كلامه ، ومن لم يتخلَّق بأخلاق صاحب الكلام لا يصح له دخول حضرته .

– أي فهم معنى كلامه كما يدل عليه سياق الكلام ولو في صلاته ، لأنه لا يفهم أحد عن أعلى منه إلا إن قدس وصلح لمجالسته ، فمن زهد في الدنيا كما زهد فيها رسول الله ﷺ ، وامتثل مأموراته ، فقد أُهِّل لفهم كلامه ، ولم يحتج فيه إلى تأويل ولا تفسير ، ومن رغب في الدنيا كغالب الفقهاء اليوم ، لا يؤهَّل لذلك ، ولا يفهم كلام الشارع إلا إن فسر له بالكلام المغلق الضيق –

وقد سمعتُ مرة نصرانيًا يقول لفقيه : كيف تزعم علماؤكم أنهم ورثة نبيهم وأنصار دينه وهم يرغبون في ما زهد فيه بَتْرَكُنا - أي عالمنا - ورهباننا - أي عبادنا - ؟ ، فقال له الفقيه : كيف ذلك ؟ ، فقال : لأنهم يأخذون في إقامة شرائع دينهم عرضاً من الدنيا ، ولو قُطِعَ عنهم ذلك العرض لعطّلوها ولم يفعلوها ، وجميع القسّيسين والرُّهبان مِنَّا يقومون بجميع شعائر ديننا من إمامة وخطابة وتعليم ، لا يأخذ أحد منهم الفلس الواحد ولو عزموا عليه بذلك ، ويقول : كيف آخذ أجراً على ما أطلب به القربة إلى الله عز وجل ؟ فانظر كيف قوة يقين أصحابنا وإيمانهم بما وعد به ربهم ، وعدم تصديق علمائكم وضعف يقينهم، فإنهم لو صدقوا ربهم فيما أخبر به نبيهم ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ما باعوا قرباتهم بعرض الدنيا ، ففرقٌ عظيم بين حالنا وحالكم ، فأين دعواهم أنهم أنصار دينهم؟ ويموت الفقيه منهم أو العالم فيوجد بعده الألف دينار وأكثر ؟ ولو وقع ذلك من بَتْرَكِنا لرجمناه بالحجارة ، ولم نصلِّ عليه . فقال له الفقيه : وهل بَتْرَككم بهذه الصفة ؟ ، فقال : « نعم ، بشرطه أنه لا يبيت على دينار ولا درهم ، وكذلك نقل إلينا عن حال نبيكم ، فإن كان علماءكم لا يقتدون في ذلك بنبيهم ، فلا أقل في ذلك من المشي على رتبة بَتْرَكِنا . انتهى كلام الشعراوي .

وفيه تَبْكيتٌ شديدٌ من هذا النصراني الخبيث على أهل ملة الإسلام ، حَرَسَها الله من تحريف المبطلين ، فلولا شدة الطمع التي مازَجَتْ لحومهم ودماءهم ، لانزجروا بتفضيح هذا العدو وتشنيعه، لكن أمرٌ أراده الله سبحانه لا رادَّ له ، وهو كالذي سأل عنه الأنبياء ربهم فلم يجبهم عنه ، وسكتهم عنه بقوله لهم : « لا أُسأل عما أفعل » .

وقد انجر الطبع اليوم بسبب غلبة الطمع والهوى إلى خلاف ذلك ، وجرت عليه العادة من زمان قديم ، ورسخت عليه من دهر طويل ، حتى رسخ في العقول والقلوب أنه هو الحق والصواب ، وصار هذا المنكر المألوف هو الحق المعروف في العُرف ، ولم يزل الحق والشرع مخالفاً للهوى والطبع ، فإن الشرع داعي الحق إلى الصواب ، والحق والهوى داعي النفس إلى الفساد والباطل ، ومن كان على الحق والصواب لا يرى نفسه تستحق شيئاً إلا بفضل من الله ورحمة ، ولم يزل خائفاً من غلبة الطبع أن يجرَّه إلى العدول عن الحق ، لأن الطبع قد سبق القلب من وقت الصغر وتمكَّن فيه ، وإنما أتى إليه داعي الحق آخراً بعد رسوخ العقل يحاربه ليخرجه من موطنه ومستقره وتمكنه ، فإن أيده الله بجنود العناية والتوفيق ، قهره وغلبه وتمكَّن في مستقره ومكانه ، وإلا غَلَبَ داعي الهوى وطرده وبقي في مكانه .

فلذلك لم يزالوا خائفين ولم يأمنوا نفوسهم ، ودائماً يتهمونها ولو كَمُلَت وتزكَّت ، والعاقل لا يزال يَتَنَبَّه لذلك ويُلقِي له باله ، ولا يغفل عنه ، والجاهل الأحمق الذي لا يهمه أمر دينه لا يزال غافلاً عما هنالك ، وربما ادعى ما لا يستحقه وليس بأهل له .

انظر إلى الإمام عبدالله بن المبارك رضي الله عنه ، مع غاية كماله في العلم والدين وعلو المنزلة عند الله ، فكيف ما رأى نفسه أنه يستحق دخوله الجنة حتى قال : « استجريت على ربي فسألته الجنة » ، وهذا أنت مع نقصان حظك من ذلك ، ونقصك في العلم والدين والتقوى ، وقلة رفعة قَدْرِكَ عند الله مع بيعك لدينك وعباداتك بطمع الدنيا ، ترى أنك من كبار أهل الجنة ، وقد قال الله سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي جاهدوا نفوسهم على اتباع مرضاة الله وإخلاص الأعمال كلها لله ، ولولا ذلك ما مَدَحَهم ، فقد جزاهم أفضل ما خبّأ لهم ، وهو مُؤذِن بكمال الجزاء والفضل منه سبحانه لهم ، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ - أي الفقر - ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ - أي الأمراض - ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ .

انظر كيف صبروا على هذه المِحَن والإختبارات لهم من ربهم ، طلباً لرضا الله وحصول الجنة ، وأنت لم تُبْتلى بشيء ، ولو ابْتُلِيْتَ بأدنى ضرورة في معاشك جَعَلْتَ تبيع من أجلها عباداتك التي أنت أحوج ما تكون إليها إذا لَقِيتَ ربك .

فانظر كم فرق ما بينك وبينهم ، مع أن هؤلاء الممدوحين من غير هذه الأمة ، مدحهم لصبرهم على ما ذَكَر ، فإذا صبر عليه أحد من هذه الأمة كان أجدر بالمدح. فانظر لنفسك اليوم ، فإن الدعاوي بالأقوال لا تنفع ، ولا يثبت بها الحق ، حتى تشهد لها النيات من الأعمال ، كما ذَكَره في « الحِكَم » ، وقد قال تعالى : ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾، أي حسبوا أن يتركوا على دعواهم الإيمان وحصول الجنة لهم وغير ذلك ، من غير أن نمتحنهم ونختبر صدقهم ، بل بدعواهم مجردة ، فإن الدعوى مجردة بلا بَيِّنة لا يَثْبُت بها حق. فلا يظنوا ذلك ، بل لا بد أن يبتليهم ويمتحنهم ويختبر صدقهم ، وهو عالِم بما هُم عليه ، لكن أراد إظهار ذلك لأن هذا خطاب بين الخلق ظاهر لا بد من ظهوره كحكم الشرع ، لئلا يدَّعي من ليس له حق أن له حقًّا فيتبيَّن بالإختبار حالُه ليثبت به له الحق ، وتنقطع به دعوى المبطلين .

وهذا غير أمر السريرة التي بين العبد وبين ربه ، وإن هذا يثبت به أصل الحق وذلك يستحق به الزيادة ، والأول كالعَشْر في الوعد الثابت بالحسنة الواحدة ، والآخر بما يضاعف على ذلك إلى سبعين وإلى سبعمائة وإلى أضعاف كثيرة ، بحسب زيادة صلاح السرائر ، والأول إنما شرطه الإخلاص في العمل فقط ، وفي هذا مع حصوله زيادة صلاح السريرة بحسبها ، يعني فإن وجدناهم صادقين بأن صبروا في مقام البلاء ، جزيناهم بأحسن جزاء المحسنين ، فإن رضوا ضاعفنا لهم ذلك أضعافاً مضاعفة ، كما في الحديث : « إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اصطفاه ، فإن رضي اجتباه » ، فالصبر

على البلاء بسبب المحبة ، يرفعه إلى مقام الإصطفاء ، والرضا بالبلاء يرفعه إلى مقام الإجتباء وهو أعلى، والصبر مقام العامة ، والرضا مقام الخاصة ، فهما مقاما العبودية لا غير ، وقد بيَّنهما النبي ﷺ حيث قال : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » .

وإن اختُبِروا بما ذَكر فلم يرضوا ولم يصبروا ، بأن أظهروا الجزع والكراهة والسخط لقضاء الله ، فلا يتعدوا طَوْرهم ويطلبوا ما ادخر لغيرهم ، إذ طلبوا الجنة ولم يستحقوها ، لعدم صبرهم على ما امتُحِنوا، يقول الله سبحانه : أما سمعوا قولي: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝ ﴾؟ ولا يزال أهل الكمال يرون نفوسهم بعين النقص والتقصير ، لأنهم يرون الكثير قليلاً بالنسبة إلى ما يلزمهم من حق ربهم ، ولا يزال المقصرون وناقصو الحظ من ربهم يرون نفوسهم بعين الكمال والتشمير ، لأنهم يرون القليل كثيراً لِعِظَمِ نفوسهم عندهم ، فيستعظمون ما منها .

فإذا أردتَ أن تكون على الحق والصواب ، فاجعل أمور الدين كلها لله خالصة ولا تطلب بها نفع الدنيا ، وابقها نفعاً لك في الآخرة ، وتأجَّلها ولا تتعجَّلها ، وإذا أردتَ الدنيا فاطلبها بحِرَفِها المجعولة لها ، ولا تنجذب بسبب هوى النفس والطمع ومحبة الدنيا إلى الغرور ، فتطلب الدنيا بعمل الآخرة ، وتظن أن يحصل لك عليه نفعان ، نفع في الدنيا ونفع في الآخرة ، فهذا محال ، فلو أمكن هذا لما أفتى السلف الصالحون بخلافه وحَكَمُوا به وعملوا عليه ورأوا أن ذلك لا يكون قط، ولستَ أعلم بالله ولا بأحكام الله منهم ، ولستَ بأعلم بصيرة ولا بأقوى تقوى منهم ، وقد قال النبي ﷺ : « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغني بها عن الناس، ويبغض العبد يتعلم العلم يتخذه مهنة » ، يعني حيث أن العلم من عمل الآخرة فجعله للدنيا ، فإن الله يبغض فاعل ذلك ، وقِس عليه غيره .

والمهنة حيث هي من عمل الدنيا فجعلها في محلها فطلبها بها ، فإن الله يحب فاعل ذلك ، فإن عَكَسَ وجعل عمل الآخرة للدنيا ، فهو خطأ كبير وظلم شديد، فإن الظلم وَضع الشيء في غير محله، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فقد ذَكَرَ الإمام الغزالي : أنه لو أن ملكاً من الملوك دفع الكتب وآلات العلم للعساكر ، ودفع السلاح وآلات الحرب للعلماء ، فهو ظالم لوضعه الشيء في غير محله . بل ولو نوى بأسباب الدنيا تحصيلها ليستعين بها على العبادة وفعل ما يقرِّبه إلى الله ، حصل له نفع الدنيا والآخرة، ولا يطلب الدنيا بعمل الآخرة بأي وجهٍ كان ، ولو ادَّعى عذراً فدعواه باطلة ، و هو أكل بدينه لا محالة، ويفوته نفعه الأخروي . وإن جادل في ذلك أحد فإنما جداله بغلبة الطبع والعادة . فافهم هذا المعنى المقرَّر في الكتاب والسنة ولا تلتفت إلى قول أحد ، وإن كان العمل اليوم عند الخاص والعام على ما اقتضاه طبع أهل الزمان ، وتمكَّنت عادتهم عليه مما يخالف المعنى المذكور .

ثم اعلم ، أن طلب الدنيا بعمل الآخرة ليس من الديانة ولا من المروءة ، بل من الدناءة واللآمة

والخساسة ، فهذا ما ورد عن الله ورسوله .

وقد استأذنت سيدي في كتابة كتاب « البرقة في إلباس الخرقة » ، لسيدنا الشيخ علي بن أبي بكر، فأذِنَ لي وقال : « **اكتبه ، وتوكَّل ولا تتأكَّل** » ، ثم قال : « **التأكُّل طلب الدنيا بأمور الدين** » ، وهذه كلمة منه في معرض المزح ، ظاهرها مزح وباطنها جد ، ومراده تقريره المعنى الذي نحن بصدد تقريره في معنى قوله : « **من تحرِّكه الرغبات** » .

وأما ما ورد فيه عن السلف الصالح : فروي أن سيدنا عمر رضي الله عنه استعمل عبدالله بن الأرقم رضي الله عنه ، وهو من كبار الصحابة ، ومن كتاب رسول الله ﷺ على بيت المال ، فأعطاه ثلاثمائة درهم فأبى أن يقبلها وقال : « إنما عملت لله ، وإنما أجري على الله » ، فلولا أن أخذه الأجرة في الدنيا مبطل لأجره في الآخرة لأخذه ، فإن قوله : « إنما أجري على الله » ، وردُّه ذلك المال ، يدل على ذلك . وكذلك استعمله عثمان رضي الله عنه على بيت المال ، وأعطاه ثلاثين ألفاً ، فأبى أن يقبلها وقال مثل ذلك ، لخوف فوات ما وعد به في الآخرة . وأما من باع آخرته بدنياه كحال أهل هذه الأوقات ، فيأخذ على العبادة طمعاً دنيوياً ، ثم توسوس له نفسه بأمانيِّها وغرورها أن ثوابه في الآخرة باقٍ على حاله فلا لهم عليه دليل ، وكلما احتجوا به باطل، لأنه مخالف لما ذَكَرْنَا من الآيات والأخبار وأقوال أهل الحق وأحوالهم .

فعرف السلف الصالحون أن ذلك ضدان لا يجتمعان ، نفع الدنيا مع نفع الآخرة على عمل واحد، فإذا كان قد ورد : « أن من نال حظًا من الدنيا نقص من حظه في الآخرة بقدر ذلك ، ولو كان له عند الله منزلة عالية » ، وهذا أيضاً إذا لم يكن ما ناله من الدنيا على عبادة ، فكيف إذا كان ذلك على عبادة ؟ وقد قال الإمام سحنون صاحب الإمام مالك رضي الله عنهما : « لأن آكل الدنيا بالدُّف والمزمار ، خير لي من أن آكلها بالدين » ، ذَكَرَهُ النفراوي في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وقال بعض السلف : « إذا كنت تعطي أصحابك دِيناً وتأخذ منهم دُنيا ، فبئس الرجل أنت » ، ويكفيك في هذا شاهداً حال النبي ﷺ مع عظيم منزلته عند الله تعالى ، كيف تركها وقد راوَدَتْهُ الجبال أن تنقلب له ذهباً ، فأبى ذلك واختار الفقر ، حتى أنه تمضي عليه الثلاثة الأهِلَّة ما يوقَد في بيته نار لطعام ، كل ذلك زهداً في الدنيا وعزوفاً عنها ، وتوفيراً لحظ الآخرة ، لئلا ينقصه حظ الدنيا ، وهو لا ينقصه ، ومعلوم أنه كان ينفقه في سبيل الله ولا يتمتع به وتركه كما ورد : « يا طالب الدنيا لتبر بها ، تركك لها أبر وأبر » ، وقد أعطاه الله كمال عزوف النفس عن الدنيا ، فما مال خاطره إليها قط بوجه من الوجوه ، قال سيدنا في الرائية، في مدحه ﷺ :

هُـوَ الزَّاهِـدُ المُلْقِـي لِدُنْيَـاهُ خَلْفَـهُ ... هُـوَ المُجْتَـزِي مِنْهَـا بِـزَادِ المُسَـافِرِ
وَبَاذِلُهَـا جُـوْداً بِهَـا وَسَـمَاحَةً ... بَكَـفٍّ نَدَاهَا كَالسَّحَابِ المَوَاطِرِ
ورَدَّ مَفَاتِيـحَ الكُنُـوزِ زَهَـادَةً ... وَمَـا مَـالَ لِلدُّنْيَـا الغَـرُورِ بِخَاطِـرِ
وَمِـنْ سَـغَبٍ شـدَّ الحَجَـارَةَ طَاوِيـاً ... لأَحْشَـائِهِ الطَّيِّبَـاتِ الضَّوَامِـرِ

وكذلك الأولياء المحسنون أتباعه ، وَهَبَهُم الله عزوف النفس عن الدنيا ، اتباعاً له والسير على طريقته .

فالعجب كيف غطى الهوى على عقول أهل الزمان عن الإلتفات إلى هذه الدلائل القطعية من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح ، وسيرهم وأحوال الأئمة من كبار هذه الأمة مما لا يحصى ، وعن العمل بها ، بل عدوا العمل بذلك خطأ ، وخطأهم الموافق لأهويتهم بخلاف ذلك هو الصواب، لتعرف أنه ما بقي من أمور الدين إلا الاسم والصور والرسوم ، وإلا فالحقائق قد ذَهَبَتْ ، كما سيأتي آخر الكلام على هذه المقالة بعض ذلك .

فأهل الزمان إنما عملهم على ما يرونه صواباً ، وهو الإعتماد على صور الأعمال دون حقائقها ، وإنما هي بدون الحقائق كالعدم ، وكالجسد بلا روح ، ويتركون طلب الحقائق جميعها ، ولا يلتفتون إليها، ويكتفون بالقِشر عن اللُّب ، وبالجسم عن الروح ، وبالصور عن الحقائق ، وبالآلة عن المقصود، ويتركون ما لا بد منه ويحسبون أن الناس على هذا من وقت السلف ، وأن السلف من هذه الأمة على مثل ذلك كانوا ، حيث أدركوا الناس ممن كان قبلهم على هذا الوصف ، ولم يروا له مُنكِراً ، ولا من يتكلم فيه ، وقد أُنكر أولاً في الإبتداء ، ثم تداولت عليه الأعصار والسنون ، فأُلِفَ بعد ذلك ولم يُنْكَر، بل صار خلافه المنكر ، ولو أَنْكَرَهُ منكِر لما يعلم من الكتاب والسنة وما عليه السلف الصالحون ، أُنْكِرَ عليه اليوم لمخالفته لجمهورهم .

وابتداء إنكاره لمَّا بُنِيَت المدرسة النظامية ببغداد ، التي بناها الوزير نظام الملك في القرن الرابع، وجعل فيها للعلماء وطلبة العلم الأوقاف والمرتبات الكثيرة، فاتخذ أهل ما وراء النهر مأتماً ، وكان هناك معشعش العلماء وأهل الحديث ، كالبخاري ومسلم وغيرهما ، فجعلوا لهم مأتماً وتعزية ، وظهر عليهم الحزن ، وجعلوا يتعازون بينهم ويبكون ، كأنما مات عليهم أكبر شيوخهم ، فسئلوا عن ذلك فقالوا : « نبكي على ذهاب العلم بذهاب أهله » ، لأن العلم مَلَكة شريفة كان تطلبه النفوس الشريفة بجاذب الشرف ، والآن لما جعلت عليه الأطماع صار تطلبه النفوس الرذلة بجاذب الطمع ، فذَلَّ العلم بذُلِّهم وما شرفوا هم بشرفه ، فنبكي على ذل العلم وذهابه بذهاب أهله ، الذين كانوا يطلبونه لوجه الله

، ويعملون به لله ، لا لأطماع الدنيا . فافهم ذلك ، ثم إنهم لما ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾الآية ، وتداولت عليهم الأوقات والعصور ، وطالت بهم الأيام والدهور على هذا الحال فأَلِفُوه ، ثم جاء ناس آخرون فرأوهم على هذا ، وجاء غيرهم بعدهم ورأوهم كذلك ، وجاء آخرون بعدهم فصاروا معهم على ما هم عليه ، وعلى هذا زمان بعد زمان ، فأطبقوا عليه حتى لا يظن أحد أن الأمر كان بخلافه ، ولا يرون أن في ذلك بأساً قط ، بل رأوا إنما ذلك على هذا الوجه مطلوب ومحبوب .

فانظر كيف تبدَّل الحال اليوم ، وتغيَّر عن الحال الأول ، واستُبدِل بِضِدِّه كما قال سيدنا وذَكَرْناه غير مرة : « **انعكست الأمور في هذا الزمان عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها** » ، فهكذا الأمر كما ترى في هذا الزمان ، وفي كثير غيره ، حتى أن الرجل المنسوب إلى الطريقة الصوفية ، أو إلى العلم والتقوى ، لا يبالي بأخذ المال الحرام ، ويفرح بما يصله من أموال الظلمة ، لا يرده عنه إلا عدم حصوله، ليس التقوى . وقد كان هؤلاء يزهدون في الحلال ، فهذا من انعكاس الأمور عن أوضاعها ولهذا قالوا: « تتجدد للناس أحكام في كل عصر بحسب ما أحدثوه من البدع » ، يعني إذا ظهرت بدعة ، احتاج العلماء أن يفكروا فيما عندهم من العلم وقواعده في تلك البدعة ، بماذا يعرف الحكم فيها من حِلٍّ وتحريم ، حتى يعرفوه ويتبين لهم فيعملوا عليه ويفتوا به للناس فيعملوا ، ولكن قد يختلف اجتهاد العلماء في حُكْمِ ذلك باختلاف مآخذهم ومنازع علومهم ، وربما مع أحد منهم شائبة هوى في بعض البدع ، فيحكم بمقتضاه .

كما اختلفوا في حكم التنباك وحدوثه سنة : « بغي » ، وذلك سنة ١٠١٢ ، فمن مغلِّظ في تحريمه ، ومن ساكت عنه ويقول : لا دليل فيه يدل على التحريم . ومن مُفتٍ ممن يشربه ويقطع بحِلِّه ، ولا يتبين أمره إلا بين يدي الله ، وسيدنا يقول : لما ثبت أن كل مسكر حرام ، وأن هذا من شأنه الإسكار ، وما سَلِمَ من سكره إلا بعدما أسكره مراراً ، فيميل إلى تحريمه . وسيدنا أحمد الهندوان : يشنِّع فيه ويبالِغ في إنكاره ، ويحكم بتحريمه ويفتي به .

ورأينا أناساً من صالحي أهل اليمن يستعملونه ولا يرون به بأساً ، كالسيد علي الأهدل صاحب القرشية وغيره ، وأناس من أهل الحقائق على هذا ، كالشيخ عبدالغني النابلسي وغيره ، ولهذا ورد : « أن الله ينطق علماء كل وقت بما يناسب أهل وقتهم » ، هذا في العموم ، وأما في الخصوص فيجاهد الإنسان نفسه على ما فيه الدليل من الكتاب والسنة ، من عمل النبي ﷺ وما أمر به ، وما عليه أصحابه، وأهل القرون الثلاثة المنصوص على خيريتهم على غيرهم ، ولهذا ورد عن بعض السلف - وأظنه الإمام أحمد - الإمتناع من أكل البطيخ وقال : « لا أعلم كيفية أكل النبي ﷺ له » .

ولما حدثت القهوة في وقت الشيخ علي بن أبي بكر علوي فلم يشربها ، وينظر إلى الماعون الذي

هي فيها ، ويشمها ويقول : « نِعْم الإدام الخل » ، ثم يردها. ومثل ذلك كثير مما حدث فلا يقدم عليه حتى يتبيَّن له الحق ولو بعد حين ، فإن الإنسان إذا قدم على ما نهى عنه الشرع ، أو مما حدث كما نحن نتكلم فيه من حدوث أخذ الدنيا على عمل الآخرة ، أول الأمر يهاب الإنسان من الإقدام عليه . فإن قدم عليه مرة خَفَّ وَقْعُه في قلبه ، فإن أقدم عليه بعدها خَفَّ وَقْعُه أكثر، ثم لم يزل كذلك حتى لم يكن له وَقْع ، حتى ربما عده من القُرب والمستحب ، كما ترى من احتجاج من يبيع عباداته بحديث : « أفضل ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله » ، فأوَّله على مقتضى الهوى ، على ما تهواه نفسه ، أنه الأجرة . وإنما معناه كما أوَّله المتَّقون : أنه الأجر في الآخرة ، يعني أن ثواب قراءة القرآن في الآخرة أفضل ثواب الأعمال عند الله في الدار الآخرة . ذَكَرَهُ الشيخ الشريف الحسني المغربي علي بن ميمون الإدريسي في رسالته : « بيان غربة الإسلام ، بواسطة صِنْفَي المتصوفة والمتفقهة » ، ويدل عليه قوله : « أخذتم عليه أجراً » ، وما قال : أجرة . وإنما اختلقها المترخِّصون في بيع عباداتهم أجرة ، فهؤلاء هم فساد الدين كما قال سيدنا، فقال : « **ومن كان يشق عليه فعل المعصية ففعلها مرة ، سهلت عليه بعد ذلك** » ، يعني وكلما تكرر فعلها زادت سهولتها ، حتى صار لا يعبأ بفعلها ، وصار فعلها وتركها عنده سواء ، فهكذا هذا الأمر المذكور .

ثم قال عن بعضهم ممثلاً به لهذا المعنى : « **أنه كان يسير في طين ووحل ، رافعاً ثيابه لئلا يصيبها شيء ، ويتحفظ جهده عن السقوط ، فاتفق أنه زلَّت رِجله فسقط ، فَبَعْد ذلك أرخى ثيابه وسار في وسط الطين ، وجعل يبكي . فقيل له في ذلك ، فقال: كنت خائفاً من السقوط فسقطت ، فسهل عليَّ . وهكذا المعاصي** » ، أي وهكذا ما نحن نتكلم فيه من بيع العبادة بالأطماع الدنيوية .

وكذلك النفاق في وقتنا لا يُسْتَنكر ، حتى إنك ترى جميع خصال النفاق في العالِم الكبير ، الذي يُقَبِّل الناس يده ويحترمونه ويعظمونه ، وقد كانت الخصلة الواحدة من النفاق مستنكرة في وقت النبي ﷺ والصحابة والتابعين ، إلى آخر القرون الثلاثة .

فلو فعل أحد هذا الفعل من بيع العبادات بأطماع الدنيا في وقتهم ، لعدّوه من كبار المنافقين كابن أُبَي وأمثاله ، ولكنه لمَّا تكرر عليهم وطال به المدى سَهُل عليهم وَقْعه ، ولم يكترثوا به ، ولم يعدوه شيئاً، ولم يروه حتى من المكروهات ، بل عدوه من أكبر الفضائل والمستحبات ، كما احتجوا لذلك بحديث : « أفضل ما أخذتم عليه أجراً ، كتاب الله » ، وبدَّلوا أجراً بأجرة ، تحريفاً للكَلِم عن مواضعه ، من سوء أحوالهم ونقص حظهم .

قال الإمام الغزالي : « ولذلك اشتد خوف الصحابة والتابعين من النفاق ، حتى قال الحسن البصري : لو أني أعلم أني بريء من النفاق ، كان أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس . وما عنوا به النفاق

الذي هو ضد أصل الإيمان ، بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان ، فيكون مسلماً منافقاً ، وله علامات كثيرة ، قال النبي ﷺ : أربع من كُنَّ فيه فهو منافق خالص ، وإن صلى وصام ، وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتُمِن خان ، وإن خاصم فجر . وفي لفظ : وإذا عاهد غدر ، وقد فَسَّر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو منها إلا صدِّيق . قال الحسن : من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب والمدخل والمخرج . ومن الذي يخلو من هذه المعاني ، بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة، ونسي كونها منكراً بالكلية ، بل جرى ذلك على قُرْبِ عَهْدٍ بالنبوة ، فكيف الظن بزماننا .

قال حذيفة : كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقاً ، وإني لأسمعها في اليوم من أحدكم عشر مرات ، وقالوا : من النفاق أن يكره من الناس ما يأتي مثله ، وأن يحب على شيء من الجور ، وأن يبغض على شيء من الحق ، وقيل من النفاق : إذا مُدِحَ بشيء ليس هو فيه أعجبه، أو ذُمَّ بشيء هو فيه كَرِه ذلك » ، انتهى كلام الإمام الغزالي رحمه الله .

قوله : « صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ، ونسي كونها منكر بالكلية » ، هو بعينه ما قرَّرناه في المعنى المذكور ، فيكون كلام الإمام لنا حُجَّة في ذلك ، كيف وهو حُجَّة الإسلام ، فهذا دليل لِتَسْمِيَتِهِ بذلك ، فقد بَيَّن ما ذَكَرْنا من أن المنكر إذا تكرر أُلِف فلم يستنكر .

وقد سمى سيدنا هذا النفاق الذي يجتمع مع أصل الإيمان : نفاق العمل ، والآخر : نفاق الإيمان، في كلامٍ له في بعض المجالس ، وسَنَذْكُره في محله من هذا النقل .

والمراد بالنفاق ، إظهار خلاف ما في الباطن مطلقاً ، لكن إن كان الباطن طيباً وأظهر عملاً خبيثاً فهو نفاق العمل ، كالمؤمن إذا ظهر منه أمر مذموم شرعاً أو طبعاً، وإن كان الباطن خبيثاً ، وأظهر عملاً حسناً فهو نفاق الإيمان ، وهو المعهود في وقت النبي ﷺ ، كما عليه المنافقون إذ ذاك ، من إظهار التلفظ بالشهادتين ، وفِعل أركان الإسلام ، وقلوبهم كافرة . وإنما ذاك من خوف السيف ، لا طوعاً لله، وذلك في حال ضعف الإيمان ، فلما قوي وامتدَّ نوره وتمكَّن في القلوب كان ثابتاً في القلب ، وربما ظهر على الجوارح أمور منكرة فهذا نفاق العمل ، لفساد الأزمنة، أعمال فاسدة مع حصول أصل الإيمان في القلوب ، كل بحسبه في الجزاء ، فجزاء منافق الإيمان الخلود في الدرك الأسفل من النار ، وجزاء منافق العمل عقوبة بقدره إن عاقبه سبحانه ، وإن غفر له ورحمه سَلِم ، فإن الله تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء .

وبهذا عُلم أن المقصود الأعظم ، السلامة في الدارين مع الفوز الأكبر عند لقاء الله ، ولا يتم ذلك بل لا يحصل إلا مع الصدق الكامل في الأمرين جميعاً : صدق الإيمان في القلب ، وصدق العمل في

الجوارح، والسلامة من نفاقها . فإن كِلَا الأمرين مقصود مطلوب في الديانة في معاملة العبد لربه ، وفي معاملته للخلق، وله أكمل وأدنى ، وأكمله : ما مدح الله به المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم من قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، هذا للمهاجرين، وللأنصار عطفهم عليهم لقوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ثم إن أردت اللحاق بهم ، وساعدك من الله التوفيق ، كنت على وَصْف من ذَكَر سبحانه بعدهم حيث قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فالأول والثاني خاصٌّ بالصنفين ، لا يكون إلا لهم ، وأما الثالث فيشمل كل من كان عليه إلى يوم القيامة .

فاجهد نفسك في هذا ، فعسى وعسى ، واحذر من بيع عبادتك فتحرمه ، فتكون من منافقي العمل إن صدق إيمانك ، وإلا كنت الآخر والعياذ بالله . فإذا كانت الكلمة الواحدة يصير بها الإنسان في وقت النبي ﷺ منافقاً ، مع شرف وقته بشرفه ﷺ ، فما بالك ببيع العبادة بطمع الدنيا في هذه الأوقات المظلمة ، فكيف لا يصير من يفعل ذلك من كبار المنافقين في الدنيا والدين ، إذا كانت الأحوال والعوائد قد اختلفت باختلاف الأوقات والأحوال والأعمال ، واستمرار السنين في الإيمان، والعمل إلى هذا الإختلاف ، ونزلت الأمور إلى هذه الحالات الخبيثة ، مما كثر وشاع وظهر وذاع . ومن جملة ذلك الإختلاف المنكر الذي لا ينكر ما نحن نتكلم فيه ، من بيع الديانات والعبادات بالمعايش والأطماع الدنيويات . فالنفاق اليوم قد شمل جميع البريات ، ولا سَلِمَ منه إلا من اختصه الله ، فإن الارض لا تخلو من قائم لله بحجة ، ولا تجتمع الأمة المحمدية على ضلالة ، ولا ينقطع قط عنها الخير بالكلية في الثلاثة إلى يوم القيامة ، كما بَشَّر به الملائكة المقربون والأنبياء والمرسلون ، فلا تخلو من الأولياء والصالحين وعباد الله المخلصين ، ولو قد عَمَّ البلاء واستطار الداء ، وإن هذه الطوائف الثلاث كل منهم متمسك بالكتاب والسنة .

فلا شك أن الحق والصواب ما وافق الكتاب والسنة وهدي الأئمة ، وما كان عليه السلف الصالحون ، بخلاف ما يراه المبطلون المخالفون لهم ، الفاعلون القائلون ما يخالف أفعالهم وأقوالهم ، فمن فعل تلك الأمور والاحتجاج بصحتها بما ليس لهم فيه دليل ، وهم الذين يغضبهم هذا الكلام لمخالفته ما هُم عليه ، قولاً وفعلاً واعتقاداً للجواز ، فما يغضب منه إلا من كان في جنبه ضنك .

فإنك لو قلت للسارق : يا سارق . لغضب من ذلك القول ولو صدق فيه ، فإذا كان يغضبه ذلك

فلم يفعله ؟ فهؤلاء يغضبهم إذا وصفتهم ببيع عباداتهم ودياناتهم وقرباتهم ، وهم يفعلون ذلك ، وما غضبوا إلا لكونه مخالفاً للحق ، فيصير ذِكْرهم به ذمًا لهم ، فيغضبهم وصفهم بالذم بين الناس ، ولا يبالون بكونه ذمًا عند الله ، ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ولو كان ذلك موافقاً للحق لفرحوا بوصفهم به ، لكونه حينئذ مدحاً لهم ، فيفرحون به بين الناس ، فأي نفاق أشد ممن يحب المدح ويكره الذم بين الناس ، ولا يبالي بالأمرين عند الله . وكذلك كل من يفعل منكراً يغضب من وصفه به، لعدم صِدْقِهِ وإنصافه ، فلو صَدَقَ اللهَ لترك كل ما يغضبه ، وفعل كل ما يرضيه .

ثم افهم أيها المجادل في الدين هنا أمراً قَلَّ ما يفهمه ويعيه ويقبله ويعمل به إلا من فَقَّهه الله في الدين وألحقه بعباده الصالحين ، فإن كنت من المتَّصِفِين أَذْعَنْتَ له وقَبِلْتَهُ بقلبك وامتَثَلْتَهُ بجسمك ، وإن كنت من أهل العناد والجدال فلا عبرة بك ، ولا بما ادعيته مما يخالف الحق ، وهو :

إن النبي ﷺ كان من عادته أنه لا يقترض من الصحابة رضي الله عنهم قط ، وسبب ذلك خوفاً أن يكون ذلك نفعاً معاشياً دنيويًا في مقابلة انتفاعهم به في الدين تورعاً منه واحتياطاً ، وقد قال الله سبحانه : ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾، وغير ذلك من الآيات في هذا المعنى ، حتى إنه ما قَبِل من سيدنا أبي بكر إحدى الراحلتين التي اشتراهما وعلفهما ليهاجر معه عليهما إلا بالثمن ، مع أنه أنفق ماله كله عليه لنصرة دينه ، ولو اقترض منهم لا يرضون أن تبقى ذِمَّته مرهونة لهم ، بل يبرؤونه في الحال ويتركون ذلك فلا يرضى بذلك ، مع أن أموالهم له التصرف فيها بما شاء ، لا يرون أنهم أحق بها منه ، بل يعتقدون أنه أولى بهم وبأموالهم ، لكمال إيمانهم ببركة رؤيتهم له ، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأموالهم من باب أولى ، لكنه لا يريد ذلك ولا يحبه ، احتياطاً للنهي المذكور في تلك الآيات .

ولا يدخل في هذا ما أنفقوه من تلقاء أنفسهم في سبيل الله وطريق مرضاته ولنصرة دينهم ، ومنه إنفاق سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كل ماله على رسول الله ﷺ حتى مدحه الله سبحانه بقوله : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.. إلخ ، وما أنفق الصحابة كلهم رضي الله عنهم في وجوه البِر ، ولو ندبهم إلى ذلك بالترغيب والوعد الجميل ، فإن مقامه الذي أقامه الله فيه وأرسله الله به هو الدعاء إلى الله وإلى ما يرضيه كما قال الله تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، ولا يدخل فيها يقول أيضاً الهدايا ، وما لم يخطر في البال ، وإنما كلامنا فيما يتعلق بأمر معاشه ومعاش أهله ، باستدعاء وسعي منه ، كالإقتراض ونحوه لتمام قوله تعالى : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، بخلاف ما لا سعي له فيه ولا تسبب ، ولا خطر في البال ، فلا يدخل في ذلك .

والراحلة المذكورة أيضاً بلا سعي ولا استشراف ، لكن أراد أن يكمل له ثواب الهجرة بلا مشاركة

له فيه ، وقد علم أن سيدنا أبابكر رضي الله عنه قد حصل له تمام ما نوى بلا نقص منه ، فلذلك اكتفى له بثواب نيته مع استيفاء ما له هو من الثواب ونية المؤمن خير من عمله .

وكان ﷺ ما يقترض إلا من اليهود ، إذ لا مِنَّة لهم ، وللأمن معهم من خطر ما تقدَّم ذِكْره ، فلا عليه من ذلك خطر ، حتى إنه توفي ودِرْعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير . رواه البخاري . وأتاه يهودي وهو في المسجد وقت الضحى يتقاضاه دَيْناً له عليه فقال له : « ما عندي الآن ما أوفيك » ، فقال : « لا أفارقك أو توفيني » ، فقال ﷺ : « إذاً أجلس معك » ، فجلس معه يومه وليلته إلى الغد ، والصحابة رضي الله عنهم يتهدَّدونه وينظرونه شزراً ويقولون : « يا رسول الله ، أيجلسك هذا اليهودي ؟ » ويشيرون إليه أن يأذن لهم فيه ، وهو يردُّهم عنه وقال لهم : « قد علمتُ الذي أردتم وإن ربي نهاني أن أظلم ذمِّيًا أو معاهِداً » ، ولو أذن لهم لَتَنَاوَشَتْهُ سيوفهم قطعة قطعة ، وظَلَّ معه ذلك اليوم، وبات معه تلك الليلة في المسجد إلى الغد . ثم إن الله تعالى مَنَّ عليه حين أصبح من الغد بالإسلام ، وخرج من ماله كله لله، وكان ماله كثيراً ، فقال : « يا رسول الله ، نصف مالي لك ونصفه على يدك » ، يعني يخرجه ويتصدَّق به على نظره ، وقال : « والله يا رسول الله ما أردتُ بما فعلت إلا أن أرى وَصْفَك في التوراة ، إنك حسن الخلق ، لا فظًا ولا غليظاً ، ولا تجزيء بالسيئة السيئة ، بل تعفو وتصفح فرأيت وصفك كما هو في التوراة » ، فسبحانه من هداه .

فيا للعجب ما عنده ما يوفيه ، وقد رَاوَدَتْهُ الجبال من ذهب فأبى أن يقبلها ، وما بقي عنده ما يوفي ديَّان ، ولو أراد الحصى ينقلب له دنانير ودراهم لكان ذلك بقدرة الله ، لكنه كَرِهَ ذلك وتركه زهداً في الدنيا ، وبغضاً لها ، ولا بالى بِهَمِّ وفاء هذه الديون ، وشدة الحاجة المعاشية ، وخوف لحوق الدَّين له، واختار الفقر ومشاق الدنيا ومحنها على الترفُّه فيها ، وخفض العيش ليزيد بذلك ويكمل ، ويتوفر له نعيم الآخرة . وفي ذلك دليل أن محن الدنيا ومشاقها ، وضنك المعاش مطلوب ومقصود ، بالذات عند المتقين أهل كمال اليقين ، علماً محقَّقاً عندهم ، أن كل ما فاتهم من رفاهة الدنيا وشهواتها وَسَفَهِ معاشها ، أن كل ذلك باقٍ مُدَّخر لهم يعطونه يوم القيامة فيكون وفراً لهم في حظهم وما يعطونه ، وأن ما حصل لهم من خفض معاش الدنيا ينقص منه بقدره من حظهم ، فلذلك يفرحون بمتاعب الدنيا ومحنها وشدة معايشها ليزيد بذلك ويكمل نعيم الآخرة ، فهو مقصود مطلوب لهم .

والغافلون الجاهلون يودون ويفرحون بما زاد لهم من نعيم الدنيا ، ولو نقص ذلك عليهم من نعيم الآخرة ، ألا يرى الأحمق الجاهل أنه كيف يبذل في دَيْن المال شيئاً معلوماً إلى أجل ، لرجاء زيادة نحو درهم أو درهمين ، ونحو ذلك في وقت آخر ، ويصبر في ذلك المدة الطويلة لرجاء ذلك، ولا يصبر في قرضه لله أقل من تلك المدة ، مع أنه كل يوم له عند الله بقدر مالِهِ صدقة ، كل

ذلك لكونه تجارة له في الآخرة مُدَّخرة ، وهو يريد متاع الدنيا ، وهو أرجح عنده ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.. إلخ ، وكذلك ما قد فات نعيم الدنيا يوفاه بتمامه في الآخرة .

والدَّين إنما زاد له قليل على رأس ماله ، وزيادته إنما هي مظنونة لا قطع فيها ، بل ربما لم يزد على رأس المال ، وربما نقص منه . فما بالك أيها الأحمق ترغب في الدَّين ولا ترغب فيما رغب فيه أهل الدِّين، من إيثار الآخرة على الدنيا ، وما لك أيها البائع دينك وعباداتك بطمع الدنيا ما تقتدي بنبيك، وتصبر على نكد الدنيا كما صبر ، وتتأسى به فإنه القدوة لمن أراد الإقتداء به ، ليصل بذلك إلى رضا الرب الكريم في نعيم مُقِيم في جنات النعيم ، فكل من أحسن الإقتداء به صار هو أيضاً قدوة يقتدى به كأكابر الأولياء ، فهذا حاله ﷺ .

ومن سيرته ﷺ ، ما رواه الترمذي عن عبدالله الهوري قال : « لقيت بلالاً مؤذِّن رسول الله ﷺ بحلب ، فقلت : يا بلال ، كيف كان نفقة نبي الله ؟ » ، فقال : « على الخبير به سَقَطتَ ، ما كان له شيء كنت أنا أليَّ ذلك منه ، منذ بعثه الله تعالى إلى أن توفاه الله ، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فيراه عارياً ، فيأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري له البردة وأكسوه وأطعمه ، حتى اعترضني يوماً رجل من المشركين فقال: يا بلال ، إن عندي سعة ، فلا تستقرض من أحد إلا مني . ففعلت ، حتى اجتمع له عندي شيء ، فلما أن كان ذات يوم ، توضأت فقمت لِؤُأَذِّن ، فإذا المشرك قد أَقْبَلَ إليَّ في عصابة من المشركين ، فلما رآني قال : يا حبشي ، قلت : يا لباه ، فتجَهَّمَني وقال قولاً غليظاً وقال : أتدري كم بينك وبين الشهر ؟ قال : قلت : قريب ، قال : إنما بينك وبينه أربع ، فآخذك بالذي عليك فأردك ترعى الغنم كما كنتَ قبل ذلك. فأجد في نفسي ما تجد في أنفس الناس ، إلى أن صليت العتمة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي إن المشرك الذي أتدَيَّن منه قال لي : كذا وكذا ، وليس عندك ما يقضي عني ولا عندي ، وهو فاضحي ، فأذن لي أن أَبِق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين أسلموا ، حتى يرزق الله رسوله ما يقضي عني .

قال : فخرجت حتى أتيت منزلي ، فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومجني عند رأسي ، حتى إذا انشقَّ عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق ، فإذا إنسان يدعو : يا بلال ، أجب رسول الله . فانطلقت حتى أتيته ، فإذا أربع ركائب مناخات عند الباب عليهن أحمالهن ، فاستأذنت ، فأذن لي . فقال لي رسول الله : أبْشِر ، فقد جاء الله بقضائك ، ثم قال : ألم تَرَ الركائب المناخات الأربع ؟ قلت : بلى ، قال : فإن لك رقابهن وما عليهن ، وإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إليَّ عظيم فَدَك ، فاقبضهن واقض دينك. ففعلت ، وبَقِيَت بَقِيَّة ، ثم انطلقت إلى المسجد ، فإذا فيه رسول الله ﷺ قاعداً فسلَّمتُ عليه فقال : ما فعل ما قِبَلك ؟ قلت : قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله ، قال : أَفَضل شيء ؟ فقلت : نعم ،

قال : أنظر أن تريحني منه ، فإني لست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منه .

فلما صلى رسول الله ﷺ دعاني فقال : ما فعل الذي قِبَلك ؟ قلت : هو معي لم يأتنا أحد . فبات رسول الله ﷺ في المسجد ، وأقام فيه حتى صلى العتمة - يعني من الغد - ثم دعاني فقال : ما فعل الذي قِبَلك ؟ فقلت : أراحك الله منه ، فكبَّر وحمد الله ، قال : وإنما كان يفعل ذلك شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك . ثم اتبعته حتى جاء أزواجه ، فسلَّم عليهن امرأة امرأة ، حتى أتى التي عندها مبيته، فهذا الذي سألتني عنه » ، انتهى .

فهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ وأمر معاشه ، انظر كيف ما ضم ما بقي يدخره لقضاء حاجة أو لوفاء دين يلحق بعد ذلك ، وما صدق على الله يخرج من يده ، فهذه حالته وحالة الأكابر المقتدين به، وهو معنى قول سيدنا : « **لا تفعل شيئاً من الدنيا إلا للحاجة الحاضرة ..** » إلى آخر المقالة كما تقدَّم ، وهو قوله : « **لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا إلا مع الحاجة الظاهرة إليه ، فإن الإستكثار من أمور الدنيا ما هو شيء أصلاً ، فلا تجعل لنفسك منها شيئاً ، ولا تَقُل ربما تدعو إليه حاجة ، فحاجة الآخرة والدِّين أهم اليك من هذا ، غير أنا ما نحب أن نكثر على الناس فيما هُم فيه ، وكلما قدر الإنسان يضيق على نفسه في هذا الزمان لوجه الله لا لشيء آخر ، فإن ما عند الله خير وأبقى** » ، فهذا وصف حال رسول الله ﷺ، فإنه ما ترك تلك البقية ، وما قال: ربما تدعو إليه حاجة .

وما فوق ما وصف فيها إلا حال رسول الله ﷺ كهذا المذكور وغيره ، وإنما قوله وَصْفُ حاله هو ، وحال الكُمَّل ، وأما غيرهم فلا أحد ظاهر عليه اليوم ، فَلْيَقْتَد المشمِّر بِنَبِيِّهِ وبشَيخِهِ ويتأسَّى بهما ، ومن عجز فيقر بعجزه ، ولا يدَّعي ما ليس من أهله ، ولا يتجمَّل بدعوى أحوال الكاملين ، الذين تركوا الحلال زهداً ، وهو من أنقص الناقصين الذين يستعملون الحرام لا يردهم عنه تقوى ، فأين حاله مما ادَّعى ، فتأسوا بنبيكم ولا تبيعوا دينكم وعباداتكم وإيمانكم - أي صلاتكم- بمعايشكم فأركستم في هذا الخطأ ، وادعيتم أنكم على أصوب الصواب ، فإن حبك للشيء يعمي ويصمُّ ، يعمي عن رؤية الحق والصواب ، ويصمُّ عن سماع ذلك وقبوله بمعنى أنه لا يقبله إن رآه أو سمعه ، كما قيل : « من عشق عِلَّته فليس له طبيب » .

وَعَينُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَينَ السُّخْطِ تُبدِي المسَاوِيا

فلو سخطت على نفسك لطلب رضا ربك ، لظهر لك منها هذا العيب وغيره، ولكنك رضيتَ عنها لما صرت لها عبداً مأسوراً في قبضتها ، فعميت عن عيوبها ، وتغطَّت عنك مساويها ، فصرتَ لا ترى الحق والصواب إلا ما وافقها وأرضاها ولو كان باطلاً ، ولم تَرَ في ذلك بأساً . وهذا من انعكاس

الأمور في هذا الزمان عن أوضاعها ورجوعها إلى أضدادها فتفهم أن كلمته تأتي في وجوه كثيرة ، ولا ترى الباطل والخطأ إلا ما خالف هواها ولو كان حقًّا ، حتى بِعْتَ دينك وعباداتك في طلب رضاها ، فبِعْتَ حظك من ربك في هوى نفسك ، ولم تر ذلك عيباً ونقصاً لما غطَّى على عقلك من الهوى .

وياللعجب كيف كل هذا الكلام ، وكل هذه الدلائل القطعية من الكتاب والسنة وكلام الأئمة، لم يحركك ولم يحرّك إلى الصواب والحق ، ولم تلتفت إلى ما قرع سمعك منها ، بل تزداد بذلك طغياناً وعناداً وتمادياً على الباطل ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ، ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ ، كل ذلك لتمكُّن الهوى من القلب ، فأبعده الله، ما أشد إفساده للدين ، وما أصعب مجاهدته عند المتقين وأهل اليقين ، من العلماء العاملين الراسخين في العلم واليقين، وكل هذه الدلائل ما هو أظهر من الشمس وقت الظهيرة بلا سحاب في هذا المعنى الذي نقرره ، وهم لا يلتفتون إليه، وإذا لم يتبعوا هذا الحق الواضح فما الذي تبعوه من الحق ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، ومع ذلك تمجُّه أسماعهم وتنكره وتستثقله طباعهم وتكرهه قلوبهم، ويكرهون من يذكِّرهم به أو يَذْكُره لهم ، وذلك لشدة إلْفِهِم ما هُم عليه ونَشْؤُهم فيه ، وقد تربوا على ذلك ، ونشأوا فيه صغاراً وكباراً ، وشابوا عليه ، وجَرَوا هُم وآباؤهم عليه .

قال سيدنا في « الحكم » : « **العادة إذا رسخت نسخت** » ، وما صَدَّ جميع الأمم عن اتباع الحق إلا ما أَلِفُوه من اتباع آبائهم ، كما قال الله تعالى مُخبِراً عنهم : ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾- أي ملة - ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ . والعادة طبيعة خامسة ، تُصَيِّر الباطل عند الجاهل الأحمق حقًّا متبعاً ، فلا تقبل عقولهم خلاف المعتاد ، لأن ذلك غير مقبول في الطبع إلا بنور إلهي ووازع رباني، نشأ من قوة الإيمان وهداية الرحمن ، لسابق الإرادة بحصول السعادة ، ولكن ليس كل أحد ممدوداً بالتوفيق، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقيل :

إِنَّ السَّـعَادَةَ أَمْـرٌ لَيـسَ يُدْرِكُـهُ ... صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ إلا بِالمقَادِيرِ
مَمْنُوعَـةٌ مِـنْ أُنَـاسٍ طَالِبِـينَ لَهَـا ... وَقَـدْ تُسَـاقُ إلى قَـومٍ بِتَيْسِـيرِ

ويُؤخَذ من عدم اقتراض النبي ﷺ من الصحابة رضي الله عنهم ، أنه لا ينبغي للشيخ والمعتقَد - بفتح القاف - أن يقترض من التلميذ والمعتقِد - بكسر القاف - أو يصيِّره في شيء من أمور المعايش الدنيوية ، فربما إن أبطأ عليه أو ماطله أن ذلك يوغر صدره ويخرج ضغنه ، فيتغير اعتقاده وربما رجع إلى ضده ، فيصير بعد حسن الظن سيء الظن ، سيما في هذا الزمان الذي انعكست فيه الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها . كما رأينا من ذلك أشياء كثيرة ، وقع بين معتقِدٍ ومعتقَدٍ فيه ، حيث

صار عند أحدهم الدرهم يعادل روحه ، فصار أحب محبوب عندهم دنياهم ، ويبغضون من يزاحمهم فيها أو يضايقهم في شيء منها ، أو يحول بينهم وبين أقل قليل منها ، أو رآه طامعاً فيه ، أو راجياً منه ، ولو كان أعز الناس عنده ، رجع لذلك عنده أحقر من قرد ، وأذل من عبد .

فالعاقل الذكي يفهم من نفسه ، فيعز نفسه ولا يذل نفسه عند هؤلاء اللئام بطلب حاجة منهم ، ولو أرهقته الحاجة ، كما في الحديث : « استغن عن الناس ولو بشوص السواك » ، ولا يذل نفسه بطلب حاجة ، ولو من عند من يدَّعي المحبة والعقيدة منهم ، فيتبيَّن حينئذ كذبه وبطلان ما ادَّعى ، فلا يجوز للمؤمن يذل نفسه سيما لشحيح ، ومن يستثقل قضاء الحاجة ، قال سيدنا علي كرم الله وجهه : « فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها » .

وهنا معنى دقيق فافهمه ، قال الله تعالى : ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، يعني بالتقوى التي تنال الرب من العبد النية الطيبة الخالصة، وذلك جارٍ في جميع العبادات ، وإنما خصَّ البُدنَ والتقرب بها إلى الله بالذِّكر ، لكونها اجتمع فيها نية لله المشار إليها بلفظ التقوى ، وفيها نفع للآدمي من أكله منها ، المشار إليه بقوله تعالى : ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، والقانع : الذي لا يسأل ، وهو البائس الفقير أيضاً. والمعتَر : الذي يسأل . وأما غير البدن فليس فيها ما يخص الآدمي ، وإنما كلها خاصة بالله ، ومثلها الزكاة فيها الحقان ، فيتعيَّن إخلاصها لله ، أي مجرد داعية الحق فيها عن داعية الطبع فكل أمر اشترك فيه حقَّان ، حقٌّ للرب وحقٌّ للعبد ، تغالط فيه الداعيان لما تخالطا وحينئذ يشتبه الأمر على العبد ، فلا يتخلص داعي الحق من داعي النفس والهوى إلا بتسديد من الله بالغ قاهر ، فاسأل ربك الإعانة والتوفيق وكمال الإخلاص .

فإذا غلب فيك داعي الطبع على داعي الحق والشرع ، فعمِلتَ عبادة مما يتقرب به إلى الله بنية طمع دنيوي ، فما التقوى التي تناله منك فيها ؟ أعني ما يرفع إليه فيها من صالح عمل القلب الذي طلبه منك في نفس العبادة التي قال : ﴿ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾، ويعني به كمال الإخلاص ، فليس في عبادتك من ذلك ما يرفع إليه ويناله منك ، فإن كان إنما يناله منك ما نويتَ من بيع عبادتك له بما نويتها به من ذلك الطمع الخسيس ، فيا سوء ما يناله منك ، ويا سوء حظك من ربك ، ويا بئس ما لك عنده .

فكل هذا المذكور وأكثر منه تركناه اختصاراً ، كله داخل تحت قوله : « **من تحرِّكه الرغبات الدنيوية، لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً** » ، وهي من الكلمات الجامعة ، وراثة له من جدِّه ﷺ ، الذي أوتي جوامع الكلم . وهذا المذكور وأكثر منه مما لم يُذكَر ، نقطة من بحر ما اشتملت عليه هذه الكلمة الجليلة، فما بالك بعلومه الغزيرة الغريبة المتلاطمة أمواجها ، التي أخفاها عن أهل هذا الزمان، لعدم أهليَّتِهم لها،

وعدم استحقاقهم لذلك ، كما ذَكَرْنا عنه لما قال : « **ادخل اقرأ دعاء يس هنا ، ليسمعه الحاضرون**». ثم بقي يستمعه هو ، ويستمعه الحاضرون إلى أن فرغ ، ثم تنفس الصعداء تنفس المحزون ثم قال : « **قد بطنت علومنا الظاهرة ، لعدم المتلقي لها ، ما هو أن علومنا الباطنة ظهرت ، وهنا أقوام يتكلمون في علوم لا نعدها في العلم ، ولا نعدهم في العلماء** » ، فلذلك لا ينبغي للعاقل الذكي أن يغفل عن تفهم معاني كلام الأولياء ، سيما هو ، لكونه هدية من الله في هذا الزمان المنقلبة أحواله ، المُدْبِرة رجاله ، فإن تحت كلامه من الفوائد العجيبة والنكت الغريبة، ما هو أعز وأعلى من الجواهر النفيسة والدرر العزيزة، مما يرشده ويهديه إلى سلوك الصراط المستقيم ومعرفة الدين القويم ، ومعرفة الحق واتِّباعه ، وبيان الباطل واجتنابه . كما رأيتَ كم ظهر في هذه المقالة من المعاني الغزيرة والعلوم الغريبة ، البعيد فحواها عن خواطر قلوب أهل الزمان ، وقد قال الشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس في « الزَّهر الباسم » : « لا يتكلم الأولياء العارفون والأصفياء المحقِّقُون ، إلا عن أصل أصيل ، وفرع طويل ، كلمات طيبات كشجرات طيبات ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين ، وأكلها في هذا الموطن معانيها الرائقة التي تتجدد كل حين ، لمن يظهرها الله له ، فلهذا يختلف كلام الأولياء عن كلام غيرهم وتكون له آثار عظيمة » ، انتهى قوله . يعني أنه قولٌ يَتْبعه العمل ، كقول بعضهم هنا : « من قال لهذا الجبل تحرك لتحرك » ، فتحَرَّك الجبل ، فقال له : « اسكن ، فإني لم أردك بذلك » ، ونحو ذلك .

وذلك إنهم لما أذعنوا لسيدهم وربهم في كل ما أراد ، وأطاعوه في كُلِّ ما أمر أطاعهم كُلُّ شيء، وظهر لكلامهم أثر في المكوَّنات ، لأنها من لازِمها الإنقياد لمالكها ، ولمن انقاد له بأمره لها بذلك ، لأن في الأثر عن الله سبحانه أنه قال : « عبدي أطعني فيما أريد ، أجعل الأشياء تطيعك فيما تريد » ، أو كما جاء في الأثر، فصار قولهم لذلك ، مع أنه لسان مقال لسان حال ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال. ومعنى لسان الحال : قول باللسان وعمل بالأركان ومساعدة الأكوان بأمر الرحمن ، فإذا تَمَّ كل ذلك - ولا يكون إلا لولي - مكَّنه الله من خرق العوائد ، وأجرى على يديه الكرامات ، فحينئذ لو أمر كل شيء كان لأمره مطيعاً ، ولقوله سميعاً ، ولو أمر أبخل خلق الله أن يخرج من ماله كله لله لامتثل أمره، وخرج من ماله كله ، فهم على مثل ذلك . فافهم ، في كلام سيدنا مما تراه في هذا النقل من أوله إلى آخره ، ولهذا ترى لكلامهم صولة تقهر السامع على العمل ، ولو أمره أن يترك أعز شيء عنده تركه بلا تكلُّف ولا مشقَّة ، وهذا بخلاف قول اللسان الذي وعَّاظ الزمان يتكلمون به ، فلا جرم لا يكون له أثر في قلوب السامعين ، ولا ينبعث من وَعْظِهم لقلب السامع باعِث يحثُّه على العمل ، ولهذا ما انتفعوا بموعظة ، ولا ارعوى - أي ما اتعظ - قلب أحدهم بِعِظَة هـ .

وَذَكَرَ سيدنا جملة أناس صالحين من العلماء العاملين المخلصين المتقين ، ثم أثنى عليهم كثيراً ثناء حسناً ، وأطنب في وصفهم والثناء عليهم ، *ثم قال* : « **نعم ، مثل هؤلاء المذكورين ، لا مثل هولاء قشاش المعاش ، ولا عاد تفتش ، فكان إذا فتشت لحقت جواهر ، واليوم إذا فتشت لحقت بعراً** » هـ .

أقول :فانظر إلى هذه المبالغة العظيمة منه رضي الله عنه في وصف المخلصين في عباداتهم لله رب العالمين ، وسماهم « **جواهر** » . وفي وصف الآخرين البائعين عباداتهم بمعايش بطونهم ، وسماهم « **قشاش المعاش** » ، ووصفهم ومثلهم بالبعر، وفرّق ما بينهم وبين الآخرين من الفرق كما بين الجواهر وبين البعر ، فانظر لنفسك واجتهد أن تكون من الجواهر الممدوحين ، ولا تكن من البعر المذمومين .

وذكر أن مثل أولئك المخلصين الذين ذَكَرَهُم وأمثالهم ، هم الممدوحون عند الله ، ويستحقون المدح عند الخلق وعلى ألسنتهم ، وأما الآخرون الذين قال إنهم : « **قشاش المعاش** » ، الذين أشغلهم المعاش عن المعاد ، وباعوا به عباداتهم ، وهم هؤلاء الذين أشار إليهم ، وهم أهل هذا الزمان ، فهم المذمومون عند الله وعند عباد الله الصالحين ، فلا ينبغي أن يُمدَحوا ولا يُذكَروا ، لئلا يغتر بمدحهم أحد، فيظنهم على حالة حسنة ، فيتبعهم على ما هم عليه من الأمور الباطلة ، التي من جملتها بيع العبادة، بل ينبغي لمن ذَكَرَهم أن يطهّر فمه عن ذِكْرِهم ، لِرَداهم وقُبحِ أحوالهم وأفعالهم ، وهم الذين عناهم بوصف البعر ، من حين ابتدأ بأخذ طمع من الدنيا على أعمال الدين ، وسماهم : « **قشاش المعاش** » ، وإن فتش عنهم لقي بعراً ، وهي نياتهم الباطلة . والأولون الذين كانوا على ما الناس عليه أولاً ، قبل أن يقعوا على هذه الأحوال الباطلة ، وذَكَرَ أن من فتش عنهم لقي « **جواهر** » ، وهي نياتهم الخالصة ، وإن بينهم وبين الآخرين من التفاوت والفرق ، قدر تفاوت ما بين الجواهر والبعر .

فيكفيك ذلك من قوله ، وبشهادته ذمًّا وخزياً ، وحقيق وجدير بالنية الخالصة لوجه الله أن توصف بالجواهر بل أعز منها ، وحقيق وجدير بالنية الفاسدة أن تنعت بالبعر بل بأخس منها . والعجب من هؤلاء البعر ، كيف يدَّعون في أنفسهم أنهم كأولئك الجواهر ، ويزعمون أن أعمالهم المجردة نيتهم فيها للدنيا ، كأعمال أولئك الجواهر المجردة نيتهم فيها لله ، ويطمعون في جزاء أعمالهم في الآخرة مع فساد نيتهم ، وأخذ أجرها في الدنيا ، كجزاء أعمال أولئك مع صلاح نيتهم ، فَلَيْتهم وَقَفُوا عند حَدِّهم وعرفوا قدرهم ولم يتعدّوا طَوْرهم ، وإنما عمى عليهم ذلك ، ولم يفرِّقوا فيه ، ولا غلبت العادة المتعارفة بين الناس في ذلك ، مع عدم معرفتهم بما كان الناس عليه ، وما أسِّس عليه الدين ، لعدم تحقُّقهم في العلم ، وعدم اطلاع الإنسان على عيب نفسه طبعاً مطبوعاً ، فهم يعتاضون عن عباداتهم أعواضاً في الدنيا ، واستبدلوا بما ينفعهم في معادهم ما ينفعهم في معاشهم ، ومع ذلك يغترون ويدَّعون ويتمنُّون ، وأين الثَّرى من الثُّريا ؟

فإن النية واحدة لا تتبدل عما هي عليه ، إما صالحة وإما فاسدة ، فإن صلحت بأن أخلصتها لله نفعت في الدنيا والآخرة ، وإن فسدت بأن نويت بها الدنيا ضرَّت في الدنيا والآخرة ، ولا تتبدل الفاسدة في الدنيا صالحة في الآخرة ، فلا تغتر . ولا تتبدل الصالحة في الدنيا فاسدة في الآخرة ، وهو معنى قوله كما سيأتي : « **الأعمال حيث وجهتها توجهت ، فإذا رميت بحجارة إلى المشرق لا تعود إلى المغرب** » ، وهذا مثل معناه كما في الحديث : « إنما الأعمال بالنيات » ، فإذا وجهت العمل إلى الله لا يعود إلى الدنيا ، وهذا هو الإخلاص ، وهو ما ذكره في الحديث : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله»، وإذا وجهت العمل إلى الدنيا ، لا يعود إلى الله ، وهذا ضد الإخلاص ، وهو معنى قول الحديث : « ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، أي لا لله، وتوجيهه للعمل هو نيته به ، صلحت أو فسدت .

ومعنى الإخلاص : تخليص العمل من شائبة كل داع يدعو إلى العمل إلى داعي العمل ، مجرداً لامتثال أمر الله وطلب مرضاته . وقد سأل بعض الأنبياء ربه عن الإخلاص ما هو ؟ فقال سبحانه : الإخلاص سر من سِرِّي ، أودَعْتُه قلب من أحببت من عبادي . وفي شرح الجامع الصغير : الإخلاص، ما لا حظَّ فيه للنفس بحال ، وقيل : أن لا يطلب على عمله عوضاً في الدارين ، ولا حظًّا من الملكين . وقيل : نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق .

ومثل سيدنا بمن يصلي الضحى لتيسير الرزق ، وجعل ذلك قادحاً في النية مع أنه إنما طلبه من الله لا من غيره ، لكن حيث أنه توسل بالعمل الذي رتَّب الله نفعه في الآخرة ، وفعله لطلب نفع في الدنيا ، ولو أن الله سبحانه هو المتفضل بالنفعين نفع الدنيا ونفع الآخرة ، فقد خالف بمقتضى هوى نفسه ترتيب حِكْمَته تعالى في الدارين ، فإنه سبحانه رتب للدار الفانية منافع فانية بفنائها ، ورتب للدار الباقية منافع باقية ببقائها ، فحيث طلب بأسباب المنافع الباقية منافع فانية ، فقد خالف واستحق بخلافه الحرمان عما يبقى ، وعوض عنه ما يفنى .

والمرجو من الله سبحانه ، صلاح الدارين كل بأسبابه المجعولة له ، فإنه تعالى يحب من عبده أن يخلص أعمال الآخرة من شوائب الدنيا ، كما قال سبحانه : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، لأن إيثار الآخرة على الدنيا علامة على قوة الإيمان ، وهو مراد الله من عبده، ولذلك لام في هذه الآية وفي غيرها من كان يعكس ذلك ، من إيثار الدنيا على الآخرة ، أو ساوى بينهما في الإيثار، ويدل على ذلك الطلب ، فمن آثر إحداهما ، بأن أحبها بقلبه دل عليه كثرة طلبه لها على الأخرى، كما ترى غالب الناس اليوم على ذلك ، وخلافه قليل ، ولا تخلو الأمة من الخير ولو قَلَّ، والمساواة تدل على ضعف الإيمان ، وأبلغ منه من رجح الدنيا على الآخرة إيثاراً - أي محبة وطلباً - وضعف الإيمان

يغضب الرحمن ويرضي الشيطان .

وقد استأذنت سيدنا في كتابة كتاب فقال : « **اكتبه وتوكَّل ، ولا تتأكَّل به** » ، ثم قال : « **التأكُّل، طلب الدنيا بأمور الدين** » ، فإذا كان فعل أعمال الآخرة بطلب الدنيا من الله قادحاً في النية ومخلًّا بها ومن عمله لذلك ، فقد خالف أصل وَضْعِهِ الذي وَضَعَهُ الله له ، مع أنه ما طلبه إلا من الله لا من الخلق، ولا أخذ عليه منهم جزاء ، فكيف بمن يدأب في عبادته طول سنته ، ولا مقصد له بذلك إلا حصول معاش دنيوي من الخلق ، لقد خاب وخسر فاعل ذلك ، وما خان إلا نفسه ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾، وإن زعم ما زعم ، وادَّعى ما ادَّعى ، فإن زعمه ودعواه الدالان منه على قلة الإيمان وضعفه، وعدم تقواه ومراقبة مولاه ، وهذا إذا فعل العبادة بتلك النية الفاسدة ، نية طمع الدنيا بعبادته .

فأما إذا فعلها مخلصاً لوجه الله ، ولا خطر في باله حصول طمع دنيوي عليها ، فيحصل له الثواب الموعود عليه في الآخرة ، مع تيسير الرزق الذي هو بصدده بلا لوم ولا ملام عليه في ذلك عند الله ، كما ورد من تيسيره لطالب العلم ، وفي قراءة سورة الواقعة وغير ذلك ، مع الإخلاص بلا ملاحظة للأطماع في قلبه ، بخلاف ما إذا نوى الطمع ، والمغترون الجاهلون غلطوا في هذا المعنى وما ميَّزوا بين الوجْهَيْن، لعدم رسوخهم في العلم ولما غطى على عقولهم من محبة الطمع الدنيوي ، كما في الحديث : « حُبُّك للشيء يعمي ويُصِمّ » .

فإن عمل الطاعة مع الإخلاص وعدم الإلتفات إليه بالقلب ، ولا ملاحظة لحظٍّ دنيوي من جانب العبادة التي تعبَّد الله بها خلقه ، فإن أخَلَّ فيها بشيء مما ذُكِرَ ؛ اختلَّت عبادته ومعاملته لربه ، وحسابه عليه عن ذلك يوم القيامة ، حيث لا يمر فيه التبهرج ، ولا يعبر فيه إلا كمال الصدق ، ولا ينجو فيه ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ . وأما إذا التفت إلى عمله بقلبه ، بأن استعظمه أو لَحَظَ فيه طمعا دنيوياً ، سيما إذا كان هو الداعي إلى العمل ، فلا يحصل الأجر الأخروي ، كما قد سمعت فيما تقدم ، إما يفوته تمامه أو كماله . أعني كله إن تجردت النية للدنيا ، أو بعضه إن اشتركت نية الدنيا مع نية الآخرة على قول ، والأصح لا تحصل إلا إذا تجردت للآخرة .

وليس للمدَّعين البائعين الباقي بالفاني ، المؤثرين أهوية نفوسهم على رضا ربهم ، ولو ادعوا حجة فيما يدعون ، وإن احتجُّوا بحديث : « أفضل ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله » ، فأوَّلوه بالأجر الدنيوي، وإنما أوَّله أهل الحق كما قدَّمنا بالأجر الأخروي ، يعني أفضل ثواب أعمالكم في الآخرة ما تثابون به على قراءة القرآن .

ذَكَرَ معنى ذلك الشريف الحسني علي بن ميمون الإدريسي المغربي نزيل صالحية دمشق الشام، في رسالته المسماة : « بيان غربة الإسلام بواسطة صِنْفَي المتفقهة والمتصوفة » ، وقد أمرني سيدي عبدالله

الحداد نفع الله به بقراءتها عليه ، فقرأتها عليه كلها من أولها إلى آخرها ، وقد أكثر فيها من الرَّدِّ الكثير على هاتين الطائِفَتَيْن المبتَدِعَتَيْن ، وقال : « هم سبب فساد الدين ، وعود الدين غريباً على أيديهم » ، وذَكَرَ من مفاسد في الدين ظَهَرَت بسببهم من جملتها : بيع العبادات بأطماع الدنيا ، وذلك أن المتفقِّهة لم يتحقَّقوا في علم الفقه ، فلذلك سماهم متفقِّهة متفعِّلة بلا تحقيق ، فعندهم منه طرف يسير بلا إمعان فيه . والمتصوفة أناس ادعوا التصوف ، وتشبهوا بأهله بالزي والكلام، وليس معهم من حقيقته شيء، فهم في أحوالهم صور بلا معاني فأفسدوا في الدين ، وأظهروا مفاسدهم ، واتُّبعوا عليها بجواذب الأهواء ، فهو مؤسس أمورهم، وكل فيه هو جاذب له إلى ما يهوى . فعاد الدين غريباً بينهم، ثم تعدَّت غربته إلى غيرهم ، وهو معنى قول سيدنا : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » ، ويعني بهم العلماء المخلِّين بالدين تبعاً لما يهوون ، كهؤلاء المتفقهة ، ويقيمون على أهويتهم من تبعهم كهؤلاء المتصوفة . ولذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه : « أخوف ما أخاف على هذه الأمة: متعبد جاهل ، وجاهل عليم اللسان » ، وهما هاتان الطائفتان الخبيثتان ، قطع الله دابرهما ، وأراح الإسلام والمسلمين منهما .

وإنما جرَّنا إلى هذا الكلام كله ، حيث اشتملت عليه كلمة سيدنا ، إنكاراً على أقوام متشبهة في هذه الجهة على هذا الوصف الرديء ، ما لهم حرفة ولا اكتساب معيشة إلا بيع عباداتهم يتعيشون بها ، من قراءة قرآن بأجرة ، أو صلاة إمام بجماعة بأجرة ، أو تعليم قرآن أو علم بأُجرة وغير ذلك ، وهو ما ذكر في الحديث المتقدم : « اقرأوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرأونه ، يتعجلونه ولا يتأجلونه » ، وهم لا شك من إحدى الطائفتين المذكورتين آنفاً ، الذين اغترب الدين بواسطتهم .

وأما الجهة الواصِل إليها هذا النقل فهم براء من هذه الأمور ، من أَخْذِ أطماع دنيوية على العبادة ، ونياتهم في عباداتهم خالصة لله إن شاء الله ، خواصهم وعوامهم لا سيما والأكثر أو الكثير فيهم ساداتنا بنو علوي ، الذين هم أساس الدين وعمدة أهل اليقين ، فأهل تلك الجهة لا يرجون على العبادة نفع دنيا قط ، هكذا عُرْف جهتهم . كما أن ذلك الوصف الرديء عُرْف هذه الجهة وجهات غيرها ، لأن جهة حضرموت سيما تريم مؤسَّسة على علم ودين ، هكذا كان وصف أوائلهم وجرى عليه أواخرهم، وإن اختلف عليهم الحال باختلاف الزمان ، وربما ظهر فيهم قليل من الناس بذلك الوصف ، سيما في الحج بالأجرة ، وإياهم عنى سيدنا بقوله هذا ويتكرر في هذا النقل من كلامه كثير مما يخص الحج ، ويذم متعاطيه على تلك النية - أعني نية أخذ الأجرة عليه - كقوله : « **اسمعوا عني ما أقول : من حَجَّ حجة الإسلام ، ليصلح للحجِّ بالأجرة فحجته معلولة** » ، وغير ذلك مما سيأتي ، لكن العبرة بالأكثر ، والأكثر لا يفعلون ذلك ، والقليل لا عبرة به .

وقد سمعت سيدنا يقول : « **إن حضرموت مؤسَّسَة على علم ، قد أسَّسها علماء فذهبوا وبقوا الناس على آثارهم** » ، حتى إن العامي الفلاح الذي لا يعرف العلم إذا دخل المسجد نوى الإعتكاف، وإذا رأى من يصلي مُتِمًّا بعد سَلَامِ إمامه اقتدى به ، هذا على مذهب الإمام الشافعي ، أو رأى من يصلي منفرداً أحرم خلفه وصلى معه وإنما هذا شأن من له معرفة بالعلم ، حتى إن الصبي إذا جُعِلَ عند المعلِّم، أول ما يكتب له أول البقرة ، هكذا على ما جرت به عادة سلفهم ، اقتداء بمن قبلهم من السلف الصالحين .

رأيت هكذا في تريم ، ولا تعرف هذه التراتيب حتى عند العوام إلا في الجهة الحضرمية . ومن بركتهم أن لا فيها معتزلي ولا رافضي ، ولا يُعرَف فيها من المذاهب إلا مذهب الشافعي ، خاصة في كل الجهة وجهات تليها ، ولا يُعرَف فيها غيره ، حتى أهل الحِرَف كالصاغة والنجارين والحدادين والحاكة وغيرهم ، كلهم على ذلك المذهب الشريف ، حتى إن بعض العلماء من الصاغة كان في دكانه يصوغ وهو يقرِّي في إرشاد ابن المقري في الفقه . فهكذا أُسِّسَت تلك الجهة المباركة ، وإنما خرابها من جَوْر ولاتها وعساكرها وظلمهم ، وإلا فالدين فيهم صالح مستقيم ، ومساجدهم عامرة بصلاة الجماعات والأحزاب القرآنية ، والجامع بالجمعات ، ويعدون المسجد المتعطل هو الذي لا يقام فيه الحزب .

وأين هذا الوصف من وَصْفِ جهتنا هذه ، التي كل أهل الحِرَف المذكورة فيها أرفاض زنادقة ، وكذلك طوائف كثيرة غيرهم إلا من شاء الله ، ونشؤهم كان على الجهل ، وتأسست أمورهم على غير الصواب ، بل على الجلافة والكثافة والبداوة وقلة التقوى ، نعوذ من الخبث والخبائث .

وَذَكَر أناساً في أَخْذِهِم الأُجرة على الحج ، فذَمَّ حالهم ثم قال : « **اجعل الحج والمسير إلى الحرمين للدين لا للدنيا ، إلا ما كان ضرورة للدين ، ولا تجعل أمور الدين وسيلة إلى أمور الدنيا ، وأمور الدنيا إنما هي سُلَّم أو رقاد – أي درجة – لا يحسن المقام فيه ، وإنما هو وسيلة إلى الطلوع – أي الصعود – إلى المكان المقصود ، وكل من زاد على المحتاج إليه في ذلك فهو ناقص . ولولا ذلك لما رغَّب الله تعالى في الآخرة ، وزَهَّد في الدنيا ، ولكان رَغَّب في الدنيا ، أليس كلاهما مُلْكه ؟** » ، أو كما قال .

تَتِمَّة وخاتمة : اعلم أن النبي ﷺ كان قد أَسَّسَ الدين وبناه ، وأطَّد أركانه على أمور وشروط ووعد على اتباعه على وضعه وما أسس عليه مواعيد حسنة ، فكان الدين في وقته ﷺ وما بعده ، إلى آخر القرون الثلاثة ، التي هي خير القرون بنص الحديث الصحيح : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، وما يليها من الأوقات الصالحة قبل حدوث هذه البدع القبيحة ، كان الناس كافة على حسب ما شَرَطَ وأَسَّسَ عليه الدين في الأعمال والأحوال ، كما شرط في الكلمتين المتقدمتين : كلمة الحديث الصحيح : « لا ينهزه إلا الصلاة » . وكلمة سيدنا تبعاً لها : « **من تحرَّكه**

الرَّغبات .. إلخ » .

وإنه كان لا يُعرَف عمل العبادة على غير ذلك قط ، فشرط الشارع ﷺ في حصول الثواب في الآخرة على الأعمال العبادية وجود الإخلاص فيها ، وبَيَّنَه لهم فوعد ما وعد على الأمر الشرعي على ذلك الشرط ، فتأسَّس الأمر الشرعي على ذلك ، ثم أطلق الوعد على شيء من الأعمال على ذلك الشرط مع حقائق الأعمال فيها ، من تجريد الإخلاص الصادق لوجه الله ، فوعد عليها بشرطها مواعيد جليلة وفوائد جزيلة ، كما ورد في فضيلة المؤذن : « يستغفر له مدى صوته » ، « والمؤذنون أطول الناس أعناقاً » ، وورد في طلب العلم : « أنه يستغفر لطالبه حيتان البحر والملائكة » ، وفي الصلاة بشرط الإنتهاز لها ما وعد في خطوه كما تقدم ، وغير ذلك من العبادات وَرَدَت في فِعْلها فضائل جليلات ، وكل ذلك على مقتضى العرف والمعروف والشرط المشروط الذي أسِّس الدين وأُطِّد عليه صور أعمال صالحة ، وبواطنها حقائق طيبة خالصة ، فكانت المواعيد عليها ترد من الشارع أولاً مقيدة بشروطها وحقائقها من كمال الإخلاص ، حتى عُرِفَ ذلك وتأسَّس الأمر وتأكَّد وتأطَّد عليه ، حتى صار ذلك الأمر عُرفاً معروفاً .

فلما تأكَّد وتأسَّس على ذلك وعُرِفَ أساسه وشرطه ، صارت المواعيد قد ترد من الشارع مطلقة بلا تقييد ، اعتماداً على ما عُرِفَ من تقييدها وتأسيسها في العُرْف بالقيد الذي أُسِّسَت عليه وقُيِّدَت به ولو مرة واحدة ، فلا تحتاج إلى تقييد مرة أخرى كما في كلمة الحديث التي ذَكَرْنَاها ، وكلمة سيدنا تبعاً لها ، فإنما قالها على معنى كلمة الحديث واقتداء بها وتبييناً لمعناها ، ثم إن ذكر بعد ذلك شيئاً من المواعيد على شيء من الأعمال كان ذلك معروفاً ، فلا يحتاج إلى ذِكْرِ القيد اختصاراً للفظ وبلاغة في المعنى ، كما ورد : « من قال : لا إله إلا الله ، مخلصاً من قلبه دخل الجنة » ، فلما عُلِمَ ذلك وتَقَرَّرَ وَرَدَ أيضاً : « من قال : لا الله إلا الله دخل الجنة » ، ولم يُقَيِّده هنا بالإخلاص ، لما علم وتقرَّر وشرط من تقييده به أولاً .

ثم ما زال الناس ينزلون وينقصون في دينهم حتى تغيَّرت بواطنهم - أعني قلوبهم - بغلبة نفوسهم بقوة أهوائها ومحبتها للدنيا ، فتغيَّرت بواطن عباداتهم ، بأن ضعفت نياتهم للتقرب لوجه الله ، لغلبة شهوة الطمع في تحصيل أمور الدنيا بأي وجه يمكن ، ولو شيء من أمور الدين ، بضعف الإيمان بغلبة محبة الدنيا ، فغُلبوا في ذلك ، وعملوا عباداتهم مغلوبين مقهورين من محبتها على ذلك ، فصارت عبادتها كما هي في صورها ، خالية عن حقائقها الموعود عليها بتلك المواعيد ، وهي كونها خالصة لوجه الله ، فصارت خالصة لطلب الدنيا ، بعدما كان يقصد بها وجه الله ويطلب بها رضاه .

وعلى هذا الشرط وردت المواعيد عليها عن الله ورسوله ، حتى رجعت القصود فيها لطلب الدنيا والعياذ بالله ، فتغيَّرت عباداتهم بتغيير باطنها عن الوضع الذي وُضِعَت عليه ، فبقيت صور

بلا حقائق، واغتروا بصورها مع فقدان حقائقها ، وأبقوا تلك المواعيد الواردة عليها بشرط حقائقها على تلك الصور الخاوية ، وطمعوا في تلك المواعيد عليها خالية من حقائقها ، وهذا تغيير لدين الله ، وعلى غير ما وَرَدَت به ، فصارت العبادات على هذا الوصف مفاسد عظيمة في الدين ، حيث ذَهَبَت عنها حقائقها ، وبَقِيَت صورها كأعمال المنافقين - أي منافقي الإيمان لا منافقي العمل - فإن الصلاة إذا لم يقصد بها وجه الله لم تصح ولم تسقط عنه ، وأي إيمان مع عدم الصلاة ، وإنما وَرَدَت المواعيد على الأعمال على فعلها صورها مع حقائقها ، فطلبوا تلك المواعيد على هذه الصور الخاوية الخالية بلا حقائق ، وليس الأمر المشروع كذلك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فيالها من مصائب ما أفظعها ويالها من مثالب ما أشنعها ، وما سبب هذه المفاسد إلا علماء السوء كالمتقدم ذِكْرهم ، كما قال : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء .. إلخ** » .

فافهم ، فهذا كما سمعت ما ورد عن الله وعن رسول الله ﷺ ، وعن السلف الصالحين الذين هم القدوة ، وهو الحق ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾، فمن وفَّقه الله وَقَفَ عند ذلك ولا يتعداه، والمخذول المرذول يتبع مطالب هوى نفسه وما تدعوه إليه ، وما تستحسنه وتهواه ، والهوى يغطي الحق، وما منع كل من ضل عن اتباع الحق إلا الهوى . ويؤوِّل كل هذه المذكورات بتأويلات تخالفها وتوافق هواه ، كما قال اليافعي :

وَعَبْدُ الهَوَى يَمْتَازُ مِن عَبْدِ رَبِّهِ ... لَدَى شَهْوَةٍ أَوْ عِنْدَ صَدْمِ بَلِيَّةِ
بِكِيْرِ البَلاَ يَبْدُوْ مِنَ التِّبْرِ حُسْنُهُ ... وَيَبْدُو نُحَاسُ النَّحْسِ فِي كُلِّ مِحْنَةِ

فمن غلب عليه الهوى تبع مسار نفسه وما تهوى ، ولم يزل ما تهواه النفس مخالفاً لما يرضي الرب، فيحكم لنفسه بأحكام تخالف حُكْم الله ، ويعميه عن معرفة الخطأ ما غلب عليه من الهوى ، فيفتي لنفسه ولغيره بفتاوى مخالفة للحق يعمل هو بها ، ويعمل بها من أفتاه ، ويدَّعي أنه حُكْم الله الذي شرعه لعباده ، وأنه عمل وأفتى بالحق والصواب .

فانظر ماذا عمل أتباع الهوى من عظيم إفساد الدين ، فأعمى الهوى عين قلبه عن معرفة الحق والصواب ، حتى صار عنده وفي زعمه الباطل حقًّا والخطأ صواباً فلبس عليه الشر في معرض الخير ، وانقلب الأمران عنده معكوسين ، يرى كلًّا منهما الآخر ، وأي تلبيس أشد من هذا ؟ حتى صار الحق والصواب ما وافق هواه ، وإن خالف قول الله وقول رسوله وأقوال الصالحين ، وفيه يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

والعجب كل العجب ، أنه يُتبع على حكمه ذلك وفتواه ، ويُعَد من فحول العلماء الذين هم قدوة

للناس ، بجامع الأهوية الغالبة المتحكمة فيه وفيهم ، مع قلة التقوى في الجميع ، فصار العموم كلهم معه على هذا الوجه ، فلا منكر عليه ، فاستووا كلهم في استحلاء الضلال ، لغلبة الهوى وشموله للخاص والعام ، إلا من وفَّقَه الله وقليل ما هم ، فإن الحق عند غير أهله مُرٌّ متروك ، وما وافق الهوى عند أهله حلو متبع مسلوك ، وهذا الواقع اليوم من انعكاس أمور الزمان، وانقلاب الأمور فيه عن أوضاعها إلى أضدادها ، كما ذَكَرَ ذلك وسماه لذلك : « **مخيب الظنون** » .

وقد مرَّت الإشارة إلى ذلك من كلامه مرات ويأتي ، ومعناه ومراده به : إنك ربما ترى الإنسان من طائفة كانوا معروفين بالديانة والصيانة والأمانة والمروءة أو تراه بصورة حشمة وهيئة حسنة ، فتظن به الظن الحسن ، فإذا تبطنت حاله رأيته أخس من الخسيس ، من قلة الأمانة والصيانة والمروة وعدمها ، فخاب فيه ظنك وبعد فيه ما توهمته عليه من الظن الحسن ، وصار بعكسه ، ولو كنت أسأت فيه الظن لكنت صدقت وأصاب فيه ظنك ، وهذا في هذا الزمان خاصة ، فلذلك سماه : « **مخيب الظنون** » .

وعكسه الزمان الأول ، إذا أحسنت الظن أصبت ، وإذا أسأته أخطأت ، وأما اليوم فبالعكس ، يصيب فيهم الظن السوء ، ويخطيء فيهم الظن الحسن ، وهذا بالنسبة إلى الغلبة في الوقتين في الخير والشر ، لما كان على الغالب الخير كان الظن الحسن هو الذي يصيب ويخطيء الآخر ، ولما انعكس الأمر اليوم ، وصار الشر هو الأغلب صار سوء الظن هو الذي يصيب ويخطيء الآخر ، فسوء الظن بهم أصدق من حسن الظن ، فيكون الأقمن بهم والأجدر سوء الظن إن توقَّعتَ منهم مكروهاً . فإن كان كذلك ، فخذ حذرك منهم ، واستعد للحزم عدته ، فإن الحزم سوء الظن . أي تظن وقوع السوء ، أي الذي يسوؤك منهم ، فتستعد له عدته ، وإلا فما في الحزم من بأس ، فسوء الظن بأهل الزمان أصدق من حسن الظن ، ولو ما فيهم إلا ما ترى من استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير ، كما قال بعض العرب : « ما من أحد من الناس إلا وهو : أَبْلِهِ تَقْلِهِ » - سيما في هذا الوقت - ومعناه أن كل من أحسنتَ فيه ظنك وأحببته ، فاذا اختبرتَه واطَّلعتَ على ما بطن من أحواله رأيتَ منه ما يبغضه عندك .

ومرادنا من تطويل الكلام في هذه المادة ، التذكير للعاقل الراغب في رضا ربه وفي صلاح دينه وآخرته ، أن لا يعتاض بشيء من عباداته ثمناً قليلاً دنيويًا يقنع به عن ثواب الآخرة ، فيأخذه عوضاً عنه ، ويغتر بغرور النفس والشيطان أن ما وعد عليه من ثواب الآخرة أنه حاصل له مع أخذه عنه عوضاً في الدنيا ، فإن هذا خلاف ما شرعه الله لعباده من اشتراط الإخلاص في العمل ، كما تقرر لك وسمعته ، فما علمنا في الشرع قط ولا سمعنا أن عملاً واحداً يؤخذ عليه أجران ، أجر في الدنيا وأجر في الآخرة ، ولا أحد من المستقيمين على ما أمر الله يدَّعي ذلك ، ولا عبرة بدعوى أهل الزمان ذلك كما فهمتَ مما تقرر لك . فلا تغتر بما يقولون ، فإن غلبك حال الزمان وأخذت على شيء من العبادة

عوضاً في الدنيا ، فلتكثر من العبادات غيرها خالصة لوجه الله ، ولا تأخذ عليها عوضاً في الدنيا ، وتدَّخرها لنفع نفسك في الآخرة ، حيث تضطر إليها ضرورة أشد من ضرورة الدنيا التي أَلْجَأَتْكَ إلى أَخْذِ العوض على العبادة بسببها ، حتى إذا فاتتك تلك لم تفتك هذه .

وما أحسن ما قال الشيخ القدوة محمد بن صالح المنتفقي ، صاحب شعم من بلاد عمان ، وكان يكاتب سيدنا عبدالله الحداد وحل عليه نظره ، وكان من مقام الولاية والصلاح بمكان عظيم ، قال رحمه الله :

احْذَرْ عَلَى الدِّين تَطْلُبْ يَا فَتَى أُجرة ... فَمَن طَلَبْهَا عَلَى دِينِهْ حُرِمْ أَجْرَهْ
اخْلِصْ لِرَبٍّ عَظِيمِ الشَّانْ وَالقُدْرَةْ ... مَنْ أَخْلَص الدِّين لِلْمَولى رَفَعْ قَدْرَهْ
هَلْ يَقْبَل الله مِنْ صَاحِبْ هَوَى عُذْرَهْ ... عَاشِقْ فِلِيسَهْ وَلَا عِشْقَةْ بَنِي عَذْرَهْ
يَشْرِيه بِالدِّينْ جَفَّفْ رَبُّنَا دَرَّهْ ... لا أَنَّهْ أَخَذْ بَعْرَةْ عِوَضْ دُرَّهْ
ذُو خَيْبَةٍ فَانْظُرُوا يَا اهْلَ النُّهَى خُسْرَهْ ... وَانَّهَا حَسْرَةٌ يَا عُظْمَهَا حَسْرَهْ
أُفٍّ لِمَنْ نَفْسُهُ الحَمْقَاءُ مُغْتَرَّةْ ... طَمَّاعَةٌ لم تَزَلْ تَسْأَلْ وَمُغْبَرَّةْ
يَطْلُبْ مِنَ النَّاس عِيدِيَّة وَقُوصَرَّةْ ... مِنْ كَدِّ مَلَّاح قَاسَى الموجْ وَالصَّرَّةْ
فَلْسَهْ بِخَيْطَين تَحْتِ الإِبْط قَدْ صَرَّهْ ... إنْ تَسْأَلُهْ قَام يتلَوَّى وَله صَرَّةْ
كَمْ وَاحِدٍ كَدَّ بَحْرَهْ وَارْتَكَضْ بَرَّهْ ... يَجْمَعْ لابِنِهْ فَلَمَّا عَاش مَا بَرَّهْ
أَهَانْ قَدْرَهْ فَضَحْ عِرْضَهْ كَشَفْ سِرَّهْ ... يُمسِي يُنَادِي إلهِي اكْفِنِي شَرَّهْ
مَا ضَرَّ مَنْ قَدْ خَرَبْ دُنْيَاهْ مَا ضَرَّهْ ... أَمَا دَرَى أَنَّهَا لِلآخِرَةْ ضَرَّهْ
مَا تَنْفَعُهْ أَلفُ أَلفٍ في مِائَةْ جَرَّة ... مَدْفُونَة يُوم عَنْهَا الموتْ قَدْ جَرَّهْ
نَادُوا عَلى مُدْمِنِ الإسكار بالخَمْرَةْ ... أَو بِالحَشِيشِ الذِي يَحْرِقْهْ بِالجَمْرَةْ
إنَّهْ وَلَوْ حَجْ ثُمَّ ازْدَاد لهْ عُمْرَهْ ... يَنْدَمْ وَإنَّهْ مُضَيِّعْ في الشَّقَا عُمْرَهْ
وَمِثْلُهُ مَنْ ظَلَمْ لما وَلِي إمْرَهْ ... يَفْعَلْ مَنَاهِي الإلَه وَيَجْتَنِبْ أَمْرَهْ
يَضْرِبْ وَهُو يَسْتَحِقّ الضَّرْب بِالدُّرَّةْ ... مَا فِيهِ مِنْ وَصْف أصحَابِ الهُدَى ذَرَّةْ
وَيْحَكْ إلى كَمْ كَذَا في هَذِهِ السَّكْرَةْ ... أَفِقْ وَتُبْ وَاذْكُر الله اعْتَرِفْ شُكْرَهْ

بينا تَرَى المرء فِي غِرَّهْ وَفِي فتْرَهْ إِذْ قِيل مَاتَ فلانٌ فَاحْفُرُوا قَبْرَهْ
وَلَّى وَخَلَّا المطَالِبْ مَا شَفَى صَدْرَهْ لم يَبْقَ له بَعْدَهَا وِرْدَهْ وَلَا صَدْرَهْ
وَالمال ذَا وَارِثٌ نِصْفَهْ وَذَا عُشْرَهْ وَهُو نِسْأ لا كَان نِسْبَةْ وَلَا عِشْرَةْ
وَلَوْ بَكَوْا كُلَّ يُومٍ وَاسْبَلُوا عَبْرَةْ لا نَفْع فِي ذَاك عِبرَةْ يَا لَهَا عِبْرَةْ
ذُو اللُّبِّ يَهْجُرْ لما يَحْرُمْ وَمَا يُكْرَهْ وَالشِّينْ يَأْبَاه لَو بالسَّيف لَهْ يَكْرَهْ
كُلّ الدَّنَاءَةْ يَرَاهَا لُقْمَةً مُرَّةْ يَعْلَمْ بِأَنَّ الخَسَايِسْ مِنْ أبي مُرَّةْ
قَدْ صَان نَفْسَهْ عَنِ السَّفْسَاف بالمرَّةْ وَلَا أَطَاعَ الهَوَى يَوْماً وَلَا مَرَّةْ
ذَاكَ الذِي فِي جَبْهَةِ الدَّهْرِ انْكَشَفْ غِرَّهْ لَأن إبليس مَا صَدَّهْ وَلَا غَرَّهْ
فِي وَجْهِهِ النُّورِ تَعْلُو وَجْهَهُ نَضْرَةْ سُعْداً لمنْ عَاشَرَهْ أو يَنْظُرَهْ نَظْرَةْ
هَذَا وَصَلُّوا عَلَى المشْهُورِ بِالنُّصْرَةْ طَهَ الذِي جَاءنا بالنُّور وَالبُصرَةْ
مَا أَطْلَعَ النَّخْل طَلْعَه أَوْ صَبَغْ بِسْرَهْ وَمَا جَرَى النَّهر في بَغْدَاد وَالبَصْرَةْ
وَالآل وَالصَّحْب أَهْلِ العَزْم وَالجَسْرَةْ الشِّرْكِ أَفْنَوا رِجَالَهْ هَدَّمُوا جِسْرَهْ
بِهِم عُبَيْدَكْ تَشَفَّعْ خَايِفٍ وِزْرَهْ فَاغْفِرْ إلهِي ذُنُوبَهْ وَاشْدُدَنْ أَزْرَهْ
وَعَافِهِ وَاهْدِهِ وَارْفَعْ لَهُ قَدْرَهْ فَأَنْتَ رَبٌّ عَظِيمُ الشَّأنِ وَالقُدْرَةْ

تمت القصيدة المنورة . فافهم قول هذا الشيخ المقتدى به : « فمن طلبها » ، أي الأجرة . « على دينه»، أي عبادته « حُرِم أجره » . ومراده بقوله : « طلبها » ، أي نواها ، يعني الأجرة بالعبادة . وقوله : « حُرِم أجره » ، يعني من طلب على العبادة أجرة في الدنيا ، حرم أجره وثوابه عليها في الآخرة ، فهكذا القاعدة المطردة المستمرة في الشرع ، وهو معنى قوله : « حُرِم أجره » ، فنيته كذلك يبطل ثواب العمل، وبأخذ الأجرة عليه في الدنيا يزداد مقتاً وخذلاناً عند الله ، على ما حصل له من المقت والخذلان على تلك النية الفاسدة .

فانظر أقوال أهل الحق وكمال الإخلاص ، كيف اتفقت كلها على هذا المعنى المقرر ، وكيف بينت لك هذا المعنى المحقق ، من أن أخذ الأجرة على العبادة في الدنيا مفوِّت لثوابها في الآخرة ، كل ذلك وأنت تتعامى عنه وتنجذب بالطبع إلى أماني الغرور الباطلة ، موافقة للشيطان في ما قصد من إضلالك، وقد حذرك الله منه فقال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي عادوه وخالفوه

فيما يدعوكم إليه من مخالفة أمر الله ، فإن ما مراد الشيطان إلا أن يلقي جميع بني آدم في النار ، ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾، فأمَرَكَ ربك بمعاداته ومخالفته ، وأنت تنجذب بطبعك إلى موافقته وطاعته بانجذاب هوى نفسك ، فإن النفس أقوى جنود إبليس عليك ، وأعدى عدو إليك ، كما ورد: « أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك » .

قال سيدنا : « **وإنما كانت أعدى الأعداء ، لأنها كالسارق في البيت ، ما لك محيص عنه ، فإذا كان سارقك أهلك وأولادك فأمرهم مشكل ، كما قيل** :

تَــوَقَّ نَفْسَــكَ لا تَأْمَــنْ غَوَائِلَهَــا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانا

وقال بعض ساداتنا آل باعلوي - أظنه العيدروس - : **لو يصح في الصلاة قراءة الشعر ، لصَحَّت بقراءة هذا البيت** » ، وسيأتي كلام طويل فيما يتعلق بإبليس اللعين عند قوله : « **إن لإبليس في أهل الشمال تسليطاً إلهياً وتمكيناً قويًا** » ، فانظره تجد هناك زيادة على هذا .

فبانجذاب طبعك إلى ما ذُكِر ، لانجذابه إلى طباع أهل وقتك ورؤيتك أعمالهم ، لأن الطبع يسترق من الطبع ، والإنسان على دين جليسه وخليله ، فلأجل استراق طبعك من طباعهم ما قَبِلْتَ اتِّباع الحق، ولا أثَّر في قلبك استماعه مما تُلِيَ عليك وسمعته من كلام الله وكلام رسوله ، وكلام السلف الصالحين ، وما سمعته من سيرهم .

وقول الناظم : « لأنه أخذ بعرة عوض درة » ، مراده بالبعرة : ما نواه وأخذه من طمع الدنيا على العبادة ، وبالدرة : النية الصالحة الخالصة في العبادة ، وتجنب أخذ طمع دنيوي عليها حتى يوفى أجره عليها كاملاً يوم القيامة ، هذا هو الدرة . والحاصل إن منافع الدنيا على العبادات هي البعر وأخس وسلامتها من ذلك ، ثم توفيه أجرها في الآخرة هي الدر وأحسن منه ، وهذا موافِق لقول سيدنا : « **كنت إذا فتشت لحقت جواهر** » ، أي أعمال صالحة ونيات خالصة ، وهذا في الزمن الأول الصالح، « **واليوم إذا فتشت لحقت بعراً** » ، وهي أعمال باطلة ونيات فاسدة وهذا في زمانك وهو الذي عناه بقوله: « **واليوم** » ، أي وقتك هذا وما قاربه ، وإنما بطلت أعمالهم بسبب نياتهم ، وتتابعت الأعمال في هذه الأزمنة على هذه النيات من غير نكير ، وإلى الله المصير .

فانظر كيف تأثير النية في العمل والعامل أيضاً ، يدل عليه مدحه لأولئك الأخيار وذمه لأولئك الأشرار ، الذين سماهم : « **قشاش المعاش** » ، فالنية الصالحة ترفع العامل وعمله ، والنية الفاسدة تضع العامل وعمله ، حتى تصيره هو وعمله إن صلحت عزيزاً ، يوصف لِعِزَّتِهِ باللؤلؤ والجواهر النفيسة العزيزة الغالية القيمة، وإن فسدت وضعته حتى تصيره هو وعمله كالبعر الخسيس . وهذا يصحِّح ما

تقدَّم من حديث : « من أسَرَّ سريرة ، ألبسه الله رداءها » ، وما تكلم هو عليه من قوله ، حسنة كانت أو سيئة ، ويلبسه ذلك على الجملة بأن كان إذا أسَرَّ حسناً قَبِلَته القلوب وأثنوا عليه خيراً ، وإن أسَرَّ سيئاً كرهته ونفرت منه وأثنوا عليه شرًّا ، وما ذَكَرْنَا عليه من الشواهد من الحديث ، والقصة المذكورين هناك . ويا عجباه إن هذا الكلام كل من سمعه أذعن له ، وأقر أنه الحق ، وأن خلافه الباطل ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، ولكن سامعه مع ذلك يكرهه وينكره طبعه وتنفر منه نفسه ، ولا يرغب في العمل به ولو مرة في الدهر ، فليس لذلك سبب إلا لكونه مخالفاً للمعتاد وعلى خلاف العمل المتعارف اليوم بين الناس ، فاستنكاره عادي طبعي وليس بإلهي شرعي ، فمن لازم ما خالف العادة أن ينكر في العادة، وإن عرف أنه حق وصواب ، وما يكون أحد واقفاً عند مجرد إنكار الشرع ولم يكن محتفلاً بإنكار الطبع ، إلا الكاملون في معرفة الله وأحكام دينه ، المتقون الخاشعون لله .

وأما العادة تتحكم طبيعة خامسة على خلاف الصواب في العامة دون الخاصة ، فلذلك ما ترى أحداً ممن ثبت له قدم الصلاح إلا وهو ينكر أخذ الطمع الدنيوي على العبادة ، وينكر هذه المعاملات الفاسدة المتداولة بين الناس كالصبرة ، سيما ما يَجُرُّ بسببها من صريح الربا ، من وضع مائة طويلة عند أحد ، وما يعرف منه إلا أن يعطيه كل سنة عشرين مع بقاء مائته ، ولو لم يفعل خاصَمَه وشكاه عند الحكام ، وأفتوا له بأن له الحق . وهذا من العجب ، ومن انعكاس الأمور في الزمان عن أوضاعها ورجوعها إلى أضدادها .

وهاتان الخصلتان الخبيثتان مشهور استعمالها في جهات كثيرة وفي هذه الجهة ، ممعنين فيهما جداً، وزيادة فيهم أَكْل الوَقْف على خلاف شرط الواقِف ، وشرطه في وقْفِهِ حُكْمُ شَرعٍ واجب اتباعه ، وذلك أن أحدهم يأخذ ما على المسجد من الوقف المشروط على العمل في المسجد من إمامة وخطابة وأذان وغير ذلك ، فيصرف في إقامته نحو نصف عشر الوقف ، ثم يختص ويستبد بأكل الباقي من غير عمل فيه، وإنما شرط ذلك الوقف على العمل لا على أن يستأجر بالبعض ويأكل أكثره، فأكلهم له في مقابلة ، ما ذاك إلا أنهم لم يحللوا ولم يحرموا ، ولو عَلِمَ الواقف بذلك ما رضي . وهذه من البدع القبيحة الحادثة ، والمفتون يفتون له أنه على صواب وحق، وأن ما أكله بخلاف شرط الواقف جائز له ، وأنه له حقٌّ مُستَحَقٌّ . وهذه أيضاً من انعكاس الزمان عن أوضاعه .

فاعرف بهذه الجملة أن أمور الديانات كلها أو أكثرها وكذلك العادات ، قد اختلَّت عن أوضاعها، وأن كلمته هذه قد شملت جميع ما اختلَّ من أمور الديانات فإنه عالِـم الدين وحكيمه ، وأن الله ينطقه بمقتضى الحال بما يتعلق بأمور الدين والدنيا والمروءة وغيرها والآخرة ، وكل المصالح والمنافع للدارين، نفعنا الله ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة .

فإذا قد صارت الأمور إلى هذه الأحوال ، فمن تعوَّد الخير صار له عادة في الخير ، في الخواص والعوام ، ومن تعوَّد الشر صار له عادة في العوام دون الخواص وصاروا بذلك من الأشرار ، والطبع العامي ينكر خلاف ما تعوَّده من الخير أو الشر ، وهذا يدل على أن العوائد كلها قد انقلبت إلى السوء في الأشرار والأخيار ، حيث لا منكِر لما تقدم ذِكْره من الفريقَيْن إلا من رحم الله ، فهذا أمر الدين هكذا صار ، فكيف بأمور غيره ؟ وبهذا يفهم عموم معنى قوله : « **إن الأمور في هذا الزمان ، قد انقلبت عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها** » .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في آفات العلم ، وبيان علماء الآخرة ، وعلماء السوء : « قال رسول الله ﷺ : **أشد الناس عذاباً يوم القيامة عَالم لم ينفعه الله بعلمه ، وقال : من ازداد علماً ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بُعداً** ، وقال تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ الآيتين .

وعلماء الآخرة : هم الذين لا يأكلون الدنيا بالدين ، ولا يبيعون الآخرة بالدنيا لما علموا من عز الآخرة وذل الدنيا ، ومن لم يعلم مضارة الدنيا مع الآخرة ومضارتها فليس من العلماء ، ومن أنكر ذلك فقد أنكر ما دل عليه القرآن والأخبار وجميع الكتب المنزلة وقول جميع الأنبياء . ومن علم ذلك ولم يعمل به فهو أسير الشيطان وقد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته ، وكيف يُعَدُّ في حزب العلماء مَن هذه درجته . وفي مناجاة داود عليه السلام : يا داود ، أتدري ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي ؟ إن أدنى ما أصنع به أن أحرمه لذيذ مناجاتي . يا داود ، لا تسكن إلى عالمٍ قد أسْكَرَتْهُ الدنيا فيصدك عن طريق محبتي ، أولئك قُطَّاع الطريق على عبادي . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة ، وقال عمر رضي الله عنه : إذا رأيتم العالم مُحِبًّا للدنيا فاتَّهِموه على دينكم ، فإن كل محب يخوض فيما أحب » .

وقوله : « من لم يعلم مضارة الدنيا مع الآخرة » ، أي كونهما ضرتين ، رضا أحدهما يسخط الأخرى، وقوله : « ومضارتها » ، أي أنهما متضارتين ، نفع إحداهما ضر في الأخرى .

وقال سيدنا في تسلسل الأمور بعضها إلى بعض ، وتعديها من الصواب إلى الخطأ من غير شعور من الناس بذلك ، وهذه أشياء على وجهه أدْرَكَها ورآها سوى ما سبقه وقوعها إلى ما بعده ، قال رضي الله عنه : « **قد حَدَثَتْ أمور غير ما نعرفها ، يخطيء الإنسان في أمر ، ثم يجيء الذي بعده فيسلك عليه، ولا يعلم أنه خطأ ، ومن أراد أن يعرف البدع ، يقرأ آية الكرسي والآيتين بعدها ، ولولا العذر لَبَيَّنَّا ذلك**» ، وسيأتي تمام هذا الكلام بلفظه ، وسيأتي أيضاً في هذا المعنى وفي هذه المادة كلام في مواضع متعددة ، يجرُّه ما وقع من كلامه في هذا المعنى في تلك المواضع ، والله سبحانه أعلم هـ .

قال رضي الله عنه : « **لا ينبغي أن يتخذ الإنسان شيئاً يعسر عليه فَقْده لئلا يشتغل إذا فَقَدَه ، ولهذا قطع الصالحون جميع المتعلقات خوفاً من التعب عند زوالها ، وهذا يريد رياضة شديدة ، ولكن من لا يبالي بالشيء لا يتلذذ به ، فما بقي إلا أن يتلذذ به ويصبر عند فراقه** » ﻫ .

أقول : قوله هذا يشمل جميع أمتعة الدنيا وأموالها وجاهاتها ، وكل أمورها وشهواتها ومتعلقاتها لا بد له من مفارقتها - إما أن يذهب هو عنها ويتركها ، أو تذهب هي عنه وتتركه - ولا بد له من التعب عند مفارقتها ، سواء ذهب عنها أو ذهبت عنه ، فينبغي له أن يتركها قبل أن تتركه ، كما تركها الصالحون . فتركها بمعنى عزوف نفسه عنها ، كما عزفت عنها نفوسهم فلا يتلذذون بها فيكون كذلك مثلهم ، وليس ذلك باختيار العبد ، إنما هو باختيار من الله ، ومن مواهبه العظيمة التي يختص بها من يشاء من عباده ، فإنه ورد : « إذا أحبَّ الله عبداً زوى عنه الدنيا كما يزوي الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة » ، قوله : « زوى عنه الدنيا » ، يعني إن كان من الخواص ، وأي محبة أعظم من هذه ، بأن يحميه ملاذ الدنيا الفانية حتى تتوفر له ملاذ الآخرة الباقية .

مَنْ سَرَّهُ أن لا يَرَى مَا يَسُوءُهُ فَلا يَتَّخِذْ شَـيئاً يَخَافُ لَهُ فَقْدَا

وقد رأيت جماعة من أهل الثروة والسعة في المال وخفض المعاش بحضرموت وفي الحساء ، وهم إن شاء الله من المحبوبين عند الله ، نكّد الله عليهم معايش الدنيا وملاذها ، بأن ابتلاهم ببعض العلل ، بحيث لو اشْتَهَت نفسه شهوة خاف من زيادة ألم عِلَّته ، فيتركها خوفاً من ذلك ، وقد يأخذ من شهوته قليلاً فيجد من ألم علته ما يعزم بسببه أن لا يذوقها بعد ذلك ، فهو في شهوة نفسه بين أن يكد أو يترك فهو سالم من حسابها وعذابها في الحالَيْن ، فإن مَنَّ الله عليك بقطع متعلقات الدنيا بالكلية فهو الكمال، وهو مقام الخواص ، وإن تركت ونفسك فكنت كالرضيع مع أمه دائماً يتطلب عليها ، فكن معها كالعوام من تبليغها مشتهياتها المباحة ، ثم اصبر وتحمَّل المشاق الشديدة عند فراقها إن رُحْتَ عنها أو راحَتْ عنك ، فالألم في كِلَا الحالَيْن حاصل .

قوله : « **ولكن من لا يبالي بالشيء لا يتلذذ به** » ، يعني كما ترى من حال المريض الذي لا يشتهي الطعام ، لا يبالي به حضر أو غاب ، وإن أكل منه فبغير لذة له به ، كذلك الزاهد في الشيء الذي لا يبالي به ، لا يتلذذ به ، ولكن الله سبحانه قد أحوج الخلق إلى بعض أمتعة الدنيا الذي هو ضرورة المعاش فقط ، فليأخذ العبد من ذلك بقدره ومن وجهه ، ويستعن به على ما أمر به ، ويترك ما سواه ، كما تقدم من قوله : « **إن الله خلق الدنيا ، وجعل فيها كثيراً من الشهوات ، ليأكل المؤمن قدر ضرورته فقط ، ويعبده في مقابلة ذلك ، ويترك شهواته لدار إقامته في الآخرة ، ولا يَتَعَجَّلها هنا** » ، وكقوله : « **لا تفعل**

شيئاً من أمور الدنيا إلا مع الحاجة الظاهرة إليه ، فلا تجعل لنفسك منها شيئاً فإن الإستكثار من أمور الدنيا ما هو شيء أصلاً ، ولا تقل : ربما تدعو إليه حاجة ، فحاجة الآخرة والدِّين أهم إليك من هذا ، غير إنَّا ما نحب أن نكثر على الناس فيما هم فيه ، وكلما قدر الإنسان أن يضيق على نفسه في هذا الزمان لوجه الله لا لشيء آخر ، فإن ما عند الله خير وأبقى » .

فهذه المقالة كما تقدمت ، وما تقدم عليها من الكلام ، إنما هو وصف سير الأنبياء ، سيما سيرة رسول الله ﷺ ، كما قدَّمنا معها من ذِكْر صفتها على ما رواه الترمذي عن بلال ، وسيرة الكُمَّل من أمته تبعاً له واقتداء به ، فما أرى سيدنا أراد بهذه المقالة وما معها وكل ما في معناها ، إلا وَصْف حاله معبِّراً عنه بمقاله ، وأراد أن يستنهض الناس إليه ، وأين هم من ذلك ؟ فهيهات ، وبعيد جداً ، وشتان ما بينهم وبينه ، وبَوْن بعيد ، وهو قوله : « **غير إنَّا ما نحب أن نكثر على الناس فيما هم فيه** » ، فهذه أقواله الدالة على سيره وأحواله وأفعاله ، مما يحث بها على التقلل من الدنيا بغاية الجهد والإستطاعة ، من خوف سوء عاقبتها وحسابها وبلائها ، إن حصل ذلك مع الزهد في الدنيا وعزوف النفس عنها ، فهو الكمال وبلوغ مقام الرجال ، أو مع القناعة بما يضطر إليه ، وتصير النفس عما زاد مع مطالبتها لزائد من الدنيا ، وهو مقام كُمَّل العوام ، وقد ورد أنه : « يحصل للإنسان عند موته على ماله مصيبتان ، ما سمع الأولون والآخرون بمثلهما » ، قيل : « ما هما ؟ » ، قال : « يؤخذ منه كله ، ويحاسب عليه » .

وأما ما ذَكَرَ من التلذذ بأمتعة الدنيا ويصبر عند فراقه ، فالتلذذ بكل أمر من أمورها قَلَّ أو كثر حاصل ، يدل على ذلك تعبُه عليه إذا فَقَدَهُ وتأسُّفه ، لقوله : « **من لم يبالِ بالشيء لا يتلذذ به** » ، فدَلَّت مبالاته به واعتناؤه به ومشقته على فواته، أنه كان متلذذاً به ، فلو لم يكن به متلذذاً ما تعب عليه عند فَقْدِهِ ، ولا سأل عنه ولا أشغله ، فهو لِهَلَعِهِ وجشعه يتعب على القليل الذي لا يُذْكَر ولو درهماً ونحوه، ويدَّعي مع ذلك أنه لا يبالي بفوات الكثير كذباً ودعوى باطلة ، ولو أظهر للناس أنه لا يبالي، وقلبه محترق عليه فلا ينفعه ذلك ولا يقدِّمه عند الله ، بل يحط قدره عنده ويمقته على كذبه ودعواه ، وكفى له بذلك عقوبة وجزاء وفاقاً ، ولو لَبَّس على الخلق لا يمكنه يلبِّس على العالم بالسرائر ، فيدَّعي مع ذلك الخذلان مقام الصالحين . وأما الكاملون الذين صحَّ لهم قدم الولاية بشهادة أهلها لا غيرهم ، فإنهم لا يعرفهم إلا من هو منهم ولا يعرفهم غيرهم ، والموفَّق الذي يحبهم ويعتقدهم وإن لم يكن منهم ولا مثلهم ، والكاملون لا يبالون بذهاب الكثير .

وقد سمعت عن سيدي السيد الجليل الكامل الحبيب أحمد بن عمر الهندوان باعلوي نفع الله به : أنه كان خرج من الهند يريد حضرموت بسبع خزائن مملوءة كتباً ، كل خزانة أطول من قامة الواقف، مشتملة على كتب أجلة ، كالصحيحين والإحياء وتفاسير كثيرة ، وغيره مما لا يضبط بعد ، وخرج

بأموال جزيلة تبلغ ألوفاً مؤلَّفة ، فلما وصل بها بندر سورت ، ونَوَّل على الكل إلى الشحر يريد به حضرموت فحملت في الزعيمة إلى المركب الكبير البرشة ، فَدَمَت الزعيمة في البحر وغرقت بما فيها، وذَهَبَت كل تلك الأموال ، وكل تلك الخزائن بما فيها من تلك الكتب النفيسة الجليلة ، فما أهمَّه ذلك ولا اكتَرَثَ به ، ولا أعاره طرفه ولا خطر له همٌّ عليه بباله ، ولا بالى بشيء منه أبداً ، لعلمه أنه ما وقع ذلك إلا بأمر الله وإرادته ، فغلب عليه حال بَرْد الرضا والتسليم ، وانغمر فيه حال التدبير والإختيار ، وصار قلبه حينئذ متعلّق بالملك الوهاب مسبب الأسباب ، ونسي عند ذلك جميع الأسباب .

فرجع إلى الهند وجدَّ سنة ، فحصَّل وحصَل له أكثر من تلك الخزائن والكتب الفائتة مما اشتمل عليها ، وزاد كثيراً وأكثر من تلك الأموال الذاهبة ، ثم جاء بتلك الخزائن والكتب وتلك الأموال إلى حضرموت ، ومدحه سيدنا عبدالله نفع الله به على جَمْعِهِ لتلك الكتب بقصيدة في ديوانه ، بقوله :

جَـزَى اللهُ خَـيراً سَـيِّداً وَابْـنَ سَـيِّدٍ — وَعَلاَّمَـةً مِـنْ آلِ طَـهَ الأَطَايِـبِ
عَـلَى جَمْعِـهِ كُتْبـاً يَعِـزُّ اجْتِمَاعُهَـا — لِنَفْـعِ عِبَـادِ الله مِـنْ كُلِّ طَالِـبِ
بِأَجْدَادِكُـمْ قَـدْ أَظْهَـرَ اللهُ دِينَـهُ — وَأَشْـهَرَهُ فِي شَرْقِهَـا وَالْمَغَـارِبِ
وَأَنْتُـمْ بِهـا مِـنْ بَعْدِهِـمْ تَخْلُفُونَهُـمْ — بِإِظْهَـارِ دِيـنِ الله مُعْطِي الرَغَائِـبِ
فعِـشْ سَـالماً في غِبْطَـةٍ وَسَـعَادَةٍ — وَعَافِيَـةٍ مِـنْ كُلِّ بُـؤسٍ وَنَائِـبِ
و فى نِعَـمٍ تَـتْرَى وَعِـزٍ وَرِفْعَـةٍ — تَـدومُ عَلَى رَغْـمِ الحَسُـودِ المُجَانِـبِ
وَلاَزِلْـتَ يَابْـنَ الطَّاهِرِيـنَ مُوَفَّقـاً — وَمُحْتَلِيـاً أَسْـنَى الحُـلَى وَالمَنَاقِـبِ
وَلاَزَالَ في إِخْوَانِنَـا وَرُبُوعِنَـا — مِـنَ الْعَلَوِيِّـينَ الْكِـرَامِ المَنَاسِـبِ
كَمِثْلِكُـمُ يُحْيُـونَ سُـنَّةَ جَدِّهِـمْ — عَلَى الْعِلْمِ وَالتَّقْوَى وَحِفْظِ المَرَاتِبِ

تمت القصيدة المنورة .

وقوله : « لنفع عباد الله من كل طالب » ، يصدِّق ذلك أني قلت ليلة بعد العشاء لسيدي أحمد المذكور : إذا أصبحتم طرّفوا لي الكتاب الفلاني ، أريد أطالع فيه ، فقال : « لا ، بل لا تروح الآن إلا به»، وعالجته على أن يترك ذلك إلى الغد فأبى، فأعلق شمعة وأخرج كل ما في طبقات الخزانة من الكتب، ودوَّر ذلك الكتاب إلى أن وجده فأعطانيه ، وكذلك كلما طلبته كتاباً لا يَدَعني أخرج من عنده إلا به . ورأيت في كتبه تفسيراً كله بالمعجم ، ما فيه حرف مهمل ، وتفسير آخر كله بالمهمل ، ما فيه حرف مُعجَم ، وتفسير آخر يفسِّر البسملة في كل سورة ، من البقرة إلى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، كل

تفسير غير الأول ، ولكنه ينحو في تفسيرها في كل سورة إلى نحو معنى السورة .

ومن خواص سيدنا أحمد ، أنه لا يقول الشِّعر قط ، ولا يقومه لسانه لو نطق به .

وشبه قصة سيدنا أحمد من عدم اكتراثه بما ذُكر : أن سيدنا عبدالله أُهدِيَ إليه جزءاً من الروضة مشتمل على نحو نصفه ، والنصف الآخر موجود في خزانته ، فصار عنده عزيزاً جداً ، فأعطانيه وقال: « **احتفظ عليه من الأرضة** » ، وما استأمن عليه أن يجعله في الخزانة ، فوضعتُهُ فوق وَتَدٍ مركوز في الجدار فأنا أرعيه البال إن دخلتُ أو خرجتُ أنظر إليه ، وكل يوم أقلِّبه ، فغفلت عنه نحو ثلاث أيام ، وإذا قد دَخَلَتْهُ الأرضة من الجدار ، من ثُقْبٍ ثَقَبَتْهُ كَثُقْبِ الإبرة ، وأَخْرَبَتْهُ من داخل ، ولا أثر لذلك في ظاهره، فلما فتحته ، وإذا ما بقي فيه عوض وبقيت متخوفاً من غضبه ، فأخبرته بذلك وأريته إياه ، واعتذرت إليه فقال : « **ضعه في الخزانة** » ، ولا زادني على ذلك شيء ، ولا رأيت أثر غضب ولا اكتراث من ذلك قط ، كيف وهو القائل في حكمه : « **نازع الأقدار من كَرِهَ من أخيه ما لا يدخل تحت الإختيار** » ، رضي الله عنه ، وهكذا أحوال الأكابر رضي الله عنهم .

ولقد رأيت من السيد أحمد بن عمر المذكور عَجَباً ، وهو أني حضرت عنده ليلة صلاة المغرب ، فبعدما أذن المؤذن وأقيمت الصلاة وتقدَّم في المحراب ليصلي بالجماعة ، فعندما أراد أن يُحرِم أَخَذَتْهُ دهشة عظيمة ، فجعل ينتفض ويرتعد ويتحرك بكل أعضائه حتى أجفانه ، ثم التفت إلى الجماعة وقال: « هل أذَّن ؟ »، فقالوا : « نعم ، قد أذَّن وأُقيمت الصلاة ، وأنت مُتَقدِّم لِتُحرِم » ، فأَحْرَمَ وصلينا معه، وما يكون هذا إلا عن حال نفع الله به . ومن عادته أنه مرتِّب بعد صلاة الظهر كل يوم مع الجماعة الذين يحضرون عنده قراءة جزء من القرآن ، ومن عادته أن يجلس وقت الضحى في محضرة في بيته ، ويأتونه جماعة يحضرون مجلسه ، فيقرأ عليهم في كتاب للفائدة والسلامة من فضول الكلام ، وقد يخرج إليه من داخل البيت وليد له اسمه : « عقيل » ، صغير في سِنٍّ نحو خمس سنين ، فإذا جاء إليه وضع الكتاب وقام إلى الوليد ولَمَّهُ إلى حضنه، وقَبَّله في خدَّيْه ومسح على صدره ، وقال : « اللهم انزع من قلبه حب الدنيا » ، والجماعة الحاضرون ينظرون ، وأنا متعجب من شدة محبته له .

ثم في بعض الأيام رأيت الخادم يسارُّه بكلام ، فقال : « هاته هنا » ، وهو يقرأ في كتابه ، وإذا بالخادم قد خرج بوليد متوفى مكفن ، فوضعه قدامه ، فقام وأحرم بالصلاة عليه ، وصلينا معه عليه ، ثم قال للخادم : « روحوا به » ، فخرج به إلى التربة ، ثم رجع السيد أحمد يقرأ في كتابه ، وإذا به وليده المذكور، ولا تبين عليه أثر الحزن ولا اكترث . فياللعجب من أحوال الصالحين ، فينبغي الإقتداء والتشبه بهم في مثل هذه الأمور ، وأما في الأمور الحسية كالصوم والصلاة فأمره سهل ، كُلٌّ يقدر عليه ، بخلاف هذه الأمور إلا بموهبة من الله سبحانه .

ثم في بعض الأيام ، وهو يوم الثلاثاء ثالث المحرم عاشور ، مبدأ سنة ١١٢٢ ثنتين وعشرين ومائة وألف ، فكان جالساً في مجلسه المعتاد ، مستنداً على الجدار إلى شرق ومستقبل القبلة ، ونحن الجماعة الحاضرون من قِبَلِهِ مُقابِلِين له ، وفي جنبي رجل من السادة وبيده كتاب ، فوضع السيد أحمد كتابه الذي يقرأ فيه ، واتكأ على يده اليسرى على الأرض ، ثم اختطف كتاب ذلك السيد من يده ، وما قال : « ناولني إياه » ، فتعجَّبتُ من اختطافه له من غير طلب مناولة ، فلما طالعه رأيت وجهه تَمَعَّر وتلوَّن وتكدَّر خاطره ، وظهر عليه أثر الحزن ، ثم أخذ ذلك الكتاب وحذفه به على صاحبه حذفاً ، وما ناوله إياه مناولة ، فقلت لذلك الشريف : أرني الموضع الذي نظر فيه السيد أحمد . فأرانيه ، فإذا به يَذْكُر أنه إذا دخل المحرَّم بالأحد، يموت في تلك السنة كثير من الصالحين .

فكأنه كُشِفَ له في تلك الساعة أنه سيموت عن قريب ، فبعد سبع وأربعين يوماً ، وهو يوم الخميس تاسع عشر من صفر سنة ١١٢٢ ، أتيته إلى بيته الذي في السحيل ، وإذا به خارجاً منه يريد بيته الذي في النويدرة عَجِلاً ، يريد يسير إلى مشطة - قرية من أعمال تريم - إلى جماعة من أهل بيته آل الهندوان ، طالبينه في عزيمة ختان عندهم ، فهو يسير ويلتفت إليَّ يظن أني قفاه في أثره ، وعوقني عنه بعض السادة وقال : « إذا كان السيد أحمد ألّا معزوم - ومراده يمر بيته لحاجة ، وهو سائر قبله - فما معنى لحوقك له ؟ فامْضِ بنا إلى البيت نشرب قهوة » ، وأكَّدَ عليَّ ولا خلَّا لي عذراً ، فَسِرْتُ معه إلى بيته ، وسار السيد أحمد إلى جماعته .

فبعدما دخل سيدنا عبدالله إلى الدار بعد القراءة والذِّكر ليلة الجمعة واضطجعت للنوم ، وإذا ببعض أخدام الحبيب يقول لي : « أعظم الله أجرك في السيد أحمد » ، قلت : السيد أحمد بن زين ؟ قال: « لا ، ألّا السيد أحمد الهندوان » ، قلت : هو ألّا طيِّب ، وسار اليوم إلى مشطة يمشي ، قال : « هذا هو مَرُّوا بجنازته الآن » ، فقلت: سبحان الله . وإذا الحبيب عبدالله يناديني من الغيلة - أي الغرفة - فلَبَّيته، فقال: « **سِرْ أنت وحسن** - يعني ابنه - **إلى عند السيد أحمد ، ونادوا صلاح** - أي الحجَّام- **وخلوه يركِّب فيه محجمه ، فإن خرج دم فهذه غشية وهو حي ، وإن لم يخرج دم فيتحقَّق موته** » ، فَسِرْتُ مع السيد حسن ، ونادينا صلاح وركَّب فيه محجمه ولا خرج منه دم ، فتحقق موته . فخرج سيدنا عبدالله في الغد للصلاة عليه ، وصلى وصلينا معه عليه ، وتقدَّم في الصلاة عليه ابنه عبدالله ، وما رأيت سيدنا عبدالله خرج على جنازة إلا على السيد أحمد وبنته - أي بنت سيدنا بهية - رحم الله الجميع ، ورحمنا معهم .

وسألت بعض من حضر مجلسه بمشطة فقال : « جاء تعبان ، وطال به المجلس لكثرة المترددين ، وما قيَّل ذلك اليوم ، وبقي ذلك اليوم متقيِّداً جالساً إلى الليل ، وتعب من كثرة الناس وطوَّل الجلوس

إلى الليل ، ثم بعد المغرب جلس أيضاً لعزيمة العشاء ، ثم أراد المسير إلى تريم ، فأوتي بفرس فركبها ، إلى أن وصل إلى روغة - قرية بجنب مشطة ، وما فاصل بينهما إلا حصاة فيها - فتصاغى على الفرس، فحملوه وأدخلوه بيت السيد عيدروس بن عمر بروغة ، فسأل : هل دخل وقت العشاء ؟ ، قالوا : نعم . فكَبَّر مُحرِماً بصلاة العشاء ، فحينما سَلَّم اضطجع وخَرَجَتْ روحه » هـ .

وقد رأيت مرة في سنة [1]: كأني وسيدنا عبدالله سائرَيْن في طريق ، وهو قابض بيدي ، فإذا نحن نمر على جذوع نخيل كثيرة ساقطة ، وإذا السيد أحمد يمشي قدامنا ، فقلت لسيدنا : هذا السيد أحمد سائر قدامنا . فناداه فلم يلتفت ، وأسرع في المشي ، فغضبت فقلت في نفسي : لولا شفقة سيدي عبدالله عليه لتصرَّف فيه ومنعه من المسير . وإذا به قد سقط ، وحاول القيام فلم يقدر ، حتى وصلنا إليه ، فأكبَّ سيدنا عليه وقبض بأذنه وجرَّه حتى أوقفه ثم قال له : « لِمَ لم تَقِفْ لما طَرَّبت بك - أي ناديتك - ؟ » ، قال : « ما بغيت » ، ثم إن سيدنا سارَّه في أذنه بكلام ، فبعدت أذني عنهما لئلا أسمع مسارتهما .

ثم حكيت لسيدي عبدالله بهذه الرؤيا ، فقال : « **إن صَدَقَت رؤياك ، يموت السيد أحمد قبلنا** » ، فكان كذلك ، مات قبله باثني عشر سنة . ثم جاء سيل الحوت بعد الرؤيا بقليل ، فقلع النخيل وجعلها جذوعاً ملقاة . وهذا تاريخ وفاته : « وتريم أحزنت » ، تاريخ موت الهندوان ، أسكنه ربي تعالى أعلى فراديس الجنان .

ومن كلام السيد أحمد المذكور : « إذا كنت تقول : أن الطعام بطبعه لا يشبع، وإنما الشبع أمر يخلقه الله عنده لا به ، فيكفيك منه لقمتين أو ثلاث ، ولا تحتاج إلى كثرة الأكل » ، يعني : فيكفيك ما ينطبق عليه الاسم وإن قَلَّ ، وهذا منه مقال وحال ، فإنه كان لو رفع ماعون الزاد من قدامه ونظرت في جنبه، فلا ترى كأنه أخذ منه شيء ، لشدة قلة أكله ، وكذلك سيدنا عبدالله ، وكذلك جميع الصالحين نفعنا الله ببركاتهم وأسرارهم في الدنيا والآخرة .

ومن كلامه يمليه عليَّ ويعلِّمنيه قال : « الإيمان بالقضاء والقدر على اختلاف أحواله - أي من خير أو شر - واجب ، ثم تنظر إلى ذلك المقدور ، فإن كان واجباً شرعاً وجب الرضا به ، أو مندوباً ندب الرضا به ، أو حراماً حرم الرضا به ، أو مكروهاً كره الرضا به ، أو مباحاً جاز ذلك » .

وقال وأهل المجلس كلهم يسمعون : « من عمل في هذا الزمان بمجرد الحقيقة خالف الشرع وتزندق » ، فقلت : فإن عمل بالشريعة فقط ؟ فقال : « إن عمل بها فقد عمل بالحقيقة أيضاً ، لأنها لا

---

(١) فراغ في الأصل .

تنفك عنها » ، وفي معنى قوله هذا ، قول سيدنا عبدالله : « **الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمنا لصاحبها ، وإن لم توافقها طرائق فإنها هي أخت الزندقة** » ، والطرائق في قول سيدنا عبدالله ، هي الشريعة في قول السيد أحمد ، نفعنا الله بهما .

وقال السيد أحمد : « وإذا قيل ما الصوفي مثلاً ؟ فالمراد به التقي السخي » ، وقال : « الاسم الأعظم، هو حسن الظن بالمسلمين ، ومن سأل الله كمال التوفيق وكمال حسن الظن بالمسلمين ، فقد سأله أكمل ما ينبغي أن يسأل » ، وقال : « كُلُّ تأدُّبٍ ليس فيه تعظيم لله تعالى فهو رياء ونفاق ، فتأدَّب بما يليق ، ويكون ذلك إن كنت وحدك ، وإن كنت في ملأ فاقتد بأكملهم وأحسنهم أدباً » .

وجعل يوماً يذم الزمان ويقول : « إن الأعمال فيه إلى عدم القبول أقرب منه إلى القبول » ، فقلت له : فما أرجى الأعمال في هذا الزمان إلى القبول ؟ قال : « الإستغفار ، والصلاة على النبي ﷺ » ، وقال لي يوماً : « إذا أردتَ أن تعرف مقامك ، فانظر لو تَفَلَ عليك أحد تَفْلة ، فإن فرحتَ بها ولم تجازِ بمثلها فأنت في مقام الإحسان ، وإن كَرِهْتَ وتكلَّفتَ احتمالها ولم تجازِ فأنت في مقام الإيمان ، وإن كرِهتَ وجازَيتَ بقدر ولم تزد شيئاً فأنت في مقام الإسلام ، وإن زِدتَ وتعدَّيتَ فأنت من الفاسقين »، وقال : « إذا اعتقدتَ في إنسان أنه أفضل أهل زمانك ، ولكن انظر أن لا يكون لك في ذلك هوى، فإن كان خالصاً لوجه الله تعالى ، فهو شيخك الذي تصل به – أو قال : على يديه – إلى الله تعالى ، ولو كان أجهل خلق الله » ، ويؤيِّد قوله : « ولو كان أجهل خلق الله » ، ما ذكره ابن عربي : أن عمَّا له دخل الطريق وهو ابن ثمانين سنة ، وكان دخوله بسبب صبي صغير لا يعرف الطريق وكان كل يوم يقرأ ختمة من القرآن ، ويهدي نصفها لذلك الصبي الذي عرَّفه الطريق .

انتهى كلامه ، وربما سمع منه كلمة ولو هزلية فتح الله لها قلبه ، ففهم منها معنى جَذَبَهُ إلى الحق ، كما في قصة : « سعتر بري » . انتهى ما أردنا ذِكْره من كلام السيد أحمد الهندوان باعلوي نفع الله به .

فانظر إلى أقوال وأحوال الأكابر الكُمَّل ، ولا تدَّعي الكمال وأنت ناقص تتأسَّف على الدرهم إذا ضاع عليك ، أو تحزن على موت عزيز ، وأنت تقرأ قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وما يحزن على شيء وقع بإذن الله إلا أحمق . وقوله : ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، أي كتب تأجيل أجَله إلى هذا الوقت ، فكيف إذا كان الأمر كذلك يحزن العاقل ؟ وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ، أي إذا علمتم ذلك فلم تأسوا أو تفرحوا ، ويجب الإنطراح تحت الحكم .

وتأمَّل ما ذَكَرْنَا من أحوال السيد أحمد ، ففيها ميزان لمن أراد أن يعرف نفسه ويختبرها ويزنها ، وفي الحديث : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ، أي أول ما تفجأه المصيبة ، وأين من يرضى عند ذاك أو يصبر ؟ وكان في ذلك الزمان من ١٠٦١ جماعة مجتهدون في العبادة وطلب الفتوح من الله سبحانه ، كسيدنا عبدالله ، وكان سِنُّه إذ ذاك سبعة عشر سنة ، والسيد أحمد الهندوان وسنه كذلك - إذ ولادته قبل ولادة سيدنا عبدالله بشهر - والسيد محمد مديحج وغيرهم . ويترَدَّدُون إلى الشيخ عمر العطاس يطلبون منه الدعاء لهم بحصول ذلك ، فأول من فُتح عليه بذلك سيدنا عبدالله ، فقالوا كلهم : « سبقكم بها السيد عبدالله الحداد » ، على ما قدَّمنا من كلامهم في ذلك .

قال السيد أحمد الهندوان : « فقلت لسيدي عمر العطاس : سبقنا بها السيد عبدالله الحداد ، فَفُتِح عليه قبلنا » ، فقال السيد عمر : « اجتمع شمله بشملها ، اتصل حبله بِحَبْلِها ، ظهر صفاء يقينها ، انطوت الأحشاء على جنينها ، سطع نور المصطفى محمد ﷺ في جبينها » ، قال السيد أحمد : « فعند ذلك فُتِح عليَّ » ، فاعجب لسياسة السيد عمر بن عبدالرحمن العطاس نفع الله به ، كيف أنطقه الله بذلك ، فصار سبباً للفتوح على السيد أحمد ، وكل أحوال الأولياء عجيبة . وسُمِّيَ « العطاس » ، لأنهم سمعوه عند الولادة عطس قبل يخرج من بطن أمه وتوفي سنة ١٠٧٢ ، وما أدركتُه ، ولكن أدرَكتُ ابنه حسين بن عمر ، مَرَرْتُ عليهم في بلدهم حريضة ، وأخذت عنده ثلاثة أيام ، نحضر مجالسه ونتملَّى برؤيته . وجلست يوماً مع ابنه أحمد بن حسين فقلت له : عد لي ذرية أبيك من أولاده وبناته وأولادهم، فعدَّهم فبلغوا ثلاثاً وستين ، وذلك في حياته .

وعند ذكر الفتوح قلت يوماً لسيدي عبدالله : ادعوا الله لي أن يفتح عليَّ بذلك الباعث الشريف الذي ذَكَرتُوه في أول « رسالة المريد » ، فسكت ساعة ، ورأيت وجهه قد تَبَيَّن فيه أثر الحنق ، ثم قال : **« إنما ذلك جزاء العمل ، فاعملوا أولاً ، ثم يكون الجزاء بعده ، فإنما يكون الجزاء بعد العمل »** .

وكان سيدنا عبدالله إذا ذَكَرَ إخوانه في الطلب ، كهؤلاء المذكورين وغيرهم ، وتذكر ذلك الزمان وأهله وأحوالهم بالنسبة إلى الوقت الذي أدركناه فيه ، تكلم في أحوالهم وأمورهم كثيراً ، وأسهب فيه جدًّا فقال : **« وأين وقتكم من وقتهم ؟ فذلك أكثر من ستين سنة ، واختلفت فيها الأحوال ، وتجددت لهم عوائد ردية ما كنا نعرفها »** ، حتى إذا أعياه الكلام سكت وقال : **« الكلام شجون يَجُرُّ بعضه إلى بعض ، وإنما خوفنا في كثرة الكلام من تغير الأوضاع »** ، وذلك قوله : **« انقلبت الأمور في هذا الزمان عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها »** هـ .

قال رضي الله عنه : « **ينبغي لأهل الزمان أن يجتهدوا أن يكونوا من أصحاب اليمين ، بأن تغلب حسناتهم على سيئاتهم ، فيكونوا إلى داخل لا إلى خارج ، ويَسْلمون من الكبائر ، ويعتقدوا في أنفسهم أنهم لم يقوموا بشيء ، فمن أحكم ذلك صار من المقربين ، وأهل الزمان يطلبون أن يكونوا صالحين مع جمع الدنيا ، ولا يصبح من هذا شيء** » هـ .

أقول : شَرَطَ في هذه المقالة - في حصول مقام المقربين في هذا الزمان المتعذر حصول ذلك فيه ، إلا لمن أراد الله له بلوغه ، فوفَّقه لاستعمال أسبابه ومقتضياته - ثلاثة شروط ، وقوله هو القول الفصل في ذلك ، فعلى الخبير به سَقَطْتَ .

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا   فَإِنَّ القَولَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

ولا تلق لأحد غيره في ذلك قولاً فصلاً محقَّقاً قط .

أول تلك الشروط : تحصيل مقام أصحاب اليمين قبل ذلك ، فإنه سُلَّم إليه ، ولا يمكن بلوغ ذلك المقام قبل إحكام هذا ،كما قال : « **ولا يبلغ مقام المقربين قبل إحكام مقام العامة ولو عاش عمر نوح، ومن لا يُحكِم صلاته وزكاته كيف يبلغ مقام الخصوص** » ، وذلك كما بَيَّنَه هنا وفي غيره ، بأن تغلب حسناتهم من الواجبات والمندوبات على سيئاتهم من الصغائر ، بدليل قوله .

والثاني : أن يسلموا من الكبائر ، فلا يلموا منها بشيء جَلَّ أو دَقَّ .

والثالث : أن يعتقدوا مع ذلك في أنفسهم أنهم لم يقوموا لله بحق ، وأنهم مقصِّرون في أداء حقوق الله عليهم كما يجب له عليهم ، لما يعلم من الحقوق اللازمة لله على عبده ، وأنه لو بذل جِدَّه واجتهاده فيها ما قام منها بشيء ، كما قال سيدنا في قصيدته الرائية ، شعر :

فَلَسْتُ بِشُكْرِ اللهِ رَبِّي وَخَالِقِي   أَقُومُ عَلَى إِحْسَانِهِ المُتَوَاتِرِ
وَلَكِنَّنِي بِالْعَجْزِ عنْ حَقِّ شُكْرِهِ   مُقِرٌّ وَلَوْ شَمَّرْتُ فِي سَعْيِ شَاكِرِ
وَلَوْ كَانَ لِي عُمْرُ الدُّنَا وَقَطَعْتُهُ   بِأَفْضَلِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ الأَكَابِرِ
وَأَضْعَافِ أَضْعَافِ الجميعِ مُضَاعَفاً   بِلاَ أَمَدٍ يَأْتِي عَلَيْهِ وَآخِرِ
لَمَا قُمْتُ بالشُّكْرِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ   وَكُنْتُ مَعَ التَشْمِيرِ فِي وَصْفِ قَاصِرِ

تم . وهذا عكس ما عليه المغترُّون من أهل هذا الزمن ، من اعتقاد أحدهم في نفسه أنه قائم لله بكل الحقوق ، وهو مع ذلك مقصِّر في حقوق الله كلها ، كما قال سيدنا السيد محمد باحسن الحديلي باعلوي

نفع الله به : « إذا صلى أحدكم ركعتين في جوف الليل ، أصبح ينتظر الوحي » ، يعني يدَّعي ويعجب بنفسه بسبب ذلك ، فيظن أنه ما ترك من الحقوق شيئاً .

فافهم من هذا معنى الفرق بين المخلصين الصادقين المحقِّقين ، وبين الكذبة المدعين الممحقين ، بل لو قام الإنسان بكل حقوق الله عليه مثلاً واعتقد بذلك ، ورأى في نفسه أنه قام بذلك ، كان مقصِّراً ومعجباً ، كما شرط ذلك هنا وفي مواضع متعددة . والمعجب عمله باطل فكيف يعتد به ؟ ويلتفت بقلبه إليه ؟ بل كلما جرى في الخاطر فعليه الخطر ، كما قال بعضهم : « كلما خطر من أعمالي في خاطري لا أعتد به » ، وقد اجتمع بعضهم بالخضر فقال : « ادع لي » ، قال : « وفَّقك الله لطاعته » ، قال : « زدني»، قال : « وسترها عنك » ، وبعدها ما استزاده وقنع بها .

ولو قصر ورأى أنه مقصر لا ينفعه ذلك ، بل ذلك أشد لِمَقْتِهِ وخذلانه عند الله كما قال سيدنا في حكمه : « **ليس الشأن رؤية التقصير في التقصير ، إنما الشأن رؤية التقصير في التشمير** » ، أي ليس الفخر والرجولية بالأول ، إنما ذلك بالآخر .

فهكذا ما شرط في هذه المقالة أيضاً لبلوغ ذلك المقام الشريف ، ومن شَمَّر واجتهد ورأى أنه مقصر فهو من المقربين ، وهذا عزيز اليوم إلا لمن أراده الله به ، فوفَّقه له وأعانه على أسبابه ومقتضياته ، كما تقدَّم من الإشارة إليه من أحوال سيدنا وأصحابه في طلب الفتوح من الله ، وتردُّدهم على سيدنا عمر العطاس في طلبهم منه الدعاء من الله لهم بحصول ذلك .

وشَرْطُهُ في جملة تلك الشروط الثلاثة المتقدِّم ذِكْرها ، أعني كونه باذلاً مجهوده ويرى أنه مقصِّر ، فإنه أكبر الشروط التي ذَكَرَها لحصول ذلك المقام الشريف العال ، فمن رأيته متحقِّقاً بذلك ؛ فاعلم أنه على ذلك ، وإن كان صاحبه لا يعتقد في نفسه ، وذلك لكماله كما ذُكِر .

وأما الناقص ، فهو الذي مع نقصه يعتقد كمال نفسه ، وإن غلبه الهوى واشتدَّت به دواعي النفس والشيطان ، وقَوِيَ فيه طلب الجاه والمال وحب الرئاسة ، ادعى مع غاية نقصه ما ليس هو له أهل ، وزعم أنه من كبار الأولياء ، وغضب على من لم يعتقده ، ومزَّق عِرْضه بالغيبة والنميمة ، وظنَّ أنه إن أصابه مرض أو عرض أن ذلك كرامة له ، أو مات بأجله الذي أجَّله الله إليه ، حيث قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، زعم ذلك المدَّعي الكذاب أن ذلك بسببه ، وانتفخ بنفخة الكبر وقال : أنا أفعل ، وأنا فعلت ، وأنا الذي فعلت بفلان كذا .

ومن العجيب أنه لا بد ما يتقيض له من يصدِّقه في دعاويه هذه الكاذبة ، ويشهد على كذبه في دعواه مع مخالفته لميزان الشرع ، بطلب الحرام المحض واعتقاد حِلِّه له خاصة دون بقية الأمة ، مع أن

أحكام الله كلها عامة لا يختص حُكْم لأحد دون أحد ، وفي هذا بَلِيَّتَان : إحداهما تُفَسِّقه ، وهو أكله الحرام ، والأخرى تُكَفِّره ، وهو اعتقاد حِل ما أجمعت الأمة على تحريمه .

وإنما المعروف من شأن الصالحين أنهم يزهدون في الحلال المحض الذي لا شبهة فيه ، زهداً في أمتعة الدنيا وتحرُّزاً عن الحرام ، وتقرُّباً إلى الله بذلك . كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه : « كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام » . وكل الصالحين على هذا الطريق ، فأين من يتمنى الحرام وكيف له بذلك ، ولعله يحصل له وَلِوَجْدِهِ عليه لو حصل ، فأين هو من هذه الطريقة السديدة التي هي طريقة الصالحين التي أسِّسَت عليها ، فكل من يدعي الصلاح قرنه بها . أعني طريقة تجنب الحرام والشُّبَه ، مع الزهد في الحلال إلا ما اضطر إليه .

فمن رأيته على هذه الطريقة السديدة فاعتَقِدْه وانْقَدْ له وقَبِّل أقدامه فضلاً عن يديه ، وأول ما تزن بها نفسك ، فإن رأيتها عليها ؛ فاحمد الله إذ وفَّقك لها ، ولا تعجب بنفسك فتكون كالمدَّعين ، بل إن كنت صادقاً ؛ فما يزيدك ذلك إلا تواضعاً وانكساراً ، ومن رأيته مائلاً عنها سيما إذا كان لا يتورع عن الحرام ؛ فانبذه وراءك كنبذك الأقذار في المزابل .

وأما ما دون مقام المقرَّبين فَذَكَر مرة في معناه أنه : « **من غَلَبَت حسناتُه سيئاته فهو من أصحاب اليمين ، ومن غَلَبَت سيئاته حسناته فهو من أصحاب الشمال ، ومن استَوَتْ حسناته وسيئاته فهو من أصحاب الأعراف ، يوقف فيها إلى حين ، ثم يؤمر به إلى الجنة** » ، ومراده بحسناته : يعني من الواجبات والمندوبات ، وبسيئاته : أي الصغائر ، بدليل نصه على الكبائر بالخصوص بقوله : « **ويَسْلَمون من الكبائر** »، فإذا نَصَّ على سلامتهم منها فما بقي سيئات إلا من الصغائر .

ومراده بداخل : القُرب . وبخارج : البُعد . يعني إذا فعلوا ذلك من طريق العامة كانوا قريبين من طريق الخاصة ، فهو دهليز لذلك وسُلَّم إليه ، كما أن الذي دخل الدهليز فقد دخل أول الدار ، ويوشك أن يدخل إلى داخلها ، ومن ارتقى السُّلَّم فيوشك أن يعلو السطح ، فهما أقرب من الذي لم يدخل الدهليز ولم يرتَقِ السُّلَّم ، ومن لم يفعل ذلك فهو بَعْدُ في بُعْدِه ، لم يقرب إلى الدنو .

وذكر أنه محال اجتماع الصلاح مع محبة الدنيا وجمعها ، وهذا في الحلال فكيف بالحرام ؟ فيدل هذا على كذب مدَّعي الصلاح مع الرغبة في الحرام ، فما يرغب فيه من له حظ عند الله تعالى ، فكيف يدعي الصلاح مع ذلك ؟ لكن يُخيِّل له الشيطان وهوى النفس أن تحليل ذلك له خاصة دون سائر الأمة ، وأحكام الله عامة للخاص والعام ولا يرتقي رتبة الخصوص حتى يُحكم رتبة العموم ، كما تقدَّم من قول سيدنا.

فأنَّى لهذا المدَّعي صحة ما ادَّعى ؟ فدَلَّ على كذبه ، فإن الشرط الأكبر الذي لا بد منه في حصول مقام الخواص عزوف النفس عن الدنيا وأموالها الحلال ، وأما الحرام فلا يخطر لهم في البال ، بحيث يستوي عنده وجودها وعدمها ، ولو تَلِفت من يده لا يتكدر خاطره من تلفها وذهابها ، كما حكينا عن سيدنا أحمد بن عمر الهندوان نفع الله به ، وإن كان لا يقدر على ذلك إلا الكُمَّل من الرجال مثله. ويحقِّق ذلك أن يقع له مثل ما وقع له ، وأن يغلب عليه حال بَرْد الرضا والتسليم عند ذلك، مثل ما وقع له ذلك ، وإلا فهو أمر باطني غيبي لا يعلم صدقه في ذلك من كذبه ، فإن صدق في ما بينه وبين الله ، وذلك ما يكون إلا بإرادة الله ، فعند ذلك يُمِدُّه سبحانه بالصلاح بصدقه ، ثم بَعْدَ ذلك إن قسم له بثروة من المال فوق ما قسم الله من الرزق كان ذلك في يده دون قلبه ، ويكون ما مقصوده من تركه في يده إلا ترصد ذوي الحاجات والضرورات ، ولا يرى أن نفسه أحق بذلك منهم ، بل يراها وهم فيه سواء ، بل يؤثر المضطر على نفسه ، ويتبيَّن ذلك عليه ظاهراً من أفعاله وأحواله ، لا دعوى بلا فعل .

فيا حبَّذا هذه الحالة إذا كَمُلَت وتمَّت على هذا الوصف ، فإن هذا شأن ووَصْف أفضل الخلق وأكملهم من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، وكُمَّل الأولياء والصالحين . وهو أيضاً وَصْفُ سيدنا ، وكما قال في شأن الصحابة : « **إن من تأمل أحوالهم بعد ما فتح الله عليهم من الفتوحات العظيمة ، وعلى كثرة ما في أيديهم من الدنيا ، رأى أن ما تعلقهم قط إلا بذِكْر الله ، ولا لهم هَمٌّ ولا شغل إلا بعبادة الله وما يقرِّبهم إليه ، والذي في أيديهم لا يرون أنهم أحق به من غيرهم ، وهو كأنه ليس لهم، ولا بينهم ولا بين غيرهم فيه مزية ، إلا بكونهم يتصرفون فيها فقط. وما الدنيا المذمومة إلا ما أشغل عن الله ، وما لم يشغل عنه فهو زاد الآخرة ، ما مقصدهم به إلا ترصُّد ذوي الحاجات** » ، أو كما قال في وصفهم .

ولكن أهل هذا المقام يودون مع خُلُو قلوبهم منها ، أن تخلو منها أيديهم أيضاً، ولو أن ذلك لا يضرهم ، ولكن لم يتفق ذلك إلا لآحاد منهم ، وما المذموم إلا محبتها معها أو دونها ، ومعها أشد بلاء وأنقص حظّاً ، ولا يجتمع ذلك مع الصلاح قط ، وهو الذي عناه سيدنا بقوله : « **وأهل الزمان يطلبون أن يكونوا صالحين مع جمع الدنيا ، ولا يصبح من ذلك شيء** » ، ومراده جمعها مع محبتها ، وأما إذا لم يحبها فما كان له بجَمْعِها من حاجة ، وإنما دعاه لجمعها نية خالصة لله ، من نية تَصَدُّقٍ أو صلة رحم أو قيام بحق جار وغير ذلك ، كما كان ناس من الصحابة رضي الله عنهم، يجلس أحدهم من الصبح إلى الليل يَسْنِي على ناضحٍ له ليحصل شيئاً يتصدَّق به ، لا لشيء يأكله فافهم .

ومن كان من أهل ذلك المقام الكامل يعطيهم الله بصيرة نافذة ، يعرفون بها من هو الأحق بالصدقة من غيره ، فقد يدَعون مَن ظاهره الفقر والحاجة ويعطون من ظاهره الغنى ، وإنما ذلك غنى النفس فلم

يسأل ، وهو المسمى في القرآن بالقانع ، والآخر المُلِح المُعْتَرّ .

فقد يكون من يردُّونه يُظْهِر الفقر والحاجة وعنده المال يخفيه لِيَتَزَيَّد ، كما ترى كثيراً ، فمثل ذلك الشح في حقه خير من العطاء ، كما ذكر في الإحياء أن سيدنا عمر رأى سائلاً يسأل الناس على البيوت، حتى جمع مخلاة فأخذها منه وقال له : « إنما أنت تاجر لا سائل من حاجة » ، ثم نَثَرَ مخلاته تحت إبل الصدقة .

والنبي ﷺ لما خلى قلبه من الدنيا ، طلب من الله أن تخلو منها يده أيضاً ، فأعطاه الله ما طلب وتمنى، فراودَتْهُ الجبال أن تنقلب له ذهباً فأباها بغضاً لها ، ثم بقي تمضي عليه ثلاثة الأهِلَّة في ثلاثة أشهر، ما يوقَد في بيته نار لطعام . فهذه الحالة التي اختارها النبي ﷺ لنفسه واختارها له ربه ، يرون أنها أفضل الحالات ، وطَلَبَها الأكثر من الصالحين ، وإنما حَصَلَت للبعض منهم لا للكل .

وأما من قلبه متعلّق بمحبة الدنيا وما لها وجاهها ، فلا تعده شيئاً أصلاً ، وإن ادَّعى شيئاً فدعواه باطلة ، يكذِّبها حاله ، ويتضح ذلك من أفعاله وأقواله هـ .

قال رضي الله عنه : « من تأمل أحوال أهل الزمان لم يَرَ معهم آخرة ولا دنيا ، لأن الآخرة إنما هي بالعمل الصالح وفعل الخير ، وهم لا يفعلون ذلك . والدنيا التي بأيديهم إنما هي مجرد وساوس وشغل في أبدانهم وقلوبهم ، يزيدون بسببها تلهفاً وشحًّا ، ومن كان معه شيء من أسباب الدنيا كعقار وتجارة، وكان قلبه متعلقاً بذلك ، فقد وقع في شبكة الشيطان ، فهو متمكن منه كما يطلب ، فلا يهتم به كثيراً، وإنما يهتم كثيراً في اقتناص المتجردين عنها ، وطلبهم ليوسوس لهم ويشغل بواطنهم وجوارحهم بالإهتمام بأمر الرزق والوسوسة فيه ، لأن هذا هو مراد الشيطان . وقد حصل له في الأولين وطلبه من الآخرين » .

قال رضي الله عنه : « الأمور الغيبية الإعتقادية كسؤال المَلَكَيْن ، حظ القلب منه التصديق والتسليم، ولا يطلع عليه إلا بواسطة النبوة فقط ، ولا يسأل عن كيفية ذلك وكيف تكون صفته ، فلا بَلَغَنَا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم أنه سأل عنه النبي ﷺ » هـ .

أقول : مراده أن الصحابة رضي الله عنهم سمعوا ذلك من النبي ﷺ فَقَبِلُوه منه وآمنوا به ونقلوه عنه ، وبلغوه إلى من نقله عنهم لمن بعدهم ، ولا يعلم حقيقة ذلك أحد غير النبي ﷺ ، وكان يمكنهم أن يسألوه ، وما يسأل عن مثل ذلك إلا المتعنت غير سليم القلب . وأما السليم القلب كالصحابة رضي الله عنهم فليس من شأنهم السؤال عن ذلك وأمثاله ، وكان يمكنهم أن يسالوه عنه فلم يفعلوا ، فلمّا إنهم لم يسألوه هم عنه فيلزم غيرهم أن يَقْبَلُوا ذلك وأمثاله كما قَبِلُوه ، ويؤمنوا به مثلهم ولا يسألوا عنه ، ولا يبحثوا عن كيفيته ، فلا أحد بعد النبي ﷺ يعلمه ، وما تركوا السؤال عنه إلا لأمر ، فيتركه كما تركوه ، وقد ورد أنه تُرَدُّ إليه روحه ، فيقعد جالساً سويًّا ويُسأل ويجيب ، فمن مُثَبَّت وغيره ، وأنه يسمع وَقْعَ نعالهم إذا رجعوا بعد دفنه .

وكل هذا حقيقة واقع لا شك فيه ويجب الإيمان به ، ولكن لا يعلم كيفية ذلك في هذا العالم ، وإنما أخبر النبي ﷺ بذلك عما هو كذلك في عالم الغيب ، من عالم البرزخ وغيره . والأقرب في تقريبه إلى الفهم أن يقال : عالم البرزخ : عالمٌ تَجَرَّدَت فيه الأرواح عن الأجسام وبقي هناك ، إنما الخطاب للروح روحاً مجرداً ، فالروح من أمرِ ربي ، لا يطَّلع الخلق على حقيقته ، وأحوال الروح لا يطَّلع عليها في عالم الأجسام ، وهو العالم الدنيوي ، ومن كان في ذلك العالم يعلم ما يقع فيه ، والإخبار عنه على ما هو صورة الواقع فيه ، وإن لم يطلع عليه في هذا العالم ، بحيث لو بحثتَ عليه ساعةَ يُسأل لا تراه إلا ميتاً كما وُضِع .

وكذلك إذا تجرَّد الروح في الدنيا عن مطالب الأجسام بمرة ، وغلب عليه عمل الأرواح كَكُمَّل الأولياء ، فقد يطَّلع على أحوال الميت في قبره ، ويسمع سؤاله وكلامه ، كما ذُكِرَ أن رجلاً من أشراف

الجوف - وهم حملة سلاح ولهم خلطة بالولاة - مر ببعض أولاد الحسين بن أبي بكر بن سالم ، وهو جالس مع جماعة خارج قبة جده الحسين ، فقال له : « لِمَ تركتم يا آل باعلوي الولاية لغيركم ، وأنتم أحق بها منهم ؟ » ، وكان هناك رجل مكاشف ، فسمع سيدنا الحسين من قبره يقول: « لو أردنا الولاية، لوليناها هذا الحمار » ، لحمارٍ كان مربوطاً بجانب القبة .

ورؤية سيدنا عبدالله للشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس نفع الله بهم ، ومحادثته معه ، وأعطاه الطريقة ، وهو أكبر شيوخه من أهل البرزخ ، وإعطائه الأمانة التي كان كثيراً ما يشير إليها ويقول : « **عندنا أمانة من الشيخ عبدالله بن أبي بكر لا يحملها إلا المهدي** » ، وغير ذلك .

ويَفْهم ذلك كل أهل البرزخ ، ولا يَفْهمه أحد من أهل الدنيا إلا بعض الخواص لأمرٍ يريده الله في الوقت الذي يريده ، والذي يسمع وقع النعال الروح ، وهو الذي يُسأل ، ولكن يُرَد إلى الجسم ويُقْعَد ويُسْأَل على صورة من هو في الدنيا دار التكليف ولو أنه لا يطلع عليه في الدنيا ، ويطلع عليه أهل البرزخ ، معروفٌ ذلك في حالهم التي هم عليها ، يعرف بعضهم شأن بعض ، حتى يسألون القادم عن الأحياء من أقاربهم ، جرياً معهم على صورة ما كانوا عليه في الدنيا ، التي جرى عليهم فيها التكليف حكمة بالغة .

وقد مثَّل الإمام الغزالي لمعرفة سؤال القبر مثالاً ، ليفهم العقل المعنى ، وليس المثال كالمِثْل ، المِثل: ما يشبه من كل الوجوه ، والمثال : ما يشبه من بعض الوجوه، فيقاس عليه الكل ، قال : لو كان في جنبك رجل نائم ، وهو يرى في رؤياه أنه يتقاتل مع آخر وبينهما نزاع كثير ، وأنت بجنبه لا ترى من ذلك شيئاً ، فكذلك الميت في قبره ، يُسأل ويُحاسَب وأنت بجنبه لا تطَّلع من أمره على شيء ، فيجب الإيمان به ولا يبحث ، وإذا مات الإنسان انقطعت علاقة جسمه عما كان يعتاده في حياته من كلام وعمل وغير ذلك كما ورد : « انقطع عمله بموته » ، وإن سمع منه كلام يقظة فهو كلام روحه مجرداً دون جسمه ، وإن رؤي بجسمه يتكلم فهو أن روحه تصوَّر بصورة جسمه وتكلَّم كذلك ، كما رأى كثير من الصالحين كثيراً من الصالحين يقظة، وكذلك ثَبَتَ أن كثيراً من الصالحين رأوا النبي ﷺ في اليقظة بجسمه .

ومنه رؤيته ﷺ للأنبياء بصورهم ليلة المعراج ، وخطابه معهم في اجتماعه معهم ، وكانوا جملة الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، والتِفَاته إليهم عن يمينه وقال : « معاشر الأنبياء ، بماذا بعثتم به ؟ » ، قالوا : « بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، ثم الْتَفَتَ إلى الذين عن يساره وقال لهم مثل ذلك ، وأجابوا كجواب أولئك ، قال : ثم قام أولئك الأنبياء يثنون على ربهم ، وذَكَرَ كل واحد منهم ما خَصَّه به ربه من الفضل ، فقال إبراهيم : « الحمد لله الذي جعلني خليلاً .. إلخ » . وقال

موسى : « الحمد لله الذي جعلني كليماً .. إلى آخر ما قال » ، وقال عيسى : « الحمد لله الذي جعلني عبده وكَلِمَته ألقاها إلى مريم وروح منه .. إلى آخر ما قال » ، فجعل النبي ﷺ يثني على ربه ويشكره مثلهم وقال : « الحمد لله الذي جعلني خاتم الأنبياء .. إلخ ما قال » ، والدليل على ذلك المعنى أنه بعد ما تكلم معهم وسألهم وأجابوه ، قال : « ثم قامت أرواح الأنبياء يثنون على ربهم، فقمت أنا أيضاً أثني على ربي » ، ثم ذَكَرَ ما خَصَّه الله به من المزايا ، فلما سمعوه قالوا: « بهذا فَضَلَكم محمد » .

ومراده بأرواح الأنبياء هؤلاء الذين خاطبهم وخاطبوه ، ثم جعلوا يثنون على ربهم ، فدَلَّ على أن تلك أرواحهم تصورت بصور أجسامهم .

وكذلك لما مَرَّ على قبر موسى عليه السلام سمعه يقول في قبره : « يا ربِّ أكرمتَهُ وفضَّلتَهُ وفعلتَ به كذا » ، فقال لجبريل : « من هذا ؟ » ، قال : « هذا موسى » ، قال : « أيعاتب ربه ؟ » ، قال : « قد عَلِمْتَ طبع موسى وحِدَّتِهِ » ، وإنما ذاك كلام روحه ، ثم إن الله سبحانه جعله خاصة من دون الأنبياء هو الذي تعرض للنبي ﷺ وأمره بسؤال تخفيف الصلاة ، قال العلماء : « وسبب تخصيصه بذلك ، أنه سأل الرؤية فما حصلت له ، فإنما هي مخصوصة في الدنيا برسول الله ﷺ ، فقيل له : تمتع برؤية من قد رأى » ، كما ذكر ذلك في المعراج .

والروح من عالم الملائكة ، يتصور بعد مفارقته للجسم لا قبله ، لانشغاله بتعلقه بالجسم ، كما تصور جبريل للنبي ﷺ بصورة الرجل الشديد بياض الثياب وأغلب ما يأتيه على صورة دحية الكلبي ، وما تصور له على صورته الأصلية التي خلقه الله عليها إلا مرتين : مرة في ابتداء الوحي ، ومرة ليلة المعراج، والملائكة خُلِقوا من نور ، والجن خُلِقوا من نار ، ويتصورن أيضاً ويتمثَّلون بصور آدميين وحيوانات ، فكذلك الأرواح ، وقال تعالى في الملائكة إذا تمثَّلوا أجساماً : ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وإلا فهم أرواح غيبية معنوية .

وقد سألت سيدنا : كيف وصفهم سبحانه بذلك وهم أرواح ؟ *فقال* : « **ذلك وَصْفهم إذا تمثلوا**»، وسمعت سيدنا يقول : « **ما دام الجسم موجوداً قبل يبلى ، فروحه يتعهده في بعض الأوقات تكون عنده ، فإذا بلي الجسم وفني ، صار الروح يتعهد موضعه ويأتيه في القبر في أوقات** » ، يعني كذا ورد في الحديث .

قال سيدنا : « **وأخبرني رجل صدوق أنه قال : حضر جنازة في بعض البلدان ، فلما وضعوه على حافة القبر فرُّوا عنه مرعوبين وتركوه ، فسألت بعضهم عن سبب ذلك فقال : جرت العادة عندنا في بلدنا**

أنّا إذا وضعنا الميت في قبره نسمع للقبر رجة تكاد القلوب تنخلع منها ، فَنَفِرُّ خوفاً منها » هـ .

أقول : فإذا سمعوها من بُعْد ، رجعوا إلى ميتهم فدفنوه .

قال رضي الله عنه : « **سمعنا فيما بلغنا ، أن أهل القبور يسمعون صوت الرعد ويخافون منه جدًّا ، يخشون أنه من مقدمات الساعة ، فإذا كان هذا صوت رحمته ، فكيف بصوت عذابه ؟** » .

قال : « **ولما سمعته ذكرت أحوال منكر ونكير عند سؤالهم** » .

قال رضي الله عنه : « **أمور الآخرة إنما هي على قدر المتكلم بها ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾** » ، *ثم قال* : « **يعني أنها عند الله تكون قريباً وإن بَعُدَت** » هـ .

أقول : ومن ذلك أن النبي ﷺ قال : « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين » ، وجمع بين السبابة والوسطى، أي معاً ثم انظر التفاوت ، والمعنى أن الأمر المحقَّق وقوعه بلا شك جائز الإخبار عنه بغاية التقريب، كما تقول : يقع غداً ، ويصح الإخبار عنه بأنه قد وقع ، ولا حرج في ذلك ، وهو من توسعات اللغة العربية ، كما قال تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، يعني القيامة .

وكان النبي ﷺ يقرِّب خروج الدجال ، حتى ظن الصحابة أنه سيخرج بين أظهرهم ، وكان خروج رسول الله ﷺ عند الأمم السالفة من أكبر علامات الساعة ويرون أنها لا تبقى بعد خروجه إلا قليلاً ، وكانوا يسمونه نبي الساعة من كثرة ما يسمعون عن الأنبياء والمرسلين عن الله سبحانه من تحقيق خروجه ، وتحقيق وقوعها بعده ، وتعظيم شؤونها وأحوالها وأهوالها، وقد عظم الله سبحانه أمرها حيث قال تعالى : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ① مَا ٱلْحَآقَّةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ③﴾ ، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ③ ﴾، ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ⑮ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ⑯ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ⑰ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ⑱ ﴾.

وقوله : « **على قدر المتكلم بها** » ، يعني أن الله سبحانه يخبر عن الساعة كأنها قريبة مدة أيام قليلة، ولو بَعُدَت في الواقع ، وذلك لِتَحَقُّق قُرب وقوعها ، لأن المتحقق وقوعه لا فرق بين أن يخبر عنه أنه قريب أو بعيد ، أو قد وقع ما أخبر به رسوله من أخبارها عن ربه ، وإذا ذكر الله تعالى أمراً وقال فيه : وما أدراك ما كذا، كما قال سبحانه : ﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، وهو تعظيم لشأن ذلك المذكور غاية التعظيم ، وتنويهاً لِذِكْرِ ما يقع في ذلك اليوم من الهول والكرب الشديد، حتى ذَكَرَ أنه مقدار ألف سنة من سِنِي الدنيا ، وفي آية خمسين ألف سنة ، واختلافه كذلك باختلاف أحوال الناس ، حتى ورد أنه يقصر على المؤمن حتى يكون بقدر مدة صلاة يؤديها من الخمس هـ .

قال رضي الله عنه : « **الله يستوفي مظالم العباد في الدنيا ، ثم يردف لهم أيضاً في الآخرة إذا وَرَدُوا عليه بتوبة** » ، وزار التربة بكرة يوم السبت ثامن عشر من شهر رمضان ، سنة ألف ومائة وخمس وعشرين ١١٢٥ ، *وقال رضي الله عنه* : « **سبحان الله ، أمر الآخرة عظيم ، ومن مات ما عاد أحد رد عنه خبراً ، ولم يُعلَم بحاله ، ولكن في كتاب الله وسنة رسوله كفاية ، بل لو بُعِثَ واحد من الأموات فأخبر بما قد رآه عياناً ، يحتمل أن يدخل فيه الشك ، وأما كتاب الله وسنة رسوله فلا يدخلها الشك بحال** » هـ .

أقول : يعني أن الخلق ما عَلِموا بأحوالهم بعد الموت ولا في الآخرة إلا بما أعلمهم الله ورسوله به من ذلك ، فما جاء عن الله ورسوله منه لا شك فيه قطعاً ، وما جاء عن غير الله ورسوله إن وافق ذلك فقطعاً ، وما لم يوافقه فباطل قطعاً لا يُعتَد به .

ورأيت الأخ عوض بن صباح بعد موته بنحو سنة ، فقبضته ومسكت بتلابيبه وزَنْزرته ، وقلت له : أخبرني بما رأيت بعد الموت ، فقال : « ما أنا بمخبرك بكلمة » . وكان بيني وبينه مزاعلة ، وأراد أن يفتك مني فلم يقدر ، وعالجته في القول فأبى ، وعالجني في إطلاقه فأبيت ، فلما رأى أن لا علاج قال: « هو كما تسمعون في الكتب سواء » ، فأطلقته .

وكان سبب المزاعلة بيني وبينه ، أن السيد أحمد بن زين ختم البخاري ، فاجتمع مع سيدنا عبدالله وعيال سيدنا فقط في مجلس أنس وخلوة وبسط ، في ظل الضحوة في حوش بيت سيدنا عبدالله الشرقي، فختم الكتاب وأدير الطِّيب ثم القهوة ، فقال لي الحبيب : « **عَيِّن على دخول أول وقت الظهر ، فحين ما تتحقَّق دخول الوقت ، قم أذِّن** » ، فَنَصَبْتُ عُوداً وركزته قدام السيد أحمد ، فحين ما رأيت الظل زاد، قلت للسيد أحمد : أتحقق دخول الوقت ؟ قال : « نعم » ، فقمت وصعدت المئذنة في مصلى الحاوي وأذَّنت ، ولكنه قبل وقت أذان كل يوم بزمان طويل ، فأنا في الأذان فجاءني عوض المذكور ، وصاح علي وقال : « أتؤذن للناس وقت الضحى ؟ أتريدهم يصلون الظهر قبل وقتها ؟ » ، فتركته وهو يتكلم وسكتُّ عنه، ثم أمر الحبيب بإقامة الصلاة ، ثم قام وصلى بنا . ثم تفرَّق ذلك المجلس ، فلما كان وقت المغرب من ذلك اليوم ، مَرَّ عوض بماعون فيه ماء أتى به من البئر ليتوضأ به لصلاة المغرب ، وكان يمشي على دكة مرتفعة ، فزلت رجله فسقط وغشي عليه ، وحُمِلَ مغشيًّا عليه ، ثم بقي إلى ثلاثة أيام مغشيًّا عليه ، ثم مات في اليوم الثالث رحمه الله ، وبقي بزعله حتى بعد الموت هـ .

وذكر حديث : « اهتبلوا العفو عن عثرات ذوي المروءات » ، وفي رواية : « أقيلوا ذوي الهيئات العثرات » ، *قال* : « **معنى اهتبلوا : اغتنموا ، وهذا إذا كان ، إنما يعثر نادراً ، وأما إذا كثر منه العثار**

فليس من ذوي المروءات » ، ثم قال : « **فلا يقال كل حين »** .

قال رضي الله عنه : « **إني لم يُقْسَم لي من المراء والجدال حظ أبداً ، لأني ما أحبه وأكرهه بطبعي ، فلو أردته سُلِبته فنسيته في الحال »** هـ .

أقول : وهذا من خصوصياته ، بخلاف طبع الناس ، فليس كل أحد كذلك ، كما قال في وصفه صاحب « المشرع الروي » رحمه الله :

طُبِـعَ الأَنَامُ عَلَى الخِـلافِ وَطَبْعُهُ ... فِي النَّـاسِ مَسْـأَلَةٌ بِغَـيرِ خِـلافِ

كما قدَّمنا من قول شيخه فيه - الشيخ عمر العطاس - أنه قال : « إن السيد عبدالله ثوب طُوي ، نُشِر لأهل هذا الزمان » ، فنُقل إليه قوله فقال : « **لولا الأدب مع رسول الله ﷺ وأصحابه لقلت : أنا من أهل القرن الأول ، وما فيه إلا النبي وأصحابه ، لكنني من أهل القرن الثاني ، فهل تروني أشبه أهل الزمان أو يشبهوني ؟ »** .

قال رضي الله عنه : « **إذا فعل الإنسان ذنباً ، أو ما يعتذر منه بينه وبين الله ، فكلما أكثر الإعتذار من الله كان أحسن ، وإن فعل ما يعتذر منه بينه وبين الناس فلا ينبغي تكرير الإعتذار ، بل مرة واحدة إذا لم تؤد إلى زيادته »** هـ .

أقول : ومفهوم التقييد بواحدة مع الشرط المذكور ، أنه إذا أدت إلى ذلك فليترك .

وذُكِر له رجل شرس الطبع ، دعاه رجل يحبه فامتنع *فقال* : « **محاسن الأخلاق تحسن بها الأشياء وإن كانت قبيحة ، ومساويء الأخلاق تقبح بها الأشياء وإن كانت حسنة ، ومن أردته يجيك لتجبره وتؤنسه فاعتذر ، فاعرف أن له عذراً . ومن العجيب أن حَسَنَ الخلق يأكل حقَّ الناس وهم يحبونه ، وسيء الخلق يأكلون حقه ويكرهونه »** هـ .

أقول : ومعنى الأكل في الموضعين : الإنتفاع منهم ، وكونهم ينفعونه بالعطاء وقضاء الحاجة وغيره ، لا أنه إذا كان عنده لهم دَيْن يأكله عليهم ولا يوفِّيهم ، فإن ذلك مبغوض عند الله وعند خلقه ، وملوم طبعاً وشرعاً هـ .

وقال في مجلس آخر : « **والعجب أن حَسَنَ الخلق يأكل حقَّ الناس ويحبونه ، وسيء الخلق يأكلون**

حقَّه ويبغضونه » ﻫ .

أقول : لا شك أن الذي ينفع الناس أنه محبوبٌ ومحمودٌ شرعاً وطبعاً ، ولكن سيء الخلق ربما رؤي في وجهه عبوساً ، أو سمع منه كلاماً يصدر منه لسوء خلقه ، فهون عليه صنيعه وكرهه في خاطره ، أو رآه يمنُّ عليه بذلك ، وهو مُبطِل للمعروف كما قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، بخلاف حَسَن الخلق فإنه لا يفعل ذلك ﻫ .

وقال في مجلس آخر : « **وسيء الخلق ، هو الذي لا تزال تعطيه وترضيه وتترقاه فلم تبلغ رضاه ، ولم يزل خاطره متكدِّر عليك »** ﻫ .

أقول : وهذه الأمور لا تصدر إلا من سيء الخلق ، وهي علامة دالة عليه ، وهو الذي أشار إليه في الإعتذار كما تقدم ، إنك لو اعتذرت منه زاد غيظه ولجاجه ، وحسن الخلق بريء من ذلك ومن جميع هذه الأمور ﻫ .

وقال في مجلس آخر : « **وجميع ما قيل في حسن الخلق يرجع إلى سعة الصدر والإحتمال قيل : وبذل الندى وهو كل ما ينفع ، وكف الأذى وهو كل ما يتضرر به . وفي الإحياء : من صدر عنه ذلك بسهولة لا تكلف فيها فهو حسن الخلق ، فإن تكلف فيها فليس بحسن الخلق ، فإن صدر عنه ضدها فهو سيء الخلق »** .

وفي مجلس آخر مَرَّ علينا في الدرس ، في قراءة بعض من يقرأ حديث في ذِكْر حسن الخلق ، فَذَكَرَ سيدنا وَصْف من هو حسن الخلق ومن هو سيئه ، *فقال* : « **لأن سيء الخلق المعبس بوجهه يسيء إلى الناس ، وهو لا يحسب أنه يسيء إليهم. وحسن الخلق طلق الوجه يحسن إلى الناس ، وهو لا يظن أنه يحسن إليهم »** ﻫ .

أقول : معناه أن حسن الخلق ، ورؤية طلاقة وجهه وعذوبة منطقه ، تُطَيِّب خاطر السامع ، وفي الحديث : « الكلمة الطيبة صدقة والصدقة إحسان » ، ومفهومه أن الكلمة السيئة إساءة ، فإذا صَدَرَت هذه الأمور الحسنة من حَسَن الخلق طاب بها خاطر جليسه ، فحصل له منه هذا ونحوه ، وهو إحسان منه إليه وهو لا يشعر .

والإحسان ما طاب به الخاطر ، فإحسان حَسَن الخلق بلا شعور منه بذلك أنه يتبين عليه أثره من البشاشة وعذوبة المنطق والمساعدة في الأمور ، فَيَسْتَرّ بذلك من رآه أو سمعه ، فهذا إحسانه إليه وهو

لا يشعر بذلك ، وإساءة سيء الخلق إلى الناس وهو لا يشعر بعكس ذلك من الكلام الكريه المحزن وعبوس الوجه ، فيحزن بذلك من رآه أو سمعه . ومن المجرب أنك إذا رأيتَ طلق الوجه استَرَّ خاطرك ، وإذا رأيت كالح الوجه انقبض خاطرك ، وكفى بذلك شاهداً على ما قال هـ .

وقال رضي الله عنه لي يوماً : « **حَسِّن أخلاقك ، وعليك بسعة الأخلاق ، ففي سعة الأخلاق وفر الخلاق** » ، ثم قال وهو يبتسم : « **رح اعْطِ هذه الكلمة من يشرحها لك** » ، فمضيتُ بها إلى السيد الفاضل العلامة أحمد بن زين الحبشي رحمه الله ، فقال عليها - يعني في شرحها ومعناها - : « أمر رضي الله عنه بسعة الأخلاق، التي من ثمراتها طيب الكلام وبشاشة الوجه واعتدال الأمور ، ونَبَّهَ على أن في ذلك وسع النصيب والحظ في الدنيا والآخرة » ، انتهى . وأوقفته عليه ، فاستحسنه .

وذكر ما عَمَّ في الجهة من الإختلاف في أمور الدين والدنيا ، ومن المعاملات الفاسدة وفحش الربا والظلم بسبب هذه الفئة الباغية الطاغية فقال رضي الله عنه : « **ما عاد بقي قاضٍ منصوباً على أمر الشرع، ولا فتوى شرعية ، إنما هي أحكام البغاة تنفذ للضرورة ، إذ السلطان مقهور تحتهم لا يمكنه يتصرف معهم في شيء ، فيكاد يلحق الناس ضرر في معاملاتهم وأنحكتهم وغير ذلك ، فهذه أمور شرعية قد تَغَيَّرَت ، وتنفيذ هذه الأحكام إنما هو للضرورة ، وهذه أشياء لا يجوز الرضا بها ولا الصبر عليها ، ولولا أن هذه دار هجرتنا لخرجنا منها ، ولا لنا موضع هجرة إلا مرباط ، لكن ما يمكننا ذلك لأجل المكالف والصغار ونحوهم** » .

ومرة ذَكَرَ مثل هذا في مجلس غير هذا المجلس ، ثم قال : « **نحفظ عن بعض جداتنا ، عن أبيها أنه قال في مرض موته ، وكانت حاضرة عنده ، وتعتريه عند ذلك غيبات ، فقال في بعض غيباته : عادكم تقولون : يا حيًّا دولة الكثيري** » ، ومرة قال عن من نَقَلَ عنه هي أو غيرها ، أنه قال : « **يأتي على الناس زمان ما لهم مفر إلا ثمود** » ، أو كما قال .

وقوله : « **نحفظ عن بعض جدَّاتنا** » ، إلى هنا إنما كتبته من حفظي ، وإلا فما رأيته عندي منقولاً فأثبتُّه لمناسبة الكلام ، فمن حَفِظه عن قائله حِفظاً مُحَقَّقاً يخالف هذا ، وساعَدَهُ عليه غيرُه ممن سمعه أيضاً فَلْيُثْبِتْهُ بَدَلَ هذا هـ .

أقولُ : قوله : « **يكاد يلحق الناس ضرر** » ، إنما أتى بـ : « **يكاد** » ، وحرف المقاربة الدال على الشك مع تحقق الضرر ، لأنه جمع في قوله جَمْعٌ من المعاملات والأنكحة وغير ذلك ، وما باطل من الأنكحة

إلا في من كان وليها الحاكم أو القاضي ، وأما من لها ولي وزوَّجها وَلِيُّها فلا ضرر في ذلك .

وقوله : « **للضرورة** » ، يعني إذا لم يكن هناك حاكم يلجأ إليه في تنفيذ الأحكام فينفذ حكم من تعرَّض لذلك للضرورة كأحكام البغاة .

ويجب على الإنسان المهاجرة عن بلد هكذا شأنها مع القدرة وعدم العذر المانع ، فإن كان في بلد هجرة هاجر إليها من قبله من أجداده من أهل الخير والصلاح فلا يجوز له الخروج منها إلا إلى بلد هاجر إليها أيضاً آخر من أجداده من أهل الصلاح كحضرموت للسادة بني علوي ، لكن خرج جدُّهم الجامِع لهم محمد بن علي صاحب مرباط إلى مرباط ، فلهم الخروج إليها إن أمكن ، وهذا معنى قوله: « **ولولا أن هذه دار هجرتنا** » ، إلى قوله : « **ولا لنا موضع هجرة إلا مرباط** » .

وبعض جدَّاته التي ذكرها ، فهي : الحبابة الشريفة سلمى بنت السيد عمر بن أحمد المنفر ، وهي أم أبيه السيد علوي الحداد ، وأبوها القائل الذي حَضَرَتْ وفاته هو السيد عمر المذكور ، وهذه الجدَّة هي المراد بقوله : « **بعض جدَّاتنا** » ، حيث أطلق لفظها ، وهي جدَّته من جهة أبيه ، فإن كان جَدَّة له من جهة أمِّه قيَّدها فقال: جَدَّة لنا من آل الحبشي .

وقوله : « **يا حيًا دولة الكثيري** » ، هذا المعنى عام في كل جهة فيها حاكم ظالم مفسد يكرهونه ويتمنون زواله ، إذا زال وتولى غيره ، رأوا منه من الظلم والفساد ما يُحبِّبهم للأول ويبغِّضهم لهذا الأخير ، كما هو مشاهَد عياناً أيضاً في جهتنا وغيرها .

وإلى هذا المعنى يشير قول القائل :

رُبَّ يَـومٍ بَكَيْـتُ مِنْـه فلـمَّا ... صِرْتُ في غَيرِهِ بَكَيتُ عَلَيهِ

وقول الآخر :

تَـوَلَّى زَمَـانٌ لَعِبْنَـا بِـهِ ... وَهَذَا زَمَانٌ بِنَا يَلْعَبُ

وثمود : موضع معروف نحو الساحل .

والحاصل أن قوله : « **ولولا أن هذه دار هجرتنا لخرجنا منها .. إلخ** » ، مراده جهة حضرموت كلها ، يشمل تريم وغيرها من جهاتها ، كما ذَكَرْنَا من تَنَقُّل الشيخ أحمد بن عيسى وبَنِيه في جهاتها ، لأن جدَّهم الشيخ أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن الإمام جعفر الصادق ، جاء إليها فارًّا بِدِينه من الفتن التي وَقَعَتْ في العراق ، فإنها محل الفتن ، فخرج في نحو وقت فتنة الزِّنج ، حيث يقال : « ما لهم محل يختفون فيه إلا الغوص في الماء » . واشتدَّ ذلك الإمتحان على الأشراف حتى بِيْعَت الشريفة

بدرهمين - كذا ذُكِرَ في التواريخ - فخرج من البصرة سنة ٣١٧ ، وجعل يدوّر موضعاً يختفي فيه ، فكلما جاء موضعاً كجِدَّة والحرمين واليمن اشتهر وظهر ، حتى جاء إلى حضرموت فاختفى ، فقال : « هنا طاب لي المقام » .

وأول ماجاء إلى الهجرين ، وكانت بلد حصينة بشاهق جبل ، لكن رأى أن ماءها يؤتى من أسفلها من نهر جارٍ من عين تسمى « القزة » جنوبيها ، ومن شمالها ماء يسقط من جبل ، ويجتمع في موضع يسمى : [1]، فبعدما اشترى فيها أموالًا على نية التوطن ، تركها لأجل الماء ، ووهب الأموال لخادم له يسمى : « شويه » ، ونزل منها إلى أن أتى الحُسَيِّسَة ، فتوطَّنها إلى أن مات بها وقُبِرَ بأعلى جبلها، يصعد إليه نحو تسعين درجة في الجبل .

ثم توطَّن ولدُه عبدالله بلد بور ، ثم توطن ابنه علوي بن عبدالله - وهو الذي يُنسَبون إليه - بلد القارة ، ثم توطَّن أولادُه بيت جبير ، ويتسوَّقون في تريم إلى أن ولد الفقيه المقدم سنة ٥٧٤ ، وَوُلِد بها، وكانوا حاملين السلاح ، وهم مع ذلك مشتغلين بالعلم من الفقه والحديث وعلوم الآلات وغيرها، إلى أن نشأ الفقيه المقدم ، ثم أَتَتْهُ الخرقة من الشيخ أبي مدين من المغرب ، فَتَفَقَّرَ ورمى السلاح وكسر سيفه ودفنه في التراب وقال : « الفقر خير ، الفقر خير»، ثم تركوا جميعهم السلاح تبعاً له . وقال سيدنا عبدالله : « **اثنان لهم أكبر المنة على آل باعلوي : الشيخ أحمد بن عيسى خرج بهم من الفتن وفساد الدين من العراق ، والفقيه المقدم سَلَّمَهم من العمومية وحمل السلاح** » ، يعني إنما يحمل السلاح العوام ، فسَلَّمهم من مشابهتهم في حمل السلاح .

فلما استوطن الشيخ أحمد بن عيسى وذريته حضرموت وصارت دار هجرتهم كَرِهَ سيدنا لنفسه ولجميع السادة بني علوي الخروج منها ، وقال : « **لولا أن هذه دار هجرتنا لخرجنا منها** » ، لما وقع فيها من فتن الدين ، كالتي خَرَجَ بسببها جدُّهم الشيخ أحمد بن عيسى من العراق ، فلما استوطن الشيخ أحمد بن عيسى وذريته حضرموت ، وصارت دار هجرتهم ووطنهم ، فلهذا كَرِهَ سيدنا الخروج منها لِنَفْسِهِ ولغيره من السادة آل باعلوي .

وقد ورد النهي عن أن يخرج الرجل من دار هجرته ، لقول النبي ﷺ : « **اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد بن خولة، يرثى له أن توفي بمكة** » ، وذلك حيث خرج منها مهاجراً ، ثم إنه مات بها وهو معذور ، حيث أنه أتى مكة مع رسول الله ﷺ قافِلين من الحج في حجة الوداع يريدون المدينة ، فتوفي بها . فهكذا كان شأنه وعذره ، ومع ذلك يرثى له أن

---

(١) فراغ في الأصل بمقدار كلمة .

مات بها ، ولو قد صلحت مكة وصارت دار إسلام ، وكانت يوم هاجر وأمتها دار كفر ، فدل على أن الإنسان إذا هاجر من دار فساد لا يعود إليها وإن صلحت بعد ذلك ، فدعا لهم أن لا يردهم الله على أعقابهم. بمعنى إلى بلد خرجوا منها لله ، لما فيها من الكفر والمنكرات ، فإنهم خرجوا منها مهاجرين إلى الله ورسوله إلى المدينة المنورة فهي دار هجرتهم ، والخروج من دار الهجرة إلى بلد غير التي هاجر منها أهون ، والنهي فيها أخف من الرجوع إلى بلد هاجر منها . ولهذا هاجر الشيخ محمد بن علي إلى مرباط، ولم يرجع إلى البصرة ، من أجل أن جَدَّه الشيخ أحمد بن عيسى خرج منها مهاجراً ، فإنهم تركوها لله ، لما فيها مما يغضب الله ، فالرجوع إليها كما إذا رجع في عطيته ، فقد شَبَّهه رسول الله ﷺ بالكلب الذي يقيء ويرجع يأكل قيئه .

وخروج الشيخ محمد بن علي إلى مرباط لعذر أباح له ذلك ، فكان يتردد من ذمار إلى ظفار - يعني إلى مرباط - وكان يسير الراكب في خَفَارته من ذمار إلى ظفار، وكان يُطعِم أهل ستين بيتاً من الجن، فضلاً عن الإنس - وهذا يحقِّق ما قدَّمنا من كون الجن لهم مدن وبيوت على ظاهر الأرض، ولكن الله مخفيهم عنا لعدم طاقة خِلْقَتِنَا لمباشرة خِلْقَتِهِم مقابلة ومماسَّة إلا إن تشبَّهوا في صورنا ، ولا نعلم بأنهم من الجن لكونهم بصور شتى ، وذلك من لطف الله بنا ، وقال الله تعالى في شأن إبليس : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ، يعني أعوانه من الجن الذين هو منهم ، كما قال تعالى : ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، وسُمُّوا جِنًّا لاجتنانهم ، يعني لاستتارهم عنا ، وإلا فإنهم مخالطين بنا كما تقدم من قصة أبي بلقيس ، ولهذا ورد في ستر عورة أحدكم من الجن أن يقول: « بسم الله الذي لا إله إلا هو » ، وفي الحديث : « ستر عورة أحدكم من الجن أن يقول : بسم الله الذي لا إله إلا هو » ، يعني حين ما يخلع ثيابه لغسل ونحوه ، حيث إنهم يروننا ولا نراهم - فلما كان خروج الشيخ محمد بن علي إلى مرباط لعذرٍ أباح له ذلك ، والتي هاجروا منها البصرة ، فكان تَوَطّنه مرباط أهون من الرجوع إلى التي خرجوا منها التي هي البصرة ، وقد تركوها لله ، فلا ينبغي للإنسان أن يعود في شيء خرج منه لله كالمال مثلاً ، فكأن سيدنا عبدالله لم يَرَ جواز خروجِ أحد من السادة آل باعلوي من دار هجرتهم التي هي حضرموت قط إلا إلى مرباط فقط ، اقتداء بجدِّهم المذكور الجامع لجميعهم .

وقد خرج منهم ناس كثير إلى أماكن أُخَر كالهند وغيرها ، لأعذار عَرَضَت مما يتعلق بالمعاش دون المعاد الذي الكلام فيه . وقال سيدنا في هذا المعرض :

مَـا تَرِيـم غَـيرِ الوَطَـنْ إنَّ الإبِلْ تَهْوَى العَطَنْ

قال رضي الله عنه : « **لا تكلِّم من سكت عنك ، ولا توقِظ من غفل منك ، فربما ذلك يحركه بإيذائك.** كما يحكى أن رجلاً مَرَّ على جماعة من اللصوص ناموا حتى طلعت عليهم الشمس ، وتبدَّد على وجوههم التراب فرحمهم وقال : مساكين راح بهم النوم ، فمسح التراب عن وجوههم وأيقظهم ، فعَدَوا عليه وأخذوا ثيابه ، ثم أنشد حينئذ هذا البيت :

أيـا مُوقِـداً نـاراً لِغَـيرِكَ ضَوءُهَـا وَيَا حَاطِباً فِي غَيرِ حَبْلِكَ تَحْطُبُ

أقول : ويشير بذلك إلى أن الصواب عدم التعرض لأحد من أهل الزمان بنصيحة أو أمر أو نهي ولا بوجه من الوجوه إلا إن لَزِمَك شرعاً ، فإنهم ليسوا محلاً لشور بخير ولا نصيحة في مُسْتَحْسَن ، كما قال : « **لا يصلحون للإستعانة على فعل خير ولا على ترك شر** » ، فإنك ربما نصحت الرجل منهم وأريته الحق والصواب، وأشفقتَ عليه من الوقوع في المحذور ، فظن بك ظن السوء ، وعاد لك عدوًّا وخصماً وأبغضك ، وربما استفاد منك علماً وصار لك عدوًّا ، وقد جَرَّبنا ذلك ووقع لنا من ناس سادة وأخيار ، فما بالك بغيرهم ، وهذا مَثَلٌ مشهور شائع في جهة حضرموت في هذا المعنى ، يقولون : « لا تكن كمنبِّه اللصان » .

وقد سمعت سيدنا يقول : « **إن هذا الزمان هو المراد في الآية** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ **الآية** » ، وهو ظاهر من قول سيدنا أبي بكر في خطبته : « أيها الناس ، إنكم تحتجُّون بهذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ ، فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهنَّ عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يأخذ بعقابه » - وقال سيدنا: « **قوله تعالى** : ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، **ومن الهداية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» - ثم قال في خطبته : « فإذا رأيتم هوى مُتَّبعاً وشحًّا مطاعاً ، فحينئذ على الإنسان بخويصة نفسه» ، وكل ذلك ظاهر في هذا الوقت .

والبيت المذكور يشير إلى هذا المعنى فقوله : « **يا مُوقِداً ناراً** » ، أي باذلاً علمه ، وسماه ناراً لأنه لما بذله لمن لا يعمل به فصار عليه ناراً ، فلو عمل به لصار له نوراً .

قوله : « **لغيرك ضوءها** » ، سماه هنا ضوءاً ، يعني صار لمن قصد به وسمعه منه ولم يعمل به ناراً، وصار لغيرك الذي سمعه ولم يقصد به وعمل به ضوءاً ونوراً، فهذا خطاب للسامع ، وأما المتكلم بالعلم إذا لم يعمل به فآخر البيت خطاب له من قوله : « **يا حاطباً** » ، أي يا باذلاً للعلم مجتهداً في الإصلاح وطلب الثواب من الله ، « **في غير حبلك تحطب** » ، أي انتفع بعلمك من لم تقصده به ، وخاب منه من قصدته به ، وقصدنا حَبله ، لتعلم وتوقِن أنه ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا

مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

وسيأتي قوله رضي الله عنه : « **ما نحن مع الناس اليوم إلا بالعناية ، وأما الأسباب فقد أتينا منها بكل ممكن فما حصَّلنا منهم شيئاً** » ، يعني لما أكدت علينا فيهم المطالب والأسباب فما أفادت شيئاً، جَعَلْنا ننتظر فيهم العناية من الله تعالى ، فمن كانت له من الله سابقة خير مؤقتة بوقت ، جَعَلْنا ننتظر لهم حصولها بحضور وقتها ، يعني ننتظر لهم ومنهم جاذب العناية من الله سبحانه بالإقبال عليه والإعراض عن الدنيا فإنها القاطعة للخلق عن ربهم ، وكذلك عن كلِّ ما سوى الله ، كما ذكر ذلك في أول « رسالة المريد » ، بإعطاء الطريق ليجري عليها بالوصول إلى الله تعالى ، حتى يعرفه بكمال المعرفة الممكنة للخلق ، بقدر ما قسم له ، والناس يتفاوتون في هذا المقسوم من كاملٍ وأكمل ، كما يتفاوت المقسوم لهم حظ في المال من موسع وأوسع . ولذلك لما رأى هذا شأن الناس اليوم ، قال في بعض المجالس : « **إنما اكتفينا من الناس بالصحبة والإجتماع على عادة السلف ، كما يقال : فلان لَقِيَ فلاناً ، واجتمع بفلان** » .

أقُولُ : حتى إن رجلاً من أصحاب الجنيد اجتمع برجل أفضل منه في العلم والصلاح ، فَحَضَرَتْهُم بعض الصلوات ، فأراد صاحب الجنيد من الآخر أن يتقدَّم في الصلاة فأبى ، وقال : « تقدَّم أنت ، أنت لقيتَ الجنيد ، وقد جَلَسْتُ مع رجل من مشايخي في بيته كنت أقرأ عليه في الفقه فحَضَرَتْنَا صلاة الظهر ، فأردته يتقدم ، فأبى » ، وذكر قصة صاحب الجنيد هـ .

قال رضي الله عنهُ : « **إن الله يستوفي للصابرين على من ظَلَمَهم ، وإن صفحوا وعفوا عنهم في الظاهر ، لأن حقوق العباد شديدة ، وحقوق الله أسهل منها ، ولكن لا يعرف حقَّ الله من حقوق الناس إلا عالمٌ كبير** » هـ .

أقُولُ : مراده بالعالم الكبير : من له حظٌّ من العلم الباطن ، الذي يميِّز به بين حقوق الله وحظوظ النفس ، لا العالم الرسمي المملوك في قبضة نفسه ، فلا يميِّز بين الأمرَيْن ، فإن هذا ربما بسبب غلبة الهوى ، انقلبت عبادته عادة ، كزيارة الإخوان مثلاً ، بخلاف الأول فإن عاداته تنقلب بحسن النية عبادات ، ففرقٌ بينهما هـ .

قال رضي الله عنهُ : « **صاحب الحقيقة مستغرقٌ فيها ، وجميع عمله ومشهوده فيها ، وأكمل منه الجامع، يضع الحقيقة موضعها باعتبار ، ويضع الشريعة موضعها باعتبار آخر** » هـ .

أقول : يعني أن صاحب الحقيقة متعلِّق قلبه بالله ولا التفات له إلى ما سواه ، لا يرى نافعاً ولا ضارًّا إلا الله ، ولغلبة هذا الحال عليه لا يحزنه ما يحزن الناس عادة ، ولا يفرحه ما يفرح الناس ، وهذا حال صاحب مقام الفناء ، وأكمل منه صاحب مقام البقاء ، المشار إليه بقوله : « **الجامع .. إلخ** » ، أي الجامع بين الشريعة والحقيقة، فالشريعة في ظاهره والحقيقة في باطنه ، لا يخل بشيء بأحدهما في مجلسه ، فلا يعمل بالحقيقة في ظاهره ، وهو معنى قول سيدنا المتقدم : « **الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمنا لصاحبها وإذا لم تتبعها طرائق فإنما هي أخت الزندقة** » ، وقول السيد أحمد الهندوان : « من عمل بمجرد الحقيقة تزندق ، وإن عمل بها في باطنه وبالشريعة في ظاهره فقد عمل بالحقيقة أيضاً » .

قال رضي الله عنه : « **ومن طبيعة الإنسان الإستعلاء وطلب ما هو فوق قدره والتعدي لحده ، فلو زاد أدنى زيادة طاش لُبُّه إلى أزيد من ذلك ، ولو ارتفع نظره إلى خزانة الله لمات من الهيبة . كما ذُكِرَ أن بعض خلفاء بني العباس خرج متنكِّراً ، ودخل على بعض خُدَّامه فسقاه الخادم نبيذاً ، ثم قال له : من أنت ؟ فقال : أنا من عسكر الخليفة ، فسقاه ثانياً وقد حصل له منه نشوة ، فقال له هو : من أنا ؟ فقال : زعمتَ أنك من العسكر ، فقال : بل أنا مقدم العسكر ، فسقاه ثالثة فقال : من أنا ؟ قال : زعمتَ أنك مقدَّم العسكر ، قال : أنا الوزير ، فسقاه أيضاً فقال : أتدري من أنا ؟ قال : زعمتَ أنك الوزير ، قال: أنا الخليفة ، فقال له الخادم : قُمْ فاخرج عني لئلا تدَّعي النبوة أيضاً أو الربوبية . ولهذا ادَّعاها فرعون اللعين ، حيث رأى من قومه امتثال ما يقول ، وهل يدَّعي خَلْقَ السماوات أو الأرض ؟** » ﻫ .

أقول : ذَكَرَ سيدنا هذه القصة ، استشهاداً على طغيان الإنسان وعدم وقوفه عند حدِّه ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾، وهذا دليل قطعي على طغيانه ، إذا رأى الأمور تتأتى له وتساعده كما يريد ، فإذا رأى ذلك ادَّعى أكثر ، فإن رأى مساعدة له ادَّعى فوق ذلك ، وهكذا ولا حَدَّ لما يدَّعيه . حتى إن من المدَّعين من بلغت به الدعوى إلى أنه الإمام المهدي المنتظر ، ومنهم من ادَّعى أنه أفضل أهل زمانه ، وأنه متى ما قال للشيء كن فيكون ، وأن من غضب عليه مرض وقال : أنا فعلتُ به ذلك ، وإن مات بأجله قال : أنا قتلته . وغير ذلك مما يدل على سخافة عقولهم وعدم ديانتهم ، مع أَكْلِهِم الحرام الصريح ويدَّعون أنه حلال لهم خاصة دون سائر الأمة .

وأحكام الله كلها عامة لكل أحد من خاصٍّ وعام ، وإنما كل هذه دعاوي كاذبة وأماني باطلة ، سوَّلت لهم بها نفوسهم الأمارة بالسوء ، وغرَّهم بها الشيطان الرجيم ، تدل على سخافة عقولهم وقلة ديانتهم وتولُّعهم بمحبة الجاه والمال ، ولو بذلوا بعضه استجلاباً لذلك ، وللتلبيس على عقول المساعدين لهم ، ليحتجوا على اعتقادهم بما يرون من بذلهم ، رياء وسمعة وتورية ، بأن ذلك لِوَجْهِ الله كذباً

وزوراً ، فلو خصف من أول مرة ولم يوافقه أحد ، ولم تتأتَّ له الأمور ، لَوَقَفَ عند حدِّه وما قال أولاً ولم يزد عليه . لكن الغالب أنه لا يدَّعي هذه الدعاوي العريضة البغيضة إلا غريب لم يُعلَم بحاله ، فلهذا قد يساعده على ما يقول ويعتقِد صِدْقَ قوله بعضُ الناس من سَلِيمي القلوب ، الذين لا كيد ولا مكر في قلوبهم ، أو عامي غبي جاهل .

وأما أهل العقول الراجحة والقلوب العارفة ، فلا يلتفتون إلى أقوالهم الزائغة ولا صدَّقوا بدعاويهم الكاذبة التي قادتهم إليها النفس الأمارة بالسوء ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، ولهذا قال المشايخ : « لا تؤمَن النفس ، ولا ينبغي أن يكون طوع نفسه » ، وقال الإمام الغزالي في الأربعين الأصل : « لو كان زمام نفسه في ساجور كلب خير له من أن يكون طوع نفسه ، مهملاً باختياره، ولهذا اشترطوا أن يكون المريد مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل » ، ولهذا المعنى قال سيدنا : « **طريقتنا طريقة الإمامة** » ، أي يجب فيها كمال الإقتداء بلا اعتراض في ظاهر ولا في باطن ، قال : « **وهي طريقة مُظلِمة** » ، أي ظلماً لا يقاس بمقتضى العقل .

ومثَّل للداخِل فيها كالماشي في ظلمة لا يرى موضع قدمه ، قال : « **فيجب أن يسلِّم قياده لشيخه ، ولا يقول له : الطريق من هنا أو من هنا . فلو قال له مثلاً : رُحْ اجلس في السوق ، فيمتثل له ولا يقول، لو قال لي : اجلس في المسجد لكان أصوب، فربما رأى في نفسه كِبْراً فأراد أن يكسره منه ، فيمتثل ولا عليه** » ، انتهى ما قال .

فلذلك لا ينبغي أن يكره ما تكره النفس فإنه الصواب والحق ، وما تشتهيه هو الهوى الذي قال الله تعالى فيه : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾، وفي ما يخالف الهوى رياضة وتمرين للنفس على الصبر ، وهو مقام العامة ، فإن دام وتمرَّن عليه ارتقى إلى مقام الرضا ، وهو مقام الخواص الذي قال : « **لا يبلغه ولو عاش عمر نوح ، حتى يحكم مقام العامة أولاً** » ، قال القائل :

لا تَكْرَهِ المكْرُوهَ عِنْدَ نُزُولِهِ إنَّ الشَّـدَائِدَ لم تَـزَلْ مُتَبَايِنَـةْ
كَمْ نِعْمَةٍ لا تَسْتَقِلُّ بِشُكرِهَا لله في طَـيِّ المـكَارِهِ كَامِنَـةْ

قال رضي الله عنه في حديث : « ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » ، : « **يعني وسع المعرفة وحمل الأمانة ، وسع عِلْم لا جِرم ، والقلب لا يضيق بكثرة المعلومات وإن كثرت ، وإنما تضيق أماكن الفراغ بما يكون فيها من الأجرام** » .

قال رضي الله عنه : « اعْتَرِف بالعبودية لِرَبِّك ، فإن لم تعترف بها فإنها مكتوبة في ناصيتك ، ومن قال: هذا حقنا ومالنا . فقد أساء الأدب ، إذ لا مُلْك له . وقد قال تعالى : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، فلم ينسب لهم إلا الإستخلاف في الملك ، فمن أين له الملك وهو مملوك ؟ » هـ .

أقول : وهذا شأن وسيرة من كَمَّله الله ورقَّاه إلى كمال العبودية الذي هو مقام الخواص ، كما تقدَّم من قوله في شأن الصحابة رضي الله عنهم : « إن من تأمَّل أحوالهم بعد ما فتح الله عليهم من الفتوحات العظيمة ، فكثرت الأموال في أيديهم رأى أن ما همهم إلا ذِكْر الله ، وأن ما في أيديهم كأنه ليس لهم ، وما يرون أنهم أحق به من المحتاجين ، ويرون أنهم ليس في أيديهم منه إلا التصرف فيه » هـ .

وذُكِرَ له الفداء المعتاد في الجهة ، فذَمَّه وذمَّ المتعاطين له على هذا الوجه ثم قال : « اعمل للجاهل والعامي باليقين ، ولكن ارفَعْهُ عن الشك ، ودَعْهُ على ما هو عليه ولا تكلِّمه » .

ومرة قال : « إذا رأيت إنساناً يعمل شيئاً من أعمال الدِّين فاتركه عليه ولا تذكر له النية وإخلاصها، فإن فِعْله ذلك نية ، ولعله لا يعرف معنى إخلاص النية فيتكدَّر عليه الحال » .

ومرة قال : « إذا رأيتَ أحداً في هذا الوقت على أمر ، ولو مَالَ عن ما هو الأولى فاتركه عليه ما لم يكن حراماً ، لئلا يتجاوز منه إلى أسوء منه ، فإن هذه هي طبيعة أهل الزمان ، تأمرهم بالأولى فيفعلون خلافه ، وبالوسط والإعتدال في الأمور فيتعدونه إلى الإفراط والتفريط ، وربما كان الذي هو عليه أولاً مألوفاً له فلا يتجاوز فيه ، والثاني غير مألوف فيتجاوزه » هـ .

أقول : الفداء : هو عندهم أن يؤخذ للمريض كبش ويذبح ، ويسمونه : فداء . يعنون يفدونه به مما أصابه من مرض وغيره مما يضر به ، وإذا مرض أحد وطال به المرض قالوا : ما ذاك إلا حيث لم يُؤخَذ له فداء . ولم تجنح قلوبهم في ذلك إلى ما أُمر به من الصدقة ، وهو على هذه الكيفية من أفعال الجاهلية .

فقوله : « اعمل للجاهل والعامي باليقين .. إلخ » ، أي أعلمه بالأمر الشرعي من قول النبي ﷺ : « داووا مرضاكم بالصدقة » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لا يتعدى الصدقة » ، ونحو ذلك من الأحاديث الواردة في هذا المعنى ، وامْدَح له التصدُّق لوجه الله ومنافعه فذلك هو اليقين الذي أشار إليه ، فاذْكُر له تلك الأحاديث ورغِّبه في العمل بها لوجه الله ، بأن تأمره أن يتصدق به مخلصاً لله ، ويمتثل به أمر رسول الله ﷺ بالتداوي بالصدقة .

قوله : « وارْفَعْهُ عن الشك » ، أي عن أن يظن أن ذلك على ذلك الوجه الذي يعتاده الجهال على تلك السنة الفاسدة نافع ، فإن ذلك شكٌّ وجهلٌ وفِعلٌ جاهلي يضر ولا ينفع ، وإنما ينفع إذا نوى به

الصدقة الخالصة لوجه الله ، وأتبع النية العمل .

وقوله : « **ودَعْهُ على ما هو عليه** » ، أي إذا أَعْلَمْتَهُ بهذه المعاني ، وبَيَّنْتَ له وجه الصواب من الخطأ ورَغَّبْتَهُ في الصواب ونَهَيْتَهُ عن الخطأ ، فدَعْهُ على ما هو عليه من تربية الكبش أو غيره بقصد التصدق به لوجه الله ، وعلى قصد التداوي بالصدقة ، كما أمر رسول الله ﷺ لا على تلك النية الفاسدة الجاهلية .

فهذا معنى قوله : « **اعمل له باليقين وارْفَعْهُ عن الشك** » ، فاليقين ما أَمَرَ به الشرع مع إخلاص النية، والشك ما كان على تلك النية الفاسدة ، فإذا فعلت معه ذلك فقد رَفَعْتَهُ من الشك إلى اليقين . فانظر إلى عظم النية وموقعها من الدين ، ومنافعها للدين والدنيا ، فإن العمل واحد ، وإنما اختلف إلى حالة النفع والضر والصلاح والفساد بحسب النية .

قوله : « **يعمل شيئاً من أعمال الدين** » ، مما يُسَمَّى من أعمال الدين ، إلا إن فَعَله على قانون الشرع قاصداً به وجه الله ، فإذا كان كذلك فلا يحتاج مع ذلك إلى تفصيل بِذِكْرِ النية وتفصيلها ، فالإجمال فيه كافٍ عن التفصيل هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا أَعْوَزَكَ وجود الخير فلا يعوزك القرب منه ، بحيث تكون إليه أقرب من المنهمكين على الدنيا ، يباتون ويصبحون مهتمين بها ويعملون فيها ، وخُذْ من كل شيء بركته أحسنه ، والميسور لا يسقط بالمعسور ، وإذا كانت الغايات لا تُدْرَك ، فالقليل منها لا يُتْرَك » .

وقال في قوله تعالى : ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ : « أي ماء القناعة والزهد . والزاهد في الدنيا المتجرد عنها أخف تعباً وأكثر راحة من غيره ، إلا إن الضعيف اليقين إذا أرسل الله إليه نعمة على يد أحد من الخلق تعلَّق قلبه به ، ويرى أنه هو المحسن إليه ، ولا يمتد نظره إلى المحسن الحقيقي ، ولا ينفعك أحد إلا بعد أن يضع الله في قلبه ما وضع ، والحركة مع السلامة من مِنَّة الناس ما هي إلا بركة، إن لم يكن فيها إثم » هـ .

أقول : المراد بالزاهد ، من عَزَفَتْ نَفْسُهُ عن الدنيا بالكلية ، سواء كان في يده شيء منها أو خلت منه ، لا أن من خلت يده منها هو الزاهد ، ولكن الزاهد على هذا الوجه يود خلو اليد منها ، وقَلَّ أن يُوجَد اليوم كذلك ، والمراد الزهد في الحلال . والمدَّعون الصلاح اليوم يتمنون حصولها لهم ولو من حرام ، فأين هم والصلاح ؟

وقوله : « مِنَّة الناس » ، هذا إن تعلَّق قلبه بهم ، ورأى أنهم هم المحسنون إليه ، ولا يكون ذلك إلا ممن قلبه يتمنى حصولها ، وأما من عَزَفَتْ نَفْسُهُ عنها ، فلا يرى مُحسِناً إلا الله ، فلا مِنَّة لهم عليه ، كما ذُكِرَ عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، أنه قيل له : « جُبِلَت النفوس على حب من أحسن إليها »، فقال : « إنا لا نرى مُحسِناً إلا الله سبحانه » ، فكان قول من قال له جرياً على الغالب من أحوال الناس من محبة الدنيا ، فيرون من أنالهم منها شيئاً أنه محسن إليهم ، ويرون أن له مِنَّة عليهم. وقول الشيخ أبي الحسن إخبار عن نفسه ، وهو النادر من الأحوال ، ففي مشهده أن لا مِنَّة لأحد عليه ، بل يرى أن المِنَّة مجردة لله وحده . فكأن سيدنا يقول : من يرغب في الإحسان إليه ، ويرى الإحسان من الناس ويلتفت ويجنح بقلبه إليهم فهذا هو الذي لهم المِنَّة عليه ، فالحركة له أحسن ، ومن لا يرى محسناً إلا الله فلا مِنَّة لهم عليه ، فترك الحركة والإشتغال بما هو فيه من العبادة أحسن له .

وذكر ابن أبي جمرة : « أن بعض علماء المغرب كتب سؤالاً ودار به على جميع علماء المغرب ، وكلهم أحجموا عن الجواب عليه ، وهو : ما يقول علماء الإسلام هل يجب على الإنسان الإكتساب لنفسه أم لا ؟ فتوقفوا ، وقالوا : إن قلنا يجب، فإن أنبياء وأولياء لم يكتسبوا ، ولم نَقُل أنهم تركوا واجباً . وإن قُلْنا لم يجب، فإن أنبياء وأولياء قد اكتسبوا ولا نقول إنهم اشتغلوا بالدنيا عن الدين ، فآلوا بالسؤال إلى من قد نوَّر الله قلبه فأجاب بأن قال : إن كان قلبه مُقبِلاً على الله دائماً لا التفات له إلى سواه لحظة فيحرم عليه الإكتساب ، وإن اعترته فترةٌ ما وجب عليه الإكتساب . فأعجب كل العلماء جوابه » ، انتهى .

وقوله : « بعد أن يضع في قلبه ما وضع » ، من تميل القلب وجَذْبِهِ إلى فعلها ، إما لرغبة في ثواب أو لاستشفاء بها ، أو لِقَصْدِ دَفْع ضرر بها ، ونحو ذلك من أي غرض يعرض له .

وفي قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، أن تفسيرها في قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قال رضي الله عنه : « ينبغي للإنسان أن يحترز من كل ما تميل نفسه إليه جهده ، خوفاً من الوقوع في الحرام من نظر وغيره . وعلامة النظر بلا شهوة أن يكون كنظره إلى شجرة سواء ، فإن فرَّق فهو شهوة، والإنسان في هذا في تعب ، قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾» ، ثم قال : « أي مكابدة وجهد شديد ، مع الداعية له إلى المخالفة » .

وذَكَرَ الناس وأحوالهم ، فقال : « الناس فيهم ظلم ، منهم المرابي ، ومنهم تارك الزكاة ، ومنهم المخلِّط وغير ذلك ، وسواء لو تولى عليهم عادل أو ظالم ، فهم على حالهم » ، فقال له بعض الحاضرين: « يا سيدنا ، عاد الناس لهم بخت حيث كنتم بين أظهرهم ويرونكم » ، فقال : « عاد في الزوايا خبايا ، ولو لم يكن في الزوايا خبايا لَدُكْدِكَت بهم الأرض ، لكنهم إذا كثر الظلم والفساد يخرجون من ظهرانيهم إلى الفيافي والقفار ، يسيحون في الأرض ويستريحون منهم » .

فقلت : يا سيدنا ، هل هم في هذا الزمان قد قلوا عما كانوا عليه سابقاً ؟ فقال : « العدد المعلوم المذكور في كلام العلماء ، وهم أهل الدائرة لا ينقص ، وما كان خارجاً منه ينقص » هـ .

أقول : أفهم أن الرجل أراده بكلامه خاصة ، وأن سيدنا أراد بقوله : « في الزوايا خبايا ..إلخ» غيره، لقوله : « يخرجون من ظهرانيهم » ، وفي هذا تستُّر وعدم رؤية للنفس ، فإنه عمدة أهل الزوايا، وإخبارٌ منه عنهم أن الأولياء موجودون ، ولا تخلو الأرض منهم ، وإن فسد الزمان بفساد أهله وتغيرهم في أمور دينهم ودنياهم .

وذَكَرَ أحوال أهل الطريقة ، وقال : « قد يقع أمثال هذه الأشياء بعد قطع العلائق مع التجرد ، وما الأصل إلا العلم والعمل الصالح مع الإخلاص ، وإن حصل مع ذلك شيء من قطع العلائق والزهد في الدنيا لا بد ما يظهر له شيء ، وهي إنما هي من أمور الآخرة عُجِّلَت له في الدنيا » .

قال : « لا يَبْطُل الحق بالحق ، فالحق لا يُبْطِل الحق » .

وذَكَرَ نَقْلَ العلوم ، فقال : « ما كل ما نُقِل صحيح ، ولا كل ما لا يُنْقَل غير صحيح ، فالصحيح أكثر فيما نُقِل وما لم يُنقَل ، ومثل القصص فيها عبرة ، وفي قدرة الله تعالى سعة ، فَيَعْتَبِر بها ولا يَقْطَع بصحَّتِها إلا ما قَرَّر القرآن ، وأما إذا جاءتك روايات كثيرة عن جماعات كثيرة متضادة ولا يمكن جمعها فبماذا تأخذ ؟ » .

قال رضي الله عنه : « قلة العلم مع العمل يزكو على الكثير بلا عمل ، إلا أن العامل قليل ، فقد ذكر الشعراوي : أنه لم يزل الناس سابقاً ولاحقاً كثيري العلم قليلي العمل » .

قال : « الخير لا ينبغي التخاذل عنه ، بل التعاون فيه والمداومة عليه ، وإنما ينبغي ذلك - أي التخاذل - في الشر ، والعالم يستنبط ذلك من قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾» .

وقيل له : « فلان يريد يكلمك » ، وذلك وهو خارج لصلاة العصر يوم الخميس ٢٧ صفر سنة ١١٢٨، فقال : « للكلام وقت غير هذا ، وأما مع اجتماع القلب للصلاة فلا يحسن ، وما شرعت النوافل قبل الصلاة إلا ليحصل فيها اجتماع القلب على الله ، حتى يدخل الصلاة بحضور وإقبال على الله ، وقد كِدْتُ بالأمس أن أسهو في الصلاة ، لكون قد صافحني جماعة وأنا خارج إليها » ، فلما سمعت ذلك منه ، جَعَلتُ أرد عنه من أراد أن يصافحه وهو خارج إلى الصلاة ، فلما أحسَّ مني قال : « دَعْهُم ، فإنهم مأمورون بالإعتقاد والمحبة ، ونحن مقامون لهم في مقام النفع ، فكل منا ومنهم قائماً لما هو مطلوب منه » ، أو كما قال .

قال : « كَرِهَ بعضهم الدعاء بالبقاء لما يوهم ، ولكن في لغة العرب اصطلاحات ومجازات وإضافات، فيكون الكلام مطلقاً وعامًا ، وهو مُقَيَّد وخاص ، فمثل البقاء وإن كان مطلقاً فهو مُقَيَّد بمدة معروفة، وأكثر الأشياء اليوم حادثة ، فهذه الأدعية الطويلة العريضة في المكاتبات وغيرها لم تُذْكَر في مكاتبات النبي ﷺ والصحابة » .

وذَكَرَ أهل الفساد من الناس ، فقال : « كن من شياطين الجن في أمان ، والحذر كل الحذر من شياطين الإنس ، يفسدون ما صلح ، أحد منهم لأغراض ، وأحد لحسد ، ومن الناس من فيه ضعف ، وآخر فيه شهامة ، ولو خُيِّرتُ بين أحدهما أختارُ الأول » ، يعني لقربه من السلامة .

قال في حديث : « احفظ الله يحفظك» : « أصل أن تحفظ الله في أوامره ونواهيه وما له عليك من الحق ، يحفظك في كل شيء » .

وذكر البرد والحماميم المُتَّخَذَة للدفاء ، والجوابي وما يحرر فيها من الماء ، ثم تكلم إلى أن قال : « إن الله يستحيي أن ينزع النعمة من شاكر ، ولذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

بِأَنفُسِهِمْ﴾ » .

وذَكَرَ واقعة علي بن موسى حيث لم يضره الأسد ، فقال : « الكرامة وخوارق العادة لا تأخذ بها تجربة ، لا في نفسك ولا في غيرك ، فإن الله سبحانه يحب المضطرين ولا يحب المتكبرين ، والله تعالى إنما يقبل المخلصين ، واختلفوا في الإخلاص ما هو ؟ فقالوا : إنه ما لا للنفس فيه حظ . وهذا عزيز، وللنفس دسائس خفية ، حتى لو كان اثنان في مرتبة واحدة ، لدعت أحدهما نفسه في إزالة الآخر ، لينفرد وحده » .

وَذَكَرَ الكرامات ، فقال : « ينبغي أن يعرف الإنسان المخارج ، وهي ما هي كرامات مستمرة ، بل في بعض الأوقات ، وقد كان أبو تراب صاحب كرامات ، ولكنه إنما مات في البادية نَهَشَتْهُ السباع ، وكذلك قصة سهل التستري لما قال : سلوا السقا .. إلخ » .

قال : « إذا تَمَيَّزْتَ على أحد فَتَمَيَّزْ بالفضل لا باللسان ، ولكن الدنيا تغيَّرت ، ما عاد إلا تمسك بالأطراف » .

وتكلَّم في الأخدام والأهل ، وأنهم لا يُعتَمَد عليهم ، فقال : « هذا الزمان زمان منقوص في كل شيء ، ما عاد إلا من أعطاه الله في ولده أو خادمه خصلتين أو ثلاث ملاح ، يحمد الله على ذلك . وقد قال السيد أحمد الهندوان : إن رجلاً بقي يتكلم على ولده كثيراً ، ثم قال : هاه ؟ يعني ، ماذا أثَّر فيك الكلام ؟ فقال : دخل من ذي وخرج من ذي ، فقال أبوه : بركة ، أنا جعلته ألا ما دخل . وقيل لآخر : إن أولادك ما يخافون منك . فقال : وأنا ما أخاف منهم » ، ثم تكلم بمثل ذلك ، فقال : « أنتم إذا حدث حادث ، عليكم أولاً باللطف ثم أخبرونا بما وقع » .

وذَكَرَ خادماً له كثير النسيان ، فقال : « إنه ضعيف ومتعلِّق ، وإذا وصّيت الضعيف في حاجة فأعنه أو تحمل عنه » .

وقال رضي الله عنه : « إذا سألتَ الله شيئاً ، فاسأله أن يكون في أحسن أوقاته ، وقيِّد السؤال باللطف والعافية ، فقد سمع ابن مسعود رجلا يسأل التوبة فقال : هذا يسأل التوبة ، ولعل توبته في قطع يده ، فليسأل مع ذلك العافية . وسأل رجل من الله أن يحصل له كل يوم رغيفان ، ولم يسأل العافية ، فقَدَّرَ الله أن حُبِس ، وكان قد قام له بعض الناس كل يوم برغيفين ، فتذَكَّرَ بعد ذلك ، فسأل العافية فَفُكَّ من الحبس » .

قال رضي الله عنه : « إذا طلب الإمارة من لا يصلح لها ، يَدْعون عليه أهل الدوائر من الأولياء ، وقال البرزنجي : ما في آل باعلوي إلا أنهم يتركون بلدهم لغيرهم فإن السادة آل باعلوي ما سيَّبوا أمرهم إلا

بالفقر المجرد بقصدٍ منهم ، ولا هِمَّة لهم في شيء من الرئاسات وحظوظ الدنيا بل تركوها لغيرهم، حتى لو أن أحداً منهم طلب الأمارة أخرجه منها الباقون إن كان في الأحياء كفاية ، وإلا نزعه منها الأموات، وإن الحسين بن أبي بكر بن سالم لما قيل لأولاده : لم تتركون الولاية لغيركم؟ أشار بإصبعه من قبره إلى حمار كان مربوطاً بإزاء قبته وقال : لو أردنا أن نوليها هذا الحمار لفعلنا » ه .

أقول : قوله : « يَدْعون عليه أهل الدوائر » ، يعني من لا يصلح للإمارة ، خوفاً على تعطيل أحكام الله لإعتناء الأولياء بإقامة أحكام الله وحدوده أحياء وأمواتاً ، وأما من يصلح ويقيم الأحكام فهم يَدْعُون له أن يتولى ، ويدعون له بالإعانة والثبات ، كما ذَكَرَ سيدنا : « أن بعض ملوك آل كثير مع أن فيه ظلماً ، أغار على قوم وهم بنو نهد في سورهم - يعني بلدتهم ، تسمى السور من جهة الكسر من حضرموت - وما أغار عليهم إلا لأنهم كانوا لا يورِّثون البنت ، بِنِيَّةِ رَدْعِهم عن ذلك ، أو يستأصلهم بنية صحيحة ، فرأى بعض المكاشفين الخضر قابضاً بلجام فرسه يقوده إليهم » .

وقول البرزنجي : « يتركون بلدهم » ، أي ولايتها .

والمراد بالأحياء : يعني أهل الأحوال منهم ، ينزعونه عن الولاية بسيف الحال إن كان فيهم كفاية بالتصرف ، فإن فيهم من أعطي التصرف في الكون حيًّا وميتاً ، ومنهم حيًّا فقط ، فإن كان في الأحياء من أعطي التصرف في النَّصْب والعَزْل فَعَلَ ذلك - أي النَّصْب والعَزْل - وإن لم يكن فيهم من هو كذلك ، فَعَلَ ذلك الأموات ممن أُعطِي التصرف حيًّا وميتاً ، لا يخلون ممن هو على هذا القدم من أكابر السادة آل باعلوي ، لأنهم من أصلهم من سيدنا علي فمن بعده ما استقام لهم هذا المقام، ولا استقاموا له . حتى أن في وصية سيدنا الحسن لأخيه الحسين : « يا أخي ، إن هذا الأمر ما استقام لأبيك ولا لأخيك حتى يستقيم لك ، فلا أرى أن يجمع الله فينا النبوة والولاية ، فلا تتعب نفسك » .

وتأسَّسَ أمرهم على ذلك ، فلا يرضون أن أحداً منهم يهدم هذا البناء المؤسَّس المشيَّد على هذه القاعدة ، أرادوه وأراده الله لهم ، كما أراد جدُّهم النبي ﷺ الفقر وعدم الدنيا بعد أن راودته الجبال أن تنقلب له ذهباً فأباها ، فصار يبقى الثلاثة الأشهر لا يوقَد في بيته نار لطعام ، وفي هذا سِرّ المشابهة له ، والمتابعة التي من معانيها استحقاق الصلاة عليهم معه كلما صُلِّي عليه ، حتى سُمِّيت الصلاة عليه مع عدم الصلاة عليهم معه : « الصلاة البتراء » ، أي المقطوعة ، حيث قطعت عنهم معه ، وهو يحبها لهم معه ، فمن خالفه فقد خالفهم ، ولا يرضون لواحد منهم أن يخالف ذلك .

وما ذَكَرَ عن سيدنا الحسين بن أبي بكر بن سالم ، هو أنه ورد رجل من أشراف الجوف إلى عينات لزيارة الشيخ أبي بكر وذريته أحياء وموتى ، وكان أولئك الأشراف المذكورون أهل رئاسة وحمالة للسلاح ، فزار الشيخ أبي بكر ثم زار ابنه الحسين في قبته ، فرأى خارج القبة من أولاد الحسين جماعة ،

فقال لهم : « لم تتركون الولاية لغيركم ، وأنتم أحق بها منهم ؟ » ، وكان هناك بعض المكاشفين -لعله من آل الشيخ أبي بكر- فرأى الحسين أشار بإصبعه إلى الحمار المربوط بإزاء القبة ، وسمعه يقول : « لو أردنا أن نوليها هذا الحمار لَفَعَلْنا » ، يعني لكراهتنا لها وللتعرض لها ، فلا نحبها لنا ولا لغيرنا من الأخيار والأشراف حتى الحمار ، وهذا إشارة منه إلى المبالغة والإعراض عن التعرض للولاية بكل وجه . وعلى كل حال لعزة القيام بشروطها من إقامة كل الأحكام في هذا الزمان ، ولكن من يقوم بذلك فنشير به ، ولا نشير عليه خوفاً من الخطر ، كما قيل لسيدنا : « إن القاضي الفلاني قد توفي ، وهنا فلان يصلح لذلك ، ولا نرى غيره مثله في الورع والإحتياط » ، فقال : « **نعم ، نشير به ولا نشير عليه** »، فعرضوا ذلك عليه فأبى .

وأشراف الجوف ذرية لقتادة بن أبي عزيز حاكم مكة ، وذلك أن لقتادة ثلاثة أولاد ، أحدهم : جد هؤلاء الأشراف أشراف الجوف ، والجوف بلادهم ، وهي في ناحية صنعاء اليمن ، بينها وبينها نحو مسيرة ثلاثة أيام بالسير المعتدل . والآخر من أولاد قتادة : جد الأشراف الأئمة حكام اليمن . والثالث: جد أشراف مكة .

ومن أخبار الشريف أبي عزيز حاكم مكة المشرفة ، وهو قتادة بن إدريس بن عزيز الحسني أمير مكة المشرفة ، كان شيخاً مهيباً طوالاً عادلاً منصفاً ، نقمة على عبيد مكة والمفسدين ، والحاج في أيامه مطمئنون آمنون على أموالهم ونفوسهم ، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله ، ولا وطيء بساط الخليفة ولا غيره ، وتُحْمَل إليه في كل سنة من عداد الخِلَع والذهب ، وهو في داره بمكة وهو يقول: « أنا أحق بالخلافة » ، ولم يرتكب كبيرة ، كَتَبَ إليه الخليفة يستدعيه ويقول له : « أنت يا ابن العم والصاحب ، وقد بَلَغَتْنِي شهامتك وحِفْظك للحاج ، وعدلك وشرف نفسك وعِفَّتك ونزاهتك ، وقد أحبَبْتُ أن أراك وأشاهدك وأحسن إليك » ، فكتب إليه :

وَلِيْ كَـفٌّ ضِرْغَـامٍ أَذِلُّ بِبَطْشِـهَا ... وَأَشْرِي بِهَـا بَـينَ الـوَرَى وَأَبِيـعُ
تَظَـلُّ مُلُـوكُ الأَرْضِ تَلْثُـمُ ظَهْرَهَـا ... وَفِي وَسْـطِهَا لِلْمُجْدِبِـينَ رَبِيـعُ
أَأَجْعَلُهَـا تَحْـتَ الرَّجَـاءِ ثُـمَّ أَبْتَغِـي ... خَلَاصـاً بِهَـا إِنِّي إِذَنْ لَرَقِيـعُ
وَمَـا أَنَـا إلا المسـكُ فِي كُلِّ بُقْعَـةٍ ... يَضُـوعُ وَأَمَّـا عِنْدَكُـمْ فَيَضِيـعُ

وكانت وفاته بمكة في جماد الأولى سنة ٦١٠ ، انتهى من « حسن المحاضرة » للإمام السيوطي رحمه الله ونفعنا به .

وقول سيدنا الحسين خطابٌ في مقام الولاية ، يسمعه ويعيه من هو من أهله من أهل ذلك المقام ،

وهو وراء طَوْر العقل ، فالعقل لا يدركه ، كما رأى سيدُنا الشيخَ عبدالله بن أبي بكر العيدروس خرج له من قبره ، وصار خارج القبر وداخل التابوت ، ومَدَّ له يده وصافحه وأعطاه الطريق ، وهو أكبر مشايخه من أهل البرزخ، وأعطاه أمانة ، حتى إنه كثيراً ما نسمعه يقول : « **عندنا من الشيخ عبدالله بن أبي بكر أمانة لا يحملها إلا المهدي** » .

فإذا رآه وسمعه أهله أخبروا به ، فالمصدِّق به مؤمن ، وهو - أي التصديق به - ولاية صغرى ، كما قال الجنيد : « التصديق بعِلْمِنا ولاية ، فإذا مَنَّ الله على عبدٍ بمقام الولاية أدركه ، وتلك ولاية كبرى»، وتقدم قول سيدنا : « **إذا سمعتَ من بعض الأولياء شيئاً من الخوارق ، فإذا عجز عنها العقل يسعها الإيمان ، وابْقَ على تنزيهك لربك ، وانسب ذلك إلى القدرة** » ، وقال كما سيأتي : « **كلما بَعُد ما أخبر به الأولياء من المغيبات ، كان أعظم للكشف** » .

وإنما يحصل لهم الكشف في بعض الأحوال ، يعني يسع الإيمان هذه الخوارق وإن عجز عنها العقل ، كما يؤمن بالمحاسبة في القبر ، وما ذَكَرَ الشارع من أحوال الناس في البرزخ وإن عجز عنها العقل ، كما تقدَّم من قوله : « **إنها لا يعلم بأمرها ويطلع عليها إلا بواسطة النبوة لا غير** » .

والحالة التي يرى الأولياء فيها هذه الخوارق هي حالة الكشف التي تسمى السُّبات ، وإذا قد عرضت هذه سُمِّيت واقعة ، لأنها تعرض لهم وتقع في بعض الأوقات لا دائماً ، وربما لم تقع للولي في مدة عمره إلا مرة أو مرتين ، وقليل من تكثر له ، فنذكر بعض ذلك من كلامه لمناسبة الموضع ، وإلا فهو مذكور فيما سيأتي بأبسط من ذلك ، فَذَكَر سيدنا تلك الحال فقال : « **هي حالة تسمى السُّبات ، وهي مرتبة بين الوحي والحس ، لا ترتقي إلى درجة الوحي ، ولا تنزل إلى مرتبة الحس** » .

فقلت : وما صفة تلك الحالة ؟ فسكت متبسماً ثم قال : « **ما لم يكيِّفوه لا نكيِّفه نحن ، لأن ما كُيِّف نُزِّل ، فلأي شيء تُضرب الأمثال ؟ ما تُضرب إلا لمثل ذلك ، إذ ما كل كلام له جواب** » ، ثم تمثل بهذا البيت :

مَـا كُلُّ قَـولٍ لَـهُ جَـوَابٌ   جَوَابُ مَا لا يَحْسُنُ السُّكُوتُ

انتهى . وكتب إليَّ سيدنا وشيخنا السيد الأكرم الأفضل أحمد بن زين الحبشي باعلوي رحمه الله ونفعنا به كتاباً ، جواباً لكتاب كتبته له ، وفيه كلمات يتداولها الصوفية ، كل كلمة معها شرحها ، وشاهِدنا في الكلمة الأولى والبقية تبع لها ، ذَكَرَها في معرض الدعاء - وذلك منه من باب الإستئناس - وهي هذه : « رزقنا الله وإياك مما يَرِد على قلوب أوليائه من العالَم العلوي ، المسمى عندهم بالوقائع، وفتوح الحلاوة في الباطن ، وفتوح العبارة في الظاهر ، وفتوح المكاشفة والحرية ، الذي هو إقامة

حقوق العبودية ، ومنه المكر الذي هو إرداف النِّعم مع المخالفة ، وإبقاء الحال مع سوء الأدب ، وإظهار الآيات من غير أمر ، وتفَضَّل علينا برغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السِّر في الحق ورهبة الظاهر لتحقيق الوعيد ، ورهبة الباطن لغلبة العلم ، والثناء بما يلوح للأسرار الظاهرة، وَأَسْمَعَنا خطاب الحق من عالَم الأسرار ، وأرانا الأشياء بدلائل التوحيد وحضور القلب بتواتر البرهان، مع التحلِّي بأوصاف العبودة مع وجود التخلُّق بالمأمور ، والوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً ، الذي هو مكارم الأخلاق » ، انتهى .

ومن مكاتبة أخرى منه إلي : « من أحمد بن زين الحبشي ، إلى الشيخ المحب المحبوب أحمد بن عبدالكريم الأحسائي سلَّمه الله ، وجعله وإيانا نسخة لوح قلم العصر ، ونفس ومرآة عقل الوقت ، الإنسان الكامل عبدالله بن علوي الحداد ، وأمدَّنا جميعاً بإمداداته ، وحقَّقنا بحقائق علومه ، وجعلنا من نجومه ، وأفاض علينا من علومه » ، انتهى .

وقد قال سيدنا عبدالله رضيَ الله عنهُ : « **أهل الإشارة لهم نصيحة ، فإذا جئتهم فالْزَمْ الصدق والْزَمْ قولهم، فمن خالفهم فلا يلُم إلا نفسه** » .

وذَكَرَ هِمَّته في الحركة والسكون ، *وقال* : « **قد أقوم وأروح وأجي لأجل النشاط ولا أزحف – أي أتعب – والهمة المتعبة للبدن مؤلمة**

وَإِذَا كَانَـتِ النُّفُـوسُ كِبَـاراً ... تَعِبَـتْ فِي مُرَادِهَـا الأَجْسَـامُ

قال رضي الله عنهُ : « **ما كان من أمور الدنيا لا تتعلَّق به ، واتركه لغيرك من خادم ونحوه ، واشتغل أنت بأمور الدين . والأمور الإلهية وأمور السماء ملكوتية ، وإن كان فيها ملك ، لأنهاً ألَّا من قول : كن، وإن كان فيها مثل أنهار وغيرها من أمور الملك . وأما هذه العليا فهي ملك ، وما فيها كله من الملكي من الحرث وغيره ، وفيها الإحتياج إلى كثرة الأكل والمعاش ، وما أسفل منها إنما يحتاجون ألَا إلى قليل كالجن** » .

وذَكَرَ بعض السادة انتقل بالأمس ، *فقال* لرجل من جماعته : « **ما رأيته في الرؤيا ؟** » ، قال : «**لا**»، *فقال* : « **عجب ، من الأولين كانوا إذا رأى أحدهم الميت سأله عن حاله ، وعما لقي بعد الموت ، وهؤلاء، لو رآه فلا يرى إلَّا أنه في الحياة ، فكأن أولئك كانوا متعلِّقين بأمر الآخرة جدًّا ، على خلاف ما عليه هؤلاء** » .

قال : « **كان الناس فيهم نجابة حتى في الدنيا ، وسبب ذلك الفراغ ، فكم ممن لو تفرغ لجاء**

بعجائب ، وإنما غيَّر على هؤلاء كثرة تفرقهم وتشتُّتهم ، وأين فراغ الأولين ؟ » .

قال : « ما يحمل أحداً ويستره في هذه الدنيا إلا الصبر ، وفي الحديث : وفي الصبر على ما تكره خير كثير ، وكم من الضرر في فلتات اللسان ، والعاقل هو الذي يسع ، وهو الذي يصبر ، وأما النساء فلا يحتملن ذلك ، وبين عقولهن وألسنتهن برزخ » .

قال : « العافية هي ستر الإنسان وعليها المعول في طلب الدين والدنيا » .

قال : « ذي بالناس - أي عمَّال - يدبِّر الله لهم عقوبات ولا اعتبروا بها ، كما ترى وقع لآل باغوث، شردوا من بيوتهم وتركوها وتركوا بناتهم ، وكانت العقوبة لم يعاجل تعالى لهم بها ، ليعاجلوا بالمعاصي » .

قال : « الأشياء كلها ضعفت ، والأحوال ضعفت . والظاهر أن السبب في ذلك قرب الساعة ، وبقينا في الذين تسوقهم النار إلى المحشر ، من سقط أو عجز كيف يفعل ؟ يسير غيرهم ، ثم يلحقهم بهم بعد أو كيف ؟ وفي ما يعلم من الأخبار : أنها تسير معهم ، تبات حيث باتوا وتقيل حيث قالوا » .

قيل : « فهذه النار كيف تكون ؟ » ، قال : « أي شيء هذه ، هذه ألَّا نار إبراهيم، لو لم يجعلها الله برداً وسلاماً لبردت جداً حتى لم تنضج شيئاً ، وهي إلا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » .

قال : « إذا عرف الإنسان هذا العلم الوارد ، يعرف أن لله تعالى أسراراً غريبة لا يطلع عليها أحد ، فيقيس عليها ، ألا ترى تلك النار التي خرجت ليلة كذا » ، يعني في ٢٩ شهر ربيع الآخر سنة ١١١٦ ورؤيت في كل قرى حضرموت .

قال : « والنار التي تسوقهم تخرج من قعر عدن ، كما في الحديث : وتخرج من بئر في صيرة » .

أقول : وصيرة جبل في وسط عدن ، بينها وبين الساحل نحو رمية حجر ، وفيها البئر التي تخرج منها النار ، يراها الواقف في الساحل ، وكذلك نار الحجاز التي ظهرت في الزمن السابق .

ثم انجرَّ الكلام إلى ذِكْر نار الآخرة ، وأن أهل الجنة ينادون أهل النار ، وليس كل أهل الجنة ينادي أهل النار بل بعضهم ، ولا كل أهل النار ينادي أهل الجنة بل بعضهم ، وقال ابن عباس : « كأن بينهم كلام فيها » ، واشتهرت تلك النار، ورؤيت بكل قرى حضرموت ، وكثرت فيها أقوال شعرائها ، ومن ذلك قول السيد علوي باحسن قاضي الشحر :

وَفِي لَيْلَةِ السَّبْتِ رِيحٌ بَدَتْ   بِنَارٍ وَأَمْرٍ لَنَا مُرْهِبِ

فَقِيلَ : لماذا أَتَتْ ؟ قُلتُ : كي　　يَمِيزَ الخَبِيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ
تَرِيمٌ كَطَيْبَةَ مَعْنَىً أتى　　كَكِيرٍ كَمَا فِي حَدِيثِ النَّبِي
وَآيَةُ تَخْوِيفٌ جَا عَامُهَا　　وَلله سِرٌّ بِذَا فَاحْسُبِ

وزاد شيخنا السيد عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه بيتاً فقال :

وَتُطْفَأُ بِرَحْمَةِ رَبٍّ عَفَا　　وَزَادَ فَوَرِّخْ عَلى الأَنْسَبِ

وكتب بعدهما الأخ في الله عمر بن يوسف الشبامي :

إنَّ نَاراً قَدْ تَبَدَّتْ عِظَةً لِلنَّاظِرِ　　وَانْثَنَى مِن فِرَارِها بِفُؤَادٍ طَائِرِ
لَيْلَةَ السَّبْتِ تَرَاءَتْ في ظَلَامِ الكَافِرِ　　وَلِعِشْرِيْنَ وَتَسْعٍ مِنْ رَبِيعِ الآخِرِ
بِتَرِيمٍ شَاهَدُوهَا عَنْ دَلِيلٍ ظَاهِرِ　　عَامُهَا يَا صَاحِ أَرِّخْ « بِرَبِيعِ الآخِرِ »

قال رضي الله عنه : « إن الإنسان في أول أمره في حال صغره ، مجبور على كثرة الحركة ضرورة ، حتى قال بعضهم : لو أُمسِك الصبي عن الحركة لتقطّعت كبده ، فلم يزل في زيادة من عقله ، ونقص من حركته ، كلما ازداد عقلاً ازدادت حركته نقصاً ، حتى يبلغ اثنين وعشرين سنة ، وهذا بلوغ الأشد ، وآخر ما تنتهي إليه زيادة العقل ، ثم لم يَبْقَ بعد ذلك إلا التجارب ، وهي من زيادة العقل ، فيفهم أن ما يضره يضر غيره ، وما ينفعه ينفع غيره ، وما يكرهه يكرهه غيره ، وعلى هذا ، ويقال لذلك عقلاً ، حتى آخر العمر . ثم إذا بلغ الأربعين فقد استوى ، بمعنى أنه وقع له من التجارب في نفسه ما يقيس عليه غيره أيضاً ، وأكثر الأنبياء لم يُرسَل إلا بعد بلوغ الأشد والإستواء إلا ثلاثة : عيسى ويحيى ، وأوحي إلى يوسف بعد بلوغ الأشد وهو الإثنان والعشرون وقيل : الإستواء وهو الأربعون ، فلذلك قال تعالى في حق يوسف : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ولم يقل : واستوى ، وقال ذلك في حق موسى عليهما السلام » هـ .

أقول : قوله تعالى في حقِّ موسى بعد بلوغ الأمرين : بلوغ الأشد والإستواء ، على العادة في جميع الأنبياء ، وفي حقِّ يوسف بعد بلوغ أحدهما وهو بلوغ الأشد قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وهو النبوة ، ولم يقل : واستوى ، وفي حقِّ يحيى قبلهما معاً قال تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وفي حق عيسى رضيعاً ، كما أنطقه الله به حين وُلِدَ قبل أوان النطق وهو في المهد قال : ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾.

وإنما حكم بالتجارب عقلاً ، لأنه لا يعرف من نفسه ما يعرف من غيره ، فربما فيه عيب لا يعرفه من نفسه لمحبته لنفسه لا يطّلع على عيوبه ، فإذا رآه في غيره عرفه فتجنبه ، لئلا يراه غيره مُتَّصفاً به فينكره عليه ، كما أنكره هو من غيره .

وقد مثل سيدنا لذلك فقال : « لو رمى أحد في ثوبك نخامة استقذرتها ، ولم تستقذرها من نفسك، كذلك تطلع على عيوب غيرك ولم تطلع على عيوبك .

وَعَينُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَينَ السُّخْطِ تُبدِي المَسَاوِيا

فلما رضي عن نفسه لم يَرَ عيوبها ، ورأى كل ما منها حسناً ، فرأى عقله من أكمل العقول ولو كان ناقصاً ، ولم يقنع برزقه حيث كل ما كثر كان أوفر لحظها ، ولم يرضَ لها بالحق ، وهو القدر الذي يعينه على عبادة الله ويقنع به ، حتى يذل نفسه في طلب الزائد اتباعاً لهواها وجهلها ، وفي الحديث : « المؤمن مرآة المؤمن » ، يعني يعرف فيه ما فيه هو من العيوب ، كما يرى ما في وجهه في المرآة ، كما في الحديث:

« يُبصِر أحدكم القذاة في عين أخيه ، ولا يُبصِر الجِذْع في نفسه » ، وذلك كناية عن الصغير والكبير من الذنوب .

وأما حركة الصغير ، فقال *يوماً* : « **الصغير ما تَرَكَ الحركة وهو في بطن أمه ، أَفَيَتْركها بعد ذلك ؟ إلا حتى يبلغ ما ذُكِر . وذُكِرَ أن رجلاً رأى ابنه كثير اللعب والحركة ولم يركد بسبب ذلك عند المعلم لقراءة القرآن ، فقبضه وجاء به إلى بعض الصالحين وقال له : امسح على صدره وادْعُ له ، لعل الله يرغِّبه في قراءة القرآن ، وينزع من قلبه محبة اللعب . ففكه من يد أبيه ثم أطلقه وقال له : رُح العب . فقال أبوه : كيف هذا يا شيخ ؟ قال : دَعْه يفرغ ما في جرابه الآن من اللعب ، ما زال في أوانه ويليق به ، فإن حَبَسْتَهُ الآن عنه ، رجع تطلبه نفسه إذا كبر ، فيفعله حينئذ في غير أوانه ، وحيث لا يليق به ذلك** » ، ويشهد لما ذَكَرَ من زيادة العقل بالتجارب قول سيدنا علي كرم الله وجهه :

العَقْـلُ عَقْـلان : مَطْبُـوعٌ وَمَسْـمُـوع وَلا يَنْفَعُ مَطْبُوع إذا لم يَكُ مَسْمُوع

والمطبوع : ما كان قبل اثنين وعشرين ، من حين يميِّز من سبع سنين ونحوها، والمسموع : ما كان بعد ذلك ، لكن انتهاء ذلك إلى الإستواء وهو غايته وقوَّته ، وبعده إلى آخر العمر هو زيادته وانتهاؤه .

وقول النظم : « ولا خير في مطبوع إذا لم يك مسموع » ، يعني لو بَقِيَ على عقله المطبوع ، بأن لم يخالط أحداً ولم يجرِّب الأمور ، كان عقله ذلك ناقصاً لا خير فيه ، دون الآخر إذ به كماله وتمامه . وفي ذلك دليل على أن المسموع وهو التجارب ، وهو ممارسة الأمور أفضل من المطبوع ، لما يستند إليه من الدلائل من الكتاب والسنة والدلائل العقلية ، والوقائع الجارية بالممارسة والتجربة من دلائل العقل والنقل، ودون ذلك حال المجنون والأحمق ، ودون أحدهما لا يثبت به حُكم ، وبهما معاً يثبت الحُكْم ، وينبني عليه العمل ويترتب عليه الجزاء . وقد قال في بعض المجالس وسيأتي : « **العاقل صحيح القصد والعمل ، والأحمق صحيح القصد فاسد العمل ، والمجنون فاسد القصد والعمل** » هـ .

قال : « الأدب والإنتفاع على قدر المتأدِّب والمتأدَّب به ، وإذا كان الوعاء ملآن يطرحون له في أيش ؟ ونحن أصحابنا مؤدبون بتأديب إلهي ، بسبب الغربة والإنقباض ، ولولا أن الله جعل فينا هيبة لابتذلنا الناس » ، ثم ذَكَرَ قصة الذي صحب الإمام مالك عشرين سنة ، سبعة عشر سنة منها في الأدب ، وثلاثاً في العلم ، ثم قال : « ليتني جعلتها كلها في الأدب » : « وما كل أحد يعرف الأدب ، وكيف يتأدَّب ، فإن الناس فيهم جهَّال وفيهم بدو وغير ذلك ، أما سَمِعْتَ خبر العاطس بحضرة النبي ﷺ ، فقال : السلام عليك يا رسول الله . فقال له عليه الصلاة والسلام : عليك وعلى أمك . والذي قال له : علِّم فلان الإستئذان ، وعلم آخر كيفية رد السلام . وما كل أحد يُعفى عنه سوء الأدب » هـ .

أقول : قوله : « يطرحون له في أيش ؟ » ، سمعت يوماً رجلاً يقول لسيدنا : « يا سيدنا ، اليوم لي سبعون سنة أتردد إلى مجالسكم ، ولي فيكم محبة وعقيدة ، ولا عُرِفَ لي بكم اتصال ولا نسبة » ، فقال له : « أَوَ أَجْعَل فيك ما ليس فيك ؟ إنما الأولياء مهيِّئون ما جعله الله في العبد ، لا أن يجعلوا فيه ما ليس فيه ، قال النبي ﷺ : إنما أنا قاسم والله المعطي » ، وستأتي قصة هذا الرجل بتمامها .

وقوله أول هذه المقالة : « الأدب والإنتفاع .. إلخ » ، يعني بكمال الشيخ والطالب وأدبه يكمل العطاء من الله سبحانه الذي وقفه على ذلك ، وأما إذا حصل الوهب والجذب من الله سبحانه وكمال العطاء مطلقاً فلا يتوقف على شيء ، فكم من قاطع طريق وشرَّاب خمر وغير ذلك حصل له نفحة من الله في وقتها الذي وُقِّتَ به ، كما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها » .

وصاحب الإمام مالك هذا ، هو يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، الذي روى عنه الموطأ ، وروايته الموطأ أصح الروايات عنه وأشهرها عند علماء المالكية ، ومن عجيب أمره : أنه أُتي إلى المدينة بفيل في وقت الإمام مالك ، وكان أصحابه إذ ذاك مجتمعين بحضرته ، فذهبوا كلهم ينظرون إليه ويتعجبون من عجيب خلقته ، وما بقي منهم إلا يحيى المذكور ، فقال له الإمام : « لِمَ لا رُحْتَ مع أصحابك تنظر إلى الفيل ؟ » ، فقال : « إنما جئت للنظر إلى وجهك لا إلى الفيل » ، واستحسن حاله وعجب من أمره وحظي عنده ، وأقْرَأه الموطأ . أعني أمره بقراءته عليه وأجازه فيه ورواه ونقله عنه .

وقصتهم هذه في انفضاضهم إلى رؤية الفيل ، شبيهة بانفضاض من انفضَّ إلى رؤية القافلة المُقْبِلَة من الشام بالميرة ، وكانت المدينة إذ ذاك مسنتة ، وكان دخولها وقت صلاة النبي ﷺ الجمعة ، فنزلت في ذلك هذه الآية : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

واختلفوا في قَدْرِ من بقي لسماع الخطبة والصلاة، فروي ثلاثة وأخذ به الحنفية، فَجَوَّزُوا صلاة الجمعة بثلاثة ، ورُوِيَ : ثلاثة عشر ، وأخذ به المالكية فجوَّزُوها بقدرهم ، وروي : أربعون ، وأخذ به الشافعية والحنابلة فلم يجوِّزوها بدونهم مع ما اشترطوا فيهم من الشروط .

والذي جاء في تشميت العاطس لمَّا عطس في حضرة النبي ﷺ فقال : « السلام عليك يا رسول الله » ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « وعليك وعلى أمك » . يعني ليس هكذا يقول العاطس إذا عطس ، بل يقول : « الحمد لله » ، ويشمت بقول: « يرحمكم الله » .

والذي أمره أن يعلِّم الداخل الإستئذان لما رآه وقف ولم يستأذن ، فأمر بتعليمه أن يقول : « السلام عليكم أأدخل ؟ » ، ولما روى أبوهريرة لسيدنا عمر حديث الإستئذان قال له : « ائتني معك بشاهِد وإلا أوجعتك ضرباً » ، فاستشهد معه جابراً .

والذي علَّمه رد السلام لما دخل قال : « عليك السلام يا رسول الله » ، فعَلَّمه كيف ذلك بأن يرد السلام إذا دخل ، ثم المحاياة بعد ذلك .

وكل ذلك تأديبٌ منه لأُمَّتِهِ ﷺ وتعليم لهم .

ويشير سيدنا بقوله هذا إلى أن الإنتفاع على قَدْرِ حسن الأدب ، فمَن قَلَّ أدبه قَلَّ انتفاعه ، ومن لا أدب له لا انتفاع له ، وذلك على الوجه الذي قدَّمنا .

وقوله : « **ما كل أحد يُعفى عنه سوء الأدب** » ، يدل عليه ، يعني أن الأدب متعيِّن على كل من سلك على أيدي المشايخ ، إلى أن يمنّ الله عليه بما أراد له من الواهب ، وهو المجذوب بعد السلوك ، وأما من وهب قبل السلوك ثم سلك وهو المجذوب قبل السلوك فلا يتوقف على شيء ، لكن إذا سلك يعرف أدب كل مرتبة من مراتب السلوك هـ .

قال رضي الله عنه : « **الصالح الحي فيه خصوصية وبشرية ، وربما غَلَبَتْ إحداهما الأخرى ، وخصوصاً في هذا الزمان تغلب البشرية ، والميت ما فيه إلا خصوصية فقط** » هـ .

أقول : ومقتضى هذا أن فائدة زيارة الصالح الحي أبلغ في الإنتفاع من الميت لمشابهته للزائر في البشرية، فيستمد بواسطة مشابهته له في البشرية خصوصية من خصوصيته ، والخصوصية تظهر للخواص فتكمل عقيدتهم وتقوى فيكمل انتفاعهم ، والبشرية تظهر للعوام فتضعف عقيدتهم وتضمحل فيقل انتفاعهم أو ينقطع ، فإنه يراه يتعاطى ما يتعاطاه العامة من العوائد ، كأكلٍ وشربٍ ونومٍ وغير ذلك ، ولذلك نهوا عن مجالسة المريد للشيخ خوفاً عليه من تغيُّر العقيدة ، مما يراه معه من تعاطِي العوائد ، ولذلك قال : « **من لم يطلع على خاصية النبوة** ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ **الآية ، حتى أن الشيخ أبابكر بن سالم ما ترك السيد يوسف الفاسي يجالسه إلا في ثلاثة مجالس ، مع أنه كُوشِفَ به وكان يترجَّى مجيه** » .

وكاشف السيد يوسف كثير من أولياء المغرب بإخبارهم له به ، وأن له شيخاً لا يعلمه ، يعنون به الشيخ أبابكر ، فكان السيد يوسف يتفحص عنه كثيراً ، وكلما سمع بوليٍّ في بلد من بلدان المغرب قَصَدَهُ رجاء أنه هو ، حتى جمعته المقادير به ، فصار يغيِّبه عنه حتى لم يَدَعْهُ يجتمع به إلا ثلاث مرات ، آخرها التي توفي الشيخ أبوبكر ورأسه على فخذيه ، كما مَرَّ تفصيله نَقْلاً من كتاب رحلته .

وأما إذا تجردت الخاصية عن البشرية في الصالح الحي ، فانتفاعه بزيارة الصالح الميت في بعض الأوقات والأحوال أكثر انتفاعاً ، كزيارة سيدنا عبدالله للشيخ عبدالله العيدروس ، لما رآه في زيارته وحصل له معه تلك الواقعة المشار إليها فيما تقدم هـ .

قال : « **يُقال في زيارة القبور نُجْحٌ لما تَعَسَّر من الأمور** » ، **قال** : « **مات العلم في الصدور والسطور في هذا الزمان ، لأن أهله لا يطلب واحدهم منه ما يلزمه في حقه وفي حق المتعلِّقين به** » .

أقول : يعني أن العمل بالعلم كالمذاكرة فيه ، بل إنه يحيا به العلم ويبقى في الحفظ ، وهو حفظه في الصدور ، ثم مع ذلك يراجع له في الكتب مراجعتها لأجله ليعمل به ، فإذا تُرِكَت الكتب فلا تُراجع فهو موته منها ، وإذا خلت من العمل به نسي ، وهذا موته في الصدور ، وهذه الكلمة من جوامع كلمه نفع الله به .

ومَرَّ في الدرس حديث : « لو لم تُذنِبوا لخلق الله قوماً يُذنِبون فيستغفرون فيغفر لهم » ، **فقال** :

« يعني أنك لا تتقصَّد ذلك ولا تنكر وجوده في الكون ، فلله فيه حِكَم ولو لم يكن من الحِكَم في ذلك إلا ليكون الناس درجات بعضهم فوق بعض ، ومن أنكر وجوده أو تقصَّد فعله فهو عاصٍ فاسق ، وهو كمن يتقصَّد شرب السُّم » هـ .

أقول : وفي هذا المعنى غموض شديد جداً ، ولشدة غموضه سأل الأنبياء الثلاثة ربهم عنه فلم يُجِبهُم بأكثر من قوله : « لا أُسأَل عما أفعل » ، كما سيأتي ذلك عن نقل الإمام السيوطي في « التفسير بالمأثور » ، ومن فوائده ظهور كَرَمِه سبحانه عمَّن عفا عنه ، وظهور بطشه وانتقامه بمن عذَّبه على ذنوبه على حسب ما أراد ، إما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ، كما قال تعالى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ، أي في الدنيا ، ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾، أي في الآخرة ، لأنه دائم والآخر منقطع، وبتلك الحالتين تظهر صِفَتا الفضل والقهر ، وهما من صفات الملك القاهر، فيبقى العِباد بذلك على وَجَلٍ بين الرجاء والخوف ، وهما من صفات العبد الذليل بين يدي الملك الجليل هـ .

قال رضي الله عنه : « **الإعتماد على المقادير بدعة ، والإعتماد على الأسباب بدعة ، بل لا بد منهما** » هـ .

أقول : الإعتماد على أحدهما دون الأخرى بدعة ، فمن اعتمد على المقادير دون الأسباب بأن ترك الأسباب فهو جبري تاركٌ لأمر الله ، ومُبْطِلٌ لحِكْمَةِ الله في خلقه . أو اعتمد على الأسباب بأن لا يرى نفعاً إلا من جِهَتِها ، وغفل عن مسبِّب الأسباب وتدبير الله وتصرفه في خلقه ، بأن وفَّق أقواماً لطاعته وخذل آخرين لمعصيته ، فهو قَدَريٌّ مبتدع ، وسمَّى النبي ﷺ القدرية مجوس هذه الأمة .

والصواب والحق أن يجمع بينهما فيعتني بفعل الأسباب ولا يعتمد عليها ، بل يعتمد بقلبه على المقادير ، فالأسباب تجري على ظاهره ، والمقادير يتعلَّق بها بقلبه ، فإن الله سبحانه قد تعبَّد خَلْقَهُ بالأعمال على ظواهرهم ، وبالإعتقاد الحق والإعتماد على المقادير في قلوبهم في كل أمر ، فما مِنَّا من نَفَسٍ نمضيه إلا وله سبحانه فيه قدر يبديه لا يبتديه ، فيجمع بين فعل الأسباب بظاهره ، والإعتماد على المقادير بباطنه ، والجامع بينهما هو السُّنِّي الذي على الحق . فالمذهبان : مذهب القدرية ومذهب الجبرية باطلان ، وهما من مذاهب البدع القبيحة ، والمذهب الحق هو مذهب أهل السنة ، من الجَمْعِ بين الأمرَيْن كما ذَكَرْنَا . ومثَّلوا لهذه المذاهب الثلاثة ، المذهبين الباطلَيْن المذكورين ، كَفَرْثٍ ودم ، والثالث: مذهب أهل السنة كلَبَنٍ خرج ، ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

فيتبيَّن أن الصواب فِعْل الأسباب الظاهرة ، ومحلها ظاهر البدن وهو الشريعة التي شرعها الله لعباده وحكم الله في خلقه ، ويعتمد بقلبه على إرادة الله وقدرته ، كما تقدَّم تقريره ، وهو الحقيقة ،

والجمع بينهما واجب كل في محله المتقدم ذِكْره على وجهه، أعني صوابه الشرعي هذا هو المذهب الحق، مذهب أهل السنة.

فالناس في الأسباب على ثلاثة مذاهب كما ترى، مذهب حق وهو مذهب أهل السنة، ومذهبان باطلان: مذهب القدرية، مجوس هذه الأمة، وهو الإعتماد على الأسباب مع نسيان المسبب. ومذهب الجبرية: الإعتماد على المقادير مع ترك الأسباب، فيبطلون شرع الله بِحِكْمَتِهِ في خلقه فيما شرع لهم من العبادات والأحكام، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فيقولون: العبادات لا تنفع الشقي، والمعاصي لا تضر السعيد.

وهذا جهل عظيم، فإن السعادة والشقاوة بيد الله، وعلى العبد امتثال أمر سيِّده ولا عليه إن كان من أي الفريقين، ويحتجُّون لأنفسهم بالمقادير، كما حكى الله عن قول الكفار: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، وما نفعهم احتجاجهم حتى صار حجة عليهم ورد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾، فتحتجُّون بما يخالف عملكم، فما لكم به حُجَّة بل حُجَّتكم داحضة، فكل حُجَّة مما يخالف العمل حُجَّة على صاحبها لا حُجَّة له.

وقد ذَكَرَ العلماء أن من فَعَلَ حراماً أو ترك واجباً، فقيل له في ذلك فقال: «هذا مُقَدَّرٌ عَلَيَّ»، أن قوله ذلك معصية أشد من الأولى، احتجَّ لنفسه على ربه فلن يفلح فاعل ذلك. وقد جاء في الخبر أن الله سبحانه قال لإبليس: «لِمَ عَصَيْتَنِي إذ أَمَرْتُكَ بالسجود؟»، فقال: «يا ربِّ، أنت قدَّرتَ عليَّ المعصية»، قال سبحانه: «متى علمتَ أني قدَّرتها عليك، قبل فِعلها أو بعد فِعلها؟»، قال: «بعد فِعلها»، قال الله سبحانه: «بهذا أخذتك». كذا سمعتُ سيدنا غير مرة يذكُر ذلك - أي حيث احتجَّيت بالقضاء والقدر - وهو علم الغيب من غيوب علم الله، وما كلَّف الله خلقه بالعمل بعلوم الغيب، إنما كلَّفهم بالعمل بعلوم الشريعة، وعلم الغيب إلى الله. فيجب أن يؤمن به ولا يحتج به، فيصير محتجًّا لنفسه على ربه، وهو من أكبر الذنوب، وكما أن محالاً أن يطلع الخلق على شيء من صفات الله، فذلك محال أن يطلعوا على شيء من علوم غيوب الله، إلا من اختصَّه الله وأَطْلَعه على شيء منه، من رسولٍ أو مَلَكٍ أو وليٍّ.

ومثال الأسباب كالسحاب سببٌ للمطر، إذا أراد الله أجراه فيه، وإذا لم يرد ربما جاء السحاب وأبرق وأرعد وراح بلا مطر، وكذلك المرض سبب للموت، لكن إذا أراد الله بأن حضر أجَلُه الذي أجَّله الله إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾،

وفي هذه الآيات في الموضِعَيْن أبلغ التعزية ، يعني إذا كانت هذه الأشياء قد كتبها الله في سابق أَجَلِهِ ، وأجَّلها إلى هذه الأوقات ، فما للحزن معنى ، وما لضعيف اليقين يحزن أو يتأسف ، ولهذا قال سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ومعنى إرادة الله سبحانه بأن قضى حين أَمَرَ القلم أن يكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فارتاع القلم من ذلك وانشقَّ ، فكان من الحِكمة أن لا يكتب القلم إلا مشقوقاً ، فقال له سبحانه : « علمي يكون كتابة » ، فكتب ما هو كائن ، فكل شيء مكتوب فيه كما قال تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، فإن كان كتب حينئذ في اللوح المحفوظ أن يكون حينئذ مطر كان ، أو حينئذ يموت هذا المريض كان ذلك بذلك السبب ، فإن الأشياء إن كان منها شيء مكتوب وقوعه وقع بسببه بها ، قال تعالى : ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، والإبتغاء هو التسبب ، فإن كان مكتوباً وقع بالسبب ، وإن لم يكن مكتوباً لا يفيده السبب .

فافهم هذه المعاني الدقيقة ، واشحذ ذهنك لفهمها ، فإن ذلك المعنى من كون الأشياء كلها متوقِّفة على الإرادة منه سبحانه على الوجه المذكور ، وذلك جارٍ في أسباب الدين والدنيا .

ومن عجيب أمره أنه ورد : أن الله سبحانه لمَّا أمر بكتابة الأشياء ، كتب أعمال كل مُكَلَّف في كل يوم من حين يبلغ ، ويركب عليه قلم التكليف إلى حين وفاته ، فإذا وجد في وقته المؤقت ، وبلغ وجرى عليه القلم ، وأمر الكرام الكاتبين بكتب عمله في كل يوم ، فكل يوم يكتبون عمله الذي يثاب عليه أو يأثم من صبحه إلى مسائه ، فإذا أمسى وصعدوا بعمله ، كما قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، أي العمل الصالح يرفع الكلم الطيب كالذِّكر ، وهو من جملة العمل ، فتقول الحفظة: « يا ربنا ، هذا ما كتبنا من عمل عبدك فلان في هذا اليوم » ، فيقول سبحانه : « قابلوا بينه وبين تلك الكتابة التي كان كُتِبَت من عمله في الأزل » ، فيقابلون بينهما فلا يجدون أحدهما يزيد عن الآخر حرفاً ولا ينقصه منه حرف . ولذلك كانت مسألة القضاء والقدر صعبة ، حتى إني سمعت سيدنا عبدالله يقول : « إنها لا تعرف في الدنيا ، ولا يتضح معناها إلا يوم القيامة » .

وما ذَكَرْنَا مما مثَّلنا له بالمريض والمطر وابتغاء الولد من أسباب الدنيا ، قِسْ على ذلك كل ما في معناه من أسباب الدنيا ، وأما أسباب الدين والآخرة ، فمثاله أن الله سبحانه جعل الإيمان والطاعة سبباً لرضاه ودخول جنته ، وجعل الكفر والمعصية سبباً لغضبه ودخول ناره ، فإن كان قد حكم وقضى حين أمر القلم أن يكتب في اللوح المحفوظ ، فكتب أن هذا الإنسان من السعداء ، وأنه يرضى لطاعته ويدخله جَنَّته كان كذلك ولا بد ، وفي الآخر أنه قضى وحكم عليه بغضبه والشقاوة ودخول النار كان كذلك أيضاً ، وإن قضى على كليهما بِكِلا الأمرين من دخول الجنة مع المعصية ودخول النار مع الطاعة،

مُحِيَت عن الآخر إساءته بتوبةٍ أو عفوٍ أو عقوبةٍ بقدرها ، كالحد فإنه تمحيص عن الذنوب ، أو الإثنين بدخول النار ، أبطلت حسنات الأخرى بسببٍ يريده الله من أسباب ذلك .

كما أَبْطَلَتْ عبادة إبليس ثمانين ألف سنة بمعصيةٍ واحدة ، وهي امتناعه من السجود لآدم لمَّا أمر الله الملائكة وهو معهم ، وإنما أمرهم سبحانه بذلك لما ركَّب في وجه آدم نور النبي ﷺ ، فامتناعه وإحباط عمله وإشقاءه من معجزات رسول الله ﷺ ، ولذلك جعله الله عدوًّا لرسول الله ﷺ ولأمَّتِهِ وغويًّا لهم ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقِسْ على ذلك جميع الأسباب الدينية والدنيوية ، كما أبطلت عبادة إبليس ثمانين ألف سنة بمعصية واحدة ، وهي ترك السجود لآدم ، لمَّا أمر الله بذلك .

وهكذا في جميع الأسباب الدينية والدنيوية ، أن الأسباب التي جعلها سبباً لحصول خير الدارين أو شرهما موقوف على إرادة الله سبحانه ، إن أراد أجراه فيه فكان ، وإن أراد سلبه منه فلا يكون ، لكن بحسب ما أجراه الله تعالى من العادة لا بد ما يعقب سبب الخير سبب شر ، لمن أراد أن يختم له به ، ولا بد ما يعقب سبب الشر سبب خير لمن أراد أن يختم له به ، ويموت كل على ما أريد له وبه ، كما في حديث الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » ، وهكذا فاعلم في جميع أسباب الدارين خيرهما وشرهما .

والمراد بالذراع : التمثيل بقُرب الموت من الحياة ، يعني إذا كان على عمل خير أو شر ، ولو دام عليه إلى قرب موته ، فيسبق عليه إرادة الله في الأزل ، وهو المراد بالكتاب المذكور في الحديث كما فصَّلناه هنا قبل ذِكْرِ الحديث ، فيعمل بعمل تقتضيه الإرادة فيموت عليه وفي الحديث : « إذا أحبَّ الله عبداً عسله»، ويروى : « غسله» ، بالمهملة والمعجمة ، وفسَّره في الحديث أن معناه : أن يوفقه الله لعمل صالح قرب موته ، فيموت عليه .

وقد أجرى الله سبحانه العادة الغالبة أن من كان على ما يرضي الله من الإيمان والطاعة أنه يموت عليه ، وخلافه نادر . وغالباً أيضاً أن من كان على معصية إذا مرض أنه يرعوي ويتحسَّف على ما فَعَل، وربما عزم على أن لا يعود للمعصية إن بريء ، وهذه منه توبة فيما بينه وبين الله ، وربما استحلَّ وأبرأ نفسه من حقوق الخلق، وهذا منه توبة كاملة في الجانبين ، من أداء حقوق الله وحقوق خلقه .

وإذا قد فهمت ما ذَكَرْنا من معنى أسباب الدارين خيرهما وشرهما ، فكذلك الخلق منهم من جعله الله سبباً للخير وأجرى الخير على يديه أو بسببه ، ومنهم من جعله الله سبباً للشر وأجرى الشر على

يديه أو بسببه ، يفعل الله سبحانه في خلقه ما أراد لكل أحدٍ وبسببه من الأمرين ما أراد منهما لمن أراد كيف أراد ، ويجعل سبب ما أراد من الخير والشر من أراد من خلقه ، كما قال تعالى على لسان نبيه ﷺ في الحديث القدسي : « إنني أنا الله لا إله إلا أنا ، خلقتُ الخير وخلقتُ له أهلاً وأجريتُ الخير على أيديهم، وخلقتُ الشرَّ وخلقتُ له أهلاً وأجريت الشَّرَّ على أيديهم ، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ، وويلٌ لمن خلقته للشرِّ وأجريت الشرَّ على يديه ، وويلٌ ثم ويلٌ لمن قال : لِمَ كذا ، وليت كذا » ، أو كما قال ﷺ .

وكل ذلك بلا وسيلة سابقة لمن أسعده ومن خلقه للخير وأجراه على يديه ، ولا جريمة سابقة لمن أشقاه ومن خلقه للشر وأجراه على يديه ، بل ذلك بمحض اختيارٍ منه سبحانه ، واستبداء منه بالتصرف في مُلْكِهِ ، بما شاء كيف شاء ، ولمن شاء كيف شاء ، وهذا حقيقة ، والحقيقة نسبة الأشياء إلى الله أن تكون على حسب ما أراد ، وهو ما كتبه في الأزل قبل وجود الخلق ، كما تقدم .

ثم لمَّا أوجدهم وأجرى عليهم قلم التكليف ، كان أفعالهم على حسب الأحكام الخمسة شريعة، فمن عمل أعمال السعداء ، ومن أجرى الخير على يديه أو بسببه منهم ، كان محموداً عند الله وعند خلقه، وجزاه الله جزاء المحسنين ، ومن عمل أعمال الأشقياء وأهل الشر ، وأجرى الشر على يديه أو بسببه ، كان مذموماً عند الله وعند خلقه ، وجزاه جزاء المسيئين .

وهذا بالنسبة إلى أفعال العباد ، وهي الشريعة وبحسبها يُجزَون ، والأول قبل وجودهم هو الحقيقة، وأمره إلى الله بحسب ما أراد ، لا مدخل للخلق فيه ، ولهذا من عمل بمقتضاه فقط دون الشريعة تزندق، كما مَرَّ عن الشيخين ، بأن يقول لله ما في السماوات وما في الأرض وهو حقيقة ، فيقول : كل ما وجد . فلا يحلل ولا يحرم ، وهو الزندقة .

والشريعة خصَّصَت كل أحد بِمَا لَهُ ، فلا يجوز في الشريعة أن يأخذه إلا بمحلل وهو الجمع بين الشريعة والحقيقة ، وكذلك أن يقول : إن كنت سعيداً فلا تضرني المعصية فيفعلها ، وإن كنت شقيًّا فلا تنفعني الطاعة فيتركها ، فهذا عملٌ بمجرد الحقيقة الذي لا مدخل فيه للخلق لمن أطاعه ، فأي زندقة أشد من هذا ؟ وهو مذهب الجبرية .

وإنما خَصَّ بوعد الخير لمن عمله وعامله به فضلاً منه سبحانه وكرماً ، وإنما خَصَّ بوَعْدِ الشر لمن عمله وعامله به عدلاً منه تعالى ، وانتقاماً لمن عصاه ، وذلك عند ترتيب الجزاء على العمل من العبد ، وأما من حيث خلق ذلك وإيجاده فهو من الرب خاصة ، هذا خلقه وذلك أمره ، وله الخلق والأمر ، لا مدخل في ذلك لأحد سواه ، فلا يتخصَّص مخلوق بشيء ، بل هو موقوف على مجرد الإرادة منه تعالى ، وإنما حظ العبد من ذلك ما يُجزى عليه من العمل ، وهو الكسب والإكتساب .

ففرق بين الخلق والكسب والإكتساب : بأن الكسب والإكتساب من العبد يُنسب إليه شريعة ، لمكان الجزاء الواقع عليه بسببه بمقتضى الوعد الإلهي ، وأن الخلق خاصٌّ من الرب على مقتضى إرادته، فخصَّص من خصَّص من الفضل ، وضده من خَصَّ بذلك من خلقه ، كما خَصَّص بعض الأوقات بمزايا ، كليلة القدر وساعة الجمعة ، وكذلك خَصَّص بعض الحيوانات والجمادات بما أراد من المزايا، وخصَّصَ كُمَّل الأولياء بما أراد من الكمال ، وخصَّ بعضهم بالتصرف بما أراد ، ولا يكون إلا على مراد الله .

حتى أن سيدنا الشيخ عبدالله العيدروس بما أعطاه الله من التصرف ، جاءه إنسان من بلاده الغيل الأسفل زائراً ، والمسافة بين بلديهما نحو ثلاثة أيام ، فمَرَّ ببلدٍ فيها وباء عظيم ، وبأهلها أمراض جمة، ويموت كل يوم فيها ناس كثير ، ومعه عبدٌ له مشوَّه الخِلقة ، وكل من رآه ازدرى خِلقته ، وأعلم الشيخ عبدالله بذلك ، فقال له الشيخ عبدالله : « مُرْ به على تلك البلد الوَبِيَّة ، وقل لهم : من مَسَّ هذا العبد برئ مما به ، وله ذلك إلى ثلاثة أيام » ، فمَرَّ به تلك البلد وبقي كذلك من مَسَّه برئ إلى ثلاثة أيام ، فاعتقَدُوه وأحبوه وذهب من قلوبهم ذلك الإزدراء به ، وبعد الثلاثة الأيام سار من تلك البلد وذهبت عنه تلك الخاصية ، كما قال الشيخ عبدالله ، وإنما جعل له تلك الخاصية دَفْعاً لازدراء الناس لخلق الله ، ودرءاً للإثم عنهم ، فاعجب لهذا التصرف العجيب العظيم ، وهذا نقطة مما وهبه الله .

فافهم هذه المعاني النفيسة ، فإن الرب تعالى متصرف ، والعبد متصرَّف فيه، والرب كما أراد هو والعبد كما أريد به وأريد منه ، كما قال سيدنا كما قدمنا : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، يعني وافق ما أراد به الحق ، ولم يوافق ما أراد منه ، وتقدَّم أيضاً ما نَقَلْنَا من قول السيد أحمد الهندوان : « الإيمان بالقضاء والقدر على اختلاف أحواله واجب » ، إلى آخر ما تقدَّم من أقواله .

فينبغي الإعتناء بالأسباب التي جعلها الله تعالى سُلَّماً للخير ومُوصِلة إليه ، ويقدِّم أسباب خير الآخرة من الإيمان وتقويته ، وأعمال الطاعة المقربة إلى الله ، ويرجو مع ذلك أن سبقت إرادة الله تعالى بالسعادة ، فيختم له بالحسنى ويبلغه منازل الصالحين ، ويترك أسباب شرها من الكفر والشرك الأكبر والأصغر ، والمعاصي المُبْعِدَة عن الله ، والمخشي بسببها عذاب الله ، ويخاف مع ذلك إن سبقت إرادة الله له بالشقاء ، ومما تقتضيه الأعمال السيئة ، التي هي أسباب الشر ، وهذا هو الذي يلزم في حق العبد، وهو موضع الإختيار ، الذي هو محل التكليف ، ولا عليه مما وراء ذلك .

وإذا خالفه القضاء والقدر فلا ملام عليه ، ولا جريمة منه ولا وسيلة له في الأمْرَيْن ، فإن القضاء والقدر قد جرى عليه قبل وجوده ، وقبل وقوع التكليف عليه ، فلمَّا أن وُجِد وجرى عليه قلم التكليف،

لَزِمَ في حقِّه ما ذُكِر ، وذاك أمره إلى الله ، وما على العبد منه كما قيل :

عَلَيَّ نَحْتُ القَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَـا عَـلَيَّ إِذَا لم يُسْـعِدِ القَـدَرُ

قال بعضهم : « لأن أدخل النار وأنا مطيع ، أحب إليَّ من أن أدخل الجنة وأنا عاصي » ، وقيل : « إذا جاء القدر عمي البصر » .

ويفعل أيضاً من أسباب دنياه القَدْر الذي أَذِنَ الله فيه بقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ ، ونحو ذلك ، وهو القدر الذي يُعِينه في معاشه على السعي لمعاده، ويكون عشر عمله ، وتسعة أعشار عمله للسعي للمعاد وما يقرِّب إلى الله ، ولو كان ذلك عكس ما عليه أهل الزمان من كون أحدهم من حين يميِّز في نحو السبع السنين ، إلى آخر عمره ، ولو عاش مائة سنة ، كل عمله في الدنيا ، ولا يلتفت إلى ما ينفع في المعاد إلا نادر لا يُذْكَر ، فيفعل من أسباب نفع دنياه ومعاشه، وما يُعِينه على التقوى ، ويتجنَّب أسباب شرها ويعتقد أن الله تعالى هو النافع في أسباب خير الدارين ، وأنه سبحانه هو الضار في أسباب شرهما ، فإذا جاء أمر الله بطل كل ما سواه .

وإنها الأسباب تظهر في الدنيا وتخفى فيها المقادير ، وفي الآخرة تظهر المقادير ولا هناك أسباب ، وإنها الأسباب كانت في الدنيا ، وكُمُون المقادير في الأسباب في الدنيا ، ككُمُون الأرواح في الأجسام، فالأجسام حسِّيَّة تُرى ، والأرواح معنوية فيها لا تُرى ، كذلك الأسباب حسِّيَّة ترى ، والمقادير معاني كامنة فيها لا تُرى . فاعتقاد أن الله سبحانه هو النافع وهو الضار في الدارين ، هو المذهب الحق المحبوب عند الله ، المخالِف للمذهبَيْن الباطلَيْن المتقدِّم ذِكْرهما ، وغيرهما من المذاهب الباطلة ، من هذا الوجه ومن وجوه أخرى . وقد صَحَّ : « لا تزال طائفة من أمتي ، ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، حتى إنهم ليقاتلون المسيح الدجال » ، أي حتى تقوم الساعة – يعني القيامة – بالنفخة الأولى ، التي يموت بها كل حي ، وقيل : « يا رسول الله ، من هم ؟ فقال : الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي » هـ .

قال رضي الله عنه : « الرضا بالقضاء ، هو أن ترضى بكل ما يُجرِيه الله عليك باطناً وتلتزم جميع أحكامه ظاهراً ، والرضا مع تضييعها ، غرور وفتنة » .

قال : « لا تخبر الظالم بِظُلم غيره فيزيد ظلمه ، لكن أخْفِ ما استطعت مع المداراة ، ومن لا يرحم نفسه من عذاب الله حيث وقع في الظلم والمعصية ، فلا ترجو منه أن يرحمكم ، ولا يدخل ذلك في خاطرك ، والإيمان نور الوجود ، ومن فقد منه فهو كله ظلمة » ، وقال : « من ألجاك إلى الظلم ، فهو

أظلم منك » .

قال رضي الله عنه : « **أهل الدنيا والنفوس يقوون كلما بلغهم ما يفرحون به ، وكلما تغذوا به من الشهوات ، وقوَّتهم الحاصلة لهم إنما هي من قوة النفوس وغلبتها عليهم ، والصالحون لا تحصل لهم القوة بما ذُكِر ، والقوة الحاصلة لهم إنما هي قوة الأرواح فيهم ، لأن قوة النفس قد أذابوها بالرياضات والمجاهدات ، فلم يَبْقَ لها فيهم أثر** » ، *وقال* : « **إذا كانت طاقة الإنسان دون همته ، ما يقع يَهِم بأمر لا يستطيعه** » .

وطلبه السيد زين العابدين بن مصطفى العيدروس إلى نخله « البَدْع » ، وذلك ثامن شعبان من سنة ١١٢٨ ، فقال له السيد زين العابدين : « عاد رؤيتكم يتمتَّع بها الإنسان » ، *قال* : « **لكن القوى ضعفت ، فلا يمكنها تساعد الإنسان على ما يريد فربما نهِمّ بالأمر لا تساعدنا عليه القوى ، فالهمة قوية ، والقوى ضعيفة ، والروح أقوى من الجسم ، وإذا قَوِيَ الروح حصل للجسم قوة ، وإذا حصل على الروح ما يُوجِب الإنقباض انهدم الجسم** » .

قال رضي الله عنه : « **الإيمان الصادق في قلب المؤمن كسراجٍ في ظلمة يضيء لمن حوله ، ويستدل بضوئه ، والإيمان في قلب المنافق كالسراج المكفي فوقه سفيح** » .

أقول : يعني ذو الإيمان القوي ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، قائم على حدود الله في نفسه وفي أهله وفي من يمكنه ، فدأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإرشاد الخلق إلى الله ، فكل من اهتدى بسببه إلى الصواب ، فقد أضاء له كما يضيء السراج ، واستدلَّ بضوئه : أي نوره ، وهو قوة الإيمان ، فإن الإيمان نور ، وذو الإيمان الضعيف الذي لا يهمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يحتفل بهما ، فهو وإن كان معه بعض النور من الإيمان والعلم ، فهو حيث لم يتعد منه نفع ، كالسراج المغطى ، الذي لم يحصل منه ضوء .

ومراده بالمنافق : منافق الأعمال ، لا منافق الإيمان ، والفرق بينهما : أن منافق الإيمان خالي قلبه من الإيمان ، فلا نور معه ، وإن جرت الأعمال الظاهرة على ظاهره خوفاً من القتل ، وكانوا في وقت النبي ﷺ كثير . وأما منافقوا الأعمال فهو بعد النبي ﷺ ، والمراد به من لا يحتفل بأمور الديانات ولا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وهو غالب بأهل هذا الزمان ، كما ترى لا يهمنا أمر ديني ، وإنما أكبر همنا الدنيا ، نعوذ بالله من هذه حالة ما أقبحها وأفظعها - ولو فاتته لا يأسف عليها، وإن فعلها فَبِتَكَلُّف ومَشَقَّة ، ولا ذوق له بها ، مع أن قلبه مؤمن ومصدِّق بكل ما أخبر به رسول الله ﷺ ، كإيمان العوام، وإيمان الخواص وأعمالهم فوق ذلك ، بأن تزعجهم قوة الإيمان إلى التجرد للأعمال ، والإستعداد للموت قبل نزوله ، وقَطْع جميع التعلُّقات بالدنيا من قلوبهم حتى لا يبقى لهم إلا هَمٌّ

واحد ، وهو الإقبال على الله ، فَشَتَّان ما بين الفريقَيْن هـ .

قال رضي الله عنه : « **اِعْرِفْ أحوال الصالحين وأفعالهم وأوصافهم ، واعْرِض ذلك على نفسك وادعها إليه ، فإن أجابَتْكَ إليه كله صلحت ، أو إلى بعضه فعلى قَدْر ذلك ، فإن لم تُجِبْكَ إلى شيء منه أبداً فتحقَّق بالإفلاس . ولا تدَّع ما لستَ من أهله ، فلا أقل من الإنصاف والإعتراف ، على أن أناساً يطلبون الدنيا ويخزنونها بخلاً وشحًّا ، ويتمتَّعون بشهواتها ، وهم يظنون في أنفسهم أنهم إنما يأخذون منها قدر الضرورة أو الحاجة ، وإنهم ما يضمونها إلا لمواساة المحتاجين ونفع الإخوان ، وهم كاذبون فيما زعموه ، لأنهم لا يفعلون ما ادعوه ، مع قدرتهم على ذلك ، ووجود المحتاج** » هـ .

أقول : قوله : « **اعرف أحوال الصالحين .. إلخ** » ، وأهمها ملازمة العمل بالكتاب والسنة ، بأن لا يشذ عن ذلك قيد شبر ، فمن رأيته زلَّ عنه في أقل شيء فاتركه إلى النار ولا تعتقده ، فإنما يُعتقد من تمسَّك بشرع الله ، ولا يصير من الصالحين إلا بعد الإجتهاد على التمسُّك بقول الله ورسوله مدة ، حتى يفتح الله عليه بفتوح العارفين فحينئذ يكون من الصالحين ، ومن زلَّ عنه وتتبَّع هوى نفسه وما تطلبه وتحبه من الجاه والمال ؛ فمن أين له الصلاح حتى يُعتقد ؟ وقد رأى بعض الصالحين النبي ﷺ ، فسأله عن بعض حكماء المسلمين ، وهو ابن سيناء : « ما تقول فيه ؟ » ، قال: « أراد أن يصل إلى الله من غير طريقتي ، فَقَصَمْتُهُ » ، فجرِّب نفسك وغيرك بذلك مع ما ذُكر وَزِنْهُ به ، فمن رأيته متَّصِفاً به فهو من الصالحين وسلم له، ومن رأيته مخالفاً لذلك فاتركه ولا تجالسه ، سيما إن ادَّعى الصلاح ، فإن مجالسته سُمٌّ قاتل ، تضرك في دينك وآخرتك ، ولا تنفعك في دنياك .

وما أكثر المدَّعين اليوم ممن غَلَبَتْهُ نفسه في الطمع في الأمرين : الجاه والمال ، وأكثرهم من الغرباء ، ولا بد للمدعي من مساعِد ، وهو شريكه في كذبه ، وعليه ما عليه . واليوم أكثر من يدَّعي ما ذَكَرَهُ من دعوى الصلاح مع فساد الحال ، وأقل إنصافاً واعترافاً وأشد الناس بخلاً وشحًّا وطمعاً وعدم ورع وتقوى واستقامة ، وهم مع كل ذلك الخطأ وغيره يعتقدون في أنفسهم الصلاح في الزهد وسماحة النفس ، وإنهم عند الله بمكان ثلاثة أصناف من الناس ، فدعواهم لا بَيِّنَة لها ، فإذا حَصْحَصَ الحق شَهِدوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين ، وذلك لاعتقادهم في أنفسهم وحسن ظنهم بها ، لما يسمعون في أسلافهم من الخير ، فيتكبرون بمحاسن غيرهم ، قَطَعَتْ بذلك التجربة فيهم .

والأول من الأصناف : المنسوبون إلى طريقة من طرق أهل التصوف كَنَقْشَبَنْدِيٍّ وغيره ، والثاني : المنسوب إلى عِلْم أو اشتهر به ، والثالث : المنسوب إلى منصب من المناصب الظاهرة .

فكانت هذه الأصناف معروفة في ماضي الزمان بالزهد والسماحة ، وبَذْلِ المعروف ومكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف ، وكمال التقوى والصلاح ، فخلوا منها اليوم ، واستبدلوا بأضدادها، وصاروا يتجمَّلون بتلك الأوصاف الحسنة التي كانت في أسلافهم ، وكانوا معروفين بها ، صورها ومعانيها وحقائقها ، وهؤلاء اليوم خلوا من الصور والمعاني ، وإن وجدت الصور فهي خالية من المعاني ، كأجسام بلا أرواح . والمراد بالصور : فِعل المعروف ، وبالمعاني : أن يقصد به وجه الله . فقد كان السلف من هؤلاء ، يفعلونه لوجه الله لا لعلة أخرى ، وكذلك جميع العبادات ومكارم الأفعال ، وهؤلاء لا معروف فيهم ، كما قيل :

لا يُعْـرَفُ المعْرُوفُ في سَاحَاتِهِمْ　　　إلا كَـمَا يُحْكَـى عَـنِ العَنْقَـاءِ

وإن وجد فيهم معروف قليل فَلِعِلَّة لا خالصة ، وعباداتهم ومقاصدهم للجاه وأطماع الدنيا لا لله ، كما ترى الواحد منهم يقرأ كتاب الله طول سنته بِمَنٍّ تَمْرٍ أو موسمية أرز ، والغالب عليهم الشح والبخل وإن زعموا خلافه كما قال سيدنا ، وهم كاذبون فيما زعموه .

والفرق بينهم اليوم وبين متقدميهم : أن الأولين منهم - أعني من هؤلاء الأصناف الثلاثة - كانوا زاهدين في الحلال ، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كنا نَدَع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام » ، يعني نقنع بِعُشْر ما نحتاج إليه ونخرج الباقي ، وذلك بسبب هون الدنيا في نفوسهم ، وعظم قدر رضا الله وثوابه ، وقدر الآخرة في قلوبهم ، فشتان ما بين المتقدمين والمتأخرين. وهؤلاء يتمنون الحرام ويسعون في حصوله بكل ممكن فلم يحصل ، ولم يتركوه إلا عجزاً ، والحلال والحرام عندهم سواء لا فرق بينهما ، ولا يرون الحلال إلا ما حَلَّ بأيديهم ، والحرام ما حرموه ، لا القانون الشرعي في الأمرين معاً .

فاعجب لهذا الفرق والبَوْن البعيد بين الخلف ومن سلف ، وانظر غاية التفاوت بين السابقين واللاحقين ، تعرف فرق ما بينهما ، واعرف بذلك وبما تقرر أولاً ، أنه ما بقي اليوم من كل طائفة من طوائف الدين إلا الرسوم أو الصور الخاوية ، الخالية من حقائقها ، وذلك في صالحيهم ومتشبهيهم ، كما ترى من بعضهم لعباداتهم بأطماع الدنيا .

وأما طالحيهم فلا صور ولا حقائق ، وأيضاً ما بقي معهم اليوم إلا صور تشبه تلك الصور ، مع خلوّها من معانيها ، كما يشبه البَو المشَبَّه بالصورة بلا روح ، وإنما بقي معهم اليوم التكبر بتلك المعاني لمشابهة صورهم هذه الخاوية بتلك الصور مع حقائقها ومعانيها ، فيفتخرون بأعمالهم لدعواهم بسببها أنهم كَهُم ، وإن أعمالهم كأعمالهم ، وهذا بهتانٌ عظيم وشتان ما بينهم ، كما قد سمعتَ من الفرق .

فصور هؤلاء اليوم وبواطنهم كلها بضد ما كان عليه السابقون ، وأعني بصورهم أعمالهم الظاهرة، وببواطنهم أعمالهم الباطنة كنياتهم ، كما بيَّنها الله سبحانه في قوله : ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ ، وهذه الأشياء المحسوسة الظاهرة لا المرئية ، ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، وهذه هي النيات الخالصة الباطنة .

ودَلَّ ذلك على أن كِلَا الأمْرَين لا يُذْكَر ولا يُحْسَب إلا مع الإخلاص ، ودَلَّ على تفاوت إخلاص الأولين في العبادات ، إذ نووا بها مجرد قصد وجه الله ، وبين إخلاص هؤلاء ، إذ قال سيدنا : « **واختلفوا في معنى الإخلاص ، فقيل : كل ما لا للنفس فيه حظ ، وقيل غير ذلك** » ، ومعنى إخلاصها، تخليصها عن كل ما سنح بها في الخاطر غير ذلك .

هكذا كانوا ، وأما اليوم فانظر بعينك ما ترى ، مما يحثهم على العمل للعبادة من الأطماع الدنيوية الدال على فساد نياتهم وفساد أعمالهم عما شرعت له بفساد نياتهم، فانعكست عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها كما تقدم ذلك من قوله . وهذا عكس ما كان عليه من سبق .

والعجب ، أن هؤلاء مع هذا النقص العظيم في أحوالهم وأعمالهم ونياتهم ، يزعمون أنهم كَهُم ، إن لم يزيدوا عليهم ، لا ينقصون عنهم ، كما دَلَّت على ذلك أحوالهم وأفعالهم ، ويعرفه منهم من خالطهم من الفطناء الحاذقين ، وإن ذموا أنفسهم ورفعوها في محل النعال .

وكما خلت بواطنهم عن حقائق الدين على ما قدَّمنا ، وادَّعوا مع ذلك أنه يحصل لهم تلك الأوعاد الجميلة ، الواردة في الكتاب والسنة على فِعل العبادات ظواهرها مع بواطنها ، شرطاً لازماً ، إن اختلَّ فات المشروط ، على ما قدَّمناه من الكلام على قوله : « **من تحرِّكه الرغبات الدنيوية ، لم يكن للرغبات الأخروية أهلا** » ، فلما خلوا مما ذكر ، كذلك اليوم خلوا من المكارم الجميلة والتخلق بالأخلاق الحسنة، فبقوا على دعاويهم لها كذباً ودعوى ، من غير تحقُّق بها ، فلما ظنوا في أنفسهم ذلك ، زادهم أيضاً تكبُّراً وافتخاراً وعتوا عُتُوًّا كبيراً ، كل ذلك من شؤم الدعاوى الباطلة، الداعي إليها حب الجاه والمال ، ويُلَبِّسُون على الناس بإخراج اليسير من المال ، ليوهموهم أنهم ليسوا كذلك ، وأكلهم الحرام المحقق تحريمه يكذب دعواهم كما زعموه ، نعوذ بالله من التلبيس والحرمان .

وهذا لأن طبع الزمان لمَّا تناقص وبَلَغَ الحد في النقصان ، لِقُرب قيام الساعة لما ورد : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » ، ويروى : « لا تقوم على من يقول: الله الله » ، وقد ظهرت علاماتها ، ومن أبلغ تلك العلامات : أن يلقى الشح الشديد في القلوب ، بحيث لا يرحم الأخ أخاه ، ولا الابن أباه ، وقد ألقي ذلك اليوم في القلوب بظهور علاماتها ، فصار الحظ الأوفر منه من أوصاف الأشرار متمكناً وراسخاً ، ثابتاً عامًّا في قلوب الأخيار - إلا القليل منهم - والأشرار ، كالفرط في محبة الدنيا، وصار الدعاة إلى الله لازِماً عليهم ، وشرط لا بد لهم منه ، أن يسايروا أهل الزمان على ما هم عليه ،

ويتلطَّفوا لهم في الدعوة ولا يشدِّدوا عليهم ، ويراعون معهم أحوال أهله ، والزمان يُنسَب إلى أهله، فلمَّا كان أهل الزمان الأول صالحين وأعمالهم ، قيل : هو زمان صالح ، ولما كان زماننا أهله أعمالهم وأحوالهم عكس ذلك قيل : هو زمن طالح .

فلما كان تلك الأصناف الثلاثة اليوم على تلك الأوصاف الرَّدِيَّة ، من فرط محبة الدنيا ، والشح الشديد ، وعدم الإحتفال بما ينفع عند الله في الآخرة ، حتى لو عملوا منه شيئاً قل أن يخلو من شائبة تضر بالإخلاص ، وهذا بخلاف ما يظن فيهم ، واغتروا بما يسبق إلى الظن فيهم ، فصاروا يحبون أن يُحمَدُوا بما لم يفعلوا ، وادَّعوا ذلك - أي ما يُظَن بهم - من ظاهر حالهم مع خُلُوِّهم من حقائقه، وزعموا أنهم يستحقون المواعيد الكريمة الواردة في الكتاب والسنة ، على وجود الأعمال مع شرط حقائقها ، مع فَقْدِها منهم واتصافهم بضدها ، وعموا عن القيود المشروطة لحصول ذلك في كلام الله وكلام رسوله وكلام العلماء وكلام الأولياء والصالحين كقوله تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ومفهومه: أن من لم يُوقَ شُحَّ نفسه فليس بمفلح ، فإذا سلط عليه الشح حتى منعه من فعل الخير ، فمن أين له الخير وقد اتبع ما يَعِده الشيطان من الفقر ، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، كيف وقد خالف أمر الله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾، ومن اتبعه فيما أمره به من الشح ، فقد اتخذه صديقاً ، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي الشح والبخل .

وفي الحديث : « لجَاهِلٌ سخي ، أحب إلى الله من عالم بخيل » ، وفيه أيضاً : « من تصدَّق بصدقة فقد فكَّ لحيي سبعين شيطاناً ، كلهم كاظم على يده ليمنعه من الصدقة » ، وفي الحديث : « اطلبوا المعروف من رحماء أمتي ، تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوه عند القاسية قلوبهم ، فإن اللعنة تنزل عليهم»، وروي عنه ﷺ أنه قال لعليٍّ كرم الله وجهه : « يا علي ، إن الله خلق المعروف وخلق له أهلاً ، فحبَّب إليهم فعاله ، ووجَّه إليهم طلابه ، كما وجَّه الماء في الأرض الجدبة لتحيا به ، ويحيا به أهلها، إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة » ، وروى الإمام السيوطي في كتاب « الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف » ، وصحح إسناده عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قضى للمسلم في الله حاجة كتب الله له سبعة آلاف سنة صيام نهارها وقيام ليلها » ، وروى أيضاً عن رسول الله ﷺ قال : « إذا أسدى المؤمن إلى أخيه معروفاً ، فقال له : جزاك الله خيراً، فإن الله تعالى يقول : يا عبدي ، أسدى إليك أخوك معروفاً فلم تجد ما تكافيه به ، فأحَلْتَهُ عليَّ ، فخيري الجنة » ، وفي ضمن هذا بشارة بحسن الخاتمة ، فإن الجنة لا تحصل إلا لمن مات على حسن الخاتمة ، فكأن المعنى: أيها المؤمن بإسدائك المعروف إلى أخيك ، وقوله لك : « جزاك الله خيراً » ، فأبْشِر بالموت على حسن الخاتمة

وبدخول الجنة .

وفي كتاب « أخلاق النبوة من الإحياء » ، عن عليٍّ كرم الله وجهه ، قال عليٌّ : قال النبي ﷺ : « يا عجباً لرجل مسلم يَجِيئُهُ أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً » ، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ، لقد كان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق ، فإنها مما تدل على سبيل النجاة ، فقال له رجل : أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : « نعم ، وما هو خير منه ؟ » .

قلت : فانظر اليوم ما أبعدهم عن هذه الأوصاف الكريمة ، واستبدالهم عنها بأضدادها من الأوصاف الذميمة ، مع دعواهم لمحاسن الأوصاف ومكارم الأخلاق في أنفسهم كذباً ورياء ، كما قال في هذه المقالة : « على أن أناساً .. » إلى آخرها ، فصارت الأحوال اليوم مبنيَّة على التلبيس والكذب ، وإظهار خلاف ما بطن ، وهو النفاق بعينه ، فيا لها من مصائب ومفاسد في الدين والمروءة .

ذهبت الحقائق من الأمرين الدين والمروءة ، وبقيت دعاوي باطلة في صور خاوية خالية من حقائقها ، والدنيا محل الدعاوي والكذب والتلبيس ، فإذا طلبوا جزاءها في يوم لا يمكن فيه ولا يظهر إلا الحقائق ، ولا يعرف ما يغير في الدنيا من التلبيس والكذب ، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾، وقد تقدَّم ويأتي قوله : « **انعكست الأمور في هذا الزمان عن أوضاعها، ورجعت إلى أضدادها ، فينبغي أن يُسَمَّى الزمان مخيب الظنون** » ، وهذه كلمة من جوامع الكلم ، إرثاً له من جدِّه النبي ﷺ، الذي أوتي جوامع الكلم ، وهي كلمة جامعة تشمل الأمرين معاً : الدين والمروءة . وأمور غيرهما من كل أمرٍ حَسَن استُبْدِلَ بضدِّه ، وهذا بالنسبة إلى أحوال الناس في الزمان، لكون الناس كلما تأخر الزمان نقصوا في أديانهم ومروءاتهم وغيرهما ، على ما وعد به الرسول ﷺ حتى لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، وفي رواية : « لا تقوم على أحد يقول : الله الله»، فكلما ذُكِرَ ذَمُّ الزمان في أقوالهم فالمراد ذم أحوال الناس في الزمان ونقصهم عما كانوا .

ثم لما قال لتلك الكلمة مَثَّل لذلك ، وَذَكَرَ بلدان حضرموت وعدَّد بعضاً منها فقال : « **ليست شبام بشبام ، ولا الغرفة بالغرفة ، ولا سيئون بسيئون ، ولا مدودة بمدودة ، راحت الأرواح وبقيت الأشباح ، ذهبت الحقائق وبقيت الصُّور ، فكان همُّهم طلب العلم والعمل به خالصاً لوجه الله ، فصاروا اليوم إنما همهم تحسين الثياب وتزيين الصور مع ترك القلوب بأوساخها ، وعدم تنظيفها من الصفات المذمومة من الرياء والحسد والحقد ، ونحوها من سائر الصفات المذمومة ، وعدم تحليتها بالصفات المحمودة** »، أو كما قال .

فهذه معاني أقواله شرحنا بها معاني أقواله ، وإلا فما عندنا في قوله معنى إلا ما فهمنا من معنى قوله، فنزيد عليه ما قد عَلِمْنَا من معاني أقوال غيره ، مؤكِّداً ومحقِّقاً لقوله ، ثم إنَّا لا نحكم على جميع آحاد

هؤلاء الأصناف الثلاثة بأنهم كلهم أجمع على هذا الوصف الرديء ، وإنما رأينا الكثير أو الأكثر من كل صنفٍ على ما ذَكَرْنَا عنهم ، ولا نَقْطَع على الجميع وكل فرد منهم بذلك ، ولا نقول أنهم كلهم أجمع موصوفون بذلك ، فربما أن منهم أحداً ولو واحداً على وَصْفِهم الأصلي ، وَصْفِ أسلافهم الجميل ، وإن الله تعالى سَتَرَهم برداء الغيرة في هذا الزمان ، لعدم استحقاق أهله أن يظهروا فيهم ، ومن تظهر فيه أوصافهم الجميلة ، وربما أن الله سبحانه أظهر على بعضهم أحوال مظاهر الزمان ، وأوصاف أهل زمانهم الردية من الشح والبخل وغير ذلك ستراً لهم ظاهراً ، وإن سرائرهم بينهم وبين ربهم صالحة وعلى الحال المحمود . وقد قال سيدنا علي كرم الله وجهه : « الأرض لا تخلو من قائمٍ لله بحجة، إما ظاهر مشهور أو خامل مستور » ، ولا يذهبوا حتى يؤدوها إلى نظرائهم ممن يقوم لله بحججه ، وفي الحديث الصحيح: « لا تزال طائفة من أمتي ، ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم ، حتى يأتي أمر الله ، حتى إنهم ليقاتلون المسيح الدجال» ، أي حتى ينفخ في الصور النفخة الأولى ، التي يموت بها كل حيٍّ من الخلق التي قال الله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، ومدتها إلى النفخة الأخرى التي يحيى بها كل ميت : أربعون سنة ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۞﴾.

وسيأتي قريباً قوله : « **إن الزمان لا يخلو من أهل الحق ، وإذا فُقِدَ أحد من أهل الحق لا بد أن يجعل الله منه خلفاً في غيره ، وقد يكون في من لم يخطر في البال أنه أهل لذلك ، ولا يظن به ذلك ، ولا يكون في الوهم استحقاقه له** » ، وتكرر منه كلام كثير في هذا المعنى ، تقدم منه شيء ، وشيء سيأتي .

قال رضي الله عنه : « أسمعُ ما يقال عن الأولين : إنه من الناس من هو كثير العقل قليل العلم ، ومن هو كثير العلم قليل العقل ، والأول أفضل » .

أقول : والمراد بالعقل الأول : العقل الغريزي الطبيعي الخلقي ، وبالثاني : المعرفة الحاصلة منه بالتجارب . وتكرر الأحوال كما تقدَّم من قوله في وَصْفِه ، بأن يعرف أن ما يضره يضر غيره وما ينفعه ينفع غيره ، ونحو ذلك . وإنما يحصل الثاني بسبب الأول ، ولذلك قال إنه أفضل منه لأنه أصله ، ولولاه لما حصل . انظر إلى المجنون الخالي من العقل الأول الخلقي ، لو أنه استمع إلى كثير من العلوم، ورأى كثيراً من التجارب لما استفاد من ذلك شيئاً ، فلذلك كان أفضل من الثاني ، فالأول أصله ، والثاني كماله. فإذا كان معه تَمَّ وكَمُل ، فالعاقل العامي الذي لا عِلْم معه ناقص ، والعاقل العالم كامل عند أهل الظاهر ، فإن صحبه مع ذلك التقوى والخشية لله فهو كامل عند أهل الظاهر وأهل الباطن .

ولذلك قال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

العَقْـلُ عَقْـلَان : مَطْبُـوعٌ وَمَسْـمُـوع ولا يَنْفَـعُ مَسْـمُـوعٌ إذا لم يَكُ مَطْبُـوع

ومراده بقوله : « ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع »، أي لا يحصل ولا يستفاد إلا به ، فلولاه لما حصل ، فوجوده كالعدم فلا خير فيه ، أي فهو كَلَا شيء ، فبالعلم الغريزي تحصل العلوم ومعرفة الأشياء والإطلاع على فوائدها ومنافعها ، فيعرف منفعة ما ينفع فيباشره ، ويعرف مضرة ما يضر فيجتنبه ، ويعرف الأحكام وتفاصيلها ، ومع التقوى ينجذب إلى العمل والإمتثال والنيات الخالصة ، ويتجنَّب ما يخالف العلم ، مخلصاً في العمل والتَّرك لوجه الله .

قال رضي الله عنه : « لا تَلُم الموتور » هـ .

أقول : يعني المصاب ، ومعناه : لا تَلُم من أُصِيبَ بمصيبة بما يتكلم به من جهتها ، ولو أكثر فيها الكلام وبالغ فيه ، كَذْكِرِ مَن ظَلَمَهُ أو تسبَّبَ في الظلم بذم ، كيف ودعوة المظلوم ترفع فوق الحجاب .

ومن المجرب في العادة أن الإنسان إذا ظلم بخصوصه يشتد عليه ذلك أكثر مما لو كان مع غيره ، فيكون ذلك أهون عليه ، إذ يقول في نفسه : أنا أسوة غيري . أي أتأسَّى بهم ، والتأسي : الإقتداء بالغير فيشبهه ، فهذا أَشْبَه غَيْرَه فهان عليه الأمر ، ومثله ما لو تلف له مال مع غيره في بَرٍّ أو بحر ، فهو أهون عليه وحده هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا أعرض العبد عن الله وأعرض الله عنه ، لا ينفعه شيء حتى يُقبِل على الله ، ويُقبِل الله عليه ، والضلالة إذا رسخت بأن تربَّى عليها يعسر إزالتها ، كالنخلة الراسخة ، فلو أَمَرْتَ أهل تريم – مثلاً – بترك ما استمرَّت به عادتهم لما أمكنهم ، ولو قلت لهم أن يقلعوا نخلة لازدحموا عليها ، فضاق بهم المكان وعجزوا لذلك » .

قال رضي الله عنه : « إنَّا نتحفظ جهدنا من أهل الزمان ، لأنَّا غرباء معهم ، ونحن معهم مثل الذي قيل له : أتشهد بكذا وكذا ؟ قال : نعم ، ثم قيل له : أتشهد بكذا وكذا ؟ قال : ما أسمع » هـ .

أقول : معناه أنه يعرف حقًّا وباطلاً ، فأقرَّ بما يعرف من الحق ، وتوقف عن الإقرار بما يعرف من الباطل ، خوفاً من انشقاق العصا ، أو خوفاً على نفسه من جبار عنيد .

ولعله أشار بذلك تمثيلاً بقصة أبي مسلم الخولاني ، لمَّا قبضه العنسي المدَّعي النبوة الكذاب بصنعاء، فقال له : « أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ » ، قال : « نعم » قال : « أتشهد أني رسول الله ؟ »،

قال : « ما أسمع » ، وهذه الكلمة ورَّى بها ظاهراً عن عدم سماع الأذنين ، وباطناً عن الإذعان ، أي لا أذعن لما قلتَ من دعواك النبوة ، وقالها له بلسانه ، وذلك أسلم له من شره من التصريح بما هو في قلبه من تكذيبه والإنكار عليه ، مع كونها مؤدية لمعنى ما في قلبه له من الإنكار والإباء ، ولو صرح له بما أراد منه لكان معذوراً ، لقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وهذا على مقتضى الحكم الشرعي العام المخاطب به كل أحد ، وهو مقام العامة أصحاب اليمين ، ولكنه غلب عليه حال أهل مقام الخاصة من المقربين ، وفيه خطر الشهادة أو الكرامة وخرق العادة ، فحصلت له الأخرى ، حيث صرَّح له بعد بما في قلبه ، فأجَّجَ له ناراً عظيمة وألقاه فيها ، فنجاه الله منها ولم تضره .

وكان في وقت النبي ﷺ فعوَّقه هذا الخبيث عن الإجتماع به ، فلما أهلك الله الكذاب مضى إلى المدينة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، فالتقاه عمر رضي الله عنه فقال له : « من أنت ؟ » ، قال : « أنا عبدالله بن ثويب » ، فقال له : « أنت أخونا الذي ألقاه الكذاب في النار فلم تضره ؟ » ، قال : « نعم»، فقبَّل عمر بين عينيه ، وقبض بيده وأدخله على أبي بكر ، وقال له : « هذا أخونا الذي ألقاه العنسي في النار ولم تضره » ، فقال له سيدنا أبوبكر رضي الله عنه وأكرمه وعظمه : « الحمد لله الذي لم يُمِتْنِي حتى أراني في هذه الأمة من أشبه إبراهيم الخليل ، حيث أُلْقِيَ في النار ولم تضره » . ومن عجيب أمره أنه قال: « إني لم يكتب لي من الدنيا نصيب قط ، حتى إني ركبتُ مرة حماراً فلم يمشي بي ، وعالجته على المشي فجعل رأسه بين يديه ووقف بي وأبى أن يمشي ، فَرَكِبَه رجلٌ آخر فَعَدَا به عَدْواً » .

كذا ذَكَرَهُ في ترجمته من كتاب « مجمع الأحباب » .

ومعنى ما أراد سيدنا يعني : أنَّا نرى في زماننا هذا أشياء من الحق فنحن نقر بها ونشهد بها لو استُشهِدْنا كما شَهِدَ أبو مسلم برسالة رسول الله ﷺ ، ونرى فيه أشياء من الباطل ننكرها في القلب بيننا وبين الله ، ولو اسْتُشْهِدْنَا عليها سَكَتْنَا مع إنكارنا لها خوفاً من انشقاق العصا بيننا وبينهم ، ولو أن عمل الناس على اتباعها والعمل بها ، وهي خلاف الحق والصواب ، ولا يرون بذلك بأساً لتداول القصور والأعمال عليها ، ويرونها صواباً وحقًا . ولو أنكرها عليهم أحد انقلبوا عليه باللَّوم والإنكار والإيذاء ، ورأوا أنه هو المخطيء وأنه مخالف للحق والصواب لمخالفته ما اعتادوه ، وما خالف العادة مُسْتَنكَر ، وهذا مما اشتملت عليه كلمته المتقدِّمة ، وهي قوله : « **في هذا الزمان انقلبت الأشياء عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها .. إلخ** » .

ومن جملة هذه الأمور التي ينكرها بقلبه بينه وبين الله ، وعمل الناس عليها ويرون أنها حقاً وصواباً: « بيع العهدة » ، وتسمى : « الصبرة » ، « وبيع الناس » ، ولها أسماء كثيرة كالهر ، فإن ما عظم شأنه في الحسن أو في الخساسة كثرت أسماؤه، وهو مما أدخله علماء السوء في شرع الله ، واشتهر أمره ،

وليس من دين الله . وما حدث إلا بعد الأئمة الأربعة ، وكل من نَسَبَ جوازه إلى أحدٍ منهم فإنه كذب عليه وهو خصمه عند الله إذا وقفوا بين يدي الله ، فإنهم ما سمعوه ولا أحد منهم أفتى فيه بشيء ، بل هو مما أدخله في الدين الفاسدون من العلماء ، الذين يطلبون الدنيا بالدين ، كما قال : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » .

وكذبوا بها على الأئمة فقالوا : تجوز في مذهب أبي حنيفة . وقد باحَثْنَا فيه علماء من الحنفية ، وقلنا لهم : أرونا من ذلك كلام الإمام أبي حنيفة . فما وجدوا من كلامه ما يدل على جوازها . وأبوحنيفة متقدِّمٌ وقْتُهُ على أوقات باقي الأئمة ، فإنه أدرك بعض الصحابة الأئمة ، ولو أدركها لأدركها باقي الأئمة ، ولكان لِكُلٍّ منهم فيها كلام ، ولم يذكر عنهم فيها شيء ، وإنما في فتاوى ابن حجر قال : « وما أعلم ما بيع الناس الذي يذكرون ، فإن وافق البيع الشرعي صَحَّ ، والحُكْم يصح ، وإلا لم يصح » ، وهذا ما يحتج به الشافعية فيها عن ابن حجر .

وكيف يفتي مسلم بجوازها وقد قال النبي ﷺ : « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده » ، وإنما عَنَا هذا يحذر منه قبل ظهوره ، وإلا بقية أنواع الربا من بيع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، متفاضلاً أو بغير تقابض ، وسائر أنواع الربا فلا أحد من المسلمين يتعاطاه بفعل ، فضلاً عن أن يكون عليه كتابة وعقد وشهود، وقد قال النبي ﷺ : « سيأتي زمان لا يبقى أحد إلا أَكَلَ الربا ، فإن لم يأكله أصابه من غباره » ، فأكَلَهُ من يتعاطاه ، ومن أصابه من غباره من يناله منها شيء ممن لم يتعاطاه ، فَذَكَرَ هذا البيع بعمومه ، وعَمَّ كل أحد بأكْلِهِ ، لانتشاره وكثرته ، كما تراه عم الخاص والعام ، والمتسبب وغير المتسبب ، ولكن لا بد في الأمة من ينكره لقوله ﷺ : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ، ويصدق قوله على أنه لو لم يكن في الأمة من ينكره إلا واحد ، فصَحَّ أنها لم تجتمع على ضلالة .

قال : « **ولو نظهر الإنكار عن ذلك - أي عن هذا - وعن جملة المنكرات المألوفة انشقَّت العصا بيننا وبينهم ، فعدم إظهارنا له مع إنكارنا له في القلب أولى ، ولو سُئِلْنا عنها هل هي حق أم باطل ؟ لقلنا وأَفْتَيْنَا أنها باطل** » ، وهو معنى قول : « ما أسمع » ، أي ما أسمع قولكم أنها حق ، ولا نتبعكم عليها، ولا على العمل بها وعليها .

وقد كان نهاهم عنها ، وعَدَّ أنواعاً من الربا وحذَّرهم من ذلك غاية التحذير ، ووعدهم إن لم ينتهوا بفتنةٍ هائلة تُذهِب أموالهم وأحوالهم ، فلم ينتهوا ، فأرسل الله عليهم فتنة يافع ، فأخذوا أموالهم وديارهم وشتَّتوهم في أقاصي البلدان ، فلم يتركوهم يستقروا في أوطانهم ، دخلوا عليهم بلادهم أول يوم من عاشور سنة ١١١٧ إلى الآن وهي سنة ١١٦٨ ، وهلُمَّ جرا .

وقد سمعته يقول : « **إن الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بافضل صاحب مختصر بافضل - يعني**

الذي شرحه ابن حجر ، وعليه معتمد الشوافع في كل الجهات - **سئل عن بيع العهدة قال : هي مسألة مظلمة، أرجو أن الله يقيِّض لها من يزيلها** » .

وقد اجتمعتُ برجلٍ حنفيٍّ في مجلس بعض الإخوان ، وإذا به يمدح هذا البيع ويقول : « اليوم لا أنفع للناس منه ولا أحسن ولا أوفق » ، فقلت له : إن ذلك رباً صريح ، كيف تمدحه ؟ وبعد تقدير الله ، ما أتلف الله أموال الناس في برٍّ وبحرٍ إلا بسبب مخالطته لأموالهم ، فاسترجع وقال : « كان لك مندوحة عن هذا القول » ، فقلت : ما لي مندوحة عنه ، ويلزمني إنكار ذلك . فقال : « الآن عرفتك »، قلت: اعرفني ، وإن ما عرفتني عرَّفتك بنفسي ، قال : « مثلك مثل أهل غمسي » ، وهم أرفاض ربّوا تيساً ليوم عاشور لما اعتادوه من عوائدهم ، وسموه تيس الحسين ، فضربه بعض الناس من السُّنَّة على ظهره ، فاتفق أن ذلك الذي ضربه توفي بعد ثلاثة أيام ، فقالوا : إنما قتله تيس الحسين ، فقلت : « ما شبهتني إلا بالأرفاض ؟ » ، وإنما جاء إلى ذلك الأخ المذكور يطلبه أجرة حجه ، فأعطاه إياه وحج ، فاختصم في بعض المنازل عند مورد الماء مع بعض البدو ، فضربوه حتى غشي عليه ، فحمل إلى رحله مغشيًا عليه ثم توفي في الحال .

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى المقامين : مقام الخصوص : الذين أحدهم يصدع بالحق عند من يخاف شره ، ولا يبالي إن حَصَلَت له الشهادة بالقتل أو الكرامة كأبي مسلم . ومقام العموم : الذين يورّون ، أو يقولون ما طلب منهم عند الخوف ، وهم معذورون في ذلك لقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فقال في مقام الخصوص : « اعبد الله على الرضا » ، وقال في مقام العموم : « فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، وتقدم تفصيله .

وفي الكتاب والسنة إشارات كثيرة إلى هذَيْن المقامَيْن ، كما قدَّمنا ذِكره من أن قوله تعالى في آية : ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ ، للخصوص ، أي كل ما ملكوا قَلَّ أو كثر ، لا يخصون به أنفسهم بل يرون أنهم هم ومن احتاج وسأل أو لم يسأل فيه سواء ، وآية : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ ، للعموم ، أي في قدر النصاب من أموالهم حق الزكاة الواجبة للمحتاج ، من سائل وغير سائل .

وقال النبي ﷺ لأهل الخصوص ، الذين لا يرون فاعلاً أمراً من خيرٍ أو شرٍّ قط إلا الله : « لا عدوى » ، كما يظن ضعفاء الإيمان ، « ولا طيرة » ، كما يفعل السفهاء من التطير عند سماع كلمة تؤذيه، ويرجع بسببها عن المسير لمقصده ، فإن هذا أمر جاهلي وفاعله جاهل وضعيف العقل . وقال لأهل مقام العموم ، الذين تجنح قلوبهم إلى العدوى وتضطرب من ذلك : « فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد».

وأما من سكن قلبه واطمأنَّ خاطره ، وتيقَّن أنه لا يصيبه إلا ما أراده الله له من خير أو شر، وإنه لا مدخل لمخلوق في ذلك من جليل أو حقير أو مشعوذ ، ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ومن زعم أن مخلوقاً يضر أو ينفع من دون الله فقد أشرك بالله ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾، فحينئذ يطمئن قلبه ولا يضطرب ، ويتحقق أنه لا يرد ذلك عنه فوت سبب ، ولا يجرُّه إليه حصول سبب ، فإن غُلب في هذه الحالة وأُخذ عن شعوره فهو معذور في كل أموره ، وإن بقي معه اختيار وجب عليه اختيار الأحسن شرعاً ومروءةً وعرفاً واجتناب الأسوأ فيهما ، وذلك مراد الله منه بإبقاء الشعور والإختيار معه ، ولولا أنه مراده منه لسلب الشعور عنه ، فصار مراد الله منه ما حصل منه .

فإن قلت : فإذا كان معه شعور واختيار ، فاختار الأسوأ ، أليس ذلك مراد الله منه ؟ فنقول: نعم، وربما أنه ممن حقت عليه الكلمة ، فلا محيص له عنه لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ الآية ، فمرادنا هنا أن ذلك مراد الله منه ، أعني : الإرادة الشرعية بموافقة الإرادة الأزلية، وهو معنى قول سيدنا الذي قدَّمناه : « فالسعيد من أراد به الحق » ، وهو الإرادة الأزلية ، « وأراد منه » ، وهو الإرادة الشرعية ، يعني وافق الإرادتين في الخير . والكلام في مقام الخصوص . وأما من فعل الأسوأ مع الإختيار فهو من علامة الخذلان ، وهو معنى قوله : « والشقي من اختلفت به الأمور » ، يعني أن من فعل الأسوأ وهو مختار ، اختلفت به الأمور ، يعني اختلف اتّباعه ، فاتَّبع الإرادة الأزلية لكونه من أهل الشقاوة ، ولم يتبع الإرادة الشرعية التي فيها إقامة حقوق الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، لكونه من أهل الخذلان شقاوة أو حرماناً . وهذا الكلام في مقام العموم ، فما فعل الأسوأ مع الإختيار إلا لما أراد الله له من جزاء ذلك العمل ، على ما تقدَّم من تفصيله هـ .

قال رضي الله عنه : « ما أحسن في هذا الزمان من الإنقباض والصمت ، فإذا جلستَ مع نفر منهم فَقُم، وأظهِر أن لك حاجة دَعَتْكَ إلى القيام ، وحاجتك حاجة صحيحة ، وهي الإعراض عنهم للسلامة مما يقعون فيه » .

وقال لبعض الأعيان من السادة ، وهو السيد محمد بارقبة : **« الحزم ترك مجالسة أهل الزمان ، والحذر منهم ، وحَدُّك أن مجالسة المغنِّي أحسن وأسلم من مجالستهم ، وإذا جالستَهم وتكلمتَ معهم ، فأقلِلْ ولا تتكلم إلا فيما لابد منه ، حق التنفُّس أو الإستذكار ، ولا تتعب نفسك معهم ، فإنَّ أوعيتهم مخرَّقة » هـ .**

أقول : وهذا الرجل ، أو أخوه السيد أحمد بارقبة ، مما تلف ماله بالظلم من يافع ، لأنه استدان من أحدهم أربعمائة قرش فيما سمعنا ، وبقي اليافعي يحسب عليه في كل شهر زيادة بالربا ، إلى أن أوصل الدين بزعمه ألف قرش ، فقال له : « هذا قيمة نخلك فاسْتَدْ مِن النخل ودوابه التي يسقي عليها » ، وأخَذَ الجميع غصباً على هذه الكيفية . وكان نخلاً جزلاً يسوى أكثر من الألف ، وما دفع له فيه وفيما أخذ من الدواب سوى الأربعمائة قرش ، فهكذا حال المنصف منهم ، وإلا فأكثرهم مشاهر بالظلم والعدوان . وكان هذا الشريف جلس عند سيدنا ، وجعل يتكلم عن نفسه أو عن أخيه ، ويذكر أنه اتهم أحداً أنه أغرى اليافعي بأخذ النخل ، فأوصاه بأن لا يتكلم مع أحد سيما إن كان لديهم خلطة ، فربما يتكلم من جانبهم ، فينقل لهم كلامه فينوون أذاه أو إلى أحد غيرهم فتحدث في قلبه له البغضاء، والحاصل أن نقل الكلام لا خير فيه .

قوله : « **مما يقعون فيه** » ، أي مما يضر في الدين كغيبة ، أو يضر في الدنيا كمن يتكلم بحضرة من ينقل الكلام ، فيلقي العداوة بين الناس .

وقوله : « **وأوعيتهم** » ، أي قلوبهم ، « **مخرَّقة** » ، أي لا يحفظون العلم إذا أُلْقِيَ إليهم ، ولا يحفظون السِّرَّ إذا بُثَّ لديهم ، بل يفشونه ويظهرونه ولا يمسكونه ، كما لا يمسك الإناء المخروق الماء ، وليس هذا من شيمة الرجال من أهل الديانات وأهل المروءات .

وقال : « **كلام أهل الزمان ، كقشاش خُمَّ من الدار مُلِيء به طبقاً لِيُرمَى ، لا ترى ما ينتفع به . وقد كان الأولون لابد في كلامهم من فائدة ، ثم إنهم لم ينظروا في الكلام ، بل ينظروا في السِّيَر ، ويتأملون فيها، وتظهر لهم فيها الكرامات ، تحملهم على العمل ، وأما هؤلاء فمجالستهم فتنة وإثم وغيبة وفضول وتضييع للوقت ، فاعتزالهم أحسن** » هـ .

أقول : شَبَّه كلام أهل الزمان بالقشاش بأنه لا خير فيه ، وربما أن فيه نجاسة ، وهي في الكلام ما يأثم به كالغيبة .

وقوله : « **لا ترى فيه ما ينتفع به** » ، فكلامهم غالبه أن يحكي أحدهم ما جرى عليه من فائدة استفادها في بيعه وشرائه ، أو ما وقع عليه من سلامته من نهب ، أو ما حصل عليه من أمر ونحو ذلك، فأي فائدة في هذا .

ثم إنه حصر كلامهم ومجالستهم في الخمسة المذكورة من قوله : « **فتنة .. إلخ** » ، والفتنة : ما يقع عليه مما يضر بدينه وهو هذه المذكورة ، وفرقٌ بينهم وبين الأولين بأن كلامهم لا يخلو من فائدة ، إما

علم استفادَهُ ، أو عظة سَمِعَها أثَّرت في قلبه فانتهض بسببها إلى الإقبال على الله .

ثم إنهم لا يعتبرون بقول قائل ، وإن حصل مثل هذه الفوائد من كلامه ، بل يعتبرون بسيرته فإن كان على السيرة السوية المرضية لا يزلّ عنها قيد شبر ؛ اعتمدوا على قوله واعتقَدُوا ما يقوله، حيث وافق قوله فعله ، وإن رأوه زلَّ عنها أقل قليل اطَّرحوه ، فلا يعبؤون به ولا بكلامه ، وإن بلغ إلى الغاية في البلاغة والفصاحة ، فإذا كان كذلك في السيرة والكلام ، فربما أثَّر كلام رجل واحد في ألف رجل ، وإن لم يكن كذلك فربما كلام ألف رجل لا يؤثِّر في رجل واحد ، فإن كان من أهل السر فكلامه يكون حينئذ بلسان الحال عبَّر عنه بكلام المقال ، فحينئذ يقهر السامع على العمل بما أمر به ، ولو كان أبخل خلق الله وقال له : « اخرج من مالك كله لله »، لخرج منه بسهولة بلا تكلف . بخلاف مقال اللسان فإنه لا يحرك للعمل ، كما ترى من وعاظ هذا الزمان على المنابر ، فإنه قلَّ أن ينتهض سامع كلامهم للإقبال على الله . والفرق بين اللسانين ما نبَّه عليه من قوله : « **ثم إن الأولين لم ينظروا في الكلام بل ينظروا في السِّيَر** » ، فالكلام الحسن مجرداً دون حُسْن السيرة هو كلام اللسان ، فكانوا لا يعبؤون بهذا. وأما إذا حَسُنَت السيرة وحَسُن الكلام معها، فهو الذي يعبؤون به - أي السلف - فإذا حصل مع ذلك السِّر المذكور ، كان قوله حينئذ هو لسان الحال القاهر للإنسان على العمل بما أمر به ، وهو موهبة من الله سبحانه، يختصُّ به من يشاء ، وليس من كَسْبِ الإنسان ، وإنما حد كَسْبِهِ حُسْن السيرة والسريرة لا غير .

وإنما نظر السلف من الإنسان ما هو من كَسْبِهِ ومعاملته مع ربه ، من حُسْن السيرة والسريرة وحُسْن الكلام تبعاً لذلك ، وذلك السِّر الموهوب فِعل الله مجرداً لا يُطالب به العبد ، كما ستأتي الإشارة إليه عند ذِكْر وَعْظِ الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع الله به ، لما استأذنه ابنه في الوعظ في مجلسه، بعد ما طلب علوم الفقه والنحو حتى بلغ من البلاغة حدَّها ، فقال له أبوه : « ليس هذا الأمر بالفصاحة، وإنما هو بِسِرٍّ » ، وكان يموت من وعظ الشيخ ناس كثير ، وأحد يغشى عليه، وأسلم من اليهود والنصارى عدد كثير لا يحصى ، فأبى ولده إلا أن يأذن له ، فأذن له ، فصعد المنبر وجعل يعظ ويستشهد بآيات وأحاديث وأبيات من الشعر ، ويتكلم بكلام بليغ في الفصاحة والبلاغة ، فسَدَّ الناس أسماعهم عن سماعه ، وأقسموا على الشيخ ليأمرنّه بالنزول والسكوت عنهم، فسكت ونزل . ثم صعد الشيخ ، فأول ما قال : « اعلموا أيها الناس ، إن أم الفقراء - يعني زوجته - طبخت لي دجاجة ، وجعلتها في غضارة فأكلتها الهرة » ، فضجَّ الناس بالبكاء والعويل والصراخ، ثم نزل الشيخ وقال لابنه : « ألم أقل لك إن ذلك ليس بالفصاحة والبلاغة ، وإنما هو بِسِر » ، انتهى . وهو من جِنْس السِّرّ الذي أوتيه سيدنا أبوبكر، الذي بسببه يقوى الإيمان في القلب ويربو ، كما قال ﷺ : « ما فضلكم أبوبكر بكثرة صوم

ولا صلاة ، وإنما فضلكم بِسِرٍّ وَقَرَ في صدره » ، « ولو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجحها »، وبيَّن لنا إنما ذلك بسبب ذلك السِّر ، ويخص الله ممن اصطفاه من ذلك السر بقدر خصوصيته ، وقدر ما خصَّه به منه ، وبقدر ما أوتي العبد منه يكون يقينه وتعلق قلبه بالله ، ويغيب عن هموم الدنيا ويميل قلبه عنها هـ .

قال رضي الله عنه : « لسان الحال أبلغ من لسان المقال ، لأنه مُجَرَّد عمل ، والنفوس مولعة بالإقتداء بعمل الإنسان أكثر من الإقتداء بقوله ، وقد قيل : رجلٌ واحد يجذب ألف رجل بلسان حاله ، وألفٌ لا يجذبون واحد بلسان مقالهم . وكان بعض المتقدمين يقول : العالم الذي يزهِّد الناس في الدنيا بلسانه ويوعظهم بمقاله ، ثم هو يرغب فيها ويتمتع بها ، كأنه يقول : اتركوها لأجلي وخلوها لي » هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا تمسَّك الإنسان وأمكن أن يتبعه أحد من أقارب أو غيرهم على الحق ، فليفعل ويثبت ، فإن الزمان لا يخلو من أهل الحق ، فإذا فُقِد أحد من أهل الحق ، لا بد أن يجعل الله خلفاً في غيره ، وقد يكون في من لا يخطر في البال ولا يُظَن به ذلك ، ولا يكون في الوهم استحقاقه له » .

وتقدَّم في هذا المعنى قوله : « أخبرنا رجل عن أبيه قال : إذا مات فلان - يعني سيدنا عبدالله - بقى الناس يضرب جباههم بعضهم بعضاً ، فقلنا : لا إن شاء الله، وليس هذا الظن في الله ، بل الظن فيه سبحانه أنه إذا مات أحد من أهل الحق أن يجعل الله منه خلفاً في غيره » .

قال رضي الله عنه : « ينبغي للإنسان في هذا الزمان أن يهتَمَّ بأمر نفسه جدًّا ، ولا يُقَصِّر في ذلك ، ولا يهتم بأمر غيره ، ويلزم نفسه ما به نجاتها ، ويجنِّبها ما لا ينبغي، بل يكون كرَاكِبِ سفينة حصل عليه ما يخشى منه الغرق ، فإنه لا يهتم إلا بأمر نفسه ولا يعرِّج على غيره . ومن لا يهتم بأمر نفسه ، فلا عقل له، وهو كمن هو في معركة القتال مع عدوه فطرح سيفه في الأرض وجلس ، فلا محالة يوشك أن يسرع إلى قتله ، لكنه يراعي مع غيره ما يلزمه شرعاً ، قال تعالى : ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾، فَقَيَّده بالهداية ، وما قال : إذا ضللتم » هـ .

أقول : ومن الهداية التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر ، وعكسه إذا لم يكن ذلك ضلالة ، فمراده أن يكون كل أحد همّه وسعيه فيما ينفعه ، ويتجنب ما يضره في آخرته ، وهو الهداية المذكورة ، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يضره ولا ينفعه ، وذلك خلاف ما أشار به عليك وحَثَّك عليه هـ .

قال رضي الله عنه : « من الطاعات ما يقيك من النار ، ومنها ما يطرق لك إلى الجنة ، والورع مما يقيك النار فاستكثر منه ما استطعت واستقلل الكثير منه ، ولا تستكثر القليل ، والورع هو التقوى » هـ .

أقول : يعني بالتقوى ، التوقي من كل ما يضرك من ترك واجب أو ارتكاب حرام ، أو ما ينقصك ويحط قدرك من ترك ما يستحب ، أو فعل ما يكره .

ثم ذكر الجنة ، فقال : « هي في اعتدالها ونورها وصفائها كما بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس في وقت شدة الصيف ، إذا هبت الرياح اللطيفة الباردة ، التي تسمى العليا وهي النّعاما ، وهذا الوقت خلي من الظلمة ومن الحر والبرد ، ويوضع نور الشمس والقمر فيها ويُلقيان في النار ، لأنهما عُبِدا من دون الله ، وفيها من النور ما لا يبلغه الوصف ، حتى أن نور الرجل الواحد لو برز في الدنيا لغطّى نورُه نورَ الشمس . وأهل الجنة لا ينامون بسبب النعيم الذي هُم فيه ، وأهل النار لا ينامون بسبب العذاب الذي هُم فيه ، فانظر كيف اشتركوا في عدم النوم واختلفوا في المادة » هـ .

أقول : تسمى تلك الرياح « العليا » ، كذا هي في لغة حضرموت ، وفي لغة العرب الأولين : « النَّعاما » ، كذا سمعته من سيدنا مراراً ، وسُمِّيَت بذلك لأن ابتداء هبوبها في نجم النَّعايم للشبامي ، وبهذه الرياح يترطب الرُّطب بالدبس بعدما كان جافًّا قبل هبوبها .

ويعني بشدة الصيف : مدة حزيران وتموز وآب ، وأول حزيران سابع القلب وآخر آب سابع في خبا ، ومدتها اثنان وتسعون يوماً ، وفي هذه المدة شدة القيظ ونَفَس جهنم الذي أذن الله لها به في الصيف ، وفيها احتياج الناس إلى التروح بالمراوح ، وقد رأيت بيد سيدنا عبدالله مروحة ، كان يتروَّح بها وكنا نروح عليه بها ، جيء له بها من الهند ، من المراوح التي تنثني وتنقبض ، وفيها مكتوب هذان البيتان :

وَمِرْوَحَـةٌ تُـرَوِّحُ كُلَّ هَـمٍّ ثَلَاثَـةُ أَشْـهرٍ لا بُـدَّ مِنْهَـا
حُزَيْـرَانٌ وَتَمُّـوزٌ وَآبٌ وَفِي أَيْلُـول يُغْنِـي اللهُ عَنْهَـا

وأول أيلول ثامن خبا ، ومقابل هذه المدة في الصيف ، من سابع في الدبران وهو يوم ثلاثين من تشرين الأول إلى سادس في الزبرة ، أول يوم من آذار في الشتاء ، وفي هذه المدة نَفَس جهنم الآخر الذي أذن الله لها به في الشتاء ، كما في الحديث : « إن جهنم شَكَت إلى ربِّها فقالت : يا ربِّ ، أكل بعضي بعضاً ، وكثرت أغلالي وسلاسلي ، فعجِّل عليَّ بأهلي . فأذن سبحانه لها بنَفَسَيْن : نَفَسٌ في الصيف ونَفَسٌ في الشتاء ، فهو أشد ما تجدون من شدة الحر والزمهرير » ، يعني شدة البرد .

وكل من المدتين في الصيف والشتاء عدد أيامهما سواء : اثنان وتسعون يوماً ، ونجوم كل منهما رقباء لنجوم الأخرى ، فالقلب رقيب الدبران ، والشولة رقيب الهقعة ، والنعايم رقيب الهنعة ، والبلدة رقيب الذراع ، وسعد الذابح رقيب النثرة وسعد بلع رقيب الطرف ، وسعد السعود رقيب الجبهة ، وسعد الأخبية رقيب الدبرة . فأول كل اثنين نجوم الصيف مدة شدة الحر ، والثاني من كل اثنين نجوم الشتاء مدة شدة البرد ، وهما النَّفَسَان المذكوران ، وسمعت سيدنا غير مرة يقول : « **الحر في مدنها ، والبرد في براريها** » . وفي مدة الصيف المذكورة بعد صلاة الصبح إلى الطلوع في هذا الوقت غاية اعتدال الهوى والمزاج، وفيه غاية الرَّوح والراحة من شدة الحر والبرد وطيب الخاطر ، ولذلك شَبَّه به أوقات الجنة ، ولو لم يكن في الجنة من النعيم إلا كونها على هذا الحال دائماً ، سالمة من الحر والبرد وفي غاية الإعتدال دواماً ، لكان كافياً من نعيمها ، كيف وفيها من النعيم ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سَمِعَت ، ولا خطر على قلب بَشَر .

ويعني بـ « **المادة** » : السبب الذي لأهل الدارين إلى عدم النوم من النعيم والعذاب .

وما أحسن ما ذَكَرَهُ الإمام ابن أبي جمرة في شرح حديث : « سيحان وجيحان والنيل والفرات، كل من أنهار الجنة » رواه مسلم ، قال : « هي أنهار الجنة الأربعة التي ذكرها الله سبحانه في الآية ، حيث قال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾، قال كعب الأحبار : نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة ، ونهر جيحون نهر الخمر في الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة . رآها النبي ﷺ ليلة المعراج تحت العرش، يرى على حافتها المسك الأذفر ، قلت لجبريل : ما هذه؟ قال : هذه الفرات والنيل والسيحون وجيحون، الفرات للعراق ، والنيل لمصر وسيحون لأرض الهند، وجيحون لخراسان . فإذا شرب من هذه الأنهار أهل الجنة كان الخارج منهم رَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْك ، كما هو طبيعة دارهم التي هُم فيها ، فإذا شرب منها أهل الدنيا كان الخارج منهم بولاً وغائطاً ، كما هو طبيعة دارهم التي هُم فيها ، فالمادة واحدة ، واختلف الحال باختلاف الدارين » ، انتهى كلام ابن أبي جمرة .

ويأتي في تعدادها في بعض الأحاديث دجلة بدل الفرات ، كما ترى من ذكر الفرات في هذا الحديث، حديث المعراج ، ومن ذِكْر دجلة في قول كعب ، وهما نهر واحد واختلف الإسم باختلاف محاله ، كذلك اختلفت في الجنة باختلاف محالها ، فذكرت في الآية باسم الجمع فافهم ، وفي بعضها ذكر الفرات بدل دجلة، وهما نهر واحد متصل من البصرة إلى بغداد ، فما كان منه بالبصرة ونواحيها يسمى الفرات وما كان منه ببغداد ونواحيها يسمى دجلة ، وكلاهما نهر واحد - أي البصرة وبغداد - في

العراق ، فيذكر البعض بدلاً عن الكل ، فإن لفظ العراق يشمل البصرة وبغداد ونواحيها ، وذَكَرَ في الآية كل واحد من الأنهار الأربعة بصيغة اسم الجمع ، لتعدد مواضعها التي تجري فيها في الجنة وفي الدنيا ، بقوله سبحانه: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ ، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ على ما في الآية ، ولم يقل فيها نهر من ماء ، ونهر من كذا إلى آخرها ، فلها في كل موضع جَرَت فيه في الدارين اسم ، فتصير كل واحد منفرد جمعاً في مواضع جَرْيِه ، كما ذَكَرْنَا من تعدد اسم دجلة والفرات ، واختلاف الاسم باختلاف المواضع فيهما وهو نهر واحد ه .

وذَكَرَ الجنة والنار في مجلس آخر ، *فقال* : « **من فاته نعيم من الدنيا لا بد أن يستوفيه في الجنة إن كان من أهلها ، ومن فاته عذاب في الدنيا ، استوفاه في النار إن كان من أهلها** » ه .

أقول : يعني من فاتَهُ أحد الأمرين في الدنيا ، استوفاه في أحد الدارين في الآخرة على شَرْطِهِ المذكور، وبالعكس من نال حظًّا في الدنيا ، نقص من حظه في الجنة ، وإن كان من أهل النار عُذِّب بقدر ما نال من الحظ في الدنيا ، فإن الدنيا والآخرة كَكِفَّتَيْ الميزان ، ما نقص من أحدهما زاد في الأخرى وبالعكس، وما زاد في أحدهما نقص من الأخرى ، وفي الحديث الصحيح : « من أوتي حظًّا من الدنيا نقص من حظه عند الله بقدر ما نال من الحظ في الدنيا ، ولو كان ذا منزلة عالية عند الله » ، ولذلك أبى النبي ﷺ وكذلك سائر الأنبياء والأولياء إمساك الدنيا وزهدوا فيها واختاروا الفقر ، وتمثَّلت الجبال للنبي ﷺ أن تنقلب له ذهباً فأباها ، واختار الفقر حتى تمر عليه الثلاثة الأشهر لا يوقَد في بيته نار لطعام ، وهو لا ينقصه ذلك لو أخذه ، لكن تركه تعففاً وزهداً .

وما تقدَّم من كون الآية ذَكَرَ فيها كل واحد من الأربعة الأنهار في الجنة بلفظ الجمع بالنسبة لتعدد محال جريه في الجنة ، وفي حديث المعراج ذَكَرَ الأربعة على أصلها في كل واحد مفرداً من غير جمع ، لكون مقصود الآية الدعوة إلى الله بالإيمان والطاعة ، فَكَثُرَ ذِكْر الوعد الموعود به على ذلك ترغيباً في ذلك المقصود .

وذَكَرَ في حديث المعراج الأربعة إلا أنها بصيغة الإفراد بغير جمع ، لأن مقصود الحديث ذِكْر آيات الله الباهرة ، وآثار قُدْرَتِهِ القاهرة ، ومن جملة ذلك أن جعل تلك الأنهار غذاء للمتقين مختصًّا بهم في دار النعيم والخلود ، وسحبها إلى دار الفناء والزوال ، ليغتذي منها كل أحد من المتقين الأبرار والخواص الأخيار ، ويشاركهم في التغذي بها في هذه الدار الكافرون والفجار ، وسائر من عليه رَسْم العبودية من الأبرار والفجار . ويحقِّق هذا المعنى أيضاً قوله تعالى في الآية الأخرى في كل أمتعة الدنيا ، والأولى في الماء خصوصاً ، وهذه الآية في غيره وهي قوله تعالى :

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢﴾، فزينة الله : أي من الملبوس والطيبات من المأكول هي للذين آمنوا مع غيرهم ممن شملته العبودية من بَرٍّ وفاجر في الدنيا ، ثم يوم القيامة يكون كل ذلك خالصاً ، أي خاصًا بالمؤمنين دون غيرهم هـ .

قال رضي الله عنه : « **الإنسان في غفلة عظيمة ، ويعجب هو أيضاً من كونه غافلاً والعجب من الغفلة مع الغفلة ، عجب في عجب** » هـ .

أقول : أي إذا تفكَّر فيما سيلقى من الموت وشدته وخطره ، بماذا يُختم له ؟ بسعادة أو شقاوة ؟ وبمحاسبة فتَّانَيِ القبر وفيما يلقاه من أهوال يوم القيامة وغير ذلك ، يتعجب من غفلته مع ذلك ، وتعجبه من غفلته عن هذه ، ومع ذلك هو غافل لاهي ساهي ، لا ينتهض لما ينفعه عند ملاقاة هذه الأمور فهذا عجب آخر هـ .

قال رضي الله عنه : « **إن الناس كلهم مع الله في مقام الشكر ، ويظنون أنهم في مقام الصبر ، فإن لله في كل عِرْقٍ نعمتَيْن ، ومن العروق المتحرك لا يسكن ، والساكن لا يتحرك ، فلو تحرَّك الساكن أو سكن المتحرِّك لتألم لذلك ، ففي كل عِرْقٍ نعمة وجوده، ونعمة سكون الساكن وحركة المتحرك ، وفي كل شعرة نعمتان ، إذ أسفلها مجوَّف ، وآخرها مُصْمَت ، فلو انعكس ذلك لتألم الشخص ، فلله الحمد . وعن بعضهم أنه كان عشاؤه قرصاً يابساً ، يَصُب عليه من الماء البارد ، ويَفُته به ويحمد الله ويقول :**

خُبْـزٌ وَمَـاءٌ وَظِـلٌّ هَـذَا النَّعِيـمُ الأَجَـلُّ
جَحَـدتُ نِعْمَـةَ رَبِّي إنْ قُلْـتُ إنِّي مُقِـلُّ

أقول : يقال في كل إنسان من العروق أو المفاصل بعدد أيام السنة ، فإذا أصابته الحمى عمتها كلها، فكل واحد يكفِّر يوماً ، فلذلك ورد : « حمى يوم كفارة سنة »، وقيل لأنها في يوم واحد تهدم قوة سنة ، وفي أسفل كل شعرة تحت طرفها المجوَّف ثقبٌ يخرج منه العرق ، وفي أيام الحر إذا شرب الإنسان ففي لحظة يخرج العرق منها، وهذا من عجائب القدرة .

وذَكَروا أن في الحواس والدماغ وما يحصل منه أمراض الرأس ، وفي سائر البدن وما يحصل منه أمراض البدن ، وإن وباء البدن يخرج مع العرق ، ووباء الرأس والدماغ يخرج مع المخاط .

قال بقراط : « المعالجة خمسة أضرب : يعالج ما في الرأس بالغرغرة ، وما في المعدة بالقيء ، وما في أسفل الجوف بالإسهال ، وما بين الجلدين بالعرق ، وما في داخل العروق بالدم » ، أي بإخراجه .

وقيل : « الصفراء : كالطفل يغضب من لا شيء ويرضى من لا شيء ، أي بأدنى شيء ، والدم : كالعبد وربما قتل العبد سيِّده ، والبلغم : كالملك الجائر إذا غضب لا يرضى إلا بقطع عضو شريف ، والسوداء : كاللص الحاذق إذا دخل البيت لا يرضى يسرق إلا أجلَّ ما فيه وهو العقل .

وعلامة غلبة الدم : التَّمَطِّي والتثاؤب وحلاوة الفم وتوقُّد الوجه ، وثقل العينين والنعاس ، وظهور البثور الدموية ووجود الصداع ، ويعين على تأكيد ذلك الفصل والبلد والسن وسالف التدبير. وعلامة غلبة الصفراء : العطش وضعف الشهوة ، ومرارة الفم وصفرة اللون وقيء الصفراء ونارية البول ، ويُعِين على ذلك ما تقدَّم ، يعني ذِكْر الفصل والبلد والسن . وعلامة غلبة السوداء : قوة الشهوة وقلة النوم وكُمُودة اللون ، وكثرة الفكر والحرج بغير سبب ، أي ضيق الصدر ، ويُعِين على ذلك ما تقَدَّم » .

وعن جالينوس : « يعالج ما في الرأس بالغرغرة ، وما في المعدة بالقيء ، وما في البدن بالإسهال ، والبطن وما بين الجلد بالعرق ، وما في داخل العروق بإرسال الدم على الرضاء ، اثنان عليلان دائماً : صحيحٌ مُحْتَمي ، وعليلٌ مخلِّط ، الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع » .

وعن جالينوس : « العليل الذي يشتهي أرجى من الصحيح الذي لا يشتهي، وإعطاء المريض ما لا يشتهيه أنفع من أخذه كل ما يشتهيه » ، أرسطو : « المجرِّب أحكم من الطبيب » ، بقراط : « الحمية في الصحة كالتخليط في المرض » ، جالينوس: « الدم : عبدٌ مملوك وربما قتل سيِّده ، والصفراء : كلبٌ عقور في حديقة، والبلغم: الملك الرئيس كلما أغلقتَ باباً فتح باباً آخر ، والسوداء : الأرض إذا تحرَّكت تحرَّك ما عليها ، والصفراء : بيتها المرارة وسلطانها في الكبد ، والبلغم: بيته المعدة وسلطانه في الصدر، والسوداء : بيتها الطحال وسلطانها في القلب ، والدم : بيته القلب وسلطانه في الرأس » ، انتهى ما أردنا ذِكْره من قول هؤلاء الحكماء ، لما جَرَّ إليه من ذِكْرِ سيدنا العروق الساكنة والمتحركة في الانسان .

وترى البعوضة تقع عند أسفل الشعرة وتضع خرطومها في ذلك الثقب ، فتمتص منه الدم حتى تمتلىء حوصلتها دماً ، فحين تقع لا ترى في حوصلتها دماً ثم لم تزل تمتص حتى ترى أن قد امتلأت، فسبحان ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، فاعجب لسرعة ما انبذ من الماء لما وقع في المعدة إلى كل شعرة بقسط يخرج به العرق ، ليخرج به الوباء ، غير ما بقي لنفع البدن ، مما يذهب العطش ويرطب العروق والمفاصل .

والبعوضة أصغر الحيوانات ، وخرطومها كخرطوم الفيل الذي هو من أكبر الحيوانات ، وفيها خِلقة سبعة حيوانات من جبابرة الحيوانات ، ذَكَرَها في هذين البيتين ، وكذلك الجرادة مثلها :

لها فَخِذَا بَكْرٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ ... وَقَادِمَتَا نَسْرٍ وَجُؤْجُؤُ ضَيْغَمِ

حَبَتْهَا أَفَاعِي الرَّمْلِ بَطْناً فَأَنْعَمَتْ ... عَلَيْهَا جِيَادُ الخَيْلِ بِالرَّأْسِ وَالفَمِ

وقال رضي الله عنه : « **خفاء الصالحين في هذا الزمان ، لأن بعض أهل الزمان ما لهم معهم مقابلة - أي مناسبة - فما يريدون بظهورهم ، لأنهم ما أرادوهم إلا لهم ، والصالحون ما يكونون لأهل الدنيا، بل يكونون للفقراء عليهم ، فلو قال صالحٌ عن كَشْفٍ لبعض أهل الزمان مثلاً : في الموضع الفلاني من بيتك كذا من المال ، لكنك هات نصفه ، أو فرِّقه على المحتاجين . لأَبى وغَلَبه الطمع ، ولو أنه قد كان آيساً منه ، وليس هو على باله ، وربما ساء ظنه به ، وزال اعتقاده ، وقال لو كان هذا صالحاً ما قال لي هات منه** » ، ثم أنشد هذا البيت :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إذَا لم تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أو إِسَاءَةَ مُجْرِمِ

أقول : رأيت السيد صالح بن السيد محمد بن عبدالخضر الرفاعي بالبصرة ، وذلك في صفر سنة ١١٠٢ وقد جاء من الدورق بثلاثة دوانيق مشحونة مالاً ، فحين ما وصل نزل ، وجاء يسلِّم على أبيه، فأنشده أبوه السيد محمد هذا البيت :

أَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِغَيرِ بَلاغَةٍ ... لِمن تَجْمَعِ الدُّنيا وَأَنْتَ تَمُوتُ

فمرض من يومه وبقي ثلاثة أيام وتوفي ، والدوانيق باقية بما فيها لم تَنْحَل ، وجزع عليه أهله وإخوانه جزعاً شديداً ، وأشدهم جزعاً عليه وتعباً أكبرهم السيد رجب ، حتى إنه يقفز كل حين من موضع إلى موضع ، ويصيح ويتكلم بالنعي ويصرخ به ، وصار كالغائب عن حسه ، وأما أبوه السيد محمد فلا يتكلم بكلمة ، بل هو جالس ساكت إلا حين حطوا الجنازة في الدانق ليعبروا النهر « بومغيرة» ما بين بلد نهر خوز والسبيلات ، نقز السيد رجب في النهر . فقال السيد محمد حينئذ: « اقبضوه » ، ما سمعته قط تكلم طول المجلس مدة غسله وخروجهم به سواها . ثم في آخر جماد الآخر أخبر بالطاعون عن كشف ، ثم توفي فيه في شعبان ، وخبر وفاته مذكور هنا في غير هذا الموضع هـ .

قال سيدنا عبدالله رضي الله عنه : « **عند السادة أهل التمييز ، إذا سموا شيئاً كهدية ما يغيرونه** » هـ .

أقول : يعني لا تتغير نيتهم فيه عن إمضائه فيما نَوَوه ، ولو عرضت لهم فيه خواطر كثيرة في صدِّهم عن تلك النية الصالحة وفتور العزم عنها وغلبة شح النفس عليها بترك ذلك لا يطيعونه ، بل يجاهدون أنفسهم ، إذا ما أجابت طوعاً أجابت كرهاً ، أن لا يتركوه حتى يُخرِجوه في سبيل ما نَوَوه به لوجه الله تعالى ، عكس ما عليه الناس اليوم ، أدنى خاطر يردهم عن سبيل الخير . وتلك الخواطر المثبِّطة هي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، وهو البخل عن فعل الخير ، بتسليط تلك الخواطر الشيطانية ، وفي قوله ﷺ : « لا يتصدَّق متصدِّق بصدقة حتى يفك لحيي سبعين شيطاناً ، كل منهم كاظم مطبق بفيه على يده ليطبقها ، لئلا تنبسط بالصدقة » ، وسمعت سيدنا يقول: **« هي الخواطر المثبطة ، كقوله : يمكن في غير هذا الوقت ، أو فلان أحق من فلان ، أو أنك ستحتاج له في وقت آخر ونحو هذا »** .

ومن شدة اعتناء السلف بامضاء ما نووا لله ، أن الحسن البصري سمع وهو في محل قضاء الحاجة سائلاً يسأل ، فنوى في تلك الحالة أن يعطيه قميصاً كان عليه فخلعه إذ ذاك ونادى الخادم وأعطاه القميص ، وأمره يدفعه للسائل ، فقال له الخادم : « ألا صبرت إلى أن تخرج ثم تدفعه له ؟ » ، فقال : « إني الآن نويت أن أدفعه إليه ، ولا آمن تغير النية قبل الخروج » ، فإذا خالف النفس بمجاهدتها عليها وأخرج الصدقة ، فقد فكَّ يده من لحيي سبعين شيطاناً ، يعني تلك الخواطر الكثيرة.

ولفظ السبعين : من جملة العدد ، تأتي في لغة العرب للمبالغة في الكثرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، يعني المنافقين، نزلت بعدما صلى النبي ﷺ على عبدالله بن أُبَي وكان ابنه عبدالله بن عبدالله من الصادقين ومن أهل بدر ، فطلب من النبي ﷺ أن يصلي على أبيه ، وأن يجعل من ملبوسه شيئاً عليه تحت الكفن، ففعل. وحين ما سلَّم نزلت : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، قال ﷺ : « لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » ، فعدد السبعين ليس بقيد ولو هي أكثر من سبعين ، وذِكْرها ليس بقيد ، بل هو مبالغة في الكثرة - أي شياطين كثيرة - فقد يكون أُلوفاً ، ويسمى هذا العدد في لغة العرب : عدد التكثير للمبالغة ، فمعنى السبعين في الآية والحديث يعني : كثيراً، ومراده : لو استغفرتَ لذلك المنافق كثيراً ، لا يغفر الله له ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، فتفسِّر تلك الآية وتبيِّن أن معنى فاسقون هنا كافرون . فكيف يغفر له مع ذلك ، وإلا فلو استغفر لمؤمن مرة واحدة غفر الله له بذلك ، فلما كان ابنه عبدالله من الخواص أهل الصدق والإخلاص من الصحابة ، فطلب له من النبي ﷺ شيئاً من ثيابه يدفن معه ، وأن يصلي عليه وأن يدخله القبر فأجابه لكل ذلك جبراً لخاطره ، ولكن لا علاج له عن ما له عند ربه من الدرك الأسفل

من النار ، حيث أراده له حتماً مقضيًّا، وأخبر بذلك في كتابه ، فإن وعده لا يخلف حيث قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

ومما وقع منه - مما يدل على صِدْقِهِ - مع أبيه - مما يدل على نفاقه - أن النبي ﷺ في غزوة المريسيع ، نُقِلَ له عن ابن أُبَي أنه قال : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾، والناقل له عنه زيد بن أرقم ، وكان صبيًّا صغيراً ويعني بالأعز نفسه ، ويعني بالأذل النبي ﷺ ، فغضب النبي ﷺ من قوله ذلك غضباً شديداً ، فجاء الصادقون من قومه الخزرج ، ومعهم شيخهم سعد بن عبادة إلى النبي ﷺ يسترضونه ويستطيبون خاطره ، وقالوا : « يا رسول الله، لا تصدِّق صبيًّا صغيراً لا ثقة بقوله ، ونحن ما سمعنا منه ذلك » ، فنزلت الآية بتصديق زيد: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾، فانخصموا بعد ذلك وسكتوا ، وثبت صدق قول زيد . فلما رجعوا قافِلِين من تلك الغزوة ، وقف عبدالله الصادق بن عبدالله المنافق لأبيه في الحرة عند مدخل المدينة وقبضه وقال : « والله لا أَدَعُكَ تدخل إلا بإذن من النبي ﷺ ، لتعلم أنك أنت الأذل ، وأن النبي ﷺ هو الأعز » ، ومنعه من الدخول حتى أرسل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الدخول ، وأن يأمر ابنه ليتركه ، فأرسل ﷺ إلى الإبن أن يترك أباه يدخل ، فتركه عند ذلك . فقال الإبن لأبيه : « أعرفتَ أنك أنت الأذل ، وأن رسول الله ﷺ هو الأعز ؟ » هـ .

قال : « إذا رأيت مفتخراً فلا تفاخره ، ولا تقره على فخره ، ولا تلائمه عليه ، وإذا علمتم فعلِّموا، وكونوا أهم بمنافعهم من أنفسكم » ، أي بمنافع أنفسكم .

قال : « العلم فضيلة لا تكمل إلا بالعمل به لوجه الله » .

قال : « الإيمان اليقين ، وتزعزعه الأوهام ، وكلما كثرت ضعف ، وكلما قلَّت قوي » .

قال : « عند الصوفية ، أكثر الفساد إنما هو من السماع - أي ما يسمع من الكلام - والإجتماع ، لهذا كانوا يرغبون في الصمت » .

قال : « المداراة هي بذل الدنيا للدين وللدنيا ، والمداهنة بذل الدين للدنيا وللدين ، ولا بأس بالأول ويحرم الثاني ، وَمِن بَذْل الدنيا في المداراة حسن الكلام من غير كذب ولا مجازفة ، واللين لمن تكلمه » .

ومرة قال : « المداراة هي التي نسميها المراعاة » .

قال رضي الله عنه : « قراءة الفاتحة آخر المجلس عادة أهل اليمن ، وكان رجل من أهل اليمن ذا فِقه يعتاد يختم مجلسه بالفاتحة ، وكانت له زوجة تكرهه ، وإخوانها وقراباتها يحبونه ، ويرغبون فيه لديانته وصلاحه ، وكان يسمع منها في حقه من الكلام ما يكرهه ، فيخبر أهلها بذلك ، فإذا لاموها وخاصموها بسبب ذلك ، ونهوها أن لا تقول له ما يكره ، فتقول : ما قلته ، بل هو كذب عليَّ . فأتى إليها يوماً نساء ، وجعلت تتحدث معهن فيه ، وتتكلم بما يسوءه ، فاتفق أنه كان يسمع كلامها معهن من حيث لا يشعرن ، فأخذ دواة وقرطاساً ، وجعل يكتب ما تقول ليعرضه على أهلها إذا كذَّبته ، فلما كان في آخر مجلسهن وأردْنَ القيام قالت لهن : تعالين نقرأ الفاتحة على عادة الشيخ ، تعني زوجها كما يفعله من قراءة الفاتحة في آخر مجلسه على عادته ، وقرأن الفاتحة ، فكتبها أيضاً في جملة ما كتب ، فلما أخبرهم جَحَدَت ، وأخبرهم بما قالت فأنكَرَتْ ، فقال : هو ذا مكتوب . وفتح الورقة ، فإذا ليس فيها مكتوب سوى الفاتحة فقط ، فعجب وعجبوا لذلك ، حيث محي كل ذلك ما عدا الفاتحة . فينبغي قراءتها في آخر المجلس ، رجاء أن يُمحى جميع ما حصل في المجلس من مذموم الكلام ، واللغط كالغيبة وغيرها » ، ومرة قال : « تُقرَأ الفاتحة في آخر المجلس ، لتكفِّر ما وقع فيه ، فإن كان المجلس مجلس خير - أي مجلس قراءة قرآن كالحزب أو علم - فتكفر ما كان من الخواطر السيئة الإختيارية » هـ .

أقول : ومن عادة سيدنا أن يصافحوه عند انفضاض المجلس ، وأن يستخبر من يصافحه مطلقاً عند ذلك وفي غيره ، ويقول له : « من أنت ؟ » ، فيخبره .

وقال يوماً : « قال لنا بعض الناس : لا تتخبَّر أحداً ، فقلت : لا ما يمكن ، لأنه ما معهم منَّا إلا ذلك ، فإذا لم نفعل فماذا لهم مِنَّا ؟ » .

وقد اشتهر عنه في الجهات البعيدة ، كالحرمين والبحرين واليمن والعراقين ، والهند والسند وغير ذلك أن من صافحه عَرَفَه ، وناداه باسمه واسم أبيه ، ولو كان لم يجتمع به قبل ذلك ، فكأنه بلغه شيء من ذلك ، فقال يوماً : « **إني قد أسأل الإنسان عن اسمه واسم أبيه ، فيخبرني بذلك ، ثم إني بعد ذلك أعرفه بمسِّ يده** » ، فكان هذا تستراً منه وستراً لذلك الحال ، فكان الناس في تلك الجهات وغيرها يسألوننا عن ذلك ، هل هو تحقيق أم لا ؟ وكذلك عن كونه إذا سلَّم على الموتى يردون عليه السلام، ويسمع خطابهم فنقول لهم : يكون ذلك . وليس ذلك ببعيد في حقِّه ، وإن لم يطَّلع عليه الحاضرون معه .

وفي بعض الزيارات ، وليس معه غير قائد الفرس وغيري ، فنحن معه ثلاثة فقال كلمة ، كالإشارة بوقوع ذلك وأنه تحقيق ، وفيها تبعيد علينا ، لأن أموره وأقواله وأفعاله كلها مبنية على الستر ، ولا يحب ما يشير إليها ، فضلاً عن التصريح بها - فيكفيك شاهداً على ذلك امتناعه عن تفسير رؤياي أني أسبح في الماء بعد سؤاله لي عن شرطها ، حتى وقفت عليه في كتاب « حياة الحيوان » ، وقصة ذلك مذكورة هنا في غير هذا الموضع - وكَلِمَتُهُ التي قالها ونحن وإياه قاصدين معه ليلة إلى التربة ، لزيارة ساداتنا آل باعلوي كالفقيه المقدم وابنه علوي الذي كان يعرف الشقي من السعيد ، ومولى الدويلة والشيخ عبدالله العيدروس وأخيه الشيخ علي ، وغيرهم من أكابر السادة ، فالتفتَ إلينا وقال : « **لو سلَّمنا على أهل التربة ، فردوا علينا السلام ، وسمعتم ردَّهم ، من أول من يشرد منكم ؟** » ، فقال قائد الفرس : « أنا أول من يشرد » ، فقلت أنا : الله يسلمكم ، أوَ يخاف من سمع ذلك ؟ فماذا عليه من الضرر ؟ فقال: « **نعم ، لأنه أمر خارق للعادة** » ، يعني وما كان كذلك ينفر منه الطبع البشري ، وكان في كَلِمَتِهِ هذه التي مزح بها مَعَنا كالإشارة إلى وقوع ذلك ، وإن ستر عمَّن معه ، وليس ذلك ببعيد في حقه ، وإن لم يطَّلع عليه الحاضرون معه ، فلو كان معه أحد حين واقعته مع الشيخ عبدالله العيدروس ، ما علم بذلك إلا لمن كشف الله له ، ممن هو من أهله .

ومن العجيب أن السيد علي بن عبدالله الصليبية صاحب « سرت » ، وكان بينهما اتحاد وصحبة وأخوة من صغرهما ، وكان كل ليلة يزور معه وما تخلَّف عنه قط ، لكونه يقبض بيده ، ولأجل حصول تلك المسامرة الأنيسة الجليلة معه ، التي أشار إليها في قصائد كقوله :

يَدُورُ مَابَيْنَنَا كَأسُ الحَدِيثِ مِنَ الـ ـقَدِيمِ نُسْقَى بِهَا فِي النَّهْلِ وَالعَلَلِ

فلما أراد الله وقوع تلك الواقعة ، تخلَّف عنه تلك الليلة ، لكن شأنها وصورتها ما خفي عليه .

قال سيدنا : « قد قلنا في ابتداء أمرنا : نريد أن ننظر إن كان نحن من المأذون لهم في السياحة والتنقل ، لا نستصحب أحداً معنا ، لئلا نكون بلاء وأذى على الناس وإن لم نكن من المأذون لهم في ذلك فلا بأس إن لحقنا أحد أن نتركه على نيته في مخالطته لنا » .

وذَكَرَ مثل ذلك في بعض المجالس وسيأتي ، فقال : « **إن كنا من المأذون لهم في السياحة كالشيخ عمر العطاس ، فقد دخلنا مرة إلى الهجرين ، وإذا معنا نحو سبعين نفساً ، وكنا إذا دخلنا بلداً يعزمنا أهلها ، ونكره التثقيل على الناس** » .

قال : « **إن الصحابة رضي الله عنهم حدَّث كلٌّ منهم على حسب علمه وما بَلَغَه عن النبي ﷺ ، ولهذا كثرت الروايات عنه عليه السلام ، وعن الصحابة المأمونين وعن التابعين المقتدين ، فاتَّسَع العلم واختَلَفَت الأقوال ، ومن لم يَسِرْ على الجادة والتقوى لم يكن له إمام إلا منافق أو فاسق ، لأن الطريق قد تخفى وقد تظهر** » هـ .

أقول : قوله : « **حدَّث كلٌّ بحسب علمه وما بَلَغَه** » ، فإذا كانوا مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، فلو حدَّث كل واحد بحديث واحد سمعه ، لكثرت الروايات واتسع العلم ، فكيف وكل واحد حدَّث بأحاديث كثيرة .

قالوا : الأحاديث المنقولة عن النبي ﷺ : ألفا ألف وأربعمائة ألف وثلاثة وثمانون ألف ، مع اختلافٍ فيها من يوم قيل له : « اقرأ » ، إلى أن قال : « الرفيق الأعلى » ، وبينهما ثلاث وعشرين سنة ، وهي مدة كلامه بتلك الأحاديث .

قال النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » : « أكثرُ الصحابة رواية عن النبي ﷺ ستة هم : أبوهريرة ، ثم ابن عمر ، ثم أنس ، وابن عباس ، وجابر ، وعائشة » .

قالوا : روى عبدالله بن عمر : ألف وستمائة وثلاثين حديثاً ، اتفق الشيخان منها على سبعين ومائة، وانفرد البخاري بثمانين ومسلم بإحدى وثلاثين . وروى ابن مسعود : ثمانمائة وثمان وأربعين ، اتفقا منها على أربعة وستين ، وانفرد البخاري بواحد وعشرين ، ومسلم بخمسة وثلاثين . وروى عنه الخلفاء الأربعة ، وروت عائشة : ألفي حديث ومائتين وعشرة ، اتفقا منها على مائة وأربعة وسبعين ، وانفرد البخاري بأربعة وسبعين ، ومسلم بثمانية وستين . والنعمان بن بشير : قيل: روى مائة وأربعة عشر . وتميم الداري : روى ثمانية عشر ، روى له مسلم واحداً . وأبوهريرة : روى خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين ، اتفقا منها على ثلاثمائة وخمسة وعشرين ، وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين ، ومسلم بمائة وتسعين . الحسن ابن علي : روى ثلاثة عشر حديثاً ، روى له أصحاب السنن الأربعة ، وروت

عنه عائشة وغيرها . وأنس : روى ألفين ومائتين وست وثمانين ، اتفقا منها على مائة وثمان وستين وانفرد البخاري بثلاثة وثمانين ، ومسلم بواحد وسبعين . شداد بن أوس : روى خمسين حديثاً ، خرج له البخاري حديثاً واحداً ، ومسلم حديثاً آخر. أبو ذر : روى مائتي حديثاً وواحد وثمانين حديثاً ، اتفقا على اثنى عشر ، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بسبعة عشر . معاذ بن جبل : روى مائة وسبعة وخمسين، اتفقا على اثنين ، وانفرد البخاري بثلاثة ، ومسلم بواحد . ابن عباس : روى ألف حديث وستمائة وستين ، اتفقا على خمسة وتسعين ، وانفرد البخاري بثمانية وعشرين ، ومسلم تسعة وأربعين .

كذا رأيته في بعض كتب الحديث ، وفي حفظي أن أبا هريرة : روى خمسة آلاف حديثاً ، وابن عمر وابن عباس وعائشة : كل واحد منهم روى أربعة آلاف . فهذا ما رواه المذكورون ، فكيف من سواهم من الصحابة ، وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، كل واحد حدث بما سمعه ، ما بين مُكْثِرٍ ومُقِلٍّ .

ومن عجيب الإتفاق أن عدد الصحابة كعدد الأنبياء ، إذ الأنبياء أيضاً مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل منهم وهم خواصهم ثلاثمائة وأربعة عشر ، وكذلك عدد أهل بدر وهم خواص الصحابة، وخواص الخواص من الأنبياء أولوا العزم الخمسة ، النبي ﷺ خاص خواص الخواص منهم ، وهم المذكورون في هذه الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾.

وخواص خواص الخواص من الصحابة بعده ، وهم خلفاؤه الأربعة ، وهو ﷺ تمام الخمسة من خواص خواص الخواص من الأنبياء ، وكذلك من أصحابه ، فإن الكل ما جاءتهم الفضيلة والمزية والخاصية إلا منه ﷺ ، وما وقع هذا الإتفاق إلا من عظيم المزية ، إذ لا أفضل من النبوة ، ثم تليها الصحبة . وقد سمعت غير مرة سيدنا يقول : « **كل من مُدِحَ بفضيلة ، فإن مدحه يعود إلى النبي ﷺ ، لأن كل الفضائل ما جاءت إلا منه** » .

قوله : « **واختلفت الأقوال** » ، يعني فمن أراد الإحتياط وجد في العلم ما يناسبه ومن ضعف عن العزيمة احتمله العلم .

وقوله : « **المأمونين** » ، هذا وَصْفٌ لازِمٌ للصحابة رضي الله عنهم ، لا مفهوم له من لفظه ، بل كلهم مأمونون ، وما خصَّهم الله بصحبة نبيه إلا لعلمه بأمانتهم وصحة ديانتهم ، رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

فإن الله سبحانه حافظٌ لِدِينه ، لا يولي عليه خائناً قط ، فهم يتحفَّظون في سماعه من النبي ﷺ ، فيحفظونه منه بلفظه ومعناه ، وعلى الوجه الذي أراد ، وبمعناه الذي قصد ، يحفظهم الله إياه بواسطة نور النبوة ، صيانة لِدِينه عن التغيير ، وحفظاً له عن التبديل ، فإنهم واسطة بين رسول الله ﷺ وبين

أمته ، كما أنه ﷺ واسطة بين الله وبين خليقته ، فلا يظن واحد ولا يفهم من مفهوم هذا أن منهم من ليس بمأمون ، بل المعنى أن كلًا منهم مأمون ، كما قال ﷺ : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، فخَصَّ بهذا كل فرد منهم ، وقد سألت سيدنا عن كلمتِهِ هذه وما أوْهمتْ ، فأجاب بما حاصله المعنى المذكور ».

قال *رضي الله عنه* **: « من سوء أحوال الزمان وأهله ، أن يقتدي الإنسان بالآخر في مثالبه وأحواله المذمومة ، ويترك أن يقتدي به في محاسنه وآدابه الحسنة ، وفي هذا بَلِيَّتان : أحدهما أنه قد تضرر باقتدائه، والأخرى أنه نَبَّهه على أمر كان غافلاً عنه أو غير غافل . ولكن السكوت عنه أجمل ، فلا تقتد إلا بالأحسن ، ولا تنقل إلا الأحسن ، وهذا الإقتداء على هذا الوجه غالب على أهل هذا الزمان ، فترى أحدهم لا يُحسِن صلاته أو قراءته أو يُربي - أي يفعل الربا - فإذا قيل له في ذلك ، قال : ورى فلان ، أو يؤخر الصلاة عن وقتها ويقول : العالم الفلاني كذا يفعل . فمثل هذا إنما تضرر ولم ينتفع باقتدائه » .**

أقول : مثل هذا محتجٌّ لنفسه ليدفع عنها الملام ، وهذا لا يُؤْبَه له ، لأنه ما قصد بعمله وجه الله ، إنما قصد دفع الملامة عن نفسه ، وما العمل المطلوب إلا ما صلحت فيه النية خالصة لوجه الله ، فلسوء أحوال أهل الزمان وطباعهم المائلة إلى الهوى والباطل ، اقتدوا بما يناسبها وهو الأسوء لمناسبته لهم ، فساءت أحوالهم لذلك كما قيل ، شعر :

وَشِبْهُ الشَّيءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ ... وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ
فَلَو لم يَعْلُ إلا ذُو مَحَلٍّ ... تَعَالى الجَيْشُ وانْحَطَّ القَتَامُ

فلو حَسُنَت منهم الطباع لاقتدوا بالأحسن فحَسُنَت أحوالهم ، لأن النفوس الشريفة بجاذب الشرف تنجذب للأشرف ، والنفوس الرذيلة السيئة بجاذب الرذالة والسوء تنجذب إلى الأرذل والأسوء ، كما هو طبع غالب نفوس أهل الزمان ، سوى من له خصوصية عند الله تعالى ، فإن لله سبحانه خواصَّ من خلقه اختصَّهم في كل زمان ، إن صلح الزمان أو فسد ، فإن صلح أظهرهم، وإن فسد أخفاهم ، كما تقدَّم من قول سيدنا : **« خفاء الصالحين في هذا الزمان ، لأن أهل الزمان مالهم معهم مقابلة - يعني مناسبة - .. إلخ »** ، وكثيراً ما ترى ما يصدِّق ما قال ، كما قدَّمنا من ذِكْر وَصْف صلاة ذلك الرجل ، الذي ظاهره الحشمة ، يصلي في مسجد آل باعلوي بلا طمأنينة ، فلا يتم الركوع والسجود والإعتدال والجلوس بين السجدتين ، فَلُمْته على ذلك فادَّعى أنه مقتد بالسيد فلان. فقلت له : هل أنت زاهد في الدنيا كزهده ؟ قال : « لا » ، قلت : أوَ أنت تعرف الله كمعرفته ؟ قال :

« لا » ، قلت : ذاك إذا دخل في الصلاة استغرق بالله ، وبقي كفاقد الشعور ، والقدرة تصرِّفه فلا اعتراض لأحد عليه .

وهو القائل بعدما أذَّن وأُقِيمَت الصلاة ، وتقدَّم ليصلي بالجماعة ، فحصل له حينئذ اندهاش عظيم، حتى سها عن نفسه وعن غيره وعن الدنيا وعن الخلق ، واستغرق بالله حتى سأل : « هل قد أذَّن ؟ »، فقيل له : « نعم ، قد أذن وأُقِيمَت الصلاة ، وأنت متقدِّم لتحرم » ، فأحرم بعد ذلك . وأنا رأيت منه هذه الواقعة ، وحضرتها وصليت معه تلك الصلاة ، والغالب على ظني أنها الظهر ، ويمكن أنها العصر ، والغلط مني ونسيان القطع بأحدهما من طول المدة ، وأما اليقين بأحدهما والظهر أرجح .

وذكرنا ذلك الرجل عند ذِكْرِهِ ذلك ، لما قال : « **قد يكون الرجل من الصالحين له وجه وقَفَا** » ، وذكر : « **أن وجهه ما هو عليه مما عليه الصالحون ، من التمسك بأحكام الشريعة ظاهراً وباطناً ، لا يخل بشيء منها ، والمُتَفَتِفُون ما لا تمسُّك لهم بالديانة ، فقد يظهر من بعض الصالحين بسبب الجذب شيء من ذلك وهذا قفاه ، فيتبعه فيه المُتَفْتِفُون ويزعمون أنهم مقتدون به** » ، كَفِعْل الرجل المذكور . فالمعنى الصالحون يقتدون بأحسن ما يرون منه وهو وجهه ، والمُتَفْتِفُون يقتدون بأسوء ما يرون منه وهو قفاه، وليس في كل الصالحين بل في نادرٍ منهم ، كما نَبَّه عليه بقوله : « **قد يكون الرجل من الصالحين** » ، ولفظة « قد » للتقليل ، يعني قليل منهم .

وهنا فائدة ينبغي ذِكْرها هنا ، وهذا الموضع من أنسب المواضع لها ، قال الزركشي في مقدمة كتابه في « الأحاديث القدسية » : « اعلم أن تعلم عِلْم حديث رسول الله ﷺ بعد القرآن العزيز الكريم ، من أفضل العلوم وأسناها ، وأكمل وسائل المعارف وأعلاها ، ونَشْره بين البرية من أيمن القربات إلى الله وأرجحها من حيث أن به يعلم مراد الله تعالى من كلامه ، وبه تَبْرز خلاصة المقاصد من أحكامه ، إذ مُعْظَم الأحكام في القرآن العزيز ، بل كلها كليات ، والمعلوم منه أمور إجماليات ، كأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فالنسبة هي المعرفة للجزئيات ، كمقادير أوقات الصلوات وأعداد الركعات ، وبيان الكميات والكيفيات ، والفرائض والنوافل والهيئات ، وأنواع ما يجب فيها ومن وَجَب عليه وما وُجِب منها ، والأداء في الأوقات ، أي وبيان العبادات أنها لا تصح إلا بالنيات الخالصة ، وبيان ما اشتبه في القرآن ، وإنما بيَّنها ﷺ بقوله وفعله ، كما في آية الوضوء من قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾بالكسر ، فأخذ الرَّفَضَة الضالون من ذلك أن الواجب مسح الرجلين لعطفها على الرأس الممسوح ، فَبَيَّن ذلك بفعله ﷺ ، فإنه ما ثبت عنه في الوضوء إلا الغسل، وما ثبت عنه المسح إلا على الخفين فذلك محمول عليه ، وأما قوله ﷺ ، فإنه كان في بعض الأسفار وأقيمت الصلاة ، فرأى بعض الصحابة يتوضأ ورآه يغسل رجليه مستعجلاً ليدرك الصلاة ، فقال له: أتم غسل

الأعقاب ، ويلٌ للأعقاب من النار » .

وقالوا : « تعلم الحديث خشية ، وكتابته حسنة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، والتفكر فيه يعدل الصيام ، ومذاكرته يقابل القيام ، وللمحدثين المحابر والمنابر من نور يوم القيام ، ولا يزالون غالبين لأهل الباطل مجيبين بالحق كل معاند وجاهل، والأحاديث المنقولة عن معدن الرسالة ، وصاحب ألوية الحمد والجلالة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه هي الوحي والإلهام ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾» ، قال الكرماني في « شرح البخاري » ، في تعريف علم الحديث : « إنه علم يعرف به أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله ، وموضوعه : ذات النبي ﷺ من حيث أنه نبي ، وغايته : الفوز بسعادة الدارين، والأثر : هو الحديث غير المرفوع ، وقد يطلق على المرفوع على غير وجه التغليب وأما على وجه التغليب فكثير. والضعيف: هو الذي لا تخلو طريق من طرقاته عن كذاب أو متهم بالكذب » هـ .

قال رضي الله عنه : « لا تُحِل هذه الأمور على المقادير ، بل حِلْها على هذه القلوب المنصرفة والوجوه المُدْبِرَة ، قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝﴾ » هـ .

أقول : يعني بهذه الأمور ، ما بالناس من التعب والقحط وتسليط الظَّلَمة بالظلم الفاحش عليهم، يريد أن ذلك إنما وقع عليهم بشؤم ذنوبهم ومخالفتهم سيما ما يتعاطونه من الربا ، من بيع العهدة وغيره، وما يقترضونه من العسكر بزيادة في كل شهر ، حتى لا تمضي السنة إلا وقد رَبَا على رأس المال مثله أو أكثر. وقد نهى الله سبحانه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ عن مناهي كثيرة ، وما قال في شيء منها: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ - أي تتركوا الربا - ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وهذه البلايا الواقعة في متعاطي الربا هي من حرب الله ورسوله ، ومن شؤم ذنوبهم فلا يستنكرونها إلا في الربا فقط، فإنها نتيجة أعمالهم ، ومخالفتهم بتتبعهم لأسوء ما يرون من بعض صالحيهم ، ولا عرفوا معناه وما يقتضيه حاله، فيقتدون بهم فيه على الوجه الذي قدَّمنا تقريره . واقتداؤهم بهم في ذلك إقامة لحجتهم في الباطل ، لما دعاهم إليه طبعهم الفاسد وأَلِفُوه ، ويتركون محاسنهم لا يقتدون بهم فيها ، لما طُبِعوا عليه من الباطل لما تعوَّدوه فكرهوا الحق وخالفوه ، فلو جاء قطب الوقت لوالٍ قد تعوَّد الظلم ونهاه عنه ما انتهى ، لما تعوَّده ورسخ طبعه عليه ، فما أصابهم ذلك البلاء إلا بسببٍ منهم ، لا أنه حصل عليهم من غير سببٍ منهم . وفي الحقيقة إن الله سبحانه أراد بهم ذلك البلاء ، فأجرى عليهم أسبابه المقتضية له في الدنيا وفي الآخرة ، والكل موقوف على الإرادة منه سبحانه ، فانسب ذلك إلى الأسباب ، وذلك قوله : « **بل حِلْها على هذه القلوب المنصرفة والوجوه المُدْبِرَة** » ، وهذه أفعال العباد وهي الشريعة ، ولا تنسبه إلى المقادير

من الله وهي الحقيقة ، وفي نسبته إلى العباد ردعاً لهم وتخويفاً أن يقع بهم ذلك الجزاء عليه في الدنيا ، وجزاءه الآخر في الآخرة أعظم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، والأدنى عذاب الدنيا ، والأكبر عذاب الآخرة ، فانسب أفعال العباد إليهم ليكون ردعاً لهم ، ولا تنسبه إلى الحقيقة فيكون عذراً لهم ، وذكر العلماء : أن الإحتجاج على فعل المعصية بالمقادير ، أنه معصية أشد من الأولى .

وهذه عادة الدعاة إلى الله ، إنما يخاطبون الناس بالشريعة ، ومن خُوطِب بالشريعة فأجاب بالحقيقة فإنه مجرد جدال ، ولا عذر له به ، كما في حديث ، أن النبي ﷺ دخل على عليٍّ وفاطمة وهما نائمين في الليل ، فقال لهما : « هلَّا تقومان تصليان وتذكران الله ؟ » ، فقال سيدنا علي : « يا رسول الله ، إنما نفوسنا بيد الله ، فإذا أراد أن يبعثها ، بعثها » ، فانصرف رسول الله ﷺ وهو يضرب بيده على ركبته ويقول : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .

قال ابن أبي جمرة : « لأنه ﷺ خاطبهما بالشريعة ، بطلبه أن يقوما يصليان ، فأجابه بالحقيقة بنسبة الأمر إلى الله ، والشريعة أفعال العباد ما به أمر الله ، والحقيقة فعل الله ذلك ، وأجابه بالحقيقة ، فبذلك يخصم صاحبه ومع ذلك فليس بعذر » ، والحقيقة : فعل الله ، وهو جوابه بقوله : « إنما نفوسنا بيد الله »، والشريعة : أفعال العباد ، وهو قوله ﷺ لهما : « ألا تقومان فتصليان » ، فلما أجابه بذلك علم أنه حق ، فما راجعهما ورجع عنهما ، ولكنه ما عَذَرهما بذلك ، حيث فيه تفويت ما أمر الله ، ولم يَقْبَله عذراً يعذر به ، وَبَيَّنَ أنه مجرد جدال لقوله : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ، حيث لم يحصل للشريعة منه سهم حتى رجع عنهما غضبان ، وقال ذلك القول ، وبَيَّن أن ذلك جدال لا ينبغي مراجعة الكلام فيه، فإن خوطِبْتَ بالشريعة أجِبْ بالشريعة ، وإن خوطِبْتَ بالحقيقة أجِبْ بالحقيقة ، ولا تعكس فتكون مجادلاً ولا خير في الجدال ، فإنه من طبع الأشرار .

فأراد سيدنا أن تنسب أفعال العباد إليهم التي هي الشريعة ترغيباً وترهيباً ، كما فعل النبي ﷺ مع علي وفاطمة . والدعاة إلى الله تعالى نوَّابه عليه الصلاة والسلام وماشون على قدمه ، وفي ذلك دليل قاطع على أن سيدنا عبدالله منهم - بل من كبارهم - .

وأنت إذا نسبت أفعال العباد إلى الحقيقة فيحتجُّوا به لأنفسهم ، ويرونه عذراً لهم من جهلهم وقِلَّة تحقُّقهم بحقيقة علم الدين ، كما حكى الله عمَّن قال : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾، ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾، فأدْحَضَ حُجَّتهم وأبطلها حُجَّة للشرع ، وعاقبهم بما فعلوا وقالوا ، فيقال لهم : معلومٌ أيها الأشقياء أن الله سبحانه لمَّا أراد أن يسكنكم النار وبئس القرار، ويخلدكم فيها أبد الآباد ، أجرى عليكم السبب الموجب لذلك ، فلِمَ نظرتم إلى هذا ولم تنظروا إلى ذاك؟ فإن إرادته سبحانه بيده

لا بيد غيره ، فلِمَ تحتج بما ليس إليك ، وتترك ما طُلِب منك ، وسببك المسعِد لك من الطاعة والمشقِي لك من المعصية بيدك ؟ فجاهِد نفسك عليه ولا تحتج بما ليس إليك ، فذلك وَصْف المعترض المتمنِّي المغرور ، فلا تحتجَّ بما سبق لك من الله من سعادة أو شقاوة وخاتمتها ، فتقول : إن كنت سعيداً فلا تضرني المعصية ، وإن كنت شقيًا فلا تنفعني الطاعة . فيلزمك امتثال أمر ربك على أي الحالين كنت، كما قال بعض السلف : « لأن أدخل النار وأنا مطيع ، أحب إليَّ من أن أدخل الجنة وأنا عاصي » ، فهولاء هم الذين عرفوا حقيقة الأمر على وجهه ، وقال بعضهم : « اعبد ربك امتثالاً لأمره وطلباً لمرضاته ، ولا تكن كأجير السوء ، لولا يرغب بالأجرة لما عمل ، ولا كعبد السوء لولا يخوف بالضرب لما نفع» ، وجاء في الأثر عن الله جَلَّ جلاله أنه قال : « لو لم أخلق جنة ولا ناراً ، ألم أكن أهلاً أن أُعْبَد ؟ » .

وعلى هذا الطريق دَرَجَ أكابر هذه الأمة ، الذين هُم أعلام الدين وقدوة المتقين ، فهم يعبدون الله امتثالاً لأمره وطلباً لمرضاته ، فاتَّبع أثرهم واقتد بهم تلحق بهم ، فإذا كان المحب مع من أحب ، فكيف بمن اقتدى بهم وتأثَّر بمآثرهم، فاسلك سبيلهم ولا تقصِّر عنها وتحتج بالسعادة وضدها ، فأَمْر ذلك قد مضى ، وشأنه قد انقضى في غيب علم الله ، لا للخلق فيه مدخل بعلم أو عمل ، وإنما القائم عليهم والمطالب لهم ما بين أيديهم من أحكام الشريعة وأعلامها المنيرة . فالحقيقة من الأمْرَيْن قد مضى شأنها بحسب الإرادة الأزلية ، والشريعة باقٍ أمرها يطالب به العباد إلى يوم القيامة ، ولكن الله يهدي إليه من يشاء . وأشبه شيء بهذا المعنى كون الله سبحانه بعث الرسل إلى الخلق ، يعرِّفونهم بالله ويرشدونهم إليه، وذلك في كافة الخلق دون تخصيص منهم بأحد ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فإذا أسمعوهم أمْرَ الله ، وبلَّغوهم رسالة الله ، ثم بعد ذلك إن الله سبحانه هو المخصِّص من يشاء من كافة الخلق بالهداية إلى ما دَعَتْهُم إليه الرسل بأمْرِهِ ، فيصير إسماعهم ذلك حُجَّة لمن اتبع بإدخالهم الجنة، وحُجَّة على من امتنع بإدخالهم النار ، لأن الله سبحانه لا يأخذ إلا بحُجَّة ، كما تقدَّم ذلك من قول سيدنا، ثم إن الذين اتبعوا منهم خواص ، معاملتهم لربهم على أكمل الوجوه ، وعلى أحسن الإحتياط وعلى أي الأحوال ، كما قدَّمنا عن بعض السلف قريباً من قوله : « لأن أدخل النار وأنا مطيع .. إلخ »، ومنهم القاصرون عن درجة أولئك في المعاملة من قاصر وأقصر .

وحال الدعاة إلى الله الذين هم نواب الأنبياء كحال سيدنا عبدالله مع هؤلاء كحال الأنبياء في عموم الدعوة ، يَدْعون كافة القاصرين المقصِّرين عن كمال المعاملة إلى الإنتهاض إلى الإلتحاق بالكامِلِين في المعاملة ، ويحثونهم بالترهيب والترغيب ، ويُسمِعونهم هذه الدعوة ، فيهدي الله منهم من يشاء ، ويلحقهم بأولئك الكاملين فيصيرون منهم . ومنهم من يتركه على تقصيره وقصوره في الأسفلين ، وأحسن أحواله أن يموت على الإسلام ، فيصير بعد أن يحاسَب بما له وعليه في جميع أموره وأحواله

في رَبَض الجنة - أي أسفلها - ينظرون إلى أولئك الكامِلِين في المعاملة وهم في عِلِّيِّين كما ينظر من في الأرض إلى النجم في أفق السماء .

وكل هذه حظوظ وقسم من الله لمن شاء من عباده ، ظاهر ذلك بسبب تفاوت الأعمال ، وباطنه وحقيقته إرادة الله لهم ذلك ، فوفَّقهم لأعمالهم تلك لتكون حجة لهم في ترفيع الدرجات على أولئك القاصرين حتى صاروا في الرَّبَض ، ولكنهم في حالهم هذه لا يرون أن أحداً أحسن منهم ، بما نزع الله الغِلَّ من صدورهم ، ليتم لهم النعيم .

فافهم من جميع ما تقدم ، أن سعادتك باتِّباع الشريعة وشقاوتك بمخالفتها ، فالحقيقة حُجَّتها قائمة ولا حُجَّة لمخلوق بها ، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، وهذه قاعدة كلية في جميع الأسباب الدينية والدنيوية ، أن العبرة والعهدة على الإرادة منه سبحانه ، وعلى مقتضاها يكون كل شيء ، وجعلت لكل شيء سبباً يتوصل به إليه ، وعينت لكل شيء وقتاً يكون فيه بسببه ، ولكنها قائمة حاكمة على الأسباب ومسبباتها ، وما أطلقت حصول المسببات بمجرد حصول الأسباب حتى تقتضيه الإرادة . وكل ما أراد سبحانه كتبه في اللوح المحفوظ ، حتى إن كل ما اقتضته يسمى مكتوباً ، لكن بسببه وفي وقته ووَصْفِه الذي عيَّنته ، وما لم يكتب فهو الذي لا تقتضيه الإرادة ، ولو وجد سببه ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾، يعني ما أراده الله بسببه وانتظروه في وقته. والإبتغاء : هو التسبب، وما كتب الله : أي الذي أراده ، فإن أراد شيئاً كان ، وإن لم يُرِد لم يكن ، فيكون ما أراد في وقته بسببه إما سبب ظاهر على أيدي بني آدم ، أو سبب خفي على أيدي الملائكة ، كتسيير السحاب والمطر على ما أمر الله ، حتى ورد أن مع كل قطرة مطر مَلَكاً يضعها حيث أمر الله ، حتى أن القرص من الخبز لا يبلغ أكله حتى يعمل فيه ثلاثمائة من الملائكة غير من عملٍ فيه من الآدميين .

وقد قال سيدنا : « **الأمور منقسمة ، منها ما هو منه إليه ، فلا نظر لك فيه . ومنها ما هو منه إليك ، فانظر فيه** » ، أي بحسب ما اقتضاه الحكم ، والتي منه إليه تصريف القدرة والإرادة بحسب ما اقتضته الإرادة ، كالإسعاد والإشقاء وغيرهما، و« **ما هو منه إليك** » ، هو الأحكام الشرعية ، ولو وَقَعَت الأسباب وتخلَّفت عنها الإرادة ، فعاقِبَتها أن ترجع إليها ، كما صحَّ في حديث : « والذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » ، انتهى .

والذراع في الحالتين : كناية عن قرب الموت بعد عمله الأخير بسرعة ، وسبق الكتاب : كناية عن أن يعقب عمله المتقدم قبل موته بمدة ، حيث أنه بخلاف ما أريد به من سعادة وشقاوة وعمل

بمقتضاها ، أريد به من أحدهما عند موته فيموت عليه وهو خاتمته ، ولا تكون إلا على وفق ما سبق له من أحد الأمرين وإن خالفه عمله فيما بينهما ، فيكون زيادة في حسرة من شقي ، وزيادة في سرور من سعد . والكتاب : كناية عن إراده الله له من أيهما أراد ، وإن خالف ذلك عمله وحصول العمل منه بخلاف ما أريد به مراد له من الله .

وهذا الذي ظهر لنا من نتيجته ما ذَكَرَ في السرور والحسرة للفريقين ، وحقيقته عند الله ، فبان لك أن الأمور كلها عاقبتها ترجع إلى ما اقتضته الإرادة ، وإن اقتضت الأسباب خلافها ، ولكن إن كان السبب سبب خير فكن منه على رجوى حصول الخير من غير قَطْع وجزم بحصوله ، وإن كان السبب سبب شر فابعد منه وكن على حذر وخوف من وقوع مقتضاه من غير قَطْع وجزم بذلك .

ومن فوائد ذلك أن لا يعجب عامل بكثرة عمله ، إذ هو على هذا الخطر ، ويبقى معه على أشد الخوف ، وهذا سَجِيَّة الكُمَّل ، كالعشرة من الصحابة رضي الله عنهم ، لما بَشَّرهم النبي ﷺ بكونهم من أهل الجنة ، ازداد خوفهم من الله ، حتى قال سيدنا عمر : « ليت عمر لم تَلِدْهُ أمه » ، وقال يوماً لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله ، أخبرني بما رأيت ليلة المعراج » ، قال : « لو لبثتُ فيكم ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً أحدِّثكم بما رأيت تلك الليلة ، لما أتيت عليه كله ، ولكن لما قلت حدِّثني فسأحدثك بما لم أحدِّث به أحداً غيرك : رأيت في الجنة قصوراً أسفلها في الجنة وأعلاها لا أدري أين بلغ ، فقلت : يا جبريل ، أسفلها في الجنة وأعلاها عند العرش ؟ قال جبريل : لا أعلم ، قلت : أخبرني، بمن هي له ؟ ومن يصير إليها ؟ فقال : هي لمن يقول الحق ويعمل بالحق ، وإذا قيل له الحق لا يغضب ويموت على الحق ، قلت : هل تسمي لي أحداً ؟ قال : أسمي لك واحداً ، وهو عمر بن الخطاب » ، فلما سمع ذلك عمر صرخ صرخة عظيمة ، وغشي عليه وما أفاق إلا في مثل الساعة من الغد .

فانظر كيف أن هذا الأمر العظيم الذي يوجب عظيم الرجاء ما زاده إلا شدة خوف حتى غشي عليه ، فأين طبعهم من طبعنا أهل هذا الزمان ؟ فإن أحدنا لو سمع مثل هذا في حقِّ نفسه لأعجب بنفسه واعتمد عليه ، حتى ربما ترك الصلاة والعبادة ، ولكل منهم كلام يدل على شدة خوفهم من الله، وكذلك صالحي الأمة كما سنذكر من بكاء رسول الله ﷺ وجبريل عليهما الصلاة والسلام .

ومن فوائد هذا المعنى أيضاً : أن لا يقنط العاصي من رَوْح الله ، فربما كان من السعداء فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل صالح ويختم له بالخير ، وأن لا يعجب بكثرة عمل صالح ، فربما أن يكون من الآخرين الذين يسبق عليهم الكتاب فيعملون بعمل أهل النار فيختم لهم به .

ومن فوائده : أن يبقى بين الخوف والرجاء ، ويستوي خوفه ورجاه ، فانظر قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟

﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، فأتى بلفظة : « عسى » ، التي للترجي بعد هذه الأفعال المحمودة من غير قطع، أي ربما وافق إرادته تعالى له أن يكون من المهتدين ، بأن يموت على هذه الأفعال الحميدة ويختم له بها، وهو حسن الخاتمة . قال الإمام الغزالي في حديث : « يموت المرء على ما عاش عليه ، ويُبعَث على ما مات عليه » ، قال: « المراد ما كان قلبه متعلقاً به مدة ما عاش إلى أن مات ، فمعناه إذا قلبه متعلق بعمل الخير، وشحيح بأوقاته أن لا يمر عليه إلا وهو يعمله إلى أن مات على ذلك ، فيبعث على ذلك»، والناس فيه من كامل وأكمل ، وما من مؤمن إلا وهو يحب أن يموت على الخير ويختم له بحسن الخاتمة.

ومن الآيات في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، يعني من فَعَلَ هذه الأفعال الحميدة، فهو في رجاء رحمة الله، لا قطعاً له بذلك ، لكن لما ختم أوصافهم بختم الآية بِوَصْفِ نفسه تعالى بالمغفرة والرحمة ، يحقِّق أنه وعدٌ منه سبحانه لا يختلف فيه ، ولعله خاصٌّ بهذه الأعمال خاصة دون بقية الأعمال، لِعِظَمِ موقعها من الدين .

فافهم من هذه الآيات الشريفة وما في معناها ، أن من فَعَلَ أسباب الخير فهو في رجاء الخير ، لا قطعاً ، فربما خالفت الإرادة الإلهية ظاهر هذه الأسباب الجليلة، فاقتطع به دونها ، كما مَرَّ في الحديث الصحيح المتقدم : « فوا الذي نفسي بيده .. إلخ » ، فلذلك لا قَطْع في ذلك ، بل بالرجاء إن وافقت إرادته تعالى ، وأن من فعل أسباب الشر فهو في موضع خوفِ وقوع الشرِّ لا قطعاً ، فيبقى العبد بين الخوف والرجاء ، لا يأمن مكر الله ، ولا ييأس من رَوح الله ، ولا يقنط من رحمة الله ، فلا يعجب إذا أكثر من فعل الخير ، ولا ييأس إذا فعل أسباب الشر .

وحكمة عدم القطع بأحدهما مع وجود سببه ، أن يبقى العبد متعلِّقاً بقلبه بربه دون عمل وسبب من الأسباب ، ويخافه ويرجوه ولا يغفل عنه ، ولا يرجو حصول نَفْع ولا دَفْع ضرٍّ إلا منه ، ويكون في جميع أموره متعلِّقاً بمشيئة الله ، لا يغفل عن ذلك قط ، ولو قطع بوقوع مقتضى ما تلبَّس به من الأسباب لاقتضى ذلك الأمن مِن مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، وهذا لا يجوز قط في حق الربوبية على العبودية ، لا في مقام الخواص ولا في مقام العامة ، كيف وقد ذَكَرَ الإمام الغزالي في الإحياء في كتاب الخوف قال : « إن النبي ﷺ قعد مع جبريل عليه السلام يبكيان ، فأوحى الله إليهما : ما يبكيكما وقد أمنتكما ؟ ، فقالا : يا ربنا ، لا نأمن مكرك ، قال سبحانه : هكذا فكونا ، لا تأمنا مكري » ، هذا وجبريل سيِّد الملائكة ، والنبي ﷺ سيِّد ولد آدم وخير الخلق أجمعين ، ومن مثلهما ؟ وقد أمرهما الله سبحانه أن لا يأمنا مكره .

وكثيراً ما يجري هذا المعنى من تعلق الأسباب بالإرادة الإلهية في كلام سيدنا، لأن هذا هو الجمع بين الشريعة والحقيقة ، كل منهما في محله وعلى وجهه ، وهو الكمال في العبودية ، ومراده كما يعلمه

ويعمله في خاصة نفسه كذلك يعلمه ويدعو إلى العمل به ، وربما يتداعى بنا الكلام في ذلك ويطول تبعاً لكلامه ، والكلام في هذه المواد ما يحسن إلا منه ومن أمثاله ، ممن أُقِيمَ في مقام دعوة الخلق إلى الله، نيابة عن رسول الله ﷺ وهي اليوم خاصة لسيدنا إلى خروج المهدي ، كما ذكرنا عنه من قوله : « **عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي ، أو أربعون من أصحابنا** » ، يعني يحملونها عنه للمهدي ، وغيرهم يحملها عنهم له .

وإنما مقصدنا الإستشهاد لقوله وتبييناً له وتثبيتاً له في القلوب ، وإنما تكرر منه ذلك مراراً تقريراً له في الأسماع وتثبيتاً له في القلوب ، كما قدَّمنا من فائدة تكرير الكلام ، كما هو في الكتاب و السنة ، لأن هذا هو المطلوب من الخلق العلم به والعمل به ، والمطلوب من الدعاة إلى الله من الأنبياء والمرسلين ونوابهم أجمعين أن يبينوه للناس كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾، ويدعوهم إلى العمل به . فلهذا دائماً يكرره ويقرره على الأسماع ، لتعقله القلوب في مرة أو مراراً لعلها تفهمه وتعيه ، من أن الحاصل أن الأشياء كلها خيرها وشرها على مقتضى إرادته سبحانه ، والأسباب جميعها من أسباب الخير وأسباب الشر تَبَعٌ لها ، فإن كنتَ وحدك فاعقِلْه واعتقِدْه واعمل به عليه واتَّبع أسباب الخير وتحذَّر وابعد عن أسباب الشر دينية و دنيوية .

وإن كنتَ بين الناس وفي مقام الخطاب معهم ، وأردتَ تدعوهم إلى الله ، فانسب أفعالهم إلى الأسباب فيما بينك وبينهم ، وفي خطابك معهم ظاهراً ، وذلك المعنى الحقيقي راسخ في القلب، ولا تخاطب به إلا من ينتفع بذلك ولا يتضرر ، من فحول الرجال لا العوام الطغام ، لئلا يتخذوه حُجَّة يعتذرون به في تقصيرهم في حقوق الله سبحانه ، فهذا هو مقام أهل الدعوة ، وهو مقام سيدنا عبدالله نفع الله به، ولهذا قال : « **لا تُحِل هذه الأمور على المقادير ، بل حِلْها على هذه القلوب المنصرفة والوجوه المُدْبِرَة** » ، ليطالبهم بالحقوق اللازمة شرعاً ، وتقيم الحُجَّة عليهم لله ، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، هذا في مقام الإحتجاج للشرع الذي هو الفرع، ثم رجع إلى الأصل الذي هو الحقيقة ، فقال سبحانه : ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالى ذلك للذين قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾، ثم قال تعالى في الرد عليهم : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

وقد قَدَّمنا في تقسيم الأدوية أن ظاهرها السبب وباطنها الإرادة ، وفي أماكن غير ذلك مثله ، كما هو هنا ، ومراد سيدنا بما قاله هنا يعني : لا تنسب هذه العقوبات الواقعة بمن تعاطى أسبابها إلا إليهم، تبعاً للشريعة ، فيلحقهم لومها وردعاً لهم، ولا تُحِلهم على المقادير لئلا يدَّعون ذلك حُجَّة لهم وعذراً، فإن خطاب الشريعة هو المخاطب به بين الناس ، والمأمور به والمسؤول عنه ، ويتداول فيه الخطاب ،

ويتجارى فيه الكلام ، والمجاوب به والمخاطب به بين الناس ، لأنه محل العمل .

وأما الحقيقة فأمرها إلى الله ، ولا مدخل للخلق فيها ولا حُجَّة لهم بها ، والخطاب بها بين عموم الناس لا يجوز ، لأنه مجرد اعتقاد في القلب بينك وبين الله ، وإظهاره بين الناس مجرد جدال قاطع للحُجَّة بلا عذر له عند الله ، كمن احتجَّ من الكفار بما تقدَّم ذِكْره ، وما قُبِلت حُجَّته ، بل رَدَّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ ، أي كيف تحتجُّون بأمر وأنتم مخالفون لحُكْمِه، فبطلت بذلك حُجَّتكم ، فلا حُجَّة لكم من حيث الحقيقة التي احتجَّيتوا بها ، ولا عذر لكم من حيث الشريعة التي خالفتم أمرها ، فإذا كنتم على هذه الحالة فلا تعدون شيئاً أبداً ، فالبقر والحمير خير منكم.

وفي هذا دليل على أن كل من احتجَّ بالحقيقة وهو قائم بالشريعة فحُجَّتُهُ صحيحة مقبولة ، ومن احتجَّ بالحقيقة وهو مخالف للشريعة فحُجَّتُهُ داحضة منقلبة عليه ، يدل عليه رد الله على الكفار لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، بقوله ذلك مع قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ، وأمثال هذه الآيات .

ومثاله : لو أن إنساناً سأله مضطر فرَدَّه ، وهو مُوسر بقضاء حاجته ، فَلُمته على ردِّه ، فاحتجَّ بأن قال : « ما كتب له شيء » ، فهذا طالبته بالشريعة فأجابك بالحقيقة فَصَدَقَ وخَصَمَك ، فإذا نظرنا إلى الحقيقة فنقول هذا حق ، ولو كتب له شيء على يده ما استطاع له ردًّا ، وأما خطابك معه فجوابك له أن تقول : لو أعطيته لكتب لك ثواب الإحسان ، ولما منعته ما كتب لك شيء . فما أحرمك الله قضاء حاجته إلا حيث لم يرد لك ثواب ذلك ، فيا طول حسرتك على ما فَوَّتَّ على نفسك .

وفي حديث ذَكَرَه السيوطي في كتاب « الكشف » وصححه : أن رسول الله ﷺ قال : « من قضى للمسلم في الله حاجة كتب الله له مثل عمر الدنيا سبعة آلاف سنة صيام نهارها وقيام ليلها » ، أما يسوى هذا عندك قضاء حاجته ، وربما ما يسوى درهماً واحداً . وقال ﷺ فيما ذكره فيه أيضاً وصححه: « اطلبوا حوائجكم عند الرحماء من أمتي ، تعيشوا في أكنافهم ، ولا تطلبوه عند القاسية قلوبهم ، فإن اللعنة تنزل عليهم » ، والرحماء الذين يرحمون الضعفاء ويقضون حاجتهم ، والقاسية قلوبهم الذين لا يرحمون ولا يقضون حاجة المحتاج . فانظر تفاوت ما بين الجزائين، جزاء السبعة الآلاف سنة لمن قضى ، وبين جزاء اللعنة لمن رد ، فحيث لم يرد الله له ثواب قضاء حاجة ذلك المضطر رَدَّه ، فَحَرَمَ نفسه كل ذلك الوعد العظيم ، وأوقع نفسه ببخله وشُحِّ نفسه في ذلك الوعيد الأليم . فلذلك كان العامي السمح النفس أحب إلى الله من العالم والعابد الشحيح النفس ، فما منعك الله من عمل صالح أو أوقعك في عمل طالح إلا حيث لم يرد لك حظًّا في الخير ، كما قال تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، فأوقفَ الأمور كلها على

إرادته . إذاً ، فالعمدة في كل شيء على الإرادة منه سبحانه ، فترى قد يحصل لك نفع من عدوك الذي لا يحب لك النفع ، لما أراد لك ربك سبحانه ، فأجراه لك على يد عدوك ، ويكفيك ذلك عبرة ، وما أحسن ما قاله الحبر ابن عباس ، على ما قاله ابن رشيق في العمدة :

إِذَا طَارِقَاتُ الهَمِّ صاحَبَت الفَتَى وَأَعْمَلْنَ فِكْرَ اللَّيلِ وَاللَّيلُ عَاكِرُ
وَبَاكَرَنِي في حَاجَةٍ لم يَجِدْ لها سِوَايَ وَلا مِنْ نَكْبَةِ الدَّهْرِ نَاصِرُ
فَرَجْتُ بِمالِي هَمَّهُ فِي مَقَامِهِ وَزايَلَهُ الهَمُّ الطَّرُوقُ المُسَامِرُ
وَكَانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَيَّ بِظَنِّهِ بِيَ الخَيرَ إِنِّي لِلَّذِي ظَنَّ شَاكِرُ

ثم أنشد الفاضل الفقيه أحمد بن علي الجبلي ، نزيل مكة المشرفة ٢ ربيع أول سنة ٩١٦ في ضريح ابن عباس :

يَا قَاصِدَ الطَّائِفِ جِدَّ السُّرَى إلى الإمَامِ الحَبرِ عَالي الجَنَابْ
أَعنِي ابنَ عَبَّاسٍ إِمَامَ الهُدَى حَبْرَ البَرَايا تُرْجُمَانَ الكتابْ

وإذا نظرنا إلى الشريعة فنقول : إنما لم تفعل المعروف لأنك لست من أهل المعروف ، لكونك لم يكتب لك ثوابه ، فلو كنت وأراده الله لك لفعلت ، شئت أو أَبَيْتَ ، وهذا للترغيب في المعروف .

فافهم ، كما قَرَّرنا من كون الإرادة سبقت الأسباب في الخير والشر ، فلا يكون سبب خيرٍ أو سبب شرٍّ إلا إن سَبَقَت الإرادة مجزأة لفاعله غالباً ، وقد تتخلَّف الإرادة عن الجزاء مع ما اقتضته من العمل، كما مَرَّ في حديث : « فوا الذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة .. » الحديث .

قال الشعراوي : « وإذا أَمَرَت الرسلُ الخلق بعمل شيء ، فلسان حال من لم يعمل يقول : هل نعمل ما قُسِم لنا أم لا ؟ فلا يسع كل رسول إلا السكوت عنه » ، أي لأنه مخاصم بالحقيقة ، فيغلب خصمه بالحُجَّة ، ويفوِّت على نفسه حصول الخير وهو مقصود الشرائع كلها والمرسلين كلهم . قال: « وليس للرسل المرسلين أثر في سعادة أحد ، كما أنه ليس لإبليس أثر في شقاوة أحد ، فإن أهل القبضتين مميزين عند الله قبل بعثة الرسل ، لا يزيدون ولا ينقصون » ، أي وقبل وجودهم ، فإذا أوجد الفريقين معاً ، وجاءتهم الرسل من عند الله بأحكامه ، فأسمعوا الفريقين ما أرسلوا به ، استجابت أهل قبضة اليمين بإرادة الله لهم ذلك ، ولم يستجب أهل قبضة الشمال كما أراد لهم ذلك ، فثبتت الحُجَّة لمن استجاب وعلى من لم يستجب ، كما تقدَّم من قوله : « **إن الله لا يأخذ إلا بحُجَّة**» .

قال : « من كان عنده من الدنيا قدر كفايته فقط بلا زيادة ، فذاك رزقه المُقَدَّر له ، أو زايد فما فوق ذلك فهو رزقُ غيره استُخلِف فيه ، وهو عنده أمانة ، فليراع فيه ما يلزمه وكما ينبغي على مقتضى الشرع، ويتصدَّق منه ويقدِّم منه لآخرته ، قال الله تعالى : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾، وإن باع منه شيئاً قنع بما تيسر له في الحال دون احتكاره والطمع في غلاه ، ومهما خرج منه شيء من يده إلى يد آخر بأي وجه ، ببيع أو هبةٍ أو صدقةٍ أو غير ذلك ، فقد رجع ذلك إلى من هو رزق له ، وإن بذَّر في الزائد أو أسرف فيه أو ضيعه على مقتضى هواه وشهوته ؛ فهو متعدٍّ في حقِّ غيره ، ومُسْرِف فيه مذموم الحال » .

وتقدَّم قوله ، لما قال له بعض الناس : « إن الأسعار رخيصة » ، فقال : « **احتكَروها ، وضموها للناس، وباؤوا بإثم احتكارها وحدهم** » . ومرة تكلم بمثل ذلك وذَكَرَ هذه الآية : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ ، قال : « **فما أثبت لهم إلا الإستخلاف فيه ، وما أثبت لهم فيه مُلْكاً** » .

وقوله : « **إلى من هو رزق له** » ، يعني كما أفهمه معنى كلامه ، إن استمتع به الواصل إليه فهو رزقه، وإن دفعه إلى آخر أيضاً ، فهو حامل له أيضاً إلى صاحبه كالرسول ، وهو أمانة عنده ، فإن دفعه إلى آخر كان كذلك ، وهكذا إلى أن يبلغ من يستمتع به ويستنفقه فهو رزقه ، فإن رزق الإنسان ما استمتع به، وما لم يستمتع به فهو رزق من يستمتع به عنده مدَّخر له إلى أن يصل إليه على يدٍ واحدة أو أيدٍ كثيرة متى ما وصل إليه .

وقوله : « **مسرف .. إلخ** » ، هذا فيما يملكه مما زاد على حاجته ، وإلا إن كان فيما لا يملكه ، كان ظالماً فاسقاً عاصياً لله ورسوله ، فَتَحَصَّلَ من هذا أربع حالات، ففي إخراج الزائد من ماله إلى من هو رزق له ، أعني المستمتع به على ثلاث حالات : إما أن يكون محسناً فيه كما ينبغي ، وهو أن يوصله إليه على قصد يتقرب به إلى الله كنحو صدقة ، أو أن يكون مسيئاً فيه ومقصِّراً ، فبالإحتكار ، أي ببيع بعد الإحتكار، وقد ورد : « من احتكر طعام أربعين يوماً ثم تصدَّق به لم يكن مكفِّراً » ، لإثم احتكاره ، و « إن المحتكرين يُحشَرُون مع قتلة النفوس » ، وأحرق سيدنا علي طعام المحتكرين.

والإحتكار أن يشتري الطعام ويضمه ينتظر به الغلاء ، وكذلك إذا أوصله إليه برباً أو أي وجهٍ يكون محرماً أو مكروهاً ، فكلها إساءة ، لكن بينهما ما بين المحرَّم فيأثم ، أو المكروه فلا . أو يكون إيصاله إليه وسطاً بينهما لا محسناً ولا مسيئاً ، وذلك ببيع قبل الإحتكار ، هذا في إخراج ما زاد من ماله على حاجته ، والرابعة : تصرفه في مال الغير بلا إذنه . والله أعلم هـ .

قال رضي الله عنه : « سمعنا فيما بلغنا أن لله ملائكة موكلين بخزائن أرزاق العباد ، وأن للعبد في كل وقت رزقاً معلوماً ، فإذا أطاع العبدُ ربَّه وأحسن له المعاملة ، أمر الله الملائكة الموكلين بخزائن أرزاق العباد أن يعجِّلوا له من رزقه في الوقت الآتي مع رزقه في الوقت الحاضر ، فيتسع عليه رزقه فيه ، وإذا عصى وأساء المعاملة ، أمر الخزنة وقال : ادَّخروا رزق هذا له في الخزائن . فيؤخَّر إلى الإستقبال ، ويبقى مقتراً عليه رزقه في الحال الحاضر » ، *ثم قال* : « لعل المراد أن الرزق شيء مقدَّر معلوم ، على ما قسم للشخص بلا زيادة ولا نقصان ، وإنما يقدَّم ويؤخَّر بحسب معاملته لربه ، ولعل هذا في بعض الناس ، وبعضهم وُسِّع عليه على أي حال، وبعضهم بالعكس » هـ .

أقول : قوله : « على أي حال » ، أي من طاعة ومعصية ، لما هو مشاهَد من أحوال عصاة موسع عليهم ، ومطيعين مقتراً عليهم ، وبالعكس من مطيعين موسع عليهم ، وعصاة مقتراً عليهم ، كل هذا بالنظر إلى الأسباب ، وأما بالنظر إلى الحقيقة فهو على ما أراد الرب سبحانه وقسم من التوسعة والتضييق ، على من أراد من مطيعين وعصاة ، والمعنى في ذلك : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، وليظهر سبحانه أثر نعمته على من شاء من خلقه ، ويظهر الحال في أحد الأمرين من الشكر والصبر أو خلاف ذلك ، فيجزي كُلاً بحسب حاله وعمله ، كما قال سيدنا :

إذا مَـا ابتَـلاكَ اللهُ فَالصَّـبرُ حَقُّـهُ ... عَلَيكَ وَإن أَوْلاكَ فَالحَقُّ فِي الشُّكْرِ

وقوله : « وإنما يقدَّم أو يؤخَّر » ، هذا هو اختياره في هذا ، كما اختار ما اختاره ابن عباس في معنى حديث : « البِر يزيد في العمر ، والفجور ينقص منه » ، فقال ابن عباس : « إن له في الدنيا عمراً معلوماً إلى وقت وفاته ، وإن له في البرزخ من حين موته إلى وقت بعثه أجلاً معلوماً ، فإن كان برًّا زيد له في عمره الدنيوي من عمره البرزخي ، وإن كان فاجراً نقص من عمره الدنيوي وزيد في عمره البرزخي»، وفي الحقيقة ليس هنا زيادة أو نقصان من خارج ، إنما هو الزيادة أو النقصان من أحد العمرين ، فهذا اختيار ابن عباس .

وصرَّح سيدنا في بعض المكاتبات باختياره لهذا ، فقال بعد ما ذَكَره : « **وهذا هو الذي نختاره ، ونقول به** » ، ذَكَرَ ذلك في أجوبته لباشعبان ، لما سأله عن معنى الزيادة والنقصان في العمر الوارِدَيْن في الحديث على البِر والفجور ، فتكلم على ذلك كثيراً ثم قال : « **وقال ابن عباس كذا وكذا ..** » ، كما تقدم ، ثم قال : « **وهذا هو الذي نختاره ، ونقول به** » ، فكذلك اختار ما ذَكَر أيضاً في تقديم الرزق وتأخيره بحسب الطاعة وضدها هـ .

وذَكَرَ الأرزاق في بعض المجالس ، فقال : « الأرزاق مُقَدَّرة ، ولكن إذا عصوا قال سبحانه للخزنة: أخِّروا رزقهم في الخزائن ، وإذا أحسنوا عَجِّل لهم ، أو يجعلها لهم في مدة ثم تُرَد عليهم في وقت آخر لعصيانهم » ، ثم مَثَّل لذلك فقال : « كما ترى كثيراً من السيول تأتي وتروح ضياعاً ، لا يحسنون تربيتها، هذه هي التي قد كانت أُخِّرت لهم ثم أُردِفَت لهم ، مثل العبد السوء إذا عصى سيِّده نحو أربعة أيام ، ثم يجمع عليه رزق تلك الأيام مع رزقه الحاضر حتى يكثر عليه ويمل الأكل » .

وقال : « سمعنا فيما بلغنا ، أن الله تعالى يقول : يا عبدي أطعني ولا تعلمني بما يصلحك ، فأنا أعلم بما يصلحك منك » ، ثم فسَّره وقال : « عليك الذي عليك وامسك الحبل بطَرَفَيْه ، ولا تَخْتَرْ مع ربك ، فاختياره لك أحسن من اختيارك لنفسك» هـ .

أقول : قوله : « ولا تعلمني بما يصلحك » ، يعني أن النفوس مطبوعة على حب الدنيا ، ولعلك خلي منها ، وأراد ربك لك ذلك ، وهو أصلح لك لسلامتك من عذاب حرامها وحساب حلالها ، فإن من نوقش الحساب عُذِّب ، ولعل نفسك تطلب الدنيا وترغب فيها ، وترى أن ذلك أصلح لك ، فارضَ بما أراده لك ربك ولا تتمنى مع الله .

وقوله : « عليك الذي عليك » ، يعني إنما عليك التعلق بأحكام الشريعة ، فتمسَّك في ظاهرك بها ، واجعل الحقيقة في باطنك واعتقادك ، فهذا إمساك الحبل بطرفَيْه ، بأن تجعل الشريعة في ظاهرك والحقيقة في باطنك ، فإذا جعلتَ كل واحدة منهما في محلها المذكور ، فهو إمساك الحبل بطرفيه ، ولا تجعل الحقيقة في محل الشريعة كما أنكره النبي ﷺ على سيدنا علي في حديثه المتقدم بشرحه ، حيث قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾، وهو معنى قوله المتقدِّم : « من جاء بالحقائق ومعها طرائق سلَّمنا له ، ومن كان معه حقائق وليس معها طرائق فإنما هي أخت الزندقة » هـ .

قال رضي الله عنه : « لا تشتغل عن نفسك إلا بربك ، وإلا فلا تشتغل عن نفسك بشيء ، ولا تشتغل بالناس ، فإن الناس ما يجونك إلا لحوائجهم ، فإذا انقضت حاجة أحد غاب عنك أياماً » .

قال : « إن أهل الزمان قد بعدوا من الدين جداً ، حتى إنهم إذا سمعوا شيئاً على قاعدة الشرع لم يطرق أسماعهم ينكرونه ، لعدم اطلاعهم على ذلك ، بسبب همتهم في الدنيا وعدمها في الدين ، ولو تولينا شيئاً من الأمور لرأيتم مالم تطَّلعوا عليه ، إلا إن كان قد سمعتموه » ، ومرة قال : « لو وُلِّينا أمر الناس ، أو ولي والٍ يسمع لنا ، لأظهرنا لهم أموراً من الحق لم يكونوا يعرفونها ولا سمعوا بها ، إلا إن رأوها في الإحياء » .

قال : « أدْرَكْنا زمناً ، إذا وقعت على الناس شدة أو بلوى ، رجعوا إلى الله وتابوا واستغفروا ،

ولَزِموا الطاعات وتركوا المنهيات ، وخافوا أن قد عُجِّل لهم العذاب في الدنيا ، ثم إنهم يرجعون على أنفسهم باللوم على التفريط ، وأهل هذا الزمان إذا نزل بهم ، تركوا الواجبات فضلاً عن المندوبات ، وارتكبوا المحرمات ، ثم إنهم يتمنون ما لم يستحقوا ، فهيهات أنّى يكون لهم ذلك » ، وقال : « اعطوا المحن أحكامها ، فإن من أعطاها إياها كانت عليه نعمة ، وإلا صارت كل محنة محنتين أو ثلاثاً » هـ .

أقول : « أحكامها » ، الرضا إن كان من الخواص ، أو الصبر إن كان من العامة، فهذان مقاما العبادة كما بيَّنهما حديث رسول الله ﷺ المتقدم : « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، فَبَيَّن أن هذين هما مقاما العبادة ، وما خرج عنهما فهو مقام الضالين أصحاب الشمال ، كما قال تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝﴾، ويقال لهم المقربون والخواص هم أهل مقام الرضا المذكور ، ويتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالعطاء ، وأصحاب الميمنة : هم أهل مقام الصبر والعبادة المذكورة، وهي فِعل العبد كل ما يرضي المعبود ، من فِعل كل ما أُمِرَ به ، وترك كل ما نهى عنه ، مع الرضا بكل ما فعل به ، وهذا هو معنى قوله : « اعطوا المحن أحكامها » .

وقد قال سيدنا موسى عليه السلام : « يا ربِّ ، متى أعلم رضاك عني ؟ »، فقال سبحانه : « رضاي عنك في رضاك عني » ، وهو معنى الحديث : « اعبد الله على الرضا » ، فإن نزل عن هذا فلينزل إلى مقام الصبر ولا يتعداه ، فينزل إلى حال أصحاب الشمال ، فإذا كان في مقام الرضا فحينئذ تصير المحنة منحة ونعمة، لحصول الثواب عليها الذي هو أفضل من ثواب العمل ، كما في الحديث : « إن العبد قد تكون له عند الله منزلة عالية لا ينالها بعمله ، فيسلط الله عليه من البلاء ما يبلغه تلك المنزلة » .

ومن فوائده : أن يبلغه الله به ثواب أهل البلاء الوارد في الحديث : « ليتمنين أهل العافية يوم القيامة أن لو قُطِّعَت أجسامهم بالمقاريض » ، لما يرونه من ثواب أهل البلاء ، كل هذا إذا رضي أو صبر، فإن لم يرضَ ولم يصبر ، صارت عليه محنة بإيلامها ، ومحنة بفوات ثوابها ، ومحنة بالإثم على الجزع، حيث لم يسلِّم لأمر الله . وما هكذا شأن العبد في معاملته لربه ، لأنه قد أخلَّ بمعنى العبادة الذي ذَكَرْنَا ، حيث لم يسلِّم ويرضى بقضاء الله ، وفي الحديث : « إن رضي وصبر ؛ جرى عليه القضاء والقدر وهو مأجور. وإن لم يرض ولم يصبر ؛ جرى عليه القضاء والقدر ، وهو مأزور » هـ .

قال رضي الله عنه : « الدنيا كالبقرة ، إن أمسكها الإنسان برأسها كَسَعَتْهُ - أي نطحته - وإن أمسكها بذيلها رَمَحَتْهُ ، فلا أجدر بالعاقل من تركها » .

قال رضي الله عنه : « إذا رأيتَ أمراً يصلح لكل أحد فالْزَمْه ، وإن صلح لأحد دون أحد فالزم ما يصلح لك ، واحذر من الخنا ، فإنه إن فاتك عاره لم تفتك ناره » .

أقول : « الخنا » ، الخيانة في أمور الدين والدنيا بمخالفة ما أمر به فيهما .

وقال : « اسمعوا هذه الكلمة واحفظوها وانقلوها عنَّا وعوها ، إن تولَّعوا بأهل هذا البيت ، أول ما يهتك وينخرب بيتهم هُم ، لأن هذا مُجَرَّب سابقاً ولاحقاً » .

أقول : يعني الدولة إن تولَّعوا بالسادة بني علوي بهتكهم وعدم احترامهم .

وقوله : « مُجَرَّب » ، أي كما عُلِمَ سابقاً ما فَعَلَ الله لمن قَتَلَ الحسين وغير ذلك، وقد انهتك وخرب بيت آل كثير ومنصبهم لقلة احترامهم للسادة ، كما أشار إلى شيء منه في قصيدته : « نَسَمَاتُ الحَيِّ وَهْناً إِذْ سَرَتْ » .. إلى آخرها . وقد سلَّط الله على آل كثير يافع ، فأذلوهم واستحوذوا عليهم ، وغلبوهم على أمرهم ، حتى لا يقدر حاكمهم يتصرف في حكمه لشيء إلا برأي منهم ، وتشتَّتوا في البلاد خوفاً منهم ، وأي هتكٍ وخرابٍ يزيد على هذا ، وهذا الواقع بهم مصدِّق لما قال .

وقد رأيت يافعيًّا دخل دهليز بيت سيدنا في الحاوي ، وجعل يتردد فيه ذاهباً وراجعاً لقلقٍ أصابه ، لا يقدر يجلس من شدَّتِهِ ، فطردْتُهُ عن الدهليز فخرج منه ورجع إلى مكانه ، فسألت عنه ، فقيل : صَعَدَ نخلة لسيدنا ليجني منها رطباً ، فَخُوِّفَ عن رُقِيِّها بأنها للسيد عبدالله ، فصعدها ولا اكترث ، وجنى منها ما أراد ، فحين نزل ثوّر تِفقهُ[1] ، فثار من أسفله دون رأسه ، وحرقه وأحرق صدره ووجهه، فأتى يطلب العفو من سيدنا ، ويطلب منه أن يقرأ عليه ، فقرأ له على ماء وَرْد في فنجان ، وأرسل به الخادم، فنزل إلى الدهليز فلم يجده ، فقيل : طرده فلان .

فأُخبر سيدنا بذلك فتبسَّم ضاحكاً ، ثم قال للخادم : « الْحَقْهُ به وقل له : يمسح به على ما أصابه»، ففعل فبرئ ، وما عاد بعد ذلك يتعرَّض هو ولا غيره من أصحابه لنخيلِ سيدنا ، وفي ذلك شاهِدٌ لقول سيدنا : « من تعرَّض لأهل البيت بالأذى ، سيما ساداتنا آل باعلوي ، سلَّط الله عليه ما يؤذيه » ، وليس في العادة أن ينخرق التَّفق من أسفله ، غير هذا كرامة لسيدنا نفع الله به هـ .

---

(١) التَّفق : بالفارسية هو السلاح الناري .

قال رضي الله عنه : « أهل حضرموت وقع عليهم من الله شيء ، والظاهر أن هذا إنما هو من محبة الدنيا » ، ثم ذكر حديث : « ما الفقر أخشى عليكم ، إنما أخشى عليكم أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسِطَت على من كان قبلكم ، فتنافسُوها كما تنافسَوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » ، **قال : « وكان ابتداء الفتنة في أول الإسلام – أو قال : في أول الأمة – على محبة الدنيا ، يتقاتلون على طلب المُلْك »** .

ويعني أول الإسلام بعد الخلفاء الراشدين الأربعة ، الذين قال ﷺ : « عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عُضُّوا عليها بالنواجذ » ، يعنيهم بذلك حيث علم أنهم على سُنَّته لا يشذون عنها ، وذلك منه ﷺ حثٌّ على الإقتداء بهم خاصة ، واتباع سيرتهم وهديهم ، لتقدمهم بعده على دينه وسياسة أمته ، وذلك بعد ما حثَّ عموماً على الإقتداء بأصحابه كافة بأي واحد منهم ، حيث قال : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، وذلك لمعرفته بحفظهم عن الخطأ ، من بركة رؤيتهم وجهه ومخالطتهم له ، وخِلطتهم له تُكْسِبهم قوة يقين وحفظاً لنظام الدين، فإذا كان مجالسة غيره تسري في الجليس ، فكيف بمجالسته ؟

ومدة الخلفاء الراشدون ثلاثون سنة إلا ستة أشهر ، تتمها خلافة الحسن ستة أشهر ، وهي مدة الخلافة الحق ، التي قال النبي ﷺ فيها : « مدة الخلافة الحق بعدي ثلاثون سنة ، ثم يكون مُلْكاً عضوضاً » ، ومن حين ابتدائه ، هو الذي أراد سيدنا بقوله : « **كان ابتداء الفتنة في أول الإسلام على محبة الدنيا ، يتقاتلون على طلب المُلك** » ، وذلك من ابتداء المُلك العضوض بعد الثلاثين ، فتقاتل عبدالملك وأولاده ومن يليهم على ذلك ، وذلك في القرن الأول من الثلاثة التي هي خير القرون ، ثم دونه الذي يليه ، ثم دونه الذي يليه . فالثلاثون السنة مدة الخلفاء الراشدين خيرٌ كلها بلا شر ، ثم بعدها إلى آخر القرن فيه خير وشر ، والخير فيه أكثر ، والذي يليه كذلك ، لكن خيره دون خير الأول وشره أكثر من شر الأول ، وخيره أغلب من شره ، والثالث دون الثاني خيراً وأكثر منه شرًّا ، والخير فيه أغلب دون غلبة الذي قبله ، والعبرة بالأغلب . وهذا ترتيبه في الحديث بِـ « ثُمَّ » ، وزادت خيرية الأول مدة الثلاثين ، مع أن خير ما بعدها من القرن أكثر من شره ، ثم بعد القرون الثلاثة، الشر أكثر بكثير .

وكلما تأخر الزمان قَلَّ الخير وكثر الشر ، وهكذا نزولاً يتضاعف الشر ويتقاصر الخير إلى يوم القيامة، حتى لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ومن لا يذكر الله ويرجعون إلى أحوال أهل الجاهلية، ولا يتآمرون ولا يتناهون ، حتى إن الرجل يجامع زوجته والناس يرونه ، وطيبهم من يقول له : « تَنَحَّ واستَتِر لا يراك الناس» ، ثم ينقصون عن ذلك ، حتى إن الرجل يواقع المرأة بالحرام والناس يرونه ، وما أحد منهم ينهاه أو يُنكِر عليه ، ذَكَرَ ذلك بمعناه الإمام السيوطي رحمه الله هـ .

قال : « إن فلاناً من أهل البيع والشراء من السادة ، خرج من مخزنه في صنعاء وتركه مفتوحاً ، فدخل سارق وأخذ عليه الذي معه صرتين في أحدهما سبعون قرشاً ، فقال الرجل : لو أخذ الصغرى وترك الأخرى لكان أهون » ، ثم قال سيدنا: « ولكن من نيته السرقة لا رحمة في قلبه ، قد نَزَعَ الله من قلبه الرحمة ، فكذلك تُنْزَع الرحمة له من قلوب الملائكة ، فتسلَّط عليه ملائكة غلاظ شداد فكل عاصٍ لا رحمة في قلبه ، يسلطهم الله عليه كذلك » .

قال : « قد يُرفَع نوم الليل لبعض الصالحين مع المجاهدة والفضل ، كأبي عبدالله القرشي ».

قال : « معاليق البطن كلها متعلِّقة بالجنب الأيسر ، فإذا نام عليه كان عليها ، فيثقل نومه . وإن كان على الأيمن كانت مُعلَّقة فيخف نومه » .

قال : « ينبغي لفقير هذا الزمان أن يكون أخف على أهل الزمان من العُطُب ، لئلا يأثم فيهم ويأثموا فيه » .

قال رضي الله عنه : « اطرح نفسك على التراب ، فإن كنت تراباً فلا حرج عليك إذا وضعت التراب على التراب ، وسَلِمْتَ بذلك من الدعوى . وإن كان معك شيء فلا تظن أن هذا يضعك، بل يزيدك رفعة ، وما أظن أحداً في هذا الزمان يدَّعي لنفسه شيئاً إلا من عدم العقل ، وأما من ادُّعيَ له فإنها ذلك من كثرة الكلام ، وقد تكون أسباب وأغراض لمن يدَّعي ذلك لأحد تحمله على أن يدعيه له ، فقد قال رجل لرجل آخر لا نعده في درجة أهل الإيمان - أو قال : الإيمان الكامل - قال له : أنا أعتقد أنك في منزلة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، وهو ما يجي شعرة في جسده، ونحن لا نسلِّم لمن يدَّعي بما ادَّعاه ، ولا لمن ادُّعِيَ له بذلك » هـ .

أقول : ياللعجب كل العجب أنه قَلَّ ما يدَّعي مُبطِل إلا ويلقى له مساعداً ، وأيضاً ربما كان مساعده ممن يعتقد الناس فيه الديانة والتقوى تسخيراً من الله ، ليروج باطله على الناس ، لأمرٍ أراده الله سبحانه، وربما أراد الله إضلال أحد من الناس فيجعله سبباً لذلك ، وقصة السامري في بني إسرائيل كما قَصَّه الله في كتابه دليل واضح في المعنى .

وقد جاء إلى هذه الجهة في هذا الزمان رجلٌ يدَّعي في نفسه أنه من أكابر الأولياء ، وأن له كرامات وخوارق عادات ، حتى أن كل من لم يوافقه على ما أراد ويعتقد فيه كما يعتقده هو في نفسه ، وأصابه مرض أو ضرر ، ومات منهم أحد بأجله قال : أنا فعلت بفلان ، وأنا قتلتُ فلاناً . فهو واقف للناس على باب الشماتة، ووافَقَهُ على ذلك وصدَّقه في دعواه نحو أربعة من جملة الناس ، فذممته ولمته على قوله ذلك عند واحد منهم ، فقال لي : « أما ترى الشيخ أبابكر بن سالم يقول : أنا عرشها والكرسي»،

فتركتُ مخاطبته وعرفتُ جهالته ، مع إني أحب ذلك الرجل وأعتقِد فيه ، ولكن الجواد قد يكبو ، والحُر قد يعثر، ويريد أنه إنما قال ذلك عن غلبة واستغراق في الحقيقة كالشيخ أبي بكر ، وحاشا لله أن يكون ذلك الإنسان مستغرقاً إلا بحب الجاه والمال ، كما يعرف حقيقته من عَرَفَ سيرته وطريقته من قلة الورع والتقوى ، ومن قلة تقواه إشراكه نفسه مع الله في تدبيره في خلقه ، إذ يقول : أنا فعلت ، أنا قتلت. يظن أن ذلك القول يرفعه عند الخلق ، إذ هم مطمح نظره لا مطمح له سواه ، وقد وضعه وحط قدره عند الله وعند خلقه ، فَنَكَّلَ الله به وعزَّره وخذله وفضحه بين الناس ، وجعله عبرة لمن يعتبر ، ويتبيَّن لهم تحقُّق سوء حاله وزَغَلِهِ[1] وشدة كذبه وتلبيسه ، لما تقدم من حديث : « من أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها » ، وما ذَكَرْنَا معه وبَيَّنَّاه من شَرْحِ سيدنا له بقوله : « سريرة حسنة كانت أو سيئة ويلبسه رداءها بالجملة لا بالتفصيل ، ومعناه إن أَسَرَّ حسناً أحبه الناس وقَبِلَتْهُ قلوبهم واعتقدوه وتبرَّكوا به ، ولم يعلموا بما أسر . وإن أَسَرَّ سيئاً نفرت منه قلوبهم وأبغضته وكرهوا قربه ولقاءه ، ولم يعلموا مع ذلك بما أسر » ، أو كما قال على الحديث بمعناه .

وآخر شأن ذلك المدَّعي الكذاب أن خذله الله وشتَّت شمله، وجلاه عن بيوته وموطنه ، وفشَّ ورم جسمه ، وتبين لمساعديه وغيرهم زغله وكذبه ، وتحقَّق وفور نصيبه من لعنة الله على الكاذبين هـ .

قال رضي الله عنه : « اِلْزَقْ بالأرض تواضعاً ، فإن الله تعالى ما خلق الخلق إلا ليتواضعوا لِعَظَمَتِهِ ، وإلا فخزائنه مملوءة من الأعمال ولا اعتراض على المتواضع وما يجيد المعترض » ، وذكر هذين البيتين:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِناظِرٍ ... علـى صَفَحَـاتِ المـاءِ وهـو رَفِيـعُ
وَلا تَـكُ كَالدُّخَـانِ يَرْفَـعُ نَفْسَـهُ ... إلى طَبَقَـاتِ الجَـوِّ وهـو وَضِيـعُ

ومرة تكلم في هذا المعنى ، *ثم قال* : « فإذا كان الواحد من الملائكة من يوم خَلَقَهُم الله قبل خلق الدنيا في عباداتهم ، منهم القائم لا يركع ، ومنهم الراكع والساجد لا يرفع ، ومنهم القاعد في عبادته لا يقوم ، كلٌّ منهم في عمله ذلك إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : يا ربنا ، سبحانك ما عبدناك حق عبادتك . فما قدر عملك أنت مع أعمالهم المنزَّهة عن النقائص مما تدعوا إليه أهوية النفوس وشهواتها ، وأنت في عملك المشحون بذلك » ، أو كما قال بمعناه .

قال رضي الله عنه : « كل مُدَّعٍ مخذول ، ولا بُدَّ أن يقيِّض الله له من يعجزه فينخذل عند ذلك ، ولو

---

(١) أي غشه .

كان كثير العلم ، وما نرى أحسن للإنسان من الإعتراف وطرح نفسه في الأرض ، فإن كان عنده فضل فما يزيده ذلك إلا رفعة ، وإن كان غير ذلك فقد خُلِقَ من التراب ، فلا لوم عليه إذا صار فيما خلق منه» .

ثم قال : « وذَكَرَ الشعراوي : أن رجلاً من العلماء قال : لا أعلم في هذه الأمة بعد أبي بكر الصديق أعلم مني ، فقال له رجل آخر : صدق الأستاذ ، فكم في لحيتك من شعرة ؟ فلم يحر جوابه ، اختذل بسبب دعواه ، وكذا وقع لابن عربي في قصته مع دابة البحر » .

ثم قال سيدنا : « ومن طبع ابن آدم الطغيان إن وجد له محلاً ، سواء كان محقًّا أو مُبْطِلاً ، إلا إن قُرِّع بالخوف ، فإذا كان النبي ﷺ مع كماله المطلق استعاذ وقال : أعوذ بالله من مال يطغيني .. الحديث ، فما ظنك بغيره ؟ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ » هـ .

أقول : وذلك كما وقع للإنسان الذي أشرنا إليه من الطغيان ، لما رأى مساعدة أولئك الأربعة له ، حتى قال ما قال ، وما استحيى من الله ولا من خلقه ، فيما صدر منه من قبيح الأفعال ، وكثيراً ما أسمع سيدنا عبدالله نفع الله به يقول في جملة دعائه بعد الصلوات المكتوبة : « وأعوذ بك مِن دنيا تُلْهِينِي ، ومِن صاحبٍ يُردِينِي ، ومِن مالٍ يُطغِينِي » ، وقول ذلك الرجل الذي سأل المدَّعي ، أنه ما في هذه الأرض أعلم منه : « كم في لحيتك من شعرة؟ » ، إنما سلَّطه الله عليه ليظهر بذلك عجزه وقبيح دعواه ، لما امتلأ قلبه من نفخة الكبر ، تعجيزاً له وتخذيلاً ، وربما أنه كان عاميًّا لا علم عنده ، فألهمه الله ذلك ليتبيَّن له عجزه عما ادَّعى وخذلانه ، وذلك مصدِّق لقول سيدنا : « كل مُدَّعٍ مخذول ، ولا بد أن يقيِّض الله له من يعجزه » ، وستأتي قصة ابن عربي مع دابة البحر مع وقائع كثيرة في أمر الدعوى هـ .

قال رضي الله عنه : « الدعوى على حالَيْن : مُدَّعٍ متكلم ، بأن يقول : أنا كذا أو كذا . ومُدَّعٍ ساكت ، ولم يذكر نفسه بشيء ، ولكنه إذا قيل له : إنك جاهل أو لم تعرف شيئاً ، أو وُصِف بأي شيء فيه نقص يغضب ، فهذا مُدَّعٍ أيضاً ، ولو لم يكن مثل الأول » هـ .

أقول : والأول « المدَّعي المتكلم » ، بأن يقول : « أنا » ، هو وَصْف ذلك المدعي الذي ذَكَرْنَا ، وهو من هذا القبيل كما ذَكَرْنَا من كونه يقول : « أنا قتلت » ، وإذا طلب من أحد شيئاً فاعتذر قال له : إن لم تعطني أحرقتك ، أو فعلت بك ، وهذا النوع من أهل الدعوى أقبح وأشنع من النوع الثاني الساكت هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا حمد الإنسان نفسه ، وأثنى عليها بقوله : نحن وأنا وكان أبي ، سقط من العين ، ولم يكن لنا فيه نظر واعتقاد ، لأن إبليس مَقَتَهُ الله وأخرجه من الجنة بكلمة واحدة ، بقوله : أنا

خير منه . فإن هذا ليس بعبودية ، بل تكبَّر وتجبَّر، فليت شعري لو مرَّ على هذا القائل أخصُّ محبِّيه من قرابته وغيرهم وهو موضوع على شفير القبر ، ورأى قبره إلا قدر ذراع فقط ، فماذا يقول ؟ إلا يقول غوّطوا قبره. فأين كبره ونفسه وافتخاره والمشفقين عليه ؟ » .

قال : « صاحب النفس المسترة أخس وأشنع من صاحب النفس الظاهرة ، لأن هذا ظاهر للناس يحترزون منه ويجتنبونه ، والأول يظنونه على ظاهره فينشبون به ، ومثاله كالذي يقول لذي فضيلة : إن لي فيك اعتقاداً ، وإني أتيتك قاصداً ونحو ذلك في الظاهر ، وهو على خلاف ذلك ، ومثال الآخر : كالذي يظهر العدواة وعدم المحبة والإعتقاد ، فيفهم حاله ويعامَل بمقتضاه » .

قال : « المدَّعي مدافع ، يقوم له حتى الخلق ، قال بعضهم : قُلْ أنا مقصِّر على كل حال ، فإن كنت كذلك فقد أنصفتَ ، وإلا فأنت متواضع . والإنسان كله أقذار وإن حصل له كمال ، إنما هو من خارج لا من ذاته ، ومن قال : أنا أهل ، قيل له : لستَ أهلاً ، وإن كان أهلاً ، ومن قال : لستُ أهلاً ، قيل له: أنت أهل ، وإن كان ليس أهلاً » .

ومرة قال : « لا تعد شيئاً من يعد نفسه شيئاً ، وإنما الشيء من لا يعد نفسه شيئاً ، ومن قال : أنا أهل، وإن كان كذلك قيل له : لستَ بأهل ، ومن قال : لستُ أهلاً ، وهو كما قال ، قيل له : أنت أهل » هـ .

أقول : المذموم الساقط عند الله وعند خلقه ، من يرى نفسه ولو كان ذا فضل ، فضلاً عن غيره ، فرؤية النفس هي المخذِّلة له ، والواضعة قدره عند الخالق والخلق كما أفهمه كلامه ، وكما هو معلوم أيضاً ، حتى إن العاقل عن رؤية النفس مع نقصه يُعَد كاملاً ، والكامل مع رؤية النفس يُعَد ناقصاً ، كما دلَّ على ذلك سياق هذه العبارات . وكل هذه المقالات في ذمِّ الدعوى ورؤية النفس صدرت منه في مجالس متعددة كثيرة ، غير واحد واثنين وثلاثة ، وفي أوقات متفاصلة متطاولة مدة ما بينها ، ولكني استحسنتُ وأحببتُ أن أجمعها هنا نسقاً متوالياً ، لِيَقْوَى وَقْعُها في قلب من سمعها، فإن الكلمة إذا وردت في معنى ثم أَرْدَفْتَهَا كلمة في معناها ، أكَّدَت المعنى وحقَّقَتْهُ وقَوَّت وَقْعَهُ في القلب ، ويتأكَّد المعنى بتكرر اللفظ ، ولذلك تكرَّر ذِكْر الوقائع في الكتاب والسُّنة ليتأكَّد المعنى المقصود بذِكْرها .

قوله : « ولا بد أن يقيِّض الله له من يعجزه » ، فلقوله هذا وقائع كثيرة للأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ، ولغيرهم من الأكابر وعموم الناس ، شاهِدة له تدل على أن المدَّعي بشيء من علم أو قدرة على أمر من الأمور ، لا بد أن يقيِّض الله له ما يبيِّن له به عجزه عمَّا ادَّعاه ، لأن الله سبحانه يريد من خَلْقِهِ أن ينطرحوا تحت أمره وقضائه وقدره ، ويفوِّضوا الأمور كلها إليه ، ولا يدَّعوا معه شيئاً في أمر ما قط ولو في أقل قليل .

ومن النهي عن الدعوى في شيء ، قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، أي لا تعزم على أمر تعتقد أن لا بُدَّ لك من فِعله ، إلا أن تفوض أمر ذلك إلى مشيئة الله ، وتعقد قلبك على ما أجراه عليك بإرادته ، ولا ترى قط أن لك مراداً في أمر ما ، ولا تَدَّعِ أنك مستبد بنفسك ومتصرِّف برأيك ، والإختيار الذي معك إنما أعطاكه الله لإقامة الحكم الشرعي، لتختار ما أمَرَك به فتفعله ، وتترك ما نهاك عنه ، فلا تغلط فتظن أنك متصرف برأيك، كيف ولك من هو متصرِّف فيك ، لا تشذ عن تدبيره طرفة عين ، فاعلم ذلك .

فمن تلك الوقائع ما ذَكَرَ الشعراوي عن ذلك المدَّعي ، فقَيَّض الله الذي سأله: « كم شعر لحيته؟ »، فتحَيَّر وانخذل . وكذلك أن سبب ما وقع لسيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام ، أن موسى خَطَبَ في بني إسرائيل خطبة بليغة ، فسأله رجل: « هل على وجه الأرض أحد أعلم منك ؟ » ، قال : « لا »، أي لا أحد أعلم مني ، نظراً منه إلى ظاهر الحال ، فإنه رسول الله إلى أهل وقته ، وفي ظاهر الأمر أنه أعلم أهل زمنه ، إذ ليس في المرسل إليهم أحد أعلم من الرسول إليهم ، لأنه المعلِّم لهم ومرشدهم ، فكيف يكون أحد منهم أعلم منه ، فهذا بعيد جداً ، ولكن ما عَلِمَ بما في عِلْم الله ، مما هو وراء علمه ، وهو كذلك أعلم خلق الله في وقته حقيقة ، وأفضل عند الله من الخضر ، ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، غير أنه لمَّا رأى في نفسه أنه أعلم خلق الله ونَطَقَ بذلك ، أراد الله أن يبيِّن له ما يخالف ما رآه وظنَّه في نفسه، لتنكسر نفسه ويزول عن خاطره ما ظنَّ من كونه أعلم خلق الله ، تأديباً لنفسه وتوطيناً لها ، هذا وهو من كبار أولي العزم الذين هم أفضل الأنبياء والمرسلين ، فما بالك بغيره ، وإن علت درجته عند الله ، فافهم . وهذا يحقِّق معنى ما تقدَّم ، من كون من قال : « أنا أهل » ، وهو كذلك قيل له: « لست بأهل»، وعكسه ، لمكان رؤيته النفس . فإنه لما قال : « لا » ، عتب الله عليه حيث لم يرد العلم إليه ، يعني كان ينبغي أن يقول : « الله أعلم » ، ولو ظنَّ في نفسه ما ظن ، ورأى ما رأى فلا يظهر ذلك ، بل الأولى إظهار التفويض إلى الله سبحانه ، بل لا يقطع ويجزم أنه ما على وجه الأرض أعلم منه ، فإن هذا حد علمه ، وعلم الله أوسع وأوسع .

فلما أجمع على ما ظن ونَطَقَ به ، بيَّن الله له خلاف ما ظَنَّه بقصة الخضر ، فقال الله سبحانه لموسى عليه السلام : « بلى ، عبدنا خضر هو أعلم منك » ، قال : « أين أجده ؟ » ، قال : « بملتقى البحرين »، يعني البحر المالح والحلو بِفَيْلَكَا ، وهناك مَشْهَدٌ للخضر حيث الْتَقَيَا ، ثم أباح للخضر خَرْقَ السفينة وقَتْل الغلام وإقامة الجدار ، وذلك بخلاف عِلْمه ، فهو أفضل منه ، أي أعلم منه بإباحة ذلك فقط، حيث لم يعلمه ، ليتبين لموسى عليه السلام أن هنا من هو أعلم منه بإباحة تلك الأمور عند الله ، فيعلم أن علم ذلك من وراء علمه ، وليس في عِلْمه إباحة ذلك ، ولذلك أنكره عليه .

وما المراد من كل ما وقع إلا أن يتبيَّن له أن الأمر بخلاف ما ادَّعى ، من كونه ما على وجه الأرض أحد أعلم منه ، فتبيَّن أن هناك من هو أعلم منه ، ممن علم ما لم يعلمه ، وأن تضاف الأمور كلها إلى الله منه ، ويوقفها على مشيئته وعلمه . فكان أول ما فاجأه به الخضر لما علم منه ظنه ذلك ، ووقع له معه ما وقع ، فحينما رَكِبَا في السفينة، رفع عصفور على حَرْف السفينة ، ووضع منقاره في الماء يشرب ، فقال الخضر لموسى ، مشيراً إلى ما في نفسه مما ظن : « اعلم يا موسى ، أن ما علمي وعلمك وعلم جميع الخلق أجمع ، في علم الله إلا كما نقر هذا العصفور من هذا البحر » ، إشارة منه إلى القلة ، لا أن علم الله يدخله النقص ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كثيراً . ذَكَرَهُ الشعراوي .

وقال الشعراوي أيضاً : « ثم اعلم أن جميع ما بأيدي العلماء من النقول في جميع العلوم لا تجيء نقطة من بحر علوم الأولياء ، وجميع ما علمه الأولياء لا يجيء نقطة من بحر علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجميع ما علمه الأنبياء لا يجيء نقطة من بحر علم الله عز وجل » ، انتهى كلام الشعراوي .

وكذلك النبي سليمان عليه السلام ، لما طلب من الله تعالى أن يجعل أرزاق الخلق على يديه مدة سنة ، قال الله تعالى : « إنك لا تقدر على ذلك ، فلا تغتر بِمُلْكِك ولو أني قد أعطيتك مُلْكاً عظيماً ، فإنه بالنسبة إلى مُلْكِي لا شيء » ، قال : « إذاً مدة شهر » ، قال : « لا تطيق ذلك » ، قال : « فجمعة »، أي أسبوع ، قال : « لا تطيق ذلك » ، قال : « فيوم واحد » ، فقال الله تعالى : « فاستعد بما معك من الطعام، وابدأ بدواب البحر أولاً قبل دواب البر » . فأخذ في جَمْعِ الطعام مدة طويلة ، فذبح ألوفاً كثيرة من الإبل ومثلها من البقر ومثل ذلك من الغنم ، واستعدَّ بألوف أحمال جمال وبغال وحمير من الطعام، ومَدَّ سماطه على ساحل البحر فراسخ كثيرة ، فأخرج الله له حوتاً واحداً من البحر فأكله كله ، وبقي يتلهف من الجوع وطلب الزيادة ، فقال له سليمان : « لم يَبْقَ لي شيء »، ثم قال له : « أنت تأكل في كل يوم مثل هذا ؟ » ، فقال : « رزقي في كل يوم ثلاثة أضعاف هذا ، ولكن الله لم يطعمني اليوم إلا ما أطعمتني ، فليتك لم تضفني ، فإني بقيت اليوم جائعاً حيث كنت ضيفك » ، وقال : « لا واخذك الله يا ابن داوود ، فما جُعت قط مثل هذا اليوم ، حيث وُكِّلتُ إليك » ، فسأله سليمان : « هل في البحر حوت مثلك ؟ » ، قال : « إني لفي زمرة – أي جماعة من سبعين زمرة – كل زمرة عدد دواب البر والبحر ، ما في زمرة منها أصغر مني » ، فتعجَّب النبي سليمان عليه السلام وقال : « سبحانك يا ربِّ ، ما يكفي خلقك غيرك »، فتبيَّن له عجزه عما ادَّعاه وظنّه في نفسه من القوة على ذلك .

وهكذا جرت عادة الله في كل من ادعى أن له معه قدرة ، من أخيار أو أشرار ، أن يكذبه ويبين له عجزه عما ادعاه ، وقالوا : ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ، عجبوا بقوتهم لكبر جثثهم ، فأكذبهم الله بما سلط

عليهم ، فأهلكهم ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ .

وكذلك صاحب الأهرام بمصر ، لمَّا عَلِمَ بوقوع الطوفان في وقت نوح ، بنى هذا البناء بأعلى جبلٍ عالٍ ، وجعلها مختومة من أعلاها وأسفلها وجوانبها بهذا البناء المُحْكَم ، ونزل فيه بأهله وحاشيته ، يريد أن يطفو عليه الماء ، ثم إذا نضب الماء خرج بمن معه سالمين ، فلما علاه الماء سلَّط الله عليه جرذاً من أعلاه فثقبه ، فدخل عليهم الماء فحشرهم فيه فأهلكهم ، ولو علم بانيه عدو الله ، بأن قدرة الله لا تغالب ما فعل ، وها هو بناه إلى الآن يرى محكماً من قبل طوفان نوح .

وغير أولئك الأخيار بيَّن الله لهم ما بيَّن ، وغير هؤلاء الأشرار بيَّن الله فيهم ما بيَّن ، وعلى هذا جرت عادة الله ، فلا يزعم أحد ويغتر بأمر ، بل الإنطراح تحت أمر الله وقضائه وقدره والتواضع له أنجا وأسلم . وما ذَكَرْنا من هذه الأمور مقال يستدل به ويُعرَف به المعنى ، فرحم الله امرءاً عرف قدره ولم يتعدَّ طَوْرَه ، ولَزِمَ التواضع والإنكسار والإنقياد تحت الحُكم الإلهي ، وَسَلِمَ من نفخ النفس والوقوع في ما يهدم دينه ومروءته ويبين جهله وسفاهته .

وقد ذَكَرَ الإمام الغزالي رحمه الله : « أنه لا يكمل الإنسان إلا بكمال عقله ، ولا يكمل العقل حتى يَعْرِف ثلاثة من ثلاثة : أن يعرف الحق من الباطل في العقائد ، وحتى يعرف الصدق من الكذب في الأقوال ، وحتى يعرف الصواب من الخطأ في الأفعال » .

وكذلك أن سيدنا سليمان ، لما أعطى منصبه حقَّه وشأنه من إظهار العزة ، حيث قال في شأن الهدهد : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ، فجاءه الهدهد خائفاً مرتعداً ، لما خُوِّف بأن النبي سليمان تهدَّدَه وتوعَّدَه بالقتل والتعذيب ، قائماً بحق مرتبته من الأدب والتذلل والتواضع بين يدي نبي الله سليمان عليه السلام ، مرخياً أجنحته وذَنَبه خافضاً رأسه ، فأَلْهَمَهُ الله أن قال بين يَدَيْهِ كلمةً تُبْهِر العقول وتُحَيِّر الألباب وتُبَيِّن المقصود ، وهي أن قال : « يا نبي الله ، اذْكُر وقوفك بين يدَي الله ، فإنك بين يديه أذل مني بين يديك » ، فارتاع من هذه الكلمة نبي الله سليمان ، وجعل ينتفض وارتعدت فرائصه وبكى وعفا عنه .

ومعنى ذلك : فَلِمَ تتعزَّز عليَّ ؟ وإنما العزة لله ، إذ كل ذي عزة فذليل عند الله ، فإلى الله سبحانه ترجع الأمور ، من كل ذي عزة أو قدرة أو إرادة أو أي معنى أو أمر يكون . وإنما اغترَّ الآدمي بما جعل الله تعالى له من الإختيار والإقتدار في بعض الأمور ، لإقامة أحكام الشرع ، فسكت عن مقصود ذلك حتى انجرَّ بسبب ذلك إلى الدعوى لأمور وراء المقصود ، يريدها ويطلبها ، ويرى أن له قدرة عليها بزعمه ، أكثرها في أمور دنياه ، وغافلاً عن ربه ومدبِّره ومحركِّه ومُيَسِّر أموره ، وأنه ما يحصل له من

أموره إلا ما كتبه له .

وكذلك ما أشار سيدنا إليه من قصة ابن عربي مع دابة البحر ، وقد ذكرها ابن عربي في بعض كتبه قال : إنه ركب البحر فعصفت عليهم الريح ، ووقع عليهم الطوفان ، وجاءهم الموج من كل مكان، فنظر – أي ابن عربي – إلى البحر وقال: « اسكن يا بحير ، فإن فوقك بحراً » ، يعني بحراً في العلم يشير بذلك إلى نفسه، فأخرج الله له سمكة من البحر فكلمته وقالت : « أتزعم أنك بحر في العلم ؟»، قال : « نعم » ، قالت : « فأسالك عن مسألة ، فإن أجبتني عنها فأنت بحر في العلم كما زعمتَ ، وإن لم تجبني فلستَ كما زعمتَ ، وليس معك علم » ، قال : « اسألي »، قالت : « إذا مُسخ الرجل عن زوجته من صفة الآدمي فماذا تعتد زوجته، عدة طلاق أو عدة وفاة ؟ » ، فقال : « فتحيَّرتُ ، ولم أعرف لها جواباً »، فقلت: « لا عِلْم عندي في ذلك » ، فقالت : « كيف تزعم أنك بحر في العلم ؟ » ، قلت : « قد عجزت » ، قالت : « أفأخبرك وتصير تلميذاً لي ؟ » ، قال : « قلت : نعم » ، فقالت: « إن مسخ جماداً اعتدت عدة وفاة ، وإن مسخ حيواناً اعتدت عدة طلاق»، فأقرَّ لها بالتلمذة ، وذَكَرَها في جملة مشايخه في كتابه الذي ألَّفَه فيه ، وعدَّدهم فيه أو كما ذَكر . والجماد حيث لا روح فيه كانت عدته عدة الميت حيث لا روح فيه ، والحيوان حيث فيه الروح كانت عدته عدة الطلاق الواقع من الحي ذي الروح .

وكذلك ذاك الذي قال : « اسألوني ، فلو سألتموني عن كل ما تحت السماء لأجبتكم » ، فقيَّض الله له مجنوناً ، فقال له : « النملة التي تكلَّمت للنمل من شأن سليمان ، وقالت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ أذكَر هي أم أنثى ؟ » ، فحارَ ولم يعرف جواباً ، فقال له : « أخبرك وتترك الدعوى وتقر بالعجز ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « هي أنثى ، لقوله تعالى : ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ فلو كان ذَكَراً لقال : قال نملة » .

وغير هذه الوقائع ، وقائع كثيرة لا تحصى في هذا المعنى ، تدل على أن الدَّعوى لأي أمرٍ كان ، لا تليق من العاقل وذي الدين وذي المروءة ، وإنها تدل من صاحبها على ركاكة الدين ومخالفة الحق والصواب ، وعلى غاية النقص في الدِّين وضعف الإيمان ، وعلى الجهل وسخافة العقل ، وأن الله تعالى لا يدع صاحبها عليها حتى يبين كذبه وعواره ، ويفضحه بين الناس ويعاقبه ، وتدل على قوة غضب الله عليه ومَقْتِهِ له ، وعلى وفور نصيبه من لعنة الله على الكاذبين .

فإياك إياك والحذر الحذر ، فهذا الذي ذَكَرْنا قليلٌ من كثيرٍ ونَزْرٌ من بحر ، فاقنع بالقليل عن الكثير، وبالنَّزر عن البحر ، وبالوَشَل عن النهر ، فالمدَّعون هم الآمنون من مكر الله ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾، وكون الدعوى ربما صدرت من كُمَّل الخلق من الأنبياء والرسل والصالحين

كما ذَكَرْنا فضلاً عن غيرهم ، لأمرٍ أراده الله ليقع بسبب ذلك من الله سبحانه ليبيِّنه لهم ولغيرهم ، وإنما وقع ذلك جذباً من مطالب الأرواح ، لكونها تطلب العلو والعروج إلى أعلى من أماكنها ، من العالم العلوي العالم الأعلى عالم الملائكة ، فتجنح الروح إلى الرقي إلى مطالِبِه العلوية لأنه في الأصل من ذلك العالم ، أهبط إلى الجسم لحراثة الدين بالعمل الصالح واتباع الشرع ، وأعطي الإختيار ليختار ما اختاره الله من طاعته وما أعان عليها ، ويترك ما كره الله من معصية وما جَرَّ إليها ، ثم إن كُمَّل الخلق طَلَبَتْ أرواحهم الرُّقي إلى ذلك العالم الشريف من وجهه وهو اتباع الشرع . كما قال سيدنا في بعض قصائده :

عِشْ بِالرَّجَا وَالأَمَلْ يَاصَاحْ   وَحَسِّـنِ الظَّـنَّ بِالمَعْبُـودْ
وَزَجِّ وَقْتَـكَ بِالأَفْـرَاحْ   وَلاَ تَأَسَّـفْ عَـلَى مَفْقُـودْ
وَارْقَ إِلَى عَـالَمِ الأَرْوَاحْ   فَإِنَّـهُ الأَصْـلُ وَالمَقْصُـودْ
وَلاَ تُعَـوِّلْ عَـلَى الجُثْـمَانْ   فَإِنَّـما هُـوَ لِلـتُّرْبِ

ونَظْمُهُ كله لفظاً وضمناً يشير تصريحاً وإشارة إلى أنه ما دام الإنسان متعلِّقاً قلبه بمطالب الجسم من الشهوات البهيمية ، لا يصعد إلى مطالب الروح من الحضور في الحضرات الإلهية ، وإنه مُثَبَّط عن ذلك بمطالب الجسم المختص نفعها بأمور الدنيا لا مطمح لها سواها ، ولهذا قال رضي الله عنه : « **ما أنزل الله الروح إلى الجسم حتى أخذ الله عليه المواثيق والعهود** » ، يعني على أن لا يتبع مطالب الجسم في إجابة النفس الخادمة للجسم ، إلى ما تدعو إليه من مطالب الجسم ومنافعه ، من جلب نفع له وهو الشهوة ، أو دفع ضرر عنه وهو الغضب . ولهذا كانت النفس كناية عن الشهوة والغضب ، وكانت مذمومة على لسان الكتاب والسنة ، وعلى لسان الصالحين ، لكونها مجردة لمصالح الدنيا فقط ، ولا مطمح لها في مصالح الآخرة ، فلهذا أخذ الله العهد على الروح أن لا تميل إلى مطالبها عن مطالبه ، التي هي معرفة الله والتغذي بذِكْرِه ، والتعلق به دون شيء سواه .

فلما وقع ما ذُكِر من كُمَّل الخلق نُبِّهوا على ذلك بما ذُكِرَ من الوقائع ، وفي تذكيرهم وتنبيههم تذكيرٌ وتنبيهٌ لغيرهم من باب أولى ، والذِّكرى تنفع المؤمنين . وهنا ذِكْرٌ وتَذَكُّرٌ وذِكْرَى : فالذِّكر : التلفظ بالتنبيه ، والتذكير : للغير بلفظ اللسان لتسمعه الآذان ويعيه القلب والجنان ، والتَذَكُّر : جريان معنى الذِّكر على القلب مراراً ليتأثَّر بالمعنى .

فإذا حصل التأثُّر بالتذكُّر المرة بعد المرة ، فذلك هو الذِّكْرى النافعة للمؤمنين، يعني لا يحصل التأثُّر بمعنى التذَكُّر إلا لقلوب المؤمنين الكاملين الإيمان ، وإلى الذِّكْرى أشار قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ ، أي يسَّرناه باللغة العربية وتقريبه إلى الفهم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ، أي متأمِّل فيه ، حتى

تحصل الذكرى . فإذا حَصلَت فحينئذ تنتفع النفس بالإنتهاض بموجب ذلك ، بنفحة إلهية تحصل من الله سبحانه في أوقات وقَّتها لذلك بسابق إرادة منه سبحانه وكتبه له في اللوح المحفوظ ، إذا حضر ذلك الوقت المؤقت من الله سبحانه لذلك ، فيجري الله سبحانه سببها ، ويصادف وقتها ، وذلك بمجرد إرادة من الله سبحانه ، لا مدخل للعبد فيها ، وإنما أراد ﷺ بأمره بالتعرض لذلك بقوله : « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرَّضوا لها » ، أن يكون العبد ملازماً لعبادة الله لا يغفل عنها ، وأن يكون قلبه متعلقاً بالله وخائفاً وراجياً ، فالتعرض لها أن يجري الله سبحانه سببها ويصادف وقتها بأمر من الله وإرادة منه سبحانه ، بلا ارتقابٍ من العبد ولا تطمُّع ، ولا له في ذلك حول ولا قوة .

وقولي : « من باب أولى » ، يعني هم أولى من الأنبياء بالتنبيه والتقريع على الدعاوي - أعني غير الأنبياء - لقصورهم عن درجات الأنبياء في قوة الإيمان واليقين وكمال المعرفة بالله .

وقول سيدنا : « **لا بد أن يقيِّض الله له من يعجزه** » ، يعني لا بد أن يُيَسِّر الله له - أي المدَّعي - سبباً يتبيَّن له به كذبه في ما ادَّعاه ، كما مَرَّ في هذه الوقائع كلها ، وقِسْ عليها ، فيتحقَّق له -إن فَتَحَ الله له عين بصيرته- أنه مخطيء في دعواه وكاذب في كل ما ادعاه ، فيترك الدعوى خوفاً من الفضيحة والعار وغضب الجبار ووقوع النار . وبعض الناس جاهل جهلاً مركَّباً ، فتقع به الفضيحة الشنعاء بسبب دعواه، فلا يرعوي عنها ، ولا يخطر بباله أن ذلك من شؤم دعواه . والجهل المركب : الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل ، بل يرى أنه كامل في العلم .

وقولي في ما تقدَّم : أن أرواح كُمَّل الخلق طَلَبَت الرُّقي إلى عالمها من غير وجهه ، أي طريقه التي لا وصول إليه إلا منها ، وهي كمال الاتباع والمحافظة على التمسك بالكتاب والسنة والزهد في الدنيا، ورياضة النفس وقطع دواعيها بالكلِّيَّة ، كما قال في بعض القصائد :

يَا أَيها الجُوهَر المَحْصور فِي صَدَفٍ ... مُحْلولَـقٍ غـرَضِ التَّغيـيرِ و الْكَـدَرِ
مُثَبَّـطٍ فِي حَضِيـضِ الحَـظِّ هِمَّتُـهُ ... فِي لَـذَّةِ البطـنِ والمْنكُـوحِ وَالنَّظَـرِ
تَقُـودُهُ شَـهوَاتٌ فِيـه جَامِحَـةٌ ... حَتـى تَـزُجَّ بِـهِ فِي لجُـةِ الخطَـرِ
يَـا أَيُّهـا الـروحُ هَـل تَـرضى مُجَاورةً ... عَـلَى الـدَّوَامِ لِهَـذا المُظْلـمِ الْكَـدِرِ
فَأَيـن كُنـت وَلاَ جِسْـمٌ تُسـاكِنهُ ... أَلَسْتَ فِي حَضَرات القُدْسِ فَادَّكِرِ
تَـأْوِي مَع المَلإِ الأعَـلى وَتَكْـرَعُ مِنْ ... حِيَاضِ أُنسٍ كَما تَجْني مِنَ الثَّمَرِ
تَـأتِي إِليـك نَسِـيمُ القُـرْبِ مُهدِيَـةً ... عَرْفَ الجَمال كَعَرفِ المَنْدَلِ العَطِرِ

حَتى جُعِلتَ بِأمْرِ اللهِ فِي قَفَصٍ ... لِيَبْتَلِيكَ فَكُنْ مِنْ خَيرِ مُخْتَبَرِ

إلى أن قال :

وَعُدْ هُدِيتَ فَقَدْ نُودِيتَ مُطَّرِحاً ... هَذا الوُجُودَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْغِيَرِ

وَاسْلُكْ سَبِيلاً إلى الرحمنِ قيِّمَةً ... بِهَا أتاكَ إمامُ البَدْوِ وَالحَضَرِ

مَشْروحَةً في كِتَابِ اللهِ وَاضِحَةً ... فَسِرْ عَليها وَكُنْ بِالصِّدْقِ مُتَّزِرِ

وبالرِّياضَةِ مِنْ صَمْتٍ وَمَخْمَصَةٍ ... مَعَ التَّخَلي عَنِ الأضْدَادِ وَالسَّهَرِ

وَدُمْ على الذِّكْرِ لاَ تَسْأَمْهُ مُعْتَقِداً ... أنَّ التَوَجُّهَ روحُ القَصدِ فِي السَّفَرِ

وَاعلم بِأنَّكَ لا تُفْضِي إلى غَرَضٍ ... مِن دُونِ أنْ تَقْتَفي فِي الوِرْدِ وَالصَّدرِ

خَيرَ النَّبِيِّين هَادِينَا وَمُرشِدَنَا ... بِما أتَانا مِنَ الآيَاتِ وَالسُّور

صَلَّى عَلِيهِ إلهي كُلَّما سَجَعت ... حَمَامَةٌ فَوقَ ميَّاسٍ مِنَ الشَّجَر

انتهى مقصودنا من القصيدة بتلخيص ، وتكلَّم على معاني بعض ألفاظها ، فقال : « **الجوهر** » ، يشير به إلى الروح ، وقوله : « **مُخْلَولَقٍ كدر** » ، أي كالحجارة .

وقوله : « **هِمَّتُهُ في لَذَّة البطن والمنكُوحِ والنَّظَرِ** » ، أقول : هذه مطالب النفس الداعية إلى مطالب الجسم ومصالحه ، والقفص الجسم المحبوسة الروح فيه عن طيرانها إلى فضاء عالمها العلوي ، كانحباس الطير عن طيرانه في فضاء الفضاء في القفص الضيق .

قوله : « **وَعُدْ هُدِيتَ** » ، أي عُدْ إلى فضاء موطنك من العالم العلوي عن حبسك في الجسم في هذا العالم الضيق ، « **مُطَّرِحاً** » كل متعلقات هذا العالم جملة كافية ، بما ذكر من أنواع الرياضة والزهد في الدنيا ، ولا يحصل لك غرض ولا يتم لك مقصود إلا بالإقتداء والإقتفاء للنبي ﷺ في كل أمر ، وفي كل حال ومصدر ومورد، وقال في بعض القصائد في معنى ما تقدَّم ذِكْره :

عِشْ بِالرَّجَا وَالأَمَلْ يَا صَاحْ ... وَحَسِّنِ الظَّنَّ بِالمَعْبُودْ

وَزَجِّ وَقْتَكَ بِالأَفْرَاحْ ... وَلاَ تَأَسَّفْ عَلَى مَفْقُودْ

وَارْقَ إِلَى عَالَمَ الأَرْوَاحْ ... فَإِنَّهُ الأَصْلُ وَالمَقْصُودْ

وَلاَ تُعَوِّلْ عَلَى الجُثْمَانْ ... فَإِنَّما هُوَ لِلتُّرْبِ

قوله : « **وارق إلى عالم الأرواح** » ، يعني اذأَبْ في العبادة والتقوى وما يقرِّبك إلى ربك ، ليرفعك ذلك إلى ذلك العالم الشريف ، كما قال في معنى القصيدة الأولى : « **واعلم بأنك لا تُفضِي إلى غَرَضٍ .. إلخ** » ، أي لا يحصل لك ذلك المقصود الجليل إلا بحسن الإقتداء ، وقال أيضاً في قصيدة أخرى :

أحِبَّتَنَا بِنَجْدٍ وَالصَّفِيحِ ... مَرَاهِمُ كُلِّ ذِي قَلْبٍ جَرِيحِ
عَسَى عَطْفاً عَلَى دَنِفٍ كَئِيبٍ ... حَزِينِ الْقَلْبِ مُنْكَسِرٍ طَرِيحِ
وَهَلْ مِنْ رَحْمَةٍ مِنْكُمْ لِصَبٍّ ... صَبَا قِدماً إِلَى الأوْجِ الفَسِيحِ
لَـهُ رُوحٌ تَحِنُّ لِخَيْرِ عَهْدٍ ... بِمَعْهَدِهَا الأَنِيسِ منَ السُّفُوحِ
بِنَعْمَانِ الأَرَاكِ وَأَيُّ أَخْـذٍ ... فَقُلْ لِي عَنْهُ بِالنُّطْقِ الفَصِيحِ
وَمِلْ بِي يَمْنَةً عَنْ طَوْرِ نَفْسٍ ... إِلَى طَوْرِ السَّرَائِرِ وَالمُنُوحِ
لعلِّي أَنْ أُنَادَى مِنْ قَرِيبٍ ... فَمَا المُعْطِي تَقَدَّسَ بِالشَّحِيحِ
وَلَكِنَّا حُجِبْنَا بِالأَمَانِي ... وَبِالكَوْنِ الكَثِيفِ وَبِالنُّزُوحِ
فَهَيَّا بِالقُلُوبِ إِلَى حِمَاهَا ... وَمَغْنَاهَا وَمَوْطِنِ كُلِّ رُوحِ
فَإِنَّ الرُّوحَ مِنْ مَلَكُوتِ غَيْبٍ ... تَنَزُّلُهَا لِمَتْجَرِهَا الرَبِيحِ
وَإِنَّ الجِسْمَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ ... يَمِيلُ إِلَى الحُظُوظِ بِكُلِّ رِيحِ
فَوَجِّهْ حَيْثُ شِئْتَ فَأَنْتَ مِمَّا ... لَهُ وَجَّهْتَ فَاخْتَرْ لِلْمَلِيحِ
وَجَانِبْ كُلَّ سَفْسَافٍ وَنُكْرٍ ... مِنَ الأَخْلاَقِ وَالْعَمَلِ القَبِيحِ
وَسَافِرْ فِي السَبِيلِ إِلَى المَعَالِي ... بِجِدٍّ وَاسْتَمِعْ قَوْلَ النَّصِيحِ
وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَى الرَّحْمَنِ شَيْئاً ... تَعالَى قَابِلُ التَّوْبِ النَّصُوحِ
إِلَـهٌ وَاحِـدٌ مَلِـكٌ عَظِيـمٌ ... تُسَـبِّحُهُ مَلاَئِكَـةُ الصَّفِيـحِ

« **الصَّفيح** » ، المسجد المحيط بالبيت المعمور في السماء السابعة ، كالمسجد الحرام المحيط بالكعبة في الأرض وهو بإزائه ، فحيث لو مُدَّ منه خيطٌ تقديراً امتدَّ على الكعبة ، وما وراء الصفيح على أجزاء الحرم يسمى : الصراح . وكل الأوامر والترغيب في هذه الأبيات حثٌّ على الإجتهاد في العمل الصالح المقرِّب إلى الله سبحانه ، ليصل به إلى فضاء عالم الأرواح .

وقد أرسلني الشيخ الفاضل المكاشَف محمد بن حسين بعشرين طويلة من السكة الأولى قبل هذه، أظن ذلك نحو سنة ١١١٠ إلى الشيخ محمد الحادي ، فلما ناولته إياها وأعلمته به فقال : « أبلغه مني السلام ، وقل له : يقول لك : ذَكَركَ الله فيمن عنده » ، يعني من الملأ الأعلى من الملائكة والنبيين والمرسلين والمقربين ، وهي دعوة بليغة ، رحم الله الجميع رحمة واسعة ، ورحمنا معهم برحمته الواسعة هـ .

قال رضي الله عنه : « **الروح ما يتغَذَّى بالأكل والشرب ، فصاحب الأمر إنما غذاء روحه في قوله : افعلوا كذا ، واتركوا كذا ، وحطوا كذا** » هـ .

أي إنما يتغذى بالعلو والمنزلة . وأصل الدَّعوى إنما نشأت من العُجُب ، فإذا أُعجب العبد بما عنده من العلم والعقل ، وما أوتيه من الفضل أو أي أمر ، انجَرَّ به إلى الدَّعوى . وحُكِيَ أن سليمان عليه السلام كان جالساً على سرير مملكته وقد حَمَلَتْهُ الريح ، فنظر بالعجب إلى مملكته وطاعة الإنس والجن له ، وانقيادهم لعظيم هيبته وسياسته ، فاضطرب السرير به وهم بالإنقلاب ، فقال عليه السلام للسرير : « استقم » . فنطق السرير وقال : « استقم أنت حتى نستقيم نحن ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾» ، وهذا من التنبيه كما ذَكَرْنا .

وقول سيدنا : « **لا بُدَّ أن يقيِّض الله له من يعجزه** » ، أي ييسِّر له سبباً يبيِّن له حاله فيما ادَّعاه ، فيتحقَّق أنه مخطيء في دعواه وإعجابه ، وأن الصواب بخلاف ما زعم . وذلك يدل على أن كلمة سيدنا هذه وغيرها من كلامه وكل كلامه ، مؤيَّد بالتأييد والتسديد ، وكل هذه الوقائع التي ذَكَرْنَاها ، وغيرها مما لم نَذْكُره شاهِدة ومصدِّقة لذلك هـ .

قال : « **وأهل الزمان يحبون أن تحصل لهم الكرامات من الصالحين ، إذا وافقتهم على مقتضى أغراضهم ، وهم لا يعرفونها بل يسمعونها في الكتب ، فإذا رأوها فليفعلوا إن كان فيهم أهليَّة لذلك . وإذا ذُكِر لهم : أن فلاناً خَرَج من ماله لله ، أو تصدَّق بكذا ألف ؛ نفروا من ذلك ، فإنما يحبون منها ما يزيدهم في دنياهم ، وأما ما ينقصهم فيها فلا يريدونه** » .

ثم قال : « **وهذه الأشياء - أي الكرامات - نادر وقوعها جداً ، ولا تحصل إلا في أوقات متطاولة لغرض أو فائدة ، وفي حال غَيْبة ، وقد لا تحصل لأحد منهم مدة عمره إلا نحو مرة أو مرتين ، ولهذا سُمِّيَت خارقة للعادة ، إذ لو غلب وقوعها لما قيل لها أمر خارق للعادة ، وفي الحقيقة إنما الكرامة خَرْق**

عادة النفس ، وقطع مَيْلها عن حب الدنيا وملاحظة الأهواء ، ومجانبة الكبر والدعوى وسائر الأخلاق المذمومة ، وتحليتها بالمحمودة » .

قال : « الأمور الخارقة للعادة ، ما هي بعيدة في كرم الله وقدرته لمن أكرمه ، ولا هي بعيدة من أفعال الشياطين ، والعمدة على الإستقامة ، وإن ذُكِر عن أحد الطيرانُ في الهواء والمشي على الماء ، فإن الشيطان يطير من المشرق إلى المغرب في لحظة ، ولا يفعلها من صحَّ له قدم الولاية إلا لضرورة ، كتوبة مريد ، كيف يفعلون ما فيه هوى النفوس ، وهم يجتهدون في قطع هوى نفوسهم » هـ .

أقول : قوله : « بل يسمعونها في الكتب » ، كروض الرياحين وغيره .

قوله : « وإذا ذُكِر لهم .. إلخ » ، يعني أن المناقب وهي المبالغة في فعل ما يرضي الله ، تنفر منها نفوسهم لمشقتها عليهم ، لكونها خلاف ما تهوى ، ومخالفة الهوى شديد على النفس ، ويرتاحون للكرامات لموافقتها للهوى ، فتتكبر النفس وتركن إلى الدعوى ، وهي نفوس المخذولين ، فتدَّعي بالباطل على ما تقدَّم وَصْفُه .

وقوله : « نادر » ، بل يستحيون من وقوعها منهم ، كما يستحي العامل فعلاً قبيحاً ، ولكن من لطف الله بهم أنه يسترها عنهم وعن من اطلع عليها من غيرهم ، بحيث لا يعلمون أنها كرامة مدة حياتهم ، وإنما تبين بعدهم . كذا ذَكَرَ سيدنا ورأينا منه ذلك ، وهو مذكورٌ هنا في غير هذا الموضع .

قوله : « وفي الحقيقة .. إلخ » ، فإنما تحصل تلك الكرامة لمن حصلت له هذه ولا تحصل دونها ، وبهذا تبيَّن أن كل مُدَّعٍ لها كذاب ، والصادق من لا يدَّعيها ولو حَصَلَت له ، وبهذا يتبيَّن صدقه .

قوله : « ما هي بعيدة لمن أكرمه » ، أي بأن رزقه هذه الكرامة المذكورة .

قوله : « فإن الشيطان يطير .. إلخ » ، أي لا عبرة بهذه الخوارق إلا مع الكرامة الحقيقية المذكورة، ودونها كذب ودعوى وتلبيس ومن أعمال الشياطين ، فافهم ذلك ولا تغتر بدعوى من ادَّعى ، فإن ذلك يدل على الجهل وضعف الإيمان ، فكيف يصدق .

قوله : « كتوبة مريد » ، أي إن كُشِفَ له عن حالِهِ أن الله يوفِّقه للتوبة بسبب الكرامة ، وإلا فلا يلزم من رؤية الكرامة حصول التوبة ، فمعجزات الأنبياء أبلغ من كرامات الأولياء ، ولا كل من رآها آمن، إلا من جعلها الله سبباً له إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أي لمَّا لم يرد الله إيمانهم لم يظهرها لهم ، ولو أظهرها لهم لم يؤمنوا، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ،

فإن ظننتَ أنهم يؤمنون بالآيات ، وأردت لهم آية لعلهم يؤمنون، من شفقتك عليهم ، وكبر عليك إعراضهم خوفاً منك عليهم ، لكونهم قومك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾.. إلخ ، وإنما الحقيقة والشأن على مشيئة الله ، كما ذَكَرَ آخر الآية : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ، لكن لم يُرِد جمعهم عليه ، وهذا المعنى لو جهله غيرك ما جهلته أنت ، فلا تكن من شدة شفقتك عليهم متشبِّهاً بمن يجهله، فإنما الأمور كلها كما تعلمه تابعة للمشيئة ، فما شاء من أي أمر كان ، وما لم يشاء لم يكن ، ولا علاج في ذلك كما قدَّمنا من عدم تغير القضاء المحتوم عما هو عليه ، كالواحدة من الدعوات الثلاث، ولا تفيده الأسباب ولا يدخله المحو والإثبات ، بخلاف المعلَّق كالدعوتين ، وتفيده الأسباب ويدخله المحو والإثبات ، كما أفاد طلب تخفيف الصلوات ، مما زاد على الخمس إلى الخمسين ، ولم يُفِد في الخمس فافهم .

فقد شاء الله سبحانه إيمان الأباعد منك نَسَباً من الأنصار وغيرهم ، ولم يرد سبحانه إيمان من لم يؤمن من أقاربك ، ولو كنت يا محمد قد جعلك الله سبباً للإيمان والسعادة .

فالأسباب إنما تفيد بمقتضى المشيئة لا غير ، وما لم تقتضه المشيئة لم تُفِدْهُ الأسباب لقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، أمر سبحانه بابتغاء ما كتب ، وهو مقتضى مشيئته ، وأَفْهَمَت الآية أنه لا يفيد الإبتغاء – وهو التسبب – إلا فيما كتبه الله وشاءه سبحانه دون ما لم يكتب ولم يشأه ، وهذا المعنى يجري في الأمرين معاً ، أعني الهداية إلى الإيمان وإلى التوبة ، بل في كل الأسباب الدنيوية والأخروية .

وتقدَّم أن سيدنا زار التربة يوماً فقال : « **سبحان الله ، أمر الآخرة عظيم ، ومن مات ما عاد أحد رد عنه خبر ، أو لم يعلم بحاله ، ولكن في كتاب الله وسنة رسوله كفاية ، بل لو بُعِثَ واحدٌ من الأموات فأخبر بما قد رآه عياناً ، يحتمل أن يدخل فيه الشك ، وأما كتاب الله وسنة رسوله فلا يدخلهما الشك بحال** » .

قال رضي الله عنه : « القرآن كلام الله ، سمّاه عزيزاً لِعِزَّةِ قَدْره ، لأنه نزل من عزيز على عزيز ، ولا يستلذ قراءته إلا أهل البصيرة ومن في قلبه نور ، ويستثقل منه الشياطين ، فمن يمل من قراءته فذلك في قلبه شياطين ، لولاهم ما كان منه ذلك ، إلا إن كان مع كثرة القراءة ، فإن البَشَر من طبعه الملل ، وقد قال الفُضيل : لو كنت عرفت من القرآن أولاً ما عرفته منه الآن ، ما نقلت حديثاً » .

ثم قال سيدنا : « يعني لأن جميع العلوم تتفجر من القرآن ، فإذا أعطاه الله الفهم فيه فلا يحتاج إلى تحصيلها من غيره ، وقد أجملها فيه ، والعمدة على نور القلب » .

قال : « وقد ذَكَرَ الإمام الغزالي أن شروط العزة ثلاثة : أن تشتد الحاجة إليه ، وأن يعسر التوصل إليه ، وأن يَقِلّ وجوده » هـ .

أقول : يشير إلى ما ذَكَرَه الإمام الغزالي في شرح الأسماء الحسنى ، وعبارته في شرح اسمه تعالى « العزيز » ، من جملتها قال : « هو الخطير الذي يَقِلّ وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، فما لم تجتمع هذه المعاني الثلاثة لم يُطلَق اسم العزيز عليه ، فكم من شيء يَقِلّ وجوده ، ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يُسَمَّ عزيزاً ، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يُسَمَّ عزيزاً كالشمس مثلاً فإنها لا نظير لها ، والأرض كذلك ، والنفع عظيم في كل واحدة منهما ، والحاجة شديدة إليهما ، ولكن لا يوصفان بالعزة ، لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما ، فلا بد من اجتماع المعاني الثلاثة . ثم إن في كل واحد من المعاني الثلاثة كمالاً ونقصاناً ، فالكمال في قِلَّة الوجود أن يرجع إلى واحد ، إذ لا أقل من الواحد ، ويكون بحيث يستحيل مثله ، وليس هذا إلا لله تعالى ، فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان ، فيمكن وجود مثلها في الكمال ، والنَّفاسة والكمال في شدة الحاجة إليه أن يحتاج إليه في كل شيء ، حتى في وجوده وبقائه وصفاته ، وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالى . والكمال في صعوبة المنال أن يستحيل الوصول إليه على معنى الإحاطة بكُنْهِهِ ، وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالى ، فإنَّا قد بيَّنَّا أنه لا يعرف الله إلا الله ، فهو العزيز المطلق الحق ، لا يوازيه فيه غيره .

تنبيه : العزيز من العباد من يحتاج إليه عباد الله في أهم أمورهم وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية ، وذلك مما يقل لا محالة وجوده ، ويصعب إدراكه وهذه رتبة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ويشاركهم في العزِّ من ينفرد بالقُرْب من درجتهم في عصره كالخلفاء وورثتهم من العلماء ، وعِزَّة كل واحد منهم بقدر علوِّ رتبته عن سهولة النيل والمشاركة ، وبقدر عنايته في إرشاد الخلق » ، انتهت عبارة الإمام الغزالي رحمه الله في ما تكلم به على اسمه تعالى « العزيز » .

وقوله : « وعِزَّة كل واحد منهم .. إلخ » ، وقوله : « وبقدر عنايته في إرشاد الخلق » ، إذا تأمَّلتَ في هذا ورأيتَ سيرة سيدنا عبدالله وعنايته في إرشاد الخلق إلى الله - وقد سمعت سيدنا يقول : « **من ربَّيناه يفوق غيره ، لأنا نربِّيه تربية لا يشعر بها** » - تحقَّق لك قطعاً أن هذا وَصْفَه ، وأن كلام الإمام الغزالي هذا شرحُ لحالِهِ ، وتبيينٌ لمقامِهِ وهذا هو مقام القطب ، الذي هو أفضل أهل وقته ، والذي هو النائب عن رسول الله ﷺ في إرشاد أمته .

وقد سمعته يوماً يقول : « **نحن اليوم مع أهل الزمان ألَّا بالعناية فقط ، وأما الأسباب فقد أتينا منها معهم بكل ممكن ، ولا حصَّلنا منهم شيئاً** » ، فانظر هذا الكلام الشاهِد لهذا المعنى ، من كونه هو القائم في مقام النبي ﷺ في دعوة الخلق إلى الله تعالى ، ولهذا أقام في مقام القطبية أربعاً وستين سنة ، فمدة عمره تسع وثمانون سنة ، فمنها خمس وعشرون سنة إلى حين بلَّغه الله سبحانه هذا المقام الشريف .

وفي بلوغه إليه في هذا السن خصوصية ومزِيَّة دون غيره ، وما كان أحد وَصَلَ إليه إلا بعد الأربعين، وهو بلوغ الأشد والإستواء ، الذي هو غالباً ما تأتي النبوة إلى الأنبياء إلا فيه ، كما قال الله تعالى في حق موسى عليه السلام : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، وهو النبوة .

وبقى سيدنا في ذلك المقام العالي إلى أن توفي أربعاً وستين ، فذلك أيضاً من خصوصيته ، وغالب من يقيم فيه من أكابرهم أياماً يسيرة ، غير الشيخ عبدالقادر أقام فيه خمس سنين ، وذَكَرَ في « المشرع الروي في مناقب السادة بني علوي » : « أن سيدنا القطب الكبير الشيخ عبدالرحمن السقاف أقام في مقام القطبية إلى أن توفي ثمانية عشر يوماً » .

أقول : ومن بلغه فقد بلغ أعلى المقامات ، ولو لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً .

فاعرف بما تقرَّر أن بقاء سيدنا في ذلك المقام المدة المذكورة : الأربع والستين سنة ، من خصوصياته في هذا الزمان ، فقد قال : لما كان وسِنُّهُ ١٤ سنة ، قرأ في الفقه وحفظ ربع العبادات من الإرشاد على باجبير ، وسِنُّهُ إذ ذاك ١٤ سنة ، كذا سمعته يقول .

قال : ثم سار باجبير الهند ، ومكث مدة ثم رجع ، وقد جعل سيدنا يقرِّي في العلم ، قال : « **فقرأ أبوجبير علينا في الإحياء ، وهذا من العجائب أن كنَّا نقرأ عليه ثم رجع يقرأ علينا** » ، قال : « **وسكنَّا في خلوة مسجد الهجيرة ، من سنة ١٠٦١ إلى سنة ١٠٧١** » ، وسمعت أنه من سنة ١٠٦١ وسِنُّهُ إذ ذاك ١٧ سنة ، وكان مرابطاً في تلك الخلوة مختلياً فيها .

قال : « **وطلبتُ من السيد عمر العطاس الإلباس ، فأبى أن يلبسني إلا أن أُلبسه، فألبستُهُ عمامتي وألبسَني عمامته ، وترك كلٌّ مِنَّا عمامته للآخر** » ، وكان حينئذ مع جماعة مجتهدين في العبادة ، يطلبون

من الله الفتوح ، وهم السيد أحمد الهندوان والسيد محمد مديحج وغيرهم ، ويترددون على السيد عمر العطاس يطلبون منه الدعاء لهم بذلك ، قال السيد أحمد الهندوان : « وأول من فُتِحَ عليه قبلنا السيد عبدالله الحداد ، فقلت للسيد عمر العطاس : فتح على السيد عبدالله قبلنا ، فقال السيد عمر : اجتمع شمله بشملها ، اتَّصل حبله بحبلها ، ظهر صفاء يقينها، انطوت الأحشاء على جنينها ، سطع نور المصطفى محمد ﷺ في جبينها » ، قال السيد أحمد : « فعند ذلك فُتِحَ عليَّ » .

أقول : قال : « **وقد حصلت عليَّ شهرة عظيمة** » ، أقول : قد طَبَقَت شهرته الآفاق ، والإنس والجن كما ترى من شهرته الآن .

قال : « **وشكوتُ الشهرة إلى السيد عمر العطاس ، فقال : إن الشيخ فلان** -سمّاه- **كان إذا رَكِبَ فَرَسَه جعل الناس يتمسَّحون بثيابه وبالفرس وهو عليها ، فقيل له في ذلك ، فقال : ليس هم معظميني، إنما هم معظمين الله تعالى ، فلا أردهم عن تعظيم الله** » ، أو كما قال .

وفي كلامه هذا إشارة إلى معنىً كُشِفَ له عنه في شأن سيدنا عبدالله ، وهو أن هذا الفتوح مقدِّمة لما سيبلِّغه الله إليه من نَيْلِ مقام القطبية ، وإليها الإشارة من تأنيث الضمائر في هذه الكلمات المستعارة من عبارة مولد رسول الله ﷺ ، المرسل رحمة للعالمين ، وأن له نواباً يخلفونه في مقام الدعوة إلى الله ، وأنه منهم ، وأن هذا الفتوح مقدِّمة لِنَيْلِهِ بفضل الله لذلك المقام العال ، ولم يبيِّن لهم ذلك خوفاً أن يغاروا منه كما غاروا من فتوحه قبله ، حيث شكوا ذلك إليه .

وكان فتوح سيدنا المذكور سنة ١٠٦٩ ، وسِنُّه إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، وهي السَّنة التي قال فيها لباجبير : « **إن لحبيبك ثلاث أيام منذ دخل مقام القطبية** »، وبلغ بعده مقام القطبية سنة ١٠٦٩ وعمره خمس وعشرون سنة ، ومكث فيها إلى أن توفي ٨ القعدة سنة ١١٣٢ ، ومدة عمره ٨٩ تنقص ثلاثة أشهر إلا ثلاثة أيام .

وكانت ولادته كما سمعته مراراً ويحكيه عن والدته ، ليلة الإثنين خامس صفر سنة ١٠٤٤ . وسمعته يقول : أن في سنة ١٠٧٢ ، وسِنُّه إذ ذاك ثمان وعشرون سنة، حصلت عليه مرضة شديدة ، نَسِيَ فيها القرآن ، ثم في آخرها ذَكَرَهُ ، وأول ما ذَكَرَهُ منه سورة « الحشر » . وسمعت هذه القصة من أصحابه غير مرة ، وهي متواترة بينهم ، ثم سمعتها منه يَذْكُرها ، وذلك أنه لما حصل عليه مرضه الذي توفي منه، فدخل عليه السيد زين العابدين وسأله : « كيف أنتم ؟ » ، فجعل يهوِّن مرضه ذلك، ويعظِّم شأن مرضه السابق فقال : « **نحن بحمد الله بخير ، وهذا مرض سهل ، وقد حَصَلَت علينا سنة ١٠٧٢ مرضة شديدة** » ، وذَكَرَها كما تقدَّم ، ولكن ما حضره الأجل في ذلك ، وإنما حضره في هذا الأخير .

وفي الأولى ، شاهِد لحديث : « قد يكون للعبد عند الله منزلة عالية لا ينالها بعمله ، فإذا أراد الله أن يبلِّغه إياها ، سلَّط عليه من الوجع ما يبلغه إليها » ، أو كما قال ﷺ ، ولا أعلى من ذلك المقام الجليل المتقدِّم ذِكْره ، وقال : « **لا بُدَّ للقطب من أربعة خصال : حسن السيرة ، والسريرة ، والصورة** » ، كذا رأيت في الأصل الذي نقلت منه هنا الذي نقلته تلقاءه عندما تفوَّه به ، فلا أدري أنسيت الرابعة أو هكذا ما ذَكَرَه .

وفي ليلة القدر من رمضان هذه السنة ١٠٧٢ ألقي عليه الراتب ، قال : « **وكان إذ ذاك عندنا رجل من أهل بلدة موشح ، فطلب منا أن نكتبه له ، وطلب فيه إجازة أن يرتِّبه في مسجد بَلَدِهِ ، فكتبناه له وأجزناه ، فرتَّبه في مسجدهم من حينئذ ، وما رتَّبْنَاه نحن عندنا إلا في عاشور من السنة بعدها** » ، انتهى قوله .

وقد رتب في الحرمين من سنة حجَّته سنة ١٠٧٩ بالمسجد الحرام تلقاء الحجر الأسعد ، وبمسجد النبي ﷺ بالمدينة عند باب الرحمة ، وإلى الآن كل ما ذهب واحد ممن يقرأه للناس ، يسَّر الله من يقرأه غيره ، وقد رُتِّب في جهات كثيرة في مساجد متعددة ، من حضرموت واليمن والهند والشام ومصر والعراق والبحرين والحساء ونجد وغيرها . ورأينا فيه من الخواص العظيمة في جلب المنافع ودفع المضار أموراً عجيبة لا تخطر في البال ، كقراءته بنية شفاء الأمراض المخوفة ، ودفع شرور من يخاف شره وغير ذلك . ولقد طلب مِنَّا رجل عندما أردنا الشروع فيه ، أن نقرأه بنية شفاء مريض قد غشي عليه ، وحفَّ به أهله يبكون عليه ، فقرأناه بهذه النية فأصبح بارئاً ، وخرج من بيته وجلس في المجلس .

ولما خرجنا من المدينة ١٨ شعبان سنة ١١٣٤ ، وقد خرجنا في قافلة تبلغ نحو ثلاثمائة راحلة ، نريد مكة المشرفة ، وكلهم تجار غير محرمين بعمرة ، ونحن في ستة عشر نَفْساً محرمين بعمرة ، ومعنا نحو ست أو سبع حريم ، ورواحلنا نحو أربع ، فجاءنا النذير أن الأشراف وقع بينهم خلف ، وجلس منهم على طريق مكة جماعة يقطعون الطريق ، فانْجَعَلَتْ تلك القافلة إلى طريق جدة ، وساروا إليها، وأراد جمَّالُنا يسير مع أصحابه إلى جِدَّة فأَبَيْنَا عليه ، وأعطيناه كراه مرتين فأبى ، وعالجناه فامتنع إلا أن نضمن له قيمة رِكَابِهِ إن أُخِذَت ، فاستشارني أصحابي ماذا نصنع معهم ، فلا علاج فيهم إلا ذلك . فقلت : انزلوا بنا في الأبعد عنهم ، حتى إذا دخل وقت المغرب جمعنا الصلاتين وركبنا ، وشرعنا في قراءة الراتب ، فنمر عليهم ونحن نقرأه ، فمررنا عليهم ونحن كذلك ، وإنا لنسمع كلامهم وبربرة النارجيلة بشربهم التنباك ، وإنَّا لَبِقُرْبِهِم فما شعروا بنا ، فحين أتممناه وصلنا وادي فاطمة ، والتقانا خادم لهم جاء من مكة ، أتى لهم بعشاء ، فقال : « من أين جئتم ؟ » ، قلنا: من المدينة ، قال : « ما رأوكم الأشراف ؟ » ، قلنا : ما ندري عنهم . فتعجَّبوا من سلامتنا من الأشراف .

ومراد سيدنا بقوله المتقدم : « **القرآن كلام الله ، سمّاه عزيزاً لعِزَّة قَدْره** » ، يعني أنه مشتمل من العِزَّة على مثل ما ذَكَرَهُ الإمام الغزالي من العِزَّة في حق الله تعالى لأنه صفة من صفاته سبحانه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « القرآن كلام الله ، وهو حبله الممدود بين الله سبحانه وبين خلقه ، طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيد الخلق » ، يعني فالطرف الذي بيد الخلق هو على ما فهموه وعرفوه ، ولذا أنزل بلغتهم ليفهموا معناه ويقوموا بأحكامه ، وهو مُيَسَّر لهم بذلك ، أي أن القرآن كلام الله مُيَسَّر باللغة العربية كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ ، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ ، ويجري فيه قول النبي ﷺ : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات » ، الحديث – وهو قول الحنابلة ، إن الكلام مطلقاً لا يكون إلا بالحروف والأصوات ، وأنها في كلام الله قديمة ، فهو بحرف وصوت ، واستدلوا بهذا الحديث – وكذلك سائر الرسل ، إنما بُعِثُوا بلسان أقوامهم ، ونَزَلَت كتبهم بلغاتهم ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ، وهذا الكلام كله وأمثاله هو الطرف الذي بيد الخلق من كلام الله . وأما الطرف الآخر منه ، الذي بيد الله تعالى ، فأمره إلى الله ، لا يعلم حقيقته إلا هو ، ويجب علينا فيه الإيمان به والتسليم كسائر صفاته تعالى ، ولا يطلب التطلع إلى معناه ، أو يدَّعي معرفته إلا المشبهة المجسمة ، الذين هم حَد فهمهم ومدركهم من معاني صفات الله ما يفهمونه ويدركونه من معاني صفات الخلق ، فما فهموا من صفات الله إلا ما فهموا من صفات أنفسهم ، وإن ادَّعوا معرفة صفات الله فدعواهم كاذبة ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا . فإن صفات الحق لا تُدْرِكها عقول الخلق ، فكل ما أَدْرَكَتْهُ عقول الخلق فليست هي معاني كلام الله ، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فنفى المثلية وأثبت الصفات .

فلا تفهم من سَمْعِهِ وبَصَرِهِ تعالى ، ما تفهمه من سَمْعِ الخلق وبَصَرِهم ، لأنها بأصمخة وآذان وعيون وحَدَقة حسِّيَّات ، وصفات الحق بخلاف ذلك ، وما عمل بمقتضى هذه الآية من تطلع إلى معرفة ذلك ، فإن « الإدراك عدم الإدراك » كما قاله سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه « وما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » ، كما قاله سيدنا الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه . ولا نقول فيه حروف ولا أصوات ، لأنها حادثة بحدوث اللغات ، وهو قول الأشاعرة ، القائلين أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت ، ومع ذلك لا يجوز أن يقال : حروف القرآن حادثة ، خوفاً من القول بخَلْق القرآن . وقد سئل الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري : « ما تقول في حروف القرآن هل هي حادثة أم لا ؟ » ، فقال : « اللغة حادثة » ، فسعى عليه عند الحاكم أنه يقول بخلق القرآن ، فحُبِسَ وعُذِّب على ذلك ، فقال : « إني لم أَقُل بخلق القرآن وإنما قلت اللغة حادثة » ، فأطلق من الحبس هـ .

قال *رضي الله عنه* **: « أخص ما يكون من معاني القرآن ، التكلم به على لسان الحق ثم بعد ذلك الخطاب مع الحق ، وهو ما فيه ضمير الخطاب ، كـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ثم ما كان فيه نيابة عن الحق ، كآيات الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وغير ذلك » ﻫ .**

أقول : قوله : « **على لسان الحق** » ، أي ما فيه ضمير المتكلم ، يعني بكلامه نفسه كقوله تعالى : ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾، وكقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ونحو ذلك مما يختص من الأفعال بالقائل له ، وإن قاله غيره ، فإنما قاله عن قوله وعلى لسانه ، كقوله تعالى على ما أخبر به عنه رسوله ﷺ أنه تعالى يقول : « أنا عند ظن عبدي بي .. » ، الحديث . وإنما هو خاصٌّ بالقدرة الإلهية ، إذ لا يقول ذلك - يعني به نفسه - أحد سواه تعالى ، هذا هو المعنى الأول من المعاني الثلاثة التي ذَكَرَها ، وهذا النمط هو الأكثر في القرآن ، كما هو شأن المتكلم في نفسه ، ولله المثل الأعلى، والمعنيان الأخيران مذكوران بعد هذا بتمثيلهما في قوله المذكور ﻫ .

قال *رضي الله عنه* **: « إذا جاء في القرآن الخطاب لهذه الأمة ، فهو عامٌّ فيها ولا يختص بالفاعل ، كقوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، أي إنها تصيب الظالم وكل من يُنسَب إليه ، ومن يجالسه أو يواكله أو يميل إليه بأيِّ وجهٍ كان ، وإذا جاء الخطاب لغير هذه الأمة، فيكون لمن فعل مثل فعلهم » ﻫ .**

أقول : أي كقوله تعالى : ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ، يعني فمن كسب مثل ما كسبوا أُخِذ بمثل ما به أُخِذُوا ، كما قال تعالى في مثل هذا المعنى بمعناه، إذا عاقب الله الكافر على عَمَلٍ وعَمِلَ المسلم مثل عَمَلِهِ عُوقِبَ على نفس عمله ، فالكافر يُعاقَب على عمله مع كفره ، والمسلم يُعاقَب على نفس العمل ، كبخس المكيال والميزان ، فيُعاقَب المسلم عليه مجرداً ، والآخر لمَّا صار مصحوباً مع الكفر تصير عقوبته عليه أشد . وقد قال النبي ﷺ : « إنكم قد وليتم أمراً هلكت فيه الأمم قبلكم : المكيال والميزان » ، فللمسلم العامل بعمل الكافر نصيب من عقوبة الكافر . يعني : إذا طفَّفَ المسلم وبخس في الكيل والوزن عوقب على ذلك، لكن دون عقوبة الكافر عليه ، فشابهه بكونه حصل عليه مثل ذلك بسبب ذلك ، حصل عليه بسببه .

ثم إنه بيَّن لك هذه الأمور من معاني القرآن ، لتستقل بالعمل بنفسك ، وتنظر موارده ومصادره، وما يشير إليه أو يدل عليه . ثم فطنك للنظر في ذلك ، شحذاً لذهنك وتعرُّضاً لما يلقيه الله تعالى من

معانيه في قلبك ، فربما إنك تقرأ الآية طول عمرك ، فلا يخطر ببالك لها إلتفات لمعناها ، فيخطر في بالك لها معاني لم تخطر ولم تمُر ببالك ، فإن معاني كل الأشياء من الأحكام وغيرها ومن أمور الدنيا والآخرة كلها فيه ، ولم يتبيَّنها كل أحد ولا في كل وقت ، وقد تَبَيَّنَت لخواص من الخصوص ، كالفُضَيل وأمثاله، كما تقدَّم من قوله : « لو علمتُ من القرآن أولاً ، ما علمتُ منه الآن ، ما نقلتُ حديثاً » .

قال رضي الله عنه : « **إن اتسع لك النظر بنفسك فانظر أنت ، وكل أمر يشكل عليك فهو في القرآن، وإذا لم يظهر لك شيء ، فابْقَ على الطريق المسلوكة لمن قبلك ولا تَتَّبع الطرق فتضل ، وهي السُّبُل التي قال الله تعالى** : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ **الآية ، فكل طريق ما تعرفها لا تجيها، إلا إذا تغلَّقت عليك الطرق ، فإذا كان كذلك بقي في الحيرة ، ومثل ذلك يظهر للإنسان في القبور ، فإذا قيل له مثلاً : كيف ما علمت أحكام الصلاة ونحوها ؟ قال : ما أحد علمني ، فيقال له : كيف والقرآن عندك ، وقد فصَّل النبي ﷺ الدِّين ؟ ولكن وسَّعه العلماء بتطويل الكلام فيه، والإنسان مُتَّجرٌ لنفسه ، وكل الأمور مشروحات في القرآن ، ولكنه يحتاج إلى البيان** » .

وتكلم يوماً في الفهم في الكتاب العزيز ، *فقال* : « **إنه غبن فاحش ، أن يموت الإنسان وما فهم شيئاً من أسراره وعجائبه ، وهذه الأشياء إنما تحصل لأقوام قد أعطاهم الله في أصل الفطرة قريحة وقَّادة، وعقلاً صافياً ، ثم إنهم أزالوا كدورات العقل باختيارهم** » هـ .

أقول : قوله : « باختيارهم » ، أي بالرياضة الماحقة لأهوية النفس المائلة بالعقل عن فهم المعاني، بتشاويشها الجاذبة له ، إلى الفكر في تحصيل أهويتها ، إذ القلب كالمرآة ، إنما له وَجْهٌ واحد ، فحيث وجَّهته إلى أمر توجَّه إليه ، وأعرض عما سواه .

فجواذب الأهوية النفسانية هي الصادَّة للروح عن الإلتفات إلى مطالبه ، بِجَذْبِهَا له إلى مطالبها، على ما تقدَّم تفصيله من كون مطالبها مقصورة على منافع الدنيا فقط ، لا نفع لها في الآخرة وربما ضَرَّت، وأحسن أحوالها أن لا تضر ، ويجمع ذلك الشهوة والغضب لجلب ما ينفع البدن ودفع ما يضره . ومطالب الروح ، التلذذ بمعاني الذِّكْر والقرآن والمعرفة الإلهية ، ونفعه في الآخرة ، ومقصوده القرب من الله سبحانه وتعالى .

وكل ما ذُكِر هنا وأشار إليه ونَبَّه عليه من معاني القرآن وما احتوى عليه وأومأ إليه ، هي من أسراره وعجائبه التي أشار إليها بقوله : « **إنه غبن فاحش ، أن يموت الإنسان وما فهم شيئاً من أسرار القرآن وعجائبه** » ، فَذَكَرَها لنا حتى لا تبقى في النفس حسرة من ذلك الغبن الفاحش المذكور ، جزاه

الله عنا أفضل الجزاء .

وقال لسيدنا بعض الحاضرين : « ما هذا إلا بخت لأهل الزمان ، يوم يرونكم كل حين » ، فقال رضي الله عنه : « **لكن أهل الزمان ما يحسنون يضمون البخت ، كالمرأة السوء ما تضم البخت ، بل كلما مَسَّ يدها يريدها ، جَرَّت بِرِجْله** » .

قلت : إن الأمر لكذلك ، فماذا ترون ؟ ، قال : « **خذ بالرِّفْق ، لأنك خذها قاعدة: فكل أمر انْبَهَم عليك فلا تدري حقيقته خذ فيه بالرِّفْق** » .

قلت : فإن اعتمد الإنسان على المقادير تَعَطَّل ، وإن عمل ما أحسن ، ولا عرف كيف العمل ؟

فقال : « **أشياء من المقدورات مقدَّرة مع العمل ، فلا المقدَّر يمنعك من العمل ولا العمل يمنعك من المقدَّر ، ولا بد لك من كلا الأمرَيْن ، فتعمل بظاهرك ، وتعتمد على الله بباطنك ، فلا بد لك أن تزن نفسك بالأمرَيْن جميعاً ، أما سمعتَ الشيخ علي في الحدائق ، كلما ذَكَرَ حديقة قال : وكيفية الموازنة** » هـ .

أقول : والعمل بالظاهر هو الشريعة ، والإعتماد على الله بالباطن هو الحقيقة، فكلما نُسِبَ إلى العبد فهو الشريعة ، وما نُسِبَ إلى الحق فهو الحقيقة . فالشريعة : هو جسد للحقيقة ، والحقيقة : روحها ، ولا يستقيم جسد بلا روح ، ولا روح بلا جسد ، وهما جسد وروح العبودية . والعبادة : هي أعمال الشريعة في الظاهر . والعبودية : هي مجاري الإيمان في الباطن . والعبودة : هي اجتماع الأمرَيْن معاً في إقامة أوامر الله عليه فيهما - أي في الظاهر والباطن - ، وهو مقام الشيخ علي بن أبي بكر السكران بن الشيخ عبد الرحمن السقاف نفع الله بهم ، كما ذَكَرَهُ في كتابه « معارج الهداية » ، في قصيدته الرائية من ذلك الكتاب ، وجعلها فصول ، وسَمَّى كل فَصْلٍ منها حديقة ، وجملتها الحدائق فقال :

« القصيدة المسماة : بحدائق حقائق المعاني ، المشيرة إلى جمال أسرار دقائق العلم الرباني وبساتين معارف العارفين بأنوار المثاني ، تشتمل على تسع وعشرين حديقة . الحديقة الأولى : في التغزل ومدح الأولياء والصالحين والثناء عليهم رضي الله عنهم ونفع بهم ، وعددها مائة وأحد عشر بيتاً ، أولها :

هَبَّتْ نسَيمَاتُ نَشْرِ المِسْكِ في السَّحَرِ ... فَاشْتَمَّ فَيَّاحَهَا الأَرْوَاحُ في الصُّوَرِ

الحديقة الثانية : في الإشارة إلى ذِكْرِ شيءٍ من شواهد التوحيد ، ونواطق التحميد والتمجيد ، وعددها ستة وعشرون بيتاً ، أولها :

سُبْحَانَ مَنْ فَطَرَ الكَوْنَيْنِ مُقْتَدِراً وَشَقَّ رَتْقَهُمَا فِي الرُّوحِ والصُّوَرِ

الحديقة الثالثة : في الإشارة إلى ذِكْرِ شيءٍ من فضائل العلوم الشرعية والعقلية وتفاوتها في درجات الأفضلية ، وعددها سبعة وسبعون بيتاً .

الحديقة الرابعة : في الإشارة إلى ذِكْرِ شيءٍ من علوم أسرار السلوك وحقائق الموازنة ، وثمرات الخلوة وبركات المجاهدة ، وعددها اثنان وثلاثون بيتاً ، أولها :

يَا عَاشِقاً لِلْجَمَالِ العَالِي النَّضِرِ وَمَنْ عَلَا فِي سَمَا أوجِ الحِمى الزَّهِرِ

الحديقة الخامسة : في الإشارة إلى ذِكْرِ شيءٍ من علوم الطريقة والحقيقة ، وفتوح الخلوة والرياضة وأسرار الموازنة ، وعددها إحدى وثلاثون بيتاً ، أولها :

يَا طَالِبَ السِّرِّ يَا مَفْتُونَ بَهْجَتِهِ خُضْ فِي دِمَا النَّفْسِ وَاقْطَعْ شُقَّةَ السَّفَرِ

أَقْبِلْ عَلَى الوَزْنِ وَاسْتَقْبِلْ لِوُجْهَتِهَا وَكَبِّرِ اللهَ تَكْبِيرَ امْتَحَى الغِيَرِ

الحديقة السادسة : في الإشارة إلى ذِكْرِ شيءٍ من أصول حقائق الموازنات ، وشواهد المعارف الإلهيات ، وحقائق من علوم التوحيد والتقديس الربانيات . وعددها ثلاثة وأربعون بيتاً ، أولها :

وَلِلْمَوَازِينِ أَرْبَابٌ تُحَقِّقُهَا وَتَفْتُقُ الدُّرَّ عَنْ أَصْدَافِهِ الغُبَرِ

زِنْ بِالصَّغِيرِ جَمِيْعاً فِي مَرَاتِبِهِ مَا فِي الكَبِيرِ مِنَ الأَسْرَارِ وَالصُّوَرِ

أقول : مراده بالعالم الصغير : عالم الإنسان ، وبالكبير : العالم العُلوي من العرش والكرسي والسماوات وغير ذلك . يعني تَفَكَّر في هذا العالم الصغير ترى فيه أنموذجاً من ذلك العالم الكبير يدل عليه ، وكلاهما يدلان على قدرة خالقهما ومنشيهما ، كما قال الله تعالى : ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال الشيخ علي بن أبي بكر المذكور نفع الله به : « عند بعض أهل الحقيقة ، النفس والروح والقلب بمعنى واحد ، وهي الإرادة المتعلِّقة بهذه المضغة المعروفة ، وذلك المعنى هو المراد بقوله ﷺ : ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب . وقال القشيري : النفس في اصطلاح أهل الحقيقة ، ما كان معلولاً ومذموماً في أوصاف العبد وأفعاله وأقواله ، والنفس على ثلاثة أقسام : النفس الأمَّارة : وهي الأخلاق المذمومة ، كالشهوة والغضب والكبر والحرص والحسد والبخل والرياء . والنفس اللوامة : وهي النفس المطمئنة إذا تدنَّست بأوساخ المعاصي ، تلوم صاحبها على ما فعل . والنفس المطمئنة : وهي نورٌ من أنوار القدس ، فائضٌ

على جوهر القلب . والنفس بمعنى الجسد ، هو العالم الأصغر ، وهو أنموذج واصطرلاب لجميع ما في العالم الأكبر من الآثار العُلوية والصور السُّفلية ، وفيها من العجائب ما لا يدركه إلا الراسخون في العلم ، وإلى ذلك وَقَعَت الإشارة الإلهية بقوله تعالى : ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ .

فنظير الأفلاك السبعة : الرأس واليدان والفخذ والساقان ، على الترتيب من الأشرف - أي الأعلى - إلى الأدنى ، والفم والسرة والأنثيان والسبيلان وكل ما كان من هذه المنافذ زوجان ، فإن أحدهما شمالي والآخر جنوبي ، كما في البروج ، فإن ستة منها شمالية ، وستة جنوبية . ونظير الكواكب السبعة السيارة : القوى السبعة السيارة في البدن ، وهي قوة البصر والسمع والذوق والشم والنطق واللمس والفهم . ونظير عقد الرأس والذنب من الفلك ، سوء المزاج وصلاحه بجامع جنابهما وظهور الأثر عنهما بقدرة الله سبحانه . وحركات القوى كغروب الكواكب واستقامتها كاستقامتها ، وأمراض القوى كآفات الكواكب ، والعقل في الجسد كالشمس ، والعلم كالقمر ، والعلم مستفادٌ من أنوار العقل ، كما قيل: إن نور القمر مستفادٌ من نور الشمس . والله سبحانه هو العالم بحقيقة ذلك ، والأرواح في الأبدان كالملائكة في الأفلاك ، فهذا وجه مشابهة الجسد للعالم العلوي .

وَوَجْه مشابهته للعالم السفلي : أن الجسد بمثابة الأرض ، والعظام فيه كالجبال، والأمخاخ فيه كالمعادن ، والبطن كالبحر ، والأمعاء والعروق كالأنهار والجداول ، واللحم كالتراب ، والشَّعَر كالنبات ، والأيدي والأرجل كالأشجار ، والأصابع كالأغصان ، والوجه كالمشْرِق ، والقفا كالمغْرِب، واليمين كالجنوب ، والشمال كالشمال ، وأمام ووراء كالقبول والدبور ، والأنفاس كالرياح ، والكلام كالبروق، والأصوات كالرعود والصواعق ، والفرح كالنور ، والهم كالظلمة ، والبكاء كالقمر ، والضحك كإشراق الشمس ، واليقظة كالحياة ، والنوم كالموت ، وأيام الصبا كالربيع ، والشباب كالصيف ، والكهولة كالخريف ، والشيخوخة كالشتاء .

كما أن في النبات ما يغلب عليه بعض الكيفيات - أي الطبائع - ومنها ما هو معتدل ، فكذلك في أعضاء الإنسان وأجزائه ، وكذلك في الأجسام ما يُنَمَّى وما لا يُنَمَّى ، فكذلك في الإنسان .

وأما طباع الحيوانات وأخلاقها فتوجد كلها في الإنسان في اختلاف أحواله فتارة يكون شجاعاً كالأسد ، وتارة جباناً كالأرنب ، وتارة بخيلاً كالكلب ، وتارة متمَلِّقاً كالهر ، وتارة وحشيًّا متكبراً كالنمر ، وتارة آنسيًّا كالحمام ، وتارة محتالاً كالثعلب ، وتارة سليماً ساذجاً كالشاة ، وتارة عجلاناً كالظبي ، وتارة بطيئاً كالدب ، وتارة عزيز النفس كالفيل ، وتارة خسيساً كالجمل ، وتارة جهولاً كالحمار ، وتارة ذكيًّا كالفرس ، وتارة مختالاً كالطاووس ، وتارة أخرس كالسمك ، وتارة ناطقاً كالهزار، وتارة ختَّالاً كالذئب ، وتارة حريصاً كالخنزير ، وتارة مشوماً كالبوم ، وتارة ميموناً كالببغاء ، وتارة

نافعاً كالنحل ، وتارة ضارًّا كالفأر .

ومن شرف الإنسان أن الله تعالى خلق جميع الموجودات ولم يُثْنِ على نفسه بخلق شيء كما أثنى على نفسه بِخَلْقِ الإنسان ، لغريب صفاته وعجائب ذاته ، فقال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ ، وقال بعض أهل الحقيقة : القلب له نور له شعبتان : شعبة ممتدة إلى عالم الملكوت ، وشعبة ممتدة إلى عالم الكون والفساد ، فله بالشعبة الأولى نسبة إلى الملائكة ، وبالشعبة الثانية نسبة إلى أهل الأرض ، وبالشعبة الأولى يصلح معاده ، وبالثانية يصلح معاشه .

فمتى أدركته جواذب العناية الأزلية إلى لقاء الحق ، بذوق حلاوة اللذات القدسية ؛ غلبت الشعبة الأولى على الثانية غلبة يحصل معها الفناء عن عالم الحس ، والبقاء في عالم القدس ، فيصير مكاشفاً بها في العالم العلوي من العجائب والغرائب ، وتلك فضيلة يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده » .

وله - أي الشيخ علي - هذه الأبيات :

الحَمْـدُ للهِ العَظِيـمِ الشَّـأنِ ... صَمَـدٌ تَعَـالى مُبْـدِعُ الإنسَـانِ
أَبْـدَاهُ رَبُّ الكَـونِ في أَطْـوَارِه ... رُوحـاً وَأَشْـبَاحاً وَحُسْـنَ بَيَـانِ
فَالْغَيْـبُ وَالملكُـوتُ مَظْهَـرُ قُـدْرَةٍ ... وَالملـكُ مَظْهَـرُ حِكْمَـةٍ وَعَيَـانِ

انتهى ما جَرَّنا إليه من قوله هذا ، قوله في الحديقة السادسة : « زِنْ بالصغير ما في الكبير من الأسرارِ» ، حيث كان في كلامه هذا بيان لكلامه ذلك ، كما جَرَّنا إلى كليهما قول سيدنا : « **أما سمعتَ الشيخ علي في الحدائق ، كلما ذَكَرَ حديقة قال : وكيفية الموازنة** » .

وقد مرَّت هذه القصيدة بفصولها في الدرس ، من قراءة من كان يقرأ فيها ، فَذَكَرْنا ذلك منها لئلا يبقى السامع متشَوّقاً إلى ذلك ، فيبرد خاطره إذا سمع هذا منها ، وجملة أبيات هذه القصيدة ألف بيت وسبعون بيتاً ، وسمعت سيدنا عبدالله يقول : « **ما في السادة آل باعلوي أكثر عِظَماً من الشيخ علي** » .

ورأيت في بعض تراجمه : أن رجلاً مُقْعَداً دخل إلى تريم يزحف ، فسأله بعض الناس : « من أين أنت ؟ » ، فقال : « أنا من أهل سمرقند ، خرجت من بلدي منذ ثلاث سنين ، قاصداً هذه المدينة لزيارة رجل يقال له : الشيخ علي ، إن له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية » ، فدلَّه على بيته ، فسار إليه وزاره، ورجع في ساعته .

ثم قال الشيخ علي : « الحديقة السابعة ، في الإشارة إلى ذِكْرِ شيءٍ من علوم الطرائق والتوحيد ، وتقسيم العوالم والموازنة ونواطق التمجيد ، وعددها واحد وثلاثون بيتاً ، أولها :

اخْلَـعْ أُخَـيَّ كِسَـا الْعِصْيَـانِ وَارْمِ بِـهِ وَالْبَسْ حُلا العِلْمِ وَالطَّاعَاتِ وَابْتَدِرِ

إلى هنا انتهى ما أردنا ذِكْره من ذلك ، مبيِّناً وشاهِداً لقوله ه .

وذَكَرَ العمل بالعلم ، فقال : « **إن لم يمكنك تعمل به كله ، فتفعل جميع الطاعات وتترك جميع المنهيات ، فافعل من الطاعة ما تَيَسَّر ، مع العزم على فعل الباقي ، واترك العمل ببعض المعاصي مع العزم على ترك الباقي ، فانوِ ذلك فقد يحصل بالنية ما لا يحصل بالأعمال ، حتى يَقِلّ تحسُّره في الآخرة إذا رأى درجات العاملين ، إذ لو ترك جميع ذلك لطالت حَسْرَته ، ومعلومٌ أن من ترك العمل وجلس عاطلاً باطلاً طال في الآخرة حزنه ، ولا يكون فيه خير ولا بركة ، ولو أنكر على أحد في صلاة أو زكاة أو غير ذلك ، وهو متلبِّس بها أنكره ، فماذا ينفعه علمه ، فتكثر حسرته سيما إن انتفع بعلمه غيره . فهذه قاعدة : أن كل ما جاء به الشرع ، إذا لم يعمل به كله تكثر حَسْرَتُهُ أو بعضه فأقل من ذلك ، ويجري مثله في أمور الدنيا ، فلو رأى من معه مال كثير ، فاستثقل أن يتسبب مثل ما تسبب ، أو كان معه مال فضيَّعه، أو أعطاه من لا يحمده ، فإنه يرجع يطلب أو يتعطل بلا شيء ، فيتحسَّف على ما صنع. فالمراد أنه لا يُدْبِر بالكُلِّيَّة ، فإن الزمان زمان سوء ، وهذا وَصْف المُدْبِرِين ، ولكن يكون مرة كذا ، ومرة كذا** » .

وقال : « **إذا عملتَ خيراً فانوِ العَوْدَ إليه ، فإن لم يتفق لك العَوْد فتثاب على نيتك ، وكذلك إن لم تكن قد عملته فانْوِهِ** » ه .

أقول : قد جمع رضي الله عنه في هذه المقالة ، فأمر ونهى وبيَّن وحذَّر وأنذر ، فبيَّن أن من عمل بجميع العلم ، وهو العمل بجميع الواجبات والمندوبات ، وترك جميع المحرمات والمكروهات ، أنه يكثر فرحه في الآخرة . فإن لم يمكنه ذلك كله ، فليفعل من الطاعة ما تيسَّر ، بِفِعل جميع الواجبات وما تيسَّر من المندوبات، وترك جميع المحرمات وبعض المكروهات ، كذا فسَّروا حديث : « إنكم في زمان ، من ترك العمل بعُشْر ما يعلم هلك ، وسيأتي زمان من عمل بعُشْر ما يعلم نجا » ، « إن الواجب عُشْر المأمورات ، وإن المحرم عُشْر المنهيات » ، فمن اقتصر على ذلك في الفعل والترك في زمانهم هلك ، أي لا يقنع منهم بذلك دون فعل المندوبات وترك المكروهات ، لصلاح زمانهم وقوة الإيمان في قلوبهم إذ ذاك ، وسيأتي زمان يقنع منهم بذلك ، وهو كثير منهم فينجون به ، لأن الواجب فعله أو تركه هو رأس مال المتَّجر والباقي فائدة ، كما قال : « **الإنسان متجرٌ لنفسه** » ، فلا يقنع منه بذلك دون الفائدة في الزمن

الصالح ، ويقنع في الزمن الفاسد .

فمن فعل كل ما وجب فِعلاً وتَرْكاً فهو الكمال ، وإن عجز عن ذلك وفعل بعضاً وعزم على فعل ما ترك ، حصل له بالنية كما فعل الكل ، فَيَقِلّ تحسُّره ، بخلاف لو ترك العمل والنية ، فيكثر تحسُّره وندمه ، حيث لا ينفعه الندم ، ويشتد همُّه وغمُّه سيما إن انتفع بعلمه غيره وتعطل هو ، أي ترك العمل بالكل أو البعض ، مع نية الباقي ، فيزيد به الغم والهم . وفي اللغة ، الهم : هو توقع المكروه ، والغم : وقوعه به . ثم بعد ذِكْر هذا ، ضَرَبَ لِنَفْع الآخرة مَثَلاً بنفع الدنيا ، إذا رأى إنساناً متَّسعاً في المال وأراد مثله، فثقل عليه السعي في تحصيل المال كَسَعْيِهِ ، وهو مَثَلٌ لمن تَرَكَ العمل بجميع ما شرع وجوباً وندباً، فعلاً وتركاً ، أوعنده مال فأنفقه من غير إخلاص لله وهو مَثَلٌ لمن عمل على غير قانون الشرع ، فيبقى الإثنان خاسرَيْن معذَّبَيْن في الآخرة ، كما يبقى الآخران : التارك السعي لتحصيل المال ، أو المضيع له بإنفاقه على غير وجهه ، فقيرَيْن محتاجَيْن يسألان الناس .

لأن في القاعدة المطَّردة: أن من عمل بجميع المشروع أمراً ونهياً ، أنه يكثر فرحه وسروره ، ودونه العامل بالبعض مع نية الباقي . فاعرف الموازنة واعمل عليها ، فإنك قد رأيتَ بعينك أحوال الدنيا ، فَزِن به في أحوال الآخرة هـ .

قال رضي الله عنه : « **إنما الدين بعد كتاب الله الحديث ، إلا إنه قَلَّ من يحفظه اليوم إلا في جهات بعيدة ، وأحدٌ يطلبه لذلك الأمر** » .

ثم ذَكَرَ قول عمر رضي الله عنه ، حيث تمنى أنه كان سأل النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء ، منها أبواب من الربا ، وعن الكلالة ، *ثم قال* : « **نعم ، لأن الميراث يصل إلى أقوام مع وجود أقرب منهم ، كما يرث ابن الإبن مع وجود العمة ، وليس لها من الميراث شيء ، ويرثها ابن أخيها ولا ترثه ، والأمور الإلهية ما هي على قياس عقول الناس ، ولهذا أوقَعَتْ أناساً قياسات عقولهم ، حتى وقعوا في الربا باستحسانهم بيع القهاول من الطعام بقهاولين** » هـ .

أقول : لكل بلد من بلدان حضرموت قهاول ومد يخصها ، أقلها قهاولاً ومُدًّا بلدة سيئون ، ومدها على مُدِّ النبي ﷺ ، وقهاولها : اثنى عشر مُدًّا ، ومدها وهو ثلاثة أَصْوُع نبوية ، كذا قرَّره فحول العلماء من أهل حضرموت ، كالشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة ، والشيخ بحرق ، والشيخ عبدالله بلحاج بافضل ، وعليه قياسة الحساء كما كِلْنَاها بِمُدِّ سيئون ، فأنت عليه بلا زيادة ولا نقصاً .

قال رضي الله عنه : « قعد الشيطان لكل أحد على طريقِهِ التي يصل بها إلى الله تعالى ، لأنه عدوٌّ ممارسٌ عارفٌ بالطرق ، فجاء لبعضهم في البخل ومحبة الدنيا ، ولآخرين في الرياء والكبر وغير ذلك ، وأهل أخلاق السوء كل منهم هو متصف بها ، ويعمل على مقتضاها ، وإن لم يعرف تفصيلها ويعبِّر عنها، كالضعيف - وهو الفلاح في لغتهم - الذي يحب أن يكون أحسن من غيره ، وإذا فعل أمراً - أي عبادة- أحبَّ أن يُرَى ، فهذه الأشياء ونحوها هو الرياء والكبر المجبول عليها .

وأما أضدادها كالإخلاص فإنها من ثمرات التوحيد لا تهتدي العقول إليها حتى جاءت الأنبياء وعرَّفوا الناس التوحيد وثمراته ، وقد يدرك بالعقل الخالق للأكوان ، ولكن لم يهتدوا إليه إلا بتعريف الأنبياء ، فمن نظر السماوات والأرض وغيرهما ولم يعتقد أن لها خالقاً فهو مصاب في عقله ، وما أجهل من يفعل صنماً بيده ويعبده ، وبعضهم يجعله من سُكَّر فإذا جاع أكله » هـ .

أقول : قوله : « ممارس » ، أي مجرِّب ، « عارف بالطرق » ، أي أنواع ما يتقرب به إلى الله ، فيصدهم عنها إلى أضدادها ، كما ذَكَرَ من « البخل ومحبة الدنيا » ، كان المتقرب به إلى الله الزهد في الدنيا ، فصدهم عنه إلى محبتها .

والإخلاص والتواضع ومحاسن الأخلاق ، هي المتقرب به إلى الله ، فصدهم عنها إلى أضدادها المذكورة من الربا والكبر ومساوئ الأخلاق وغيرها ، لأن الله تعالى جعله داعياً إلى معاصي الله والنار، صادًّا عن طاعة الله والجنة ، هكذا خلقه وهو أول من عصا وسلك طريق النار ومالَ عن سبيل الخير والجنة ، فكان بعد ذلك هذا فنه ، حتى سأل الله أن يُنظِره كذلك ، فأجابه وقال : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾، كما حكى الله عنه . فأعطاه ذلك وأمره به ، فقال تعالى : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾، ثم إن العدو إلتزم بذلك فقال : ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، كل ذلك لإرادة من الله سبحانه ليتمَّ للنار ما وعدها به من ملئها .

ثم إن الله سبحانه استخلص منه أقواماً اختصَّهم وأضافهم إلى نفسه وأعجزه عنهم ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، وأقرَّ اللعين بعجزه عنهم حيث لم يرد الله منهم اتباعه كما أراده من الآخرين ، فقال : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾، وقال لمَّا ذَكَرَ مواضع أعوانه في قوله : ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي أشككهم في الآخرة ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، أي أحبِّب إليهم الدنيا وأرغِّبهم فيها ، ثم قال : ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾، أي بخلاف البعض المذكورين ، وهم عباده المُخلَصُون ليتم بهم للجنة ما وعدها به من ملئها ، حتى استشكل ذلك أناس من أكابر أولي العزم من المرسلين كموسى وعيسى ، فسأل كلٌّ منهم ربه عن ذلك فأجابهم : « لا أُسأل عما أفعل » ، كل ذلك ليتم به وعده للدارين .

قوله : « **وإن لم يعرف تفصيلها ويعبِّر عنها كالضعيف** » ، وهو الفلاح الذي يحترف في النخيل والزروع ، مَثَّل به لأنه أشد الناس جهالة وعجزاً عن معرفة أحكام الله ، « **وإذا فعل أمراً أحبَّ أن يُرى** »، أي إذا فعل عبادة أحبَّ أن يراه الناس ، لسوء جهله بحقائق الدين .

وقوله : « **ولكن لم يهتدوا إليه** » ، أي إلى معرفته وعبادته .

وقوله : « **مصابٌ في عقله** » ، أي ناقص العقل ، فإن أهل الكهف برؤيتهم السماوات والأرض علموا أن الذي خَلَقَها هو الذي خَلَقَهُم ، ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾، أي لا نعبد غيره ، لكن لم يعرفوا حقيقة العبادة إلا من الأنبياء هـ .

قال رضي الله عنه : « الهداية بعد الآيات ، ما هو ولا بد ، ومن تأمل أحواله ﷺ عَلِمَ أنه قاسى منهم من التعب أمراً عظيماً ، ومن مشركي مكة ومنافقي المدينة خصوصاً ، وابن أُبَي في المنافقين كأبي جهل في المشركين ، والإنسان محجوج بمجرد عقله ولو لم يكن كتاب ولا رسول ، وإن كان في أمور الآخرة بُعْدٌ على العقول ، لكن يلزم بالتكذيب بذلك التكذيب بمن أَخْبَرَ به وهو الله ورسوله . وكُنَّا عَزَمْنَا على وَضْعِ رسالة في الإلهيات والنبويات وأمور الآخرة ، ولكن منعنا منه اشتغال الناس وعدم إصغائهم ، ولكنَّا إن شاء الله سنجعله في فَصْلٍ من الفصول العلمية » هـ .

أقول : كلامه هذا قاله في مجلس الدرس بعد العصر في المصلى ، فلما قام ودخل ودخلتُ معه إلى الضيقة ، قابضاً بيدي على العادة ، قال لي نفع الله به : « **الحذر تُعَلِّق قلبك بشيء من ذلك ، وإن وَرَدَ عليك شيءٌ منه فاعرِضْ عنه** » ، فقلت : عسى الله ببركتكم يحفظني من جميع الأسواء ، قال : « **إن شاء الله** » هـ .

أقول : لما قال : « **والإنسان محجوج بمجرَّد عقله** » ، أي إذا أدَّاه عقله إلى معرفة ربه بإرادة الله وآمن به ، وفَهِمَ من الأنبياء كيفية العبادة ، وكان في أمور الآخرة بُعْدٌ على العقل فما يمكنه لما صدقه في ذلك عن الله إلا أن يصدقه فيما أخبروا به من أمور الآخرة عن الله ، وذَكَرَهُ في كتابه من البعث وغيره ، وما ذَكَرَ فيه من الأحكام ، وكلام سيدي هذا لي شبيه بقوله فيما سأذكره .

فقد استأذنت سيدي في كتابة كتاب « البرقة » للشيخ علي بن أبي بكر المتقدِّم ذِكْره عند ذِكْرِ قصيدته المسماة بالحدائق ، وذلك لما خرج لصلاة ظهر يوم الإثنين ٣ ربيع الأول سنة ١١٢٦ فقال : « **إن شاء الله، اكتبه وتوكَّل ولا تتأكَّل** » ، ثم قال حينئذ : « **التأكُّل طلب أمور الدنيا بأمور الدين** » ، فقلت : مرادي أن تحصل لي الإعانة ببركتكم والمدد ، فقال : « **يحصل إن شاء الله ، وما هذا إلا في لحظة واحدة**

من لحظات الحق ، وما حد الإنسان الضعيف ؟ فلو ظهر له منها شيء ، لهام في البراري والقفار » ، فقلت : النفس خبيثة جداً ، لا تكاد تطلب الخير إلا إن حصل لها من ذلك شيء ، فقال : « إنها من طبعها الهوى ، حتى لو قيل لها : لك درجة في الجنة ، ولكن لفلان درجة أعلى منك . لطلبت أن تكون هي أعلى ، فهكذا حظها حتى في أمور الآخرة ، فكيف في أمور الدنيا ، ولكن تلطف شيئاً فشيئاً . وقد سأل رجل بعض الأنبياء أن يدعو الله أن يرزقه ذرة من محبته ، فدعا له بذلك ، فأبطأ عليه ، ثم بعد مدة أُعْطِي ما سأل ، فجاء إليه يستغيث وقال : أَقِلْني ، فإني عجزت عن ذلك ، فقال الله له : إن جماعة كثيرين سألوني ذرة فقسمتها بينهم ، وذلك الذي أصابه نصيبه منها » هـ .

ورأيت في ترجمة من سيدنا الشيخ عمر المحضار قصة تشبه هذه ، وهي : أن تلميذاً له ، قال له : « يا سيدي أشكو إليك من حالي ، همة نفسي الأكل الكثير ، فما يأكل كثيراً إلا البقر والحمير ، فأَقِلْنِي من هذه الحالة » ، قال له : « هذا خيرٌ لك » ، فأبى ، ولازَمَه في ذلك ، فأدخل رأس الرجل في كُمِّه وتركه قليلاً ، ثم رفعه وإذا الرجل كالسكران ، وبقي يومه ، ثم جاء إلى الشيخ يستغيث من هذه الحالة، فقال له : « اصبر » ، قال : « لا طاقة لي على الصبر » ، فوضع كُمَّه على رأسه ، وأدخل رأسه فيه وتركه لحظة ثم رفعه وإذا الرجل قد رجع إلى حالته الأولى . فاقض العجب من أحوال الأكابر ، وما أعطاهم الله من التصرف في الدنيا ، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾هـ .

أقول : فأَفْهَمَ كلامه رضي الله عنه أن من أراد ذلك لا ينبغي له أن يحدِّث به نفسه ويبقى منتظراً له ، بل يسعى فيما يحصله وهو التقوى ، ويجتنب ما يمنعه وهو ترك التقوى ، ثم يبقى منطرحاً تحت القضاء والقدر ، مسلوبَ الإختيار متعلِّق القلب بالله ، معتقداً إنما ذلك بمشيئة الله إن قَضَى له به ، أي حَكَمَ وقدَّر ، أي حضر وقته حصل . ثم لما أتممتُ من الكتاب كتابةُ ؛ أخبرته ، ووضعتُهُ في يده مجلَّداً يوم الأحد ١٧ جماد الآخرة سنة ١١٢٨ ، فقال : « استعملك الله به ، وبارك لك في ما أعطاك » ، قلت: وأعطاني ما لم يكن موجوداً ، قال : « مما قُدِّر ، أو ما لم يُقَدَّر ؟ » ، قلت : مما قُدِّر ، قال : « نعم ، إن شاء الله من الخير » .

قال لرجل : « عادك في زمن التحصيل ، وللإنسان مرتبتان : إحداهما أعلى من الأولى ، إذا وَصَلها كان يُنتَفَع به ، وما دام في الأولى فهو طالب الإنتفاع ، ويمكنه أن يطلب ذلك في كل واحدة منهما » هـ .

وكان سيدي السيد عمر البار إذا سار إلى بلده دوعن ، وله زوجة في تريم ، فيوصيني فيها وهي عند أهلها إن بدت لها حاجة أن أَقْضِيها ، وربما أرسل إلى أهلها لذلك ، فحسيت من سيدي عبدالله نفع الله به كراهته لوصولي إليهم ، فامتنعتُ من الوصول إليهم ، وبقيت إذا أرسلوا إليَّ أنهم يريدون

أمر كذا ، أرسله مع رسولهم ، فقال لي يوماً : « عاد آل فلان أرسلوا لك ؟ » ، قلت : نعم ، واعتذرت من الوصول إليهم ، *فقال* : « إذا كان لك في شيء هوى ما عاد تعرف الصواب من الخطأ ، وأنت امتَثِل ولا عليك أن تعرف وجهه ، فإن الطريق العامة والطريق الخاصة كل منهما مظلمة ، لا يهتدي الإنسان بنفسه فيهما إلى الصواب ، فيحتاج أن يجعل يده في يد العالم بذلك ولا يتكلم ، كالأعمى أو من هو في ظُلمة يجعل يده في يد البصير ومن هو أعرف منه ، ولا يقول له : خذ من هنا أو الطريق من هنا ، ونحو ذلك . ونحن جميع أقوالنا وما نتكلم به مع الناس في هذا الزمان ، إنما هي في طريق العامة . ومعنى كونها مُظلِمة : أنك لو قلت للرجل منهم في صلاة أو زكاة ونحو ذلك من أمرٍ بمعروف أو نهيٍ عن منكر ، اشتَغَل من ذلك ولا يحب من يذكِّره ويعلِّمه . وقد نَجِد في نفوسنا على أحد من الناس من هذه الحيثية ، حتى على أغراب وفقراء ، لكنا بحمد الله لا نظهر شيئاً من ذلك ، وأما الطريق الخاصة فقد قال بعضهم: أنها قد انْدَرَسَت منذ زمان بعيد ، ومن لم يسلِّم لذلك » .

قال : « معنى دروسها : أنه كل ما تأخر الزمان زادت خفاء . وأنت طالب نفسَك بحقِّ الله عليك وهو التقوى ، ولا عليك بتكليفها ما وراء ذلك ، ومرادنا نعلمك حتى تعرف الصواب فتنتفع وتنفع ، فقد مَرَّ بعض المشايخ بعبدٍ أسود في عنقه حبل ويشرب الخمر ، ومع الشيخ تلميذ له ، فمرَّا على موضع زرع ذرة قد أخذ سنبله وبقي قصبه ، فأمر التلميذ أن يأخذ حزمة قصب ، ثم أمر التلميذ أن يَضْرِب العبد بحزمة القصب ، ليستوفي الحدَّ منه بذلك حد شرب الخمر - وهو شبيه بقصة أيوب ، ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، ودلَّ أن لا عذر في ترك أحكام الشرع ، لا الخاص ولا عام ، ولو خفف عنهم بعض تخفيف - ثم ألبسه ثوباً وعلَّمه الوضوء ، فتوضأ ثم صلى بهما صلاة من الخمس، ثم فرش له السجادة على البحر ، وكانوا بقرب الساحل مما يلي زبيد ، وقال له : اركب . فركب على السجادة فمشى على الماء ، حتى غاب عن النظر ، فجعل التلميذ يتلهَّف ويقول للشيخ : يا حسرتاه، لي معك كذا وكذا ما حصل لي هذا ، وهذا حصل له ذلك في هذه اللحظة ، فقال له الشيخ : يا ولدي ، ما بيدي شيء، وأود أنا لو حصل لي ذلك ، وإنما أنا عبدٌ مأمور ، قيل لي : فلان من الأبدال قد مات بأرض الحبشة، فأَقِمْ فلاناً مقامه » ، أو كما قال في القصة .

فقلت : هل التقوى من أول الطريق الخاصة ؟ فتبسَّم ضاحكاً وسكت ساعة ، وهكذا كانت عادته إذا سئل فاستركَّ السؤال أو سئل عن ما لا يود أن يُسأل عنه ، ثم يجيب بما يطابق حال السائل ، ثم قال بعد سكوته ذلك : « أولها الإعتقاد الصحيح » ، ولم يزدني على هذه الكلمة شيئاً ، ولو رأى لذلك محلًا لتكَلَّم وفَصَّل هـ .

أقول : قوله : « إذا كان لك في شيء هوى » ، الهوى ما تهواه النفس من الحظوظ وهي مطالبها ،

ومقصورة على منافع الدنيا ، المشتملة على الشهوة لجلب منافعها والغضب لدفع مضارها في المباح ، ولا حظَّ في ذلك في منافع الآخرة ، بل أحسن أحوالها أن لا تضر هناك ، وذلك إذا كان مقصوراً على المباح ، فإن تعدَّى إلى الحرمة ضَرَّ ، فأثم وعوقب إن لم يعف الله ، أو إلى الكراهة نَقَصَ أجره وندم ، وفي الرجل الكامل يتعدَّى المباح إلى الندب بالنية ، فيثاب حينئذ .

وقوله : « **مظلمة** » ، أي غامضة لا يستقل بمعرفتها وسلوكها بلا معلِّم ومرشِد .

وقوله : « **اشتغل من ذلك** » ، يعني أن اشتغاله ممن يعلِّمه ، لعدم معرفته واحتفاله بدينه ، ومع ذلك يدَّعي أنه على صواب ، وهذا هو الذي أزعله من فاعل ذلك ، حتى وجد في نفسه عليه ، وهذا هو الجهل المركب ، كونه جاهلاً ولا يعلم أنه جاهل ، وزاده كَمَهاً وعمىً حيث ادَّعى أنه على صواب، وأنه مستغنٍ عن المعلم . فهو في حالته هذه كالماشي في ظلمة ، أو كالأعمى الذي لا يعرف الطريق ، يعني فلا بد له من معلِّم ومرشِد ، وإلا ضَلَّ ووقع في الضرر في دينه ، كما يقع الأعمى أو من هو في ظلمة بلا معرف بالطريق في ضرر دنياه ، والأشياء بالموازنة ، كما تقدَّم من ضَرْبِهِ المثل في أمور الدين في ما ينفع ويضر بأمور الدنيا كذلك .

قوله : « **ونحن جميع أقوالنا .. إلخ** » ، يعني إنما هو يخاطب الناس كلهم بالشريعة ، وهي الطريق العامة دون الطريق الخاصة ، وهي الحقيقة ، وهكذا شأن الدعاة إلى الله ، إنما يدعون إلى الشريعة ، فإذا عرفوها وقاموا بها خاطبوهم بالحقيقة بأن يطالبوهم بكمال العبودية على الترتيب ، كما جاء ذلك مرتَّباً في حديث جبريل ، حيث أنه سأل أولاً عن الإسلام ، وهو الأفعال الظاهرة على الجسم ، التي بني الإسلام عليها ، وتسمى مباني الإسلام ، وتسمى العبادة ، وهي الطريق العامة التي أشار إليها سيدنا، ولا يصل إلى الخاصة إلا بعد إحكام العامة ، وقال مرة : « **من أحكم الطريق العامة في هذا الزمان ، إلْتَحَق بأهل الطريق الخاصة ، لِعِزَّةِ الخاصة في هذا الزمان** » ، ثم سأل جبريل عن الإيمان ، وهو مجاريه الستة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه ، وفيه كمال ونقص، كما للإسلام كذلك كمال ونقص .

فكمال الإسلام أن يكون مصحوباً مع الإيمان بحسب خصوصيته في الكمال من أعلى وأدنى، ونقصه أن يكون مجرداً منه كإسلام المنافق ، فنفعه في الدنيا بحقن دمه وعدم سَبْيِهِ وسَبْيِ أهله واسترْقاقِهم ، فافهم . وكان في الآخرة عليهم أشد ضرراً من الكفار ، لخلودهم في الدرك الأسفل من النار ، ومخادعتهم لله ولرسوله وللإسلام وأهله . ونقص الإيمان أن لا يزيد على مجاريه الستة ، مع تمام إحكام الإسلام ، وهو إيمان العامة ، وكماله أن يتعدى زيادته إلى إيمان الصديقين ، بأن يشتغل باطنه وظاهره بالله ، ولا الْتِفَاتَ له إلى سواه وهو الطريق الخاصة ، ولا وصول إليها إلا بعد إحكام العامة ،

كما قال : « **ولا ينال الخاصة ، حتى يحكم العامة ولو عاش عمر نوح** » ، وكلٌّ منهما سيأتي ذِكْره في هذه المجالس من كلامه مراراً .

ثم سأل جبريل بعد ذلك عن الإحسان آخراً ، فأخبره ثم قال رسول الله ﷺ لسيدنا عمر : « أتدري من السائل ؟ » ، قال : « الله ورسوله أعلم » ، قال : « فإنه جبريل ، أتاكم ليعلمكم دينكم »، فدلَّ على أن ذلك تعليم لهم بالدين على ترتيبه ، لِيُحْكِمُوا أدناه أولاً وهو حركة الأجسام ، ثم أعلى منه وهو مآخذ القلوب ، وهو الإيمان في مجاريه الست ، ثم أعلى من ذلك وهو إقامة الأمرَيْن معاً ، كل منهما على أكمل وجوهه وهو الإحسان . قال سيدنا على هذا الحديث : « **الإسلام مجرد عمل فقط ، والإيمان مجرد علم وتصديق ، والإحسان مشترك بينهما ، والأول في الجوارح والثاني في القلب والثالث فيهما ، والأول ظاهر الثاني ، والثاني باطنه، والثالث خالصهما ، والإحسان هو الغاية من الإسلام والإيمان ، إذا اجتمعا صارا إحساناً** » ، قال : « **وقوله : صدقتَ . يُشْعِر بأن بينهما معرفة سابقة** » ، وقال في قوله : « أن تشهد » : « **أي عن اعتقادٍ في القلب ويقينٍ بالباطن ، لا كإيمان المنافقين وإيمانهم باطل ، وإيمان العوام ناقص** » ، وقال : « **وفي هذا الحديث حثٌّ على طلب العلم ، وعلى تكرير المعلِّم على المتعلِّمين ليرسخ حفظهم ، وعلى تخصيص أكمل الحاضرين بالخطاب** » .

قوله : « **وقد نَجِد في نفوسنا من هذه الحيثية** » ، أي من حيث غضبه من التذكُّر واشتغاله ممن يعلِّمه، لأنه يدل منه على عدم احتفاله بدينه ، وعلى جهله المركب ، وأي أمر يكون أشد من هذا على من أُقِيمَ داعياً للدين يدعو الخلق إلى دين الله ، نائباً في ذلك عن رسول الله ﷺ ، فيصير أشد الناس عداوة له من كان يثبِّط الناس عن اتباع دين الله ، فكان أشد الناس تثبيطاً للمشركين عن الإسلام أبوجهل بمكة ، وأشدهم تثبيطاً عن اتباع الحق ابن أُبَي بالمدينة ، فلذلك صارا أعدى الناس لرسول الله ﷺ ، كما قال : « **ابن أُبَي في المنافقين ، كأبي جهل في المشركين** » ، فكذلك يكون أشد الناس عداوة لدعاة دين الله نواباً عنه ، أشدهم عدم احتفالاً بدين الله ، فلذلك يجد سيدنا في نفسه ممن هذا وَصْفه أشد تعباً وغيظاً .

قال : « **ولكنَّا لا نذكُره** » ، أي لا يذكر غضبه ، حتى لا يُعلَم به منه ، ومرة قال : « **إنا نغضب مما يغضب منه الناس ، ونغضب كما يغضبون ، والفرق بيننا وبينهم أنَّا نُخفِيه ولا يظهر علينا ، حتى لا يعلمون بأنَّا غَضِبْنا ، وهم يُظهِرونه ويَظْهَر عليهم**».

أقُولُ : وهذا الفرق بين أهل الكمال وبين أهل النقص ، وإلا فكما قال : « **طباع نفوس الناس سواء في مَيْلها عن الحق واتباع الباطل** » ، وقد وَصَفَ الله تعالى الكامِلين بقوله تعالى : ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾، أخبر أن ذلك إحسان منهم ، وأن الله يحبهم لإحسانهم وهو الذي وفَّقهم له فأعطاهم وأثنى عليهم بما أعطاهم ، كما أثنى على من أنعم عليه فشكر ، وعلى من

ابتلاه فصبر ، وهما سليمان وأيوب وهو الذي أنعم عليهما بما أعطاهما ، من توفيق كل منهما من القيام بحقه عليه فيه ، فحقه سبحانه على عبده إذا أنعم عليه الشكر ، وإن ابتلاه الصبر ، ثم أثنى عليهما بثناء واحد في الحالتين ، وهو قوله : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، أي هذا بما شكر وهذا بما صبر ، وقال سيدنا في قصيدته :

إذا ما ابْتَلاكَ اللهُ فَالصَّبرُ حَقُّهُ عَلَيكَ وَإن أوْلاكَ فَالحَقُّ فِي الشُّكْرِ

ومن عادة سيدنا أنه قد يُظهِر الغيظ ويُغلِظ القول اختباراً منه على بعض العيال أو بعض الأخدام لتأديبهم وتعليمهم ، كما قدَّمتُ من إغلاظه القول عليَّ ، لما كتبتُ ذلك الكتاب : « عمدة الأحكام مما أجمع عليه الشيخان البخاري ومسلم » ، ولم أشاوره في نَقْلِهِ ، لاعتقادي أنه ألَّا يفرح بذلك ، فأخبرته لما أَتْمَمْته فلامَنِي على عدم الشُّور وأَغْلَظَ القول ، ثم لما مَرَّ عليه في قراءة ابنه الحبيب علوي عليه بعد عصر يوم الجمعة ، أعجبه جداً وقال : « سنكتبه » ، ثم شكرني على كتابتي له وقال : « **إن ذلك الكلام إنما أظهره الله تأنيباً لك** » ، وقال : « **كان عندنا خادم إذا غَضِبْنَا عليه وعالَقْنَاه، وَحَسِّينا منه انقباضاً من ذلك ، أعطيناه شيئاً تَطْيِيباً لخاطره ، فقال : ليته يغضب عليَّ كل يوم ويعطيني شيئاً** » .

ومرة كلمني بكلام وما فهمته على وجهه ، وفهمت منه معنى آخر ، وذلك قرب وصولي إلى حضرته ، بسبب اختلاف اللغة ، فغضب وظهر لي منه الغضب وقال : « **أنت صد** » ، أي معاند بلغتهم، فقلت : انتوا قلتوا كذا ، وأنا فهمت منه كذا ، فقال : « **لا ، إنما هو كذا** » ، قلت : الآن فهمت. وذلك عشية ، فلما كان بعد حزب الصبح ودخلت معه إلى الضيقة قابضاً بيدي على العادة ، فمدَّ يده إلى رأسه ونزع كوفيته ، ثم مدَّ يده إلى رأسي ونزع كوفيتي وأعطانيها في يدي ، ووضع كوفيته على رأسي وقال : « **ألبسناك ، ألبسناك ، ألبسناك** » . هكذا ثلاث مرات . ثم دخل إلى داخل الدار حاسراً ما على رأسه شيء .

وقصة العبد ذَكَرَها الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي رحمه الله في كتابه « روض الرياحين في حكايات الصالحين » ، قال : « واسمه الشيخ محمد بن أبي الباطل ، من كبار مشايخ أهل اليمن ، لما مَرَّا على القصب قال له : خذ منه أربعين قلماً . فأخذها ثم مَرَّ على قوم يقال لهم : السَّناكم ، يأكلون الميتات ويشربون الخمر على ساحل البحر مما يلي مدينة زبيد وهم يرقصون ، وهذا العبد يضرب لهم الطبل، فقال لتلميذه : ائتني بذلك العبد . ثم أمر التلميذ أن يضربه بتلك الحزمة القصب الأربعين قصبة عن حَدِّ جلد شرب الخمر أربعين جلدة - أقول : وهذا شبيه بقصة أيوب ، ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ - ثم غَسَّله من البحر ووضأه ، ثم صلى بهما بعض الصلوات أظنها العصر ، ثم فرش له السجادة على البحر ، وأمره بالركوب عليها ، فرَكِبَ عليها ومشى على الماء .. إلخ ما تقدَّم » .

وتلهف التلميذ للشيخ ، وقول الشيخ : « أود لو حصل لي ذلك » ، يدل على أن نيل المقامات العاليات إنما ذلك باختصاصات من الله سبحانه ، يختصُّ بها من يشاء ليس بتوهُّم العقل ، ولا ببادىء الرأي من استحقاق فلان ، أو أن فلاناً أحق من فلان ، حتى أن الشيخ تمنى أن حصل له ما أُمِر بإقامة ذلك العبد فيه ، حتى قال : « أود لو حصل لي ذلك » . فاقضِ العَجَب من ذلك ، ولا عجب من أمر الله ، وعَلِّق قلبك بربك ، وهو الذي يعلقه لا أنت ، ولا تظن أو تتوهَّم أن مخلوقاً يدبِّر معه في مُلْكِهِ شيئاً قط ، ومن ادَّعى ذلك كَذَّبه النَّقل والعقل ، وقد ظهر في هذا الزمان بفساد كثير من أهله من يدَّعي ذلك قَبَّح الله مُدَّعيه .

وقد ذَكَرَ سيدنا هذه القصة يوماً ثم قال : « **فيقول السامع متعجِّباً ، كما قال تلميذه الذي معه : أنا لي معك كذا مدة ما حصل لي هذا ، وهذا حصل له في لحظة، فالجواب ما قاله الشيخ ، من أنه ليس الأمر في ذلك إلا إلى الله ، حتى قال : أود لو حصل لي ذلك** » ، ثم قال سيدنا : « **وهذا الأمر لا بد فيه من جذبة أو سلوك** » هـ .

أقول : وتشتبه علينا في ذلك قصة العبد ، فإنه حصل له ذلك ولا حصل منه في الظاهر جذبة ولا سلوك ، لكن حصل له العناية من الله ، فإذا حصلت لعبدٍ حصل له كل مطلوب ، وصَرَفَ عنه كل مرهوب ، ولا تحصل الجذبة إلا لمن حصلت له العناية ، وربما أنه لما غسَّله الشيخ ووضأه وصلى بهما تلك الفريضة حَصَلَت له الجذبة ، وما مشى على الماء إلا بها . وأمور الله غامضة ، قَلَّ ما يطلع عليها الخلق . وقدَّمنا فيما تقدَّم من قول سيدنا : « **نحن اليوم مع الناس ألَّا بالعناية ، وأما الأسباب فقد أتينا منها بكل ما تمكن ، ولا حصَّلنا منهم شيئاً** » ، ويكيفك شاهداً قصة التلميذ وهذا العبد ، فإن التلميذ قد أتى بكل ما يمكن من الأسباب ولا حَصَلَ له شيء ، وهذا العبد لم يأتِ من الأسباب بواحدٍ منها، وحصل له ما حصل مما لم يحصل للتلميذ ، بل ولا للشيخ حيث تمنى ذلك . ولما قال سيدنا : « **وهذا الأمر لا بد فيه من جذبة أو سلوك** » ، قلت : أنا عاجز عن الأمرَيْن ، وأمره إلى الله والنظر إليكم ، فقال: « **خلها تجري بعين الله ، ولكن مع ذلك قُم بما عليك من الأحكام الشرعية**» .

قوله : « **وطالِب نفسك بحق الله عليك وهو التقوى ، ولا عليك بتكليفها ما وراء ذلك ، ومرادنا نعلمك حتى تعرف الصواب فتنتفع وتنفع** » ، يبيِّن ذلك ما سنذكر الآن : وهو أنه سألني في مجلس الدرس بعد العصر : « **أتحفظ الأبيات التي سمعت في سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في منى؟** » ، ويقال : أن منشدها كان من الجن ، فلم أحفظها . ثم سأل الجماعة الحاضرين جميعهم واحداً بعد واحد، فما فيهم من يحفظها ، فقرأتها عليه في كتاب « حياة الحيوان » ، حين خرج لصلاة العصر وجلس في

الضيقة - أي الدهليز - وهي هذه :

جَزاهُ الله خيراً مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكَتْ ... يَدُ الله في ذَاكَ الأَدِيمِ المَمَزَّقِ
فَمَنْ يَسْعَ أَو يَرْكَبْ جَناحَيْ نَعامَةٍ ... لِيُدْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالأَمْسِ يُسْبَقِ
قَضَيْتَ أُموراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا ... بَوائِقَ في أَكْمَامِهَا لم تُفَتَّقِ

وذلك يوم الثلاثاء ٢٦ ذي القعدة سنة ١١٢٨ ، فقال رضي الله عنه : « **ما مرادنا إلا نعلمك الإستحضار عند المذاكرة ، وأما إنك تجيبها في الكتاب فذاك سهل وكلٌّ يعرفه** » ، فقال عبدالرحمن بن أحمد عيديد ، وكان حاضراً هذا الكلام : « ما أحسن فلاناً - يعني له فهم وعلم - ولو كان حاضراً لَعَرَفَها » ، فقال سيدنا حينئذ لما سمع كلامه قال : « **ما عليك ، لكن من ربَّيناه يفوق غيره ، إلا أنه لا يظهر أثره مع من ربّاه ، كالسراج في النهار ، لأنَّا نربِّيه تربية لا يَعْلَم بها ، وإن كانوا أحسن منه بديهة، فهو أحسن منهم بذلك ، وإن كانوا خيراً منه في الكلام ، فهو خير منهم بالأوراد، والكلام فيه إظهار للنفس ، ثم إن التعلم ممكن ، ولكن إنما العلم بالعمل، فإذا علمتَ شيئاً فاجْهَد نفسك في العمل به، لِتَعْرِف النفس أن العلم بلا عمل لا ينفع، وإن ذلك هو المقصود منه . انظر إلى ابن علوان كيف لما اجتهد في تعلم الأدب حتى أحكمه ليكون في منزلة أبيه عند السلطان ، وما نفعه إلا لمَّا حَصَلَتْ له من الله العناية، رجع إلى العمل بِعِلْمِهِ فانتفع به** » ، فقال عبدالرحمن المذكور - وهو ابن بنت أخيه - وكان كثير التعجرف والمزح : « نعم ، هذا مليح إذا حصل بالغَرْف من غير كدٍّ » ، فقال سيدنا نفع الله به : « **نعم ، ولكن أصلِحْ وعاءك** - أي ماعونك- **من أسفله وغطّه من فوق ، لئلا يسقط ما فيه أو يتطيَّر ، فَيَسْلَم لك ما فيه ويحتفظ ، حتى إن احتجْتَ إليه نفعك ، وإلا بقي لك كالخزانة** » ، ثم قام إلى الصلاة وهذه عادته في صلاة الفجر والظهر والعصر ، إذا نزل من الغيلة - أي الغرفة - جلس في الضيقة ينتظر اجتماع الجماعة واستعدادهم للصلاة فيؤذنونه في الفجر فقط ، فيخرج ويصلي بهم .

وهذا الكلام وأمثاله مما يختص بالخطاب بيني وبينه خصوصاً مكتوب عندي في أوراق ، لا أُظهِرها ولا أوقف عليها أحداً ، ومرادي حفظ ذلك ، كما كتب السيد أحمد كلمة سيدنا التي أسرَّها لباجبير في شأن بلوغه مقام القطبية ، وأسرَّها باجبير للسيد أحمد فكتبها لِحِفْظِها ، فوقفتُ عليها في خطِّه ، وأوقَفْتُهُ عليها فأقرَّها - أعني السيد أحمد - وإنما كتبت هذا الكلام المختص بيني وبينه هنا ، وفي أماكن بعده تبين للواقف عليها ، لِيَعْلَمَ الواقِف عليه أن تربيته خاصة به ، لا أحد غيره يربي كتربيته حيث قال : « **من ربَّيناه يفوق غيره ..** » إلى آخر ما قال .

وذكروا أن سيدنا عمر بعد ما أُنشِدَت فيه الأبيات ، فحين ما وصل إلى المدينة ضربه الفلج ، فتبيَّن

أن ذلك من نَوْح الجن عليه ، كما سمع كثير من نَوْحهم على النبي ﷺ وعلى أمه .

وسألني سيدي أيضاً في المدرس ، عشية السبت ٢٧ شعبان سنة ١١٢٨ : « **هل تحفظ أبيات ثلاثة ذَكَرَها الشرجي في طبقات الخوَاص في ترجمة شيخه ؟** » ، فلم أحفظها ، ثم الْتَفَتَ إلى الجماعة الحاضرين فقال : « **هل يحفظها منكم أحد ؟** » ، فلم يكن أحد منهم يحفظها ، فقال رضي الله عنه : « **احفظوا وَعُوا، وإلا فما ينفع رفع كتاب وحط كتاب وتسويد الأوراق ، فترى الأوراق ملآنة سواداً كثيراً ، وقد جاء في الخبر أنهم** - أي الصحابة - **كانوا يتعلمون القرآن على أربع آيات يُلَقَّنها الرجل ، ولا يُلَقَّن غيرها حتى يتقنها حفظاً وعلماً وعملاً** » ، والأبيات ذَكَرها في الطبقات آخر ترجمة شيخه أبي بكر بن محمد العسلقي، من عسلق قبيلة من عامر بن عدنان ، قال : « وكانت أيامه كلها خضرة ، وأوقاته كلها نضرة، فالله المستعان ، كما قال أبوتمام:

كَانَتْ لَنَا أَعْوَامُ وَصلٍ بِالحِمَى ... فَكَأَنَّهَـا مِـنْ طِيْبِهَـا أَيَّـامُ
ثُـمَّ اعْقَبَـتْ أَيَّـامُ صَـدٍّ بَعْدَهَـا ... فَكَأَنَّهَـا مِـنْ طُولِهـا أَعْـوَامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُونَ وَأَهْـ ... ـلُها فَكَأَنَّهَـا وَكَأَنَّهُـمْ أَحْـلَامُ

قال : كانت وفاة الفقيه شرف الدين رحمه الله في ٨٤٠ ، وذلك مدة عمره ، فإن مولده سنة ٨٠١ ودفنَّاه مع أبيه بوصية منه ، وقبرهما بمقبرة باب سهام من مدينة زبيد من الغرب » ، انتهى .

وسيأتي عند ذِكْرِ وفاته أن هاتَيْن القصَّتَيْن اللَّتَيْن سأل فيهما عن الأبيات ، من إشاراته لمماته كما دَلَّنا على وفاة سيدنا عمر ووفاة شيخه المذكور ، وبيَّن ذلك المعنى ما رأينا من التوحش وسوء الحال بعده ، وتذكرنا ما كنا فيه من طيب الحال والأنس في حياته ، ثم انقضاء الوقتَيْن وما فيهما من اختلاف الحالين.

وما أشرت إليه آنفاً من كتابتي للكتاب الذي كتبته بلا إذن ، وذلك أني رأيت كتاباً يسمى : « عمدة الأحكام » ، مبوَّباً على أبواب الفقه ، وهو أحاديث مما اتفق عليها الشيخان فقط ، وما فيه شيء غير ما اتفقا عليه ، فأعجبني فكتبته ولم استأذنه في كتابته ، معتقداً أنه يفرح بذلك . وبعدما فرغت من كتابته أخبرته بذلك ، فقال: « **من مُصَنِّفه ؟** » ، فدهشت ولم أستحضر اسم المصنف ، فقال : « **هاته ، واقرأ منه شيئاً** » ، فقرأت وقال : « **كيف تكتبه بلا إذن ، ولم تشاور في كتابته ؟** » ، فقلت : اعتقدتُ أنكم تفرحون بنَقْلِهِ ، حيث كان خاصًا بما اتفق عليه البخاري ومسلم . فلامني كثيراً وخاصمني من أجل ذلك ، فقمتُ من عنده وخاطري مشغول جدًا ، ومع ذلك حصل تثبيت ، وإلا لكان الإشتغال أكثر من هذا .

ثم بعد ساعة طلبني إلى عنده في الغيلة - وهي الغرفة - فقال لي : « **مرادنا أنك لا تفعل شيئاً حتى تشاورنا فيه ، وهذا من حسن الأدب ، ونحن يلزمنا لك التعليم . وش لو أعطاك أحد كتاباً فيه ذمنا أو ذم السادة آل باعلوي ولم تعرف أنت ذلك ؟ أو كان جامعه مبتدعاً وأدرج فيه أحاديث باطلة ؟** - أي موضوعة - **أو كان ذلك في عقيدة ، ودسَّ فيها شيئاً من عقائد المبتدعة ؟ فالْزَم الأدب بارك الله فيك، وأحسن للإنسان أن يلزم الأدب . فلو وقع مع ناس آخرين قالوا : قد كان هذا عند من ؟ ومن هو الذي كان في تربيته ؟ وقد كان بعض جماعة** - أو قال : **تلامذة** - **الإمام مالك ، أخذ عنده مدة نحو عشرين سنة ، قال : جعلت منها سبعة عشر سنة في الأدب ، وثلاث سنين في العلم ، فياليتني جعلتها كلها في الأدب . والشُّور فيه بركة ، فكيف لو طالعتَ شيئاً من كتب ابن عربي ، فرأيت فيه ما لا ينبغي، فانطوى عليه باطنك ، وكتاب واحد من كتب الإحياء يكفي من جميع الكتب ، والعلم المطلوب منه العمل وإلا فما تنفع لفلفة الكتب ، فكم ناس جمعوا كتباً ولفلفوها فما نفعهم ذلك** » ، وتكلم بكلام كثير غير هذا .

ثم أمر ابنه السيد علوي بإبراز كتابٍ ليقرأه عليه بعد عصر يوم الجمعة ، كما هي العادة في ذلك الوقت ، بعدما فرغ الكتاب الذي كان يقرأ فيه ، فنبش الكتب ، فاتفق أن وقع على هذا الكتاب المذكور، فابتدأ فيه يقرأ ، فلما قرأ عليه منه ، وذلك عشية الجمعة ٢٤ عاشور سنة ١١٣١ ، فأعجبه جدًّا، وسأله عن اسمه فأخبره به ، فاستحسنه جداً وقال : « **سنحصِّله إن شاء الله** » - أي سنكتبه - فلما رأيت منه ذلك ، قلت له : هذا هو الكتاب الذي حصَّلته ولمتوني عليه ، قال: « **لا ، هذا كتاب مليح** »، ولكن قد يجري الله على لسانه التأديب في بعض الأوقات لبعض الناس .

وقد سمعته مرة يلوم رجلاً من السادة على بعض الأشياء ، ويعتب عليه كثيراً ثم اعتذر منه وقال له: « **لا تغضب ، فإنما هذا تأديب قد أجراه الله على لساننا لك** » ، انتهى ما أردتُ نقله من تلك الأوراق.

وتلميذ الإمام مالك الذي أشار إليه هو يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، وهو مقدَّم أصحابه عنده، وروايته الموطأ عنه هي أرجح الروايات للموطأ عنه عند العلماء من المالكية وغيرهم - وقد أمرني سيدي بقراءته عليه وقت درس العصر ، فقرأته عليه كله في ذلك الوقت ، وكان لسيدنا فيه عقيدة عظيمة ، فكان إذا مرض أحد من أهل بيته يضع كتاب الموطأ عند رأسه - وكان الإمام مالك يوماً جالساً في مجلسه مع جملة أصحابه ، فدخل المدينة فيل أُتي به من بعض الجهات ، فانزعج جميع أهل مجلس الإمام مالك لينظروا عجيب خِلقة الفيل ، ولم يخرج يحيى بن يحيى، فقال له الإمام مالك : « لِمَ لَمْ تخرج مع أصحابك لتنظر إلى الفيل ؟ » ، فقال : « إنما أتيت لأنظر إلى وجهك ، لا إلى الفيل » . انتهى .

وسمعت سيدنا غير مرة يقول : « **طريقتنا طريقة الإمامة ، وهي طريقة مُظْلِمة**»، فسألته عن معنى

كونها مُظْلِمة ، *فقال* : « **المراد الطريق الخاصة ، ومعناه أن يقتدي بمن تأهَّل فيها ، ويمتثل له ولا يدبِّر معه فيها بعقله ، فإن العقل لا مجال له فيها ، وَيُسَلِّم له في كل ما أمَرَه به أو نهاه عنه ، وإن كان يرى أن ذلك خطأ ، وأن الصواب عنده ما هو فيه** » ،

ثم ذَكَرَ قصة الشيخ قطب الدين الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء ، وتركت ذِكْرها لكونها عويصة على عقول العقلاء ، خوفاً من الإنكار على الأولياء ، فإنهم في الزمن الصالح ما احتملوا كلمة الحلاج ، حتى أفتى بقَتْلِهِ الفريقان ، الخواص منهم والعامة - أعني أهل الشريعة وأهل الطريقة وأهل الحقيقة - ومنهم الجنيد فقيل له: « كيف أفتيتَ بِقَتْلِهِ ، وأنت تعرف معناه ؟ » ، فقال : « إنه فتح في الشريعة رَوزَنَة لا يسدّها إلا رأسه » ، وقال الشيخ عبدالقادر : « لو أدركته لنصرته » ، وتقدمت رؤيا الشيخ أبي الحسن الشاذلي : أن جميع الأنبياء والمرسلين جاؤوا إلى النبي ﷺ يشفعون له عنده ، فَقَبِلَ شفاعتهم وعفا عنه . وفي قصة الشيخ الحنفي المشار إليها ما هو أفظع من كلمة الحلاج .

ثم مثَّل لذلك المعنى من كون العقول لا تهتدي إليه لِيُفْهَم ، *فقال* : « **فلو كان في المسجد مثلاً في قراءة قرآن أو في أمر ديني ، وهذا عنده نور وصواب ، فقال له الشيخ : قم اجلس في السوق ، أو افعل أمر كذا وكذا من أمور الدنيا . وهذا عنده ظلمة وخطأ ، ولكنه ما عَلِمَ مقصود الشيخ بذلك ، فربما أنه رأى فيه كبراً ، أو كان جلوسه هناك لرياء ، وأراد أن يكسره منه ، فإذا كان في السوق أو في أمر دنيوي وقلبه متعلِّق بالمسجد ، أو بأمر ديني خير من عكس ذلك . وقد كان جماعة من الأكابر يعملون في السوق كالسري والجنيد وغيرهما ، وله فيهم أسوة ، فإذا امتثل له كذلك أوصَلَه من الظلمة إلى النور . وأما في الأحكام الظاهرة فكل الناس يعملون عليها ، ونورها فيها ، وقد سبق إلى ذلك النبي ﷺ وقبله في ذلك جميع الأنبياء ، وإنما الكلام في الخاصة** » هـ .

أقول : يعني سيدنا أن السالكين معه على مثل هذا السبيل ، لا يهتدون إلى الصواب ، وإنَّ زَعْمهم الصواب لا يصح ، وإنه غير موافق للمقصود ، وإنهم إن استصوبوا أمراً فربما أنه غير صواب وأنه معلول ، فلو كان موافقاً للمقصود سالماً من العِلل ما نهاه عن جلوس في المسجد في عبادة وأمَرَهُ بجلوس في السوق واشتغال بأمر دنيوي . ثم بَيَّن ذلك بالمثال المذكور لِيُفْهَم ، وهو قوله : « **فلو كان في المسجد .. إلخ** »، فقلت له : فعسى الخواطر المخالفة لا تضر في ذلك . أعني إذا كان في المسجد وفي عبادة ، فنهاه عنه وأمَرَهُ بجلوس في السوق والإشتغال بأمر دنيوي ، فربما يتحرك خاطره بإساءة ظن في الشيخ ، أو إنكار عليه ونحو ذلك، *فقال* : « **لا ، الخواطر الغير الإختيارية لا تضر ، فقد حَصَلَ مثل ذلك لسيدنا عمر يوم الحديبية ، وإنما على الإنسان ما فيه إختياره ، وما وراءه فأمره إلى الله ، ما عليه في ذلك شيء** » ، ومرة قال ما معناه : « **إن الذي نعتقده ، أن هذه الوساوس والخواطر ليس بكلام له ، إنما**

هي كلام الشيطان » .

قلت : فالإختيارية أيضاً ، أعني ما له فيه اختيار وقدرة ، من فِعْل الأوامر واجتناب النواهي ، لا يمكن الإنسان أن يأتي بها كلها ، لأن نفسه تقطعه عنها ، *فقال* : « **تسير معها – أي النفس – كما تسير مع المرأة ، فيقدِّرها امرأة ، ويداريها مرة ويخالفها أخرى ، فمرة طاعة ومرة معصية ، ومرة بغضب ومرة برضا ، وعلى هذا ، ولكنك خذ ضابطاً وهو أن تنظر في أعضائك كلها ، وأفعالك وحركاتك ، فإن كان أكثرها خيراً فأبشر ، فإن العبرة بالأكثر** » ، انتهى ما تكلم به وقاله في هذا المجلس المبارك ، وهو مجلسه في الضيقة خارجاً لصلاة الظهر يوم الأربعاء ٢٠ من ربيع الثاني سنة ١١٢٧ .

قال رضي الله عنه : « **هذا الزمان ، هو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، والأمور فيه ، فعلى الإنسان فيه بخاصة نفسه ، يمنعها من كِبْرٍ وحسدٍ وغِلٍّ وحِقْدٍ ولا عليه في ذلك من غيره** » هـ .

أقول : كان السلف الصالح قد نهوا أن يحتجَّ الإنسان لنفسه بهذه الآية ، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنه شرط فيها أنه : ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، ومن جملة الإهتداء: الأمر والنهي ، فمن تركهما فليس بمهتد ، وهذا كان في الزمن الصالح الذي كانت فيه أمور الدين قائمة متبعة . وأما إذا فسد الزمان وتعطلت فيه أمور الدين كحالته اليوم ، فلا يتبع فيه أَمْر من أَمَر ، ولا نَهْي من نَهَى فلا فائدة في شغل وتضييع وقت ، وعناء بلا فائدة .

وهكذا هو هذا الزمن الحاضر عند قوله هذا الكلام ، فعلى الإنسان حينئذ أن يتجرَّد فيه لأمر نَفْسِهِ ونَهْيِها فإنه والٍ عليها ، فيجاهدها كما أمر بقوله : « **يمنعها من كبر .. إلخ** » ، ويقوم عليها في نهيها أولاً ، وأشده هذه المذكورات في قوله ، ثم في باقي المنهيَّات الباطنة ثم الظاهرة ، ثم يأمرها بفعل الخير والعمل الصالح ، ظاهراً جسمانيًّا ، وباطناً قلبيًّا بعد النهي . لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولا بُدَّ مِن الأمرَيْن معاً ، لكن التنظيف عن القَذِرات يُقدَّم على وضع الطيِّبات ، كما ورد : لا يدخل عبدٌ الجنة بقدر معاصيه ، حتى ينظف وتزال القَذِرات ، إما في الدنيا بالتوبة الصادقة النصوح أو في الآخرة ، إما بعفو من الله تعالى أو عقوبة بقدرها ، حتى تزول .

وعلامة المؤمن الكامل أن يهمه هذا الأمر جداً ، ويجتهد في طلب ما يؤهِّله لدخول الجنة، من تنظيفه عن قَذَر الذنوب ، ويجمِّله بالطاعات وهذا يميِّزه عن غيره ، كما قال الله تعالى : ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، ثم قال : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، أي فتعلموا السعيد الذي يستحق دخول الجنة من غيره ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي بسبب

رُسُله إذا بلَّغوا إلى عباد الله رسالته ، فيجتبي إليه ويهدي من يشاء ، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ ، فلا يعلم من يستحق دخول الجنة إلا بهذه العلامة التي ذكر من الإيمان والتقوى ، وهي الفارقة بين الطيِّب العامل على ذلك وبين الخبيث الذي لا يعمل ذلك ولا يهمه لضعف إيمانه .

وخطبة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه فيما يتعلق بالآية مع خبره الذي يرويه عن رسول الله ﷺ معلومان ، وذلك بمقتضى وقته وزمانه ، بخلاف ما يقتضيه وقت سيدنا عبدالله وزمانه . وأما وقتنا هذا وزماننا فأفظع وأبشع وهو عام ١١٦٩، ولهذا قالوا : تحدث للناس أحكام بحسب اختلاف الأوقات وما أحدثوا من البدع، حتى تجري بسبب اختلافها أحكام الشرع الخمسة ، بدليل قول النبي ﷺ : « إنكم في زمان إذا ترك أحدكم العمل بعُشْرِ ما يعلم هلك ، وسيأتي زمان من عمل فيه بِعُشْرِ ما يعلم نجا » ، فانظر هذا الفرق البعيد بين من تقدَّم في الزمان ، وبين من تأخَّر فيه ، وكيف اختلف الحكم في الوقتين بين النجاة والهلاك في العمل بكل ما يعلم والعمل بعُشْرِه ، وهذا مَثَلُ من كان له درجة عالية ومن هو دونه في الدرجة ، فالأعلى درجة لا يقنع منه بالقليل من العمل ، ويُلام على أقل قليل من سوء الأدب ولا يسامح في التقصير .

والأدنى درجة النازل المنزلة يقنع منه ويرضى بأقل شيء من الأمرين ، ولا شك أن الصحابة المخاطَبين من رسول الله ﷺ بهذا الخطاب الموقوف نجاتهم على العمل بكل العلم أفضل ممن بعدهم ، ممن وَقَفَت نجاتُهُ على العمل بعُشْر العلم ، وكل ما قَرُبَ من زمن الصحابة على ترتيب القرون الثلاثة وما بعدها ، كان مخاطَباً بالأكثر ممن بعدهم في العمل والأدب ، ولعل ذلك بسبب زيادة رغبة الناس في الدنيا ، فإنها تزيد كلما تأخَّر الزمان ، وكلما اشتدَّت الرغبة فيها كان العمل أبلغ ، ويدل على ذلك قول عبدالله بن عمر حيث قال : « لخير أعمله اليوم أحب إليَّ من مثلَيه مع رسول الله ﷺ ، لأنَّا كُنَّا مع رسول الله تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وإن اليوم مالت بنا الدنيا » ، وربما أنه يرى نفسه كذلك في وقته الذي قال هذا الكلام فيه ، وإنه حينئذ أزهد في الدنيا مما كان قبله .

ولما خَرَجَ لصلاة الظهر يوم الأربعاء ١٨ ربيع الثاني سنة ١١٢٩ ، وجلس في الضيقة على عادته إذا خرج لصلاة الظهر والعصر ، بعدما يصلي السنة القبلية في الغيلة ، يجلس ينتظر تكامل الجماعة ، والسنة البعدية في الظهر يصلِّيها في الضيقة إذا دَخَلَ من المسجد ، فلما جلس مجلسه ذلك ، صافحه حينئذ بعض الفقراء ، عليل الرِّجل بقرحة شديدة ، وشكى إليه وجع رِجْلِهِ ، *فقال سيدنا* : **« الإنسان ضعيف ، ما يريد بطبعه إلا العطاء دون المنع ، والعافية دون البلاء ، وهذا لا يكون ، ولكن عطاء ومنع ، وعافية وبلاء ، وكذلك في كل شيء . ولكن إذا نزل بك شيء من ألمٍ تريد دَفْعه ، أو نَفْعٍ تريد حصوله، فاسْعَ**

فيه بما له من الأسباب ، كتداوي المرض - يعني وسعيٍ في معاش ، ونحوه مما تريد حصوله - حتى يجيك ما يغلبك ، حتى لا يبقى لك قدرة على شيء ، فحينئذ تنح عن طريق القضاء والقدر . ولو كان للإنسان عبد ما يريد منه إلا العطاء الدائم وكل ما يحب ، ولا يحتمل من سيِّده ما يكره ، ضاق منه سيِّده وباعه في الحال . وهذا سر الرياضة والإنقياد ، كالزئبق لو قُتِلَ حصل بِقَتْلِهِ قَلْبُ الأعيان ذهباً وفضة ، ونحن وإياكم على حدٍّ ما قال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ » هـ .

أقول : يعني فكما أن عمدة أهل علم الكيمياء في تحصيل الإكسير الذي تنقلب به الأعيان ذهباً وفضة هو الزئبق إذا قُتِل ، ولكن قَتْلَهُ صعبٌ شديد ، وقليلٌ من الحكماء وأهل ذلك العلم من يُحسِن قَتْلَه ، فإذا قُتِلَ كان هو الإكسير النفيس لِقَلْبِ الأعيان ، فكذلك النفس إذا عولجت بالرياضة ، حتى انكسرت عن شِرَتِهَا ، وماتت طباعها المائلة إلى محبة الدنيا وأسبابها ، وتبدَّلت بأضدادها التي هي طبع الروح ، فصارت هي النفس المطمئنة في مراضي الله ، صارت هي الإكسير الأعظم في نَيْل مقامات الصالحين وعلو المنزلة عند الله ، فَعَزَفَت عن الدنيا وتنزَّهت عن تناول شهواتها ، علماً منها أن من نال حظًّا من الدنيا نقص بقدره من حظه عند الله ، ولو كان له منزلة عالية عند الله ، كما ورد ذلك عن رسول الله ﷺ ، فافهم ذلك ونزِّه نفسك .

وقوله : « **نحن وإياكم .. إلخ** » ، يعني نذكِّركم ونعلِّمكم أنه لا ينال محبة الله ونَيْل المنزلة عند الله إلا بكمال العبودية ، التي من شَرْطِها الإنطراح الكلي تحت أمر الله ، والرضا الكامل في كل ما حَكَمَ الله، وإسقاط التدبير والإختيار مع الله ، ولا يتمنى على الله ، ويشكر الله على ما أولاه ، ولا يطلب شيئاً سواه ، فإذا كان هذا خطاب لسيدنا موسى ، وهو من أكابر أولي العزم ، الذين هم أفضل المرسلين ، على ما أنعم الله عليه من هذه المنزلة التي هي أعلى المنازل ، ثم طلب الرؤية التي هي مخصوصة بغيره ، فذكَّره الله ما أنعم به عليه ، وأمره أن يشكره عليه ، ولا يتعدى بالطلب إلى غيره .

فيريد سيدنا أن لا تطلبوا مِنَّا أنتم أيضاً أن نعديكم إلى فوق ما كتب الله لكم ، فهذا لا يكون ، فمحال أن يتعدى مخصوص إلى أخص منه ، ولا نازل إلى أعلى منه .

ولما خرج لصلاة العصر هذا اليوم ، وجلس مجلسه المذكور ، *قال* : « **الحسد يدخل - أو قال : يظهر - على الإنسان في كلامه وأحواله من غير شعورٍ منه ، وهو لا يظن ذلك من نفسه ، بل يرى أنه بريءٌ منه ، وهو من أكبر الذنوب ، وبه هلك إبليس وقابيل . ولو كان فيكم أهليَّة لقرأنا عليكم مقاطع القرآن ، فاقرأوا : ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ ، فماذا تقول لو جاء أحدٌ من الحَسَاء فطلَّعناهم وخليناك ؟ فماذا ترى يقع عندك ؟** » .

قلت : إني أَوَدُّ لو جاءوا كلهم يلتمسون منكم وينظرون إليكم ، قَالَ : « **لا ، وهذا هو معنى قولنا لكم : إن طريقة الإمامة مُظلمة لا يُهتدى فيها** » .

فقلت له : فالحاصل أن كل مجلس يفوتني من مجالسكم ، ولا يحصل لي فيه الحضور ، يحصل لي من فواته تعب كثير ، قَالَ : « **قد علمنا ذلك ، وما خاطبناك بهذا إلا لِعِلْمِنَا بذلك منك ، أرأيت لو كان مجلس يضرك في دينك ، أتحب أن تحضره ؟** » .

قلت : أنتم أعرف ، قَالَ : « **ومجالسة الأكابر كثيراً منهي عنها ، ولذلك أكثر ما يُحرَمهم أهلهم ومخالطوهم ، وذلك لو كنت تدير القهوة والأخدام جالسين** » .

قلت : وما في ذلك كبير أمر ، قَالَ : « **كيف ، والعيال ما داموا عليه ، فابقوا على الإمتثال بارك الله فيكم** » هـ .

أَقُولُ : قوله : « **ما داموا عليه** » ، يعني على مواظبة مجالسه .

وسبب قوله هذا : أنه في بعض الليالي فَعَلَ سماعاً وما حضر عنده غير العيال والمسمِّع ، ولا يمكِّن أحداً أن يحضره إلا بأمرٍ منه ، فما حضرته ولا أمَرَني بالحضور، فوقع في خاطري شيء من الأسف لعدم حضوري ، فكُشِف له عن ما وقع في خاطري ، فتكلم بهذا مكاشفة . وكل كلامه هذا في مجلسه هذا يشير إلى ذلك ، وما ترك أن يأمرني بالحضور إلا خوف أن أسمع من السماع شيئاً أستشكله ويقع في خاطري منه شيء ، وهو قوله : « **أرأيتَ لو كان مجلس يضركم** » .

وَذِكْرُ الحسد بتسمية الغبطة بإسمه ، وما غبطتُ أحداً أجنبيًّا عنده إلا المسمِّع ، وأما العيال فلا أستنكر حضورهم ، وإنما استنكرت حضور الرجل إستنكاراً يشبه الحسد ، وهو أني كرهته لذلك ، لكن لحاجة التسميع أحضره .

ثم امتدَّ به الكلام إلى وصْفِ حقيقة الحسد وما يؤول إليه من الضرر والمعصية، فقال : « **وهو من أكبر الذنوب ، وبه هلك إبليس وقابيل** » .

ثم فَعَلَ بعد ذلك سماعاً آخر فدعاني للحضور ، وذلك ليلة الخميس ١٩ ربيع الثاني من سنة ١١٢٩ ، طلب ذلك المسمِّع الأول ، وفعل سماعاً ، وذلك في أيام متراخية ، ربما كان في السنة نحو مرة أو مرتين ، فلما اطمأنَّ به المجلس ، قال : « **ومن عادتنا أن لا نُحضِر أحداً ، ولا نتركه يحضر** » ، فطلبني للحضور هذه الليلة، ولم يطلبني لذلك قبلها قط .

فلما صافحته وجلست ، كان فيما تكلم به حينئذ أن قال : « **ليس من عادتنا أن نطلب أحداً للسماع،**

وذلك من عهد قديم ، ولا يحضرنا أحد إلا إن كان من العيال أو خادم واحد يُحتاج إليه ، ولكن من استمع من بعيد كما من تحت الباب أو حيث يسمع ، لا نعنِّف عليه ولا نلومه ولا حرج عليه . ومثل ذلك في كل أمر نفعله ، فهذا حالنا إذا كنا في البيت ، وأما لو كنا في خلاء في السبير أو غيره ، فنُحضِر جماعة مخصوصين مقتربين ، الذين يحصل بهم الأنس بإجتماعهم . وهنا في البلاد عندنا عادة: أن الإنسان إذا كان في داره ، فَقَلَدَ على نفسه ؛ ما أحد يجيه ، وإذا فتح الباب ؛ ضاق بالناس المكان ، حتى لا يسع أحداً ، كما ترون في عواد وغيره ، ودخل فيهم الشريف والوضيع من رعاع وغيرهم ممن لا يعرف الأدب ، ولكن الرعاع من عادتهم إذا حضروا مجالس الأشراف ، فإن رأوهم متأدبين تأدبوا، وإن رأوهم على خلاف ذلك زادوا عليهم في إساءة الأدب . فاحفظوا هذا لا تنسوه » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا بهذا الدعاء : « اللهم احفظنا في ديننا وقلوبنا ، وأرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » ، ثم أمر المسمع أن يشل ، فشل . وهو أول ماخذ ، فلما تَمَّ منه وسكت ، قرأ سيدنا هذه الآية : « ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٍ ﴾»، وخلاه يسكت ساعة ، وهو يتكلم بما يناسب الحال والمجلس ، وما كان حاضراً غيره والعيال ، حسين وعلوي وحسن والفقير والمسمِّع ، وهو بازاهر من أهل حَلَبون من دوعن .

ثم أمره يشل ، فلما فرغ أمر بإحضار القهوة فَحَضَرَت ، فجعلتُ أديرها حتى فَرَغت ، ثم أمره يشل ، فلما فرغ قال لي : « هل ظهر لك من هذا شيء لم يكن لك على بال ؟ » ، قلت : الله أعلم ، قال : « هل سمعتَ ما لم تكن تسمع ؟ » ، قلت : نعم .

ثم التفتَ إلى ابنه السيد حسن وقال : « إنه ما يريد إلا مثل كرامات الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع الله به ، تكون منه الكرامات الظاهرة الباهرة على التواتر ، وهذه أشياء لا يجوز إظهارها ، فلا هي نبوة حتى يجب إظهارها ، وإنما هي بحسب الحاجة والضرورة الداعية إليها ، كما في قصة الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء . وقد كان من كرامات بعض من شهد للشيخ عبدالقادر : أنه عرض عليه طبيب مُقعَداً وصحيحاً في صندوقين ليختبره ، هل يعلم أيهما المُقعَد والصحيح . فقال : تريد إختباري بذلك؟ هذا هو المُقعَد، وهذا هو الصحيح » .

ثم قال : « وأنت لو كنتَ في بلادك لَبَرْهَنت ، ولكن الضوء - أي النور - لا يظهر مع الشمس ، وذلك بالنبي ﷺ لا بنا ، لأنه عليه الصلاة والسلام هو الشمس ونحن الظلال ، وقد أمر هو بالتمسك بأهل البيت النبوي وبكتاب الله ، وقال : لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض . وقد كان رجل من المتعلِّقين بنا انقطع عنا ، فقلنا له : وانقطاعك ماذا يحصل لك ؟ أتندفع به عنك حُجَّة ؟ أو تثبت لك به الحجَّة ؟ فبقي يتردد كما يتردد هؤلاء الذين يترددون ، وخليناهم على ترددهم ، لأنهم كانت لهم حبال ، والحبال

إذا ثبتت لا يجوز قطعها » .

ثم أمره أن يشل ، فقال له : « **شل واختم** » ، فشل . فلما ختم قرأ الفاتحة ودعا، ومن جملة دعائه أن قال : « **بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم** » ، وهكذا ابتداؤه في كل ما أراد أن يدعو وبعد الصلوات وغيرها ، كدعائه بعد قراءة الفاتحة بختم مجالسه وغير ذلك .

ثم قال : « **اللهم يسِّر أمورنا وأمور المسلمين ، وأنزل أمطارهم وأرخص أسعارهم ، اللهم الطف بنا في قضائك وعافنا من بلائك وأوزعنا شكر نعمائك ، وَهَبْ لنا ما وَهَبْتَهُ لأوليائك وأهل طاعتك ، اللهم جَمِّل أحوالنا وأصلح أعمالنا ، وطَهِّر وحَسِّن أخلاقنا ، وطَيِّب ووَسِّع أرزاقنا ، واقْضِ بفضلك ديوننا ، وأصلح بكرمك شؤوننا ، واجعل إلى رحمتك ورضاك ومجاورتك في دار كرامتك منقلبنا ورجوعنا ومصيرنا** » ، ثم ختم الدعاء وانقضى هذا المجلس المبارك الميمون نفعنا الله به ، أو كما وقع والله أعلم .

فلما قام الحاضرون ، قمتُ ودخلت الخلوة التي أنا فيها ، وأخذت القرعة ، فَقَدَحْتُ وأعلَقْتُ السراج ، وكتبت هذا الذي حفظت مما وقع وما تكلم به ، وقد نسيت منه شيئاً كثيراً ، ولو تركت كتابته إلى الصبح لنسيت أيضاً ما كتبت . وكان هذا آخر مجالس سماعه ، وما فعل سماعاً بعده حتى توفي إلى رحمة الله .

وقوله : « **ما يريد إلا مثل كرامات الشيخ عبدالقادر** » ، يعني لا يعد كرامة إلا ما كان من الكرامات الباهرة ، مثل كرامات الشيخ عبدالقادر . ووالله لقد رأيت من كراماته الباهرة ما هو مثلها نفعنا الله ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة .

قوله : « **هل سمعتَ ما لم تسمع ؟** » ، أي هل حصل لك ذوق لم تكن قد ذُقْته ، و « **مقاطع القرآن** »: دلائله القاطعة ، وقوله : « **فاقرأوا** : ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ » ، يعني في هذا دليل قاطع في هذا المعنى، و« **الرعاع** » : أسافل الناس .

وفهمتُ من ذِكْر قصة الذي قال : « **متعلِّقاً بنا** » ، أنه ما خلى أن يحضرني في مجالس سماعه قبل هذا إلا أنه خاف عليَّ من تغيُّر الخاطر بشيء أسمعه ولا أفهم معناه ، فيتعب خاطري منه .

وقد رأيت مرة في مجلس بعض السادة كتاباً كبير الحجم ، فسألته : ما هذا الكتاب ؟ قال : « **فتوحات ابن عربي** » ، - وكنت سمعت سيدي ينهى عن مطالعته ، وكذلك السادة من قديم ، حتى قال الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس : « **ما ضَرَبَني أبي قط ، إلا يوماً رأى في يدي جزءاً من فتوحات**

ابن عربي ، فأخذه من يدي وضربني به على صدري ، وقال: لا قط تطالع فيه ، وطالع في الإحياء » ، قال : « فجعلت على نفسي أن أطالع كل يوم في الإحياء ولو ورقة أو صافحة » ، هكذا قال، وجعل على نفسه بصيغة النذر ، أن يطالع كل يوم في الإحياء قلَّ أو كثر - فلما رأيت نسخة الفتوحات ، أردت فتحه فتوقَّفتُ أولاً لما عرفت من نهي سيدنا وغيره من السادة ، ثم غَلَبَتْنِي نفسي ففتحته ، فقابلني في خطبته قوله : « الحمد لله الذي خلق الإنسان من عدم وعدمه » ، أي عدم العدم وهو الوجود .

فاشتبكت في خاطري ، وأَلْقَيتُ الكتاب ، وبقيت أياماً أفكر ، واستَعَنْتُ برجلٍ فقيهٍ حاذق من السادة فما ظهر له معناها ، وعزمت أن لا أعود أنظر فيه ، وهذا ما خاف عليَّ سيدي حيث علم بحالي، أن لا يأمرني بحضور مجالس سماعه ، ثم ظهر لي من الكلمة أن معناها : خلق الإنسان من عدم : وهو وجوده في الدنيا ، ومن عدم العدم ، وهو وجوده في علم الله . فأخبرت ذلك السيد بذلك ، فقال : « ما أرى له معنى غير هذا » ، والحمد لله ، فرضي الله عن سيدي عبدالله ، فما كان أشفقه علينا .

ومن سِرِّ شفقته واعتنائه لم يعترض لي قط تغير الخاطر بشيء ، حتى إني مرة قلت له : كثيراً ما توسوس للإنسان نفسه بأن في خاطركم عليه شيء ، وقد سمعتكم تقولون : « **قد نجد في نفوسنا على أحد من الناس** » ، فقال رضي الله عنه: « **لا ، ما يقع في الخاطر عليك شيء ، لأنك أنت والعيال ما نحاذركم ، وإنما نراعي أناساً يجون وهم كذا للإبقاء عليهم ، فإذا جزمنا على الأمر بشيء ما بالينا بهم ، ولا راعيناهم ، وترى ناساً صفتهم كذا يجون إلى عندنا ما يرجعون بلا شيء** » ، ونسيت ما وَصَفَهُم به .

وكان الفقيه عبدون بن قطنة مُرَتِّبه سيدنا في وظيفة الأذان في الحاوي ، وفي قراءة سورة يس بعد الصلوات ، وكان من عادته هو الذي يبتديء في القراءة في درس العصر قبل غيره من القُرَّاء ، فلما توفي أقامني بعده في وظيفة الأذان وقراءة يس ، وذلك من عصر يوم ٢٠ من صفر سنة ١١٢٩ ، وبقيتُ على عادته أبتديء القراءة أولاً ، وكنت أقرأ في « جامع الترمذي » بأمرِهِ لي بالقراءة فيه ، فقال لي سيدي يوماً : « **لا تَعُد تبتديء أنت كل يوم إلا مرة ومرة ، لأن هذا يحرِّك منك داعية الرياء ومن غيرك الحسد، وأنتوا ما تعرفون هذا الأمر ، ولا رضتوا نفوسكم ، ونحن أعرف به منكم** » .

أقول : لعله اطلع مني على شيء مما ذَكَر ، فتكلَّم بذلك نُصحاً منه وتعليماً .

ثم قال : « **كل كلمة تخرج من الأكابر للتلميذ فيسمعها منهم ، تكون على نفسه كالحجارة ، تزيد بها نفوسهم رياضة وخموداً ، ومن لا يكون كذلك لا تزيده إلا قوة نفس ، ولا يزداد إلا حسداً ، ويعمل بخلاف ذلك** » .

ومرة سمعني أقرأ سورة يس بعد صلاة العصر ، وكان حينئذ مشتغلاً بوِرْدِهِ ، ومرتِّباً للسورة دعاء يُقرأ بعد قراءتها ، فَسَكَتَ عن وِرْدِهِ وجعل يسمع قراءتي إلى أن فرغت ، فقال : « **هذا أنت تقرأ ، السورة أو الدعاء ؟** » ، قلت : السورة . فقال : « **ادخل إلى هنا ، واقرأ الدعاء وارفع به صوتك ليسمعه الحاضرون** » ، فدخلت ، وكنت في طرف حوش المصَلَّى عند باب الخلوة ، إلى أن قربت منه فقرأت الدعاء ، وهو والحاضرون يستمعون ، فلما فرغت من الدعاء تنفَّس الصعداء تنفس الحزين، ثم قال : « **بطنت علومنا الظاهرة ، لعدم المتلقي لها ، ما هو أنه علومنا الباطنة ظهرت** » .

ودعاني مرة إلى عنده في الغيلة بكتاب يسمى « عجائب الملكوت » ، للشيخ الإمام أبي جعفر الكسائي ، صاحب كتاب « بدو الخلق » ، فلما قعدت بين يديه *قال* : « **كم معك أشياء لا تعلمها وتطلبها** » .

وأخبرته برؤيا رجل ثقة ممن يحضر مجالسه ، قال لي : « رأيت البارحة لك رؤيا وهي أني رأيت كأن الحبيب ألبسك كسوة » ، فلما سمعها ، *قال* : « **وكم بشارات حصل لك ، وما جاء بك الله من بلادك إلى هنا إلا لشيء ، ولكن قاعدة : إن الإنسان إذا كان حاضراً مع من هو أكمل منه ، لا يظهر له شيء ، وهل تضيء مع الشمس القناديل ؟ وقد حصلت لنا من مشايخ أدركناهم إشارات وبشارات ، ما رأيناها إلا بعدهم ، وعرفناها من إشاراتهم فيما بعد ، وكانوا خاملين جداً ، حتى إن الشيخ عمر العطاس لما طَلَبنا منه الإلباس أبى أن يُلبِسنا حتى أَلْبَسناه ، وقال : أنا أريد زيارتكم ، ما هو ألا ما وقع . وأحد منهم طلبنا منه الإلباس فامتنع ، حتى إنه لبس عمامتي ولَبِستُ عمامته ، وأحد منهم ما هو ألا في الذهول مكانه مع المسمعين كالشيخ أحمد بن ناصر صاحب الشحر ، لو ظهر أحدهم اليوم لما اعْتَقَدَهُ أحد** » .

فقلت : لكن على الإنسان علامات بيِّنة يراها من نفسه تدل على النقص ، كغلبة الشهوات عليه، وعدم ذوق بالعبادة ومحبة الدنيا وغير ذلك مما لا يحصى ، *فقال* : « **انظر إلى كلام الشيخ علي** » ، وقد مرَّت له في الدرس قصيدة ، يذم فيها أحواله ويصف نفسه بالمعاصي وعدم صلاح القلب .

فقلت : لكنه من الكُمَّل ، ومن أين لغيره مثل أو شبيه ما له ، *فقال* : « **قد رؤية الإنسان نفسه بالنقص، واعتقاده ذلك في نفسه علامة الكمال واعتقاده في نفسه الكمال ورؤيته نفسه بذلك عين النقص**» .

ثم قال : « **طالع في هذا الكتاب** - يعني عجائب الملكوت المذكور - **إن أَحْسَسْتَ من نفسك الإنتفاع به ، وإن رأيته يشوش عليك فاتركه حتى يجيء صاحبه ، فاعْطِهِ كتابه ، ولكن خذ في كل ما يُشكِل عليك في حق الله تعالى ويوهمك فيه شيئاً بالتسليم واتركه على ما هو عليه مع التنزيه له سبحانه**

عن صفات الحدث ، وقد جاء في القرآن والسنة كثير مما يوهم ذلك ، ولكن للسلف فيها طريقان : التسليم والتأويل مع التنزيه . وأين صفات الرب سبحانه من صفات خَلْقه ؟ ففي وَصْفِ أحد الملائكة من الأمور ما تعجز العقول عن إدراكها ، فكيف بالباريء سبحانه » هـ .

أقول : ومن العجيب أن مشايخه المذكورين ، وغيرهم ممن لم يذكرهم ، كلهم يعتقدون مزِيَّته عليهم، ويتبرَّكون به ويلتمسون منه ، وأثنوا عليه ثناء كثيراً ، حتى قال الشيخ العطاس كما تقدم: « إن السيد عبد الله الحداد ثوبٌ طُوِيَ ، نُشِرَ لأهل هذا الزمان ، وليس هو من أهل هذا الوقت ، إنما هو من أهل القرن السابع » ، وبلغه ذلك فقال : « **لولا الأدب مع النبي ﷺ لقلت : أنا من أهل القرن الأول، لكن من أهل القرن الرابع ، فانظروا هل تروني أشبه أهل الزمان أو يشبهوني ؟** » ، وسمعته غير مرة يقول : « **لما سمع الشيخ عمر العطاس بمنظومتنا الرائية : إذا شئت أن تحيا سعيداً مدى العمر . طلب مِنَّا أن نكتبها له ، فكتبناها وأرسلناها له** » .

وقول شيخه الشيخ أحمد بن ناصر المذكور صاحب الشحر : « ما أبختكم وأسعدكم يا أهل حضرموت برؤيتكم للسيد عبدالله الحداد كل حين ، وما ساقه الله إلينا إلى الشحر إلا سعادة لنا ، لنراه فنلتمس منه » ، ونحو هذا الكلام ، وذلك لما مر الشحر مسافراً إلى الحج سنة ١٠٧٩ .

وكلٌّ منهم يرى أن السيد عبدالله الحداد شيخه ، كما ذَكَرَ عن الذي أبى أن يُلبِسه حتى أَلْبَسهُ ، فلبس كلٌّ منهما عمامة الآخر ، وترك كلٌّ منهما عمامته للآخر ، وقال الشيخ عمر العطاس لما طلب منه الإلباس ، فطلبه هو منه وقال : « أنا أردت زيارتكم والإلتماس منكم ، ولكن ما وقع لي ذلك »، وغير ذلك مما قالوا وتضرَّعوا له ، وما قالوا ذلك واعتقَدوا مَزِيَّته عليهم ومشيخته لهم ، إلا لما رأوا بالكشف والعيان ما له عند الله من الخصوصية والمنزلة ، التي خصَّه الله بها دون غيره . كما قال الشيخ عمر العطاس مشيراً إلى ذلك بالكلمات التي ذكرها من المولد من قوله : « اجتمع شمله بشملها .. » إلى آخر الكلمات ، مشيراً بها إلى تلك المزية والمنزلة التي سينالها توليه القطبية ، على ماتقدم ذِكْره ، فانقادوا للحق وسلَّموا ، وانقادوا للحق للإنصاف الذي أعطاهم الله وحقَّقهم به ، وهو يعدهم من مشايخه .

وقد كان ما يسمع بشيخ عارف أو ولي صالح ، إلا قصده يزوره ، وذَكَرَ أن مشايخه يزيدون على المئة ، وكلهم يعتقدونه ويرون مَزِيَّته عليهم ، وقد قال : « **عندنا أمانة ما يحملها إلا المهدي** » قاله مراراً، ثم قال في بعض المرات : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، فمن الذي له هذه المزية والخصوصية ؟ وغير ذلك مما لا يحصى ، وما يعلم ما له إلا من اختصَّه بذلك ، حتى خُصَّ بخصوصيات ما خُصَّ بها أحدٌ ممن تقدَّمه من أكابر السادة آل باعلوي نفع الله بهم ، حتى قال غير مرة : « **الذين انتفعوا بنا ، أكثر ممن انتفع بالمشايخ المتقدمين قبلنا** » ، وقال : « **الذين انتفعوا بنا ، أكثر من الذي انتفع بالشيخ عبدالله**

العيدروس نفع الله به » ، وقد قال الشيخ عبدالله المذكور: « أُذِن لي في تحكيم ربع أهل الدنيا » ، وقال سيدنا : « **أذن له في تحكيم ربع أهل الدنيا ، وما حكَّمهم كلهم** » ، وقال : « **إنما قال الشيخ عبدالله ذلك لأنه ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله أمهر فاطمة ربع أهل الدنيا** » ، وأردت أن أسأله عن معنى ذلك فعرفت كراهته للسؤالات .

وتقدم قول السيد الفقيه العلامة أبي الطيب المغربي قال : « حضرت مجلس بعض أكابر أولياء المغرب فاعتقدتُه جدًّا ، وخطر لي أنه القطب اليوم ، ففي الحال التفت إليَّ مكاشفاً وقال : يا ولدي، ما أنا القطب اليوم ، إنما القطب اليوم السيد عبدالله الحداد باليمن » ، فرضي الله عنهم ما أنصفهم للحق ، وكيف يعرفون الحق لمن هو له ، كما تقدَّم من قوله : « **الأكابر فيهم إنصاف تام ، ويعرف بعضهم قدر بعض** » ، وذَكَرَ قصصاً تشهد لذلك وقال : « **إنما يعرف الحق لأهل الحق أهلُ الحق ، ومن لا يعرفه لهم، فليس من أهل الحق** » ، أو كما قال .

قال : « **من تهاون بطاعة الله الظاهرة ووقع في معصيته ، لا بُدَّ له من الموت عاجلاً وآجلاً ، وأول ما يموت منه قلبه** » ، ***قال*** : « **الأوراد لا تؤثِّر إلا مع الحضور ، ولا تنفع إلا مع الدوام** » .

وسئل عن حديث : « إن لله في كل ليلة من شهر رمضان كذا كذا عتيقاً من النار وفي آخر ليلة منه يعتق كما أعتق في الشهر كله » ، هل هذا يكون شاملاً للأحياء والأموات وللإنس والجن ؟ ***فقال*** : « **هذا للأحياء من الإنس والجن ، وأما الأموات فقد غفر لهم ، وليسوا في دار تكليف . وإذا جاء حديث يُنظَر أولاً في صِحَّته ، فإذا صَحَّ نَظَر فيه العالم وتكلم ، وفَصَّل فيه ما يحتاج إلى تفصيل ، وإذا لم يصح لم يحكم فيه بشيء ، إلا إذا هو في الوعد ، فيبقى العبد على حسن الرجاء في الله تعالى ، وأمور الآخرة يؤمن بها كما جاءت بلا تأويل . وأمور العقيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الإلهيات ، والنبويات ، وأمور الآخرة. وللعلماء في كل قسم كلام ، وأَضْيَقها مجالاً الإلهيات** » هـ .

أقول : لفظ الحديث : « إن لله في كل ليلة من رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ، كلهم قد استوجب النار ، فإذا كان ليلة الجمعة ويومها أعتق الله في كل ساعة ألف ألف عتيق من النار ، فإذا كان آخر يوم من رمضان ، أعتق الله مثل ما أعتق في جميع الشهر » .

وقوله : « **أما الأموات فقد غفر لهم** » ، أي حصل لهم هذا الوعد في حياتهم في دار التكليف ، وبقوا عليه إلى يوم الجزاء هـ .

قال رضي الله عنه : « إنما يُستَدل على كمال الشخص بتأديته الفرائض على كمالها لأنها عمود الدين ، فمن أقامها بواجباتها وسننها وحضورها من غير وسوسة ؛ دلَّ ذلك على كماله وحسن عناية ربه به ، وإن عكس دلَّ ذلك على عكس ما ذُكِر » هـ .

أقول : إذا أدَّاها على هذا الوصف ، دلَّ منه على كمال الإيمان والتقوى ، وعلى ولاية الله له ، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩﴾ ، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾، قال الشيخ عبدالله العيدروس : « كل مؤمن ولي » ، فالولي هو المؤمن التقي الذي تحصل منه الكرامات وتنخرق له العادات هـ .

قال رضي الله عنه : « إن أهل الكرامات من الأولياء ، قَلَّ أن يُظهِروا منها في هذا الوقت شيئاً ، لفساد الزمان وتعلُّق أهله بالدنيا ، فلو قال ولي لواحد منهم : قم وانظر في المحل الفلاني من بيتك ، تجد فيه ألف درهم خذها ، واعط الفقراء منها خمسين درهماً . لبخل ولم يسمح بشيء ، وأراد أن يأخذه كله وقال : لو كان هذا ولياً لما أراد مني شيئاً . فانظر أحوالهم هذه ما أبعدها من الصلاح والإعتقاد ، وما أقربها من الطمع والفساد » هـ .

أقول : ومصداق قوله ، ما قاله الشيخ عبدالله بن علي صاحب الوهط قال : « صاح شاووش الأولياء بعد الأربعين والألف ، أن لا أحد يُظهِر شيئاً مما عنده » ، ذَكَرَه في « المشرع الروي » وغيره. وذكر الشيخ علي باهارون في مؤلَّفه في كرامات السادة آل باعلوي : « أن الشيخ فقيه بن الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ علي ، أتاه بدوي ببعير يضلع ، وقال : اقرأ عليه ، لعل الله يشفيه من ذلك . فأبى، فألحَّ عليه فامتنع من ذلك ، فحلف عليه ، فقرأ عليه فقام البعير طيباً ، وقام السيد يضلع ، فقال له رجل كان حاضراً : ما كان يمكنك تقرأ عليه ، فيقوم البعير بارئاً وأنت سالماً لا يصيبك شيء . فقال الشيخ فقيه : كان الأولياء يقولون : وا وَيْل من عنده شيء ولا يُظهِره ، واليوم يقولون : وا وَيْل من عنده شيء وأظهره » .

وقول هذَيْن الشيخَيْن المذكورَيْن مُصَدِّق لقول سيدنا هذا ، فهو ثالثهما في هذا القول بهذا المعنى، وقد سبقهم الشعراوي بمثله أيضاً ، وحكى عن بعض مشايخ وقته مثله . فهم يتواصون بذلك ، والأمر كله لله سبحانه ، فإلى الله سبحانه تصير الأمور ، لكن سيدنا قد يكون عندما يتكلم بهذه الأمور التي فيها التصدُّر وإظهار الترؤُّس ، يغلب عليه حال الخمول ، فلا ينسبها إلى نفسه قط ، ولو دل على هذا المعنى بأقل قليل ، لكنه ينسبها إلى من له فيها قول ، ويقول : قال فلان كذا . أو ما عليه حال أهل

الحق فيقول : كانوا كذا ، كقوله هنا : « **إن أهل الكرامات من الأولياء قلَّ أن يُظهِروا منها في هذا الوقت شيئاً** » ، ولكن يفهم اللبيب الحاذق ، أن معناه أنه هو نهى عن إظهارها ولا يظهرها ، ومعناه أي أنكم يا أهل الكرامات ، الحذر اليوم أحد منكم يُظهِر منها شيئاً .

ولا ينفهم هذا المعنى من عبارته لكل أحد ، وقد نبَّهْنَا على ذلك في هذا النَّقل في غير موضع ، فليفهم . فإن كلامه لما جعل الله فيه من الخاصية يحتمل معان كثيرة ووجوهاً متعدِّدة لِسِرِّ وراثته من معاني كلام المصطفى ﷺ ، فإن غلب عليه حال التبسط ساعة الكلام ، وذلك نادر جدًّا ، فقد يُصرِّح بالمعنى كقوله : « **هذه الأمور لا ينبغي أن تُعرَف إلا من جانبنا ، لأنَّا نحن الذي أحييناها وبيَّنَّاها بعد ما درست** » كما سيأتي هـ .

وقلت لسيدنا : إن الشيخ علي ذكر في البرقة : أنه لبس هو وأولاده من بعض الشيوخ .

قال رضي الله عنه : « **لبس هو وأولاده ، وزوجته بنت الشيخ عمر المحضار** » .

قلت : ماذا تلبس المرأة ؟ مثل ما يلبس الرجل أو القبع يوضع على رأسها ؟ *قال* : « **نعم ، وهو خرقة السادة من قبل ، والإلباس لا يراد لصورته ، ومن لبس لصورة اللباس ما حصَّل شيئاً ، وإنما هو لمعنى فيه ، وهي الرابطة . وقد رأى أبو يزيد رجلاً يماشيه ، فيضع قدمه في محل قدمه ، فقال له : لم تفعل هكذا ؟ فقال: لأسير على طريقك ، فقال : لو سلختُ جلدي فلبستَه ما نفعك حتى تدحق على طريقي التي سلكتُها إلى الله عز وجل** » .

فقلت لسيدنا : أيقتضي هذا أنه لا بد بعد الإلباس ، وحصول الرابطة به ، أن يقتدي بمن لبس منه؟ *قال* : « **نعم ، بما أمكنه ولو بعض اقتداء ، بحيث لا يصير مخالفاً ، ويكون منتسباً إليه** » .

قلت : فهل يشترط في هذا أن يراه ؟ *قال* : « **لا ، بل بحيث يكون على الطريق لا يميل عنها ، وإن لم يَرَ السائرين عليها ، فإن المائل عن الطريق لا يصل إلى المقصود ، والسائر عليها وإن بَعُدَ عن من أمامه يصل . فأين نحن من الشيخ محمد بن علوي، ونحن في تريم ؟** » ، يعني أنَّهُ شيخه ، وسائِرٌ على قدمه ، وهو بمكة ولم يجتمع به .

قلت : رأيت في شيء من الرسائل قلتم فيها : « **إن طريقنا الكتاب والسنة ، ولو جاءنا صادق لبيَّنَّا ذلك له** » ، وَلَوَدَدْتُ أنكم ذكرتم من ذلك ما تيسَّر .

فتبسَّم وسكت ساعة ، وكان ذلك عادته إذا سئل عما لا يحب أن يُسأل عنه ، أو خوطب بكلام يحب أنه لم يُذكر له ، *ثم قال* : « **هي الطريق ، وإن اختلفت الطرق فهي عليها ، وهي واحدة ، ولكن ما**

كل أحد يعلمها ويعمل بها - أو قال : يعمل عليها - فلو صلى رجل من غير طمأنينة ، فلا يخلو إما أن يكون عالماً ببطلان صلاته فهو مخالف للعلم ، وإلا فهو جاهل . والزمان اليوم إلى وراء ، وقد أدركنا جماعة نقصوا عما كانوا عليه كثيراً ، هذا بالنسبة . وأما الكامل على القدم المحمدي فما أدركنا عليه أحداً » هـ .

أقول : قوله : « **وإلا فهو جاهل** » ، يعني والجامع بين العلم والعمل على وفق العلم نادر جدًّا .

وقوله : « **ما أدركنا أحداً على القدم المحمدي** » ، يعني كما ذكر أنه عام حجّه رأى أقواماً توسَّم فيهم وأراد الأخذ منهم ، فكلهم انطرحوا له وأرادوا الأخذ عنه ، فأجابهم إلى ذلك وأخذوا عنه ، وكذلك ما تقدَّم من أحوال مشايخه معه ، واعتقادهم مزيَّته وأخذهم عنه ، فكلهم يرون أنه شيخهم ، وهو يرى أنهم شيوخه.

وأمرني أن أعطي بعض السادة من آل العيدروس كتاب « معارج الهداية » ليقرأ فيه ، فابتدأ القراءة فيه ، وبعدما ابتدأ بخمسة أيام ، لما خرج لصلاة العصر يوم الخميس ١٨ ربيع أول ، لما جلس في الضيقة قال : « **يا الحساوي** » ، قلت : لبيك .

قال : « **أثر فلان ما يقصر في قراءته** - يعني ذلك الشريف العيدروسي ما حاذر كثرة الناس ، وفيه تواضع - **وإذا وقع الخير من أهله تفرح به أكثر من أن يكون من غير أهله** » .

وثم تكلم كثيراً حتى قال : « **أكثر ما يغار الإنسان إلا من أمثاله ، ولو حضر أربعة متماثلون في جنازة مثلاً ، لطلب كل منهم أن يكون هو المتقدِّم في الصلاة ، ولو جلس مثلاً رجل من غير الأشراف للتدريس من آل بافضل أو غيرهم ، لما استَنْكَفَ الأشراف من الحضور عنده** » .

قلت : فَلِمَ كثر اللَّابِسون والآخِذون من باجابر لما دخل تريم في ثلاثة أيام ، وأخذوا عنه ما لم يأخذوا من الأشراف ؟ فقال : « **لأنه دخل بإشارة شيخ البلاد وبالضمانة ، وأن لا يمكث إلا ثلاثة أيام** » هـ .

أقول : يعني أن المعلم باجابر تاقَتْ نفسه أن يزور السادة أهل التربة بتريم ، فما جسر على المجيء إليها خوفاً من السَّلْب فيها ، لأن أحوال أهلها من السادة سيوفاً قاطعة ، لا يجسر الغريب أن يدخلها إلا برخصة وأمان من المتقدِّم منهم .

وكان المعلم باجابر هذا ببلاده عَنْدَل ، وهي بلاد جملة آل باجابر إلا القليل ، ويدَّعون في النسب أنهم من ذرية عقيل بن أبي طالب ، وبين بلادهم وتريم نحو ثلاثة أيام . فأرسل إلى شيخه السيد أحمد

بن علوي باجحدب ، وكان هو شيخه وهو مقدَّم السادة آل باعلوي في وقته ، طلب منه أماناً وأن يأذن له في المجيء للزيارة ، فأذِنَ له وشَرَطَ عليه أن لا يزيد على ثلاثة أيام ، وأن يكون مُكْثه في مسجد بروم لا يتعدَّاه ويتردد للزيارة ، وكان هو فيه كفاية من السادة ، لكنه طيَّبَ خاطره مع ذلك بأن ضَمِنَ له منهم إثنين : أحدهما من أهل الظاهر : وهو السيد محمد بن حسن بن الشيخ علي بن أبي بكر ، والآخر من أهل الباطن : وهو الشيخ أحمد بن الحسين بن الشيخ عبدالله بن أبي بكر . فانكبَّ عليه الناس من أشراف وغيرهم يأخذون عنه ، ويلبسون منه ويتلقون .

وهذا مصدِّق لقوله : « **أكثر ما يغار الإنسان إلا من أمثاله** » ، ومن حين أصبح بعد تمام الثلاثة الأيام ، فَرَّ من البلدة ولا أمكنه يمكث لحظة ، فانظر أحوال السادة ، كيف يفرق منهم إلى الغاية من معه بضاعة يخاف عليها ومن لا معه شيء ، فالفقير في القافلة مستأمن .

ثم قال سيدنا : « **ولو قد رحت إلى بلادك ، وجاء واحد ليتقدَّم عليك ، كَرِهْتَ ذلك ؟** » ، قلت : نعم، ولكن إلى متى الإنسان على هذه الحال ؟ *فقال* : « **حتى يخرج عن حكم الطبيعة** » ، فقلت : وبأي شيء يخرج عنه ؟ *فقال* : « **ذلك باختيار من الله ، وليس بكسب الإنسان ، وإنما هو بالبخت والنصيب، فكل من أراد شيئاً لا يحصل له إلا بالبخت والنصيب . أما سمعتَ قولهم : وما هو إلا بالبخت والنصيب** » هـ .

أقول : المراد « **بالبخت والنصيب** » في كل أمر يحصل من دين أو دنيا ، سبق حكم الله له بحصول ذلك ، وتقدَّم ذلك له في الأزل بسبب منه ، أو بلا سبب .

وهو القضاء الذي يجب الإيمان به ، فإذا حصل له ذلك في وقته وصفته ، وهو القدر ، قيل : لفلان حظ وبخت ونصيب . وبالعكس إذا لم يُحكَم له بِنَيْلِهِ ، بل حُكِم له أنه لا يناله ، قيل : فلان ما له بخت ولا حظ ولا نصيب . ونحو ذلك ، وليس ذلك بواسطة الآدمي وإن تسبَّبَ فيه ، وإنما هو بحسب ما سبق له ، فلا ينفع السبب إلا فيما حُكِمَ له به ، وإلا فلا يفيد السبب شيئاً .

ويسمى ما حُكِم به الإستعداد ، فلا يحصل الدين أو الدنيا أو الجنة وكل خير ، أي فلا تحصل سعادة الدارين إلا بالإستعداد ، وهو سَبْق القضاء والقدر بحصوله، ثم له أسباب تقتضيه إذا وافقت ذلك ، كالعبادة إذا وافقها الحكم بالسعادة والعكس كذلك - أي الكفر والمعاصي - إذا وافقها الحكم بالشقاوة ، ولا يضر أحد السببين ولا ينفع إذا خالف الحكم ، فإلى الحكم يرجع الأمر مع أسبابه في الخاتمة حسنت أو ساءت . بدليل قول النبي ﷺ : « فو الذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل

أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » ، أي يعمل عند موته بالعمل الذي سبق عليه الكتاب ، أي الذي حكم به فيعمل به ، ويكون هو خاتمته .

ثم قال سيدنا : « **وإنما قيل في النفس أنها أعدى الأعداء ، لكونها تُنكِر الشيء من غيرها وتكرهه ، وفيها مثله . فلو رأيتَ إنساناً في أمر كرهت منه أشياء ، فلو قمت أنت في ذلك الأمر ، ظهرت منك تلك الأشياء التي كرهتها من غيرك ، فيكرهها منك آخر . فالطباع سواء ، والنفوس على طبع واحد في مَيْلِها عن الصواب ، ولكن يظهر الشيء ويخفى** » .

ولما خرج لصلاة العصر يوم الثلاثاء من ذلك الشهر المذكور ، سأل عن رجل فقير صافحه في هذا اليوم : « **هل معه زاد ؟** » ، ثم ذكر أحوال أهل التجريد *فقال* : « **كانوا إذا احتاج الرجل منهم ، وعرض له شيء ، أخذ حاجته فقط ورَدَّ الباقي ، وإن لم يكن حاجة ردَّ الكل ، ولا يخطر في قلبه الحال في الوقت المستقبل** » .

ثم ذكر قصة ذلك المتجرِّد الذي احتاج ، فجاءه رجل بحاجته ، وقال له : « إني رأيت النبي ﷺ في النوم يقول لي : اذهب بكذا وكذا إلى فلان في المكان الفلاني، فإنه محتاج لذلك فأتيتك به » ، وقال : « متى احتجتَ فتعال إلى عندي أقضي حاجتك وأنا في المكان الفلاني » ، فقال له : « لا آتيك ، فإذا أنا احتجتُ ، يأتي بك أو بغيرك ، من أتى بك الآن » ، الحكاية بمعناها .

فقلت : إن مثل هذا وقع بصيغة خرق العادة من حيث الكرامة ، ولا يكون ذلك إلا نادراً ، فمتى يكون مثل ذلك كل حين ؟ والضرورة كل حين تتكرر . *فقال* : « **نعم ، إذا خرقت من نفسك العوائد ، انخرقت لك العوائد . وهو أمر قد ذكر الإمام الغزالي أنه لا يوصَل إليه بالهوينا ، بل بعد اللُّتَيَّا والتي** » .

فقلت : يعني به شدة الصبر على مثل ذلك ؟ *قال* : « **نعم ، إذا صبر عليه لأجل الله كتقوية اليقين ، لا لأجل هوى . وإلا ترى رهباناً وفلاسفة ونحوهم ، يتخلون ويترَيَّضون ما حصَّلوا شيئاً ، أما سمعتَ قول بعضهم : قف على الباب ، لا لتُفتَح لك الأبواب ، تُفتَح لك الأبواب . واخضع لا لتخضع لك الرقاب ، تخضع لك الرقاب** » .

فقلت : إن هذا أمرٌ عَسِرٌ جدًّا ، وكلٌّ غافلٌ عنه ، ومع ذلك كل يريده ، *فقال* : « **هذه الأشياء إنما هي بالبخت والقسم** » .

أي كما تقدَّم بيانه عند قوله : « حتى تخرج عن حكم الطبيعة » ، فالمعنى أن ذلك إنما هو بِسَبْقِ القسمة له بذلك من الله ، على ما سبق في علم الله ، لا باختياره وسَعْيه ، ولكن اختياره وسَعْيه يدل على سبق حكم الله له به ، وعكس ذلك يدل على العكس ، أي إذا توانى عن الأمر وفَتَرَ عزمه عن السعي له ، دلَّ ذلك على أن ليس له فيه نصيب .

وخرق عوائد النفس ، بتكليفها أولاً مخالفة كل عادة تألَفها ، مما هو مقتضى طبعها ، حتى تألَف خلاف ذلك ، فتألَف خلاف العادة وتستمر عليه ، وذلك في كل مباح تقتصر منه على القدر الذي لا بُدَّ منه ، الذي تتم به الإستعانة على العبادة ، وفي كل أمر مطلوب تستوفي الواجب كله ، والمندوب تستكثر منه إلى حدٍّ ما يمكن ويصير ذلك ديدناً لها ، انتهى .

والغريب المسافر الذي سأل عنه ، هو السيد الغريب الذي لم يخبِر أحداً باسمه وكل من قال له ما اسمك ، قال : « اسمي الفقير » ، فسمَّاه سيدنا : « أبو الفتوح الشامي » ، وكان من أهل حلب ، ولما استخلف من سيدنا مسافراً ضحى اليوم المذكور يوم الثلاثاء ، قال سيدنا له : « **مع الله نتلاحق إن شاء الله في مكة** » ، ثم عقب ذلك بقوله: « **إما في اليقظة ، وإما في النوم ، والله الله في دينك ، واحذر من الرئاسة لا يكون لك بها تعلُّق ، وخلِّ الأمور تمُرّ عليك ولا تخطر ببالك ، وكن في الإقامة حيث ما يستقيم قلبك ، ودم على لا إله إلا الله ، إما باللفظ أو بالقلب حسب الفراغ، إلا إذا كان لك في وقت وِرْد معين لذلك الوقت ، فاشْتَغِل به فيه . وأمر الدنيا لا يخطر ببالك ، وإن دخل يدك منها شيء فخذ منه حاجتك ، وإن خرج من يدك فلا يخالف** » ، تم .

وسألته : ما الفرق بين أمر القضاء والقدر ، وأمر الشرع ؟ أعني أن القضاء والقدر جرى على العبد بالطاعة والمعصية ، وأمر الشرع يطلب من العبد الطاعة وتجنب المعصية ، وكِلَا الأمرين من عند الله ، فكيف البيان والمخرج من هذين ؟ ، *فقال رضي الله عنه* : « **القضاء والقدر هو الشرع ، فمن أمرك بالإيمان به إلا الشرع ، فاعرف الحق واعمل به ، واترك الباطل ولا عليك ، فإن المبتدعة ضلَّلوا أهل السنة بالقضاء والقدر . قالوا لهم : أما رضيتم حتى كذبتم ربكم ؟ والإعراض عن مثل هذا أحسن ، فإن الغلو في مثل ذلك ما يحصل منه إلا التضليل وفساد الدين** » .

أقول : وسمعت سيدنا غير مرة يقول : « **مسألة القضاء والقدر مسألة غامضة صعب فهمها ، وكل من تكلم فيها ليحل معناها ما زادها ذلك إلا غموضاً ، ولا تتضح إلا يوم القيامة ، ولذلك استشكلها أكابر الرسل من أولي العزم ، موسى وعيسى وعزير ، فسألوا ربهم عنها ، فأجابهم : لا أُسأل عما أفعل . والجواب عن هذا السؤال في هذه الآية** :﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾» .

وقلت له : إن فلاناً من أهل الشحر يطلب شيئاً من القصائد القصار التوالي، قال : « **مليح ، ونحن ما جعلناهن قصاراً قريبة اللفظ إلا لهذا القصد ، ليسهل حفظها على من أراده ، فاختَرْ له إن كُنتَ تُحسِن الإختيار** » .

قلت : إن اخترتوا له فهو أحسن من إختيار غيركم وأولى . فتبسَّم ضاحكاً وسكت قليلاً ثم قال: « **أنت تسمع ولا تعقل ، ودائرة العقل أوسع من دائرة السمع . وقد ذَمَّ الله سبحانه بعدم العقل أبلغ مما ذم بعدم السمع ، فقال :** ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ **، فلو قال : ويعقلون ، لكان أهون . فلما نفى عنهم العقل أيضاً مع نفي السمع ، كان ذلك في أقصى غاية من الذم ، أما سمعتَ في القصيدة قولنا فيها : الجسم المشبه بالبَوِّ؟ تشوفونا نخرج وندخل ولا أنتم دارين ، فما ترون حال من يخطر في باله أنه يصلي قائماً أو قاعداً ، أو يتخوَّف السقوط كل حين، فخذوا مِنَّا القليل ولا تطلبوا الكثير ، فإن القليل ممن هذا حاله كثير ، كالرجل المريض إذا جاء عنده أحد يستند ويتجمَّل بالقوة ، ولكنه يغلبه ما يجد ، وأهله يريدونه يأكل شيئاً ، ويسقونه الماء ، كل ذلك يريدون عافيته وحياته لنفعهم واحتياجهم إليه ، أو لرغبتهم في حياته ، وهو في ذلك مشغول عنهم بما هو فيه** » هـ .

أقول : وقوله : « **دائرة العقل أوسع من دائرة السمع** » ، واستشهاده بهذه الآية في هذا المعنى ، هو من أسرار معاني القرآن وعجائبه المشار إليها فيما تقدَّم .

وسألته مرة في مجلس فراغ واجتماع خاطر ، وكان جالساً على دِكَّة الجرب في الحاوي ، مقابل النخل، قلت : ما المراد بالعلوم التي ذكر الإمام الغزالي أنه اختلف في سبب تحصيلها النُّظَّار والصوفية؟ وذَكَرَ سبب ذلك عند كل منهما ، *فقال رضي الله عنه* : « **تلك حقائق العلوم ، التي هي غاية كل علم ، فإن كل علم له حقيقة وسبب يتوصل به إلى حقيقته ، كمعرفة الملائكة وما ذُكِرَ من أمور الآخرة . فتوصَّل الصوفية في تحصيلها بالمجاهدة ، حتى بلغوا حد اليقين فيها الذي لا شكَّ فيه ، فصار قولهم قولاً واحداً. وأما النُّظَّار الذين توصلوا إلى تحصيلها بالقياس والدليل ، وتشبيه الشيء بالشيء ، فيقاس عليه. فلم يبلغوا من حقيقة اليقين مثل ما بلغ إليه أولئك ، ولهذا ترى لهم في المسألة عشرة أقوال ، لكون مبلغ علمهم الظن، فيقولون لكل قول من العشرة ، لعل هذا هو حقيقة اليقين . والصوفية إنما كان**

قولهم قولاً واحداً لما حَصَلَ معهم من تحقُّق حقيقة اليقين » .

قلت : فالأمر الذي رأوه عندهم لا شك فيه ، كالذي رأى الشيء بعينه لا يشك فيه ، قال : « **نعم**»، **قال** : « **نوم الصالحين ليس بنوم خالص ، إنما هو بين النوم واليقظة ، ولذلك كثيراً ما يقول أحدهم : رأيت كذا وكذا وأنا بين النوم واليقظة . وتسمى تلك الحالة السُّبات ، يعني حالة الكشف ، ولو كان نوماً لكان رؤيا ، ولا يختص بالصالحين** » .

وذَكَرَ يوماً الأمر الخارق للعادة ، فقلت : هل الخارق للعادة لا يحصل لأهله إلا مع غيبة ؟ **فقال** : « **نعم ، الكشف لا يكون إلا في حالة تُسَمَّى السُّبات ، وهي مرتبة بين الوحي والحس ، لا ترتقي إلى درجة الوحي ، ولا تنزل إلى مرتبة الحواس** » .

فقلت : وما صفة تلك الحالة ؟ فتبسَّم ضاحكاً وسكت ساعة ، **ثم قال** : « **ما لم يكيِّفوه لا نكيِّفه نحن ، لأن كل ما كُيِّف نُزِّل ، فلأيِّ شيء تُضرَب الأمثال ؟ ما تُضْرَب إلا لمثل ذلك ، إذ ما كل كلام له جواب** » ، ثم أنشد هذا البيت :

مَـا كُلُّ قَـوْلٍ لَـهُ جَـوَابٌ جَوَابُ مَا لا يَحْسُن السُّكُوتُ

وقلت له : ما معنى نسبة أمورٍ إلى العبد لا اختيار له فيها ، كأمره بالإخلاص واليقين وغير ذلك من الأمور الباطنة التي هو يتمناها ولا يقدر عليها ؟ ، **فقال** : « **هذا لأجل النسبة ، أمر نسبة . يعني ينسب ذلك إليه مجازاً ، لأنه من أمور متعبداته المطلوبة منه** » .

ثم قلت له : عسى ببركاتكم يحصل باعث على طلب الأمور المحمودة ، وتجنب الأمور المذمومة، على ما هو مذكور في أول « رسالة المريد » . فسكت قليلاً كأنه ما اشتهى مني صدور هذه الكلمة ، **ثم قال** : « **اعملوا ولا تستعجلوا ، وهذا من جزاء العمل ، وجزاء العمل إنما يكون في آخر العمل** » .

وذَكَرَ جماعة كلهم يدَّعي مقاماً في المعرفة ، مثل عوض بامختار وغيره ، وقد رأى هو وصاحب له يدَّعي مثله ، أنه رأى كأنه وإياه يسبحان في بحر ، وأن السيد أحمد بن الحسين العيدروس نائم على الساحل ، ولم يدخل معهما البحر ، فأخبر صاحبه برؤياه فقال له : « أنا وإياك نخوض في بحر من الباطل ، والسيد أحمد ما يخوض في الباطل » ، ثم الْتَفَتَ إليَّ ، **وقال** : « **لو كنتَ في غير تريم ولم تكن عندنا ، كان ظَهَرَت لك أشياء كثيرة ، ولكن لا يظهر النور بوجود الشمس ، أما رأيت السيد أحمد ، وعمر العمودي وفلان وفلان** » .

قلت : إن كان إلا هذا الذي يظهر مجرداً فلا أعتد به ، أعني إن كان مجرد صيت وجاه بلا سِرٍّ من أسرار الأولياء فلا أعتد به ، ولا أعده شيئاً .

ثم قال : « **لو سمعت قصة الذي ذكره اليافعي** » ، وذكر قصة العبد صاحب الطبل الذي مَرَّ عليه ذلك الشيخ وضربه بحزمة القضبان ، إلى آخر ما تقدم من قوله: « **وهذا الأمر ، لا بد فيه من جذبة أو سلوك** » .

ثم قال : « **لو قد سافرنا إلى مكان ، وقلنا لك : اجلس أنت في تريم لا تسافر ، تجلس ؟** » ، قلت : لا بد لي من امتثال أمركم ، فأجلس بِمَشَقَّة وتكلُّف ، لأني لا أحب أن أفارقكم ، قال : « **فإن قلنا لك: سافر أنت ؟** » ، قلت : أسافر أيضاً بمَشَقَّة وكلفة ، قال : « **فلو سافرتَ وكاتبتنا ؟** » ، قلت : ولكني لا أحب أن أسافر إلا إن عشت بعدكم ، لأني لو مكثت غائباً عنك نحو سنة أو ستة أشهر اشتغل خاطري بألم الفراق ، قال : « **نعم ، لكن ليس الصادر كالوارد** » ، ثم قال : « **فسفر الآخرة مثل سفر الدنيا ، فلو قد متنا تسافر ؟** » ، قلت : نعم ، ولا أجلس يوماً واحداً إلا لعجز ، قال : « **فإن قلنا لك اِبْقَ ولا تسافر ؟** » ، قلت : امتثلت ، ولا بد . قال : « **فإن عَيَّنَّا لك مدة ؟** » ، قلت : لا عذر منها ، قال : « **نعم، لا نأذن لك في السفر حتى يستقل من معك فلا نأذن لك تسافر حتى يستقل أحد من العيال ، ثم بعد ذلك نأذن لك** » .

فقلت : أما السلوك والجذب فكل ذلك أنا عاجز عنه ، وأمره إلى الله والنظر إليكم ، فقال : « **خلها تجري بعين الله** » .

قلت : نعم ، قد جميع أموري على هذا ، قال : « **نعم ، ولكن مع ذلك قم بما عليك من الأحكام الشرعية** » .

وهذا الأخير من قوله : « **إما السلوك .. إلخ** » ، قد ذَكَرْنَاه هنا فيما تقدَّم ، ولكن لمَّا ذَكَرْنا الكلام المرتبط به هنا أتيناه به معه .

ولما خرج لصلاة الظهر يوم السبت ١٣ جماد أول سنة ١١٢٩ ، ذَكَرَ لي الكتب التي في خزانته واستخبرني ، فاستمرَّ الكلام إلى ذِكْر كثير منها من جملتها الصحيحان فقلت : أود لو حصل معي كتاب جمع بينهما ، لجعلت جُلَّ مطالعتي فيه ، فقال رضي الله عنه : « **أنت فيك فضول ، تحب جَمْع الكتب، خلِّ عنايتك بالعلم والعمل دون جمع الكتب . افهم كلاماً قليلاً ، يُغني عن كلام كثير ، فما ينفع كثرة الكتب ، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾، فخلِّ همَّك همًّا واحداً ، ولا يتشعَّب قلبك في طلب العلم ، والناس ما صحبوا أهل التصوف إلا لهذا المعنى ، ومن تتبع الشُّعَب لا يبالي الله في أي وادٍ أهلكه، ويبقى قلبه يتتبَّع الشُّعَب حتى في صلاته ، فيتتبَّع الشُّعَب في طلب العلم ، حتى يتتبَّعها في النساء والثياب وما**

شاكل ذلك » .

وكان يوماً وهو يوم السبت ١٨ جماد آخر سنة ١١٢٩ طالعاً من الصالح - وهو نخل يحل فيه أهله أيام القَيظ - يريد الحاوي ، *فقال* : « إن سَلِمَ الفلاني ووصل إلى بلاده ، صار لهم مثل حديث خرافة ، رحت أنا مع فلان إلى مكان كذا ، وجئنا من مكان كذا » .

فقلت : إن كان الأمر ألَّا هكذا ، فإن الحجَّة فَسْلة ، *قال* : « كل شيء له حُكْمُه، للظاهر وأمور الأجسام حُكْمها ، وللباطن وأمور الأرواح حُكْمها . فما معنى قول من يقول : لا عبرة بالأكل ، ولا بشيء من الأمور التي تتعلق بالجسم ، وهو لا يسمح بترك أكلة ؟ وقول بعض المتصوفة : أنا أعمل لا لحصول الجنة ، ولا لخوف من النار ، ولا للحور والقصور ، وهو متعلِّق قلبه بنكاح النساء وبسائر اللذات؟ فما هو إلا من حيث أن مطلوب الأرواح غير مطلوب الأجسام . أفهمتَ هذا القدر ؟ » ، قلت : قريب منه إن شاء الله .

ثم ذكر قصة الذي عزم أن لا يأكل أربعين يوماً ، ثم اشتدَّ به الجوع ، فخرج من غير شعور له بنفسه إلى السوق ، فرأى رجلاً يقول : « أشتهي كذا من الحلوى وكذا من شهوات أخرى » ، فقال ذلك الرجل في نفسه : « إن هذا الثقيل ، يتمنى هذه الشهوات ، وأنا أشتهي كسرة ما حصلت لي » ، ثم بعد ساعة ، حصل لذلك الرجل ما أراد ، فأتى بها إلى هذا الآخر وقال له : « من هو الثقيل منا ؟ الذي قطع عَزْمَه وآذاه الجوع ، أو من يشتهي الحلال ؟ فخذ هذا واقطع الأربعين بالتدريج شيئاً فشيئاً ، ما هو بمرة واحدة » ، فهذا كله بالنسبة إلى الأرواح والأجسام ، فافهم ذلك واعرفه .

أقول : ولعل في هذا إشارة إلى أمر يتعلق بالحال ، فإنه كان أتى من دعوة أهله ، حيث يحلّون - يعني ينزلون - بيوتهم التي في نخيلهم أيام القيظ ، فيخرجون إليها بفرح وانبساط ، ويفعلون لذلك عزايم وضيافات . وكان سيدنا كل سنة يأمرني بالخروج أحضر معه وأسايره خارجاً وراجعاً إلا هذه المرة ، الله أعلم ، نسياناً أو لسبب آخر ، فتجنَّبتُ خروجه راجعاً ، فخرجت لأماشيه في رجوعه على عادتي، فأدركته حين ركب ، فصافحته وسلَّمت عليه ثم تكلم بهذا الكلام ، من قوله : « إن سَلِمَ الفلاني .. إلخ » .

وخرج في اليوم الثاني ، وهو يوم الأحد إلى السبير على عادته من الخروج إليه كل يوم أحد إلا لعذر ، فتكلم في الطريق وذَكَرَ أحوال الفقراء في الردِّ والأخذ *فقال* : « للردِّ شروط لا بُدَّ منها ، أوَ كل أحد يُحسِن الرد ؟ » .

فقلت :أوَ يشترط في الرد كما فعله من فعله ، أن يستوي عنده المال والحجر سواء ؟ *قال* : « **نعم** » .

قلت : إن ذلك لشديد وأمر غريب ، *فقال رضي الله عنه* : « **كل أمور الصالحين غريبة ، لأن تعلقهم وأمورهم من الآخرة ، فأي شيء من أحوالهم ليس بغريب ؟ واعتَمِدْ على ذلك الكلام الذي ذَكَرْنَاه لك في طريق الصالح ، فإنه يُفهمك أموراً لم تكن في بالك ، ويحل لك مشكلات كثيرة ، ويوضح لك أشياء إن سَأَلْتَ عنها** - أو قال : **ربما تُسأل عنها** - » .

وكان يوماً طالعاً من الصالح إلى الحاوي ، وذلك بعد الإشراق يوم الجمعة ٢٤ جماد آخر المذكور، فسأل عن غريب قَدِم منذ يومين ، ظاهر حاله التجرد وتقليل الطعام ، حتى امتنع من الدخول مع الجماعة للعشاء ويصوم ، *فقال* : « **هل له قيام بالليل ؟** » ، قلت : ما رأيناه ، *فقال* : « **قلة الأكل ، وقلة النوم متلازمان** » .

قلت : وكثير من الغرباء عند مجيهم يعملون على هذا ، ولكنهم لا يثبتون عليه كما قصة فلان، حيث أراد يدخل الأربعينية واستأذنكم في ذلك ، *فقال* : « **ليس ذاك الأربعينية المذكورة في طريق السابقين ، أوَ تريم فيها أربعينية ؟ وإنما هي أربعينية. كذا في طريق أصحاب اليمين ، وهذه الطريق ليس فيها أربعينية ، بل هي طريقة سهلة تُفضِي بالإنسان إذا واظب عليها باللحوق بأهل تلك الطريقة، فربما حصل له في هذه الطريقة فتوح ، فالْتَحَقَ بأهل تلك ، وليس فيها من طريقة السابقين إلا من كل شيء جزء يسير ، وهي طريقة سهلة ولا أربعينية فيها ولا مشقَّة ولا خطر . وأما طريقة السابقين فهي مُشِقَّة وفيها أربعينية ، ولكنها مُخطِرة يخشى فيها حتى على أمور الدين ، من تغيُّر القلب والعقيدة ، وكثير من الناس إذا رأوا شيئاً من ذلك خرجوا من الأربعينية ، كيف وقد قال النبي ﷺ وهو مؤيَّد بالوحي والعصمة : لقد خشيت على نفسي** » .

قلت : قال ذلك ، لما رأى الملَك ، *قال* : « **وهذا أيضاً ، ربما رأى الملَك ، مَلَك الإلهام لا مَلَك الوحي، وأيضاً النبوة فيها مَلَك وحي ، ولا سبيل للشيطان مع مَلَك الوحي ، وأما مَلَك الإلهام ربما حضر معه الشيطان . وقريش إنما استنكَرَت من النبي ﷺ لما رأوه مخالفاً لهم ، وقالوا : نخشى أن يكون أصابه الشيطان ، وأرادوا ينظرون له طبيباً يداويه . وأكثر ما يحصل التغيُّر في الأربعينية لمن يدخلها بغير شيخ ، أو من غير امتثال ، ولا يليق بأهل هذا الزمان إلا هذه الطريقة السهلة دون الأخرى . وأين الناس اليوم؟ وقد كان جاء إلى عندنا رجل يعمل لنفسه رياضات ، وأدْخَلَ نفسه الأربعينية ويَزِن القوت بالجريد الأخضر . فقلنا له : اترك هذا ، واعمل على تلك الطريقة السهلة ، فِعْل الأوامر الظاهرة**

والإقتصاد في العمل مع المداومة عليه . فأبى ، فقلنا له : تكذب في عملك هذا ، أنت ما بعد أَحْكَمْتَ طريقة أصحاب اليمين ، فكيف يمكنك سلوك طريق السابقين ؟ فسافَرَ فَتَعَوَّقَت عليه الطريق ، حتى رجع نحو ثلاث مرات ، حتى تيسَّر له السفر فيما بعد ، ونحن ما نتأسَّف على فعل الخير ، وإنما نتأسَّف على كلمة صَدَرَتْ مِنَّا لأحد ، وكان يسعنا فيها العفو عنه والتجاوز والإغضاء .

ومنذ ابتدأنا إلى الآن ما أَشْهَرْنا أنفسنا بطريقة السابقين ، لا سابقاً ولا لاحقاً ، ولا سَلَكْنَاها بين الناس ، ولا سَلَّكنا فيها أحداً . وأين الزمان من الزمان ، والناس من الناس ؟ طالباً أو مطلوباً » .

قلت : فإذا جاءكم أحد لا يعرف طريقة السابقين ، ولا طريقة أصحاب اليمين فماذا يفعل ؟

قال : « **يعمل على ما نحن عليه ، فما يرانا نفعله يفعله ، كما ترى من إقامة الصلوات وقراءة القرآن وترتيب الأذكار ، وطلب العلوم النافعة مع الدوام على ذلك . فهل رأيتَ أحداً دام على ذلك من علماء الحرمين أو غيرهم ؟ أو سمعت أحداً يُنكِر هذه الطريقة ؟** » .

قلت : لا ، **قال** : « **فهذه طريقة أصحاب اليمين ، وهي اللائقة . فينبغي أن يطلق لأهل الزمان طريق العموم ، لِتَعَذّر طريق الخصوص ، وإلا فكم واحد يظن بنفسه أنه مثل الشيخ عبدالقادر ، وهو ما يكون مثل شوكة في رجله** » .

قلت : فالطمع طبع ، أي يطمع في كل شيء أن يكون له منه الحظ الأوفر ، **قال** : « **الطمع يكون في أمور الدين ؟ فإذا كان الطمع في أمور الدنيا مذموماً ، فكيف به في أمور الدين** » .

وقلت لسيدي رضي الله عنه ليلة الأحد ٢٩ رمضان سنة ١١٢٩ ، بعد أن فرغ من ختم الحاوي ، عندما دخل الضيقة داخلاً إلى الدار : الله الله فيَّ بالدعاء ، ادعوا لي في هذه الليلة المباركة .

فقال رضي الله عنه : « **ادع أنت لنا ولنفسك ، لأن لك حقَّيْن : حق الغربة وحق الطَّلب . فإنك غريب وطالبٌ ، ولا تَدْع لنفسك إلا بأن الله يتولاك مع اللطف والعافية ، وإلا فإن الولاية الخاصة فيها ابتلايات كثيرة** » .

قلت : دعاكم لي بصلاح القلب بالخصوص ، وغيره بالعموم ، **فقال** : « **الله يتولاك بولايته ، الله يتولى الجميع** » ، **وقال** : « **الولاية الخاصة فيها ابتلايات كثيرة** » .

وفي نظمه كثير دال على ذلك ، كقوله :

وَكَـم مِحْنَـةٍ كَابَدْتُهـا و بَلِيَّـةٍ إلى أن أتانا الله بِالفَتْح وَالنَّصْرِ

وقوله يخاطب نفسه وغيره :

فَاصْبِرْ عَلَى المِحَنِ القَوَاصِدِ وَ انْتَظِرْ فَرَجـاً تَـدُولُ بِـهِ دِوَلُ القَـدَرْ

وقوله :

وَإذا بُلِيـتَ بِمِحْنَـةٍ فَاصْـبِرْ لهـا إنَّ الشَّـدَائِدَ لا يَـدُومُ مُقَامُهـا
كَـمْ شِـدَّةٍ نَـامَ الفَتَـى لِوُرُودِهَـا مَـا هَـبَّ حَتَّـى أَدْبَـرَتْ أَيَّامُهَـا
فَاصـبِرْ عَـلى مِحَـنِ الزَّمَـانِ فإنَّهـا تَمْـضِي وَيَبْقَـى بَرْدُهـا وَسَـلامُهَا

تم .

وخرج يوم الثلاثاء ٦ ذي الحجة سنة ١١٢٩ بعد الإشراق ، من دار آل فقيه إلى دار آل عمر الحداد، عائداً لمريض عندهم ، فكان مما تكلم به في الطريق ، وهو يسير - أي يمشي - قابضاً بيدي ، والبيت الذي خرج منه بيت زوجته ، بايتاً فيه تلك الليلة وهو مبيتها ، والبيت الآخر الذي هو قاصده بيت بنته ، والمريض أحد أولادها ، قال في مسيره : « **إذا عاش الإنسان زماناً طويلاً ، أَنْكَرَ ما يراه من الناس ، لأنهم جاؤوا بعده ، فَيُنكِر أفعالهم وأحوالهم ، يراهم يَطْلبون غير ما يَطْلب ويفعلون غير ما يفعل ، ويهوون غير ما يهوى ، فهو مُباين لهم في كل شيء .**

فانظر إذا عشت بين أهلك كيف تستنكر أمورهم ، فتكون وأنت بينهم كأنك منفرد عنهم وحدك، أو كأنك غريب عندهم ، كما قال المتنبي : [1] **، مع أنه إنما عاش نحو ستين سنة** » .

يعني فلا تحصل له معهم راحة ، وهو معنى قوله :

وَأَنِّي مُقِيـمٌ فِي مَوَاطِـنَ غُرْبَـةٍ عَلَى كَثْرَةِ الأُلَّافِ فِي جَانِبٍ وَحْدِي
قَرِيـبٌ بَعِيـدٌ كَائِـنٌ غَـيْرُ كَائِـنٍ وَحِيدٌ فَرِيدٌ فِي طَرِيقي وَ فِي قَصْدِي

قلت : فما يصنع الإنسان مع هذا في حال نفسه وما يتعلق بالناس ؟ ، قال : « **ففي حال نفسه : يتبع الحق وما أَمَرَ به ، ولا يميل إلى الباطل ، فاعْتَبِرْ أنت بنفسك. ومعهم : يسايرهم بالتي هي أحسن ،**

---

(١) فراغ في الأصل .

ويقيم عليهم حقَّ الله ، إن كان لا عذر له منهم، بأن كانوا أهله وقرابته ، وإن كانوا غيرهم ممن له منهم بد ، فيجانبهم ولا يتابع أحداً إلا فيما يجوز ، ويتحرى لنفسه الصواب وما فيه الإحتياط .

وهذه الأمور لا يلزم النظر فيها إلا من كان من الخلفاء ، إما خلفاء الظاهر أو خلفاء الباطن ، لأن الله سبحانه جعل أحداً في الخصوص وأحداً في العموم ، وأحداً في الخصوص والعموم ، وما خَلَقَهُم الله على حالة واحدة ، ولا دبَّرهم تدبيراً واحداً، ولا عَيَّنَ للفعل وجهاً واحداً ، فيختلف النظر باختلاف التدابير ، ولا يجوز أن يدبِّر العالم تدبيراً واحداً ، ولو كان كذلك لحصل من الضرر والفساد والإختلال شيء كثير ، بل دَبَّره سبحانه تدابير شتى ، ولو عَيَّنَ فِعلاً على وجهٍ مخصوصٍ لَلَزِمَ الأخذ به ، ولا جاز لأحدٍ يتعدَّاه » ، أو كما قال .

واستأذنته هذا اليوم لمَّا خرج لصلاة الظهر في مجلسه في الضيقة أن أنقل من كتاب « اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر » ، للشيخ الإمام عبدالوهاب الشعراوي رحمه الله أبياتاً كتبها يهودي إلى الإمام القونوي ، يسأله فيها عن حكم من رضي بالقضاء والقدر ، فأجابه بأبياتٍ على وَزْنِها ، *فقال سيدنا رضي الله عنه* : « الحذر تَنْقلها ، فهي في غاية الإشكال ، وقد حذَّرناك وقلنا لك : لا تنقل شيئاً إلا بعد أن تشاور » ، ثم سكت ساعة *ثم قال* : « هذه مسألة صعبة جدًّا ، ولا أحد من العلماء بلغ قعر بحرها ، وقالوا : لا يتضح أمرها إلا في الآخرة . وأنت تريد أن تدخل لجَّة البحر من غير سباحة ولا سفينة ، فما لك ولهذا الأمر ، اترك الخوض فيه رأساً ، ولك شغل شاغل في العمل الصالح والأخلاق عن هذه الأمور ، فهل سمعتَ هذا من قول ابن عربي : احذروا هذه الطريقة ، فإن أكثر الزنادقة ما خرجوا إلا منها » ، قلت : لا .

ثم قال : « فإذا كان علم الفقه وعلم الحديث في كل منهما فضول لا حاجة إليه ، فكيف هذا ؟ ولو أن الشعراوي مثلاً استشارنا في تصنيف هذا الكتاب ، كان قلنا له : لا تصنفه . وقد أَجْمَلْنا في رسالة المعاونة ما يتعلَّق بهذه المسألة بما فيه كفاية ، وذَكَرْنَا من الكتب ما فيها تفصيل لها ، وذَكَرْنَا أنه لا ينبغي مطالعة تلك الكتب ، وإنَّ غلط من يقول أنه يفهم أكثر من غلط من لا يفهم ، فاغْطِ الكتاب مولاه وإياك تتصفَّحه ، وقل له : اطْرحه في الخزانة في محلِّه الذي كان فيه » ، فرضي الله عنه ، ما كان أشفقه علينا وعلى كل مسلم في دينه ودنياه ، وفي قلبه وجسمه .

وجلس إليه مبتلى فقير ضعيف الحال ، وهو الوفائي المصري ، فشكى إليه مما هو فيه من الإبتلاء

والفقر ، فقال له سيدنا : « **من ساعة إلى ساعة فرج ، فتزوَّد فيهما من الطاعة ، ومن التقلل من الدنيا** » .

فقال : « وأي دنيا عندي ؟ وما تمنيتها ، ولا طلبتها » ، **قال** : « **أحسن ، وما القل من الدنيا إلا قربة، أوَ ما عليك ذنوب تستغفر منها ؟** » .

قال : « بلى » ، فقال له سيدنا : « **لكن إن أُعطِيتَ من غير سؤال فَخُذْ** » .

قال : « فإن قيل لي أتريد كذا وكذا ؟ » ، **فقال** : « **لا ، إنما هذا مشاورة** » ، ثم الْتَفَتَ إليَّ حفظه الله - قلته حينئذ ، وأقول الآن رحمه الله ونفعنا به في الدارين - وقال : « **وكم من عَطِيَّة بَلِيَّة ، وكم من بَلِيَّة عَطِيَّة . احفظ هذه يا حساوي** » ، وكان ذلك في وقت العصر في الضيقة ، لخروجه للصلاة يوم الثلاثاء ٤ محرم سنة ١١٣٠ .

ودعاني بعد إشراق يوم الأحد ٦ محرم المذكور ، لأصحِّح عليه القصيدتين التي أولها : « **بروق الحمى وقت السحير تلوح** » ، والتى أولها : « **خليليَّ إن الشوق قد كاد أن يبلي** » ، حَدَثَانِ نَظْمَهُمَا ، فلما صافحته وكان عنده ابنه الفاضل الحبيب حسين جالساً فقط ، **فقال** : « **أنت اجلس هنا ، وخلِّ الحاج يجلس هنا** » ، يعني حيث كان الحبيب حسين جالساً . وكان لا يسميني ولا يدعوني إلا بالحاج ، وما أذكُر ذِكْره لي بالحساوي إلا في الكلمة التي مَرَّت قريباً .

فلما جلست في مكان ابنه حسين ، التفت إليه يخاطبه **فقال** : « **أحب إلينا أن نقول له : يا حاج ، ولا نقول له : يا فقيه . لأن فقهاء الزمان ما عاد فيهم خير ، وأيضاً ليس الفقيه إلا كما قال الحسن البصري : وهل رأت عيناك فقيه قط ، إنما الفقيه ..**(1)**، ثم إنهم اليوم تعدّوا بِفِقْهِهِم وتجرّوا به على محرمات وأمور منكرات ، وحِيَل في أمور باطلات** » .

وطَوَّل الكلام في هذا ، ثم انجرَّ الكلام إلى أن **قال** : « **طباعكم يا أهل تلك الجهة قاسية قوية ، ولعل منكم من ربيعة ذلك الرجل الأعرابي الذي جَذَبَ النبي ﷺ بردائه ، ولكنك أنت فيك جفاء مع محبة ، وأما فلان ففيه جفاء بلا محبة ، لأنه مدعي بنفسه أنه شيخ من آل فلان ، والخيبة** » .

أقول : أي برؤية النفس .

وقوله : « **جفاء** » ، أي يُبْس طبع ، خِلقة ربانية .

وذِكْره الفقهاء على وجه العموم ويريد به الخصوص ، فمن هو على الوصف على ما بَيَّن ذلك في

---

(١) فراغ في الأصل .

بعض الكلام .

وبعد ما قال : « **طباعكم يا أهل الجهة قاسية قوية** » ، قلت : نعم ، ذلك كذلك، عسى ببركاتكم يزول عن الجافي الجفاء لمخالطته لأهل الصفاء ، قال : « **نعم ، ولكن يحتاج إلى رياضة وتهذيب للنفس، وما تترك وما تريد ، وتمرن على الشيء بكرهٍ واختيار ، ولعل ونحن طبوعنا من قديم قد أدركنا ناساً ربّونا وهذّبونا** - يعني مشايخ - **وكذلك أهلنا ربّونا ، فصرنا مُهَذَّبين لأجل التربية** » ، يعني فيحتاج من يريد تهذيب نفسه إلى مربٍّ ومهذِّب .

قال : « **ونحن من الأصل ، وإن كان قريش فيها قوة طبع وقساوة ، ولكن لمخالطتهم الناس ومجيهم إليهم كل عام ، وسقايتهم للناس وإطعامهم ، ألف بينهم وبينهم ، وصاروا معظَّمين عند كل العرب ومحترمين** » ، ثم سألته الدعاء بالهداية .

وذَكَرَ جماعة كانوا صَحِبُوه ، قال : « **فلان وفلان ، وكان فيهم من قوة الطبع أكثر منك ، وكنا أردنا أن نجعل ابن أسعد نقيباً على الفقراء ، لكن لما رأينا قوة طبعه تركناه** » ، حتى ذكر الشيخ حسين بافضل: « **وإنه كان قوي الطبع ، لكنه صوفي ومتعلّق ، حتى نَزَّل نفسه لنا منزلة الخادم ، مع ظهوره عند الناس ، فجعلناه نقيباً** » .

وساق قصة سفره إلى مكة بتمامها : « **وإن حسين بافضل رأى كراريس علقناها من خرجنا من تريم إلى مكة ، فلما رآها بكى وقال : أظن أنكم ستذكرون أنكم نزلتم عندي ، وأنكم معي كذا وكذا ، فبالله عليكم ، لا تذكروني بشيء . فاتفق أنا من بعد ذلك ما علقنا شيئاً** » .

ثم قال لنا يوماً ، وكنت أنا وإياه جالسَيْن وحدنا ، وما معنا ثالث إلا الله ، قال : « **قال لنا حسين بافضل : إن بَدَتْ لكم حاجة أو أردتم سَلَف ، الحذر ما تحكون لي** » ، يعني لا تستقضون من أحد حاجة إلا من عندي .

قال : « **فقلنا له : إن بدت حاجة تُطلَب من الخلق ، فأنت أولى بها وقدنا في بيتك وإن قضى الله الحوائج فما بقي لنا كلام** » ، ثم قال لي : « **اعلم هذا واعمل عليه** » .

يعني أنه سيقول لك رجل ، مثل ما قال لنا حسين بافضل ، فقل له مثل ما قلنا لحسين ، يعني من قوله : « **إن بدت حاجة تطلب من الخلق .. إلخ** » ، وهذا قبل وفاته بمدة أظن نحو عشر سنين . فحين ما وصلت الأحساء بعد وفاته بنحو سنتين، أُقسِم بالله لقد قال لي مثل ما قال له حسين ، قال : « بالله عليك ، وبروح حبيبك عبدالله ، إن بدَت لك حاجة أو أردتَ سلف ، لا تطلب حاجتك إلا مني ، ولا تتسلَّف إلا من عندي » ، لكني ما فهمت الإشارة إلا بعد نحو خمسة وثلاثين سنة ، قبل وفاة الرجل

بنحو خمسة أشهر ، ثم سِرْتُ إليه إلى بيته ، فأخبرته بالقصة ثم قُلتُ له ، ما قاله لحسين . وهذا من بعض إشاراته العجيبة نفع الله به .

ثم قال : « **أين نسختك من كتاب الفصول العلمية نشوفها ؟** » ، قلت : البارحة استعاره مني السيد محمد بن سميط ، *فقال* : « **ما يعرفه ، خُذْهُ منه بلا جفاء ، ولا تَحكِ له أنَّا با نزيِّد فيه ، وقل له : لا تطالع فيه ، اجعل مطالعتك في الديوان ، فإنهم أَوْدَعُوا فيه أسرار وفوائد لا تكون في غيره . ونحن هذه الأشياء قامت علينا بتعب واجتهاد كثير ، وهؤلاء بغوها ألّا بلا شيء ، من غير كَدٍّ ولا تَعَب، ما يربدونها حتى بطريق العدل والإنصاف ، ولو طالعوا كتاباً واحداً من كتبنا وأمعنوا فيه النظر كفاهم** » .

وسأله بعض الفقراء من المجاورين في الحاوي : « ما السبب في أن الإنسان في بعض الأوقات يحس في نفسه نشاطاً للطاعة وداعية إليها ، وفي بعض الأوقات خلاف ذلك يكسل عنها وتميل نفسه »، *فقال* : « **إن كان الباعث على فِعْل الخير من جانب الحق ، بأن شاهد في نفسه أمراً من جانب الحق تعالى، فذلك إلى الله لا مَدْخَل للعبد فيه ، وإلا فهو رجل دنياوي لا قَدْرَ له ، بأن كان إذا تيسَّرت له أمور الدنيا وتوتَّت له ، نشط للعبادة ورغب فيها ، وإذا تعسَّرت عليه وانقبضَتْ عنه أمور معيشته ، كسل واشمأزَّ من الطاعة ، فإن باعثه ذلك باعث دنياوي ، وهو خسيس الهمة . لكن النشاط في الطاعة مليح، وخُذ نفسك بالتي ، كالغريم الظالم ، خذ منه كل ما سمح واتفق ، والنفس ألّا غريم ظالم** » ، أي اغتنم فرصتها إذا رَغِبَت .

وكان يوماً خارجاً من البلاد إلى الحاوي ، وهو يوم الثلاثاء ١٨ محرم سنة ١١٣٠ ، *فقال* : « **النفس تحتاج إلى الترويح والفسحة ، لِتَسْتَجِم ويقوى الإنسان وينشط للخير ، ولو كان دائماً** - أي دائم الكد والإجتهاد - **لملَّت وكسلت عن الخير ، كما قال بعض الصحابة وأظنه معاذ بن جبل : إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، لعلها تساعدني على الطاعة** » ، أو كما قال .

فقلت : لكن النفس فيما يلائمها تعتاده بسرعة ، ولو كان في أمر خير وطاعة لم تَأْلَفه وتعتاده إلا بمَشَقَّة ، *فقال* : « **نعم ، لأنه خلاف طبعها ، والأصل فيها الهوى وخلاف العمل بالطاعة واتباع الشهوات ، فإذا جاء خلاف ذلك كان غير مستقل، حتى يعتاد ويثبت . وإذا غلبت النفسُ العقلَ كان الحكم لها ، وإذا غَلَبَها العقلُ كان الحكم له . والنفس والعقل كالرجل مع المرأة ، فإذا كان الرجل تابعاً للمرأة في كل ما تريده ، كان التدبير تدبير امرأة وبالعكس ، ولن يفلح قومٌ ولّوا أمرَهم امرأه .**

وأخرج الله النفس للإنسان من نفسه عدوًّا ضارًّا - أو قال : **قريناً ضارًّا** - **كما أخرج حواء من آدم ،**

فصارت هي عليه سبب الشر ، حتى قيل : إنها سَقَتْهُ الخمر ، حتى أكل من الشجرة . والإنسان ولو قد خرج من أَسْرِ نفسه بالرياضة والتهذيب فيحتاج أن يتعهَّدها ولا يغفل عنها ، وقد ذَكَرَ الإمام الغزالي في رسالته إلى الفتح الدمشقي ، أنه فَتَّشَ عن حال نفسه ، وتقصَّى عن حالها ، وكذلك الذي طَلَبَت منه نفسه الجهاد » ، أو كما قال هـ .

أقول : ذَكَرَ الإمام الغزالي في تلك الرسالة ، أن الفتح سأله أن يَعِظَه فقال له : « لست أرى نفسي أهلاً للوعظ ، لأن الوعظ زكاة نصابه الإتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يُخرِج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وقال النبي ﷺ : تركت فيكم واعظَين : ناطقاً وصامتاً ، أما الناطق فالقرآن ، وأما الصامت فالموت . وفيهما كفاية لكل مُتَّعِظ ، فمن لا يَتَّعِظ بهما كيف يَعِظ غيره ؟ ولقد وَعَظْتُ نفسي بهما فَصَدَقَتْ وَقَبِلَتْ عَقْداً وقولاً ، وأَبَت وتَمَرَّدَت تحقيقاً وفعلاً»، ثم قال : « فقلت لها وقالت له ، ثم طال تفتيشي عن سبب عدم قبولها ، حتى وقَعْتُ على سببه، وهو اعتقاد تراخي الموت واستبعاد هجومه على القُرْب ، فأوصيه ونفسي بما أوصى به رسول الله ﷺ حيث قال : صلِّ صلاة مودِّع .

ولقد أوتي جوامع الكلم وفَصْل الخطاب ، ولا يُنْتَفع بِوَعْظٍ إلا به ، فمن غلب على ظنه في كل صلاة أنها آخر صلاته ، حَضَرَ معه قلبه ، وتَنَبَّهَ للإستعداد بعد الصلاة ، فإن عجز عن ذلك ، فلا يزال في غفلةٍ دائمةٍ ، وفتورٍ مستمرٍّ وتسويفٍ متتابع ، إلى أن يدركه الموت ، وتهلكه حسرة الفَوْت . وأنا مقترحٌ عليه أن يسأل الله تعالى أن يرزقني هذه الرتبة ، فإني طالب لها وقاصر عنها ، فأوصيه أن لا يرضى من نفسه إلا بها ، وأن يحذر مواقع الغرور فيها ، فإذا واخذتَ النفس بذلك ، طالِبْها بموثقٍ غليظٍ من الله ، فإن خداع النفس لا يقف عليه إلا الأكابر » ، انتهى ملخصاً من رسالته المذكورة .

وأما الذي طَلَبَت منه نفسه الجهاد ، فإنه ما وثق بها في طلبها الجهاد ، فتوقَّف مدة وهي تدعوه إليه وتحظُّه عليه ، وهو يسأل الله أن يوقفه على ما قَصَدَت به ، ويقول : « يا ربِّ ، أوقِفْني على مقصودها، فإن النفس لا يوثق بدعواها » ، فظهر له منها أنها تقول : « إنك كل يوم تقتلني مراراً ، لمخالفتك لما أهوى ، وإني إذا سِرْتُ إلى الجهاد قُتِلتُ مرة واحدة ، واشتهر عند الناس أني جاهدتُ في سبيل الله وقُتِلتُ في الجهاد شهيدة » ، فأرادت الرياء بذلك بعد الموت .

أقول : فهذه شأن النفوس المجاهدة ، فما بالك بالنفوس المهملة ، وهذه نفوس الصالحين ، فما بالك بنفوس الطالحين القامحين هـ .

قال رضي الله عنه : في قولهم : « إذا ضاق الأمر اتسع » : « هو أن الله هو الذي يضيقه ، ما هو أنت، فإذا ضيقتَه من حيث الأعمال ، فاذهب إلى أهل العلم يعرِّفونك . وقولهم : فيها أفلاك . يحذفون الكلمة، ومعناها فيها أفلاك دائرة ، يعني تدور عليك بما تحب ، بعدما كنت فيما تكره . وقد قال بعضهم في المعاملات : معاملة الحق بالحقيقة والسنة ، ومعاملة الخلق أيضاً بالحقيقة والسنة. ومثَّلوا الذلك بقصة صاحب الدَّين الذي جعله لغريمه في الخشبة ورماها في البحر ، ثم بعد ذلك سافر له بدَينه ، فهذا عمل بالحقيقة والشريعة - أي فمن حيث اعتمد على الله في وصولها إليه وطاب خاطره - فوصلت معاملة بالحقيقة ، حتى إنه لما طلب منه كفيلاً قال له : الله كفيل ، قال : رضيت ، ثم طلب شهوداً فقال : كفى بالله شهيداً ، قال : رضيت . ومن حيث وصوله إليه بحقِّه معاملة بالسُّنة ، إذ لا يكفي الأول في ظاهر الشرع لتوقفه على إقرار منه ، أو بيِّنة بالوصول ، ومعاملة الحق بالحقيقة فقط . ومثَّلوا له بأصحاب الغار الثلاثة في انطباق الصخرة عليهم ، يعني لا سبب لهم في إزاحتها إلا التوسل إلى الله بصالح أعمالهم، فأزاحها الله عنهم . ومعاملة الخلق بالسنة ، وأما الذي يعامل الخلق بالظلم ، فلا تبالي بما يقع له ، فإنه لا يموت مستوراً بحال ، لتهاونه بأخذ أموال الناس » هـ .

وقد اختلفت فيه أفهام الجماعة ، وهذا على ما فهمته .

وذَكَرَ من مجاهدات الأكابر الذين سلفوا ، كالشيخ أبي بكر بن سالم ، فقال : « كانوا يترصَّدون لملئ الحيضان في الليل حتى لا يراهم أحد ، ويقومون الليل بالصلاة والتلاوة ، ومرادهم بهذه الأشياء كلها وَجْهُ الله تعالى ، فيخفونها عن الخلق » .

فقلت له : فما هذه الهمة التي كانت لهم أعطاهم الله إياها ؟ ، فقال : « بهذا حصل لهم ما حصل، أوَ أعطاهم الله ذلك بلا تعب ؟ أوَ يجلسون جالسين ويطلبون ذلك؟ كان سَوَّى الله بين الناس ، ولم يتميَّز أحدٌ منهم على أحد » .

فقلت : إنه تعالى قد أعطاهم هذه الهمة العظيمة ، فبها سبقوا غيرهم ، فقال : « عرفوا الحق فطلبوه، لأن من عرف ما يَطلب هان عليه ما يَبذل » .

وذَكَرَ يوماً الأعمال - وهو ضحى يوم السبت ١٥ رمضان سنة ١١٢٤ - واحتياج الإنسان إلى فِعْل الخيرات ، فقال : « الجَدُّ في الجِدِّ والحرمان في الكسلِ ، وإن اللهَ لا يترك المؤمن في الخير من إحدى همتين : إما همة العادة ، أو همة الفتوح . فهمة العادة : أن يكون يعتاد شيئاً من الخير ، فهو يفعله ويهتم له لاعتياده له . والثانية : يعرفها من حصلت له ، وقد جاء في الحديث : إن الخير عادة » .

فقلت : إن همة العادة ناقصة بالنسبة إلى الأخرى ، *فقال* : « **لا ، إذا لم تحصل لك تلك فلا تترك نفسك ، بل كلِّفها واحْمِلْهَا بالتكلف لتعتاده ، وقد يحصل للإنسان شيء من همة الفتوح ، فإذا باشَرَ مفسداتها فسدت** » .

فقلت : وما مفسداتها ؟ *فقال* : « **مجالسة الغافلين ، وفضول الكلام ، وأكل الحرام ، والكذب وأمثال هذه الأشياء . ولها أركان إن حَصَلَت استَقَامَت وثَبَتَت ، وإلا ذَهَبَت وانْمَحَقَت** » .

فقلت : وما ذاك ؟ *فقال* : « **أكل الحلال ، ومجالسة الصالحين ، والذِّكر ، وترك الخوض فيما لا يعني** - أو قال : **فيما لا ينبغي** - » .

قال : « **من لا يعرف قواعد الصوفية ، يظن أنه تُفَاض عليهم العلوم كذا بلا شئ وهم جلوس . لا، بل لا بُدَّ من الإقامة بالكتاب والسنة أولاً ، ثم يفتح الله بعدُ عليهم بها ، وهي - أي علومهم - علوم عين اليقين ، بعدما تنظَّفَت قلوبهم من المذمومات وتحلَّت بالمحمودات ، وهو حاصل من الإقتداء بالكتاب والسنة ، وهو معنى المجاهدة التي وُعِد عليها بالهداية ، فَمِنْهُ تحصل العلوم اللدنية ، ومَن جعل ينتظر من غير اتِّباع لهما ، من أين يحصل له ذلك ؟ وقد كانوا يحصل لهم من الأنوار والعلوم والمعارف ما لم يعبر عنه ، وأما اليوم فقد تغيَّرت القلوب من أكل الحرام والشُّبَه** » هـ .

أقول : أي مما حصل من أكل الحرام والشُّبَه ، من ذلك الأثر الذي ذَكَرَهُ كما تقدَّم تفصيله إن لم يعلم بالحرمة ، فإن علم بها حصل عليه من ذلك الأثر أضعافاً مضاعفة مع الحرمة والإثم ، بسببها الذي سَلِمَ منه من لم يعلم بها ، ثم لم يَسْلَم من الأثر ، فأنَّى يحصل له ما حصل لأولئك الذين لم يأكلوا الحرام والشُّبَه ، من الأنوار والمعارف والعلوم اللدنية ، وهم الذين كانوا في الأوقات الصافية التي يغلب فيها الحلال ، بخلاف هذه الأوقات الكدرة المظلمة التي الغالب فيها على أهلها أكل الحرام ، وليس للحلال فيها ذِكْر ولا أثر ، ونَبَتَتْ لحومهم على الحرام ، وصارت النار لذلك أولى بها ، وصار ذو التقوى فيها كالمضطر الذي يأكل ما لا يحل فيها للضرورة ، كأكل الميتة لِسَدِّ الرَّمَق ، فالله المستعان. فمن أين يحصل لهم من المعارف والعلوم اللدنية مثل ما حصل لأولئك ؟ ولذلك عُدِمَت فيه همة الفتوح المتقدِّم ذِكْرها .

وإذا أردتَ تميُّز بين أهل وقتك وأهل الأزمنة المتقدِّمة ، فانظر الفرق بين سير علماء وقتك وبين سير علماء تلك الأوقات ، فإن العلماء هم خلاصة أهل الأزمنة فلا يذكر من سير علماء الأزمنة الماضية إلا الزهد البالغ في الدنيا ، وقوة الإيمان والتقوى والإخلاص الكامل لوجه الله ، والإقبال على الله بكُلِّيَّتِهِ بظاهره وباطنه . وأما علماء وقتك ، فلا تسمع من سيرهم إلا الإعتناء بجَمْع الدنيا والحرص

البالغ عليها ، وقلة تقوى الله في تحصيلها ، والمزاحمة على الوظائف ، وأثلاث الموتى وتولي أموال الأيتام لطلبها ، ولا يقومون بما يلزمهم فيها في دين الله ، فأين تقيس الزَّبَّالة إلى الملوك ؟ فأنَّى يحصل لهؤلاء ما يحصل لأولئك مما ذَكَرَ من الأنوار والعلوم اللدنية والمعارف ؟ فهذه أحوال العلماء ، فما بالك بغيرهم ؟

وذو التقوى الذي يأكل لله ويلبس لله ، ويفعل ما يفعل من المباح للإستعانة به على أمر الله ، مع قيامه بحقوق الله ، عزيز نادر . وقد وَرَدَ في من يأكل بنية التقوِّي بحسب الإضطرار حديث : « لو كانت الدنيا دماً عبيطاً ، لكان قوت المؤمن منها حلالاً » ، لأن المؤمن الكامل الإيمان لا يأكل إلا للضرورة ، لا للتَّشَهِّي ، وبنية الإستعانة به على العبادة ، فيكون أكله حلالاً على كل حال ، أي أنه كان حلالاً في نفسه أو حراماً أبيح للضرورة ، فحُلَّ لإباحته . بل لزم استعماله للقاعدة المطَّردة في الدِّين : « إن كل ما كان حراماً ثم أبيح لسبب ، وجب استعماله » ، فافهم هذا .

ومراده بالمؤمن في هذا الحديث المذكور الكامل ، المتقيِّد بالشريعة كما هو وَصْف غالب أهل الأزمنة المتقدِّمة من علماء وعامة ، لا المؤمن الناقص ، الذي لا يتَقَيَّد بالشريعة ، كما هو غالب أهل هذه الأزمنة المتأخرة من علماء وعامة . وقد سمعت هذا الحديث المذكور من سيدنا مراراً كثيرة ، وذكر معه المعنى المذكور . وآلة التعريف في الحديث للعهد ، أي المؤمن الكامل المعهود ، وهو المؤمن الكامل الإيمان ، وهو المراد بالمؤمن حيث أطلق ذِكْر المؤمن في الكتاب والسنة . إذ لا يأكل للضرورة والإستعانة بذلك على العبادة إلا المؤمن الكامل الإيمان ، وأما الناقص الإيمان فإنما يأكل للتَّشَهِّي وطلب حظوظ النفس، ولا تخطر نية الإستعانة به على باله . والدليل على أن المراد به الإيمان والمؤمن في الكتاب والسنة، ذو الإيمان الكامل وإيمانه ، قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ﴾، أي الكاملوا الإيمان الموعودون بما ذكر بعد ذلك من قوله : ﴿ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾، إذ ليس كل مؤمن على هذه الأوصاف المذكورة في هذه الآيات ، وكذلك قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، وليس كذلك كل مؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فالمراد لا يؤمن أحدكم إيماناً كاملاً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وإذا لم يكن كذلك في ظاهره بالكتاب والسنة وفي باطنه ؛ فلا يكون على هذه الأوصاف المذكورة في قول الله سبحانه ، وفي قول رسوله ﷺ .

وكان علماء الأوقات الماضية في ذلك على أكمل وجه ، ثم نقصوا عن ذلك إلى دونه ، ومن بعدهم إلى دون ذلك ، وهكذا إلى وقتك هذا ، فلا ترى على هذا الوصف متحقِّق به إلا إن كان أحد تُخْفِيه الله برداء الغيرة عن أن يطلع عليه الخلق ، ويكون على سريرته بينه وبين ربه ، كل ذلك لتغيُّر الزمان بعموم

الحرام . وقد رأى الشيخ أحمد بن عبدالقادر باعشن صاحب الرباط من بلاد دوعن ، وكان من أهل الحقائق ، وطريقته شاذلية أَخذَها عن بعض المغاربة ، وكان مجاوراً في المدينة المشرفة مع جماعة من أهل بلده ، فاجتمع به فيها وأخذ عنه وفتح الله عليه ، ورأى أنه وقع سيلٌ من دَمٍ طَبَّقَ الأرض كلها ، فترفَّع هو وأصحابه فوق تلٍّ مرتفع، فَسَلِمُوا منه وما أصابهم منه شيء . فأخبر شيخه بالرؤيا فقال له : « من أين تأكلون في بلادكم ؟ » ، فقال : « لنا أراضي في بلادنا نرثها عن آبائنا عن أجدادنا ، فإذا جاءها السيل حرثناها فأكلنا مما حصل لنا منها » ، فقال له شيخه : « تأويلها أن الحرام قد طَبَّقَ الأرض كلها ، وأنتم تأكلون حلالاً » ، أو كما قال له .

وقول سيدنا : « **بل لا بُدَّ من العمل بالكتاب والسنة أولاً ، ثم يفتح الله بعد عليهم** » ، هذا هو معنى قوله المتقدم : « **يحصل العلم من وجهَيْن : إما من الفهم ، أو من العمل** » ، فهذا هو الذي من العمل - أي من العمل بالكتاب والسنة - الذي عناه النبي ﷺ بقوله : « من عمل بما يعلم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » ، أي علَّمه علم الوراثة الذي هو العلم اللدني الذي علَّمه الله الخضر حيث قال : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝﴾ .

ومقالة سيدنا هذه من قوله : « **من لا يعرف قواعد الصوفية** » ، إلى قوله : « **وأما اليوم فقد تغيَّرت القلوب من أكل الحرام والشُّبَه** » ، هو الذي كنت قرأته من كلام مجالسِهِ على شيخنا الشيخ الزين بن صديق المزجاجي صاحب التُّحَيتا من أعمال زبيد اليمن ، قرأته عليه في مجلسه لأُسْمِعَهُ شيئاً من كلام سيدنا عبدالله في مجالسه ، وظننتُ أنه يستحسن نَقْلي لذلك ، لكنه لما سمعه تَمَعَّرَ وجهه وتغيَّر ، وقال: « يا ولدي قط لا تنقل كلام المشايخ ، فربما قاله حينئذ للتنفس ولا يحب أن يسمعه أحد ، فاتركه مستوراً ولا تفشه » ، وتكلم في ذلك حتى قام من مجلسه ، وكان جالساً في مسجده ، فلما قام سائراً إلى البيت مشيت معه فقال لي : « يا ولدي ، أنصحك لوجه الله أن لا تنقل كلام المشايخ ، فربما قاله حينئذ لغرض، ثم لا يحب بعد ذلك أن يسمعه أحد » .

فقلت : إن المشايخ قد مضوا لسبيلهم ، وما بقي معنا منهم إلا كلامهم ومؤلفاتهم ، ننتفع بها بعد مماتهم ، قال : « ولو ، وقد كان رجل أتى بكتاب إلى شيخه، وقال : أريد أن أقرأ عليكم في هذا الكتاب، فقال له : اترك الكتاب واقرأني أنا » ، فلما نهاني شيخنا الزين عن نَقْلِ كلام مجالس سيدنا ، فتر عزمي في هذه المدة عن نَقْلِهِ ، مع كثرة من يطلب مني ذلك من أولاد سيدنا وأصحابه ، كالسيد أحمد بن زين الحبشي والسيد عمر البار وغيرهما ، وكانوا قد أوصوني بذلك وحثوني عليه بأقوالهم .

ثم لما وصلت هنا جاءتني كتبهم فيها الحث والتوكيد علي بذلك ، ولم يتحرَّك خاطري لجَمْعِهِ بعدما سمعت كلام شيخنا الزين ، لكن لما وَصَلَتْنا كتب السيد محمد بن زين بن سميط ، وقد سمعت أنه

أَلَّف في مناقب سيدنا عبدالله كتاباً حافلاً سمعت ذلك من كتابٍ وَصَلَني من الحبيب علوي بن سيدنا عبدالله ذَكَرَ ذلك . فانبَعَثَت الهمة لجَمْع كلام مجالس سيدنا عبدالله للسيد محمد إسعافاً له ومعاونة على مؤلفه ، لعل وربما أن يجعل فيه شيئاً من كلام سيدنا ، وقال لي السيد محمد في كتاب: « السلام عليك ، ولا عتب في ذلك لأنك حفظته لنفع الناس ، فأَشْهِره بينهم وأسمعهم إياه ، سيما والحبيب قد أَمَرَكَ بذلك وَعَلِمَ بِنَقْلِكَ له » ، فلما وقفتُ على كلامه ، انبَعَثَت مني الهمَّة لجَمْعِهِ ، فجمعتُهُ وتَتَبَّعتُهُ مما كنت نقلته عن سيدنا حين تلفَّظ به ، فهو يتكلم وأنا أكتب كأنه يمليه عليَّ ، فلهذا تيسَّر لي جمع ذلك على وجهه بلفظه ومعناه ، ولو أني أمهلت نقله بعد ما سمعته منه لحظة ، تفَلَّتَ عليَّ ونسيته ، لكن الله سبحانه أعانني على ذلك كرامة لسيدنا .

ويشمل هذا المعنى قوله لي : « **اكتبه ، وعادك تفهمه** » ، ومرة قال : « **اكتبه ، وعادنا نبيِّنه لك** » ، ولهذا جعلت أكتب معه ما تبيَّنته من معناه ، وأرجو أنه من تَبْيِينِهِ الذي وَعَدَني به ، ومكثتُ في جَمْعِهِ نحو أربع سنين ، أتتبَّعه من أوراق وأقفية أوراق ومن جلود الكتب وغير ذلك ، وأرجو المعونة من الله سبحانه في إتمامه ، والله سبحانه أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والإياب .

وقد ذكرتُ هذا بمعناه في أول هذا النقل ، ثم ذكَرْته هنا لما عرض لي من ذِكْرِ هذا المعنى هـ .

قال رضي الله عنه : « **لا تصلح الخلوة والرياضة في هذا الزمان لعدم شروطهما فيه ، كأكل الحلال وغير ذلك ، ولكن من بنى أمرَهُ فيه على ملازمة الفرائض وترك المحرمات وما استطاع من نوافل ، وأمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكر ، وإعانة ضعيف وإحسان إلى محتاج أو إقامة بمؤنته وما شاكل ذلك وثبت عليه ، حصل له ما حصل لأولئك برياضاتهم وخلواتهم ، وأدرك ما فاته منها** » .

وقلت له : أيُّ عمل يعمل في تقوية القلب كما يعمل تناول الشهوات في تقوية النفس ؟ ، *فقال* : « **اليقين الكامل ، فإن النفس لا تترك الشهوات إلا لخوف مزعج أو شوق مُقلِق** » .

قلت : إذا تأمَّل الإنسان مجيه من أمكنة بعيدة ، وتأمَّل أنه لم يوصِلْه الله إليكم إلا لشيء ؛ غلب على قلبه الرجاء ، وإذا تأمل نفسه وحالته كاد ييأس ويقنط ، *قال* : « **كذلك ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء** » .

قلت : يخطر لي ، لو كان شيء لحصل في الحين ، *قال* : « **لا ، الأشياء مؤقتة** » ، قلت : أنا راجٍ ببركاتكم أمراً كبيراً ، *فقال* : « **يقع ذلك ، إذا وصلت إلى بلادك** » ، وقلت له : ما أعز اليقين في هذا الزمان ، حتى يكاد أن يقال بِفَقْدِهِ ، وإني مستبعده على مثلي ، *فقال* : « **كم معك أشياء لا تدري بها وأنت تطلبها ، كما أن الإنسان قد يدور إقليده وهو معه** » .

فكل هذه وغيرها أشياء أكثر منها مواعيد منه رضي الله عنه ترجي الطالب ، وهي مختصة بمجرد إرادة من الله سبحانه كما تقدَّم في قصة العبد حامل الطبل ، والمرجو من فضل الله أن تتم مواعيده ويصدقها ويحققها ولا يخفقها .

وقال رضي الله عنه : « **للشيخ عبدالله بن أبي بكر علينا مشيخة باطناً من غير إسناد وظاهراً بإسناد واتصال إليه** » ، يعني العيدروس نفع الله به .

وسمعت السيد عبدالله بن حسين العيدروس النازل بمدينة شبام ، يحكي لنا هذه الواقعة عن السيد علي بن عبدالله ، قال : سمعت السيد علي بن عبدالله العيدروس - الملقب الصليبية - صاحب سورت قال : كنت أنا والسيد عبدالله الحداد إخواناً في الله ، وبيننا صحبة أكيدة ، وكنت أزور معه التربة كل ليلة ويقبض بيدي حتى كان ليلة عوَّل كثيراً على زيارة التربة ، وأنا فَتَرَت هِمَّتي عن الزيارة، فعالجني على الزيارة معه تلك الليلة فامتنعت ، فزار وحده وقال : « **لأشكينك عند الشيخ عبدالله بن أبي بكر** » ، فشكاني عنده وقال : « **يا شيخ عبدالله ، أشكي عندك إبنك السيد علي ، إنه أبى الزيارة معي وتركني وحدي** » ، قال : فكلَّمه الشيخ عبدالله من التابوت ، ومَدَّ له يده وصافحه وتَفَلَ في فمه وأعطاه

الطريقة ، وأعطاه أمانة .

وقوله : « أعطاه الطريقة » ، هو قوله : « **للشيخ عبدالله بن أبي بكر علينا مشيخة** » ، يعني العيدروس.

وقوله : « وأعطاه أمانة » ، هو ما أسمع سيدنا كثيراً يقول : « **عندنا من الشيخ عبدالله بن أبي بكر أمانة ، ما يحملها إلا المهدي** » ، وغير مرة يقول : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، وغير مرة يذكر الأمانة مطلقة غير مقيَّدة بالإضافة ، فيقول : « **عندنا أمانة ما يحملها إلا المهدي أو أربعون من أصحابنا** » ، ومَرَّ ذِكْر ذلك - أي الأمانة- هنا في غير هذا الموضع ، وذَكَرْنَا على ما فَهِمنا أنها مقام القطبية والدعوة إلى الله تعالى، والله أعلم بما أراد بها .

وكان سيدنا مع السيد علي إخواناً وأصحاباً من صغرهما ، حتى عند المعلم لتعلم القرآن ، ثم في طلب علم الفقه عند باجبير وغيره ، ثم في أَخْذِ الطريقة عن المشايخ ، فشيخهما في الطريقة الشيخ محمد بن علوي السقاف نزيل مكة ، ثم لما سافر السيد علي الهند وتوطنها كان المكاتبة بينهما لا تنقطع ، حتى توفي السيد علي ثامن عشر شوال ، ليلة الثلاثاء سنة ١١٣٠ ، فرأى ليلة وفاته رؤيا تدل عليها ، فحكى لنا بها ، وكتبتها وأرَّختها حتى جاءت الأوراق بالتعزية فيه في جماد الآخر ، وذَكَروا أن وفاته بالتاريخ المذكور في الرؤيا .

قال : « **رأيتُ البارحة كأنَّ أعجميًّا دخل عليَّ في الغيلة ، وجلس على سريري هذا ، وجعل يهتف ويقول : الليلة مات القطب ، الليلة مات القطب . وكرَّر ذلك كثيراً** » ، ومات صبيحة الرؤيا رجل من آل العيدروس وقال سيدنا : « **ما تصدق عليه الرؤيا** » ، فلما جاء خبر موته أَخَذَتْهُ الوحشة ، فما يجلس مجلساً قط إلا ويطنب في ذِكْرِه ، وقال : « **صَدَقَت عليه** » ، والمراد بالقطب في الرؤيا : الكامل في العبادة . فتصدق عليه إذ ذاك ، وأقرَّ له سيدنا بذلك لذلك، وأما ذلك المقام المعلوم فهو مقام سيدنا ، لا يزاحمه فيه أحد قط كما حقَّقناه عن أهل الكشف وأهل العلوم اللدنية .

وسألته يوم الأحد ١٣ صفر سنة ١١٢٤ ، وكنا معه جالسين في بستان الليمة بالسبير ، عن كلام تكلَّم به في مجلس القراءة بالحاوي في الداعين إلى الله : القطب أو من ينوب عنه .. إلخ ، *فقال* : « **القطبُ إذا لم يتأهَّل للظهور في الدعوة إلى الله ، يستنيب من فيه أهلية لذلك ، وذَكَرْنا كلام الشعراوي وهو ألَّا فيمن كان شيخاً ومعه تلامذة ، وجاء آخر ومعه تلامذة كذلك ، ودعوتهم مختلفة فيدعون - أي الداعون - القطب أو من ينوب عنه ، لأنه باغ معترِض ، ولهذا لا يجوز إمامان في وقت واحد ، وإن كان قصدهم كلهم الدعاء إلى الله ، فيسلِّم أحدهما الأمر للآخر ، ويصير تابعاً له** .

حتى إن بعض الداعين إلى الله من مشايخ مصر ، يقال له : الحسن ، أتاه شيخ يقال له : يوسف ، وكلاهما على الطريقة ، قال الحسن ليوسف : إما أن تكون تابعاً لي ، وإلا أنا أكون تابعاً لك . فاختار الحسن أن يكون تابعاً ، فبقي كأنه من تلامذته .

وحكي إن موسى عليه السلام لما كثرت عليه بنو إسرائيل وتدافعوا على بابه ، سأل الله أن ييسِّر له من يدعو إلى الله معه ، ويعينوه على ذلك ، ويخِفُّوا من تزاحمهم عنده ، فأوحى الله في تلك الليلة إلى مائة أو مائة وعشرين ، فكان هؤلاء أنبياء ، فتفرَّق الناس عنه حتى لم يبقَ عنده منهم أحد ، واجتمعوا على أولئك الأنبياء ، فلما رأى ذلك غار فدَعَا عليهم ، فماتوا كلهم في ليلة واحدة .

ولما بعث الله إلى موسى عليه السلام ملك الموت لِقَبْضِهِ ، ثقل عليه الموت ، فأوحى الله إلى يوشع بن نون فنُبِّيء ، وقال الله تعالى ليوشع : لا تُعلِم موسى بأنَّا أوحينا إليك ، فرأى موسى عليه السلام كأن الله أوحى إلى يوشع ، وأمره أن لا يعلمه ، فلما أتي يوشع إلى موسى سأله موسى : بماذا أوحي الله إليك ؟ فأبى أن يعلمه وقال له : أما كان يوحى إليك قبلي فلا تعلمني بما أوحى إليك ولم أسألك عنه، فَلِمَ تسألني ؟ فقال موسى : أما الآن فلا طيبة لي في الحياة .

ونحن إذا رأينا من يدعو إلى الله على الطريق العامة ويعلِّم الناس ، وإن لم يكن صَحِبَنا ، نفرح بذلك. وإنما نتكلم على من يدَّعي أنه من أهل الطريق الخاصة ويرى أنه من أهل الباطن ويدعو إلى ذلك، فننظر إن كان حقًّا ما يقول فيسلِّم لمن هو أكمل منه ، وإلا كان مفتتناً ، وإن قدرنا على مَنْعِهِ مَنَعْنَاه.

وقد جاء رجل من جماعتنا - أي من السادة وهو عبدالله بلفقيه - جاء من الحرمين ، ومعه إجازات من جملة مشايخ ، وقال : اجتمعت بفلان وفلان . وجاء إلى تريم يريد يصير صاحب طريقة ، وبقي يتلقط الذين قد صحبونا . فقلنا له : إن هؤلاء قدهم مربوطين ، فخذ ممن لم يصحبنا ولم يجتمعوا بأحد. فبقي على ذلك ، فرأيت في النوم كأني خارج من مسجد الهجيرة إلى الطريق وهو ضيِّق ، وإذا بالشيخ محمد بن علوي صاحب مكة قائم في الطريق ، وذلك الرجل ومن معه قائمين في جانب الطريق ، فقال لي السيد محمد بن علوي : أنا أمر وأنت مر بعدي . فمَرَّ السيد محمد ومَرَرْتُ بعده ، ولم يمر أولئك وبقوا ، وبعد هذه الرؤية ما استقام لذلك الرجل أمر ، فرجع يقرِّي في الفقه .

ونحن ما بيننا وبين الناس شيء ، ومن يدعو لنا في جميع أقطار الأرض ويحبونا أكثر من الذين يبغضونا ، لأنا ما نازعناهم في شيء من أمور الدنيا ، ولا طلبناهم أموالهم » .

وتكلم كثيراً ، *ثم قال* : « أمسكوا الحبل بطرفيه لِيَمْتَسِك لكم الأمر ، وإن أخذتوه بطرف واحد انتثر عليكم » ، أو كما قال . هذا ما أدركناه من جملة ما تكلم به في هذا المجلس المبارك .

وقوله المتقدم : « القطب إذا لم يتأهَّل للظهور ، يستنيب من فيه أهلية » ، الأهلية سبق القضاء من الله له بذلك ، يعني ما كتب الله له نصيباً فيه ، والذي فيه أهلية ومن له فيه نصيب ، بأن كتب له هـ .

قال رضي الله عنه : « **خُذْ ما سَهُل عليك** - أي من العمل - **وأَحْكِمْه ، ثم تَرَقَّ إلى أعلى منه ، وهكذا الأول فالأول ، وتَرَقَّ من درجة إلى ما هو أعلى منها ، ولو فعلت بعضاً من هذا وبعضاً من هذا، لبقي كلٌّ منهما محجوزاً ناقصاً ، ولكنك تِمَّ الأول ، ثم ارجع إلى الثاني وهكذا . وخذ من العمل ما تطيق ويمكنك المداومة عليه ، ولا تُكثِر حتى تَمَل ، فتفعله حينئذ مع الملل والتكلف ، فإن هذا وَصْف المنافقين، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، فذمهم بالفعل مع الكسل لا بعدم الفعل ، ولا تقصِّر بحيث لا تعمل شيئاً ، فإن الله ما كلَّف العبد بشيء إلا وجعل له من المعونة أضعافه . ونحن وإن لم نُحكِم كل المقامات بالعمل ، فنحكِمها بالعلم ، ونعمل بعمل العامة ، ونأخذ الناس بأعمال العامة على ما سهل عليهم وتيسَّر أولاً ، ثم نرقِّيهم ونأمرهم بما يناسبهم أولاً ، ثم إلى أعلى منه ، وبهذا السبب تبعنا ناس كثير ، أكثر ممن اتبع المشايخ ممن مضى ، لأنَّا نعلم ضعف الناس اليوم وعجزهم ، ولو كلَّفناهم أن يعملوا بما نعلم** - أو قال : بما نريده منهم - **لنفروا عنا بمرة . انظر إلى عمر بن عبدالعزيز، لم يساعده زمانه على الكلام الذي قاله له ابنه عبدالملك ، وهو في القرن الأول ، أفيساعدنا على ذلك زماننا هذا ونحن في القرن الثاني عشر ؟ وهذا هو الذي منعنا من الكلام في هذه العلوم ، لأن الكلام فيها يؤيِّسهم، وهل يحاول الغزل المبلول إذا اشتبك بما تحاول به الحبال القوية من القوة؟ لا ، بل باللطف والسهولة، فخذ من العمل ما خَفَّ وسَهُلَ عليك ، ثم ترقَّ من شيء إلى شيء ، فسيروا إلى الله عرجاً ومكاسير**»، انتهى كلامه في هذا المجلس المبارك ، وكان كلامه هذا من حين جلس في الضيقة ، خارجاً لصلاة العصر يوم الثلاثاء ٦ شوال سنة ١١٢٦ ، إلى أن قام داخلاً المسجد للصلاة ، وآخر كلمة قالها بعدما وَضَعَ رِجْله فيه : « **فسيروا إلى الله .. إلخ**» بعدما فتح الباب ، وحين ما أدخل رِجْله ووضعها فيه .

أقُولُ : وسمعته غير مرة قبل ذلك يقول : « **لو عملنا بكل ما نعلم ، لعادانا كل شيء حتى ثيابنا التي على ظهورنا** » .

ومراده بالتمثيل بالغزل المبلول إذا اشتبك : يعني إيمان أهل هذا الزمان وعملهم في ضعفه ورِكَّته، وبالتمثيل بالحبال القوية : إيمان أهل الأزمنة الماضية وأعمالهم التابعة لذلك .

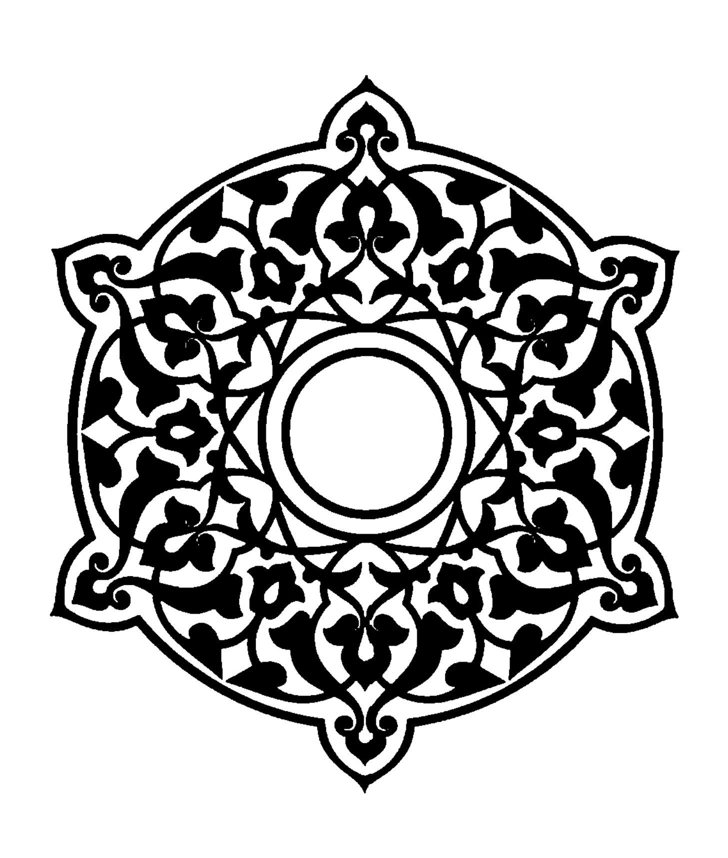
ثم إنَّ كُمَّل أهل الزمان الأول لم يسعهم مع قوة إيمانهم وصلاح أعمالهم وصفاء أوقاتهم ، أن يعملوا ببعض عزائم الدين وإن أمكنهم العمل ، فالأكثر في قوَّته وتمكنه وثباته على قانون الشرع ، كما لم يساعد عمر بن عبدالعزيز العمل بقول ولده بمرة ، حتى حاوله قليلاً قليلاً . وما أشار إليه من قوله

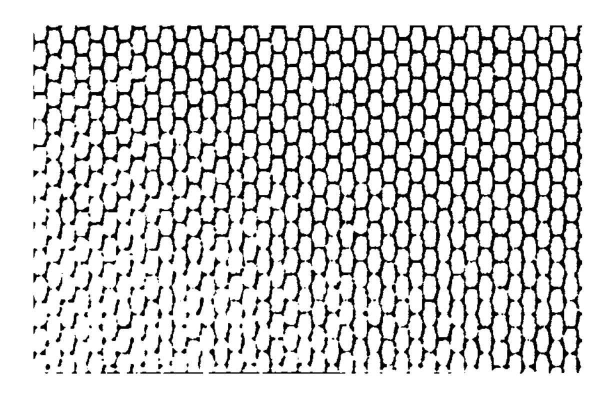
لأبيه هو أنه قال لأبيه : « يا أبتِ ، ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فو الله ما كنت أبالي لو غليت بي وبك القدور في ذلك » ، قال : « يا بني ، إنما أروِّض الناس رياضة الصعب ، إني لأريد أن أُحْيِي الأمر من العدل فأؤخِّر ذلك حتى أُخْرِج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فينفروا من هذا ويسكنوا لهذا»، فمراد سيدنا بذلك ، أنه لم يساعده الوقت والحال أن يمضي لإقامة العدل في الحال ، حتى يخرج معه طمعاً لئلا ينفروا من إقامة العدل ، فإنه ثقيل سيما على نفوس من ألِف الظلم ، كما هو شأن أقاربه وبني عمه ، فيسكنهم الطمع عن النفر . وقد ردَّ كل المظالم التي بأيدي أقاربه بهذه السياسة - التي ألهمه الله إياها - جزاه الله عن نفسه وعنهم خيراً ، وشكر سعيه .

ودخل عليه ابنه يوماً فقال له : « يا أمير المؤمنين ، ما تقول لربك إذا أتيته وقد تركتَ حقًّا لم تُحيِه، وباطلاً لم تُمِته ؟ » ، فقال : « اقعد يا بني ، إن أجدادك خدعوا الناس عن الحق ، فانتهت الأمور إليَّ وقد أقْبَلَ شرُّها وأدْبَرَ خيرُها ، ولكن أرجو أن لا تطلع عليَّ شمس يوم إلا وقد أحيَيْتُ فيه حقًّا وأمتُّ فيه باطلاً ، حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك إن شاء الله » ، وقال عمر لابنه عبدالملك وهو مريض : « كيف تجدك ؟ » ، قال : « في الموت » ، قال : « لأن تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك»، فقال: « والله يا أبتِ ، لأن يكون ما تحب ، أحب إليَّ من أن يكون ما أحب » ، ومعنى ذلك : لأن تموت قبلي فأصبر على فراقك ، فيكون ثواب ذلك في ميزاني أحب إليَّ من أن أموت قبلك ، فتصبر أنت على فراقي، فيكون ثواب ذلك في ميزانك ، فقال الولد : « أحب إليَّ أن يكون ما تريد دون ما أريد » .

ولما توفي الولد عبدالملك ودُفِن ، وضَعُوا عنده خشبتين من زيتون ، أحدهما عند رأسه والأخرى عند رجليه ، ثم إن أباه وقف عند قبره مستقبلاً القبلة ، واستمر واقفاً ، وأحاط به الناس وقال : « رحمك الله يا بني ، لقد كنت بارًّا بأبيك ، والله ما زلتُ منذ وهبك الله لي مسروراً بك ، ولا والله ما كنت قط أشد سروراً بك ، ولا أرى لحظي من الله عز وجل فيك من هذا اليوم الذي وَضَعْتُك في هذا المنزل الذي صيَّرك الله إليه ، فرحمك الله وغفر ذنبك وجزاك ما هو أهله ، وقَبِلَ منك أحسن عملك، ورَحِمَ الله كل شافع يشفع لك بخير من شاهِدٍ وغائب ، رضيتُ بقضاء الله تعالى ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وسلَّمنا لأمْرِه سبحانه ، والحمد لله رب العالمين » ، ثم انصرف هـ .

انتهى الجزء الأول من الكتاب ، ويليه الجزء الثاني وأوله : (قال رضي الله عنه : الطالب الصادق ، يجيء فيأخذ ما يكفيه ..)





أيا طالباً للخير قد فُزتَ بالخير — فقد فاض بحرٌ بالجواهر والدُّرِّ
وقد قذَفَت أمواجه من كنوزه — علوماً تنير الفكر تشرح للصدرِ
أتانا بها الشجَّار من بحر شيخه — إمام الورى الحداد مستودع السرِّ
فإياك والإعراض عنها وهجرها — فما لك بعد اليوم في الجهل من عذرِ
فبادر إليها واغترف من مَعِينها — إذا شئت أن تحيا سعيداً مدى العمرِ

جزى الله خيراً مَن أتانا من الحسا — ليجمع (تثبيت الفؤاد) بلا نُكْرِ
فصوَّر حالات الإمام جميعها — وأعمالَهُ وقت المساء وفي الفجرِ
تشاهد حدَّاد القلوبِ كأنما — تعيش بحاوي الخير في ذٰلك العصرِ
تروحُ وتغدو في مجالسه كما — ترىٰ صُوَراً شتىٰ تفُوق عن الحصرِ
فلازِم لهٰذا السِّفر غُصنْ في بحوره — إذا شئت أن تحيا سعيداً مدى العمرِ

من أبرز مواضيع هٰذا المجلد

تأسيس أمر الإمام الحداد علىٰ أربعة من الأكابر • الأسرار والعلوم المودعة في « الديوان » • دخوله في القطبية • متىٰ يكون بلوغ الأشد وبلوغ الاستواء ؟ • الزواج الأول للإمام الحداد • كيف كانت طريقة الإمام في تفسير الرؤيا لأصحابه ؟ • قصة أبي الطيب المغربي • ماذا يقول في من امتدحه بقصيدة ؟ • كتاب : « الفارق بين المصنف والسارق » • التكرير في القرآن أبلغ من التوكيد • قصة الرجل الغريب الذي جلس في تريم سبع سنوات ولم يجتمع بالإمام الحداد • ماذا قال الإمام لرجل عندما صافحه بعنف ؟ • وصف الإمام الحداد لأولاده الأربعة • مكاتبة الحبيب أحمد بن زين الحبشي للأحسائي • ما الفرق بين المخطئ في الطاعة والمخطئ في معصية • ماذا قال الإمام الحداد لبعض الفقهاء المترسمين ؟ • اقرأ عجائب إِرَمَ ذات العماد • اقرأ قصيدة شيخ الجن • حالة الأحسائي عند وصوله إلى الحاوي لأول مرة • قِصّة الرجلين في مجلسه وتعليمهم أدب الجلوس • قوله : لو لم يأخذ السلف بمذهب الشافعي لأخذنا بمذهب مالك • رحلة السيد يوسف الفاسي إلى الشيخ أبي بكر بن سالم بالتفصيل • من هم العوالق ؟ • ثلاث خصال لا تكون في شريف • لماذا سمي وادي حضرموت بوادي ابن راشد ؟ • كراهة ساداتنا آل أبي علوي للشهرة • قصة باغريب وبنائه للمسجد • وغير ذٰلك كثير .

ISBN: 978 - 9933 - 39 - 085 - 3

